الرفيقان

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٨/١٢/٣٥٦٠)

٦١٥.٥٤
قاسم، موسى يعقوب
الرفيقان/ موسى يعقوب قاسم. - عمان: دار المأمون، ٢٠٠٨.
(١٨٥) ص.
ر. أ.: (٢٠٠٨/١٢/٣٥٦٠).
الواصفات: /الرواية العربية//العصر الحديث/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية.



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com

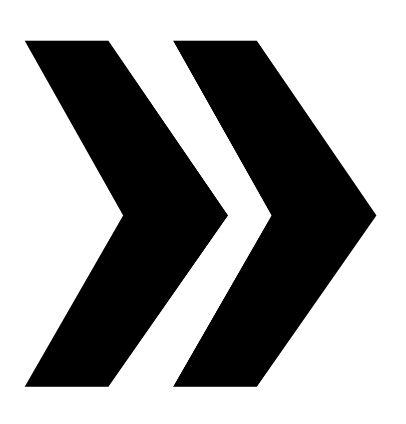
رواية

الرفيقـــــــان

بقلم

د / موسى يعقوب قاسم

دار المأمون للنشر والتوزيع



الإهداء

أهدي هذا العملَ بتواضعٍ شديدٍ
إلى مقامِ "العمِّ" الحاجِّ "محمَّد مدبولي"
صاحبِ دارِ "مكتبةِ مدبولي للنّشر"
القاهرةُ ـــ جمهوريّةُ مصرَ العربيَّةُ
رحمه الله.

مقدِّمةٌ

منذُ ولادتِيَ وأوائلِ سنينِ طفولتِيَ كانَ أكثرُ الأسئلةِ تَحييراً وإحراجاً لِيَ هو ما اسْمِيَ وأصْلِيَ، أيْ اسْمُ قبيلتِيَ. في تِلْكَ الأيّام علمْتُ من إمامِ مسجدِ القريةِ القديمِ أنَّ أصْلِيَ وأصولَ أجدادِيَ، وكما بقيّةُ الأحياءِ الأخرى، تعودُ كلُّها إلى الماءِ!؟. لذلكَ حاولْتُ اقتفاءَ آثارِ آبائِيَ وأجدادِيَ كيْ أحدِّدَ شجرةَ عائلتِيَ، لكيْ أتمكّنَ من مواكبةِ متطلباتِ الحياةِ والمُجتمعِ البشريِّ من حولِيَ. تَطَلَّبَ منِّيَ الأمرُ أنْ أذهبَ بفكرِيَ وذهنِيَ إلى قيعانِ البحارِ والمُحيطاتِ وأنْ أفتّشَ في الواحاتِ والسّبخاتِ وأسائلَ جداولَ الماءِ والمستنقعاتِ، وأنْ أناجِيَ حتى الأقداحَ التي كنتُ أحاولُ دائماً الارتواءَ من مائِها. وما أنْ تقدّمَ بِيَ العمْرُ قليلاً واتّسعتْ عندِيَ دائرةُ العلْمِ والتّفكيرِ والصّحوةِ والفلسفةِ حتى اكتشفْتُ أنّني وأجدادِيَ تمتدُّ جذورُنا جميعاً إلى ما هوَ أعمقُ من ذلكَ وبكثيرٍ، وبشكلٍ يفوقُ قدرةَ الوصفِ والخيالِ البشريِّ. تعودُ جذورِيَ إلى حتى ما قبْلَ عصورِ "البارْيوناتِ والكوارْكاتِ"! الذي سادَ عقِبَ اللحظةِ التي تَلَتْ الانفجارَ الكونِيَّ الكبيرَ، باللغةِ الألْمانيّةِ "الأورْكْنال" (der Urknall)، الذي أدّى إلى نشوءِ الكونِ كلِّهِ. حدَثَ ذلكَ التكوينُ والتطوُّرُ في أتونِ "تنّورٍ" وعلى حرارةٍ كافيةٍ لصهْرِ وإذابةِ وتبخيرِ كافّةِ أشكالِ التعصُّبِ الأنانيِّ والقَبَلِيِّ والفاشِيِّ والعنصريِّ العِرْقِيِّ والشوفينِيِّ. بعدَها عُدتُ ثانيةً لأسألَ إماماً جديداً للمسجدِ الصغيرِ، والذي خَلَفَ الإمامَ القديمَ الراحلَ، إنْ كانَ لديهِ أيُّ علمٍ أوِ معرفةٍ بذلكَ "الاكتشافِ"!؟. أجابَ مبتسماً وقائلاً أنَّ الأمرَ أكبرُ عمقاً وأكثرُ بساطةً وأعظمُ جديّةً من ذلكَ وبكثيرٍ؛ ذلكَ ما جعلني أعودُ بعمقٍ وبساطةٍ وجدّيةٍ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى للاعتقادِ بأنّني كنتُ موجوداً قبلَ ذلكَ العصرِ الكونيِّ، في ذاكرةِ اللهِ أو في "اللوحِ المَحفوظِ". الآنَ أيقنتُ أنّني كنتُ على حقٍّ منذُ بدْءِ حياتِيَ عندَما رفضتُ أنْ أقبلَ أنْ يكونَ أصْلِيَ أقلَّ عراقةً من ذلكَ. أنا، وبكلِّ تواضُعٍ وفخرٍ، وُلدْتُ ورُبِّيْتُ على أنْ أكونَ صاحبَ مَجْدٍ وكبرياءٍ وعظمةٍ ..... حيّاً وبعدَ الفناءِ.

المؤلِّفُ

ميلادُ وطفولةُ وصبا وبدايةُ شبابِ

"حَمَدْ ابن أبو جاسر"

في إحدى ليالي الصّيفِ القصيرةِ، وبعدَ منتصفِ الليلِ بقليلٍ، جاء المخاضُ السّيدةَ "أم جاسر" (جوريّة) لوضْعِ وليدِها الثامنِ والذي أُطلِقَ عليه اسمُ "حَمَدْ" فيما بعدُ. ذهب أحدُ أولادِها البالغينَ لطلبِ المساعدةِ من قابلةِ القريةِ القانونيةِ، الحاجّةِ "محفوظة"، والتي لبّت طلبَ هذه الفلاحةِ المثقلةِ بهُمومِ الأولادِ وكسبِ الرزقِ ومساعدةِ معيلِ الأسرةِ الوحيدِ والمكونةِ من عشرةِ أفرادٍ الآنَ. ما بينَ السّاعةِ الثالثةَ والرابعةَ صباحاً تمكّنتْ هذه الأمُّ الكادحةُ من وضعِ جنينِها والذي تَمَّ وضعُهُ في لُفافةِ قماشٍ (عاميّاً تعرفُ بـ"اللِّفاع") بيضاءِ اللونِ مستعمَلةٍ من قبلُ لأطفالٍ ولدوا قبلَهُ في العائلةِ. عادةً ما يَتمَّ حَزمُ اللِفاعِ بوثاقٍ عريضٍ نسبياً من القماشِ الأبيضِ أيضاً لفترةٍ من الزمنِ من عمرِ الطّفلِ الرضيعِ. وبما أنَّ الموسمَ موسمُ حصادٍ وجَمْعُ القشِّ من الحقولِ، حقولِ القمحِ والشعيرِ والنباتاتِ التي تنتجُ أعلافَ الحيواناتِ، كانت الأمُّ (أم جاسر) تُضطرُّ لتركِ وليدِها كلَّ يومٍ وفي الصّباحِ الباكرِ وتذهبُ إلى حقولِ قمحٍ وشعيرٍ تبعدُ أكثرَ من سبعةِ كيلومتراتٍ عن القريةِ مروراً بأراضٍ وطرقٍ جبليةٍ وَعِرةٍ. تَحْتَ رعايةٍ من بنتِها الصّغيرةِ "زولالة" كانتِ الأمُّ تتركُ لوليدِها قطعةً صغيرةً من حلوى "الراحةِ" ("حلوى الراحةِ" هي صناعة تركيةُ الأصلِ وتَمتازُ بسهولةِ مضغِها وهضمِها ولسنٍّ مبكّرةٍ جداً للمواليدِ الجددِ) موضوعةٍ في طرفِ قطعةِ منديلِ رأسٍ نسائيٍّ أبيضَ اللونِ؛ وُضعتْ في فمِ المولودِ للمَصِّ عند شعورِهِ أو إحساسهِ بالجوعِ، وللتزوُّدِ بالسّكرِ اللازمِ لإبقائهِ على درجةٍ مقبولةٍ من الشبعِ.

مكانُ الولادةِ هو البلدةُ القديمةُ من القريةِ حيثُ يعيشُ ويَموتُ! الإنسانُ والحيوانُ جنباً إلى جنبٍ، وحيثُ يتوحّدُ منامُ الأطفالِ مع مأوى الحيواناتِ التي تتألفُ من بقرٍ وماعزٍ ونعاجٍ وقططٍ وطيورٍ... ومن كلٍّ منها زوجانِ اثنانِ تقريباً!. لا يوجدُ حتى حائطٌ قصيرٌ يفصلُ هؤلاءِ عنْ بعضِهِمْ البعضِ؛ هنالكَ كانتْ الحيواناتُ الكبيرةُ من مثلِ الأبقارِ والحميرِ توثقُ من رؤوسِها أو من أعناقِها أو حتى من أيديها وأرجلِها لمنعِها من أنْ تطوفَ إلى المصطبةِ المخصّصةِ للبشرِ وأثاثِهِمْ و"خوابيهِمْ". لا يوجدُ هنالكَ نظامُ تهويةٍ في البيتِ ولو بشباكٍ صغيرٍ يسمحُ بتهويةٍ كافيةٍ. يَحرسُ البيتَ بابٌ كبيرٌ نسبياً مصنوعٌ من الخشبِ السّميكِ وبهِ سُكّرَةٌ ومفتاحٌ من العيارِ الثقيلِ، ولا يقدرُ أنْ يفتحَ ذلكَ البابَ إلا ربُّ الأسرةِ والبيتِ أو شخصٌ آخرُ من نفسِ عيارِ القوّةِ تقريباً.

تشربُ كافةُ الحيواناتِ من إناءٍ على شكلِ حجرٍ كبيرٍ مكعّبِ الشكلِ كان قد حُفِرَ بهِ فراغٌ يَسْمحُ باحتواءِ الماءِ، تَمَّ وضعُهُ منذُ القِدَمِ خلفَ ذلكَ البابِ الخشبيِّ الكبيرِ السّميكِ. ويشربُ أفرادُ العائلةِ من إناءٍ آخرَ، جرَّةٍ مصنوعةٍ من الفخارِ وقدْ رُبطَ بِهَا

قَدَحٌ (كوبٌ أو ركوةٌ صغيرةٌ) من الألَمنيوم. كانت الأمُّ أو بناتُها اليانعاتُ يَجلبنَ الماءَ الصّالِحَ للشربِ من إحدى اثنتيْنِ من عيونِ ماءِ القريةِ، واحدةٍ تتوسطُ بيوتَ ومنازلَ القريةِ المتواضعةِ والأخرى في أقصى طرفِها الشرقيِّ. في أيام الصّيفِ تشحُّ المياهُ كثيراً، لذلكَ كانت النساءُ تَحصلُ على الماءِ بطريقةِ إدلاءِ دَلوٍ مصنوعٍ من إطارِ السّيارةِ الداخليِّ بعدَ قطعه بشكلٍ عرْضيٍّ وخياطةِ (باستعمالِ مِسَلَّةٍ وخَيطٍ سَميكٍ نسبياً) إحدى طرفيهِ بالمِسَلَّةِ والخَيطِ ويُثَبَّتُ بالطرفِ الآخرِ طرفُ حبلٍ طويلٍ. كانَ الماءُ يُنتشلُ من عينِ الماءِ "لَحسةً" بـ"لَحسةٍ" (لغوياً كلَمةُ "لَحسةٌ" تعني كميةً صغيرةً من الماءِ كافيةٍ لإحداثِ "بللٍ" باللسانِ وذلكَ دليلٌ على شحِّ الماءِ في عينِ الماءِ) في عمليةٍ طويلةٍ ومضنيةٍ قدْ تستغرقُ بضعَ ساعاتٍ في غالبِ الأحيانِ لِمَلءِ وعاءٍ صغيرٍ خاصةً عندَ اشتدادِ الحرِّ في فصلِ الصّيفِ.

كان للطّفلِ "حَمَد" من العمرِ الثّلاثةُ أو الأربعةُ سنينَ تقريباً عندَما حدثتْ أمامَهُ أوّلُ أخطرِ مواجهةٍ عنيفةٍ في عمرهِ آنذاكَ. ثعبانٌ، أحْمرٌ سَميكٌ وقصيرُ الطولِ رشيقٌ، "يُدَحْرِجُ" نفسَهُ أوّلاً في فناءِ البيتِ الخلفيِّ قبلَ أنْ ترصدَهُ الوالدةُ "أم جاسر" وتستنفِرَ كلَّ قواها الجسميةِ والعصبيةِ والصّوتيةِ. ربَّما أغرى الثعبانَ للقدومِ هناكَ شكلُ ورائحةُ الكتاكيتِ والفراخِ اليانعةِ أو حتى الفئرانِ التي تكونُ قد أضناها الانتظارُ في جحورِها وجاءتْ تبحثُ عن حبوبِ السّمسمِ واللوزِ والجوزِ المقشورةِ. أجبرتهُ "أم جاسر" على الانكفاءِ داخلَ أحدِ الشقوقِ العَريضةِ الموحشةِ في ذلكَ الجدارِ القديمِ الذي يفصلُ البيتَ عن الجيرانِ والمعمولِ من الطينِ وحجارةٍ من الجبلِ. سَمِعَ أحَدُ الجيرانِ، السّيدُ "أبو هَبْهَبْ"، صوتَ الصّراخِ والعويلِ و"الغِثْبرةِ" من صوتِ نساءٍ وصراخِ أطفالٍ، ومن الجيرانِ فيما بعدُ، وأتى ومعهُ "عَتَلَةٌ" حديديةٌ طويلةٌ ومعقوفةٌ عندَ طرفِها. قام السّيدُ "أبو هَبْهَبْ" بإغمادِ طرفِ العتلةِ في جُحرِ ذلكَ الثعبانِ الرهيبِ المتوحشِ وقتلَ ذلكَ الثعبانَ وجعلهُ يتمرّغُ بدمهِ أمامَ حشدٍ منَ الجيرانِ الذين تنفسوا الصّعداءَ لِخلاصِهِمْ من أحدِ "الشياطين" المستوطنةِ في الجوارِ الآمنِ لكلٍّ منهُمْ. حقّاً كان ذلكَ البيتُ المتواضعُ مثلَ يَختِ سيِّدنا نوح (عليهِ السّلامُ) يَجمعُ بينَ الكثيرِ من الحيواناتِ والقوارضِ في توليفةٍ غريبةٍ فيهَا من السّرورِ الكثيرُ ولا تَخلو دائماً من المفاجآتِ، من مثلِ قصةِ ذلكَ الثعبانِ المؤثّرةِ!.

في سنٍّ مبكرةٍ جداً من العمرِ عاصرَ الطفلُ "حمد" أوّلَ حربٍ كبيرةٍ في حياتهِ. قامتْ "ثلاثُ دولٍ" قويةٍ على المستوى الإقليميِّ والدوليِّ بمهاجَمةِ دولةٍ واحدةٍ ضعيفةٍ شقيقةٍ، بل شديدةُ الضّعفِ على المستوياتِ الإقليميةِ والدوليةِ والداخليةِ، وعلى حدٍّ سواءَ. هوجمتْ هذه الدولةُ بقوّةٍ عاتيةٍ من البرِّ والبحرِ والجوِّ في الوقتِ الذي لَمْ يكن لديها من تلكَ الأسلحةِ الثلاثةِ من الحدِّ الأدنى اللازمِ للدفاعِ عن النفسِ. اضطُرَّ "الكفُّ للتصدي للسكينِ الحادِّ" و"كرةُ العينِ لتواجهَ الرصاصةَ" في مُحاولةٍ يائسةٍ للحفاظِ على الحياةِ والكرامةِ، في آنٍ معاً؛ وحصلتْ فيما بعدُ معجزةُ الانتصارِ، انتصارُ إرادةِ الشعبِ المدوّي. يتذكّرُ "حَمد" الطفلُ رؤيةَ الطائراتِ تعبرُ أجواءَ المنطقةِ، معظمُها قادمٌ من الشرقِ ومتجهٌ إلى الغربِ. كان مع أصحابهِ وإخوانهِ في الحقولِ والسّاحاتِ يُمارسونَ تَمارينَ "تعبويةً" حيةً عن كيفيةِ الاختباءِ والهربِ من الطائراتِ التي تدخلُ الأجواءَ؛ طائراتٌ من النوعِ القديمِ والبطيئةِ السّرعةِ نسبياً. لَمْ

يكونوا في ذلكَ الوقتِ يعرفونَ أنَّ تلكَ الطائراتِ تستخدمُ لنقلِ شخصياتٍ دوليةٍ، ربَّما تابعينَ للأممِ المتحدةِ، جاءوا لِمحاولةِ احتواءِ الأزمةِ وحصرِها وامتصاصِ نقمةِ أهلِ البلادِ أو ربَّما "لشرعنةِ" النتائجِ الوخيمةِ للحرب. كانَ الأولادُ في كلِّ مرّةٍ يلمحونَ فيها طائرةً أو يسمعونَ صوتَها يُهرعونَ إلى مغاراتٍ أو شقوقٍ في الصّخرِ كبيرةٍ، أو حتى إلى ظلالِ شجرِ التينِ والزيتونِ الصّغيرِ المزروعِ في الحقلِ. وبسببِ كثرةِ الطائراتِ أو الطلعاتِ الجويةِ والتي لَمْ تُهاجِمهُمْ أيَّةٌ منها قرّروا أنَّ تلكَ الطائراتِ "صديقةٌ" لَهُمْ وألغوا فكرةَ الهربِ والاختباءِ منها من رؤوسِهِمْ، إلى انتظارِها بفارغِ الصّبرِ والتمتعِ برؤيتِها تطيرُ من فوقِهِمْ.

في ذلكَ الوقتِ ومنذُ باكورةِ نعومةِ الأظفارِ كانت العائلةُ كلُّها تعملُ في الحقولِ الصّغيرةِ المساحةِ والوعرةِ، يقومُ الصّغارُ معَ الكبارِ بتنظيفِها مثلاً من الحجارةِ والنباتاتِ الضارّةِ والتي غالباً ما تكون شوكيةً مزعجةً مؤذيةً. يتلاهونَ بعد ذلكَ بحرقِ النباتاتِ الضارّةِ من "القوصِ والشّبرقِ والخُرفيشِ والنَّتْشِ والمَيْتّنانِ والقثّ-حِمارِ والأرْثِ ...." (أسْماءٌ مَحليةٌ لنباتاتٍ بريةٍ ضارةٍ بالمَحصولِ معظمُها شوكيٌّ) أو جَرِّها ونقلِها إلى أماكنَ بعيدةٍ عن النباتاتِ الطيبةِ. وما أنْ يتقدّمَ عمرُ الطفولةِ بهِمْ قليلاً حتى يصبحونَ يقومونَ بوظائفِ حراسةِ الحقولِ خاصةً الصّيفيةِ منها وأشجارِ الفاكهةِ من مثلِ التينِ والتفاحِ السُّكّريِّ الصّغيرِ الحجمِ. يشاركُ الأطفالُ في حمايةِ المَحاصيلِ من الطيورِ والحيواناتِ البريةِ من مثلِ الثعالبِ وأبي الحصينِ وحتى من الضباعِ الشديدةِ الفتكِ والرهبةِ خاصةً عندَما تكونُ تتضوّرُ جوعاً. كانتَ الحراسةُ تلكَ ضروريةً حتى لا يتمكّنَ ولو واحدٌ من الطيورِ من التسلّلِ إلى مزرعةِ الخيارِ (أو القثاءِ) مثلاً أو شجرةِ التينِ ويقومَ بِ"تنقيرِ" الثمارِ (بِمِنقارِهِ) تاركاً وراءَهُ مَحصولاً غيرَ صالحٍ للتسويقِ. لنْ يقبلَ المستهلكُ بشرائِها، وأقلُّ نعْتٍ يُمكنُ أنْ يتلفّظَ المستهلكُ بهِ في تلكَ الحالِ هو أنَّ ثعباناً ساماً نالَ منها وسَمَّمَها!. الويلُ للأولادِ إنْ جاءَ "أبو جاسر" أو الأخُ الأكبرُ ووجدَ ثَمرةً "قثائيةً" واحدةً وقد نَقَرَها عصفورٌ أو اعتدتْ عليها إحدى الزواحفِ من سلاحفَ أو سحالي أو "حِرذانٍ" أو "حِرباواتٍ" وما إلى ذلكَ. كان ألدُّ أعداءِ ثِمارِ شجرةِ التينِ ومزرعةِ القثائياتِ، على حدٍّ سواءَ، طائراً يطلقُ عليهِ مَحلياً اسمُ "الزّاغْ" (اسمٌ مَحليٌّ وجَمْعٌ لِكلمةِ "زاغَة") شبيهٌ لونهُ وشكلُهُ بالغرابِ الأسودِ صغيرِ الحجمِ إلا أنَّ لَحمَهُ مستساغُ الأكلِ وطريٌّ، بعدَ صيدهِ وذبْحهِ ونتفِ ريشهِ وطهيهِ طَبعاً. كانَ ذلكَ الطائرُ يظهرُ على شكلِ أسرابٍ كبيرةٍ جداً قد يصلُ تعدادُها إلى الآلافِ؛ تُصدرُ أصواتاً فيها شيءٌ من "النغمِ والإيقاعِ" الموسيقيينِ إلا أنَّ ذلكَ الصّوتَ كان نذيرَ شؤمٍ على مَحصولِ التينِ أوَ القثائياتِ أو البَنْدورةِ (الطماطم). ما أنْ يقومَ سربٌ منها، ومهما كانَ صغيراً حجمُهُ، بمهاجمةِ موقعٍ مثمرٍ حتى يَخلفَ وراءَهُ أشبهَ ما يكونُ بمجزرةٍ فاكهيةٍ أو "خضرواتية" مروعةٍ لا تُنسى بسهولةٍ من الذاكرةِ.

ما أنْ أتى سنُّ السّابعةِ من العمرِ حتى كان موعدُ الطفلِ حمد مع أكثرِ الأماكنِ إجهاضاً للتفكيرِ والإبداعِ والحياةِ الحرةِ الكريمةِ السّلسةِ؛ المدرسةِ!. كانَ الدخولُ إلى المدرسةِ أشبهَ بالدخولِ إلى نفقٍ مظلمٍ يُحشرُ فيهِ ما هبَّ ودبَّ من الأولادِ تَحْتَ رعايةِ وإشرافِ ما هبَّ ودبَّ من المعلمينَ ومديري المدارسِ والفرّاشينَ والبوّابينَ أو "الأذنةِ". في المقامِ الأوَّلِ كانت المدرسةُ، أو الانتظامُ فيها، تعني استخدامَ عقولِ الآخرينَ في التفكيرِ والعملِ؛ يوضعُ عقلُ الشخصِ وتفكيرُهُ على الرفِّ وحتى إشعارٍ

آخرَ في أهونِ الأحوالِ، وربّما نسيانُ عقلهِ وإهْمالهِ حيثُ تَجري لهُ عمليةُ تعطيلٍ بطيئةٍ وقسريةٍ من قِبلِ أناسٍ غيرِ متخصّصينَ في ذلكَ جيداً!. إلا أنّهُ مع ذلكَ السّيلِ الجارفِ والمنظّمِ من البشرِ مِمَّن يودّونَ أو يُجبرونَ على النَّهلِ من مستودعِ التعلّمِ المفترضِ هذا، لا يَملكُ أحَدُ القدرةَ على الاعتراضِ أو حتى التفكيرِ بالاعتراضِ. أصبحَ الذهابُ إلى مثلِ تلكَ المدرسةِ أكثرَ قُدسيةً وأهَميةً من الذهابِ إلى أيِّ مكانٍ آخرَ. أوَّلُ وحشٍ بشريٍّ ضخمٍ كانَ يواجهُهُ التلميذُ البرعمُ في تلكَ الأيامِ هو مديرُ المدرسةِ، ثُمَّ يأتي من هو أقلّ رهبةً وترهيباً منهُ بقليلٍ، المعلِّمُ!. وفوقَ هذا وربّما أكثرَ رهبةً وترهيباً يأتي الفرّاشُ أو البوّابُ أو الآذنُ، ثلاثةُ أسْماءَ غريبةٍ لنفسِ الشخصِ. كان الفرّاشُ، بشكلٍ عامٍّ، شديدَ البطشِ والتشكّي على الأولادِ لِمديرِ المدرسةِ والمعلمينَ هناكَ. بدا للأولادِ في ذلكَ الوقتِ أنّهُ قد أعطيَ للفرّاشِ صلاحياتٌ تتَجاوزُ حدودَ المدرسةِ ليتعقّبَ التلاميذَ في الشارعِ والبيتِ والقريةِ والمدينةِ وفي أيامِ العطلِ المدرسيةِ النصفِ-سنويةِ والصّيفيةِ الطويلةِ؛ كانَ كابوساً دائماً أو هكذا يريدُ أنْ يكونَ. كان لدى الآذنِ صلاحياتُ ضبطٍ ومراقبةٍ إداريةٍ واسعةٍ ومن المُمكنِ أنْ يَشِيَ بتلميذٍ ويوصيَ بتأديبهِ وفصلهِ من المدرسةِ مؤقتاً، مع ما يرافقُ ذلكَ من مآسٍ وأحزانٍ لهُ ولعائلتهِ؛ أو يوصيَ بزحزحةِ التلميذِ عن مقعدِ الدراسةِ نهائياً، إنْ استطاعَ ذلكَ الآذنُ إلى ذلكَ الأمرِ سبيلاً.

كان الطّقسُ ربيعياً وكانت الحصةُ تقاربُ الأخيرةَ في ذلكَ اليومِ عندما سَمِعَ أولادُ المدرسةِ صوتاً يثيرُ الذعرَ في النفوسِ وكان صادراً من أحدِ طلابِ الصّفوفِ العُليا المتقدمةِ. كان الصّوتُ قوياً ومستغيثاً بالأبِ والأمِّ والعمِّ والخالِ أو أيِّ شيءٍ آخرَ لإنقاذهِ من ربّما أسوأِ عقابٍ لطالبٍ في تاريخِ مدرسةٍ حكوميةٍ؛ فقد كانتْ حياتُهُ معرّضةً، كما بدا، لخطرٍ حقيقيٍّ. تكمنُ القصةُ في أنَّ مشرفَ "مستودع الصّياتةِ" في المدرسةِ، السّيدَ "ساعود"، تَمكّنَ من الوشايةِ وإقناعِ مديرِ المدرسةِ، السّيدِ "أبو غالبْ"، بأنَّ أحدَ الطلابِ، ويدعى "رُوَيصْ" الفنانُ (لُقّبَ بالفنانِ لسببِ ولعهِ بفنِّ النحتِ والرسمِ وفي سنٍّ مبكّرةٍ)، لَمْ يُذعنْ لأمرِ للسيدِ "ساعود" للقيامِ بأحدِ الأعمالِ اليدويةِ يَخصُّ المشرفَ في المستودعِ المذكورِ. ما كان من مديرِ المدرسةِ السّيدِ "أبو غالبْ" إلا أنْ انتزعَ عصاً غليظةً من فأسٍ أو مِعولٍ يستخدَمُ لأعمالِ الزراعةِ والحقلِ، بعدَ نزْعِ الجزءِ المعدنيِّ من نهايتِها، وانْهالَ على ذلكَ المسكينِ وأوسعهُ ضرباً مبْرحاً. كانَ لا يتوانى في إنزالِ هراوتهِ الغليظةِ، ذاتِ الهدفِ الزراعيِّ في الأصلِ، على ذلكَ المسكينِ والضّربِ على أيِّ مكانٍ، سواءَ أكانَ المكانُ عظماً أو لَحماً أو جزءاً يتحمّلُ الضربَ أو حسّاساً لا يتحمّلُ. علّمَ الأولادُ فيما بعدُ أنَّ مديرَ المدرسةِ "أبو غالبْ" كان يُخرجُ من فمهِ رغوةً، من مثلِ التي تَخرجُ من فمِ الجملِ المُجترِّ، مثلَ المصابِ بنوبةِ صرعٍ قويةٍ. لَمْ يتمكّنْ الأولادُ من معرفةِ ماذا كان يقصدُهُ، من ذلكَ العقابِ القاسي، ذلكَ الوحشُ الشرسُ لذلكَ النحّاتِ والرسامِ الصّغيرِ؛ اضطرَّ الأخيرُ لتركِ المدرسةِ في سنٍّ مبكرةٍ واستمرَّ في أعمالِ الرسمِ والنحتِ، فيما بعدُ، ولكن بصورةٍ مضمحلّةٍ لَمْ تلقَ رواجاً كبيراً في السّوقِ.

حالةٌ أخرى واجهَها والدُ حمد، السّيدُ "أبو جاسر"، عندما اضطرَّ لدفعِ مبلغٍ من النقودِ مقابلَ درءِ تُهمةٍ واجهتْ أحدَ أبنائهِ الكبارِ. اتّهمَ ناطورٌ لِحدائقِ أشجارِ المدرسةِ ذلكَ الابنَ بسرقةِ حقيبةٍ يدٍ لأحدِ الموجّهينَ التعليميّينَ أثناءَ زيارتهِ شبهِ-السّنويةِ، وليومٍ واحدٍ فقط، للمدرسةِ للاطمئنانِ على حالِ المدرسةِ والتلاميذِ والمدرّسينَ على حدٍّ سواءَ!. وبالرغمِ من اعترافِ شابٍّ آخرَ بسرقةِ الحقيبةِ والعبثِ

بمحتوياتِها إلا أنَّ السّيدَ الناطورَ أصرَّ على أنَّ أخاً لِ"حمد" الكبيرَ هو الذي يَجبُ أنْ يَدفعَ الغرامةَ (جُنيهاً واحداً)، وكانتْ كبيرةً على الفقراءِ في ذلكَ الوقتِ من مثلِ السّيدِ "أبو جاسر". ومع إلحاحِ السّيدِ الناطورِ وتَهديدِهِ باستخدامِ نفوذِهِ وبطشِ أقاربِهِ النافذينَ في القريةِ، دَفَعَ الغرامةَ أحدُ الأصدقاءِ نيابةً عن السّيدِ "أبو جاسر" تلافياً لأيّةِ مضاعفاتٍ غيرِ لائقةٍ ومشقّاتٍ إضافيةٍ قد يتسبّبُ بِها السّيدُ الناطورُ للعائلةِ.

تعتبرُ مدرسةُ القريةِ من أكثر المرافقِ تواضعاً في الخدماتِ وعلى رأسِها الخدماتُ التعليميةُ. لا يتمتّعُ معظمُ المدرّسينَ بالحدِّ الأدنى الذي يؤهلُهُمْ للقيامِ بتدريسٍ ذا مستوىً مقبولٍ. كانَ يُؤتى بهِمْ عادةً من معاهدَ عُليا تُسمى "تيمّناً بِها" بِ"دورِ إعدادِ كوادرِ المعلّمينَ". واجبُ تلكَ "الدّورِ التعليميةِ" القيامُ بإعدادِ الكوادرِ التعليميّةِ وتأهيلِها؛ لكنَّ هنالكَ ضعفٌ واضحٌ في بنْيةِ المعلوماتِ وأساليبِ تقديمِها وتطويرِها ولِمُختلفِ الموادِّ. كان يتركزُ اهتمامُ المدرّسِ وبالدرجةِ الأولى بمظهرِهِ وشكلِهِ وهيبتِهِ أمامَ نفسهِ والأولادِ، فهو شرطيٌّ أولاً.... وأكاديميٌّ أخيراً على أصدقِ تعبيرٍ وعلى أكثرِ الأحوالِ تفاؤلاً. كثيراً ما كان يقومُ المعلّمُ بأعمالٍ تأديبيةٍ ضدَّ الطلبةِ لا علاقةَ لَها بالأدبِ والحياءِ لا من قريبٍ أو من بعيدٍ، كانت تَحدثُ لسببٍ بسيطٍ وساذجٍ أحياناً أو في أغلبِ الأحيانِ دونَ سببٍ. إضافةً إلى ذلكَ فإنَّ الحافزَ والجهدَ التعليميين عندَ الكثيرِ من المعلّمينَ من الضحالةِ بمكانٍ في ذلكَ الوقتِ. كانَ المعلّمُ الأستاذُ "عَزّوز" مثلاً يُجبرُ أحدَ التلاميذِ مِمّنْ تقعُ عليهِ القرعةُ في الصّفِّ على الجلوسِ، خلالَ الدرسِ، على كرسيٍّ المقعدِ الملاصقِ لطاولةِ المدرّسِ. يضعُ المعلّمُ "عزّوزَ" عصاً خشبيةً تشكّلُ مثلَ جسرٍ بينَ رأسِ التلميذِ وسطحِ الطاولةِ؛ يطلبُ المعلمُ من التلميذِ أنْ يُحافظَ على ذلكَ الوضعِ طيلةَ الدرسِ بعدمِ تحريكِ رأسهِ يَميناً أو يساراً ولو بقيدِ أنْملةٍ حتى لا يَختلَّ توازنُ العصا وتتدحرجَ من على رأسهِ وتسقطَ أرضاً. كان معلّمٌ آخرُ يعاقبُ الأولادَ بالضربِ على قاعِ قدمَيِ الطالبِ (الفَلَقَة) "المُذنِبِ" حالَ حدوثِ أيِّ خطأٍ من التلاميذِ. يزيدُ المعلّمُ العقابَ شدّةً على التلميذِ في حالِ تكرارِ الخطأِ بالضربِ بالعصا على مؤخّرةِ (قَفا) التلميذِ، بعدَ تقييدهِ وتثبيتهِ بالمقعدِ الأوّلِ من الصّفِّ بمساعدةٍ من زملاءِ وأصدقاءِ الولدِ الطالبِ نفسهِ!، ربَّما حتى يشعرَ ذلكَ المسكينُ بالإحراجِ أمامَ نفسهِ وغيرهِ طيلةَ وجودهِ على مقاعدِ الدراسةِ وإلى ما بعدَ انتهائهِ من المدرسةِ والتعليمِ بزمنٍ طويلٍ. هنالكَ من المعلّمينَ الذين كانوا يُمارسونَ "الديموقراطيةَ!" على هواهُمْ بأنْ يطلبوا من طلابٍ معاقبةَ طلابٍ آخرينَ بضربِ الفَلَقَةِ أو على المؤخرةِ أو، في بعضِ الحالاتِ، بِ"اللّطْمِ" أو "التلاطمِ" على وجوهِ بعضِهِمْ البعضِ. ثمّةَ معلّمٌ آخرُ لا ينادي التلاميذَ أو يذكرُهُمْ بأسْمائِهِمْ ولكنْ بألقابٍ اخترعَها لَهُمْ حسبَ لونٍ أو وزنٍ أو طولِ التلميذِ أو علاماتٍ فارقةٍ في شكلِ الرأسِ والعينينِ والأذنيْنِ والأنفِ والشّفاهِ وغيرَ ذلكَ.

كانَ ذلكَ اليومُ شديدَ البرودةِ والجفافِ حيثُ جَمَّد الصّقيعُ كلَّ شيءٍ تقريباً. يكادُ الدّمُ يَجْمَدُ في العروقِ وهو فعلاً مُجمّدٌ عندَ الأطرافِ، حيثُ الدورةُ الدمويةُ ضعيفةٌ نسبياً هناكَ. كان الوقتُ صباحاً عندما وصلَ الولدُ حمد مع اثنيْنِ من الطلبةِ الآخرينَ متأخّرينَ بضعَ دقائقَ بعدَ بدءِ الدرسِ الأوّلِ، وعلى غيرِ العادةِ، ربَّما طمعاً بدفءِ فراشِ النومِ في يومٍ شديدِ البردِ. كانَ مديرُ المدرسةِ، السّيدُ "البَلْطِيُّ"، واقفاً أمامَ غرفتِهِ. رأى السّيّدُ "البَلْطِيُّ" الأولادَ المتأخّرينَ يُهرعونَ للدخولِ إلى غرفِ الصّفوفِ حينَ صاحَ بهِمْ بأعلى صوتهِ الحادِّ طالباً منهُمْ أنْ يذهبوا لِملاقاتهِ أمامَ بابِ غرفتهِ القريبِ من مكانِ وقوفهِ. لسببٍ أو لآخرَ اختفى ولدانِ رفيقانِ كانا بصحبةِ

حمد عن ناظرِ الأخيرِ وسارَ وحدَهُ للعقابِ، كالحمَلِ إلى بيتِ ذئبٍ بشريٍّ لا يرحمُ. لَمْ يكنْ هنالكَ أيُّ حيّزٍ للمناورةِ أو الهربِ أو الاسترحامِ. بالصّوتِ العالي والسّبابِ والشتائمِ بادرَ مديرُ المدرسةِ السّيدُ "البَلْطِيُّ" الولدَ التلميذَ حمد. كان السّيدُ "البَلْطِيُّ" قصيرَ القامةِ نسبياً ولكنّهُ ذو وزنٍ كبيرٍ، وربّما يزيدُ عن المائةِ كيلوجرامٍ، وكان لهُ كرشانِ أماميٌّ و"خلفيٌّ" بالإضافةِ إلى ضخامةِ رأسهِ ورقبتهِ وثِقَلِ ظلّهِ!. ملوّحاً بعصاهُ المقطوعةِ من نباتِ الخيزرانِ أمَرَ السّيدُ "البَلْطِيُّ" الولدَ حمد بفتحِ يديهِ اللتينِ أصابتْهُما الزُّرْقةُ من شدةِ البردِ. ظنَّ الولدُ حمد في بادئِ الأمرِ أنَّ مديرَ المدرسةِ سيقومُ بعمليةِ "تدليكٍ" ليديْهِ لتسخينِها لهُ في ذلكَ الجوِّ البارِدِ. إلا أنَّ السّيدَ "البَلْطِيُّ" انْهالَ بضربةِ عصاهُ على يدِ الولدِ حمد بِـ"الخيزرانةِ"، وانتقلَ إلى الأخرى والتي مدَّها لهُ الولدُ حمد هي الأخرى. عاد بالضربِ إلى اليدِ الأولى ثُمَّ أتبعَها الثانيةَ.... ثُمَّ الأولى ثُمَّ الثانيةَ.... اعتقدَ الولدُ حمد أنَّ الأمرَ انتهى إلى ذلكَ الحدِّ وهَمَّ بالذهابِ إلى صفهِ. صاحَ بهِ السّيدُ "البَلْطِيُّ" من جديدٍ ليعودَ إليهِ حمد مرّةً أخرى، وبدونِ وعيٍ ظنَّ الولدُ حمد أنْ قد جاءتْ إلى رأسِ المديرِ "البَلْطِيُّ" رحْمةٌ من مكانٍ ما، ربَّما أرادَ أنْ يعتذرَ عمّا ارتكبهُ؛ خطأ تقديرٍ آخرَ!. ضربَ المديرُ "البَلْطِيُّ" الولدَ حمد هذه المرّةَ على ظهرِ يديهِ وأصابعهِ التي أوشكتْ أنْ يتشقّقَ بها الجلدُ ويَخرجَ منها الدّمُ. دخلَ الولدُ حمد بعدَ هذا العقابِ إلى غرفةِ الصّفِّ وقد بدأتْ مثلُ نبضاتٍ كهربيةٍ عاليةِ الترددِ والجهدِ تنفضُ في يديهِ ومثيرةٍ لعواصفَ دماغيةٍ وجسديةٍ عندهُ، تبدأ ولا تنتهي. ومن السّاعةِ الثامنةِ صباحاً تقريباً حتى ما بعدَ الحاديةَ عشرةَ قبلَ الظهرِ، ظلّتْ الدموعُ منهمرةً تطفحُ العيونَ والوجهَ والرقبةَ ولَمْ يبقَ في رأسِ الولدِ حمد من سائلٍ إلا وخرجَ من العينينِ والأنفِ والفمِ. أجلِسَ الولدُ حمد خلالَ تلكَ المعاناةِ في آخرِ مقعدٍ في الصّفِّ، واستمرَّ المعلّمونَ الأفاضلُ بإعطاءِ الدروسِ؛ الحقُّ يقالُ أنّهُ لَمْ يُردْ أيٌّ منهُمْ أنْ يَهدرَ! ولو دقيقةً واحدةً ليسألَ ذلكَ التلميذَ المسكينَ عمّا حلَّ بهِ أو ليساعدَهُ أحدُهُمْ في إيقافِ بكائهِ أو "كفكفةِ" بعضٍ من دموعهِ التي نضبتْ كلّها.

كانَ هنالكَ القليلُ من المعلمينَ الذينَ لا بدَّ من إعطائِهِمْ شهادةِ إعجابٍ وتقديرٍ. كان الأستاذُ "حَميدون" من الروعةِ بمكانٍ؛ مدرّسُ علومٍ عامةٍ ناجحٌ، أبٌ وأخٌ كبيرٌ، بشوشٌ مبتسمٌ وحازمٌ، حريصٌ على أنْ يقومَ بواجبهِ ويُفيدَ الأولادَ وكان لديهِ الكثيرُ مِمّا يقدرُ أنْ يعطيَ منهُ. كانت أوّلَ تجربةٍ علميةٍ رآها التلميذُ حمد في المُختبرِ على يديهِ وتلخصتْ في إظهارِ بعضِ الخصائصِ الطبيعيةِ لبعضِ العناصرِ الفلزّيةِ؛ كان أكثرُها إثارةً للاهتمامِ عناصرَ الصّوديومِ والبوتاسيومِ عند تفاعلِهما مع موادَّ رطبةٍ بالماءِ. دائماً عندما يُذكرُ اسْمُ الأستاذِ "حَميدون" يقفُ الجميعُ، مِمَّن تتلمذوا عليهِ، يقفونَ لهُ إجلالاً واحتراماً وتقديراً....

كانَ مدرّسُ التربيةِ الدينيةِ شديدَ التخلّفِ في شرحِ معنى المادّةِ الأكاديميةِ المقرّرةِ وتبعاً لذلكَ في عرضِ الصّورةِ الناصعةِ جدّاً للدينِ وتعاليمهِ لصغارِ التلاميذِ. لقد حفظَ القليلُ من الطّلابِ الأولادِ من القرآنِ الكريمِ في السّنينِ الأولى منَ المدرسةِ مادةً قرآنيةً حتى نهايةِ "جزءِ عمَّ"، ولكنْ لَمْ تكنْ بمقدورِ أحدٍ منهُمْ معرفةُ تفسيرِ أكثرَ من حواليْ خمسةٍ بالمائةِ من المادةِ المَحفوظةِ، لا تفسيرَ كلماتٍ ولا جُمَلٍ ولا مناسباتِ نزولٍ أو مدلولاتٍ. معظمُ الطلابِ الذينَ قَضوْا (ماتوا) والذينَ لا يزالونَ ينتظرونَ أنْ يقْضوا (يموتوا) لَمْ يتمكّنوا من تفسيرِ آياتٍ قصيرةٍ من مثلِ "تبَّتْ يدا

أبي لَهَبٍ وتبَّ"، "لإيلافِ قريشٍ إيلافِهِمُ"، "ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقبَ"، "ويلٌ لكلِّ هُمزةٍ لُمَزةٍ" وغيرها الكثير بَلْ ومعظم الآياتِ الكريمةِ. كانت الآياتُ الكريمةُ والأحاديثُ الشريفةُ تُلقى على عقولِ الأولادِ مثلَ حجارةٍ صلدةٍ صمّاءَ لا يُمكنُ هضمُها إلا بصعوبةٍ وببطءٍ مع مرورِ الزمنِ الطويلِ. في تلكَ الدروسِ غابتْ الصّورةُ الناصعةُ المشرقةُ للدينِ وراءَ العقولِ الجاهلةِ المغلقةِ بلْ المتحجّرةِ. وهنالك الحوادثُ الكثيرةُ التي تدلُّ على سذاجةِ تعاطي مدرسِ التربيةِ الدينيةِ مع التفسيرِ العمليِّ والأصيلِ والمشرقِ للدينِ الحنيفِ. لقد فسَّرَ أحدُ الأئمةِ العلماءِ ذلكَ فيما بعدُ بأنَّ كثيراً من الذينَ يذهبونَ للتخصُّصِ في علومِ الدينِ والفقهِ والشريعةِ، بشكلٍ عامٍّ، هُمْ من الطلبةِ ذوي المعدلاتِ العامةِ المتدنيةِ؛ ذلكَ أنَّ معظمَ من لَهُمْ معدّلاتٌ عاليةٌ يرغبونَ في دراسةِ فرعٍ من العلومِ يطمحونَ فيهِ إلى رفعِ مستواهُمْ الماديِّ، وبشكلٍ عامٍّ أيضاً!.

منذُ السّنةِ الدراسيةِ الأولى وحتى السّنةِ الرابعةِ كان مع الولدِ التلميذِ حمد زميلٌ لهُ يعاني من تَخلُّفٍ في النطقِ وبطءٍ شديدٍ في الفهمِ والإدراكِ والمتابعةِ. أصدرَ معلمُ اللغةِ العربيةِ، والذي عانَتْ اللغةُ العربيةُ الأمَرَّيْنِ على يديْهِ ولسانهِ (مثلاً يفسّرَ للأولادِ معنى مصطلح "خاليَ الوفاضِ" بأنّهُ "أمعهوَش إشي"!)، أصدرَ أمراً للولدِ حمد بالاشتراكِ مع الزَميلِ المتخلّفِ عقليّاً في نفسِ المقعدِ الدراسيِّ. طلبَ حمد من المعلّمِ عدةَ مراتٍ فصلَهما عن بعضِهما في الصّفِّ، ولو بعمليةٍ جراحيةٍ!، إلا أنّهُ في كلِّ مرّةٍ كان حمد يواجَهُ برفضٍ شديدِ البؤسِ والفظاظةِ واتّهمهُ المعلّمُ ذاتَ مرَّةٍ بأنّهُ يُحاولُ التكبُّرَ والتعالي عن ذلكَ الزميلِ؛ وذلكَ ما لا يسمحُ بهِ ذلكَ المعلّمُ!. لَمْ يكتفِ ذلكَ المعلّمُ بذلكَ بل أتى بطالبٍ ثالثٍ ليجلسَ الزميلُ الأوّلُ فيما بينَ ذلكَ الطالبِ وبينَ حمد؛ وليصبحَ وضعُ الكراسةِ على طرفِ المقعدِ هو ما تبقّى من مكانٍ للكتابةِ عليهِ. اضطرَّ ذلكَ الزميلُ، المتخلّفُ عقلياً، إلى تركِ الحياةِ الأكاديميةِ كلِّها بعدَ فشلهِ المتكرّرِ في المدرسةِ حيثُ لاقى نَجاحاً وازدهاراً غيرَ متوقَّعيْنِ في حياتهِ لَمْ يكنْ ليَحلمَ بهِما فيما لو ظلَّ مرتبطاً بمقاعدِ الدراسةِ في المدرسةِ. لَمْ يَقدرْ المعلّمُ أنْ يدركَ أنَّ الطالبَ المعاقَ يَحتاجُ إلى إيجادِ ظروفٍ ورعايةٍ خاصةٍ لهُ لتساعدَهُ على التغلّبِ على تلكَ المشكلةِ التي ليست لهُ، كما ولا للطلابِ الآخرينَ من حولهِ، فيها أيّةُ مسؤوليةٍ.

تَمَّ استبدالُ المديرِ القديمِ، السّيدِ "البَلْطِيُّ"، بآخرَ ويدعى السّيدُ "قُرَيْصٍ". من أهمِّ المفارقاتِ بينَ المديرينَ هو أنَّ الجديدَ منهُمْ كان لا يكادُ يتَجاوزُ وزنُهُ نصفَ وزنِ الأوّلِ، ولكنهُ أشدُّ جلفةً وقسوةً؛ كان بتصرّفاتهِ وكأنّهُ مستخلصٌ من لبِّ العلقمِ وفيهِ الكثيرُ من طبائعِ الاستبدادِ!. غيرُ معروفٍ السّببَ الذي يَجعلُ مديريةَ التربيةِ والتعليمِ في تلكَ المنطقةِ تُقبلُ أو تُقْدِمُ على تعيينِ مثلِ هؤلاءِ للقيامِ برعايةِ براعمِ وأجيالِ المستقبلِ الصّاعدةِ. لَمْ يكن بالمُمكنِ البتّةَ وعلى الإطلاقِ أنْ شوهدَ السّيدُ "قُرَيْص" مبتسماً أو منشرحاً أو عن شيءٍ راضياً. كان مصمّماً على إيقاعِ أقسى عقوبةٍ مُمكنةٍ ضدَّ أيِّ شيءٍ. الشيءُ الحسنُ فيهِ أنّهُ لَمْ يكنْ ليفرّقَ بينَ تلميذٍ ومعلّمٍ في المعاملةِ من نوعِ تلكَ التي بُعِثَ، كما يبدو، من أجلِ التمنطقِ بها في حياتهِ؛ وكان شديدَ الميلِ والاعتمادِ على فرّاشِ المدرسةِ وكذلكَ على ناطورِ الحدائقِ والحقولِ الزراعيةِ فيها. تضمَّنتْ العقوباتُ التي كان يعشقُ إيقاعَها بمنْ حولهِ السّبَّ والشتمَ والتحقيرَ والضّربَ بالعصا والطردَ من الصّفِّ والمدرسةِ واستدعاءَ وليِّ

الأمرِ وفرضَ شروطٍ قاسيةٍ على عودةِ الولدِ المذنبِ إلى غرفةِ الدرسِ في حالِ تكرارِ الخطأ.

أحدُ أبرزِ الأحداثِ التي حصلتْ في تلكَ الحقبةِ من الزمنِ، وإنْ كانَ الوقتُ متأخّراً، هو قيَامُ مدير معينٍ جديدٍ في ذلكَ الوقتِ، السّيدِ "صُعَيْق"، بتَجريدِ السّيدِ مشرفِ مستودعِ الصّيانةِ في المدرسةِ من صلاحياتهِ التي تبنّاها لنفسهِ في السّابقِ على الطلبةِ ومنْ يَخصُّهمْ. ففي ذاتِ يومٍ وعندَما كانَ الطقسُ ربيعياً ومعتدِلاً نادى السّيدُ "صُعَيْق" وبأعلى صوتهِ السّيدَ الناطورَ وأبلغهُ أمامَ جَمعٍ من المعلمينَ والتلامذةِ أنَّ وظيفتَهُ فقطْ ستكونُ العملَ والتواجدَ داخلَ مستودعِ الصّيانةِ. وما أنْ حاولَ السّيدُ الناطورُ ردَّ الاعتبارِ لنفسهِ والقيامَ بالدفاعِ عن نفسهِ ولو كلامياً ضدَّ ذلكَ الازدراءِ الكاسحِ حتى أتبَعهُ السّيدُ "صُعَيْق" بجملةٍ من العباراتِ البذيئةِ المتميزةِ في القبحِ. بعدَها أفَلَ نَجمُ السّيدِ الناطورِ إلى غيرِ رجعةٍ. عملَ السّيدُ الناطورُ فترةً قصيرةً من الزمنِ من وراءِ الكواليسِ إلا أنّهُ اضطُرَّ إلى الانكفاءِ على نفسهِ أخيراً ذهاباً وإياباً معظمَ الوقتِ. بدأ بعدَها التَقرُّبَ لطلابةِ المدرسةِ الخريجينَ، القدامى منهُمْ والجددِ، لبناءِ شعبيةٍ ومُحاولاً إعادةَ مَجدهِ القديمِ لهُ!.

ميلادُ "أبو الزهو"

يقالُ أنّهُ من أرحامِ الكوارثِ عادةً ما يولدُ الأبطالُ المنقذونَ!. كانتْ السّاعةُ تقتربُ من السّابعةِ مساءاً في يومِ شتاءٍ ذي بردٍ قارسٍ حين عادَ أكبرُ الأولادِ الذكورِ في العائلةِ، "جاسر"، ليخبرَ بقيةَ العائلةِ عن مولودٍ جديدٍ اضطُرَّ لتركهِ في البراري البعيدةِ ليواجهَ مصيراً شِبهَ مُحتّمٍ بالموتِ. يواجهُ المولودُ الجديدُ الموتَ من البردِ أو الجوعِ أو الوقوعِ فريسةً سهلةً لأحدِ الحيواناتِ المفترسةِ وأهمِّها الضباعِ الجائعةِ. أبدى "جاسر" بعضَ الشعورِ بالحسرةِ والتأسّفِ على اضطرارهِ لتركهِ ذلكَ المسكينِ لذلكَ المصيرِ المَجهولِ. زعمَ أنّهُ اضطُرَّ لذلكَ تَحْتَ وطأةِ التأخيرِ في الوقتِ والبردِ القارسِ وانشغالهِ بالأبقارِ الثلاثةِ اللاتي كان يرعاها. ساقَ "جاسرُ" القطيعَ مع أمِّ الوليدِ الجديدِ "راكلي" راجعاً البيتَ دونَ وليدِها الذي طالَما انتظرتهُ وانتظرهُ أفرادُ العائلةِ كلُّهُمْ دونَ استثناءَ. وما أنْ تفوّهَ الأخُ جاسر باسْمِ المكانِ الذي تركَ فيه الوليدَ، وهو منطقةٌ وعرةٌ ومنعزلةٌ وبعيدةٌ تَحفُّ بالمخاطرِ حتى على البالغينَ والأقوياءَ من البشرِ والحيوانِ، حتى هبَّ من كان في البيتِ حاضراً لينقذوا ذلكَ المسكينَ المتعثّرَ أو العسيرَ الحظّ القادمِ إلى الحياةِ مع العائلةِ. اصطحبَ الأولادُ معهُمْ أمَّهُ "راكلي" لتساعدَهُمْ على التعرّفِ! على المكانِ بالضبطِ لأنّها وضعتهُ بين الصّخورِ والنباتاتِ البريةِ العاليةِ، وللمساعدةِ في تغذيتهِ من حليبِها وحَمْلهِ في حالِ العثورِ عليهِ حيّاً. أمّا الوالدةُ "أم جاسر" فقد هُرِعتْ إلى شخصٍ في القريةِ معروفٍ بتقواهُ وورعهِ وفقههِ، الشيخ "النوحانيّ"، ورجتْهُ أنْ يعقدَ لها ما يعرفُ هناك بِـ"الحجابِ" الذي "يَحجبُ"، أو يقي الضحيةَ من هجمةِ حيوانٍ مفترسٍ في غابةٍ غيرِ آمنةٍ. ذلكَ "الحِجابُ" عبارةٌ عن مَجموعةٍ من التراتيلِ والأدعيةِ لِحفْظِ الحيوانِ الضائعِ أو الغائبِ عن أهلهِ من مكروهٍ مُحتملٍ غامضِ الكُنْهِ والمصدرِ.

وصلَ أفرادُ من العائلةِ إلى الموقعِ حيثُ كان الوليدُ الجديدُ يصارعُ البردَ والمطرَ والموتَ في معركةٍ يَميلُ فيها ميزانُ القوى كلّياً لصالحِ الموتِ شبهِ المَحتومِ. كان يغمضُ عينيْهِ قليلاً ويفتحُها هنيهةً كما لو كان يصارعُ النعاسَ الأبديَّ. تستنجدُ حواسُّهُ بكلِّ ما حولَهُ من الكائناتِ الأحياءِ منها والأمواتِ. وكَمْ كانت أمُّهُ "راكلي" فرحةً برؤيتهِ مرّةً أخرى سالِماً أو لا يزالُ على شفا دائرةِ الحياةِ، إنْ صحَّ التعبيرُ. وضعَ أحدُ أفرادِ العائلةِ قطعةً سَميكةً من الخيشِ على جسدهِ، بقايا كيسِ خيشٍ، ثُمَّ ساعدهُ في الوصولِ إلى ثدي أمِّهِ ليتمَّ استخراجُ حليبِ الحياةِ إلى فمهِ ولسانهِ وأسنانهِ وحلْقهِ ومعدتهِ وقلْبهِ ودمِهِ وجسمهِ. وبعدَ أنْ كان ضعيفاً لا يقوى على شيءٍ، وما أنْ بدأتْ الطاقةُ الحراريةُ للغذاءِ تتدفّقُ في العروقِ حتى بدأَ يطيلُ وقتَ فتحِ عيونهِ ويُحاولُ الوقوفَ على أقدامهِ. قاموا بزيادةِ كمّيةِ الحليبِ قليلاً وتَمَّ لفُّهُ جيداً بقطعةِ القماشِ حتى بدتْ عليهِ آثارُ الانتعاشِ ونشوةُ الانتصارِ على الموتِ. حَملتْهُ أمّهُ والتي بدورِها كانت في منتهى الغبطةِ والسّرورِ، وكان ذلكَ بيِّناً من انتظامِ دقّاتِ قلبِها من جديدٍ ومن استرخاءِ أعصابِها بعدَ الاطمئنانِ على فلذةِ كبدِها!. بذلكَ أُنقذَ المولودُ الجديدُ من أسنانِ الضباعِ والذي كان من المُمكنِ أنْ يصيرَ إلى عالَمِ العدمِ لولا تضافرُ كافةِ الجهودِ البدنيةِ والنفسيةِ والحسيةِ والروحيةِ

لِمعظمِ أفرادِ عائلةِ السّيدِ أبو جاسر. اجتازوا في طريقِهمْ الجبليةِ رجوعاً إلى البيتِ المرحَلةَ الوعرةَ والخطرةَ من احتمالِ سطوةِ الحيواناتِ البريةِ المفترسةِ عليهِمْ ليصلوا إلى مكانٍ نبعٍ دافئٍ بعضَ الشيءِ. شربوا منه قليلاً وشربت الأمُّ وغُسِلَ المولودُ بقليلٍ منَ الماءِ الدّافئ ونُشِّفَ بالخيشِ. لوحظَ أنَّ المولودَ الجديدَ يطوِّرُ نشاطَهُ بسرعةٍ حيثُ بدأت الحرارةُ تدبُّ في أركانِ جسمهِ الحيويةِ وفي مفاصلِ هيكلِهِ العظميِّ. من جديدٍ حَملتهُ أمُّهُ "راكلي" وواصلَتْ الجماعةُ المسيرَ إلى البيتِ حيثُ تُأوى أمُّهُ مع بقيةِ العائلةِ والماشيةِ والطّرْشِ. أوقدتْ العائلةُ لهُ ناراً على حطبِ شجرةِ الزيتونِ للتدفئةِ وتعرَّفَ! على أفرادِ العائلةِ كلِّها ما عدا السّيدِ "جاسر" الذي كانَ يغُطُّ في نومٍ عميقٍ مستدفِئاً في فراشهِ بعدَ عناءِ يومٍ متعبٍ وطويلٍ. في اليومِ التالي وعندما استيقظتْ العائلةُ من نومِ ليلتِها القصيرةِ ليَجدوا المولودَ الجديدَ يتبختَرُ! في "حوْشِ" البيتِ بينَ أحضانِ أمِّهِ "راكلي" وأصدقائِها من الذين يقطنونَ معَها. كانت الكائناتُ الأخرى من حولهِ فرحةً بهِ لِجمالهِ وخفةِ ظلِّهِ وبراءةِ نظراتهِ، تداعبُهُ الأرانبُ والدجاجُ والأولادُ والنعاجُ.

تَجمّعتْ العائلةُ لتناولِ طعامِ الفطورِ والذي في معظمهِ خبزٌ بلديٌّ ساخنٌ وزعترٌ وحليبٌ وبيضُ دجاجٍ بلديٍّ من الدجاجِ الذي يُرَبّى في البيتِ. خلالَ تناولِ الأكلِ دارَ نقاشٌ حادٌّ بينَ الأولادِ، وبصفةٍ خاصةٍ بينَ حمد من جهةٍ وبينَ أخيهِ الكبيرِ جاسر من جهةٍ أخرى.

حمد: ألا تَخافُ ربَّكَ لتتركَ ذلكَ المسكينَ في البردِ والمطرِ وتُعَرِّضَهُ بذلكَ لأنيابِ الحيواناتِ المفترسةِ؟. ألا توجدُ في قلبِكَ رحْمةٌ؟، لا شفقةَ ولا إنسانيةَ من عندكَ يا رجلا!.

جاسر: وماذا تريدُني أنْ أفعلَ؟. هل أهلُكُ وبقيةُ القطيعِ من أجلهِ؟. ماذا لو تركتُ البقراتِ الثلاثِ تَهيمُ على رؤوسِها في البراري؟... ومنْ يَجمعُها لنا فيما بعدُ؟.

حمد: كان الأجدرُ بكَ لو أبقيتَ على أمِّهِ "راكلي" في البيتِ بدلاً من الذهابِ معكَ إلى البراري، لو كانَ لديْكَ أدنى إدراكٍ!.

جاسر: لقد كانتْ أمُّهُ جائعةً أيضاً وكان عليَّ أنْ أذهبَ بها مع القطيعِ جَميعاً إلى المراعي. ثُمَّ ماذا كان يُمكنُ حدوثُهُ أحسنَ مِمّا حدثَ؟. هلْ لدينا في الجيرَةِ هنا قسمٌ خاصٌّ للتوليدِ والجراحةِ الخاصّةِ بها؟!. أرجو أنْ تستعملَ عقلَكَ ولَوْ قليلاً.

حمد: هذا لا يغفرُ لكَ أنْ تتركَ فلذةَ كبدِها في البراري، هذه المخلوقةُ التي تَخدمُنا ليلَ نَهارَ، تراعينا وتتحمّلُنا وتقضي لَنا معظمَ حوائجِنا. قلْ لِيَ ماذا لو كان المولودُ عِجلاً أو سَخْلاً أو خروفاً أو حتى أرنباً، هل كنتَ فعلتَ بهِ هكذا فعلةً؟!.

جاسر: إنَّ قيمةَ هذا المولودِ لا تساوي خَمسةَ قروشٍ، ضعْ عقلَكَ في رأسِكَ!. لِماذا المقارنةُ أصلاً بينهُ وبين العِجلِ والسّخلِ والخروفِ والطفلِ والأرنبِ؟. نريدُ أنْ نعيشَ، أم تريدُنا أنْ نَركُنَ إلى معاشِكَ الشهريِّ أو مدخراتِكَ؟!.

حمد: إنَّ الخمسةَ قروشٍ التي تتحدثُ عنها لَهِيَ القيمةُ السّوقيةُ، ولكنَّكَ تتَجاهلُ القيمةَ العمليةَ والاقتصاديةَ والروحيةَ لهُ والتي هي أعلى من ذلكَ بكثيرٍ. هل بِمقدورِ أحدٍ منا القيامَ بِما يقدرُ على القيامِ بهِ عندما يكبرُ؟!. هذا الكائنُ أباً عن جدٍّ مهضومةٌ حقوقُهُ ومنكَرٌ عليهِ جَميلُهُ بسببِ جهلِ الجميعِ بهِ واستخفافِهِمْ بكيانهِ. إنَّ المصروفَ الماديَّ والرعايةَ والجهدَ المصروفَ على العِجلِ حتى يصبحَ ثوراً للبيعِ

تعادلُ أضعافَ سعرهِ في السّوقِ. في حينِ أنَّ المصروفَ الكليَّ على مَخلوقٍ من مثلِ المولودِ الجديدِ لا يكادُ يذكرُ، وبكلِّ المقاييسِ المَحلّيةِ والدوليةِ.
جاسر: لا يوجدُ عندِيَ من الكلامِ ما أضيفُهُ لكَ. أنصحُكَ أنْ تأخذَ بالكَ من نفسِكَ وتتركَ الأمورَ وشأنَها.
حمد: وأنصحُكَ أنْ ترحمَ الأمّهاتِ، الأمّهاتُ لَهُنَّ مشاعرٌ وعواطفٌ وأحاسيسٌ، وهنالك أمّهاتُ حيواناتٍ عندَهنَّ حنانُ الأمِّ أقوى من ذلكَ الموجودِ عندَ أمّهاتِ بني البشرِ. مشكلتُهُنَّ أنّهنَّ لا يتكلّمنَ ولا يقرأنَ ولا يكتبنَ؛ ليسَ عندهُنَّ لا نقاباتِ عمالٍ ولا جَمعياتٍ حقوقيةٍ ولا وسائلَ إعلامٍ ولا مندوبينَ في البرلَماناتِ أو في مَجالسِ الوزراءِ.
جاسر: والآنَ وجدتَ لكَ وظيفةً وعملاً!. عليكَ أنْ تربِّيَها وتعلّمَها وترسلَها في بعثاتٍ دراسيةٍ إلى الخارجِ وترشِّحَها لشغْلِ مناصبَ هامةٍ في الدولةِ، وربَّما يصبحُ أحدُ رؤساءِ بلديةِ المدينةِ منْها مستقبلاً!. عسى اللهَ تعالى يعينُكَ على عقلِكَ ويعينُنا على الحياةِ معكَ!.
تدخَّلَ الوالدانِ أبو جاسرٍ وأم جاسر بعدَ أنْ أيقنا أنَّ مواجهةً عنيفةً بينَ حمد وجاسرٍ على وشكِ الحدوثِ وسطَ هذا الصّراعِ الذي كشَفَ فرْقَ نفسيةِ الاثنينِ اتّجاهَ مثلِ تلكَ القضايا.
أبو جاسر: ولِماذا يا جاسر! تستخفُّ بأفكارِ غيركَ حتى ولو يصغرُكَ سنّاً؟. أرى أنَّ معهُ كلَّ الحقِ في كلامهِ. ألا تذكرُ قصةَ ذلكَ الأعرابيِّ البدويِّ الذي ساعدَ كلباً على وشكِ الموتِ عطشاً من شدةِ الحرِّ بأنْ جلبَ لهُ الماءَ من البئرِ مستعمِلاً حذاءَهُ كوعاءٍ لنقلِ الماءِ، فجزاهُ اللهُ خيرَ الجزاءِ بإدخالهِ الجنةِ؟!.
حمد: ولتتخيّلْ يا سيدَ جاسرٍ أنَّ أمَّكَ عندَما ولدتْكَ، لتتركَكَ على قارعةِ الطريقِ أو في مكانٍ ما لوحدِكَ عرضةً لِخطرِ الموتِ من الجوعِ والبردِ والخوفِ من المَجهولِ. ماذا تُراكَ فاعلٌ والحالُ تلكَ يا بشَراً؟!.
جاسر (بانفعالٍ): إياكُمْ أنْ تعقدوا تشبيهاً خسيساً كهذا معِيَ، حذارِ....
حمد: عليكَ أنْ تُقدِّرَ الحياةَ لغيركَ كما تُقدِّرُها لنفسِكَ. أنتَ كغيركَ من الكائناتِ الحيةِ. حتى الأشجارُ والنباتاتُ يَجِبُ عليك أنْ تَحترمَ مشاعرَها.
جاسر: خذوا الحكمةَ ولو من أفواهِ المَجانينِ. أرجوكَ أنْ لا تكلِّمَ أحداً غيرَنا لئلا يبدؤونَ بالضحكِ عليكَ وعلى من ربّاكَ وعلينا جَميعاً من بعدِكَ.
حمد: لا يهمُّ الآخرونَ الآنَ، المهمُّ نفسُكَ أنْ تتعلّمَ من نفسِكَ. هذا المسكينُ لولا نَجاحُ مُحاولةِ إنقاذهِ لكانَ الآنَ في عالَمِ الأمواتِ، ولنِلْتَ منّا جَميعاً ما لا ترضاهُ عيناكَ.
أبو جاسر: والآن ماذا تريدونَ تسميتَهُ؟، غضبٌ أو برقٌ أو رعدٌ أو مطرٌ أو ليلٌ أو خيرٌ أو شرٌ ..؟!.
حمد: إنَّ شكلَهُ يوحي بأنّهُ سيكونُ ذا قريحةٍ شعريةٍ قويةٍ نظراً لاتساعِ جبهتهِ وغزارةِ شَعرهِ ونافذيةِ عينيْهِ. وتيمُّناً بشاعرِنا العبقريِّ الموهوبِ الأستاذِ "زاهي بوسعْدَة"، لذلكَ أودُّ تسميتَهُ كذلكَ على اسْمهِ أو "أبوالزهو"؛ وعلى اللهِ الاتكالُ.
أم جاسر: هذا أكثرُ الأسْماءِ لباقةً بهِ وكأنَّهُ قد وُلِدَ مكتوباً هذا الاسْمَ بينَ عينيْهِ. أنا مع حمد في إطلاقِ هذا الاسْمِ عليهِ.

جاسر: وَدَدْتُ لو كنتُ مَحلَّهُ وألقى هذا النصيبَ من الحبِّ والتقديرِ والإعجابِ بشكلِهِ، ولَمْ يكدْ يبلغُ يومَهُ الأوَّلَ. حتّى هذا الاسمُ الظريفُ لهُ .... حبذا لو أقدرُ أنْ أغيِّرَ اسْمِيَ إلى اسمٍ آخرَ غيرَ الذي أنطتُ بهِ دونَ أخْذِ رأيِي لا عندما كنتُ صغيراً ولا عندَما كبرتُ ..."جاسر... هه"..
حمد: اشكرْ ربَّكَ، ذلكَ أحسنَ مِّما لو سَمّوْكَ "مُتعِبْ" أو "جُريب" أو "حُريب" أو "كُلَيب" أو حتى "غُريِّب"!.

أوَّلُ دمٍ

بدأَ "أبوالزهو" يتغذّى من البيتِ مثلَهُ مثلَ أيِّ فردٍ من أفرادِ الأسرةِ مِمّا ينتجُهُ الحقلُ من موادَّ غذائيةٍ وحيويةٍ بالإضافةِ إلى حليبِ أمهِ. ما هي إلا فترةٌ وجيزةٌ حتى أصبح يَجري ويركضُ في البيتِ وحولَهُ ومع الأولادِ ومع أمِّهِ "راكلي" في الذهابِ والإيابِ في العشيةِ والإبكارِ. كانَ أبوالزهو في طفولتِهِ مُحبّاً للدّعةِ والمداعبةِ واللّحسِ واللّمسِ. أحبَّ الكرَّ والفرَّ وأحبَّ من يكرُّ معهُ ويفرُّ؛ وما أنْ يسقطَ على الأرضِ، بسببِ عثرةٍ أو زيادةٍ في سرعةِ العدْوِ، حتى ينهضَ ليستعيدَ أنفاسَهُ ويبدأَ شوطاً جديداً. بلونهِ البنيِّ الفاتحِ وعينيْهِ الصّافيتينِ وشعرهِ ورأسهِ وأرجلِهِ وظهرِهِ وبطنِهِ وقوامِهِ الرشيقِ كان كاللعبةِ التي تدبُّ فيها الحياةُ دقيقةً بدقيقةٍ. أوَّلَ ما يراهُ يثارُ في المرءِ الإعجابُ بهِ ويتقدَّمُ ذلكَ المرءُ إليهِ ليلمسَهُ على وجهِهِ أو رقبتِهِ أو ظهرِهِ أو بطنِهِ، ليلمسَ ذلكَ الشعرَ الحريريَّ الملمسِ؛ وكانَ بعضُهُمْ من عشّاقِ الجمالِ الطبيعيِّ من يقومُ باحتضانِهِ وحَملِهِ وتقبيلِهِ، حقاً كان آيةً في الجمالِ. وكلَّما تقدَّمَ بهِ العمرُ ازدادَ زهوُ شبابِهِ ليصبحَ منظرُهُ قمّةً في إثارةِ الإعجابِ وفي حُسنِ القوامِ وإشعاعِ الحيويةِ.

أصيبَ ربُّ العائلةِ أبو جاسر بوعكةٍ صحيةٍ شديدةٍ اضطَرَّتْهُ لِملازمةِ الفراشِ فترةً طويلةً، وكادتْ أنْ تقضيَ عليهِ. طلبَ من ابنهِ حمد أنْ يذهبَ إلى المدينةِ ليقومَ ببيعِ الحليبِ واللّبنِ الرائبِ والبصلِ في شوارعِ المدينةِ، بدلاً عنهُ. تردَّدَ حمد في بدايةِ الأمرِ زاعِماً أنّهُ لا يعرفُ المدينةَ جيداً واشتكى من خطرِ السّياراتِ وتَحرّشاتِ وإزعاجِ السّائقينَ، إلا أنّهُ أذعنَ لِمطالبةِ والدهِ وذهبَ إلى المدينةِ لذلكَ الغرضِ. أخذَ فكرةً عامةً عن الأسعارِ من والدهِ وعن كيفيةِ التعاملِ مع الزبائنِ وأيِّها أسلمَ الطرقِ ليسلكَها عندَ الذهابِ والإيابِ. كانَ على حمد أنْ يبدأَ رحلةَ البيعِ إلى المدينةِ في الصّباحِ الباكرِ، عادةً حواليْ السّادسةَ صباحاً لكيْ يصلَ إلى المدينةِ بعدَ حواليْ السّاعةِ ونصفِ السّاعةِ من المشي على الأقدامِ.

في أحدِ الأيامِ كانتْ أم جاسر تساعدُ ابنَها حمد في تَجهيزِ حُمولةِ البيعِ على ظهرِ أمِّ أبوالزهو "راكلي" حينَ وقفَ أبوالزهو جاذباً. كانتْ رحلةُ الذهابِ إلى المدينةِ على وشكِ البدءِ عندما اتخذَ أبوالزهو خطَّ سَيْرٍ موازٍ لأمهِ. حاولَ حمد في البدايةِ ثَنْيَ أبوالزهو عن مرادهِ إلا أنّهُ أصرَّ! على مصاحبةِ أمّهِ وحمد إلى المدينةِ. لَمْ تطاوعْ حمد نفسُهُ لِمواصلةِ ثَنْيِ أبوالزهو عن مصاحبتِهِما. بعدَ حواليْ السّاعتينِ وصلَ حمد وأبوالزهو و"راكلي" إلى أطرافِ المدينةِ وبدأَ حمد المناداةَ على

البضاعةِ المكونةِ في معظمِها من الحليبِ واللّبنِ الرائب. كان الإقبالُ على البيعِ شحيحاً لأنَّ حمد كان لا يزالُ بائعاً جديداً على شوارعِ المدينةِ ومعظمُ الناسِ هناكَ لديهِمْ بائعونَ ثابتونَ لا يشترونَ من غيرِهِمْ، حتى ولَو بسعرٍ أقلَّ. لَمْ يتمكَّنْ من بيعِ سوى "بقلولةٍ" واحدةٍ (البقلولةُ هي اسْمٌ مَحليٌّ لوعاءٍ مَخروطيِّ الشكلِ ومصنوعٍ من الفخارِ الأسْمرِ أو البنيِّ اللونِ وتتسعُ البقلولةُ الواحدةُ إلى حواليْ اللترِ منَ السّائلِ الذي عادةً ما يكونُ مِن الحليبِ أو اللّبنِ الرائبِ).

ما أنْ توغّلتْ "قافلةُ حمد" قليلاً داخلَ شوارعِ المدينةِ حتى فوجئَ حمد بعددٍ مِن الأولادِ الصّغارِ يقفونَ على طرفِ الشارعِ. رأى الأولادُ الصّغارُ أبوالزهو الصّغيرَ وأعجبَهُمْ شَكلُهُ وبدؤوا بالتجمُّعِ حولَهُ في شكلٍ شبهِ دائريٍّ؛ ظنَّ حمد في البدايةِ أنّهُمْ يريدونَ مداعبتَهُ بلطفٍ. بدأ أحدُهُمْ بالمَسْكِ برأسهِ وآخرُ يشدُّهُ من رجلهِ وثالثٌ يُحاولُ الضغطَ على رقبتهِ. أحسَّ حمد بضغطٍ كبيرٍ داخلَ عروقِ دمهِ واندفعَ صوبَ الفتيةِ الصّغارِ لإبعادِهِمْ عن أبوالزهو. وجاءَ اثنانِ أو ثلاثةٌ آخرونَ واتّحدوا جَميعاً مُحاولينَ ركْلَ أبوالزهو وضرْبَهُ على رأسهِ والقَفزَ على ظهرهِ. صاحَ بِهِمْ حمد جَميعاً أنْ يتركوا أبوالزهو وشأنَهُ حينَ لَمْ يَجِدْ منهُمْ آذاناً صاغيةً. هاجَمَهُمْ بعصاهُ ووصلَ عددٌ آخرُ منَ الأولادِ وزادتْ حدّةُ الهجومِ على حمد وأبوالزهو. تَمكّنتْ المَجموعةُ الأولى من ضربِ أبوالزهو وتَمزيقِ شعرِهِ وإحداثِ كسورٍ، ربّما، في منطقةِ الحوضِ عندَهُ ونتفِ شعرِ جلدهِ. صارَ الدَّمُ يسيلُ من بعضِ جوانبِ جسمهِ. صاحَ بهِمْ حمد من جديدٍ ومن تَحْتِ وطأةِ الهجومِ الجماعيِّ الشرسِ أنْ يا هؤلاءِ السّفلةُ أنْ يتركوهُمْ وشأنَهُمْ أو سيقطِّعُهُمْ جَميعاً إرباً إرباً!. وكان يقفُ ليسَ ببعيدٍ عن أرضِ الاشتباكِ شخصٌ أقرعٌ أصلعٌ في أربعيناتِ عمرهِ؛ رجاهُ حمد وتوسّلَ إليهِ للتدخلِ لإنقاذِهِمْ مِن الفتيةِ "الأشرارِ" فما كانَ منهُ إلا أنْ نظرَ إلى حمد ضاحكاً ومستهزئاً ساخراً!. بدأ حمد من جديدٍ يَجمعُ ما تبقى لديهِ من طاقةٍ مستعملاً الحجارةَ والعصا للدفاعِ عن نفسهِ وعن أبوالزهو. بعدَ حواليْ نصفِ ساعةٍ على بدءِ المعركةِ الشرسةِ تلكَ تَمكّنَ حمد من الإفلاتِ والهربِ بصحبةِ أبوالزهو و"راكلي" إلى مكانٍ آمنٍ قريبٍ مع خدوشٍ و"رتوشٍ!" دَمِّيّةٍ في الرأسِ والصّدرِ والوجهِ والأذرعِ.....

ذَهَبَتْ المَجموعةُ المكوّنةُ من "حمد وأبوالزهو وراكلي" مسارعينَ الخُطى بعيداً عن هؤلاءِ الصّبيةِ ومشوْا حواليْ نصفَ كيلومترٍ في شارعٍ جانبيٍّ في ضاحيةِ المدينةِ بعيداً عن مركزِ المدينةِ قدْرَ الاستطاعةِ لتجنبِ الكثافةِ العاليةِ للبشرِ هناكَ. وبعدَ أنْ تأكّدوا من زوالِ الخطرِ، وقفَ حمد وأبوالزهو على جانبِ الشارعِ يَتفقّدونَ أجزاءَ أجسامِهمْ المصابةَ والسّالِمةَ!. دعا حمد اللهَ مُخلصاً من قلبهِ وكافّةِ حواسهِ لئنْ أنقذَ لهُ أبوالزهو من بطشِ المدينةِ وأولادِها ليقضينَّ طولَ العمرِ للهِ عابداً ومتعبداً وناسكاً وأنْ لا يعصيَ والدَيْهِ أبداً مهما ستكونُ طلباتُهُما!.

بدأ حمد المناداةَ على البيعِ من جديدٍ وبعدَ سيرِ مئةِ مترٍ تقريباً أطلَّتْ عليهِمْ، من شباكِ بنايةٍ في منطقةٍ مرتفعةٍ كثيراً فوقَ مستوى الشارعِ، امرأةٌ حسناءُ لطيفةُ المناداةِ عذبةُ الصّوتِ!. سألتْ عن البيعِ فأجابَ حمد أنّهُ يبيعُ الحليبَ واللّبنَ الرائبَ والبصلَ اليابسَ. قالتْ أنّها تريدُ أنْ تشتريَ بقلولةَ لبنٍ رائبٍ فسألَها حمد عن السّبيلِ إلى بابِ بيتِها فأشارتْ عليهِ إلى مطلعِ درجٍ يبدأ بالشارعِ وينتهي في منتصفِ المرتفعِ. كان هنالكَ ما لا يقلُّ عن خمسينَ درجةٍ مقسّمةٍ إلى مجموعاتٍ

يربطُ بينَها شبهُ بَسْطةٍ صغيرةٍ كلَّ عشرينَ درجةٍ تقريباً. قالَ لَها حمد أنَّ المسافةَ بعيدةٌ عليهِ وعلى أبوالزهو وأمِّه وحمْلِ البضاعةِ. زعمَتْ أنّهُ لا يوجدُ عندَها أحدٌ في البيتِ وأنّهُ إذا ما أراد حمد أنْ يبيعَها شيئاً فإنَّ عليهِ وصحبتهِ تسلُّق الدَّرَج. قالَ حمد: لا حولَ ولا!. بدأتْ المَجموعةُ بالتسلقِ؛ تارةً يقومُ حمد بحَمْلِ أبوالزهو ليوصلَهُ إلى أقربَ بسطةٍ ليعودَ ليسوقَ أمَّهُ إلى ذلكَ المكانِ... وهكذا دواليكَ. وبعدَ جهدٍ جهيدٍ وانقطاعِ كلِّ الأنفاسِ وصلَ حمد وجَماعتُهُ إلى مدخلِ بيتِ المرأةِ "الحسناءِ". قال حمدَ في نفسهِ إذاَ كانَ كسبُ العيشِ مؤدّاهُ هكذا فمنَ الأفضلِ أنْ لا يكونَ هنالكَ كسبٌ أو حتى عيشٌ!.

وقفتْ المَجموعةُ أمامَ البابِ فخرجَ عليهِمْ رجلٌ كاملُ الصّلعِ تقريباً بادرهُ حمد قائلاً أنَّ المرأةَ ادَّعتْ بأنَّ لا أحداً لديها لترسلَهُ إلى الشارعِ السّفليِّ لشراءِ البضاعةِ!؟. كان شخصاً شاباً قويَّ البنيةِ مفتولةً عضلاتُهُ يعلو فمَهُ شاربٌ أسودُ كثيفٌ. طلبَ من حمد أنْ يبيعهُ "بقلولتين" وسألَ عن الثمن. قال حمد أنّهُ يبيعُ البقلولةَ الواحدةَ بخمسةِ قروشٍ لذا عليهِ أنْ يدفعَ عشرةَ قروش. قالَ الرجلُ أنّهُ يكفي حمد سبعةُ قروشٍ فردَّ حمد أنَّ رأسْمالَها خمسةُ قروشٍ لكلٍّ منها مستثنياً التعبَ والإجهادَ لهُ ولمجموعتهِ الكاملةِ. بكلِّ فظاظةٍ أجابهُ الرَّجلُ بأنّهُ إذا لَمْ يُردْ البيعَ بذلكَ السّعرِ فإنَّهُ سيعيدُ لهُ البقلولتيْن. مشى البيعُ بسعرٍ فرضَهُ المستهلكُ البخيلُ هذهِ المرةَ، لأنَّ حمد كانَ يريدُ التخلّصَ من بضاعتهِ بأقصى سرعةٍ مُمكنةٍ. كان خائفاً أنْ تتكرَّرَ مأساةُ الصّباحِ مع أولادٍ جددٍ يَخرجونَ من أيٍّ من أحدِ أزقّةِ المدينةِ الكثيرةِ والمكتظّةِ بالسّكان. وما أنْ هبطَ حمد ومن معهُ الدَّرَجَ إلى الشارعِ حتى تذكَّرَ أنّهُ نسيَ أنْ يسترجعَ البقاليلَ الفارغةَ، ليعيدَ الكَرَّةَ من جديدٍ ولكنْ هذهَ المرةَ لوحدهِ حيثُ صعدَ الدّرَجَ سريعاً. لكنَّهُ وجدَ هناكَ أنَّ الرجلَ لمْ يقمْ بعدُ بتفريغِ البقاليلِ من اللّبنِ. توسَّلَ إليهِ حمد بأنْ يقومَ بذلكَ وبسرعةٍ حيثُ أنّهُ كانَ يَخشى أنْ يقومَ أحدُهُمْ بسرقةِ أبوالزهو الصّغيرِ والبضاعةِ ويكونَ اليومُ يومَ كارثةٍ مشهوداً لهُ في تاريخِ عائلةِ أبو جاسر. تدخَّلتْ زَوجتُهُ والتي صاحتْ بهِ أنْ يشعرَ ولو قليلاً مع بني البشرِ، وفعلاً حصلَ لهُ ذلكَ!. عادَ حمد إلى الشارعِ ليجدَ أبوالزهو وأمَّهُ "راكلي" بالانتظارِ وحَمَدَ اللهَ كثيراً أنْ لا شيءَ مِمّا وسوستْ لهُ نفسُهُ قد حَصَلَ لا معَ أبوالزهو ولا مَعَ أمِّهِ "راكلي".

بعدَ السّيرِ مسافةَ كيلومترٍ أو أكثرَ بقليلٍ دخلتْ مَجموعةُ حمد مُخيَّماً للاجئينَ ليس ببعيدٍ عن ضواحي المدينةِ. هنالكَ وَجَدَ حمد أعداداً كبيرةً من الأولادِ وبعضَ الرجالِ والنساءِ. اعترى حمد الخوفُ من الأولادِ من أنْ تتكرَّرَ تلكَ المأساةُ التي حصلتْ معهُ قبلَ بضعِ ساعاتٍ من حينهِ. إلا أنَّ امرأةً في أواخرِ أيامِ شبابِها سألتهُ عمّا في جعبتهِ للبيعِ. تردَّدَ حمد في الإجابةِ ظنّاً منه أنَّها، ومنْ شكَلِها الفَقيرِ، لن تشتريَ شيئاً. قالَ لَها أنّهُ يبيعُ لبناً رائباً وحليباً وبصلاً يابساً. وما هيَ إلا دقائقُ حتى تَجمَّعَ الكثيرُ من الناسِ حولَهُمْ وحولَ البضاعةِ، كلٌّ منهُمْ يريدُ أنْ يشتريَ ودونَ أيَّةِ مساومةٍ؛ لَمْ يتردَّدوا في دفعِ أيِّ سعرٍ طلبَهُ حمد وباعَ كلَّ حُمولتهِ في وقفةٍ واحدةٍ وعندَ مدخلِ مُخَيَّمِ اللاجئينَ. سألَ النّاسُ هناكَ حمد عن اسْمهِ واسمِ قَريتهِ وعنوانهِ وأهلهِ وفيما لو كانَ جائعاً أو عطشاناً أو تعباً أو خائفاً!. أخبرَهُمْ حمد ما جرى لهُ ولصديقهِ أبوالزهو وطلبَ منهُمْ أنْ يَجعلوا الأولادَ لا يقتربونَ من أبوالزهو حيثُ أنّهُ لا يزالُ تَحْتَ صدمةِ المعركةِ الأولى الصّباحيةِ لذلك اليومِ. قالَ

الناسُ من حولهِ لهُ أنّهُ ومن معهُ ضيوفٌ أعزاءٌ وطمأنوهُ على حالهِ ومن معهُ. لَمْ يقدرْ حمد أنْ يفسِّرَ ما الذي حدا بالأغنياءِ أولادِ الأغنياءِ إلى ذلكَ التصرّفِ المغايرِ لِما يراهُ من أهلِ المخيمِ الفقراءِ؛ في البدايةِ ظنَّ أنَّ أصحابَ البيوتِ العاليةِ عندهُمْ نفوسٌ وأخلاقٌ ومشاعرُ راقيةٌ وعاليةٌ وعلى العكسِ مِمَّن يسكنونَ البيوتَ الصّغيرةَ من الفقراءِ. طلبَ منه سكانُ المخيّمِ أنْ يأتيَ كلَّ يومٍ بحُمولتهِ ومن معهُ ليبيعوذَها هناكَ؛ ولنْ يكونَ ما سيَحصلُ معهُمْ إلا ما يرضيهِ ويَسرُّهُ.

في طريقِ العودةِ إلى البيتِ في القريةِ كانَ على حمد أنْ يتجنَّبَ سلوكَ نفسِ طريقِ القدومِ إلى المدينةِ لتلافي تكرارِ ما حصلَ لهُ في الصّباحِ. سألَ حمد أحدَ شُبّانَ مُخيّمِ اللاجئينَ إنْ كانَ الأخيرُ يعرفُ طريقاً بعيداً عنِ المدينةِ يؤدي السّيرُ عليهِ إلى قريةِ حمد البعيدةِ. أجابهُ الشابُّ بالإيجابِ وسارَ معهُ مسافةَ كيلومترٍ تقريباً ليوصلهُ إلى بدايةِ طريقٍ يبدأُ طرفُه بالشارعِ الرئيسيِّ العامِّ، يَخترقُ الجبالَ والوديانَ والسّهولَ والتلالَ ولكنَّهُ في نهايةِ الأمرِ يؤدي إلى أراضي القريةِ من الجانبِ الشرقيِّ ومن ثَمَّ إلى القريةِ حيثُ البيتُ والأهلُ.

تقريباً في منتصفِ الطريقِ الجبليِّ المتعرّجِ مرَّ حمد ومن معهُ بعينِ ماءٍ صغيرةٍ وقليلاً جاريةٍ. كانَ بعضُ النّاسِ قد أضافوا إليها بعضَ التحسيناتِ بأنْ جعلوا الماءَ يتدفّقُ خلالَ أنبوبٍ مُمتدٍّ من قاعدةٍ خرسانيةٍ حيثُ يَخرجُ منها ماءٌ عذبٌ زُلالٌ عندَما ينظرُ إليهِ المرءُ في الشمسِ كمنْ ينظرُ إلى كتلةٍ مُمتدّةٍ من الموادِ البلوريةِ غايةً في الجمالِ الجذّابِ. توقّفَ حمد ومن معهُ على ضفافِ تلكَ العينِ للراحةِ. وبينَما كانوا في حالةِ استراحةٍ مرَّ بهِمْ رجلٌ فلّاحٌ، وإلى حدٍّ ما كبيرٌ في السّنِّ؛ حيّاهُمْ وجلسَ معهُمْ. سألَهُمْ من أينَ هُمْ وإلى أينَ هُمْ ذاهبونَ ولِماذا سلكوا تلكَ الطريقَ الطويلةَ الوعِرةَ. أخبرهُ حمد بالقصةِ. نظرَ الرجلُ العجوزُ إلى أبوالزهو وقالَ أنّهُ يَخشى أنْ يكونَ أبوالزهو "مقطوعاً أو مَملوعاً"؛ تعبيرٌ مَحليٌّ عن حالةٍ من التعبِ والإعياءِ ناتِجةٍ عن بذلِ جهدٍ إضافيٍّ في رفعِ أثقالٍ أو جرِّ حِمْلٍ ثقيلٍ تؤدّي بصاحبِهِ إلى التوقّفِ في النموِّ، حالةٌ قد تكونُ ناتِجةً عن تَهتّكٍ وتفسُّخٍ في عضلاتِ الجسمِ والقلبِ مِمّا يعيقُ النموَّ تَماماً. سألهُ حمد عن ماذا يعني ذلكَ فأجابَ العجوزُ بأنَّ أبَوالزهو لنْ ينموَ ولن يكبرَ بعدَها أبداً. صُدِمَ حمد لِهذا الخبرِ وهو الذي قطعَ على نفسهِ عهداً أنْ لا يتركَ الصّلاةَ والصّيامَ وطاعةَ الوالدينِ إذا ما نَجا أبوالزهو من أولادِ المدينةِ؛ الآنَ أبوالزهو لا ينمو ولا يكبرُ وسوفَ يكونُ قصيرَ العمر!؟. إلا أنَّ هاجساً في عقلِ حمد أخبرهُ أنَّ أبوالزهو لا يزالُ بخيرٍ وأنّهُ من غيرِ المُحتَملِ أنْ لا يستَجيبَ اللهُ تعالى لهُ ويُخيبَ ظنَّهُ وأملَهُ في الدعاءِ. سَألَ حمد الشيخَ العجوزَ عن العملِ والحالةُ تلكَ!. أجابَ العجوزُ بأنَّ عليهِ أنْ يصبرَ قليلاً، ربَّما أسبوعاً أو أسبوعينِ أو حتى الشهرَ وأنْ يعتنيَ بأبوالزهو أكثرَ، وأنْ يقدِّمَ لهُ الحليبَ والأكلَ الجيدَ معَ زيادةٍ في الراحةِ. قالَ لهُ حمد بأنَّ ذلكَ كلَّهُ متوفرٌ. استطردَ العجوزُ قائلاً بأنّهُ غيرَ ذلكَ فإن عليهِ التخلصَ منهُ إذ لا فائدةَ منهُ ولا مستقبلاً مرجوّاً لهُ. قالَ لهُ حمد بأنَّ ذلكَ لن يَحدثَ وسوف يبذلُ كلَّ جهدهِ لإنقاذِ أبوالزهو من تلكَ المِحنةِ.

غادرَ العجوزُ المكانَ وبدأَ حمد وركبُهُ بالسّيرِ. نظرَ حمد إلى أبوالزهو، إلى جسمهِ وعينيْهِ ومتأمّلاً خطواتهِ. كانَ يبدو دائمَ الإنْهاكِ وعيناهُ تفقدانِ البريقَ وشعرُهُ ينقصُ في اللمعانِ وعندهُ تبوُّلٌ وتبرُّزٌ لا-إرادِيانِ!، وظهرُهُ قد تقوَّسَ قليلاً. لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ. كثرتْ الأدعيةُ والصّلواتُ الخاصّةُ لإنقاذِ حياةِ ومستقبلِ

أبوالزهو وأنْ لا يُحرَمَ حمد من جَمالهِ الفتّانِ وصحبتهِ الوديعةِ وخفّةِ روحهِ وظلّهِ وصدقِ ودِّهِ.

بينَ العصرِ والمغربِ، وصلَ الرَّكْبُ البيتَ حيثُ وجدَ حمد كلَّ أفرادِ البيتِ بانتظارهِمْ وكانوا في قلقٍ شديد عليهمْ حيثُ أرسلَ والدُهُ أبو جاسر ابنَه الكبيرَ جاسر إلى المدينةِ للبحثِ عنهُمْ. عادَ جاسر إلى البيتِ وانْهالَ بأسئلةِ اللومِ على حمد لاصطحابهِ أبوالزهو لهُ حيثُ أنَّ ذلكَ مِمّا يُكثرُ من المشاكلِ والهمومِ، على حدِّ تعبيرهِ. قالَ حمد إنَّ تلكَ المشاكلَ لَمْ تأتِ من أبوالزهو ولكنَّها أتَتْ من ضَعفِ وتردّي مستوى أخلاقِ جهازِ التربيةِ والتعليمِ في مدارسِ المدينةِ. شعَرَ الجميعُ باللوعةِ والتحسُّرِ لِما جرى لَهُمْ في ذلكَ اليومِ. أخبرَ الوالدُ أبو جاسر ابنَهُ حمد بأنّهُ طوالَ حياتهِ الماضيةِ كانَ يعاني من مشاكَساتِ المدينةِ وأولادِها وأنَّ قصةَ أبوالزهو في ذلكَ اليومِ ليستْ أكثرَ من نقطةٍ في بَحرِ المعاناةِ اليوميةِ الأبديةِ، ذلكَ الكابوسِ الطبقيِّ الأزليِّ!.

ودارتْ الأيّامُ والليالي ومرَّتْ السّاعاتُ والدقائقُ، قَدَّمَ حمد وأهلُهُ لأبوالزهو كلَّ ما أمكنهُمْ تقديمَهُ من طيِّبِ الطّعامِ والصّحيِّ المفيدِ منهُ بالإضافةِ إلى ما تيسَّرَ لَهُمْ من عقاقيرَ طبيةٍ. بدأتْ الحياةُ تدَبُّ من جديدٍ في أركانِ بدنِ أبوالزهو وروحهِ وعادَ لهُ بريقُ العيونِ ورشاقةُ القوامِ وحريرُ نعومةِ الشعرِ والمَلمسِ. تنفّسَ حمد والعائلةُ الصّعداءَ!؛ بَعدَ الكِتابِ، وربَّما قبلَهُ، وقبلَ أيِّ شيءٍ غيرهِ كانَ أبوالزهو خيرَ جليسٍ في الزمانِ في حياةِ حمد.

كلابٌ ضائعةٌ

في تلكَ الآونةِ كَثُرَتْ في القريةِ الكلابُ الضالةُ والهاربةُ من أصحابِها والضائعةُ؛ لسببٍ أو لآخَرَ، تركتْ أصحابَها أو هجرَها أصحابُها. أصبحتْ تتَجمّعُ مَع بعضِها في مَجموعاتٍ متفاوتةٍ في العددِ والقوّةِ، كلابٌ من مُختلفِ الأعمارِ والألوانِ والأحجامِ والمآربِ والأهدافِ. باتتْ تُهاجِمُ حقولَ ومزارعَ الخضارِ والفواكهِ، تُهاجِمُ الناسَ وَخاصةً الأطفالَ والنساءَ مستغلّةً الخوفَ والضعفَ عندَهُمْ؛ كذلكَ لَمْ تسلمْ قطعانُ الماشيةِ و"أخْمامُ" (أخْمامٌ جَمعٌ لكلمةِ "خُمْ" بالمَحلّيةِ وتعني بيتَ الدجاجِ أو مكانَ نومِها) الدجاجِ وجحورُ الأرانبِ من بطشِ جوعِها و"فلتانِ عقالِ" الكثيرِ منها. اشتكى الناسُ على اختلافِ أطيافِهِمْ المعيشيةِ والاجتماعيةِ والعقائديةِ من تلكَ الظاهرةِ المزعجةِ والمرعبةِ في آنٍ معاً وفي كثيرٍ من الأحيانِ. كانت الشكاوى تقدَّمُ أولاً إلى إمامِ مسجدِ القريةِ ومنْ ثَمَّ إلى العُمْدَةِ على أساسِ أنَّهُمْ يُمثّلونَ ظِلالَ الحكومةِ في القريةِ. قسمٌ من العُمْدةِ ساهمَ في استفحالِ تلكَ الظاهرةِ بسببِ تركِهِمْ لكلابِهِمْ تَجوعُ وتَهربُ بَحثاً عن مصدرٍ آخرَ للعيشِ. أخيراً أوصِلتْ شكاوى أهلِ القريةِ إلى مَخفرِ شرطةِ المدينةِ القريبةِ ظنّاً منَ الناسِ أنَّ الشرطيَّ يُمكنُ أنْ يستخدمَ سلاحَهُ الشخصيَّ لقتلِ الكلابِ؛ لَمْ يكنْ بعلمِهِمْ أنَّ شرطةَ المدينةِ ممَّنْ خدموا طوالَ حياتِهِمْ في سلكِ الشرطةِ لَمْ يستخدموا سلاحَهُمْ ولو مرّةً واحدةً لا ضدَّ كلبٍ ضائعٍ أو حتى وحشٍ كاسرٍ، وأنَّ ذلكَ السّلاحَ يستعملُ ربَّما فقط لإضافةِ الهيبةِ على حالِهِمْ، ربّما. وأوعزتْ الشرطةُ بدورِها إلى مديريةِ الصّحةِ وقسمِ الطبِّ البيطريِّ، الحديثِ النشوءِ، بالتعاملِ الحازمِ معَ ظاهرةِ الكلابِ الضائعةِ.

ذاتَ يومٍ كان حمد ذاهباً إلى وسَطِ القريةِ من البيتِ وكان الوقتُ صباحاً والجوُّ غائماً جزئياً ماطراً بعضَ الشيءِ وبارداً. أوقفَ أحدُ معلّمي المدرسةِ، وهو خرّيجٌ من إحدى الجامعاتِ العريقةِ خارجَ الدولةِ وكانَ يسيرُ معهُ "لفيفٌ" من الأشخاصِ والذينَ كانوا يرتدونَ بدلاتٍ رسْميةً، أوقفَ الولدَ حمد في منتصفِ الشارعِ. كان مع المعلّمِ أحدُ عُمْدةِ وإمامُ مسجدِ القريةِ ومندوبٌ عن دائرةِ الصّحةِ وآخرُ من قسمِ الطبِّ البيطريِّ وكان الأخيرُ يَحملُ قالباً أحْمرَ اللونِ صغيرَ الحجمِ من سُمومٍ للحيواناتِ، كما بدا. سارَ خلفَهُمْ وعلى مقربةٍ منهُمْ عددٌ من أولادِ وشبانِ القريةِ، وقسمٌ منهُمْ كانوا قد أوثقوا رقابَ كلابٍ لَهُمْ بِحبالٍ لِمنعِها من تناولِ السّمومِ فيما بعدُ.

سألَ معلّمُ المدرسةِ الولدَ حمد إنْ كانَ يرغبُ ببيعِ أبوالزهو بعشرةِ قروشٍ من أجلِ استخدامِ لَحْمِ جِسمِهِ للقضاءِ على الكلابِ الضّالّةِ في القريةِ بعدَ إطْعامِهِ السّمومَ ودهنِ جِسمِهِ بها. لَمْ يكدْ يَنتهي المعلّمُ من عرضِهِ الشرسِ والفظِّ حتى رفضَهُ حمد جُملةً وتفصيلاً ورفضَ حتى التفكيرَ في الموضوعِ مرّةً ثانيةً. أرادَ المعلّمُ أنْ يُغريَ حمد بأنْ رفعَ السّعرَ لأبوالزهو إلى خَمسةَ عشرَ قرشاً. قال لهُ حمد بأنَّ أبوالزهو ليس للمساومةِ وأنّهُ لَمْ يُخلقْ لِمعالجةِ مشاكلِ القريةِ وأهلِ القريةِ وكلابِ القريةِ بتلكَ الطريقةِ؛ وأنَّ تلكَ الكلابَ لَمْ تكنْ لتضيعَ، أو يضعَ كلُّ واحدٍ منها

"حبلَهُ على الغاربِ!"، وتصلَ إلى ما وصلتْ إليهِ من التسيُّبِ هكذا لو وجدتْ الحدَّ الأدنى من حُسْنِ التصرفِ معَها ورعايتِها بالأكلِ والمكانِ المناسبِ للعيشِ هي وأولادُها. أضافَ حمد للمعلِّم بأنَّ هنالكَ ألفَ طريقةٍ وطريقةٍ حضاريةٍ للتعاملِ معَ الكلابِ من هنا وهناكَ. قالَ حمد للمعلِّم: ظننتُ أنكَ ستستخدمُ عقلكَ أكثرَ سيَّما وأنتَ خرّيجُ جامعةٍ، ولقد رأيتُ قبلَ مدّةٍ في بيتِكَ عدداً كبيراً من المُجلّداتِ الكبيرةِ المصفوفةِ في خزانةٍ زجاجيةِ الوجهِ، اللهمَّ إلا إذا وضعتَها في ذلكَ الشكلِ للديكورِ فقط!. أضافَ حمد مُخاطباً المعلّمَ أنّهُ رأى صورةً شَمْسيةً للمعلّمِ حيثُ تبدو تلكَ المُجلّداتُ من خلفهِ. أثناءَ الحديثِ هدَّدَ العُمْدةُ الولدَ حمد أنّهُ في حالِ استمرارِ رفضهِ بيعِ أبوالزهو فإنّهُ سيلجأ إلى والدِهِ أبو جاسر لابتياعِ أبوالزهو منهُ وأنّهُ، أيْ حمد، سيخسرُ القروشَ المعروضةَ عليهِ ثمناً لأبوالزهو. قالَ لهُ حمد بأنَّ ذلكَ لن يتمَّ ولن يقدرَ أحدٌ على التصرفِ في حياةِ أبوالزهو طالَما أنَّ حمد باقٍ على قيدِ الحياةِ. وهنا تدخَّلَ إمامُ المسجدِ وقالَ إنَّ عليهِمْ إيجادَ طريقةٍ مناسبةٍ للقضاءِ على الكلابِ الضالّةِ مثلَ إيجادِ "طُعوم" صغيرةٍ مناسبةٍ تُنثَرُ في أمكنةِ تَجَمُّعِ الكلابِ. ردَّ عليهِ مندوبُ دائرةِ الصّحةِ متهكّماً أنّهُ ليسَ لديهِ وقتٌ أو إرادةٌ ليتتبّعَ الكلابَ ويغريَها بتلكَ "الطُعوم"!. أضافَ مندوبُ الصّحةِ متسائلاً؛ وأينَ هيَ تلكَ الطعومُ السّامةُ؟ ... لا وجودَ لَها في أقسامِ الطبِّ البيطريِّ في كلِّ أنْحاءِ الدولةِ. حينئذٍ استدركَ إمامُ المسجدِ متسائلاً عن إمكانيةِ استخدامِ دورياتٍ من الشّرطةِ الخاصّةِ المزوّدةِ ببنادقَ خاصةٍ لتطلقَ النارَ على كلِّ كلبٍ ضالٍّ تراهُ في القريةِ أو حولَها!. وردَّ عليهِ العُمدةُ قائلاً بأنَّ ذلكَ يتطلّبُ إذناً خاصاً من دائرةِ الاستخباراتِ وقيادةِ الشرطةِ والجيشِ في العاصمةِ وغيرَ ذلكَ من إجراءاتٍ قبلَ تحويلِ حقولِ القريةِ وساحاتِها إلى "ميادينِ موتٍ" للكلابِ الضالةِ والتي ربّما يؤدي قتلُها بذلكَ الشكلِ إلى حوادثَ مؤسفةٍ!. أضافَ العُمدةُ مستدركاً بأنَّ هنالكَ الكثيرَ من الكلابِ عاليةِ الذكاءِ والتي بمجرَّدِ أنْ تسمعَ بإطلاقِ أوّلِ عيارٍ ناريٍّ سوفَ تغادرُ القريةَ وحقولَها إلى القرى المُجاورةِ والبعيدةِ وهذا مِمّا قد يوسِّعُ "دائرةَ العنفِ" في كلِّ المنطقةِ ويفتحُ البابَ على مصراعيهِ لكافةِ الاحتمالاتِ!.

توجّهتِ المجموعةُ بعدَ ذلكَ إلى فلّاحٍ آخرَ لديهِ حِمارٌ صغيرٌ وابتاعوه منهُ، وضعوا السُّمَّ في فمهِ وحلقهِ ودَهَنَ الطبيبُ البيطريُّ جِسمَهُ وأذنيهِ ورأسَهُ ويديْهِ وقدميْهِ وألقوا بهِ على مُجَمَّعٍ بيادرِ القريةِ. وما أنْ اشتَمَّتْ الكلابُ رائحةَ الجثّةِ الضحيةِ وعرفتْ مكانَ وجودِها حتى بدأتْ تتوافدُ عليْها لتأخذَ نصيبَها من طُعومِ الموتِ السّريعِ. ما أنْ يتناولَ الكلبُ "قَضمةً" أو اثنتين حتى يبتعدَ بضعةَ أمتارٍ، يلفُّ حولَ نفسهِ بضعَ مرّاتٍ، ينبحُ قليلاً وبصوتٍ يثيرُ الشفقةَ في النفسِ، يرتَمي على الأرضِ، يتمرَّغُ، يعيدُ النباحَ مودّعاً لِما حولَهُ وبشكلٍ يائسٍ هذهِ المرَّةَ ثمَّ يَموتُ. في تلكَ العمليةِ تَمَّ القضاءُ على عشراتِ الكلابِ الضائعةِ، وغيرِ الضائعةِ بعدُ، وانتشرتْ جثثُ الكلابِ في البيادرِ والسّاحاتِ والشعابِ المُجاورَةِ وكرومِ الأشجارِ المثمرةِ وحتى شوارعِ القريةِ الداخليةِ مهدّدَةً بنشرِ الأوبئةِ المعلومةِ منها والمَجهولةِ. بعدَ ذلكَ ببضعةِ أيامٍ هطلتْ أمطارٌ غزيرةٌ جداً وجرتْ السّيولُ الجارفةُ وجرفتْ معها قسماً من جثثِ الكلابِ، وقسمٌ منها قامَ بعضُ الشبابِ بسحبهِ إلى أماكنَ بعيدةٍ عن القريةِ وحَرْقِ بعضِ الجثثِ والتي بدأ التعفنُ يدبُّ فيها. عنايةُ اللهِ تعالى فقط أنقذتْ القريةَ من كوارثَ بيئيةٍ وصحيةٍ ناتِجةٍ عن الكلابِ الضائعةِ

وأصحابها وعن جهلِ مندوبِ مديريةِ الصّحةِ ودائرةِ الطبِّ البيطريِّ ومعلِّمِ المدرسةِ والعُمْدةِ.

التقى حمد بمعلِّمِ المدرسةِ ذاتَ يومٍ فيما بعدُ وسألهُ كيفَ يسمحُ لنفسهِ بمصاحبةِ أناسٍ فيهِمْ مَنْ ليس عندهُ إحساسٌ نبيلٌ اتّجاهَ الكائناتِ الحيَّةِ الأخرى، وأضافَ لـهُ أنَّ تصرفَهُمْ اتّجاهَ تلكَ الكائناتِ قد يهبطُ كثيراً إلى مستوى حتى الحشراتِ الضارةِ. كيف لهُ أنْ يقتلَ كائناً حيّاً ينضحُ بالبراءةِ والجمالِ والعفويّةِ. كيفَ لهُ أنْ يوافقَ أنْ يرى السَّمَّ يُدخَلُ إلى فمهِ وحلقهِ وبقيةِ جسمهِ وهو معلِّمُ الأجيالِ!. قالَ لهُ حمد أنْ يتخيَّلَ نفسَهُ أو أحدَ أولادهِ وهو يعاملُ بالطريقةِ المتوحشةِ تلكَ. ادَّعى المعلِّمُ الجامعيُّ أنَّ ما يصدقُ على الحيواناتِ ليسَ بالضرورةِ يصدقُ على الإنسانِ. أجابهُ حمد بأنّها نفسُ المشاعرِ والأحاسيس لكنَّ الحيواناتِ لا توجدُ عندَها القدراتُ الطبيعيةُ للتعبيرِ بالنُّطْقِ عما يَجولُ في خواطرِها. لا يوجدُ كائنٌ حيٌّ يُحبُّ أنْ يَموتَ أو يُقتلَ أو يصارُ السَّمُّ إلى جسدهِ. هنالكَ آلافُ الطرقِ الحضاريةِ للتعاملِ مع كلِّ القضايا. ردَّ المعلِّمُ على حمد بأنّهُ إذا ما سُمحَ لفكرهِ أنْ يسودَ ستأخذُ الحيواناتُ كلَّ الحريةِ في التجوُّلِ والحركةِ ويصبحُ المكانُ أشبهَ بسوقٍ قديمٍ يَختلطُ فيهِ الحيوانُ بالبشرِ وتنتشرُ الفوضى والانْحطاطُ الفكريُّ والماديُّ والمعنويُّ للمجتمعِ!. أجابهُ حمد بأنَّ أساسَ الانْحطاطِ الحاليِّ هو عدمُ قدرةِ الإنسانِ على تَفهُّمِ متطلباتِ الحيوانِ من تغذيةٍ ورعايةٍ ومسكنٍ صحيٍّ ومعاملةٍ مناسبةٍ. لا يوجدُ أحدٌ مع الحريةِ الكاملةِ لأيِّ شيءٍ ولكنَّ الأمورَ بالطريقةِ تلكَ هي غايةٌ في التخلّفِ والوحشيةِ. هل تريدُ أنْ تقولَ ليَ أنَّ ذلكَ الجزّارَ الذي يقطعُ رأسَ الدابّةِ على حافّةِ الطريقِ تاركاً دمَها ينزفُ ويَملأُ الشارعَ بالأوساخِ والأمراضِ، هل لديهِ أدنى فَهْمٍ أو وَعْيٍ؟ سألهُ حمد. ثُمَّ يقومُ بعدَ ذلكَ بتعليقِها وسلخِها وتقطيعِها أمامَ أعينِ المارَّةِ في منظرٍ مُزْرٍ يقشعرُّ لهُ البدَنُ؛ ما الضَّيْرُ لو فعلَ ذلكَ داخلَ حجرةٍ بعيداً عن أعينِ الناسِ؟ استطردَ حمد قائلاً. وما هي وظيفةُ المسالخِ في هذا الصّددِ؟ أضاف متسائلاً. عليكَ أنْ تعلِّمَ الناسَ التهذيبَ في التعاملِ مع ما حولَهُمْ وأنْ يكونوا مثالاً لغيرِهِمْ لِحذوِ حذوِهِمْ؛ استدركَ مُستفهماً. أو أنّهُ لا فائدةَ منكَ ومن علمِكَ ومن كُتُبِكَ المصفوفةِ في الخزائنِ وعلى الرّفوفِ؛ اختتمَ حمد حديثَهُ لِمعلِّمِ المدرسةِ مُنَوِّهاً.

فعلٌ ضِدَّ الإرادةِ

كانَ صيفاً زاهياً بصحبةِ أبوالزهو إذ بعدَ أنْ ارتوى من حليبِ أمِّهِ وحليبِ المزرعةِ أصبحَ يتغذّى على خضارِ الصّيفِ ومَحصولِهِ ويكبرُ شيئاً فشيئاً. كان يُمارسُ رياضةَ المشي السّريعِ الطّويلِ والركضِ البطيءِ والسّريعِ و"الرباع أو الطّرادِ" السّريعِ صعوداً للجبالِ وهبوطاً إلى بطونِ الوديان. صارَ صاحباً وصديقاً ودوداً لكلِّ أفرادِ العائلةِ صغيرِها وكبيرِها، يثيرُ إعجابَهُمْ بحركاتهِ اللّبقةِ ولياقةِ جسمِهِ العاليةِ وتركيزِ عقلِهِ وذكائِهِ وفطنَتِهِ غيرِ العاديّةِ لكلٍّ منها!.

أتى فصلُ الخريفِ لينعمَ أبوالزهو بِمَا تَجمَّعَ لدى العائلةِ من مَحصولِ الصّيفِ من الحبوبِ والذرةِ وحتى الكثيرِ من الخبزِ والأرُزِّ. في منتصفِ فصلِ الشتاءِ وأثناءَ العطلةِ نصفِ السّنويةِ قرّرتْ الوالدةُ أمَ جاسر الذهابَ إلى العاصمةِ لزيارةِ ابنةِ زوجِها، وأختِ حمد (غيرَ الشقيقةِ)، السّيدةِ "محظوظة" المتزوِّجةِ من شابٍّ "درباس" يتخذُ مدينةً أخرى مسكناً لهُ منذُ زمنٍ ليسَ ببعيدٍ. قرّرتْ أم جاسر اصطحابَ ولدِها حمد ليتعرّفَ على مدنِ الدولةِ الأخرى. ودّعَ حمدٌ صديقَهُ أبوالزهو وأوصى أفرادَ أسرتهِ فرداً فرداً بأنْ يُحسِنوا معاملتَهُمْ لأبوالزهو. استغرقتْ الزيارةُ مدةَ أسبوعين تقريباً. بعدَ عوْدتهِ من رحلتهِ وجدَ حمد أنَّ والدَهُ وأخاهُ جاسر قد قاما بعمليةِ "خَصْيٍ" (استئصالِ الخصيتينِ) لأبوالزهو بالتعاونِ مع أحدِ "الأخصائيينَ" بهذا المَجالِ في المدينةِ. لقد تَمَّ استئصالُ الأعضاءِ الذكريةِ التناسليةِ لهُ في عمليةٍ وحشيةٍ وفظّةٍ هذه المرةَ دونَ علمٍ أو مشورةِ حمد. لقد انتقصَ ذلكَ من قيمةِ أبوالزهو وعنفوانهِ الذكوريِّ وهيبتهِ أمامَ بقيةِ الخلقِ بشكلٍ لا يقبلهُ عقلٌ ولا ضميرٌ إنسانيٌّ ولا إحساسٌ حيوانيٌّ!.

حمد: كيفَ تَجرؤُ يا سيّدَ جاسر على مثلِ هذا العملِ الفظِّ الجبانِ؟!. لقد تَحيَّنْتَ فرصةَ غيابيَ عنِ البيتِ والقريةِ ولَمْ تفكِّرْ حتى بأخْذِ رأيِيَ في الموضوعِ.

جاسر: نعرفُ أنّكَ تُحبُّهُ كثيراً. حتّى يظلَّ في كنفِنا ولا يَحدثُ بسببِهِ إزعاجٌ أو مشاكلُ من هذا القبيلِ أو ذاكَ قرَّرْنا القيامَ بعمليةِ خَصْيٍ لهُ بالتعاونِ مع أشهرِ "الخصّايينَ" في المنطقةِ، "الحاجُّ صُعَيْب". ... ها ها ها!!.

حمد: وما يدريكَ أنّهُ صاحبُ مشاكلَ؟، وكيفَ حكمتَ عليهِ مسبقاً؟. إنّهُ يَختلفُ عن بقيةِ الخلقِ.

جاسر: وكيفَ لهُ ذلكَ؟!. لا توجدُ لديهِ علامةٌ مُميّزةٌ أو مرسومٌ من أيِّ مكانٍ ينصُّ على أنّهُ يَختلفُ عن بقيّةِ أقرانِهِ. إلا إذا كنتَ قد أرسلتَهُ إلى مدرسةٍ خاصّةٍ

متخصّصةٍ في تَهذيبهِ وصقْلِ تصرفاتهِ، على غيرِ علمٍ منّا، نَحْنُ هنا في هذا البيتِ!.....
حمد: حتى وإنْ كانَ كذلكَ! مَنْ أعطاكَ الصّلاحيةَ بالتصرفِ هكذا بهِ والحطِّ من قيمتهِ والقضاءِ على نسلهِ ومن يرثُهُ... نِهائياً؟!.
جاسر: لن أنتظرَ مثْلَ هذه الصّلاحيّاتِ منكَ وهذا أقلّ ما يُمكنُ عملُهُ في الحالةِ هذهِ.
أبو جاسر: يا ابنِيَ! هنالكَ الكثيرُ من أمثالهِ في القريةِ ولا داعِيَ للخوفِ على جنسهِ من الانقراضِ. يوجدُ عندنا أولادٌ وطرْشٌ كثيرٌ ولا ينقصُنا مشاكلُ من هذا القبيلِ أو ذاكَ. لقد أحبَبْتَهُ أكثرَ من أمِّكَ وأبيكَ، مباركٌ عليكَ!، ابقَ معهُ فهو لكَ ولا تتخلّى عنهُ...
حمد: تصوروا يا جَماعةً! عمليةَ استئصالِ خِصيِّ كائنٍ حيٍّ، دونَ بنجٍ أو تَخديرٍ وعلى أيدي من لا يرحَمونَ لا الإنسانَ ولا الحيوانَ ولا حَتى أنفسَهُمْ وأولادَهُمْ منْ أمثالِ "الحاجِّ صُعَيْبٍ"؛ كلُّ هَمِّهِمْ كسبُ المالِ والرزقِ. لِماذا لا تشعرونَ مع ذلكَ المسكينِ الذي نُحَمِّلُهُ ما لا طاقةَ لهُ بهِ من أجلِ راحتِنا وازدهارِ حياتِنا. كُفّوا عن مثلِ تلكَ الأعمالِ لأجلِ حقِّ السّماءِ.
جاسر: باللهِ عليكَ أنْ تتوقّفَ عن تشبيهِنا بالحيوانِ وتشبيهِ الحيوانِ بنا. الحيوانُ حيوانٌ يا أخي!... ولتفهمْ يا بشرا!.
حمد: الحيوانُ لا يَختلفُ عنا من هذه النواحي؛ يشعرُ، يُحِسُّ، يتألَمُّ، يفرحُ، يَحزنُ، يفكّرُ، يتعبُ، يشقى، يستريحُ، لهُ قلبٌ وكبدٌ وأحاسيسُ ومشاعرُ، عندهُ دماغٌ وجهازٌ عصبيٌّ. عندهُ نوايا حسنةٌ فقط وليس لديهِ أيةُ نوايا شريرةٍ تذكرُ، أو أيُّ نوعٍ من أنواعِ المكرِ والخداعِ واللفِّ والدورانِ.
ألقَى حمد نظرةَ تفحّصٍ على جسمِ صديقهِ أبوالزهو والذي كان لا يزالُ يعاني من بقايا آلامٍ وآثارِ ما بعدَ صدمةٍ أو حادثٍ ناتجةٍ عن عمليةِ استئصالٍ وحشيةٍ لزوجٍ من الخُصِيِّ في دقائقَ معدودةٍ ودونَ أدنى إجراءاتٍ طبيةٍ أو معنويةٍ!.
لا يَمشي أبوالزهو بخطٍّ مستقيمٍ، وجسمُهُ فيه بعضُ الالتِواءِ، ويتحاشى أنْ يضمَّ رجليهِ لبعضِها أثناءَ الوقوفِ أو الجلوسِ أو المشيِ. إضافةً إلى ذلكَ لا ينامُ جيداً إذ أنَّ "كابوسَ" شكلِ ذلكَ الرجلِ الضخمِ الذي قَطَعَ لهُ خصيتيْهِ لا يزالُ يلاحقُهُ في نومهِ!. وقالَ أولادُ البيتِ لِحمد أنّهُ لا يكادُ يوشكُ على الاسترسالِ في النومِ والاسترخاءِ، وبشكلٍ فجائيٍّ ينهضُ ويركلُ برجليْهِ ويُحاولُ الهربَ يَميناً ويساراً. كان لسانُ حالهِ يقولُ:
أبوالزهو: لقد كانتْ تَجربةً مرعبةً في حياتِيَ. رأيتُ ذلكَ الرجلَ العريضَ المنكبينِ وصاحبَ العضلاتِ المفتولةِ والصّدرِ والكرشِ المنتفخين، وكان يَحملُ بيدهِ مسماراً طويلاً ساخناً ملتهباً وفي اليدِ الأخرى سكّيناً (مِبضَعاً) حاداً. تعاوَنَ جَميعُ البشرِ من حولِيَ لإلقائِيَ على الأرضِ شديدةِ الصّلابةِ وأصبحتْ يديَّ ورجليَّ تسترسلانِ في الهواءِ إلى الأعْلى لكيْ يُمسكَ ذلكَ الرعديدُ بخصيتيَّ ويقتلعُهُما من بينِ رجْليَّ مع شديدِ الألَمِ والقسوةِ. استعملَ "شاروخَ" النارِ (كلمةُ "شاروخ" مَحلّيةٌ تَعني قضيباً خشبياً مشتعلاً بالنارِ أو معدنياً ساخناً جداً) لقطعِ الخصيتيْنِ، لن أسامِحَهُ ما حييتُ. ألقى بالخصيتيْنِ في ماعونٍ بلاستيكيٍّ ولا أعرفُ ماذا عَمِلَ بهِما فيما بعدُ، ربَّما قدّمهُما غذاءً لإحدى الكلابِ أو القططِ الجائعةِ التي رأيتُها تَجوبُ قريباً من المكانِ وقتئذٍ. ما أنْ تَمكّنتُ من الوقوفِ على أرجلِيَ حتى رأيتُ أخانا! جاسر وقد أعطى

ذلكَ المُجرمَ الجبانَ كميةً من النقودِ كأجرةِ يدٍ و"بَخشيشٍ" على ما ارتكبتْ يداهُ من خطيئةٍ بحقّيَ. كان الألَمُ شديداً جداً، وأصبحَ يَخِفُّ شيئاً فشيئاً. الآنَ لا يوجدُ ألَمٌ شديدٌ ولكنّني أشعرُ بأنَّ هنالكَ شيئاً ناقصاً من عندِيَ في تلكَ المنطقةِ!.
حمد (لجاسر): هل يعجبُكَ هذا الكلامَ يا سيِّداً؟! وهل تفكّرُ بما قمتَ بهِ من عملٍ يستحقُّ الثناءَ والمدحَ أو الذمَّ والعتابَ وحتى الزجرَ؟!. هذا المَخلوقُ وبهذه النفسيةِ والروحِ الرياضيةِ والمعنويةِ وهذه المشاعرُ والأحاسيسُ يستحقُّ التقديرَ والاحترامَ والمعامَلةَ اللائقةَ.
أبوالزهو: كفاكُمُ لوماً ونقاشاً حاداً واتركوني وشأنِيَ. دَعونِ أعيشُ معكُمْ، آكلُ مِمّا تأكلونَ وأشربُ مِمّا تشربونَ وأذهبُ حيثُما تذهبونَ وأنامُ حيثُ تنامونَ. أنا منكُمْ ومعكُمْ وإليكُمْ... والسّلامُ عليكُمُ......
حمد: أشعرُ بالأسفِ الشديدِ واللوعةِ والترحُّمِ على حالِكَ. في الوقتِ الذي يقضونَ فيهِ على نسلِكَ ومن يرثُكَ ويَحفظُ اسْمَكَ، يغضُّونَ الطرْفَ عن الذين يقومونَ بتفجيرِ قنابلَ سكانيةٍ في هذا العالَمِ، الصّغيرِ منِ حولنا والكبيرِ.
وتوجَّهَ حمد إلى مَن حولَهُ قائلاً:
في الوقتِ الذي توجدُ فيهِ ستُّ قارّاتٍ في العالَمِ تنضحُ بالملايينِ من البشرِ الذين لا يشبعونَ ولا يرتوونَ ولا يقنعونَ بما هُمْ فيهِ؛ تستكثرونَ على منْ مثلِ أبوالزهو إنْ أنْجَبَ ما يَخلفهُ في جَمالهِ وبراءتهِ وعفويتهِ وحبِّهِ الشديدِ للتعايشِ السّلميِّ مع كافةِ الخلقِ. البشرُ يتسابقونَ على الحروبِ والتدميرِ تسابقَ الطيورِ الجارحةِ على قصعةٍ في الفيافي، والأقليةُ من مثلِ حالِ أبوالزهوَ يرفدونَ الحياةَ بالحبِّ والخيرِ والعملِ الصّادقِ الدءوبِ. إنّهُ العارُ بعينهِ ولا يوجدُ أكثرَ منهُ عارٌ.
أبو جاسرٍ: لاَ تتكلَّمْ بصوتٍ عالٍ لئلّا يسمعَ بكَ هؤلاءِ الناسُ من هنا وهناكَ ويقولونَ عنكَ وعنّا أننا مَجانينٌ. حسبِيَ اللهُ عليكَ إنْ تَماديتَ بهذا الكلامِ اللا-مسئولِ.

بلوغُ سنِّ العملِ ... والفلسفةِ

يبلغُ أبوالزهو من العمرِ الآنَ سِنَّ العملِ بعدَ فترةِ "طفولةٍ وصباً" قضاها في اللهوِ واللعبِ والتمتّعِ بأطايبِ وألذِّ أنواعِ الأكلِ والشرابِ من منتَجاتِ البيتِ والحقلِ والجبالِ والسّهولِ والوديانِ المُجاورةِ. وخلالَ نفسِ تلكَ الفترةِ تَمكّنَ كذلكَ من التعرفِ على السّهلِ والجبلِ والوادي وقِطعِ الأراضيَ التي تَملكُها عائلةُ أبو جاسر على قلّتِها، والمستأجرةِ على كثرتِها، ومعرفةِ من هو الصّاحبُ من العدوِّ وما الشيءُ المفيدُ من الضارِّ. يعرفُ أوقاتَ العملِ الجدّيِّ وأوقاتَ الراحةِ، أيامَ الأفراحِ وساعاتِ الغمِّ والحزنِ؛ صارَ جزءاً لا يتَجزَّأُ من العائلةِ جسدياً ومعنوياً ونفسياً وحتى فكرياً وروحياً!. وبالرغم من صغرِ سنِّهِ وحداثتِه إلا أنّهُ كانَ يشاركُ، ولو بشكلٍ بسيطٍ أحياناً، في كافةِ الأعمالِ السّهلةِ والشاقةِ. أصبحَ عوناً للعائلةِ عندَ الصّعودِ وعكّازاً لها عندَ الهبوطِ. صارَ يعرفُ أوقاتَ دوامِ المدارسِ وأوقاتَ خروجِ الطلبةِ وذهابِهمْ إلى البيوتِ، أيامَ الامتحاناتِ اليوميةِ ونصفِ الفصليةِ والنهائيةِ. أصبحتْ لديهِ القدرةُ على معرفةِ الناجحِ من الراسبِ في الامتحانِ من الأولادِ!؟. صارَ مَحطَّ إعجابِ الصّغيرِ والكبيرِ في عائلةِ أبو جاسر وعندَ أقاربِ وأصهارِ وجيرانِ وأصحابِ أبو جاسرَ دونَ استثناءَ.....

أبوالزهو (يتخاطبُ! معَ حمد): إنّني أستاءُ كثيراً عندما أراكَ تتركُني في الصّباحِ وتذهبُ إلى المدرسةِ، وأفرحُ كثيراً عندما تعودُ من المدرسةِ لأنّني أعرفُ بأنّكَ تُحبّنِي كثيراً ولا تطيقُ الابتعادَ عنِّيَ طويلاً.

حمد: أنا أيضاً! أفرحُ كثيراً عندما يُقرعُ الجرسُ معلناً انتهاءَ آخرِ صفٍّ مدرسيٍّ لأعودَ وأرى وجهَكَ البشوشَ المشرقَ. سئمتُ المدرسةَ والمعلّمينَ والطلبةَ والكتبَ. وددتُ لو أظلُّ بجانبِكَ في العملِ والمَجيءِ والذهابِ نتبادلُ أطرافَ الحديثِ ليلَ نهارَ حيثُ أنّني لا أَمَلُّ الحديثَ معكَ. لكنْ يا صديقِيَ! أريدُ أنْ أؤمِّنَ مستقبلِيَ وأكونَ قادراً على الاعتمادِ على نفسِيَ، عليكَ أنْ تعرفَ أنَّ الدنيا لا تدومُ لأحدٍ وعلى الواحدِ أنْ يَجِدَّ ويَجتهدَ ويَحصلَ على مستوىً تعليميٍّ لائقٍ.

أبوالزهو: وكم من الزمنِ مضى وأنتَ ماضٍ تتعلّمُ في هذه المدرسةِ؟. منذُ خُلِقْتُ وأنا أراكَ لا تنقطعُ يوماً واحداً عن الذهابِ إليها.

حمد: حواليْ الخمسَ سنواتٍ. بَقِيَ أربعُ سنواتٍ أخرى قبلَ أنْ أنتهيَ من المرحلةِ الإعداديةِ فقط. بعدَ ذلكَ هنالكَ عددٌ آخرُ من السّنينِ في التعليمِ الثانويِّ والجامعيِّ لتأمينِ مستقبلٍ أفضلَ ليَ وللعائلةِ بما فيهِمْ حضرتُكُمْ!.

أبوالزهو: خَمسُ سنواتِ تعليمٍ ولا تقدرُ أنْ تقومَ بعملٍ يَجلبُ لكَ الرزقَ!؟. لَمْ أتعلَّمْ في المدرسةِ يوماً واحداً ولَمْ أَحشُرْ مرّةً واحدةً مع أيِّ مدرّسٍ في مناجاةٍ عن قربٍ وها أكسبُ رزقِيَ ورزقَ غيرِيَ بتعبِيَ وجهدِيَ وعرقِ جسمِيَ وجبينِيَ!، كما يقولونَ.

حمد: قلتُ لكَ بأنّنِي أريدُ أنْ أحصلَ على رزقِيَ بشكلٍ مستقلٍّ وبكرامةٍ وشرفٍ. هنالكَ فرقٌ بينَ من يعملُ ومن يُستخدمُ في العملِ!؛ أنتَ فقطْ تستخدمُ للقيامِ بالأعمالِ.
أبوالزهو: ماذا تقصدُ؟!... أنا الذي أقومُ بأعمالِ الحرثِ والفلاحةِ والزرعِ في النهارِ وبعضِ الليلِ وحتى الدفاعِ! عن العائلةِ بكلِّ ما أوتيتُ من قوّةٍ. قلْ لِيَ عن أيِّ عملٍ لا أقدرُ على القيامِ بهِ وبكفاءةٍ لا تتوفّرُ حتى عندَ أيٍّ من المتعلمينَ؟!.
حمد: لكنَّ تلكَ الأعمالَ مِمّا تقومُ بهِ لا يحتاجُ إلى إعمالٍ للفكرِ وحرقٍ للأعصابِ والانتظارِ الطويلِ والنجاحِ في الامتحانِ. فقطْ تمتلكُ القدرةَ على التلاؤمِ مع الظروفِ ولكنَّكَ لا تقدرُ أنْ تفكِّرَ بتحسينِ الحياةِ وسبلِ العيشِ وظروفِ العملِ، إنْ جازَ أو صحَّ القولُ!..
أبوالزهو: ما هذا الكلامُ السّاذجُ الذي تتلفَّظُ بهِ؟!. إنَّ كلَّ المالِ والمدّخراتِ التي تدخلُ البيتَ تقريباً تَمُرُّ من على ظهرِيَ ومن تَحْتِ أقدامِيَ. الشَّعْرُ الذي على أبدانِكُمْ، أنتُمْ كلُّ أفرادِ عائلةِ أبو جاسر، نَما وينمو بسببِ حبّاتِ عرقِيَ ومن جهدِيَ وتضحياتِيَ، ومنْ قبلُ أمِّيَ "راكلي"، التي لا تقدَّرُ بثمَنٍ. دمُكُمْ ولحمُكُمْ وشحمُكُمْ كلُّها من دمِيَ، ودم أمِّيَ من قبلُ والآنَ وفيما بعدُ....
حمد: عفواً يا صديقِيَ أبوالزهو! تتصرّفُ ببالغِ الانفعالِ والتأثُّرِ والثقةِ بالنفسِ على حدٍّ سواءَ. ظنَنْتُ أنّكَ تعملُ وأمُّكَ بصمتٍ ولكنَّكَ برهنتَ أنكَ ساكتٌ على سِرٍّ، بلْ أسرارٍ، خطيرٍ حتى بالرغمِ من صِغرِ سنِّكَ!. أتكلَّمُ أو أودُّ أنْ أتكلَّمَ عن شيءٍ آخرَ ليسَ بمقدورِكَ أنْ تعرفَهُ. أنت بنفسِكَ، وقبلَ أيامٍ قليلةٍ سألتَنِي ما الذي يَجعلُ الأجسامَ تسقطُ من على ظهرِكَ إلى الأسفلِ عندما نُحاولُ أنْ نَجمعَها وتَحملَها بعضَها ببعضٍ، أصحيحٌ ذلكَ أم لا صَحيحاً؟.
أبوالزهو: وماذا أجبتَنِي؟..
حمد: أجبتُكَ "الجاذبيةَ" وشرحتُ لكَ شيئاً عنها، إنَّها جاذبيةُ الأرضِ!.
أبوالزهو: وماذا يعني ذلكَ؟. لَمْ أفهمْ ذلكَ من قبلُ.
حمد: يا أخِيَ!، يا حبيبِيَ!، كلُّ جسمٍ يطلعُ إلى الأعلى صعوداً يَجبُ أنْ ينزلَ إلى الأرضِ أخيراً ومهما طَالَ الزمنُ... هَبوطاً!. أَلَمْ تسمعْ بالمثلِ القائلِ: "ما طارَ طيرٌ وارتفعَ، إلا وكما طارَ وقعَ"؟!. كما ترى أنَّهُ إذا ما قُذِفَ حجرٌ إلى الأعلى سرعانَ ما يهوي إلى الأرضِ ويَجِبُ أنْ تأخذَ حذرَكَ حتى لا يعودَ ويسقطَ على رأسِكَ ويكسرَ جُمجُمَتَكَ.
أبوالزهو: وماذا نكسبُ من ذلكَ العلمِ؟. هل جلبَ لنا حتى الآنَ كوباً من الحليبِ أو رغيفاً من الخبزِ، أو حتّى شربةَ ماءٍ؟.
حمد: بعدَ وقتٍ ليسَ بالطويلِ، سوفَ نقومُ بعملِ أشياءَ كثيرةٍ ونَحصلُ على الكثيرِ من الفوائدِ التي أنتظرُها أكثرَ من انتظارِكَ لَها. عليكَ بالصّبرِ!.
أبوالزهو: سؤالٌ! تقولُ أنَّ كلَّ شيءٍ يصعدُ إلى أعلى يَجبُ أنْ يهبطَ في النهايةِ إلى الأرضِ؛ هل ينطبقُ ذلكَ على من مثلِ العُمْدةِ ورؤساءِ البلدياتِ والذين أخبرتَنِي قبلَ مدةٍ أنّهُ مضى وقتٌ طويلٌ عليهِمْ وهُمْ بتلكَ الدرجاتِ العاليةِ! حيثُ لا يطرأُ عليهِمْ أيُّ تغييرٍ؟.
حمدَ: الأمرُ نفسُهُ يصدقُ على العُمْدَةِ وأعضاءِ مَجلسِ الشعبِ، لكنْ إذا ما تُرِكَ هؤلاءِ وهؤلاءِ دونَ دعمٍ من الجماهيرِ من حولِهِمْ!...

أبوالزهو: مضى على هؤلاءِ في تلكَ المناصبِ عشراتُ السّنينَ ومنذُ ولادةِ جَدَّةِ أمِّيَ وجدَّةِ جَدّتِيَ الأولى.
حمد: بعضُ الأجسامِ تَحتاجُ لوقتٍ أطولَ من غيرها للسقوطِ. أخيراً الجميعُ سيسقطونَ لا مَحالةَ. ثانياً هو أنَّ هؤلاءِ البشرَ يَختلفونَ عن ما تفكِّرُ بهِ وأمثالُكَ. هؤلاءِ ما أنْ يصلوا إلى مكانٍ حتى يُحاولونَ كلَّ جهدِهِمْ البقاءَ فيهِ. هؤلاءِ ومن معَهُمْ يَختلفونَ عنكَ وعن أمِّكَ وأجدادِكَ وجدّاتِكَ ... هؤلاءِ وبفضلِ من حولَهُمْ يسقطونَ من أعلى إلى الأعلى! لكنْ في النهايةِ سوفَ تُسقطُهُمْ الجاذبيةُ إلى الأسفلِ، شأنُهُمْ شأنُ أيِّ جسمٍ آخرَ...
أبوالزهو: آسفٌ يا صديقِيَ!، إنَّ هنالكَ أسئلةً كثيرةً بخاطرِيَ، ولطالَما تذهبُ إلى المدرسةِ وتتعلَّمُ وأنتَ مُجتهدٌ وذكيٌّ، علِّمْنِي أستفيدُ منكَ ومنَ أفكارِكَ. لا تَحجِبْ عنِّيَ علمَكَ، أحبُّ أنْ أتنوَّرَ مثلِيَ مثلَ بقيةِ هؤلاءِ الخلْقِ على الأقلَّ.
حمد: يا حبيبِيَ أبوالزهو! لكنَّ فكرَكَ متشعِّبٌ وفيهِ تكمنُ وعورةٌ. أتَحدَّثُ معكَ عن الجاذبيةِ وتريدُ أنْ تُدخلَنِي في غياهبِ السّياسةِ والأمنِ وركائزِ الحكمِ المَحليِّ والقانونِ العامِ. في الوقتِ الحاليِّ لنركِّزْ على نقلِ الخضارِ والحبوبِ منَ الحقولِ، والمياهِ مَن عيونِ الماءِ. أطلبُ منكَ أنْ تأخذَ حذرَكَ من أصحابكَ لئلّا يأتِ أحدُهُمْ ويُخَرِّبَ المشاتلَ والمزروعاتِ بحجةِ زيارتِهِ لكَ. رويداً رويداً سوفَ تفهمُ قوانينَ الجاذبيةِ وتتعلّمَ تفاسيرَ ظواهرِ الطبيعةِ الأخرى بالإضافةِ إلى معرفتِكَ الكبيرةِ والطبيعيةِ المتوارثةِ بأمورِ السّياسةِ والاجتماعِ (المُجتمعِ) والبيئةِ والفلسفةِ وعلمِ النفسِ والتاريخِ والحضارةِ وحتى التربيةِ البدنيةِ الرياضيةِ!.
أبوالزهو: أرجوكَ أنْ تتعاونَ معِيَ فأنا مثلُكَ طموحٌ، لكنَّ ظروفَ الحياةِ ومقتضياتِها وواجباتِ البيتِ والأسرةِ لا تتركُ لِيَ متسعاً من الوقتِ للذهابِ إلى المدرسةِ أو الكلّيةِ!.
حمد: لا تقلقْ يا أبوالزهو! من الناحيةِ هذهِ. أنتَ أكثرَ الخلقِ فلسفةً وفكراً. أرسطو وأفلاطون وكونفوشيوس وطاغور، وغيرُهُمْ الكثيرُ لَمْ تَكنْ لديهِمْ مدارسُ ولا جامعاتٌ، تقدرُ أنْ تفعلَ وتتطوَّرَ أكثرَ منهُمُ. بدورِيَ! أيُّ شيءٍ "أستوعبُ فهمَهُ" من المدرسةِ أضعُهُ فوراً تَحْتَ تصرّفِكَ، أنتَ الأقربُ على وجودِيَ مادةً وفكراً ومعنىً.
أبوالزهو: بدأتُ أشعرُ أنَّ ذهابَكَ إلى تلكَ المدرسةِ ليسَ من قبيلِ العَبَثِ (كلمةُ عبثٍ تعني الأمرَ التافهَ أو اللا-منطقيَّ أو غيرَ ذا جدوى أو قيمةٍ ماديةٍ أو معنويةٍ). لا شكَّ أنَّ لديكَ من المعلّمينَ الجهابذةِ الذين يقومونَ بتلقينِكُمْ هذا العلمِ حالَ أنْ تطأَ أقدامُكُمْ أرضَ المدرسةِ. أريدُكَ أنْ تأخذَنِي معكَ إلى هناكَ حتى أشربَ العِلْمَ من رأسِ أحدِ ينابيعهِ الكثيرةِ هنا!.
حمد: صدِّقْنِ! يا أبوالزهو أنّهُ سيَحدثُ العكسَ. سوف ترى أنَّهُمْ في تلكَ المدرسةِ سينهلونَ منكَ العلمَ والمعرفةَ والأخلاقَ والفلسفةَ، فيما لو فكّروا قليلاً. لا تستهنْ بنفسِكَ وقيمتِكَ العظيمةَ أمامَ نفسِكَ وأمامَ الآخرينَ.
أبوالزهو: فيلسوفٌ وخبيرٌ ومفكِّرٌ وحكيمٌ ... لكنْ يا صديقِيَ لا توجدُ معِيَ شهادةٌ تدلُّ على أنَّنِي قادرٌ على اجتيازِ السّنةِ الأولى من تعليمِ البراعمِ من الأولادِ الصّغارِ!.

ما أنْ تكونَ عندَ حمد عطلةٌ مدرسيةٌ لسببٍ أو لآخرَ أو عطلةُ منتصفِ السّنةِ أو عطلةُ الصّيفِ الطويلةِ للمدارسِ، أو حتى عطلةُ نهايةِ الأسبوع، حتى يتفرَّغَ حمد معَ أبوالزهو للذهابِ إلى المدينةِ في الصّباحِ الباكرِ. يبيعانِ! المَنتَجاتِ الزراعيةَ والحيوانيةَ من منتَجاتِ الحقلِ والأبقارِ والأغنامِ التي تُربّيها العائلةُ لأهلِ المدينةِ والمناطقِ المُجاورةِ. تنتجُ المزارعُ الصّغيرةُ الخضارَ والفواكهَ من مثلِ الخيارِ والبصلِ والتينِ والرمانِ واللوزِ وبكمياتٍ متواضعةٍ. وتوجدُ في البيتِ مَجموعَةٌ لا بأسَ بِها منَ الدجاجِ البيّاضِ والحمامِ الذي ينتجُ الزغاليلَ "اللاحمةَ". يَجِدُ كلُّ ذلكَ طريقَهُ إلى شوارعِ المدينةِ للبيعِ بالتجوالِ. كانَ حمد وأبوالزهو من أكثرِ المتساهلينَ في البيعِ حيثُ الأسعارُ متواضعةٌ وحيثُ هَمُّ حمد الأكبرُ التخلُّصُ منَ الحُمولةِ بأقصى سرعةٍ مُمكنةٍ، و هذا ما كان يَجعلُهُما يَخسرانِ كثيراً. ففي الوقتِ الذي كانَ فيه أهلُهُ يتوقّعونَ أَنْ يَحصلوا في نهايةِ اليومِ على ما لا يقلُّ عن تسعينَ قرشاً يأتيهمْ حمد بستّينَ أو سبعينَ قرشاً على الأكثرَ. كانَ يَجري نقاشٌ! حادٌّ، في كثيرٍ من الأحيانِ، بينَ أبوالزهو وحمد عن مَنِ المسئولُ عن تدنّي مستوى البيعِ، هل هُمُ المشترونَ البخلاءُ أم التسرُّعُ في التخلُّصِ من حِمْلِ البضائعِ أم عدمُ الكفاءةِ في التسويقِ وعرضِ البضاعةِ!...؟!.

ذاتَ يومٍ وكانَ الطقسُ ربيعياً دافئاً وبعدَ أنْ قاما ببيعِ ما لديهما من بضاعةٍ توجَّها إلى مركزِ المدينةِ وذلك ليقصَّ حمد شعرَ رأسهِ. كانَ على أبوالزهو أنْ ينتظرَ بجانبِ الصّالونِ وفي مكانٍ قريبٍ من البابِ ومكانِ جلوسِ الزبائنِ. كانَ مدخلُ الصّالونِ الكبيرِ كلُّهُ تقريباً مصنوعاً من الزجاجِ الشفّافِ بحيثُ تُمكن رؤيةُ الزبائنِ بداخلهِ من على بعدِ عشراتِ الأمتارِ من الصّالونِ. جُهِّزَ الصّالونُ بأكثرَ بقليلٍ منَ الحدِّ الأدنى من التجهيزاتِ جعلتهُ يفرضُ تسعيرةً عاليةً نسبياً عندَ كلِّ قصةِ شعرٍ. انتهى حمد من قصِّ شعرِ رأسهِ ودفعَ أجرةَ قصِّ الشعرِ وما يسمّى ب"الإكراميةِ" وخرجَ نصفَ خاليَ الجيبيْنِ تقريباً بعدَما امتلكَ ثمنَ بيعِ حُمولةِ لبنٍ وحليبٍ وخضارٍ كاملةٍ.

أبوالزهو: نعيماً! يا صديقِيَ.

حمد: شكراً.

أبوالزهو: سؤالٌ! كَمْ مرَّةً تَحلقُ شعرَ رأسِكَ في السّنةِ الواحدةِ؟.

حمد: تقريباً! كلَّ شهر مرّةً. أكرهُ الحِلاقةَ والحلاقينَ والصّالوناتِ، ولكنْ كما تعرفُ مقتضياتِ النظافةِ والشّكلِ الحسنِ والترتيبِ والمظهرِ ... والذوقِ!.

أبوالزهو: لكنَّ شكلَكَ قبلَ الحلاقةِ مقبولٌ أكثرَ مِمّا هوَ عليهِ الآنَ!.

حمد: عليَّ أنْ أصبرَ أسبوعاً آخرَ حتى يعودَ لِيَ جزءٌ من شعريَ وأتخلّصَ من آثارِ الحلاقةِ هذهِ. كما تعرفُ أنَّ همَّ هؤلاءِ الحلاقينَ هو الأجرةُ والإكراميةُ وتأمينُ العودةِ مرَّةً أخرى بكلمةٍ لطيفةٍ يكرّرُها كلُّ حلّاقٍ مع كلٍّ من الزبائنِ من مثلِ "نأملُ بعودتِكُمْ إلينا مرَّةً أخرى" (خلّو ها بعودة!)؛ وكلماتٍ أخرى مقتضبةٍ من أقلِّ الكتبِ في المكتبةِ سُمْكاً وأكثرَها عندَ هؤلاءِ الناسِ استعمالاً ألا وهو كتابٌ يُسمى بِ"قاموسِ الكلامِ المعسولِ".

أبوالزَّهو: وهلْ دفعتَ لهُ أجرةً وإكراميةً فوقَ ذلكَ؟!. توقَّعتُ أنّهُ الذي يدفعُ لكَ بدلاً من هذهِ الحلاقةِ التعيسةِ الذي يبدو فيها شكلُكَ أكثرَ بؤساً من ذي قبلُ. اذهبْ إليهِ واسترجعْ فلوسَكَ منهُ في الحالِ وقبلَ أنْ ينسى أنَّكَ الذي كنتَ عندَهُ قبلَ قليلٍ!...

حمد: هل أنت مَجنونٌ؟! حتى لو تحدثْ بينكَ وبينَهُ مَجزرةٌ لنْ تقدرَ على انتزاعِ حتى فلسٍ واحدٍ من ذلكَ الحلّاقِ. إنَّ الموسى التي يستعملُها بيدهِ ليستْ فقط للحلاقةِ!. قد يستخدمُها ضدَّ نفسِ الزبونِ الذي قامَ بخدمتهِ قبلَ قليلٍ من وقتهِ، وأشبعَهُ مفرداتٍ وجُملاً مكرّرةً من معسولِ الكلامِ، إذا ما استدعتْ الضرورةُ لذلكَ!. ثُمَّ يا أخِيَ هذه حالُ كلِّ الصّالوناتِ في البلدِ، بعدَ قصِّ شعْرِ الرأسِ يَقصّونَ فلوسَ الجيبِ.

أبوالزهو: ومَنْ ذلكَ الشخصُ الذي كانَ يَجلسُ على الكرسيِّ الآخرِ بجانبِكَ؟!. رأيتُ الحلاقَ يعانقُهُ وجهاً لوجهٍ ويُقبِّلُهُ طيلةَ جلوسهِ على كرسيِّ الحلاقةِ!.

حمد: يُقبِّلُهُ؟! لا لَمْ يكنْ يقبِّلُهُ، بل كانَ يستعملُ الخيطَ لتنظيفِ وجههِ وأذنيْهِ وحواجبِهِ من الشعرِ. هو مديرُ فرعِ البنكِ الماليِّ في المدينةِ، السّيدُ "أبوالخير"، ودائماً أراهُ هناكَ كلَّما أذهبُ لِحلاقةِ رأسِيَ!. يقومُ بذلكَ حتى يظهرَ ذا شكلٍ أنيقٍ أمامَ الموظفينَ والعملاءَ على حدٍّ سواءَ. عليهِ أنْ يتخلّصَ قدْرَ الاستطاعةِ من أيَّةِ شُعيْراتٍ تَظهرُ في الوجهِ؛ هذهِ الحلاقةُ الأوروبيةُ ضروريةٌ. أتُراكَ كيفَ تسلّمُ ما جَمعتَهُ من مدخراتٍ طوالَ العمرِ لشخصٍ غيرَ نظيفٍ؟!. الرجالُ مَحاضرٌ ومناظرٌ في آنٍ معاً...

أبوالزهو: وهل هنالكَ من مكانٍ يُعطي الناسُ أموالَهُمْ لهُ؟. لِماذا لا يصرفونَها على أنفسِهِمْ وأولادِهِمْ وماشيتِهِمْ وحَميرِهِمْ؟. هذه كلُّها أوْلى بتلكَ الأموالِ.

حمد: يَحفظُ لكَ البنكُ مدّخراتِكَ في مكانٍ آمنٍ وبعيداً عن أعينِ اللصوصِ؛ بل إنَّ معظمَ البنوكِ تُرسلُ المدخراتِ إلى الخارجِ لتأمينِ أقصى حمايةٍ مُمكنةٍ للأموالِ من اللصوصِ المَحليّينَ، بالإضافةِ إلى الفائدةِ الأعلى. مقابلَ ذلكَ يُعطى الشخصُ دفترَ شيكاتٍ مِمّا يَجعلُهُ يشعرُ كأنهُ "مَلِكُ زمانهِ" عندَ تحريرِ أحدِ الشيكّاتِ ووضعِ توقيعهِ المعتمدِ عليهِ، ولكلٍّ رسومُهُ.....

أبوالزهو: لَمْ أفهمْ عليكَ جيداً. تقولُ أنَّهُمْ يأخذونَ الفلوسَ منكَ أو تودعُها عندَهُمْ!، ومتى تسترجعُها منهُمْ؟، إنْ أردتَ ذلكَ!.

حمد: تسترجعُ منها ما تشاءُ وحينَما تشاءُ مع قليلٍ من الإجراءاتِ. ألا تذكرُ قبلَ بضعةِ أيامٍ عندما مررْنا بجانبِ "بنكِ الشعبِ والعمّالِ والجماهيرِ الكادحةِ العامِّ" وكان هنالكَ أطولُ طابورٍ من الذينَ ينتظرونَ استرجاعَ بعضٍ من أموالِهِمْ المودعةِ في مكانٍ آمنٍ؟!.

أبوالزهو: آه... مكانَ ما حصلَ اشتباكٌ بالأيدي والأرجلِ والرؤوسِ وانتهتْ المعركةُ بدماءٍ سالتْ فوقَ أرضِ المكانِ، تخلَّلَها كسرُ عظامٍ وجَماجمَ وتَهديداتٌ باقتلاعِ عيونٍ وآذانٍ!.

حمدٌ: أنا وأنتَ يا رفيقِيَ! علينا أنْ لا نصرفَ أيَّ وقتٍ للحديثِ عن هذهِ الأمورِ والقلقِ عليها لأنَّ فلوسَنا مَحمولةٌ على راحاتِنا وفي جيوبِنا الصّغيرةِ، نتصرَّفُ بِهَا حينَما نشاءُ وحيثُما نراهُ مناسباً.

أبوالزهو: هل يُمكنُ للبنكِ أنْ يعطيَنا شيئاً من تلكَ الأموالِ المودعةِ لديهِ لنصرفَها على المزرعةِ الصّغيرةِ والأولادِ الصّغارِ؟. كما تعرفُ أنّهُ مع بدايةِ السّنةِ الجديدةِ فالأولادُ بحاجةٍ إلى ملابسَ جديدةٍ وأحذيَةٍ جديدةٍ وكتبٍ ودفاترَ جديدةٍ!. كلُّها خرابُ بيوتٍ على الموسرينَ فما بالُكَ بالمعسرينَ. أعني ٢٠ إلى ٣٠ جنيهاً .... وعلى الماشي!.

حمد: أتُفكِّرُ أنَّ هؤلاءِ الناسَ كرماءُ وأهلُ خيرٍ مثلَكَ؟!. سوفَ يستهزؤونَ من شكلِكَ وعقلِكَ لو عرضتَ عليهِمْ مثلَ هذهِ الأفكارِ التّي تعتبرُ في نظرِهِمْ قمةً في السُّخفِ والتخلُّفِ.

أبوالزهو: خيرٌ من أنْ تظلَّ هذهِ الأموالُ مُخزَّنةً في بناياتٍ ولا قيمةً عمليةً لَها.

حمد: وحتى تصبحَ لَها قيمةٌ عمليةٌ يتمُّ إرسالُها لِلخارجِ ويبقى هنا ما يلبّي الاحتياجاتِ الاستهلاكيةِ البسيطةِ!.

أبوالزهو: هنالكَ سؤالٌ أخيرٌ لِيَ إليكَ! وهو أنّهُ هل من المُمكنِ الاستيلاءُ على هذه الأموالِ من قِبَلِ عامةِ الشعبِ من الفقراءِ والمساكينَ والكادحينَ والجياعِ والعطاشى والمنهكينَ والمنكوبينَ وذوي الدخلِ المَحدودِ وذوي اللا-دخلَ لَهُمْ على الإطلاقِ في المدينةِ ....؟.

حمد: قلتَ أنَّكَ تريدُ أنْ تسألَ سؤالاً أخيراً لا سؤالاً آخِراً ونَهائياً قاتلاً في آنٍ واحدٍ. كفاكَ تُحاولُ جرَّ أقدامِيَ إلى أخطرِ أنواعِ المنزلقاتِ. لا أريدُ التحدثَ معكَ بشَيءٍ بعدَ الآنَ!.

أبوالزهو: لا.لا.لا يا صديقي، فقط أحببتُ أنْ "أُنكرزَكَ" (كلمةٌ مَحليةٌ تعني "ألعبُ على أعصابكَ" بكلماتٍ لستُ أعنيها) للتسليةِ. أحب أنْ أراكَ ثائرَ الأعصابِ، شكلُكَ رائعٌ وأنتَ في حالةِ ثورةٍ وغضبٍ خاصةً بعدَ عملِ قَصَّةِ شَعْرٍ كهذهِ!.

طبقةُ "القومبرادورِ"

انتهى حمد وأبوالزهو من بيعِ حُمولةِ البضاعةِ قبلَ الظهرِ بقليلٍ وتوجَّها إلى الشارعِ الرئيسِ في المدينةِ حيثُ يتركّزُ النشاطُ التجاريُّ. جلبَ انتباهَهُما صالةٌ زجاجيةٌ كبيرةٌ قد صُفَّ داخلَها وخارجَها عددٌ غيرُ قليلٍ من السّياراتِ؛ أشكالٌ وألوانٌ وأحجامٌ كلُّها مُختلفةٌ. اقتربا كثيراً من زجاجِ الصّالةِ وأخذا يُحملقانِ إلى الداخلِ حيثُ الصّورُ الدعائيةُ تعلو الجدرانَ وعلى أسطحِ الزجاجِ من الداخلِ والخارجِ. حتى والسّياراتُ مصفوفةٌ في الداخلِ بعيداً عن الجوِّ المغبَرِّ، يقومُ عمالٌ متخصّصونَ بالتنظيفِ والتلميعِ بعملِ كلِّ ما من شأنهِ الإبقاءُ عليها في حالةِ لَمعانٍ، لأنَّ الزبائنَ وخاصةً الجَهلةَ والمغفلينَ منهمُ يُحبونَ الأشياءَ التي تلمعُ!. وعندما أطالا الوقوفَ قليلاً أمامَ الزجاجِ خرجَ عليهِمْ رجلٌ قصيرُ القامةِ شبهُ أقرعٍ لكثرةِ الصَّلعِ وقليلاً يبدو أشْيَباً، بالرَغمِ من أنّهُ يقومُ بصبغِ شعرهِ من وقتٍ لآخرَ. يتدلّى من ذلكَ الشخصِ بطنٌ كبيرٌ نسبياً يشبهُ بطنَ الضفدعِ العملاقِ، ويداهُ نَحيفتانِ ولكنَّهُما تبدوانِ قويّتا العروقِ والأعصابِ. كان يلبسُ سروالاً (بنطلونٍ) أسودَ اللونَ وقميصاً أبيضَ يشقُّ وجْهَ مقدِّمتهِ ربطةُ عنقٍ ملونةٌ باللونينِ الأزرقِ والأحْمرِ، النصفِ بالنصفِ تقريباً. هنالكَ حزامانِ متقاطعانِ (شيّالات)، على شكلِ علامةِ الضّربِ "×" في الحسابِ، يُحافظانِ على مستوى خَصرِ السّروالِ عندَ مستوى الصرَّةِ لذلكَ الرَّجُلِ. يُحاولُ ذلكَ الرجلُ جُلَّ جهدهِ أنْ يُحافظَ على أقصى درجةِ أناقةٍ مُمكنةٍ لهُ داخلَ المعرضِ بالتوازي مع حالةِ السّياراتِ المعروضةِ للبيعِ!.

مديرُ المعرضِ: ماذا تعملانِ هنا؟. (شو بتساووه هونيه!؟)

حمد: أنا وأبوالزهو، انتهينا للتوِّ من بيعِ اللّبنِ الرائبِ والخضارِ. نَودُّ أنْ نعرفَ ماذا يَجري في أسواقِ هذه المدينةِ.

مديرُ المعرضِ: وهل انتهيتُما؟ تفضَّلا ومع السّلامةِ!.

حمد: لا ... لَمْ ننتهِ؛ حتى أنَّنا لَمْ نبدأْ بعدُ. فقطْ! وصلْنا هنا للتوِّ.

مديرُ المعرضِ: ومتى ستبدآن وتنتهيانِ على خيرٍ؟!، أو أنَّكُما تريداني أنْ أُعطِيَ الأمرَ للكنّاس أو الناطورِ للتعاملِ معكُما؟!.

وحينَ شعرَ أبوالزهو أنَّ النقاشَ بدأ يَحتدمُ مشى بعيداً إلى طرفِ الشارعِ الآخرَ متضايقاً!، كما يبدو، من كلامِ مدير معرضِ المارسيدس.

حمد: لا أريدُ أنْ أشتريَ سيارةً ولَكنَّ، وربَّما، والدِيَ يريدُ أنْ يشتريَ سيارةً لهُ وللوالِدةِ. لديهما مالٌ كثيرٌ؛ إلا أنَّ والدِيَ لا يَحملُ رخصةَ قيادةِ سيارةٍ. من المُمكنِ أنْ يُقْدمَ على شراءِ سيارةٍ عندَما يَحصلُ على رخصةِ قيادةٍ من مدرسةِ قيادةِ السّياراتِ، القريبةِ من هنا، قريباً. لقد قالَ لِيَ ذاتَ مرَّةٍ بأنَّ في نيتِهِ عملَ ذلكَ!.

مديرُ المعرضِ: مِنْ أينَ أنتَ ومَنْ هو أبوكَ وما هيَ وظيفَتُهُ؟!. (شو وزيفطوه أبوك؟!)

حمد: اسْمِيَ حمد وصديقِيَ اسْمُهُ أبوالزهو ووالِدِيَ اسْمُهُ أبو جاسر (أيّوب) ووالدِتِيَ اسْمُها أم جاسر (جوريَّة). أنا من بلدِ التينِ والزيتونِ والقمحِ والبصلِ واللوزِ والجوزِ والحمُّصِ والفولِ والبيقيا والكِرْسَنَّةِ (البيقيا والكِرْسَنَّةِ أسْماءٌ مَحليةٌ لنباتاتٍ تستخدَمُ علفاً للأبقارِ والأغنامِ، تِبناً وحَبّاً) وغيرِها الكثيرِ. كلُّنا نعملُ في عبادةِ الأرضِ والزراعةِ ..... فلاحونَ!.

مديرُ المعرضِ: إذا لَمْ تَخُنِّ ذاكرتِيَ وقوّةُ الحدْسِ عندِيَ، تكونُ ابنَ أبو جاسر، بياعِ اللّبنِ. آهٍ... تقولُ لِيَ أنَّ أبو جاسر يَمتلكُ أموالاً ويريدُ أنْ يَحصلَ على رخصةِ قيادةِ سيارةٍ ويشتريَ سيارةَ مارسيدس لهُ وللوالدةِ .... إنّهُ لشيءٌ عجيبٌ!. على أيِّ حالٍ سلِّمْ لِيَ عَليهِ وقلْ لهُ "أبو فداء" يسلِّمُ عليكَ. أعرفُهُ!، أبو جاسر لا أحدَ غيرَهُ. يا ابْنِيَ! لكيْ يشتريَ والدُكَ أبو جاسر سيارةَ مارسيدس عليهِ أنْ يدفعَ اثنا عشرَ ألفَ دولاراً!.

حمد (يتكلّمُ مع نفسهِ): إنَّ ثَمَنَ هذه السّيارةِ ربَّما يساوي رَيْعَ نتاجِنا ومَحصولِنا منِ اللّبنِ والحبوبِ والخضارِ والفواكهِ وزيتِ الزيتونِ لِمدةٍ لا تقلُّ عن خَمسَ عشرةَ سنةً؛ أو أنَّ على الوالدِ أبو جاسر أنْ يقومَ ببيعِ عدَةِ قطعٍ من أراضيهِ المبعثرةِ هنا وهناكَ لشراءِ سيارةٍ واحدةٍ.

مديرُ المعرضِ: هل من شيءٍ في خاطرِكَ؟!. يااللهِ مع السّلامةِ ...!.

حمد: شكراً يا عمِّيَ، لقد أعطيتنِي فكرةً واضحةً عن بُعدٍ جديدٍ من أبعادِ الحياةِ!.

تَرَكَ حمد مديرَ المعرضِ وذهبَ إلى حيثُ يقفُ أبوالزهو بانتظارهِ. ما أنْ وصلَ إلى هناكَ حتى بادرهُ...

أبوالزهو: رأيتُكَ معجباً بالمعرضِ وصاحبِ المعرضِ والسّياراتِ.

حمد: ذلكَ الشخصُ ليس صاحبَ المعرضَ؛ هو مديرُ المعرضِ، عميلٌ تِجاريٌّ أو سِمسارُ بيعٍ أو وسيطٌ بأجرٍ بينَ الشركةِ المنتجةِ والمساكينِ من الطبقاتِ المغلوبِ على أمرِهَِم. يعرفُ طباعَ أهلهِ ولغتَهُمْ وأمزجتَهُمْ في البيعِ والشراءِ؛ لأجلِ ذلكَ مكَّنتْ لهُ الشركةُ في أرضِ بلدِهِ. يعرفُ كيفَ يستخرجُ منهُمْ أموالَهُمْ عن طريقِ إغرائِهِمْ بمحاسنِ السّيارةِ. إنّهُ جزءٌ من طبقةٍ ضيقةِ العقلِ والحجمِ تسمى بطبقةِ "القومبرادور"، حسْبَ القاموسِ الاشتراكيِّ الثوريِّ الذي هو على وشكِ التكوينِ هنا وعلى حَدِّ تعبيرِ ورأيِ رفيقنا " الكادر عبدالجبّار". (لغوياً "القومبرادور comprador" هو التاجرُ أو السّمسارُ الوسيطُ بينَ الشركاتِ والمستهلكينَ من الشعبِ).

أبوالزهو: وماذا عن تلكَ الكلمةِ الكبيرةِ المرعبةِ، ماذا تعني بها؟. ظننتُ أنَّكَ أصبحتَ من أصحابهِ حين رأيتُكُما تتَجاذبانِ أطرافَ الحديثِ مثلَ الشّركاءِ!.
حمد: حاولتُ الدخولَ في عملهِ عن طريقِ إيهامهِ بأنّني من عائلةٍ غنيةٍ؛ فوجئتُ بأنّهُ يعرفُ عن والديَ وأشباهِ والديَ أكثرَ مِمّا أعرفهُ عن والديَ. يعرفُ البئرَ وغطاءَ البئر أكثرَ منا يا أبوالزهو، وربَّما هذا هو السّببُ الرئيسُ في توظيفهِ كسمسار. سيارةٌ واحدةٌ من الصّافّاتِ هناكَ داخلَ ذلكَ الصّالونِ البلوريِّ يا أبوالزهو تساوي عائداتِ القريةِ السّنويةِ كلِّها.
أبوالزهو: كلامٌ فارغٌ!، يقدرُ أيُّ أحدٍ أنْ يشتريَ مثلَها. وعندما كنّا نَمُرُّ في الشارعِ الرئيسِ كانت تَمُرُّ سيارةٌ من ذلكَ النوعِ كلَّ دقيقةٍ، إذن من أينَ لأصحابِها بالمالِ؟!؛ هُمْ خلقٌ مثلُنا.
حمد: صديقِيَ أبوالزهو! لإجابتِكَ على هذا السّؤالِ البريءِ المظهرِ عليَّ أنْ أذهبَ إلى الجامعةِ وأقضِيَ أربعَ سنواتٍ أخرى فيما بعدَ الثانويةِ. فوقَ ذلكَ عليَّ أنْ أكونَ مُسنداً من جهةٍ قويّةٍ في الدولةِ!. هنالكَ مزيجٌ من العواملِ، الآنَ ليس باستطاعتِيَ سبرُ أغوارِها أو معرفةُ ما بكُنْهها ...!!؟.
أبوالزهو: أريدُ جواباً على قدْرِ الحالِ والعقلِ. لماذا تُحاولُ تَهويلَ الأمور؟!، هل تريدُ الحصولَ على فلوسٍ أكثرَ منَ الوالدِ أبو جاسر؟. لَمْ يبخلْ عليكَ ذلكَ المَسكينُ حيثُ يضعُ أكثرَ من نصفِ ثَمنِ حِمْلِ البضاعةِ تَحْتَ تصرُّفِكَ، لكنَّ الإنسانَ بطبعهِ طمّاعٌ!.
حمد: وإذا ما تماديتَ في الأسئلةِ ووضعْتَ نُصْبَ عينيْكَ الحصولَ على أجوبةٍ مشرِّفةٍ فإنَّ ذلكَ قد يؤدّي إلى أنْ يسلكَ كلٌّ منا طريقاً لا يسلكهُ الآخرُ!. أعرفُكَ جيداً عندَما تنفتحُ قريحتُكَ على الأسئلةِ، الويلُ لِيَ منكَ.
أبوالزهو: لا لا لا يا صديقِيَ! لا أريدُ منكَ جواباً ولا سؤالاً. المهمُّ أنْ تبقى معِيَ ونبقى مع بعضِنا، نأكلُ الخُرفيش (نباتٌ برّيٌّ شوكيٌّ أخضرُ تؤكلُ سيقانُهُ اليانعةُ وهي طريّةٌ) والحِلْبةِ والسّبيْعَةِ (أسْماءٌ مَحليّةٌ لنباتاتٍ بريةٍ يُمكنُ أكلُها حَبّاً دونَ طبخ بعد تجميعِها من الجبلِ) والفريكةِ وحتى البيقياءَ (نباتٌ يستخدمُ حبُّهُ وتبنُهُ كعلفٍ للماشيةِ، غنيٌّ بالبروتينِ النباتيِّ وطيِّبُ الطعمِ قبلَ تجفيفهِ) المخصّصةِ للأبقارِ وبناتِهنَّ. لا حاجةَ لكَ وللوالدِ والأهلِ كلِّهِمْ للمارسيدَس، سأحْملُكُمْ كلَّكُمْ على ظهرِيَ أينما تريدونَ الذهابَ. أعاهدُكُمْ على خدمتِكُمْ طوالَ العمرِ ما دمتُ قادراً، المهمُّ أنْ تظلَّ معيَ يا صديقَ العمر!.
حمد: أخِيَ! أبوالزهو، الحَياةُ معكَ من أطيبِ ما تكونُ الحياةُ. لكنَّ المشاكلَ الأخرى للحياةِ تَجعلُني أحياناً أكرهُكَ بقدْرِ ما تُحبُّني، ولكنْ سرعانَ ما يعودُ إليَّ خاطرِيَ وضميريَ وأوقِنُ أنْ لا أحدَ خيرٌ لِيَ من وجودِك معِيَ وبجانبِيَ.
أبوالزهو: أحبُّكَ ملءَ الأرضِ. بدونِ وجودِكَ معِيَ أفقدُ دَليلَ الطريقِ، طريقِ العودةِ إلى البيتِ وطريقِ التجوالِ في المدينَةِ المكتظةِ بالبشرِ. أنتَ لِيَ المنقذُ والأنيسُ، أنتَ طائرُ الحظِّ الحسنِ. أرجوكَ أنْ تبقى معِيَ وألا تغرَّ بكَ مظاهرُ المارسيدس الخدّاعةِ وغيرُها!.
حمد: آه، لقد وصلتْ فكرةٌ إلى رأسِيَ!. تَخسرُ الدولةُ على شراءِ السّياراتِ لوحدِها مالاً يغطّي الناتجَ المَحليَّ للقطْرِ، وتُعتبرُ المارسيدس جزءاً كبيراً من تلكَ المصروفاتِ. ولو صُرِفتْ تلكَ الأَموالُ على تطويرِ الدولةِ والبشرِ لَتخلَّصْنا من

التبعيةِ الحمقاءَ للأجنبيِّ. بعدَها ربَّما ستعودُ إلينا أيامُ "أبو بكر الرازيِّ" و"الخوارزميِّ" وحتى "أبو نُواس".... تُبّاً للحَمَقِ والغباءِ يا أبوالزهو.
أبوالزهو: أريدُ أنْ أكونَ مثلَ "أبو نُواس"، لقد سَمعتُ عنهُ الكثيرَ منكَ ومن أبناءِ القريةِ.
حمد: إذنْ أنتَ بحاجةٍ إلى مارسيدس مناسبةٍ لكَ ولِمَنْ تقعُ في حبِّكَ يا غاوياً!.
أبوالزهو: لكنَّني لا أمتلكُ رخصةَ قيادةِ سيارةٍ، لا أعرفُ أنْ أقودَ سيارةً برخصةٍ أو بدونِ رخصةٍ، الأمرانِ سيانْ. لا أعرفُ أنْ أمسكَ بالمقودِ ويقالُ أنَّ هنالكَ الغيارَ ودوّاسةَ الوقودِ والكوابحِ وأخرى كثيرةٌ أجهلُها. أوه... ورطةٌ كبيرةٌ عليَّ.
حمد: لا تقلقْ بشأنِ هذا كلِّهِ. كلَّ يوم تقريباً تضيفُ الشركاتُ ميزاتٍ جديدةً لتسهيلِ قيادةِ السّياراتِ. ستصبحُ السّياراتُ بمتناولِ الجميعِ للاستعمالِ في المستقبلِ القريبِ، ذكراً كانَ أمْ أنثى صغيراً أم كبيراً، بشَراً كان أمْ حيواناً!.
أبوالزهو: وكيفَ لِيَ أنْ أجلسَ وراءَ المقودِ؟!... وهل من المُمكنِ صنعُ مقعدٍ خاصٍّ بذلكَ؟. أريدُ مقوداً يُمسَكُ بالفمِ والأسنانِ أو جزءٍ آخرَ في الجسمِ!.
حمد: لا تقلقْ أبداً، سوف يزيلونَ المقعدَ ويصنعونَ لكَ "قُمرةَ" قيادةٍ خاصةٍ، حجرةَ قيادةٍ لكُلِّ المقاييس. ستُزَوَّدُ السّيارةُ حتى بمكانٍ خاصٍّ للطعامِ وآنيةٍ للشربِ ومكانٍ للنومِ. ستقودُكَ السيارةُ بدلاً من أنْ تقودَ السيارةَ.
أبوالزهو: بالنسبةِ للأكلِ! تعرفُ أنواعَ الطعامِ المفضّلةِ لديَّ. مِخلاتانِ (المخلاةُ هي كيسٌ يوضعُ فيهِ الأكلُ ويسهلُ على الحصانِ أو البغلِ مثلاً تناولُ الأكلِ منهُ بعدَ تعليقِهِ بأعلى رأسهِ) من الحبوبِ وصندوقٌ من قعابيرِ (القعابيرُ هي تعبيرٌ محليٌّ لِما يتبقّى من خضارِ "الخيار"، بعدَ اختيارِ الجيدِ الصّالحِ للبيعِ منهُ، ويعطى عادةً للحيوانِ كغذاءٍ) الخيارِ وبعضُ أسنانِ البطّيخِ وصندوقٌ آخرُ من البَنْدورةِ الخضراءِ القاسيةِ. وعسى الوالدةَ أم جاسر أنْ تُجَهِّزَ لنا قليلاً من الفريكةِ والفاصوليا والبازيلاء واللوبيا، هذه الأكلاتُ مَحبوبةٌ لنا جَميعاً!.....
حمد: على حدِّ وصفِ صديقِنا السائقِ الطموحِ "عبدالله" كلُّ ما ذكرتَهُ مَحسوبٌ حسابَهُ عندَ مديرِ الشركةِ والمهندسينَ. إنّها مسألةُ وقتٍ فقط وكلَّ يوم عندَما نأتي إلى المدينةِ نتزَوَّدُ من مديرِ المعرضِ السّيدِ "أبو فداء" عن آخرِ التطوراتِ في صناعةِ وتَجهيزِ السّياراتِ؛ تلكَ هي مهنتُهُ. وبالنسبةِ للقعابيرِ كلّنا نُحبُّ القعابيرَ وإذا ما حصلْنا على سيارةِ الأحلامِ فسوفَ يكونُ هناكَ فيها جناحٌ خاصٌّ لِمثلِ هذا الطّعامِ ومعَها ثلاجةٌ خاصةٌ كذلكَ!...
أبوالزهو: لا أحبُّ الأكلَ الباردَ كثيراً. تعوّدتُ منذُ ولدتُ على الأكلِ غيرِ الباردِ. أقُلْتَ لِيَ يا صاحبيَ أنَّكَ بحاجةٍ إلى تعليمٍ متقدّمٍ حتّى تُجيبَ على بعضٍ من أسئلتِيَ؟!. يوجدُ عندَكَ أفكارٌ يعجزُ عنها الخيالُ ولَمْ تذهبْ بعدُ إلى مكانٍ بعيدٍ؛ لا شكَّ أنَّ هذا الفكرَ ناتجٌ من تأثيرِ معلّمي المدارسِ عليكَ وعلى أمثالِكَ!...
حمد: إنْ شاءَ اللهُ سنعيشُ لنرى ما سيَحصلُ من تطوُّرٍ ... أو ماذا برأيِكَ؟!.

تلبيةُ دعوةٍ

وجّهَ الصّديقُ الحميمُ في القريةِ، السّيدُ "حميدان"، دعوةً لِحمد وأبوالزهو لِحضورِ حفلِ عرسِ نَجلِهِ البكرِ السّيدِ "خُضَيْر". قالَ لِحمد أنْ يأتيَ ومعهُ، بلْ الأهمَّ منهُ!، أنْ يأتيَ أبوالزهو. وقالَ "أبو خُضَيْر" لَهما أنّهُ يريدُ بعضَ المساعدةِ قبلَ وأثناءَ العرسِ في نقلِ الأغراضِ والماءِ وإنْ اضطرَّهُمْ الأمرُ مساعدةَ بعضِ الذين لديهِمْ احتياجاتٌ خاصّةٌ ومِنْ عَجَزَةٍ وما إلى ذلكَ الكثير. قالَ لهُ حمد على الفور؛ لا مانعَ ولا ضَيْرَ من المساعدةِ في نقلِ بعضِ الأغراضِ والماءِ. أضافَ أنّهُما لنْ يَقدرا على مساعدةِ بشرٍ، كباراً كانوا أمْ صغاراً. ذلكَ لأنّهُ لا حمد ولا أبوالزهو يطيقانِ التعاملَ معَ مثلِ تلكَ الأعمالِ ولا يقدرانِ جسديّاً على القيامِ بها، خاصةً إذا ما تَجاوزَ وزنُ المدعوِّ أكثرَ من مئةِ كيلوجرام؛ ذلكَ الوزنُ يَحتاجُ إلى "حنطور" (الحنطورُ هو اسْمٌ مَحليٌّ لعربةٍ يَجرُّها حيوانٌ من مثلِ حِمارٍ أو بغلٍ أو حصانٍ) خاصٌ لتحميلِهِ وتثبيتِهِ على ظهرِ الحنطور، وتنزيلِهِ بعدَ توصيلِهِ.

قامَ حمد وأبوالزهو بجهودٍ كبيرةٍ من أجلِ إنْجاحِ حفلِ الزفافِ عن طريقِ نقلِ كمّياتٍ كبيرةٍ من الأطعمةِ والحلوى والمياهِ الغازيةِ إلى ساحةِ الاحتفالِ من الدكاكينِ القريبةِ والبعيدةِ. وكما يبدو أنَّ السّيدَ "أبو خُضَيْر"، ومن أجلِ إنْجاحِ العرسِ، لَمْ يبخلْ ببذلِ كلِّ جهدٍ ومالٍ مدَّخرٍ من تَجهيزٍ بديكورٍ مُكْلِفٍ إلى جلبِ كراسيَ خاصةٍ وسجاجيدَ ومطربينَ مَحليينَ و"حدّاية" (الحدّايةَ جَمْعٌ لكلمةِ حدّاء وهو من يقومُ بتأليفِ أو إلقاءِ الشعرِ الزجليِّ الشعبيِّ) وفرقةٍ للرقصِ الشعبيِّ!.

وما أنْ وُضِعَتْ اللمساتُ الأخيرةُ على مكانِ الحفلِ وتَجهيزاتِهِ حتى اتّخذَ حمد وأبوالزهو موقعاً لَهُما قريباً من "مسرح" الحفلِ حيثُ ستقامُ معظمُ النشاطاتِ والأعمالِ الفنيةِ للحفلِ الكبيرِ. استعرَ المكانُ بِـ"الدَّبكةِ" (اسمٌ مَحليٌّ لرقصةٍ مَحليةٍ) والرقصاتِ المُختلفةِ وصدحَتْ الألْحانُ من جنوبٍ وشرقٍ وشمالِ البلادِ وأواسطِها؛ عتابا وميجانة (أنواعٌ من مقدّماتِ الأغاني والأشعار) وأبو الزُّلُف ومواويلُ كثيرةٌ ومسلّيةٌ. ثَمَّ "قُعْرُ" عدّةِ طبولٍ ودفوفٍ، وأكملَ زوجٌ من الحدّايةِ الحفلَ بسجالٍ لطيفٍ ومثيرٍ بينَ السّيفِ والقلَمِ. كانَ السّيدُ "أبو خُضَيْر" قد تعرَّفَ إلى هؤلاءِ الحدّايةِ أثناءَ بيعِ التجوالِ في القرى الشماليةِ من البلادِ برفقةِ جدِّهِ أيامَ سفرِ "بَرْلِكْ" قبلَ عشراتِ السّنينَ، حيثُ ضربتْ موجاتُ جفافٍ وأصابَ المنطقةَ قحطٌ ولعدّةِ سنينَ متتاليةٍ، حينَ اضطُرَّ الناسُ للسَّفرِ بعيداً عن مناطقِ سكنهِمْ لكسبِ رزقِهِمْ. هنالكَ نشأتْ صداقةٌ بينَ السّيدِ "أبو خُضَيْر" والحدّايةِ واستمرّتْ طويلاً، بالرغمِ من صغرِ سنِّهِمْ جَميعاً في ذلكَ الوقتِ.

استمرّتْ السّهرةُ طوالَ الليلِ تقريباً. قبلَ أذانِ الفجرِ بقليلٍ انصرفَ من تبقّى من الناسِ السَّهارى إلى بيوتِهِمْ وذهبَ حمد وأبوالزهو عائدَيْنِ أيضاً إلى بيتِهِمْ البعيدِ نسبياً في أقصى أطرافِ القريةِ. في الطريقِ سألَ! أبوالزهو صاحبَهُ حمد إنْ كانَ قد حصلَ الأخيرُ على شيءٍ ماديٍّ أو عينيٍّ لقاءَ الخدماتِ الجليلةِ التي قدَّماها للعرسِ والمدعوّينَ. أجابهُ حمد بالنفيِ وكرَّرَ عليهِ نفسَ السّؤالِ فأخبرَهُ أبوالزهو

بأنّهُ لَمْ يَحصلْ حتّى على حفنةٍ من "القضامةِ" ("القضامةُ" اسمٌ مَحلّيٌّ لِحبوبِ الحمُّصِ المُحَمَّصَةِ على النارِ أو بِالفرنِ) ذاتِ الطعمِ الشَّهيِّ. قالَ حمد بأنّها كانتْ حفلةَ عرسٍ ولَمْ تكنْ سهرةً عائليةً في بيتِ أبو جاسرَ أو حتّى وليمةً طبيعيةً!. وكانَ حمد قد أعدَّ إلى أبوالزهو عشاءاً فاخراً تناولَهُ أبوالزهو في صباحِ اليومِ التالي.

ذهبَ حمد للنومِ وسألَ الأهلَ وأبوالزهو! أنْ لا يوقظونَهُ قبلَ وقتِ الظهيرةِ. السّاعةَ الثانيةَ عشرةَ! ظهراً سَمِعَ حمد طَرْقاتٍ قويّةٍ على حديدِ شُبّاكِ حجرةِ البيتِ الوحيدةِ التي كانَ ينامُ فيها؛ أفاقَ ليجدَ أبوالزهو يستأذنُهُ! للانصرافِ والذهابِ إلى كرمِ الزيتونِ القريبِ حيثُ أرادَ أنْ يستلقيَ هو الآخرُ على جنبهِ وظهرهِ قريباً من شجَرِ الكرمِ هناكَ، أو في الظلالِ الوارفةِ بعيداً عن الحرِّ والشمسِ... والناسِ!..

كانَ الوقتُ بعدَ العصرِ حتى عادَ أبوالزهو إلى البيتِ من حقلِ الأشجارِ. جاءَ مُحاولاً لَمْلمةَ بعضهِ بعدَما بداَ أنّهُ قادمٌ من نومٍ عميقٍ كانَ يغطُّ فيهِ هناكَ، خاصّةً بعدَ سَهَرِ ليلةٍ بأكملِها مع حالةِ الصّخبِ المصاحَبةِ لَها!.

حمد: كيفَ كانت السّهرةُ معكَ؟، هل طَربْتَ وأرحتَ أعصابَكَ و هدأتْ خواطرُكَ ولو قليلاً؟. لقد رأيتُكَ تذوبُ طرباً في الحفلِ!..

أبوالزهو: نعم، كان هنالكَ طربٌ أصيلٌ وشعرٌ نبيلٌ ودبكةٌ على أحلى الإيقاعِ. أحببتُ أغنيةَ "نسيمِ الجبلِ"......

حمد: آه... أغنيةُ الشيخ "فهد بلّان"؛ روح يا نسيم لأرضها... آآه... سلِّم لي على اللي بحبها... آآه.. واشرح لَها... عن حالتي... روح لي على ديرة لأجلها... روح يا نسيم فوق الجبل، لا بد يوم عندها توصل... باللهِ يا سرب الحمام غرّب لا تصحى من المنام... لولا البعد عن ناظري يا منيتي طال المطال..... لا للا للا للا للا لا للا للا للا

أبوالزهو: آه، لو أنَّ لديَّ إمكانيةً أنْ أعزِفَها على عودٍ مثلما جرى في الحفلِ.

حمد: أعرف أنّهُ ليسَ بمقدوركَ عزفُها على العودِ ولكنْ بمقدورِكَ أنْ تطربَنا بصوتِكَ؛ جرِّبْ وستنجحُ. يا ما هنالكَ مطربونَ لَهُمْ أصواتٌ أقلَّ عذوبةً من صوتِكَ ويَملئونَ الدنيا غناءً وطرباً عندَ الجماهيرِ المولعةِ بالطربِ.

أبوالزهو: سوفَ أحاولُ جيداً، انتبهْ وركِّزْ عليَّ؛ هاء هِهاء هِهاء هِهاء هِهاء... هاء هِهاء هِهاء هِهاء هِهاء.. هاء.... ما رأيُكَ؟ لقد انضبطَ اللحنُ يا صديقِيَ!. أنا الآنَ سعيدٌ جدّاً.

حمد: جيدٌ وتَمامٌ! ولكنْ لو تتخلصُ من الهمزةِ في الآخرِ وتستبدلُها بالحرفِ "ي" لتصبحَ هاي هِهاي هِهاي هِهاي......

أبوالزهو: كما تعرفُ يا صديقِيَ أنَّ صوتِيَ لا يُمكنُ أنْ يكونَ أحسنَ مِمّا فعلتُ. قُضيَ الأمرُ!.

حمد: أنت بحاجةٍ فقط إلى صقلِ موهبتِكَ الصّوتيةِ. عليكَ أنْ تلتحقَ بأحدِ معاهدِ الفنونِ، لكنْ مع الأسفِ كلُّ المعاهدِ الفنيةِ تقعُ في دولٍ بعيدةٍ عنا. لا يوجدُ معهدٌ واحدٌ منها في المنطقةِ هنا.

أبوالزهو: لكنْ أرجوكَ أنْ تدقَّها لِيَ على عودِكَ، أحبُّ الأغنيةَ كثيراً.

حمد: تعرفُ يا أبوالزهو إذا ما عُزِفَتْ موسيقى أغنيةٍ على العودِ وانضبطَ اللحنُ سوفَ تدكُّ الأرضَ بِقوّةٍ بِسببِ التّهيجِ العصبيِّ الذي سينتابُكَ!. لقد تعلّمتُ شيئاً

بسيطاً من الخفقِ والضربِ على أوتارِ العودِ من صاحبِنا الفنّانِ الغجريِّ "أبوالزُّهْدِ" في القريةِ المُجاوِرةِ. سأحاولُ أنْ أدقَّ الألْحانَ كما سَمِعْناها من الحفلِ....

طَربَ حمد وأبوالزهو! على أنغامِ العودِ وعزفَ حمد موسيقى أغانٍ عدّةٍ.
كان حمد من المبتدئينَ في العزفِ علىَ العودِ وأحبَّهُ كثيراً منذُ طفولتهِ المَبكرةِ. أعطاهُ أحدُ العوّادينَ المَحليينَ عوداً صغيراً للتلاهي بهِ بالرغمِ من اعتراضِ والدهِ الشديدِ على ذلكَ، ظنّاً منهُ أنّهُ سيلهيهِ عن دروسهِ وعملهِ مَعَ العائلةِ في الحقلِ والبيدرِ.
حمد: وما هي الأغاني الأخرى التي نالتْ إعجابَكَ؟.
أبوالزهو: كثيراتٌ هي تلكَ الأغاني ....
حمد: يا صديقِيَ أظنُّ أنّكَ وقعتَ في حبِّ إحدى المشاركاتِ في الحفلةِ وأنتَ تتأملُ حفلةَ العرسِ من خلفِ الجموعِ الحاشدةِ هناكَ. هذه المَشاعرُ والعواطفُ والأحاسيسُ لا بدَّ أنْ تكونَ صادرةً من قلبِ مُحبٍّ عاشقٍ وغاوٍ.
أبوالزهو: وددتُ يا صديقِيَ لو أقدرُ أنْ أحبَّ وأتزَوَّجَ! وأُكَوِّنَ نسلاً أسوةً بغيريَ من بقيةِ الخلقِ، البشرِ منهم والدوابِّ وحتى الكائناتِ الأخرى المنتشرةِ في المكانِ. ما العملُ في الذين ظَلَموني وحرموني من إحدى ملذاتِ الحياةِ الأساسيةِ؟!. حرموني من ثَمرةِ الحبِّ من الخَلَفِ والأنْجالِ، فقط لأنني لَمْ أتَمكّنْ من إيصالِ رسالةٍ لسانيةٍ إليهم كما تعوّدوا أن يسمعوا لبعضِهم البعضِ. وسوفَ يذهبُ كلُّ ما أحصلُ عليهِ بجهدِيَ إلى غيريَ!.
حمد: كفاكَ تندبُ حظَّكَ!. تكفيكَ الزيادةُ في رَهْفِ المشاعرِ والأحاسيسِ الناتجةِ عن هذا الحرمانِ. هنالكَ المئاتُ من العشاقِ والهاوينَ والغُواةِ والحالِمينَ، التحقْ بهِمْ وستَجدُ ما يَسرُّكَ في دنياهُمْ وأغانيهِمْ وأشعارهِمْ. ولطالَما أنتَ معِيَ فسوفَ أطرِبُكَ من عودِيَ لتطفأَ لَهيبَ الشوقِ عندَكَ وجحيمَ عذابِ الحرمانِ. وما يدريكَ!؟ من المُمكنِ أنْ تكرهَ شيئاً تستفيدُ منهُ أكثرَ مِمّا لو كنتَ أحببتَهُ!.

مع طبيبِ الأسنانِ

قبلَ بدءِ العامِ الدراسيِّ الجديدِ في بدايةِ شهرِ أيلولَ بأسبوعينِ تقريباً أصابَ حمد أَلَمٌ شديدٌ في فكِّهِ العلويِّ. ظنَّ في بدايةِ الأمرِ أنَّ سوسةَ الأسنانِ قد تمكّنتْ من نَخْرِ أحدِ أسنانهِ. قرَّرَ التوجُّهَ في اليومِ التالي إلى عيادةِ طبيبٍ للأسنانِ وكانتْ أوَّلَ مرَّةٍ يعرفُ أو بالأصحِّ يرى فيها طبيبَ أسنانٍ عن قربٍ ووجْهاً لوجهٍ. وبالرغمِ من أنَّ الألَمَ خفَّ كثيراً في اليومِ التالي إلا أنَّ حمدً ظلَّ عندَ قرارهِ وفكَّرَ بتنظيفِ أسنانهِ عندَ الطبيبِ في حالِ سلامةِ سنِّهِ. في اليومِ التالي وبعدَ الانتهاءِ من بيعِ بقاليلِ اللّبنِ الرائبِ وسلالِ الخضارِ والفواكهِ توجَّهَا، حمد وأبوالزهو، إلى مركزِ المدينةِ التجاريِّ حيثُ تتواجدُ هنالكَ معظمُ عياداتِ طبِّ الأسنانِ في المنطقةِ. استأذنَ حمد من أبوالزهو وأوصاهُ بالبقاءِ والانتظارِ في المنطقةِ قريباً من مدخلِ بنايةِ العيادةِ. صَعَدَ حمد إلى الطابقِ الثاني من البنايةِ حيثُ مكتبُ طبيبِ الأسنانِ وعيادتهِ؛ توصَّلَ إلى معرفةِ ذلكَ من يافطةٍ منتصبةٍ على ذراعٍ حديديٍّ فوقَ طرفِ رصيفِ الشارعِ. اليافطةُ عبارةٌ عن لوحةٍ بيضاءَ كُتِبَ عليْها بِخطٍّ أحْمرِ اللونِ عريضٍ اسمُ الطبيبِ واسمُ الجامعةِ التي تَخرَّجَ منها وأنَّهُ عضوٌ فعّالٌ في جَمعيةٍ طبيةٍ غربيةٍ عالَميةٍ!، كما يبدو.

كان على حمد الانتظارُ خلفَ طابورٍ من المنتظرينَ مِمّن باتَ لديهِمْ مراجعاتٌ أو مشاكلُ أسنانٍ طارئةٌ أو قديمةٌ. لاحَظَ حمد وجودَ عددٍ من الملصقاتِ الدعائيةِ لأسنانِ أناسٍ أصيبتْ بمرضٍ ما وأصابَها التلفُ ثُمَّ تَدَخَّلَ طبُّ الأسنانِ في إصلاحِها وأصبحَتْ حَياةُ أهلِها ناصعةً من جديدٍ. كلُّها صورٌ قادمةٌ من الخارجِ مِمّا أثارَ عجبَهُ ودهشتَهُ وحفيظتَهُ أنّهُ لا توجدُ وجوهٌ أو أسنانٌ عربيةٌ يُمكنُ أنْ تَحلَّ مَحلَّ أو أنْ تشاركَ على الأقلِّ في مثلِ تلكَ الدعايةِ. بعدَ حواليْ السّاعةِ من الانتظارِ أُدخلَ حمد إلى غرفةِ الفحصِ. نَظَرَ الطبيبُ، الدكتورُ "جَشْعونة"، في فمِ وأسنانِ حمد وإلى السّنِّ التي يشكو منها؛ أخبرَهُ، بعدَ تعريضِ سِنِّهِ لتيارِ هواءٍ باردٍ، أنْ ليسَ هنالكَ ما يدعو للقلقِ. وفوقَ ذلكَ لا توجدُ حاجةٌ لِحمد للقيامِ بتنظيفِ أسنانهِ. وعندما سألَ حمد مُحاسبَ الصّندوقِ، السّيدَ "شلّحوه"، عن المبلَغِ المطلوبِ دفْعهِ طلبَ الأخيرُ من حمد أنْ يدفعَ تقريباً ثَمنَ حِمْلِ اللّبنِ والخضارِ لذلكَ اليومِ؛ فَعَلَ حمد ذلكَ ولَمْ يبقَ معهُ في جيبهِ سوى بضعةِ قروشٍ.....

نَزلَ حمد من الطابقِ الثاني للبنايةِ إلى الشارعِ من جديدٍ ليرى أبوالزهو وقد امتلأَ ضجراً وملَلاً.

حمد: ماذا بكَ؟ هل ذهبتَ إلى الدكاكينِ والمَحلاتِ المُجاورةِ؟. لقد أوصيتُكَ أنْ لا تبتعدَ كثيراً عن بابِ البنايةِ. هؤلاء أصحابُ المَحلاتِ التجاريةِ لا يُحبّونَ أنْ يروْا أحداً يَمُرُّ بجانبِهِمْ دون أنْ يشتريَ منهُمْ الكثيرَ ويفرغونَ جيوبَهُ من مالهِ. هذا كلُّ هَمِّهِمْ ووظيفتِهِمْ، القيامُ بتفريغِ الجيوبِ الممتلئةِ والنصفِ فارغةِ وحتى التي منها على وشكِ الإفلاسِ؛ وحوشٌ بشريةٌ وأعينٌ طامعةٌ، إلى ربِّها من أجلِ المالِ خاشعةٌ!.

أبوالزهو: ظننتُ يا صديقِيَ أنَّكَ ستقضي يومَكَ هناكَ. لقد قُلتَ لِيَ أنَّها لَحظةُ انتظارٍ عليَّ لكَ وليس دهراً من الزمنِ!. في المرّةِ القادمةِ أطلبُ منكَ أنْ تَحترمَ كلامَكَ ومواعيدَكَ؛ إنَّ وقتَ الخلقِ ليس مُلْكاً لكَ للتصرّفِ بهِ على هواكَ!..

حمد: كان هنالكَ دورٌ وطابورٌ من المنتظرينَ، وكان عليَّ الانتظارُ حتّى يأتيَنِي الدورُ.

أبوالزهو: وكيفَ لِيَ أنْ أعلَمَ ذلكَ؟!. هل يُمكنُنِي أنْ أتصلَ بالجِنِّ مثلاً للتزوُّدِ بالأخبارِ عنكَ؟!. عليكَ أنْ تستعملَ عقلَكَ المرةَ القادمةَ يا سيدَ أبو الفَهْمِ والفصاحةِ والفلسفةِ والذوقِ. وعلى أيِّ حالٍ هل استفدتَ شيئاً من زيارةِ طبيبِ الأسنانِ؟.

حمد: استفدتُ شيئاً وخسرتُ كلَّ رَيْعِ مَحصولِنا تقريباً هذا اليومَ.

أبوالزهو: هل ضحكَ عليكَ طبيبُ الأسنانِ كعادتِكَ عندَ التعاملِ مع الناسِ؟!. أعرفُ أنَّ يدَكَ دائماً مبسوطةٌ.

حمد: هي الأشياءُ ليست بِحجمِها ووزنِها وكميتِها، بعضُ الأشياءِ صغيرةٌ ولكنَّها جدُّ قيِّمةٍ والعكسُ صحيحٌ.

أبوالزهو: بدأتَ التفلسفَ والتحليلَ الرياضيَّ والمنطقيَّ!. أيُّ "بطليموس" تريدُ أنْ تطبِّقَ طريقتَهُ اليومَ في التحليلِ؟!.

حمد: هذه ليستْ فلسفةً ولا ما يَحزنونَ!، هذه تعرفُها بنفسِكَ كذلكَ. هل خَمْسُ جراماتٍ من الذهبِ تساوي خَمْسَ كيلوجراماتٍ من الخيارِ مثلاً؟!.

أبوالزهو: لا لا لا... فقط أمزحُ معكَ. أخذتَ الأمرَ بِجدّيةٍ وبدأتَ تُعصبِنُ، هذا دليلٌ على أنَّ طبيبَ الأسنانِ قد ألحقَ بكَ غُلباً شَنيعاً.

حمد: وعندَما يصيبُ أسنانَكَ شيءٌ، ماذا عساكَ فاعلٌ؟!.

أبوالزهو: لن أذهبَ وأطلبَ مساعدةً من طبيبِ أسنانٍ. خلالَ غيابكَ عنِّيَ عندَ طبيبِ الأسنانِ خرجَ أحدُهُمْ والدَّمُ واللُّعابُ يسيلانِ من فمهِ، يُحاولُ جاهداً وقْفَ ذلكَ وبمساعدةِ زوجةٍ لهُ أو أختٍ، على ما يبدو. كذلكَ كانَ هنالكَ شخصٌ آخرُ وقد لفَّ فمَهُ ورأسَهُ بلفافةٍ، وكما يبدو أنَّ فكَّهُ السّفليُّ كادَ يسقطُ إلى الأرضِ من رأسهِ. ما هكذا تُساقُ الإبلُ يا بشراً!.

حمد: إذن، لِحُسنِ حظِّيَ أنَّ طبيبَ الأسنانِ لَمْ يهتمَّ بعملِ أيِّ شيءٍ لأسنانِيَ.

خلالَ النقّاشِ خرجَ أحدُ المراجعينَ ودموعُهُ تَملأُ عينيْهِ ووجهَهُ من الألَمِ، ولكنَّهُ من خلالِ المأساةِ! كانَ يبتسمُ ويصدرُ من داخلهِ بعضُ الانشراحِ. سألاهُ حمد وأبوالزهو، ما الأمرُ!؟. أجابَ ذلكَ المنكوبُ بأنَّ طبيبَ الأسنانِ خلَعَ لهُ ثلاثةَ أسنانٍ قبلَ أنْ يتأكَّدَ من أنَّ التي خُلعتْ أخيراً هي الضرسُ ذاتُ مصدرَ الألَمِ. أضافَ أنَّ ذلكَ الطبيبَ كان ابنَ حلالٍ! حيثُ لَمْ يطلبْ منهُ أجرةَ خلعٍ إلّا على ضِرْسٍ واحدةٍ، وذلكَ ما جعلَهُ مبتسماً وسَعيداً.

أبوالزهو: يا مسكيناً! لِمَ لا تقتدي بِيَ ولا تعيرُ أيَّ اهتمام للقيام بزيارةٍ كهذهِ. إنَّ الطبيعةَ أكرمتْنا وخَصَّتْنا بِهذهِ المكرمةِ التي لا يفهمُها إلا القليلُ خاصةً المُجرِّبونَ منهُمْ من أمثالِكَ الآنَ!.
حمد: لنذهبْ الآنَ إلى البيتِ ولا نَبْقى هنا في المدينةِ نتسكَّعُ في الشوارعِ. لَمْ يَبْقَ لدينا شيءٌ من المصروفِ ولا فلوسُ جيبٍ.
وكان أخٌ صغيرٌ لحمد وأختٌ صغيرةٌ ("طَحَلان" و"فَلْحَة") قد سألاهُ، وسألا أبوالزهو كذلكَ، أنْ يَجْلبا لَهُما بعضَ الكنافةِ النابلسيةِ عندَما يفرغانِ من بيعِ حُمولةِ اللّبنِ والخضارِ. لَمْ يستطعْ تلبيةَ مطلبيْهما ذلكَ اليومَ!...
أبوالزهو: وهلَّا تريدُ أنْ تشتريَ كنافةً نابلسيةً للأولادِ الصّغارِ؟!؛ سَمعتُهُمْ يوصونَكَ أمسَ قبلَ ذهابِهمْ للنومِ! بشرائِها لَهُمْ. "يَموتُ" الأولادُ الصّغارُ في البيتِ عشقاً للحلوى، لنشترِ لَهُمْ شيئاً منها.
حمد: في هذا اليومِ! لا حلوى ولا بطيخاً أصفرَ (البطيخُ الأصفرُ هو نفسُهُ الشمّامُ، "لا بطيخاً أصفرَ" تعبيرٌ مَحليٌّ كنايةً عن إعلانٍ عن مثلِ حالةِ إفلاسٍ أو رفضِ وجودٍ أو رفضٍ لوضعٍ معينٍ ...)، ربَّما سنشتريَ لَهُما كنافةً نابلسيةً غداً أو بعدَ غدٍ.
أبوالزهو: وماذا ستقولُ للأولادِ؟. إنَّهُمْ ينتظرونَ عودتَنا ببالغِ الصّبرِ فقط من أجلِ الكنافةِ النابلسيةِ!.
حمد: يا أبوالزهو، يا حبيبيَ، لقد أخذَ طبيبُ الأسنانِ مِنِّيَ كلَّ الفلوسِ من بيعِ هذا اليوم.
أبوالزهو: والدُكَ لن يصدِّقَكَ وسوفَ يفكِّرُ أنَّكَ بعثَرْتَها هنا وهناكَ وضحكَ عليكَ أصحابُكَ فيها.
حمد: هذه هي المشكلةُ، الوالدُ أبو جاسر لا يصدّقُني بشيءٍ وخاصةً عندَما يأتي الأمرُ والحديثُ عن فلوسٍ ومصروفٍ.
أبوالزهو: لا تقلقْ يا صديقِيَ!، سوفَ أقومُ بنفسِيَ بالتوسُّطِ بينَكَ وبينَهُ. أعرفُ أنَّهُ دائماً يصدِّقُني ويثقُ بِيَ؛ أنا معروفٌ حتى دولياً أنّني لا أكذبُ وليس لِيَ مصلحةٌ في الكذبِ!. لكنْ ماذا لو توسَّلتَ! لطبيبِ الأسنانِ أنْ يَخصِمَ لكَ قليلاً ولو عشرةَ قروشٍ لشراءِ رُبْعِ كيلوجرام من الكنافةِ النابلسيةِ للأولادِ؟!، ما كانَ ضرَّكَ لو فعلتَ ذلكَ!.
حمد: يا أبوالزهو! ألَا تعرفُ هؤلاءِ البشرَ؟، لديهِمْ تسعيرةٌ معلَّقةٌ على طولِ وعرضِ الحيطانِ حولَ وفوقَ رؤوسِ المرضى المأزومينَ وأمامَ ناظرِ كلٍّ منهُمْ. تسعيرةٌ أكبرُ منِّيَ ومنكَ ولا أحداً يفكِّرُ بالمساومةِ عليها إلا أنتَ وأنا منْ بعدِكَ!. على المريضِ والمصابِ أنْ يدفعا ما يفرَضُ عليهما من تسعيرةٍ فقط. عليكَ أنْ تعملَ أو تستدينَ أو حتى تنصُبَ وتحتالَ أو تسرقَ، أخيراً عليكَ أنْ تدفعَ أو تتركَ سوسةَ الأسنانِ تفتحُ مَحاجرَ "كُحْلِيَّةَ اللونِ" في فمِكَ وأسنانِكَ. بالنسبةِ لكَ ومن هذهِ الناحيةِ؛ كلُّ شيءٍ مأساويٌّ عندَنا مثلَ شُرْبِ الحليبِ مع الكعكِ عندَكَ.
أبوالزهو: أريدُ منكَ هذا اليومَ وعندَما نذهبُ إلى البيتِ وترتاحُ وتَهدأُ أعصابُكَ أنْ تدقَّ لنا موسيقى أغنيةٍ مناسبةٍ، للشيخ فريد مثلاً. ملعونٌ! يومُ وجعِ الأسنانِ ويومُ علاجِ وجعِ الأسنانِ ويومُ وجعِ الرأسِ القادمِ من جهةِ فاتورةِ طبيبِ الأسنانِ.
حمد: اليومَ! لا أظنُّ أنّهُ سيكونُ لِيَ مَزاجٌ للموسيقى؛ خذْ أنتَ العودَ ليلاً ودَندنْ بهِ على راحتِكَ وعلى هواكَ. اللحنُ الذي يضبطُ معكَ سلطِنْ عليهِ!.

أبوالزهو: لا أستطيعُ عملَ ذلكَ يا صاحبيَ!. كذلكَ كما تعرفُ أنَّ الوالدَ أبو جاسر ينامُ في مكانٍ قريبٍ على مكانِ نومِيَ وسينزعجُ كثيراً إذا ما بدأتُ أتلمّسُ أو أداعبُ! أوتارَ العودِ. أو أنْ تذهبَ معِيَ فـي الليلِ إلـى كـرمِ الأشـجارِ بعـدَ أنْ ينـامَ الأهـلُ وسنسهرُ بعيداً عن أنظارِ أهلِ القريةِ.
حمد: عليكَ يا صاحبيَ أنْ تؤجِّلَ هبّةَ شهوةِ الطربِ عندكَ شهريْنِ على الأقلِّ بعدَ أيّةِ زيارةٍ ولو بسيطةٍ لعيادةِ طبيبِ الأسنانِ الموقَّرِ كهذهِ!....

نائبٌ عن المنطقةِ

انتهتْ عمليةُ بيعِ اللّبنِ الرائبِ في ضواحي المدينةِ في ذلكَ اليوم مبكِّراً وتوجَّهَ حمدٍ وأبوالزهو هذه المرَةَ إلى السّوقِ القديمِ والحديثِ (البازارِ الكبيرِ)، في آنٍ معاً. توقَّفا عندَ مرورهِما لِمشاهدةِ البضائعِ المعروضةِ هنا وهناكَ في أرجاءِ السّوقِ؛ ملابسُ وأدواتٌ منزليةٌ ومعداتٌ وأجهزةٌ قديمةٌ مستعملةٌ وجديدةٌ لا تزالُ في صناديقِها من الجهةِ المصدِّرةِ. ثلاجاتٌ وغسالاتٌ وأفرانُ غازٍ ودرّاجاتٌ هوائيةٌ للأولادِ والبناتِ. ملابسُ للحريمِ أضعافُها للرجالِ وصناعاتٌ غذائيةٌ ومشروباتٌ؛ كانَ الوضعُ مثلَ الذي يدخلُ إلى مَخْزنٍ بضائعَ كبيرٍ يَحتارُ فيهِ ماذا يشتري وماذا يتركُ للآخرينَ!.
في تلكَ الأثناءِ مرّتْ شخصيةٌ مَحليةٌ مرموقةٌ، على ما يبدو، في المُجتمعِ هناكَ. كانَ الشعورُ بذلكَ بسببِ الحمايةِ الخاصّةِ لهُ والمرافقينَ الذينَ كانوا يضبطونَ وقْعَ خُطاهُمْ على إيقاعِ خطواتِ تلكَ الشخصيةِ. وما أنْ بدا منظرُهُ للعيانِ حتى ظهرَ ذلكَ الشخصُ من نوعٍ ثقيلِ الوزنِ، عريضِ الظهرِ، كبيرِ البطنِ والصّدرِ. وبسببِ الشمسِ الدافئةِ في ذلكَ اليومِ كانَ يلبسُ قبّعةً صيفيَةً على رأسهِ الأصلعِ مصنوعةً من القَشِّ الخاصِّ للأذواقِ الرفيعةِ، وكانَ أحدُ المرافقينَ معهُ يَحملُ لهُ شَمْسيةً خاصةً لتقيهِ من أشعةِ الشمسِ الثاقبةِ بعضَ الشيءِ. مرَّ من هناكَ وأحدثَ موجةً من البهْجةِ الممزوجةِ بالوجلِ والهيبةِ الحكوميةِ أو ما شابهَ ذلكَ، مصحوبةً ببعضِ الأحاديثِ الجانبيةِ القصيرةِ والمصافحاتِ وتقبيلِ الأيدي والأكتافِ والوجهِ، ومن على جانبَيْ الطريقِ. مشى حمد وأبوالزهو حيثُ قاما بشراءِ أغراضٍ خاصةٍ إلى أبوالزهو بما في ذلكَ عصبةٌ للوجهِ ونظارةٌ! تقيهِ أشعةِ الشمسِ المباشرةِ وعصبةُ رأسٍ أخرى يتجمَّلُ فيها أبوالزهو في الذهابِ والإيابِ وعندَ مناسباتِ الأفراحِ وما شابهَ ذلكَ. توجَّها بعدَ ذلكَ خارجَ السّوقِ إلى الطريقِ التي يسلكانِها عادةً من هناكَ باتّجاهِ القريةِ.

حمد: لقد اشتريتُ لكَ هذه العصبةَ لرأسِكَ وأخرى مثلَ قلادةٍ تلبسُها حولَ رقبتِكَ لتزيدَكَ جَمالاً على جَمالٍ ورونقاً على رونقٍ طبيعيٍّ، عسى أنْ تكونَ مسروراً بِها.
أبوالزهو: أريدكَ أنْ تشتريَ لِيَ بدلةً مثلَ التي كان يلبسُها ذلكَ الشخصُ المَهيبُ عندَما كنّا في السّوقِ ومرَّ من هناكَ موكبُهُ المهيبُ كذلكَ!.
حمد: إنَّ ذلكَ الموكبَ الذي تتحدّثُ عنهُ هو موكبُ أحدِ نوّابِ المنطقةِ في البرلَمانِ.
هل تريدُ أنْ أشتريَ لك بدلةً من مثلِ بدلةِ ذلكَ النائبِ الموقّرِ؟!.
أبوالزهو: نعمْ!، جاكيتٌ كاكيُّ اللونِ وسروالٌ وطاقيةٌ للشّمسِ ونظاراتٌ شَمْسيةٌ للعيونِ.
حمد: نَسيتَ القميصَ وربطةَ العنقِ والحذاءَ والغيارَ الداخليَّ وعصا النائبِ!. ثُمَّ إنَّ النائبَ يقضي معظمَ وقتهِ جالساً في الفيءِ مِمّا يَجعلُهُ بحاجةٍ ماسةٍ إلى نظاراتٍ تقي عينيْهِ من لسعةِ الشمسِ عندَ خروجهِ وتعرّضهِ لَها. والطاقيّةُ تقي رأسَهُ من ضربةِ شَمْسٍ موجعةٍ لرأسهِ ودماغهِ، مِمّا قد يعطّلُ عملَ مُخِّهِ ويضطربُ عقلُهُ. معاً وسويَّاً! نقضي معظمَ وقتِنا في عناقٍ مباشرٍ ودائمٍ مع الشمسِ وأشعتِها؛ لِماذا تَحتاجُ إلى مثلِ هذهِ الواقياتِ من أخطارِ الطبيعةِ والبيئَةِ؟!.
أبوالزهو: وماذا عن المظلّةِ ذاتِ اللونِ الأبيضِ التي كانَ يَحملُها أحدُ المرافقينَ لهُ بالرغمِ من عدمِ وجودِ غيومٍ في السّماءِ أو أمطارٍ؟!.
حمد: يا حبيبيَ يا أبوالزهو!، هؤلاءِ الناسُ يُحاولُونَ المُحافظةَ على الحدِّ الأدنى من اللونِ الأبيضِ في بشرتِهِمْ، اللونُ الأبيضُ هو المفضّلُ والسّائدُ في هذا الزمنِ. لونُكَ بُنِّيٌّ فاتحٌ ويظلُّ كذلكَ لو تَجلسُ طوالَ حياتِكَ تَحْتَ أشعةِ شَمْسِ الصّيفِ اللاهبَةِ. لقد أنعمَ ربُّنا عليكَ بما لَمْ ينعمْهُ على غيركَ، لا نائباً ولا مُحافظاً ولا حتى وزيراً!.
أبوالزهو: لقد رأيتُ بدلتَهُ، لا توجدُ بِها "جعلكةٌ" واحدةٌ إلا مكانَ جلوسهِ على مؤخرتهِ. حذاؤُهُ يلمعُ كما لو لَمْ يكنْ تعرَّضَ لنورٍ أو غبارٍ من قبلُ، ومطليٌّ بلونٍ عاليَ الزهوِ مستحبِّ اللمعانِ!.
حمد: يَحتاجُ كلُّ هذا إلى مُخصّصاتٍ ومصاريفَ وجهودٍ ووقتِ بشرٍ مُخصَّصٍ لذلكَ. هل تظُنُّ أنَّ هذه المظاهرَ قادمةٌ من العَبَثِ؟. يوجدُ كَوّىً خاصٌ ومَاسحُ أحذيةٍ خاصٌّ ولاعقُ أكلٍ خاصٌّ وحرسٌ خاصٌّ وأمنٌ خاصٌّ وسياراتٌ وبيوتٌ ومُجَمَّعاتٌ سكنيةٌ وطبّاخونَ وخدمٌ وحشمٌ وحريمٌ وغيرَ ذلكَ الكثيرِ كلُّها خاصٌّ في خاصٍّ في خاصٍّ.
أبوالزهو: ولكنَّ السّؤالَ الذي يطرحُ نفسَهُ فوراً وعندَ كلِّ كلمةٍ تقولُها، السّؤالُ هو من أينَ تأتي تلكَ المصاريفُ على كلِّ شيءٍ قلّتَهُ وكلُّهُ من النوعِ الخاصِّ؟!.
حمد: يا أبوالزهو هذه الأسئلةُ وغيرُها تَجعلُكَ عنديَ شديدَ الشبهةِ، كما لو كنتَ مُجنَّداً لدائرةِ مباحثِ أمنِ الدولةِ الخاصِّ!. لا عليكَ يا هذا! سوفَ أعطيكَ بعضَ الإجابةِ وأرجو منكَ أنْ تريحَني بعدَ ذلكَ من هذهِ الأسئلةِ البلهاءِ. تعرفُ أنَّ هنالكَ مساعداتٍ تأتي للشعوبِ النائمةِ، والتي يقالُ عنها ناميةٌ للتفاؤلِ بحالِها، تأتي من الدولِ الناميةِ فعلاً ومستمرةٍ في النموِّ. تتسلّمُ الحكومةُ هذه المساعداتِ المشروطةَ وتُنَمّي فيها من كانَ ذا حظٍّ عظيمٍ عندهُمْ؛ هلّا فهمتَ يا بُنَيَّ؟!.
أبوالزهو: فَرَضاً وافقتُ معكَ! ومَاذا ......
حمد: هنالكَ شخصٌ يقتربُ منّا ويركّزُ سَمْعَهُ علينا؛ يبدو أنَّكَ وإيّاهُ سَتَضَعانَني في مشكلةٍ مع الدولةِ لا تبقي لَنا ولا تذرُ. الأسبوعَ الماضي اشتريتُ لكَ "برذعةً" خاصةً (أنتجَ البرادعي ثلاثةً فقط خاصةً ولأذواقٍ سوبرْ خاصةٍ) واليومَ اشترينا لكَ

غياراً داخلياً تَحتَها خاصّاً وأصبحَ كلُّ شيءٍ عندَكَ خاصاً في خاصٍّ في خاصٍّ. أعني يا حبيبِيَ يا أبوالزهو!، هذا النائبُ عندَهُ مقابلاتٌ مع شخصياتٍ من داخلِ الدولةِ وخارجِها، ومرّاتٍ مندوبينَ من الأممِ المتحدةِ ووكالاتِها المتخصصةِ من صليبٍ أحْمرَ وغوثِ لاجئينَ ورعايةِ الطفولةِ والأمومةِ، كلّهُمْ يأتونَ بمساعداتِهِمْ إلى بيتِ مالِ الدولةِ الخاصِّ. عليهِ أنْ يهتمَّ بجِسمِهِ وذقنهِ وما تبقّى من شعرِ رأسهِ حتى يظهرَ بشكلٍ مقبولٍ. ثُمَّ افرضْ جدلاً أنّنا وفَّرنا لكَ كلَّ تلكَ الملابس، مِنَ أينَ نأتي لكَ بالحراساتِ الخاصَّةِ. وحتى تَحصِلَ على ما تَحلمُ بهِ يَجِبُ أنْ يَكونَ لديكَ شهادةٌ جامعيةٌ واحدةٌ على الأقلِّ وواسطةٌ أو أنْ تكونَ ابنَ عائلةٍ أو عشيرةٍ كبيرةٍ مرموقةٍ، أو حتى غيرَ مرموقةٍ ولكنْ يُحسَبُ حسابُها عندَ حدوثِ أزماتٍ أو قلاقلَ في الدولةِ؛ هل تقدرُ أنْ تتصرفَ في الأزماتِ؟ لن أكونَ معكَ دائماً!.

أبوالزهو: بالنسبةِ لشعرِ الرأسِ واللحيةِ وتنظيفِ الذقنِ والحواجبِ والجبهةِ الأماميةِ بالخيطِ فهذهِ ليستْ بمشكلةٍ. سأذهبُ معكَ إلى صالونِ الحلاقةِ وأرجوكَ أنْ تقولَ للحلاقِ "شامخ" صاحبِكَ أنْ يقومَ بذلكَ حيثُ أنَّ عندَهُ يداً فنيةً في ذلكَ. ذلكَ لأنني أرى كثيراً من البشرِ مثلَ العفاريتِ بأشكالِهِمْ عندَ الدخولِ إلى الصّالون ويَخرجونَ وذقونُهُمْ تلمعُ أكثرَ من ذقنِ النائبِ نفسهِ. وأمّا بشأنِ الحراساتِ وما أدراكَ ما الحراساتُ، فلا يوجدُ بيني وبينَ أحدٍ عداءٌ أو ثاراتٌ قديمةٌ أو حديثةٌ، لا توجدُ حاجةٌ لِيَ لِمثْلِ الحراساتِ تلكَ!.

حمد: لا تقلْ ذلكَ، لأنَّكَ والحالةُ هذهِ تُلغي وظائفَ الكثيرِ من خرّيجي النوادي ومعاهدِ التدريبِ الرياضيةِ التابعةِ لكبارِ ضباطِ الشرطةِ!؛ أعني بأفكارِكَ السّلميةِ السّاذجةِ هذهِ. يَجبُ أنْ تكونَ شديدَ البطشِ عظيمَ التهديدِ والوعيدِ حتى يَكونَ عندَكَ طاقمٌ كاملٌ من هؤلاءِ وهؤلاءِ. وافرضْ جدلاً!، وافقتُ معكَ على أرائِكَ وما تتمتّعُ بهِ من منطقٍ، ماذا عنْ مقابلاتِكَ للشخصياتِ القادمةِ والوافدة من هنا وهناكَ؟!. هل توجدُ عندَكَ دوراتٌ تدريبيةٌ في لندن أو باريس أو نيويورك على كيفيةِ إبداءِ الرأيِ والقيامِ بحركاتٍ لَها "إتيكيت"، ذوقٌ خاصٌ يرتاحُ لَها بلْ يتشرّفُ الزائرُ الأجنبيُّ الكريمُ لرؤيتِها؟!.

أبوالزهو: سوفَ أقولُ لَهُمْ بأنَّ عندِيَ اجتماعاً وأعتذرُ عن اللقاءِ بِهم. إذا ما كانَ الشغلُ في الحديقةِ وبيعُ اللّبنِ الرائبِ في الشوارعِ يأخذُ هذا الشغلَ وهذا الوقتَ فَما بالُكَ إذا ما تسلّمتُ بلديةَ المدينةِ أو نائباً عنْها!؟.

حمد: غيرُ معقولٍ يا أبوالزهو أنَّهُ دائماً عندَكَ اجتماعٌ. يَجبُ أنْ تلغِيَ كلَّ الاجتماعاتِ مع الخلقِ إنْ تتطلّبَ الأمرُ وتتفرغَ لِهؤلاءِ الأجانبِ. هؤلاءِ سوف يَجلبونَ لكَ الاهتمامَ والاعترافَ الدوليينَ إنْ رضَوْا عنكَ حتّى لَوْ "تبرَّزتَ" من الأسفلِ إلى الأعلى على حالِكَ. المهمُّ أنْ تتّبعَ المعاييرَ المقبولةَ لديهِمْ لنيلِ رِضاهُمْ!.

أبوالزهو: وماذا يفيدُني اعترافُ هؤلاءِ البشرِ بيَ إذا كنتُ "أتبرَّزُ" على حالِيَ؟!. يا صديقِيَ ضعْ عقلَكَ في رأسِكَ وفكِّرْ بمنطقٍ يا أبا الفلسفةِ النفاقيةِ. من الآنَ فصاعداً سوفَ أطلقُ عليكَ لقبَ "منافق إخوان"، وأرشّحُكَ لرئاسةِ "نقابةِ المنافقينَ" في المدينةِ!.

حمد: أُثمِّن عالياً فلسفتَكَ العظيمةَ يا أبوالزهو وإصرارَكَ على حفظِ كرامةِ الشعبِ والناسِ وحتى المسئولينَ الكبارِ منهُمْ. لكنْ، وبِمزيدٍ من الحزنِ واللوعةِ والأسى،

لن تستطيعَ إلى ما تصبو إليهِ سبيلاً. كلُّ ما أخشاهُ هو أنَّني لن أقدرْ على مساعدتِكَ لتلبيةِ أيٍّ من طموحاتِكَ...
أبوالزهو: أنا، يا صديقِيَ، أمزحُ معَكَ!، فقط أحبُّ أنْ أستفزَّكَ. لا أريدُ أنْ أصبحَ لا نائباً ولا مُحافظاً ولا وزيراً ولا رئيسَ بلديةٍ ولا رئيساً لغرفةِ التجارةِ ولا حتى مُختاراً للعائلةِ. أتركُ كلَّ تلكَ الوظائفِ الشاغرةِ والمملوءةِ لأصحابِها.
حمد: لقد شابَ شعرُ رأسِيَ منكَ. كلَّما رأيتَ مديرَ مدرسةٍ أو معلِّماً فيها، شرطياً في الشارعِ ينظِّمُ السّيرَ أو قائدَ مَخفرِهِ، طبيباً في مستشفىً أو تاجراً للجملةِ والمُفرَّقِ، وأخيراً تريدُ أنْ ترتديَ ثوبَ النائبِ المُحترمِ. أتريدُ أنْ تقلّدَ كلَّ هؤلاءِ؟. من أينَ آتيكَ بالأموالِ اللازمةِ لذلكَ؟، هل لديَّ احتياطٌ من العملاتِ الصّعبةِ في مصرفٍ خاصٍّ بعائلةِ أبو جاسرٍ تَحْتَ تصرُّفِيَ لأصرفَ عليكَ وعلى طموحاتِكَ، أو ريعُ مناجمَ معادنَ وأحجارٍ كريمةٍ أو شركةُ كيماوياتٍ صناعيةٍ. لَمْ يبقَ في هذه المدينةِ من شيءٍ تطلبُهُ إلّا واشتريتُهُ لكَ!.
أبوالزهو: أرجوكَ! لا تنزعجْ منِّيَ. لَمْ أكنْ أعرفُ أنكَ حساسٌ ومتضايقٌ إلى هذه الدرجةِ. أعترفُ بخطئِيَ وأرجو أنْ تسامِحني. هذه منِّيَ قبلةٌ على وسطِ جبهتِكَ الأماميةِ وعلى وجنتيْكَ، يا طويلَ العمرِ وقصيرَ الذيلِ!.

تنظيرٌ وتعليمٌ

يبدأُ الدوامُ الصّباحيُّ في مدارسِ الحكومةِ السّاعةَ الثامنةَ وذلكَ بُعيدَ طابورِ الصّباحِ للطلّابِ السّاعةَ ٧:٤٥ حيثُ يلقِي المديرُ أو أحدُ المدرسينَ كلمةَ الصّباحِ. بعدَها يقومُ أحدُ التلاميذِ من الصّفوفِ العليا، وعادةً ما كان يُختارُ مَنْ هو صاحبُ أطولِهِمْ قامةً أو أضخمِهِمْ جسماً وأقواهُمْ حنجرةً، حيثُ يهتفُ بعبارةٍ وطنيةٍ. يتبعُ ذلكَ الهتافَ تصفيقٌ يشبهُ هبوبَ عاصفةٍ من جَمْعٍ من المعلمينَ والطلبةِ، في منظرٍ مهيِّجٍ للعواطفِ الوطنيةِ ورافعٍ أو منعشٍ للروحِ المعنويةِ. يدخلُ كلُّ طابورٍ منَ التلاميذِ فرداً فرداً إلى صفهِ في انتظارِ المعلِّمِ وما قد يفرزهُ ذلكَ المعلِّمُ من معلوماتٍ ومفاجآتٍ سارةٍ وهي نادرةُ الحدوثِ أو غيرَ سارةٍ وما أكثرَها. هكذا دواليكَ تتكرَّرُ العمليَّةُ لسنينَ طويلةٍ مضنيةٍ طالما بقيَ الأولادُ وأهلوهُمْ مقتنعينَ أنَّ التعليمَ بتلكَ الطريقةِ هو السّبيلُ الوحيدُ لتحقيقِ المَجدِ العلميِّ الأخّاذِ في الحياةِ.

ما أنْ يتقدَّمَ ابنُ القريةِ في التعليمِ قليلاً في ذلكَ الزمانِ حتّى يصبحَ لزاماً عليهِ الذهابُ إلى المدينةِ إنْ أرادَ الاستمرارَ في طلبِ العلمِ منَ المدرسةِ، عمليةٌ فيها الكثيرُ! مما يبهجُ القلبَ ومن المساوئِ ما يكفي للحديثِ عنْهُ طويلاً. في كثيرٍ من أيامِ السّنةِ كان على حمد أنْ يذهبَ مع أبوالزهو إلى المدينةِ في الصّباحِ الباكرِ لكيْ يتسنّى لَهُما بيعَ حُمولتِهما، أو القسمِ الأكبرِ منها، من اللّبنِ الرائبِ والخضارِ والفواكهِ قبلَ بدءِ الدروسِ وحتى قبلَ قيامِ طابورِ الصّباحِ وتحيةِ العَلَمِ والوطنِ

والرئيس. يتركُ حمد صديقَهُ أبوالزهو قربَ أحدِ أعمدةِ الكهرباءِ أو الهاتفِ السّاعةَ ٧:٣٠ صباحاً تقريباً قبلَ بدءِ الدوامِ ليعودَ إليهِ عندَ السّاعةِ ١٢:٣٠ تقريباً بعدَ الظُّهرِ أيْ بعدَ انتهاءِ دروسِ المدرسةِ وأعمالِها، مع زياراتٍ غيرَ متوقعةٍ لهُ من حمد كلَّما سَنَحَتْ للأخيرِ فرصةٌ لذلكَ. كان أبوالزهو شديدَ الالتزامِ بالانتظارِ في مكانهِ حتّى يعودَ إليهِ حمَد، سواءً كانتْ السّماءُ مُمطرةً أمْ كان الجَوُّ صحواً أو ذا شَمْسٍ دافئةٍ أو ذا غيومٍ باردةٍ متلبدةٍ. في هذه الأمورِ يُركَنُ إلى أبوالزهو بكلِّ ثقةٍ.
حمد (يعودُ إلى أبوالزهو بعدَ انتهاءِ حصصِ المدرسةِ): يُعطيكَ العافيةَ، كيفَ حالُكَ؟ هل تَماماً الحالةُ معكَ؟. معذرةً لو تأخّرتُ عليكَ.
ومشى الاثنانِ في الطريقِ إلى وسطِ المدينةِ ومنها سيتوجَّهانِ إلى القريةِ.
أبوالزهو: لَمْ أكنْ أعرفُ أنَّكَ ستترُكُني لفترةٍ طويلةٍ، ظننتُ أنَّكَ هجرتَنِي.
حمد: لا، لَمْ ولنْ أهجرَكَ. صناديقُ الخضارِ وبقاليلُ اللّبنِ والأغراضُ كلُّها معكَ، ثُمَّ لِماذا أتركُكَ وأنتَ صديقُ العمرِ قبلَ هذا وذاكَ؟!. هذهِ منّي قُبلةُ إعجابٍ إليكَ.
أبوالزهو: من الصّباحِ الباكرِ إلى ما بعدَ الظهرِ، يا ظالِماً!، تتركُني وحدِيَ. وماذا كنتَ تفعلُ بينَ وعندَ هؤلاءِ البشرِ؟.
حمد: كنتُ أتعلَّمُ الحسابَ واللغةَ والثقافةَ وعلمَ الاجتماعِ والعلومَ الطبيعيةَ وما إلى ذلكَ.
أبوالزهو: وهل تعلّمتَ شيئاً مفيداً؟.
حمد: نعمْ، كلُّ شيءٍ مفيدٌ. عسى أنْ نَحفظَ تلكَ المعلوماتِ لأجلِ النجاحِ في الامتحانِ ولنتقدَّمَ كلَّ سنةٍ إلى الصّفِّ الذي يليهِ.
أبوالزهو: وكَمْ من سنةٍ مضتْ على البدءِ بتعليمِكَ؟. من يوم خُلقْتُ لأراكَ رائحاً إلى المدرسةِ وراجعاً منها، كما لو "ذُقْتَ بلسانِكَ حلاوةً"!. (مَثَلٌ محلّيٌّ ينتقدُ الإدمانَ على شيءٍ أو القيامَ بنفسِ التكرارِ).
حمد: مضى عليَّ العديدُ من السنواتِ حتى الآنَ في ذلكَ التعليمِ. المهمُّ أنْ لا يرسبَ التلميذُ في صفِّهِ ويُطرَدَ بعدَ ذلكَ من المدرسةِ.
أبوالزهو: وهل تستطيعُ القيامَ بشيءٍ يَجلبُ لكَ بعضَ المالِ ويقلِّلُ من اعتمادِكَ في المصروفِ على عرقٍ ودمِ والدِكَ الكادحِ وعرقِيَ وجهدِيَ في آنٍ واحدٍ؟.
حمد: حاليّاً لا!، ولكن ذلكَ مُمكنٌ في المستقبلِ. الآنَ أقدرُ على قراءةِ الجريدةِ ومطالعةِ الأخبارِ وبعضِ الكتبِ والأشعارِ وقراءةِ وكتابةِ بعضِ الرسائلِ فيما لو احتاجَ أحدُ الناسِ من الأميينَ لذلكَ!.
أبوالزهو: أعني ماذا بشأنِ الرزقِ وكسبهِ؟!. لَمْ آخذْ ولو درساً واحداً في المدرسةِ، وأحصلُ على رزقِيَ ورزقِ العائلةِ.
حمد: لقد سَمِعْتُ هذا الكلامَ من قبلُ. أنتَ تُستعملُ لكسبِ الرزقِ لكنَّك أمّيٌّ وجاهلٌ ولا تعرفُ القراءةَ والكتابةَ والحسابَ .. ..والهندسةَ ....
أبوالزهو: الحسابَ؟ أيُّ حسابٍ! وما هذا الحسابُ الذي تتعلَّمُهُ؟.
حمد: هل تعرفُ مثلاً أنْ تضربَ الرقمَ ٥٢٧ بالرقمَ ٥٤؟ طبعاً لا.
أبوالزهو: وما لزومُ هذهِ الأرقامِ الكبيرةِ؟. أعرفُ أنَّنا نَحملُ عشرينَ (٢٠) بقلولةَ لبنٍ مضروباً هذا الرقمَ بسعرِ كلِّ بقلولةٍ منها ويساوي خَمسةَ قروشٍ لنحصلَ على جنيهٍ واحدٍ لكَ ولِيَ وللأهلِ جَميعاً!...

حمد: ولنفرضْ يا أبوالزهو أنَّ حكومتَنا الباسلةَ قامتْ بشراءِ ١٥٧ طائرةً وكلَّ طائرةٍ منهنَّ بثمنِ ٣٩ مليوناً ونصفِ المليونِ جنيهاً!، ماذا تفعلُ لِحسابِها وتعطي أصحابَ تلكَ الطائراتِ ثَمنَها جَميعاً بعدَ تَحويلِ المبلغِ إلى عملةٍ عالَميةٍ صَعبةٍ؟.
أبوالزهو: لا أبذِّرُ الأموالَ وأفتكُ بالاقتصادِ الوطنيِّ ومدّخراتهِ على شراءِ أسلحةٍ. أُفضّلُ أنْ أحُلَّ مشاكلِيَ بالطرقِ المنطقيةِ والواقعيةِ والسّلميةِ ... والتفاهمِ. لِماذا نشتري كلَّ تلكَ الأسلحةِ؟!.
حمد: للدفاعِ عن الوطنِ يا سيدَ فهمان!. عندَما تصلُ الأمورُ مع العدوِّ إلى طريقٍ مسدودٍ أو بالأصحِّ عندما يسُدُّ العدوُّ عليكَ كلَّ الطرقِ!...
أبوالزهو: الطائراتُ لا تدافعُ. يَجبُ أنْ ندافعَ عن أنفسِنا في حالةِ تعرّضِنا لعدوانٍ كما تقولُ!.
حمد: يا أبوالزهو، الطائرةُ يقابلُها طائرةٌ والمِدفعُ يقابلهُ المدفعُ والدبابةُ تواجهُها دبابةٌ والسّكّينُ يقابلُهُ سكينٌ. ثُمَّ تبدأُ المعركةُ وتسيلُ الدماءُ وينتشرُ الدمارُ وتعُمُّ الفوضى المسلحةُ المنطقةَ وتتساقطُ الضحايا من جَميعِ الأطرافِ ويكونُ النصرُ حليفَ الأقوى!...
أبوالزهو: والباطلُ يقابلُهُ الحقُّ. كلُّ هذه المصروفاتِ يضحكوا على البشرِ فيها، هذه شركاتُ أسلحةٍ ومصاصو دماءٍ لا خيرَ فيهِمْ ومنهُمْ!.
حمد: يا صديقِيَ! كما تعرفُ أنَّنا في حالةِ مواجهةٍ دائمةٍ مع عدوٍّ متربصٍ وعندَهُ من السّلاحِ ما يوجبُ أنْ نبيعَ كلَّ شيءٍ لدينا، بِما في ذلكَ محصولَ الفجلِ وحتى العمامةَ والحطةَ والعقالَ من على رؤوسِ رجالِنا، لشراءِ أسلحةٍ تضاهيهِ وتوقفُهُ عندَ حدِّهِ!. هذه الأمورُ اتركْها لِيَ يا أبوالزَهو، أنت غيرُ متعلِّمٍ ولا تعرفُ مثلَ هذهِ الأمورِ "السّياسو-استراتيجيةِ" والتي تَحتاجُ إلى مفكّرينَ استَراتيجيينَ من النوعِ الذي يَتقاضى معاشاتٍ خياليةً. هذه الأمورُ تَحتاجُ إلى خبراءِ أسلحةٍ من الذينَ لا يعرفونَ شيئاً عن عملِ ربّاتِ البيوتِ إلا الأكلَ؛ تَحتاجُ إلى قوّادِ معاركَ من على مستوى رتبةِ عقيدٍ ركنٍ فما فوقَ ... إلخ إلخ...
أبوالزهو: عسى أنْ نَحيى لنرى نتائجَ سرحاتِ خيالِكَ وبناتِ وأخواتِ وخالاتِ وعمّاتِ أفكارِكَ. هلْ ذلكَ من نتاجِ تعليمِكَ ومواظبتِكَ على الذهابِ إلى تلكَ المدارسِ؟. شَخصياً! أنا غيرُ مقتنعٍ بما تقولُهُ جُملةً وتفصيلاً. هذا من عندِيَ مكتسبٌ بالفطرةِ ولَمْ أتلقَّ درساً واحداً من قاعاتِ التعليمِ العاقرِ ودروسِ "الغسيلِ الفكريِّ الشاملِ" كالذي يَحصلُ عندَ بني قومِكَ!.

أقاربُ "بول فولتير" و"جان جاك روسّو"

كانتْ السّاعةُ تشيرُ إلى العاشرةِ صباحاً تقريباً عندما أوشكَ الرفيقانِ الصّديقانِ الحميمانِ حمد وأبوالزهو على بيعِ كلِّ الحُمولةِ لديهما مِمّا كانا يَحملانهِ من الخضارِ واللّبنِ الرائبِ والحليبِ. لَمْ يبقَ لديهما إلا بقلولتانِ عندما تلقّى حمد

إشارةً من أحدِ البيوتِ المُحصَّنةِ في منطقةٍ جبليةٍ حينَ قالَ ربُّ الأسرةِ، على ما يبدو، أنَّهُ يريدُ شراءَ بقلولةِ لبنٍ. ذهبَ إليهِمْ حمد صاعداً وحاملاً معهُ بقلولةَ لبنٍ لبيعِهِمْ إيّاها. أعطاهُمْ حمد البقلوَلةَ وجلسَ ينتظرُ عودتَها فارغةً حينَ جاءهُ ولدٌ منْ نفسِ الحيِّ هناكَ، وأخذَ يتبادلُ معهُ أطرافَ الحديثِ عن المدرسةِ والقريةِ والمدينةِ والأهلِ، وما إلى ذلكَ. خلالَ الحديثِ نظرَ حمد إلى الشارعِ السّفليِّ حيثُ تركَ أبوالزهو بانتظارهِ هناكَ، وإذا بدوريةٍ من الشرطةِ تقتربُ منهُ. ظنَّ حمد أنَّ أفرادَ الدوريةِ يريدونَ التعرفَ على أبوالزهو عندَما أحاطوا بهِ من كلِّ صوبٍ، بعدَها لاحظَ أنَّهُمْ يتقدّمونَ عليهِ بشكلٍ غيرِ طبيعيٍّ. أمسكَ أحدُهُمْ برأسِ أبوالزهو وقامَ آخرُ بركلِهِ برجلِهِ وثالثٌ بضربِهِ بعَصاً غليظةٍ على ساقَيْهِ. صُدِمَ حمد لِهذا المشهدِ المرعبِ، تركَ صديقَهُ الشابَّ الجديدَ، ولمْ ينتظرْ حتّى يأخذَ لا البقلولةَ الفارغةَ ولا ثَمَنَها. صاحَ حمد بأفرادِ دوريَّةِ الشرطةِ من على المرتفعِ أنْ يتركوا أبوالزهو وشأنَهُ؛ لِماذا هذه المنازلةُ الرعناءُ!؟. رآهُمْ وهو يتبعُهُمْ يقتادونَهُ ويسرعونَ الخُطى باتّجاهِ مركزِ الشرطةِ القريبِ من المكانِ ليدخلونَهُ ساحةَ المخفرِ، إلى من سيتولّى التحقيقَ معَهُ.

حمد: ما هذا الذي ترتكبونَهُ بحقِّنا؟، وما هو خطؤُنا بحقِّ السّماءِ؟!.

الشاويشُ: في البدايةِ أريدُ أنْ أسألَ، هل أنتُما سويّةً مع بعضٍ؟.

حمد: نَحْنُ مع بعضٍ، ولا يُمكنُ لأحدٍ أنْ يفصلَنا عن بعضِنا البعضِ ....

الشاويشُ: أينَ رخصةُ البيعِ التي من المفترضِ أنْ تكونا حصلتُما عليها من بلديةِ المدينةِ؟!.

حمد: هذا البيعُ ليسَ بحاجةٍ إلى رخصةٍ، إنّهُ بيعُ تَجوالٍ، صندوقٌ أو اثنانِ من الخضارِ على ظهرِ دابّةٍ وعددٌ مَحدودٌ من بقاليلِ اللّبنِ؛ ثُمَّ إنّنا قادمونَ من القريةِ ولا نسكنُ المدينةَ، لا لزومَ لرخصةِ بيعٍ. عن أيَّةِ رخصةٍ تتحدثُ؟!. لا أفهمُ عليكَ قصدَكَ.

الشاويشُ: هل الحياةُ "فالتةٌ" (كلمةُ فالتةٍ هنا تعني مثلَ سائبةٍ أو فوضى) لكَ ولهُ!؟ تُحلِّلُ وتُحرِّمُ على ذوقِكَ. وما وظيفتُنا نَحْنُ هنا؟!..

حمد: أولاً: هذا اسْمُهُ أبوالزهو، وثانياً: الحياةُ فالتةٌ عندَكَ وحدَكَ وعندَ الدوريةِ التي تقودُها. اعتديتُمْ على أبوالزهو وضربتُموهُ وأهنتُمونا دونَ وجهِ حقٍّ.

الشاويشُ: لا تُكثرْ من الكلامِ الفارغِ وسوفَ نضعُكُما سويَّةً في السّجنِ.

حمد: وما هو السّببُ وما هي التهمةُ؟.

الشاويشُ: التهمةُ هي البيعُ دونَ رخصةٍ خاصةٍ بذلكَ!.

حمد: ولِماذا؟، إنْ كانَ الأمرُ كذلكَ، لا تعتقلونَ كلَّ أصحابِ عرباتِ الخضارِ والأكشاكِ (الأكشاكُ هي جَمعٌ لكلمةِ كِشْكٌ ذاتِ الأصلِ الإفرنجيِّ، "كَيوسْكْ"، وهيَ مثلَ حاملٍ صغيرٍ في شارعٍ عامٍّ يوضعُ عليهِ غرضٌ واحدٌ أو بضعةُ أغراضٍ بسيطةٍ على الأكثرِ للبيعِ) والقرويّينَ الذينَ يأتونَ كلَّ يومٍ على دوابِّهِمْ لبيعِ منتَجاتِهِمْ في المدينةِ. إنّها أوّلُ مرَّةٍ نسمعُ بهذهِ الرخصةِ التي تتحدثُ عنها.

الشاويشُ: وهل تريدُ أنْ تفرضَ علينا أفكارَكَ وقوانينَكَ؟!.

حمد: أيَّةَ قوانينَ تتحدثُ عنها؟! ... أنتَ والدوريةُ متهمونَ بالاعتداءِ عليَّ وعلى أبوالزهو، وعليَّ أنْ أرفعَ قضيةً ضدّكُمْ جَميعاً.

الشاويشُ: في الوقتِ الحاليِّ سيتمُّ حجزُ أبوالزهو في المخفرِ للاستجوابِ وإلى حينِ موعدِ المَحكمةِ.

حمد: أيُّ استجوابٍ تُهدِّدُ بهِ وأيَّةُ مَحكمةٍ تتحدّثُ عنها؟!. يَجبُ إطلاقُ سراحِنا فوراً؛ إنَّ هذا لأمرٌ مُشينٌ. ثُمَّ من يضمنُ أنَّكُمْ لنْ "تتسافلوا" على أبوالز هو إنْ أبقيتموهُ لديْكُمْ في المخفرِ هذهِ الليلةَ؟!. لن أسْمحَ بذلكَ ما دمتُ حيّاً.

الشاويشُ: اخرسْ أيُّها الوقحُ!.

حمد: لا ترفعْ من صوتِكَ ولا تغلُظْ في القولِ. لا تفكِّرَ أنَّ الحكومةَ أعطتكَ ثلاثةَ "شرايطْ" من أجلِ أنْ تَحسبَ نفسَكَ إمبراطوراً؛ سآتيكَ بثلاثةِ أكياسٍ من "الشرايطِ" من بقايا ألبسةِ أبوالزهو لوحدِهِ!.

وفي خِضَمِّ تعالي الأصواتِ والكلامِ الحادِّ، دخلَ عليهِمُ مسئولُ المخفرِ، فبادرَهُ الشاويشُ قائلاً:

الشاويشُ: سيّدي! هذا إنسانٌ وقحٌ، يتهمُنا نَحْنُ هنا في المخفرِ بأشياءَ غيرَ أخلاقيةٍ.

حمد: يا حضرةَ الضابطِ المسئولِ! لقد اعتدوا على أبوالزهو بالرّكلِ والضربِ والإهانةِ واعتدوا عليَّ بالإهانةِ والكذبِ والتُّهمِ الملفّقةِ؛ ويريدونَ رخصةَ بيعٍ من البلديةِ. هل هُمْ في البلديةِ متفرّغونَ لِيَ أو لأبوالزهو أو لأيِّ كلامٍ من هذا القبيلِ؟!.

مديرُ المخفرِ: ومنذُ متى تبيعانِ في شوارعِ المدينةِ والحاراتِ الداخليةِ؟. منذُ متى تُسيئونَ إلى المدينةِ ووجهِها الحضاريِّ باتّباعِ الأساليبِ والطرقِ المتخلّفةِ في النقلِ والتسويقِ؟؛ بالطرقِ اللا-حضاريةِ في إيقاظِ الناسِ بصياحِكُمْ في ساعاتِ الصّباحِ الأولى حيثُ الأطفالُ والنساءُ والشيوخُ والرجالُ نائمونَ وغارقونَ في "شخيرِهِمْ" الاعتياديِّ؟.

حمد: أنا وأبوالزهو منذُ سنواتٍ ووالدِيَ منذُ عشراتِ السّنينَ. لكنْ!، وبما أنَّكَ تتحدّثُ عن المظاهرِ والطرقِ الحضاريَّةِ، هل معارضُ السّياراتِ والألبسةِ التي كلُّها من الخارجِ مستوردةٌ والبضائعُ ممّا هبَّ ودبَّ، مظاهرُ حضاريَّةٌ؟!. هل المحلاتُ التي تبيعُ البضاعةَ التالفةَ للبشرِ بأسعارٍ كما لو كانت هذه البضاعةُ جديدةً، وهل مَحلاتُ قطعِ الغيارِ التي تَمتصُّ دَمَ الاقتصادِ المَحليِّ مثلَما العَلَقُ المتوحشُ، هل هذهِ كلُّها مظاهرُ حضاريةٌ؟!. أرجوكَ أنْ تراجعَ ضميرَكَ إنْ كانَ لا يزالُ على قيدِ الحياةِ!.

مديرُ المخفرِ: سنواتٍ يا مفتريَيْنِ! تبيعانِ في الشوارعِ والأزقّةِ والحاراتِ الجانبيةِ دونَ حَمْلِ رَخصةٍ لبيعِ الخضارِ واللّبنِ الرائبِ. ثُمَّ إذا ما كانتْ مَحلاتُ ومرافقُ المدينةِ التجاريةِ وشوارعُها المَعبَّدةُ وبِناياتُها الفخمةُ العاليةُ والتي كلّفتْ مئاتِ الآلافِ لتشييدِ كلٍّ منْها، إذا ما كانتْ هذهِ وتلكَ مظاهرَ غيرَ حضاريةٍ وغيرَ كافيةٍ لإقناعِكُما، فكيفَ يكونُ شكلُ الوجهِ الحضاريِّ الذي يعيشُ في رأسَيْكُما؟!. هل منظراكُما بهذينِ الشّكْلينِ شيئانِ حضاريّانِ؟، وهل حَملاكُما لبقاليلِ اللّبنِ والتجوالِ فيها على طريقةِ عصورِ الرومانِ وقدامى المصريّينَ والفينيقيينَ والكنعانيينَ مظهرانِ حضاريّانِ؟!.

حمد: واللهِ! يا حضرةَ الضابطِ إنّكَ تقرأُ علينا من كتابِ تطوُّرِ الحضاراتِ. أشفُقُ على حالِكَ لأنَّكَ تعتبرُ الماكيناتِ المستوردةَ تطويراً حضاريّاً لعقلِكَ. تعتبرُ استيرادَ دراجاتِ الأولادِ وإبرةِ الخياطةِ و"بريموس" الكيروسينِ وإبرتِهِ كذلكَ تطويراً لقدراتِكَ الحضاريةِ. أنا آسفٌ لضيقِ حالِ عقلِكَ على الرغمِ من ضخامةِ جسمِكَ والنجومِ التي منها على كتفيْكَ.

مديرُ المَخفرِ: أعتبرُكَ مثْلَ ولدِيَ الصّغيرِ، هو مشاكسٌ مثْلَكَ! .... ها ها ها...

حمد: لستُ مشاكساً. هذا الشاويشُ الأرعنُ ومن معهُ في الدوريةِ هُمْ الذينَ يبحثونَ عن المشاكسةِ. (كلمةُ أرعن تردُ كثيراً في سياقِ النصِّ مستقبلاً وهي تعني استخدامَ الشخصِ لقوّتهِ وجبروتهِ عندَ خصمٍ ضعيفٍ أو مستسلمٍ أو غيرَ ذي قوّةٍ معتبرةٍ، حالةٌ غيرَ مُحبّذةٍ عندَ الخلقِ العاديينَ)
مديرُ المخفر: اهدأْ دقيقةً. سوفَ نطلقُ سراحَيكُما، أنتَ وأبوالزهو، ولا مانعَ أنْ تعودا للبيعِ في شوارعِ المدينةِ. أعودُ وأكرّرُ لكُما أنْ تبيعوا أغراضَكُما في مناطقَ بعيدةٍ عنَ الشوارعِ الرئيسيةِ. وعلى فكرةٍ! من هو والدُكَ؟! البياعُ المتجوّلُ منذُ عقودٍ من السّنينِ كما أفدتُما؟.
حمد: والدِيَ اسْمُهُ أبو جاسر؛ منذُ عقودٍ نبيعُ نفسَ اللّبنِ الرائبِ ونفسَ الخضارِ ونفسَ الفواكهِ. نسلكُ نفسَ طرقِ الجبلِ، نفسَ أزقّةِ المدينةِ ونفسَ حاراتِ المدينةِ الداخليةِ والبعيدةِ، ومعِ نفسِ الزّبائنِ، نفسُ الطلوعِ والنزولِ، وماذا تريدُ أكثرَ من ذلكَ من أسرارٍ؟!. كلَّ ذلكَ بدونِ رخصةٍ ولا ترخيصٍ؛ لا هويةٌ ولا رقمَ تعريفٍ ولا حتى ورقةٌ مَخْتومةٌ بختمِ المُختارِ المترسّبِ المتبقّي بعدَ زوالِ العهدِ العُثمانيِّ!.
مديرُ المخفر: آهٍ... عرفْتُهُ، والدُكَ أيّوبُ أبو جاسر. كان يبيعُنا اللّبنَ والتينَ ويَجلبُ لنا أحياناً بَيضَ دجاجٍ بلديٍّ دونَ مقابلٍ. أبو جاسر سيِّدُ بلْ ملكُ الهدايا الجبليةِ والطبعِ الهادئِ. أبو جاسر ملكُ الحقولِ الخضراءِ اليانعةِ ومُلَيِّنُ صخرِ الجبلِ الأصَمِّ بجبروتِهِ وعنادِهِ. أينَ هو اليومَ؟ لَمْ أرَهُ منذُ زمنٍ طويلٍ.
حمد: لا يزالُ موجوداً يرعى الحقلَ والمواشي والأولادَ. في كلِّ يومٍ ينظُمُ "الإلياذةَ والأوديسةَ"، غيرَ المقروءةِ أو المقرّرةِ في جهازِ التربيةِ والتعليم، في التعاملِ مع الوادي والسّهلِ والجبلِ ومعَ الإنسانِ والحياةِ. يفَجِّرُ الغلّةَ من بينِ مفارقِ الصّخرِ الصّلدِ الناتئ منذُ دُحَّتْ الأرضُ، يوقظُ الزهرَ في خاصرةِ شهريْ آذار ونيسان، يُطبِّقُ أفكارَ الشعراءِ في الفلسفةِ "الرومانسيّةِ" والروحيةِ بينَ الإنسانِ والأرضِ والتينِ والزيتونِ.
مديرُ المخفر: سلّم لِيَ على أيوب أبو جاسر كثيراً. كلَّما أتذكَّرُهُ أتذكَّرُ الأصالةَ والطعمَ الأصليَّ في كلِّ شيءٍ نتعاملُ بهِ معهُ. لستَ بحاجةٍ يا بنَيَّ إلى رخصةِ بيعِ خضارٍ. إنّكَ تُشرِّفُ طرقَ المدينةِ وتُزكّي جوانبَها بعطرِ الجبلِ والسّهلِ والوادي. تَطربُ حجارةُ شوارعِ المدينةِ على ضرباتِ عصاكَ، تنهضُ والناسُ غارقونَ في عزِّ سكرةِ نومِهِمْ وعميقِ "عنفوانِ" سباتِهِمْ. أنتَ الذي يهتفُ الصّباحُ عندَ رأسِ جدولِ الماءِ كلَّ يومٍ لمسراكَ المبكرِ. أنت روحُ الأصلِ وأصلُ الروحِ؛ روحُ نُخاعِ العظمِ، عظمِ عودِ الوَطنِ. يا ابنِيَ لا أقدرُ أنْ أتفاخرَ بشرفِ المهنةِ عندِيَ أمامَ طُهْرِ كعبَيْ والدِكَ "أيّوب أبو جاسر". آخ على حياتِيَ التي أقضيها بينَ أوراقٍ تَخصُّ مرتكبي المخالفاتِ المروريةِ ومعَ ملفّاتِ أصحابِ السّوابقِ والمستجدّينَ.
حمد: وأرجو أنْ تقولَ كلماتِكَ هذهِ إلى حضرةِ السّادةِ من روّادِ دورياتِ الشرطةِ الذين يهبطونَ على الخَلْقِ هبوطَ الأقدارِ من السّماءِ.
مديرُ المخفر: يا شاويشاً!، أعدْ هؤلاءِ الشخصينِ إلى المكانِ الذي اعتقلتموهُما فيهِ. لا نريدُ هنا أنْ نفتحَ علينا أبوابَ الفكرِ والخيالِ. لَدى هذا الزّوجانِ من الخَلقِ فصولٌ من "العنفوانِ الفكريِّ" تفوقُ في التصَوُّرِ إنْ طُبِّقَتْ نواتجَ فكرِ ما قبلَ وخلالَ وبعدَ عصرِ النهضةِ في أوروبا والثورةِ الفرنسيةِ والبلشفيةِ. لقد قمتم بالتحرشِ بأقرباءَ في الفكرِ للسادةِ "جانْ جاكْ روسّو" و"بولْ فولتيرْ" و"كارلْ ماركسْ" خلالَ أعمالِ

الدوريةِ الروتينيّةِ!. لدينا مهماتٌ مُحدّدةٌ يَجبُ التقيُّدَ بتنفيذِها بِحذافيرِها؛ لا تكرِّرْ ذلكَ العملَ مع السّيدِ حمد ورفيقِ دربهِ أبوالزهو.
حمد: هل يعني ذلكَ أنَّ الشاويشَ ومن معهُ سوفَ يفلتونَ من العقابِ على فعلتِهِمْ الشنيعةِ ضدَّنا؟. والحالةُ هذهِ! تسيئونَ لسمعةِ رئيسِ الدولةِ الذي وضعتُمْ صورتَهُ لتُزيّنونَ بها مكاتبَكُمْ. بذلكَ تُخلّونَ بشرفِ الأمنِ الذي وُضعْتُمْ للحفاظِ عليهِ وتتقاضونَ من ذلكَ مرتّباتٍ مقتطعةٍ من لَحْمِ وعظمِ ودمِ الشعبِ الذينَ تقتاتونَ من عروقهِ.
مديرُ المخفر: والحالةُ هذهِ كمْ من التعويضاتِ تفكّرانِ، أنت وأبوالزهو، أنّكُما تستأهلانِ حتى ترضَيا عن المخفرِ والشرطةِ ونصبحَ أحبةً وأصدقاءَ من جديدٍ؟!.
حمد: لا نبيعُ شرفَنا وكرامتَنا بمالٍ. نَحْنُ كادحون ولدينا عفّةٌ وشرفٌ وسنبقى كذلكَ. لكنَّ كلمةَ اعتذارٍ من الشاويشِ لأبوالزهو مع تقبيلِ أنفهِ ورأسهِ! قد تصلحُ الأمرَ قليلاً.
مديرُ المخفرِ: يا شاويشاً! إنَّكَ على خطأٍ واضحٍ. اعتذرْ للسيدِ! أبوالزهو وقَبِّلْهُ من خدَّيهِ اليمينَ واليسارِ منحنياً أمامَ كبريائهِ وعظمتهِ. اذهبا أنت وأبوالزهو ولا تَتَكَلَّما في الموضوعِ نهائياً لا في القريةِ ولا في المدينةِ!.
حمد: ياالله! أبَوالزهو إلى حيثُ وضعتْ رحلَها، إلى القريةِ.
خرجَ حمد وأبوالزهو من المخفرِ متوجّهيْنِ إلى القريةِ في حالةٍ من الإعياءِ بسببِ هذه التجربةِ القاسيةِ التي مرّا بها.
أبوالزهو: يا صاحبيَ لقدْ تألّقَ نجمُكَ وأنتَ تقنِعُ هؤلاءِ البشرَ بأخطائِهِمْ وفي دفاعِكَ المستميتِ عنِّيَ. هكذا يكون الأصدقاءُ والأحبّةُ أو لا يكونونَ أبداً!.
حمد: تستأهلُ يا أبوالزهو أكثرَ من ذلكَ وبكثيرٍ. ذلكَ جزءٌ بسيطٌ مِمّا يفعلونَهُ بالخلْقِ عندَما يقعونَ في براثنِهِمْ. تصوَّرْ يا صديقِيَ أنَّ مديرَ المخفرِ يستميتُ في الدفاعِ عن السّياراتِ والبضائعِ المستوردةِ ويقومُ بإهانةِ البضاعةِ المَحليةِ من الحليبِ ومشتقاتهِ والجوزِ واللوزِ ومشتقاتِهما، يُهينُ العنصرَ الأصيلَ في البلدِ المتمثّلِ بكَ وبيَ. العيبُ والعارُ على وجههِ وشواربهِ!.
أبوالزهو: بينِيَ وبينَكَ!، البضائعُ المستوردةُ أحسنُ من الوطنيةِ. أصلاً! هل هنالكَ من بضائعَ وطنيةٍ إلا هذا القليلُ من الحليبِ واللّبنِ والفولِ؟ ... منتَجاتٌ في معظمِها عندَنا قادمةٌ منَ الحقلِ والمزرعةِ.
حمد: يا أبوالزهو!، أرجوكَ أنْ تضعَ عقلَكَ في رأسِكَ. هذه البضائعُ المستوردةُ تدمِّرُ الاقتصادَ الوطنيَّ والدولةَ مثلَما تَحرقُ النارُ الهشيمَ. لا تغرنَّكَ يا أبوالزهو ألوانُ الملابسِ والبضائعِ، كيسُ خيشٍ أحسنُ من البدلاتِ وربطاتِ العنقِ التي يبيعُها هؤلاءِ السّماسرةُ والتجّارُ.
أبوالزهو: وهل كيسُ الخيشِ صناعةٌ مَحليةٌ أم مستوردةٌ؟ أم ماذا!، للاستعلام فقط.
حمد: الأصلُ فيهِ جزءٌ من صناعةٍ صينيةٍ قديمةٍ يعتقدُ أنَّها نشأتْ عندَ بناءِ سورِ الصّينِ العظيمِ؛ نقلَها الهنودُ والفرسُ إلى البيزنطيينَ والرومانِ ومنها إلى بلادِ الغربِ ومن فوقِ رؤوسِ العربِ...
أبوالزهو: لا تتكلّمْ معيَ طلاسمَ ورموزاً تَخلطُ فيها التاريخَ بالجغرافيا بالجدلِ الرمزيِّ. لستُ متعلّماً مثلَكَ ولا أزالُ صغيراً.

حمد: أودُّ أنْ أقولَ لكَ أنّهُ من المُمكنِ أنْ تعودَ الدوريةُ وتعتديَ علينا من جديدٍ؛ ما العملُ في هذه الحالةِ؟. لنْ نقعَ مرّةً أخرى بينَ يديْ ضابطٍ يتفهَّمُ حالَنا ويعرفُ الوالدَ أبو جاسر مسبقاً. هل نظلُّ ساكتينَ وعلى البَركةِ؟. يَجبُ أنْ نبحثَ عن مكانٍ آخرَ بحيثُ لا نتعرَّضُ لِمثلِ هذهِ الأعمالِ المزعجةِ فيما بعدُ.

أبوالزهو: كيف يكونُ هذا الكلامُ؟. لقد وعدَكَ مديرُ المخفرِ بأنْ لا يَحدثَ ما حدثَ مرَّةً أخرى. لا معقولاً أنَّ شخصاً بشاربٍ أسودَ ويلبسُ لباسَ ضابطِ أمنِ الدولةِ أنْ ينكثَ وعدَهُ.

حمد: لقد وعدَنا ولكنّهُ لَمْ يَعِدْنا بأنّهُ سَيَفي أو سيُحافظُ على وعدِهِ!. كما تعرفُ أنَّ هؤلاءِ تقفُ وراءَهُمْ الدولةُ بأكملِها، ما الضّيرُ عندَهُ إنْ وفا أو بوعدِهِ أخلفَ!؟. من الطبيعيِّ هنا أنْ لا يفِيَ بوعدِهِ على عكسِ الحالةِ بينِيَ وبينَكَ؛ وعودُنا مثلَ وعودِ العشّاقِ الحقيقيينَ!. سوفَ أُكلِّمُ بالأمْرِ قريباً لَنا عزيزاً علينا ومن أطيبِ الكادحينَ، العمُّ "أبو طَرْقَة"؛ يعملُ في بلديةِ المَدينةِ على مطرقةٍ من ذاتِ العيارِ ثقيلِ الوزنِ ومنذُ عقودٍ. "أبو طَرْقَة" يعرفُ شوارعَ المدينةِ وأزقّتَها، نساءَها ورجالَها، ومواضعَ أنابيبِ مياهِ الحياةِ فيها. هو الذي حَفرَ الطُّرُقَ وشوارعَ السّياراتِ السّالكةِ في صخورِ جبالِ المدينةِ الوعرةِ وهو الذي طوَّع الحديدَ الصّلبَ لِخدمةِ مشاريعِ البلديةِ اليدَويَّةِ الشاقةِ.

أبوالزهو: عرَفْتُ عن منْ تتحدَّثُ. لكنَّ "أبو طَرْقَة" بالرغم من ذلكَ لَمْ يتمكَّنْ من تطويعِ مطرقَتهِ الحديديةِ، كما تقولُ، لبناءِ بيتٍ لهُ ولعائلَتهِ وأولادهِ. يسكنُ "أبو طرقة" في مركزِ القريةِ القديمِ حيثُ هنالكَ شراكةٌ طبيعيةٌ بينَ البشرِ والفئرانِ والأفاعي والصّراصير من ذواتِ الأكلِ الوافرِ والمسكنِ الملائمِ لَهُنَّ ولأولادِهِنَّ!. في كلِّ حائطٍ من حيطانِ بيوتِ المَنطقةِ هناكَ جناحٌ خاصٌّ، شقٌّ كبيرٌ على الأقلِّ، لكلِّ ما ذُكِرَ أعلاهُ من المخلوقاتِ ولأجيالِها القادمةِ ....

حمد: .... وبالتعاونِ مع مؤسسةِ الضمانِ الاجتماعيِّ "الفأريِّ" و"الحشراتِيِّ" لديهِمْ والتي أسِّسَتْ عامَ ألفٍ وثمانمائةٍ للميلادِ (١٨٠٠م)، تقريباً سنةُ بناءِ بعضٍ من مساكنِ القريةِ. ما العملُ يا رفيقِيَ أبوالزهو؟! "يا ما في السّجنِ من مظاليمٍ".

يتكوّنُ بيتُ أسرةِ أبو جاسر منْ غرفةٍ واحدةٍ مضافاً إليها نصفَ حجرةٍ مصنوعةٍ من ألواحِ الزينكو. حُوِّلَتْ حجرةُ الزينكو إلى مَخزنٍ صغيرٍ للموادِ الغذائيةِ للعائلةِ ومطبخٍ تتوفَّرُ فيهِ إمكانيةُ الطهيِ باستخدامِ "بريموس" كيروَسينْ (كازْ) مع بعضِ الأوانيَ المطبخيةِ؛ وهنالكَ وعاءٌ معدنيٌّ خاصٌّ يَحتوي سائلَ الكيروسين. خارجَ المطبخِ يوجدُ ملحقٌ صغيرٌ لساحةِ البيتِ (الحوش) استُحْدِثَ فيهِ موقدُ نارٍ حيثُ وُضعتْ بعضُ أحجارِ الطوبِ متوسّطةِ الحجمِ تكتنفُ فيما بينَها حيِّزاً أو مكاناً صالِحاً لوضعِ الحطبِ اللازمِ لاحتدامِ النارِ تَحْتَ قِدْرٍ يَحتوي المادةَ المرادَ طبخُها أو سلقُها. وبما أنَّ النارَ المستَعملةَ للطَبخِ هي منْ نتَيجةِ احتراقِ الحطبِ فإنَّ الجدارَ الخارجيَّ للقِدْرِ النحاسيِّ عادةً ما يكونُ لونُهُ أسوَداً أو كحليّاً غامقاً وذا طبقاتٍ متراكمةٍ من الموادِّ المُحترقةِ، مَمزوجةً بالموادِ المرادِ طبخُها بسببِ أنَّ الأخيرةَ "تفورُ" وترشحُ أو تتسرّبُ من داخلِ القِدْرِ إلى سطحهِ الخارجيِ.

يقعُ مكانُ إقامةِ! أبوالزهو قريباً منَ شبّاكِ حجرةِ العائلةِ، والذي أيْ الشبّاكُ فيهِ قضبانٌ حديديةٌ متقاطعةٌ لِحراسةِ الشبّاكِ والحجرةِ، حيثُ يرتاحُ أبوالزهو ويأكلُ ويشربُ وينامُ!. هناكَ كذلكَ يقضي معظمَ وقتِ راحتهِ أثناءَ القيلولةِ. الطريقُ من مكانِ التواجدِ شبهِ الدائمِ لأبوالزهو إلى المطبخِ ليسَ سهلاً؛ عليهِ أنْ يلتفَّ بسيرهِ حولَ الحوشِ ويذهبَ إلى بوّابةِ الجدارِ المكوَّنِ من الحجارةِ، ومنْ هناكَ عليهِ أنْ يعبُرَ بوّابةً صغيرةً ومنها إلى داخلِ الفناءِ الخاصِّ بالمطبخِ. عادةً ما يكونُ بابُ المطبخِ مفتوحاً أو نصفَ مغلقٍ على أكثرِ الأحوالِ أماناً وحرصاً من ضياعِ ما يَحتويهِ بداخلهِ، إمّا بفعلِ سرقةٍ أو تسللٍ غيرَ متوقّعٍ أو غيرَ مرغوبٍ فيهِ!؟. ....

يدخلُ أبوالزهو إلى المطبخِ في ذاتِ يومٍ ليَجدَ هناكَ مَجموعةً من الأكياسِ الصّغيرةِ ومتوسّطةِ الحجمِ مفتوحةً تُطِلُّ منها أنوَاعُ الحبوبِ المختلفةِ المُجمّعةِ منَ الحقلِ والكرمِ والضروريةِ لعملِ طبخاتٍ يتغذّى منها أفرادُ الأسرةِ. ضمنَ تلكَ الأكياسِ كانَ هنالكَ كيسٌ متوسّطُ الحجمِ وبهِ كميةٌ من "الفريكةِ". ما أنْ لَمَحَ أبوالزهو الفريكةَ تُطِلُّ منَ الكيسِ حتى اندفعَ إليها، وبغيرِ وعيٍ! أتى على كلِّ ما في الكيسِ منها. وما أنْ رأتْ الطيورُ والعصافيرُ المُجاورةُ والأرانبُ المطبخَ مفتوحاً وأبوالزهو يتلذّذُ على أكْلِ الفريكةِ، حتى اندفعتْ هي الأخرى وباتّجاهِ أكياسِ الحبوبِ تلتهمُ ما تقدرُ عليهِ بعدَ تَمزيقِها لتلكَ الأكياسِ إنْ لَمْ تكنْ وجدتْها مفتوحةً. حتى الأبقارُ المربوطةُ من أعناقِها وقرونِها في حيِّزِ الأبقارِ الملاصقِ للمكانِ أوشكتْ على قطعِ الحِبالِ (المصنوعةِ من المَصّيصِ) الموثّقةِ بها بعدَ أنْ رأتْ أبوالزهو يسترسلُ في تلذّذِهِ بأكلِ الفريكةِ وما يتبعُها. تَحوَّلتْ أرضيةُ المطبخِ بعدَ ذلكَ إلى مَخلوطٍ عجيبٍ لِحبوبِ السّمسمِ والعدسِ والحمُّصِ والحِلْبَةِ والبرغلِ وغيرِها. وصلتْ الأختُ "زولالةُ" متأخّرةً بعضَ الشيءِ إلى المكانِ. فوجئتْ بأنَّ أبوالزهو قد قضى على مَحصولِ الفريكةِ لتلكَ السّنةِ وبوجبةٍ واحدةٍ.

يأتي الوالدُ أبو جاسر فيما بعدُ، وبالصّدفةِ في ذلكَ اليومِ يَخطرُ ببالهِ أكلةَ فريكةٍ سيذبحُ لَها أحدَ كبارِ الدِّيَكةِ في البيتِ. وصلَ إلى المكانِ متعباً بعدَ العملِ في

الحقلِ البعيدِ عنِ مكانِ البيتِ. أخبرتْهُ ابنتُهُ "زولالة" أنَّ أبوالزهو تَمكّنَ من مَحصولِ الفريكةِ كلِّهِ ذلكَ اليومَ....
أبو جاسر: كيفَ سَمَحْتُمُ لهُ بالوصولِ إلى مَخزنِ الحبوبِ (المطبخ)؟!. لقدْ حذّرتُكُمْ من قَبلُ عدّةَ مراتٍ بشأنِ هذا الأمرِ؛ ها هو اليومُ أتى وحدثَ ما كنتُ قد حذرتُكُمْ منهُ...
أبوالزهو: لمْ يسمحْ ليَ أحدٌ أيُّها الوالدُ أبو جاسر؛ بنفسيَ دخلتُ إلى الحوشِ والمطبخِ. لقد أعيانِي الانتظارُ وراءَ نافذةِ البيتِ بينما تستمتعونَ بما لذَّ وطابَ منَ أكْلٍ في الداخلِ!.
حمد: وكيفَ حدثَ معكَ كلُّ هذا؟!. لَمْ تُبْقِ ولو على حفنةٍ واحدةٍ لأفرادِ العائلةِ كلِّها!، ألا تشعرُ بالحياءِ والخجلِ من نفسِكَ يا أبوالزهو!؟.
أبوالزهو: أتطلبُ منّيَ هذا اليومَ لكيْ أشعرَ بالحياءِ والخجلِ من نفسيَ؟!، وكلَّ يومٍ لا تشعرونَ لا بحياءٍ ولا بخجلٍ!. طوالَ السّنةِ تأكلونَ فاصوليا، بازيلاء، بامية، لوبية، حُمُّصاً، عدساً، فولاً، ملوخيةً، برغلاً... وفوقَ كلِّ هذا وذاكَ هذه الفريكةُ الطيبةُ تَحرمونَنِي من التلذُّذِ بأكلِها!. ماذا تقولونَ في ذلكَ يا كلَّ عائلةِ أبو جاسر ودونَ استثناءَ؟!.
حمد: لكنْ! يا أبوالزهو إنَّكَ تأكلُ أكلَكَ تِباعاً. لكَ منا الخضرواتُ والفواكهُ! والحبوبُ وأشياءُ أخرى كثيرةٌ. أمّا الفريكةُ وغيرُها فهي من نصيبِ العائلةِ...
أبوالزهو: من الآنَ فصاعداً أريدُ أنْ آكلَ فريكةً. في العامِ القادمِ وعندما يأتي موسمُ حصادِ الفريكةِ عليكُمْ أنْ تَحسبوا حسابِيَ ب"حَمّالتَيْن" (حَمّالتيْن مثنّى لكلمةِ حَمّالةٍ وهي ما يُحملُ على الدابةِ من مَحصولٍ في طورِ القشِّ ويُنتَجُ منها حواليْ ٢٥ كيلوجراماً من الحبوبِ) على الأقلِّ، مثلَما تأكلونَ مَن أطيبِ المأكولاتِ كذلكَ أريدُ لِيَ منها نصيباً...
أبو جاسر: لا يوجدُ أحدٌ في البيتِ يَجعلُكَ تتجاسرُ علَيْنا بِهذا الشكلِ إلا حمد. أنت السّببُ يا حمد في ضياعِ كيسِ الفريكةِ وليسَ أبوالزهو...
حمد: يا صديقِيَ أبوالزهو!، ماذا لو تركتَ وراءَكَ حفنةً واحدةً بمقدارِ طبخةٍ لِهذا اليومِ وبعدَها نَتدبَّرُ الأمرَ مع العائلةِ؟!. ماذا تريدُني أنْ أقولَ لَهُمْ وَهُمْ في حالةِ غضبٍ جامحٍ للدفاعِ عن موقفٍ مُحرجٍ وضعتَنِي فيهِ؟!.
أبوالزهو: عندما شَمَمْتُ رائحةَ الفريكةِ وبدأتُ الأكلَ لَمْ أتمالكْ نفسِيَ ومشاعرِيَ من المضيِّ وبأسرعِ ما يكونُ الأمرُ لأكْلِ كلِّ ما تقعُ عليهِ عيناايَ وشفتايَ ولسانِيَ وأسنانِيَ من الفريكةِ. ولو كانَ هنالكَ كيسٌ كبيرٌ آخرُ موجوداً في المكانِ لقضيتُ عليهِ. الآنَ وا-حسرتاهُ.. عليكُمْ أنْ تتدبَّروا أمْرَ أكلِكُمْ لِهذا اليومِ؛ لديْكُمُ الكثيرُ من البيضِ الصّالحِ للقلي بزيتِ الزيتونِ أو السّلقِ بالماءِ. هنالكَ الأجبانُ والمربياتُ والدِّبْسُ وزغاليلُ الحمامِ والأرانبُ الصّغيرةُ. لا أفكّرُ بمشاركتِكُمْ بمثلِ هذه المأكولاتِ ولا حتّى بالنظرِ إليْها حينَما تقومونَ بالتهامِها بشكلٍ جَماعيٍّ وعلى الدوامِ....
أم جاسر: وماذا عن بقيةِ الأكياسِ الأخرى. ماذا عن أكياسِ السّمسمِ والعدسِ والحمُّصِ واللوزِ المقشورِ والحلبةِ ....؟!.
زولالة: ما أنْ دَخلَ أبوالزهو المطبخَ ورأتهُ بقيةُ الطيورِ حتّى هجَمَتْ كلُّها على أكياسِ الحبوبِ وانتزعتْ قسماً كبيراً منها. لكنَّني وصلتُ قبلَ أنْ تتمكَّنَ الطيورُ من الإتيانَ على بقيةِ الأكياسِ وما فيها...

أبوالزهو: وماذا بشأنِ كيسِ الحِلْبَةِ؟! هلْ كانَ موجوداً في المطبخِ؟!. لقدْ فَلَتَ من بينِ يدَيَّ وشفَتيَّ وأسنَانِيَ...
حمد: يا أبوالزهو! هذا كيسُ حِلْبَةٍ نستعملُهُ لبعضِ الأغراضِ الطبيةِ. عندَما تريدُ إحدى الحوامِلِ، في البيتِ هنا أو أيِّ بيتٍ في القريةِ يَخلو من هذهِ البذورِ الطبيةِ، وضْعَ جنينِها وفي حالاتِ حدوثِ عُسْرٍ في الولادةِ، ما حاجتُكَ بِهِ؟!.
أبوالزهو: لستُ بحاجةٍ إلى مثلِ هذهِ النباتاتِ الطبيةِ. لكنْ قليلاً منْها يا صديقِيَ حتّى يشفي غليلَ قلبِيَ على أكلاتٍ تستمتعونَ بِها على مرأىً ومسمعٍ منّيَ ومن والدتِيَ "راكلي"...
وارتفعتْ أصواتُ النقاشِ الحادِّ منبعثةً من فناءِ بيتِ أبو جاسر حيثُ بالصُّدفةِ كانتْ تَمُرُّ إحدى نساءِ القريةِ، السّيدةُ "أم خنجرة"، قريباً من المكانِ. هُرِعَتْ إلى داخلِ البيتِ ظناً منْها أنَّ الأمورَ في طريقِها للتطوُّرِ إلى حدِّ الاشتباكِ الداخليِّ.
"أم خنجرة": ما هذه الغثبرةُ؟!. صوتُكُمْ العالي يصلُ إلى أطرافِ القريةِ المواجهةِ للبيتِ. يبدو بيتُكُمْ كبيتٍ يسكنُهُ النَّوَرُ (الغَجَرُ)!.
أم جاسر: ما العملُ!؟ (شو انْسَوّي!) لقد أكلَ أبوالزهو مَحصولَ الفريكةِ لِهذهِ السّنةِ. معظمُ أكلاتِنا في هذا البيتِ تعتمدُ على الفريكةِ بالدرجةِ الأولى والبرغلِ بالدرجةِ الثانيةِ ... ومشتَقّاتِهما ....
"أم خنجرة": الحقُّ معَ أبوالزهو، حتى لو أكلَ كُلَّ شيءٍ في مطبخِكُمْ. إنَّكُمْ تقتِّرونَ عليهِ كثيراً في المصروفِ وترهقونَهُ كثيراً في العملِ، يا ويحَ قلبيَ عليهِ...
"زولالة": لقدْ أسعفَنا الحظُّ عندَما وصلتُ مبكرةً بعضَ الشيءِ. لولا ذلكَ لذَهَبَ حتى كيسُ الحلبةِ! الذي فيه أقلَّ من كيلوجرام من الحِلْبَةِ....
"أم خنجرة": كلُّ بيتٍ في القريةِ يَحتوِي الكثيرَ من الحِلْبَةِ. حفنةٌ واحدةٌ صغيرةٌ كافيةٌ للمساعدةِ في حلِّ مشكلةِ ولادةٍ عسيرةٍ أو على وشكَ، لا عليكَ يا أبوالزهو...
أبوالزهو: أحسُّ بأنَّ "أم خنجرة" متعاطفةٌ معِيَ كثيراً في قضيةِ الأكلِ. ما رأيُكَ لو تطلبُ منْها أنْ تسمحَ لِيَ بالدخولِ إلى مطبخِ بيتِ عائلتِها لأرى فيما لو كانَ فيهِ شيءٌ من الفريكةِ...
حمد: إنَّ "أم خنجرة" متعاطفةٌ معكَ ضدَّ عائلةِ أبو جاسر فقطْ، وليس من أجلِ حبِّكَ للفريكةِ أو أيِّ شيءٍ آخرَ..
أبوالزهو: آه.... يا صديقِيَ! أشعرُ بالحاجةِ إلى....
حمد: ... إلى بعضِ الموسيقى لدغدغةِ عواطفِكَ الجياشةِ خاصةً بعدَ وجبةٍ فيها الكثيرُ من الطاقةِ المَحشوَّةِ بها، مثلَها مثلَ القشدةِ التي يتلذَّذُ بأكلِها بعضُ البشرِ!. ببالِيَ أغنيةٌ للشيخِ عبدالوهاب.... دن رن دن رن.... شكلتاني! (شكلٌ ثانٍ) حَبك أنت شكلتاني...
أبوالزهو: تيرلم تيرلم تيرللام...
حمد: ..... حبٌّ قاسي حبٌّ نارُهُ مِدَوِّباني ..... ترلم ترلم ترللام.... حتى لَمّا بتِبأى (تبقى) مرة وتعاندني! بكلمة مرة.... العناد المر برضو له حلاوة!... شكلتاني (شكلٌ ثانٍ) حبك أنت....
أبو جاسر: ليسَ فقط أنَّكَ غيرُ مبالٍ ولا مكترثٍ يا حمد بالمصيبةِ التي حلَّتْ بنا بخسارةِ كيسِ الفريكةِ في المطبخِ، أظُنُّ أنّهُ حتى لو قَتَلَ! أبوالزهو والدَك أبو جاسر

لوقفتَ على قبرِ الثاني تعزفُ أَلْحاناً وأغانٍ تُطربُ بها حبيبَ قلبكَ الأوَّلَ، أبوالزهو!. من غيرِ المستغربِ أَنْ يأتِيَ ذلكَ اليومُ الَّذي تطلبُ فيهِ منّا أَنْ ينامَ أبوالزهو في حجرةِ نومِ العائلةِ كلِّها ويستعملُ مطبخَها كلَّهُ؛ وترسلَنا للنومِ في العَراءِ وراءَ الشباكِ في المكانِ المخصَّصِ لأبوالزهو، حتى لو كانَ ذلكَ في عزِّ بردِ الشتاءِ القارسِ!.

عصبيةٌ قبليةٌ و"تاي-كوان-دو"

تنتشرُ في المُجتمعاتِ المتخلفةِ فكرياً وتعليمياً ظاهرةُ التعصُّبِ القبليِّ، التعصبُ لرئيسِ القبيلةِ وما يتبعُهُ. العصبيةُ القبليةُ تشملُ بشكلٍ أساسيٍّ ورئيسٍ الذكورَ والإناثَ الناتجينَ من صُلبِ رجالٍ، أي ما يسمّى بالأخوَّةِ في الدم. الأخوَّةُ الناتِجةُ من أرحامِ أمهاتٍ تعتبرُ غيرَ ذاتِ أهميةٍ تُذكرُ في التعصّبِ القبليِّ. وعلى حدِّ تعبيرِ بعضِ البشرِ فإنَّ التعصّبَ للقرابةِ ناشئٌ فقطْ عن اعتبارِ "الالتقاءِ والتجمُّع" عندَ تكوينِ الشخصِ في نفسِ الحوصلةِ المنويةِ عندَ الرجلِ ومنْ ثَمَّ سلوكُ نفسَ المسلكِ البوليِّ بعدَ الخصيتيْنِ والقناةِ الدافقةِ عند خروجِ السّائلِ المنويِّ الجاهزِ للتلقيحِ. اعتُبِرَ ذلكَ العاملُ شبهَ الأساسيِّ والمطلقِ في تحديدِ دائرةِ تأثيرِ العصبيةِ القبليةِ. قد تَمتدُّ "أفرعُ" تلكَ العصبيةِ القبليةِ إلى الملايينِ من البشرِ بينَ حتى الذينَ لا يعرفونَ بعضَهُمْ بعضاً مُسبقاً؛ فقط يَجمعُهُمْ عنوانٌ واحدٌ هوَ اسمُ القبيلةِ أو العشيرةِ أو الحمولةِ أو العائلةِ الكبيرةِ.

العدوُّ اللدودُ للعصبيةِ القبليةِ هو الدينِ وتعاليمُهُ، وليستْ تفاسيرُ واجتهاداتُ الكثيرينَ من رجالِ الدينِ. يعترفُ الدينُ بالقبائلِ والشعوبِ وبالفروقِ فيما بينَها لكنَّهُ يقفزُ فوقَ تلكَ الفروقِ ويستبدلُها بفرقٍ واحدٍ ألا وهو الفرقُ الروحيُّ ومدى قوّةِ الإيمانِ عندَ الشخصِ، ذكراً كانَ أمْ أنثى. كما أنَّ الشعوبَ والقبائلَ وُجدتْ للتعارفِ والتضامنِ والتعاونِ وليسَ للتعصّبِ وإثارةِ الأحقادِ والحروبِ وما يتبعُها.

كانَ الموسمُ صيفاً عندَما بدأ بعضُ الناسِ في القريةِ يُجهِّزونَ أنفسَهُمْ لِحمْلةِ حجٍّ إلى الديارِ المقدّسةِ. كان الحجُّ يتمُّ عنْ طريقِ تسجيلِ الراغبينَ من القادرينَ مالياً وجسدياً! على الحجِّ ووضعِهمْ في حافلةٍ واحدةٍ، أو أكثرَ حسْبَ العددِ والحاجةِ. بعدَ التسجيلِ والتجميعِ يتمُّ نقلُ الحجّاجِ عبرَ المدنِ والصّحاري، والحدودِ التي تفصلُ الصّحاري والتي وضعتْ الحكوماتُ المتعاقبةُ فيها أنواعاً جَمّةً من الصّعوباتِ والإجراءاتِ الأمنيةِ؛ صعوباتٌ تَجاوزتْ في بعضِ الأحيانِ مشقاتِ السّفرِ والتنقلِ والإقامةِ وإقامةِ الشعائرِ الدينيةِ. كان موسمُ الحجِّ في ذلكَ الوقتِ طويلاً يتجاوزُ الشهرَ ما بينَ التجهيزِ والإعدادِ والسّفرِ والإقامةِ والعودةِ والانتهاءِ من استقبالِ المهنئينَ فيما بعدُ.

السّيدُ "بوفَوْزة" أحدُ أصدقاءِ أبو جاسرِ القلائلِ في القريةِ والعالَم!. يَمتلكُ جاموسةً، وتدعى "هلالة"، خفيفةَ الوزنِ لكنَّها قويةٌ في النطحِ لِما حولَها من الدوابِّ والبشرِ وسريعةٌ في الهربِ مِمّا يَجعلُ السّيطرةَ عليها أو اقتناءَها أمراً غيرَ مستحبٍّ أو مريحٍ. اختارَ السّيدُ "بوفَوْزة" الكهلَ أبو جاسرِ لإيداعِ وائتمانِ "هلالة" عندَهُ في بيتِهِ طيلَةَ فترةِ غيابِهِ في رحلةِ الحجِّ تلكَ. ظنَّ "بوفوزة" أنَّ ذلكَ أنسبَ

اختيارٍ لَها لكونِ أبو جاسرٍ منٍ مربّي الماشيةِ، والأولادِ الذينَ يرعونَ الماشيةَ. اعتبرَ أبو جاسر أنَّ تلكَ لفتةٌ غايةٌ في الكَرَمِ والنبلِ وحسنِ النيَّةِ والصّداقةِ.

ما أنْ عَلِمَ أقاربُ السّيدُ "بوفَوْزة" بالأمرِ حتى ثارتْ ثائرتُهُمْ، وتَهَيَّجَتْ معظمُ أعصابِهِمْ الجسميةِ والقبليةِ!. كيفَ للسيدِ "بوفَوْزة" أنْ يتواضعَ ويتنازلَ عن مستواهُ القبلَيِّ ويصلَ بـهِ الانْحطـاطُ الاجتمـاعيُّ ليتـركَ "هلالـة" عنـدَ تَعِس حظٍّ ومنحوسِ حياةٍ من مثلِ أبو جاسر. بعدَ مغادرةِ السّيدِ "بوفَوْزة" بقليلٍ إلى الحجِّ، وبالتحديدِ في اليومِ التالي، قامَ أحدُ أقاربِهِ ويدعى "أبو عقلين" باقتحامِ بيتِ أبو جاسر طالباً استرجَاعَ الجاموسةِ "هلالة" لإيداعِها في بيتهِ. في نفسِ الوقتِ قامَ بتحذيرِ أبو جاسر وتهديدهِ إنْ الأخيرُ كرَّرَ الشيءَ ذاتهِ مع أيٍّ من أفرادِ قبيلةِ السّيدِ "أبو عقلين" الكبيرةِ.
أبـو جاسـر: هـذه الجاموسـةُ "هلالـة" فـي البيـتِ عنـدَنا مِثلُهـا مثـلَ بقيـةِ الأبقـارِ والحيوانات، زدْ على ذلكَ أنَّها ستكونُ لَها رعايةٌ خاصةٌ من عندِيَ لأنَّها بِمثابةِ أمانةٍ مودعةٍ.
"أبو عقلين": لن تصلَ ومن في مستواكَ إلى المستوى الذي يسمحُ لكُمْ بالدخولِ بينَنا نَحْنُ الأقاربُ، في عائلةِ بني "صَلعونْ"، عليكَ أنْ تبتعدَ عنّا!. هاتِ الجاموسةَ "هلالة" وسوفَ آخذُها إلى بيتِيَ لتعيشَ فيهِ مكرَّمةً معززةً. سأطعمُها حتى من الأرُزِّ والبرغلِ والفريكةِ التي نطبخُ ونأكلُ منها...
أبو جاسر: أنصحُكَ بعدمِ أخْذِ "هلالة" إلى بيتِكَ. لا توجدُ لديكَ خبرةٌ ولا معرفةٌ في التعاملِ مع الحيوانِ وما يتبعُهُ.
"أبو عقلين": أعرفُ لِماذا تُصرّونَ على الإبقاءِ على "هلالة" عندكُمْ، ستسرقونَ! الحليبَ من ضرعِها وتبيعونَهُ ولا تذكرونَ شيئاً عن بيعهِ لابنِ قبيلتِيَ المُحترمِ "بوفَوْزة" عندَ عودتهِ من الحجِّ.
أم جاسر: إنَّ الجاموسةَ "هلالة" في شهرِها السادسِ من الحَمْلِ والحليبُ منها قليلٌ جداً. كلَّ ثلاثةِ أيامٍ نَحلبُها مرَّةً واحدةً وتُنْتِجُ أقلَّ من نصفِ بقلولةٍ في كلِّ مرَّةٍ نقومُ بِحلبِها. عندَنا منَ الحليبِ ما يكفينا ولا نسرقُ حليباً من غيرِنا.

سحبَ السّيدُ "أبو عقلين" الجاموسةَ "هلالة" إلى بيتهِ. عندما وصلتْ "هلالة" إلى بيتِ السّيدِ "أبو عقلين" نفرتْ من المكانِ لضيقهِ وحالتهِ غيرِ المريحةِ لَها. رفضتْ تسلُّقَ بضعِ درجاتٍ تؤدي بِها إلى فناءِ الحجرةِ الرئيسيةِ في البيتِ. حـاولَ السّـيدُ "أبـو عقلـين" إجبـارَ "هلالـة" علـى تسلقِ الدّرجِ مستخدماً القسـوةَ والعنفَ معَها؛ انعطفتْ جانباً مُحاولةً الهربَ واصطدمتْ برِجْلِها بِجدارٍ مُحاذٍ مِمّا أصابَها ببعضِ الكسرِ. أصبحتْ "هلالة" تَمشي عرجاءَ؛ حينَها لَمْ يَجِدْ السّيدُ "أبو عقلين" بُدّاً من إعادةِ "هلالة" إلى بيتِ أبو جاسر.
"أبو عقلين": لقد اكتشفتُ! أنَّكُمْ كسرتُمْ رِجْلَ "هلالة". ها أنا أعيدُها إليكُمْ لتتحمّلوا المسئوليةَ عندما يعودُ ابنُ عمِّيَ "بوفَوْزة" من الحجِّ. ألومُهُ لأنَّهُ أخطأَ واستأمنَكُمْ عليها منذُ البدايةِ.
أبو جاسر: سنتحمَّلُ المسئوليةَ!؛ عسى أنْ تتركَ "هلالة" وشأنَها الآنَ. ظننتُ أنَّكَ ستغرقُها في ولائمَ يكثرُ فيها أكلُ الأرُزِّ كما وعدتَ؛ ها هي "هلالة" الآنَ تحتاجُ لفترةِ استراحةٍ ونقاهةٍ! وأكْلٍ.

بقيتْ "هلالة" في بيتِ أبو جاسر عدةَ أسابيعَ وخلالَ ذلكَ صحَّتْ رِجْلُها كثيراً. عادَ السّيدُ "بوفَوْزة" من الحجِّ جالباً معهُ هديةً قيِّمةً من الديارِ المقدّسة لعائلةِ أبو جاسر بها الكثيرُ من التَّمر الحجازيِّ لذيذِ الطعم. كانَ في استقبالِ السّيدِ "بوفَوْزة" معظمُ أفرادِ عائلةِ أبو جاسر في فناءِ البيتِ. دارَ حديثٌ شيِّقٌ حولَ أمورِ الحياةِ والسّفرِ ...

أبوالزهو: عندما هجمَ السّيدُ "أبو عقلين" على بيتِنا كانَ في حالةٍ عصبيةٍ شديدةِ التهيُّجِ. خِفْتُ أنْ يقومَ بمهاجَمةِ الوالدِ أبو جاسر والوالدةِ أم جاسر وأبنائِهما وبناتِهما. تَمالكتُ أعصابِي وكنتُ على وشكِ استعمالِ جسمِيَ للدفاعِ عن نفسِي وعن العائلةِ كلِّها.

حمد: وكيفَ لكَ ذلكَ يا صديقِي أنْ تدافعَ عنّا؟!. إنَّ عددَ ذكورِ عشيرةِ "أبو عقلين" يفوقُ بكثيرٍ عددَنا بالإضافةِ إلى تسلّحِهِمْ بالعِصيِّ والسّكاكينِ.

أبوالزهو: كما تعرفُ يا صديقِي أنَّني تلقّيتُ في صغرِيَ ومنَ والدتِيَ "راكلي" دورةً تدريبيةً قويّةً في الدفاعِ عن النفسِ "التاي-كوان-دو" وأصبحَت باستطاعتِيَ مهاجَمةُ مَجموعةٍ من البشرِ في بضعِ ركلاتٍ خلالَ لَمْحِ البصرِ. لنْ ينجوَ من أقاربِ السّيدِ "أبو عقلين" إلا المَحظوظُ. (التاي-كوان-دو هيَ إحدى ألعابِ القتالِ للدفاعِ عن النفسِ باستخدامِ الأرجلِ أو الأقدامِ بشكلٍ أساسيٍّ، تشبهُ لعبةَ "الكاراتيه" الشهيرةَ للدفاعِ عن النفسِ).

حمد: هل تعلّمتَ من أمِّكَ "راكلي" فنَّ "التاي-كوان-دو" كذلكَ؟!. إنَّ هذا التعليمَ يَحتاجُ من البشرِ عشرةَ سنينٍ على الأقلِّ للقيامِ بشيءٍ بسيطٍ ممّا تقدرُ على القيامِ بهِ دونَ اللجوءِ إلى أيِّ تدريبٍ في أيِّ نادٍ متخصّصٍ. يا لسعادةِ حظِّكَ في الحياةِ في هكذا أهلٍ من الذينَ عندَهُمْ خبرةٌ ومعرفةٌ حقيقيّةٌ بأمورِ الحياةِ ومستلزماتِها. سأخبرُ مدرِّبَ "التاي-كوان-دو" في المدينةِ كيْ يتصلَ بالاتحادِ الدوليِّ للألعابِ ليخبرَ رئيسَهُ عن اقتراحِ بتغييرِ اسْمِ اللعبةِ إلى "راكلي-كوان-دو" احتراماً لقدرةِ أمِّكَ "راكلي" على إنْجازِ شيءٍ عظيمٍ دونَ أيِّ تدريبٍ في نادٍ رياضيٍّ متخصّصٍ، ولفترةٍ طويلةٍ من الزمنِ قدْ تَمتدُّ إلى نِهايةِ العُمْرِ.

الحاجُّ "بوفَوْزة": إنَّ صلةَ القرابةِ بينِي وبينَ "أبو عقلين" تكادُ تكونُ معدومةً. يقولُ أنّهُ من أحدِ أفخاذِ العشيرةِ، إنّهُ كاذبٌ. لمْ يصلْ بنَسَبِهِ إلى أخْمصِ أحدِ أقدامِ القبيلةِ المَجيدةِ. أنكرُهُ كقريبٍ لِيَ حتى لو كانَ من بطْنٍ أو صدرٍ أو عنقٍ أو حتى رأسِ أنفِ العائلةِ.

"زولالة": لا تقلقْ ولا تَهْتمَّ يا عمَّنا الحاجَّ "بوفَوْزة". لقدْ قُمنا برعايةِ "هلالة" كما لو كانتْ جزءاً معزّزاً مكرّماً من العائلةِ، في الطعامِ وشربِ الماءِ والراحةِ والقيلولةِ. عندما تذهبُ إلى ديارِ الحجِّ مرّةً أخرى إيّاكَ أنْ تذهبَ إلى أناسٍ آخرينَ غيرَنا للحفاظِ على دوابِّكَ والاعتناءِ بها. كذلك لقدْ أحببْنا العِشْرَةَ كثيراً معَها.

أبوالزهو: من عُمقِ جهلِ العصبيةِ القبليةِ من المُمكنِ استخراجُ من يتحرَّرُ من هذا القيدِ والوباءِ الأحْمقِ الأرعنِ. يصبحُ عندَ ذلكَ الشخصِ المتخلّفِ فكرٌ ليبراليٌّ خلّاقٌ من مثلِ ما عندَ مَجموعةٍ راقيةٍ من الخلقِ.

كابوسُ ليلةِ صيفٍ

قبلَ سنتينِ تقريباً من حينهِ قامَ أحدُ سكانِ القريةِ من العاملينَ في جهازِ أمنِ الدولةِ بالتوسّطِ لالتحاقِ أحدِ أولادِ أبو جاسر، ويدعى "باسِق"، بالجيشِ الوطنيِّ. بسببِ لياقةِ جسمِ "باسِق" العاليةِ وتعليمهِ المدرسيِّ المتوسّطِ حصلَ على رتبةِ ضابطِ صفٍّ في سلاحِ الشرطةِ العسكريةِ. كان يتمركزُ على أحدِ معابرِ حدودِ الدولةِ عندما أرادتْ مجموعةٌ من الشبابِ الدخولَ إلى الدولةِ عُنوةً وباستخدامِ السّلاحِ لفتحِ الطريقِ أمامَهُمْ. حسْبَ الروايةِ الرسْميةِ فقد كانا اثْنانِ فقطْ، شابةٌ وشابٌّ، دَخَلا بسيارةٍ مُحمَّلَةٍ بالديناميتِ والعبواتِ الناسفةِ. استوقفَهُمْ رجالُ الشرطةِ العسكريةِ في المركزِ الحدوديِّ وكانَ "باسِق" أحدَ الأفرادِ المناوبينَ. ما أنْ ترجَّلَ الشابُ والشابةُ من السّيارةِ حتى فرّا هاربيْنِ إلى داخلِ حدودِ الدولةِ!. عَلِمَ الناسُ في المركزِ الحدوديِّ من عمّالٍ ومسافرينَ وموظفينَ ومدنيينَ بأمرِ السّيارةِ والذينَ دفعَهُمْ حبُّ الاستطلاعِ لمعرفةِ ما بالسّيارةِ من موادَّ غريبةٍ. ما أنْ تَجمَّعَ النِصابُ الكافي من البشرِ لعملِ مَجزرةٍ متواضعةِ الحجمِ! حتى انفجرتْ السّيارةُ الملغَّمةُ مُحدثةً دماراً كبيراً ودماءً مُسالةً كثيرةً.

السّاعةَ الثالثةَ بعدَ الظهرِ تقريباً يستمعُ السّيدُ أبو جاسر للأخبارِ من مذياعِ الحكومةِ عندَما أعلنَ المذيعُ أنَّ انفجاراً كبيراً وقعَ في المركزِ الأمنيِّ الحدوديِّ المذكورِ. لَمْ يكدْ ينتهي المذيعُ من إلقاءِ كلمةِ الخبرِ حتى شعرَ أبو جاسر مثلَ صعقةٍ قويةٍ ضربتْهُ في عصبهِ وقلبهِ؛ أخبرَ العائلةَ بكافةِ أفرادِها بالأمرِ حيثُ كانتْ التوقّعاتُ باحتمالِ نَجاةِ "باسِق" من الانفجارِ متدنيةً. أعلنَ مذياعُ الحكومةِ بعدَ ذلكَ أنَّ عددَ قتلى الانفجارِ بلغَ حوالَيْ الثلاثينَ وعددَ الجرحى أضعافاً مضاعفةً. زادتْ نسبةُ التشاؤمِ عندَ العائلةِ كثيراً إلى درجةِ أنَّ أبو جاسر هَمَّ للذهابِ إلى المدينةِ المُجاورةِ لشراءِ كفنٍ لِمَيِّتٍ لِيُجَهِّزَهُ لاستقبالِ جثمانِ "باسِق" عملاً بالحديثِ الشريفِ، "إكرامُ الميِّتِ دفنُهُ" وبسرعةٍ!.

كانتْ ليلةُ انتظارٍ قاسيةً جداً على القلبِ والدماغِ والأعصابِ والغددِ الصّماءِ وكافةِ الحواسِّ وعلى رأسِها الحاسةُ السّادسةُ. التصقتْ العائلةُ من والديْنِ وأولادٍ وبناتٍ وأبوالزهو ودوابَّ! حولَ مذياعِ أل"طوشيبا" متوسّطِ الحجمِ الذي كانَ قد

أرسلَهُ الابنُ الأكبرُ "جاسر" إلى أهلهِ من عملهِ في مطعمٍ في دولةِ نَيْجيريا الأفريقيةِ. كلَّ عشرينَ دقيقةٍ تقريباً هنالكَ تَتِمَّةٌ أو تعليقٌ على خبرِ الانفجارِ في المركزِ الحدوديِّ؛ يقطعُ مذياعُ الحكومةِ برامِجَهُ الأخرى ليذيعَ تعليقاً أو شيئاً عن الانفجارِ ونتائجِهِ. ظلّتْ العائلةُ "مُسَمَّرَةً" كلُّها في حالةٍ من الترقّبِ والابتهالِ والتضرعِ الشديدِ إلى اللهِ طيلةَ النصفِ الأوّلِ من الليلِ أيْ حتّى حواليْ السّاعةِ الثانيةَ عشْرةَ منتصفَ الليلِ. أعلنَ مذياعُ الحكومةِ أنّهُ سيتلو بعدَ قليلٍ من حينهِ أسْماءَ قتلى وجرحى الانفجارِ. نامَ بعضُ الأولادِ الصّغارِ من شدةِ الإعياءِ والسّهرِ غيرِ العاديّيْنِ عليهِمْ. ظلَّ الوالدانِ ومن كان كبيراً بعضَ الشيءِ في السّنِّ يقظينَ ومترقّبينَ لنشَراتِ الأخبارِ طوالَ الليلِ وساعاتِ الصّباحِ. طوالَ فترةِ الليلِ لمْ يأتِ المذياعُ بأيّةِ أخبارٍ جديدةٍ عن أسْماءِ القتلى والمصابينَ. كان المذياعُ يصرفُ جُلَّ الوقتِ في تلاوةِ بَلاغاتٍ وبياناتِ استنكارٍ ضدَّ الذين قاموا بذلكَ العملِ ومن يقفُ وراءَهُمْ.

السّاعةَ الحاديةَ عشرةَ قبلَ الظهرِ (اليومُ التالي للانفجارِ) أعلنَ مذياعُ الحكومةِ قائمةَ المصابينَ التي وصلتْ أخيراً إلى الإذاعةِ.

المذيعُ: جاءَنا الآنَ ما يلي... عددُ القتلى جرّاءَ الانفجارِ ثمانيةٌ وعشرونَ فرداً منهُمْ خَمسَ عشرَ فرداً من العسكريينَ وأسْماؤُهُمْ كالتالي ١........ ٢..... ٣.... ....١٥

لَمْ يكنْ أيٌّ من القتلى مِمَّنِ اسْمُهُ طابَقَ اسْمَ "باسق أبو جاسر"...

أم جاسر وأبو جاسر: يا ربُّ يا اللهَ ليس لَنا إلا أنتَ. (ما إلنا غيرك).

المذيعُ: أما المصابونَ بجراحٍ خطيرةٍ فَهُمْ ١...... ٢..... ٣.....

لَمْ يكنْ أيٌّ من المصابينَ بِجروحٍ خطيرةٍ المعلنُ عنهُمْ من طابقَ اسْمُهُ اسْمَ "باسِق أبو جاسر".

أم جاسر وأبو جاسر: نَذْرٌ علينا! أنْ نذبحَ ثلاثَ خرافٍ إنْ نَجا "باسِق" من الانفجارِ عرفاناً للهِ بالجميلِ ولشكرهِ على رعايتِه لَهُ.

المذيعُ: الجرحى الذين إصاباتُهُمْ متوسّطةٌ هُمْ ....

لَمْ يطابقْ أيٌّ من الأسْماءِ المعلنةِ اسْمَ "باسِق أبو جاسر"

أم جاسر (تبكي فرحاً!): الحمدُ للهِ الذي نَجّاكَ يا ولدِيَ "باسِق" يا حبيبِيَ من هذا الانفجارِ.

المذيعُ: الجرحى المصابونَ بِجروحٍ خفيفةٍ ويتلقّونَ علاجاً في المستشفى هُمْ ....

لَمْ يكنْ من بينِ الأسْماءِ من طابَقَ اسْمُهُ اسْمَ "باسِق أبو جاسر".

المذيعُ: الجرحى المصابونَ بِجروحٍ خفيفةٍ وغادروا المستشفى بعدَ تلقّيهِمْ بعضِ العلاجِ وهُمْ .... ..

وَرَدَ ذكرُ اسمِ "باسِق أبو جاسر" في تلكَ القائمةِ من المصابينَ...

كانتْ الإصابةُ بضعَ جروحٍ بسيطةٍ في مُختلفِ أنْحاءِ الجسمِ. بعدَ حواليْ عشرةِ أيامٍ من حينهِ عادَ "باسِقٌ" إلى أهلهِ وكانَ لا يزالُ متأثراً من صدمةِ الانفجارِ. أخبرَ "باسِق" العائلةَ أنّهُ كان يُحاولُ إبعادَ الجمهورِ عن السّيارةِ المشتبهِ بِها ولَمْ يكُنْ بعيداً عنْها أكثرَ من مترينِ فقط عندَ الانفجارِ. إلاَ أنَّ شدةَ ضغطِ الهواءِ

الناتِجةِ عن الانفجارِ قذفتْهُ أمتاراً، بعيداً عن الموقعِ مِمّا أصابهُ بِجروحٍ ورضّاتٍ في أنْحاءَ مُختلفةٍ من جَسدهِ.

كانَ "باسِق" منَ الشبابِ النادرِ الواعي في مُجتمعهِ الذي يستعملُ عقلَهُ في السّياسةِ وعندَ إصدارِ الأحكامِ في ذلكَ الزمانِ. جَمَعَ في فكرهِ بينَ ما يجري في اليسارِ واليمينِ بطريقَةٍ أقربَ إلى الواقعيةِ منهَا إلى الخيالِ الجيّاش. لا يكتفي في معرِفتَهِ بقراءةِ الكلماتِ أو سَماعِ نبراتِ المذيعينَ في البياناتِ السّياسيةِ والأخبارِ. يتمتّعُ بقدرةٍ غيرِ عاديةٍ على الاستيعابِ والتحليلِ لِما يَجري من أمورٍ حولَهُ بالرغمِ من التعتيمِ والتشويشِ والتشويهِ الإعلاميِّ والسّياسيِّ والأمنيِّ على ما كانَ يَجري من أمورٍ. هو الذي وَضعَ تصوّراً موضوعياً عن اتفاقياتِ "سايكس-بيكو" و"رسالةِ بلفور" وما تبعَها لأخيهِ الصّغيرِ حمد وفي سنٍّ مبكرةٍ من عمرِ الأخيرِ. كان أحدُ أهمِّ أقوالهِ بذلكَ الصّددِ في ذلكَ الوَقتِ أنَّ الذي يقاومُ اتفاقيةَ "سايكس-بيكو" يشبهُ "الذي يقاومُ سقوطَ البَرَدِ!". قامَ ذاتَ مرَّةٍ بعصيانِ الأوامرِ العسكريةِ الصادرةِ إليهِ كقائدِ دوريةٍ للدخولِ إلى مدينةٍ مضطربةٍ لِمواجَهةِ المظاهراتِ الشعبيةِ فيها، أو "مواجهةِ أعمالِ الشّغَبِ" على حدِّ تعبيرِ الأوامرِ. عوقبَ بالنقلِ في الخدمةِ إلى مكانٍ ناءٍ على حدودِ الدولةِ ومُنِعَتْ عنهُ الأجازاتُ لِمدةٍ طويلةٍ. بالإضافةِ إلى ذلكَ كانَ صاحبَ روحِ دَعابةٍ خفيفةٍ وحديثٍ حلوٍ مُسَلٍّ.

إبّانَ الحربِ العالَميةِ الأولى، وأكثرَ تَحديداً في العام ١٩١٦، تَمَّ التوقيعُ على اتفاقيةٍ سريةٍ بينَ بريطانيا وفرنسا، وبحضورِ روسيا القيصريّةِ، عُرِفتْ فيما بعدُ باتفاقيةِ "سايكس-بيكو" وتقضي بتقسيمِ بلادِ الشّامِ والعراقِ إلى مناطقَ نفوذٍ للدولتينِ الاستعماريتينِ بريطانيا وفرنسا. تَهدفُ الاتفاقيّةُ إلى منعِ قيامِ أيِّ شكلٍ من أشكالِ الوحدةِ أو التقاربِ بين شعوبٍ أو دولٍ أو حكوماتٍ أو حتى مَجموعاتٍ أو أفرادٍ عَبْرَ دولِ تلكَ المنطقةِ. بمعنىً آخرَ تَمَّ تطبيقُ شعار "مزِّقْ تَسُدْ" بدلاً عنِ شعارِ "فَرِّق تَسُدْ"! الذي اتُّبِعَ في مناطقَ أخرى من العالَمِ. بعدَ تلكَ الاتفاقيةِ المشئومةِ بقليلٍ صَدرَ عنِ الدولِ الاستعماريّةِ ما هو أكثرُ شؤماً ونَحْساً على المنطقةِ وشعوبِها ودونَ استثناءٍ ألا وهو "وعدُ بلفور" عام ١٩١٧. منذُ ذلكَ الحين، وحتى قبلَهُ بقليلٍ، تعيش المنطقةُ حالةَ انقسامٍ وفوضى وعدمَ استقرارٍ وانعدامَ وزنٍ "ليس لها دينٌ أو ربٌّ يُعبدُ"!. هنالكَ انقسامٌ بينَ الحكوماتِ بعضِها وآخرُ بينَ الشعوبِ بعضِها وثمّةَ ثالثٌ بين الشعوبِ من جهةٍ وحكوماتِها من جهةٍ أخرى ورابعٌ بينَ "حكوماتٍ وشعوبِها" ضدَّ "حكوماتٍ وشعوبِها" أخرى. دوّامةُ شُؤمٍ ونَحسٍ لمْ يفلتْ منها لا الإنسانُ ولا الجمادُ، ولا الحيواناتُ بكافةِ أشكالِها وألوانِها وعلى رأسِها الحميرُ!. يقالُ أنّهُ كانت هنالكَ مَجموعةٌ من البدوِ الرُّحَّلِ، مع حَميرِهِمْ وبغالِهِمْ وجِمالِهِمْ، يعبرونَ الحدودَ. استوقفَهُمْ رجالُ حرسِ الحدودِ في تلكَ الدولتيْنِ الأختيْنِ الجارتيْنِ وعلى جانبِ كلٍّ منهما لِمدةِ ثلاثةِ أيامٍ قبلَ الانتهاءِ من إجراءاتِ ضبطِهِمْ وتسجيلِهِمْ والتأكّدِ من صحةِ وثائقِهِمْ وأعدادِهِمْ ومآربَ أخرى!. بعدَ اجتيازِ نقطةِ الحدودِ حاولَ البدوُ الرُّحلُ زيادةَ السّرعةِ في السّيرِ حيثُ بدؤوا يوسعونَ حَميرَهُمْ وجِمالَهُمْ ضرباً وركْلاً، بهدفِ الوصولِ بسرعةٍ إلى مضاربِهِمْ والتي لمْ تكنْ بعيدةً كثيراً عن بوّابةِ مركزِ مراقبةِ الحدودِ والدوريّاتِ الحدوديّةِ التابعةِ لهُ...

الحمارُ الأولُ: إنّي لأَعْجَبُ يا صديقِيَ لِما يَحدثُ معنا؛ بعدَ أنْ استوقفَنا البشرُ هنا (على الحدودِ) لثلاثةِ أيامٍ بلياليها ها هُمْ أصحابُنا الآنَ يوسعونَنا ضرباً بالعصيِّ والكرابيجِ لتسريعِ الخُطى من أجلِ كسبِ الوقتِ!. كان الأجدرُ بالبشرِ أنْ لا يوقفونَنا البتّةَ على الحدودِ باديَ ذي بدءٍ...

الحمارُ الثاني: اخفضْ صوتَكَ يا صديقِيَ؛ إذا ما استعملَ البشرُ هنا عقولَهُمْ وتولّوْا أمورَ أنفسهِمْ بأنفسِهِمْ فلن يعودَ لِمثلِنا لزومٌ في حياتِهِمْ، وسينخفضُ سعرُ الواحدِ منا من بضعةِ جنيهاتٍ إلى بضعةِ قروشٍ، وما يتبعُ ذلكَ من تدنٍّ في مستوى الأكلِ والاحترامِ والتعاملِ معنا. سوف يصرفُ البشرُ جهودَهمُ لتطويرِ أنفسهِمْ ويؤدّي الأمرُ بهِمْ إلى تَحويلِ أنظارِهِمْ عنّا إلى أمورٍ أخرى والاستغناءِ عنَ أعدادٍ كبيرةٍ منّا ولنذهبَ بعدَ ذلكَ إلى مصيرٍ مَجهولٍ!.

بسببِ تلكَ السّياساتِ الاستعماريةِ المفروضةِ باللينِ تارةً وبالحديدِ والنارِ تارةً أخرى حدثتْ هُوَّةٌ كبيرةٌ بين الحكوماتِ وشعوبِها لأنَّ معظمَ أفرادِ الشعبِ لا

يعـونَ المعنـى الحقيقـيَّ والعملـيَّ والـواقعيَّ عنـدَ تطبيـقِ اتفاقيـةِ "سـايكس-بيكـو" جغرافياً وبشرياً وسياسياً. ربّما يعرفُ أفرادُ الحمايةِ الخاصّةِ من الأميّينَ تقريباً التي تحمي الحكّامَ بذلكَ الأمر خلالَ جلْسةٍ واحدةٍ، ربَّما، أكثرَ من مثقّفي الشعبِ الذين يتلقونَ معلوماتِهمْ بشكْلٍ رئيسيٍّ من وسائلِ الإعلامِ المُختلفةِ على مدى عقودٍ من الزمنِ. بتخصيصٍ أكثرَ قامت الدولُ الاستعمارية في ذلكَ الوقتِ بصرفِ ميزانياتٍ ماليـةٍ ومساعداتٍ تقنيـةٍ خاصـةٍ لتلـكَ الحكومـاتِ ومؤسّسـاتِها، مـن أسـلحةٍ وعتـادٍ وتدريبٍ للجيشِ والشرطةِ والأمنِ السرّيِّ إلى مساعداتٍ وخدماتٍ تعليميةٍ وصحيةٍ وغيرِها الكثير. أدّى ذلكَ إلى حصولِ ارتباطٍ سياسيٍّ خارجيٍّ شبهِ مطلقٍ ومزمنٍ للدولةِ الناميةِ الفقيرةِ الوليدةِ بالدولةِ العُظمى الغنيةِ المسيطرةِ.

يعيشُ حمد وأبوالزهو وعائلة أبو جاسر بجانبِ مدينةٍ بركانيةٍ من الناحيةِ الأمنيةِ والسّياسيةِ. المظاهراتُ ضدَّ الحكومةِ والوضعِ السّائدِ في حينهِ تبدأ تقريباً كلّما تنتهي!. كلَّ يومٍ في الأسبوعِ على الأقلِّ هنالكَ مظاهرةٌ. في البدايةِ كان حمد يعجبُ بسببِ المفارقةِ بينَ ما يقوَمُ بهِ التلاميذُ في الصّباحِ من تحيةٍ للعَلَمِ والرئيسِ ونشيدٍ وطنيٍّ وبينَ ما يَجري في الشارعِ من مظاهراتٍ وأعمالِ احتجاجٍ ضدَّ نفسِ الحكومةِ والنهجِ الذي تتبعُهُ في التعاملِ مع الظروفِ الراهنةِ في ذلكَ الوقتِ.

ذاتَ يومٍ كانَ حمد وأبوالزهو قد فرَغا أو على وشكِ من بيعِ حُمولةِ بقاليلِ اللّـبنِ والخضـارِ قريبـاً مـن مركـزِ المدينـةِ علـى غيـرِ العـادةِ. رَأيـا تَجمُّعـا غفيـراً لمتظاهرينَ يسيرونَ خلْفَ حِمارٍ في منتصفِ عمْرِه وشبابهِ!. وضعَ المتظاهرونَ على رأسِ ومؤخّرةِ الحمارِ صورةَ رئيسِ الحكومةِ وعلى رقبتِه عُلقتْ لوحةٌ من الورقِ المَقوّى تطالبُ ذلكَ الرئيسَ بالتنحّي الفوريِّ عن السّلطةِ وتغييرِ نَهجِ الدولةِ السّياسـيِّ جُملـةً وتفصـيلاً. كـانَ الوضـعُ أشـبهَ بالمطالبـةِ بإحـداثِ ثـورةٍ سياسـيةٍ واجتماعيـةٍ وفكريـةٍ مـذكّراً بثـوراتٍ سـابقةٍ مـن مثـلِ الثـورةِ الفرنسـيةِ والبلشـفيةِ الشّيوعيةِ. يريدُ المتظاهرونَ إحلالَ "الديموقراطيةِ" أو حكْم الشعبِ مَحلَّ "الثيو-قراطيةِ" (نظامُ حكْمِ رجالِ الدّينِ أو نظامُ الحكْمِ الدينيِّ) و"البيروقراطيةِ" (حكْمُ المكتبِ وتسلُّطُ من بداخلِ المكتبِ) و"التّزكيَتو-قَراطيةِ" (حكمُ أقاربِ الرئيسِ ومن يزكّيهمْ الرئيسُ لِمناصبِهمْ خاصةً الحساسةَ منها) الموجودةِ، والمتأصِّلةِ منذُ عهودٍ وعصورٍ ودهورٍ.

يريدُ المتظاهرونَ أنْ يُعَبِّروا عن احتقارِهمْ وحنقِهمْ السّاخطِ على الحكومةِ وعلى ضعفِها في مواجهةِ الأحداثِ السّياسيةِ في الماضي والحاضرِ والمستقبلِ. كانتْ مَجموعةٌ منهُمْ تهتفُ وتكرِّرُ شعاراتٍ مناوئةً للحكومةِ. ما أنْ رأى أبوالزهو المظاهرةَ والحمارَ حتّى أخبرَ! حمد بالأمرِ. كانَ حمد يَهُمُّ بالتسلّقِ إلى إحدى البناياتِ القديمةِ لتسليمِ بقلولةِ لبنٍ إلى إحدى ربّاتِ البيوتِ فيها حيثُ كانتْ قد أشارتْ لِتوِّها لهُ بأنْ يوصلَها إيّاها. لكنْ قبلَ أنْ يتسلَّقَ البنايةَ عادَ حمد لتلبيةِ نداءِ أبوالزهو المُلحِّ!.

أبوالزهو: انظرْ يا صديقِيَ، متظاهرونَ ومعهُمْ حِمارٌ!.

حمد: لا..... متظاهرونَ يسوقونَ حِماراً!.

أبوالزهو: هذا أو ذاك، لكنْ لِماذا يقومُ نَفرٌ منهُمْ بضربِ الحمارِ وتعذيبِهِ؟!.

حمد: هذهِ إحدى نتائجِ اتفاقيَّةِ "سايكس-بيكو" قبلَ حواليْ نصفِ قرنٍ من الآنَ!.

أبوالزهو: لكن لنحاولْ أنْ نُخْرِجَ صاحبَنا الحمارَ من ورطتِهِ تلكَ...

حمد: أخشى أنّهُ إذا ما حاولْنا ذلكَ أنْ نوضعَ الاثنانِ مَحلَّهُ!؛ هل أنتَ مستعدٌّ لذلكَ؟!.
أبوالزهو: لا لا تكنْ جَباناً!. لنذهبْ إليهِمْ ونرجوهُمْ أنْ يتركوهُ وشأنَهُ...
حمد: أيها الناس، اتركوا الحمارَ وشأنَهُ، حرامٌ عليكُمْ إنّكُمْ تعذّبونهُ. اتركوهُ يعيشُ بهدوءٍ وسلامٍ كبقيةِ الخلقِ المُحبّةِ للأمانِ والسّلامِ.
أحدُ المتظاهرينَ: هل أنتَ مع الحكومةِ؟!. هلْ أنتَ عميلٌ للحكومةِ؟!. هل أنتَ جاسوسٌ لرئيسِها؟!.
حمد وأبوالزهو: لسْنا عملاءَ للحكومةِ، ولا نعرفُ حتّى أينَ هي الحكومةُ التي تتحدّثونَ عنها. نريدُكُمْ أنْ تتركوا الحمارَ المسكينَ وشأنَهُ.
ما أنْ تكرَّرَتْ المناداةُ وعَلَتْ الأصواتُ بينَ حمد وأبوالزهو من جهةٍ وبينَ بعضِ المتظاهرينَ من الجهةِ الأخرى حتى انعطفتْ مَجموعةٌ من الشبابِ جاذباً وتوجَّهوا إلى مكانِ حمد وأبوالزهو خلفَ مَحلِّ "بيع خبز" قريبٍ من مدخلِ الشارعِ المؤدي إلى مركزِ المدينةِ. خلالَ تلكَ الدقيقةِ صاحَ أحدُ المتواجدينَ على رأسِ المظاهرةِ قائلاً: "يا حكومةً أعطونا سلاحاً!".
أحدُ المتظاهرينَ: لقد سَمعناكُما تناديانِ من هناكَ بوقفِ المظاهرةِ ضدَّ الحكومةِ، أنتما من حزبِ الحكومةِ وضدَّ الجماهيرِ العارمةِ!. أنتما عميلانِ حقيرانِ، تَجبُ معاقبتُكُما عقاباً رادعاً!.
متظاهرٌ آخرُ: أعرفُكَ يا بائعَ اللّبنِ، لقد رأيتُكَ من قبلُ؛ سوفَ أمنعُكَ من البيعِ مُجدّداً في المدينةِ، أنت ووالدَكَ!.
حمد: أبوالزهو احْملْ لِيَ هذهِ البقلولةَ وقِفْ بها جانباً هناكَ حتى لا تنكسرَ ويسيلَ أو يضيعَ منها اللّبنُ. وأنتَ!. هل هذه المدينةُ "مُطَوَّبةٌ" باسْمِ أمِّكَ أو أبيكَ حتى تَمنعَنا من البيعِ فيها، أيُّها الرِّعديدُ الجبانُ!. اذهبوا أو تولّيتُ أموركُمْ بما لا يسرُّكُمْ!.
(كلمةُ رِعْديدٍ تطلقُ على الشخصِ الذي يرتعدُ من الخوفِ عندَ حدوثِ مشكلةٍ تتطلّبُ بعضَ الثباتِ والشجاعةِ في مواجهةِ موقفٍ صعبٍ نوعاً ما).
أبوالزهو: لسْنا مع الحكومةِ ولا مع الشرطةِ!، نريدُ إنقاذَ صاحبِنا الحمارِ من حنقِ الجماهيرِ الغاضبةِ، ما ذنبُ الحمارِ في كلِّ هذا وذاكَ؟!.
متظاهرٌ آخرُ: اخرسْ وابْقَ فيَ مكانِكَ، هذا الحمارُ يرمزُ إلى الحكومةِ الغبيّةِ البائسةِ، وأنتما مع الحكومةِ!.
حمد: لا تغلطْ على أبوالزهو يا نذلاً أو كسرْتُ عظمَكَ!.
وصلَتْ الأمورُ إلى حدِّ الاشتباكِ بالأيدي والأرجلِ والصّدورِ والبطونِ والرّؤوسِ والظّهورِ، خَرَجَ منها حمد وأبوالزهو بجروحٍ ورضّاتٍ كبيرةٍ في أجزاءِ جسميْهِما المُختلفةِ.
أحدُ المتظاهرينَ: إنَّ هدفَنا يا أغبياءَ ليسَ إهانةَ الحمارِ. لقد بَلَغَ السّيْلُ الزُّبى!. إنّهُ مُجرَّدُ رمزٍ أو وسيلةٍ لإيصالِ رسالةٍ إلى الحكومةِ أنّنا نريدُ تَحريرَ الأوطانِ المغتصبةِ، والتي "باعَها بالسُّحتِ سِمْسارٌ وخوّانٌ وأهلٌ شُرِّدوا في الأرضِ لولا الغدرُ ما هانوا"... (بيتُ شِعرٍ وطنِيٌّ)
حمد: هذه الرسالةُ وصلتْ منذُ عهودٍ، لكنْ ما ذنبُ الحمارِ في ذلكَ؟!.
المتظاهرُ: هل أنتَ من أنصارِ "أبو رَقَبَةٍ!"؟. هل توافقُ العملاءَ أفكارَهُمْ؟.
أبوالزهو: لا يوجدُ أحدٌ من البَشَرِ لهُ رقبةٌ أطولُ من رقبتِيَ. لسْنا مع "أبو رقَبَةٍ" ولا مع "أبو رقابَةٍ"!.

انصرفَ هؤلاءِ الشّبابُ جَميعاً وظلَّ حمد وأبوالزهو يُحاولانِ تضميدَ جراحِ كلٍّ منهُما والتحسّسَ على الرضّاتِ في جسميْهِما.
حمد: يا هذا لقد قمتَ بتوريطِنا هذه المرَّةَ مع سَيْلٍ جارفٍ من البشرِ...
أبوالزهو: لَمْ أقدرْ أنْ أصبرَ يا صديقِيَ عندما رأيتُ ذلكَ الحمارَ يتألَّمُ من العذابِ!.
حمد: يا صاحبِيَ! قلتُ لكَ هذه إحدى النتائجِ القليلةِ والبسيطةِ لأعمالِ "ماركْ سايكسْ" و "جورجْ بيكو" ومن بعدِهِمْ وعدِ "آرثر بلفور" المشئومِ وتواجدِ بقايا الاستعمارِ في المنطقةِ.
أبوالزهو: يا صديقِيَ تظلُّ تكرِّرُ لِيَ وتُحَمِّلُ عقلِيَ وظهرِيَ ما لا طاقةَ لِيَ بهِ من الكثيرِ مِمّا حدثَ في الماضي الأسودِ. مرَّةً تقولُ لِيَ "سايكسْ-بيكو" وأخرى "وعدَ بلفورَ المشئوم" وإضرابَ ١٩٣٦ وقرارَ التقسيمِ وضياعَ الأوطانِ وقرارَ عودةِ اللاجئينَ والعدوانَ الثلاثيَّ ..... لقد امتلأَ عقلِيَ وانقصَمَ ظهرِيَ من الحمولةِ الزائدةِ التي تقذفُها عليَّ.
حمد: معَكَ كلُّ الحقِ يا صديقِيَ، إنَّ كلَّ تلكَ الاتفاقياتِ والمعاهداتِ والقراراتِ لَمْ تُفَرِّقْ عندَ اتّخاذِها أو كتابتِها بينَ البشرِ والحجرِ والحيوانِ. أعتقدُ أنَّ "ماركْ سايكسْ" و"جورجْ بيكو" و"آرثر بلفور"، مع لقبِ "لورد" أو "سير" أو حتى "مِسْيو" لكلٍّ منهُمْ، مسّاحونَ ديموغرافيونَ دوليّونَ غيرُ مرخصينَ؛ ذلكَ بالإضافةِ إلى ميولِهِمْ ونزعاتِهِمْ الطبيعيةِ في اغتصابِ وابتزازِ الأراضي ونزعِ الحقوقِ الوطنيةِ عن أهلِها الشرعيينَ.
أبوالزهو: أريدُ أنْ أسألَكَ سؤالاً واحداً، لو تَهدأُ قليلاً. لقدْ سَمعتُهُمْ يقولونَ أثناءَ المظاهرةِ: "يا حكومةً هاتوا سلاحاً!". لَمْ أفهمْ شيئاً، طوالَ المظاهرةِ وبأعلى صوتٍ يردّدون تلكَ العبارةَ!.
حمد: يا أبوالزهو وكيفَ لكَ أنْ تأتيَني ببلوى أخرى كَما لو كُنتَ عذاباً منصبّاً فوقَ رأسِيَ!؟. يا أبوالزهو هذا ليسَ سؤالاً. هذا كلامٌ يُمنعُ التداولُ فيهِ، من يتداولُهُ أو يتعاطى بهِ يعاقبُ بالإعدامِ شنقاً حتى التأكّدُ من الموتِ!.
أبوالزهو: وكيف إذن هذهِ الجماهيرُ تصرخُ بذلكَ وبأعلى صوتِها؟!.
حمد: ها... لقد وضعْتَ لسانَكَ وحنجرتَكَ على السّؤالِ الصّحيح، وكما يقولُ المثقّفونَ المهذّبونَ؛ "سؤالٌ وجيهٌ جداً"!. هذه الجماهيرُ محكومٌ عليها بالإعدامِ، ولكنَّ المسألةَ كيفَ وأينَ ومتى ومن يُنَفِّذُ القتْلَ!.
أبوالزهو: ولنفرضْ جدلاً وخيالاً بأنّهُمْ حصلوا على السّلاحِ، "ماذا بعدُ؟!".
حمد: سيدافعونَ بهِ عن أنفسِهِمْ وأوطانِهِمْ!.
أبوالزهو: عندما يأتي موعدُ الدفاعِ، سأدافعُ عن نفسِيَ ووطنِيَ ولا حاجةَ بِيَ للسلاحِ!.
حمد: يا صديقِيَ.... لقد قَصمْتَ ظهرِيَ بأسئلتِكَ واستفساراتِكَ. كلَّما ذهبْتَ إلى مكانٍ تَجْمَعُ منهُ أكثرَ الأسئلةِ خطورةً وتريدُ منّيَ الإجابةَ عليْها؟!. إيّاكَ أنْ تتلفظَ بهذا معَ الغيرِ لكيْ لا يظنّونَ أنّكَ تتعرضُ لتحريضٍ منّيَ!. تعرفُ أنّهُ يوجدُ عندَنا والدٌ ووالدةٌ يكدحونَ ليلَ نهارَ وإخوةٌ وأخواتٌ صغارٌ ينتظرونَ بعضَ الحلوى من المدينةِ في نهايةِ اليومِ.
أبوالزهو: سوفَ أضعُ كلَّ طعامِيَ وشرابِيَ تَحْتَ تصرفِكُمْ نتقاسَمُهُ نصفاً بنصفٍ!. وعلى فكرةٍ ماذا تريدُ أنْ تقولَ للوالدِ أبو جاسر عن الخدوشِ والرضّاتِ التي تَملأُ

وجهَكَ وبدنَكَ بسببِ العراكِ مع المتظاهرينَ؟!؛ سوف تُثار ثائرةُ الوالدِ والوالدةِ وربَّما يهاجِمونَ أحداً في المدينةِ للأخْذ بالثأرِ!.
حمد: لا أريدُ مشاكلَ للوالدِ ولا لأحدٍ، قلْ لهُ كُنّا نُحاولُ التخلصَ من الأشجارِ البريةِ في أرضِنا المزروعةِ بالأشجارِ ودخلْنا في بقعةٍ من الشوكِ الكثيفِ الجارحِ. وعن جروحِ الأرجلِ والأذرعِ سنقولُ لهُ أنَّ كلبَ "أبو صويلح" (من فلاحي القريةِ المُجاورةِ) الأحْمر الجارحِ هاجَمَنا على حينِ غرّةٍ!؛ دافعْنا عن أنفسِنا وجَرَتْ معركةٌ شرسةٌ ردَدْنا العدوَّ المهاجَمَ فيها على أعقابِهِ مع بعضِ الخسائرِ التي لا مفرَّ منها!.
أبوالزهو: في هذه الحالةِ سوفَ يهجمُ والدُكَ المسكينُ أبو جاسر على كلابِ "أبو صويلح" كلِّها، الأحْمرِ والأسودِ والأبيضِ، وعلى "أبو صويلح" نفسهِ في آنٍ معاً!.

اختراقُ الحصارِ وحظْرِ التّجوالِ

كانت بعضُ المظاهراتِ في المدينةِ المُجاورةِ تبدأُ بكلِّ سهولةٍ وتتطوّرُ لتنتهيَ بكلِّ صعوبةٍ. في البدايةِ تقومُ الحكومةُ باستخدامِ الشرطةِ المَحليةِ لوقفِ المظاهراتِ، إلا أنَّ الشرطةَ المَحليةَ ليس لديها السّلاحُ الناريُّ ولا الإرادةُ المطلوبيْنِ لقمعِ مظاهراتٍ عارمةٍ ولينتهي الأمرُ بتغلُّبِ المتظاهرينَ على جهازِ الشرطةِ هناكَ. تقومُ الحكومةُ باستخدامِ الجيشِ الذي لديه سلاحٌ ناريٌّ شبهُ كافٍ ولكنّهُ لا يَمتلكُ الإرادةَ والأحشاءَ اللازمَةَ لإطلاقِ النارِ على المتظاهرينَ. قد تستغرقُ عمليةُ قمعِ المظاهراتِ ما بين أخذٍ وردٍّ وكرٍّ وفرٍّ من أسبوعٍ إلى بضعةِ أشهرٍ تضطرُّ بعدَها الحكومةُ وأجهزةُ الدولةِ الأمنيةُ في آنٍ واحدٍ إلى إرسالِ وحداتٍ خاصّةٍ أتى أفرادُها من خارجِ الزمنِ الفكريِّ والحسِّ المَعنويِّ والوطنيِّ والثقافيِّ والإنسانيِّ لبقيةِ الشعبِ تقريباً. حتى أنَّ أشكالَهُمْ ولَهجتَهُمْ وألبستَهُمْ غايةٌ في الغرابةِ عن الناسِ العاديينَ هناكَ. هؤلاءِ الحرسُ الخاصُّ لديهِمُ شيءٌ واحدٌ يفهمونَهُ، لدى استقدامِهِمْ إلى المدينةِ، ألا وهو أنّهُ إذا ما رأوْا جسماً في الشارعِ متجوّلاً فما عليهِمْ إلا إيقافُهُ وبكلِّ الوسائلِ المتوفّرةِ لديهِمْ!. ومن المؤكّدِ أنَّ هذا الجسمَ لا يُحِبُّ الحكومةَ والنظامَ والأمنَ، ذكراً كانَ أمْ أنثى، صبيّاً كانَ أمْ كهلاً. لَمْ يكنْ لدى هؤلاءِ الجنودِ سلاحٌ متطوّرٌ بما فيهِ الكفايةُ ولكن لديهِمْ كاملَ الإرادةِ لعملِ ما يُطلبُ منهُمْ تنفيذُهُ وبدونِ تردّدٍ!.

وبسببِ الحصارِ المشدّدِ والخانقِ على المدينةِ يضطرُّ السّكانُ وبضغطِ الجوعِ والعطشِ إلى التسلّلِ عبْرَ الجبالِ إلى القرى المُجاورةِ والبعيدةِ لِجلْبِ موادَّ غذائيةٍ، أيَّةِ موادَّ غذائيةٍ للمحاصرينَ والممنوعِ عليهِمْ التجوالِ. كانَ هؤلاءِ المُحاصرونَ يتسلّلونَ من المدينةِ إلى القرى المُجاورةِ في حالةٍ يُرثى لَها؛ ذقونُ رجالِهم غيرُ محلوقةٍ، وجوهُهم غيرُ مغسولةٍ ولا حتى بالماءِ مبلولةً، قسمٌ منهم يأتي بلباسِ نومٍ أو حتى بلباسٍ غيرِ لائقٍ بجنسهِ!. يعودونَ بعدَ ذلكَ إلى بيوتِهِمْ في المدينةِ المحاصَرةِ يَحملونَ ما قدروا على تَجميعِهِ على ظهورهِمْ ورؤوسِهِمْ وما بينَ أيديهِمْ، من البَيْضِ والدجاجِ البيّاضِ والفراريجِ الصّغيرةِ. القَصصُ طويلةٌ وأطولُ بكثيرٍ من أيامِ الحصارِ، قَصصٌ مضحكةٌ مبكيةٌ مُحزنةٌ مسلّيةٌ، للأبدانِ مقشعرةٌ

ومنعشةٌ!؛كلُّ ذلكَ في آنٍ معاً. ومن القريةِ كان البائعونَ المتجوِّلونَ على الدوابِ يتسلّلونَ إلى المدينةِ وخاصّةً الضواحي ليبيعوا من مَحاصيلِهِمْ للمحاصَرينَ.

انتقلَ حمد وأبوالزهو وبعدَ تجهيز الحمولةِ المعهودةِ من اللّبنِ الرائبِ واللبْنةِ والبصلِ والبيضِ البلديِّ وبعضِ الفَراريجِ البلديةِ الحيّةِ، حيثُ كانَتْ هذه الموادُّ مطلوبةً وبشكلٍ مُلحٍّ. حمد وأبوالزهو يتشابَهان في حبِّهِمْ للمنطقةِ والجبالِ الوعرةِ والسّيرِ بينِ الصّخورِ الناتئةِ العاليةِ. كان أبوالزهو يسيرُ في وعورةِ الجبلِ بكلِّ ثباتٍ بحيثُ لَمْ تُكسرْ ولوَ بقلولةٌ واحدةٌ أو بيضةُ دجاجٍ بسببِ حرصِهِ الدائمِ على تجنّبِ خطوطِ التصادمِ مع الصّخورِ أو عبورِ مضيقٍ أو إتّباعِ طريقٍ شديدِ الالتواءِ أو التعرّجِ. شاهدَهُ حَمد ذاتَ مرّةٍ وقدْ تعثّرَتْ خُطاهُ وكاد يسقطُ على أرضِ الجبلِ الوعرةِ إلا أنّهُ تَمكّنَ من تداركِ الموقفِ واستعادَ توازنَهُ وثباتَهُ، أو لذهبتْ كلُّ البقاليلِ والبيضِ وحبّاتِ البَنْدورةِ، وأصبحتْ خسارةُ حِمْلِ البضائعِ مؤكدةً، وربّما لتَكَسَّرَتْ عظامُ أبوالزهو ... لا سَمَحَ اللهُ.

حمد: يا أبوالزهو، نَحْنُ على وشكِ دخولِ الضاحيةِ الجنوبيةِ للمدينةِ. إذا ما سَمعتَ صوتَ جنديٍّ أو دوريةٍ أو شرطيٍّ، الزمْ مكانَك وتوجَّهْ إلى أقربِ بوّابةٍ مفتوحةٍ وتظاهرْ بأنّكَ من أهلِ البيتِ أو مِمَّنْ يسكنُهُ!. أو اختبأ خلْفَ جدارٍ أو قفْ عند أقربِ مطلعِ لدرجِ بنايةٍ أو تظاهرْ بأنكَ جزءٌ من مَجموعةٍ من عُمّالِ البلديةِ تقومُ بالمساعدةِ على إصلاحِ خطِّ أنابيبِ مياهِ البلديةِ أو شيءٍ تالفٍ فيها، واستعملْ عقلَكَ وخبرتَكَ في نِهايةِ المطافِ!.

أبوالزهو: لقد قرأتَ هذا الدرسَ وغيرَهُ عليَّ كثيراً من قبلُ، فهمتُ هذه التعليماتِ منذُ مدةٍ طويلةٍ. أقدرُ أنْ أعلّمَكَ أحسنَ من ذلكَ، لقد تَكوّنَت لديَّ خبرةٌ مزروعةٌ في الدمِ والنخاعِ؛ توكّلْ!.

كانَ البيعُ في ذلكَ اليومِ سهلاً حيثُ تدافعَ أهلُ البيوتِ المُحاصرةِ على البضاعةِ، قسمٌ من البيعِ لَمْ يقبضَا (حمد وأبوالزهو) ثَمناً لهُ وقسمٌ آخرُ لَمْ يقدرا بسببِ الزحامِ؛ لَمْ يعرفاً من دفعَ ثَمنَ البضاعةِ ومن لَمْ يدفعْ، لكن الخسائرَ لَمْ تكنْ كبيرةً. قرّرا بعدَ ذلكَ الاقترابَ من مركزِ المدينةِ حيثُ تزيدُ "القواتُ الخاصّةُ" من شدةِ حصارِها عليهِ هناكَ، بعدَ أنْ شعراً ببعضِ الأمانِ في الضاحيةِ. لَمْ تكدْ تَمضي عدّةُ دقائقَ من توجّهِهِمْ نَحْوَ المركزِ حتى سَمعا صوتَ مُحرّكِ عجلةِ "لاندروفر" عسكريةٍ يستقلّها بضعُ جنودٍ. قفزَ حمد إلى جانبِ سورِ مُحاذٍ لِمقبرةٍ قديمةٍ "مهجورةٍ" وانبطحَ على كومةٍ من الأعشابِ البريةِ بِما فيها من أشواكٍ وأوساخٍ. ظَنَّ حمد أنَّ الجنودَ لن يُعيروا الأمرَ أهَميةً إذا ما رأوا أبوالزهو ومن في مثلِ سنّهِ وشكلِهِ!. لكنهُ حصلَ العكسُ حينَ أوقفَ الجنودُ سيارتَهُمْ العسكريةَ ونزلوا منها وأوقفوا أبوالزهو في منتصفِ الطريقِ. سألوهُ عن اسْمِهِ وإن كان معهُ أحدٌ، ولَمّا تَجاهلَهُمْ أو لَمْ يفهموا عليهِ ما قالَهُ لَهُمْ!، أخذوا يفتشونَ عن طعامٍ في ثنايا الحمولةِ؛ بقايا لبنٍ رائبٍ وخضارٍ وخبزٍ!. بدؤوا يركلونَ أبوالزهو ويضربونَ جسدَهُ بأعقابِ بنادقِهِمْ والتي كانت تَبدو من مُخلّفاتِ الحربِ العالميةِ الأولى والجيشِ الانكشاري!. وعندَما رأى حمد ذلكَ المنظرَ نَهضَ بنصفِ وعيهِ من خلفِ سورِ المقبرةِ وتَوَجّهَ إليهِمْ.

الجنودُ: ماذا تفعلُ هنا؟!. (ويش تساوي هون؟!)

حمد: كنتُ أقضي غرضاً شخصياً وراءَ السّورِ؛ وأنتم؟!.

الجنودُ: ألا تعلَمُ أنَّ هنالكَ منْعَ تَجوالٍ في المدينةِ؟.
حمد وأبوالزهو: نعمْ نعلمُ، ومنذُ شهرينِ ونيِّفٍ.
الجنودُ: إذن أنتما مُخالفانِ لقانونِ الأحكامِ العُرفيةِ والعسكريةِ والدفاعِ والأمنِ الوطنيِّ السّياسيِّ والعسكريِّ.
أبوالزهو وحمد: لكنْ هنالكَ أطفالٌ وشيوخٌ ونساءٌ وشبابٌ ورجالٌ يكادونَ يَموتونَ من الجوعِ والعطشِ. وكما أنتمْ تفتشونَ عن بقايا طعامٍ في البقاليلِ والصّناديقِ الفارغةِ كذلكَ هُمْ بحاجةٍ لأكْلٍ.
الجنودُ: ومن أينَ دخلْتُما إلى المدينةِ؟. كلُّ الطرقِ والمداخلِ المؤديةِ إلى المدينةِ مغلقةٌ بإحكامٍ من قِبَلِ الجيشِ والشرطةِ.
أبوالزهو: مِنْ بينِ صخورِ الجبلِ وطرقهِ الوعرةِ.
الجنودُ: وكيفَ ستعودانِ إلى قريتِكُما؟.
حمد وأبوالزهو: عبرَ الجبلِ.
أطلّتْ امرأةٌ من شُرفةِ أحدِ المنازلِ القريبةِ وصاحتْ بالجنودِ أنْ يتركوا حمد وأبوالزهو وشأنيْهما، فهُما جاءا إلى المدينةِ لكسبِ رزقيْهما. أمرَها أحدُ الجنودِ بالاختفاءِ خلْفَ الشرفةِ فما كانَ منها إلا أنْ بَصقتْ عليهِ واصفةً إياهُ بالفاشيِّ الأرعنِ!. (كلمةُ فاشيٍّ من أصلٍ لاتينيٍّ تعني التعصُّبَ المتطرفَ الأعمى والأرعنَ لشخصٍ أو مَجموعةٍ من الأشخاصِ على شكلِ حزبٍ أو فئةٍ سياسيةٍ أو قبليةٍ أو دينيةٍ).
الجنودُ: بمقدورِكُما هذه المرّةَ الخروجُ من الشارعِ الرئيسيِّ بدلاً مِن شارعِ الجبلِ الوعرِ على أنْ لا تكرِّرا هذا الخطأَ مرّةً أخرى؛ غيرَ ذلكَ سوفَ نأخذُكما إلى المخفرِ وسوفَ يضطرُّ وليُّ أمريْكُما لدفْعِ غرامةٍ ماليةٍ كبيرةٍ على اختراقِ حظرِ التجوالِ.
حمد وأبوالزهو: وكيف لِهؤلاءِ البشرِ المُحاصرينَ من التزوّدِ بالأكْلِ؟!.
الجنودُ: هذا ليس بأمرٍ يهمُّكُما، هؤلاءِ يكرهونَ الحكومةَ.
حمد: لا... همْ يُحبّونَ الحكومةَ ولكنْ بطريقةٍ أخرى أكثرَ تَحضُّراً.
قائدُ الدوريّةِ: يالله اذهبا إلى بيتِكُما ولا تكثرا من الكلامِ!.
انصرَفا مذعنَيْنِ إلى أوامرِ قائدِ الدوريّةِ. وفي الطريقِ...
أبوالزهو: لَمْ أكن أعرفُ من قبلُ أنكَ هكذا جبانٌ!. بمجرَّدِ أنْ سَمعْتَ صوتَ الدوريةِ تركتَني أواجهُ الخطرَ بنفسِيَ واختبأْتَ وراءَ جدرانِ المقبرةِ القديمةِ، مع قُدامى الأمواتِ!. يا حَيْفاً على الشبابِ، لَمْ أكنْ أحسبُ منكَ من قبلُ هذا الحسابَ. أنتَ! تقولُ لِيَ دائماً عن الأصحابِ والصّحبةِ والصّداقةِ والأُخُوَّةِ والرجولةِ والإنسانيةِ!. اختبأتَ خلفَ الجدارِ القديمِ مثلَ الفأرِ وأخذتَ تتفرَّجُ على الجنودِ يُخيفونَني، يركلونَني ويعبثونَ بمُمتلكاتِنا ....
حمد: لَحظةً يا أبوالزهو، دقيقةً، أعطِنِ مَجالاً لأتكلَّمَ. قلتُ لكَ في طريقِ الجبلِ أنْ تتدبّرَ نفسَكَ عندَ سَماعِ أيِّ خطرٍ قادمٍ، وأخبرتَني أنّكَ تعرفُ هذهِ الأمورَ عن ظَهْرِ قلبٍ بسببِ كثرةِ تكرارِها عليكَ ولسْتَ بحاجةٍ إلى أحدٍ لكيْ يُذَكِّرَكَ بِها.
أبوالزهو: لكن لَمْ يكنْ هنالكَ خطرٌ؛ جنودٌ وسيارةٌ ولَمْ يَحدثْ لنا مكروهٌ.
حمد: أتقولُ لَمْ يكنْ هنالكَ من خطرٍ؟!. ألَمْ ترَ البواريدَ (كلمةٌ مَحليةٌ جَمعُ بارودةٍ وهي بندقيةٌ قديمةٌ كانتْ تستخدمُ عادةً للصيدِ) بعينيْكَ، والخناجرَ على خصرَيْ كلِّ

واحدٍ فيهمُ والمدفعَ الرشّاشَ فوقَ العجلةِ؟. كانت أشكالُهُمْ مثلَ القادمينَ من بلادِ الأحباشِ من بقايا "أبرهة الأشرم"!، وعيونُهُمْ تُحملقُ مثلَ عيونِ الفهودِ السّوداءَ.
أبوالزهو: آه..... أنتَ الذي كنتَ تتحدَّثُ قبلَ زمنٍ لِيَ عن أسلحةٍ متقدمةٍ وطائراتٍ ومدفعيةٍ وقتالِ شوارعَ وحربِ أنصارٍ ومدافعَ هاونٍ ....؛ بعدَ ذلكَ تأتي لتقولَ لِيَ أنكَ تَخافُ من جنودٍ يحملونَ خناجرَ ويلبسونَ دشاديشَ وسراويلَ كاكيةً وكوفيّاتٍ وعقلةً سوداءَ اللونِ.
حمد: لَحظةً أخِيَ أبوالزهو، فقطْ! كنتُ أقرأُ الجريدةَ لكَ وبالذات الجزءِ الخاصِّ بِ"شؤونِ الدفاعِ الاستراتيجيِّ" بها؛ طوالَ حياتِيَ لَمْ أحملْ بيدِيَ ولو خنجراً أو سكّينَ جزّارٍ. إذاً ما سَمِعَ رجلُ المباحثِ ما تقولهُ الآنَ سوفَ أذهبُ وإياكَ إلى السّجنِ ونَجلسُ هناك أكثرَ من خَمسينَ (٥٠) سنةً إذا ما سَمحَ لنا العمرُ بذلكَ.
أبوالزهو: ... هذه المرَّةُ أسامِحُكَ ولكنْ إيّاكَ أنْ تكرِّرَ هذا الخطأَ مرّةً ثانيةً، وأطلبُ منكَ أنْ لا تُخَيِّبَ أملِيَ بكَ لأنّني أحسبُ أنّكَ مُختلفٌ عن بقيّةِ البشرِ.
حمد: وافرضْ جدلاً أنّني لَمْ أهربْ من الدوريةِ وقاموا بإطلاقِ النارَ علينا وقتلوكَ أو قتلوني أو قتلوا الاثنيْنِ معاً. ماذا كنتَ أو كُنا سنقدرُ أنْ نفعلَ؟. اَستعملْ عقلَكَ ولا تقلْ أنّهُ ....
أبوالزهو: إذا ما متَّ برصاصةٍ أو ضربةِ خنجرٍ فسوفَ تُحسبُ في السّجلِّ العالَميِّ والوطنيِّ على أنّكَ شهيدُ الحركةِ الاشتراكيةِ الثوريةِ وجحافلِ جيشِ "البروليتاريا" العرمرم؛ وتُضمُّ إلى قوافلِ المَجدِ من السّابقينَ واللاحقينَ منهم!. (البروليتاريا كلمةٌ من أصلٍ لاتينيٍّ تعني طبقةَ العمّالِ ... الكادحينَ!).
حمد: صدِّقْنِ يا أبوالزهو أنَّ نفسَ الكلامِ الذي تقولهُ هو بعينهِ في ضميريَ. لكنَّكَ تعرفُ أنَّ الروحَ عزيزةٌ وأنَّ كلَّ واحدٍ يريدُ أنْ يعيشَ كلَّ حياتهِ قدْرَ المتاحِ. وإذا ما متُّ شهيداً أو غيرَ شهيدٍ يا أبوالزهو فإنَّ أكثرَ شيءٍ يعزُّ عليَّ في تركِ هذه الحياةِ هو حضورُكَ معِيَ. حتى عندَما كنتُ أحاولُ الاختباءَ وراءَ سورِ المقبرةِ، قلتُ لنفسِيَ: إذا لا سَمَحَ اللهُ قتلوا أبوالزهو فسوفَ لنْ أستمرَّ في الحياةِ طويلاً من بعدِكَ، إمّا أنْ أسيرَ على نفسِ الدّربِ أو حتى ... أتخلّصَ من حياتِيَ بنفسِيَ.
أبوالزهو: لا تقلْ ذلكَ، لقد جعلتَني أبكي يا هذا!. الآنَ تأكّدَ لِيَ أنّكَ تُحبّني أعمقَ بكثيرٍ مِمّا أحبُّكَ؛ ولكن هذه الظروفَ، ظروفَ الحصارِ والجوعِ ومنْعَ التجوالِ جعلتْنا نتخوّفُ من غدرِ بعضِنا.
حمد: في المرّةِ القادمةِ، أعاهدُكَ أنّني لنْ أهربَ وسوفَ أتقدّمُ من الدوريّةِ بخطىً ثابتةٍ وأدخلُ إلى حواجزهِمْ الواهنةِ ولأريَهُمْ أنّني لا أرهبُهُمْ ولا أرهبُ أسلحتَهُمْ الجبانةَ التي لَمْ تَجلبْ لَهمْ إلا العارَ.
أبوالزهو: عسى أنْ نعيشَ ونرى، شبعتُ منكَ كلامَ "مَراجِلْ في مَراجِلْ"! وهواءً ساخناً يَخرجُ من الفمِ (كلمةُ "مَراجِلَ" شعبيةٌ مَحليةٌ وتعني كلامَ رجالٍ لَكنْ لا يعتمدُ على مواقفَ رجوليةٍ حقيقيةٍ). قلْ لِيَ عندَما هدّدكَ وتوعّدكَ قائدُ الدوريةِ بأنّهُ سوفَ يأخذُنا إلى المخفرِ، هل هو نفسُ المخفرِ الذي ذهبْنا إليهِ سابقاً بسببِ عدَمِ وجودِ رخصةِ بيعٍ "تِجارَيةٍ" لدَينا؟.
حمد: هو ذلكَ المكانُ نفسُهُ وقد أضافوا إليهِ ساحةً كبيرةً تَمتدُّ حتى قاعِ الجبلِ المُحاذي للمخفرِ وذلكَ لاستيعابِ مئاتِ المعتقلينَ والمخالفينَ وأصحابِ السّجلاتِ، عبارةً عن يومِ حشرٍ مُصَغَّرٍ!.

أبوالزهو: آه... إذن يا صاحبيَ تصَرَّفتَ " عينَ العقلِ" حينَ اختبأتَ وراءَ سورِ المقبرةِ القديمةِ، وكُنتَ على قدْرٍ من الحنكةِ والجرأةِ والمنطقِ بالتدخلِ في الوقتِ المناسبِ.
حمد: هذا من لطفِكَ أخِيَ أبوالزهو، هذا مِمّا عندَكُمْ ونَحْنُ أصدقاءٌ لبعضِنا.

غارةٌ جويةٌ رمزيةٌ

في كلِّ سنةٍ تقريباً تقامُ مَجموعةٌ من تَمارينِ التعبئةِ العسكريةِ والدفاعِ المدنيِّ ضِدَّ عدوٍّ مفترضٍ وتَحسّباً لِحربٍ متوقعةِ الحدوثِ. في بعضٍ منها تقومُ الحكومةُ بالزجِّ بأعدادٍ من الجنودِ والشرطةِ ورجالِ الدفاعِ المدنيِّ والبلديةِ ومَجموعةٍ من الكشافةِ المتطوعينَ في تَمرينٍ تعبويٍّ تَحْتَ تأثيرِ غارةٍ جويةٍ معاديةٍ مفترضةٍ. الشعبُ بشكلٍ عامٍّ فخورٌ بقواتهِ المسلحةِ، وحسبَ التوجيهِ والإعلامِ المركزيِّ فإن تلكَ القواتِ هي الدرعُ الحصينُ ضدَّ أيِّ عدوانٍ خارجيٍّ. عندَ حدوثِ مثلِ تلكَ الغاراتِ الجويةِ سرعانَ ما يُطلبُ من الناسِ إتّباعُ بعضِ الإجراءاتِ كالتوجُّهِ إلى أقربِ الملاجئ أو الخنادقِ أو حتى الانبطاحِ بجانبِ الشارعِ إنْ كان يتعذّرُ إيجادُ مكانٍ آخرَ ملائمٍ بشكلٍ سريعٍ. عَلِمَ الناسُ عَن طريقِ المذياعِ موعدَ الغارةِ والتعليماتِ التي يَجبُ إتباعُها. هناكَ من مركزِ شرطةِ المدينةِ ستنطلقُ صفّارةُ الإنذارِ عندَ بدءِ الغارةِ وعندَ انتهائِها!.

كان اليومُ المفترضُ للغارةِ الوهْميةِ يومَ جُمعةٍ وهو يومُ عطلةِ نِهايةِ الأسبوعِ؛ إلا أنّهُ عندَ حمد وأبوالزهو يعتبرُ يومُ الجمعةِ من أيّامِ العملِ، بل أكثرَ بقليلٍ من أيّامِ الأسبوعِ الأخرى. عندَ السّاعةِ الحاديةَ عشرةَ تقريباً كانَ حمد في طريقِهِ إلى المَسجدِ حيثُ سيذهبُ ليجهِّزَ نفسَهُ لأداءِ صلاةِ الجمعةِ وحيثُ المسجدُ يقعُ خلفَ مقبرةِ المدينةِ الرئيسيةِ، حينَ دوَّتْ صفاراتُ الإنذارِ إيذاناً ببدءِ الغارةِ الجويةِ. كان حمد في الماضي قد نبَّهَ! أبوالزهو عن التعليماتِ الصّادرةِ من دائرةِ التوعيةِ والإرشادِ الوطنيِّ التابعةِ للقواتِ المسلحةِ والدفاعِ الوطنيِّ.

بمجرّدِ سَماعِ صوتِ صفاراتِ الإنذارِ قَفزَ حمد إلى جانبِ شجرةٍ مزروعةٍ على حافّةِ الطريقِ مُختبئاً من الطائراتِ المعاديةِ المفترضةِ.

حمد: يا أبوالزهو، خُذْ الأرضَ (انبطحْ!) على الرّصيفِ.

أبوالزهو يتحرّكُ إلى وَسَطِ الطريقِ.

حمد: أبوالزهو! ارجعْ إلى الرصيفِ ولا تَمْشِ وسَطَ الشارعِ، "ستفضحُنا" مع فِرَقِ الدفاعِ المدنيِّ والكشافةِ والطوارئ والشرطةِ والبلديةِ والناسِ.

يواصلُ أبوالزهو المشيَ غيرَ عابئٍ، لا مُكترثاً ولا مبالياً؛ ينظرُ يَميناً وشِمالاً بخيلاءَ. بدأتْ أصواتُ أزيزِ الطائراتِ وصداَها في جبالِ وأبنيةِ وشوارعِ المدينةِ.

حمد: سوفَ تقصفُنا الطائراتُ وستقتلُنا يا هذا!.

ظهرتْ طائرتانِ ذاتا لونٍ بنيٍّ داكنٍ وذاتا أصواتِ مُحرِّكاتٍ عاليةِ الضجيجِ وألقتا بقنبلتَيْ دخانٍ وصوتيةٍ فَوقَ مقبرةِ المدينةِ، ذاتِ القبورِ الحجريةِ البيضاءِ المنتصبةِ. (كانت القُبورُ بما كُتبَ على أحجارِها تُحاولُ رَفْضَ المَوتِ أو طَلَبَ الحياةِ من جديدٍ بالنيابةِ عن أصحابِها الذين ووروا الثرى داخلَها منذُ عهودٍ!). وما هي إلا ثوانٍ حتى غادرتْ الطائرتانِ من حيثُ أتتا ومن المُحتملِ أنْ تكونا ذهبتا إلى مدينةٍ أخرى لتُلْقيا بقنابلَ مشابِهةٍ وسطَ إجراءاتٍ تعبويةٍ مشابِهةٍ كذلكَ!.

أثناءَ الغارةِ اقتربَ أحدُ شبابِ فريقِ الكشّافةِ المَحليِّ من أبوالزهو وصاحَ بهِ قائلاً: الزمْ مكانك أيُّها الحقيرُ، وانبطحْ على الأرضِ مثلَكَ مثلُ بقيةِ البشرِ!. ولَمّا لَمْ يُعرهُ أبوالزهو اهتماماً، اقتربَ الشابُّ من أبوالزهو ووضعَ رأسَهُ ووجهَهُ بوجهِ وعينِ أبوالزهو. ما كان من أبوالزهو إلا أنْ استدارَ حولَ نفسهِ دورةً ونصفَ الدورةِ، وركَلَهُ برجلِهِ في جبهتِهِ وبينَ عينيْهِ مُسقطاً إياهُ الأرضَ مضرجاً ببعضِ دمائهِ، دماءٌ كانت تسيلُ من أنفهِ وأسنانهِ وجبينهِ المتهتِّكِ. اندفعَ رفاقُ الشّابِّ الجريحِ، قِسْمٌ منهُمْ يُحاولُ تقديمَ الإسعافاتِ الأوليةِ لهُ وقسمٌ آخرُ يُحاولونَ السّيطرةَ على أبوالزهو واعتقالَهُ. نهضَ حمد من مَخبئِهِ! من الغارةِ الجويّةِ وتوجَّهَ إليهِمْ.
شرطيٌّ مُخاطباً أبوالزهو: من أنتَ ومن معكَ ولِماذا تصرّفتَ هكذا؟.
حمد: انتبهوا، أنا وأبوالزهو مع بعضِنا، وإيّاكُمْ أنْ تَمسّوهُ بسوءٍ.
أبوالزهو: يريدُ هذا الشابُ الأرعنُ أنْ يعلّمَني كيفَ أواجهُ غارةً جويةً رمزيةً بائسةً مثلَ وجههِ.
الشرطيُّ: أنتما رهنَ الاعتقالِ وأيُّ شيءٍ تقولانهِ أو تقومان بهِ سوفَ يسجَّلُ ضدَّكُما في المَحكمةِ؛ أنتما متّهمانِ بأنّكما لا تتقيّدانِ بتعليماتِ الحكومةِ أثناءَ الطوارئِ وتستحقّانِ أقسى العُقوباتِ.
حمد: يا رَجلاً! لقد فوجئْنا بالغارةِ الجويةِ وسْطَ الشارعِ ولَمْ ندْرِ ماذا نفعلُ وسْطَ هذه الضوضاءِ والغوغاءِ. قرّرنا البقاءَ في مكانِنا وعدمَ إضاعةِ الوقتِ في البحثِ عن مكانِ الملجأِ الحربيِّ الوحيدِ في المدينةِ. وهذا الشابُّ مثلَ الذي هبطَ علينا من السّماءِ أو قَدِمَ إلينا من تَحْتِ الأرضِ وهاجمَ أبوالزهو وأهانهُ!.
الشرطيُّ: ولتقلْ ذلكَ أمامَ ضبّاطِ الشرطةِ والمُحقّقينَ، الآنَ تَحرّكا أمامِيَ إلى مركزِ الشرطةِ.
ذَهَبا إلى مركزِ الشرطةِ وهو مركزٌ إداريٌّ أيضاً حيثُ كان هنالكَ المئاتُ من الحالاتِ المشابهةِ المخالفةِ لقانونِ الطوارئِ. وبعدَ انتظارٍ طويلٍ خلْفَ طابورِ البشرِ جاء دوْراهُما حيثُ أخبرَهُما ضابطٌ للشرطةِ هناكَ أنَّهما متهمانِ بخرْقِ قوانينَ الطوارئِ والعبثِ بأمنِ الوطنِ والبلادِ وتعريضِ سلامةِ المواطنينَ للخطرِ. كذلكَ وُجِّهتْ إليهما تُهمةُ الاستهتارِ والاعتداءِ على عمّالِ الإنقاذِ والأمنِ الوطنيّيْنِ، وإذا ما ثُبُتَتْ إحدى هذه التهمِ أو كلُّها فقد تصلُ عقوبتاهُما للسجنِ عدّةَ سنينٍ. أخبرهُما ضابطٌ للتحقيقِ! وقاضٍ أنّهُ في الوقتِ الراهنِ يَجبُ عليهما البقاءُ في المعتقلِ إلى حينِ المُحاكمةِ أو دفعُ مبلغٍ من المالِ قدرُهُ ثلاثمائةَ (٣٠٠) جنيهاً ككفالةٍ لِضمانِ حضورهِما في التاريخِ المُحَدَّدِ إلى جانبِ كفالةِ أحَدِ وُجهاءِ القريةِ أو المدينةِ!. ما أنْ عَلِمَ الأهلُ بالأمرِ حتّى اندفعوا إلى أهالي القريةِ يتوسّلونَ إليهِمْ لِيقترضوا منهُمْ بعضَ المالِ لِجمْعِ مبلغِ الكفالةِ. أتى الوالدُ أبو جاسر بنفسهِ وقالَ لضابطِ التحقيقِ والقاضي بأنْ لا أحَداً من وجهاءِ القريةِ يرغبُ بالتواضعِ! أو المغامرةِ لكفالةِ أبوالزهو وحمد، ولكن بالنسبةِ للمبلغِ المطلوبِ فلقد أحضرهُ معهُ في كيسٍ صغيرٍ من القماشِ. أُطلقَ سراحُ حمد وأبوالزهو بكفالةٍ إلى حينِ انعقادِ المَحكمةِ، حيثُ ذهبَ الجميعُ إلى البيتِ. بعْدَ استراحةٍ قصيرةٍ وتناولِ بعضِ الطعامِ جَلَسَ الجميعُ يتحادثونَ.
أبو جاسر: أخافُ على هذهِ الأموالِ التي وضعناها كَكفالةٍ، لنْ نتمكَّنَ من استردادِها، يبدو لِيَ أنَّ هذا القاضي نَصابٌ وغيرُ شريفٍ!.

حمد: المهمُّ! نَجوْنا من السّجنِ الذي لو زرناهُ لَما خرجْنا أحياءً. تعرفونَ أنني لا أطيقُ سلْبَ حريّتي ولا حريَّةَ أبوالزهو ولا حريّةَ الآخرينِ. وهذه الفلوسُ ليست غرامةً بل كفالةٌ.
أبو جاسر: لقد نصحتُكُما بعدمِ الذهابِ إلى المدينةِ أثناءَ تَمرينِ الطوارئِ، وأعرفُ أكثرَ منكُما حيثُ عايشتُ عدةَ قلاقلَ وحروبٍ ونكباتٍ سابقةٍ!.
حمد وأبوالزهو: ومن يأتِ بقوتٍ للأولادِ؟!.
أبو جاسر: اللهُ سبحانَهُ وتعالى يرزقُ الجميعَ، لكنَّ الحذرَ مطلوبٌ وأنْ لا يُلقيَ الشخصُ بنفسهِ إلى التّهلُكةِ من أَجْلِ الرزقِ!.
حمد: لقد نبّهتُكَ وحذرّتُكَ يا أبوالزهو أَنَّ هنالكَ غارةً جويةً!. انتبهْ واحذرْ! لا تورّطْنا مع الحكومةِ. عندما ترى شخصاً بزيٍّ شرطيٍّ أو ما شابَهَهُ انتبهْ... خذْ حذرَكَ... ليس الأمرُ بسيطاً.
أبوالزهو: حبّذا لو قَدَرْتُ أنْ أحطِّمَ جُمجمةَ ذلكَ الجبانِ. يقولُ لِيَ بأنْ انبطحَ على الأرضِ وأنَّ هنالكَ طائراتٍ وغارةً وخطراً!. لَمْ أرَ طائراتٍ ولَمْ يكنْ هنالكَ من خطرٍ.
حمد: يا حبيبِيَ يا أبوالزهو! هذه غارةٌ وهْميةٌ؛ طائراتٌ تُحلّقُ في السّماءِ وقنابلُ تنفجرُ على الأرضِ، قتلى وجرحى في الشوارعِ، سياراتُ إسعافٍ تَجوبُ المكانَ مطلقةَ العنانَ لأجهزةِ الإنذارِ فيها، مستشفياتٌ في حالةِ طوارئ، تبرعٌ بالدم، حرائقُ منتشرةٌ في المدنِ يَجري العَملُ على إطفائِها ... وهكذا دواليكَ تَمهيداً لليومِ الحقيقيِّ حينَ تُهاجِمُنا الطائراتُ المعاديةُ الحقيقيةُ!.
أبوالزهو: عندما يأتي ذلكَ اليومُ سندافعُ عن أنفسِنا بحقٍّ وحقيقٍ.
حمد: وكيف يكونُ ذلكَ دونَ تَحضيراتٍ أو تَمريناتٍ ودونَ سلاحٍ وما إلى ذلكَ؟!.
أبوالزهو: نعم!، بكلِّ ما نَملكُ من قوَّةٍ ذاتيةٍ!.



بعدَ حواليْ الأسبوعين من دفعِ الكفالةِ كان موعدُ مُحاكمةِ حمد وأبوالزهو وعليهما مواجهةُ "الادعاءِ العَامِّ"!. توَقَّعا أنْ يكونَ الموقفُ مثلَ يومِ حشْرٍ بطيءٍ يَمرُّ الضحايا فيهِ من ثقْبِ إبرةِ الدولةِ!. لذلكَ عَملا جهديْهما أنْ يبيعا حَملَ البضاعةِ في ساعةٍ مبكّرةٍ من صباحِ يومِ المُحاكمةِ. اتَّفقا قبلَ ذلكَ بيومٍ مع زبائنِهِمْ بأنْ يضعا بقاليلَ اللّبنِ وسِلالَ الخضارِ الصغيرةِ على عتباتِ أو مداخلِ الشققِ والبيوتِ عسى أنْ يتمَّ التقَاطُها حالَ استيقاظِ أولئكَ الناسِ من نومِهِمْ. قَسمٌ من الزبائنِ أعطوْا مُسبقاً ثَمنَ البضاعةِ وآخرونَ فضَّلوا التريُّثَ إلى ما بعدَ الانتهاءِ من المُحاكمةِ!. السّاعةَ السّابعةَ صباحاً وَصلَ حمد وأبوالزهو إلى ساحةِ بنايةِ المَحكمةِ ووَجدا هنالكَ العشراتِ من الناسِ مع استمرارِ التَّوافدِ والتجمُّعِ في ساحاتٍ صغيرةٍ خلفَ أسوارِ بنايةِ المَحكمةِ، مثْلَ نبعِ ماءٍ يتجمَّعُ في بِرَكٍ وضيعةٍ!. ما أنْ دقَّتْ السّاعةُ التاسعةَ صباحاً حتى اكتملت الأعدادُ اللازمةُ لشبْهِ يومِ حشْرٍ! في ركْنٍ من أركانِ الأرضِ. ومثْلَ بقيةِ المسئولينَ الحكوميينَ وصلَ القاضي إلى المَحكَمةِ حوالي الحاديةَ عشرةَ مصحوباً بلفيفٍ من المقرَّبينَ والمساعِدينَ. المخالفونَ المتّهمونَ كثُرٌ وكثيرٌ منهُمْ من أحضَرَ معهُ واسطةً أو ينتظرُ قدومَها فيما بعدُ؛ كانت الواسطةُ إمّا تاجرَ جُملةٍ ومفرِّقٍ، ضابطَ شرطةٍ مُخضرماً أو متقاعداً، مديرَ مدرسةٍ، مديرَ فرعِ مصرفٍ ماليٍّ، وحتى أنَّ قسماً من المخالفينَ اصطحبَ "بلطَجِيّاً" لكلِّ منهُمْ في حالِ عدمِ سيرِ الأمورِ كما كانوا يتوقعونَ!. لَمْ يكنْ لحمد أو لأبوالزهو لا واسطةٌ ولا حتى مُحامياً ولا بطيخَاً أصفراً!. كان بابُ الدخولِ إلى بنايةِ المَحكمةِ واسعاً نوعاً ما إلا أنَّ عددَ الناسِ الكبيرِ جَعَلَ الاكتظاظَ والازدحامَ على الدَّوْرِ مرعباً. لا يوجدُ دوْرٌ أو طابورُ انتظارٍ منظّمٍ، بالأصحِّ كان هنالكَ خطٌّ "وهْميٌّ" ضيقٌ قصيرٌ يُمثِّلُ الدَّوْرَ ويتجمَّعُ حولَهُ المئاتُ من الذين لا يفهمونَ معنى كلمةِ دورٍ أو نظامٍ. المعاركُ الجانبيةُ كثيرةٌ وكثيرةٌ كانت المخاطرُ، وشرطةُ المُحافظةِ مثقّلةٌ بقضايا ومشاكلِ حفظِ النظامِ والأمنِ في المدينةِ. لا يقدرُ حمد وأبوالزهو من العودةِ إلى البيتِ والرجوعِ في اليومِ التالي أو الذي يليهِ أو أيِّ يومٍ آخرَ، فهُما يتعاملانِ مع حكومةٍ وكلُّ التحذيراتِ الصّادرةِ من الأهْلِ والأصدقاءِ أنْ لا مَجالَ للّعبِ بالذيلِ، على حدِّ تعبيرِ أحدِهِمْ!. معظمُ من دخلَ قاعةَ المَحكمةِ قبلَهُمْ خرجوا بعدَ قليلٍ من اختفائهِمْ عنَ ناظرِ المنتظرينَ؛ كانت القضايا مَحسومةً سلفاً ويأتي معظَمُ الحسْمِ منَ "الواسطةِ". وما أنْ أتَتْ السّاعةُ الثالثةُ والنصفَ حتى نادى أحدُهُمْ اسْمَيْ أبوالزهو وحمد.

القاضي: هل أنتَ المدعو أبوالزهو؟.

أبوالزهو: نعمْ. وهذا حمد صديقِيَ وتوأمُ روحِيَ، نَحْنُ مع بعضٍ وروحٌ واحدةٌ تقاسَمَها جسدانِ.

القاضي: هل لديكُما مُحامٍ، هل هنالكَ من أحدٍ يعرفكُما، هل تعرفانِ أحداً ذا شأنٍ في المدينةِ أو القريةِ أو الدولةِ .... في الدنيا أو الآخرةِ؟!.

حمد: سندافعُ عن أنفسِنا بأنفسِنا، وما حَكَّ جلدَكَ أحسنَ من ظفرِكَ، واللهُ المستعانُ.
القاضي: أيّها المدعو أبوالزهو!، في يومِ الجمعةِ وقبلَ أسبوعينَ ونيِّفٍ من الآنَ تَحدّيتَ قانونَ الطوارئ المعمولِ بهِ منذُ سَنينَ طويلةٍ في الشارعِ رقم ١٧ جنوبِيَّ المدينةِ خلْفَ أسوارِ المقبرةِ الكبرى السّاعةَ ١١:٤٠ صباحاً.
أبوالزهو: في ذلكَ الوقتِ هاجَمني آدميٌّ بزيٍّ الدولةِ مثلَ الوحشِ الرسْميِّ! ووَضَعَ رأسَهُ برأسِي و هدّدني بالقتلِ مستعيناً ببعضٍ من أصحابه، متذرِّعاً بوجودِ غارةٍ جويةٍ معاديةٍ. لَمْ يكن هنالكَ غارةٌ جويةٌ ولا بطيخاً أصفراً!. كان يكذبُ على أبناءِ المدينةِ ويريدُ أنْ يصدِّقَهُ أبناءُ القريةِ!. دفعْتُ الخطرَ عنّيَ وعن أخِيَ وصديقِيَ، دفعتُ الخطرَ برجلِيَ لأنّهُ لَمْ تكنْ لديَّ وسيلةٌ أخرى غيرَ تلكَ.
القاضي: أين صاحبُ الدعوى؟.
الشابُّ من الكشّافةِ (السّيدُ "عَكّوزي"): سيّدِيَ القاضي! إنَّ هذا الوحشَ المدعوَّ أبوالزهو كانَ يُخالفُ الأوامرَ و"يتبختَرُ" في المشيِ وسطَ الشارعِ أثناءَ الغارةِ الجويةِ مِمّا يُسهِّلُ على الطيّارِ المعادي! كشْفَ الحركةِ داخلَ المدينةِ. ذلكَ ما يُمَكِّنُ الطيّارَ المعادي من استهدافِ البشرِ المُحيطينَ بالمكانِ ومُمتلكاتِهِمْ.
حمد: إنَّهُ لَحرامٌ عليكَ يا ابنَ آدمَ!، لقد كنتُ هناكَ في الموقعِ. ظهرتْ طائرتانِ مثلَ جرّارينِ زراعِيّينِ طائريْنِ في الهواءِ بقدرةِ قادرٍ، حلّقَتا لِثوانٍ واختفَتا إلى غيرِ رجعةٍ، والبقيةُ منْ صنْعِ خيالِكَ وظنونِكَ. ليستْ تلكَ المشكلةَ، المشكلةُ هي أنَّكَ تريدُ من كلِّ المخلوقاتِ من حولكَ أنْ تسيرَ وفقَ حساباتِكَ و"تَهيؤاتِكَ" وخيالاتِكَ.
أبوالزهو: لَمْ يكنْ كاذباً فحسبُ بلْ يريدُ أنْ يستعملَ قوّتَهُ الجسديّةَ لفرضِ قناعتهِ على الآخرينَ، حتى الحيواناتُ لا تقومُ بمثْلِ هذه الأعمالِ.
القاضي: يا أبوالزهو، هل لديكَ تدريبٌ عسكريٌّ للدفاعِ عن النفسِ؟!. أسألُكَ هذا السّؤالَ لأنَّ الضربةَ التي تلقّاها هذا الشابُ بوجههِ يعجزُ حتى السّيدُ "بروسْ لي" عن إيقاعِ مثلِها بخصمهِ في قمّةِ أفلامهِ من مَجموعةِ التنّينِ؛ على الرغمِ من حيازةِ شابِّ الكشّافةِ هذا على الحزامِ الأسودِ في "الجودو" وكذلكَ يتدرَّبُ حالَياً في نادي "التنين الأزرق" في المدينةِ على فنونِ "الكِك بوكْسينج" والمصارعةِ الحرّةِ!.
أبوالزهو: لستُ بحاجةٍ لِمثلِ هذه التدريباتِ البائسةِ التي تتحدَّثُ عنْها. أُعلّمُ الناسَ أسلوبَ الدفاعِ عن النفسِ فيما لو تعرّضوا لِمثلِ تلكَ الأعمالِ التي قامَ بِها ذلكَ الشخصُ البائسُ.
حمد: لدى والدةِ أبوالزهو "راكلي" حزامٌ أسودٌ (دان-٧) في "التايكواندو"؛ إذا ما هاجَمتْ رتلاً من الكشّافةِ من مثلِ السّيدِ "عَكّوزي" لن ينجوَ أحدٌ بعظمهِ من خطرِها.
القاضي (بعدَ مشاوراتٍ وهَمْساتٍ مع أعوانهِ): كَمْ من المالِ دفعتُما من أجلِ الكفالةِ؟.
أبوالزهو وحمد: ثلاثمائةِ (٣٠٠) جنيهاً هي كل ما تَجمَّعَ لدينا من قروضٍ من أهلِ القريةِ!.
القاضي: في الأصلِ! يَجبُ أنْ أحكمَ عليكُما بالسّجنِ المؤبّدِ على الأقلَّ، ولكن بِما أنَّ لديكُما بعضَ النقاطِ المنطقيةِ والمشروعةِ، لذلك قرّرتُ إخلاءَ سبيليْكُما. لقد استخدمَ أبوالزهو القوّةَ المُفرطةَ للدفاعِ عن نفسهِ، قوَّةٌ لا تتناسبُ مع حجمِ الخطرِ الذي كان يتهدّدُهُ. "ياالله مع السّلامةِ"!.

أبوالزهو: أخليْتَ سبيلَنا ولَمْ تُخلِ سبيلَ الكفالةِ!؟. نريدُ منكَ ٣٠٠ جنيهاً.
القاضي: ستُصرفُ هذه الكفالةُ في تعويضِ عنصرِ الكشافةِ السّيدِ "عَكّوزي" حيثُ كُسِرَتْ أسنانُهُ وأنفُهُ؛ يَحتاجُ وجهُهُ الآنَ إلى ترميمٍ وإعادةِ ترتيبٍ!.
حمد: إنَّ عنصرَ الكشّافةِ لَهُوَ المعتدي وكُلُّ تكاليفِ "ترميمِ أو إعادةِ ترميم" وجههِ لا تتجاوزُ الخمسينَ (٥٠) جنيهاً. أين بقيةُ الكفالةِ؟.
أبوالزهو: نريدُ حقوقَنا في مبلغِ الكفالةِ وبدلاً عن أتعابِنا المعنويّةِ والنفسيّةِ وبدلَ أعطالِنا.
القاضي: أصلاً! لا يوجدُ في صندوقِ المُحاسبِ أكثرُ من عشرينَ (٢٠) جنيهاً. لقد ذهبتْ نقودُكُما؛ عليكُما الذهابُ حالاً ولا تناقشانِ بعدَ الآنَ.
حمد: نَحسَبُ حالَنا دفعنا ها دعْماً "للمجهودِ الحربيِّ" عسى أنْ ينصرَكُمْ اللهُ على أعدائِكُمْ!.
خرَجا من قاعةِ المَحكمةِ وكانت لا تزال هنالكَ بعضُ القضايا والتي تولّى القاضي أمْرَها على طريقتهِ الخاصّةِ.
حمد: بيني وبينَكَ يا أبوالزهو!، لقد كنتُ خائفاً أنَّ ذلكَ الشخصَ الذي حطّمتَ وجهَهُ بركلتِكَ لَهُ أنْ يطالِبَنا "بحقِّ عرَبْ" أو بتعويضاتٍ أو حتى بدَلَ تقاعدٍ مبكّرٍ!. يبدو أنّهُ مسكينٌ وحالتُهُ وعائلتُهُ مثلَ حالتِنا ولو كان لَهُ عِزوةٌ لذهبْنا، أنا وأنتَ والوالدُ أبو جاسر والإخوةُ، في خبرِ كانَ.
أبوالزهو: قسماً! كنتُ سأقوَمُ بعملِ نفسِ الركلةِ للقاضي الذي أكَلَ علينا الكفالةَ.
حمد: انتهينا للتوِّ من يومِ حشْرٍ نَجونا فيهِ من "جحيمِ الحكومةِ" بأعجوبةٍ؛ لا نريدُ مشاكلَ أخرى. سوفَ نَجلسُ على عينِ الماءِ في الطريقِ ونغنّي ونطربُ معَ الألْحانِ الأصيلةِ الطيبةِ، ولنتركْ الوالدَ أبو جاسر يَحُلُّ قضيةَ الديونِ المترتبةِ على الكَفالةِ.
على حافّةِ جدولِ الماءِ وبعدَ الاستراحةِ...
أبوالزهو: على باليَ السّماعُ إلى الشيخةِ "أم الفوف".
حمد: .... يا أمي القمرُ على الباب .... ترللم.. نوّرت قناديلُه ... يا أمي أردُّ البابَ؟! ... أمي هل أرد الباب؟... أو هل أنادي له؟! أماه يا أماه.
أبوالزهو: ببصّ (أنظر) من الشباك آه! لمحته قادماً من هناك.. بطلعته الحلوةِ... صبّح علينا وقال... خبّط وقال يا أحباب ..... لَمْ أقدر أنْ أردَّ الباب ... ولا أرد جواب ... أماه يا أماه.
وهنا ظهرتْ على حمد وأبوالزهو فتاةٌ صغيرةُ الحجمِ والعمْرِ والعينيْنِ قصيرةُ الشّعرِ كثيفةُ الحواجبِ طويلةُ اللسانِ!، "سَعْفَة"، بعدَ أنْ سَمِعَتْ صوتَ الغناءِ.
"سَعْفَة": صوتاكُما لطيفانِ جدّاً مع بعضِكُما، ما شاءَ اللهُ!، "وافقَ شنٌّ طبقةَ"!.
أبوالزهو: ما رأيُكِ لو تشاركينَنا بصوتِكِ العذبِ.
"سَعْفَة": يامّا الأمَر (القمر) علباب! نوَّر قناديله!. يامّا أردّ الباب؟! وللا أناديله!.. أناديله يامّا أمّا.
أبوالزهو: صوتُكِ عذبٌ، تليقينَ أنْ تكوني مطربةً وعروساً لِحمد!.
"سَعْفَة": أخرسا فميْكُما.
حمد: أبوالزهو يَمزحُ معكِ!.
"سَعْفَة": وهكذا ظننتُ!.

حمد: يا أبوالزهو!، أريدُ أنْ أريحَ أعصابيَ من عناءِ يوم مَحسوبٍ في التاريخ؛ لستُ ناقصاً مشاكلَ من "سَعْفَة" ولا إخوانِها وأولادَ أعمامِها وأخوالِها وأولادَهُمْ وبقيةَ عشيرتِها. التورُّطُ مع هؤلاءِ أصعبُ بكثيرٍ من مثيلِهِ مع الحكومةِ.
"سَعْفَة": لقد سَمعتُ أنَّ أخاكُمْ جاسر يريدُ الزواجَ، ويشترطُ أنْ يكونَ ذلكَ من إحدى ساحراتِ جَمالِ المنطقةِ اليانعاتِ!.
حمد: كلُّ جَميلاتِ الدولةِ يقبلْنَ بالزواجِ من أخِيَ جاسر وبمصاهرةِ عائلتِنا الكريمةِ المَجيدةِ!؛ لكنَّ الوالدةَ أم جاسر تصرُّ على تغريبِ زواجِهِ حتى لو ذهبتْ بِهِ إلى بلادِ "البنجابِ" أو حتى من قبائلِ "السّيخ" في الهندِ. ولكنْ لا قَلَقاً على منْ بجيبِهِ مالٌ!.
"سَعْفَة": وماذا حَصَلَ بالنسبةِ للكَفالَةِ؟ هلْ استرْدَدْتُماها، كلَّها أو جزءاً منها؟.
أبوالزهو وحمد: ذهبتْ الكفالةُ كلُّها مع الريحِ!....
"سَعْفة": يا لذُلِّكُما!، وكيفَ لأخيكُما جاسر أنْ يتزوّجَ؟!.
أبوالزهو: جاسر هو أخو حمد!، أمّا بالنسبةِ لِيَ فهو مُجرَّدُ صاحبٍ؟!، يعني ذلكَ أنَّ ما بيني وبينَهُ سلامٌ عليكمْ وعليكُمْ السّلامُ، لا أكثرَ ولا أقلَّ!.
"سَعْفة": واللهِ! على الرغْمِ مِن صِغَرِ سنِّيَ لو أقدرُ أنْ أتزوَّجَ من جاسر لنْ أتردَّدَ، حتى لو اعترضَ والدايَ على ذلكَ.
أبوالزهو: مبروكٌ عليكِ!، فعلاً "وافقَ شنٌّ طبقةَ"!.
حمد: يا أبوالزهو توقّفْ عن الاستهزاءِ بأخِيَ الكبيرِ.
أبوالزهو: هل نسيْتَ العملَ الذي قامَ بهِ عليَّ حينَ سلّمني إلى "الحاجّ صُعَيْب" وكانَ ما كانَ؟!.
حمد: لَمْ يفُتْ عليكَ الأمرُ، يُمكنكَ أنْ تصبحَ عريساً وأنتَ على حالِكَ، يكفي العروسَ جَمالُكَ وهيبتُكَ وقيمتُكَ وقدرُكَ وسُمعتُكَ التاريخيةُ.
أبوالزهو: إنّهُ لَعَيْبٌ عليَّ يا صاحبيَ أنْ أغشَّ العروسَ وأخدَعَها!. لستُ مثلَ بني البشرِ الذينَ يكذبونَ ويُلمِّعونَ بضاعَتَهُمْ دقائقَ فقطْ قبلَ بيعِها!.

احترافُ الفنِّ والطربِ

تشكِّلُ سهولُ القريةِ وجبالُها وحقولُها وصخورُها وتلالُها وسفوحُ جبالِها وقلاعُها وصيفُها وشتاؤُها وعيونُ الماءِ فيها، تشكِّلُ كلُّها مستودعاً ضخماً من الجمالِ وآياتِ العذوبةِ والسِّحرِ الطبيعيِّ. تصلحُ هذه كلُّها كمذبتٍ أو مكانٍ لولادةِ الفنونِ والفكرِ المبدعِ والفلسفةِ. ما أنْ تبدأ أنفاسُ راعي المواشي مثلاً بالدخُولِ إلى النايِ حتى تبدأَ الحياةُ تدبُّ في الأعصابِ والأرواحِ ويزدادُ نسيمُ الجبلِ رقّةً على رقّتهِ. كان صوتُ ذلكَ النايِ يُطربُ ما! حوله سواءً في الصّباحِ أو وقتَ الظهيرةِ أو في المساءِ عندَ ميلانِ الشمسِ نَحْوَ المغيبِ مذكِّراً بأغاني الرومانسيةِ والطربِ الأصيلِ والشِّعرِ الرقيقِ من مثْلِ "يا جارةَ الوادي طربتُ وعادَني ما يشْبهُ الأحلامَ من ذكراك، لاَ لا لا لاَ لا لاه ....". سألَ حمد وهو في سنِّ الطفولةِ المبكِّرةِ أحدَ الرعاةِ أنْ يعيرَهُ ناياً لهُ فرفضَ الأخيرُ مِمّا اضطرَّ حمد للبحثِ عن نايٍ في المدينةِ اشتراهُ فيما بعدُ بثلاثِ قروشٍ. كذلكَ كانَ أبوالزهو يُحِبُّ الموسيقى وكانَ يستمعُ لها في الليلِ والنهارِ وأثناءَ العملِ والقيلولةِ، بينَ الأشجارِ وفوقَ الجبالِ وبينَ الصّخورِ.

أصبحتْ الموسيقى وفنُّ الطربِ مُحبّذةً لدى أبوالزهو، لا بلْ جزءاً من كيانهِ وتسري فـي عروقـهِ مـع الـدَّمِ والطاقـةِ الحراريـةِ والروحيـةِ، تسـاعداهُ فـي ذلـكَ أُذنـاهُ الموسيقيتان! وإحساسُهُ المرهفُ وتَجاربُهُ المريرةُ في الحياةِ!.
أبوالزهـو: أريـدُ أنْ أتعلَّـمَ الموسـيقى والغنـاءَ مثلَمـا تعلمتَهُمـا!. هـذه الآلاتُ التـي تستخدمُها سهلٌ عليَّ استعمالُها.
حمد: وعندَكَ تَمَيّزٌ في السّمعِ وإحساسٌ مرهفٌ وقدرةٌ على حِفظِ الأشعارِ وحافزٌ ووقتٌ كافٍ لِمتابعةِ طُموحِكَ المتواضعِ هذا!.
أبوالزهو: لا تستخفَّ بقدراتِيَ السّمعيةِ. عندِيَ قدرةٌ على تَمييزِ صوتِ "سَحْلِ" الأفعى الصّغيرةِ من "سَحْلِ" السّحليّةِ. أستطيعُ التمييزَ بينَ شخيرَيْ الأنثى والذكرِ أثناءَ نومِهما. أتَمَكّنُ من التّمييزِ بينَ مواءِ القطِّ من القِطةِ. عندِيَ قدرةٌ على تَمييزِ نباحِ الكلبِ من أنثاهُ وأولادِهِ وأصدقائهِ، وقِسْ على ذلكَ الأصواتَ الصّادرةَ عن بقيّةِ أنواعِ الخلقِ. أنا الذي أكتشفُ وصولَ موجاتِ الزلازلِ والهزّاتِ الأرضيةِ قبلَ أنْ تقعَ بوقتٍ طويلٍ وقبلَ أنْ يدركَها البشرُ حتى بأجهزتِهِمْ العلميةِ المتقدّمةِ.
حمد: توقعتُ ذلكَ من تصرّفاتِكَ وحركاتِ أذنيْكَ وجسمِكَ. كان يَحلُمُ أقوى المؤلفينَ الموسيقيينَ العالَميينَ من أمثالِ "باخ" و"شتراوس" و"بيتهوفن" وغيرِهِمْ الكثيرُ بأنْ يكونَ عندَهُمْ آذانُ "سَماعيةٌ" من مستوى أذنيْكَ. لا أعرفُ لِماذا لا تُستخدمُ قدراتُكَ الحسيةُ والسّمعيةُ في مَحلِّها في موقعٍ يفيدُ الخَلْقَ من حولِكَ. بدورِيَ سأستعينُ بكَ في ضَبْطِ تنغيمِ أوتارِ العودِ بينَ الحينِ والآخرَ.
أبوالزهو: وبدورِيَ سوفَ أخبرُكَ فيما إذا كان أحدُ الأوتارِ يَحتاجُ إلى "تنغيمٍ" أو ضَبْطِ تنغيمٍ، وبشكلٍ دقيقٍ، عندَ العزفِ عليهِ. كذلكَ أريدُ أنْ أقدِّمَ شيئاً للآخَرينَ؛ شيءٌ يريحُ أرواحَهُمْ ويبعثُ الهدوءَ في نفوسِهِمْ كَما يَحدثُ معِيَ تَماماً عندَما أستمعُ إليكَ.
حمد: لَمْ أفهمْكَ جيداً!، هلْ تريدُ أنْ تصبحَ عازفاً للموسيقى أمْ مُطرباً في ليالي السَّهرِ في خيالِ عشّاقِ الطّربِ وأنْ تتألّقَ في دنيا النجوميةِ الواسعةِ الرحابِ؟!. ومَنْ مِنَ المطربينَ يَحوزُ على إعجابِكَ؟. أنا مثلاً! أحبُّ صوتَ المطربةِ "نور الهدى" والمطربةِ "شهرزاد".
أبوالزهـو: أحـبُّ أنْ أغنّـيَ معكَ، عنـدَما تعـزفُ أُغنّـي. مثلِـيَ مثـلَ بقيّـةِ المغنّـينَ والمطربينَ.
حمد: يا أبوالزهو، قلتُ لكَ هنالكَ فرقٌ بين الغناءِ والطربِ، ليس كلُّ من يغنّي يطربُ. كلُّنا نغنّي المواويلَ ولكنَّ موّالاً من الشيخةِ "صباح" غيرُهُ عن موّالٍ من الشيخ "فخري"!، وهذا غيرُهُ عن موّالٍ قادمٍ من العقلِ الباطنيِّ للشيخِ "صالح عبدالحي" ....
أبوالزهـو: مشكلتِيَ أنّنـي أستحي أنْ أظهرَ علـى حلبـةِ المسرحِ أو الغنـاءِ وأمـامَ الشبابِ والحسناواتِ من هنا وهناكَ. كما تعرفُ أنَّ البشرَ تَهمُّهُمْ المظاهرُ، ويَجبُ أنْ نَجدَ طريقةً حتى لا يطيلَ أحدٌ لسانَهُ علينا ونضطرَّ أنْ ندخلَ في مواجهاتٍ مع الناسِ والشّرطةِ والمَحكمةِ والقاضي وما إلى ذلكَ.
حمد: بالنسبةِ للشكلِ لا يكنْ لكَ أيُّ قلقٍ. شكلُكَ رائعُ الجمالِ الطبيعيِّ، شعرُ رأسِكَ والغرّةُ أصبحتْ من أكثرِ "قصّاتِ" الشّعرِ انتشاراً لكبارِ الفنّانينَ في صالوناتِ الحلاقةِ عبرَ العالَمِ. لو استطاعَ مديرُ معرَضِ سياراتِ المارسيدس بيْعَ عشراتِ

السّياراتِ وتَخصيصِ الربحِ الوفيرِ منها للحصولِ على "شتلَةٍ واحدةٍ" من شعرِكَ ليزرعَها في جلدةِ رأسهِ لَمَا تأخَّرَ دقيقةً واحدةً.
أبوالزهو: أريدُ أنْ يكونَ لونُ وجهِيَ أبيضاً ناصعاً وبدونِ شواربَ، وماذا بشأنِ شَعْرِ الآذانِ والرقبةِ والحواجبِ؟!.
حمد: لا لا لا ... حبيبيَ لا تقلقْ، ولا تَخفْ ولا تَحزنْ. وجهُكَ هذا جَميلٌ جداً هكذا؛ لكنْ إذا ما قرَّرْتَ أنْ تَنساقَ وراءَ الآخرينَ فلا مشكلةَ قطعاً!. الصّالونُ الذي أقصُّ شعرَ رأسِيَ فيهِ كان قد أوفدَ أحدَ الحلاقينَ، السّيدَ "رامِزْ"، للتخصُّصِ في إزالةِ الشَّعرِ الزائدِ وتهذيبِ الشَّعرِ المرغوبِ بالإبقاءِ عليهِ، وهو على وشكِ العودةِ إلى أرضِ الوطنِ على الطائرِ الميمونِ في القريبِ العاجلِ من مدينةِ "لوس أنجليس" الأمريكيةِ. ستصبحُ لديهِ خبرةٌ واسعةٌ في تنظيفِ شعرِ الوجناتِ والأنوفِ والآذانِ والحواجبِ والرِّقابِ. أعرفُ السّيدَ "رامِزْ" جيداً، هو أكبرُ عدوٍّ للشعرِ الزائدِ رأيتُهُ في حياتِيَ؛ وإذا ما زُوِّدَ بجهازٍ مساعدٍ ومناسبٍ فسيصبحُ قادراً على تحويلِ ذُقونِ رجالِ وشبابِ المدينةِ إلى أشبَهَ ما يكونُ "بِجلدِ حذاءِ" مديرِ شرطةِ مرورِ المدينةِ من حيثُ الملمسِ واللمعانِ!.
أبوالزهو: لكنِ ماذا بشأنِ الوقوفِ أمامَ المصدحِ (الميكروفونِ) وحَمْلهِ والركضِ بهِ يَميناً وشِمالاً قفْزاً وهبوطاً. أستحي إذا ما سقطَ المصدحُ منّيَ أو تعطّلَ أو نسيتُ بَعضاً من مقاطعِ الأغاني.
حمد: تلكَ أمورٌ جانبيّةٌ وتفصيلاتٌ تَخصُّ عمّالَ التقنيةِ، كلُّ هذه الأمورِ لا داعيَ لكَ للقلقِ بشأنِها. وأما إذا ما تلعثَمْتَ بأحدِ المقاطعِ فما عليكَ إلا أنْ تُدندِنَ قليلاً حتى تسترجعَ المقاطعَ تلكَ؛ وعندَما ترى الحسناواتِ والشبابَ وأذرعَهُمْ المرسلةَ إليك في الهواءِ ستسترجعُ المقاطعَ السّاقطةَ والمنسيّةَ وستضيفُ إليها من قريحتِكَ الكثيرَ!.
أبوالزهو: وستكونُ معِيَ في جوِّ الأنْسِ والطّربِ والنساءِ من كلِّ حدْبٍ وصوْبٍ في المدينةِ؟.
حمد: عندَما تدخُلُ الفنَّ من أوسعِ أبوابهِ على الإطلاقِ، عليكَ أنْ تكونَ حريصاً في التعاملِ مع النساءِ. عندما ترى فَتاةً جَميلةً إيّاكَ أنْ يُوسوسَ لكَ عقلُكَ بشيءٍ من هذا القَبيلِ أو ذاكَ، هؤلاءِ البناتُ لَهُنَّ أصلٌ وفصلٌ وأهلٌ و"عزوةٌ"، إيّاكَ أنْ تتورّطَ في متاهاتِ العاداتِ والتقاليدِ والأعرافِ. هؤلاءِ الشبابُ والبناتُ قد يأتونَ إليكَ للحصولِ على توقيعٍ منكَ أو طمعاً بقُبلةٍ بريئةٍ يرسُمونَها على إحدى وجنتيْكَ أو كلتيْهما؛ سوفَ يكونُ عندَكَ الكثيرُ من المعجبينَ والمعجباتِ.
أبوالزهو: لا تقلقْ يا صديقِيَ، سأضعُ وصاياكَ مثلَ حلقاتٍ في آذانِيَ وأنفِيَ. كذلكَ لا تَنْسَ فضْلَ أخيكَ جاسر و"الحاجِّ صُعَيْب" عليَّ في ذلكَ!.
حمد: وماذا عن رَيْعِ الحفلاتِ؟. آملُ أنْ تكونَ وضعْتَ نُصْبَ عينيْكَ حالتَنا وحالةَ الأهلِ والبيتِ والأثاثِ وما إلى ذلكَ؛ أعني "لا يَموتُ الذئبُ ولا تَفنى الغنَمُ"!. (مثلٌ شعبيٌّ يدعو إلى التساهلِ والحلِّ الوسطِ عندَ التعاملِ مع شيءٍ أو حدوثِ نزاعٍ أو كارثةٍ أو مشكلةٍ)
أبوالزهو: ومتى سنقيم أوّلَ حفلةٍ لِيَ على خيْرٍ؟!.
حمد: كما تعرفُ أنَّ موعدَ زفافِ وعرْسِ أخَيَ جاسر قد اقتربَ؛ من الممكنِ أنْ نُحيِيَ حفلةً لهُ بِهذهِ المناسبةِ المفرِحةِ.

أبوالزهو: إيّاكَ ثُمَّ إيّاكَ ثُمَّ إيّاكَ أنْ تكرِّرَ القولَ هذا على لسانِكَ. من الممكنِ أنْ أغنِّيَ لعرْسِ كلِّ واحدٍ في العالَمِ إلا عرس أخيكَ جاسر، هذا عدوٌّ لِيَ ما حييتُ!.
حمد: كما تعرفُ أنَّ تكاليفَ الحفلاتِ باهظةٌ ما بينَ حجْزِ لقاعةِ نقابةِ العمّالِ في المدينةِ إلى أجورِ المنظّمينَ إلى تَجهيزِ الديكورِ والحصولِ على إذنٍ من البلديّةِ ووزارةِ الإعلامِ والثقافةِ وتكاليفِ مستحضراتِ تَجميلٍ وتزيينٍ وبدلاتٍ وأجورِ مُخرجينَ ومنفذّينَ ومُساعديهِمْ وغيرَ ذلكَ الكثير. ربَّما أنَّ ريعَ الحفلةِ الغنائيةِ لنْ يكفيَ لتغطيةِ حتى جزءٍ من هذهِ التكاليفِ المعلومةِ مُسبقاً؛ وما خَفِيَ كانَ أعظمَ.
أبوالزهو: أنا متأكّدٌ أنّني سأنْجحُ في الحفلةِ ولكنّني بِتُّ أخافُ من فاتورةِ التكاليفِ هذهِ. إذنْ كيفَ لفنّانينَ من مثلِ "الشيخ كَرُّوم" أنْ يَغْنَوْا ويبنوا بيوتاً من العاجِ من ناتجِ حفلاتِ الغناءِ والطربِ؟!. هل كلُّ هؤلاءِ الذين ذكرْتَ يريدونَ أجوراً؟!. إذن أصبَحَ رزقُنا واقعاً في "ظِلِّ غزالةٍ تسكُنُ البريّةَ"! (مثلٌ شعبيٌّ يدلُّ على العُسْرِ الكبيرِ في الحصولِ على الرزقِ)؛ ورغماً عن ذلكَ لنْ أغنِّيَ بعرسِ جاسر!.
حمد: وحتى تظهرَ أمامَ الناسِ بكاملِ الحيويةِ والنشاطِ وبشكلٍ مقبولٍ لدى الجمهورِ عليكَ أنْ تصرفَ على هندامِكَ وجسمِكَ وراحتِكَ الكثيرَ من الجُنيهاتِ يومِياً.
أبوالزهو: إذن علينا أنْ نسترجعَ الكفالةَ من الحكومةِ!.
حمد: كذلكَ عليكَ أنْ تتفاعلَ مع الواقعِ ولا تبقى في عالَمِ الخيالِ والتهيؤاتِ التي لا أملَ فيها!. أنا وأنت لنبقَ على حالِنا، نُغنّي للطبيعةِ والطبيعةُ تكرمُنا بالسّماعِ لَنا؛ لا يوجدُ لنا غيرُ الطبيعةِ.
أبوالزهو: إذنْ لنغنِّ معاً أغنيةً تطربُ لَها الطبيعةُ السّاحرةُ من حولِنا..... ما رأيُكَ بأغنيةٍ للشيخةِ سميرة توفيق.
حمد: ..... بين الدوالي! في الكرم العالي! .... ما أحلى السهرة ... والبدر يلألئ ... بين الدوالي ... بين الدوالي ..... شبابة بتظرب (تضرب) ... وتدور بدلتها، القهوة الحلوة لا نفوّتها ... بين الدوالي .... بين الدوالي.
أبوالزهو: .... بفيء العريشة ... ما أحلى العيشة ... نرقص ونغني ... ونحن في جنة ... بين الدوالي .... بين الدوالي.
أبو جاسر (يدخلُ غاضباً): أوْقِفا هذا الصّوتَ المزعجَ أيُّها الشقيّانِ. الوقتُ وقتُ قيلولةٍ بينما تتلاهيانِ في الغناءِ والطربِ والفجورِ!.

مأساةُ جاسر أبو جاسر

بَذَلَتْ عائلةُ السّيدِ أبو جاسر جهوداً "ماراثونيّةً" معقّدةً وعديدةً وجبّارةً من أجلِ العثورِ على فتاةٍ ملائمةِ الحالِ والأحوالِ للزواجِ من ابنِهِمُ البكرِ جاسر. من أجلِ ذلكَ استُخدِمَ الدِّينُ والمالُ المقترضُ والجاهُ والسّهرُ الطويلُ والسّيرُ على الأقدامِ مسافاتٍ بعيدةً. كانَ طموحُ العائلةِ المتواضعةِ في كلِّ شيءٍ يتركّزُ على إيجادِ فتاةٍ جَميلةٍ جداً بالدرجةِ الأولى وبنتِ أصلٍ عريقٍ بالدرجةِ الثّانيةِ وذاتِ تربيةٍ أسْريةٍ

مرموقةٍ بالدرجةِ الثالثةِ ومتعلّمةٍ قليلاً بالدرجةِ الرابعةِ تَقَرُّ بِها عيْنا جاسر وأعينُ أهلهِ. بعبارةٍ قصيرةٍ ومبسّطةٍ فإنَّ أفرادَ عائلةِ أبو جاسر كانوا يتحدثونَ عن ملاكٍ خاصٍّ في غابةِ المجتمعِ المنسيِّ. كان يبدو ذلكَ من قبيلِ المهمَّةِ المستحيلةِ بالنسبةِ لعائلةِ أبو جاسر. وَصَلَ الأمرُ في صعوبةِ إيجادِ المطلوبِ إلى حدِّ اليأسِ والتشاؤمِ المُفرطَيْنِ المؤدّيَيْنِ إلى التخلّي عن فكرةِ الزواجِ. أخيراً، وبالحظِّ والصُّدفةِ، تَمَكّنَ أبو جاسر من العَثورِ على فتاةِ أحلامِ جاسر والعائلةِ، ومن مدينةٍ بعيدةٍ بعضَ الشيءِ عن قريةِ ومدينةِ أبو جاسر. وبمساعدةٍ من طرفٍ ثالثٍ صديقٍ تَمَّ الاتفاقُ على الخطبةِ وكتْبِ الكتابِ وكميةِ المَهْرِ حيثُ تُوِّجَتْ الجهودُ والحظوظُ بزواجِ جاسر. كانَ عُرساً مشهوداً لهُ بالبهْجةِ والفَرْحةِ في بيتِ أسرةِ أبو جاسر لكنّهما كانتا مَمزوجتيْنِ ببعضِ التحسُّبِ، من الحاسّةِ السّادسةِ، لِما هو قادمٌ. كانتْ الوالدةُ أم جاسر أقوى السّاعينَ والمتحمسينَ على الإطلاقِ لزواجِ جاسر، "وحلِّ عقدتهِ" على حدِّ تعبيرِ أهلِ القريةِ. ظنَّ الجميعُ من حولهِ أنَّ الأمورَ قد حُلّتْ وأنَّ الأمرَ عندَ جاسر قد استقرَّ نَحْوَ حياةٍ أفضلَ وأسرةٍ سعيدةٍ ونَفْسٍ مستقرَّةٍ مطمئنّةٍ، متفرغةٍ للعباداتِ. لَمْ يبقَ أمامَ تلكَ النفسِ إلا أنْ تعودَ إلى ربِّها بشكلٍ كلّيٍّ راضيةً مرضيةً في طريقِها إلى الجنّةِ الموعودةِ.

في اليومِ التالي فقط لزواجِ جاسر اندلعتْ بل ثارتْ المشاكلُ وبقوّةٍ بينَ عروسِ أو زوجةِ جاسر من جهةٍ وأم جاسر من جهةٍ أخرى. وبدلاً من أنْ يدخلَ جاسر بيتَ الأمانِ والاستقرارِ المنتجِ فقدْ وقعَ بينَ فكَّيْ تِمساحٍ أو لنقلْ بينَ مطرقتيْنِ أو أكثرَ وسندان؛ كانَ السّندانُ طيبةَ قلبهِ وعذريّةَ ضميرِ جاسر وميلهِ العفويِّ نَحْوَ البراءةِ في التّعاملِ مع القضايا الأسْريةِ والاجتماعيةِ، لقد كانَ العريسُ جاسر مَلاكاً يَمشي على اثنتيْنِ. استقطبتْ تلكَ المشاكلُ بعدَها بوقتٍ قصيرٍ أقاربَ طرفَيْ النزاعِ البُركانيِّ المتدفقِ الجديدِ على أسرةِ أبو جاسر. احتارَ أبناءُ أبو جاسر مع من يقفونَ في ذلكَ النوعِ من النزاعِ الجديدِ عليهمْ والذي بدأ يشتدُّ ويَحتدِمُ بشكلٍ غيرَ متوقَّعٍ ولَمْ يكنْ قَطُّ بالحسبانِ من قبلُ!. هلْ يقفونَ مع السّيدِ جاسر وزوجتِهِ العروسِ أوْ معَ والدتِهِمْ أمِ جاسر ضدَّ هذينِ العروسيْنِ الجديديْنِ على حياةِ الزوجيّةِ.

لَمْ تكدْ تَمرُّ دقيقةٌ واحدةٌ هادئةٌ وخاليةٌ منَ المشاكلِ بينَ عائلةِ المسكينِ جاسر من جهةٍ والوالدةِ أم جاسر ومن اتّخذَ جانبَها من جهةٍ أخرى. لأجلِ هذا وذاكَ اضطربَتْ حياةُ جاسر المعيشيةُ كثيراً؛ "انقطعَ رزقُهُ" كما يقولُ التعبيرُ العاميُّ. أصبحَ عملُهُ غيرَ منتظمٍ وغيرَ ذي جدوىً معيشيةٍ. كانَ يسافرُ إلى عملهِ في مطعمٍ في دولةِ نَيْجيريا في القارةِ الأفريقيةِ بضعَ أسابيعَ ليعودَ إلى أهلهِ مُحاولاً حلَّ المشاكلِ الجديدةِ، والتي أصبحَ قسمٌ كبيرٌ منها مستعصياً وحتى غيرَ قابلٍ للحلِّ. لَمْ يكنْ بالمستطاعِ حلُّ تلكَ المشاكلِ لا باللينِ ولا بالقسوةِ؛ على الأصحِّ منْ هو قادرٌ على استخدامِ أيِّ نوعٍ من أنواعِ القسْوةِ أو حتى اللينِ في وجهِ الوالدةِ أم جاسر لتهدئةِ الأمورِ؟!، لنْ يَنجوَ ولو بجِلدهِ من غضبها وإلى ما بعدَ يومِ القيامةِ، ربّما.

وَصَلَتْ الأمورُ إلى الذُروةِ في الصّيفِ التالي عندَما قرّرتْ الوالدةُ أم جاسر نقْلَ القضيةِ إلى المَحكمةِ ومستغلّةً دفءَ الصّيفِ من أجلِ سهولةِ الحركةِ والتنقّلِ، حتى وإنْ اضطرَّها الأمرُ للمبيتِ خارجَ البيتِ في بعضِ الأحيانِ. السّاعةَ السّادسةَ صباحاً من ذاتِ يومٍ في ذلكَ الصّيفِ استدعتْ أم جاسر ابنَها حمد لِمصاحبتِها إلى المدينةِ حيثُ مركزُ الفرسانِ التابعِ لِجهازِ الشرطةِ. يقعُ ذلكَ المركزُ على طَرَفِ

المدينةِ الآخرِ البعيدِ عن جهةِ القريةِ، ويبعدُ مسافةَ حوالَيْ العشرةَ كيلومتراتٍ (حوالَيْ ساعتَيْنِ سعياً) عن القريةِ. في الطريقِ إلى مركزِ الفرسانِ حاولَ عددٌ من القرويّينَ ثَنْيَ أمِ جاسر عن الذهابِ إلى ذلكَ المركزِ لِمعرفةِ بعضِهِمْ وتَجربةِ البعضِ الآخرِ بذلِكَ المركزِ عندَ التورّطِ معهُ في أيّةِ قضيةٍ، سهلةً كانت القضيّةُ أمْ صعبةً... اجتماعيةً كانتْ أمْ إنسانيةً أمْ جنائيةً، طبعاً. باءتْ تلكَ المُحاولاتُ جَميعُها بالفشلِ مصحوبةً بخيبةِ أملٍ لكلِّ من حاولَ استعمالَ جاهَهُ أو وجاهتَهُ أمامَ صلابةِ إصرارِ أمِ جاسر.

يَحتوي مركزُ الفرسانِ على عددٍ لا بأسَ بهِ من العناصرِ الذينَ، كما يبدو، تَمَّ اختيارُهُمْ بناءً على شرطٍ واحدٍ ووحيدٍ بالإضافةِ إلى قدرَتِهم على امتطاءِ الأحصنةِ. ذلكَ الشرطُ، أو تلكَ الصّفةُ الغريزيةُ بالأحرى، هو أنَّ البسمةَ أو الابتسامةَ لَمْ ولا ولن تَجدَ طريقَها إلى شفاهِ أيٍّ منهمْ؛ لا في الليلِ أو النهارِ أو عندَ الأكلِ أو حتى عندَ حصولِ فرحٍ عامٍّ من مثلِ يومِ عيدٍ دينيٍّ أو وطنيٍّ أو قوميٍّ أو عرسٍ. ليس ذلكَ فقط بلْ إنّهمْ يَحتقرونَ ويستحقرونَ من يبتسمُ أو من هو على وشكِ أنْ يبتسمَ. أحقرُ شخصٍ وأكثرُهمْ خِسّةً وربّما نذالةً في الحياةِ عندهمْ هو من لَمْ يقدرْ على تَمالكِ شخصهِ ورجولتهِ ويضحكُ أو يبتسمُ أو حتى تنفرجُ أساريرُهُ!. علمياً تَمَّ تفسيرُ عدمِ وجودِ نزعةِ الابتسامةِ من حياةِ عناصرِ سلاحِ فرسانِ الشرطةِ باختفاءِ "الجينِ الوراثيِّ" الخاصِّ بمشاعرِ السّرورِ والفرحِ عندَهُمْ، إمّا مَفقوداً أو معطّلاً.

وَصَلَتْ الوالدةُ أم جاسر ومن معَها، حمد وأبوالزهو، إلى مركزِ الفرسانِ وتَحدّثتْ مع أحدِ حُرّاسِ المركزِ والذي طلبَ من المَجموعةِ الانتظارَ بفيءِ شجرةٍ على الجانبِ الآخرِ من الشارعِ في مواجهةِ المركزِ. بعدَ حواليْ النصفِ ساعةٍ من حينهِ خرجَ من المركزِ أحدُ الفرسانِ مترجّلاً، وكانَ يَحملُ عصاً رفيعةً طويلةً مصنوعةً من الخَيْزرانِ (تستعملُ لضربِ الخيولِ)، وتبادلَ الحديثَ لعشرةِ دقائقَ تقريباً معَ أم جاسر. اضطرَّ ذلكَ الشرطيُّ لإظهارِ جزءٍ من أسنانهِ مبتسماً بسببِ التشنّجِ الناتجِ عن شدّةِ الاحتقانِ في دِماغِ وخاطرِ الوالدةِ أم جاسر والجوِّ المكفهرِّ العابسِ المصاحبِ للحديثِ معها؛ حالةٌ لَمْ تحدثْ قَطُّ من قبلُ مع أحدِ فرسانِ المركزِ، ربّما. استنتجَ ذلكَ الفارسُ أو وجدَ أنّهُ من العَبَثِ الاستمرارُ في مُحاولةِ إقناعِ أمِ جاسرٍ بالعدولِ عن نقلِ القضيةِ إلى السّلطةِ القضائيةِ. من ضمنِ مُحاولاتهِ الجادّةِ تَهديدُهُ لابنِها جاسر وملوّحاً بعصاهُ أمامَها بأنَّ يومَ جاسر لنْ يكونَ فيهِ إلا النَّحْسُ والشّؤمُ وسوءُ الطالعِ بسببِ إصغائهِ لزوجتهِ وتلاهيهِ عن أمِّهِ، على حدِّ تعبيرِ عنصرِ فرسانِ شرطةِ المُحافظةِ. بعدَ ذهابِ شرطيِّ سلاحِ الفرسانِ بقليلٍ جاءَ شخصٌ آخرُ وأخبرَ أم جاسر ومن معَها بأنَّ عليهِمْ الذهابَ إلى المَحكمةِ المركزيةِ للجناياتِ وَسَطَ المدينةِ.

على حمد والوالدةِ أم جاسر وأبوالزهو أنْ يقطعوا مسافةَ الكيلومتريْنِ تقريباً سيراً وفي طريقٍ مروريٍّ للسياراتِ عادةً ما يكونُ مكتظاً بالمركَباتِ، على اختلافِ أنواعِها وأحجامِها، وبدرجةٍ أقلَّ من البشرِ. ما أنْ ساروا نصفَ المسافةِ تقريباً حتى شعرتْ الوالدةُ أم جاسر بالتَّعَبِ والإعياءِ اللا- عاديّيْنِ بسببِ السّيرِ الطويلِ في طرقاتِ الجَبلِ وشوارعِ المدينةِ في ذلكَ النَّهارِ. على حمد وأبوالزهو مساعدةُ الوالدةِ أم جاسر بِحملِها مسافةَ الكيلومترِ تقريباً حتى تَصلَ إلى مكانِ انعقادِ

المَحكمةِ. بجانبِ أحدِ أعمدةِ الكهرباءِ المنتصبةِ في الشارعِ كان هنالكَ مُكَعَّباً من الخرسانةِ لا يعلو كثيراً عن مستوى الأرضِ. وقفتْ الوالدةُ أم جاسر على مُكَعَّبِ الخرسانةِ قريباً من جهةِ جانبِ أبوالزهو الأيْمنِ. حاولَ حمد مساعدتَها حيثُ وضعَتْ إحدى قدميْها عندَ خاصرةِ أبوالزهو في الوقتِ الذي كانتْ هنالكَ سيّارةٌ مسرعةٌ تُحاولُ الوقوفَ إمّا لتحميلِ راكبٍ أو لتنزيلِ آخرَ بالقربِ من المكانِ. عندَما رآها تأتي مسرعةً حاولَ أبوالزهو تفادي التصادمِ مع سيارةِ ذلكَ السّائقِ الأرعنِ فاندفعَ عدّةَ أقدامٍ إلى الأمامِ تاركاً الوالدةَ أم جاسر تَسقطُ على أرضِ الشّارعِ متدحرجةً. ما أنْ رأى حمد منظرَ والدتِهِ أم جاسر متدحرجةً ومُتَمَرِّغةً في الترابِ أمَامَهُ حتى اندفعَ لِمساعدتِها للوقوفِ ثانيةً على قدميْها وبالتعاونِ مع بعضِ المارّةِ. في نفسِ الوقتِ عادَ أبوالزهو إلى المكانِ بعد أنْ تأكدَّ لهُ! ذهابَ ذلكَ السّائقِ الأحْمقِ بسيارتِهِ بعيداً وأنّهُ لا وجودَ لسائقينَ آخرينَ بنفسِ الدرجةِ من الرعونةِ قريباً من المكانِ.

أم جاسر: لقد عرفتُ الآنَ يا حمد أنّكَ تُحاولُ أنْ تكسرَ عظمِيَ حتى لا أرى في أخيكَ جاسر يوماً لا تغيبُ فيهِ الشمسُ معلَّقاً من رموشهِ بينَ أيدي فرسانِ الشرطةِ. يا خسارةً! على ذلكَ الحليبِ الذي أرضعتُكَ إيّاهُ لِمدّةِ سنتينِ ونصفِ السّنةِ في ظلِّ فقرٍ مدقعٍ لا يرحمُ وهجرانٍ من القريبِ والبعيدِ. يا خسارةً على تعليمٍ فيكَ في المدرسةِ تتغذّى فيه على "زُبْدَةِ" عَمَلِ قلبيَ وقوتٍ من عُروقِيَ.

حمد: يا والدتِيَ لَمْ أدْفَعْكِ إلى الشّارعِ!. إنَّ ذلكَ السّائقَ الأرعنَ، الذي لا يراعي في قيادتهِ لسيارتهِ لا ذوقاً ولا قانوناً، هو المسئولُ.

أبوالزهو: ولولا قيامِيَ بما قُمتُ به لذهبْنا نَحْنُ الثلاثةُ إلى المستشفى. أنا الذي أنقذتُ المَجموعةَ من خطرِ سائقِ سيارةٍ مُتهوّرٍ مع بعضِ الأضرارِ البسيطةِ.

أم جاسر: عسى اللهُ يرضى عليكَ يا ابنِيَ حمد. لا تعرفُ قلبَ الأمِّ كمْ هو قاسٍ عندَ الغضبِ على ابنِها وكمْ ليِّنٌ ذلكَ القلبُ عندما يطيعُها أولادُها. لا أبالغُ إنْ قلتُ لكَ أنّكَ أحسنُ أولادِيَ الذينَ أنْجبتُهُمْ. أريدُ أنْ نسرعَ قليلاً كيْ لا يُقْفِلَ القاضي المَحكمةَ وينجوَ جاسر بجلدِهِ من يومٍ مُخصَّصٍ لهُ قادمٍ من الجحيمِ. يا ربُّ! لِماذا تأتيني بامرأةٍ ثانيةٍ تأخذُ ابنِيَ منّيَ، بعدَ أنْ ربَّيتُهُ وتَعبتُ عليهِ خَمساً وعشرينَ سنةً، وتستعبدُنِي!؟. هل أنا بحاجةٍ إلى استعبادٍ أكثرَ من الذي أنا فيهِ؟!. يا ربُّ أريدُ منكَ يوماً أحْمرَ لا تغيبُ فيهِ الشمسُ في جاسر حتى يعودَ إلى رشدهِ ويفلتَ من قبضةِ زوجتهِ وأنسبائهِ، إنَّكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

حمد: بعدَ المُحاكمةِ يا أمّيَ أريدُ أنْ أسلكَ طريقاً إلى القريةِ في الجبلِ مع أبوالزهو وعليكِ العودةُ بنفسكِ إلى القريةِ بسيارةِ الأجرةِ. لَمْ أعد أطيقُ تَحمُّلَ الحياةِ معكِ.

أم جاسر: هل معنى ذلكَ أنّكَ لنْ تقفَ معِيَ في القضيةِ ضدَّ جاسر؟!. هذه نتيجةُ أنَّ لكَ أباً نذلاً وجباناً من مثلِ أبو جاسر والذي لا يقومُ بما يَجبُ عليهِ القيامُ بهِ كرجلٍ اتّجاهَ ابنهِ وزوجةِ ابنهِ.

أبوالزهو: لا يا أيّتها الوالدةُ أم جاسر! سوفَ نقفُ، أنا وحمد، معكِ في المَحكمةِ ضدَّ ذلكَ الابنِ الأرعنِ الذي يدْعى جاسر.

أم جاسر: أريدُ من كلِّ أولادِيَ أنْ يكونوا مثلَكَ يا أبوالزهو في الطاعةِ والعملِ، هُمْ وزوجاتُهُمْ وأولادُهُمْ. غيرُ معقولٍ أنْ أقضيَ حياتِيَ كلَّها في الحقولِ والبراري تَحْتَ الشمسِ اللاهبةِ وزوجاتُ أولادِيَ نائماتٍ في بيوتِهنَّ كما لو كنَّ بناتِ ملوكٍ!.

في المَحكمةِ كانَ هنالكَ جاسر وبعضٌ من أصحابهِ وأحدُ سكّانِ القريةِ من الذينَ يعملونَ في جهازِ أمْنِ الدّولةِ. كما بدا في ذلكَ الوقتِ فإنَّ جاسر ومن معَهُ قد هُرعوا إلى مركزِ الشرطةِ والمُحافظةِ في مُحاولةٍ كانتْ يائسةً للّحاقِ بأم جاسر قبلَ وصولِها إلى هناكَ، ومعَها حمد وأبوالزهو، لإقناعِها بالعُدولِ عن إيصالِ القضيّةِ إلى المَحكمةِ. لَمْ يكنْ ليَنفعَهُمْ الأمرُ بشيءٍ حتى لو تمكّنوا من اللّحاقِ بِها في الطّريقِ، ذلكَ لأنَّ الوالدةَ أم جاسر لَها إرادةٌ مصنوعةٌ من الحديدِ الصُّلبِ، وعلى جاسر أنْ يدفعَ ثمناً مناسباً لرعونتِهِ ولعصيانِهِ رغباتِ والدتِهِ اتّجاهَ زوجتِهِ، على حدِّ تعبيرِ الوالدةِ أم جاسر. شَمَلتْ تلكَ الرغباتُ الضربَ بالحذاءِ والقدَمِ والعصا والحرمانَ من المأكلِ والملبسِ والطّردَ والتحقيرَ وليسَ مستبعداً إيقاعَ الطلاقِ الفوريِّ اللا-رجعيِّ على زوجةِ جاسر. في المَحكمةِ وأمامَ القاضي كانَ شكلُ جاسر مثلَ الثّعلبِ في قفصٍ وقد بُتِرَ ذَنَبُهُ، على حدِّ تعبيرِ بعضِهِمْ...

القاضي: هل قُمتَ أيُّها المدعو جاسر بالاعتداءِ على والدتِكَ وإخوانِكَ وأخواتِكَ، كما تدّعيهِ أمُّكَ، لإرضاءِ زوجتِكَ وأنسبائِكَ؟!.

جاسر: أنا يا سيّدِيَ القاضي!؟. كيفَ لِيَ أنْ أقومَ بعملٍ كهذا ضدَّ أمّيَ وإخوانِيَ وأخواتِيَ؟!. حتى لو كنتُ قد فقدتُ عقلِيَ وصوابِيَ لَنْ أقومَ بمثلِ هذهِ الأعمالِ.

حمد وأبوالزهو: إنّهُ كذابٌ!... لقد قامَ بمهاجَمةِ والدتِه وإخوتِهِ وأخواتِهِ في كرْمِ الأشجارِ قبلَ يومَيْنِ فقطْ. لقد أحدثَ رضّاتٍ بأجسامِ البعضِ وأسالَ بعضاً من دماءِ البعضِ الآخرِ. لقد أثارَ الفزعَ والرُّعبَ والخوفَ في قلوبِ أسرةِ أبو جاسر كلِّها.

القاضي: أريدُ أنْ أسألَكَ سؤالاً واحداً أيّها المدعو جاسر. هل توجدُ بينَكَ وبينَ أبوالزهو ثاراتٌ شخصيةٌ قديمةٌ أو حديثةٌ؟!. هل علاقتُكُما بعضَكُما ببعضٍ جيدةٌ وتَخلو من الشوائبِ أو الحوادثِ المؤسفةِ؟!. ذلكَ لأنّني سوفَ أعتبرُ شهادةَ أبوالزهو نُقطةَ ارتكازٍ رئيسيّةٍ في إصدارِ الحكمِ عليكَ. ليسَ في مصلحةِ أبوالزهو الكذبُ...

أبوالزهو (يهمسُ لِحمد): إيّاكَ يا صديقِيَ أنْ تذكرَ للقاضي شيئاً عمّا حَصَلَ معِيَ بسببِ جاسر!. يبدو أنَّ جاسر نَفْسَهُ نَسِيَ ذلكَ الفعلَ الشنيعَ الذي قامَ بهِ ضدِّيَ. لكنْ وعلى الرغمِ من ذلكَ لقد قلْتُ الحقيقةَ فقط في هذهِ القضيةِ؛ لا أتّخذُ موقفاً منافياً لضميرِيَ وأخلاقِيَ الرفيعةِ.

جاسر: لا أذكرُ شيئاً خطيراً! حدثَ بينِيَ وبيْنَ أبوالزهو. وفوقَ ذلكَ فإنَّ أبوالزهو عندَنا مثلَ أعزِّ صديقٍ لعائلةِ أبو جاسر كلِّها؛ إنّهُ الوحيدُ الذي يُركنُ إليهِ ويوثقُ بصحبتِهِ في العائلةِ.

أبوالزهو (يهمسُ لِحمد): ها قد مَشَتْ الأمورُ على أحسنَ مِمّا يُرامُ. آنَ الأوانُ لكيْ يدفعَ جاسر ثَمَنَ أخطائهِ وعن طريقِ مطرقةِ سُلطةِ الدولةِ وسِندانِ جهلهِ بأعمالهِ، وسِندانِ مَن حولَهُ!.

القاضي: يا "عَنْبَرْ"! (اسمُ أحدِ فرسانِ الشرطةِ) خذْ جاسر إلى الغرفةِ الأخرى وأعْطِهِ "فَلَقَةً" ملائمةً لكيْ لا يكرِّرَ أخطاءً حَمقاءَ كالتي ارتكبَها بِحقِّ أهلهِ إرضاءً لزوجتِهِ.

أبوالزهو (يتنفسُ الصُّعداء): ... ها قدْ أتتْ اللحظةُ التي انتظرتُها طويلاً كيْ أرى جاسر يتلقّى عقاباً ملائِماً!.

أم جاسر: لا لا لا يا حضرةَ القاضي!. لا تضربوا ابنِيَ جاسر، إنّهُ قُرَّةُ عينِي. لَمْ أتوقَّعْ حدوثَ ذلكَ منكُمْ معهُ. ظننتُ أنَّكُمْ ستضربون زوجتَهُ! ضَرْباً مبْرحاً موجِعاً بدلاً عن ضربِهِ. الآن لا يوجدُ أيُّ شيءٍ غيرَ الخيرِ بينِي وبينَهُ؛ إنّهُ حبيبِيَ وقُرّةُ عينِي.

أبوالزهو: آخ يا صديقِيَ حمد!، لِماذا تتراجعُ الوالدةُ أم جاسر في القضيّةِ الآنَ؟!. ما هذا التخاذلُ غيرُ المُبَرَّرِ أمامَ القاضي والحضور!؟..

القاضي: لا عليْكِ يا حَاجّةَ! أم جاسر، سنستَعِيضُ عن الضَّرْبِ بأنْ يدفعَ جاسر خَمسينَ (٥٠) نيرةً (النيرةُ هي الوحدةُ النقديةُ للعملةِ في دولةِ نَيْجيريا وتساوي حوالَي الدولارِ في حينِهِ) لكِ كغرامةٍ ماليةٍ على فعلتهِ الشنعاءَ تلكَ. كذلكَ تقدَّمْ يا جاسر وقَبِّلْ رأسَ ويدا ووجْهَ والدتِكَ الحنونِ. لَمْ يَرُقْ لأمِّكَ يا جاسر رؤيتَكَ تتعرّضُ لتعذيبٍ من أحدِ فرسانِ شرطةِ الدولةِ؛ إنَّ قلبَها غايةٌ في الطِيبِ والرِقّةِ والحنانِ!.

جاسر: سأفعلُ ذلكَ لوالدتِيَ ولكنْ بالنسبةِ للخمسينَ "نيرةً" نَيْجيريّةً فلا يوجدُ في جيبِيَ سوى ثلاثةِ جنيهاتٍ مَحليّةٍ فقطْ.

أبوالزهو وحمد: يا ظالِماً! مضى عليكَ دهرٌ من الزمانِ تعملُ في بلادِ المالِ والذهبِ الأسودِ ولا يوجدُ في جيبِكَ خمسونَ نيرةً نَيْجيريّةً تدفعُها لإرضاءِ خاطرِ أمِّكَ المكسورِ في المَحكمةِ!؟.

"أبو جاهز" (من رجالِ القريةِ ويعملُ موظّفاً أمنيّاً مع الحكومةِ): أنا الذي سأدفعُ من جيبِيَ عشرينَ جنيهاً إكراماً لِخاطرِ أفرادِ عائلةِ أبو جاسر وعلى الأخصِّ أبوالزهو وحمد؛ يتمتّعُ أبوالزهو بقوّةٍ رهيبةٍ في شخصيتهِ بشهادتهِ في المَحكمةِ من أجلِ إحقاقِ الحقِّ وإقامةِ العدلِ.

أبوالزهو: أيّتها الوالدةُ أم جاسر! لا تَقْبلي أيّةَ جنيهاتٍ أو "نيراتٍ" نيجيريّاتٍ من أيِّ أحدٍ، صديقاً كان أم قريباً أم عدوّاً. سوفَ أعطيكِ إيّاها لاحقاً من دمِيَ وعرقِيَ وجهدِيَ، فقط اصبرِي قليلاً!.

أم جاسر: يا حضرةَ القاضي! إنَّ حالةَ الإفلاسِ التي تسيطرُ على فَلذةِ كبدِيَ جاسر سببُها زوجتُهُ. وإنْ لَمْ تقوموا بعملٍ مناسبٍ لوقفِ هذا التدهورِ في حالتهِ الماديّةِ والنفسيّةِ والمعنويّةِ والجسديّةِ لنْ يَحدثَ في البيتِ والأسرةِ ما يَسرُّ أيَّ فردٍ منها، صغيراً كانَ أم كبيراً. إنَّ البلاءَ قادمٌ من الزوجةِ، ابنِيَ مسكينٌ مثلُهُ مثلَ الحَمَلِ الوديعِ!. كذلكَ فهو ذكيٌّ جداً في جَمْعِ المالِ؛ جَمْعُ المالِ عندَهُ يشبهُ صيدَ الطيورِ والعصافيرِ عندَ صيّادٍ مُحترفٍ.

القاضي: عليكُمْ أنْ تنصرفوا جَميعاً من قاعةِ المَحكمةِ!. ليستْ هذه المَحكمةُ مُلْكاً لعائلتِكُمْ. أظنُّ أنّهُ إذا ما أردنا حلَّ مشاكلِ أم جاسر مع ابنِها جاسر علينا أنْ نوقفَ التعاملَ، ولأجلٍ غيرِ مسمّى، مع كافّةِ القضايا الأخرى في المدينةِ؛ وربَّما يَمتدُّ الأمرُ عينُهُ كذلكَ إلى عَمَلِ مَحاكمِ العاصمةِ والمدنِ الأخرى في الدولةِ كلِّها.

عندَ العودةِ إلى القريةِ ذَهَبَ كلٌّ في طريقٍ إلى بيتهِ البعيدِ وبدأتْ حربٌ جديدةٌ من نوعٍ جديدٍ لَمْ يبقَ أحدٌ في المنطقةِ تقريباً إلا وتدَخَّلَ فيها. في تلكَ "الحربِ" كان هُنالكَ نصيبٌ من تدَخُّلِ السَّحَرَةِ والمُنَجِّمين بالإضافةِ إلى الذين لَهُمْ علاقاتٌ متميزةٌ مع الجنِّ والملائكةِ ومن مُختلفِ الأعمارِ ومن الجنسينِ. كذلكَ اشتركَ في حلِّ تلكَ المشاكلِ أناسٌ متمرسونَ في علمِ اللاهوتِ وعلمِ النفسِ المتخصِّصِ في حالاتٍ عقيمةِ الحلولِ. بَذَلَ أبو جاسر ومن حولَهُ جُهداً وفِكَراً ومالاً

لا بأسَ على كلٍّ منها قبْلَ أنْ تَخفَّ قليلاً حدّةُ نيرانِ الحربِ وبعدَ زمنٍ طويلٍ بينَ أم جاسر، ومن سارَ في فلكِها، وبينَ المسكينِ جاسر.

البابا كا

مثلَ الأخطبوطِ العملاقِ المتوحشِ في السّيطرةِ على الضّحيةِ كان حالُ مَحطّاتِ البثِّ التابعةِ لِما يُسمى "هيئةِ البثِّ الإذاعيِّ لِما وراءَ البحارِ واليابسةِ والمُحيطاتِ" (باء باء كاف واختصاراً "البابا كا"). في الوقتِ الذي يَتحدّثُ فيهِ الناسُ عن إمبراطوريةٍ استعماريةٍ كبيرةٍ ومُمتدّةٍ وقد بدأتْ تتقلّصُ وتنحسرُ إلى مناطقَ مَحدودةِ المساحةِ جداً؛ فإن إمبراطوريةَ "البابا كا" استمرّتْ ونَمتْ وكانت تزيدُ يوماً بعدَ يومٍ لتحلَّ مَحلَّ الاستعمارِ العسكريِّ المباشرِ ولكنْ عن بعْدٍ أو استعمارٍ بالمذياعِ أو استعمارٍ ثقافيٍّ، وقد صَحَّتْ التعبيراتُ هذهِ. استغلَّ مديرو البثِّ في "البَابا كا" حَالةَ الجهلِ أو الضعفِ أو التّخلّفِ السّياسيِّ المطبقِ عندَ شعوبِ الدولِ التي كانت تُمنحُ الاستقلالُ! وحالةَ ارتفاعِ مستوى الأميّةِ والتي كانت تصلُ في حالاتٍ إلى أكثرَ من تسعينَ (٩٠) بالمائةِ، استغلّوا هذه وتلكَ من أجْلِ تأمينِ سيطرةٍ إعلاميّةٍ شبهِ مطلقةٍ على عقولِ هؤلاءِ الضّحايا من الخَلقِ.

تَحتوي هذهِ المؤسّسةُ على مَنْ هُمْ من خيرةِ الأفرادِ في حُسْنِ الأداءِ الصّوتيِّ وخبراءَ في التحليلِ الإخباريِّ والسّياسيِّ والإعلاميِّ والنفسيِّ والعلاقاتِ العامةِ مِمّن يسهمونَ في خدمةِ وتعميقِ ونشْرِ السِّياسةِ الاستعماريّةِ والتبعيّةِ للمستعمرِ الراحلِ الباقي بطريقةٍ غيْرِ مباشَرةٍ وغايةٍ في المكْرِ والذكاءِ والخداعِ. الطريقةُ والمشكلةُ أنَّ هذه الهيئةَ قادرةٌ على بثِّ السُّمِ بالعسلِ بكلِّ لغاتِ الأرضِ قاطبةً تقريباً وخاصةً الرئيسيةِ منها. كانت هنالكَ ساعاتٌ مَحدودةٌ للبثِّ باللغةِ الإقليميةِ تتبعُها ساعاتٌ أطولُ من البثِّ باللغةِ الأجنبيةِ. كانَ معظمُ البالغينَ سناً ورشداً وعقلاً، حسبَ المفترضِ!، ينتظرونَ نشراتِ الأخبارِ من البابا كا انتظارَ الأمِّ أخبارَ ابنها المسافرِ أو المهاجرِ. استغلّتْ البابا كا حالةَ الضعفِ الإعلاميِّ للكياناتِ المنشأةِ بعدَ خروجِ الاستعمارِ منها لتواصلَ بثَّ سياستِها في الإعلامِ الموجَّهِ إلى تلكَ الشعوبِ. لِهذهِ الأسبابِ وَغيرِها الكثيرُ أصبحَ لِ"البابا كا" سفيرٌ إعلاميٌّ (ثعلبٌ آليٌّ) في كلِّ بيتٍ اقتنى مذياعاً تقريباً. قديماً كان حجمُ ذلكَ السّفيرِ الإعلاميِّ (المذياعُ) كبيراً بشكلٍ ملفتٍ للنّظرِ ويَحتلُّ مكانَ الصَّدارةِ في البيتِ.

كأحدِ الأمثلةِ البسيطةِ فإنَّ البابا كا تنشرُ خبَراً عن معركةٍ بريةٍ-جويةٍ بينَ قوّاتِنا و"قواتِ العدوِّ". يَمتلكُ العدوُّ من القوّةِ الجويّةِ ما يُمَكِّنُهُ من إحداثِ سيطرةٍ مطلقةٍ في الجوِّ وعلى الأرضِ وعلى كافّةِ الجبهاتِ بسببِ الدعمِ الاستعماريِّ السّخيِّ جدّاً لهُ. تعلنُ البابا كا أنَّ اشتباكاً عنيفاً وقَعَ بينَ الدفاعاتِ الجويةِ الأرضيةِ المَحليةِ وطائراتٍ معاديةٍ ولِمدّةٍ قد تصلُ إلى أربعينَ (٤٠) دقيقةٍ "اضطُرَّتْ" الطائراتُ المعاديةُ لِلهربِ تَحْتَ تأثيرِ "المضاداتِ" الأرضيّةِ والتي "تعاملتْ" مع الطيرانِ المعادي طيلةَ فترةِ الاشتباكِ. كما لو كانَ الطيّارونَ سيبنونَ بيوتاً أو خِيَماً في

الفضاءِ لولا المضاداتُ الأرضيةُ!، أو حتى أنّها تذهبُ إلى القولِ بأنّ إحدى الطائراتِ "شوهدتْ" تَهوي والنيرانُ تندلعُ فيها. لا يوجدُ في المنطقةِ المُحاذيةِ لخطوطِ الجبهةِ من رأى طيلةَ عقودٍ من الحربِ طائرةً واحدةً تسقطُ بفعلِ النيرانِ الأرضيّةِ أو غيرها. المهمُّ لدى الخبيرِ الأجنبيِّ أو التابعِ لهُ هو الإبقاءُ على ذلكَ المستمعِ المسكينِ ضحيّةً متواصلةً لتلكَ المؤسّسةِ الإعلاميّةِ الشديدةِ في المكرِ والزيفِ والخداعِ المقنَّعِ والمقنعِ في آنٍ واحدٍ. بفعلِ تلكَ الطريقةِ الماكرةِ فإنَ تصديقاً وطاعةً عمياءَ عارمةً تسودُ الناسَ المضللينَ، بكلِّ معنى الكلمةِ، لِمثلِ تلكَ الخُزعبلاتِ المبثوثةِ على أمواجِ الأثيرِ.

دَخَلَ أبو جاسر ذاتَ يوم على حمد وأبوالزهو حيثُ كانا يستمعانِ إلى الباباكا عندَ السّاعةِ الثالثةِ تقريباً بالتوقيتِ المَحليِّ. كان يتخللُ الاستماعَ نقاشٌ حادٌّ! بين حمد وأبوالزهو بسببِ الأخبارِ المبثوثةِ. كانَ النّهارُ حاراً نوعاً ما وكان الاثنانِ في فترةِ قيلولةٍ من العملِ.

أبو جاسر: لا أعرفُ لِماذا اللهُ سبحانَهُ وتعالى، ابتلاني بكُما أنتما الاثنانِ معاً؛ دائماً تَحملانِ المذياعَ وتستمعانِ إلى الأخبارِ، "لا شغلةً ولا عَمْلَةً"، سوفَ أكسرُ المذياعَ على رأسِكَ يا حمد يوماً ما وأرتاحُ منكَ ومن المذياعِ!.

حمد وأبوالزهو: نستمعُ إلى أخبارِ اليوم من الباباكا؛ يقولونَ أنَّ المبعوثَ الدوليَّ سيزورُ المنطقةَ في مُحاولةٍ لتهدئةِ الوضعِ المتفجرِ ووقفِ التصعيدِ الحاصلِ على الجبهةِ، ويُحَمِّل ذلكَ المبعوثُ الدّوليُّ العَدوَّ مسؤوليةَ التصعيدِ!. ويقولُ المذياعُ أيضاً بأنَّ الحربَ أضحتْ قابَ قوسَيْنِ أو أدنى؛ يا ريت!.

أبو جاسر: واللهِ! هذه الباباكا سببُ مصائبِ العالَمِ. صَدَقَ السّيدُ "كهاندي"! (غاندي) عندَما قالَ أنّهُ حتى "لو أنَّ سَمكتيْنِ في البحرِ، وفي حالتِكُما لو أنَّ حِمارَيْنِ! على اليابسةِ اختلفا مع بعضيْهما، تقاتَلَتا يُتوقَعُ أنْ تكونَ الباباكا وراءَ ذلكَ الحادثِ"!.

حمد: هلْ معقولٌ! أنَّ كلَّ هذا العالَمِ واقعٌ تَحْتَ تأثيرِ خَمسينَ (٥٠) مليونِ شخصٍ فقط، يا رَجُلاً خافْ ربَّكَ!.

أبوالزهو: كلُّ واحدٍ لهُ عقلٌ وعساهُ أنْ يستخدمَهُ جيّداً في تَحليلِ الخبرِ.

أبو جاسر: يا أولاداً! يا حَميراً! يا جَهَلَةً!، هذه الدولةُ تسيطرُ على العالَمِ عسكرياً وسياسياً وثقافياً وإعلامياً. حتى نَحْنُ هنا نعرفُ ما يَجري على بعدِ أقلَّ من كيلومترينِ اثنينِ من خطوطِ الجبهةِ عن طريقِ الاستماعِ إلى الباباكا.

أثناءَ النّقاشِ، أعلنَ "نيكولا الخطابي"- مذيعٌ مُخضرمٌ في الباباكا- عن ورودِ خبرٍ عاجلٍ من المنطقةِ يفيدُ بأنَّ قوّةَ "كوماندوز" كبيرةً معاديةً اخترقتْ الحدودَ ودمَّرت عدداً كبيراً من المنازلِ (٧٠% من منازلِ قريةٍ تقعُ قربَ الحدودِ مع العدوِّ) وقتلتْ وجرحتْ العشراتِ من الرجالِ والأطفالِ والنساءِ والشيوخِ. أضافَ المذيعُ نيكولا أنَّ تلكَ القوّةَ المعتديةَ واجهتْ مقاومةً عنيفةً من الجنودِ المدافعينَ عن القريةِ الذين ردّوا العدوَّ على أعقابِهِ، وشوهدتْ آثارُ الدّماءِ خلْفَ الجنودِ المنسحبينَ؛ ويضيفُ أيضاً أنَّ هنالكَ أنباءً عن وقوعِ أسرى للعدوِّ!. مثْلُ تلكَ النمطيةِ المتّبعةِ في سردِ الأخبارِ تُبقي لدى طرفِنا أملاً ورجاءً في استمرارِ التوتّرِ والحربِ؛ بقايا دماءٍ لِجنودِ العَدوِّ وأنباءٌ غيرُ مؤكّدةٍ عن وقوعِ أسرى ومقاومةً عنيفةً للقوّةِ المهاجِمةِ؟!.

حمد: يا والديَ! إنَّ هذهِ المَحطّةَ مُحايدةٌ، يأتونَ بالأخبارِ عن الطرفيْنِ. يتمتَّعُ مراسلُ الباباكا بِحُريةٍ حركةٍ كاملةٍ بل مطلقةٍ؛ يزورِ الجبهةَ قبلَ وإبانَ وبعدَ الاشتباكِ ويقدّمُ تقريرَهُ عمّا حصلَ أو يَحصلُ أو ما يتوقَّعُهُ أنْ يَحصلَ في ظاهرةٍ إعلاميّةٍ جديدةٍ ومبتكرةٍ، تسمّى "الخبرُ قبلَ وقوعِ الحادثِ"!. إنَّهُمْ عباقرةُ إعلام؛ لقد وصلَ الأجانبُ إلى مرحلةٍ متقدّمةٍ في كلِّ شيءٍ ولا نزالُ نغرقُ في الفوضى والجهلِ والتأخّرِ. آنَ الأوانُ لنعرفَ الحقيقةَ ومن مصادرِها الغرّاءَ!.

سرحانَ (أخو حمد) وأبوالزهو: آهٍ لو يقعُ بينَ يديَّ أحدُ الأسرى، سأقطِّعُهُ إرباً إرباً، ولنْ يعودَ إلى أهلِهِ حياً.

حمد: لا لا.... تَجِبُ معاملةُ الأسرى! بالحسنى .....

أبو جاسر: مثلُ هذه الأخبارِ ومثلُ هذا الإعلامِ ومثلُ هذه الثقافةِ تُبقي على دوّامةِ العنفِ والحربِ والدّمارِ مستَمرَّةً في التهامِ الأخضرِ واليابسِ.

حمد: لكنْ! يوجدُ هنالكَ لَنا قضيةٌ مركزيةٌ وحقٌّ مسلوبٌ، وظلمٌ حاصلٌ....

أبو جاسر: ومن هو المسئولُ عن ذلكَ؟.

حمد: هل تريدُ أنْ تعودَ وتقولَ لِيَ "وعدَ بلفور" من جديدٍ؟!... وعدُ بلفور عبارةٌ عن رسالةٍ من عدّةِ سطورٍ تَعِدُ أناساً من الخارجِ بوطنٍ قوميٍّ هنا على أرْضِ الآباءِ والأجدادِ. ولا تنسَ أنَّ هنالكَ، وفي نفسِ الرسالةِ، دعوةً واضحةً للمحافظةِ على حقوقِ الأقلياتِ العرقيةِ!. هل تريدُ أنْ تأخذَ بشقٍّ واحدٍ من الرسالةِ وتتركَ الشقَّ الآخرَ؟!.

أبوالزهو: وأين حقوقُ الأكثريةِ في هذه الرسالةِ المشئومةِ؟.

أبو جاسر: اسألْ السّيدَ الفهمانَ حمد؛ أنا متأكّدٌ أنّهُ يوجدُ عندَكَ عقلٌ أكثرَ منهُ!.

حمد: لا تفهمونِ غلطاً! أرجوكُمْ. بهذهِ الرسالةِ غموضٌ كبيرٌ من الأساسِ.

أبو جاسر: للّذي عندَهُ أدنى فَهْمٍ أو معرفةٍ للتاريخِ، فإنَّ هذهِ الرسائلَ ومَثَلَها الكثيرَ هي لذَرِّ الرّمادِ في العيونِ، ولِخَلْقِ حالةٍ من الجدَلِ والانقسامِ الداخليِّ ليتلاهى الناسُ عن حقيقةِ ما يَجري.

حمد: يا أخِيَ! أنا موافقٌ معكَ؛ ما ذنبُ الباباكا؟!. إنَّها هيئةٌ مستقلةٌ ومعظمُ العاملينَ فيها من نفسِ "طينةِ" وجلدةِ تلكَ الشعوبِ؛ هل من المعقولِ أنّهُ مثلاً! هنالكَ مذيعٌ عربيٌّ يكذبُ علينا أو يقفُ ضدَّنا أو حتى لا ينتصرُ لنا في أيِّ موقفٍ يَحتاجُ منهُ إلى ذلكَ!.

أبو جاسر: هذا المذيعُ وذاكَ المترجمُ وغيرُهُمْ حريصونَ على البقاءِ في وظائفِهِمْ وفي تلكَ البلادِ. هل تريدُ منهُمْ أنْ يتركوا وظائفهم ويعودوا إلى بلادهِمْ الفقيرةِ والتي أصلاً هربوا منها ولَجَئوا إلى هناكَ بكلِّ ما يَملكونَ بعدَ أنْ باعوا الأرضَ والبيْتَ والأهْلَ والأصدقاءَ والشّجرَ والحجَرَ؟!.

أبوالزهو: إذا ما كانَ لديهِمْ من كرامةٍ وطنيةٍ وأخلاقيّةٍ، حتى لو أكلوا خُبزَ الشعيرِ والذّرةِ مع حبّةِ تَمْرٍ وحَبّتَيْ زيتونِ "جرجير" ("جرجير" هنا تعني حبّةَ الزيتونِ المصابةِ بمرضٍ من ذبابةِ الزيتونِ).

أبو جاسر: عندما تقولُ كرامةً وشخصاً عندهُ شرفٌ وكرامةٌ وأمانةٌ، كأنّما تبحثُ عن عُصفورٍ في صَحارى مترامية الأطرافِ قاحلةٍ تَخلو من نبعِ ماءٍ واحدٍ. كلُّ واحدٍ يهتَمُّ بِمصلحَتهِ فقط، خاصّةً عندَما يصِلونَ إلى بلادِ الغربةِ!.

حمد: يا والدِيَ! ليستْ الصّورةُ قاتِمةً لِهذه الدرجةِ المثيرةِ فقط للتشاؤم. مثلَما نريدُ أنْ نعيشَ كذلكَ غيرُنا يريدُ أنْ يعيشَ. فوقَ ذلكَ أنا متفائلٌ "جداً" بالاستماع وحتى تعلّم لغةٍ جديدةٍ من البابكا علَّ ذلكَ يساعدُنا على تَحسينِ وضعِنا وخَلْقِ مستقبلٍ لنا أكثرَ إشراقاً!.

أبوالزهو: نسيتَ أنْ تقولَ أنَّنا نريدُ أنْ نعيشَ رافعي الرؤوسِ والهاماتِ!.

أبو جاسر: منذ الأعوام ١٩١٦ و ١٩١٧ و ١٩١٨ (اتفاقية سايكس-بيكو السّريةُ ثمَّ وعدُ اللوردِ بلفور العلنيِّ!) وحتى قبلَ ذلكَ، وكانَ لديَّ من العمرِ إحدى عشرةَ (١١) سنةً أستمعُ إلى البابكا. هل تفكّرانِ أنَّ البابكا بنتَ يومِها؟!. قُولا لِيَ! ماذا استفدْنا منها غيرَ تقسيمِ وضياعِ الأوطانِ. لو أنَّهم يريدونَ الخيْرَ لنا وللبشرِ لَما سَعَوْا ليلاً نَهاراً للقضاءِ على وجودِنا هَنا، والبابكا هي الذراعُ الأيمنُ للسياسةِ الاستعماريةِ التي تُحاولُ الهيمنةَ على كلِّ شيءٍ.

أبوالزهو: هل يعني ذلكَ أنَّ كلَّ ما سَمعناهُ ونَسمعُهُ من البابكا كذِبٌ وهراءٌ ومادّةٌ إعلاميّةٌ للدّهماءِ من البشرِ وسُمومٌ في العسلِ وفي قوالبِ حلوى إعلاميةٍ طيبةِ المذاقِ على لسانِ الخلْقِ؟!.

أبو جاسر: صدقْتَ وعافيةٌ عليكَ وأحسنتَ، هذا خيرُ ما يُمكنُ أنْ يقالَ في البابكا.

حمد: بصراحةٍ! لا أثِقُ إلا بالإذاعيِّ "نيكولا الخطابي" والإذاعيّةِ "آمنة المطقعجي". يا لَعذوبةِ الصّوتِ ورنّتهِ عندَ كلٍّ منهُما ويا لَروعةِ تسلسلِ الأفكارِ ونزاهةِ وموضوعيةِ الأخبارِ!. سوف أستمرُّ في سَماعِ البابكا بالعربيِّ والإفرنجيِّ كذلكَ!!.

أبوالزهو: نستمعُ إلى البابكا ونصدِّقُ ما يُمكنُنا تصديقُهُ ولا نقبلُ بالجزءِ الكاذبِ. كلُّ واحدٍ عندَهُ عقلٌ فليستخدمْهُ في تَحليلِ الخبرِ!.

أبو جاسر: بذلكَ فإنَّهُ يَجبُ على الواحدِ منكُما أنْ يبقى متيقظاً أربعاً وعشرينَ (٢٤) ساعةً يومياً وعلى مدى السّنةِ بأكملِها وطوالَ العمرِ كاملاً!.

حمد: وهذا تَمرينٌ لإعمالِ الفكرِ والحاسّةِ السّادسةِ متواصلٌ ضروريٌّ ومفيدٌ للدماغِ والأعصابِ كيْ تبقى بكاملِ حيويّتِها طوالَ العمرِ!.

أبوالزهو: أثناءَ بيعِ الخضارِ واللّبنِ نظلُّ نَحملُ جهازَ المذياعِ، نبحثُ عن الرزقِ في أزقّةِ المدينةِ ونستمعُ إلى أخبارِ البابكا!.

حمد: ليست تلكَ فقطْ أخباراً، هي مَجموعةٌ من البرامجِ المُختارةِ بعنايةٍ، حتى أنّها تشملُ مقطوعاتٍ موسيقيةً وأغانيَ!.

أبو جاسر: أنا خائفٌ على أبوالزهو منكَ يا حمد، لأنّهُ كلَّما صحَّ عقلُهُ قليلاً وأرادَ أنْ يعودَ إلى جادةِ الصّوابِ أراكَ تأتيهِ بفكرةٍ خبيثةٍ التقطتها من البابكا.

حمد: أخِيَ سرحان ما رأيُكَ لو تناولْتَنِيَ النايَ، أريدُ أنْ استرخيَ أعصابيَ قليلاً!.

أبوالزهو و"زولالة": عيبٌ عليكَ، لقد أزعجتَ الوالدَ أبو جاسر بأفكارِكَ، عليكَ أنْ تطلبَ منهُ المعذرةَ.

حمد: نَحْنُ دائماً في صراعٍ بدأَ منذُ الولادةِ وينتهي يومَ الوفاةِ فقط. إذا ما أردتُ الاعتذارَ عن أخطاءٍ أو ما تَسمّونَها أخطاءَ! للوالدِ أبو جاسر فما علينا إلا أنْ نَفتحَ ديواناً خاصّاً لتدويلِ الأخطاءِ المرتكبةِ أو المَحسوبةِ هكذا والأخطاءِ التي في طريقِها...

أبوالزهو: هذا من أفظع الكلام الذي من الممكن أنْ أسمَعَهُ من ولدٍ بحقِّ والدٍ، يا صاحبيَ ألا توجدُ عندَكَ أخلاقٌ وأدبٌ؟!. أو أنَّ هذا كانَ نتيجةَ استماعِكَ المُفرطِ للباباكا!.

حمد: أستحي أنْ أعتذرَ للوالدِ أبو جاسر وجهاً لوجهٍ لأنّهُ من الممكنِ أنْ يَحسبَها نقطةً لصالحِهِ علينا!. اذهبْ واعتذرْ لهُ بالنيابةِ عنّيَ، أنا متأكّدٌ أنّهُ سيَقبلُ الاعتذارَ منكَ أكثرَ لأنّهُ يعتبرُكَ خيراً لهُ من كافّةِ أولادهِ الذين أنْجبَهُمْ والذين هُمْ على الطريقِ إنْ تبَقّى من يأتي منهم أحدٌ!.

أبوالزهو: سأفعلُ ذلكَ عندَما تَهدأُ أعصابُهُ ويكونُ في وضعِ استرخاءٍ عصبيٍّ. لكنْ الآنَ يا صديقِيَ ماذا تريدُ أنْ تعزفَ لنا وعلى العودِ!. أشعرُ بالحزنِ قليلاً على حالِنا...!.

حمد: أموتُ في صوتِ الشيخ عبدالوهاب ..... يا وبور (قطارُ الركابِ) قل لي رائح إلى أين؟... يا وبور قل لي وسافرت من أين؟... يا وبور قل لي.

أبوالزهو: للا للا للا للا إزا (إذا) طال الوأت (الوقت) على الركاب.. يجري كلام كبير وعتاب... بعد شوية (قليل) يبقوا أحباب! .... وذا يعرف ذاك رائح إلى أين.

من فكْرِ وتَجربةِ أبو جاسرٍ فلقد كانَ وضعُ المنطقةِ السّياسيِّ مع الكثيرِ من وسائلِ الإعلامِ المُسيّرةِ في ذلكَ الزّمانِ وعلى رأسِها الباباكا مثْلَ وضْعِ صيّادٍ مدجّجٍ (العدوُّ) حتىَ أسنانهِ بالسّلاحِ في غابةٍ، تحاولُ تلكَ الوسائلُ الإعلاميّةُ توجيهَ "الطّريداتِ" (الدولُ والشعوبُ المحيطةُ) إلى مكانهِ. في كلِّ مرّةٍ يرغبُ ذلكَ العدوُّ بالتوسُّعِ والتمدُّدِ تكونُ تلكَ "الطريداتُ" جاهزاتٍ بل مُجهّزاتٍ نفسياً ومعنويّاً وروحيّاً، ومسرحيّاً لذلكَ الفصلِ.

الوضعُ قبلَ الحربِ

قبلَ انطلاقِ الشرارةِ الأولى للحربِ بسنةٍ تقريباً بدأت السّلطاتُ بتحضيرِ الناسِ نفسياً ومعنوياً لِهذهِ الحربِ شديدةِ المكرِ والخُبثِ والتآمر. كان الناسُ يترقبونَ الحربَ بفارغِ الصّبرِ حيثُ الإعلامُ المَحليُّ والإقليميُّ يصوّرُ الحربَ للناسِ بأنّها أقلُّ صعوبةً حتىَ من نزهةٍ، يستسلمُ فيها الطرفُ الآخرُ (العدوُّ) أو يُقتلُ أو يولّي الأدبارَ تاركاً المَجالَ لاستعادةِ الحقوقِ المغتصبةِ كاملةً غيرَ منقوصةٍ!، ولو حتى بشبْرٍ واحدٍ من الأرضِ. كيفَ لا!؟ وهنالِكَ أكثرَ من مئةِ مليونٍ من البشرِ

يواجهون أقلَّ من ثلاثةِ ملايينَ من العدوّ على ضعفِ أجسادِهِمْ وأرواحِهِمْ المعنويّةِ؛ أخيراً يَجِبُ أنْ ينتصرَ الحقُّ على الباطلِ. هكذا كانتْ نظرةُ الناسِ إلى الحربِ المتوقّعةِ الحدوثِ، استرسالٌ في التبسيطِ والسّذاجةِ ونقصٍ خطيرٍ جداً في المعلوماتِ عن الطرفِ الآخرِ وحتى تَجاهلٍ أحْمقَ لِحقائقَ لا تَخفَى على عينٍ غافلٍ أو مُطّلعٍ. كان هنالكَ أحدُ الزّعماءِ الكبارِ (الأكبرُ والأوحدُ) إذا ما قالَ شيئاً يَخرُّ لهُ معظمُ أفرادِ الشعبِ ساجدينَ. دخلَ هذا الزعيمُ إلى عقولِ وقلوبِ الناسِ عن طريقِ تبنّي القضيّةِ المركزيّةِ بل صارَ محورَها الرئيسَ. في معظمِ خطاباتهِ الإذاعيةِ ومنْ بعْدُ المرئيةِ كان الناسُ يلتفّونَ، للسماعِ إليهِ، حولَ أجهزةِ المذياعِ والتلفازِ التفافَ الفقراءِ المعدَمينَ الجائعينَ الصّائمينَ حوْلَ موائدِ الإفطارِ العامّةِ المقامةِ لَهُمْ من الموسرينَ من حولِهِمْ. أصبحتْ خطاباتُهُ وأقوالُهُ الشُّغلَ الشاغِلَ لكافّةِ فئاتِ البشرِ تقريباً. قبلَ الحربِ بسنينٍ قامَ بأعمالٍ وطنيّةٍ وقوميةٍ لِخدمةِ بلدهِ وشعبهِ وأمّتهِ، أتبعَها بحربٍ لا هوادةَ فيها ضدَّ مَجموعاتٍ عقائديةٍ وحروبٍ أخرى في الخارجِ. حققَ قدْراً كبيراً من النجاحِ في كلٍّ منها، ليأتيَ الآنَ دورُ معركةِ القضيةِ المركزيّةِ، وهي الفخُّ الذي ذهبَ أو اقتيدَ إليه من حيثُ يدري أو لا يدري، أو الاثنينِ في آنٍ واحدٍ!.

في المدينةِ! الأجواءُ، كالعادةِ ومنذُ زمنٍ ليس بقصيرٍ، مكهربةٌ والناسُ في حلةِ ترقُّبٍ وفي وضعِ هدوءٍ يسبقُ حدوثَ العاصفةِ.

أبوالزهو: لنسرعْ الخُطى!، يبدو الوضعُ وكأنّهُ يسيرُ باتّجاهِ الحربِ.

حمد: لقد قرّرَ رئيسُ الدولةِ الالتحاقَ بركبِ الأحداثِ والدخولَ في الحربِ عندَ وقوعِها. كل الوقائعِ والمعلوماتُ تشيرُ إلى أنَّ العدوَّ ضعيفٌ، بائسُ الشكلِ، لا يقدرُ على مواجهةِ جنودِنا البواسلِ. ها هي إذاعةُ الباباكا تقولُ أنَّ العدوَّ يشتكي إلى الأممِ المتحدةِ ومَجلسِ الأمنِ وكما تعرفُ يا أبوالزهو أنَّ من يشتكي يكونُ ضعيفاً!.

أبوالزهو: لكنَّ الوالدَ أبو جاسر يقولُ أنْ لا نستمعَ إلى الباباكا؛ هذه مَحطّةٌ كذوبةٌ بل مصنعٌ لبثِّ الأكاذيبِ وبلسانٍ عربيٍّ مبينٍ.

حمد: كلُّ المَحطّاتِ الإذاعيةِ تقولُ ذلكَ، "صوتُ العُربان" و"صوتُ الجماهير" و"صوتُ الشعبِ" و"صوتُ أحرارِ العالَمِ" و"صوتُ أهلِ العلمِ والإيمان"، وليستْ الباباكا وحدَها تقولُ ذلكَ. الباباكا فقط تؤكّدُ ما لا تقدرُ هذه الإذاعاتُ المَحليةُ توكيدَهُ. من غيرِ المعقولِ أنَّ كلَّ الإذاعاتِ كاذبةٌ!. كلامٌ بينَنا! أشكُّ في قدرةِ الوالدِ أبو جاسر العقليّةِ وولائهِ الوطنيِّ السّليمِ، لكنْ إيّاكَ أنْ تُخبرَهُ بكلامِيَ هذا أو حتى تُخبرَ أيَّ أحدٍ آخرَ؛ كما تعرفُ أنَّ ذلكَ قد يؤثّرُ على مستقبلِ الوالدةِ والعائلةِ كلِّها!.

أبوالزهو: لا.... أنت مُخطئٌ في ذلكَ. لا يقدرُ الوالدُ أبو جاسر أنْ يأتيَ بنفَسٍ واحدٍ أمامَ الوالدةِ أم جاسر؛ إنَّها كاتِمةٌ لأنفاسهِ كلِّها.

حمد: حتى ولو كانَ ذلكَ صحيحاً!، من الممكنِ أنْ تَحدثَ عندَهُ نوعٌ من "الانتفاضةِ"، لا أحدَ يقدرُ على التكهّنِ أو السّيطرةِ على مضاعفاتِها ونتائجِها!.

كالعادةِ، حمد وأبوالزهو في الطريقِ إلى مركزِ المدينةِ، بعدَ أنْ فرَغا من بيْعِ اللّبنِ والحليبِ، حيثُ كثرةُ المعارضِ والمَحلاتِ التجاريةِ والأسواقِ. وَقَفَ الاثنانِ خلفَ إحدى البناياتِ، وفي ساحةٍ صغيرةٍ ومهجورةٍ تُستخدَمُ لتجميعِ النفاياتِ فيها، لِيستريحا قُبيلَ مواصلةِ السّيرِ.

أبوالزهو: انظرْ يا صديقِيَ إلى ذلكَ الجدارِ الكبيرِ. اقرأْ لِيَ ماذا كُتِبَ عليهِ وبِخطٍّ أحْمرَ عريضٍ.
حمد: آهٍ...؛ "إذا كان كفراً حبُّكَ ناصر فليشهدْ التاريخُ أنّي أكبرُ كافر". لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ!. من كتبَ بيتَ الشّعرِ ذاكَ هناكَ؟. منِ المؤكَّدِ أنَّ أحدَ الشبابِ استطاعَ التسلّقَ إلى هناكَ باستعمالِ السُّلَّمِ لكتابةِ بيتِ الشّعْرِ هذا، ولو تدري بهِ الحكومةُ ربَّما لأعدمتْهُ رمْياً بالسّهامِ!.
أبوالزهو: كلُّ الشعبِ يُحبُّ "ناصر"، والحكومةُ تَعدمُ مَن وتطلقُ سراحَ مَنْ!؟.
حمد: وهل تُحِبُّهُ يا أبوالزهو أيضاً؟.
أبوالزهو: مرّاتٍ! مثْلِيَ مثْلُ بقيَّةِ الخلْقِ الذينَ يُحبّونَ رؤساءَهُمْ وزعماءَهُمْ. أحبُّهُ أحياناً أكثرَ من حبِّيَ لكَ. هلّا تُحبُّهُ أيضاً؟.
حمد: لا أحبُّهُ ولا أكرهُهُ. على أيِّ حالٍ هو ليس بحاجةٍ إلى حُبِّيَ أو كرهِيَ لهُ. يوجدُ عندَهُ اكتفاءٌ ذاتيٌّ من الاثنيْنِ ويُصدِّرُ إلى الخارجِ كذلكَ!.
أبوالزهو: لنغيِّرْ الموضوعَ قليلاً... ما الذي قرَّرْتَ أنْ تشتريَهُ للأولادِ الصّغارِ هذا اليومَ؟. الآن هُمْ ينتظرونَنا حتى نعودَ وأوّلُ ما يقومُ بهِ هؤلاءِ الصّبيةُ الأشقياءُ الشرِهونَ هو تفتيشُ الصّناديقِ الفارغةِ معنا بَحثاً عن أيَّةِ آثارٍ للحلْوى والألعابِ و"القُضامة" (حُبوبُ الحُمُّصِ المُحمّصِ بالفرْنِ مع بعضِ الملحِ) أو الفولِ السّودانِيِّ المُحمّصِ بالملْحِ.
حمد: في هذا اليومِ، الأجواءُ متوتّرةٌ ولا أشعرُ بالراحةِ. لا أظنُّ أنّنا نقدرُ أنْ نشتريَ شيئاً من هذا القبَيلِ أو ذاكَ. الناسُ منهمكونَ في إقامةِ تَحصيناتٍ وموانعَ في المنازلِ تَحسُّباً لاندلاعِ الحربِ في أيَّةِ لَحظةٍ. أعرفُ من يقولُ لكَ دائماً أنْ تَجلبَ لَهُما حلوى، هُما "فَلْحَة" و"طَحَلان" ولا أحداً غيرَهُما. سوفَ أقومُ بشدِّ أذنيْهما حتى الخَلْعَ! إنْ استمرّا على ذلكَ المنوالِ في طلبِ الحلوى.
أبوالزهو: يا صديقِيَ هذه ليستْ حرباً، هذه خطوةٌ من جانبنا لتحريرِ الأرضِ. لن يأتِيَ العدوُّ إلينا، سنذهبُ إليهِ ونستعيدُ الأراضي والبيوتَ التي اغتصبَها منّا.
حمد: هل يعني أنَّكَ أكثرُ مصداقيةً من الحكومةِ عندما تقولُ للناسِ أنْ يقوموا بإنشاءِ الملاجئِ وتَخزينِ الطعامِ الإضافيِّ وإطفاءِ الأنوارِ في اللّيلِ، وأنْ يتوخّوا الحذرَ عندَ السّيْرِ في الشوارعِ. ويقولُ نفسُ المذياعِ كذلكَ "أنّهُ إذا ما لقيتُمْ العدوَّ فقابلوهُ بوجوهِكم ولا تولّوهُ الأدبارَ"!.
أبوالزهو: لا تستمعْ إلى هذه المَحطّةِ الإذاعيةِ، بل استمعْ إلى إذاعةِ "صوتِ الحريّةِ والكرامةِ"، صوتِ الانتصارِ الكبيرِ، أو حتى استمعْ إلى البابا كا، مَحطّتِكَ المفضّلةِ!. استمعْ إلى السّيدِ "صالح الدريل" في إذاعةِ "صوتِ الأعرابِ"، لقد قَلَبَ المَحطَّةَ على رأسِهِ من الصُّراخِ والوعيدِ والتهديدِ بكلامٍ تَمَّ توجيهُهُ حتى إلى كلابِ البحرِ وذئابِهِ وأسْماكِهِ الصّغيرةِ!.
حمد: يا أبوالزهو، "إنْ كنتَ لا تدري فتلكَ مصيبةٌ وإنْ كنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ" (بيتُ شعرٍ مَجهولٌ قائلُهُ). كما يبدو نَحْنُ مقبِلونَ على حربٍ، على خرابِ بيوتٍ جَماعِيٍّ حاشدٍ، لسنا في معرضِ مَحطّاتٍ إذاعيةٍ نَختارُ منها ما يتناسبُ مع أذواقِنا!. منطقُكَ!، يستحي حتى أولادُ أغنياءِ المدينةِ المرفَّهينَ من قولِهِ أو التمنطقِ بِهِ!.
أبوالزهو: يقولونَ في المذياعِ: حربٌ، حربٌ، حربٌ؛ نَحْنُ لَها، سنضربُهُمْ حتى لا يبقى منهُمْ المخبرُ.

حمد: أخشى أنَّ ما يقولُهُ الوالدُ أبو جاسر صحيحٌ. لقد شهدَ الثوراتِ والحروبَ السّابقةَ كلَّها، لَمْ نربحْ ولو بجزءٍ بسيطٍ في واحدةٍ منها. تلكَ مقامرةٌ!، لعبُ قمارٍ على مصيرِ الأرضِ والوطنِ والشّعبِ. سنذهبُ إلى البيتِ الآنَ، لا أريدُ شراءَ حلوىً ولا بطّيخاً أصفرَ للأولادِ، "ستّونَ ... عمرُهُمْ لا أكلوا"!.
أبوالزهو: ارتحْ قليلاً وهدِّئْ من توتُّرِ أعصابِكَ، وارجعْ بعدَ ذلكَ لنشتريَ الحلوى ومن ثَمَّ نعودُ إلى البيتِ. لا أحبُّ أنْ يرانا الأولادُ عائديْنِ إلى البيتِ بوجهيْنِ سوداويْنِ مغبرّيْنِ!.
حمد: هَل سَمعتَ أخبارَ الظهيرةِ؟!. يقولونَ أنَّ مَجلسَ الأمنِ طلَبَ من جَميعِ "الفُرقاءِ" استعمالَ "ضبطِ النفسِ" والابتعادِ عن القيامِ بأيَّةِ أعمالٍ عدوانيةٍ!.
أبوالزهو: "ضبطُ النفسِ"!، هلْ ذلكَ نوعٌ من الأكلِ أو المشروبِ أو جهازٌ طبيٌّ يُمكنُ للشخصِ استعمالَهُ؟؛ إنَّها أوّلُ مرَّةٍ أسْمعُ بهِ. هل عندَكَ عنهُ معلوماتٌ بصفتِكَ متعلِّمٌ وتذهبُ إلى المدرسةِ منذُ سنينَ خَلَتْ؟!.
حمد: عنديَ معلوماتٌ كثيرةٌ عنهُ. استُخدِمَ في الحربيْنِ العالَميتيْنِ الأولى والثانيةِ، وفي الحربيْنِ الكوريةِ في السّابقِ والفيتناميةِ الآنَ وفي كافّةِ الحروبِ العرقيةِ والدينيةِ في مُختلفِ القاراتِ القديمةِ، وأثبتَ نَجاعةً متميزةً لصالحِ الدولِ الكبرى. يُحاولون تَجربتَهُ هذه المرّةَ هنا علَّهُ ينفعُ. هو كذلك إحدى ترّهاتِ مَجلسِ الأمنِ والأمم المتحدةِ!.
أبوالزهو: أحبُّ "الأممَ المتحدةَ" أكثرَ. شكلُ الأمينِ العامِّ لَها قريبٌ على حالتِنا. هو منا وفينا ونِهايتُهُ إلينا راجعاً بعدَ انتهاءِ مهمّاتِهِ بنَجاحٍ!.
حمد: هذه الأممُ المتحدةُ عبارةٌ عن مهدّئٍ للأعصابِ ومسكِّنٍ للآلامِ الناجمةِ عن جروحِ الحروبِ وكوارثِها. بشكلٍ أقربَ للوصفِ تعملُ الأممُ المتحدةُ مثلَ عملِ ممرضةٍ نفسانيةٍ لتهدئةِ خواطرِ فتاةٍ عذراءَ عفيفةٍ بعدَ اغتصابِها من عربيدٍ متمكّنٍ ومدعومٍ بقوةٍ من جهةٍ حكوميّةٍ أو شبهِ رسْميةٍ. تسعى الأممُ المتحدةُ جاهدةً لتخفيضِ صياحِ الثكلى والمُزاحينَ عن أوطانِهِمْ؛ كنّاسٌ ينظِّفُ الأوساخَ النفسيةَ لسياساتِ الدولِ العظمى، بتعبيرٍ أصحَ!.
أبوالزهو: وهذه "الأنروا" (منَظّمةٌ تابعةٌ للأممِ المتحدةِ خاصةٌ بتشغيلِ اللاجئين)، ما علاقةُ الأممِ المتحدةِ بها؟. أرى أنَّها جيدةٌ تَقدّمُ الأكْلَ والشرابَ والتعليمَ للأولادِ والشيوخِ والنساءِ والرجالِ بعدَ أنْ يتمَّ اقتلاعُهُمْ من بيوتِهِمْ وأوطانِهِمْ بفعْلِ الحربِ!.
حمد: الأممُ المتحدةُ كلُّها على بعضِها مشلولةٌ بكلمةٍ واحدةٍ مكونةٍ من أربعةِ حروفٍ لاتينيةٍ أو ثلاثةِ حروفٍ أبْجديّةٍ عربيّةٍ!. بهذه الكلمةِ الواحدةِ تسيطرُ الدولُ العظمى على كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في هذا العالَمِ!.
أبوالزهو: ما رأيُك أنْ تقولَ ليَ تلكَ الكلمةَ السّحريةَ. غيرُ معقولٍ أنَّ هنالكَ كلمةً واحدةً كافيةٌ لعملِ ذلكَ. أتكذبُ عليَّ يا صديقِيَ مستغلاً ضعفَ التعليمِ المدرسيِّ عنديَ؟. قلْ لِيَ إياها حتى أستعملَها للسيطرةِ على العالَمِ.
حمد: آخ يا أبوالزهو، حتى أنتَ تريدُ السّيطرةَ على هذا العالَمِ وتضعُهُ تَحْتَ أوامرِكَ لوحدِكَ. لا لن أقولَ لكَ هذه الكلمةَ، يكفينا من يَحكمُنا. كذلكَ أَريدَ أنْ أريحَكَ من حكْمِ هذا العالَمِ الذي لا يليقُ بكَ ولا يشرِّفُكَ حكمُكَ لهُ!.
أبوالزهو: ها قد وصلْنا البيتَ... وها هي أختُكَ، بل أختُنا، "فَلْحَة" تنتظرُنا عندَ كوعِ الطّريقِ المؤدّي إلى البيتِ.

"فَلْحَة": أريدُ أنْ أعرفَ إذا ما أتيتُما لِيَ بكنافةٍ نابلسيةٍ أو بقلاوةٍ أو على الأقلِّ "هريسةٍ"!.
أبوالزهو: أَلَمْ أقلْ لكَ أنّني أعرفُ عن الأولادِ أكثرَ منكَ، عليكَ أنْ "تُبَيِّضَ" وجهَكَ أمامَها!. لقد نصحتُكَ ونَحْنُ في المدينةِ عدةَ مراتٍ أنْ تشتريَ للأولادِ بعضَ الحلْوى. لَمْ تُصغِ إليَّ ولَمْ تشترِ للأولادِ الصّغارِ أيَّ شيءٍ...
حمد: يا أختِيَ "فَلْحَة" ويا روحِيَ!، لقد وعدَنا صاحبُ مَحلِّ الحلوى، مَحلِّ "أبو خوخة"، أنّهُ سيقومُ بتحضيرِ سِدْرٍ (طبقٍ كبيرٍ) خاصٍّ بالكنافةِ ومن أطيبِ ما تكونُ الكنافةُ، غداً إنْ شاءَ اللهُ!. غداً سوفَ أجْلبُ لكِ بدلاً عن الرغيفِ المطعَّمِ بالكنافةِ... اثنيْنِ...
"فَلْحَة": لا.... أريدُ كنافةً نابلسيةً هذا اليومَ. صارَ لِيَ منذُ البارحةِ بانتظارِ هذا اليوم.
أبوالزهو: ها ها ها هي هي هي... لا تُصَدِّقيهِ!، هو يكذبُ عليكِ.
حمد: إذن! ما رأيُكِ لو أعطيكِ نصفَ قرْشٍ لتشتريَ بهِ "كَعْكَبانةً" (كعكٌ مُطعَّمٌ بالسّمسمِ) صغيرةً وأنْ تسيرَ الأمورُ معكِ مرضَيّاً عنها حتى يومَ غدٍ؟!.
"فَلْحَة": أريدُ قرشيْنِ لأشتريَ بهما ثوباً!.
أبوالزهو: أعطِها قرْشاً كحَلٍّ وسَطٍ بينَكَ وبينَها. مرّةً أخرى إيّاكَ أنْ تُحاولَ الكذبَ على هؤلاءِ الصّغارِ وتظنَّ أنّهم لا يعرفونَ التصرّفَ جيداً. قبِّلْ خدَّيْها، هذه أختُكَ الحنونةُ؛ سوفَ تأتي لكَ بعروسٍ فيما بعدُ، على رأيِ الوالدةِ والحَجّاتِ!. (تكثرُ في بعضِ المناطقِ الريفيةِ عادةُ التصاهرِ "التبادليِّ" بأنْ يتزوّجَ شابّانِ من فتاتيْنِ، كلُّ واحدٍ منهُما يتزوجُ أختَ الآخرِ، بدلاً من دفعِ مهرٍ لوالدِ كلٍّ من الفتاتيْنِ)
حمد: هل تعرفُ يا أبوالزهو؟! أنّهُ لولاكَ في كثيرٍ من الأحيانِ لا أعرفُ ماذا أعملُ، خاصّةً في مثلِ هذه الأوضاعِ المشحونةِ والمتوتّرةِ والمهيّجةِ للأعصابِ!. في معظمِ الأحيانِ أسيرُ خلفكَ دونَ التّفكيرِ بخطايَ أينَ ستقودُني، أعتمدُ على بصيرتِكَ في تحديدِ الطريقِ لِيَ.
أبوالزهو: والآنَ وبعدَ قليلٍ من الراحةِ، لنختليَ بالعودِ والنايِ.
حمد: في بالِيَ هذا اليومَ أغنيةٌ ثوريةٌ حقيقيةٌ .... دن دَج دم دج دم.... نار يا استعمار نار نار .... احنا جينا وبنينا الدار ..... أكبر عار .... خلّي الثورة تولّع نار .... توَلّعْ نار ... نار نار نار ....
أبو جاسر (يأتي إلى حمد وأبوالزهو): نار نار!.... يا لكما من زوجيْنِ عجيبيْنِ! بدأتُما هنا بإطلاقِ النارِ قبلَ وقوعِ الحربِ. لا شكَّ بأنَّكُما ثنائيٌّ فريدٌ من نوعهِ في السّياسةِ كما في الفنِّ!. كلُّ الخشيةِ على عقلِ أبوالزهو منكَ أيها الأحمقُ والأرعنُ الطائشُ يا حمدُ!. المشكلةُ الأكبرُ أنّكما تعكسانِ ما يجري في عقولِ الساسةِ الكبارِ المالكينَ لناصيةِ الأمورِ.

وقعتْ الحربُ وانتهتْ ولَمّا تبدأْ

السّاعةَ التاسعةَ صباحاً من أوّلِ أيّام الحربِ، الحربُ كانتْ قد بدأتْ قبلَ ذلكَ بأربعِ ساعاتٍ تقريباً!؟، كانَ حمد وأبوالزّهو وأبو جاسر وأم جاسر يَحصدونَ ويَجمَعونَ وينقلونَ مَحصولَ الشّعيرِ من حقلٍ للعائلةِ يبعدُ عن القريةِ حواليْ الأربعةِ كيلومتراتٍ. في تلكَ الأثناءِ حلّقتْ طائرتانِ ذاتا لونٍ بنيٍّ غامقٍ، ربّما هُما نَفْسا تلكَ الطائرتيْنِ اللتيْنِ اشتركَتا في الغارةِ الوهْمِيةِ على المدينةِ قبلَ عدّةِ أشهرٍ من حينِهِ؛ حلّقتا على ارتفاعٍ منخفضٍ جداً، تكادانِ لا ترتفعانِ شيئاً عن قِمَمِ الجبالِ المُحيطةِ المشرفةِ على ما حولَها. قامَتا، أو بالأصحِّ، قامَ طيّاراها بعملِ حركةِ التفافيةٍ بسيطةٍ حولَ أجواءِ المدينةِ سرعانَ ما اختفتا ربّما إلى مدينةٍ ثانيةٍ وثالثةٍ... أو أنْ تكونا عادتا إلى القاعدةِ اللتانِ انطلقتا منها. بعدَها لَمْ تُرصدْ أيّةُ حركةِ طائراتٍ في الجوِّ لا منخفضةٌ ولا مرتفعةٌ ولِعدّةِ أيامٍ تلتْ. رسْمياً لَمْ يسمعْ أحدٌ من عائلةِ أبو جاسر بعدُ عن إعلانِ الحربِ. إلا أنَّ جاراً لَهمْ على الطرفِ الآخرِ لوادي الخصيبِ قالَ منادياً أنَّ لديهِ مذياعاً يقولُ أنَّ الحربَ قد بدأت فعلاً!. تراكَضَ الناسُ في البراري على أجهزةِ المذياعِ المَحمولةِ؛ هنالكَ بلاغاتٌ عسكريةٌ متتاليةٌ وأغانٍ حربيةٌ وأناشيدُ وطنيةٌ وحَماسيّةٌ، وتعليماتٌ كيفَ يواجهُ الناسُ الغاراتِ الجويةَ إنْ حدثتْ أيّةٌ منها. كلُّ دولةٍ مشتركةٍ في الحربِ لَها مَجموعةٌ من البلاغاتِ العسكريةِ؛ بلاغٌ رقمُ ١، بلاغٌ رقمُ ٢، وَبفارغِ الصّبرِ ينتظرُ الناسُ بلاغَ رقمَ ٣ وبفارغِ الصّبرِ أكثرَ ينتظرون البلاغَ رقمَ ٤ .... وهكذا دواليْكَ، حتى فرَغَ الناسُ كلّياً من الصّبرِ!. كانَ الناسُ يتوقّعونَ أنّهُ ما أنْ يأتِيَ البلاغُ العسكريُّ رقمُ ٢٠ على الأكثرِ حتى يكونَ العدوُّ قد هُزِمَ هزيمةً ساحقةً في البرِّ والبحرِ والجوِّ!.

السّاعةَ الثالثةَ بعدَ الظهرِ حيثُ الموعدُ المعتادُ مع الباباكا، والتي أعلنت بدورها مُجملَ النتائجِ من وجهتيَ النظرِ الصّديقةِ والمعاديةِ و"بكلِّ موضوعيّةٍ"!. في اليومِ الأوّلِ للحربِ أخذَ الناسُ أقوالَ الإذاعاتِ العربيّةِ على مَحملِ الجدِّ أكثرَ من الإعلامِ المعادي؛ لكنْ في اليومِ الثاني والأيامِ التي تلتْ، بدأتْ الأمورُ تنكشِفُ للناسِ أكثرَ. قامتْ الطائراتُ المعاديةُ ومنذُ اللحظاتِ الأولى للحربِ بتدميرٍ كليٍّ لقوّةِ العربِ الجويةِ وتفرَّغَ الطيرانُ المعادي، عالِ التطورِ، للسيطرةِ الكاملةِ على سَماءِ وأرضِ وبَحْرِ المعركةِ. جيوشٌ بأكملِها انْهارتْ وأصبحتْ تائهةً في الصّحاري والجبالِ تبحثُ عن النّجاةِ، بِجلودِها فقطْ، من الحربِ. وقعتْ تلكَ الأخبارُ وقْعَ الصّاعقةِ على أعصابِ وعقولِ وقلوبِ الناسِ، ما بينَ مصدِّقٍ ومكذّبٍ لِما يسمعونَهُ ... وبعد قليلٍ من الوقتِ يرونَهُ بأمّهاتِ الأعيُنِ.

حمد: هل سَمعتَ يا أبوالزهو؟، بدأتْ الحربُ، الحربُ بدأتْ، نَحْنُ في حالةِ الحربِ، اليومَ حربٌ ....

أبوالزهو (وحمد وسرحان): نَحْنُ لَها (وبدأ حمد وأبوالزهو وسرحان ينشدونَ أغانٍ حَماسيةً)، "أصبحَ عنديَ الآنَ بندقيةٌ". (عنوانُ أغنيةٍ وطنيةٍ للسيدةِ أم كُلثوم)

حمد: ومن أينَ لكَ ولنا بالبندقيةِ يا حسرةً؟!. السّلطاتُ تَمنعُ حتى حَمْلَ السّكينِ في الشارعِ. انتبهْ أبوالزهو! في حالِ سَماعِكَ صوتَ طائرةٍ أو انفجارَ قنبلةٍ، اذهبْ إلى

أقربِ مكانٍ منخفضٍ، انبطحْ فيهِ إنْ تستطعْ! وضعْ يديْكَ أو يدَيْ من معكَ فوقَ أذنيْكَ لِحمايةِ طبلاتِ الأذنينِ من أصواتِ القنابلِ المنفجرةِ المدوِّيةِ هنا أو هناكَ، كما تقولُ وسائلُ الإعلامِ المقروءةُ والمرئيّةُ والمسموعةُ!.
أبوالزهو وسرحان: يا رجلاً!، هنا لا توجدُ حربٌ؛ انتقلتْ الحربُ إلى عُقرِ دارِ العدوِّ. العدوُّ الآنَ في حالةٍ يرثى لَها. هل سَمِعتَ البلاغَ رقمَ ٣؟، يقولُ السّيدُ "صالح الدريل" أنَّ طائراتِ العدوِّ تتساقطُ مثلَ الفراشِ المتهالكِ، وجيوشُنا على مشارفِ عاصمةِ العدوِّ؛ لقد انتهى كلُّ شيءٍ. لا تظلَّ تضرِبُ أخماساً بأسداسٍ، لقد انتصرْنا وهذهِ قبلةٌ منّي أطبعُها على وجهِكَ!.
في اليومِ التالي من بدءِ الحربِ أشارَ أبو جاسر لابنهِ حمد أنْ يذهبَ وسرحان وأبوالزهو إلى البيدرِ، حيثُ مكانُ تَجميعِ الحصادِ والمَحاصيلِ، وذلكَ لطحنِ القشِّ. احتجَّ حمد في البدايةِ بسببِ أخطارِ الحربِ وغاراتِ الطائراتِ المُحتمَلةِ، إلا أنَّ والدَه أصرَّ عليهِ للذهابِ والعملِ في البيدرِ وتَحْتَ حرارةِ شَمْسِ حزيرانَ اللاهبةِ. أثناءَ الانشغالِ بعملِ البيدرِ إذا بصوتٍ قويٍّ مدوٍّ لِجسمٍ كبيرٍ مسرعٍ بدأ من سَماءِ المدينةِ واتّجهَ جنوباً وبسرعةٍ عاليةٍ جداً وخلال أقلَّ منْ ثانيَةٍ خلّفَ وراءَهُ خطَّ دخانٍ كثيفٍ أسودٍ. فيما بعد أعلنَ راديو الحكومةِ أنَّ طائرةً معاديةً أصيبتْ! وأنَّ قائدَها هربَ بِها إلى منطقةٍ أكثرَ أمناً لهُ للهبوطِ بالمظلّةِ منها في أراضٍ معاديةٍ. أنكرتْ إذاعةُ العدوِّ خُسرانَ أيٍّ من طائراتِهِ أو حتى إصابتِها بأيِّ أذىً من نيرانٍ معاديةٍ!.
حمد: لنهربْ بعيداً، لنتّجهْ إلى حفرةٍ، لنأخذْ! الأرضَ (لننبطحْ)، الخطرُ قائمٌ فوقَ رؤوسِنا، من الممكنِ أنْ نَموتَ في أيّةِ لَحظةٍ.
أبوالزهو: هذه الأصواتُ لا تُخيفُني. كما يقولُ المذياعُ إنّهمْ يقومونَ بِهذهِ الأعمالِ للتغطيةِ على خسائرِهمْ في أرضِ المعركةِ ورفعِ معنوياتِ جنودِهمْ المتدنيةِ.
في اليومِ الثالثِ للحربِ! بثّتْ الإذاعةُ المَحليةُ تسجيلاً صوتيّاً زعمتْ أنّهُ من أرضِ المعركةِ؛ جنودٌ يدخلونَ منطقةً كانتْ مغتصبةً من قبلُ ويُحرِّرونَها ويرفعونَ علمَ الدولةِ عليها ويُكبِّرونَ. جنودٌ تُجرى معهُمْ مقابلاتٌ يقولونَ بأنَّ معنوياتِهمْ عاليةٌ جداً، ولا ينقصُهُمْ سوى بعضُ السّجائرِ، حيثُ لَمْ يتمكّنوا من شرائِها بسببِ انشغالِهمْ في التحضيرِ للمعركةِ!.
حمد: أبوالزهو، تعالَ واقتربْ واسْمعْ. إنّهم يكبِّرونَ ويهلّلونَ، لقد حرّروا الجبلَ ويتقدمونَ لتحريرِ الوادي والسّهلِ والسّاحلِ، ويريدونَ بعضَ السّجائرِ ...!.
أبوالزهو: إيّاكَ أنْ تُشعلَ سيجارةً بوجهِي!، أكرهُ الدخانَ والتدخينَ كثيراً.
حمد: لقد صدقوا فيما يقولونَ إنّا لَمنتصرونَ بالتأكيدِ، "سقط النقابُ عن الوجوهِ الغادرة وحقيقةُ الشيطانِ باتتْ سافرة"! (أغنيةٌ ثوريةٌ). هذه الأخبارُ بالإضافةِ إلى الأخبارِ القادمةِ من الجبهاتِ الشماليةِ والجنوبيةِ، والشرقيةِ والغربيةِ تؤكّدُ لِيَ أنَّ النصرَ قريبٌ بل هو في متناولِ اليدِ. أخيراً تَحقّقتْ الأحلامُ وهذه قبلةٌ مني على شواربِكَ رداً على قُبلةٍ سابقةٍ منكَ. الليلةَ! لكَ عندِيَ حفلةُ موسيقى، مقاماتٌ شرقيةٌ!.
أبوالزهو: أحبُّ الموشحاتِ، موشحَ "جادك الغيثُ إذا الغيثُ هَمى يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ".

حمد: علينا أنْ نُخبرَ الوالدَ لكي ينشرحَ صدرُهُ وتنفرجَ أساريرُهُ؛ هذه الأيامُ يبدو معتماً ومغموماً بشكلٍ كبير.
أبوالزهو: وسآخذُ منهُ البشَارةَ.
تعلنُ إذاعةُ جيشِ العدوِّ أنَّ القوّاتِ المعاديةِ ستدخلُ المناطقَ المحتلةَ!، وعلى السّكانِ القاطنينَ في تلكَ المناطقِ التزامُ بيوتِهمْ ورفْعُ الراياتِ البيضِ على سطوحِها، وإغلاقُ الأبوابِ والشبابيكِ عليهِمْ داخلَ البيوتِ؛ غيرَ ذلكَ سوفَ يعرّضونَ أنفسَهُمْ لإطلاقِ النارِ عليهِمْ. أضافتْ تلكَ الإذاعةُ أنَّ على كلِّ من لديهِ أيّةُ قطعةِ سلاحٍ، حتى ولو كانتْ سكِّيناً (باستثناءِ سكِّينِ المطبخِ)، أنْ يتقدّمَ بِها إلى مركزِ شرطةِ المدينةِ والذي ستدخلُه القواتُ المعاديةُ بعد قليلٍ.
أبوالزهو و"زولالة": هذه إذاعةٌ كذّابةٌ وتُمارسُ حرباً نفسيةً وإعلاميةً لتحطيمِ الروحِ المعنويةِ عندَنا وعندَ قوّاتِنا، غَيِّرْ عنها فوراً إلى إحدى مَحطّاتِنا، نريدُ أنْ نرفعَ معنوياتِنا يا أخي.
حمد: أبوالزهو أرجوكَ امسكن، سنِّدن، سأسقطُ على الأرضِ.
أبوالزهو: لا تستمعْ إلى إذاعةِ العدوِّ، ما هذا الفضولُ عندكَ يا جباناً!. انْهضْ وقفْ على قدميْكَ. لنواصلْ العملَ، نَحْنُ المنتصرونَ.
يعلنُ جيشُ العدوِّ، عن طريقِ الإذاعةِ، الاستيلاءَ على مَحطّاتِ البثِّ في المنطقةِ وبدْءَ البثِّ الإذاعيِّ للعدوِّ منها وتعيينَ حكّامٍ عسكريّينَ لكافّةِ المدنِ الرئيسيّةِ. انتهتْ الحربُ وعلى السّكّانِ إتباعُ الأوامرِ الصّادرةِ عن قيادةِ جيشِ العدوِّ وحتى إشعارٍ آخرَ.
حمد: آخ يا أبوالزهو، آخ على جرحِيَ، آخ على حالِيَ، آخ.... التاريخُ يكرّرُ نفسَهُ من جديدٍ، على رقابِنا، على حالِنا، على مستقبلِ الأجيالِ فينا، على وجودِنا. يقولونَ أنَّ الحربَ انتهتْ، بل متى بدأتْ؟!. هلْ انتهتْ قبل أنْ تبدأَ، أو أنّها بدأتْ لتنتهيَ، مرّةً أخرى هل "البيضةُ أولاً أمْ الدجاجةُ"!.
أبوالزهو وسرحان: لا لا لا، الحربُ لَمْ تنتهِ، هؤلاء الأعداءُ كذّابون. قواتُنا تُحاربُهُمْ في كلِّ مكانٍ وتوقعُ بِهِمْ الخسائرَ الفادحةَ.
السّاعةَ السّابعةَ مساءاً، أعلنَ المذياعُ الحكوميُّ أنّ قواتِ الحكومةِ انسحبتْ تكتيكياً أو انتقلتْ من خطِّ الدفاعِ الأوّلِ إلى خطِّ الدفاعِ الثاني وعلى سكّانِ المناطقِ التي احتُلّتْ أنْ يقاتلوا العدوَّ بما لديهِمْ من سلاحٍ أبيضَ!، إلى حينِ أنْ تتمكّنَ قوّاتُنا من استرجاعِ المناطقِ التي سَقطتْ بأيدي المعتدينَ!. تبيَّنَ للعالَمِ بعدَ قليلٍ من انتهاءِ الحربِ التي استغرقتْ إعلامياً!! أقلَّ من أسبوعٍ واحدٍ بأنَّ الوضعَ يشبهُ قومينِ متصارعينِ أعطيَ أحدُهُمْ (العدوُّ) سلاحاً فعالاً كافياً لإحداثِ هزيمةٍ ساحقةٍ ماحقةٍ بالثاني (الأخ الصّديق)؛ وحُرِمَ القومُ الآخرونَ من امتلاكِ سلاحٍ قادرٍ على إحداثِ أيِّ أذىً بالطرفِ المعتدي. ما البابا كا وغيرُها من المَحطّاتِ الأخرىَ، التابعةِ لَها بطريقةٍ أو بأخرى، إلا ذرُّ الرمادِ في العيونِ لإلْهاءِ الناسِ عما يَجري فيما وراءَ كواليسِ السّياسةِ الدوليةِ!.
أبوالزهو وسرحان و"زولالة": الحربُ مستمرةٌ وسنحاربُ إلى جانبِ قوّاتِنا العسكريّةِ بالسّلاحِ الأبيضِ. سيبدأُ قتالُ الشوارعِ والحاراتِ والأزقّةِ وضواحي المدنِ والقُرى؛ ستتشكّلُ كلُّ هذه وتلكَ خطَّ الدفاعِ الثانيَ وحتى الثالثِ والرابعِ ....!.

حمد: هل تعرفُ يا أبوالزهو! كَمْ يعجبُنِي فيكَ إصرارُكَ وعنادُكَ وصبرُك وعدمُ رضوخِكَ للأمرِ الواقعِ؛ لكن كيفَ ستستخدمُ السّلاحَ الأبيضَ عندَما لا تَمتلكُهُ؟!. كيفَ لِحكومةِ الشعبِ أنْ تَطلبَ من الشعبِ أنْ يستخدمَ الأخيرُ اللحمَ والدّمَ لِمقاومةِ قوّةٍ غاشِمةٍ عاتيةٍ عظمى في المنطقةِ؟!. بالنسبةِ لِيَ أريدُ أنْ أنامَ ولو قليلاً حتى أقدرَ أنْ أستوعبَ هوْلَ الصّدمةِ وشدةَ الكارثةِ ونارَ الهزيمةِ وصقيعَ النكبةِ الجديدةِ (الثانيةِ) الذي يَحرقُ الأنفاسَ والضلوعَ. لقد بدأتْ يديَّ ورجلَيَّ ترتعشُ كلُّها، سَلْ الوالدةَ أم جاسر أنْ تأتيَنِي بِنصفِ ملعقةٍ صغيرةٍ من العسلِ وكأسٍ من الشاي بالميرميةِ، عسى اللهَ أنْ يَحفظَكَ لنا يا أبوالزهو!.

تَحْتَ الاحتلالِ المعادي

لَمْ ولا ولن! يوجدَ في التاريخ البشريِّ احتلالٌ أبشعُ من الاحتلالِ الذي تتعرضُ لـهُ المنطقـةُ. فهو استعمارٌ عَسكريٌّ اقتصـاديٌّ سياسِـيٌّ ثقـافِيٌّ اجتمـاعِيٌّ إحلالِيٌّ فاشِيٌّ نازِيٌّ إذلالِيٌّ احتقارِيٌّ عنصريٌّ حَشريٌّ (مشتقٌ من كلمةِ حَشرةٍ) طُفَيلِيٌّ عدوانِيٌّ توسعِيٌّ لا-حضارِيٌّ تاريخِيٌّ جغرافِيٌّ دينِيٌّ لا-دينِيٌّ طاغِيٌّ تعسفِيٌّ تَجَبُّرِيٌّ. إذا ما كانَ هنالكَ في القاموسِ العلميِّ والبشريِّ والتاريخيِّ والوجوديِّ ولِمُختَلفِ ثقافاتِ أهلِ الأرضِ من كلماتٍ قَبيحةٍ يُمكنُ إضافتُها إلى ما تقدّمَ، لا ضيرَ ولا حرجَ ولا خطأَ. كلُّ ما في الخيالِ الممتدِّ من معاملاتٍ قاسيةٍ تفوَّقَ الاحتلالُ على مرتكبيها في التطبيقِ والممارسةِ. طوالَ عقودٍ من سنينِ الزمنِ تَحْتَ الاحتلالِ لَمْ تتمكّنْ أيّةُ عينٍ أو كاميرا من تسجيلِ موقفٍ واحدٍ يبتسمُ فيه عنصرٌ واحدٌ من أهلِ الاحتلالِ وقوّاتِهِ بوجهِ أيِّ فردٍ من المَجموعةِ التي تقعُ تَحْتَ الاحتلالِ، لَمْ يكنْ ذلكَ بالممكنِ!. توجدُ عندَ الاحتلالِ إجراءاتٌ إرهابيةٌ تَهدفُ إلى اقتلاعِ شعبٍ بأكملهِ من التاريخِ والجغرافيةِ والزمنِ وإحلالِ مَحلّهِ مَجموعةٍ أخرى من الزواحفِ المدرّعةِ والمصفّحةِ بكلِّ أنواعِ التطرّفِ والتعصّبِ والحقدِ المتأصّلِ والمسلّحةِ بآخرِ ما توصلتْ إليهِ التقنياتُ (التكنولوجياتُ) العصريةُ في صناعةِ السّلاحِ. لَمْ يُرَ جنديٌّ من الاحتلالِ يدخلُ باحةَ مسجدٍ مثلاً في وضحِ النهارِ ولكنْ هنالكَ مئاتُ المساجِدِ والكنائسِ التي دُمّرتْ بفعلِ سياساتِ الاحتلالِ المنظّمةِ والمبرمَجةِ والتي تَحملُ بصمةَ غايَةٍ في نيّةِ الجريمةِ والتشويهِ والعدوانيةِ والكراهيةِ لِما هو في الغيرِ. لَمْ يَنْجُ من تلكَ السّياساتِ لا الأحياءَ ولا الأمواتَ ولا الجمادَ، كلُّها أشبعَتْ كمّاً ونَوعاً من الجريمةِ المنظمةِ والعشوائيةِ. نَفِدَتْ كلُّ الكلماتِ والجُملِ والمقالاتِ والكتبِ والمُجلداتِ والمسلسلاتِ التي يُمكنُ أنْ تصفَ فظاعةَ الاحتلالِ وقسوتَهُ بِحقِّ أيِّ شيءٍ من دونهِ، نَفِدَتْ وتنفدُ كلُّ التعبيراتِ المعنويةِ والحسّيةِ والعضويةِ وعلى المهتمِّ أنْ يبدأَ كلَّ يومٍ من جديدٍ في وصفِ مُمارساتِ الاحتلالِ ورموزهِ. وإذا كانَ من كلمةٍ أولى وأخيرةٍ في وصفِ حالةِ الاحتلالِ فهي الجحيمُ الحقيقيُّ وعدالةُ توزيعِ الظلمِ المبرمجِ والمنظّمِ على الجميعِ.

في باكورةِ عهدِ الاحتلالِ وكانَ الجوُّ صيفياً-خريفياً حارّاً بعضَ الشيءِ، كان حمد وأبوالزهو قد فرَغا من بيعِ حُمولتِهما من البضاعةِ المعهودةِ المشكّلةِ حامليْنَ معهُما ما تيسّرَ لَهما شراءُهُ للبيتِ والأهلِ والأولادِ. سَلَكا طريقاً فرعيةً تَمرُّ بالقربِ من معسكرِ جيشٍ يسيطرُ عليه جنودُ الاحتلالِ الآنَ، في حينهِ، وكان تابعاً للجيشِ

الوطنيِّ سابقاً. فجأةً إذا بدوريةٍ من أربعِ جنودٍ ومعهُمْ ضابطٌ، قائدُ الدوريةِ، كما يبدو؛ قاموا بنصبِ حاجزٍ صغيرٍ. وعندَ مُحاولةِ حمد وأبوالزهو الدخولَ في الحاجزِ أوقفتْهُما الدوريةُ بقائدِهاَ وجنودِها، والتفّوا حولَهُمْ كطريدتيْنِ وقعَتا في فخِّ كلابٍ بريّةٍ!.

قائدُ الدوريةِ: تعالا هنا، أينَ بطاقاتُ هويتِكُما؟ ومن أينَ أنتما؟ وماذا تفعلانِ هنا؟!.

حمد وأبوالزهو: لا نزالانِ صغيريْنِ في العمر، عمريَ أقلُّ من سبعِ عشْرةَ سنةً (السّنُّ القانونيُّ للحصولِ على هويةٍ شخصيّةٍ) وأبوالزّهو لهُ من العُمرِ الخمسةُ أو السّتةُ سنواتٍ؛ لا توجدُ لدينا بطاقاتُ هويةٍ.

أبوالزهو: وهذا الذي نَحملُهُ حلوى للأولادِ الصّغارِ، يُحبّونَ الحلْوى وخاصةً الكُنافةَ النابلسيةَ. إذا ما أردتُمْ تفضّلوا وكُلوا منها ما يطيبُ لكُمْ!.

قائدُ الدوريةِ: يبدو أبوالزهو لنا صغيراً بشكلٍ واضحٍ ولكنْ بالنسبةِ لكَ لسْنا متأكّدينَ، نريدُ إثباتاً على ذلكَ.

حمد: هل شهادةُ الولادةِ كافيةٌ لكُمْ؟؛ ولكنّها موجودةٌ في البيتِ في القريةِ هناكَ والتي تبعدُ حوالي السّتةَ (٦) كيلومتراتٍ من هنا؟!.

قائدُ الدوريةِ: اذهبْ واحضرْ شهادةَ الولادةِ واتركْ أبوالزهو عندنا هنا رهينةً حتى نضمنَ أنّكَ ستعودُ ولنْ تَهربَ!.

أبوالزهو: لا أتركُ صديقِيَ وحبيبِيَ لوحدهِ، وهو لا يكذبُ إذا ما قالَ أو وَعَدَ سيوفي بوعدهِ ولو كانَ ذلكَ الوعدُ على قطعِ رأسهِ، أعرفُهُ جيداً!.

قائدُ الدوريةِ: قلتُ لك اذهبْ!، ويا أبوالزهو! عليكَ أنْ تبقى هنا.

حمد: وكيفَ لِيَ أنْ آمنَكُمْ عليهِ؟. إنّهُ عندِيَ الصّديقُ الوحيدُ، خيرُ صديقٍ.

اضطُرَّ حمد لِلجري السّريعِ في طرقِ الجبلِ الوعرةِ ستةَ (٦) كيلومتراتٍ ذهاباً ومثلَها إياباً بعدَ أنْ وجدَ شهادةَ ولادتهِ في كيسِ قماشٍ بهِ أوراقٌ قديمةٌ وجديدةٌ، وسطَ ذهولِ أهلهِ وصدمتهِمْ وخوفِهِمْ من وقوعِ حمد وأبوالزهو في براثنِ دوريّةِ الاحتلالِ. وما أنْ عادَ ووصَلَ إلى موقعِ الحاجزِ العسكريِّ كان لا يزالُ الجنودُ هناكَ، على عكسِ خشيتهِ وتوقعاتهِ. ومن بعيدٍ نَظَرَ إليهِمْ فوجدَهُمْ قد خلعوا ملابسَ! أبوالزهو وأخذوا يركبونَ ويقفزونَ على ظهرهِ ويتعلّقُ أحدُهُمْ برقبتهِ، ويشدّونَهُ من رقبتهِ يَميناً ويساراً ضاحكينَ ومتسلّينَ. صُدمَ حمد لرؤيتهِ لِحالِ أبوالزهو وجُنَّ جنونُهُ!.

حمد: يا لَخيبتَكُمْ!، لقد أمنتُكُمْ على أبوالزهو؛ لِماذا تُهينونَهُ وتنتهكونَهُ جسماً وروحاً ومعنىً. يا لضمائرَكُمْ الميتةُ ويا لَقبحَ وجوهِكُمْ!.

قائد الدوريةِ: وهل أتيتَ بالهويةِ؟.

حمد: هويةٌ؟!. هذه شهادةُ ولادةٍ، عسى اللهَ أنْ يأخذَكُمْ إلى الجحيم.

جنديٌّ: هذه ليستْ هويّةً، أينَ الصّورةُ؟ ها ها ها. وأينَ شهادةُ ولادةِ أبوالزهو؟!. ها ها ها

أبوالزهو: لا تشتبكْ معهُمْ يا صديقِيَ، هؤلاءِ معهُمْ سلاحٌ. انظرْ ماذا فعلَ سلاحُهُمْ بِيَ.

نَظَرَ حمد إلى ظهْرِ أبوالزهو فإذا بهِ قد أصيبَ بِجراحٍ داميةٍ بطولِ حوالي عشرةِ (١٠) سنتيمتراتٍ وعمقِ سنتيمترٍ واحدٍ تقريباً، نتيجةَ دخولِ فوّهةِ بندقيةِ أحدِ الجنودِ أثناءَ مُحاولتهِ أنْ يَمتطيَ ظهرَهُ والتسلّي بهِ؛ إلا أنَّ أبوالزهو كما يبدو

رَفَضَ إطاعتَهُ. وربّما كانَ الجُرحُ نتيجةَ عملٍ ساديٍّ من قائدِ الدوريةِ الذي لا يقلُّ رعونةً عن جنودهِ!.

حمد: فيما لو تأخّرتُ قليلاً لقتلتُمْ أبوالزهو، ما هذا الجرحُ الدامي؟!.

قائدُ الدوريةِ: يالله! اذهبا، أنتَ وأبوالزهو، ولا تأتيا مرّةً أخرى إلى هنا.

في الطريقِ إلى القريةِ تَحدّثَ حمد مع أبوالزهو عن أوّلِ لقاءٍ مباشرٍ بينَهُ وبينَ الاحتلالِ.

أبوالزهو: سوفَ يأتي يومٌ أنتقمُ فيهِ لشرفِيَ من هؤلاءِ الجبناءِ الرعاديدِ. لقد قاموا بعملِ كلِّ ما هو مباحٌ وغير مباحٍ ضدِّيَ. لقد خلعوا عنّي ملابسِيَ وقاموا بالعبَثِ بأعضائِيَ التناسليةِ والإخراجيةِ!.

حمد: يا أبوالزهو، الفضلُ يعودُ إلى أخِيَ جاسر، حيثُ أنَّ ذلكَ أفسدَ عليهِمْ خُططَهم للنيلِ منكَ!.

أبوالزهو: لقد التقطوا لِيَ بعضَ الصّورِ في أوضاعٍ مشينةٍ معهم.

حمد: كما تعرفُ يا أبوالزهو أنَّ هذه الدنيا تمتلئُ بالأعاجيبِ والعجائبِ، وهذا الذي حدثَ معكَ لَهُوَ شيءٌ من هذا القبيلِ. أنا الآنَ تعبٌ من الركضِ في الجبلِ وأرغبُ بالجلوسِ والاسترخاءِ والنوم ولو قليلاً تَحْتَ شجرةِ الزيتونِ تلكَ للراحةِ. لكنْ أريدُ أنْ أسألَكَ؛ هلّا توجدُ عندَكَ شهادةُ ولادةٍ؟. مرّةً أخرى منَ الممكنِ أنْ نُسألَ على الحواجزِ، والتي أصبحتْ الآنَ مثلَ ظاهرةٍ طبيعيةٍ عندَ جيشِ الاحتلالِ، عن شهادةِ ولادتِكَ.

أبوالزهو: عندَما تقدَّمنا بطلبٍ للحصولِ على شهادةِ ولادةٍ لِيَ، طالتْ مدّةُ الانتظارِ. بعدَها، حواليْ الشهرينِ، أخبرَنا عُمدةُ العائلةِ أننا بحاجةٍ إلى واسطةٍ حتى يتمَّ تسريعُ إصدارِها. طالتْ مَدّةُ الانتظارِ إلى أكثرَ من سنةٍ ولَمْ نتمكنْ من إيجادِ واسطةٍ ذاتِ شروطٍ مَناسبةٍ، قُلْنا لنتركْ الأمرَ "للزمنِ".

حمد: دائماً نتركُ الأمورَ للزمنِ، ولولا ذلكَ لذهبنا كلُّنا في "ستينَ داهيةٍ"، ربّما!. لا نعرفُ كيفَ تأتي الأمورُ منَ كلِّ الاتّجاهاتِ، من الاحتلالِ أو من أصحابِنا. عسى الزمنَ أنْ يُصلحُ الحالَ، يا أبوالزهو لا يوجدُ غيرُ الزمنِ يصلحُ الحالَ!.

أبوالزهو: لكنْ يا صديقِيَ أتذكرُ أنّهُ توجدُ لديَّ شهادةُ "استئصالٍ خِصيٍّ" لِيَ ومَختومةً بخَتْمِ ذلكَ "الجرّاحِ الخاصِّ"، الجزّارُ المدعو "الحاجُّ صُعَيْب" ومختارٍ أو عمدةِ العائلَةِ؛ أعتقدُ أنَّ أخاكَ جاسر يعرفُ مكانَها. عندما تبعثُ لهُ رسالةً في البَريدِ مرّةً أخرى اسألْهُ عن المكانِ الذي خبأها فيهِ، ليتذكّرَ إنْ بقيَ في دماغهِ مكانٌ لتذكّرِ مثلِ هذه الأمورِ!. عسى أحداً أنْ ينقذَنا من أنفسِنا أوّلاً ومن الاحتلالِ ثانياً.

حمد: هل تقصدُ أننا أصعبُ بحقِّ بعضِنا من الاحتلالِ الذي بدأ يُذِلُّنا ليلَ نَهارَ.

أبوالزهو: نعمْ!، اليومَ صارَ عمريَ أكثرَ من خَمسٍ (٥) سنواتٍ وليسَ عنديَ إثباتٌ منَ الدولةِ أنّني وُلدتُ وأعيشُ؛ على الأقلِّ! الاحتلالُ يعترفُ بأنّني كائنٌ حيٌّ وموجودٌ.

حمد: الآنَ يا أبوالزهو، تريدُ أنْ تدخلَني في متاهةٍ وتصادمٍ مع نفسِيَ. فقط وللتوِّ نَجونا من تصادمٍ مع أحدِ الحواجزِ الطيّارةِ. تعرفُ نفسَكَ أنّكَ تعيشُ سواءً أعطوكَ ورقةً بيضاءَ، كتبوا عليْها اسْمَكَ أمْ لَمْ يكتبوا. هل تشكُّ في أنّكَ موجودٌ؟ ألَمْ تسمعْ بقولِ الفيلسوفِ ديكارتْ "أنا أفكّرُ فأنا موجودٌ"! أو لنقلْ في حالتِنا "أنا أتنفّسُ فأنا موجودٌ".

أبوالزهو: كلُّ كلامِكَ فلسفاتٌ وهراءٌ وضحكٌ على اللُّحى والذقونِ "كلامُ القرايا (القرى وأهلُها) لا يطابقُ كلامَ السّرايا (الحكومةُ وسرايا الأمنِ التابعةُ لها)". (مثلٌ شعبيٌّ محليٌّ يعني أنَّ أقوالَ الناسِ و"تطميناتِهِمْ" لا تتطابقُ بالضرورةِ مع الأمورِ الحكوميةِ والقوانينِ والقراراتِ الرسْميةِ الصّادرةِ عن الدولةِ والتي تطبقُّها سرايا الأمنِ التابعةُ لها). أريدُ إثباتاً رسْمياً بأنّني وُلدتُ وأعيشُ، أريدُ معاملتِيَ على أنّني جزءٌ من الدولةِ، ولستُ فقط أعيشُ على هوامشِ طرقِ الحقولِ والحياةِ.
حمد: علينا أنْ نصبرَ، وعسى أنْ لا يكونَ صبرُنا وليلُنا طويليْنِ!.
أبوالزهو: هنالكَ سؤالٌ بدأ يراودُني. لِماذا يَحدثُ معنا الآنَ هكذا؟!. لِماذا بدأ الإذلالُ والهوانُ يُمارَسُ علينا وفي وضحِ النهارِ؟!. اضطررْتَ للركضِ السّريعِ في طرقِ الجبالِ الطويلةِ الوعرةِ ذهاباً وإياباً، وواجهتُ بدوريَ مُمارساتٍ وأوضاعاً صعبةً وغيرَ طبيعيةٍ يرفضُها حتى الحيوانُ عندَما تُمارسُ عَليهِ!؛ لِماذا ذلكَ يا عزيزيَ؟!.
حمد: آخ يا أبوالزهو؛ سؤالُكَ البريءُ البسيطُ هذا يفتحُ علينا الأطنانَ من الفكرِ والتفكُّرِ. كما هي عادتُكَ عندَ طرحِ أسئلتِكَ الفلسفيةِ التحليليةِ. لكنْ عوْدٌ على بدءٍ، ليسَ برأسِيَ الآنَ إلا ثلاثُ صُوَرٍ تلازمُني في حياتِيَ، في نَهاريَ وشَمْسِيَ وليلِيَ وهَمْسِيَ وفي يومِيَ وأمسِيَ، هيَ للسادةِ "ماركْ سايْكسْ" و"جورجْ بيكو" وأخيراً وليسَ آخراً "اللوردْ آرثَر بلفورْ"...
أبوالزهو: أريدُ إجابةً سهلةً ليس فيها تعقيدٌ يا صديقِيَ. أنت مصابٌ بداءِ الاستماعِ إلى البابِاكا ومَحطّاتِ البثِّ الإذاعيِّ الأخرى!. لننسَ موضوعَ الأسئلةِ التي توجعُ الرأسَ، لا أريدُ أنْ أفكّرَ في أيّةِ مشاكلَ أخرى؛ ما رأيُكَ؟!...
حمد: آخ..... يا أبوالزهو ... مرّاتٍ أفكِّرُ أنّهُ حتى نتخلَّصَ من أخطارِ الحواجزِ والمشاكلِ مع الناسِ أنْ نبقِي في حضرةِ السّهولِ والهضابِ والوادي والحقولِ. أغنّي لكَ بل نغنّي معاً وسويةً، وأعزفُ لكَ موسيقىً لأغانٍ وأشعارٍ.
أبوالزهو (الوقتُ قبلَ المغربِ بقليلٍ!): آهٍ.... تذكّرتُ الآنَ!، لقد أكَلَ الجنودُ الكُنافةَ والفستقَ واللوزَ المقشورَ المُحمّصَ بالملحِ؛ سوفَ تثيرُ "فَلْحَة" الجحيمَ على رؤوسِنا بالبكاءِ والعويلِ.
حمد: لا تقلقْ من جهةِ "فَلْحَة" أو غيرِها. ينتظرُ الأهلُ ومنذُ وقتِ الظهرِ عودتَنا بمزيدٍ من الخوفِ والقلَقِ وفارغِ الصّبرِ. عسى أنْ نصلَ البيتَ قبلَ غروبِ الشمسِ وهبوطِ الليلِ علينا. لقدْ رأوْني آتياً إليهِمْ من الجبلِ لاهثاً أبْحثُ في ثنايا أوراقِ الماضي عن شهادةِ ولادةٍ لِيَ وأخرى لكَ!.

الطريقُ إلى الجامعةِ العربيةِ

ما أنْ صدرتْ الأوامرُ للجيشِ الوطنيِّ بالانسحابِ التكتيكيِّ إلى خطِّ الدفاعِ الثاني، في حربِ النكبةِ الثانيةِ، حتى انْهارتْ دفاعاتُ الخطِّ الأوّلِ بشكلٍ تامٍّ ومثلَ سِبْحَةِ الدراويشِ المُنفرطةِ. هامَ أفرادُ الجيشِ ومَجموعاتُهُ في السّهولِ والجبالِ والوديانِ والهضابِ. كان يوماً أعرضَ فيهِ الضابطُ عن الجنديِّ وذهبَ الجنديُّ في رحلةِ تيهٍ سوبرْ-ماراثونيةٍ طويلةٍ وللآمالِ مُخَيِّبةٍ بَحثاً عن ضبّاطهِ والذينَ قبلَ قليلٍ من حينهِ كانوا على قناعةٍ بأنّهم سيقودونَ ذلكَ الجنديَّ أو سيقودُهُمْ نَحْوَ النصرِ

الكبير. كان بعضُ الجنودِ والضّباطِ يأتونَ إلى القرى الجبليّةِ، الوعرةِ منها خاصةً، بَحثاً عن ماءٍ وطعامٍ ولباسٍ أو استبدالِ لباسٍ أو خدمةٍ طبيةٍ. من بينِ تلكَ الجموعِ المُفَلْفَلَةِ جاءتْ إلى القريةِ سيارةُ شحنٍ عسكريةٌ تحملُ عدداً (سريّةً) من الجنودِ وبها حوالي الطّنَّيْنِ مِن العتادِ أو الذّخائر، معظمُها قذائفُ لمدافعِ الهاون أو "المورتَر". تَجمَّعَ المئاتُ من أهلِ القريةِ منَ الأطفالِ والشيوخِ والرجالِ والشبابِ والنساءِ حول سيارةِ الذخائر. ترجّلَ أحدُ أفرادِ سريّةِ الجنودِ من الشاحنةِ وأمرَ الناسَ بالابتعادِ عنها وعن الجنودِ، لكنْ هيهاتَ لِمنْ يقدرُ! على أنْ يصغيَ لأمرٍ لهُ من أهلِ القريةِ؛ الكلُّ من أهلِ القريةِ يريدُ أنْ يرى كيفَ هو شكلُ العتادِ والسّلاحِ!. في تلكَ الأثناءِ حلّقتْ طائرةٌ معاديةٌ فوقَ القريةِ وعلى ارتفاعٍ متوسّطٍ وقامتْ بعملِ حركةٍ التفافيةٍ في سَماءِ القريةِ استعداداً لضربةٍ جويّةٍ، ربّما!. يبدو أنَّ قائدَ الطائرةِ انتابهُ الشعورُ بالرّحْمةِ أو الشفقةِ على الأطفالِ والشيوخِ والنساءِ، وربّما الحواملِ منهُنَّ، وقرّرَ عدمَ ضربِ السّيارةِ العسكريةِ من بينِهِمْ. كان يكفي إطلاقُ قذيفةِ "نابالْم" حارقةٍ واحدةٍ لإحداثِ فرنٍ كيماويٍّ حراريٍّ ميدانيٍّ يقضي على مُعظمِ سكّانِ القريةِ ولأجيالٍ بعيدةٍ إلى الأمامِ. كادَ سكّانُ القريةِ أنْ يَحملوا سيارةَ الذخائرِ على أكُفِّهِمْ بما فيها من جنودٍ!. (في تلكَ الحربِ القصيرةِ بامتيازٍ انتشرَ استخدامُ قنابلِ "النابالْم" الحارقةِ، المُحرّمةِ دولياً، من قِبَلِ العدوِّ).

لَمْ يَجِدْ أفرادُ الجيشِ الوطنيِّ مناصاً من تركِ سيارتِهِمْ خلفَهُمْ في شارعِ القريةِ الرئيسِ والترجُّلِ باتّجاهِ الجبالِ عائدينَ إلى بيوتِهِمْ في القرى ومضاربِ الباديةِ البعيدةِ الموزّعةِ في أركانِ الدولةِ. قامَ أحدُ سائقي سياراتِ الشحْنِ من القريةِ بقيادةِ شاحنةِ الذخائرِ المهجورةِ إلى موقعٍ غربيِّ القريةِ يبعدُ حوالي خمسةِ (٥) كيلومتراتٍ عن حدودِ القريةِ السّكنيةِ؛ تَرَكَهَا في الأرضِ الخلاءِ بعدَ أنْ قامَ بتعطيلِ مُحرّكِها، كما يبدو، لكيْ يَمنعَ العدوَّ من الاستفادةِ منها!. مع الزمنِ بدأتْ الذخائرُ تنتشرُ من سيّارةِ العتادِ إلى المنطقةِ المُجاورةِ بفعلِ العابثينَ بها من الرعاةِ والشبابِ والرجالِ المُحبّينَ للاستطلاعِ والعبثِ والفضولِ. من وقتٍ لآخرَ تنفجرُ قنبلةٌ أو صندوقٌ من القنابلِ بسببِ مُحاولةِ أحدِ سكانِ القريةِ التلهّيَ بإضرامِ النارِ في الأعشابِ والحشائشِ اليابسةِ حولَها. كان عددُ القنابلِ كبيراً بحيثُ يصعُبُ التخَلصُ منها كلِّها بسرعةٍ.

كانَ "فالِحْ" ابنُ أبو جاسر شاباً في الثانيةِ والعشرينَ من عمرِهِ. قبلَ وقوعِ الحربِ بقليلٍ خضعَ لدورةِ تدريبٍ في الحرسِ الوطنيِّ للدولةِ لبضعةِ أشهرٍ تدرّبَ فيها على حَمْلِ نوعٍ خفيفٍ من السّلاحِ. تَخَرَّجَ من الدورةِ تلكَ بشهادةٍ تقولُ فيها أنَّ المذكورَ أعلاهُ قادرٌ على حَمْلِ السّلاحِ، لكنّها لَمْ تُشِرْ صراحةً إلى قدرتهِ على استعمالِهِ أو عدمِ استعمالِهِ!. ظنَّ "فالِحْ أبو جاسر" كما هي حالُ رفاقِهِ، ربّما، أنَّ ذلكَ التدريبَ كانَ كافياً لِجعلِهِ ذي شأنٍ غيرِ عاديٍّ في التعاملِ مع السّلاحِ، أيّاً كانَ شكلُ ذلكَ السّلاحِ.

أثناءَ رعْيِهِ للأبقارِ قريباً من مكانِ شاحنةِ الذخائرِ رأى "فالِحْ" جسماً غريباً أثارَ انتباهَهُ. قنبلةٌ "مورتَر" سالمةٌ وذاتُ ألوانٍ زاهيةٍ! ملقاةٌ على الأرضِ بينَ الحشائشِ والأعشابِ. اقتربَ منها، عاينَها بنظرةٍ، التقطَها، حَمَلَها بين يديْهِ، فكّرَ بها قليلاً، مشى بها متجهاً إلى موقعٍ أعلى في سفحِ الجبلِ. رأى شجرةَ زيتونٍ صغيرةً سرعانَ ما ذهبَ إليها ليجلسَ متربعاً تحتَها وليستظلَّ بظلِّها هرباً من أشعةِ

الشمس اللاسعةِ. هنالكَ أوهَمهُ جهلُهُ بأنّهُ قادرٌ على التعاملِ مع القنبلةِ واضعاً بفكرهِ أنّهُ مُختلفٌ أو حتى مُتميّزٌ عن بقيةِ الناسِ من حولهِ. في البدايةِ حاولَ تفكيكَ القذيفةِ إلى أجزائِها بيديْهِ وأصابعهِ حينَ استعصى عليهِ الأمرُ. ضربَها بالأرضِ الصلبةِ عدّةَ مرّاتٍ، لَمْ تُطعْهُ ولَمْ يتفكّكْ شيءٌ منها يلبّي طموحَهُ!. وَقَفَ على قدميهِ مرّةً أخرى وأتى بحَجَرٍ كبيرٍ وضعَهُ في ظلِّ الزيتونةِ. جلَسَ بساقيْهِ الطويلتيْنِ حولَ الحجرِ ووضعَ القذيفةَ عليهِ، تناولَ من جانبِهِ حجراً آخرَ صغيراً. صارَ عندَ "فالِحْ" الآنَ مطرقةٌ و هي الحجرُ الصّغيرُ و سندانٌ و هو الحجرُ الكبيرُ و ما بينهما كانتْ قذيفةُ مِدفعِ "مورتَر". طرقَ كبسولةَ القذيفةِ بحَجَرهِ حيثُ أسهلُ نقطةٍ لديهِ للتعاملِ مع القذيفةِ، أو هكذا ظنَّ!. وبسببِ ظُلمةِ جهلهِ بالعتادِ وتعاملهِ معهُ انفجرتْ بجسمهِ تلكَ القذيفةُ صاحبةُ العِيارِ الخفيفِ!. انفجرتْ بينَ يديْهِ ورجليْهِ وفي حِضْنهِ وبطنهِ ووجههِ....

ما أنْ سَمِعَ الرعاةُ والفلاحونَ المُجاورونَ للمكانِ صوتَ الانفجارِ حتى تراكضوا لِمعرفةِ الأمرِ ولينقذوا ما قدْ يُمكنُهُمْ إنقاذُهُ من روحِ "فالِحْ أبو جاسر". وَصَلَ أحدُ الرّعاةِ إلى موقعِ الانفجارِ ليرى "فالِحْ" يُحاولُ وقفَ إغماضِ ما تبقّى من عينهِ اليُمنى الغمْضةَ الأخيرةَ. كان دَمُهُ نازفاً لا يزالُ حينَ حاولَ ذلكَ الراعي وقْفَ النزيفِ بيديْهِ عن طريقِ مُحاولةِ إغلاقِ كافّةِ الشرايينِ والأوردةِ المفتوحةِ!، شَعَرَ بمنتهى العبثيّةِ والعجْزِ للقيامِ بأيِّ شيءٍ. جسَّ الراعي النبْضَ من وريدِ رقبةِ "فالِحْ" نصفِ المُحترقةِ وودَّعَ بيدِهِ لهُ النبضاتِ الأخيرةَ لقلبهِ. في تلكَ الأثناءِ تراكضَ الرعاةُ والفلاحونَ الآخرونَ يبحثونَ عن عونٍ أو مساعدةٍ!؛ كانت عبثيةً مُطبقةً. تبعدُ المنطقةُ ما لا يقلُّ عن خَمْسَ عشرَ كيلومترَ "جبليٍّ" عن أقربِ مركزٍ طبيٍّ يُمكنهُ التعاملُ مع جروحٍ عاديّةٍ!. قضى "فالِحْ" نتيجةَ جهلهِ وفضولهِ أو غريزةِ حبِّ الاستطلاعِ عندَهُ، تلكَ النتيجةُ بينَ الناسِ عادةً ما تُعزى لفعلِ القضاءِ والقَدَرِ.

يَجلسُ أبو جاسر وعائلتُهُ في فترةٍ شِبهِ قيلولةٍ. يَعِدُ الأبُ أولادَهُ ويشرحُ لَهُمْ كيف سيُعَمِّرُ لَهُمْ في البيتِ حُجرةً إضافيةً جديدةً وسيقومُ بتعليمِ من يتمكّنُ من أولادهِ من إحرازِ نَجاحٍ في المدرسةِ إلى مراحلَ متقدمةٍ. ما أنْ استرسلَ في الحديثِ لِمنْ حولهُ قليلاً حينَ دَخلتْ إلى فناءِ البيتِ مندفعةً امرأةٌ من القريةِ تصرخُ بصوتٍ عالٍ: "يا ويْحَكُمْ!... إنَّ ابنَكُمْ "فالِحْ" ماتَ بانفجارِ قنبلةٍ!". نَهضَ أبو جاسر والأولادُ مذعورينَ مُندهشينَ وغيرَ قادرينَ على تصديقِ الخبرِ لشدةِ وقعهِ على الرأسِ والقلبِ والسّمْعِ والبصرِ والإحساسِ. توجَّهَ أفرادُ العائلةِ إلى موقعِ الانفجارِ يدلُّهُمْ في ذلكَ جُلُّ أهلِ القريةِ الذين هبّوا عن بكرةِ أبيهم عندَ سَماعِهِمْ خبرَ الانفجارِ. رَكَضَ أبو جاسر وأم جاسر والأنْجالُ بدونِ وعيٍ تقريباً إلى مكانِ الحادثِ. قبلَ وصولِهِمْ إلى ذلكَ الموقعِ بمسافةِ كيلومترٍ تقريباً رأوْا من بعيدٍ مجموعةً كبيرةً من الناسِ يَحملونَ على أكتافِهِمْ نعْشاً. دعا قوَمُ أبو جاسر ربَّهُمْ عسى أنْ يكونَ مَنْ في النعشِ لا يزالُ على قيدِ الحياةِ وأنَّ استعمالَ النعْشِ كانَ فقط لتسهيلِ عمليةِ نقلِ الجسمِ الجَريحِ!. وَصَلَ أبو جاسر وحمد قريباً من حَمَلَةِ النّعشِ ورَأيا بعضاً من جسمِ "فالِحْ" ورجلَيْهِ الصّفراويتيْنِ متدلّيتا القدميْنِ من طرفِ النَعْشِ. أصرَّ أبو جاسرَ على حاملي النعْشِ أنْ يقوموا بتنزيلِ "فالِحْ" لَكي يتأكّدَ بنفسهِ أنَّ الذي في النعْشِ هو ابنُهُ "فالِحْ" وفيما إذا كانَ حقّاً ميتاً، في آنٍ واحدٍ؛ وفعلاً تَمَّ لهُ ذلكَ. ما أنْ رأى

أبو جاسر جثمانَ ابنهِ "فالِحْ" وتأكَّد لهُ مقتلُهُ حتى سقطَ مغمىً عليهِ لشدةِ وقْعِ المنظرِ على حواسّهِ كلِّها، المنظورةِ والمخفيةِ. تَجمَّعَ قسمٌ من الناسِ حولَهُ وكانَ أحدُهُمْ يَحملُ وعاءً من الماءِ رشَّ شيئاً منهُ على وجْهِ أبو جاسر ليستعيدَ الأخيرُ وعيَهُ من هوْلِ الصّدْمةِ من جديدٍ. وَصَلَتْ جثّةُ "فالِحْ" إلى بيتِ أبو جاسر. اشتركَ في تَقَبُّلِ الجثمانِ الممزّقِ كلُّ من كانَ في البيتِ من بشرٍ ودوابَّ. وصلتْ البقرتانِ اللّتان كانَ "فالِحْ" يرعاهما للتوِّ في حينهِ من حقولِ الرَّعْيِ لتجدا! أنَّ راعيهما لَمْ يعدْ لَهُ وجودٌ؛ كان الحزنُ والتألُّمُ بادياً في نظراتِهما وسلوكيْهما!. كانت رائحةُ اللحمِ المُحترقِ بفعلِ انفجارِ القنبلةِ لا تزالُ تنتشرُ حولَ الجثمانِ وفي المكانِ القريبِ منهُ. كانت أشلاؤهُ الممزّقةُ المتدليةُ من جسمهِ مُختلطةً بأشلاءِ! ملابسهِ الممزّقةِ كذلكَ، قميصُهُ وسروالُهُ وغيارُ ملابسهِ الداخليةِ. من هناكَ كانتْ سيارةُ إسعافٍ أو نقلٍ للموتى بانتظارِ الجثةِ لنقلِها إلى مركزِ الطبِّ الشرعيِّ أو العدليِّ؛ في ذلكَ المركزِ تَمَّ نزعُ أجزاءَ كثيرةٍ من جسمِ "فالِحْ" لَمْ تستطعْ قنبلةُ مدفعِ الهاونِ الوصولَ إليها، ربَّما، من قلبٍ وكبدٍ وطحالٍ وكلىً وغيرِها. بعدَ حواليْ يوميْنِ من حينهِ عادَ جثمانُ "فالِحْ" لتتمَّ عمليةُ دفنهِ في مقبرةِ القريةِ.

في اليومِ التالي لدفْنِ جثّةِ "فالِحْ" جاءتْ دوريةٌ كبيرةٌ من شرطةِ وجنودِ جيشِ وحرسِ حدودِ الاحتلالِ. قاموا بتطويقِ البيتِ وترجّلتْ مَجموعةٌ من ضباطِ الشرطةِ كانَ على رأسِهِمْ الكولونيلُ (عقيدٌ) "شومو". سألَ الكولونيلُ "شومو" عن أبو جاسر وطلَبَ التحدّثَ إليهِ. في البدايةِ ظنَّ من في البيتِ أنَّ الكولونيلَ "شومو" سيقدِّمُ لأبي جاسر بعضَ التعازي بمقتلِ فلذةِ كبدهِ "فالِحْ".

الكولونيلُ "شومو" (يَحملُ بيدهِ هويةَ "فالِحْ" الشخصيةَ الصّادرةَ عن الاحتلالِ): أريدُ أنْ أعرفَ يا سيدَ أبو جاسر، هل قُتِلَ ابنُك "فالِحْ" لأنّهُ كانَ عنصراً في المقاومةِ؟!.

أبو جاسر: لا... لَمْ يكنْ ابنِيَ "فالِحْ" عنصراً في المقاومةِ. لقد قُتِلَ نتيجةَ جهلهِ بنفسهِ وعَمَلِ يَديْهِ. لقد ماتَ جاهلاً غيرَ أهلٍ لتَحمُّلِ مسئوليةِ خطأٍ ارتكبَهُ.

الكولونيلُ "شومو": وكيفَ لكَ أنْ تكونَ متأكِّداً من ذلكَ؟!. من المُحتملِ أنْ يكونَ قد انضمَّ إلى أحدِ التنظيماتِ المسلّحةِ التي أعلنتْ وتعلنُ في المذياعِ عبْرَ موجاتِ الأثيرِ أنّها "ثورةٌ ثورةٌ حتى النَّصْر"!.

أبو جاسر: أعرفُ أولادِيَ واحداً واحداً، أنا الذي خلَّفتُهُمْ وربيتُهُمْ عن قُرْبٍ في القلبِ والعقلِ وعن بعدٍ في المسافاتِ؛ أعرفُ عنْهُمْ أكثرَ مِمّا أعرفُهُ عن نفسِيَ. قسمٌ من أولادِيَ ضدّ نتائجِ اتفاقيةِ "سايكسْ-بيكو" وآخرونَ معَها، وثَمَّةَ آخرونَ من أولادِيَ على الحيادِ منْها. كانَ "فالِحْ" من نوعٍ آخرَ، كان يَجهلُ أيَّ شيءٍ يَختصُّ بِ"سايكسْ-بيكو"؛ كان "على نِيّاتِه"!.

حمد: يا والدِيَ أبو جاسر! تاللهِ تظلُّ تذكُرُ "سايكسْ" و"بيكو" في كلِّ شيءٍ في حياتِنا!، حتى في مقتلِ "فالِحْ" في إحدى بطاحِ القريةِ في ذلكَ الخلاءِ المُقفرِ، وتقولُ ذلكَ علناً أمامَ ضباطِ جيشِ وشرطةِ الاحتلالِ!. إنَّ هذا لأمرٌ عجيبٌ فيكَ!.

أبو جاسر: بالنسبةِ لِيَ إنّني متأكدٌ، وكما أراكُمْ بعينيَّ الآنَ أمامِيَ أنَّ الذي قَتَلَ "فالِحْ" هُما "ماركْ سايكسْ" و "جورجْ بيكو" ومعهُمْ "آرثرْ بلفورْ". تلكَ القنبلةُ التي انفجرَتْ بينَ فخذَيْ "فالِحْ" مرسومٌ عليها ثلاثُ صورٍ، الأولى للسيِّدِ "ماركْ

سايكسْ" والثانيةُ للمسيو "جورجْ بيكو" والثالثةُ تعودُ إلى اللوردْ "آرثرْ بلفورْ". ما تبقّى تفصيلاتٌ لا قيمةَ عمليةً لها لزيادةِ معرفةِ الحقيقةِ بشيءٍ!.
الكولونيلُ "شومو": يبدو يا سيدَ أبو جاسر أنَّ الأمورَ عندَكَ أكثرُ صعوبةً من فقدانِكَ لابنِكَ "فالحْ"، وبكثير. نشعرُ معكَ بخيْبةِ أملِكَ في الحياةِ لكنَّ الأمورَ لا تَجري الآنَ في صالحِكَ. عليكَ والعائلةَ مراجعةُ دائرةِ الحكمِ العسكريِّ في المدينةِ من أجلِ تعبئةِ تقريرٍ كاملٍ بمَقتلِ ابنِكَ "فالحْ" لحفظهِ في أحدِ ملفاتِ أرشيفِ الأمن.
بعدَ عدَّةِ أيّامٍ من مقتلِ "فالحْ" قامَ حمد وأبوالزهو بمزاولةِ البيعِ في المدينةِ بعدَ أنْ تراكَمَتْ كمياتٌ كبيرةٌ من بقاليلِ اللّبنِ الرائبِ وأكياسِ اللّبْنةِ البلديةِ وغيرِها من صناديقِ الخضارِ والفواكهِ. فاقتْ حُمولةُ البيعِ ضِعفَ الحُمولةِ المعتادةِ. الوقتُ صباحاً وبعدَ صلاةِ الفجرِ بقليلٍ حيثُ لا يزالُ الظلامُ يُخَيّمُ على الأرضِ، عندَما كانَ حمد وأبوالزهو يسيرانِ في طريقِهما المعتادِ إلى المدينةِ.
أبوالزهو: يا صديقِيَ أريدُ أنْ أخبرَكَ شيئاً عن حُلْمٍ! حدثَ معِيَ ليلةَ الأمسِ. جاءنِي في المنامِ ثلاثةُ رجالٍ ذوي هيبةٍ بشريةٍ غيرِ عاديةٍ. يَمتطي اثنانِ منهُمْ عجلةَ "لاندروفرَ" والآخرُ سيارةً من نوعِ "بيجو". في البدايةِ كانوا يتكلّمونَ لغتيْنِ تَختلفانِ لكلٍّ من الطرَفَيْنِ. وما أنْ وصَلا عندِيَ حتى توحّدَتْ لغتاهُمْ وأصبحوا يتحدثونَ لغةً واحدةً فقطْ كالتي نسمعُها أحياناً كثيرةً من "البابا كا". عرّفوا عن أنفسِهِمْ وبكلِّ تواضعٍ؛ السّيدُ "ماركْ سايكسْ" واللوردُ "آرثرْ بلفورْ" والمسيو "جورجْ بيكو". يبدو لِيَ أنّهُ لسببِ كثرةِ تكرارِ الوالدِ أبو جاسر لأسْمائِهِمْ لَمْ أستطعْ الإفلاتَ من زيارتِهِمْ لِيَ في منامِي.
حمد: أكملْ يا صديقِيَ، الذي يبدو لِيَ أنَّ في حلمِكَ ما يدعو إلى لفْتِ انتباهِ المستمعِ لكَ ليصغِيَ إليهِ حتى نهايتِه.
أبوالزهو: سألنِي الثلاثةُ وبكلِّ تواضعٍ واحترامٍ!، ماذا أعرفُ عن "وعدِ بلفور"!؟. قلتُ لَهُمْ أنَّ اسْمَهُ "وعدُ بلفورِ المشئوم". قالوا إنَّ اسْمَهُ الحقيقيَّ! "وعدُ بَلفورِ التاريخيِّ". ردَدْتُ عليهِمْ بأنَّ اسْمَهُ الحقيقيَّ كذلكَ هو "وعدُ بلفورِ المشئومِ".
حمد: عافيةٌ عليكَ يا أبوالزهو!. أكملْ الحديثَ عن حُلمِكَ.
أبوالزهو: ظلَّ الأمرُ بينِيَ وبينَهُمْ ما بينَ أخْذٍ وردٍّ وشَدٍّ ومَدٍّ. قرّروا بعدَها العودةَ إلى سياراتِهِمْ وعادوا إلَيَّ بعدَها بقليلٍ بالكثيرِ من الكعكِ والحليبِ وأصنافٍ من المأكولاتِ يَحلمُ الوالدُ أبو جاسر وأنْجالُهُ بتناولِ ولو جزءٍ بسيطٍ منها. كانوا يضعونَها في فمِيَ وحلقِيَ مع وفرةٍ من القبلاتِ والاحتضانِ. خلالَ ذلكَ كانوا يكرّرونَ عليَّ عبارةَ "وعدَ بلفورِ التاريخيِّ". خَجلتُ من نفسِيَ أثناءَ الأكْلِ وقلتُ لنفسِيَ أنْ أرقَّ قليلاً معهُمُ، أسايرَهُمْ!. قلتُ كما كانوا يقولونَ ويردّدونَ "وعدُ بلفورِ التاري ....".
حمد: ماذا قُلتَ؟!.
أبوالزهو: يا صديقِيَ! خفتُ أنْ يوقفوا الأكْلَ والتموينَ عنّيَ. لقد كانتْ مأكولاتٌ قِمةً في اللذّةِ وفتحِ الشهيةِ، لَمْ أرَ ولَمْ أتمتّعْ بشيءٍ منها طيلةَ حياتِيَ في بيتِ الوالدِ أبو جاسر.
حمد: وبعدَ ذلكَ ماذا جرى في حُلمِكَ في منامِكَ؟!.
أبوالزهو: ما أنْ شعروا أنّني حفظتُ "العِبارَةَ" حتى رأيتُهُمْ وقد فُرِجَتْ أساريرُهُمْ وبدؤوا يهرجونَ ويَمرحونَ ويتناولونَ من المشروباتِ ما كانَ بِجُعبةِ كلٍّ منهُمْ. في

كلِّ كاسٍ شربوهُ كانوا يكررونَ عبارةَ "بصحةِ وعدِ بلفورِ التاريخيِّ". أرادوا بعدَ ذلكَ أنْ ينصرفوا عائدينَ إلى مِنْ حيثُ أتوْا. قالَ أحدُهُمْ ليَ بتواضعٍ "جودباي ذير" (بالإنجليزيةِ مع السّلامةِ) وقالَ الثاني ليَ بتواضعٍ كذلكَ "سي يو لايتر" (نراكُمْ فيما بعدُ) وقالَ الثالثُ ببعضِ التكبُّرِ والتعالي "أوروفوار" (بالفرنسيةِ إلى اللقاءِ)؛ لَمْ أفهمْ تلكَ الكلماتِ. أخيراً أرادوا أنْ يتأكدوا أنَّ "الدرسَ" لا يزالُ عالقاً في ذهنِيَ عندَما سألنِي أحدُهُمْ، وعلى ما أتذكَّرُ أنّهُ اللوردُ آرثرْ بلفورْ، عن ماذا أقولُ في "وعدِ بلفورِ التاريخيِّ"!، فقلتُ لَهُمْ إنّهُ "وعدُ بلفورِ التاريخيِّ المشئوم".

حمد: عافيةً عليكَ يا أبوالزهو... أحسدُكَ على أحلامِكَ ومواقفِكَ حتى في أحلامِكَ والتي تبدو فيها أكثرَ يقظةً مِمَّنْ حولَكَ. لا شكَّ أنَّ تعاليمَ الوالدِ أبو جاسر وصحبتَكَ لهُ في البيتِ والحقلِ والطريقِ إلى الحقلِ بالإضافةِ إلى قراءاتِ أولادهِ المدرسيةِ على مسمعِكَ، لَمْ تذهبْ كلُّها سدىً. لَمْ يتمكّنْ أحدٌ من العائلةِ والقريةِ والمدينةِ والدولةِ، من الوصولِ في عقلِهِ الباطنيِّ ولا حتى الظاهريِّ إلى تنظيمِ رحلةٍ ولو ذهنيةٍ متواضعةٍ كالتي حدثتْ معكَ في منامِكَ لِهؤلاءِ المَسّاحينَ الديموغرافيينَ الثلاثةَ، بهدفِ جعلِهِمْ يشاهدونَ نتيجةَ أعمالِهِمْ على أرضِ الواقعِ.

أبوالزهو: كما تعرفُ يا صديقِيَ أنَّ قراءاتِكَ المدرسيةِ ومن بعدِكَ "سرحان" وحتى أختَنا الصغيرةَ "فَلْحَة" والتي بدأتْ لتوِّها تقومُ بتلاوةِ نصوصٍ من أقوالِ وأفعالِ "سايكس" و "بيكو" و "بلفور"، هذا بالإضافةِ إلى جلساتِ الوالدِ أبو جاسر، جعلتْ تلكَ الأفكارَ تستقرُّ وتتخَمَّرُ وتنضجُ في دماغِيَ.

حمد: يا صديقِيَ! هذه الثقةُ في المعلوماتِ بالإضافةِ إلى حنكتِك السّياسيةِ والتاريخيةِ وتعاملِكَ المنطقيِّ مع من حولِكَ مضافاً إليها ثباتَكَ وصلابةَ مواقفِكَ، تَجعلُكَ أهلاً لتبوّءِ منصبِ المندوبِ الدائمِ للدولةِ في....

أبوالزهو: .... الأمم المتحدةِ.

حمد: نعم في الأممِ المتحدةِ. وإذا ما فَشِلْتَ في مُحاولتِكَ في الوصولِ إلى هناكَ فإنَّ هنالكَ مؤسّسةٌ أو هيئةٌ تنتظرُكَ قريباً من المكانِ هنا ... الجامعةُ العربيةُ!، المؤسّسةُ نتيجةٌ طبيعيّةٌ لمشروعِ سايكس-بيكو-بلفور. حتى أنني أنصحُكَ بأنْ تنسى الأممَ المتحدةَ جانباً. هنا في الجامعةِ العربيةِ تكونُ كلمتُكَ أكثرَ نفاذاً وفاعليةً، خاصةً عندَ حدوثِ تصويتٍ على قضيّةٍ مهما تكنْ حسّاسةً. بمقدورِكَ استخدامُ أهمَّ بندٍ من ميثاقِ الجامعةِ العربيةِ والذي فيهِ ما عليكَ إلا أنْ ترفعَ يديْكَ الاثنتينِ أو واحدةً منها معترضاً (حقُّ النقضِ)، لإحباطِ أيِّ قرارٍ إجْماعيٍّ مهما يكنْ حسّاساً ومصيرياً أو حتى إفشالِ التصويتِ كلِّهِ ويصبحُ الأمرُ كأنَّ شيئاً لَمْ يكُنْ.

أبوالزهو: وهلْ وصلتْ الأمورُ هناكَ إلى ذلكَ المستوى؟!. وماذا لو رفَعْتُ رِجْلِيَ والحالةُ تلكَ؟!. كما تعرفُ أنَّ معظمَ قُوّةِ الدفْعِ عنديَ متركزةٌ في قدمَيَّ.

حمد: أتوقّعُ أنْ يؤدِّيَ ذلكَ إلى هروبِ معظمِ الوفودِ الدائمينَ مع عائلاتِهِمْ إلى لنْدنْ.

أبوالزهو: ولِماذا لنْدنْ بالذاتِ؟!. لِماذا لا يبقونَ في أمكنتِهِمْ أو يهربونَ إلى بلدِ المنشأِ لكلٍّ منهُمْ؟!.

حمد: يا أبوالزهو، إنَّ بلدَ المنشأِ السّياسيِّ لَهُمْ هي لنْدنْ وبلدَ المصدرِ الماليِّ لَهُمْ هي لنْدنْ وبلدَ التثقُّفِ والنموِّ الجسميِّ والنفسيِّ لَهُمْ كذلكَ هي لنْدنْ؛ لنْدنْ العاصمةُ وليست الضواحي أو المدنَ المُجاورةَ.

أبوالزهو: يا صاحبيَ لقد كسرْتَ خاطريَ وأيقظْتَ ضميريَ النائمَ المسترخيَ المستريحَ من نومهِ وسباتهِ. بكلِّ عبارةٍ مِمّا تقولُهُ لِيَ الآنَ، تَحرقُ أعصابيَ وما بينَ أضلعِيَ ولا تفتأُ تُذَكِّرُني بما يَجري من أمورٍ، أمورٌ لا يستحسنُ التفكيرُ بها لكلِّ من كانَ عندَهُ عقلٌ مسالمٌ ويصبو إلى الازدهارِ والعملِ النافعِ لهُ ولغيرِهِ. أعرفُ أنّكَ تريدُ تَخفيفَ وطأةِ مقتلِ "فالحْ" عليكَ وعلى الأسرةِ بالحديثِ عن ما هو أكثرُ فداحةً من تلكَ الكارثةِ المُحزنةِ.

حمد: الآنَ وصلْنا إلى أطرافِ المدينةِ التي تغطُّ في نومٍ عميقٍ. لولا حاجةُ الجسمِ للأكلِ والحركةِ وكسبِ الرزقِ لاستمرَّ البشرُ في نومِهِمْ إلى إشعارٍ آخرَ. أصبحتْ بلادُنا يا أبوالزهو كلُّها كهوفاً وأهلُها "أهلَ كهفٍ".

خَلْفَ أسْوارِ الكلّيةِ الخاصّةِ

في نِهايةِ كلِّ عامٍ دراسيٍّ تُعقدُ امتحاناتٌ نِهائيةٌ لطلابِ المدارسِ يُحدَّدُ فيها خطُّ سيرِ التعليمِ عندَ الكثيرِ من الطلبةِ سلباً أو إيجاباً. عادةً ما تكونُ امتحاناتُ الكلّياتِ الخاصّةِ، غيرِ الحكوميةِ، في المنطقةِ هناكَ متأخرةً حواليْ الأسبوعيْنِ عن نظيراتِها في المدارسِ الحكوميةِ نظراً لتأخُّرِها نفسِ الفترةِ الزمنيةِ تقريباً عندَ بدءِ السّنةِ الدراسيّةِ. يبدو أنَّ تلكَ الكلّياتِ الخاصّةِ تُحاولُ "التَّمَيُّزَ" عن غيرِها منَ المؤسّساتِ التعليميةِ حتى في توقيتِ بدءِ الدراسةِ والانتهاءِ منها. تبعاً لذلك تبدأ العطلةُ الصّيفيةُ للكلياتِ الخاصّةِ متأخرةً وتنتهي متأخرةً.

تضمُّ الضاحيةُ الجديدةُ للمدينةِ في جانبِها الغربيِّ كليّةً خاصّةً متقدمةً بشكلٍ ملحوظٍ من حيثُ طرازِ البناءِ والفناءِ الخارجيِّ، وكانتْ مُحاطةً بسورٍ عالٍ منَ الحجَرِ والخرسانةِ تعلوهُ أسلاكٌ شائكةٌ وكثيفةٌ. كما يبدو! إنّها تَحوي طلاباً من الطبقةِ العُليا من أصحابِ رؤوسِ الأموالِ الكبيرةِ والمتوسّطةِ؛ أولادٌ لأطبّاءٍ وأطباءِ أسنانٍ ومهندسينَ مُخضرمينَ وتُجّارِ موادَّ غذائيةٍ مسيطرينَ على الخَلْقِ من بطونِها وأصحابِ أعمالٍ حرّةٍ مزدهرةٍ. كانَ يظهرُ ذلكَ الوضوحُ في الغِنى من شَكْلِ سياراتِ بعضِهِمْ وسيّاراتِ أولياءِ أمورِهِمْ وحقائبِهِمْ الجلديّةِ الثمينةِ وساعاتِ اليدِ الثمينةِ التي تزدانُ بها أرسغُ أيديهِمْ. كذلكَ يُستدَلُّ على ذلكَ البذخِ "التعليميِّ" من تواجدِ الحرّاسِ الأمنيينَ من ذوي البنيةِ الجسديّةِ القويّةِ عندَ مدخلِ الكلّيةِ الوحيدِ وداخلَ أسوارِ الكلّيةِ.

في ذاتِ يومٍ وكانت السّاعةُ تشيرُ إلى حواليْ التاسعةِ صباحاً كان حمد وأبوالزهو، ومعهُما هذه المرّةَ أختُ حمد "كاملة" حيثُ كانتْ تنوي زيارةَ عيادةِ طبِّ الأسنانِ، يُحاولونَ بيْعَ بضاعتِهِمْ بسرعةٍ! في ضاحيةِ المدينةِ الجديدةِ تلكَ. كان أبوالزهو يقفُ عندَ عامودٍ للنورِ في الشارعِ العامِّ وكانَ مقابلَ ذلكَ وبالصّدْفةِ في ذلكَ اليومِ في الطابقِ الثاني يُعَقدُ امتحانٌ نِهائيٌّ سنويٌّ لطلبةِ الكلّيةِ في صالةٍ كبيرةٍ. عَادَ حمد إلى أختهِ "كاملة" وصديقِهِ أبوالزهو بعدَ أنْ تَمكَّنَ من بيعِ بقلولةٍ

لربةِ "فيلّا" مُجاورةٍ للكلّيةِ؛ وبعدَ أنْ أثارتْ تلكَ المرأةُ الصّداعَ في رأسهِ وهي تساوِمُهُ على سعرِ البقلولةِ!. هناكَ رأى حمد حارسَ الكلّيةِ يُحاولُ إقناعَ "كاملة" وأبوالزهو بالابتعادِ عن المكانِ، لا بلْ إنَّ الحارسَ الأمنيَّ دفعَ أبوالزهو مستعملاً جسمَهُ لِحملِ الأخيرِ على الذهابِ بعيداً. تجاوزَ الحارسُ الحدَّ أكثرَ عندما رفعَ صوتَهُ على أبوالزهو مهدّداً إياهُ باتّخاذِ إجراءاتٍ إضافيةٍ قاسيةٍ!؛ لكنَّ أبوالزهو لَمْ يقتنعْ بكلامِ الحارسِ الأمنيِّ بلْ إنّهُ تَجاهلَهُ ولَمْ يُعِرْ كلامَهُ أيَّ اهتمام.

حمدَ: ماذا في الأمرِ؟. مالِي أراك تُحاول طَرْدَ أبوالزهو من المَكانِ؟!.

الحارسُ: هنالكَ طلابٌ يتقدمونَ للامتحانِ في القاعةِ المقابلةِ، وحتى "تتجلّى" عندَهُمْ الأفكارُ جيداً، يَجبُ إبعادُ ما قد يشتّتُ فكرَهُمْ ويضيعَ من تركيزهِمْ في الإجابةِ على الأسئلةِ.

حمد: وكيفَ أنَّ أبوالزهو يشتِّتُ عقولَهُمْ ويعكّرُ صفْوَ تفكيرهِمْ؟!.

الحارسُ: ليسَ فقط أنَّ أبوالزهو وحدَهُ الذي يشتِّتُ فكرَهُمْ، أنتَ أيضاً بمناداتِكَ على البضاعةِ والصّعودِ والنزولِ من وإلى المباني المُجاورةِ. حتى أنَّ كثيراً من الطلبةِ اشتكوا إلى مديرِ القاعةِ والمراقبينَ على الامتحان؛ وأنّهُ إنْ لَمْ نصرفْكُما من المكانِ فسوفَ تكونُ نتيجةُ الامتحانِ وبالاً على الطلبةِ وأهاليهِمْ وأصحابِ الكلّيةِ والمدرسينَ. لو سَمحتُما للمرةِ الأخيرةِ أقولُها لكُما أنْ تغادرا هذا المكانَ!.

حمد: وماذا لو لَمْ نسمحْ بذلكَ؟!، عليكَ أنْ تعرفَ أنَّ المشكلةَ ليستْ قادمةً من الخارجِ. كما يبدو أنّكَ مَخدوعٌ بهؤلاء الطلبةِ والمدرسينَ وأهالي الطلبةِ ومبنى الكلّيةِ وسورها والتي تبدو ليَ كلُّها من بعيدٍ مثلَ مبنى مستشفىً للأمراضِ العقليةِ!.

الحارسُ: هؤلاءِ الطلبةُ أولادُ شخصياتٍ "أكابرْ" وليسَ كبعضِ الناسِ القادمينَ من بيئاتٍ وضيعةٍ!.

أبوالزهو: يا صاحبيَ هل تريدُ أنْ تكرّرَ تَجربةً معَ الشرطةِ والشاويشِ وقائدِ المخفرِ والمَحكمةِ والقاضي والكفالةِ والغراماتِ؟!. لنذهبْ ولنبتعدْ عن المكانِ..

حمد: لَحظةً من فضلِك أبوالزهو، هذا الحارسُ الأمنيُّ يوجِّهُ إلينا الإهاناتِ من حيثُ يدري ولا يدري. تَتحدّثُ عن المستوى! وهلْ لِهذه الكلّيةِ أيُّ سجلٍّ أو تاريخٍ يشهدُ تَخريجَ أيِّ طالبٍ أو معلّمٍ من الذين يشارُ إليهِمْ ببنانِ اليدِ الواحدةِ أو بأيِّ شيءٍ آخرَ؟! سواءً هنا أو في أيِّ مكانٍ في هذا العالَمِ المتحضّرِ أو غيرِ المتحضّرِ، على الرغمِ من الارتفاعِ الفاحشِ المذهلِ في مصروفاتِهِمْ!.

الحارسُ: سأذهبُ وأخبرُ مديرَ الامتحاناتِ وتفاهَما أنتما معهُ على قدْرِ عقليْكُما. لا أقدرُ أنْ أقولَ لكُما أكثرَ مِمّا قلتُهُ؛ هذه هي الأوامرُ، اللّهمَّ إنّي قد بلّغْتُكُما. لا تأتِيا بعدَ ذلكَ وتلومانِي إنْ حصلَ لكُما ما لا يعجبُكُما!.

جاءَ مديرُ قاعاتِ الامتحاناتِ في الكلّيةِ الخاصّةِ؛ وَصَلَ وشواربُهُ تَرفُّ! (تَهْتَزُّ) قليلاً وعلى شفتيهِ بقايا أكْلِ بيضٍ مسلوقٍ أو مَخفوقٍ! وكان لا يزالُ يَمضَغُ بعضَ الخبزِ وفي يدهِ بقايا فطيرةٍ أو شطيرةِ "مارتاديلا". كان يبدو مُثارَ الأعصابِ.

مديرُ الامتحاناتِ: لقد "قطعتُمْ" حِبالَ أفكارِ الطلبةِ ولا يستطيعُ كلٌّ منهُمْ تركيزَ عقلِهِ ويصُبَّهُ على حلِّ أسئلةِ الامتحانِ؛ كلُّ هذا التشويشِ من أجلِ أنْ تبيعوا بقلولةً من اللّبنِ أو كيلوجرامينِ من البَنْدورةِ البلديةِ! (إتنينِ كيلو من الطوماطو البلدي، على حدِّ تعبيرهِ!) . ياالله! اذهبا من هنا أو تضطرّانِي إلى إتباعِ أسلوبٍ آخرَ قد لا يرضيكُما!.

حمد: سنغادرُ المكانَ في الحالِ، ولكنْ قبلَ ذلكَ هل لكَ أنْ تشرحَ لنا كيفَ نؤثِّرُ بوجودِنا هنا على سيرِ الامتحانِ هناكَ؟!.
مديرُ الامتحاناتِ: يا ابْنِيَ! عندمَا يُحاولُ الطالبُ مثلاً تركيبَ معادلةٍ رياضيةٍ من مثلِ "س + ص = ع" (x + y = z) على حدِّ تعبيرِهِ) ويسمعُ صوتَكَ تنادي وتقولُ: ..."معانا بندورة ولبنِ وخيار"... فإنَّ ذلكَ "سيقطعُ" حبالَ فكرِهِ كلَّها ويركِّزُ على "حبالِ بطنِهِ" ويَحصُلُ التباسٌ في أيِّها "x س" وأيِّها "y ص" وأيِّها "z ع"!. هذا هو المقصودُ في تقطيعِ حِبالِ الأفكارِ وليستْ مثلَ تقطيعِ حبالِ الغسيلِ أو المُغّيطِ (المطّاطِ) كما كنتُما تتخيَّلانِ أنتَ وصاحبُكَ هذا "اللزي" (الذي) معكَ!؛ المهمُّ الآنَ أنْ تغادرا المكانَ فوراً.
حمد: يا رجلاً! أتظنُّ أنكَ تتكلّمُ مع مَخلوقاتٍ من نوعِ "هردبشت" (مِمّا هبَّ ودبَّ)؟!. أوّلاً لَمْ يصدرْ من أحدِنا صوتٌ مثلُ هذا الذي تدَّعيهِ عندَما هجمَ الحارسُ على أبوالزهو مثلَ الذئبِ الكاسرِ وأرادَ أنْ يطردَهُ من المكانِ. ثانياً نَحْنُ بعيدونَ عن القاعةِ، حتى لو صدرَ صوتٌ منا فإنّهُ سيصلُ إلى هناكَ خافتاً جداً بعدَ اجتيازِ المسافاتِ والأسوارِ والشبابيكِ والسّتائرِ. أنا كذلكَ تلميذٌ وأعرفُ أنَّ الذي يعرفُ الإجابةَ على سؤالٍ فإنّهُ سيجيبُ عليهِ حتى لو كانَ في ساحةِ حربٍ!؛ والذي لا يعرفُ الجوابَ فإنّه حتى لو كانَ في بُرجٍ مُشيَّدٍ كالذي أنتُمْ فيهِ هناكَ فلنْ يقدرَ على الإجابةِ فقط! تُحاولونَ أنْ تَجدوا كبْشَ فداءٍ فيَّ وفي أبوالزهو في فشلِكُمْ في حياتِكُمْ وتَجربتِكُمْ التعليميةِ مع الطلبةِ جُملةً وتفصيلاً!.
مديرُ الامتحاناتِ: هلَّا (الآنَ)! مضى عليَّ ثلاثونَ سنةً في مهنةِ التعليمِ لتأتِيا أنتَ وصاحبُكَ أبوالزهو لتعطياني درساً من هذا القبيلِ في هذا الصّباحِ؛ يا فتّاح يا عليم! (تعبيرٌ مَحليٌّ يعني الاستغاثةَ وطلبَ النجدةِ على شيءٍ يصعبُ حلُّهُ وفي وقتٍ مبكّرٍ من النهارِ).
حمد: وخَلالَ الثلاثينَ سنةً الماضيةِ هل تَخَرّجَ من تَحْتِ أيدِيكُمْ ما يسرُّ البالَ ويُكْرِمُ الأوطانَ؟!.
"كاملة": يا أخِيَ اتركْهُمْ بحالِهِمْ، أتريدُ أنْ تَحشرَ أنفَكَ وتَحشرَنا في كلِّ ما يعنيكَ وما لا يعنيكَ؟!. قسَماً! إذا لَمْ ننصرفْ لأخبرنَّ الوالدَ أبو جاسر عنْكَ؛ سأقولُ لهُ أنّكَ تُحاولُ إثارةَ المشاكلِ مع أهلِ المدينةِ حتى يَمنعَكَ من العودةِ إليها ثانيةً للتجارةِ أو البيعِ أو حتى للذهابِ إلى عيادةِ طبيبٍ أو طبيبِ أسنانٍ أو مستشفىً فيها للمعالَجةِ، حتى لو تكونَ على وشكِ الموتِ من المرضِ. تبحثُ عن مشاكلَ مثلُكَ كمَثَلِ القرْدِ الذي يبحثُ عن خاتَمٍ لإصبعهِ في وعاءٍ كبيرٍ للَّبَنِ الرائبِ!.
مديرُ الامتحاناتِ: اسألْ عنهم المَحلاتِ التجاريةَ الكبيرةَ ومديري المبيعاتِ في معارضِ السّياراتِ، وابْحثْ عنهُمْ في الجامعاتِ خارجَ حدودِ الدولةِ حيثُ يلتحقونَ بأغلى الجامعاتِ رسوماً ومصاريفَ إقامةٍ وتكاليفَ معيشةٍ. كلُّ دخلِكَ الماديِّ السّنويِّ، أنتَ وصاحبُكَ أبوالزهو وعائلتُكَ، لا يكفي مصاريفَ الواحدِ منهُمْ هناكَ أسبوعاً واحداً فقطْ!.
وهنا وَصَلَ الأستاذُ "صُفّيق" وهو مدرّسُ رياضياتٍ ويعرفُ حمد جيداً لأنَّ الأخيرَ يبيعُ اللّبنَ الرائبَ لأسرتهِ بسعرٍ أقلَّ، وأحياناً لا يدفعُ الأخيرُ ثَمَنَ اللّبنِ؛ وقد تدخّلَ بينَ حمد ومديرِ الامتحاناتِ في الكلّيةِ الخاصّةِ.
الأستاذُ "صُفّيق": ماذا تفعلُ هنا أيُّها الفلّاحُ الصّغيرُ؟!.

حمد: أنا وأختِيَ "كاملة"، وأبوالزهو كما تعرفُ، نُحاولُ أنْ نبيعَ بضاعتَنا في هذا الحيِّ الراقي المتعلِّم.
الأستاذُ "صُفّيق": وما الضيرُ في ذلكَ؟!. وهل أوصلتُمْ بقلولةَ لبنٍ إلى البيتِ هذا اليومَ؟. في الحقيقةِ نريدُ بقلولتيْنِ اليومَ، على بالِيَ أكْلُ طبخةِ "اللّبنِيَّةِ"، وإذا ما يوجدُ معكُمْ سَمنٌ بلديٌّ فلتُعطِ "المَدامُ"، زوجتِيَ "أم عاصي"، بعضاً منها.
حمد: يقولُ مديرُ الامتحاناتِ أنَّ حِبالَ أفكارِ الطَّلبةِ "مقطوعةٌ" اليومَ بسببِ وجودِنا، أنا وأبوالزهو، هنا قريباً من مباني الكلّيةِ!.
الأستاذُ "صُفّيق": هذا اليومَ! يشتكي الطلابُ صعوبةَ الأسئلةِ وطولَها وعدمَ وضوحِها. تشيرُ أغلبُ التوقّعاتِ إلى أنَّ النتائجَ ستكونُ سيئةً جداً!.
حمد وأبوالزهو: وهل نَحْنُ السّببُ؟!.
الأستاذُ "صُفّيق": لا، لا، لا هنالكَ ضعفٌ شديدٌ عامٌّ عندَ الطلبةِ والكلُّ منهُمْ... الكلُّ يشتكي. اذهبا الآنَ وأوصِلا اللّبنَ والسَّمْنَ البلديَّ لِلبيْتِ!.
أبوالزهو: تأخذُنا الحيرةُ في الخلْقِ؛ منهُمْ من يريدُ أنْ ينجحَ في الامتحانِ بالعافيةِ ومنهُمْ من يريدُ أنْ يَملأَ بطنَهُ طبخاً شهياً ...
حمد: وآخرونَ مِمَّنْ يريدونَ صرْفَ أموالِ الوطنِ في تعليمٍ ليس بذي نفْعٍ يُذكرُ لأبنائِهِمْ وفلذاتِ أكبادِهِمْ. لديكَ مشكلةٌ بسيطةٌ أساسيّةٌ يا أبوالزّهو وهي أنّكَ تحسبُ كلَّ منْ يَمشي على اثنتيْنِ ويَحلقُ ذقنَهُ ويلبسُ سروالاً أو جاكيتاً ويَجلسُ في قاعةِ الامتحانِ ويقود سيارةً، .... تَحسبُهُ على مستوىً عالٍ من الوعْيِ!. عليكَ أنْ تعيدَ النظرَ في تعريفِكَ للبشرِ والحضارةِ والتقدُّمِ والترفيهِ وتبذيرِ الأموالِ. في هذه الكلّيةِ تَجري أكبرُ عمليةِ تبديدٍ لأموالِ الوطنِ ولثقافتهِ ولعقولِ أبنائهِ ومستقبلِهِمْ. يا أبوالزهو توقّفْ عندَ هذا، لقد تَحطّمتْ آمالِيَ في هذهِ الحياةِ هنا. إنّي لأرى مستقبلَ الوطنِ والأمّةِ شديدَ الاكفهْرارِ!.
"كاملةُ": كذلك قضيْتَ على أملِيَ في الذّهابِ إلى طبيبِ الأسنانِ هذا اليومَ بسببِ انشغالِكَ في حلِّ مشاكلِ الاقتصادِ وصرْفِ الأموالِ في المدينةِ!. هذا مصيرُ من يُركنُ إليكَ لِمساعدتهِ في عملٍ أيِّ شيءٍ مهما صَغُرَ!. في المرّةِ القادمةِ سوفَ أذهبُ بنفسِيَ أو معَ جارتِنا "أم غازي" إلى طبيبِ الأسنانِ. لكنْ إيّاكَ! أنْ تطلبَ أكْلاً أو طبيخاً نعِدُّهُ لكَ من البيتِ ولِمدّةِ أسبوعٍ على الأقلِّ منَ الآنَ...

حربُ استنزافٍ طويلةٌ

بُعيْدَ انتهاءِ الحربِ، حربِ النكبةِ الثانيةِ، توقّعَ جنرالاتُ حربِ العدوِّ اتصالاتٍ هاتفيةٍ من قادةِ الدولِ المُجاورةِ وغيرِ المُجاورةِ لَهُمْ تُخبرُهُمْ فيها رغبةَ كلٍّ منهم بالاستسْلامِ والرضوخِ لشروطِ الاحتلالِ الشديدةِ التّعجيزِ. صدَرَ قرارٌ منَ الأممِ المتحدةِ ومَجلسِ الأمنِ، الذي تسيطرُ عليهِ الدولُ الاستعماريةُ الإمبرياليةُ، وحَصَلَ فيهِ التباسٌ! أحْدَثَ تفسيراتٍ متغايرةٍ لأطرافِ النزاعِ حول "أل" التعريفِ فيما إذا كانَ الانسحابُ المطلوبُ من "المناطقِ" التي احتُلّت في الحربِ أو من

"مناطقَ" من التي احتُلَّتْ في الحربِ!. اجتمعَ قادةُ الدولِ المنكوبةِ ومن معهُمْ واتفقوا أنْ "لا صُلْحَ، لا اعترافَ، لا مفاوضاتَ" مع دولةِ الاحتلالِ؛ كلمةٌ واحدةٌ مكوّنةٌ من حرفَيْنِ (لا) وضعتْ حالةَ ومصيرَ المَنطقةِ على صفيحٍ ساخنٍ وأكُفِّ عفاريتٍ بشريةٍ، على التّوالي. البديلُ هو استمرارُ الحربِ، حربُ استنزافٍ طويلةُ الأمَدِ يُضطرُّ فيها العدوُّ للرضوخِ للمطالبِ بعدَ أنْ يتمَّ استنزافُهُ لدرجةٍ كبيرةٍ!.

كان المذياعُ الوسيلةَ الوحيدةَ، غيرَ الرحيلِ، للاتصالِ بينَ النّاسِ تَحْتَ الاحتلالِ والعالَمِ الخارجيِّ. في ذلكَ الوقتِ دَخَلَ مذياعُ "الترانزستور" حيّزَ الوجودِ بشكلٍ أكثرَ انتشاراً حيثُ يسهلُ اقتناؤُهُ لرخَصِ ثمنِهِ وسهولةِ حَمْلِهِ نظراً لخفَّةِ وزنِهِ وصِغَرِ حجْمِهِ. كلُّ منْ قَدَرَ أنْ يَمشيَ على قدميهِ تقريباً منَ الشّبابِ الواعي المتحمّسِ، أمسى مدمناً على حَمْلِ جهازِ مذياعِ ترانزستور. سادَ عهدُ الأغنيةِ الحماسيّةِ إلى جانبِ نشراتِ الأخبارِ من عددٍ لا يستهانُ بهِ من محطّاتِ البثِّ التي هبَّتْ! للوقوفِ ضدَّ الاحتلالِ ولتوعيةِ البشرِ بمصائرِهِمْ!. إلى جانبِ اضمحلالِ الحياةِ الاقتصاديةِ والثقافيةِ والاجتماعيةِ والنفسيّةِ لاحقَتْ وسائلُ الإعلامِ النّاسَ في المنطقةِ إلى أسرّةِ وفِراشِ نومِهِمْ ومطابخِهِمْ وحقولِهِمْ وأماكنِ عملِهِمْ. كان الجميعُ يتوقعونَ أنّهُ بقدرةِ قادرٍ سينهضُ أحدُ أساطينِ التاريخِ القديمِ، ينهضُ من قبرِهِ أو من يقومُ مقامَهُ، ليبدأَ المسيرةَ شَمالاً وجنوباً وشَرْقاً وغَرْباً في البرِّ والبحرِ والجوِّ يعيدُ الحقوقَ ويستعيدُ الأمْجادَ في آنٍ معاً!. أصبحتْ لدى سائقِ سيارةِ الأجرةِ مثلاً مادةٌ إعلاميةٌ في رأسهِ كافيةٌ لَهُ لأنْ يظهرَ بحنكةٍ سياسيةٍ أكثرَ حتى من رئيسِ وزراءَ متقاعدٍ، وصارَ عندهُ لسانٌ أطولُ منَ لسانِ امرأةٍ مهجورةٍ!. كانت أخبارُ المعاركِ عبرَ الحدودِ تأتي في أيّةِ لحظةٍ وعلى مدارِ السّاعةِ. تصلُ نفسُ الأخبارِ إلى الكبيرِ والصّغيرِ وبنفسِ الزَّخَمِ (قوّةُ الحركةِ والدّفعِ)؛ الصّغيرُ بَزَّ (تفوّقَ على) الكبيرَ في الجدلِ العقيمِ ولَمْ يبقَ للكبيرِ إلا أنْ يقعدَ مَلوماً مَحسوراً، ومن قِبَلِ الصّغيرِ في السّنِّ والقيمةِ.

"زولالة": هل سَمعتمْ ما قالتهُ البابَاكا قبلَ دقائقَ؟. أعلنتْ عن إصابةِ زورقٍ للعدوِّ حاولَ ضرْبَ إحدى المدنِ السّاحليةِ وشوهِدَ والنيرانُ تشتعلُ فيهِ!. يبدو أنَّ خُطةَ استدراجِ العدوِّ إلى حربِ الاستنزافِ قد نَجحتْ!.

حمد: زَورقٌ يهاجمُ مدينةً!؟. زورقٌ ليس بهِ أكثرَ من عددٍ مَحدودٍ جداً من الجنودِ يهاجمُ مدينةً فيها أكثرَ من مليونٍ من البشرِ. هل هذا ما تعنيهِ حربُ الاستنزافِ؟.

سرحان: بعدَ ذلكَ قام الطيرانُ المُعادي بضربِ مَحطّةِ الكهرباءِ التي تغذّي المدينةَ بالطاقةِ، كما يبدو انتقاماً لِما حدثَ للزورقِ وبسببِ حالةِ الإرباكِ التي سادتْ قيادةَ العدوِّ!.

أبوالزهو وحمد: استعملوا عقولَكُمْ قليلاً يا جَماعةً!. من أجلِ تدميرِ زورقٍ تصابُ مدينةٌ كاملةٌ بالشللِ شبهِ الكاملِ!.

سرحان: يا أخِيَ! هل الحربُ ربحٌ وخسارةٌ؟. المهمُ أخيراً من سينتصرُ!؛ حتى لو لَمْ يبقَ فينا إلا رَجُلٌ واحدٌ أو طفلةٌ واحدةٌ أو امرأةٌ واحدةٌ أو حتى عِرقٌ واحدٌ ينبضُ بالحياةِ.

حمد: الذي أراهُ أنّهُ إذا ما استمرَّ الحالُ هكذا فسوفَ يكون الملايينُ من الرجالِ والنساءِ والأطفالِ على قيدِ الحياةِ من الذين يَجوبون الأرضَ طولاً وعرضاً بَحثاً عن لقمةِ عيشٍ. سينتُجُ عن حربِ الاستنزافِ ملايينُ الشحاذينَ والمتسولينَ والمنكوبينَ.

سرحان وأبوالزهو: يبدو أنَّ هذا العدوَّ يستخدمُ أساليبَ ذكيةً أو يستغلُّ الغباءَ عندَنا. كيفَ لنا أنْ نُقحِمَ مدينةً كاملةً من الآمنينَ بمطاعمِهِمْ ومقاهيهِمْ و مدارسِ أولادِهِمْ ضدَّ قاربٍ واحدٍ بمنْ فيه من "كلابِ حربٍ" طائشينَ. احسبْها على ورقةٍ وقلم.....

حمد: لا ورقةً ولا قلماً، احسبوها من على ظهورِ قلوبِكُمْ. لأجلِك يا أبوالزهو كرهتُ الكتبَ والأقلامَ كلَّها.

إذاعةُ البابا كا (بلكنةٍ وذبرةٍ إذاعيةٍ قويّتيْنِ): جاءَنا الآنَ ما يلي؛ سُمِعَتْ أصواتُ هديرِ المدفعيةِ الثقيلةِ عبْرَ خطوطِ وقفِ إطلاقِ النيرانِ وبشكلٍ كثيفٍ .... ويقولُ مراسلُ البابا كا المتواجدُ حالياً في الجبهةِ أنَّ أعمدةً كثيفةً من الدخانِ الأبيضِ والأصفرِ والأسودِ شوهدَتْ تتصاعدُ من مواقعِ العدوِّ المقصوفةِ.

سرحانَ وأبوالزهو: ها، الحربُ تستعرُ من جديدٍ، ولَّعتْ!. دخانٌ، حرائقُ، ألسنةُ لهبٍ، أعمدةُ دخانٍ. يا أخِيَ! الحربُ كرٌّ وفرٌّ. الحربُ سجالٌ. فيها خسائرُ ... نتحمّلُها، ولكنَّ النتيجةَ محسومةٌ لصالِحنا.

حمد: يا أبوالزهو، هذه المعاركُ وسحبُ الدخانِ والحرائقُ، كلُّها تستقرُّ في قلوبِنا وفي عُقرِ دارِنا. إنّها بعيدةٌ كثيراً عن حتى أطرافِ أقدامِ العدوِّ. يا جماعةُ! أكلَّما أذاعتْ البابا كا خبَراً عبرَ مراسلِها؟، الذي لا أحدَ منا يعلمُ مكانَهُ وأحوالَهُ ونواياهُ، تشتدُّ العواطفُ وتثورُ عندَكُمْ ويشيطُ خيالُكُمْ في آفاقِ المَجدِ، وتبدؤونَ بالصّراخِ ... انتصرْنا انتصرْنا. إلى متى ستستمرُّ هذه الحالةُ معكُمْ؟!.

سرحان: إذن قلْ لِيَ، ماذا تريدُ أنْ نفعلَ؟. هل تريدُنا أنْ نرفعَ الرايةَ البيضاءَ؟. نستسلمُ؟!. ننامُ وحقوقُنا وأراضينا مسلوبةٌ؟. تُجبرُني على أنْ أرفعَ صوتِيَ عليكَ. أنا سعيدٌ أنَّكَ لسْتَ رئيساً للجمهوريةِ أو وزيراً للدفاعِ أو ضابطاً في الجيشِ أو حتى جندياً طاهياً أو سائقاً في مجموعةِ الدعمِ "اللوجستيةِ" (التموينُ والعتادُ) في الجبهةِ، أو لَخرَّبْتَ الجبهةَ بأفكارِكَ المسمومةِ الهدّامةِ.

حمد: أعطنِي مَجالاً لكيْ أتكلمَ، لا تندفعْ عليَّ كَ"جُلمودِ صخْرٍ حطَّهُ السّيلُ من عَلِ"!.

أبو جاسر (يأتي ويرى حمد وسرحانِ وأبوالزهو في نقاشٍ حادٍّ): أريدُ أنْ أعرفَ متى ستصرفونَ جهودَكُمْ نَحْوَ دروسِكُما وعلمِكُما وعملِكُمْ؟!. إذا ما استمررتُمْ على هذه الأحوالِ سوفَ لنْ تكونَ لكُما هنالكَ مدارسُ ولن يكونَ هنالكَ مَحصولٌ من الحقولِ وستضعونَنا في وضعِ شحاذينَ على قارعاتِ الطرقِ. سوفَ نطرقُ بابَ العدوِّ قبلَ الصّديقِ طالبينَ المساعدةَ. واللهِ! يا حمد سوفَ توصِلُنا إلى حالةِ عيشٍ لا تقبلُ بها الكلابُ الضالّةُ إذا ما استمرَّ الحالُ بينكَ وبينَ المذياعِ هكذا. أما آنَ الأوانُ لكيْ تَفيقَ من حالةِ الضياعِ التي أنتَ غارقٌ فيها!. تارةً قالتْ إذاعةُ "صوتِ العروبةِ"، تارةً أخرى "صوتُ الأحرارِ" وأخيراً وليس آخراً البابا كا!.

أبوالزهو: لا تَخفْ ولا تفزعْ سوفَ تَسيرُ الأمورُ على خيْرِ ما يرامُ.

أبو جاسر: يا سيدَ! أبوالزهو لقد قُمنا بعملٍ "نبيلٍ" بإزالةِ خصيتيْكَ لكيْ تتفرّغَ لعملِكَ وتركّزَ وقتَكَ في أشياءَ مفيدةٍ لكَ ولَنا، وأنْ لا تفعلَ مثْلَ هؤلاءِ الشبابِ الطائشِ. أرى أنَّ ذلكَ لَمْ يُجْدِ معكَ نفعاً، ويَجبُ البحثُ عن طريقٍ آخرَ لتحقيقِ هذا الهدفِ بعدَ الفصلِ بينَكَ وبينَ حمد!.

حمد: إيّاكَ يا والدِيَ يا أبو جاسر أنْ تفكّرَ بأيِّ عملٍ ضدَّ أبوالزهو، هذه المرَّةَ لنْ تَمرَّ الأمورُ بسلامٍ.

دخلتْ الوالدةُ أم جاسر حاملةً بعضَ الأخبار.

أم جاسر: أُخبرُكَ يا سيدَ أبو جاسر بأنَّ صِهرَكَ، زوجَ ابنتِكَ "محظوظة" من المرحومةِ زوجتِكَ الأولى، السّيدَ "درباس" بَعَثَ برسالةٍ قويّةٍ يقولُ فيها أنّهُ يرغبُ أنْ نُرسلَ لهُ زوجتَهُ وأولادَهُ فوراً عبرَ الحدودِ وبأيَّةِ طريقةٍ مُمْكِنةٍ. علينا أنْ نتدبّرَ الأمرَ سواءً أكانتْ خطوطُ وقفِ إطلاقِ النارِ (الحدودُ الجديدةُ) هادئةً أمْ ساخنةً، أكانتْ الطرقُ البرّيةُ مَحفوفةً بالمخاطرِ أمْ سالمةً، أكانتْ الأجواءُ مكفهرّةً أمْ صافيةً!؛ علينا أنْ نُخاطرَ بتهريبِهِمْ عبرَ الحدودِ حيثُ لا توجدُ طريقةٌ متاحةٌ أخرى.

أبو جاسر: ولِماذا لا يأتي بنفسهِ ويصطحبُ عائلتَهُ كلَّها معهُ؟.

حمد: وماذا أنتمْ فاعلونَ؟. إنّ الطرقَ كلَّها مغلقةٌ ودورياتُ الاحتلالِ تصولُ وتَجولُ المناطقَ بالقربِ من منافذِ الحدودِ السّرّيةِ والعلنيةِ!.

أبو جاسر: ما رأيُكِ يا أم جاسر لو تُخبرينَ السّيدَ "عبدُهُ المالِحْ" بالأمر. عَلمْتُ أنّهُ قادرٌ على التسلّلِ من وإلى الحدودِ عبرَ خطوطِ وقفِ إطلاقِ النارِ والأسلاكِ الشائكةِ وحتى المكهربةِ منها. سوفَ نعطيهِ ما يطلبُهُ من مالٍ للمساعدةِ في تهريبِ "محظوظة" وأولادِها عبرَ خطوطِ الهدنةِ إلى الخارجِ.

أبوالزهو: وسوف أقومُ بمصاحبةِ أختِنا "محظوظة" وأولادِها إلى آخرِ نقطةٍ حدوديةٍ علنيةٍ قبلَ أنْ يبدأَ التسلّلُ السرّيُّ بعيداً عن أنظارِ الناسِ!.

حمد: وكيفَ لنا التأكّدُ من ضمانِ وصولِ "محظوظة" وأنْجالِها بَرَّ الأمانِ والسلامةِ؟!.

أم جاسر: لا تبدأْ تضربُ أخْماساً بأسداس، السّيدُ "عبدُهُ المالِحْ" رجلٌ معروفٌ بأمانتهِ وذكائهِ ونباهتهِ. المهمُّ أنْ نَحلَّ المَشكلةَ... أخيراً يَجبُ جَمْعُ شَملِ عائلةِ "درباس" مع بعضِها البعضِ.

أبوالزهو: بالنسبةِ لِيَ لن يكونَ لِيَ من هذهِ المشاكلِ نصيبٌ لا حاضراً ولا مستقبلاً. وعندما ترسلُ رسالةً يا أخِيَ حمد إلى أخيكَ جاسر بلّغْهُ أحرَّ سلامِيَ وقُبلاتِيَ!.

"محظوظة": أريدُ أنْ أبقى هنا عندَكُمْ وفي بيتِيَ الذي بنيناهُ بكلِّ تعبٍ ومشقّةٍ وصرفِ مدّخراتٍ؛ أنا مستعدٌّ لقضاءِ بقيةِ حياتِيَ على الخبزِ والملحِ في بلدِيَ، لا أريدُ الغربةَ عن بلدِيَ. مضى على زوجِيَ السّيدِ "درباس" أكثرَ من خَمْسَ عشرةَ (١٥) سنةً يعملُ في "الشركةِ الوطنيةِ للألبسةِ والأطعمةِ"؛ لا أعرفُ ماذا تستفيدُ هذه الشركةُ منه وماذا يستفيدُ منها. يعملُ في الأسبوعِ ما مقدارهُ أقلَّ من يومٍ واحدٍ ومعاشُهُ لا يكفي الأسرةَ أسبوعاً واحداً من الشهرِ. هلاّ تتحمّلونَ بقائِيَ وأولادِيَ هنا عندَكُمْ وفي بلدِيَ ووطنِيَ؟!. آهي هي هي هي هي هي ("محظوظة" تبكي وتتوسّلُ البقاءَ وعدمَ السّفرِ والرحيلِ من الأوطانِ).

حمد: كلُّ يومٍ سنَقَسِمُ بينَنا ثَمَنَ حِمْلِ اللّبَنِ والخضارِ النصفَ بالنصفِ أو الثُّلثيْنِ لكِ بالثُّلثِ لنا يا أختِيَ "محظوظة" أو حتى الثّلاثةَ أرباعَ لكِ بالربعِ لَنا.

"عبدُهُ المالِحْ" (سَمِعَ من أهلِ القريةِ برسالةِ السّيدِ "درباس" وجاءَ يسعى ليعرضَ المساعدةَ في ترحيلِ "محظوظة" بالتسلّلِ إلى خارجِ الوطنِ!): خذْ منِّيَ عهداً يا سيدَ أبو جاسر أنَّ ابنتَكَ السّيدةَ "محظوظة" مثْلَها مثْلَ أختٍ لِيَ، ولن يكونَ بينِيَ وبينَها شيءٌ؛ لا ما حلّلَ اللهُ ولا ما حرّمَ!. "محظوظة" بعُهدَتِيَ وليشهدْ عليَّ ربِّيَ وسوفَ أوصلُها إلى برِّ الأمانِ والسلامةِ. أعرفُ أقربَ الطرقِ وأكثرَها أماناً وبعداً عن عيونِ الدورياتِ الحدوديةِ ونقاطِ المراقبةِ للعدوِّ. قُمتُ بمساعدةِ العشراتِ من

الناسِ للعودةِ إلى الوطنِ أو الخروج منهُ في ظروفٍ غايةً في الخطورةِ والصّعوبةِ. أصبحَ عنديَ التهريبُ عبرَ الحدودِ أسهلَ من الحصولِ على رغيفٍ حافٍ من خبزِ الحياةِ!. توكّلوا على اللهِ العليِّ القديرِ!.
أبوالزهو وسرحان: إنَّ قلبيْنا مطمئنّانِ لِهذا الرجلِ الكادحِ!. سوفَ نرافقُ السّيدةَ "محظوظةً" إلى أبعدِ نقطةٍ قربَ الحدودِ حاملينَ معنا الأغراضَ وبعضَ الأثاثِ والطّعامِ والمياهِ اللازمةِ للشربِ في أعمقِ نقطةٍ جغرافيةٍ في العالَمِ، حسبَما أخبرني بِهِ حمدَ. جهِّزْ نفسَكَ أخِيَ حمد غداً وقبلَ بزوغِ الفجرِ حيثُ ستبدأُ رحلةُ اللا-عودةِ على مقربةٍ من "جسرِ العودةِ" ..... يا جسرَ الأحبابِ أنا أسْميتُكَ جسرَ العودةِ ... (مقطعٌ من أغنيةٍ وطنيّةٍ للسيدةِ فيروز).
البابا كا: خبرٌ عاجلٌ، جاءَنا الآنَ ما يلي: "وَصَلَ مبعوثُ الأممِ المتحدةِ إلى المنطقةِ في مُحاولةٍ لِجمعِ الأطرافِ المتنازعةِ على قبولِ القرارِ الدَوليِّ الصّادرِ من الأممِ المتحدةِ والذي يُطالبُ قواتِ الاحتلالِ بالانسحابِ من مناطقَ مُحتلّةٍ أو المناطقَ المُحتلّةِ أو من مناطقَ سيتمُّ احتلالُها حيثُ تتحدّثُ الأنباءُ عن نيّةٍ لدى العدوِّ لتوسيعِ مناطقِ الاحتلالِ لتشملَ مناطقَ جديدةً!.
سرحان: أنا معَ الانسحابِ من كافّةِ المناطقِ المُحتلةِ قديماً وحديثاً ومستقبلاً.
حمد: وإذا لَمْ ينسحبوا؟!.
سرحان: فلن يكونَ هنالكَ سلامٌ، لن يَحصلوا منا لا على السّلامِ ولا على الأمانِ؛ المعادلةُ واضحةٌ!.
أبو جاسر: ومنذ متى هم بحاجةٍ إلى سلامٍ أو أمنٍ منّا؟!. هم أساسُ الحربِ وعدمُ الاستقرارِ. يبدؤونَ الحربَ وينهونَها لَصالِحِهِمْ ويتّهموننَا بأننا السّببُ، هذه اسطوانةٌ قديمةٌ حديثةٌ وللأسفِ لا يزالُ حالُها سارياً!.
حمد: يا والدِيَ العزيزَ!، تقولُ دائماً أنَّ عندكَ خبرةً في الحياةِ والسّياسةِ ومع هؤلاءِ الناسِ بشكلٍ خاصٍ بما يقاربُ الأربعينَ (٤٠) سنةً؛ هل من الممكنِ أنْ تُخبرَنا عن نظريةٍ أو فكرةٍ على الأقلِّ كيفَ نتعاملُ مع مثلِ تلكَ الكوارثِ التي تَحدثُ، كيف يُمكنُ تَجنُّبَها؟!. أبوالزهو واحدٌ منا فينا وسرُّهُ عميقٌ جداً؛ لا تقلقْ من هذه الناحيةِ إنْ كان لديكَ شيءٌ من السرِّ تريدُ البوْحَ بِهِ!. لقد مضى على حربِ الاستنزافِ هذه مستعرةً وعلى الأشدِّ "عشراتُ السّنينِ" منذُ النكبةِ الأولى استنزفتْ كلَّ شيءٍ لديْنا حتى أعظُمَنا وجَماجِمَنا وعقولَنا!؛ نَحْنُ في كلِّ يومٍ "نَمضي مقهورينَ لا نَملكُ غيرَ تراثٍ من ماضي!" (جزءٌ من قصيدةٍ شعريةٍ).
أبوالزهو: وسرُّكُمْ أفديهِ بِحياتِيَ ولا أُفشيهِ.
أبو جاسر: واللهِ! أنا مطمَئنٌّ من جهةِ أبوالزهو أكثرَ منكَ ومن والدتِكَ أم جاسر، وهذا أوّلُ الأسرارِ وأهَمُّها. السرُّ الثاني هو يا أولاداً! أنَّ هذه لعبةٌ بينَ الدولِ الكبرى. إنّهُ صراعٌ وإتفاقٌ بينها حسبَ مصالِحِها. حتى زعماؤُنا المَحليونَ ليس بمقدورِهِمْ الحلُّ والربطُ وليس لديهِمْ الإمكانيةُ لعملِ أيِّ شيءٍ؛ حالُنا أقوى من حالِهِمْ في مثلِ هذه القضايا السّياسيةِ. نراهُمْ في بزّاتِهِمْ الرسْميةِ وسياراتِهم الفاخرةِ نظنُّ أنَّهُمْ على شيءٍ!. وعندما نراهُمْ يتكلمونَ لغةَ أهلِ الفرنجةِ نَحسبُ أنَّ لَهُمْ عند هؤلاءِ حساباً؛ همْ ليسوا بأكثرَ من "طراطيرْ" (جَمْعُ طرطورْ وهو الذي لا يُسمحُ لهُ باستخدامِ عقلهِ في عملهِ خشيةَ أنْ يُخطِأ!) أو حتى "جحوش" عندَ الاستعمارِ، لكنَّهُمْ هنا "على عينِكَ يا تاجراً"! (مثلٌ شعبيٌّ لِمنْ يظهرُ أمامَ النّاسِ أكثرَ هيبةً من

حقيقتهِ). هذا سرٌّ أطلبُ منكمُ عدمَ البوحِ بهِ حتى لو قُطِّعتْ رؤوسُكُمْ أو صُلبتُمْ على جذوعِ الشجرِ!.
حمد: ماذا تقصدُ بالدولِ الاستعماريةِ؟، حتى الاتحادُ السّوفيتيُّ الذي يعطينا كلَّ أنواعِ السّلاحِ التي نطلبُها ودونَ مقابلَ تقريباً؟!.
أبو جاسر: منذُ بدأتُ الحديثَ معكَ عرفتُ أنّكَ "ستشمُصُ" بيَ ويا ليتنيَ لَمْ أعطِكَ مَجّاناً هذا السرَّ الذي كلَّفني معظمَ حياتيَ حتى توصلتُ إليهِ. الحديثُ معكَ مثلُ جرِّ المِحراثِ خلْفَ بَغْلٍ "شَموصٍ"!. الاتحادُ السّوفيتيّ؟! أكثرُ الدولِ مدعاةً للخِزْيِ؛ هؤلاءِ أناسٌ ليسَ عندَهُمْ دينٌ أو ضميرٌ أو خوفٌ من اللهِ، في كلِّ مرّةٍ يورّطوننا بحربٍ وفي "منتصفِ البئرِ يقطعونَ الحبلَ بنا"!.
حمد: يا والدِيَ هذا الفكرُ الرجعيُّ الذي تَحملُهُ والذي تغذّيهِ الإمبرياليةُ الدوليةُ وتُمِدُّهُ بالمالِ والسّلاحِ والدعمِ السّياسيِّ لإجهاضِ أيِّ تَحرّكٍ ثوريٍّ جَماهيريٍّ عارمٍ يطيحُ بالقوى العميلةِ المستبدةِ وطبقةِ "القومبرادور" من مصّاصي دماءِ شعوبِهِمْ!.
سرحان وأبوالزهو: توقّفْ قليلاً! لا عجباً دائماً نَراكَ منهمكاً في التفكيرِ الخارجيِّ كمنْ يتصلُ مع الجنِّ؛ تسيرُ بِخُطىً مثلَ الذي يَجلسُ على شيءٍ كما لو اكتشفَهُ بفكرهِ وتعبهِ!. لقد عرفْنا الآنَ أينَ تذهبُ الأموالُ الضائعةُ من أثْمانِ بيعِ اللّبنِ والبَنْدورةِ؛ نَعرفُ ذلكَ الشخصَ صاحبَ دارِ بيعِ الكتبِ في المدينةِ الذي يُغريكَ بِمِثْلِ هذه الكتبِ التي تَحوي تلكَ الأفكارَ السّامةَ!.
أبو جاسر: من الآنَ فصاعداً سوفَ أتسلَّمُ حسابَ بيعِ اللّبنِ والخضارِ من أبوالزهو فقط، ولن أسْمحَ لكَ أنْ تأخذَ منها فلساً واحداً. الأولادُ يتضوَّرونَ جوعاً بينَما تصرفُ ريعَ اللّبنِ والتّينِ والبَنْدورةِ على مؤلّفاتِ "لينين" الكافرِ الملحدِ!.
حمد: ومن الآنَ فصاعداً أريدُكَ أنْ تَحسبَ لِيَ ساعاتِ عملٍ مُحدّدةٍ وعُطَلاً دوريةً وسنويةً وبدلَ تقاعدٍ وتعليماً مَجّانياً وخدماتٍ صحيةً ودوريةً مَجانيةً ....
أبو جاسر: وأخيراً تريدُ منّيَ أنْ أفتحَ لكَ "كيبوتس" ("كيبوتس" كلمةٌ من قاموسِ الاحتلالِ وتعني قريةً تعاونيةً تتبعُ الطرقَ الاقتصاديةَ الاشتراكيةَ في العملِ والخدماتِ ومن الممكنِ أنْ تتطوّرَ إلى مستعمرةٍ أو مستوطنةٍ أو حتى مدينةٍ كبيرةٍ) زراعياً خاصاً بكَ وبأبوالزهو؟!.
"زولالة": يا إخواناً، ويا بشراً!. ابتعدوا عن التصعيدِ والمواجهةِ، ويا أخِيَ حمد عليكَ أنْ تتراجعَ أمامَ والدِكَ الذي ربّاكَ ولكنه لَمْ يُحسنْ تربيتَكَ! وتركَكَ تنمو مثلَ "النياصِ" تطلقُ رياشَها في كلِّ اتّجاهٍ؛ وكلّما اقتربَ منكَ أحدٌ أمطرتَهُ بوابلٍ من هذه الرِّياشِ المؤذيةِ!.
حمد: إياكُمْ أنْ تُشجّعوا الوالدَ أبو جاسر على أنفسِكم وأنفسِنا؛ إذا ما تَمَكَّنَ من رقابِنا سَيستعبدُنا ونصبحُ عندَهُ كالأنذالِ. سوفَ لن يتركَ طريقاً للراحةِ إلينا ولن ينفعَ بعدَ ذلكَ أنْ نعضَّ أصابعَ الندمِ!. البشرُ يسعونَ إلى السّيطرةِ المطلقةِ على كلِّ شيءٍ.
أبوالزهو: أعرفُ ذلكَ أكثرَ منكَ ومن غيرِكَ من بني البشرِ!.

الغِنى غنى العقلِ لا المالِ

لَمْ يتلقَّ أبوالزهو أيَّ تعليمٍ مدرسيٍّ في حياتِهِ ولن يتمَّ لهُ ذلكَ في المستقبلِ. لقد وُلِدَ مَحروماً من هذه المَيّزةِ التي قد يكونُ لَها أثرٌ سلبيٌّ أو إيجابيٌّ!؟. في الماضي كانَ الذي لَمْ يذهبْ إلى المدرسةِ يشكّلُ عبئاً ثقيلاً على نفسِهِ عندما كانَ التعليمُ مهمّاً وكان الكتابُ خيرَ جليسٍ. مع التطوّرِ والتحديثِ صارتْ الدولُ تُخصّصُ جزءاً كبيراً من دخولِها كمصروفاتٍ على جهازِ التعليمِ. لكنْ مع التقدُّمِ في التكنولوجيا والصّناعاتِ الإلكترونيةِ وعلْمِ الحاسوبِ وتطبيقاتِهِ صارَ تعلُّمُ القراءةِ والكتابةِ يتخذُ منحىً جديداً. كلُّ الدروسِ التي يتعلّمُها أبوالزهو هي مباشرةً من الطبيعةِ والحياةِ وما حولهُ؛ غالبيةُ تلكَ الدروسِ قاسيةٌ أحياناً بلْ وقاسيةٌ جداً في أحيانٍ لا يستهانُ بعددِها. كغيرِهِ من الخلقِ الذينَ تنقصُهم أشياءٌ يُحاولونَ التعويضَ عنها بأشياءَ أخرى تساعدُهم في "خطفِ الأضواءِ" أو على الأقلِّ تحويلِها عن بعضِ مسارِها. هو أيْ أبوالزهو يرى حمد يتقاضى عن كلِّ بقلولةٍ يبيعانِها! خمسةَ قروشٍ، ويرى حمد يُدخلُها في جيبِهِ ويسمعُ صوتَ احتكاكِ وضربِ النقودِ ببعضِها، وهو كذلكَ يرى حمد مستبدلاً إياها فيما بعدُ بمأكولاتٍ تفوحُ منها الروائحُ الطيبةُ للبشرِ، ويرى أنّهُ ما أنْ يصلَ حمد البيتَ حتى يبادرَهُ الأهلُ بالسّؤالِ عن كميةِ النقودِ المكتسبةِ في ذلكَ اليومِ والتي يعدُّها على والدِهِ قرشاً قرشاً. إذنْ! هو يعرفُ! أنَّ محورَ النقودِ أو المالِ ذو أهميةٍ خاصةٍ وحساسةٍ؛ بل وأكثرَ حساسيةً عندما يقلُّ المحصولُ ويكثرُ النقاشُ الحادُّ بينَ حمد وأهلِهِ. يعرفُ أبوالزهو كذلك أنّهُ يَجبُ عليهِ العملُ أكثرَ لِجلبِ أكبرَ كميةٍ من هذه المادّةِ التي تُحدثُ رنيناً مُحبّذاً عندَ بني البشرِ على الأقلِّ.

حمد (معَ عودِهِ يعزفُ ويُغني!): دن دن دن... دن دن دن دن.... دندندندندن ن.... دن دن دن دنـنن .....لالالالالالالالــلا.... دن دج دن دج دج دن.... ليـه يـا بنفسـج بتبهج؟! وإنت زهر حزين .. والعين تتابعك آه ... وطبعك محتشم ورزين .... ليه يا بنفسج بتبهج؟! ... وإنت زهر حزيييييين.

أبوالزهو يأتي عابساً ويقفُ مقابِلَ حمد، لا يبتسمُ! ولا هو منشرحٌ.

حمد: ماذا بِكَ يا صديقِيَ؟. هلّا تُحبُّ ألْحانَ الشيخِ "صالح عبدالحي". هذه أكثرُ الألْحانِ عِتْقاً في المعنى والروحِ الأصيلةِ.

أبوالزهو: لقد قرّرتُ أنْ آخذَ مصيريَ بيدِيَّ!. أريدُ أنْ أصبحَ غنيّاً، مثلِيَ مثلَ بقيةِ الخلْقِ، الأغنياءِ منهُمْ. أريدُ أنْ يكونَ عندِيَ معرضٌ لبيعِ الأدواتِ الكهربائيةِ، "فيلّا" مثلَ بيتِ طبيبِ الأسنانِ، وحديقةٌ مثلَ حديقةِ بيتِ النائبِ في مَجلسِ الشعبِ وسيارةٌ مثلَ سيّارةِ مديرِ المصرفِ التجاريِّ في المدينةِ ....

حمد: يا حبيبِيَ أبوالزهو، هذا الذي تذكرُهُ لا يأتي بالتمنّي!. يَحتاجُ هذا إلى حظٍّ ورضا والديْنِ وعمَلٍ ووقتٍ طويليْنِ وميزانيةٍ كبيرةٍ فيما بعدُ. لِماذا تفكّرُ أنَّ الأمورَ تأتي بتلكَ السَّهولةِ؟!.

أبوالزهو: مضى عليَّ أكثرَ من سبعِ (٧) سنينَ أعملُ ليلَ نَهارَ؛ أريدُ "مدّخراتِيَ" لأتصرَّفَ بِها كما أشاءُ!.
حمد: تعرفُ يا أبوالزهو أنَّ الأعمالَ التي نقومُ بِها لا تدرُّ مالاً كثيراً. كلُّ الغلّةِ التي نبيعُها تأتي بنصفِ جنيهٍ في اليوم، ٥٠ قرشاً؛ يذهبُ نصفُها تقريباً وبشكلٍ فوريٍ على الأولادِ حتى قَبْلَ مغادرةِ أسواقِ المدينةِ والباقي يذهبُ مصروفاتٍ علينا وعلى الأكلِ والمدارس. ذلكَ يعني أنّهُ بعدَ عملٍ متواصلٍ طوالَ سنةٍ من الممكنِ أنْ نوفّرَ أقلَّ من عشرينَ (٢٠) جنيهٍ فقط. بمقدورِكَ أنْ تسألَ الوالدَ أبو جاسر في ذلكَ. حتى لو بِعْنا العِجْلَ الذي يربّيهِ الوالدُ وأمَّ العِجْلِ (البقرة) وحتى البيتَ الذي نسكنُهُ كلَّهُ! لنْ نَتمكَّنَ من تَحقيقِ أقلَّ القليلِ من طموحاتِكَ وما تصبو إليهِ.
أبوالزهو: إذن ما العملُ؟!، شيءٌ يُقَطِّعُ القلبَ ويَحرقُ الأعصابَ أنَّ أشخاصاً مستواهُمْ العقليُّ أقلَّ مني بكثيرٍ ولديهِمْ شركاتٌ ومُمتلكاتٌ وعزٌّ وجاهٌ في الحلِّ والترحالِ.
حمد: إنْ كنتَ تقصدُ القطاعَ الخاصَّ!، هذا قطاعٌ كافرٌ يعبدُ المالَ بدلَ عبادةِ الخالقِ تعالى، اللهُمَّ عافِنا واعفِ عنّا. هل تريدُ أنْ تصبحَ تاجرَ ثلاجاتٍ مثلاً؟!.
أبوالزهو: وما العيبُ في ذلكَ وما المانعُ؟!. كلُّ ما يتطلّبُهُ الأمرُ هو حملُ الثلاجاتِ من مكانٍ ووضعِها في المعرضِ بانتظارِ زبائنَ غافلينَ وبالأسعارِ جاهلينَ أطلبُ منهم ما يطيبُ لِيَ من ثمنٍ للبضاعةِ. ما يصدقُ على الثلاجاتِ ينسحبُ على الغسالاتِ والدراجاتِ والبضائعَ الأخرى.
حمد: هذا طريقٌ طويلٌ نوعاً ما وعلى السّمسارِ أنْ يبدأَ بالتجارةِ بالثلاجاتِ المستعملةِ أولاً؛ وعندما يبيعُ ثلاجةً عليهِ أنْ يكونَ قادراً على حلْفِ عشراتِ الأيمانِ المتتاليةِ ودونَ تردّدٍ وعيونُهُ مغمضةٌ. أيّةَ لعثمةٍ أو "تأتأةٍ" ولو خفيفةٍ ستجعلُ الزبائنَ يشكّونَ بالأمرِ وينفرونَ ويلغونَ الاتّفاقَ أو حتى عقدَ البيعِ والشراءِ. في تلكَ الحالةِ يَخسرُ السّمسارُ البيعَ والزبائنَ في آنٍ واحدٍ؛ عليهِ أنْ يكونَ جاهزاً للحلفِ أربعاً وعشرينَ (٢٤) ساعةً في اليومِ، وطوالَ حياتهِ اللهُمَّ إلا قبلَ وفاةِ الشخصِ بقليلٍ يفصحُ فيها عما ارتكبَ من خطايا طالباً المغفرةَ والغفرانَ، إنْ تَمَّ لهُ ذلكَ!.
أبوالزهو: هذا طريقٌ يؤدّي إلى الهاويةِ!؛ حتى حِمارٌ لا يتحملُ الخطايا الناتِجةَ عنهُ. الكسبُ الحرامُ، كما يقولونَ، لا ينفعُ عندَ العقابِ!.
حمد: كلُّ طبقةِ "القومبرادور" الذين أعرفُهُمْ وصلوا إلى ما وصلوا إليهِ بهذهِ الطريقةِ!. لكن هل تريدُ أنْ يصبحَ لديكَ مليونُ جنيهٍ دفعةً واحدةً وبينَ عَشيّةٍ وضُحاها؟. لا توجدُ طريقةٌ إلا أنْ نعثُرَ على منجمِ فحمٍ أو ذهبٍ أو أيِّ معدنٍ أو مادةٍ أخرى في الأراضي التي يَمتلكُها الوالدُ أبو جاسر ثُمَّ نتعاقدُ مع إحدى الشركاتِ العالَميةِ لاستثمارهِ مقابلَ رسم خاصٍّ بنا. هذا أقربُ الطرقِ في الوقتِ الحاليِّ لكيْ تصبحَ مليونيراً الآنَ ومليارديراً في المستقبلِ، ربّما!.
أبوالزهو: تلكَ شركاتُ الذهبِ والمعادنِ وغيرُها كلُّها لصوصٌ ومصاصو دماءٍ ولا أريدُ حتى التفكيرَ في شؤونِهِمْ؛ لنْ أدخُلَ مع الدولِ والشركاتِ الكبرى في صفقاتٍ مثْلَ هذهِ، دعْكَ من هذهِ الأفكارِ الغريبةِ البائسةِ!.
حمد: يا صديقِيَ! حِلمَكَ ومهلاً عليَّ قليلاً. صديقُنا "أبو وردة" يعملُ حارساً ليلياً للمصرفِ، مصرفِ المدينةِ التجاريِّ الرئيسِ. سأقومُ بِحمْلِ مسدّسٍ "بلاستيكيٍّ"

مُموّهٍ وسأقتربُ منهُ أثناءَ نوبةِ الحراسةِ الليليةِ وأهدّدُهُ بهِ. ما أنْ يستسلمَ السّيدُ "أبو وردة" لَنا حتى ندخلَ إلى البنايةِ ونأخذَ كلَّ ما في المصرفِ التجاريِّ من مدّخراتٍ للمودعينَ ومن عملاتِ احتياطٍ صعبةٍ.

أبوالزهو: لا أقومُ بمثلِ هذا العملِ، ثُمَّ إنَّ هذا السّيدَ "أبو وردة" صديقُنا وحبيبُنا ولن نستغلَّ نَفسَهُ في حبِّ التصالحِ والتسامحِ مع الناسِ من أجلِ تَحقيقِ أهدافٍ شريرةٍ!.

حمد: إذن أخبرْنِ يا صديقِيَ!، هذا كلُّ ما لديَّ من خُطَطٍ سريعةٍ لجعلِكَ غنياً بينَ عشيةٍ وضُحاها. يا أبوالزهو طموحاتُكَ تَحرقُ قلبِيَ ويا للهولُ والويلُ على الحالةِ الكئيبةِ التي أنتَ فيها واقعٌ.

أبوالزهو: أعرفُكَ أذكى من ذلكَ. فَكِّرْ بطريقةٍ مشرِّفةٍ ويقبلُها العقلُ، مرّةً تقولُ لِيَ أنْ نَحفرَ في الصّخرِ وأخرى تريدُ أنْ تُهاجِمَ أعزَّ صديقٍ لدينا "أبو وردة" في عمليةِ سطوٍ مسلحٍ "كاذبةٍ"!. لَمْ يبقَ عليكَ إلا أنْ تقترحَ علينا زراعةَ الأرضِ بنبتةِ الدينارِ (نباتٌ يستخدمُ في صناعةِ مشروبِ البيرةِ) أو القِنَّبِ أو "الحشيشِ"، وتضعَ حياةَ وسُمعةَ والدِكَ أبو جاسر في قبضةِ الأبالسةِ المنتشرينَ في دهاليزِ المدينةِ والقريةِ خلف أزقّةِ اليأسِ البائسةِ!.

حمد: آه، جاءتني فكرةٌ جيدةٌ!. تعرفُ "مَحلاتِ الشيخ مراد" في المدينةِ والتي يتمُّ فيها الإعلانُ عن سحوباتِ "يانصيبٍ" كلَّ بضعةِ أسابيعَ. "الشيخُ مراد"! وليس أحدٌ غيرُهُ؛ صديقُ وحبيبُ كلِّ الشعبِ الكادحِ كذلكَ!. بعدَ بيعِ حِمْلِ اللّبنِ والخضارِ نَمُرُّ عليهِ في المَحلِّ ونشتري منهُ تذكرتيْنِ، ثَمَنُهما ناتجُ غلّةِ اليومِ. لعلَّ وعسى أنْ تربحَ أو أربحَ، لا فرقَ بيني وبينَكَ يا أبوالزهو، "من العُبِّ إلى الجيْبِ"!. (مثلٌ شعبيٌّ يعني لا فرقَ فيما يَختصُّ بالمالِ المدّخرِ بين شخصيْنِ جدُّ متقاربيْنِ)..

أبوالزهو: وهل تريدُني أنْ أصبرَ ثلاثةَ أشهرَ حتى يأتِيَ موعدُ السّحْبِ؟. أريدُ أنْ أصبحَ مليونيراً هذه الليلةَ، وقبلَ طلوعِ الفجرِ!.

حمد: ثلاثةُ أشهرٍ! مدةٌ قصيرةٌ تأتي وتذهبُ مثلَ طرْفةِ عينٍ. ثُمَّ إنّهُ حتى تباعَ كلُّ البطاقاتِ ويتجمّعَ لدى "جَمعيةِ أصدقاءِ القديسينَ الصّالحينَ الخيريةِ" المالُ الكافي للجوائزِ وكذلكَ الأرباحُ لمجلسِ الأمناءِ فيها؛ يَجبُ أنْ نصبرَ ثلاثةَ أشهرَ.

أبوالزهو: هل ذلكَ يعني أنَّ أموالَ الجائزةِ الكبرى آتيةٌ من أموالِ هذا الشعبِ الكادحِ المسكينِ!. لقد كنتُ أظنُّ أنّها من أموالِ جَمعيةِ "أصدقاءِ الصّالحينَ" وأنّها أموالٌ شريفةٌ نَظيفةٌ!.

حمد: هذه أموالٌ من دمِ أشخاصٍ مثلِيَ ومثلِكَ. ليس هذا المهمَّ في الوقتِ الحاليِّ، المهمُّ أنْ تَحصلَ على الجائزةِ الكبرى. لكن قلْ لِيَ يا "مِليونيرَ" أبوالزهو! ماذا تريدُ أنْ تفعلَ بهذا الكمِّ الهائلِ من المالِ بعدَ أنْ يصبحَ بينَ يديْكَ؟، أعني فرضاً للجَدَلِ فقط!.

أبوالزهو: هل هذا هو السّؤالُ الصّعبُ؟!. ما الذي يَحدثُ عندما يصبحُ الشخصُ مليونيراً؟. يعني ذلكَ أنّهُ يصبحُ قادراً على عَمَلِ أشياءَ كثيرةٍ، منها الجميلِ ومنها القبيحِ. بالنسبةِ لِيَ سوفَ أقومُ بمساعدةِ المزارعينَ، بشراءِ بذورٍ لَهُمْ وإعطائِهِمْ قروضاً طويلةَ الأجلِ ......

حمد: قُلْتَ قبيحةً بعدُ!؟. ذلكَ لأنّكَ بالمالِ يُمكنُ أنْ تقومَ بأعمالٍ توصِلُ فيها أشخاصاً غيرَ مؤهلينَ إلى مراتبَ يصعُبُ عليهِمْ حتى أنْ يَحلُموا بها في حياتِهِمْ وبِمؤهّلاتِهِمْ

العاديّةِ. ستصبحُ لديكَ قدرةٌ على أنْ تساعدَ شخصاً ليصلَ إلى مرتبةِ مدرّسٍ في جهازِ التعليمِ، أو تساعدَ شخصاً آخرَ ليحصلَ على وظيفةٍ في سفارةِ الدولةِ في الخارجِ، أو حتى أيَّ شخصٍ ليصلَ إلى مرتبةِ نائبٍ في البرلمانِ، مَجلسِ الشعبِ، أو حتى وزيرٍ في الحكومةِ ...

أبوالزهو: سوفَ أساعدُ ما أراه مناسباً وقدْرَ المستطاعِ. وإذا ما كانَ ذلكَ الشخصُ يعزُّ عليَّ كثيراً سوفَ أساعدُهُ بغضِّ النظرِ عن تلكَ "النتائجِ المرتقبةِ"!. يا صديقِيَ! ما الذي سيحدثُ؟!.

حمد: هل تساعدُ شخصاً غيرَ مؤهّلٍ بشكلٍ حقيقيٍّ للوصولِ إلى درجةِ مدرّسٍ في جهازِ التعليمِ يشلُّ بل يَحرقُ عقولَ البراعمِ والأولادِ والصّبيةِ والشبابِ لقاءَ كَسْبِ ودِّهِ وودِّ أهلِهِ؟!. وهل تساعدُ مهندساً في الطاقةِ جاهلاً وغيرَ مؤهَّلٍ ليستلمَ عملاً في شركةِ كهرباءِ المدينةِ مثلاً حيثُ تصبحُ المدينةُ بأكملِها تَحْتَ رحْمةِ جهلِهِ في علمِهِ وعملِهِ؟!.

أبوالزهو: لا لنْ تصلَ الأمورُ عندِيَ إلى ذلكَ الحدِّ. إنَّ هذا الذي تقولُه هو من نسجِ خيالِكَ الأرعنِ. هذا ما جنتْهُ المدرسةُ وجهازُ التعليمِ عليكَ. لا يقدرُ أنْ يفعلَ جهازُ التعليمِ بِيَ ما يفعلُهُ بعقلِكَ. لنْ أقومَ بأعمالٍ كتلكَ التي وصفْتَها. تلكَ الأعمالُ يقومُ بها البَشَرُ عندما تَملأُ جيوبَهُمْ الأموالُ؛ كوارثُ ... كوارثُ ... كوارثُ. لعلَّ وعسى وليتَ أنْ لا أفوزَ بمالٍ كهذا حتى نظلَّ أصدقاءَ وأحبّةً؛ وتُسمعُنا صوتَ النّاي معَ صوتِكَ الحلوِ العذبِ يا صديقَ العمرِ!. آخ من مكركَ يا "بوحميد" عليَّ أنا!.

حمد: ليس لنا في الحالةِ هذهِ أحسنَ منْ موشحِ اسْمُهُ ؟!... آهٍ ... لقد نسيتُ اسمَ مؤلّفهِ وملحّنهِ ... هل لكَ أنْ تُذكّرني به يا أبوالزّهو ... دن طن رن... سن جن فن ...

أبوالزهو: مثلِيَ مثلُكَ كذلكَ، أجهلُ هذا الموشّحَ اسْماً ولَحْناً .... لكنْ كما يقولونَ "لَكْ بَلّشْ أي شي أولووه" (لتبدأ بأيِّ شيءٍ يا هذا)

حمد: دن دم دن دم دن ن ن ن... رايح فين يا مسليني يا بدر حبك دا (هذا) كاويني .... إملأ المُدام يا جميل واسقيني .... من كثر شوقي عليك ما بنام ....

أبوالزهو: .... ومن الشباك لأرميلي لك حاااالي، من الشباك أرمي لك حاااالي (تُكَرَّرُ مرّتَيْنِ) يا عيني .... من كثر خوفي علييييك ما بناااام ...

هجرةٌ ورحيلٌ

عندَما يعودُ أحدُ المغتربينَ إلى مسقطِ رأسهِ أو موطنِ أهلهِ وأصحابهِ وأقاربهِ الأصليِّ يقومُ عادةً بسردِ أحاديثَ طويلةٍ عن الحياةِ في البلادِ الأخرى، قد يكونُ استقرَّ بهِ الأمرُ فيها أو على وشكٍ. يكتسبُ الأمرُ طابعَ إثارةٍ من نوعٍ خاصٍّ إذا ما كانت البلادُ الموصوفةُ تتمتّعُ بسمعةٍ عالميةٍ، ولو بعضَ الشيءِ، من ناحيةِ الازدهارِ الاقتصاديِّ والرّخاءِ الاجتماعيِّ وكانَ لديْها قدْرٌ لا بأسَ عليهِ من الحريّاتِ الشخصيّةِ والفكريةِ والسّياسيةِ. على أنَّ المثلَ الشعبيَّ يقولُ: "لا تُصَدِّقْ العجوزَ الذي ماتَ أبناءُ جيلِهِ ولا الشابَّ الصّغيرَ المغتربَ!"؛ ذلكَ أنَّ أيّاً منهما لنْ يَجِدَ من يُكذّبُهُ، فيما لو بالَغَ في وصْفِ الأمورِ لصالِحِهِ، مِمّن كانوا معهُ من أبناءِ جيلهِ أو أصحابهِ!.

أبوالزهو: لَمْ أعدْ أطيقُ استمرارَ العيشِ هنا في هذا المكانِ. يَجِبُ أنْ أسافرَ، أنْ أرحلَ، أنْ أهاجرَ، مثلِيَ مثلَ غيريَ. في كلِّ يوم أسألُ نفسِيَ السّؤالَ التاليَ: "ليش أنا هون"؟!. بالعربيِّ الفصيح: "لِماذا أنا هنا"؟!.

حمد: يا أبوالزهو، ماذا انتابَ عقلَكَ؟. حَسِبْتُكَ تُحِبُّ الأرضَ والوطنَ والبيتَ والأهلَ والجيرةَ. ماذا قَلَبَ عقلَكَ رأساً على عقبٍ؟. هل نَقَصَ عليكَ شيءٌ؟. تأكلُ مِمّا نأكلُ، وتشربُ مِمّا نشربُ، وننامُ جَميعاً ونستظلُّ تَحْتَ سقفٍ واحدةٍ تقريباً!، وتقريباً لديْنا نفسُ الفِراشِ للنومِ أو للراحةِ!.

أبوالزهو: ليستْ الحياةُ فقط أكْلاً وشرْباً ونوْماً، ثُمَّ أينَ منّي أكلٌ وشربٌ ونومٌ هذا الذي تتحدّثُ عنهُ؟. هل هو في هذا البيتِ البائسِ الذي ليسَ إلا حجرةً واحدةً، "حَوْشٌ" (بلغةِ أهلِ الشامِ مثلِ فِناءٍ أو باحةٍ) غيرُ مُبَلَّطٍ، يَحُدُّهُ جدارٌ من الحجارةِ المُجَمَّعةِ من الجبلِ والتي تحتضنُ فيما بينَها الفئرانَ والسّحالي والجرذانَ والأفاعي والحشراتِ من مُختلفِ الأعمارِ والأحجامِ؟!. لقد سئمْتُ هذهِ التوليفةَ ذاتَ التصرفاتِ غيرِ المتوقعةِ والمزعجةِ!.

حمد: لا لا لا أبوالزهو! أتعلنُ تَمرّداً مُشيناً علينا هنا؟!. كلُّ ما موجودٌ لدينا هو في متناولِكَ وعلى مدارِ السّاعةِ. عندما تأكلُ الوالدةُ أم جاسرٍ "سِنَّ بطيخٍ" تتقاسَمُهُ معكَ!؛ عندما يأكلُ الوالدُ أبو جاسر رغيفَ خبْزٍ يضعُ نصفَهُ في فمِكَ قَبلَ أنْ يأخذَ منهُ لُقمةً واحدةً. ألا تشربُ من نفسِ وعاءِ الماءِ الذي يشربُ منهُ جَميعُ أفرادِ عائلةِ أبو جاسر؟!. أليسَ كلٌّ حبيبٍ! أو نسيبٍ لعائلةِ أبو جاسر يقولُ أنَّكَ تعيشُ أكثرَ رغدِ عيشٍ من أيِّ فردٍ في العائلةِ كلِّها؟!. الوالدُ أبو جاسر، وما أنْ ينهيَ غَسْلَ يديْهِ ووجهَهُ حتى يضعَ راحتَهُ على مقدّمةِ وجهِكَ. ما أنْ يفيقَ الأولادُ الصّغارُ من نومِهِمْ في الصّباحِ حتى يأتونَ إلى صحبةِ حضرتِكَ بأحلى تَحيةٍ يفورُ منها الحنانُ العاطفيُّ والإنسانيُّ، يَحلمُ كلُّ فردٍ في الأسرةِ في الحصولِ على مثلِها ولو مرّةً واحدةً في السّنةِ ولو كانَ ذلكَ بعدَ غيابٍ ليسَ بقصيرٍ. لَمْ يبقَ لكَ يا أبوالزهو إلا أنْ تُطلِقَ النارَ علينا! وتقتلَنا، أو نَموتُ ونَحْنُ نبتهلُ أثناءَ تسجيلِ أسْماءِنا وتهانينا في "ديوانِ حبِّكَ!.

أبوالزهو: ما هذا الهراءُ الذي تتلفّظُ بهِ؟!. أنا الذي لولاهُ لَما استطاعَ أيُّ فردٍ من أفرادِ العائلةِ فيكُمْ كلّكُمْ أنْ يَخرجَ من البيتِ وفي جيبهِ قرشٌ واحدٌ. أنا الجنديُّ المعلومُ المجهولُ الذي ما أنْ يغمضَ لِيَ جفنٌ حتى يفتحَ الآخرُ وأنا ساهرٌ على مصلحةِ وأمنِ العائلةِ الاجتماعيِّ والاقتصاديِّ وحتى الفكريِّ والسّياسيِّ. أنا الذي لولاي لَما ذهَبْتَ أنتَ وجلسْتَ طوالَ السّنةِ على ما تسمّيهِ مقاعدَ التعليمِ والدراسةِ. وخاصّةً أنتَ يا حمد، أيُّها الحقيرُ الأرعنُ!، لولا عملِيَ المتواصِلُ الدائبُ المتفاني في الإخلاصِ لَما تَمكّنْتَ حتى مِن الاقترابِ من مركزِ المدينةِ وتفقّدِ مرافقِها التجاريةِ وخدماتِها الطبيةِ وشِراءِ ما لَذَّ وطابَ لكَ وللأولادِ الصّغارِ. هل أصبحَ عندَكَ عينٌ تفتحُها بعينيَّ وهامةٌ ترفعُها فوقَ هامتِي لتتجمَّلَ عليَّ بأكلٍ من أكثرِ الأكلِ تواضعاً في الدنيا؟!. قرّرتُ نِهائيّاً أنْ أهاجِرَ، وغرباً!. هناكَ بلادُ الخيرِ والجمالِ والحضارةِ. من الممكنِ بعدَ سنواتٍ، سنواتٍ قليلةٍ من وصولِيَ إلى هناكَ، أنْ أدرِّبَ أناساً للهبوطِ على سطحِ القمرِ! ... أو على سطحِ كوكبٍ آخرَ!.
حمد: وهلْ أنت يا أبوالزهو قادرٌ أنْ تهبطَ على سطحِ القمرِ أو الأرضِ أو المريخِ؟!. وإذا ما كنتَ تعرفُ ذلكَ لِماذا لا تعلّمُنا، ولماذا تعلّمُ أولادَ الأجانبِ ذلك؟. نَحْنُ أبناءُ عشيرتِكَ! أَوْلى بتلكَ القدراتِ الفائقةِ. لكنْ وبالمقامِ الأوّلِ، كيفَ لكَ أنْ تهبطَ على سطحِ القمَرِ؟!.
أبوالزهو: لا أقدرُ على الهبوطِ بنفسِيَ على سطحِ أيِّ شيءٍ ولكنّي أقدرُ أنْ أُعَلِّمَ بقيّةَ الخلْقِ الذين يودّونَ عَمَلَ ذلكَ!. وسوف أرسلُ مع هؤلاءِ الناسِ قائمةً بأسْمائِكُمْ وما ترغبونَ قولَهُ لكيْ ينشرونَها ويبثّونَها عبرَ الفضاءِ ليذيعَ صيتُكُمْ إلى حيثُ الأثيرِ اللانِهائيِّ. ثُمَّ مرّةً أخرى وأخرى، "لِماذا أنا هنا"؟!. حتى لو عملتُ بأيِّ شيءٍ هناكَ؛ لو حَمَلْتُ "شنكلا" (شَمّاعةً يعلّقُ عليها البائعُ المتجوِّلُ أغراضَهُ للبيعِ) معلّقاً عليهِ بعضَ الجواربِ وضفائرَ من حبالِ المُغّيطِ (حبالٌ مطاطيةٌ رفيعةٌ وطويلةٌ تستخدمُ لأغراضٍ متعدّدةٍ في البيتِ) فسوفَ أستفيدُ وأتقدّمُ. لو أصبحتُ "أيَّ شيءٍ" هناكَ خيرٌ لِيَ من وجودِيَ هنا، في هذا المكانِ الذي آثرَ فيه الزمنُ والخَلْقُ على التوقّفِ والسّكونِ الأبديّيْنِ!.
حمد: يا أبوالزهوَ، إذا أنتَ بينَنا هنا تظلُّ تسألُ نفسَكَ هذا السّؤالَ البائسَ، حتى لو تذهبُ إلى فرنسا، وعاصمةِ فرنسا .. باريس .. لسوفَ تظلُّ تسألُ نفسَكَ نفسَ السّؤالِ. ثُمَّ من قالَ لكَ شيئاً عن بيعِ الجواربِ وحبالِ المغّيطِ؟، عسى أنْ لا يكونَ السّيدُ "أبو مرْعِزْ"!. إنَّ "أبو مرْعِزْ" إنسانٌ طائشٌ وصاحبُ خيالٍ واسعٍ وسيُخرِّبُ بيتَ حالِهِ وبيتَ أولادِهِ ومن كان قريباً منهُ، والعياذُ باللهِ. دائماً عندَما يُفلِتُ لسانَهُ بالدعايةِ للدولِ والشعوبِ الغربيةِ يَملأُ المكانَ هذْياً وكذباً ودونَ أيِّ خجلٍ من نفسِهِ ولا حياءٍ.
أبوالزهو وسرحان: وماذا بشأنِ هؤلاءِ الأصحابِ الذين يصبحونَ "روّاداً" في الطبِّ والهندسةِ والفنِّ والسّياسةِ .... كيفَ لَهُمْ ذلكَ؟! هؤلاء وأهلُهمْ هنا، وحتى هُمْ عندَما كانوا هنا، لا يَجدونَ في بيوتِهِمْ إلا الخُبْزَ والملْحَ وبعضَ زيتِ الزيتونِ لتناولِهِ في معظمِ أكلِهِمْ اليوميِّ ....
حمدَ: لِمَ تسيرانِ في خيالِكُما وراءَ صورٍ فوتوغرافيةٍ جُهِّزتْ بعنايةٍ في استوديوهاتِ تصويرٍ خاصةٍ وباستعمالِ خبرةِ مصورينَ مُحترفينَ، في خلْقِ شيءٍ من لا شيءَ في الصّورةِ؟!. فيها يصوِّرُ المغتربُ نفسَهُ أمامَ ناطحةِ سحابٍ أو مبنى

شركةِ تأمينٍ لِيوهمَ نفسَهُ ويوهمَ أهلَهُ وبقيةَ الخلْقِ من بعدهِ كما لو كانَ يَملكُ شيئاً من هذه البنَايةِ أو تلكَ، أو يقومُ بمجرَّدِ العملِ في أيِّ مرفقٍ من مرافقِها!. حتى فيما لو حصلَ معهُمْ مثلُ ذلكَ، مبروكٌ عليهِمْ؛ ماذا يضيرُكُما؟ بلْ قولا: " هل من مزيدٍ لَهُمْ"!.

أبوالزهو: مهما تقولُ وتزيدُ في القولِ فلقدْ قرّرتُ أنْ أهاجرَ لا مَحالةً. سئمتُ حياتِيَ معَكَ، مع والدِكَ ووالدتِكَ وكافّةِ إخوانكَ وأخواتكَ. سئمتُ الحيَّ والقريةَ و"قُبحَ" جَمالِ القريةِ و"اغبرارَ" صفاءِ سَماءِ القريةِ. لَمْ أعُدْ أرى في الحياةِ هنا ما يَحوزُ على أيِّ إعجابٍ من عندي!.

حمد: لا لا لا، يا أبوالزهو، هدِّئْ من غيظِكَ، ورِقَّ قليلاً على حالِنا وحالِكَ. تناولْ كأساً من الماءِ المغليِّ بـ"الميرميةِ" (نبتةٌ طبيةٌ شعبيةٌ تكثرُ في الأريافِ) والنَّعناعِ. سأوافقُ معكَ!، سوفَ تسافرُ إلى بلادِ الغربِ. ولكنْ قلْ لِيَ كيفَ السّبيلُ لكَ إلى ذلكَ؟. هل لديكَ مالٌ كافٍ؟. هل لديكَ شهاداتٌ جامعيةٌ متقدمةٌ؟. هل تتقنُ أيَّةَ لُغةٍ أجنبيةٍ؟. هل تَحملُ أيَّةَ براءةِ اختراعٍ؟. هل.. هل.. هل.. لا يوجدُ عندَك، ولا عندَنا، من هذا أو ذاك شيءٌ!.

أبوالزهو: أريدُكَ يا صديقِيَ، إنْ كنتُ أعزُّ عليكَ أنْ تأخذَ بيديَّ، أنْ تفكِّرَ لِيَ بطريقةٍ للخلاصِ؛ أنا "مقهورٌ" من رأسِيَ حتى قدمَيَّ!.

حمد: يا أبوالزهو! أضحى وأمسى كلُّ وقتِيَ مُخصّصاً لِحلِّ مشاكلِكَ التي تعجزُ المُحافظةُ كلُّها عن حلِّ ولو جزءٍ بسيطٍ منها. حَسَناً!، هل تقبلُ اللجوءَ السّياسيَّ؟!. مُمكنٌ لكَ أنْ تَحصلَ على تأشيرةٍ وإقامةٍ طويلةِ الأجلِ، ومن الممكن لكَ الحصولُ على ما يسمّى هناكَ بـ"الكرتِ الأصفرِ أو البرتقاليِّ"؛ وبعدَ بضعِ سنَواتٍ ستتمكّنُ من الحصولِ على البطاقةِ الخضراءِ ثُمَّ على الجنسيّةِ مع كاملِ حقوقِ حاملِها. من الممكِنِ أنْ تَحصلَ على ما سبقَ ذكرُهُ بوقتٍ أسرعَ مِمّا تتوقّعُ فيما لو تَتمكّنُ من الزواجِ من إحدى المواطناتِ المعجباتِ بكَ هناكَ. ولكنْ ....؟!..

أبوالزهو: لكنْ ماذا؟! يا أخِيَ! هل الزواجُ فقطْ للجنسِ؟!.

حمد: لا لا لا يا أبوالزهو. ليس هذا قصدِيَ. لكنّكَ تعرفُ أنَّ كلَّ حياةِ النساءِ هناكَ تدورُ حولَ ذلكَ الشّيءِ!. لو كُنتَ "الزيرَ سالِمْ" في زمانِكَ، أو كانَ عندَكَ صيتٌ مثلَ "أبو زيدٍ الهلاليِّ" هنا، بدونِ ذلكَ الشّيءِ! فلا أحداً ينظرُ إليكَ؛ إلا القليلُ القليلُ!.

أبوالزهو: هل تريدُ أنْ تقولَ لِيَ أنّهُ لا توجدُ في تلكَ البلادِ من مثيلاتِ ليلى و"قَيْسِها بن الملوَّح"، وبُثَيْنَةَ "وجَميلِها ابنِ الذي!" ولا حتى جولييتْ "وروميوها ابنِ الذين ..." ...؟!. أنا أبوالزهو وأبْحثُ عنْ عشيقةٍ لِيَ تفي بالمستوى "العُذريِّ" المطلوبِ! في الحُبِّ الخالصِ الصّافي النّقيِّ!...

حمد: كأنَّكَ يا صديقِيَ لَمْ ترَ فيلماً واحداً من أفلامِ هوليوود!. هنالكَ! ما يقَدَّمُ من الجنسِ والإثارةِ ما هو مثلَ أكْلِ "الخيارِ البلَديِّ" عندَكَ؛ يَحلمُ أجدادُ أجدادِكَ بالوصولِ إلى ذلكَ القَدْرِ والمستوى مِنَ الإخراجِ والتنفيذِ والتمثيلِ وحتى "المونتاج"!.

أبوالزهو: إذن ما العملُ؟ لقد ضقتُ بكَ ذرعاً. لِماذا تُجبرُنِيَ على أنْ أقلِّلَ أدبِيَ معكَ!.

حمد: ما رأيُكَ يا عزيزِيَ إذنْ والحالةُ هذه أنْ تُعلِنَ عن نفسِكَ بأنَّكَ صاحبُ قلمٍ وفكرٍ؟. اكتبْ لكَ شيئاً، مقالاً مثلاً تطيلُ فيهِ لسانَكَ على أحدِ أعضاءِ المَجلسِ

القَرويِّ أو العُمدةِ، لعلَّ وعسى أنْ يسهِّلَ ذلكَ أمرَك وتنالَ ما تصبو إليهِ. في هذا المقالِ حاولْ أنْ تتّهمَ العُمدةَ مثلاً، بشيءٍ يَمسسُهُ في كرامتهِ الشخصيةِ أو سُمعتهِ في أحدِ مفاخرهِ .... مثلاً قد تُهاجمُهُ في طولِ أنفهِ وشواربهِ أو نقصِ لياقتهِ الجسديةِ، حينئذٍ تثورُ ثائرتُهُ ويتهمُكَ بأنّكَ تُحرِّضُ الجماهيرَ "الغفورةَ" والغفيرةَ ضدَّهُ. هذا يُحدثُ انشقاقاً "سياسياً" بينكَ وبينَهُ مِمّا يُمكنُ أنْ يعرِّضَ حياتَكَ للخطرِ من قِبَلِ جهازِ أمْنِ دولةِ العُمدةِ. وبدوريَ سوفَ أسألُ صديقنا الشيخَ "عايدْ البلبلْ" كيفَ حصلَ عَلى إقامةٍ وجنسيةٍ ومكّنَ لنفسهِ في تلكَ البلادِ، في حالةٍ مشابهةٍ لِما حدثَ مع غيركَ وما قد يَحدثُ معَكَ؟!.

أبوالزهو: آه، هذا طريقٌ مُمكنٌ. لكنْ أرجوكَ عندما تُخبرُ صديقَكَ هذا أنْ تقولَ لهُ أنَّ الأمْرَ سريٌّ جدّاً وأنْ لا يفضحَ الأمرَ ويُحوِّلَ القضيةَ إلى مثلِ فضيحةٍ ساخنةٍ يَجمعُ علينا فيها الصّغيرَ والكبيرَ، ويصبحُ الحديثُ عنّيَ دوْماً يتجدّدُ على لسانِ أهلِ القريةِ الأعداءِ قبلَ الأصدقاءِ!.

حمد: إنَّ تحقيقَ طلبِكَ هذا لَهُوَ من رابعِ المستحيلاتِ؛ ذلكَ لأنَّ الشيخَ "عايدْ البلبلْ" عندَهُ شفافيةٌ غيرُ معقولةٍ، ومثلُهُ مثلَ "سَمكةٍ" قنديلِ البحرِ لا يقدرُ أنْ يُخفيَ شيئاً بداخلهِ. لكنْ لأنَّهُ صديقُنا من الممكنِ أنْ نضغطَ عليهِ قليلاً لكَيْ يتحمّلَ مرارةَ كِتمانِ السّرِّ حتى تَحصلَ على تأشيرتِكَ عَلى الأقلِّ، وتَحُطَّ في مطارِ "شارلْ ديقولْ" أوَ مطارِ "قاتويكْ"... في أوروبّا، وتَجتازَ حواجزَ الإقامةِ والجوازاتِ والضرائبَ والمساءلاتِ الأخرى التي وَضعتْ الحكوماتُ بها كلَّ سلطانٍ، مُبينٍ ومَخفيٍّ!.

أبوالزهو: وصدِّقنِ يا صديقِيَ! لن أنساكَ ما حييتُ هناكَ؛ سوفَ أسعى لكَيْ أؤمِّنَكَ وأهلَكَ معِيَ تلحقونَ بِيَ فيما بعدُ. وسأعملُ ليلَ نهارَ لتستمتعونَ برغدِ العيشِ معِيَ هناكَ!.

حمد: أتَمنّى لكَ الخيرَ وأنتَ جديرٌ بذلكَ. أتوقّعُ لكَ مستقبلاً باهراً، خاصةً أنَّكَ من العقلياتِ النادرةِ الصّبورةِ والمثابرةِ. أتنبأُ لكَ بأنَّ أحداً سوفَ يُحاولُ أنْ يقومَ بزيارةٍ إعلاميةٍ لكَ ليطّلعَ على، أو تُطلعُهُ على، إنْجازاتِكَ العلميةِ والحضاريةِ. كوِّنْ لكَ مكتبةً خاصةً وضَعْ فيها من المُجلّداتِ والكُتبِ الكبيرةِ، خاصةً ما كُتِبَ منها بالحرفِ الأجنبيِّ!؛ حاولْ أنْ تبتعدَ قَدْرَ استطاعتِكَ عن الحرفِ العربيِّ المتخلّفِ!. تأكّدْ أنَّ البيتَ الذي تبنيهِ أو تشتريهِ لهُ حديقةُ نباتاتٍ ومزروعاتٍ خاصّةٌ تسيرُ في جوانبها، مع من يزورُكَ، على الأقدامِ فيما لو زارَك أحدٌ من هؤلاءِ وقرَّرَ الاستفادةَ الإعلاميةَ لنفسهِ من تَجربتِكَ الناجحةِ هناكَ!.

أبوالزهو: ومن هناكَ سوفَ أشْمخُ وأشْمخُ، وأكيلُ "قَرَفاً" (قرفْ هي كلمةٌ مَحليةٌ وتعني أشياءَ غيرَ مستحبةٍ ماديةٍ أو معنويةٍ تثيرُ التقززَ والاشْمئزازَ في النفسِ) وعيوباً ونعوتاً ومثالبَ على من تبقّى من خلفِيَ. سأرفسُ وأتبرّزُ على تلكَ الأيّامِ التي قضيتُها في هذهِ البلادِ الحقيرةِ والمُجتمعاتِ اللعينةِ!. وأعدُكَ أنّهُ لن ينجوَ أحدٌ من السّبِّ والشّتْمِ، حتى يتركَ القومُ ديارَهمْ وعن بَكرةِ أبيهِمْ ويصطفونَ في طوابيرَ طويلةٍ على أبوابِ السّفاراتِ والقنصلياتِ ومَخارجِ الدولِ، من مطاراتٍ ومراكزِ شرطةٍ أو حرسِ حدودٍ، للحصولِ على تأشيراتٍ ... وبأغلى الطرقِ وأكثرِها إذلالاً وخِزياً للّحى والذّقونِ. وإذا ما حَدَثَ شيءٌ سلبِيٌّ نتيجةً لذلكَ تكونُ "الأنظمةُ الحاكمةُ الفاسدةُ" مسئولةً!.

حمد: يا أبوالزهو!، هل تريدُ أنْ تفعلَ هكذا فظائعَ ومهازلَ حتى قبْلَ أنْ تَهبطَ! في مطارِ الهجرةِ والرحيلِ؟!. يا صاحبِيَ، ما قلتُهُ لكَ لا يتعدّى كونَهُ فكرةً خياليةً في طوْرِ التكوينِ!. من الممكنِ أنَّ صاحبَنا الشيخَ "عايدْ البلبلْ" ليسَ أكثرَ من "طرَطورٍ" لا يَقدرُ حتى أنْ يَخرُجَ من بيتهِ، وليسَ لديهِ ما يكفيهِ لِحلاقةِ ذقنهِ أو تَهذيبِ لِحيتهِ. من الممكنِ أنَّ الكلامَ الذي كانَ يقولُهُ لنا ليسَ أكثرَ من جَعْجَعَةٍ بلا طحين؛ لسانُهُ طاحونةُ ماءٍ يطحنُ بها أشعاراً و"أكليشيهاتٍ" (قوالبَ لغويةٍ) ملتقطةً من هنا وهناكَ، وكلامُهُ ليسَ أكثرَ من وسيلةٍ "لسانيّةٍ صوتيّةٍ" لدغدغةِ و"زغزغةِ" عقولٍ وأفكارٍ من يُمكنُ أنْ يصدِّقَهُ!. والحالُ تلكَ ماذا سيكونُ موقفُكَ؟!.

أبوالزهو: آخ عليكَ يا بوحميد! وعلى مكركَ عليَّ؛ لقد أوقعتني في مقلبٍ جديدٍ!. اتركْنِ بِحالِيَ؛ لقد شعرتُ منذُ البدايةِ أنَّ كلامَكَ عن هؤلاءِ وهؤلاءِ لا يكبرُ عن قيمةِ "وحلِ" الهراءِ!، لا هُمْ ولا علمُهُمْ ولا فكرُهُمْ. إنَّ حياتِيَ هنا أحسنُ بمليونِ مرّةٍ. أخِيَ بوحميد أنا "دخيلك"! أريدُ موّالاً أصيلاً من بلادِنا الواسعةِ الطيبةِ؛ من أصواتِ أهلِ الجبلِ "هُنيكْ" (باللهجةِ الشاميّةِ تعني هناكَ) ....

حمد: في البالِ أغنيةٌ فولكلوريةٌ.... وعلى مقامِ الراست الذي تُحبُّهُ أنتَ وكذلك تُحبُّهُ عائلةُ أبو جاسر ... دو ري مي فا ... يا طيرة طيري يا حمامة ... روحي على بر السّلامة .... جيبيلي من حبي علامة ساعة و خاتم ألماز ... أنا على ديني .... جننتيني! .... يا على ديني العشق حرام والله ....

أبوالزَهو: اللحنُ يطربُني لكنْ.... نريدُ أفكاراً ومعانٍ للحياةِ أكثرَ...

حمد: ....يا طيرة طيري بوادينا وحكيلو عللي مجافينا .... قولي له حبك ضانينا يا أسمر يا أبو الخال ... يا على ديني العشق حرام والله ....

أبوالزهو: يا عيني عليكَ يا حمد عندَما يسيطرُ الطّربُ على عقلِكَ ومفاصلِكَ ... تذهبُ إلى عالَمٍ آخرَ بالرغمِ من ضحالةِ فلسفةِ الكلماتِ!.

حمد: يا أبوالزّهو هل تريدُ من كلِّ الخلقِ أنْ يتحوّلوا إلى فلاسفةٍ!. هذه أغنيةٌ فولكلوريةٌ، يعني شعبيةٌ بالعربيِّ الفصيحِ. أعطِ قليلاً لقلبِكَ وروحِكَ!. من حينٍ لآخرَ لنسترْخ قليلاً ...

أبوالزهو: عرفتُ معنى كلمةِ فولكلوريةٍ!، إنَّها مثلَ تلكَ الأغاني التي يُغَنّيها الناسُ في الأعراسِ. قبلَ مدّةٍ قصيرةٍ، عندَما ذهبنا سويّاً لِحضورِ عُرسِ صديقِنا وكانَ الشّبابُ هناكَ يغنّونَ: "تلولحي (تلولحي كلمةٌ مَحليةٌ تعني بالعربيِّ الفصيحِ تَمايَلي) يا دالية..... يا أم قطوف عالية..... تلولحي عرضين و طول ..... تلولحي ما أقدر أطول"!. معظمَ الوقتِ والشبابُ في حالةٍ شديدةٍ من التهيُّجِ العصبيِّ والعضليِّ وهُمْ يغنّونَ تلكَ الأغنيةَ!..

حمد: يا أبوالزهو!، في الماضي القريبِ كانوا في زفّةِ العريسِ من ديوانِ قبيلتهِ إلى بيتِ العُرسِ يقولونَ ويظلّونَ يردّدونَ كلماتِ أغنيةٍ شعبيةٍ تَحتوي على بضعِ كلماتٍ فقط تُمَجِّدُ العريسَ وهي: "توروك! (شيءٌ لهُ علاقةٌ بالأتراكِ الذين حكموا البلادَ في السّابقِ) .... ولا نفهم جوابه!" أي أنَّ العريسَ يتكلمُ التركيةَ ولا نفهمُ عليهِ ما يقولُهُ {ملاحظةٌ: في تلكَ الأعراسِ ينقسمُ المشاركونَ بها إلى مَجموعتيْنِ؛ الأولى تقولُ كلمةَ "توروك" وبصوتٍ عالٍ .... لتردَّ عليها المَجموعةُ الثانيةُ بعبارةِ "ولا نفهم جوابه" وبصوتٍ عالٍ أيضاً} وهذا دليلٌ على أنَّ العريسَ في حالةٍ من التَّمَيُّزِ والرقِيِّ بِمكانٍ حيثُ يتكلّمُ لغةً (التركيةَ في هذه الحالةِ) لا يفهمُها عامّةُ الجمهورِ منَ

الدَّهْماءِ!. وأخيراً تَمكَّنا يا أبوالزهو من تأليفِ ردٍّ على العريس! في مثلِ هذهِ الحالةِ يتألَّفُ من مقطعٍ واحدٍ كذلكَ يقولُ: "والثور... يعدمه أصحابه!". (قولٌ شعبيٌّ من مثلِ استهتارِ بأصحابِ الثّور! ولغوياً تعني عسى الثّورَ أنْ يعدِمَ أو يقتلَ أصحابَهُ!).
أبوالزهو: بَعدَ ذلكَ تـأتي عَنـدِيَ! لتقنعَنـي بـأنْ أبقـى فـي هـذه الحالـةِ عنـدَ هـؤلاءِ الفولكلوريّينَ الأشاوسِ!. ها أنت نفسُكَ تعيدُ إليَّ فكرةَ الرحيلِ من جديدٍ إلى أيِّ مكانٍ في الشرقِ أو في الغربِ أو الشمالِ أو الجنوبِ!.
حمدٌ: آه.... الآنَ! خَطَرَ ببالِيَ فكرةٌ أعتقدُ أنّها جيدةٌ وعسى أنْ تساعدَكَ في الهجرةِ والرحيلِ إلى البلدانِ الراقيةِ!. تتلخصُ الفكرةُ بأنْ تقومَ بزيارةٍ خاصّةٍ إلى بيتِ أحدِ سفراءِ الدولِ الكبيرةِ أو حتى العظمى منها وتَحملُ لهُ أي للسفيرِ هديّةً مناسبةً. وما أنْ يرى السّفيرُ وضعَكَ النفسيَّ والماديَّ والمعنويَّ، إضافةً إلى أسلوبكَ الدبلوماسيِّ المُتمَيِّزِ بالتهذيبِ والأناقةِ و"الإيتِكيتْ"، حتى يَرِقَّ لكَ قلبُهُ ويعطيَكَ تأشيرةَ سفرٍ أو حتى هَجرةٍ نهائيةٍ إلى دولتِهِ!.
أبوالزهو: آه.... فكرةٌ جيدةٌ! .... لكنْ يا صديقِيَ ماذا لو أجدُ زوجتَهُ وحيدةً في البيتِ؟!. ما العملُ؟!، كما تعرفُ أستحي! من وضعٍ مُحْرِجٍ كهذا!.
حمد: المشكلةُ ستكونُ أكبرُ فيما لو تَجِدُ الزوجَ نفسَهُ، سعادةَ السّفيرِ، كذلكَ في البيتِ!.

انعدامُ النسلِ

مثلُهُ مثلَ بقيةِ المخلوقاتِ فإنَّ أبوالزهو يُحبُّ تكوينَ أسرةٍ! وينجبُ الأنْجالَ وكلُّ واحدٍ من أنْجالهِ ينجبُ أو تنجبُ وهكذا دواليك حتى تتكوّنَ لهُ قبيلةٌ وعشيرةٌ لا حدودَ لعددِ الأفرادِ فيها. لِمَ لا؟! وأبوالزهو يستمتعُ السّهلَ والجبلَ والمياهَ والهواءَ النقيَّ، عليهِ أنْ يدعوَ ما يقدرُ من نسلهِ إلى هذه الوليمةِ الطبيعيةِ المتواصلةِ!. وكغيرهِ من المخلوقاتِ ففي كينونتهِ وكيانهِ يرى! أنَّ الخلَفَ خيرُ من يَحفظُ اسْمَهُ ونوعَهُ بل يُمجِّدُهُ ويعَمِّقُ جذورَهُ ويرسلُ فروعَهُ في أعماقِ الحياةِ؛ يرثُهُ في الحقولِ الواسعةِ والنباتاتِ والأشجارِ المثمرةِ وغيرِ المثمرةِ وفي التراثِ الذي يَجمعُهُ نتيجةَ عصرِ دماغهِ ودمهِ وأعصابهِ الدائمِ طوالَ حياتهِ، من يَخلفُهُ في هذه التركةِ الكبيرةِ بعدَ رحيلهِ؟!.
يعملُ أبوالزهو أحياناً كثيرةً بالقربِ من عينٍ للماءِ جاريةٍ، يُحيطُ بخطِّ سيرِ الماءِ المتدفِّقِ منها قِطَعُ أراضٍ للجيرانِ ومنهُمُ العمُّ "أبوالطّيب"، أحدُ "أساطينَ" فنِّ الحراثةِ على الدّوابِ منذُ اختراعِ العَجَلةِ (الدولاب)!. يُعتقدُ! أنَّ العمَّ "أبوالطِّيبَ" أضافَ تعديلاتٍ على المِحراثِ الفرعونيِّ والرومانيِّ، والذي أصبحَ يعرفُ فيما بعدُ بالمِحراثِ البلديِّ!، قبلَ وصولِ المِحراثِ الآليِّ إلى المَزارعِ وتنقلبُ حياةُ الفلاحينَ هناك رأساً على عقبٍ!.

أبوالزهو: أصابُ باللوعةِ والأسى وخيبةِ الأملِ عندما أرى أنَّ أولادَ الخَلْقِ من حولِيَ في ازديادٍ يوماً بعدَ يوم. أنا غيرُ قادرٍ على إنْجابِ حتى مولودٍ واحدٍ أو مولودةٍ واحدةٍ. من سيخلفني في حياتِيَ؟. منْ يسدُّ الفراغَ من بعدِيَ؟. من يعمِّرُ الأرضَ بعدَ أنْ أرحلَ عنها؟. مَن. مَن. مَن..؟ عندِيَ ألفُ سؤالٍ وسؤالٍ تبدأُ كلُّها بمَن؟... من لَها من بعدِيَ؟!. من ينتقمُ لِيَ مِنْ أخيكَ "جاسر"؟!.

حمد: يا حبيبِيَ يا أبوالزهو! لِماذا تتركُ المَجالَ لكلمةِ "مَنْ" المكوّنةِ من حرفيْنِ فقط تقضُّ مضجعَكَ وتُعكِّر صفْوَ حياتِكَ؟ وحياتَنا معَكَ!. هذه أمورٌ بسيطةٌ ولا داعيَ للتهويلِ فيها. يُمكن لأيِّ ولدٍ من أولادِ الخَلْقِ الآخرينَ أنْ يكونَ ابناً لكَ، ولو تَخيّلاً .... كلُّ الأولادِ واحدٌ. لا فرقَ بينَكَ وبينَهُمْ، أنت منهمُ .... أو احسبْ حالَكَ منهمُ يا أخي.

أبوالزهو: ليسَ هذا بكلامِ عاقلينَ. لا أريدُ أولادَ غيريَ أولاداً لِيَ، أريدُ أولاداً لِيَ من صُلبِيَ ومن رحمِ قرينةٍ لِيَ يَحملونَ اسْمِيَ وشَرَفِيَ. من ينتقمُ لِيَ من جاسر و"الحَاجِّ صُعَيْب" على فعلتِهِمْ الإجراميةِ بحقِّيَ!؟. لا أريدُ أكثرَ من مولودٍ واحدٍ أو مولودةٍ. لا أريدُ أنْ أساهمَ في القنابلِ السّكانيةِ الناتجةِ عن بقيةِ الخلقِ!.

حمد: صدِّقْن يا صديقِيَ أنَّ حالَكَ أحسنُ من هؤلاءِ بكثيرٍ رغْمَ انقطاعِ خلفِكَ. كلَّ يومٍ أنت في خلوةٍ مع نفسِكَ، تفكّرُ في حياتِكَ ومستقبلِكَ، تفكّرُ في خيرِ الخلقِ وشرِّهِمْ. هؤلاءِ الخلقُ وغيرُهُمْ يَجلبونَ الكوارثَ للبيئةِ؛ شعارُهم الوحيدُ تقريباً هو التكاثرُ!.

أبوالزهو: أسألُ نفسِيَ دائماً، كيف يكونُ الحالُ بعد موتِيَ على هذه الأرضِ السّاحرةِ بجمالِها!؟.

حمد: ستبقى ساحرةً بجمالِها ولكنَّ تكالبَ الخلقِ عليها سوفَ يَجعلُها غيرَ صالحةٍ للحياةِ الآمنةِ الهادئةِ المشرقةِ. سوف يكثرُ أزيزُ مُحرّكاتِ السّياراتِ والجرّافاتِ والآلاتِ الزراعيةِ الثقيلةِ وسيذهبُ أمثالُنا أدراجَ الرياحِ، لتخلوَ الأرضُ لِمن يسكنُها بعضَ الوقتِ قبلَ أنْ تصبحَ جرداءَ عقيمةً في مقدمةٍ لانقراضِ الحياةِ على وجهِها!.

أبوالزهو: صدِّقْن أنَّ هذا هو نفسُ تفكيريَ. إذا ما كلُّ واحدٍ من أولادِ الخلقِ يتكاثرُ بنفسِ طريقةِ من سبقَهُ ستصبحُ هنالكَ مستعمراتٌ من أشبهِ ما تكونُ بالديدانِ الزاحفَةِ والفئرانِ القارضةِ والحشراتِ الآكلةِ، غالبيَّتُها من التي تَمشي على اثنتينِ!. سوف لن يكفيَهُمْ حليبُ الأبقارِ ولا قمحُ السّهولِ ولا خضارُ الوادي، سوف يهيمونَ على وجوهِهِم في حروبٍ ضدَّ بعضِهم البعضِ بعد أنْ يتفشّى فيهم الفقرُ والمرضُ والجهلُ وتشحُّ المواردُ الطبيعيةُ عليهم. أنا سعيدٌ بأنّهُ لن يَخلفني بعدِيَ من يساهمُ في هذه الفوضى والبؤسِ والشقاءِ.

حمد: لكن يا أبوالزهو إذا ما أصررتَ على أنْ يكونَ لك ولدٌ، قُرّةَ عينٍ وفلذةَ كبدٍ، تُحبُّهُ ويُحبُّكَ ويَخلفُكَ بعدَ موتِكَ، بعدَ عمرٍ طويلٍ، فلقدْ قرأتُ في مَجلّةِ "المستقبلُ الصّناعيُّ الطبيعيُّ!" قبلَ حوالي الأسبوعِ بأنّهُ يُمكنُ للشخصِ أنْ يتكاثرَ دونَ قرينةٍ. يُمكنُ لهُ استعادةُ خصوبتهِ عن طريقِ إضافةِ خِصيٍ جديدةٍ اصطناعيةٍ أو حتى نقلِ خصيٍ من شخصٍ إلى شخصٍ آخرَ بعمليةٍ جراحيةٍ في إحدى المستشفياتِ المتخصصةِ. أعتقدُ أنَّ هذا هو "الجوابُ الشافي"، إنْ صحَّ التعبيرُ، لِمعضلتِكَ ومعضلةِ من كان لهُ حالةٌ مشابهةٌ لكَ وهُمْ كُثُرُ.

أبوالزهو: لا أريدُ هذا ولا ذاكَ، الآنَ عندَما أفكّرُ جديّاً بحالِ أولادِ الخلْقِ من حولِيَ أشعرُ بالسّعادةِ والغبطةِ وأشكرُ فضلَ أخيكَ جاسرِ عليَّ!!. أتريدُني يا صديقِيَ أنْ أستعملَ خِصِيَّ غيريَ للإنْجابِ؟!. لا لا.. لن يَحدثَ ذلكَ أبداً.
حمد: لو كانَ جاسر قدْ وضعَ "حيواناتِك المنويةِ" في ثلاجةِ سائلِ النيتروجينِ البارِدِ جداً لتجميدِ نشاطِها الحيويِّ، ووقْفِ تقدّمِها نَحْوَ التلفِ أو الشيخوخةِ، لأمكنَكَ استرجاعَها وإعادتَها إلى طبيعتِها ثُمَّ الاستعانةَ بإحدى المعجباتِ! بكَ من الأتانِ، وهنَّ كثرٌ، لتستعيدَ خلَفاً لكَ على مزاجِكَ لكنَّك تعرفُ بأنَّ جاسر لَمْ يكنْ لهُ علمٌ بمثلِ هذه التقنياتِ (التكنولوجياتِ) المتقدمةِ عليه وعلى "الحاج صُعَيْب"!.
أبوالزهو: أنا سعيدٌ جدّاً أنَّ جاسر لَمْ يكنْ لديهِ علمٌ بتلك التقنياتِ المتقدمةِ كما تقولُ، ولن يكونَ لهُ في المستقبلِ ذلكَ!، وسأبقى على حالِيَ بدونِ أولادٍ (أقرارِ جمعُ قُرٍّ وهو نجلُ الحمارِ الصغيرِ) لِيَ. لكلِّ عملٍ مَحاسنُهُ ومساوئُهُ إلا أنَّ هذا العملَ، الذي قام به جاسر، لَهُ مَحاسنٌ فقط.
حمد: إذن، ما رأيُك يا أبوالزهو بفكرةِ "التبنّي"؟. تتبنّى واحداً من الأقرارِ الصّغارِ. بعْدَ شهورٍ قليلةٍ يصبحُ ذلكَ القرُّ قادراً على العيشِ والتفاهمِ والتعاملِ مع الحياةِ ومع ما حولَهُ بطريقةٍ حضاريةٍ!.
أبوالزهو: لا أريدُ حتى ذلكَ. أرجوكَ!، أريدُ أنْ تبقى "يديَّ نظيفتيْنِ" من كلِّ هذا!.
حمد: يا أبوالزهو، لا تكُنْ متشائماً إلى هذه الدرجةِ!. كذلكَ إذا ما أردتَ سوفَ نضعُ لكَ إعلاناً باسْمِكَ على صفحاتِ إحدى الجرائدِ أو المَجلاتِ تعبِّرُ فيهِ عن رغبتِكَ في التبنّي ...
أبوالزهو: لا تلفَّ ولا تُناورْ من جديدٍ عليَّ، أنا صاحٍ عليكَ!. لا أريدُ إعلاناتٍ ولا أولاداً ولا بطيخاً أصفرَ. سأصبرُ حتى تكبرَ وتبلغَ سنَّ الزواجِ!؛ تتزوجُ وتنجبُ أولاداً وسأقومُ، من عينيَ اليمنى لِعينِيَ الشمالِ، بالاهتمامِ بِهِمْ وسأعطيهِمْ كلَّ الرعايةِ والحنانِ والتعليمِ!، مثلَكَ وزيادةً!.
حمد: إذن، سوفَ تُفني حياتَكَ من أجلِ ذلكَ، من أجلِ حلمٍ وأملٍ غيرَ مضمونينِ، من أجلِ سرابٍ في الصّحراءِ. اتركْ عنكَ هذا يا صديقِيَ.
أبوالزهو: إذن ليس هنالكَ من حلٍّ آخرَ أو أنْ تستخدمَ عبقريتَكَ "المعهودةَ" في إيجادِ حلٍّ ملائمٍ. فكِّرْ ومعكَ الوقتُ كلُّهُ هذه السّنةَ بطولِها والسّنواتِ اللاتي تليها.

هنا يصلُ جارُهم في الأرضِ، العمُّ "أبوالطيب" يَحملُ بيدهِ سلةً صغيرةً من الكرزِ الأحْمرِ وحوالي نصفَ "حبةٍ"! من فاكهةِ الرّمانِ ....

"أبوالطيب": علمتُ أنكما هنا! قلتُ لنفسيَ لا بدَّ وأنَّ السّعادةَ ستغمرُ الواديَ هذا اليومَ بوجودِ أكثرِ زوجيْنِ من الخلقِ متوافقٍ مع بعضهِ. ما شاءَ اللهُ عليكُما، وعسى اللهَ أنْ يبعدَ عينَ الحسودِ عنكُما. منذُ زمنٍ طويلٍ أنا وصاحبيَ وأخِيَ الوالدُ أبو جاسرِ روحانِ بروحٍ. خُذا لكُما هذا الكرزَ وهذا الرمّانَ يا خاليَ! (يا خالي! تعبيرٌ عاميٌّ للتودّدِ والتقرّبِ مثلَ يا أولادَ أختي!)؛ تَمتَّعا بهِ وجُدْ علينا يا ابنِيَ حمد، بقليلٍ من الموسيقى، من الطربِ من الذي بينَ يديكَ من أداةِ طربٍ .....
حمد: دو ري مي فا صول لا سي دو (أغنيةٌ فولكلوريةٌ لفيروز ونصري شمس الدين) ...... آه يا عمي يا أبوذيب يدك أين كسرتها؟ ... بالصّيد. آه يا عمو يا أبوذيب رجلك أين فقشتها؟... بالصّيد. أين عضّتك الحية؟! .... بالصّيد. هالشيبة أين قضيتها؟! .... بالصّيد. وماذا تريد من الصّيد (أشو بَدَّك بالصّيد؟!).

"أبوالطِّيب": أريدُ الصّيدَ (بَدّي الصّيد) أريدُ الصّيدَ. أريدُ العالَمَ (بدي العالم) وحدودَ العوالمِ؟ ... أمسك نسوراً.. كل نسر قدي. أريد وأريد (بِدّي وبدي) أن تكون السّماءُ بجانبي ... أقفُ على أبوابِ الطرقاتِ ولا أعرفُ أين أهدّي (أحطّ) ... إيه إيه يا جدّي.
أبوالزهو: أريدُ أنْ أسْمعَ "الغنية باللكنة البآعية (البقاعية) يا خيِّ" الأصليةِ.
حمد: إحترتُ فيك يا أبوالزهو، إذا ما غنيْتُ باللغةِ المَحكيةِ المَحليّةِ تريدُني أنْ أغنّيَ لكَ بالفصحى وإذا ما غنيْتُ بالفصحى تريدُ المَحكيّةَ. لأجلِ عيونِ عمّيَ "أبوالطّيب" سوفَ نغنّيها باللكنةِ المَحليّةِ. تكرمْ عينَك يا خيِّ!.
"أبوالطّيب": لقد عِشتُ في لبنانَ ثلاثَ شهورٍ مع جدِّك جاسر (عسى اللهُ يرحمُ روحَهُ) في الجيشِ التركيِّ قبلَ الحربِ، وهناك تفرَّقْنا ولمْ نرَ بعدَها بعضَنا بعضاً. ثُمَّ عدْتُ إلى لبنانَ بعدَ حواليْ عشرينَ (٢٠) سنةً عندما أصابَ المنطقةَ هنا قحطٌ شديدٌ ولعدةِ سنواتٍ. واللهِ أيامٌ! مرّتْ عليَّ هناكَ. أطربُ لكلِّ شيءٍ اسْمهُ لبنانيٌّ. ....
حمد: أنا غيرُ مصدِّقٍ يا عمّيَ "أبوالطّيب" كيف البناتُ هناكَ تركوكَ تَهربُ من عندِهنَّ وترجعُ هنا، عَلى شكلِكَ وطيبةِ "ألبك" (قلبِك) وجَمالِ عيونِك!. سأغنّي لكَ من هناكَ يا عمي "أبوالطّيب" ..... كذلكَ للسِّتِّ فيروز ... دو ري مي فا..... كان عندنا طاحونا على نبع الماء، قدامه ساحات مزروعة فيء، جدي كان يطحن للحي قمحاً وسهرياتٍ! ... . ويبقوا الناسُ بالسّاحاتِ ... شي معهن أكياس ... شي عربيات..... رايحين جايين وعا هالطرقات تهدر غنيات..
أبوالزهو: ياي ياي ياي يا سهرَ الليالي!... ياي ياي ياي .. يا حلوة على بالي.
حمد: ...... وراحتِ الأيامُ.. وشوي شوي.. وسكت الطاحونُ على كتفِ المي، وجدّي صارَ طاحونةَ ذكرياتٍ! ... يطحنُ شمس وفيء.
"أبوالطّيب": ياي ياي ياي.. يا سهرَ الليالي .... ياي ياي ياي .... يا حلوةً على بالي .. نغني .. آه.. نغني على الطرقاتِ .... آخ على تلكَ الأيامِ الخوالي يا أولادَ، لو يوماً ترجعُ؟!.
حمد: قبلَ أنْ تُشَرِّفَنا يا عمّيَ "أبوالطِّيب" كنا نتحدّثُ عن مشكلةِ أبوالزهو مع الخلَفِ، من انقطاعِ للخَلَف عنهُ، وزيادتهِ عندَ غيرِهِ!.
أبوالزهو: ها هي هي هي هي.... لا أريدُ أنْ أُنْجِبَ أيَّ خَلَفٍ .... ها هي هي هي هي ... عليكَ أنْ تتركَني بحالِيَ!.
"أبوالطّيب": عندِيَ زوجانِ منهمُ، "طَحْشٌ وبَحْشٌ" (يَمتلكُ العمُّ أبوالطِّيب زوجيْنِ من الحمير الفحولِ ذاتِ البُنْيَةِ القويّةِ)، لو يفلِتا لا يتركانِ أحداً من شرِّهِما!. لكنّني أظلُّ أربطهُما من يديْهِما ورجليْهِما ورأسٍ ورقبةِ كلٍّ منهُما.
حمد: ماذا لو تُخفِّفَ عنهُما الطعامَ قليلاً؟. لكنَّكَ يا عمّيَ "أبوالطِّيب"، كما أعرفُكَ كريماً؛ ما شاءَ اللهُ ويداك دوماً مفتوحتانِ كرَماً، وخيرُك على الأهلِ والجيرةِ والديرةِ لا يقدَّرُ بثمنٍ.
"أبوالطّيب": حاولتُ أنْ أُقلِّلَ عليهما الأكلَ، خاصةً هذا المسمى "طَحْشٌ". أمسي الحائطُ وأضحى غيرَ قادرٍ على أنْ يَحتويَهُ ... ذلكَ الملعونُ!. بحالِيَ وجبروتِيَ بِتّ أخافُ من الاقترابِ منهُ!.
أبوالزهو: ها هيء هيء هيء هيء .... مرّاتٍ كثيرةً! لا يتركانِ الجيرانَ ينامونَ ليلَهمْ بسببِ الأصواتِ والحركاتِ الصّادرةِ عنهُما!.



بعدَ مرورِ حوالي السّنةِ على حدوثِ النكبةِ الكبيرةِ الثانيةِ على المنطقةِ قامَ العدوُّ باختراقِ حدودِ دولةٍ مُجاورةٍ لهُ بقواتٍ عسكريةٍ كبيرةٍ على الأرضِ ومدعّمةٍ، طبعاً، بسلاحِهِ الجويِّ المسيطرِ على أجواءِ المنطقةِ بشكلٍ مطلقٍ. دارت هنالكَ معركةٌ على الأرضِ سُمّيتْ فيما بَعدُ بمعركةِ "العزّةِ والكرامةِ" والتي وبعدَ حواليْ الخمسَ عشرةَ (١٥) ساعةً على بدئِها، "اندحرَ" العدوُّ إلى من حيثُ انطلقَ يَجرُّ أذيالَ الهزيمةِ! والمكر!. كانت تلكَ أوّلَ مرّةٍ ينسحبُ فيها جيشُ العدوِّ مضرَجاً ببعضِ دمائهِ!. إلا أنَّ العدوَّ تركَ وراءَهُ عدداً من الجنودِ، أو أشلاءَ الجنودِ، في مهمّةٍ خاصّةٍ كما يبدو، لإشعالِ فتيلِ حربٍ أهليةٍ تفوقُ في مَجراها ونتائجِها مُجملَ الحروبِ التقليديةِ مع العدوِّ نفسهِ. زَعَمَ العدوُّ أنَّهُ لَمْ يتمكّنْ من سحبِ جُثثِ جنودهِ المتفحمةِ وآلياتهِ المُحترقةِ والمعطوبةِ، وحتى أنَّ قسماً منها كان لا يزالُ سليماً. أعلن مذياعُ العدوِّ أنّهُ واجهَ نيرانَ المقاومةِ الشرسةِ وقصْفَ المدفعيةِ الأرضيةِ المتخندقةِ جيداً. العدوُّ كذلك يُثني ويشهدُ للقوّاتِ المعاديةِ لهُ بشراستِها في القتالِ وبقدرةِ تعاملِها مع الموقفِ العسكريِّ وبالأخصِّ قدرتِها على تَحويلِ مَجرى المعركةِ لصالِحها نظراً لِمعرفتِها الجيدةِ بطبيعةِ الأرضِ، وما إلى ذلكَ الكثيرُ!.

كانت أشلاءُ الجنودِ وآلياتُهم المتروكةُ خلفَ العدوِّ المنسحبِ مادةً دسِمةً جداً للأطرافِ الموجودةِ على السّاحةِ للتباهي، كلٌّ على انفرادٍ، بِما أنْجزهُ ورغمَ كيدِ وتآمرِ وضعفِ الطرفِ الآخرِ. هكذا بدأت نيرانُ فتنةٍ وطنيةٍ سياسيةٍ حزبيةٍ قبليةٍ تستعرُ في المناطقِ فقيرةِ المواردِ والطاقاتِ والإمكانياتِ، والقدراتِ الذهنيةِ في الاستفادةِ من التجاربِ مع العدوِّ. في الوقتِ الذي أعلنتْ فيهِ القوى المقاومةُ للعدوِّ أنّها لقّنتْ الأخيرَ درساً لن ينساهُ، فإنّها لُقّنت من العدوِّ دروساً كثيرةً ولكنّها نسيتْها كلَّها!. في المذياعِ الرسْميِّ الداخليِّ والخارجيِّ والصّحافةِ المَحليةِ والدوليةِ، وكذلكَ على شاشةِ التلفازِ الأبيضِ والأسودِ، تكرّرَ عرْضُ صورةِ العدوِّ المنسحبِ المتقهقرِ أمامَ ناظرِ الجماهيرِ الملتهبةِ شوقاً إلى مثلِ تلكَ اللحظاتِ. بدأ الجمعُ ينقسمُ إلى ... جَمعيْنِ، وأمسى العَربُ عربيْنِ، وبدأت كلُّ فئةٍ تستخدمُ نتائجَ المعركةِ حسبَ تأويلٍ يناسبُها ويخدمُ مصالِحَها ونواياها. هنالكَ فئةٌ مثلاً مزجتْ الآياتِ القرآنيةَ الكريمةَ بأقوالٍ صادرةٍ! عن "أبو لَهَبْ" و"أبو جهل" وبأخرى منسوبةٍ إلى السّيديْنِ "ماركس" و"لينين" على شكلِ قوالبَ تثيرُ في الصّدرِ حشرجةً وثورةً وتَمَرّداً على كلِّ شيءٍ مُحيطٍ. تَبعَها الطرفُ الآخرُ بإنشاءِ فرقةٍ عسكريةٍ ضاربةٍ أطلقَ عليها اسمَ "فرقةَ لا إلهَ إلا الله"، حظيتْ ببعضِ الدعمِ من العدوِّ القريبِ وقوّةٍ كبيرةٍ عرفتْ في ذلكَ الزمانِ بأنّها تشكّلُ "نصفَ الشيطانِ" على سطحِ الكرةِ الأرضيةِ. وما أنْ افترقَ الجمْعانِ وانقلبَ كلٌّ على الآخرِ ليهجما على بعضيْهما من بينِ الأزقةِ ومن خلفِ الجدرانِ، وأصبحَ في كلِّ بيتٍ بدَلَ "جدارِ برلين" واحدٍ ... جدارانِ من نسجِ خيالِ الغربانِ. وأصبحت الحياةُ في تلكَ المنطقةِ أقربَ منها لِحياةِ الجرذانِ إلى كرامةِ بني الإنسانِ. ولِمدّةٍ لا تزيدُ عن السّنةِ لَمْ يُبقِ الطرفانِ على وسيلةٍ أو طريقةٍ إلا استهلكاها هذانِ العَدُوّانِ الصّديقانِ الأخوانِ اللدودانِ. وما أنْ أتى خريفُ سنةِ

الهوانِ، أو عليٍ وشكٍ، حتى جاءَ معهُ لونانِ فاقعان، أوَّلُهما اللونُ الأحْمرُ تبعَهُ الأسودُ .... وتغيَّبَ عن العلَمِ اللونانِ الآخرانِ الطيبانِ!.
أبو جاسر: يا ابنِي، هل أنت تلميذُ مدرسةٍ أم مراقبُ برامجِ مَحطّاتِ بثٍ أم مُقَيِّمٌ لنشراتِ أخبارٍ! لا مَحصورةِ العددِ ولا النوايا؟!.
أبوالزهو: كذَلكَ فإنّي أراهُ لا يتركُ المذياعَ ولو دقيقةً واحدةً لا عندَ بيعِ اللّبنِ والخضارِ في شوارعِ المدينةِ ولا عندَ الأكلِ ووقتِ القيلولةِ .... هو في حالِ نفيرٍ دائم ليلاً نهاراً، فقط!!..
أم جاسر: هذه المَحطّاتُ الإذاعيةُ مَحمومةٌ ومسمومةٌ وعلى رأسِها البابا كا؛ لِماذا تُهدرُ كلَّ هذا الوقتِ ولا تَحصلُ إلا على سُمومِ الأرواحِ والأبدانِ؟!.
حمد: صدِّقْنِ يا أبوالزهو أنّني أحسدُكَ علىَ أمِّكَ وأبيكَ وحياتِكَ وأسلوبِ عيشِكَ وأكلِكَ وشربِكَ وعذوبةِ ذوقِكَ وعلمِكَ وخلُقِكَ!. أحسدُك على ما تَبقّى بينَ أرجلِكَ!، كلُّها من عندِيَ لا تضاهى!.
سرحان: يا أخِيَ، لَمْ يبقَ لكَ إلا أنْ تَخرجَ عن دينِكَ وتتبرّأَ منهُ!. هذه نتيجةُ الإطلاعِ المستمرِّ على آخرِ ما توصَّلتْ إليهِ وسائلُ الإعلامِ من أخبارٍ ....
أبو جاسر: البشرُ بطبعِهِمْ ميّالونَ إلى بدءِ الحربِ وإذكائِها بالمالِ والرجالِ والسّلاحِ والكلام. لا تنتهي حروبُ الإنسانِ إلا بالقضاءِ شبهِ التامِّ على ذاكرتهِ، هذه سنّةُ الخلْقِ!.
حمد: "حاجزُ برلين" بنتهُ دولٌ عظمى في الإمكانياتِ الماديةِ والبشريةِ؛ لكن أضخمَ بكثيرٍ من حاجزِ برلين تبنيهِ الشيوخُ والأطفالُ والنساءُ ومُعوَّقو الحالِ، من الأغنياءِ والمُعدمينَ على حدٍّ سواءَ. كلُّ فئاتِ الشعبِ تشتركُ في بناءِ مثلِ هذه الجدرانِ اللعينةِ، من أطباءَ ومهندسينَ وخطباءَ معابدَ ومعلّمي مدارسٍ وعمّالِ بلديةٍ وشرطةِ مرورٍ وربّاتِ بيوتٍ وأطفالِ حضاناتٍ. يبدو "حائطُ برلين" قزَماً أمامَ حائطٍ واحدٍ من تلكَ الحيطانِ. أريدُ أنْ أطلقَ عليه اسمَ حائطُ "الجهلِ المطبقِ" بكلِّ شيءٍ.
أبوالزهو: أدركُ ما تقولُه من خبرتِيَ مع عائلةِ الوالدِ أبو جاسر، فإذا ما حدثَ اضطرابٌ بين الثّقليْنِ الكبيرين في العائلةِ، أبو جاسر وأم جاسر، حتى تتعاظمَ الأمورُ ويصبحُ الصّلحُ بينهمْ أشبَهَ بأوَّلِ وآخرِ المستحيلاتِ...
"زولالة" : .... ولولا كومُ الأولادِ الكبيرُ وَحزمَةُ المواشي الصّغيرةُ من الأبقارِ والغنمِ مع بعضِ الدجاجِ البلديِّ والحمامِ والأرانبِ مضافاً إليها بعضُ قطعِ الأراضيَ المبعثرةِ هنا وهناكَ مثلَ "مراقدِ الجنِّ الأزرقِ"، لذَهَبَ كلُّ ثقلٍ بِما لديهِ فرحٌ إلى طريقٍ لا عودةَ فيه إلى الوراءِ!.
حمد: يا جَماعةُ!، ربّما يَختلفُ الوالدُ والوالدةُ على قسمةِ البيتِ أو المهْرِ المتأخرِ أو أيِّ الأولادِ أقربَ إلى أيٍّ منهُما؛ لكنَّ هؤلاءِ أصحابَنا اختلفوا على منَ يتولّى أمْرَ أشلاءِ ثلاثةٍ من جنودِ العدوِّ مع بعضِ آلياتٍ معطوبةٍ لهُ!.
سرحان وأبوالزهو: وماذا لو تقاسَماها بينَهما بالتساوي، كلُّ فريقٍ منهم لَهُ جنديٌّ واحدٌ ونصفُ الجنديِّ!، وإذا ما زادَ الوزنُ قليلاً عند أيٍّ منهُمْ، فالمُسامحُ كريمٌ .... ها ها ها ها .... لكننا نظنُّ أنَّ الأمرَ أكثرَ تعقيداً من ذلكَ. غيرُ معقولٍ أنَّ الأمرَ يتوقفُ على بضعةِ جنودٍ موتى أو مُتفحمينَ في آليّاتِهمْ المدمَّرَةِ!.
حمد: معكما حقٌّ أخِيَ سرحانِ وأبوالزهو، على جهلِيَ فإنّني لا أعرفُ أكثرَ من ذلكَ. كلُّ ما يُمكنُني أنْ أعرفَهُ هو أنَّ هنالكَ أطرافاً مَحليةً وإقليميةً ودوليةً استغلّتْ ضعفَ

عقـولِ البشـرِ هنــا. اسـتغلّتْ تلـكَ الأطـرافُ ضـعفَ إمكانيــاتِهمْ الفكريــةِ والعلميــةِ والتكنولوجيةِ ونشرَتْ في عقولِهمْ فيروس جديداً يصيبُ الدماغَ والعقلَ وطريقةَ التفكير، تمَّ أخيراً التعرفُ عليه وأنيط بهِ الرمزُ التالي: "أف-ف أ- ف ف- أ أ"؛ على كلِّ واحدٍ فينا أنْ يعرفَ ما هوَ الصّنفُ الذي ينتمي إليهِ. أنا، وكذلك أنتَ معِيَ أخِيَ أبوالزهو!، تَمَّ تمييزُنا على أننا من صنفِ "أ ف"!؟. صاحبُنا الذي يشتري منّا بقاليـلَ اللّـبنِ فـي المخـيّمِ أخـذَ الرمـزَ "ف ف"، زوجُ أختِنــا "محظوظـة" السّـيدُ "درباس" خرجَ بالرمز "أ أ" بالرغم من أنَّ زوجتَهُ، أختَنا "محظوظة"، ستتمتعُ بالرمزِ "أ ف". كلُّ واحَدٍ في الشعبِ الواحدِ أصبحَ لهُ "فصيلةُ دمٍ" جديدةٌ أو إضافيةٌ على الأقلِّ.

سرحان: هل نسيتَ أخانا السّيدَ "خلفان"؟!، صاحبَ معملِ موادِ البناءِ في المدينةِ؛ يتأرجحُ بين الرمزيْنِ "أ أ" و "ف أ"، حسْبَ الظروفِ الأمنيةِ والسّياسيةِ السّائدةِ والحالةِ النفسيةِ عندَهُ. هو قادمٌ من المنطقةِ الشرقيةِ أباً عن جدٍّ، تارةً يقولُ للناسِ أنّهُ من صنفِ "أ أ" وتارةً أخرى يقولُ أنّهُ يريدُ أنْ يلتحقَ بفئةِ "ف أ".

حمد: تقسيماتٌ جديدةٌ تندى لَها جِباهُ كلٍّ من "ماركْ سايكسْ" و "جورجْ بيكو" ومَن قبلَهُمْ وبعدَهُمْ إنْ عَلِمَ أيٌّ منهُمْ بها.

ما أنْ استقرتْ الغلبةُ "العسكريةُ" لصالحِ طرفٍ على الطرفِ الآخرِ حتى أصبحَ من الصّعبِ على الطرفِ الغالبِ أنْ يتفهّمَ موقفَ الطرفِ الآخرِ. المَشكلةُ الأساسُ في بني البشرِ هي أنَّ لا أحدَ يريدُ أنْ يعترفَ بهزيمةٍ ولو بشكلٍ مؤقتٍ لكي تتحسنَ الأمورُ والحياةُ للناس قليلاً. لكلمةِ "النصر" سحرٌ وجاذبيةٌ خاصّةٌ جداً يسعى كلُّ شخصٍ وكلُّ قبيلةٍ وكلُّ شعبٍ وكلُّ أمةٍ للتضحيةِ في ذلكَ السّبيلِ لنيلِها، حتى ولو كلَّفَ ذلكَ قَتْلَ الكثيرِ من الأبرياءِ!. تتجلّى هذه النزعةُ كذلكَ لدى بني البشرِ في ألعابٍ من مثْلِ لعبةِ "تِنِسْ أرضيٍّ" أو كرةِ قدمٍ أو كرةِ سلةٍ ...؛ العقلُ البشريُّ من هذه الناحيةِ محصورٌ جداً وضيقُ الأفقِ وسخيفٌ!.

أبوالزهو وسرحان: أرجوكَ أنْ تغلقَ البابَ على هذا الموضوع. كلُّ ما نَملكُهُ أنّنا في كلِّ يومٍ نذهبُ لبيعِ بضعةِ بقاليلَ من اللّبنِ الرائبِ وبعضِ سلالِ الخضارِ الصّغيرةِ وبيضِ الدجاجِ البلديِّ، من أجلِ أنْ تظلَّ الأسرةُ تستظلُّ بسقفٍ واحدٍ، على الأقلَّ ....

أبو جاسر: إنّ سيرَ الحياةِ الذي تتبعُهُ سيجعلُ كلَّ واحدٍ من أفرادِ الأسرةِ يَحملُ كيساً صغيراً ليجوبَ به البلادَ طولاً وعرضاً باحثاً عن لقمةِ عيشٍ، غيرِ كريمةٍ في هذهِ الحالةِ.

أم جاسر: من الآن فصاعداً نريدُك أنْ تعتبرَ شهرَ الحربِ الأحْمرِ والأسودِ شهراً أبيضَ بل ناصعَ البياضِ أو أخضرَ على الأقلّ. وفي الحربِ لا يوجَدُ هنالكَ منتصرٌ ومهزومٌ بل الكلُّ خاسرٌ؛ وعلى الباغي تدورُ الدوائرُ .....

حمد: آخٍ على هويتي، آخ على جوازِ سفرِيَ، آخ على مستقبلِيَ، آخ على أهلِيَ، آخ علـى وجُـودِيَ، آخٍ علـى الآلافِ المؤلفـةِ مِمّـن ضـاعوا ويضـيعونَ والـذين سـوفَ يضيعونَ ....

أبوالزهو: أقولُ لك، آخ على عقلِك الناقصِ وخيالِكَ الأرعنِ!.

سرحان: قُضيَ الأمرُ يا أبو حميد، عليكَ التركيزُ على حالِكَ وأمورك الخاصّةِ.

أبوالزهو: "ولَك يا زلمة ناولني هالعود شوية أنا بِدي أوَرجيك تشيف الحياة بتصير أزبط معانا ... أنا اليوم بَدُكْلَك عالعود وانت غَنّي" (بالعربيِّ الفصيحِ: يا هذا الرجلَ

أعطِنِ العودَ قليلاً، أريدُ أنْ أريَكَ كيفَ ستصبحُ حياتُنا مضبوطةً .... اليومَ أدقُّ لكَ علـى العـودِ وأنـتَ تُغنّـي!.). .... دن دن فـا... لا.. ري. . صـول.. دو.. فـا .!!.....

حمد: بهكذا عزفٍ! يا أبوالزهو يكونُ صوتُك الأصليُّ أكثرَ رقةً وسلاسةً من صوتِ العودِ!. لكنَّ العزفَ والصّوتَ والإيقاعَ من عندِك تظلُّ كلُّها أكثرَ عذوبةً وأحسنَ أداءً وأبْهجَ روعةً من أصواتِ مذيعي أخبارِ الحروبِ والنكباتِ من هنا وهناكَ!.

وفاةُ قائدٍ كبيرٍ

كان حمد وأبوالزهو عائديْنِ من أعمالٍ شاقةٍ في أحدِ الحقولِ البعيدةِ كلّفهُمْ بها الوالدُ أبو جاسر، مستغلّيْنِ دفءَ الشمسِ في ذلكَ اليوم بعدَ موجةٍ من البردِ كانت قد اجتاحتْ المنطقةَ قبلَ ذلكَ الوقتِ بأسبوعٍ تقريباً. كانا يستمعانِ كالعادةِ إلى برامجَ إذاعيةٍ حَماسيةٍ ونشراتِ أخبارِ "صديقةٍ" عندما، وبشكلٍ مفاجئٍ، قال المذيعُ أنَّ نبأً هاماً جداً سوفَ يذاعُ بعدَ قليلٍ!؟. قطعَ المذياعُ برامجَهُ العاديّةَ وصارَ يبثُّ موسيقى كلاسيكيةً تارةً وحَماسيةً تارةً أخرى، من مثلِ موسيقى "المارشات" العسكريةِ، وأحياناً قليلةً يبثُّ قراءاتٍ مسجلةً من القرآنِ الكريم. لَمْ يَخطرْ ببالِ أحدٍ في البدايةِ وفاةُ أقوى زعيمٍ في الأمةِ في ذلكَ الوقتِ. قسمٌ من الناسِ ذهبَ إلى التوقّعِ بأنَّ حرباً جديدةً استعَرتْ من تلكَ الجبهةِ وحققَ الجيشُ هناكَ مكاسبَ هامةً على الأرضِ، وما عليهم إلا انتظارُ خبرِ النّصرِ العظيم. لَمْ تعلنْ البابا كا عن شيءٍ من هذا القبيلِ. أخيراً وفي ساعةٍ متأخرةٍ، بعضَ الشيءِ، من المساءِ أُعْلِنَ في الإذاعةِ أنَّ القائدَ الكبيرَ انتقلَ إلى ذمّةِ اللهِ تعالى والتاريخ. وَقَعَ هذا الخبرُ على أسْماعِ الناسِ مثلَ صفعةٍ قويةٍ مزدوجةٍ على طبلاتِ آذانِ كلٍّ منهُمْ. ساد الوجومُ وخيّمَ الحزنُ على المنطقةِ مثلَ هبوطِ الظلامِ بشكلٍ مفاجئٍ بعدَ نَهارٍ مشمسٍ. كان ذلكَ الزعيمُ يَحتلُّ مكانَ الصّدارةِ في معظمِ الأخبارِ اليوميةِ السّياسيةِ للناسِ. أعلنَ الحدادُ العامُّ لِمدةِ ثلاثةِ (٣) أيامٍ متتاليةٍ حيثُ أهَمُّ ما في الحدادِ هو تعطيلُ المدارس. كانت أيامُ الحدادِ مُفرحةً!، إنْ صحَّ التجاسرُ والتجاوزُ في التعبير، للطلابِ لسببِ تعطيلِ المدارس؛ ذلكَ لأنّها، أيْ المدارسُ، كانت تُمثّلُ عمليةَ قتلٍ مَنهجيةً للمواهبِ والعقلياتِ والحَريةِ وتقييدٍ لكلِّ نشاطٍ بدنيٍّ وذهنيٍّ تقريباً. لبعضِ الناسِ، وهُمْ قلّةٌ، فقد كانوا شديدي التشاؤمِ بالزعيمِ الراحلِ!؛ هو في نظرِهم السّببُ الرئيسيُّ لِمجيءِ الاحتلالِ لعدمِ توخّي الدقّةِ لديهِ عندَ اتّخاذِ قراراتٍ حاسمةٍ ومصيريةٍ!.

سرحان (في الصّباحِ الباكر): أحسُّ منذُ الصّباحِ الباكرِ بحركةٍ غيرِ عاديةٍ، النساءُ ينتحبنَ والرجالُ يغطّونَ نصفَ وجوهِهِم بالكوفيةِ لكلٍّ منهم، معَ غيابِ "العُقلةِ" (العقلةُ جَمعُ عقالٍ وهو ما يضعهُ الرجلُ على رأسهِ ويعبّرُ عن عنفوانِ الرجولةِ عندهُ، مثلَ علامةٍ مُميزةٍ لرجولتهِ وشجاعتهِ واتزانِ عقلهِ) عن رؤوسِهم!. هل هنالكَ من جديدٍ؟. ما الأمرُ؟!.

حمد: ألَمْ تستمعْ إلى الأخبارِ من المذياعِ؟. وهنالكَ الخبرُ الأوّلُ في الجريدةِ، الزعيمُ الخالدُ في ذمةِ اللهِ والتاريخِ.

أبو جاسر والعائلةُ: عليه الرحمةُ، لقد تركَ فراغاً لا يُمكنُ مَلؤهُ لا من الإنسِ ولا من الجنِّ!.

حمد: ولقد قرّرتْ الجماهيرُ القيامَ بجنازاتٍ رمزيةٍ تطوفُ فيها شوارعَ القريةِ وميادينَها.
أبوالزهو: ألا تكْفي جنازةٌ واحدةٌ ؟. وهل سنذهبُ أنا وأنتَ معاً أَمْ لا! وكعادتِكَ في مثْلِ هذهِ المناسباتِ الطارئةِ المتكرّرةِ؟!. لنذهبْ كيْ نشارِكَ الجماهيرَ مشاعرَها!.
حمد: يا أبوالزهو، يَجبُ أنْ تكونَ سعيداً بأنّكَ لا تقرأ شيئاً ولا تَحملُ أيَّ همٍّ. بالنسبةِ لِيَ هنالكَ احتمالُ ٩٠% أنْ لا أشاركَ بأيةِ جنازةٍ رمزيةٍ أو غير رمزيةٍ، أرِحْ بالَكَ!.
في اليومِ التالي كانت جَماهيرُ القريةِ قد أعدّتْ نفسَها لِجنازةٍ رمزيةٍ، لَمْ يبقَ أحدٌ في القريةِ تقريباً مِمّن يقدرُ على المشيِ على قدميهِ إلّا واشتركَ فيها، خاصةً من ذوي الحسِّ الثوريِّ المرهفِ والعواطفِ سهلةِ التجييشِ!. ....
سرحان: إنّي لأرى المسيرةَ وتبدو لِيَ من بعيدٍ مثْلَ قطارٍ أسودٍ مندفعٍ. لنذهبْ معهم يا أخِيَ لنتّقِ شرَّهم ولئلا يقولونَ عنّا أنذالاً وجُبناءَ و"إكْوان"!. إنْ لَمْ تذهبْ معِيَ، سأذهبُ بنفسِيَ وحيداً. ألا يوجدُ عندكَ قلبٌ وإحساسٌ؟!.
حمد: لا أعرفُ الفائدةَ التي يُمكنُ تَحقيقُها من هذه الهبّاتِ الجماهيريةِ الحاشدةِ على كثرتِها!. بتُّ أشعرُ أنّنا في سوقِ تنزيلاتٍ هائلةٍ على مثْلِ هذه المسيراتِ الجماهيريةِ والتي أصبحَ فيها وقتُ النّاسِ وحياتُهُمْ سِلعاً لا ثَمنَ لَها على الإطلاقِ في سبيلِ لا شيءَ، لا شيءَ على الإطلاقِ .....
أبوالزهو: لا لا لا يا صديقِيَ، ولتغضبْ الدنيا كلُّها بدلاً عنكَ!؛ لا يكنْ عندَك أيُّ انزعاجٍ ولا تُغضبْ نفسَكَ. ها هُمُ الجماهيرُ يَمُرّونَ، يركضونَ، يهتفونَ وعلى وجوهِهِم يلطِمونَ!.
سرحان: ... ومعهُمْ شعراؤُهُمْ وأمراؤُهُمْ ومعلمو مدارسِهِمْ. هل معقولٌ أنَّ هؤلاءِ كلَّهُمْ على خطأٍ؟ ونَحْنُ وأنتَ فقط على صوابٍ؟.
حمد: يا بشراً! المشكلةُ ليست صحّاً أو خطأً. شخصٌ كبيرٌ وقائدٌ معلّمٌ ماتَ، ماذا ينفعُ توقيفُ الأعمالِ وشلُّ الحياةِ العامةِ في طولِ البلادِ وعرضِها؟!. هل تنقصُنا زيادةٌ في الشللِ على ما نَحْنُ فيهِ؟. برأيِيَ هذه "عباطةٌ" جَماعيةٌ عمياءُ ورعناءُ!. يَحتاجُ المتوفّى بضعَ كلماتٍ للترحّمِ عليهِ وبعدَها يواجهُ أعمالَهُ في وجهِ ربّهِ إنْ قابلَهُ!. ماذا ينفعُ لو بكينا على روحِهِ الطاهرةِ ليلَ نَهارَ ولِمدةٍ قد تصلُ إلى مئاتِ السّنينَ؟!؛ ثُمَّ إنّهُ من غيرِ المعقولِ أنَّ لا أحدَ مثْلَهُ أو أحسنَ منهُ يَحلُّ مَحلَّهُ في ذلكَ الشعبِ الكبيرِ العظيمِ هناكَ!.
سرحان: كلامُكَ عينُ الصّوابِ، لكنني أحسُّ في نَفَسِكَ وعيونِكَ عدمَ ارتياحٍ من جانبِ الرجلِ. لقد كان جيداً و"شعبوياً" أيْ "ديموكراسياً" ومَحبوباً.
حمد: منذُ تولّيهِ السّلطةَ أيقظَ النّاسَ من السّباتِ العميقِ، وألقى بِهم في جحيمِ الوعيِ الأحْمقِ. أخطاءُهُ في السّياسةِ والإدارةِ أوصلتِ الأمةَ إلى "قمةِ قعرِ" الهاويةِ، إلى الدركِ الأسفلِ من أشدِّ أنواعِ الهزائمِ!.
سرحان وأبوالزهو: يا عيني على الجمعِ بين الأضدادِ في كلامٍ يُحدثُ ارتِجاجاً في العقلِ. كلانا غيرُ قادرٍ على تَجميعِ العقلِ الباطنيِّ مع مَخزونِ الذّاكرةِ الأساسيِّ عندنا مع بعضِهما البعضِ!.
حمد: أنتما الآنَ متأثرانِ بإعلامهِ التعبويِّ "التوعويِّ" (نسبةً إلى كلمةِ التوعيةِ) "الحشرجيِّ" (الذي يَحدثُ حشرجةً في النفسِ) "البراقشيِّ" (نسبةً إلى الكلبةِ المسمّاةِ "بَراقِشْ" والتي دلّت بصوتِ نُباحِها العدوَّ على مواقعِ أهلِها)، إنْ صحَّ

التعبيرُ. آنَ الأوانُ أنْ ترجعوا الآنَ إلى ما يسمى بضمائرِكُمْ الأصليةِ، الملوثةِ بالدعايةِ والأكاذيبِ.
أبوالزهو: تريدُنا أنْ نستمعَ إلى الباباكا، والتي طوالَ يومِكَ تستمعُ إليها باللغتينِ، وماذا بعدُ؟!. هل نستسلمُ وهل نرفعُ الراياتِ البيضَ ونقولُ لأعدائِنا تعالوا واركبوا على ظهورِنا؟!.
سرحان: .... هذا الاستعمارُ ليس لهُ دينٌ ولا ضميرٌ وكلُّ هَمِّهِ سلبُ الخيراتِ والسّيطرةِ على كلِّ شيءٍ يتحركُ، حتى الأنفاسِ وقتَ الأعراسِ!.
حمد: آخ يا سرحان ويا أبوالزهو، لو كان في كلامِكما صحٌّ ولو بمثقالِ شعرةٍ. تَحالفَ مع، أو بالأصح تواكلَ! على الاتحادِ السّوفيتيِّ ظناً منه أنَّ ذلكَ كافٍ لتحقيقِ كلِّ النصرِ؛ حققَ كلَّ الخسرانِ في حربِ المواجهةِ الشاملةِ، في حربِ الاستنزافِ، في حربِ المفاوضاتِ السّلميةِ!، وحتى في مطابخِ رباتِ البيوتِ. أريدُ أنْ أسألَكما أنتما الاثنينِ سؤالاً بسيطاً وهو؛ كم من الوقتِ يَحتاجُ الشخصُ البالغُ العاقلُ للحصولِ على رخصةِ قيادةِ سيارةٍ صغيرةٍ ومن نوعِ "فيات" الصّغيرةِ والرخيصةِ في الثمنِ؟!.
أبوالزهو: ثلاثَ سنواتٍ على الأقلِّ، حسْبَ معرفتِي...
سرحان: الشيخُ "محي الدين!" قضى نَحبهُ قبل الحصولِ عليها...
حمد: وكم من الوقتِ يلزمُ للحصولِ على رخصةِ قيادةِ حافلةِ ركّابٍ؟ حتى لو متوسّطةَ الحجمِ!؟..
سرحان وأبوالزّهو: ربّما عشرَ سنينٍ مع الخبرةِ ومراعاةِ التطورِ العقليِّ المناسبِ. يا أخِيَ ماذا تقصدُ بأسئلتِك!؟.. لَمْ تعدْ فينا القدرةُ على المتابعةِ...
حمد: كَمْ من الوقتِ يَجبُ أنْ يَمضِيَ للحصولِ على رخصةِ قيادةِ شعبٍ طويلِ عريضٍ عريقٍ؟!. ليست كلُّ الأمورِ تؤخَذُ "عنوةً"!.
سرحان: آخ... عليك يا "شيخ" حمد!. لكن ربّما يوجدُ هنالكَ حلٌّ وسطٌ وهو أقربُ السّبلِ لتحقيقِ توافقٍ بينَك وبينَ الرجلِ الميتِ!، ويد اللهِ مع "الجماعةِ"، يا أخِيَ.
حمد: لو كانَ الراحلُ الآنَ حياً وسَمعَ منكَ جِهازُ أمنهِ آخرَ كلمةٍ تلفّظتَ بها لأخفى أثرَكَ ولن نعرفَ أنّكَ في الأرضِ أو في السّماءِ، أنت وأنا والوالدَ أبو جاسر وأم جاسر وحتى أبوالزهو. "جَماعةُ" الإخوانِ عندَهُ هو كلُّ منِ عارضَ حكمَهُ ونظامَهُ واشتكى من تصرفاتِ أجهزتِهِ الأمنيةِ العديدةِ. آخ يا جَماعة اتركا التفاصيلَ لِيَ.
أبوالزهو: أنا كذلكَ لا أريدُ أنْ أوجعَ رأسِيَ بأمورٍ تافهةٍ!. أعتمدُ عليكَ في النهايةِ لأنّني كلَّ يومٍ أراكَ تأتي لنا بكومةٍ من الجرائدِ والمَجلاتِ تلمُّها من الأكشاكِ المنتشرةِ على أرصفةِ الشوارعِ المزدحمةِ وقربَ مَحطّاتِ حافلاتِ الركّابِ المهجورةِ ومَحطّةِ توزيعِ الوقودِ الوحيدةِ في المدينةِ؛ كلَّ يومٍ بعد أنْ ننتهيَ من بيعِ حِمْلِ بقاليلِ اللّبنِ!. غيرَ معقولٍ أنْ مُحصّلةَ هذه المَجلاتِ والجرائدَ تساوي لا شيءَ. لا يتساوى منَ يقرأُ مع من لا يقرأ!.
حمد: هذه المَجلاتُ والجرائدُ يا أبوالزهو هي سببُ خرابِ بيتِنا!، ولو كنتُ ركزتُ على دروسِيَ لكان الوضعُ أحسنَ بعضَ الشيءِ. لكنني أخشى إذا ما تركتُ قراءتَها وصرْفَ عائداتِ بيعِ اللّبنِ عليها أنْ أصبحَ مثْلَ الأعمى الذي يسيرُ في سفوحِ الجبالِ الوعرةِ، لن أرى الدّربَ واضحاً أمامِيَ، وسأحتاجُ إلى من يرسمُ لِيَ الطريقَ للرجوعِ إلى البيتِ.

أبوالزهو: لا.. لا حاجةَ لكَ لذلكَ الرسم، أعرفُ كلَّ الطُّرقِ، لا تشترِ خرائطَ طرقٍ، كفانا مصروفٌ على منتجاتِ وسائلِ الإعلام!. لا تتركْ القراءةَ!، عَلى العكسِ مِن ذلكَ إذا ما كانَ هنالكَ جرائدُ ومَجلاتٌ أخرَى فلتقرأها ولتستمعْ إلى الأخبارِ بكلِّ اللغاتِ، وليكنْ شعارُكَ تعلَّمْ اللغاتِ من "الرَّحِمِ إلى القبرِ"!. بنفسِيَ أودُّ أنْ أتعلَّمَ اللغةَ الصّينيةَ؛ "شي ها، شا تشا، ني ها، تي شا، بو ها".

حمد: ما شاءَ اللهُ عليكَ!. تتكلمُ اللغةَ الصّينيةَ مثلَما تأكلُ الخيارَ البلديَّ. بودِّيَ يا أبوالزهو أنْ تصبحَ سفيراً متجوّلاً حتى تَحفظَ كلَّ لغاتِ أهلِ الأرضِ لأنَّ لديكَ عقلاً "سوبر"، لو جَمعْتَ عقولَ كلِّ سفراءِ المنطقةِ في العصرِ الحديثِ، أي ما بعدَ حصولِ شرارةِ الثورةِ الحمراءِ، لوضعتَهُمْ كلَّهُمْ في إحدى زوايا الحنكةِ الخجولةِ في عقلِكَ الباطنيِّ!. لكنِ مثلَما يقولونَ في المثلِ الشعبيِّ؛ "العزُّ للأرُزِّ... والفولُ، وكذلكَ البُرغلُ!، شنقَ حالَهُ"!.

أبوالزهو: ما رأيُكَ بِما أنَّ الوالدَ والوالدةَ والأولادَ مشغولونَ بالذي يَجري في الشارعِ من مسيراتٍ جَنائزيةٍ أنْ تُتْحفَنا "بهايك" (هكذا) شي غِنْية (أغنية) على زَوْأكْ (ذوقك)، ولَكَ (باللهجةِ الشاميّةِ وتَعني يا هذا) يا عمي يا زلمة (رجل) أعصابني (أعصابي) تكّت (تهتز وترتج من الإعياء مثلاً)، وخُلكي (خُلقي) ذاك (ضاق)، (خُلكي ذاك = خُلقي ضاقَ، باللغةِ العربيةِ الفصحى!).

حمد: يا أبوالزهو إذا ما استمررْتَ في تنميةِ عواطفِكَ وأحاسيسِ الطربِ عندَكَ، لن أستطيعَ تلبيةَ رغباتِكَ السّمعيةِ فقط. سوفَ أعزفُ وأغنّي أغنيةً غناها الشيخُ عبدالحليم والشيخةُ فايدة والشيخةُ صباح والشيخُ عبدالوهاب و.....

سرحان وأبوالزهو: يالله خلّصنا بأى! يا شيخ "أبوحميد" ..... ربّنا يكرمَكْ انت الآخر يا بيه!.

حمد: سوفَ أغنّيها لكُما أنتما معاً... دن دن دج دو ري مي فا....... وطني حبيبي الوطنُ الأكبر يوم ورا يوم أمجاده بتكبر ... وانتصاراته مالية حياته وطني بيكبر وبيتحرر. ....

سرحان: لقد احترْنا بأمرِكَ.. لَمْ ولا تشتركُ في جنازةٍ رمزيةٍ مهيبةٍ للفقيدِ الكبيرِ، وفي الوقتِ نفسهِ تُغنّي في رثائِهِ أروعَ الألْحانِ؛ إنَّ هذا لَتناقضٌ أرعنٌ!؟...

"هيما" (أخو حمد يأتي إليهمُ مسرعاً): لقد سقطَ شاعرُ القريةِ طريحاً على الأرضِ باكياً ومنتحباً أمامَ الجماهيرِ المنتحبةِ أثناءَ إلقاءِ كلمةٍ لرثاءِ فقيدِ الأمةِ الراحلِ. من الممكنِ أنْ يقضيَ نَحبَهُ!.

حمد وسرحان و"هيما" وأبوالزهو: ربَّما أحبَّ أنْ يلتحقَ بِمواكبِ الخالدينَ!.

هنالكَ عواملُ كثيرةٌ مؤثرةٌ مساعدةٌ لبدءِ الحروبِ بينَ الدولِ. لكنَّ فتيلَ أيِّ نزاعٍ يُمكنُ نزعُهُ بسرعةٍ تفوقُ كل الخيالاتِ. قد لا يتطلّبُ الأمرُ أكثرَ من ابتسامةٍ صادقةٍ ومتواضعةٍ خجولةٍ بين مسئولَيْن مُهمَّيْنِ من كِلتا الدولتيْن، تعبِّرُ تلكَ الابتسامةُ المتبادلةُ عن رغبةِ كِلا الطرفيْنِ، على حدٍّ سواءٍ، في حلِّ كافةِ المسائلِ العالقةِ والتي ستعلَّقُ في المستقبلِ بالطرقِ السّلميةِ. لذلك لا يساورُ المرءَ أدنى شكٍّ بأنَّ هنالكَ أيادٍ خارجيةً من مصلحتِها إبقاءُ الوضعِ السّياسيِّ على حالٍ من التوترِ. تصبحُ الإمكانيةُ لإيجادِ ابتسامةٍ صريحةٍ وصادقةٍ نابعةٍ من قلبيْنِ متوازييْنِ في خطِّ السّيرِ أمراً مستحيلاً، بل غيرَ مرغوبٍ فيها حتى من الشعوبِ التي ستكتوي بنارِ الحربِ إنْ وقعتْ وسيُذبحُ أولادُها كالخرافِ في المسلخِ... في وليمةٍ سياسيةٍ ملعونةٍ، وملعوبٍ بها من ألعنِ أنواعِ الشياطينِ المعروفةِ وغيرِ المعروفةِ. لو فكّرَ العقلُ السّليمُ الحكيمُ في تفاصيلِ الحربِ ومُجرياتِها ونتائجِها لفَضّلَ خسارتَها على كسبِها!.

أبو جاسر: تقولُ الباباكا أنَّ "البَنْغالَ" يُحاولونَ الانفصالَ عن "الوطنِ الأمِّ". الويلُ لَهُمْ!.

حمد: هُمْ مفصولونَ منذ ولادةِ علمِ الجغرافيةِ والتاريخ وحتى أوائلِ الأنثروبولوجية (علمُ نشأةِ وتطوّرِ حالِ الإنسانِ)؛ مَنذُ بناءِ سورِ الصّينِ العظيمِ، على الأقلِّ!.

أبو جاسر وسرحان: بدأتْ تسرحُ داخلَ الصّخورِ الجيولوجيةِ. أقولُ لكَ أنَّ الأعداءَ بدؤوا يعدّونَ العدّةَ لضربِنا من جديدٍ. أكّدَ هذا الكلامَ اليومَ رئيسُنا في خطابهِ غيرِ المعتادِ من حيثُ التوقيتِ ووقعِ الصّدمةِ على عقولِ الجمهورِ!.

حمد: يُدخِلونَنا الآنَ في حربٍ أخرى ونَحْنُ لا نزالُ ننزفُ من حربٍ داخليةٍ هنا نتَجَ عنها إقامةُ حاجزٍ "برلينيٍّ" بينَ كلِّ فردينِ من أفرادِ الأسرةِ الواحدةِ والشعبِ الواحدِ!. هل تعرفونَ أنّهُ بداخلِ وخارجِ كلِّ مدينةٍ عندنا أصبحَ عددُ الحواجزِ الأمنيةِ يفوقُ بكثيرٍ عددَ الشوارعِ والأزقةِ والسّاحاتِ والحدائقِ العامّةِ والخاصّةِ!؟. الكلُّ يفتشُ المارَّةَ وأبناءَ السّبيلِ عن إثباتِ هويّةٍ أو جوازِ سفرٍ!. الكلُّ يُحاولُ إعادةَ بل الإبقاءَ على وحتى تطويرَ أمجادِ أفكارِ "ماركْ سايكسْ" و"جورجْ بيكو"!. مَنْ عندَهُ متسعٌ من الوقتِ حتى يفكِّرَ بمشاكلَ تَقعُ على أطرافِ القارةِ؟!.

أبوالزّهو: كما تعرفُ أنَّ الحياةَ علّمتْنا أنْ لا نكلَّ ولا نَملَّ وأنْ نواصلَ السّيرَ مهما بلغتْ التضحياتُ. هذا أحدُ دروسِ ضربةِ الجلّادِ!، ثُمَّ إنّهُ لا مَجالَ للوهنِ أو الإفراطِ في الحزنِ!.

حمد: يا أبَوالزهو، أنعمْ وأكرمْ بكَ وبأفكارِكَ ودروسِ الحياةِ التي تعلمُكَ أكثرَ مِمّا تعلِّمُني بالرغمِ من أنني أكبُرُكَ سنّاً.

سرحان: ثُمَّ إنَّ المذياعَ يقولُ أنَّ أصحابَنا بفضلِ قوّتِهم وبسالتِهِمْ في القتالِ يردّونَ كيْدَ العدوِّ إلى نَحرهِ. لذلكَ وأنت ذاهبٌ إلى المدرسةِ في المدينةِ عليكَ أنْ تذهبَ مطمئنَّ البالِ، هادئَ الأعصابِ كي تستوعبَ الدروسَ المعطاةَ لكَ من المعلمينَ النجباءَ.

حمد: المهمُّ هو ليس عند بدءِ الحربِ ولا حتى أثناءَها، المهمُّ ما ينتجُ عنها. الحربُ عبارةٌ عن خليطٍ من المقامرةِ والمغامرةِ والمؤامرةِ والرعونةِ والغباءِ وانفصامِ الشخصيةِ وانعدامِ الضميرِ، كلُّها ممزوجةٌ بمقاديرَ معينةٍ لكلٍّ منها، وتختلفُ منَ حربٍ إلى أخرى. النتيجةُ متوقعةٌ، دمارٌ وهزائمُ وقتلى وجرحى وإنتاجُ أعدادٍ كبيرةٍ من كلابِ وتجارِ الحروبِ. الحربُ شرٌّ لا بدَّ من الابتعادِ عنهُ، تجنّبُهُ حتى النهايةِ!.

بعدَ بضعةِ أيامٍ على بدءِ الحربِ أعلنَ عن انفصالِ دولةٍ عن الوطنِ الأمِّ أو انقسامٌ لدولةٍ إلى دولتيْنِ ووقوعِ أكثرَ من مئةِ (١٠٠) ألفِ جنديٍّ حكوميٍّ (من الدولةِ الحليفةِ لنا) أسرى في أيدي قواتِ العدوِّ!.

سرحان: هل سَمعْتَ أخبارَ البابَاكا؟!. لقد نَجحَ العدوُّ هذه المرّةَ أيضاً وبفضلِ تكالبِ قوى الشرِّ والشيطانِ علينا، نَجحوا في النّيلِ منا. ولكن نَحْنُ لها، لقد لقّن أصحابُنا الأعداءَ درساً قاسياً وفي المرّةِ الأخرى سوفَ يكون نصيبُهم الخزيُ والعارُ والذلُّ والهزيمةُ!.

حمد: الخزيُ والعارُ مُمكنٌ لَهُمْ ولكن ليس الذلُّ والهزيمةُ!. نَحْنُ هنا متمرسونَ في الحصولِ عليها أو شرائِها وبأغلى الأسعارِ العالَميّةِ!.

سرحان وأبوالزهو: هل رأيتَ كيف أنّهُ بعَدَ أنْ كانوا على وشكِ الانتصارِ؟ انقلبتْ الأمورُ....

حمد: الانتصارُ على مَنِ، ولأجلِ مَنِ، ولمصلحةِ مَن، ولِماذا كلُّ ذلكَ؟!. أنا وأنتما للتوِّ بلغْنا، أو نكادُ، سنَّ الرشدِ قليلاً وفي عقلِنا الباطنيِّ عشراتُ الحروبِ والمعاركِ الكبيرةِ والصّغيرةِ والتي لَمْ نكسبْ منها لا ناقةً ولا جَمَلاً. نُجاهدُ ليلَ نَهارَ للحصولِ على رغيفِ خبزٍ في حينِ أنَّ المصروفاتِ على الأسلحةِ تفوقُ خيالَنا الفضائيَّ اللا-مَحدودَ!.

سرحان وأبوالزهو: أنت على حالِكَ دائماً، لا تتغيرُ، تتذمرُ من كلِّ شيءٍ من حولِكَ وحولَ غيرِكَ. تَحمِلُ همَّ كلِّ من عندَهُ همٌّ. على كلِّ واحدٍ في هذا العالَمِ أنْ يَحملَ همَّ حالِهِ.

أبوالزهو: لنغيِّرْ الموضوعَ قليلاً. لنخفّفْ الضغطَ على أعصابِنا بسبب صدماتِ أخبارِ الهزيمةِ الجديدةِ في شبهِ القارةِ الهنديةِ.

حمد: وأيُّ الأغاني سوفَ تُخفّفُ من آثارِ الصّدماتِ المتلاحقةِ تلكَ. عليك يا أبوالزهو أنْ تَختارَ بنفسكَ. صارت أعصابِيَ مَثلَ رغيفِ الخبزِ الخارجِ للتوِّ من تنورِ الفرّانِ ....

أبوالزَهو: .... عندما يأتي المساء.... ونُجوم الليلِ تُنثر.... ترلا ترلا لا لا لا لا لا.
اسألوا الليلَ عن نَجمِيَ، متى نَجمِيَ يظهرُ .... ترلا ترلا لا لالا لا لا لا.

حمد: .... هل تُرى يا ليلُ أو لي؟، منكَ بالعطفِ عليَّ!.... سأغنّي وحبيبي، والمنى بين يدَيَّ!. .... ترلا ترلا لا لا لا لا لا.

سرحان: هل تعرفُ يا أبوالزهو أنَّ وجودَكَ مع أخِيَ حمد دائماً تقريباً مثلَ وجودِ الوردةِ إلى جانبِ فراشةٍ "شعثةٍ" شقيةٍ. يندرُ يا أبوالزهو وجودُ أمثالك وبهذا القدرِ من الصّبرِ والوسامةِ والشجاعةِ وحبِّ المَجونِ السّاحر. هذه هي الحياةُ في نظري ضحكٌ ولعبٌ وجدٌ وحبٌ، على حدِّ رأيِ الشيخِ عبدالحليم، لا حروبَ ولا عاهاتٍ ولا تفكيراً في زواجٍ ولا نسيباً ولا قريباً ولا حبيباً مفقوداً!.

أبوالزهو: يَجب عليك يا صديقِيَ حمد أنْ تعرفَ الحياةَ بحقائقِها. هذه الكتبُ والجرائدُ والمَجلاتُ التي تقرؤُها ما هي إلّا سطورٌ مسطّرةٌ في خطوطٍ متوازيةٍ ومنظّمةٍ لإغراءِ المغفلينَ من البشر، لكيْ يشتروها لَهُمْ ولفلذاتِ أكبادِهِمْ، إلا قلّةً قليلةً. أما الحقيقةُ فنحنُ الذين نصنعُها بعناءِ العملِ ليلَ نَهارَ. لذلك أنصحُكَ وأقولُ لكَ أنَّهُ كلَّما صعُبَ عليكَ تفسيرُ شيءٍ أنْ تردَّهُ إليَّ وسوفَ أريكَ على أرضِ الواقعِ كيفَ يَجبُ أنْ تَجريَ الأمورُ بشكلٍ أكثَرَ صواباً.

حمد: اتركوني لأفكّرَ ما الذي سيحدثُ بعدَ هذه الحربِ اللعينةِ. سوفَ تعيشُ المنطقةُ هناكَ في حالةٍ من الحربِ بدون وعي!، في حالةٍ من استنزافِ القدراتِ والطاقاتِ. سوف تتضاعفُ أعدادُ الشحاذينَ والمتسولينَ ومن الجنسين....

سرحان و"زولالة" وأبوالزهو: وسوف يتجمَّعُ المالُ في أيدي "القومبرادورِ العسكريِّ"، تُجّارِ الدّمِ والحروبِ والموتِ، شركاتِ السّمسرةِ والمستشارينَ العسكريينَ. سوفَ ترتفعُ أسعارُ بدلاتِ "الكاكي" واللّباسِ المُرَقَّطِ على حسابِ الموادِ الغذائيةِ الأساسيةِ. دروسٌ عرفناها منكَ منذُ حربِ النَكبةِ الثانيةِ وما تبعها من حربٍ أهليةٍ هنا قبلَ هذه الحربِ الأخيرةِ التي تَجمعُ بين التقليديةِ والأهليةِ في آنٍ واحدٍ!....

حمد: .... وسوف تزدادُ أعدادُ المروّجينَ للحربِ وأصحابِ الخطبِ الرنانةِ، ويطولُ عمرُ التوترِ والأحْقادِ ويَخفتُ صوتُ المُحبينَ للسلامِ والهدوءِ والفنونِ الجميلةِ والدعاةِ الحقيقيينَ المخلصينَ لِحقوقِ الإنسانِ والحياةِ الحرةِ الكريمةِ.

أبوالزهو: هل رأيتَ أنَّ الوالدَ أبو جاسر متأثرٌ كثيراً لِما جرى؛ لنذهبْ إليه، لنواسهِ، لنقلْ لهُ شيئاً يفرحُهُ، لنُعِدْ الابتسامةَ إلى وجههِ.

حمد: لا تَحملْ الهمَّ، صارت هذه الويلاتُ عند الوالدِ أبو جاسر مثلَ أكلِ "القُضامةِ". أظنُّ أنّهُ لن يقدرَ على العيشِ الطبيعيِّ دون ويلاتٍ، وربّما كانت هذه الحربُ أخفَّ الويلاتِ. أصبحَ وأضحى وأمَسى وصارَ وباتَ الحالُ عندَنا مثلَ جريحٍ يداوي جريحاً ونادبٌ يواسي منكوباً وغريقٌ يستنجدُ بغريقٍ، وخائفٌ يستغيثُ بميّتٍ من الرعبِ، وحزينٌ يندبُ حظَّ تعيس، وجائعٌ يطلبُ لقمةَ خبزٍ من معدم، وميتٌ يطالبُ بدفنهِ من بقايا أشلاءَ لأناسٍ آخرينَ، وهاربٌ يطلبُ لُجوءاً في أحدِ مُخيماتِ الصّمودِ والعودةِ ....!

أبوالزهو: ستوب! ستوب! ستوب! يعني قفْ توقّفْ واخرسْ خالصْ!. يا رجلاً رفقاً بأعصابِيَ، هل تقومُ بتصويرِ فيلمِ دراما أمامَ جُمهورٍ من ذوي القلوبِ الحجريةِ. أكادُ أسقطُ على الأرضِ من انهيارٍ عصبيٍّ، وتَهتُّكٍ فيَّ الضفائرِ الرئيسيةِ من النخاعِ الشوكيِّ عندِيَ!. صرتُ أتخيلُكَ أمامِيَ مثلَ ثعبانٍ يقذفُني بسائلٍ يشلُّ مفاصلِيَ ويعطّلُ مرافقَ جسمِيَ الحيويةِ وغيرِ الحيويةِ. ثُمَّ أينَ هي الويلاتُ الأخرى التي يواجهُها السّيدُ الوالدُ أبو جاسر؟.

حمد: ويلاتٌ أخطرُ بكثيرٍ من ويلاتِ الحربِ والدمارِ. ويلاتٌ قادمةٌ من القنابلِ السّكانيةِ التي تدخلُ إلى البَيتِ والتي قريباً ما ستظهرُ آثارُها على البيتِ والأسرةِ والحيِّ والشارعِ والقريةِ والمُحافظةِ والدولةِ والمنطقةِ والعالَمِ والكونِ كلّهِ. نَحْنُ الآنَ أحدَ عشرَ نفراً نعيشُ في حجرةٍ ونصفِ الحجرةِ، باستثنائِكَ أنت يا أبوالزهو. سوف يأتي إلى البيتِ هذا أسرةٌ جديدةٌ لأحدِ أنْجالِ الوالدِ أبو جاسر الأعزاءَ!. يقولُ أبو جاسر أنّهُ ليسَ السّببَ في ذلكَ .... ولكن!.

أبوالزهو وسرحان: ها ها ها ها ها.... يا صاحبيَ إنّكَ لن تشيبَ طولَ حياتِك!. ها ها ها ها... نَحْنُ نتحدّثُ عن الحروبِ في شبهِ القارةِ الهنديةِ، وأنتَ تفكّرُ كذلكَ في مثلِ هذه الأمورِ البسيطةِ التافهةِ!... ها ها ها ها ها.....

أبوالزهو: ما الّذي ينقصُكَ أو إخوانَكَ وأخواتِكَ؟!. في كلِّ يوم نصحوا، أنا والوالد أبو جاسر، من النومِ في الصّباحِ الباكر ونستمعُ إلى شخيرِكُمْ الذي ينبعثُ من الحجرةِ الوحيدةِ في توليفةٍ كأنّكُمْ جوقةٌ موسيقيةٌ في حانةٍ طبيعيةٍ!. تختلفون في كلِّ شيءٍ إلا في اندماجِكُمْ هذا العجيبِ الفريدِ من نوعهِ!.

حمد: يا أبوالزهو، وسوفَ يضافُ إلى هذه الجوقةِ "كِنَّةٌ" (الكِنَّةُ هي زوجةُ الابن) وولدٌ وأولادٌ!. إنّنا نعيشُ في بيتٍ يفتقرُ إلى أيَّةِ ميزةٍ تَخصُّ الجنسَ البشريَّ أو الحيوانيَّ؛ فقط الفئرانُ تقبلُ بمثلِ هذا العيشِ. من يُصلحُ خطأَ الطبيعةِ أو الإنسانِ أو كلاهُما في آنٍ معاً، إنْ صحَّ التعبيرُ وتفسيرُ التعبير!.

أبوالزهو: أخَبِرُك عن هذا السّرِّ الذي يصلحُ كلَّ أنواعِ الخللِ، هذا بينِيَ وبينَكَ لا تُخبرْ أحداً بهِ. هل تَرى هذا المُعَلّقَ عند الطرفِ الأيمنِ لشباكِ البيت؟!.

حمد: ترشُّ على الموتِ سُكَّراً. نَحْنُ في عالَمِ الهمومِ وأنت تريدُ الآنَ عالَمَ المَجونِ. اللومُ والعتابُ على الذي سَمحَ لغريزتِكَ الفنيةِ بالنموِّ والتضخّمِ، بل وسَمحَ لطلباتِكَ أنْ تطغى على واجباتِ البيتِ والمدرسةِ!.

أبوالزهو: ما رأيُكَ بأغنيةٍ للشيخِ فريد باشا.

حمد: دن دن دن دن .... يا ويلي من حبه يا ويلي ... يا عذابي بنهاري وليلي .... لا بيرحم ولا ناره ترحم .. ومحير في الحب دليلي ... يا ويلي ويلي ويلي ..... يا ويلي.

أبوالزهو وسرحان: آلو (قالوا) لي لو يوم رجعلك حبك الغضبان تعمله إيه؟. .. أُلت (قلت) أآبلوه (أقابله) بفرحة الحرمان يا ليلي ... وأجيب له من الشمس طرحة ... ومن القمر فستان ...... وأقول يا عيني خليه يجرب حلاوة ميّةِ العطشان يا ليل.

حمد: يا حبيبي الصّبر مالوش آخر والشكوى تعملوش آخر....

أبو جاسر (يدخلُ على حمد وأبوالزهو وسرحان): الدنيا كلُّها هَمٌّ واحدٌ وأنتم هُمومٌ. إنْ شاءَ اللهُ في يومٍ من الأيامِ سأكسرُ العودَ على رأسِكَ يا حمد.

حمد: ..... ولا يرضى يقابل مراسيلي ....

أبو جاسر: هذا فريد الأطرش يأخذُ عقولَكُمْ ويَجعلُكُمْ تتركونَ أعمالَكُمْ. لتذهبوا جَميعاً إلى الحقلِ، وقوموا بتنظيفِ الأرضِ من كلِّ الأعشابِ البريةِ الضارةِ؛ هذا إذا ما أردتُمْ كلَّ سنةٍ مَحصولاً جيداً من زيتِ الزيتونِ.

أبوالزهو: ساعةٌ للكيفِ وساعةٌ للسيفِ!. يا أبو جاسر هل تريدُنا أنْ نظلَّ نعملُ أربعاً وعشرينَ (٢٤) ساعةً، مثلَنا مثلَ الحمير الأخرى؟!.

أبو جاسر: طوالَ الوقتِ، أنت وحمد تُحدثانِ طنّةً ورنّةً على رؤوسِنا في هذا البيتِ الذي يَمتلئُ الآنَ بالبشرِ والحيواناتِ!.

حمد: ومن هو سببُ المشكلةِ؟ لا تقلْ لنا مرّةً أخرى .... أنَّ هنالكَ أحداً غيرُكَ؟. ...!.

تلفيقُ تُهمةٍ

كلَّ يومٍ تقريباً هنالكَ مُمارسةٌ جديدةٌ أو غيُر متوقعةٍ للاحتلالِ ضدَّ المدينةِ وأهلِها وروّادِها من الخارجِ. تشملُ تلكَ الممارساتُ مواجهةَ مسيرةٍ أو اشتباكاً مع شبانٍ متظاهرينَ أو اعتداءاً على صاحبِ متجرٍ يرفضُ دفعَ الضريبةِ المفروضةِ!، أو مُحاولةَ الجنودِ عرقلةَ حركةِ السّيرِ في شارعٍ، أو إقامةَ حاجزٍ للتنكيلِ بالمارةِ. كذلكَ تشملُ إقامةَ نقطةِ مراقبةٍ وقناصةٍ على منطقةٍ مرتفعةٍ أو على سطحِ بنايةٍ وسطَ المدينةِ، أو إيقافَ مَجموعةٍ من الأشخاصِ بحجةِ الاشتباهِ بهِمْ، أو مُحاولةَ الدخولِ إلى مكانٍ مَمنوعٍ على غيرِ أهلِهِ؛ وغيَر ذلكَ الكثيُر. كانت السّاعةُ تشيرُ إلى حواليْ الواحدةِ ظهراً حيثُ كان حمد وأبوالزهو قد تأخرا في البيعِ والتسكّعِ في الشوارعِ والتفرُّجِ على المَحلاتِ التجاريةِ والمعارضِ المنتشرةِ على جانبَيْ طريقِ السّوقِ. فجأةً إذاً بصوتِ انفجارٍ قويٍّ، مصدرُه قريبٌ وفي الشارعِ الذي يَجبُ أنْ يسلكاهُ للخروجِ من السّوقِ والمَدينةِ باتّجاهِ القريةِ. ومن عادةِ الناسِ عندَ حدوثِ مشكلةٍ كهذهِ أنْ يبدؤوا بإغلاقِ مَحلاتِهم التجاريةِ بسرعةٍ وارتباكٍ واللجوءِ إلى مناطقَ بعيدةٍ عن مكانِ الحادثِ، إلى بيوتِهم في المقامِ الأوّلِ. لَمْ يَجدْ حمد وأبوالزهو مَناصاً آخرَ إلا الذهابَ والمضيَّ في الشارعِ وحتى سلوكَ الطريقِ المؤدّي إلى مكانِ انفجارِ القنبلةِ. كانَ هنالكَ بضعةُ قتلى وعددٌ أكبرُ من الجرحى وبعضُ الدمارِ في المَحلاتِ المُحيطةِ. تَجمَّعَ بعضُ الناسِ لتقديمِ يدِ العونِ للمصابينَ. فجأةً ظهرت سياراتُ "جيب" عسكريةٌ قدِمتْ إلى المكانِ وَترجَّلتْ منها مَجموعةٌ من الجنودِ، لتطوِّقَ المكانَ وتقومَ باعتقالِ عددٍ من الموجودينَ هناكَ. وَقفَ حمد وأبوالزهو على حافّةِ الرصيفِ عندما بدأ جنودُ الاحتلالِ بالتحرّشِ بالمواطنينَ الذين تواجدوا هناكَ لِمساعدةِ المصابينَ في الحادثِ!.

ضابطٌ من جيشِ الاحتلالِ: ماذا تفعلانِ هنا؟.

حمد: كُنّا أنا وأبوالزهو معاً وسويّةً نبيعُ اللّبنَ والخضارَ. الآنَ كلانا ذاهبانِ إلى البيتِ في القريةِ البعيدةِ.

أبوالزهو: وهذه معنا بقاليلُ اللّبنِ وسلالُ الخضارِ الفارغةُ.

الضابطُ: أنتما كذّابانِ!. أنتما من وضعَ القنبلةَ هنا في سوقِ الخضارِ. أنتما رهنُ الاعتقالِ.

حمد وأبوالزهو: لَمْ نعرفْ أيَّ شيءٍ عن الانفجارِ إلا عندَما سَمِعْنا الصّوتَ، يا خواجةُ!.

الضابطُ: ما هذه خواجةُ؟!، لا أعرفُ خواجةً، لستُ بخواجةٍ!.

حمد: خواجةٌ تعني مَحلياً أفنديٍ أو مُحترماً أو رجلاً طيباً أو حكيماً أو عندهُ عقلٌ كبيرٌ أو حتى رجلَ أعمالٍ متمكّناً من أرزاقِ الناسِ في مُجتمعهِ!. لستَ أيّاً من هؤلاءِ جَميعاً!.

الضابطُ: أنتما رهنُ الاعتقالِ، خاصّةً أنت يا خواجةُ! أبوالزهو.

وفي مركزِ تَجميعِ المعتقلينَ كان المكانُ يعجُّ بضبّاطِ الأمنِ والشرطةِ والمعتقلينَ من مكانِ الحادثِ!. وحينَ أوّلِ الدخولِ إلى المركزِ وحتى الخروجِ منهُ ينهالُ جنودُ الجيشِ النظاميِّ وما يسمّى بحرسِ الحدودِ والشرطةِ على المشتبهِ بهِمْ! بالضربِ أو التهديدِ بهِ، بالركلِ والبصاقِ والشتائمِ دونَ مستوى الحدِّ الأدنى من التعاملِ الأدبيِّ حتى مع المنحرفينَ وأصحابِ السّوابقِ. جاءَ الكابتنُ الموكّلُ بحمد وأبوالزهو وقالَ: "تعالا واتبعاني". أدخلَهُما في غرفةٍ كبيرةٍ ذاتِ ثلاثةِ أبوابٍ

حديديةٍ منزلقةٍ يغلقُ الواحدُ تلوَ الآخر وقامَ الكابتنُ بوضع مفتاحٍ في قفلٍ فولاذيٍّ كبيرٍ في آخرِ الأبوابِ المنزلقةِ؛ كما يبدو لقتلِ أو خنقِ الروحِ المعنويةِ لديهما. جلسَ المُحَقِّقُ خلْفَ مكتبٍ صغيرِ الحجمِ، نوعاً ما، وعليهِ بعضُ الأوراقِ وأغراضٌ أخرى كما يبدو من ضمنِها أجهزَةٌ للتعذيبِ أو التلويحِ بهِ.

المحققُ (كابتنُ "شيلوحِه"): لقد راقبناكُما منذُ حواليْ السّتةِ (٦) شهورٍ، ورأيناكُما عندَما وضعتُما القنبلةَ. هذه المرَّةَ كشفناكُما ولكنْ أخبرانِ عن عددِ القنابلِ التي عندكُما والتي زرعتُماها حتى الآنَ؟. أخبرانِ ولا تكذبا عليَّ لأنَّ جهازَ المخابراتِ لدينا يعرفُ كلَّ شيءٍ عن أيِّ شيءٍ وفي أيِّ مكانٍ في العالَمِ!؛ لا داعيَ للَّفِّ ولا للدورانِ.

أبوالزهو: توجدُ عندَنا عشرونَ (٢٠) بقلولةً وخَمسُ (٥) سلالٍ من التينِ والبَنْدورةِ.

حمد: يا أبوالزهو! يسألُ هذا الضابط عن قنابلَ وليسَ عن بقاليلَ؛ عندما يرى عشرينَ (٢٠) بقلولةً، سوفَ يُحوِّلُها في تقريرهِ إلى عشرينَ (٢٠) قنبلةٍ. ذلكَ يُمَكِّنُ قاضيَ "العدلِ" عندَهُمْ أنْ يَحكمَ علينا عشرينَ (٢٠) مؤبداً لكلٍّ منا؛ ذلكَ لأنَّ هذا الاحتلالَ تصدرُ عنهُ أحكامُ المؤبّدِ بالجملةِ وبكلِّ سهولةٍ كما لو كانَ في سوقِ "تنزيلاتٍ" موسميةٍ دائمٍ على تلكَ الأحْكامِ!.

أبوالزهو وحمد: يا خواجَةُ! هذه بقاليلُ لبَنٍ فارغةٌ، نَملؤُها غداً مرّةً أخرى ونبيعُها، وهكذا دواليكَ إلى آخرِ العمرِ أو حتى أنْ تتَغَيَّرَ هذه الحالُ بأحسنَ منها!.

كابتنُ "شيلوحه": لستُ خواجةً!، أنا الكابتنُ "أرعنون شيلوحه"، مديرُ مخابغات (مُخابراتِ) المنطقةِ، ألا ترونَ من لباسِيَ والنجومِ على كتفيَّ والنبرةِ الخاصّةِ لصوتِيَ.

حمد وأبوالزهو: الآنَ تأكَّدَ لنا أنَّكَ لستَ بخواجةٍ!. ماذا تريدُ منا بالضبطِ؟!.

كابتنُ "شيلوحه": الآنَ اعترفا لِيَ، كلَّ واحدٍ بلسانهِ، متى وكيف ومن أين وإلى متى! وكَمْ وضعتُمْ من القنابلِ. ذلكَ حتّى أتَمكَّنَ أنْ أكتبَ شيئاً في ملفِّ التحقيقِ؛ أو علّقتُكُما من أيديكُما ورقبتيْكُما على علاّقاتِ الحائطِ عشرين (٢٠) ساعةً متواصلةً، وسوف نُجَرِّبُ عليكُما الكلابَ الشرطيةَ وغازاتِ الأعصابِ والمسيلَ للدموعِ، بحيثُ ستصرخانِ بعدَ ذلكَ أنَّ "ربَّكُما لَمْ يَخلقْكُما"!. لديَّ تَجربةٌ طويلةٌ مع أمثالِكُما.

حمد: أقولُ لكَ وبصراحةٍ أنَّ الذي وضعَ القنبلةَ في مدينتِنا هو أنتمْ، أحدُكُمْ، أحدٌ يعملُ معكُمْ، أنتمْ تعرفونَهُ!. إنَّ المدينةَ هذه مدينتُنا، ولا يُمكنُ أنْ نفكِّرَ أنْ نزرعَ فيها الموتَ والدمارَ. ارتكابُ الجرائمِ مهنتُكُمْ واختصاصُكُمْ وهوايتُكُمْ أو مهنةُ من تدفعونَ لَهم أموالاً، إنّها من تدبيركُمْ!.

كابتنُ "شيلوحه": هل توافقُ يا خواجةُ! أبوالزهو معَ خواجةِ حمد؟. هل تفكيرُكَ من نفسِ تفكيرهِ؟، يبدو لِيَ من عقليْكُما وطريقةِ تفكيرِكُما أنَّكما من عائلةٍ كلُّها خواجَاتٌ!.

أبوالزهو: أنا وحمد روحٌ واحدةٌ وعقلٌ واحدٌ، وضميرٌ واحدٌ في جسدينِ للأسفِ!. إنَّ ما قالهُ حمد هو عينُ الحقيقةِ، وبنفسِكَ تعرفُ أنّهُ أقربُ إلى الحقيقةِ من كلِّ ما تُحاولُ أنْ تلفّقَهُ ضدَّ الآخرينَ.

كابتنُ "شيلوحه": انتبها لِيَ جيداً. صار لِيَ خَمسَ عشرةَ (١٥) سنةً في مهنةِ المخابراتِ والتحقيقِ، لَمْ يَمرَّ أحدٌ يتجاسر عليَّ بهذا الشكلِ. لا تُحاولا أنْ تستفيدا

من "الديموكراسيةِ" والحريةِ التي تعطيها الدولةُ لسكّانِها المُحترمينَ لتقولا كلاماً يَجرحُ شرفَنا ويضربُ سُمعةَ جهازِ مُخابراتِ الدولةِ. لا نقومُ بمثلِ هذه الأعمالِ التخريبيةِ، ولو وَدَدْنا عَمَلَ ذلكَ لقمْنا بتدميرِ كلِّ مدنِكُمْ وقراكُمْ وبيوتِكُمْ ولديْنا من الإمكانياتِ ما نقدرُ على عملِ ذلكَ وبسهولةٍ. لكنّنا أناسٌ "خداريونٌ" (حضاريونَ)!.
أبوالزهو: أتَحدّاكمْ إنْ كانَتْ لَديكُمْ أيّةُ "حضارةٍ" أنْ تكشفوا الحقيقةَ.
كابتنُ "شيلوحه": بمقدوريَ أنْ أضعَكُما في السّجنِ مئةَ سنةٍ لا أحدَ يدري بِكُما. لكنني أريدُ أنْ أتكلّمَ مع أبوالزهو على انفرادٍ في الغرفةِ الثانيةِ حيثُ يوجدُ معي هناكَ بعضُ الزملاءِ من ضباطِ المخابراتِ!؛ إنّهُ مُجرّدَ تحقيقٍ بسيطٍ!؟..
يذهبُ أبوالزهو إلى الغرفةِ الثانيةِ ليقابلَ عدداً من ضُباطِ المخابراتِ وحيداً ويظلُّ حمد ينتظرُ خارجَ الغرفةِ حتى الانتهاءَ من التحقيقِ!. بعدَ حواليْ العشرينَ (٢٠) دقيقةً من دخولِهِ إلى الغرفةِ خَرَجَ أبوالزهو في وضعٍ نفسيٍّ غيرَ مريحٍ، كما بدا ....
حمد: ماذا في الأمرِ يا أبوالزهو!، هل حدَثَ ما لا يعجبُكَ!؟، لِماذا تلعنُ نفسَكَ؟! ومَن حولَكَ وبشكْلٍ غاضبٍ!.
أبوالزهو: لقدْ قاموا بالعبثِ بالأعضاءِ التناسليةِ عندِيَ، أو قُلْ ما تبقّى منها، بشكلٍ أدقَّ!.
حمد: ولِماذا هذا التصرفُ غيرُ الحضاريِّ الأرعنُ!. هل أرادوا تَحطيمَ نفسيتِكَ وخدْشَ حيائِكَ وكرامتِكَ وعنفوانَ أخلاقِكَ وتربيتِكَ الفاضلةِ؟!. ماذا حدثَ بالضبطِ؟...
أبوالزهو: في البدايةِ كانوا ثلاثةً من الضباطِ؛ كانوا سعداءَ مبتسمينَ منشرحينَ، كما يبدو، وعلى غيرِ عادتِهِمْ الطبيعيةِ. جاء اثنانِ آخرانِ وكانا سعيدانِ كذلكَ في البدايةِ لرؤيتِيَ. وعندماً رأوا ما عندِيَ من "بضاعةٍ" (بضاعة تعني هنا أعضاءً خاصةً في الجسمِ يتجنبُ الشخصُ العاميُّ ذكرَها علناً) بعدَ أنْ خلعوا عنّيَ ملابسِيَ وفحصوني عن قربٍ!، تشاءموا جَميعاً وقال أحدُهمْ للآخرِ: "حظٌ أحسنٌ في المستقبلِ"؟!. لا أعرفُ عن ماذا كانوا يبحثونَ!. ماذا برأيِكَ يا صاحبِيَ؟!. الأمورُ عندِيَ غامضةٌ إلى حدٍّ ما.
حمد: ... كما تعرفُ يا أبوالزهو أنَّ هؤلاءِ آتونَ من ثقافاتٍ أخرى متفاوتةٍ؟!. في معظمِ تلكَ الثقافاتِ كلُّ أعضاءِ الجسم، ودون استثناءَ، سِيانٌ!.
أبوالزَهو: فهمتُ عليكَ!. يعني ذلكَ عَوْدٌ على بدءٍ على "الجَميلِ" الذي قاما بعملِهِ أخوكَ جاسر و"الحاجُّ صُعَيْب"!. غيرَ ذلكَ كانَ من الممكنِ أنْ تختلفَ المعاملةُ بشكلٍ أكثرَ تعقيداً!؟.
حمد: ..... شيءٌ من هذا القبيلِ أو ذاك!. لا أحدَ يقدرُ أنْ يَجزمَ كثيراً في الموضوعِ.
وفي الطريقِ إلى القريةِ انطلقَ لسانُ! أبوالزهو وقالَ إنّهُ استفادَ من هذهِ التجربةِ كثيراً وعرفَ عن قربٍ أكثرَ طبيعةَ الاحتلالِ الذي بالإضافةِ إلى أنّهُ يربضُ على الصّدورِ والقلوبِ والعقولِ متوغلٌ في أساليبِ المكرِ والخداعِ الرخيصةِ، والانتهازيةِ الغبيةِ الوقحةِ!.
أبوالزهو: أتساءلُ مع نفسِي كَمْ من الخلقِ قُتِلوا أو نُكِبوا أو ظُلِموا أو دُمِّرَ مستقبلُهم من قِبَلِ هؤلاءِ الضبّاطِ؟!. كَمْ بيتاً خَرّبوا وكَمْ كارثةً كانوا هم السّببَ فيها؛ كَمْ مُصِرّاً كان ذلكَ الضابطُ على أنْ يُلبسَنا تُهمةً دونَ وجهِ حقٍّ!.

حمد: يا حبيبيَ أبوالزهو! كانتْ مشكلتُنا معَهُمْ بسيطةً ومرّتْ بسلام. لقد استولى هؤلاء على أراضٍ وقتلوا أصحابَها ونسفوا بيوتاً فوقَ أهلِها وأثاثِها. لقد حوّلوا معابدَ وصوامعَ للعبادةِ إلى حاناتِ رقصٍ وخمرٍ ومَجون. ليسَ فقط هؤلاءِ لا يفرّقونَ بين أعضاءِ الجسمِ المُختلفةِ بل لا يفرّقونَ كذلكَ الأمرُ بينَ دورِ العبادةِ وأماكنِ اللّهوِ واللعبِ والدعارةِ، كلُّها من عندهِمْ بيوتٌ مستباحةٌ؛ بالإضافةِ إلى التقدّمِ الطبّيِّ عندَهُمْ كذلكَ عندَهُمْ تقدّمٌ روحانيٌّ لا يقلُّ شأناً!. كذلكَ يضعُ هؤلاءِ أناساً من ذكرٍ وأنثى وإنسٍ وحيوانٍ في السّجنِ سنينَ طويلةً دونَ تُهمةٍ. بالنسبةِ لنا، ربُّنا تعالى سَتَرَ أو كنّا هذه الليلةَ في ضيافتِهمْ اللعينةِ.

أبوالزهو: ألا يوجدُ عندَ أمثالِ هؤلاءِ ضميرٌ؟!.

حمد: قد يكونُ عندَهمْ شيءٌ من ضميرٍ شبهِ ثابتٍ لا يتحركُ!. لكنَّ هؤلاءِ الخلقَ جزءٌ من جهازٍ تَمَّ استئصالُ أو إلغاءُ كلمَةِ "ضميرٍ" من قاموسِ المصطلحاتِ فيهِ عندَ التعاملِ معَ الخلقِ الآخرينَ.

أبوالزهو: ولكنْ أينَ جَماعاتُ حقوقِ الخلقِ والصّليبُ والهلالُ الأحْمرينِ والأممُ المتحدةُ والبلديةُ وجَمعياتُ حمايةِ البيئةِ ...؟!.

حمد: ما ذكرتَهُ أعلاهُ كالذي يُحاولُ تخفيفَ التضوّرِ من الجوعِ في مَجاعةٍ بشربِ الماءِ العكرِ الفاترِ. سوف يَموتُ جوعاً وبعدَ أنْ يَجفَّ كبدُهُ وقلبُهُ وطحالُهُ وأغشيةُ دماغِهِ وتبرُزَ عيونُهُ من مَحاجرِها لتصبحَ مثلَ عيونِ الضفدعِ الجائعِ بعد أنْ تنضبَ بركةُ الماءِ التي كانَ يتخذُها مأوىً بيئياً لَهُ.

أبوالزهو: لكنّنا عرفنا كيفَ نواجِهُهُمْ. كنّا لَهُمْ بالمرصادِ؛ التهمةُ بالحُجّةِ والخطأُ بالصّحيحِ والباطلُ بالحقّ. ما رأيُكَ؟! لسببِ أننا لا نقدرُ أنْ نستنجدَ بأيِّ شيءٍ آخرَ من مثلِ دائرةِ المَجاري والصّرفِ الصّحيِّ ونقابةِ الكناسينَ وعمّالِ التنظيفِ ....

حمد: ... بدايةَ الأمرِ يا أبوالزهو، كِدْتَ أنْ تورّطَنا معَ الكابتنِ "شيلوحه" عندَما مزجتَ بينَ البقاليلِ والقنابلِ، وظنَّ الضابطُ لنفسهِ أنّهُ اكتشفَ شيئاً ثميناً لهُ. كان يتحدثُ عن ديناميتٍ ونَحْنُ نقصدُ اللّبنَ. يريدُ تلفيقَ تُهمةٍ ونَحْنُ على براءتِنا وحُسْنِ نوايانا المعهودِ.

ويزورُ القريةَ من وقتٍ لآخرَ أحدُ أو إحدى النشطينَ أو النشطاتِ في جَماعاتِ حقوقِ الإنسانِ؛ الآنسةُ "هياة بالونسكي"، ومعها السيدُ "زافِر"، إحدى هؤلاءِ. تَجوبُ الآنسةُ "بالونسكي" المنطقةَ وتبحثُ عن "اختراقاتٍ" لِحقوقِ الإنسانِ وهي، كما تقولُ، عضوٌ في "منظمةِ الأمانةِ والعفوِ الدوليةِ" بالإضافةِ إلى جَمعيةِ "حقوقِ الخلقِ". ما أنْ علمتْ الآنسةُ "بالونسكي" والسّيدُ "زافِر" بمشكلةِ حمد وأبوالزهو مع الاحتلالِ حتى أتَيا بسيارتِها الفاخرةِ الحمراءِ اللونِ إلى بيتِ أسرةِ أبو جاسر يُحاولانِ الاستفسارَ عن ما جرى مع حمد وأبوالزهو!.

الآنسةُ "هياة": هل لنا أنْ نَتحدّثَ معكُما على انفرادٍ عَمّا حصلَ مع قوّاتِ الاحتلالِ؟!.

حمد: لقد نَجونا بجلدَيْنا من ضباطِ الأمنِ الرسْميّينَ حتى نقعَ في قبضةِ المُحقّقينَ "الخصوصيينَ"!. ثُمَّ أين هو المكانُ الخاصُّ الذي تودّانِ فيهِ الاجتماعَ بِنا على انفرادٍ؟!. البيتُ كلُّهُ مكوّنٌ من حجرةٍ ونصفِ الحجرةِ، والمكانُ يعجُّ بالخلْقِ. لا توجدُ عندَنا "قاعةٌ خاصّةٌ لاستقبالِ الضيوفِ"!.

الآنسةُ "هياة": لا تُطِلْ لسانَكَ، ولا تُكثِرْ من كلامِكَ!. لقد عرفتُ قبلَ أنْ آتِيَ إلى هنا أنَّ لسانَكَ طويلٌ؛ لا يوجدُ عندِيَ "طوليرانس" (بالعربيّةِ تعني "تَحَمُّل") لِمثْلِ هذا الكلام!..

حمد: لكنَّ الأمرَ فيه تعرُّضٌ لأعضاءَ خاصةٍ في جسم أبوالزهو!...

الآنسةُ "هياة": لا يوجدُ عندَ هؤلاءِ (الأمنُ والمخابراتُ والاحتلالُ بشكلٍ عامٍّ) مثلُ الذي عندَكُمْ من قيودٍ على التصرفاتِ. عندَ هؤلاءِ حريةٌ وتطوّرٌ أكثرُ وهُمْ متقدّمونَ عليكمْ في كلِّ شيءٍ؛ لأجلِ ذلكَ انتصروا عليكُمْ!...

حمد: ليس لأجلِ ذلكَ "انتصروا" علينا. لكنْ تفضّلي اجتمعي معنا، في المكانِ المخصّصِ لنومِ أبو جاسر وأم جاسر وإخوةِ جاسر وأخواتِ جاسر وما تبقّى من قططِ أبو جاسرَ المدلّلةِ وبعضٍ من أحفادِ السّيدِ أبو جاسر.

الآنسةُ "هياة" (والسّيدُ "زافر" مع حمد وأبوالزهو): قولا لِيَ بِ"الطفسيل" (بالتفصيلِ) المملِّ، شو (ماذا) صار (حدَثَ) معكَ؟!. لا تستحيا أنْ توصفا لنا كلَّ شيءٍ؛ على أساس أنّهُ عندما أكتبُ "طأرير" (تقريراً) يكونُ "أوي" (قويّاً) على أساسِ الجماعة الدولية " هادول" (هؤلاءِ) "يتخزوا" (يتخذوا) "أرار" (قراراً) يكونُ "بو شي" (بهِ شيءٌ) لصالِحِكُما!.

حمد وأبوالزهو: أوّلاً يا "سيدةَ هياة"، لا نعرفُ لِماذا حرفُ "القافِ" الأبْجديِّ غيرُ مستحبٍّ لفظُهُ في معظمِ الكلماتِ التي يظهرُ فيها هذا الحرفُ، ويُستبدلُ بِحرفِ "الهمزةِ"؟!. حرفُ القافِ جَميلٌ جداً ومهمٌّ ولطيفٌ، مثلُهُ مثلَ أيِّ حرفٍ آخرَ. إنّهُ "مسكينٌ" لِماذا الناسُ تُحاولُ أنْ تلغيَهُ وتَحلَّ مَحلَّهُ حرفاً آخرَ. وبالنسبةِ لِما حدثَ بينَنا وضباطِ المخابراتِ فإنَّ الأمرَ لا يعدو كونَهمْ لَمْ يَجدوا عندَنا، لا عندِيَ ولا عندَ أبوالزهو، ما يشبعُ رغباتِهِمْ!.

الآنسةُ "هياة": يبدو أن "الحديس" (الحديث) معكُما يتطلّب "زكاء" (ذكاءً) "أكتر" (أكثرَ) يا "خُبسا" (خُبَثاءَ)!. تعلّمْتَ يا أبوالزهو من حمد، والعكسُ، أشياءَ كتيرة (كثيرةً) على ما يبدو.

أبوالزهو وحمد: والآن جاءَ دورُ حروفِ "الثاءِ" و"الذالِ" وبعد قليلٍ "الطاءِ" و"الظاءِ" و"الصّادِ" و"العينِ" و"الحاءِ" و"الخاءِ" و"الجيم" و"الغينِ" حتى تقضينَ على كلِّ لغةِ "الضّادِ"؛ إنَّ هنالكَ أحدَ عشرَ حرفاً أبْجديّاً على الأقلِّ مِن أصلِ ثمانيةٍ وعشرينَ حرفاً مُهدّدةٌ بالشّطبِ الكاملِ من اللغةِ العربيةِ المَحكيةِ وربّما المكتوبةِ فيما بعدُ. كلُّ ذلكَ! من أجلِ أنْ تحلّانِ مشكلةً حصلتْ مع جهازِ أمنِ العدوِّ وأثناءَ البحثِ في الأعضاءِ التناسليةِ عندَ أبوالزهو والتي هي أصْلاً "مُعَطَّلَةٌ".

الآنسةُ "هياة" والسيدُ "زافر": يا أبوالزهو، أنتَ! ألا تمتلكُ أعضاءَ تناسليةً فاعلةً؟!. "ابنعتئد" (نعتقدُ) بأنّكَ تسبّبتَ بخيبةِ أملٍ للاحتلالِ وأفرادِهِ تفوقُ بقوّتِها أيّةَ خيبةِ أملٍ ناتِجةٍ عن تدخّلِ أيّةِ "مُنْزّمة" (منظمةٍ)، دوليةٍ كانت أو إقليميةٍ، حقوقيةٍ كانت أمْ إنسانيةٍ أمْ سياسيةٍ أمْ اجتماعيةٍ، تعملُ هنا على السّاحةِ منذُ أكثرَ من "تلاتين" (ثلاثين) سنةً!.

لَمْ يُبقِ الاحتلالُ مَجالاً لعملِ حقوقِ الإنسانِ أو الملائكةِ أو الجنِّ. لأجلِ الحفاظِ على أمنِهِ، كما يزعمُ، لا يتوانى عن اختراقِ كلِّ المعاييرِ والقواعدِ والسّلوكياتِ والأخلاقيّاتِ والمقدّساتِ والمُحرّماتِ وأنصافِ المُحلّلاتِ وأشباهِ المُحرّماتِ.

أبوالزهو: والآن أريدُ منك أنْ تضربَهم جَميعاً بأغنيةٍ أو موالٍ كي تُخجلَهم من أنفسِهم وتهزمَهُمْ شرَّ هزيمةٍ!.
حمد: إنَّ هؤلاء جَميعاً من الضعفِ بمكانٍ في تصرفاتِهمْ مِمّا يَجعلُ كلَّ الأغاني قادرةً على أنْ تلحقَ بهم الهزيمةَ المرّةَ؛ من الأغنيةِ الخفيفةِ "الطقطوقة" الصّغيرةِ إلى أغنيةِ "رباعياتِ الخيّام". فقط أريدُ أنْ أعزفَ لكَ يا أبوالزهو قطعةً موسيقيةً من خاطريَ المكسورِ المَجروحِ على أحوالِنا في هذه الدنيا، هذه القطعةُ من داخلِ العقلِ الباطنيِّ عنديَ ومتركزةٌ في الجانبِ الأيْمنِ من دماغِيَ.... أوَدُّ أنْ أسمِّيَها "صراخ دونَ صوتٍ"... ..... دن دن دم دج دن نن دن .... صول.
أبوالزهو: آهٍ .... يا صديقِيَ على عقلِكَ الباطنيِّ!. هذه المقطوعةُ التي عزفتَها، أليسَ فيها صراخٌ كما تقولُ!؟. لكنَّ صداها وصلَ إلى عمقِ مشاعريَ ومشاعرِ أمّيَ "راكلي" التي تستريحُ في ظلِّ جدارِ البيتِ من عناءِ العملِ في الحقولِ البعيدةِ تَحْتَ حرارةِ الشمسِ اللاهبةِ. شيءٌ عجيبٌ! تستطيعُ أنْ تصرخَ عالياً دون أنْ تفتحَ فاكَ!.

التدخينُ والشربُ

يعتبرُ التدخينُ والكحولُ من أكثرِ آفاتِ حضارةِ العصرِ فتكاً بالجسدِ والروحِ والأخلاقِ؛ إضافةً إلى ذلكَ يُمثّلانِ استنزافاً خطيراً للمالِ على حسابِ المصاريفِ الأخرى الأساسيةِ، والأكثرَ أهميةً على الأقلّ. ما أنْ بلغَ حمد سنَّ الرابعةَ عشرةَ من عمرهِ حتى بدأتْ تستهويهِ فكرةُ التدخينِ وشراءِ السّجائرِ خاصةً الفاخرةِ منها؛ كان للدعايةِ ووسائلِ الإعلامِ في ذلكَ الوقتِ الدورُ البارزُ. كان حمد يرى في صُوَرِ الدعايةِ، على سبيلِ المثالِ، حصاناً في عنفوانِ قوّتهِ وشبابهِ يَمتطيهِ فارسٌ، أو منَ يُمثّلُ دورَ فارسٍ، وفي أرضٍ جبليةٍ مُمتدّةٍ ووعرةٍ أو خلاءٍ واسعٍ. يُشعِلُ الفارسُ سيجارتَهُ من عودِ حطبٍ يابسٍ التقطَهُ من موقدِ نارٍ ملتهبٍ ليعودَ بَعد ذلكَ لامتطاءِ فرسهِ من جديدٍ. يُختارُ المدخّنُ عادةً في الصّورةِ الدعائيّةِ ليكونَ في عنفوانِ شبابهِ ونشوتهِ وقوّتهِ الجسديةِ وحيويتهِ المُفرطةِ؛ على العكسِ تماماً مِمّا يَجري في الحقيقةِ حيثُ أنَّ التدخينَ يصيبُ معظمَ أعضاءِ الجسمِ الحيويةِ، كالرئتينِ والقلبِ، يصيبُها في حيويتِها في الصَّميمِ. لَمْ تُؤخذْ هذه ولا تلكَ بعينِ اعتبارِ حمد ولَمْ تنفعْ معهُ نصائحُ الآباءِ والأمّهاتِ والحُكماءِ والعقلاءِ وأهلِ العلمِ والخبرةِ مثلاً!.
أبو جاسر: واللهِ! إنّهُ لأمرٌ عجيبٌ!. أنت متمسِّكٌ بتدخينِ والتهامِ تلكَ السّمومِ. أوّلاً إنّها مضرّةٌ بصحتِكَ وثانياً إنّكَ تبتاعُها من مالٍ ليس لكَ. عائداتُ بيعِ اللّبنِ هذه حقٌّ للبيتِ وللمستقبلِ وللتعليمِ لكَ ولبقيةِ إخوانِكَ وأخواتِكَ!.

أبوالزهو: في كلِّ مرَّةٍ نذهبُ فيها إلى المدينةِ يذهبُ حمد إلى مَحلاتِ بيعِ علبِ السّجائرِ ولا يكتفي بشراءِ علبةٍ واحدةٍ صغيرةٍ في المرّةِ الواحدةِ بل يقومُ بشراءِ صندوقٍ كاملٍ، فيهِ الكثيرُ من العُلَب.
سرحان: صندوقُ "مارلبورو"، صندوقُ "دانْهيل"، صندوقُ "جولْدستارْ"، صندوقُ "كِنْتْ"، صندوقُ "جيتان".... الجنونُ في التدخينِ عندهُ فنونٌ وبالألوانِ.
أبو جاسر: هل يعجبُكَ هذا؟!. شهدَ شاهدانِ عليكَ مِن جَماعتِكَ!. كنتُ دائما أتساءلُ عن السّببِ في الخسارةِ والنقصِ في عائداتِ بيعِ اللّبنِ والخضارِ بالمقارنةِ مع باقي البياعينَ المتجولينَ!.
حمد: إنَّ التدخينَ مفيدٌ لِيَ. لا تعرفونَ كَمْ أشعرُ بالنشوةِ الحقيقيةِ وأشعرُ أنني أتَحكَّمُ بحياتِيَ بنفسِيَ وكمْ أشعرُ أنّني مستقلٌّ عن بقيةِ العالَمِ عندما أشعِلُ سيجارةً واحدةً!. وإذا ما كنتَ غيرَ مقتنعٍ ولا مصدِّقٍ عليكَ أنْ تُجرِّبَ سيجارةً واحدةً، "مَجّةً" (نفخةً أو جرعةَ دخانٍ) واحدةً، مُجرَّدَ تَجرِبةٍ!.
أبو جاسر: دَعوَنِ أحاولُ .... (يبدأ بالسُّعالِ، يشتدُّ بهِ السّعالُ ويشتدُ أكثرَ حتى بدا مثلَ الذي يَحتضرُ!). هداك اللهُ يا ولداً!؛ مَجَّةٌ واحدةٌ فعلتْ بيَ هكذا. كيفَ أنتَ قادرٌ على تَحمُّلِ مثلِ هذهِ الحُمولةِ الكبيرةِ من السّمومِ؟!. عليكَ أنْ تتركَها فوراً.
حمد: هلّا رأيتَ الفرقَ ما بينَ المدخِّنِ وغيرَ المدخِّنِ؟؛ جِسدُ المدخِّنِ قادرٌ على تَحمُّلِ السّمومِ أكثرَ من الذي لا يدخِّنُ. الويلُ لِحالِ أجَسادِكُمْ الضعيفةِ أمامَ زحفِ الموادِّ الضارةِ!.
سرحان: وحمد قادرٌ أيضاً على أنْ يدمِّرَ عائداتِ مَحصولِ الموسمِ ويكونَ سعيداً على حسابِ بؤسِ الآخرينَ.
أبو جاسر: من الآنَ فصاعداً إيّاكَ أنْ تصرفَ فلساً واحداً من عائداتِ بيعِ اللّبنِ.
حمد: وماذا عن سلالِ الخضارِ والفواكهِ؟، وماذا عن أجرتِيَ؟!. أنا الذي أذهبُ في الصّباحِ الباكرِ إلى شوارعِ المَدينةِ وأصرفُ كلَّ جهدِيَ وفكرِيَ من أجلِ البيعِ، أريدُ أجرةَ عَملِيَ.
أبوالزهو: تقومُ فقط بالمناداةِ والتسكُّعِ، أنا الذي أقومُ بِجُلِّ الهمِّ. إلى جانبِ ذلكَ أراكَ تصرفُ الكثيرَ من الوقتِ في التلاهي مع الناسِ، ما هبَّ منهُمْ وما دبَّ!. هل تريدُ أجرةً لذلكَ أيضاً؟.
أبو جاسر: كما تعرفُ يا ولدِيَ حمد بأنّنا أسرةٌ فقيرةٌ، نكسبُ قوتَنا اليوميَّ بدمٍ وعرقٍ زائدينِ. نعملُ ليلَ نَهارَ من أجلِ لقمةِ خبزٍ حافٍ. هذه السّجائرُ للشخصياتِ الكبيرةِ والأغنَياءِ، لسنا من هؤلاءِ ولا هؤلاءِ. عَسى اللهَ أنْ يرضى عليكَ وتعودَ إلى رشدِكَ.
حمد: عندَما أدخِّنُ يتحسّنُ البيعُ وأشعرُ بالراحةِ وأقومُ بعملِيَ على خيرِ ما يرامُ. وعندما أشعرُ بالكبتِ ويزيدُ الهمُّ على رأسِيَ لا أعرفُ حتى أينَ أتَحَرّكُ؛ ويَعرفُ ذلكَ أبوالزهو.
أبوالزهو: إنَّ بكلامهِ الصّدقَ!، بعدَ كلِّ بقلولةٍ يبيعُها أو اثنتينِ يصرفُ وقتاً في التدخينِ. أثناءَ التدخينِ يَجلسُ على حافّةِ رصيفٍ مهجورٍ، أو وراءَ جدارٍ منعزلٍ، أو منتصفَ طلوعِ دَرَجٍ بينَ بيوتِ الجبلِ.

حمد: إنَّ لِيَ من النقودِ ما أبيعُهُ من سلالِ الخضارِ والفواكهِ وبقلولةٍ واحدةٍ، والباقي للعائلةِ. لن يكونَ لِيَ أكثرَ من ذلكَ. سوف أشتري فواكهَ وكعكاً وحلوى وبعضَ المكسّراتِ للأولادِ والعائلةِ كالعادةِ ولا تقلقوا بشأنِ ذلكَ.
سرحان وأبوالزهو: إذن صارَ عندكَ إذنٌ رسْميٌّ بالتدخين. لَمْ يبقَ إلا أنْ توقِّعَ اتفاقيةَ عدمَ التدخلِ في شؤونِ الغيرِ بينكَ وبين الوالدِ أبو جاسر!.
أبوالزهو: لكن عليك أنْ تنتبهَ كذلكَ لأنني أنا بنفسِيَ أنزعجُ كثيراً من رائحةِ الدخانِ المنبعثِ من فمِكَ وأنفِكَ. دائماً عندما نريدُ أنْ نستريحَ من عناءِ الكرِّ والفرِّ تقومُ بإشعالِ سجائرَ بوجهِيَ، لا تَهتمُّ براحةِ الآخرينَ وأمزجتِهِمْ ولا تَهمُّكَ نظافةُ البيئةِ ولا الذوقُ العامُّ؛ لقد ضِقتُ بكَ ذرعاً. ما هذهِ العادةُ البائسةُ؟!.
ذاتَ يومٍ وعندَما كان حمد (ومعه سرحان هذه المرّةَ في المدينةِ) يهمُّ بشراءِ بعضِ علَبِ السّجائرِ الصّغيرةِ، بسببِ نقصِ كميةِ الفلوسِ لديه، أشارَ لهُ صديقُهُ بائعُ السّجائرِ السّيدُ "أبوالعوع" بإصبعهِ إلى تشكيلةٍ جذابةٍ الشكلِ من زجاجاتِ المشروباتِ الكحوليةِ؛ "نبيذٌ"، "عرقٌ"، "ويسكي"، "كونياك"، "شامبانيا"... في زجاجاتٍ وأوانٍ ذاتِ أشكالٍ وألوانٍ وأحجامٍ مُختلفةٍ وجذّابةٍ. أشارَ عليهِ "أبوالعوع" بشراءِ زجاجةِ "كونياك" صغيرةٍ. رأى سرحان وأبوالزهو ذلكَ بأمِّ عينَيْ كلٍّ منهما وثارتْ ثائرتُهما.
سرحان وأبوالزهو: هل تريدُ أنْ تبدأَ عملَ الأشرارِ الآنَ، تريدُ أنْ تشربَ الخمرَ!، إنَّ هذا لعملٌ مشينٌ، دعْكَ عن هذا أيها الأحْمقُ!. قَسَماً لَنخبرنَّ الوالدَ أبو جاسر ....
حمد: سيريحُ هذا المشروبُ أعصابيَ كثيراً و سأعطيكُما بعضاً منهُ لكي تشعرا بالراحةِ واللذّةِ وتستأنسا بالحياةِ!. لا عليكُما يا هذا.
سرحان وأبوالزهو: لن نفعلَ ذلكَ وسوف نُخبرُ الوالدَ عنكَ. أنت الآن تذهبُ إلى الهاويةِ بيديْكَ ورجليْكَ. لقد ضقنا نَحْنُ الاثنان بك ذرعاً أيُّها الأرعنُ. ارجعْ إلى صاحبِكَ واستردَّ نقودَكَ منه فوراً وأعدْ لهُ زجاجَتَهُ، الآنَ.
حمد: اسْمعانِيَ لَحظةً!، نَحْنُ الآنَ في الطريقِ إلى القريةِ. في الوادي الأخضرِ وبعدَ نزولِنا من طلوعِ الجبلِ الأشمِّ سوفَ نأخذُ جرعةً صغيرةً فقط لكلٍّ منا؛ فقط ملءَ غطاءِ القنينةِ! وهذه فقط تَجربةٌ ولن تَسْكَروا منها أبداً.
سرحان: لأفضحنَّكَ أمامَ الخلقِ وأمامَ والدِكَ، وسوف لن يَجمعَنا بعدَ الآنَ سبيلٌ ولا لقاءٌ ولا طريقٌ. اذهبا! أنتَ وصاحبُكَ الذي غواكَ إلى الجحيمِ.
في البيتِ وعندَ وصولِ المجموعةِ إلى البيتِ بعدَ رحلةِ العودةِ المعهودةِ بينَ المدينةِ والقريةِ بادرَ سرحان وأبوالزهو الوالدَ أبو جاسر بالحديثِ.
أبوالزهو وسرحان: لقد انتقلَ اليومَ إلى تناولِ المشروباتِ، الخمورِ، المسكراتِ. شيءٌ جديدٌ على المنطقةِ كلِّها.
أبو جاسر: الآنَ ترتكبُ الموبقاتِ، بل أمَّ الكبائرِ، يا ولداً. الآنَ أعرفُ ماذا تريدُني أنْ أفعلَ بكَ، تريدُني أنْ أجعلَكَ تتركُ البيعَ والذهابَ إلى المدينةِ. إيّاكَ ثُمَّ إيّاكَ أنْ تذهبَ إلى المدينةِ بعدَ الآنَ، وسأذهبُ بنفسِيَ أو أوكِلُ الأمرَ إلى أخيكَ الصّغيرِ، وسوفَ أوبّخُ ذلكَ الصّديقَ الذي طغى بكَ وأكلِّمُ والدَهُ لكي يصرفَ عنّا شرَّهُ.
حمد: هل رأيتُما يا سرحان ويا أبوالزهو!، لقد تَحولتُما إلى وحشين كاسرين ضدّيَ وأنا الذي كنتُ آمنُ جانبَيكُما وأقولُ أنّهُ ليس عندِيَ أحسنَ منكُما خَليلاً ولا صديقاً. لِماذا هذا؟. هل ذلكَ بسببِ بضعِ نقاطٍ من "الكونياكِ"!.

سرحان وأبوالزهو: إيّاكَ ثُمَّ إيّاكَ. نَحْنُ عائلةٌ مُحافظةٌ! والوالدُ أبو جاسر معروفٌ بأنّهُ من أكثرِ أهلِ القريةِ طيباً وورَعاً. هل تريدُ أنْ تضيعَ هذا وذاك من أجلِ سعادةٍ كاذبةٍ وملعونَةٍ؟!.

أبو جاسر: يا ولدِيَ إنّ هذه لأمُّ الكبائر، وستؤدي بكَ إلى الهاويةِ ولن يستطيعَ أحدٌ مساعدتَكَ إذا ما تَماديتَ فيها. لتنَظُرْ إلى حالِ "أبوزهوان" في المدينةِ؛ "أبوزهوان" وليس أحدٌ غيرَهُ. لقد قضى على ثروتهِ ورزقِ أولادهِ وطلّقَ زوجتَهُ وأضاعَ أولادَهُ وبناتهِ وأصابتهُ الأمراضُ الفتاكةُ.

أبوالزهو: دعكَ عن هذا يا ولداً!، ولتنسَ ما حدثَ ولا تفكّرْ بهِ من الآنَ فصاعداً. إنَّ لديكَ موهبةً فنيةً، هل تريدُ أنْ تقضيَ عليها بأمور تافهةٍ. صدِّقْن أنّني إذا ما صادفتُ صديقَكَ! "أبوالعوع" خارجَ مَحلّهِ سوفَ لن يلقى منّيَ إلا الاحتقارَ والإعراضَ عنهُ ....

أبو جاسر: عسى اللهُ يهديكَ يا ولداً!. ما الذي يَجعلُك تذهبُ إلى مثلِ هذه الموبقاتِ؟!.

أبوالزهو وسرحان: الآنَ لنغيِّرَ الموضوعَ!. ما رأيُكَ بأغنيةِ "هيتشِيه" (بالمَحليةِ مثلَ كلمةِ هكذا باللغةِ الفصحى) على مزاجِكَ.

حمد: بعدَ كلِّ هذا العملِ الذي أوقعتَ فيهِ بينِيَ وبينِ الوالدِ بالتعاونِ مع السّيدِ! سرحان، تريدُ منّيَ أنْ أطربَك!. ما هذا الابتزازُ الأرعنُ؟!. على كلِّ حالٍ وفي هذا الجوِّ ليس لنا إلا الموشّحاتُ أو أغنيةٌ للشيخِ نصري ... شمس الدين .... استرخوا أعصابَكُمْ شوي (قليلاً) يا أبوالزهو ...

أبوالزهو وسرحان: دخيلَك "أولوه" (يا ولداً) سَمِّعنا يا خيِّ (أخي) ما عدْش (لَمْ يعدْ) فينا (بنا أو عندنا) أعصاب تتحمل "انطزار" (انتظار) بأى (بقي)، ربّنا يكيريمك انتَ الآخر.

حمد: ما شاءَ اللهُ عليكُما يا سرحان ويا أبوالزهو! تصلحان أنْ تكونا مُمثّلَيْنِ مسرحيّيْنِ ومتميزيْنِ ... وبكافةِ اللهجاتِ المنتشرةِ في المكانِ!... دن دن دن دج دجَ دج دج دجَ نِ نِ ن نَ هن هن للا لا لا. (موشّح يا غصنَ نقَى) يا غصنَ نقى مكلّلاً بالذهبِ، أفديكَ من الردى بأمّي وأبي ... إنْ كنتُ أسأتُ في هواكُمْ أدبي، فالعصمةُ لا تكونُ إلا لِنبي .... الغصنُ إذا رآكَ مقبلاً سجدَ، والعينُ إذا رأتكَ تشفي الرمدَ ... يا من بوصالِهِ يداوي الكبدَ، ما تفعلُهُ اليومَ ستلقاهُ غدا ...

أبوالزهو: آه على السّعادةِ والروعةِ والطربِ ... آه على كاسٍ! ....

حمد: أبوالزهو، آ....ه.

أبو جاسر: أعتقدُ أنّهُ حتى أتَمكنَ من وقفِ حالةِ التيهِ التي أنتما فيها، يَجبُ عليَّ قطْعُ رأسيْكُما معاً، أو رأسَ واحدٍ على الأقلِّ، وأتخلّصَ منِ هذا الهمِّ الذي يسمّى "خميس"!! (مثلٌ شعبيٌّ مَحليٌّ يعني التخلصَ من مشكلةٍ مرّةً واحدةً وإلى الأبدِ).

أبوالزهو: ها هي هي هي هي هي..... ها هي هي هي هي... صدِّقْ يا أيُّها الوالدُ أبو جاسر لولا أنْ أوقفَ حمد عندَ حدِّهِ، لَملأَ البقاليلَ بِ"الشامبانيا" بعد تفريغِها من اللّبنِ الرائبِ!، حتى يبدوَ "أبوزهوان" بطولهِ وعرضهِ مثلَ بعوضةٍ بِجانبهِ!.

ما أنْ يولدَ طفلٌ وبالذاتِ عندَ خروجهِ من رحِمِ أمّهِ، حتى تنظرَ القابلةُ القانونيةُ إلى ما بينَ فخذيْ ذلكَ الطفلِ وبالتحديدِ عندَ خطِّ الوسطِ. تلكَ النظرةُ تُحدّدُ بشكلٍ جذريٍّ وأساسيٍّ مسيرَ حياةِ ومصيرَ ذلكَ القادمِ الجديدِ إلى الحياةِ، إنْ كانَ ذكراً أمْ أنثى. وإذا ما كان من ذكر استبشرتْ القابلةُ القانونيةُ به خيراً وبشَّرتْ أهلَهُ وذويهِ والذينَ هم بدورِهِمْ سيستبشرونَ خيراً ويَحتفلونَ ويأكلونَ الطعامَ المشبعَ باللحومِ والحلوى، ومنَ الطعامِ والحلوى لغيرِهِمْ يطعمونَ. بالمقابلِ وإذا لَمْ يُحالفْ الحظُّ صاحبَها في ذلكَ المُجتمعِ؛ وعلى وجهِ الدقةِ والخصوصيةِ إذا ما كانتْ المولودةُ أنثى اسودَّ وجهُ القابلةِ القانونيةِ واغبرَّ وجهُ أهلِ المولودةِ وأصبحوا كلُّهم يتوارونَ من القومِ وهُمْ كظيمونَ (مصابونَ بكَرْبٍ)!. لا يسمحُ الدّينُ والقانونُ بدسِّ المولودةِ في الترابِ، لكنِ المبشّرَ بالأنثى! يظلُّ مُمسكاً بالمولودةِ على هَوْنٍ لبعضِ الوقتِ. هذه صورةٌ مُخففةٌ قليلاً عن ما كان يَحدثُ في المُجتمعِ القبليِّ الجاهليِّ قبلَ مئاتِ السّنينَ. تلكَ واحدةٌ من أحدِ أفظعِ أخطاءِ المعرفةِ والسّلوكِ البشريِّ؛ القابلةُ القانونيةُ، معَ الاحترامِ الكاملِ لَها ولعملِها، تقرِّرُ سيْرَ حياةِ المولودِ من ذكرٍ أو أنثى لفترةٍ قد تطولُ إلى أكثرَ من مئةِ عامٍ.

ما أنْ يبلغَ الذكرُ والأنثى سنَّ البلوغِ، وليس بالضرورةِ مرحلةَ الرشدِ، حتى تبدأَ التحضيراتُ التاليةُ لِخطأٍ آخرَ لا يقلُّ سوءاً وجسامةً عن سابقهِ ألا وهو التوصّلُ إلى عقدِ نكاحٍ بين ذكرٍ وأنثى، قد لا يقدّمُ أحدُهُمْ للآخرِ عندَ التلاقي سوى مشاعرَ جنسيةً أقربَ للحيوانيّةِ منها للإنسانيةِ!. إضافةً لذلكَ هنالكَ عاملٌ آخر ألا وهو ضرورةُ صونِ عرضِ وشرفِ وعفافِ البنتِ أو الأنثى عن طريقِ زواجٍ يتمُّ ترتيبهُ بأيّةِ طريقةٍ مُمكنةٍ! مع بعضِ مراسمَ وطقوسِ العرسِ من دفعِ مهورٍ ومصاريفِ أفراحٍ وأكلِ حلوى!. بعدَ الزواجِ بقليلٍ يعملُ الزوجانِ على نثرِ أكبرِ عددٍ مُمكنٍ من الأولادِ بغضِّ النظرِ عن الحالِ الماديةِ والاجتماعيةِ والمعنويةِ ......

وصلتْ إلى أهلِ السّيدةِ "محظوظة" تَحْتَ الاحتلالِ أخبارٌ تفيدُ بأنَّها وأولادَها الصغارَ الذينَ يقطنونَ جَميعاً البلدةَ القديمةَ (مركزَ المدينةِ) من المدينةِ الكبيرةِ المكتظّةِ بالسّكّانِ، أصبحوا دونَ فِراشٍ مناسبٍ للبيتِ أو طعامٍ مناسبٍ أو ملبسٍ مناسبٍ للأولادِ كذلكَ. تعرّفَ ربُّ الأسرةِ السّيدُ "درباس" على امرأةٍ من قبيلةِ "أبفلغانشيا" من أهلِ نيوزيلاندة الأصليينَ (قبلَ اكتشافِها من قبلِ الأوروبيينَ!) وذهبَ معها إلى هناكَ بعدَ أنْ وعدتهُ بالحصولِ على الجنسيةِ النيوزيلانديةِ؛ المكانُ قريبٌ من قارّةِ أستراليا مهوى أفئدةِ الكثيرينَ من عُشّاقِ الذّبوغِ والهجرةِ والرّحيلِ عن أوطانِهِمْ. أخذَ السّيدُ "درباس" معهُ كلَّ مدّخراتِ العائلةِ الماليّةِ المتواضعةِ سعياً لضمانِ رضا واستقرارٍ واستمرارِ أسرتِهِ الجديدةِ.

"زولالة" و"كاملة" وأبوالزهو: لا نَعرفُ لِماذا ينتَابُ هذا الحظُّ السيّءُ أختَنا "محظوظة"؟.

حمد: مَسكينةٌ "محظوظة"! تُوفِّيتْ أمُّها عندَما كان عمرُها أقلَّ من سنتين بمرضِ الجذامِ. إنَّ والدَها وإخوتَها مشغولونَ بجمعِ قوتِ يومِ كلٍّ واحدٍ منهم. أضيفُوا إلى ذلكَ أنَّ السّيدَ! أبو جاسر لَمْ يسمحْ أنْ تَمرَّ عليه سنةٌ واحدةٌ دون إنْجابٍ من زوجتهِ

الثانيةِ أم جاسر. ذلكَ أثقلَ كاهلَهُ وكاهلَ أولادهِ من سنٍّ سنةٍ وحتى سنِّ الموتِ الطبيعيِّ أو غير الطبيعيِّ!.
أبو جاسر: إياكُمْ أنْ تُطيلوا ألسنتَكم عليَّ، خاصةً أنت يا ولداً! يا حمد. أُنْجِبُ كما بقيةُ الخلْقِ يفعلونَ. هل تريدونَني أنْ أتوقَّفَ عن الإنْجابِ في حين أنَّ بقيةَ البشرِ توصلُ الليلَ بالنهارِ من أجلِ زيادةِ نسلِهمْ؟!. ثُمَّ لو أنَّني توقَّفتُ عندَ أوَّلِ اثنينِ أوَ ثلاثةٍ من المواليدِ كيف كنتَ ستولدُ يا سيدَ! حمد، يا فَصِحاً؟!.
حمد: لا توجدُ عندِيَ أيَّةُ مشكلةٍ في ذلكَ!. مرَّةً ثانيةً إذا ما رجعتَ إلى الحياةِ من جديدٍ احسبْ حسابَكَ أنْ لا تَملأَ البيتَ بأكوامٍ من لَحمٍ وعظمٍ. ما العملُ الآنَ؟، "محظوظة" وكافةُ أولادِها بحاجةٍ إلى كلِّ شيءٍ في الحياةِ، من يَقدرُ من أهلِها على مساعدتِها وأولادِها؟!.
أبوالزهو: لا تَجزعْ يا صديقي، سوفَ نرسلُ لَها "عَفْشاً" (مثل أثاثِ للبيتِ)، أكْلاً، لباساً، وحبوباً من الحقلِ لتربيةِ الدجاجِ والغنمِ والأرانبِ. سوف نأخذُ لَها كلَّ ما ينتجُهُ الحقلُ والبيدرُ، ولِماذا الجزعُ؟!؛ الدنيا مستودعٌ كبيرٌ للخيرِ!.
بدأت الوالدةُ أم جاسر والإخوةُ والأخواتُ بالتحضيرِ لإرسالِ مساعداتٍ إلى "محظوظة" وأولادِها. شَملَتْ المساعداتُ فرشاتِ نومٍ للأولادِ، "شراشفَ" و"حراماتٍ"، أكياساً من الطحينِ والقمحِ وأخرى للشعيرِ والبيقيا والكرسنةِ للحيواناتِ التي قد تَجدُ طريقَها لتُربّى في البيتِ مع أولادِ "محظوظة"، عُلَباً من السّمنِ البلديِّ وزيتِ الزيتونِ، وقليلاً من الفلوسِ هو كلُّ ما توفَّرَ مع عائلةِ أبو جاسرَ. على حمد وأبوالزهو أنْ ينقلا البضاعةَ إلى هناكَ عَبْرَ إجراءاتٍ أمنيةٍ غيرِ عاديةٍ على جانبَيِ الحدودِ، حدودِ ما يسمى بخطوطِ وقفِ إطلاقِ النارِ!. عليهمْ الحصولُ أوّلاً على "تصريحِ خروجٍ" (مثْلَ وثيقةٍ أمنيةٍ صادرةٍ عن إدارةِ الاحتلالِ) من المنطقةِ من الاحتلالِ الجاثمِ على قلوبِ وعقولِ ومصائرِ البشرِ والحيوانِ والأرضِ.
كاتبُ التصاريحِ: أريدُ منكما هويتَيْكُما أو شهادةَ ولادةٍ للصغيرِ فيكُما. كذلكَ أريدُ صورتيْنِ شَمسيتَيْنِ لكلٍّ منكما. على كلِّ واحدٍ أنْ يدفعَ مئةَ (١٠٠) ليرةً (الليرةُ هي الوحدةُ النقديةُ المتداولةُ لسلطةِ الاحتلالِ) كرسومٍ للتصاريحِ.
أبوالزهو: توجدُ لِيَ صورةٌ شَمْسيةٌ مع حمد قبلَ ستةِ أشهرٍ عندَ رأسِ نبعِ الماءِ وكذلك عندِيَ صورةٌ معَ العائلةِ. أيُّهما تريدُ أيُّها الكاتبُ؟!.
حمد: عساكَ يا سيدَ الكاتبَ أنْ تكتبَ أسْماءَنا باللغةِ العربيةِ، كلّاً على حدةٍ على تصريحهِ لئلا تشتبكَ علينا الأمورُ فيما بعدُ مع دوائرِ الأمنِ ومع البشرِ هناك عبرَ الحدودِ!.
كاتبُ التصاريحِ: سأضعُكُما الاثنيْنِ في نفسِ التصريحِ وسيحملُ التصريحُ صورتَكُما وأنتما قربَ الصّخورِ على نبعِ الماءِ كما علَمتُ من أبوالزهو، لكن بشرطِ أنْ تبقيا مع بعضِكما البعضِ طيلةَ فترةِ المغادرةِ من هنا. في الدولةِ المضيفةِ لكُما عليكما أنْ لا تفترقا لأنني كتبتُ هنا في التصريحِ صفةَ مُرافقٍ خاصٍ ودائمٍ مُقابلَ اسمِ أبوالزهو!.
حمد وأبوالزهو: ومع ذلكَ اكتبْ أسْماءَنا باللغةِ العربيةِ على التصريحِ وبخطِّ اليدِ. إذا ما ضاعَ التصريحُ من أيدينا في مكانٍ ما، عسى أنْ يعيدَهُ أحدٌ إلينا (تُكتبُ التصاريحُ من الاحتلالِ بلغةٍ لا تَحتوي المعلوماتُ فيها كلمةً عربيةً واحدةً).

في اليومِ التالي توجَّهَ حمد وأبوالزهو بحمولةٍ كبيرةٍ من البضائعِ لنقلِها معهما إلى بيتِ أختِ حمد، السّيدةِ "محظوظة"، عَبْرَ الحدودِ البريةِ. أرادا أنْ ينتقلا بسيارةِ الأجرةِ؛ وما أنْ رأى مديرُ مكتبِ السّفرياتِ، " مكتب تَوَكّلوا"، كميةَ البضاعةِ غيرِ العاديةِ حتى اقترحَ عليهمْ نقلَ البضاعةِ في حافلةِ شحنٍ متوسّطةِ الحجمِ استقدمَها من مرآبٍ للسياراتِ يقعُ خلفَ المكتبِ.
مديرُ مكتبِ السّفرياتِ: لا يوجدُ مكانٌ في السّياراتِ العاديةِ لكُما ولمِثلِ هذه البضائعِ؛ لذلكَ أقترحُ أنْ نضعَكُما الاثنيْنِ معاً في شاحنةٍ بضائعَ متوسّطةِ الحجمِ. على الحدودِ سوف يقومُ الحمّالونَ بعملِ كلِّ شيءٍ لنقلِ البضاعةِ من وإلى السّياراتِ الأخرى المتجهةِ إلى الدولةِ الأخرى. لكن أريدُ أنْ أسألَكُما، لو سمحتُما لِيَ!؛ هل أنتما راحلانِ نهائياً؟! أم ذاهبانِ لنجدةِ مناطقَ منكوبةٍ بمجاعةٍ! أو بفيضاناتٍ مدمّرةٍ؟!.
حمد: لا لا... لا يتعدّى الأمرُ عَطَلاً زوجياً بسيطاً ناتجاً عن أخطاءٍ اجتماعيةٍ متراكمةٍ!. لا يوجدُ الآنَ وقتٌ لأشرحَ لك القصةَ بالكاملِ. يبدو أنك شخصٌ فضوليٌّ وعاشقُ كلامٍ زائدٍ!.
مديرُ مكتبِ السّفرياتِ: عادةً نطلبُ أجرةَ ثلاثمائة (٣٠٠) ليرةً كأجرةٍ للسيارةِ؛ ولكُما خصمٌ خاصٌ وعليكما أنْ تدفعا (٢٩٧) ليرةً فقط!، تِكْرَم عيناكُما...
حمد: ما شاءَ اللهُ على التخفيضاتِ!. خذْ هذه ثلاثمائةِ (٣٠٠) ليرةً، بما في ذلكَ أجرةُ سيارةِ نقلِ البضاعةِ و ٣ ليراتٍ الباقيةِ من الحسابِ لكي تعطيَها للحلاقِ "ساموح" لنتْفِ حاجبكَ! الأيْمن بالخيطِ في صالونِ الحلاقةِ. الأهمُّ أنْ تصلَ هذه البضاعةُ إلى "محظوظة" وأولادِها بأقصى سرعةٍ مُمكنةٍ.
على الحدودِ، وبعدَ الكثيرِ من شقِّ وعناءِ الأنفس، وبعد الانتهاءِ من إجراءاتِ العدوِّ الأمنيةِ القاسيةِ، اجتازَ حمد وأبوالزهو الحدودَ إلى نقطةِ استقبالِ الإخوةِ والأصدقاءِ على الطرفِ الآخرِ من حدودِ ما يعرفُ بـ"خطِّ الهدنةِ".
الشرطيُّ الأخُ (مُخاطباً أبوالزهو): مَن أنتَ؟ وكم عمرُك؟. وماذا تعملُ؟. وإلى أين أنتَ ذاهبٌ؟. وما هو عنوانُك البريديُّ في مكانِ الإقامةِ؟. وكم رقمُ هاتفِ من يستقبلُكَ هناكَ؟. ولماذا قَدِمْتَ إلى الدّولةِ هنا؟. ومتى تودُّ المغادرةَ؟ إنْ شاء اللهُ وما هو مصدرُ الأموالِ التي تَحملُها ... ...؟!.
أبوالزهو (يهمسُ لحمد): الآن فهمتُ يا صديقِيَ حمد تداعياتِ اتفاقيةِ "سايكسْ-بيكو"!. يا حضرةَ الشرطيِّ المُحترم! اسْمِيَ أبوالزّهو.
الشرطيُّ الأخُ: نعم! وبعدَ ذلكَ؟! عليكَ أنْ تجيبَ على كافّةِ الأسئلةِ! ..... يا أخي! ما هذهِ الحالةُ "الزفتُ" مع هذه المخلوقاتِ؟! شيءٌ مُخزٍ و"مُقرفٌ"!...
حمد: انتبه، حذارِ أنْ ترفعَ صوتَكَ على أبوالزهو!...
الشرطيُّ الأخُ: أنَت.... صُفْ (قِفْ) هناكَ!.
حمد: أنا وأبوالزهو معاً وسويّةً. لن أصُفَّ لا هنا ولا هناكَ.
الشرطيُّ الأخُ: هل أنت وليُّ أمرِه، إذنْ تفضّلْ وأجبْ على كافةِ الأسئلةِ بالنيابةِ عنهُ.
حمد: نعم، وأبوالزهو كذلكَ قادرٌ على أنْ يُجيبَكَ على أسئلتِكَ، لكن لو ابتسمْتَ قليلاً!.
الشرطيُّ الأخُ: وهل أنتما الاثنانِ تريدانِ أنْ تعلّمانِي الابتسامةَ؟. ومَنْ تكونُ أنتَ؟!.
حمد: اسْمِيَ حمد ووالدِيَ اسْمُهُ أبو جاسر أيّوب ووالدتِيَ أم جاسر جوريَّة. نَحْنُ ذاهبانِ إلى بيتِ أختِيَ "محظوظة"، ورقمُ الهاتفِ هناكَ هو "صفران، ثلاثةُ أصفارٍ،

أربعةُ أصفار" ... اليومَ نَحْنُ داخلانِ وبعدَ سبعةِ أيامٍ راجعانِ إلى مِن حيثُ نَحْنُ الآنَ آتيان. أبوالزهو معِيَ ولن يتركَني ولن أتركَهُ دقيقةً واحدةً، فنحن كما في الصّورةِ نابتانِ من شقٍّ واحدٍ في صخرةِ صمودٍ مزمنٍ وأزليٍّ!.
الشرطيُّ الأخُ: ما شاءَ اللهُ على هذه المعلوماتِ والأرقامِ المميَّزةِ!. "أوكيه"!. ... اذهبا الآنَ إلى قسمِ نقلِ البضائعِ إلى حيثُ تَجَمُّعِ الحمّالينَ وناقلي البضائعِ عبرَ المدن.
حَمّالٌ وصاحبُ جرّارٍ زراعيٍّ: عندِيَ جرّارٌ زراعيٌّ ومَجرورٌ، سوف أضعُكُما الاثنيْنِ معاً فيهِ ومعَ البضاعَةِ لنقلِكُما إلى المدينةِ التي تَجمعُ كثيراً من "أهلِ الحظِّ" التي تريدونَ. سنصلُ هنالكَ بعدَ حواليْ ثمانيةِ (٨) ساعاتٍ من الآنَ إذا سَهَّلَ اللهُ تعالى الأمورَ؟!.
حمد: توكَّل، وسوفَ يكونُ لِيَ ولأبوالزهو متسعٌ من الوقتِ لنيلِ قسطٍ من الراحةِ على ظهرِ المَجرورِ الزراعيِّ بعد هذهِ الإجراءاتِ التي تنهكُ القلبَ والأعصابَ وتبعثُ الروحَ في الضميرِ الميّتِ!.
في البيتِ استُقبِلَ حمد وأبوالزهو استقبالَ الملائكةِ من قِبَلِ "محظوظة" وأنْجالِها.
"محظوظة": أهلاً وسهلاً أخي حمد وأبوالزهو، منذُ تركتُ الأوطانَ قبلَ سنينَ خَلَتْ لَمْ تنمْ لِيَ دمعةُ عينٍ في مآقيها. آهٍ.. على أيامِ الزراعةِ والحصادِ والقلاعةِ والعصافيرِ المزقزقةِ. آخٍ.... على ضياعِ الجبلِ والوادي والسّهلِ والأحبّةِ والإخوةِ والأخواتِ.
أبوالزهو: كلُّهمْ يسلّمونَ عليكِ. منذُ تركتينا مع المهرِّبِ "عبدُهُ المالِحْ" عبرَ خطوطِ وقفِ إطلاقِ النارِ قبلَ سنينَ خلتْ ظَلَلْنا في حالةِ قلقٍ عليكِ وعلى أولادِكِ. دائماً أعملُ مع أخِيَ وصديقِيَ حمد والوالدِ أبو جاسر والوالدةِ أم جاسرٍ ووالدتِيَ "راكلي" في المزارعِ وبيعِ التجوالِ في المدينةِ. لا أعرفُ لِماذا حظُّ الفقراءِ والكادحينَ وأنْجالِهِمْ هكذا في هذه الحياةِ.
"محظوظة": وأنا كذلكَ لا أعرفُ يا سيدي أبوالزهو!؛ كما يقولونَ الدنيا قسمةٌ ونصيبٌ!.
"جومانة" (إحدى البناتِ): شكراً يا أبوالزهو على هذه النخوةِ الفريدة من نوعِها؛ نَحسبُكَ ونعزُّكَ مثلَكَ مثلَ أخوالِيَ، لأنَّكَ تعلّمتَ منهُمْ النخوةَ والكرمَ والعطاءَ دونَ مقابلٍ. عسى اللهَ أنْ يُمكِّنَ لنا في الأرضِ فيما بعدُ لنقدرَ على أنْ نعيدَ لكُمْ هذا المعروفَ.
أبوالزهو: وتعلَّمتُ من رفيقِيَ حمد فنَّ الطربِ!. لو أنَّ حمد يعزفُ طوالَ الليلِ والنهارِ أظلُّ في حالةٍ عاليةٍ من التيهِ والطربِ. ما أنْ يراني حمد بقربهِ في البيتِ أو في الشّارعِ أو الخلاءِ حتى تنفتحَ قريحتُهُ الفنيةُ ويُمتعنِي بأطيبِ الألحانِ من عندهِ...!.
حمد: وكيف حالُ المدارسِ عندَكُمْ يا خالي؟!، هل أنتمْ فيها على ما يرامُ؟، هل تتقدّمونَ وتنجحونَ في الامتحاناتِ المدرسيةِ؟.
أبوالزهو: وهل تعتقدُ أنَّ الوضعَ في المدارسِ هنا يَختلفُ عنهُ عندَنا هناكَ؟!. ما هذا السؤالُ الغبيُّ يا صديقِيَ؟!.

"جومانة": رُفِضَ الأولادُ الصّغارُ والكبارُ ذكوراً وإناثاً من المدارسِ؛ لا نقدرُ على دفعِ الرسومِ المدرسيّةِ السنويّةِ عليهِمْ.
أبوالزهو: خَيراً فعلَ الأولادُ!. لقد مضى على حمد في المدرسةِ سنونٌ طويلةٌ من التعليمِ اللا-مُجدي.
حمد: في سكنِكُمْ هنا في هذه المنطقةِ المكتظّةِ بالبشرِ في مركزِ المدينةِ القديمِ عليكُمْ أنْ تَحذروا من أولادِ الحرامِ وأولادِ الحلالِ!، من العدوِّ ومن الصّديقِ على حدٍّ سواءَ.
"محظوظة": هنالكَ لصٌّ كَبيرٌ يسكنُ المنطقةَ هنا!. من حينٍ لآخرَ يسطو على بيتِنا ويسرقُ ما يُمكنُهُ أنْ يسرقَهُ ويثيرُ الرعبَ في قلوبِ الأولادِ! مستغلاً غيابَ ربِّ الأسرةِ عن البيتِ.
أبوالزهو: ألا توجدُ عندَكُمْ شرطةٌ ولا أمنٌ ولا حِمايةٌ؟. هل يوجدُ عندَكُمْ تسيّبٌ أمنيٌّ؟!.
حمد: يا أبوالزهو، لقد أخبرْنا الشرطيَّ على الحدودِ بأنَّنا سنمكثُ هنا فقط سبعةَ أيامٍ وليس ثلاثَ سنواتٍ أو ما يربو عن ذلكَ!.
"محظوظة": يا أبوالزهو لِهذا اللصِّ واسطةٌ في كلِّ مكانٍ، أينَما يذهبُ يَجدُ من يشدُّ على أيديهِ ويدعمُهُ.
البنتُ الصّغيرةُ "جَمُّولة": يا خالِيَ حمد ويا عمّو! أبوالزهو، أحبُّ الموسيقى مثلَكُما.
أبوالزهو: مكثنا أكثرَ من نصفِ وقتِ الرحلةِ ونَحْنُ في حالةِ سُكْرٍ من الطربِ!. من حينٍ لآخرَ أوقفَ السّائقُ الجرّارَ الزراعيَّ على حافّةِ الطريقِ وأتى ليطربَ معنا!.
....
حمد: وماذا يا خالي! تُحبونَ للسماعِ إليهِ؟.
"جومانة": أحبُّ أغنيةً من الطربِ الأصيلِ بصوتِ السّتِّ سميرة توفيق.
وبسببِ النقصِ الكبيرِ في النقودِ وغيابِ مصدرٍ ثابتٍ للرزقِ لدى العائلةِ اضطُرّتْ السيدةُ "محظوظة" لبيعِ ما لديْها من ذهبٍ من عرسِها. على حمد وأبوالزهو أنْ يذهبا إلى سوقِ الذهبِ في المدينةِ لبيعِ قِطَعِ الذهبِ تلكَ.
الجواهرجيُّ: هذه خَمسَ عشرَةَ (١٥) قطعةً من الذهبِ. بعد الفحصِ تبيَّنَ أنَّ سبعَ (٧) قطعٍ منها فقط أصليةٌ وباقي القطعِ مزيّفةٌ!.
أبوالزهو وحمد: وكيف يكونُ ذلكَ؟!. الذهبُ ذهبٌ ولا يوجدُ فرقٌ بين كلِّ قطعِ الذهبِ تلكَ. باينٌ عليكَ أنَّكَ نصّابٌ ولصٌّ ومُحتالٌ وغشّاشٌ!.
الجواهرجيُّ: إنْ لَمْ تصدِّقانِ يا خالي! اذهبا إلى المَحلِّ المقابلِ وسوف يقولُ لكُما عن الذّهبِ نفسَ الكلامِ. لدَينا خبرةٌ واسعةٌ وطويلةٌ في الذّهبِ الأصليِّ والمزيّفِ، بمُجرَّدِ النظرِ إلى القطعَةِ نعرفُ أنْ نُميِّزَ فيها الجيدَ من المزيَّفِ!.
حمد: بذلكَ يَتمُّ استهلاكُ آخرِ احتياطيٍّ! للعملةِ عندَ السيدةِ "محظوظة" وأولادِها.
أبوالزهو: آخ.... مِنْ مشاكلِ بني البشرِ الناجِمةِ عن سوءِ التخطيطِ والتصرّفِ أمامَ المستقبلِ والحياةِ!.

امتحانٌ نِهائيٌّ

بعدَ إثنَيْ عشرَ (١٢) عاماً متواصلاً، على الأقلّ، من الدراسةِ في المدرسةِ يتقدّمُ التلاميذُ إلى امتحانٍ عامٍّ يسمى امتحانُ شهادةِ "الدراسةِ النهائيةِ العامةِ"؛ يساعدُ ذلكَ في تحديدِ سَيرِ حياةِ الكثيرِ من الطلبةِ. في معظمِ الحالاتِ، الدراسة عقيمةٌ وينتجُ عنها عقلياتٌ عاقراتٌ!، اللّهمَّ إلا ما رحمَ ربُّهُ وحالفَ الحظُّ صاحبَهُ أو صاحبَها. لا يوجدُ ما يبرِّرُ باستمرارِ الوضعِ هكذا مِمّا يهدرُ أوقاتَ البشرِ ويستهلكُ الاقتصادَ خاصةً عند الدولِ الفقيرةِ والشعوبِ الكادحةِ. بعدَ ما لا يقلُّ عن اثنتَيْ عشرةَ (١٢) سنةً يكونُ من الندرةِ بمكانٍ إيجادُ خريجٍ أو خريجةِ ثانويةٍ عامةٍ قادرٍ أو قادرةٍ على كتابةِ رسالةٍ قصيرةٍ إلى عزيزٍ عليهِ أو عليها، دون أخطاءَ فاحشةٍ من قواعدِ لغةٍ ونحوٍ وصرفٍ، ناهيكَ وناهيكَ عن كتابةِ مقالةٍ في جريدةِ حائطٍ أو مَجلةٍ مَحليةٍ للأولادِ. يا لَهولَ العارِ والكارثةِ على الطلبةِ والمعلمينَ والمديرينَ والمفتشينَ والموجهينَ حتى تصلَ إلى وكيلِ الوزارةِ والوزيرِ ورئيسِ الوزراءِ مروراً بالسّادةِ الأعيانِ والنوابِ حتى تصلَ إلى ديوانِ فخامةِ رئيسِ الجمهوريةِ الموقّرِ. يا لعمليةِ شلٍّ وتشويهٍ جَماعيٍ كبيرةٍ لعقولِ جيوشٍ من الطلبةِ؛ حيثُ بعد ما لا يقلُّ عن اثنتَيْ عشرةَ (١٢) سنةً تكوّنُ مساهمةُ المدارسِ للدخلِ القوميِّ والرصيدِ الفكريِّ والاجتماعيِّ أقلَّ بكثيرٍ من الصّفرِ المطلقِ!. ليس ذلكَ فحسبُ بل إنَّ تطوُّرَ التعليمِ وتسييرَهُ حديثاً أسفرَ ويسفرُ عن تدميرٍ واسعٍ لأعظمِ لغةٍ في التاريخِ البشريِّ، اللغةِ العربيةِ، لِحسابِ لغاتٍ أخرى تبدو مَثَلَ الأقزامِ أو "القَزَماتِ" أمامَها. مرّةً أخرى يا لَهولَ العارِ وعمقَ الكارثةِ!.

أبو جاسر: ها قد اقتربَ موعدُ الانتهاءِ من أيامِ المدرسةِ؛ أيامُ الدراسةِ على حوافِ الطرقِ الرئيسيةِ، وبين الأشجارِ، وعند رؤوسِ الينابيعِ والجداولِ الصّغيرةِ. أنا والوالدةُ والإخوةُ والأخواتُ دائماً ندعو لك بالنجاحِ الباهرِ؛ دائماً أقولُ: "عسى أنْ لا يُضيعَ اللهُ تعالى لكَ تعبَكَ سدىً".

"زولالَة" وأبوالزهو: تستأهلُ كلَّ خيرٍ على هذا الجدِّ والاجتهادِ. الجميعُ يتوقعونَ لك نتائجَ عاليةً في الامتحانِ.

حمد: بالنسبةِ ليَ أنت يا أبوالزهو أكبرُ مَعينٍ لا ولن ينضبَ من العونِ والحبِّ والحنانِ!. نِعْمَ الصّديقُ أنتَ ... ولكن...

سرحانَ وأبوالزهو: في كلِّ مرّةٍ تقولُ كلاماً منعشاً يبعثُ في النفسِ الأملَ ثُمَّ تُتْبِعُهُ بكلمةِ "لكن"، أصبحت أمورُ حياتِنا كلُّها خبراً لِ"لكنْ" و"لَكنَّ". يا أخيَ بعدَ اثْنَتَيْ عشرةَ (١٢) سنةً في التعليمِ، لكن! لكن، ماذا تريد من وراءِ كلِّ تلكَ "اللّكننةِ"؟.

حمد: أريدُ أنْ أقولَ لَكُمْ جَميعاً أنني لن أتَمكّنَ من الحصولِ على وظيفةٍ ولو بقرشٍ واحدٍ بعدَ كلِّ هذه السّنينِ الطويلةِ والتي أتَتْ على كلِّ شيءٍ تقريباً لدى العائلةِ.

أبوالزهو: يا رجلاً!؟ بعد آلافِ الدروسِ من عشراتِ المعلّمينَ، لا يوجدُ عندَكَ بصيصُ أملٍ في نهايةِ نفقِ التعليمِ المظلمِ هذا!. لَمْ أتلقَّ درساً واحداً ولكنني أقومُ بكسبِ رزقِيَ ورزقِ العائلةِ والأولادِ ومصروفاتِ البيتِ. ماذا يَجري عندكمُ في غرفِ الدرسِ؟. هل تأخذونَ فصولاً في الغباءِ المطبقِ الذي لا يُبقي ولا يذرُ من فكرٍ وخيالٍ في العَقلِ؟!.

حمد: آخٍ يا أبوالزهو، معلّمينَ... أيُّهُمُ؟ معلِّما مادّتيْ الفلسفةِ والاجتماعياتِ مثلاً. كأنَّهُما معاً من "مافيا" عَبَدَةِ النارِ اللهمَّ إلا من هنداميْهِما!. إنَّهما متحجِّرا العقليْنِ والفكريْنِ، متصلبانِ، متزمتانِ، متشرنقانِ. تَخالُهُما وهُما يسيرانِ معاً جِذْعاً

شجرتيْنِ صنوبريْنِ وإذا ما جَلَسا معاً أسطوانتيْنِ صنوبريْنِ مشروختيْنِ. جَعَلا من وظيفتيْهِما كمعلّميْنِ وسيلةً لشلّ عقولِ الأولادِ وفكرِهِمْ والعملِ على وقفِ تطوّرِهِمْ الفكريِ.
أبوالزهو والأهلُ: دائماً تُبالغُ، وخاصةً إذا ما تُرِكَ لكَ المَجالُ للاسترسالِ في الكلامِ والوصفِ. تقولُ عن معلّمَيْ مادّتَيْ الفلسفةِ والاجتماعيّاتِ للأولادِ "جهازيْنِ" صَنَمَيْنِ متشابهيْنِ!، هل أنتَ جادٌّ في ذلكَ أم مازحٌ؟!.
حمد: لَيسا "صنَمَيْنِ"! بِمعنى الكلمةِ ولكنَّ طريقتا التعليمِ عندَهُما شديدتا الكبْتِ الفكريِّ والتخلفِ.
"كاملة" : وهل معلّما مادّتَيْ الفلسفةِ والاجتماعياتِ الوحيدانِ في هذه الدنيا عندكَ؟!، اذهبْ إلى غيرِهما.
حمد: مدرّسو اللغةِ العربيةِ الفصحى ... هأ.. إذا ما حدَّثْتُمْ عنهُمْ أيَّ شيءٍ فلا حرجٌ عليكُمْ ولا أسفٌ على ما قد تقولونَ من نعوتٍ ... بعدَ الدرسِ رقمَ ألفٍ (١٠٠٠) يظلُّ مدرّسُ اللغةِ العربيةِ يكرِّرُ بيتَ الشعرِ القائلِ: "إذا بَلَغَ الفِطَامَ لنا صبيٌّ تَخِرُّ لهُ الجبابرةُ ساجدينَ". بسببِ ركونِنا إلى مثلِ تلكَ الأقوالِ المُعفّنةِ أضحيْنا وأصبحْنا وأمسيْنا وبِتْنا وصرْنا مَجموعةً من الهياكلِ البشريةِ تبحثُ عن قوتٍ لَها بأيّةِ طريقةٍ مُمكنةٍ. اللغةُ العربيةُ مُحيطٌ واسعٌ جدّاً جدّاً، تَحوّلتْ بفعلِ مدرّسي اللغةِ العربيةِ وجهلِهِمْ إلى مستنقعٍ نَتِنٍ وجسمٍ عاقرٍ!.
سرحان: يا أخِيَ هلْ تتناولُ حبوّباً مُخَدِّرةً ومهلوسةً؟!. لغةٌ تتحولُ إلى ...
حمد: إلى حفظٍ أصمَّ لبعضِ النصوصِ من هنا وهناكَ. قسمٌ كبيرٌ من تلكَ النصوصِ عفا عنهُ الزمنُ وتَخَطّاهُ المنطقُ القديمُ والحديثُ. حتى مواضيعُ الإنشاءِ تَحوّلتْ إلى ما يشبِهُ أكْلَ تبْنِ قمحٍ للمواشي (تبنُ القمحِ هو أقلُّ أنواعِ التبنِ للماشيةِ قيمةً غذائيةً)، لا فائدةَ منها!. مدرِّسُ اللغةِ العربيةِ المتخرّجُ من الجامعةِ يفسّرُ للطلابِ عبارةَ "تَجري الرياحُ بما لا تشتهي السّفنُ" بأنَّ "الدبابور يروح في هاظا الاتّجاه الهوا يظرب بالعَكِسْ"؛ تعليمٌ يثيرُ التقزّزَ من الحالِ على هكذا مستوىً يؤدّي فقط إلى إعادةِ الأميةِ، والتي هي أيْ الأميةِ بدورِها خيرٌ من هكذا تعليم بَبّغاواتيٍّ، إلى أولادِ المدارسِ وشوارعِ ومرافقِ المدينةِ منَ جديدٍ ولكن بشهادةٍ ثانويةٍ عامةٍ!.
أبوالزهو: أحبُّ العلومَ الطبيعيةَ. كلَّ يوم تأتي لِيَ الطبيعةُ بمجموعةٍ من الظواهرِ التي أسعى جاهداً إلى تفسيرِها، ضوءِ الصّباحِ وعتمةِ الليلِ وتوهجِ القمرِ وهبوبِ الريحِ وتساقطِ الأمطارِ والثّلوجِ، نُمُوِّ النباتاتِ والأشجارِ!. آه يا صاحبيَ لو أجدُ مُعَلِّماً مناسباً لذلكَ، لدفعَتُ لهُ نصفَ ثَمنِ بقاليلِ اللّبنِ على كلِّ درسٍ أتلقاهُ منهُ.
حمد: يُحاولُ الوالدُ الآنَ تعليمَ واحدٍ مِنْ أولادهِ الكثيرينَ ويواجهُ مَشكلةً كبيرةً في ذلكَ. لا تكنْ ذا خيالٍ "طوباويٍّ" (كلمةُ طوباويٍّ من القاموسِ الثوريِّ تعني شخصاً صاحبَ خيالٍ واسعٍ أو غيرَ واقعيٍّ وعادةً ما يتمتعُ بذلكَ الخيالِ الجهلةُ غيرُ المتعلمينَ تعليماً جيداً) يا أبوالزهو. لن تَجدَ معلِّماً كالذي تصبو إليهِ في فكرِكَ، أنتَ تَحلمُ فأنتَ في عتمةِ الليلِ الأسودِ والخيالِ موجودٌ!. ستظلُّ في حياتِكَ تسكنُ في غسقِ الفجرِ (الغسقُ هو الفترةُ الزمنيةُ القصيرةُ التي تسبقُ طلوعَ الفجرِ وتمتازُ بأنَّها أشدُّ اللّيلِ عتمةً وسواداً).
"زولالة" : أكثرَ من اثنتَيْ عشرةَ (١٢) سنةً...

حمد: أكثرَ من اثنتَيْ عشرةَ (١٢) سنةً في المدرسةِ لَمْ يقمْ أيُّ طالبٍ بإجراءِ ولو تَجربةٍ واحدةٍ بنفسهِ لا داخلَ المختبرِ ولا خارجَهُ. أينَ العدلُ في جهازِ التربيةِ والتعليم؟!. كلُّ الدروسِ في مدارسِنا تتحدّثُ عن أنّهُ إذا ما وضعنا "س" مع "ص" ينتجُ "ن". وكما تعرفونَ أنَّ "س" و "ص" و "ن" تعيشُ كلُّها خلفَ البحارِ والمُحيطاتِ. هذهِ الحالةُ جِدُّ ملعونةٍ!.

أم جاسر: لا تبدأْ بالتمرّدِ والسّبِّ والشتمِ. لا حولَ ولا. بعدَ اثنتا عشرةَ (١٢) سنةً تعليم .... النتيجةُ ... ولكن يا ابنِيَ إنّي أراكَ تقرأُ كلَّ يومٍ عشرةَ (١٠) جرائدَ ومجلّاتٍ، وعندكَ الكثيرُ من الكتبِ ... هذا يعني أنَّ هنالكَ شيئاً ما يَجري عندَكَ. كما يقولُ المثلُ في هذه الدنيا "إنْ خَلِيَتْ بَلِيَتْ". (مَثلٌ شعبِيٌّ يدعو إلى عدمِ فقدِ الأملِ في شيءٍ مهما كانَ الوضعُ عبثيّاً)

حمد: كُتُبٌ! كُتُباً! كُتُبِ!.كالحمارِ يَحملُ الكتبَ ... يا ويحِيَ عليكُمْ وعلى أبوالزهو! لا تعرفونَ ماذا يَجري من سرابٍ في هذهِ الكُتبِ. هذه الكُتبُ! ....حتى الصّراصيرُ لا تأكلُ منها لأنّها تعلمُ أنَّ ليسَ بِها فائدةٌ تذكرُ. هذه الكتبُ المدرسيةُ ناتِجُ فكرِ مؤلفينَ عاقرينَ وأذهانٍ "مَخْصِيَّةٍ"!.

"زولالة" : فِي الوقتِ الحاليِّ نريدُك أنْ تركّزَ على الامتحاناتِ ولا تُخيبَ ظنَّ الأهلِ والوالدِ والعائلةِ، وفوقَ كلِّ ذلكَ أملِيَ وأملَ أبوالزهو فيكَ أكبرَ!.

حمد: أنا متشوقٌ أكثرَ منكُمْ جَميعاً لأنتهيَ من هذه الحالِ المزريةِ التي نَحْنُ فيها. تعرفونَ أنّهُ سيولدُ في البيتِ هنا بعدَ قليلٍ طفلٌ جديدٌ ليأتيَ إلى بيتٍ يعجُّ بِمنْ يسكنُهُ. سوفَ يضيقُ النَّفَسُ على الجميعِ، وسوفَ تصبحُ حياتُنا جحيماً بيولوجياً وبيئياً لا يطاقُ. سوفَ نصبحُ أحدَ الأمثالِ الواضحةِ للعيانِ لنظريةِ "مالثوس" في تكاثرِ الجنسِ البشريِّ اللا-مَحدودِ على حسابِ مصادرِ الطبيعةِ المَحدودةِ. إنْ شاءَ اللهُ سأنْجحُ وسأنتهي من هذا الخضمِّ الأحْمقِ.

أبوالزهو: هل يعني ذلكَ أنّكَ تريدُ أنْ تسافرَ؟. هل ستتركُني وحدِيَ هنا أصارعُ وأكافحُ مع الأيام؟!. لا.. لا.. للا.....

كانت نتيجةُ الامتحاناتِ حصولَ حمد على معدلاتٍ عاليةٍ ولكنها لَمْ تكن تناسبُ توقعاتِ العائلةِ.

سرحان: أرجو منكَ يا شقيقِيَ حمد أنْ لا تَهتمَّ بسببِ امتعاضِ الأهلِ لأنّكَ لَمْ تأتِ بنتيجةٍ عاليةٍ تَجعلُكَ مَحسوباً من العشرِ الأوائلِ في الدولةِ كما كنا جَميعاً نتوقعُ.

حمد: لننس الموضوعَ يا سرحان، حتى ما حصلتُ عليهِ من علاماتٍ كافٍ ويزيدُ عن حدِّ الكفايةِ عندِيَ. المهمُّ أنْ تكونَ وأبوالزهو فرحيْنَ وراضييْنَ عليَّ. وهذه قبلةٌ منِّيَ أطبعُها على جبينِكَ وعلى خَدَّيْ أبوالزهو الأيْمنِ والأيسرِ. كذلكَ سأضعُ نتيجةَ علاماتِيَ في امتحانِ الشهادةِ الثانويةِ العامةِ على طَرَفِ كَتِفِ أبوالزهو تقديراً لهُ على صبرهِ ومثابرتهِ في خدمتِنا جَميعاً وتسامُحهِ المتواصلِ معنا!.

أبوالزهو: لا أريد أنْ تضعَ على رأسِيَ أو صدريَ أو كتِفِيَ أو حتى ظهريَ أيَّ شيءٍ من هذا القبيلِ أو ذاكَ!. لكن هلّا تريدُ أنْ تَقومَ بعملِ حفلةٍ تدعو فيها الأهلَ والأصدقاءَ بِمناسبةِ النجاحِ أسوةً بِما يفعلُهُ بقيةُ أبناءِ البشرِ؟... فقط نريدُ أنْ نطربَ قليلاً!...

حمد: وجودُك معي هو الوحيدُ في حياتِيَ الذي يبثُّ في قريحتِيَ روحَ الطربِ والأنغامِ. يقولونَ في الكتبِ "خيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ"، وأنا أقولُ "خيرُ جليسٍ في الزمَانِ كتابٌ وناْيٌ ونديمٌ من مثْلِكَ".
سرحان وَ"زولالة" و"كاملة": يا حياتي على أغنيةٍ لطيفةٍ خفيفةٍ ظريفةٍ من عندِكَ!.
حمد: ما إلنا غير الصّوت السّماوي... والسّت فيروز.... دن دن ري مي فا صول... ري... سنة عن سنة ... سنة عن سنة ... عم تغلى على قلبي يا عهد الولدنة .... يا حلو يا حبيبي اللي ما بيعك بالدني (بالدنيا) .... وكل سنة بحبك أكثر من سنة .... عم تهدل اليمامة وغرقني الحنين .. حبك وأيامي وحكايات السّنين ... يا ورد يا نسرين!.. يا ثلج على التين .. يا أول الجني ياخير السّنة .... ونطرتك على بابي بليلة العيد!.. مرؤوا كل اصحابي ووحدك اللي بعيد! (بقيت) شو (ما) نسيت المواعيد؟! وهدية العيد!... تسألني شو بني بأول هالسّنة ....
أبوالزهو: آه يا صديقِيَ لو أنَّ كلَّ البشرِ من عَيِّنَتِكَ!... لَكُنّا بألفِ خيرٍ. لكنّني أخشى أنْ تنقلبَ وتتغيّرَ في يومٍ من الأيامِ، مثلُك مثلُ بقيةِ هؤلاءِ البشرِ!.

خلوةٌ مع أبوالزهو

توجدُ لدى أبوالزهو فلسفةُ حياةٍ خاصةٌ وعميقةٌ جداً ليس من السّهلِ إدراكُها أو الدخولُ إليها أو حتى الإمساكُ بمفاتيحِها أو قراءتُها أو استقراؤُها، كلُّها أو بعضِها، إلا لمن كانَ ذا إحساسٍ وشعورٍ خاصيْنِ وتجربةٍ فريدةٍ من نوعِها خاصةٍ. مثلُه مثلُ بقيةِ المخلوقاتِ الّتي لَها تاريخٌ طويلٌ وجدٌّ عريقٌ، وصلَ إلى درجةٍ عاليةٍ من التطوّرِ، يتفاعلُ بإيجابيةٍ لا متناهيةٍ مع البيئةِ وما يدورُ حولَهُ، يستفيدُ ويتعلمُ من تَجاربِه قدرَ الاستطاعةِ. يقومُ بكلِّ ما يقدرُ على القيامِ بهِ بِما في ذلكَ التفكيرُ في الماضي والحاضرِ ويتنبأُ بالمستقبلِ. هو في حالةِ خشوعٍ وتفكيرٍ وتبصّرٍ بشكلٍ فريدٍ من نوعِهِ وشبهِ دائمٍ، إلا إذا ما يتدخّلُ أحدٌ في حياتهِ وشؤونهِ مِمّا يقْطعُ عليهِ "حبالَ" أفكارِهِ وفلسفاتِهِ في الوجودِ وما قبلَ الوجودِ وما بعدَ الوجودِ من وجودٍ آخرَ!، أو حتى لا-وجودٍ!.
حمد: بالرغمِ من صغرِ سنِّكَ وحداثتكَ إلا أنني أعتقدُ أنَّ لديكَ رصيداً هائلاً من العواطفِ والأحاسيسِ والفكرِ والفلسفةِ، تَجعلُ منكَ كائناً جديراً بمقابلةٍ جدُّ خاصةٍ أو لقاءٍ جدُّ خاصٍ أو حتى زيارةٍ جدُّ خاصةٍ أو ضيفِ حلقةٍ في برنامجٍ إعلاميٍّ أو سبْقٍ صحفيٍّ جدُّ مرموقٍ. أعتقدُ أنَّ عندكَ الكثيرَ من النقاطِ الجدُّ هامّةٍ والكثيرَ ممّا قدْ يكونُ جدُّ حسّاسٍ لا تبوحُ بهِ لأحدٍ!. أنت صاحبُ قضيةٍ أو على الأصحِّ صاحبُ قضايا، عايشتَها لفترةٍ جدُّ طويلةٍ أو ورثتَها وتوارثْتَها تَجعلُ منكَ جدُّ خبيرٍ ومُجرّبٍ وحكيمٍ؛ من الممكنِ أنْ يستفيدَ منها أولو الألبابِ الجدُّ كبيرةٍ إلى الجدُّ صغيرةٍ، والمتوسّطةِ؛ وعلى حدٍّ سواءَ، وجدُّ بلا حدودٍ.
أبوالزهو: هل هذه كلُّها مقدمةٌ لعملِ مقابلةٍ مع شخصيةٍ، أو خطابُ ترحيبٍ، أو جلسةُ تشريفٍ لأحدِ الأشرافِ المتميّزينَ أو حتى مقدمةٌ مستنسخةٌ من إحدى رسائلِ

التمجيدِ والتعظيم. أرجو منكَ أنْ تدخلَ في الموضوعِ، بالعربيِّ الفصيحِ لا يسمحُ الوقتُ عندِيَ بالاستطرادِ والإطالةِ.
حمد: يا صديقي أودُّ أنْ أسألَكَ، ما الذي يسعدُكَ أو أسعدَكَ في الحياةِ هذه؟. بإيجازٍ لو سَمَحْتَ.
أبوالزهو: يسعدني الكثيرُ؛ أحبُّ الطبيعة، أُقَدِّسُ الهدوءَ والأمانَ والسّلامَ واللطفَ والاحترامَ المتبادلَ؛ كلُّ هذه وتلكَ أشدُّ ما ينقصُنِي في حياتِيَ كما تعرفُ!, أحبُّ السّهولَ الواسعةَ وتنفرجُ أساريرِيَ عندما أرى نباتاً يانعاً حانَ أو يحينُ قطافه بعد قليلٍ. يتوفرُ لدي القليلُ من الكثيرِ الذي أحبُّ، ما الذي يدورُ برأسِكَ لتسألَ عنهُ؟.
حمد: هذه السّهولُ الخصبةُ التي تتحدثُ عنها موجودةٌ في كل مكانٍ وبكثرةٍ، سهولُ قمحٍ ومزارعُ خضارٍ وبساتينُ فواكهَ .... في سفوحِ الجبالِ وقربَ القممِ وفي الوديانِ والشعابِ المُجَاورةِ.
أبوالزهو: كلُّها من ثِمارِ تعبِيَ على الزراعةِ وعلى الأرضِ، ولسببِ حرصِيَ على مستقبلِ البشرِ من حدوثِ الكوارثِ والمَجاعاتِ!.
حمد: بفضلِنا جميعاً، ولا تكنْ أنانياً، لا أحبِّذُ كثيراً استخدامَ كلمةِ "أنا".
أبوالزهو: نعم، أنا وأنت والأهلُ، نَحْنُ أكثرُ من أحبةٍ وأخوةٍ وأصدقاءَ، نَحْنُ عشاقُ الأرضِ.
حمد: وماذا يا أبوالزهو لو تأخّرَ المطرُ أو شحَّ كثيراً وكان الموسمُ ضحلاً بحيثُ لَمْ تَخْضَرَّ السّهولُ وتَصْفَرَّ، وأضحينا خاصّةً أنا وأنت صفرَ اليدينِ وعلى الجانبينِ من الطريقِ الواصلِ من الحقلِ إلى البيتِ، ما العملُ؟. أعطِني من خَبرتِكَ وفلسفتِكَ.
أبوالزهو: لقد علَّمتني أمِّي كثيراً، أنَّ الأرضَ مُحاطةٌ بسياجٍ من البَركةِ يَحتضنُ داخلَهُ مَخزوناً كبيراً من الخيرِ. علينا معرفةُ الطرقِ الأحسنَ للحفاظِ والإبقاءِ عليه بنفسِ درجةِ الغزارةِ. علينا العَملُ في ذلكَ بجدٍّ وتأنٍّ وإخلاصٍ.
حمد: هذه الأفكارُ عن "الأرضِ" تبدو لِيَ مقتبسةً من أحدِ الكتبِ المقررةِ في منهاجِ التربيةِ الوطنيةِ! أو من أحدِ منشوراتِ منظمةِ حمايةِ البيئةِ المَحليةِ والدوليةِ على حدٍّ سواءَ. أريدُ منكَ أنْ تزودَني بغيرِ تلكَ المعلوماتِ المملةِ لكثرةِ تكرارِها بين الناسِ دون زيادةٍ أو تنقيصٍ. لننتقلْ إلى موضوعٍ آخرَ مثلاً، فلسفتُكَ في الحياةِ!؟. ما الذي يَجعلُكَ مثلاً تسامحُ من أساءَ إليكَ وهم كثُرُ؟. تخدمُهم وتتغاضى عن مثالبِهم ونواقصِهم التي لا تعدُّ ولا تُحصى؟!.
أبوالزهو: أخبرتني والدتِيَ والتي أخذتْ تلكَ المعلوماتِ من جدّتِيَ والتي بدورها أخذتها من جَدّتِها ... أنَّ الشخصَ الجاهلَ لا يؤاخذُ بأخطائهِ، ولو علمَ بها لَما قامَ بارتكابِها. إذن هو جاهلٌ وغيرُ واعٍ وغيرُ مؤهّلٍ للّومِ أو العقابِ. وللأسفِ كلُّ من حولَنا يعتبرُ من هذا القبيلِ!.
حمد: عظيمٌ جداً! وهذا من تعليم أمِّكَ لك؟؛ لقد باتَ عمرِيَ العشرينَ سنةً تقريباً، لَمْ تصلْ إليَّ مثلُ هذه المعلومةِ لا من أمِّيَ ولا من والدِيَ!.
أبوالزهو: لا ... أنت غلطانٌ، والِدُكَ أبو جاسر قمةٌ في الوعيِ والفهمِ وتطبيقِ هذا المفهومِ الحضاريِّ. ولكن أوافقُكَ بالنسبةِ للوالدةِ أم جاسر، هي على العكسِ من ذلكَ تَمَاماً، الذي "طاحَ عندَها راحَ"! (مثلٌ شعبيٌّ يصفُ صاحبَهُ بعدمِ التسامحِ والصّفحِ عن أخطاءِ الآخرينَ). مشكلتُكَ أنّكَ لا تستفيدُ من تَجاربِ غيرِكَ!.

حمد: لكن يا أبوالزهو ألاحظُ أنَّ كلَّ الخلقِ عندكَ متشابهونَ؛ عليكَ أنْ تكونَ قادراً على تَمييزِ صاحبِ الخيرِ من الشرّيرِ. أنت مع كلِّ الخَلقِ ثابتٌ مثلُكَ مثلَ سرعةِ الضوءِ، مثلَ ثابتِ الجاذبيةِ!. بعبارةٍ أخرى نَحْنُ نعيشُ في عالَمِ المسايرةِ والدبلوماسيةِ والمقاماتِ الرفيعةِ والتعليمِ العالي والتعاملِ مع الغيرِ بالمِثل، العينُ بالعينِ والسنُّ بالسنِّ. ها أنت تتعاملُ الآنَ مع شخصٍ يحملُ شهادةَ التوجيهيةِ (الثانويةِ) وبتفوقٍ!.

أبوالزهو: بالنسبةِ للخلقِ أريدُ أنْ أريَكَ أنَّ كلَّ واحدٍ منهم جيدٌ وسيءٌ في آنٍ معاً. عليكَ أنْ تستعملَ عقلَكَ لمعرفةِ الوقتِ الذي يكونُ فيه جيداً والوقتِ الذي يكونُ فيهِ سيئاً وأنْ تُحسنَ التصرفَ في كِلْتا الحالتين. إذا لَمْ تتمكنْ من عملِ ذلكَ فقد يؤدي الأمرُ إلى تفاقمِ المشكلةِ، ذلكَ لأنَّ عقلَ الإنسانِ محدودٌ وضيقٌ جداً؛ سرعان ما يقومُ بأعمالٍ طائشةٍ إجراميةٍ رعناءَ في أيِّ وقتٍ إذا ما شعرَ بضعفٍ في المنطقِ والحجّةِ أمامَ الخصمِ المستضعفِ!. أمّا بشأنِ المسايرةِ وغيرِها مِمّا ذكرتَ فإنها يَجبُ أنْ لا تتحولَ إلى أشكالٍ من النفاقِ غيرِ المحبذِ لدى مَخلوقاتٍ عندها قوّةٌ في الجسمِ والعقلِ وعمقٌ في التاريخِ والتطورِ والحضارةِ! من مثلِيَ....

حمد: من كلامِكَ يا أبوالزهو ومن معرفتِيَ الطويلةِ السّابقةِ بكَ، صدِّقْ أنني أرشحُكَ لنيلِ منصبِ الأمينِ العامِّ للأممِ المتحدةِ أو على الأقلِّ كبيرِ مستشاري الأمنِ القوميِّ أو العالميِّ لأعلى هيئةٍ قوميةٍ أو دوليةٍ، على التوالي. سَتساهمُ في تقليصِ نفقاتِ الدفاعِ والحربِ والأمنِ الداخليِّ والخارجيِّ. لننتقلْ إلى موضوعٍ آخرَ!؛ ما الذي يزعجُكَ ويقضُّ من مضجعِكَ ويثيرُ الاشمئزازَ من الحياةِ عندَكَ؟.

أبوالزهو: في الواقعِ كثيرةٌ هي تلكَ المنغصاتُ؛ إحداها أنّكَ بصحبةِ أحدِ الأصحابِ في اجتماعٍ خاصٍّ أو تَخدمُهُ وتقومُ على راحتِهِ، وعندما يلوحُ في الأفقِ أحدُ أصحابِهِ أو من يعرفُهُ، تراهُ يتركُكَ بدون "حيذور ولا دستور" أو استئذانٍ. شيءٌ يدلُّ على أنّهُ لا يتوفرُ عند ذلكَ الشخصِ الحدُّ الأدنى من الاحترامِ أو الثقةِ بالنفسِ!، وأنّهُ غيرُ جديرٍ باستمرارِ علاقةٍ طيبةٍ معهُ...

حمد: تلكَ الأمورُ تَحدثُ مع كلِّ الخلقِ. يا أبوالزهو! في هذه الدنيا حظوظٌ ومقاماتٌ. أنت قبلَ أيامٍ وعندما اقتربَ منكَ أحدُ أصحابِكَ من الكبارِ في السِّنِّ تركتَني وذهبتَ إليهِ، لتعودَ إليَّ بعدَ ذلكَ بقليلٍ، ولا أعرفُ حتى الآنَ ماذا جرى بينَكَ وبينَهُ!.

أبوالزهو: آه... تذكرتُ!، صديقِيَ "صافوح". لقد مرَّ عليَّ ثلاثُ (٣) سنينَ لَمْ أرَهُ لكثرةِ أعمالِهِ وأعمالِيَ على الرغمِ من أنّهُ يقطنُ في الحيِّ المقابلِ لنا!. لقد استأذنتُكَ قبلَ أنْ أذهبَ إليهِ وأُقَبِّلَ أنفَهُ ويُقَبِّلَ أنفِيَ ونتعانقَ. إنَّها مشكلتُكَ إذا لَمْ تسمعْن ولَمْ تفهمْ عليَّ. بعدَ أنْ رأيتُه لأقلَّ من دقيقةٍ عدتُ إليكَ ولَمْ أتركْكَ أو أتَخَلَّ عنكَ لأنَ ذلكَ من عادةِ الذين عندَهُمُ ذوقٌ وأدبٌ رفيعٌ وثقةٌ عاليةٌ بالنفسِ؛ كلُّ هذه من صفاتِيَ الخاصّةِ بِيَ.....

حمد: أمزَحُ معكَ يا أبوالزهو. أنت عندِيَ "أستاذٌ" في الذوقِ و"الإتيكيت" والعُرفِ الدبلوماسيِّ؛ يحلُمُ أقدمُ سفيرٍ في السّلكِ السّياسيِّ في الدولةِ أنْ يصلَ إلى هذا المستوى الرفيعِ من الدقةِ في التعاملِ والحرصِ على توقيتِ الخطواتِ لإظهارِ مستوى التقدمِ والرقيِّ والفهمِ. لو أطلقتُ عليكَ لقباً من مثلِ "بروفيسور أرسطو" لا أجزيكَ بشيءٍ بسيطٍ من حقِّكَ.

أبوالزهو: شيءٌ آخرُ لو سَمَحْتَ لِيَ أنْ أبيّنَهُ لكَ. يَجبُ أنْ تُحافظَ على الحدِّ الأدنى من هيبتِكَ أمامَ الجميع. اعلمْ أنَّ كلَّ شيءٍ لكَ نصيبٌ فيه يأتيكَ، لا تذهبْ وراءَ ظنونِكَ وأوهامِكَ على حسابِ سُمعتِكَ وكرامتِكَ وصورتِكَ عندَ الخلقِ؟!. يسودُ الطمعُ والجشعُ وحبُّ السّيطرةِ والتملقِ عند الغالبيةِ العظمى من البشرِ والخلقِ عامةً، احفظْ لنفسِكَ دائماً مكانةً لائقةً بما تصبو إليهِ.

حمد: إنَّ هذا الذي تتكلمُ بهِ يأتي من كائنٍ ليس عندَهُ همٌّ أو غمٌّ، ولا أولادٌ يقلقُ على مستقبلِهِمْ أو بيتٌ يسهرُ على بقائهِ بحالةٍ مقبولةٍ في عيونِ الناسِ. لو كان عندَكَ ولدٌ واحدٌ لَما كان لديكَ هذا الشعورُ النبيلُ الذي تحدثْتَ عنهُ. وماذا عن تعاملِكَ مع الآخرينَ من بني جنسِكَ وحتى من غيرِ بني جنسِكَ؟!.

أبوالزهو: بالنسبةِ لِيَ أحسبُ كلَّ الخَلقِ مثلَ أولادِيَ! وأتعاملُ معهم على هذا الأساسِ. اسألْ عنّيَ كلَّ من يعرفُني، وحتى الذي لا يعرفُني. من أجلِ الآخرينَ أكتفي بالقليلِ القليلِ مِمّا يكفي للبقاءِ على قيدِ الحياةِ الكريمةِ. الثروةُ الطبيعيةُ تكفي للكلِّ إذا ما أحسنوا استخدامَ عقولِهِمْ.

حمد: تذكِّرُني بنفسِ أفكارِ غاندي العظيم!. "الطبيعةُ تكفي للجميع ولكنَّها لا تكفي لسدِّ جشعِ واحدٍ من الجميع". لِمْ تذهَبْ إلى مدرسةٍ وتصلُ بفكرِكَ إلى مصافِّ العظماءِ!. تصوَّرْ يا أبوالزهو أنَّ "المهاتْما غاندي" كان يقتاتُ من حليبِ ضرعِ ماعزٍ واحدةٍ فقط تعيشُ معهُ في البيتِ. عُمدةُ حَمولَةٍ! (قبيلةٍ) في منطقتِنا يصرفُ على الأكلِ فقط أكثرَ من مئةِ مرّةٍ من مصروفِ "المهاتْما غاندي" الحياتيِّ، ولا يصدرُ من جهتِهِ إلا كلامُ النفاقِ المتعفّنِ ذو "الحموضةِ" العاليةِ.

أبوالزهو: مِمّا سبقَ ومن معرفتِيَ فيكَ عن قربٍ، فإنني أرشحُكَ كما رشحتَني. أتنازلُ عن ترشيحِكَ لِيَ لِمنصبِ الأمينِ العامِ للأممِ المتحدةِ وأقدمُهُ لكَ. ما رأيُكَ بمنصبٍ مرموقٍ كزعيمٍ للاشتراكيةِ الدوليةِ أو حتى مجموعةِ دولِ عدمِ الانحيازِ أو رئيسٍ لدولةٍ .... أو على الأقلِّ عضواً في المَجلسِ القرويِّ الموقرِ!، ها ها ها ها ها ها. آخْ عليكَ يا "بوحميد". تجعلُني أضحكُ على حالِكَ المُبكي!.

حمد: لا تغترَّ بيَ يا أبوالزهو كثيراً!. لا تُصدرْ أحكاماً مبنيةً على توجهاتٍ ظنيةٍ!، أي تعتمدُ على الظنِّ. لا تظنَّ أنّهُ فيما لو أمسيتُ سكرتيرَ أيِّ شيءٍ! كمنظمةِ حقوقِ الإنسانِ الدوليةِ مثلاً سأقدرُ على القيامِ بعملِ شيءٍ من هذا القبيلِ أو ذاكَ. كلُّ الأمورِ مَحسومةٌ بيدِ من يُمسكُ بالأمورِ في بضعةِ عواصمَ عالَميةٍ. باتَ الخلقُ كلُّهُمْ كمثلِ النملِ الذي يصرفُ جلَّ وقتِهِ في الصّيفِ بتجميعِ غذاءٍ من الحبوبِ ليقيَهُ وأولادَهُ بردَ وجوعَ الشتاءِ. لكنّني أرشحُكَ لنيلِ منصبٍ متواضعٍ جداً بالنسبةِ لمقامِكَ. ما رأيُكَ لو تترشحُ لنيلِ عضويةِ مجلسِ الأمةِ أو مجلسِ الشّعبِ أو المَجلسِ الوطنيِّ، البرلَمانِ؟!.

أبوالزهو: لا لا يا صديقِيَ .... بالنسبةِ لِيَ لَمْ أتَمكّنْ من تلبيةِ احتياجاتِ ومتطلباتِ عائلةِ أبو جاسر المتتاليةِ والمتراكمةِ. ما بالُكَ بكلِّ المنطقةِ أو المُحافظةِ أو حتى الحارةِ الصّغيرةِ التي أعيشُ فيها!. اتركْ عنكَ التفكيرَ في هذا يا هذا!.

حمد: يا أبوالزهو، لا عليكَ في هذا!. إذا ما انتُخبتَ مُمثّلاً للشعبِ لدى الحكومةِ فإنَّ الشعبَ كلَّهُ سيخدمُكَ وسيكرمُكَ، بل سيصبحُ مثلَ مُديةٍ أو مَطِيَّةٍ أو حتى "مَمْسَحَةٍ" لأحذيتِكَ. ستصبحُ الآمرَ الناهِيَ فيهِ وبلا حدودٍ!.

أبوالزهو: ما هذه النظرةُ المتخلفةُ عندَك؟!. أنا الذي يَجبُ عليَّ أنْ أخدمَ الشعبَ في حالِ انتخبَنِي الشعبُ وليس العكسُ يا جاهلاً!. هذا هو السّببُ في تخلفِ الأمةِ، لأنَّ فيها أناساً عندَهُمُ من مثلِ مستوى تفكيرِكَ هذا الآنَ!.
حمد: سبحانَ اللهِ والمَجدُ لهُ في الأعالي. ما هذا التطوّرُ في فلسفةِ الديموقراطيةِ وحكمِ الشعبِ لنفسهِ عندَكَ!. الناس تتهافتُ على شَغلِ منصبٍ لكي يحكمونَ ويجلدَونَ ويُذلّونَ بقيةَ أصحابهم وأهليهم، ومن ذلكَ المنصبِ الذي أوصلَهُمْ إليهِ من "يُجلدونَ .. أنفسُهم!". يا أبوالزهو! الويلُ لأمةٍ لا تأخذُ، على الأقلَّ، كثيراً من فلسفتِها في الحكمِ من بناتِ أفكارِكَ العظيمةِ!.
أبوالزهو: دَعْكَ عَن هذا الكلام!؛ نقطةٌ أخرى وموقفٌ آخرُ. كلّما أذهبُ إلى المدينةِ ونَمُرُّ بجانبِ مَحطّةِ حافلاتِ النّقلِ الكبيرةِ، والصّغيرةِ والمتوسّطةِ!، لأرى أنَّ البشرَ يتزاحمونَ على الدخولِ إليها مثلَ النعاجِ المتهافتةِ على دخولِ المرعى!. عدةَ مراتٍ يكونُ المنتظرونَ أقلَّ بكثيرٍ من حُمولةِ الحافلةِ وترى البشرَ يتزاحَمونَ على الدخولِ إليها إلى درجةٍ من المضاربةِ والتعاركِ وضربِ النعالِ بالوجوهِ!. ألَمْ يتوصّلْ العقلُ البشريُّ هناكَ بعدُ إلى حفظِ النظامِ والابتعادِ عن الفوضى ذاتِ الشكلِ المشينِ والمرعبِ؟!. لو كان هنالكَ ألفُ حِمارٍ جائعٍ، ينتظرونَ كلُّهمُ للحصولِ على حفنةٍ واحدةٍ من التبنِ والشعيرِ، لن يَحصلَ شيءٌ من ذلكَ التزاحمِ. شيءٌ يَجلبُ العارَ للنفسِ والقشعريرَةَ إلى البَدنِ وتحدثُ في صدريَ مثلُ زوبعةٍ وثورةٍ داخليةٍ، عندما أرى مثلَ ذلكَ الشكلِ المشينِ!. أعرفُ لِماذا تُحاولُ أنْ تبقى في الموضوعِ وتطيلُ الحديثَ من هنا وهناكَ؟. تريدُ أنْ تلهيَنِي لئلا أطلبَ منكَ بعضَ العزفِ الموسيقيِّ، والطربِ معكَ!.
حمد: "وَلَكْ يا عمي، خلينا في الموظوع!" (تعبيرٌ مَحليٌّ بائسٌ يعني: يا ولداً يا هذا لنبقَ يا عمُّ في الموضوعِ!). أريدُ أنْ أسألَكَ سؤالاً آخرَ، لو سَمحتَ. من هو أكثرُ شخصيةٍ تاريخيةٍ تأثرتَ بها حتى الآنَ في حياتِكَ وحسبَ معرفتِكَ الكبيرةِ؟. لقد تأثَّرتُ بنفسيَ بالشاعرِ الإغريقيِّ "هوميروس" والذي لهُ ملاحمُ شعريةٌ من مثلِ"الإلياذةِ والأوديسةِ" .....
أبوالزهو: سَمعتُكَ قبلَ عدةِ ليالٍ تقرأُ و"تكرّرُ" في الحجرةِ التي تنامُ فيها العائلةُ وبصوتٍ مرتفعٍ مِمّا أزعجَ بقيةَ أهلِكَ النائمينَ. سَمعتُكَ تقرأُ عن شاعرٍ نسيتُ اسْمَهُ الآنَ وأظنُّ أنّهُ من الشعراءِ الفرنسيّينَ المرموقينَ. آخ... أخي حمَد لو تذكرُني باسْمهِ ....
حمد: آه .... الشاعرُ "لويس أراجان".... شاعرٌ حيٌّ ومعاصرٌ وقمةٌ في العطاءِ الشعريِّ!.
أبوالزهو: لا ... ليس هذا الاسمَ، إنهُ اسمٌ آخرُ!؟.
حمد: عرفتُ الآنَ ... أنت متأثرٌ ومعجبٌ بالمفكرِ والشاعرِ "بول فولتير". يا عيني عليكَ يا أبوالزهو!. عرفتْ اللّحى بعضَها. أنا وَإياكَ في نفسِ المركبِ أو القاربِ. لكن أفكارَ ذلكَ الشاعرِ أدَّتْ إلى اقتحامِ قلعةِ سجنِ "الباستيلَ" والثورةِ الفرنسيةِ فيما بعدُ .....
أبوالزهو: الآن لَمْ يتبقَّ لنا من شيءٍ لاقتحامهِ. كلُّ الأمورِ مَحسومةٌ. كلُّ الطرقِ مسدودةٌ لاقتحامِ أيِّ شيءٍ....

حمد: لا عليكَ يا صديقِيَ!. لا تَجزعْ وأمامَكَ الكثيرُ من قصورِ "القومبرادورِ" الأحْمقِ. سرْ عليها وسوفَ تقودُ عمليةَ اقتحامِها جَميعاً، إنْ شاءَ اللهُ تعالى.
أبوالزهو: وإذا ما تَمَّ ذلكَ لنا سوفَ أحْملُكَ علي ظهرِيَ قبيلَ الاقتحام وأثناءَهُ وبعدَهُ. تكرم عيونكَ يا خيِّ، ولوووو!. (تعبيرٌ مَحليٌّ يستَعملُ لإثارةِ الدلالِ في الشخصِ المخاطبِ لتكريمهِ!).
حمد: لا لا يا صديقِيَ؛ أنا الذي سوفَ يَحملُكَ على ظهرِيَ في حالِ حدوثِ مثلِ ذلكَ الزحفِ الشعبيِّ على قصورِ "القومبرادور"!.
أبوالزهو: هنَالِكَ الكثيرُ منَ الأمورِ التي لاَ أحبُّ الخوضَ فيها..!.
حمد: ليطمئنَّ بالُكَ. فقط أحبُّ أنْ أستنيرَ من تَجاربكَ. عسايَ أنْ لا أثقلَ عليكَ بالأسئلةِ والإلْحاحِ وإضاعةِ وقتِكَ الثمينِ الغالِي. لكنَّهُ!. من الممكنِ أنْ يستفيدَ بني البشرِ من خبرتِكَ في الحياةِ. سؤالٌ أخيرٌ! يا صديقِيَ أبوالزهو. ما هو أزهى بيتِ شِعْرٍ منَ الشعرِ العربِيِّ أو المَحليِّ، إنْ صَحَّ التعبيرُ، الذي تَمكّنَ من النفاذِ إلى عقلِكَ حتى الآنَ؟!..
أبوالزهو: طوالَ الأسبوعِ الماضي قام أخونا "سرحان" بالقراءةِ بصوتٍ عالٍ في فناءِ البيتِ مُكَرَّراً، يبدو أنّهُ كان يُحَضِّرُ نفسَهُ لامتحانٍ في اللغةِ العربيةِ، بيتَ الشعرِ القائلَ "قفْ للمعلمِ وفِّه التبجيلَ، كاد المعلمُ أنْ يكونَ رَسولاً". طوالَ الأسبوعِ و هوَ يقرؤُها من الكتابِ المقرَّرِ!. (التبجيلُ هنا تعني شدّةَ الاحترام)..
حمد: لكنَّ "سرحان" نفسَهُ لَمْ يَحفظْ بيتَ الشعرِ هذا بعدُ!...
أبوالزهو: هذه مشكلتُهُ ومشكلةُ من يُعَلِّمُهُ!. هنَالكَ أمورٌ أخرى كثيرةٌ؛ مثلاً إنّي أرى بيوتاً كبيرةً وضخمةً تُبنى عند بني البشرِ يسكنُها أناسٌ لا يشغلونَ إلا حيزاً قليلاً منها، وهنالكَ الكثيرُ من المصروفاتِ عليها وعلى أثاثِها بما يذهبُ سدىً لا يستفيدُ منهُ أحدٌ. هذا عدا عن مصروفاتِ الأعراسِ وفتحِ البيوتِ وغيرِها الكثيرُ، مِمّا يرهقُ خزينةَ الدولةِ ويصبحُ الحِمْلُ أكثرَ عبئاً على كاهلِنا، نَحْنُ المستضعفين في الأرضِ.....
حمد: آه... على الحالِ معكَ يا أبوالزهو!. أين وزاراتُ الشئونِ الاجتماعيةِ والبلديةِ والقرويةِ وأين وزاراتُ التخطيطِ والتعاونِ المَحليِّ والإقليميِّ والدوليِّ!؟. بل أين وزاراتُ البنيةِ التحتيةِ والما-دونَ تَحتيةِ والفوقيةِ والما-فوقَ فوقيةِ!؟. أين العالَمُ مِمّا يَجري في عقولِ أمثالِكَ؟!. للهِ المَجدُ في الأعالي لكنْ أين العدلُ والسّلامُ والتعقّلُ فيما يَجري على الأرضِ!؟...
أبوالزهو: أريدُ أنْ أغيِّرَ "الموظوعَ" (الموضوعَ) والسّيرةَ!. عيبٌ عليكَ يا صديقِيَ كلما طلبتُ منكَ لحناً لأطربَ عليه وليريحَ خاطرِيَ المكسورَ حتى تأتيَنِي بجملةٍ من القضايا التي يعجزُ الجِنُّ عن التعاملِ معها قديماً والآن وفيما بعدُ. الآنَ نتأهّبُ للسفرِ ولا نقدرُ أنْ نتوقعَ ما تُخبؤُهُ الأيامُ لنا....
حمد: اليومَ سوفَ أحاولُ أنْ أعزفَ لكَ وأُسْمِعَكَ شيئاً من فرقةِ الشيخِ "منير بشير"، حبيبِ القلوبِ والأرواحِ الحيةِ والميتةِ!.
أبوالزهو: أرِح لِيَ بالِيَ، "يخليلي اياك" (كلمةٌ مَحليةٌ تعني "عسى أنْ تدومَ لِيَ") يا بوحميد.
حمد: دن دن دن نن نن نن لا لا لا دج دج دج..... ودّعَ الصّبرَ مُحبٌّ ودّعَك، .. ذائعٌ من سرِّهِ ما استودعَك .... إنْ يَطُلْ بعدَكَ ليلِي ... إنْ يطل بعدَكَ ليلِي ...

فَلَكَمْ كنتُ أشكو قصرَ الليلِ معَك؟!. ...ٍ ...... يا أبوالزهو لولا خوفِيَ من أنْ أموتَ من الجوع، أو أنَّ الناسَّ يقولون عنِّيَ بأنني مَجنونٌ، لَأتخصَّصُ في الموسيقى والطربِ. لكنهُ ليس عندي ذلكَ الصّوتُ المرغوبُ بهِ كثيراً عندَ الجماهير.

أبوالزهو: لا تَجزعْ يا صديقِيَ! أنا هنا تَحْتَ أمرِكَ. إذا ما قررتَ الذهابَ إلى الموسيقى ستجدُني معَكَ أشدُّ من أزرِكَ. أنت تعزفُ وَأنا أوَلِّفُ....

حمد: لَمْ أقصدْ الصّوتَ!. أنا بِحاجةٍ إلى بعضِ الأشعارِ الفلسفيةِ من عالَمِ وجودِكَ.

أبوالزهو: وهذا ما قصدتُهُ!.

مِنَ المدرسةِ إلى الجامعةِ

كالآلافِ المؤلّفةِ من الطلبةِ الخريجينَ من المدارسِ الثانويةِ، سارعَ حمد إلى تقديمِ طلباتِ التحاقٍ إلى جامعاتٍ محليةٍ وعربيةٍ ودوليةٍ، في الشرقِ والغربِ والشمالِ والجنوبِ، مثلَ المَجانينَ التياهِ (التائهينَ). كانت الجامعاتُ العربيةُ تشترطُ تقديمَ طلباتٍ تَحتوي على شهاداتٍ ووثائقَ كثيرةٍ وعددٍ كبيرٍ من الصّورِ المستنسخةِ (صورٌ عن كشفِ العلاماتِ والشهادةِ العامةِ وعدةُ نسخٍ مصدقةٍ لكلٍّ منها ....). طلبت بعضُ الجامعاتِ العربيةِ إرفاقَ اثنتي عشرةَ (١٢) صورةً شَمسيةً للمتقدمِ بالطلبِ (كما لو كان صاحبُ الطلبِ سيقومُ بحملةٍ انتخابيةٍ لدى الشعبِ هناكَ) ويَجبُ أنْ تُوَقَّعَ كلُّ صورةٍ شَمْسيةٍ للمتقدمِ من قِبَلِ مديرِ المدرسةِ التي تَخرَّجَ منها التلميذُ مع ختمِ المدرسةِ الرسْميِّ عليها للتأكدِ من أنَّ الصّورةَ هي لِمَنْ يتقدّمُ بطلبِ الالتحاقِ!. لذلكَ فقد قام مديرُ المدرسةِ بالتوقيعِ على مئاتِ الصّورِ الشمسيةِ يومياً؛ حقاً إنّهُ تَمرينٌ جيدٌ للتدرُّبِ على إنتاجِ توقيعٍ جذابِ الشكلِ ومقبولٍ لدى أحدِ المصارفِ التي يودعُ الناسُ فيها أموالَهُمْ!.

قضى الطلابُ ذلكَ الصّيفَ مشغولينَ بتجميعِ الوثائقِ المطلوبةِ من كشوفِ علاماتٍ موقّعةٍ من مديريةِ التربيةِ والتعليمِ في المدينةِ والعاصمةِ ووزارةِ الخارجيةِ في العاصمةِ وسفارةِ الدولةِ التي يتقدّمُ الطالبُ للدراسةِ فيها. ثُمَّ هنالكَ شهادةُ خلوٍّ من الأمراضِ موقعةٌ من مديريةِ الصّحةِ ووزارةِ الصّحةِ والخارجيةِ والسّفاراتِ تبعاً لذلكَ. كانَ ختمُ وزارةِ الخارجيةِ ينصُّ على أنَّ الوزارةَ، وزارةَ الخارجيةِ، غيرُ مسئولةٍ عن صحةِ مُحتوياتِ الوثيقةِ وبالخطِ العريضِ. تطلبُ كلُّ هذه الدوائرِ

والسّفاراتِ رسوماً باهظةً ترهقُ مدخراتِ الفقراءِ. إلى جانب ذلكَ تطلبُ دوائرُ الأمنِ شهاداتِ حسنِ سيرةٍ وسلوكٍ، كلّها مرفقةٌ بصورٍ تُثبتُ أنَّ الشخصَ الموصوفَ هوَ صاحبُ الصّورةِ تلكَ. هذا الكابوسُ وتلكَ الدوامةُ ما كانا لينتهيا في صيفٍ واحدٍ بل امتدا طويلاً لا سيما أنَّ بعضَ الجامعاتِ لا تكلّفُ نفسَها بالردِّ سلباً أم إيجاباً؛ أو تتأخرُ كثيراً ربّما بانتظارِ واسطةٍ أو حدثٍ معين، أو أنَّ الروتينَ هناكَ قاسٍ جداً.
حمد: أخِيَ أبوالزهو، لَقد تقدمتُ بطلباتِ دراسةٍ في عددٍ من الجامعاتِ. قريباً سألتحقُ بإحداها للدراسةِ أو لتعميقِ الدراسةِ بالأصحِّ.
أبوالزهو: لقد قلتُ لكَ رأيِيَ مراراً وتكراراً. ما هذا العلمُ الذي لا يؤمِّنُ لكَ لقمةَ عيشٍ!؟، على الأقلِّ لنفسِكَ.
حمد: هذه هي الطريقةُ الوحيدةُ لتقدمِ الأجيالِ الصّاعدةِ في التحصيلِ العلميِّ، طريقةٌ مقتبسةٌ من المُجتمعاتِ الغربيةِ الراقيةِ!.
أبوالزهو: هذا صحيحٌ. لكنَّكَ منذ البدايةِ لا تتقدّمُ ولا يوجدُ بوادرُ لذلكَ عندَكَ. أنت غيرُ قادرٍ على ضربِ شاكوشٍ بمسمارٍ! من هذا التعليمِ الذي تدّعيهِ. لستُ فقط أقومُ بنفسِ الأعمالِ التي تقوم بِها بلْ أتفوّقُ عليكَ في إنْجازِها، في الحقلِ والبيتِ والشارعِ والمدينةِ وفي المصنعِ وحتى في المكتبةِ!. لكنَّكَ إذا ما اتّخذتَ قراراً نِهائياً بمواصلةِ التعليم...
أبو جاسر: .... فهنالكَ معهدٌ لإعدادِ المعلمينَ قريبٌ من المكانِ الذي نعيشُ فيه هنا. لِماذا لا تذهبُ إليهِ!؟.....
أبوالزهو: ... مثلُكَ مثلَ الأستاذِ "سلّوم" والأستاذِ "سلاّم" والأستاذِ "سلمان" والأستاذِ "عبيأن" .... خلالَ زمنٍ قصيرٍ تصبحُ منهمْ وإليهمْ، وسلّمْ لِيَ عليهمْ!.
حمد: ليس المهمُّ يا أبوالزهو ضَربَ الشاكوشِ بالمسمارِ!. المهمُّ هو كيفَ وأين ومتى ولِماذا تضربُ الشاكوشَ بالمسمارِ، كَمْ طولُ المسمارِ، وقدْرِ بُعدِ المسمارِ عن المركزِ مثلاً. بمقدوركَ أنْ تضربَ شاكوشاً بمسمارِ عشراتِ السّنينَ، ولكنَّكَ إذا لَمْ تعرفْ الأبعادَ والحدودَ والكمياتِ وما إلى ذلكَ يصبحُ عملُكَ مثلَ عملِ الحيواناتِ. ثُمَّ أكرهُ التدريسَ طريقةً للحياةِ ومهنةً للعملِ، أعتبرُها مليئةً بالفراغِ القاتلِ والذلِّ وتحمُّلِ مسؤولياتٍ وهْميةٍ قاتلةٍ للروحِ، روحِ الحياةِ. هل تريدُ قتلِيَ مئةَ مرّةٍ في اليومِ الواحدِ؟!. هل تستغلُّ حبِّيَ لكَ ولصداقتِكَ لتُمليَ عليَّ نصائحَ تعيقُ طموحِيَ وروحَ التقدمِ عندِيَ؟!.
أبوالزهو: كلاَّ ثُمَّ كلاَّ، أنا الذي بجهدِيَ وعرقِيَ ودمِيَ أريدُكَ أنْ تتقدمَ. تقدَّمْ هنا، هل التقدمُ فقط بالذهابِ بعيداً!؟. ألا تقدرُ أنْ تستعملَ عقلَكَ هنا في هذه البلادِ؟!.
حمد: لا تَخفْ يا صديقِيَ من ناحيةِ التذكرِ والنسيانِ؛ ستبقى في ضميرِيَ وحياتِيَ. لن أنساكَ أو أتَخلّى عنكَ، لا بل كيفَ يكونُ لِيَ ذلكَ أصلاً!؟. حتى لو سافرتُ فإنني سأحبُّكَ أكثرَ وأكثرَ. أنت بالنسبةِ لِيَ مثلُ الجذرِ والجذعِ للفرعِ!.
"زولالة": لقد حزمتَ حقائبَكَ وأمْرَكَ قبلَ أنْ تَتشاورَ معنا بشأنِ السّفرِ وبدءِ رحلةٍ طويلةٍ إلى عالَمٍ متغيرٍ لا توجدُ فيهِ أدنى ضمانةٌ لكَ بالعودةِ والاستقرارِ في وطنِكَ ومسقطِ رأسِكَ!. حتى أنّكَ لَمْ تراعِ قدراتِنا المتواضعةِ جداً لِمساعدتِكَ في غربتِكَ الدراسيةِ...
"كاملة": نَحْنُ أبناءُ هذه الأرضِ وهذا الوطنِ يَجبُ أنْ نبقى هنا.

حمد: ظروفُ حياتِنا تَجعلني غيرَ قادرٍ على البقاءِ في وطنِيَ. أنا فردٌ من أجيالٍ طويلةٍ عريضةٍ تَهيمُ على وجوهِها وراءَ خيوطِ دخانِ التعليم هنا وهناكَ...
أبوالزهو وسرحان: وهل أنت فعلاً متيقنٌ أنّكَ ستحققُ طموحاتِكَ وآمالِكَ وأنَّ السّنينَ القادمةَ ستكونُ أحسنَ حالاً من السّنواتِ التعليميةِ العجافِ العاقرِ الماضيةِ؟!.
حمد: قرائحِيَ وغرائزِيَ وفطرَتِيَ (بالفطرةِ) كلُّها تؤكّدُ لِيَ أنَّ حالَتَنا ستتحسّنُ أكثرَ وتنفتحُ أمامَنا أبوابٌ كانت اليومَ وبالأمسِ مؤصدةً.
أبو جاسر: ما رأيُكَ بِهذه الفكرةِ المتواضعةِ؟. ماذا لو التحقتَ بجهازِ الشرطةِ وتدرّبتَ على أعمالِها؟. خلالَ ستةِ أشهرٍ تتدربُ على كافةِ الأعمالِ المتصلةِ بحفظِ الأمنِ والنظامِ وتطبيقِ القانونِ في الأسواقِ والشوارعِ وأمامَ مبنى المُحافظةِ والمجلسِ البلديِّ.
سرحان: خلالَ بضعِ سنينَ تصبحُ على علمٍ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ. من هناكَ سوفَ تُكَوِّنُ لنفسِكَ دائرةً من السّلطةِ والقوّةِ تُجبرُ فيها أكبرَ "شنبٍ" في البلدِ على احترامِكَ. سوف تصبحُ قادراً على تحريرِ مُخالفاتٍ مروريةٍ ضدَّ جيشٍ عرمرمٍ من السّائقينَ وعلى اختلافِ مشاربِهم. سوفَ يتوسلُ إليكَ الناسُ توسلَ العبدِ لسَيّدِهِ. سوف يسألونَ العُمْدةَ للتوسطِ معكَ لإلغاءِ مُخالفةٍ مروريةٍ توقّعُها بيدِكَ بِحقِّ من لا يعجبُكَ حتى شكلُهُ في الشارعِ!.
حمد: لا أطيقُ أنْ أكونَ ذا سلطةٍ، حتى ولو لَمْ أكنْ متسلِّطاً. هذا الشرطيُّ عندِيَ يُمثّلُ مِخلبَ وحشٍ أو منقارَ طائرٍ جارحٍ من الممكنِ أنْ يُستغلَّ ضد أناسٍ أبرياءَ في هذه الحياةِ ليس لَهُمْ هدفٌ سوى العيشِ مثلَ زغاليلِ الحمامِ ذات ريشٍ في طورِ الزغبِ. من أجل هذا وغيرِهِ، لا أريدُ أنْ أكونَ ضابطَ شرطةٍ أو حتى قائداً لشرطةٍ. لا أحبُّ التعاملَ مع أهلِ العنفِ وعصاباتِ الجبَروتِ، لا أريدُ أنْ أقلقَ على حركةِ سيرٍ من سيلٍ من السّائقينَ الذين لا يعرفونَ عن قيادةِ السّياراتِ سوى "المقودِ ودعسةِ الوقودِ"!. لا أريدُ أنْ أتدخلَ في شؤونِ وعملِ سائقي باصاتِ الضواحي، علَّهُمُ أدرى بشعابِ ضواحيهم من غيرِهِمْ.
"كاملة": اسْمحْ لِيَ يا أخي حمد أنْ أقولَ لكَ أنّكَ على خطأٍ!. انظرْ مثلاً إلى حالِ السّيدِ "أبوالهُدْهُدْ" في المدينةِ. منذ دخلَ السّيدُ "أبوالهُدْهُدْ" سلكَ الشرطةِ أمسكَ بالسّلكِ كلّه من طرفيهِ في آنٍ معاً!. كلُّ الحليبِ واللّبنِ والبيضِ والخضارِ والفواكهَ، وحتى اللحومِ، كلُّها تأتيهِ على شكلِ منحٍ وهدايا دونَ مقابلَ مع قبلاتٍ على الأيدي وجهاً وظهراً!. الملابسُ التي يلبسُها هوَ وزوجتُهُ وأولادُهُ تأتيهِ في حقائبَ فاخرةٍ لا يَحلو لهُ إلا قبولَها. عندما يذهبُ أولادُهُ إلى العيادةِ الصّحيةِ في مركزِ المدينةِ ربَّما للزيارةِ الفضوليةِ، وليس للمداواةِ!، فإن الممرضَ هناكَ يقدّمُهُمْ على من سبَقَهُم في الدورِ حتى ولو كانت حالةُ هؤلاءِ البشرِ تَمرُّ بحالةِ الحرجِ وبحاجةٍ إلى التعاملِ معها باستعجالٍ شديدٍ. ويقالُ أنّهُ عندما يذهبُ أحدٌ من والديهِ إلى المخفرِ يُجلِسهم مديرُ المخفرِ بجانبِهِ، على ميمنةٍ منه أو ميسرةٍ وربّما مكانه، حتى ليبدو والدُهُ أو والدتهُ مثلَ قائدِ المخفرِ والأخيرُ يعملُ عندهُمُ مثلَ أجيرٍ في المكتبِ؛ يأتي لَهم بفناجينِ الشاي والقهوةِ وكؤوسٍ من عصيرِ الفواكهِ إكراماً لنجلِهم السّيدِ "أبوالهُدْهُدْ"!.
حمد: ولماذا تُركزونَ فقط على كلِّ مغرياتٍ! هذه المهنةِ "التسلقيةِ" و"الصّعوديةِ" البائسةِ؟. لن تستطيعوا الدخولَ على إرادتِيَ وتغييرَ ها أو كسرَها، شئتُمْ أم أبيتُمْ، رضيتُمْ أم كرهتُمْ.

سرحان: وبالنسبةِ للمردودِ الماديِّ، بالإضافةِ إلى المعاشِ الحكوميِّ يأتي إلى الشاويشِ شرطيٍّ "أبوالهُدْهُدْ" الآلافُ من الجنيهاتِ الممنوحةَ لهُ على شكلِ هدايا متواضعةٍ و"واسِطةٍ". واسطةٌ للحصولِ على رُخَصٍ! أشكالٌ وألوانٌ؛ رخصةٌ لقيادةِ سيارةٍ، رخصةٌ لامتلاكِ سيارةٍ، رخصةٌ لإدخالِ سيارةٍ، رخصةٌ لإخراجِ سيارةٍ، رخصةٌ لتغييرِ لوحةِ سيارةٍ، رخصةٌ لتغييرِ ملكيةِ سيارةٍ، رخصةٌ لتأجيرِ سيارةٍ، رخصةٌ لتغييرِ لونِ سيارةٍ .... رُخَصٌ كلُّها للسيارةِ وما أدراكَ ما السّيارةُ. لو أنَّ كلَّ طلبٍ مِمّا ذُكِرَ أعلاهُ ليحصلَ منهُ الشرطيُّ على نصفِ جنيهٍ فإنه وخلالَ أقلَّ من سنةٍ سيبني نصفَ قصرٍ في أعلى نقطةٍ في الجبلِ مشرفةٍ على كلِّ بيوتِ المدينةِ والقرى المُجاورةِ.
حمد: أعرفُكم! تَخلطونَ الجدَّ بالهزلِ في كثيرٍ من الأحوالِ. لكن بناءً على كلامِكم الظاهريِّ ستبقون على رأيكم وغيِّكم وضلالِكُم!؛ لا زلتمُ من أنصارِ الولوجِ في هذا الواقعِ المريرِ. أريدُ أنْ أهربَ، أنْ أذهبَ إلى البعيدِ، إلى حيثُ لا يرتدُّ للإنسانِ بصرُهُ. أريدُ أنْ أذهبَ إلى حيثُ ينام الضوءُ وحيثُ لا يسكنُ (عكس يتحركُ) الزمنُ!.
أبو جاسر: لقد فشلنا في إقناعِكَ، وإنّي أخافُ عليكَ من طموحاتِ نفسِكَ المَجنونةِ. ستجعلُنا عرضةً لتقلباتِ الدهرِ المتوقعةِ وغيرِ المتوقعةِ والتي هي في أغلبِ الأحيانِ غيرَ متزنةٍ. أنت أسيرٌ عندَ أهوائِكَ وطموحاتِكَ، أسفِيَ لكَ وعليكَ كبيرٌ. ستتأرجحُ في مستقبلِكَ بينَ خيطِ دخانِ النجاحِ و"صقيعِ" الفشلِ الناجمِ عن مقامراتٍ غيرَ مَحسوبةٍ ولا مُخطّطٍ لها.
أبوالزهو وسرحان: لَمْ يبقِ بيننا وبينكَ سوى أنْ تعزف لنا أغنيةَ وداعِ الماضي المشتركِ والحاضرِ الذاهبِ في طريقهِ إلى غياهبِ التاريخِ، والمستقبلِ الذي يغذيهِ وهمُ الأملِ فقط.
حمد: تسألاني عن شيءٍ للشيخِ عبدالمطلب؛ ..... دن دن دن.. ..... وَدَّع هواك وانساني انساني ... عمر اللي فات ما حيرجع تاني ... كان حلم وراح .. إنساه وارتاح! .. ودع زمانك .. .. ودع؟! .. .. ما راح زمانك ويا زماني! ... عمر اللي فات ما حيرجع تاني! ... كان حلم وراح ... إنساه وارتاح ... ودع زمانك ودع .. .. يا أبوالزهو لا يوجدُ في هذه الكلماتِ ما تطاوعُني نفسِيَ وفنِّيَ من الاسترسالِ فيهِ. لن أودِّعَ زماناً أطلعَكَ، سنبقى مع بعضِنا، بقلوبِنا وعقولِنا وأشواقِنا التي ستتقدُ بنيرانِ "صقيعِ" الغربةِ والفراقِ اللافحةِ. سوف نَسترسلُ في إعمالِ الحاسةِ السّادسةِ وَ قوّةِ التّنبؤِ وكشفِ أسرارِ الغيبِ. سوف نُغْني معانِيَ كلماتِ القصصِ والمسرحياتِ بمعانٍ جديدةٍ ونطعِّمُها بعواطفَ من مُختلفِ الألوانِ والاتّجاهاتِ الإنسانيةِ والاجتماعِيةِ. الحياةُ يا أبوالزهو عقيدةٌ وجهادٌ يبدأُ ولا ينتهي، حتى بانتهاءِ الحياةِ؛ هكذا تعلَّمْنا من عصفورِ الوادي الذي لا يكادُ يسلكُ طريقَ الموتِ حتى تفتحَ فراخُهُ طرقاً جديدةً في الحياةِ. آه يا أبوالزهو يا معلمَ الفلسفةِ الأولَ والثانِيَ والثالثَ .... عندِيَ أنا.

يعودُ أبوالزهو عادةً من العملِ في الحقولِ البعيدةِ مع غروبِ الشمسِ أو بعدَهُ بقليلٍ حين يغزو الظلامُ الأرضَ ويَحِلُّ مَحلَّ نورِ الشمسِ. عند عودتهِ ذاتَ يومٍ، لاحظ حمدٌ حركةَ سيرِ أبوالزهو وقد ثقلَتْ خطواتُهُ، بدا كالمترنحِ من شربِ كميّةٍ كبيرةٍ من الخمرِ. نظَرَ حمد في عينيهِ فوجدَهنَّ وقد بدأتا تفقدانِ بريقَهنَّ الأخّاذَ المعهودَ. بدأ لونُ وجههِ الناصعُ بالاضمحلالِ والشحوبِ، وحيويّةُ جلدهِ وشعرهِ بالتبدُّدِ. كذلكَ، وليس كعادتهِ، هو غيرُ قادرٍ بشكلٍ جيدٍ على التفاعلِ مع غيرهِ والتحيةِ! وتبادلِ المشاعرِ والأحاسيسِ و.... السّلام!. لا توجدُ مشاعرُ فرحٍ باللقاءِ بعدَ نهارٍ من الغيابِ. سألَهُ حمد إنْ كانَ هناكَ يوماً هادئاً طيباً قد قضاهُ معَ الأرضِ والطبيعةِ والوادي بصحبةِ الوالدِ أبو جاسر الذي يَحرصُ عليه ويُحبّهُ أكثرَ من حبهِ لِجلِّ أولادهِ. أبوالزهو وأمُّهُ "راكلي" هُما المعيلانِ الوحيدانِ تقريباً لكلِّ الأسرةِ ولولاهُما لَما كانتْ هنالكَ أسرةٌ وادعةٌ تعيش عيشةً شبهَ هادئةٍ على أحدِ أطرافِ القريةِ الصّغيرةِ. بدأ أبوالزهو يشعرُ بالغثيانِ وانتابتهُ قشعريرةٌ حادةٌ مصحوبةٌ بضيقِ تنفسٍ، وبسرعةٍ غيرِ متوقعةٍ بدأ جسمهُ بالانهيارِ. انبطحَ على بطنهِ وجنبهِ وأخذَ يتمرغُ ويشدُّ على الأرضِ من تَحتهِ بأطرافهِ ونَواجذهِ كمن يريدُ أنْ يودعَ عشيقتَهُ الأبديةَ الوداعَ الأخيرَ. زاد القلقُ والخوفُ والارتعابُ عندَ العائلةِ.

حمد: أبوالزهو، هل أنت تموتُ؟!.

أبوالزهو: نعم، خُذْنِ يا صديقِيَ إنْ كنتَ تُحبُّني إلى كرمِ الأشجارِ القريبِ. أريدُ أنْ أموتَ في حضرةِ شَجرةِ البلوطِ التي زُرعت هناكَ منذُ سنينَ طَويلةٍ على الجانبِ الغربيِّ لشجرةِ التينِ "الابْلاطيّة" (صنفٌ من أصنافِ التينِ). أريدُ أنْ أريحَ نفسِيَ وضَميريَ! في صَحبةِ الأرضِ المعطاءةِ وبينَ أحضانِ الطبيعةِ وقريباً من جدولِ الماءِ العذبِ، مصدرِ حُبِّ الحياةِ الخالدِ وزهوِ الطبيعةِ أبَدِيِّ السّحرِ.

حمد: ألفُ سلامتِكَ يا أبوالزهو!، وبَعُدَ الشرُّ عنكَ، نَموتُ لأجلِكَ. كلُّ ما في الأمرِ أنّكَ مصابٌ بداءٍ ولكلِّ داءٍ دواءٌ!.

أبوالزهو: لا... لستُ مريضاً، لقدِ اشتاقتِ الأرضُ إليَّ في جوفِها، لا أقدرُ إلا أنْ ألبِّيَ طلبَها، لا أقدرُ أنْ أردَّها خائبةً، أنا ابنُها الخادمُ الأمينُ، أنا ابنُ السّهلِ والجبلِ والوادي.

حمد: الأرضُ مشتاقةٌ إليكَ ونَحْنُ مشتاقون أكثرَ إليكَ بينَنا. أنت هَمزةُ الوصلِ الوحيدةِ الفريدةِ من نوعِها بينَنا وبين الأرضِ وتبعاً لذلكَ مع الحياةِ، الآنَ وفيما بعدُ!.

أبو جاسر: اذهبْ معهُ حيثُ يريدُ، يريدُ أنْ يَموتَ هادئاً مطمئناً وبسلام؛ لَمْ يقدرْ أنْ يحققَ شيئاً من ذلكَ الاطمئنانِ والسّلامِ في حياتهِ. أعرفُهُ، أعرفُ وَداعتَهُ وحبَّهُ للأرضِ والشجرِ وتضحيتَهُ اللامتناهيةَ مَن أجلِها.

حمد: كلُّ ما فيَ الأمرِ يا والدِيَ أنَّ أبوالزهو مريضٌ .... مصابٌ بأزمةٍ. وليس كلُّ مريضٍ يَجبُ أنْ يَموتَ!. هو بِحاجةٍ إلى طبيبٍ، إلى دواءٍ، إلى عملٍ طبِّيٍّ.

أبوالزهو: لستُ مريضاً ولا أعرفُ الأمراضَ وليسَ بيني وبينها طريقٌ. اقتربتْ ساعتي وأنا مستعدٌ لها، لكن في حضرةِ شجرةِ البلوطِ وما حولَها من التينِ والزيتونِ والرمانِ وفوقِ الأرضِ السّمراءَ.
حمد: سيتحققُ لكَ كلُّ ما تطلبُهُ، سأذهبُ معَكَ إلى آخرِ الأرضِ، لكنني أريدُكَ أنْ تعيشَ. أنت الجزءُ الرئيسيُّ في حياتِنا وما تبقّى ذيولٌ هامشيةٌ!. أنتَ قرَّةُ عينٍ وفؤادِ الصّغيرِ قبلَ الكبيرِ، المتعلمِ قبلَ الجاهلِ!.
أبو جاسر (يبكي): إهي إهي إهيَ إهي إهي .... هيء هيء هيء. خذه يا ولدِيَ إلى حيثُ يريدُ، إهي إهي إهي ... إنّها اللحظاتُ الأخيرةُ في حياتهِ وهذه وصيتهُ قبلَ أنْ يلفظَ أنفاسَهُ الأخيرةَ.

وفي الطريقِ إلى كرمِ الأشجارِ القريبِ وشجرةِ البلّوطِ التي يُحبُّها أبوالزهو كثيراً، انفتحتْ قريحتُهُ! أبوالزهو على وصفِ الشجرِ والحجرِ والشِّعابِ والعملِ والذكرياتِ التي تبدأُ عندهُ ولا تنتهي. هناكَ جلسنا مع العمِّ "أبوالطّيب"، وهناكَ ساعدتُ جارَنا "أبوشَمّامة" على بناءِ جدارٍ من الحجرِ ليحميَ أرضَهم وشجرَهُمْ من سَيْلِ الماءِ المتدفِّقِ في الشتاءِ. هناكَ ساعدَتُ في فتحِ طريقٍ ليسهلَ مرورَ الفلاحينَ إلى حقولِهِمْ مع مواشيهِمْ. وذاتَ مرّةٍ هجَمَ عليَّ كلبُ "أبوسعيط" ولكنني واجهتُهُ بركلةٍ في وجههِ ثَنَتْهُ عن التمادي في هجمتهِ الشرسةِ. وما أنْ وصلا قريباً من الكَرْمِ، بعد مَشْيٍ بطيءٍ، حتى دبَّتْ الحياةُ! في قلبِ وأرجلِ أبوالزهو الذي هرولَ إلى قربِ جذعِ شجرةِ البلوطِ دائمةِ الخضرةِ وأسرعَ إلى الجلوسِ بجانبِها.
أبوالزهو: إذا كان من موقفٍ! يَجبُ تسجيلُه عند فراقِ أغلى الأحبّةِ فهي لحظةِ وداعٍ من عاشقٍ متيمٍ متلهفٍ ذا قلبٍ ملتهبٍ بالشوقِ إليها، مرهفِ الإحساسِ بالأرضِ وجَمالِها، أصلَ روحِ الحياةِ وعنفوانِ الدمِ في العروقِ .... هذه كلمةُ وداعٍ لشجرةِ البلوطِ هذه، وما حولَها، التي أحببتُها منذُ صغريَ.
حمد: يا أبوالزهو! لا أشعرُ أنَّ هنالكَ خطراً على حياتِكَ لتبدأَ بالوداعِ ثُمَّ بالاحتضارِ. أتألَّمُ عليكَ أكثرَ منكَ. لَمْ أعرفْكَ خنوعاً مهزوماً خائرَ العزيمةِ هكذا. أنت غيرُ أبوالزهو ذو الهامةِ العاليةِ والجبهةِ الناصعةِ في العملِ والكفاحِ والكدحِ الذي لا يعرفُ القهقرةَ أو الانهزامَ.
أبوالزهو: أريد منكَ بعد موتِيَ أنْ تدفنَني قربَ جذعِ شجرةِ البلوطِ، قريباً من جذرِها. قُمْ بدفنِيَ في الصّباحِ بعدَ بزوغِ الفجرِ حين أكونُ قد تَمَّ غُسليَ من الندى المتكونِ فوقَ أغصانِ شجرِ الحقولِ والغيطانِ، واصنعْ لِيَ نعشاً من بقايا أفرعِ الشجرِ الذي رويتُهُ بعرقِي وأشبعتُهُ من جهدِيَ.
حمد: يا أبوالزهو! الوقتُ ليس وقتَ تمثيلِ "ميلودراما" البقاءِ والفناءِ على خشبةِ مسرحِ بلديةِ المدينةِ، لقد حرقتَ قلبِيَ ومزّقتَ أضلعِيَ بكلماتِكَ المكهربةِ. كبقيةِ الخلقِ أنت تَمرضُ، تُعالجُ، ثُمَّ بإذنِ اللهِ تُشْفَى!.
أبوالزهو: لا لا لا، أرجوكَ لو تُقطّعُ جسمِيَ إرباً إرباً صغيرةً وتوزِّعُها على دروبِ الأرضِ الخلاءِ، في فيءِ الشجرِ المصطفِّ لتحيةِ عشاقِ الأرضِ. ضعْ بقايا أضلعي ركائزَ للجدرانِ التي تحمي الأرضَ من الانجرافِ بسببِ سيلِ ماءٍ متدفقٍ قادمٍ مع عاصفةٍ مجنونَةٍ.
حمد: يا حبيبيَ أبوالزهو؛ ليس الموقفُ مهرجانَ تأبينٍ ولا تَحريضٍ ولا مزايداتٍ، يَحتاجُ الموقفُ إلى شيءٍ لعملِ أيِّ عملٍ، بل أيِّ شيءٍ لإنقاذِ حياتِكَ. يا إلهِيَ يا ربُّ

يا اللهُ؟! لَئِنْ تنقذْ أبوالزهو هذه المرّةَ لنا فلن أَدَعَ باباً للخير إلا وطرقتُهُ ودخلتُ فيهِ، لن أغفلَ عن صلاةٍ لكَ حتى لو كانتْ في يومِ زمهريرٍ باردةٍ، حيثُ يكون ماءُ الوضوءِ بارداً جداً!. سوف أساعدُ المسكينَ والفقيرَ والمَعتلَّ وصاحبَ الحاجةِ ما دمتُ حيّاً.

أبوالزهو: أو عليكَ أنْ تَحرقَ جثتِيَ في نارٍ موقَدةٍ من خشبِ جذوعٍ وفروعِ الشجرِ اليابسِ، وأنْ تنثرَ رمادَ جسدِيَ وروحِيَ! في الفضاءِ الواسعِ حيثُ النجماتِ التي طالما تلألأتْ ولألأتْ لياليِنا؛ ليالِي السّهرِ على أنغامِ الناي ومواويلِ أهلِ الغجرِ ونباحِ كلابِهِمْ. كلُّ نَجمةٍ لَها من جسمِيَ مقدارُ حبةِ رمادٍ واحدةٍ.

حمد: أتذكَّرُ الآنَ أنّني علمتُ ذات مرّةٍ منكَ بأنَّ أمَّكَ لَها أصولٌ إفرنجيةٌ؛ هذا أكبرُ إثباتٍ على ذلك!. إنَّ هذا الخيالَ الإبداعيَّ لَمْ يتوفرْ إلا عندَ الشيخِ "شكسبير"!. سأبحثُ في الأرضِ كلِّها! وآتي لكَ بطبيبٍ يُداويكَ.

أبوالزهو: إيّاكَ ثُمَّ إياكَ!. لا أحبُّ الطبيبَ. هذا الطبيبُ الذي ادّعى مرّةً معرفتَهُ بحالِيَ لا يقدرُ أنْ يساعدَني. حينَها قالَ أنّهُ سيجرّبُ إحدى الأدويةِ السّامةِ عليَّ، والأمرُ متروكٌ للحظِ والصّدفةِ لتقرِّرَ النتيجةَ!. لا أريدُ أدويةً مزيّفةً ولا مسكّناتِ آلامٍ...

كانت السّاعةُ تشيرُ إلى منتصفِ الليلِ تقريباً عندما تركَ حمدٌ أبَوالزهو وحدَه يتلوّى من الألَمِ وذهبَ ليبحثَ لهُ عن عونٍ في ثنايا القريةِ المتواضعةِ في الخدماتِ الطبيةِ لديهاَ. قال حمد في نفسهِ أنّهُ إذا ما ذهبَ إلى المدينةِ فلن يتمكنَ الطبيبُ من إعطائهِ أكثرَ من كبسولةِ "دواءٍ" من صيدليةٍ أو حبوباً مسكّنةً للآلام!. خطرت على بالهِ فكرةٌ. صديقُهُ العزيزُ الحاجُّ "أبوهارون"، الغجريُّ الفيلسوفُ، كبيرٌ في السنِّ قضى عمرَهُ بين أحضانِ الطبيعةِ ومتنقلاً بين هُمومِ الإنسانِ وفطرةِ الحيوانِ، الحيوانِ الأليفِ والمتوحشِ وكذلكَ الإنسانِ!، الجميعُ على حدٍّ سواءَ. يشكّلُ عَملُ الحاجِّ "أبوهارون" ومهنتُهُ القلبَ النابضَ والمُحرّكَ لعملِ أهلِ القريةِ والقرى المُجاورةِ. هو الذي يشحذُ لَهم مَحاريثَهم البلديةَ بنارِ "كورهِ" (الكورُ هو عبارةٌ عن موقدٍ للفحمِ الحجريِّ يستخدمهُ الحدادُ البدائيُّ لتسخينِ الحديدِ وتطويعهِ قبلَ طرقهِ)، ويُصلحُ لَهم منها ما كُسِرَ من أدواتِ الحراثةِ والزراعةِ أو ما انتهى عمرُهُ من المَحاريثِ، بطريقةٍ أو بأخرى. هو أستاذٌ متمرسٌ في علمِ نفسِ الإنسانِ المتحضّرِ والمتوحّشِ والسّاديِّ! والدّمثِ، وأستاذٌ في علمِ الحَيوانِ الأليفِ والمفترسِ. عندما يتذكرُ حمد الحاجَّ "أبوهارون" لا يَملكُ إلا أنْ يحنِيَ رأسَهُ و"عقلَهُ وخيالَهُ" طأطأةً من تلقاءِ نفسهِ ويذهبُ ذهنياً، لفترةٍ من الزمنِ إجلالاً وإكباراً لذلكَ الشخصِ "البوهيميِّ" ("بوهيمي" كلمةٌ من أصلٍ لاتينيٍّ وتطلَقُ على الشخصِ الذي يعيشُ حياةَ تشردٍ عن بيتهِ وموطنهِ الأصليِّ وأهلهِ). جَمَعَ الحاجُّ "أبوهارون" داخلَ هندامهِ بين صفاتِ أهلِ الغجرِ والقريةِ والمدينةِ والطبيعةِ والحقيقةِ والخيالِ في مزيجٍ يَحتاجُ إلى مُجَلَّدٍ من الكتبِ لوصفهِ وإعطائهِ بعضاً من حقهِ. ذهب حمد إليهِ وكانتَ السّاعةُ قد قاربت الثانيةَ بعدَ منتصفِ الليلِ. دقَّ حمد عليهِ بابَ بيتهِ حيثُ كان الحاجُّ "أبوهارون" يغطُّ في نومهِ. فتح الحاجُّ "أبوهارون" البابَ ورأى حمد في حالةٍ خائرةٍ وحيرانةٍ.

الحاجُّ "أبوهارون": ما الأمرُ يا ولدِيَ؟. هل هنالكَ من شيءٍ بعدَ منتصفِ الليلِ عندَكَ؟!.

حمد: أبوالزهو! يا عمِّيَ الحاجَّ "أبوهارون"؛ أبوالزهو يَموتُ.

الحاجُّ "أبوهارون": واه ... يا حسرتاه، أبوالزهو يَموتُ؟. ماتَ؟!. لا لا لا أبوالزهو ... كيفَ حدثَ ذلكَ؟. إنّهُ صديقُنا وحبيبُنا وعندما أراكُما مع بعضٍ يطمئنُّ قلبِيَ. أقولُ لنفسِيَ أنَّ الدنيا ما زالتْ بخيرٍ والأرضُ تَجدُ من يعشقُها، والزيتونُ يلقى من الرعايةِ ما يبقيهِ فرحاً يانعاً. ماذا جَرى لهُ؟ أينَ هو الآنَ؟.

حمد: لقد فكّرتُ في الذهابِ إلى الطبيبِ ليداويَهُ، ولكن كما تعرفُ أنَّ الأطباءَ هنا يداوونَ الخلْقَ بالجسِّ على جيوبهم أولاً!. نَحْنُ كما تعرفُ ليس عندنا جيوبٌ!. كلُّ ما نَحملُهُ من مالٍ لا يكفي حتى لَكشفيةٍ واحدةٍ لمعرفةِ المرضِ عن بعدٍ فقط!؛ إذا، لا سَمَحَ اللهُ!، ألَمَّ بأحدِنا مرضٌ.

الحاجُّ "أبو هارون": توكّلْ على اللهِ، سوف أتدبرُ الأمرَ. إنَّ أبوالزهو عندِيَ مثلَهُ مثلُ أحدِ أولادِيَ؛ وأعزُّهُ كذلك! أكثرَ لأنهُ لا يتوقّفُ عن العملِ!.

ما أنْ رأى الحاجُّ "أبوهارون" أبوالزهو ملقىً شبهَ ميتٍ على الأرضِ حتى اقتربَ منهُ، ونظرَ في عينيهِ ولَمَسَ أذنيْهِ وبطنَهُ وظهرَهُ ورقبتَهُ ويديْهِ ورجليْهِ. كان أبوالزهو في حالةٍ يُحاولُ فيها أنْ لا يلفظَ آخرَ أنفاسهِ!.

الحاجُّ "أبوهارون": إنَّ الأمرَ بسيطٌ. لكن لِماذا لَمْ تأتِ إليَّ بمجردِ أنْ شعرَ أبوالزهو بالمرضِ؟. هلّا تعرفُ أنَّ مثلَ هذه الأمراضِ سهلةٌ في طريقةِ التعاملِ معها من عندِيَ؛ مثلُها مثلَ "سحْبِ الشعرةِ من العجينِ"؟!. (مثلٌ شعبيٌّ كنايةً عن سهولةِ حلِّ مشكلةٍ أو خروجٍ من مأزقٍ). تعلّمتُ طريقةَ التعاملِ معها منذُ صِغَرِيَ مع مُجملِ التعاملِ مع الخلقِ وشؤونِهِمْ، مع صيدِ الضباعِ ومسكِ القنافذِ والثعالبِ والأرانبِ والشياهم (مَحلّياً ما يعرفُ بالنياصِ).

حمد: يا عمِّيَ الحاجَّ "أبو هارون" أنا عبدٌ عندَكَ وحتى إشعارٍ آخرَ!. أرجوكَ أنْ تساعدَ أبوالزهو، أنْ تنقذَهُ، أنْ تعيدَ الحياةَ إلى مفاصلهِ وقلبهِ، هو لنا جَميعاً ....

قام الحاجُّ "أبو هارون" وباستخدام سكينٍ حادٍ كان يَحملُهُ في جيبهِ، قامَ بعملِ "جراحةٍ" لأبوالزهو وأزالَ لهُ شبهَ كيسٍ ملتَصقٍ بأحدِ منخريْهِ. قال أنَّ ذلكَ الكيسَ هو السّببُ في شبْهِ خنقٍ بطيءٍ لِجسدهِ!. أضافَ أنّهُ في العادةِ فإن مثلَ تلكَ الآفةِ تقضي على المصابِ بها في غضونِ ساعاتٍ قليلةٍ إذا لَمْ يحالفْ الضحيةَ الحظُّ بخبيرٍ مناسبٍ بها!. بدأت الحياةُ تدبُّ في أنفاسِ أبوالزهو من جديدٍ، بدأ الدمُ ينسابُ بحيويةٍ في عروقهِ وفي جسمهِ كلِّهِ. وفي وقتٍ قصيرٍ، حدث ما يشبهُ السّحرَ على أيدي الحاجِّ "أبو هارون" حينَ وقفَ أبوالزهو على أقدامهِ والتفتَ يَميناً ويساراً؛ تَحرّكَ إلى الأمامِ ولفَّ مرتينِ حولَ شجرةِ البلوطِ. تنفّسَ حمد والحاجُّ "أبو هارون" الصُّعداءَ، ونظرَ حمد إلى الحاجِّ "أبو هارون" قائلاً: بأبِيَ أنتَ وأمّيَ، إنّكَ لَمِنَ المكْرمينَ في هذهِ الحياةِ؛ أين تختبئُ ولا تعرفُ عنكَ الحكوماتُ وعياداتُ وزارةِ الصّحةِ والعياداتُ الخاصّةُ؟!. علَّهُمْ يعرفونَ هذه القدراتِ الخلّاقةِ الخارقةِ من عندِكَ!. ردَّ الحاجُّ "أبوهارون" قائلاً: هذا كلّهُ من فضلِ اللهِ، وما أوتينا من العلمِ إلا قليلاً، والحمدُ للهِ. ....

الحاجُّ "أبو هارون": تعرفُ يا ابني حمد، أنّكَ أنتَ وأبوالزهو تعزّانِ عليَّ مثلَ أولادِيَ.

حمد: أنا تَحْتَ أمركَ يا عمِّيَ الحاجَّ "أبو هارون". أنا مستعدٌّ للقيام بأيِّ شيءٍ تطلبُهُ، ومن عينِيَ اليمينِ إلى عينِيَ الشمالِ.

الحاجُّ "أبوهارون": أعني... عندما يعودُ أبوالزهو إلى حالتهِ الطبيعيةِ؛ فإنَّ هذا الولدَ عندِيَ الذي اسْمُهُ "طَفْطَفْ". لقد تَمَكَّنّا بعد جهدٍ جهيدٍ ووقتٍ مديدٍ أنْ نَجدَ لهُ في مكانٍ ليس من هنا ببعيدٍ، أنْ نَجدَ لهُ شريكةَ حياةٍ تظلُّ معهُ إلى ما بعدَ موتهِ، بعدَ عمرٍ مَجِيدٍ!. لقد طلبَ مني العوّادُ "حسني أبو عامود" أكثرَ من مائةِ (١٠٠) ورقةٍ نقديّةٍ من أجلِ أنْ يعزفَ لنا في هذا الفرحِ، بعضاً من أغاني العيدِ؛ هذا غيرَ أجرةِ الأناشيدِ ... التي سوف يؤديها الشاعرُ الغجريُّ المدعوُّ "أبو حديد"؛ واللهِ! لا أعرفُ لِماذا يطلبانِ المالَ الرغيد. إنْ كان لديهما في هذا الحفلِ أيُّ جديد؟! فليظهراهُ للقريبِ وللبعيد .....
حمد: ها ها ها ها ها..... إنْ شاءَ اللهُ! يا عمِّيَ الحاجُّ "أبوهارون"، لقد وصلتْ الفكرةُ. سأجلبُ معِيَ، أنا وأبوالزهو، النايَ ونعزفُ للسيدِ "طَفْطَفْ" من موسيقى الأغاني ... العيد، حتى ينتهيَ الليلُ ويظهرَ من جديد، اللونُ الأحْمرُ للقرميد!. نَحْنُ مثلُكَ لا نتقاضى أجراً حتى ولو كانَ زهيد، ولا نرى أيَّ لزومٍ لِمالٍ، يَحتاجُ فقط إلى تبديد!.
الحاجُّ "أبوهارون": شيءٌ آخرُ يا ابني أريد، أنْ أخبرَكَ بأمرهِ. كما تعرفُ أننا عائلةٌ قدِمنا مهاجرينَ من بلادٍ واقعةٍ بينَ صخورٍ جلاميد وبُحارٍ أمواجُها من الجليد. الناسُ من أولادِ "أبوعليان" يُعَرِّضوننا من وقتٍ لآخرَ للتّهديدِ أو على أقلِّ الأحوالِ منهُمْ، ومن أولادِهِمْ، للوعيد. هلْ لكَ أنْ تَمدَّ لنا من قوّتِكَ يدَ الصّنديدِ لندحضَ بها غدرَ هؤلاءِ الرعاديد؟!. ومَعِيَ أولادِيَ نكونُ لكُما، أنتَ وأبوالزهو، أصدقاءً؛ وتَحْتَ أقسى ظروفٍ من العيشِ الزهيد.
حمد: يا عمِّيَ الحاجَّ "أبوهارون"، أنا في هذه الدنيا وبكلِّ فخرٍ واعتزازٍ وحيد؛ معي أبوالزهو، هديةٌ من السّماءِ والأرضِ أكثرَ إيناساً لِيَ منَ "العِقدِ الفريد". من الآنَ فصاعداً نَحْنُ وأنتَ لسنا أجساماً بل جسمٌ وحيد، سينضمُّ إليه من الطيبينَ العديد. اللهُ تعالى الذي هو أقربُ إلى كلِّ واحدٍ منا من حبلِ الوريدِ، عسى أنْ يدعمَنا من عندهِ بعونٍ، للظلمِ بهِ... نبيد.
الحاج "أبوهارون": وسوفَ أقولُ لأولادِيَ أنّهُ ليسَ لنا في هذهِ القريةِ غيرُ حمد، ومعَهُ أبوالزهو، من عزيزٍ، ولقراءةِ أمهاتِ الكتبِ ... خيرُ مُجيد.
أبوالزهو: لنذهبْ الآنَ إلىَ البيتِ. أريدُ أنْ أخلدَ إلى نومٍ، من مثْلِ نومِ العبيد!.....

قبولٌ في جامعةٍ

من أكثر أنواعِ الانتظارِ قسوةً ووحشيةً على النفسِ والقلبِ والروحِ والعصبِ والفكرِ كانَ انتظارُ ردٍّ منَ الجامعةِ أو المؤسسةِ التي ستساهمُ في تَحديدِ مصيرِ المتقدمِ بالطّلبِ للانتسابِ إليها. الكلُّ من خريجي المدارسِ الثانويةِ يطْمحُ في الحصولِ على قبولٍ في جامعةٍ ذاتِ مستوىً عالٍ وفي تَخصّصٍ فريدٍ ومرموقٍ يساعدهُ أنْ يكونَ عضواً فعالاً في المُجتمعِ منَ النواحي الماديةِ والاجتماعيةِ والمعنويةِ. تركزت معظمُ طلباتِ خريجي المَدارسِ على كلياتِ الطبِّ والهندسةِ والصّيدلةِ ظناً منهمُ، وربّما لضيقِ أفقٍ لديهِمْ ولدى أهاليهِمْ وبعضٍ من معلميهِمْ

وعلى حدٍّ سواءَ، أنّها تَخصّصاتٌ ناجعةٌ في تَبَوُّئِ مكانةٍ مرموقةٍ في المُجتمعِ فيما بعدُ. كان الطلابُ ينتظرونَ بفارغِ الصّبرِ، وكلَّ يوم، صدورَ الجرائدِ المَحليةِ والتي كانت تظهرُ فيها أسماءُ دفعاتٍ منَ الطلبةِ المقبولينَ هنا وهناكَ من البلدانِ والجامعاتِ.

حصلَ حمد على قبولٍ للدراسةِ الجامعيةِ في إحدى الجامعاتِ القريبةِ نسبيّاً من أرضِ الوطنِ، جامعةِ "ألبايْروطاطْ". كانت السّمعةُ والدعايةُ تقولانِ بأنَّ تلكَ الجامعةَ ستطبّقُ نظاماً في التدريسِ، جديداً فريداً من نوعهِ، بحيثُ أنَّ ذلكَ سيؤهلُها للحصولِ على اعترافٍ دوليٍّ واسعٍ وأنَّها ستصبحُ في مصافِّ الجامعاتِ العالميةِ المرموقةِ!. إحدى أولى نتائجِ الشروعِ في ذلكَ المشروعِ هو الارتفاعُ الفاحشُ في تكاليفِ الدراسةِ والمصروفاتِ الأخرى المرافقةِ لَها. بالتأكيدِ! فإن هذا الأمرَ سيجعلُ من حياةِ أبو جاسرٍ وأبوالزهو والعائلةِ الماليةِ تسيرُ بشكلٍ لا يُمكنُ لحاسدٍ أنْ ينظرَ إليها، ولو خلسةً!. تمكّنَ حمد وبعد جدلٍ طويلٍ مع نفسهِ أنْ يقتنعَ بأنَّ تلكَ الجامعةَ الناشئةَ في هذا البلدِ النامي خيرُ بديلٍ من الذهابِ إلى ما وراءَ البِحارِ والمُحيطاتِ طلباً للعلمِ المقدّسِ لديهِ!.

أبوالزهو وسرحان: في اجتماعٍ عائليٍّ "عاصفٍ" قرَّرنا نَحْنُ في أسرةِ السّيدِ أبو جاسر تقديمَ يدِ العونِ الماديِّ الممكنِ إليكَ يا "بوحميد" في طموحاتِكَ وتطلعاتِكَ؛ مبْروكٌ وهذه قبلةٌ منّيَ أطبعُها على كَتفِكَ وأخرى على رأسِ أنفِكَ. الوالدانِ والإخوةُ والأخواتُ، الأهلُ كلُّهم وطبعاً على رأسهِمُ أنا، سنوصلُ الليلَ بالنهارِ في العَملِ لكيْ تتمكّنَ من مواصلةِ تعليمِكَ العالي في أحسنِ الجامعاتِ التي تعجبُكَ. نَحْنُ مقتنعونَ بأنَّكَ كنتَ على حقٍّ وأنَّ الإنسانَ بالعلمِ وحدهِ قادرٌ على تحقيقِ المعجزاتِ! وأنّهُ "بالحبِّ وحده أنت غالي علي، بالحب وحده وهو وحده شوية ..... لا يا حبيبي لا لا" ... مع الاحتفاظِ بحقوقِ الطبعِ والتأليفِ والغناءِ لأصحابِها ....

حمد: أشكرُكما جزيلاً خاصةً أنتَ يا صديقِيَ أبوالزهو. تعرفُ مدى حبِّيَ وتقديريَ لكَ وللعائلةِ، ولجهودِكُم المضنيةِ من أجلِيَ. بعدَ قليلٍ سأبدأُ مرحلةً تأسيسيةً أخرى في الحياةِ بعدَ مرحلةٍ تأسيسيةٍ سابقةٍ استغرقتْ كما تعرفُ اثنتي عشرةَ (١٢) سنةً. لكنَّ هذه المرحلةَ لا تقلُّ أهميةً عنِ الأولى وسأعملُ كلَّ ما بوسعِيَ من أجلِ التطوّرِ والتقدّمِ إلى مستوياتٍ متقدّمةٍ. كلِّيَ شوقٌ وحرارةٌ للبدءِ بالعملِ، وسأعملُ ليلَ نهارَ وسوفَ لن تسمعوا عنِّيَ إلا الأخبارَ الطيبةَ.

سرحان: لكن هل لديكَ فكرةٌ ولو عامّةٌ عن الموضوعِ الذي تريدُ الخوضَ في غمارِهِ؟؛ ذلكَ حتى نُهيّئَ أنفسَنا ولو معنوياً لأيِّ طارئٍ، لأيَّةِ مفاجآتٍ، لأيَّةِ أخبارٍ جيدةٍ أم غيرَ جيدةٍ؟!.

حمد: لقد حصلتُ على قبولٍ في موضوعٍ يؤهّلني أنْ أختارَ، وبعدَ سنةٍ من الدراسةِ الأوّليةِ، بينَ الطبِّ والهندسةِ والصّيدلةِ والزراعةِ والتكنولوجيةِ وحتى الجيولوجيا والأدبِ العربِيِّ والإنجليزيِّ. الخياراتُ كلُّها مفتوحةٌ وتعتمدُ على جهدِيَ وحظِّيَ، واللهُ الموفّقُ.

أبوالزهو: أعرفُكَ منذُ باكورةِ حياتِيَ معَكَ أنّكَ المُجتهدُ المواظبُ والحريصُ كلَّ الحرصِ على التعلّمِ والنجاحِ، وحتى أكثرَ! منّيَ في الحرصِ على العملِ في الحقلِ والبيتِ.

سرحان والأخواتُ: قلوبُنا معكَ من السّاعةِ الأولى لسفرِكَ وحتى التخرُّجِ من الجامعةِ. سوف لن نبخلَ عليكَ بشيءٍ حتى لو اضطرِرْنا إلى أنْ نجوعَ، نعرى، نفقرَ، تقفرَ علينا الحياةُ، قطعاً نتقطّعُ؛ لكنْ عن دعمِنا لكَ لن نرجعَ. المهمُّ أنْ تظلَّ مرفوعَ الرأسِ مُمتلئَ الجيوبِ!.
حمد: أعتبرُ هذا الموقفَ منكُمْ ومن جهةِ أبوالزهو هديةً من هدايا الخالقِ الكثيرةِ العظيمةِ لِيَ. جعلَكُمْ اللهُ جَميعاً ذخراً وسنداً دائماً لِيَ، فأنتُمْ خيرُ ما عرفتُ في حياتِيَ.
أبو جاسر (يأتي ويذهبُ): أرجو منكَ يا ولدِيَ، إذا ما حصلَ نصيبٌ! وذهبتَ إلى الجامعةِ، أنْ تنتبهَ كثيراً في حياتِكَ ودراستِكَ هناكَ وأنْ لا تلهو أو تكسلَ. إنَّ حالتَنا الماديةَ ضيقةٌ وشديدةُ الضعفِ، البيتُ والأولاد بحاجةٍ إلى مصروفٍ وتكاليفُ الحياةِ هنا في ازديادٍ مطّردٍ، ومستمرٍّ في الاطّرادِ!. أرجو منكَ أنْ تراعِيَ نفسَكَ في المصروفِ وأنْ تأخذَ بالَكَ من المصروفِ الزائدِ. الغربةُ صعبةٌ وقاسيةٌ، اعملْ على أنْ تعودَ إلينا مرفوعَ الرأسِ والهامةِ؛ وإذا ما، لا سَمَحَ اللهُ، صارَ معكَ من مكروهٍ فإنَّ الناسَ لنْ ترحَمَكَ. الناسُ مثلُ الذئابِ الجائعةِ لا ترحمُ فريسةً سقطتْ في أحدِ أركانِ الغابةِ.
سرحان: عندِيَ فكرةٌ! بما أنّكَ حصلْتَ على معدّلٍ عالٍ، ما بالُكَ لو تتقدمُ بطلبٍ للحصولِ على بعثةٍ من الحكومةِ، من وزارةِ التربيةِ والتعليمِ!.
حمد: لقد تقدّمتُ بطلبِ بعثةٍ إلى الوزارةِ المذكورةِ. أتى ومضى موعدُ ظهورِ النتائجِ. ذهبتُ أوّلَ أمسِ إلى مديريةِ التربيةِ في المدينةِ ولمْ أجدْ هناكَ أيَّ ذكرٍ لاسمِيَ، لا سلباً ولا إيجاباً. تعرفُ أخِيَ سرحان ما تفرضُهُ عليكَ الدوائرُ الحكوميةُ حينَ مُحاولتِكَ الولوجَ إليها!.
سرحان وأبوالزهو: وكيف نَجحَ صديقُنا "أبوموزة" في الحصولِ على بعثةٍ للتعليمِ في الخارجِ، بالرغمِ من أنَّ معدّلَهُ أقلُّ منكَ بكثيرٍ وفي المرةِ (السّنةِ) الثالثةِ لمحاولاتِهِ اليائسةِ لاجتيازِ امتحانِ التوجيهيِّ العامِّ. فكرةٌ أخرى، ما رأيُكَ؟ بما أنَّ لديكَ أفكاراً "متطورةً في الاشتراكيةِ"!، وتوزيعِ الثروةِ على الناسِ بالتساوي، وبشكلٍ خاصٍّ على العمالِ والكادحينَ؛ من الممكنِ أنْ يساعدَكَ ذلكَ في الحصولِ على مساعدةٍ للدراسةِ في الدولِ اللاتي تَحكمُها أنظمةٌ اشتراكيةٌ؟!.
حمد: ها ها ها... يا أحبابِيَ! لا أعرفُ من أينَ تلملمونَ قصاصاتِ الأفكارِ هذه وتضعونَها في الوقتِ المناسبِ وفي المكانِ غيرِ المناسبِ. عليكُما أنْ تنسيا الآنَ نظرياتِ الارتقاءِ الحضاريِّ والانتماءِ الفكريِّ والتّغييرَ في النظامِ السّياسيِّ. يشكو الوالدُ من ضائقةٍ ماليةٍ؛ من الممكنِ أنْ تضيفا إليها ضائقةً أمنيةً، تستفحلُ استفحالَ قضبانِ الحديدِ في أساسِ البناءِ الشّاهقِ في العلوِّ.
"زولالَة": قريبُنا "أبومُطاع" قال بأنَّ هنالكَ "جَمعيةً تعاونيةً" تديرُها نُخبةٌ "غيرُ متعاونةٍ" من أهلِ البرِّ والإحسانِ والمناداةِ بالحريةِ والثورةِ!؛ ما رأيُكَ لو تطرقُ بابَهم؟، والذي يطرقُ البابَ يسمعُ الجوابَ.
حمد: لا أعرفُ كيف السّبيلُ للوصولِ إليهِمْ؛ ولكنني أعرفُ أنَّ مطالبَهم قد تتجاوزُ الدَّيْن الماديَّ والمعنويَّ!.
أم جاسر: لقد سَمعتُ عن "جَمعيةِ الأراضي المقدّسةِ" لِمساعدةِ الطلبةِ المتفوقِينَ. نَحْنُ من الأراضي المقدّسةِ، نَحْنُ أوْلى الناسِ بالحصولِ على مساعدةٍ منهمْ للتعلُّمِ.

حمد: أمّاه! هذه المؤسّسةُ تشترطُ على المتقدمِ أنْ يكونَ "قِدّيساً ابن مقدّس". للتوّ قلتُم أنني مع توزيعِ الثروةِ بالتساوي بين العمّالِ والفلاحينَ والشحّاذينَ بالتساوي مع كبارِ النصّابينَ وأعضاءَ مَجالسِ الشعب!. يا والدتِي بنفسِكِ قلتِ لِي قبلَ قدومِ الوالدِ أبو جاسر بأنّكِ كنتِ متحمسةً بل أكثرَ المتحمسينَ للمساهَمةِ في إنْجاحِ تَمويلِ دراستِيَ الجامعيةِ. هل كنتِ تُحاولينَ رفعَ معنوياتِيَ فقط في معركةٍ مصيريةٍ في الحياةِ؟. لا أريدُ رفعَ معنوياتٍ وأريدُ مساعدةً حقيقيةً وتَحْتَ كلِّ الظروفِ!.
أبوالزهو: لا تقلقْ يا صديقِيَ! ولا تتضايقْ، سوف نضعُ مَحصولَ الحقولِ ومَجهودَ الوالدينِ ووالدتِيَ "راكلي" وناتجَ حليبِ البقرتينِ وأعمالَ الأخواتِ في الزرعِ و"التعشيبِ" والقلعِ والحصادِ والدرسِ وأعمالِ البيدرِ كلَّ ها تَحْتَ تصرفِكَ؛ كلَّها من أجلِ إنْجاحِ برنامَجِكَ التعليميِّ الطموحِ، وليكنْ بعدَكَ طوفانُ الفقرِ!.
حمد: طوالَ حَياتِنا لَمْ نتلقَّ مساعدةً منْ أحدٍ. على الرغمِ من الفقرِ المدقعِ الذي يكتنفُ أفرادَ بيتِنا فرداً فرداً، فإنَّ الوالدَ كان يقدمُ المساعداتِ للقريبِ والغريبِ ودونَ حَمْدٍ ولا شكرٍ. لِماذا الآنَ تفكرون في الذهابِ إلى هنا وهناكَ طلباً للمساعدةِ؟!.
أبوالزهو وسرحان: السّببُ الحقيقيُّ يا صديقِيَ هو أننا سَمعنا الوالدَ يهمسُ للوالدةِ أم جاسر قبلَ النومِ ليلةَ أمسِ الأولِ بأنّهُ لا يرغبُ ولا يقدرُ على تعليمِكَ خارجَ حدودِ الوطنِ الصّغيرِ بسَببِ ضيقِ ذاتِ اليدِ. لكنَّ الوالدةَ أم جاسر رفضتْ الأمرَ جُملةً وتفصيلاً ورفعتْ صوتَها على والدِكَ بعد نقاشٍ حادٍّ، أُتبِعَ بتهديدٍ منهُ بأنّهُ سيهجرُها في المضجعِ والمرتعِ وفي كلِ موقعٍ!. لكنَّ الوالدةَ أم جاسر أصرَّتْ على أنّها سوف تضحّي بالغالي والنفيسِ من أجلِ ذهابِكَ إلى الجامعةِ، في الوقتِ الذي لا يزالُ الوالدُ أبو جاسر مُصرّاً على أنْ تذهبَ إلى "دارِ تدريبٍ وإنتاجٍ وإعدادِ المعلّمينَ"!.
حمد: هذه هي إحدى المَحاسنِ الكبيرةِ لسَيطرةِ النساءِ على شؤونِ وأحوالِ الرجالِ. إنّهنَّ يعرفنَ مصالِحَهُنَّ ومصالِحَ أبنائهنَّ بشكلٍ أحسنَ. اللهمَّ زِدْ ها فوقَ قوّتِها بطشاً!. لا أخفي عليكُما سرّاً يا سرحان ويا أبوالزهو أنني لو استمعتُ منذ البدايةِ لِرأيِ الوالدِ أبو جاسر فإنني الآنَ أكونُ قد حصلتُ على وظيفةِ عاملِ زبالةٍ في المدينةِ، أعملُ زبّالاً عندَ المكثّرينَ من إنتاجِ الزبالةِ فقط!.
أبوالزهو: ليس هنالكَ من عيبٍ يا صديقِيَ في أنْ يعملَ الشخصُ شيئاً كهذا. الأهمُّ! أنْ لا يشحذَ من هؤلاءِ السّفَلَةِ المنتشرينَ هناكَ وهنا!.
حمد: يا أبوالزهو! لا أعيبُ العملَ؛ فقط أعيبُ الوقوفَ في وجهِ العملِ!. كلُّ عملٍ ولهُ أصحابُهُ. أريدُ أنْ أذهبَ إلى الجامعةِ رغماً عن أنفِ كلِّ العالَمِ.
أبوالزهو: فكرةٌ أخيرةٌ!، فقط مُجرّدَ فكرةٍ!، هدِّئْ نفسَكَ ولا تَثُرْ في وجهِيَ.
حمد: هذه الأفكارُ سوف تُحدثُ شقاقاً أبدياً بيني وبينَكَ. أنا الذي أريدُ أنْ أسألَكَ سؤالاً: لِماذا يسمحُ للبشرِ بالإنْجابِ إذا لَمْ يكونوا قادرين على العنايةِ بِما ينجبونَ؟!.
أبوالزهو: فكِّرْ! منطقياً وكن واقعياً. هل تفترضُ أنَّ هؤلاءِ البشرَ عندَهُمْ فلسفةٌ وفكرٌ عميقٌ يَجعلُهُم يفكّرونَ في التحكّمِ في أعمالِهم خاصّةً عندَ تدفّقِ الماءِ من أصلابِهِمْ؟!.
سرحان: ..... ماذا لو ذهبنا أنا وأبوالزهو وأنت والوالدةُ إلى بيتِ جَماعةِ "أبوثَلجة" في الطرفِ الثاني من القريةِ. نُخبرُهُمْ أنّكَ من الطلابِ اللامعينَ؛ لقد سَمعتُ أنّهم من أهلِ الخيرِ والعطاءِ. كما أنَّ الوالدةَ بطريقتِها الخاصّةِ في الدعاءِ

والإقناعِ تَجعلُ قلبَ الحجرِ يرقُّ ويلينُ. لعلَّ وعسى أنْ يقولَ أحدُ هؤلاءِ بلى! أو أيَّ شيءٍ مِن هذا القبيلِ. هؤلاءِ عندهُمْ شركةٌ تِجاريةٌ فيها يُجَمِّدونَ الماءَ ويبيعونَهُ للناسِ في صحراءِ الخليجِ بأثْمانٍ خياليةٍ للتبريدِ عن أنفسِهم .....
أبوالزَهو: .... لو استغنوا عن عَددٍ محدودٍ من صهاريجِ الماءِ في السَّنةِ ولِمدةِ أربعِ سنواتٍ فإنَّ ذلكَ كافٍ لكَ للحصولِ على الدرجةِ الجامعيةِ التي تصبو إليها.
حمد: خيالاكُما الواسعانِ وأسلوباكُما القصصيّانِ المُقنعانِ للأطفالِ فقط سوف يؤديانِ بِيَ إلى الهاويةِ خاصةً إذا ما أسْمعتُما تلكَ الأحاديثَ للوالدِ أبو جاسر. لا أريدُ منكم أيَّ شيءٍ حتى لو تَطَلَّبَ مني الأمرُ أنْ أموتَ!؛ ولتذهبوا إلى الجحيمِ، و هذا سبيلٌ بينِيَ وبينَكُمْ.
أبوالزهو: لا لا لا تقلْ ذلكَ!، نَحْنُ كلُّنا معك. سرْ على البَرَكةِ. نَحْنُ معَكَ حتى آخرَ نقطةِ دمٍ في العروقِ وآخرِ رمشةِ عينٍ وآخرَ نبضةٍ للقلبِ وآخرَ نَفَسٍ في الصّدرِ وآخرَ رَمَقٍ. لكن يا صديقاً لِيَ! ألا يستأهلُ منكَ أنْ تكافئني على ذلكَ بِمعزوفةٍ في هذا اليومِ غيرَ العاديِّ في الحرارةِ. أطفأْ لِيَ ظمأَ الروحِ والجسمِ والعصبِ.
أبو جاسرَ (يأتي من خلفِ المنزلِ في الخارج): لقد تكلّمتُ قَبْلَ عدةِ أيامٍ مع إمامِ المسجدِ، الشيخِ "غُرابي"، وقد أثنى بدوره عليكَ كثيراً في جِدِّكَ ومثابرتِكَ ونباهتِكَ وحضورِ ذهنِكَ. قلتُ لَهُ بأنَّكَ، إنْ شاءَ اللهُ، ذاهبٌ لإكمالِ دراستِكَ في الجامعةِ. وقد أبدى جلَّ تعاطفهِ معكَ واستعدادَهُ لِمساعدتِكَ بكلِّ ما يَملكُهُ لِمعرفتهِ بكَ كصديقٍ وأخٍ وإنسانٍ خلوقٍ ومُحترمٍ!، عسى اللهُ يرضى عليكَ يا ولدِيَ.
أبوالزَهو وسرحان: هاَ ها ها ها ها ها ها ها ها ها.... سوف نسمعُ موسيقى يومَ غدٍ، وا-حسرتاهُ اليومَ لَمْ يضبطْ الفِلمُ!.
حمد: آخ منكَ يا أبوالزهو، هل كنتَ تسحبُ عليَّ فِلماً ومَقلباً! كلَّ هذا الوقتِ وتكذبُ عليَّ وعلى الوالدِ!؟. الويلُ لكما منِّيَ، أنت وسرحان.....
أبو جاسر: ما الذي يَجري معكُما؟!. لقد قلتُ لكُما منذُ فترةٍ طويلةٍ أنْ تتركا أمرَ هذا العودِ الذي جعلَ التعاملَ معكُما مثلَ التعاملِ مع الحشّاشينَ!.

حمد في جامعةِ "البايْروطاطْ"

بِحضورِ الوالدةِ وكلِّ الإخوةِ والأخواتِ وأبوالزهو، قُدِّمتْ لِحمد من والدهِ أبو جاسرَ كميةٌ من النقودِ موضوعةٌ في كيسٍ من القماشِ خِيطَ باليدِ. أعلنَ أبو جاسر أمامَ أفرادِ العائلةِ أنَّ تلكَ النقودَ مدخراتُ سنينٍ من الكَدْحِ الناجمِ من تواجدهِ شبهِ الدائمِ مع الوالدةِ أم جاسر ووالدةِ أبوالزهو "راكلي" والإخوةِ والأخواتِ في عبادةِ الأرضِ الوعرةِ وما يتبعُها. قدَّمَ أبو جاسر النقودَ لابنهِ بسعادةٍ مُختلطةٍ بروحِ التحسبِ والحذرِ والخوفِ مِمّا يضمرُهُ المستقبلُ. اعتقدَ حمد بأنَّ ما قُدِّم لهُ جزءٌ وليسَ كلَّ ما كانَ مدخراً، فهو يرغبُ في أنْ يتركَ للعائلةِ والأولادِ شيئاً للمصروفِ، نقوداً للاحتياطِ وللظروفِ غيرِ العاديةِ الطارئةِ. تبيَّنَ لاحقاً أنَّ ما قُدِّم لهُ كان تقريباً هو كلُّ ما تَمِّ توفيرَهُ، ولَمْ يبقَ لدى العائلةِ كلِّها إلا النزْرُ اليسيرُ من النقودِ لا تكفي لسدِّ ظمأٍ حقيقيٍّ.

بعدَ بضعِ ساعاتٍ من اجتماعِ الوداعِ حملَ حمد حقيبتَهُ مسافراً؛ اجتازَ كافةَ المعوقاتَ الداخليَّةِ والحدودَ المَحلّيةَ والدوليَّةَ والأمنيةَ. بعدَ سفرٍ آخرَ وصلَ أخيراً إلى المدينةِ المبتغاةِ على أملِ أنْ يستقرَّ بهِ الأمرُ هناك. في المدينةِ الجديدةِ واجهَ حمد أزمةَ سكنٍ للأنفاسِ حارقةً. لا يوجدُ في الجامعةِ سكنٌ جامعيٌّ خاصٌّ بالطلبةِ ممّا أضاف تَعَساً حقيقيّاً لِحياةِ معظمِ الطلبةِ المغتربينَ عن أهلِهِمْ وأوطانِهِمْ. في البدايةِ، اضطرَّ حمد لأن يسكنَ في غرفةٍ تابعةٍ لإحدى "حظائرِ الحيوان" شديدةِ التواضعِ، في إحدى الضواحي المُجاورةِ لِمكانِ الجامعةِ. بالرغمِ من حبِّ حمد الشديدِ للحيوانِ إلا أنَّ هذه العلاقةَ بدأت تضمحلُّ منذُ سَكَنَ حمد ذلكَ المكانَ. الحجرةُ لَها سقفٌ قليلُ الارتفاعِ متشقِّقٌ ونافذةٌ عريضةٌ وملتصقةٌ بالسّقفِ؛ بابُ الحجرةِ لا يوجدُ لهُ مفتاحٌ ولا سُكَّرةٌ سوفَ يعملُ المالكُ على "تركيبِها" لاحقاً. قامَ حمد بتسجيلِ اسْمِهِ لدى أحدِ المكاتبِ العقاريةِ في المدينةِ؛ هدَّدَ مديرُ (أو صاحبُ) المكتبِ حمد بأنَّهُ سيستدعي لهُ الشرطةَ بسببِ المشاجراتِ والنقاشِ الحادِّ الذي كان يستعرُ من حينٍ لآخرَ حينَ مراجعةِ حمد لهُ وإلحاحهِ على صاحبِ المكتبِ لإيجادِ بيتٍ ملائمٍ لهُ للسكنِ والإقامةِ فيهِ. اكتشفَ حمد أنَّ وعودَ مدير المكتبِ العقاريِّ كاذبةٌ على الرغمِ من أنَّ حمد كان قد دفعَ لهُ مسبقاً الرسومَ المطلوبةَ. كان هنالكَ خوفٌ وتَهديدٌ حقيقيّانِ بأنْ تعطِّلَ أزمةُ السّكنِ تلكَ بل تلغيَ مستقبلَ حمد الدراسيَّ بأكملِهِ.

في اليومِ الأولِ لدخولِ حرمِ الجامعةِ، جامعةِ "البايْروطاط"، لاحظ حمد تَجمُّعَ عدةِ مئاتٍ من الطلبةِ الجددِ والمخضرمينَ يتظاهرونَ ضدَّ قانونٍ تَمَّ فرضُهُ على الجامعةِ يلغي فيه التعليمَ في عددٍ من الكليّاتِ هناكَ باللغةِ العربيَّةِ؛ جريمةٌ ثقافيةٌ ترتكبُ في وَضَحِ النهارِ وعلى أعينِ الأشهادِ ضدَّ اللغةِ والثقافةِ و"الجِلْدَةِ" العربيةِ. كان يُفرَضُ على المدرّسينَ، عرباً وعجَماً، مقيمينَ وأجانبَ، التدريسُ والتحدثُ والضحكُ! والتصرّفُ ما أمكنَ بطرقٍ غيرِ عربيةٍ. تنوَّعَ أعضاءُ هيئةِ التدريسِ في البدايةِ من أجانبَ وكافةِ الأقلياتِ وبقايا الحضاراتِ بالإضافةِ إلى العنصرِ العربيِّ، الذي تَمَّ استدعاؤُهُ إلى ما يشبهُ أنْ يكونَ باباً أو سدادةً أو غطاءً لِـ"كيسَ" تَجري فيه عمليةٌ ثقافيةٌ نوعيةٌ!. كان هنالكَ مدرّسونَ يدّعونَ أنَّهم من بقايا الحضاراتِ الفرعونيةِ والآشوريةِ والفينيقيةِ والكنعانيةِ والأمازيغيةِ والسّريانيةِ والأكّديةِ والبيزنطيةِ والتتاريةِ و"الريكاردويةِ" ...؛ كلُّ هؤلاءِ كان يقودُهمُ عربيٌّ لَمْ يُبقِ من عروبتهِ إلا اسْمَهُ واسمَ قبيلتِهِ مكتوبيْنِ، ومع إمضاءٍ لاسْمِهِ، بالحروفِ اللاتينيةِ ومترجَمةً! للعربيةِ. من تبقّى من العربِ طُلبَ منهُمْ أنْ يلتزموا الصّمتَ حتى ينجليَ الموقفُ بقدرةِ قادرٍ. وكما بدا في ذلكَ الوقتِ فإنَّ تعليماتٍ صريحةً قد صدرت للمدرّسينَ الأذكياءِ الأشاوسِ بأنَّ طريقةَ "التَّمَيُّزِ" عن الغيرِ المتاحةَ لكلٍّ منهُمْ هي التكلُّمُ والتخاطبُ والتواصلُ مع الغيرِ بلغةٍ غيرِ العربيةِ. في البدايةِ كان يسمحُ للمدرسِ العربيِّ، أو الناطقِ بالعربيةِ، أنْ يُحاولَ جهدَهُ التكلمَ فقط بما تَجمَّعَ لديهِ من معلوماتٍ بلغةٍ غيرِ العربيةِ مهما تكن ركيكةً. بعدَ فترةٍ ليستْ بالوجيزةِ صارَ أولياءُ أمورِ الأولادِ الصّغارِ يتسابقونَ على إرسالِ فلذاتِ أكبادِهِمْ إلى مدارسَ خاصّةٍ يتلقونَ فيها وعوداً قاطعةً من إداراتِ تلكَ المدارسِ بأنَّ فلذاتِ أكبادِهِمْ لن يتركوا المدارسَ قبلَ التأكّدِ من أنَّهمْ قادرونَ على التخاطبِ بلغةٍ غيرِ العربيةِ وبكلِّ طلاقةٍ، كما لو كانوا وُلِدوا وترعرعوا في مدينةِ نيويورك مثلاً!!. أحدُ المولَعينَ بأيّةِ لغةٍ غيرِ العربيةِ، السّيدُ "أبومَرْجَلَة"، أعلنَ أمامَ جَمعٍ من البشرِ أنّهُ يودُّ تعليمَ

ابنـهِ "لولـو" لكْنـةً "أوكسـفورديةً" مشـابهةً لتلـكَ التـي فـي لسـانِ اللـورد "آرثـر بلفور"، صاحبِ أكثرِ الوعودِ والإعلاناتِ شؤماً ونَحْساً في التاريخِ البشريِّ. قال "أبومَرْجَلَة" أنَّ تلكَ هي الطريقةُ الكلاسيكيةُ والحديثةُ في آنٍ واحدٍ للتخلصِ من التخلّفِ الحضاريِّ الذي هو غارقٌ فيهِ، على حدِّ تعبيرهِ!.

منذُ البدايةِ شعرَ حمد بأنَّ الرضوخَ لقرارِ "غَربنةِ التعليم" سوف يُفقدُ التعليمَ روحَ الأصالةِ وقوّةَ التفكيرِ والإبداع ناهيكَ عن البدءِ في تَصفيةٍ جسديةٍ لثقافةٍ قائمةٍ منذ آلافٍ مؤلفةٍ منَ السّنينَ. هذا جزءٌ بسيطٌ من المصيبةِ والجزءُ المتبقيُ كان القبولَ الأعمى لقطاعٍ واسعٍ من الشعبِ لِهذهِ الخطةِ الجهنميةِ على أملِ "عصرنةِ" المُجتمعِ وتَحويلهِ إلىَ مُجتمَعِ "هاي-تِك". النتيجةُ النهائيةُ أنّهُ أصبحَ وضعُ الثقافةِ واللغةِ العربيتينِ وما يتبعُهُما يشبهُ وضعَ حَمامةٍ بيضاءَ أو مَجموعةٍ منَ الحمائمِ البيضِ في متناولِ مَجموعةٍ من النسانيسِ (جَمعٌ لكلمةِ نسناسٍ) ممّنْ يُكنّونَ الحقدَ وعداءَ الجهلِ والتخلّفِ المطبقيْنِ والمُحكَمِ لكلِّ ما هو عربيٌّ أو يَمَتُّ أو يريدُ أنْ يَمَتَّ إلى العربِ والعروبةِ بصِلَةٍ، لا مَن قريبٍ ولا من بعيدٍ.

حمد: شيءٌ مؤسفٌ جداً كيفَ حُكِمَ على اللغةِ العربيةِ بالإعدام شنقاً هنا وبيدِ أبنائِها.

مدرسٌ جديدٌ ١: لأنّكَ إذا ما ذهبتَ إلى المكتبةِ لن تَجدَ فيها من كتبِ المراجعةِ إلا القليلَ باللغةِ العربيةِ وما تبقّي باللغاتِ الأخرى.

طالبٌ: لكن هل هذا ذنبُ اللغةِ أم ذنبُ المتكلمينَ بها و هل يعني ذلكَ أنْ نقتلَ اللغةَ العربيةَ بقرارٍ مكونٍ من بضعةِ أسطرٍ. لِماذا يُحرّمُ التفكيرُ والبحثُ والتطبيقُ باللغةِ العربيةِ؟!. يُمَكنُ القيامُ بعمليةِ ترجَمةٍ واسعةٍ لكلِّ الكتبِ القيّمةِ وغيرِ القيّمةِ. ولأجلِ ماذا أنتمْ يا معشرَ المدرّسينَ جالسينَ هنا، فقط للقهوةِ والشاي وحفظِ الألقابِ و هزِّ الأذنابِ!؟.

مدرّسٌ جديدٌ ٢: لقد درَسْتُ كلَّ حياتِيَ الجامعيةِ باللغةِ الأجنبيةِ، والتركيةِ بالذاتِ؛ هل تريدُني أنْ أتَخلّى عن جهدِيَ طويلِ الزمنِ وأرجعَ من جديدٍ لأتكلّمَ لغةً غيرَ علميةٍ؟!.

حمد: ماذا تعني بكلمتكَ "غيرَ علميةٍ"؟. هل هنالكَ لغاتٌ علميةٌ وأخرى أدبيةٌ؟. اللغةُ لغةٌ، للعلمِ، للفنِّ، للنومِ، للحلمِ، للخيالِ، للسبِّ، للشتمِ ..... إلخ إلخ إلخ. كيفَ للغـةِ أنْ تتطـوّرَ دون اسـتعمالِها مـن قبـلِ عـددٍ كبيـرٍ مـنَ النـاطقينَ بِهـا وفـي كافّـةِ المَجالاتِ الحياتيةِ؟!.

مدرسٌ جديدٌ ٣: عفواً! لن أستمرَّ معكُمُ في نقاشٍ بدأ يسخنُ من أوَّلِهِ ..... I" ."gotta go. (بالعربيّةِ الفصحى: عليَّ أنْ أذهبَ).

طالـبٌ: اللغـةُ الوحيـدةُ القديمـةُ الحديثـةُ التـي لَهـا جـذورٌ وفـروعٌ فـي الأرضِ وفـي السّماءِ هي لغتُنا العربيةُ العظيمةُ.

حمد: إنَّها لغةُ بلاغةٍ وفصاحةٍ. إنَّها لغةُ فكرٍ وإعجازٍ وعلمٍ وعملٍ؛ لغةٌ فيها تعانقتْ الأرضُ مع السّماءِ وأنْجبتْ أمّهاتِ الكتبِ وأساساتِ الحضاراتِ الإنسانيةِ الحقيقيةِ جَمعاءَ.

مدرسٌ جديدٌ ٤: هذا لا يعني أنْ نَحتقرَ اللغاتِ الأخرى. كما كنّا في الماضي روادَ علمٍ، أصبحوا اليومَ هم روادَ العلمِ وعلينا أنْ "ننهلَ" من بلادهِمْ وبلغتهِمُ.

طالبٌ: كما يبدو أنّكَ "نَهلْتَ" بما فيهِ الكفايةُ والآن جاء دورُكَ لتضيفَ إلى لغتِنا ما تستطيعُ مِمّا قد "نَهلتَ" بكلماتٍ عربيةٍ مشرقةٍ؛ هذا لو كان عندَكَ ما كنتَ قد "نَهلتَهُ" من أيِّ شيءٍ حقّاً.

مدرسٌ جديدٌ ٥: فيما مضى كانوا يقولونَ أنَّ الشمسَ تشرقُ من الشرقِ، اليومَ دعونِ أقولُ لكُمْ أنَّ الشمسَ الحقيقيةَ تشرقُ من الغربِ. انظروا إلى المُخترعاتِ العلميةِ والتكنولوجيةِ والفضائيةِ، كلُّها من عقولٍ غربيةٍ ولا يوجدُ فيها شيءٌ عربيٌّ واحدٌ.

طالبٌ: هذا كلامٌ هراءٌ يَخلو من الدقةِ خلوَ النجسِ من الطهارةِ!، اللغةُ ليس لَها أيُّ أثرٍ في ذلكَ. التقدّمُ العلميُّ في دولةٍ لا يعتمدُ على لغتِها، ولو كان الأمرُ كذلكَ لكانَ العَربُ أكثرَ الناسِ تقدماً علمياً. انظروا إلى الحضارةِ الفرعونيةِ التي بُنيت على الخطِ الهيروغليفيِّ، وحضارةِ "سومر" وبابل ومنها عجائبُ "الحدائقِ المعلقةِ" والتي ارتكزَ التقدمُ فيها على الثقافةِ واللغةِ السّومريةِ والبابليةِ القديمةِ.

مدرّسُ شريعةٍ وَسَطِيٌّ (لا جديدٌ ولا قديمٌ في الجامعةِ): لا مانعَ لدينا من التعلُّمِ بلغةٍ أخرى، فالدينُ الحنيفُ يقولُ اطلبوا العلمَ ولو في الصّينِ.

طالبٌ: ونِعْمَ الحديثُ، لكنَّ طلبَ العلمِ من الصّينِ غيرُ تدريسِ الصّينيةِ وإحلالِها مَحلَّ اللغةِ العربيةِ؛ المشكلةُ عندَكَ ليستَ في النَصِّ بل المشكلةُ في التفسيرِ وإصدارِ الفتاوى جزافاً!.

مدرسٌ جديدٌ ٣: هل تريدُ منا أنْ نتركَ التعليمَ بلغةِ الفرنجةِ ونَخسرَ وظائفَنا ومعاشاتِنا. سندرِّسُ بأيةِ لغةٍ؛ هذه ليست بمشكلةٍ من عندِيَ!.

طالبٌ: وهل تَحوّلتمُ يا تَجمُّعَ المدرسينَ إلى مرتزقةٍ على حسابِ اللغةِ العربيةِ؟. ومن أين يأتيكَ معاشُكَ ومن أين تأتيكَ مصروفاتُكَ العائليةُ والشخصيةُ التي تفوقُ قدراتِ البلدِ الإنتاجيةَ؟!.

مدرسٌ جديدٌ ٢: يا إخواناً!، انظروا إلى المثلِ التركيِّ. أصبحت تركيا في مصافِّ الدولِ الصّناعيةِ والزراعيةِ المتقدمةِ بفضلِ اعتمادِ الحرفِ اللاتينيِّ في اللغةِ التركيةِ بدلَ الحرفِ العربيِّ المتخلِّفِ!.

حمد: هذا من أكثرِ الكلامِ فظاظةً وتضليلاً وهراءً. لَمْ يَحدثْ تطورٌ يذكرُ في المُجتمعِ التركيِّ. حدث هَنالكَ بَعضُ "المكننةِ" أو المَقْنَنَةِ الغربيةِ للجيشِ والحكومةِ والمؤسساتِ التابعةِ لَها، لكنّهُ لَمْ يصلْ إلى الشعبِ التركيِّ إلا النزرُ اليسيرُ مِمّا تسميهِ تقدماً تكنولوجياً. وهنالكَ فرقٌ كبيرٌ بين التقنيةِ والحضارةِ. كثيرٌ من الناسِ ينظرونَ إلى قشورِ القشورِ ويظنونَ أنّهمُ يعرفونَ اللبَّ. لا أعرفُ ما الذي يدفعُ بعائلةٍ أنْ ترسلَ ابنَها للتعلمِ في بلدٍ غريبٍ ويعودَ بعد ذلكَ بسنينَ و"بخُفَّيْ حُنينٍ" في عقلِهِ!.

طالبٌ: دعونا ننتقلُ إلى بعضِ التفاصيلِ. هل بمقدورِ أحدِ المدرّسينَ المعَيَّنينَ، والمنتدبينَ من الدولِ البعيدةِ والمُجاورةِ، أنْ يأتيَ لِيَ بأيِّ اصطلاحٍ علميٍّ أو تكنولوجيٍّ ليس في اللغةِ العربيةِ ما لا يتطابقُ معه في الوصفِ والتعبيرِ، بل وأكثرَ بلاغةً من لغةِ المُختبرِ الذي نشأَ فيه ذلكَ المصطلحُ "المدلّلُ" الأصيلُ!. لِماذا نضعُ رؤوسَنا في الرمالِ ونَدَّعي أننا لا نرى شيئاً؟. هل ندخُلُ مرحلةَ ثقافةِ النعامِ في هذا الجزءِ من الزمنِ؟. هل ينقصُنا نَعامٌ لنشتريَ نَعاماً جديداً؟!.

مدرسٌ أجنبيٌّ (يابانيٌّ): لا أرى أيَّ عيبٍ من التدريس باللغةِ العربيةِ الجميلةِ لِمن يقدرُ على ذلكَ. مشكلتِيَ أنني لا أعرفُ العربيةَ، أحاولُ تعلُّمَها وبأسرعِ وقتٍ مُمكنٍ أثناءَ وجوديَ في المُجتمعِ العربيِّ. اللغةُ العربيةُ جَميلةٌ جداً كما تبدو لِيَ.
حمد: "دومو ها ري جاتوَ" (باليابانيةِ تعني شكراً لكم) يا أستاذُ "يوشي ميزو". شكراً جزيلاً لكَ وللثّدي الذي أرضعَكَ والزمانِ الذي أطلعَكَ.
طالبٌ: هذا إنسانٌ أنطقَ ضميرَهُ في الموضوعِ. اللغةُ العربيةُ شأنُها شأنُ اللغاتِ الأخرى إنْ لَمْ تكن أكثرَ رقيّاً وبكثيرٍ منها. هنالكَ جامعاتٌ تدرسُ بالفرنسيةِ والألمانيةِ واليونانيةِ والصّينيةِ واليوغسلافيةِ والاسبانيةِ والبرتغاليةِ والفارسيةِ والعبريةِ والمنغوليةِ. ....
مدرِّسةٌ مُخضرمةٌ: لِماذا تُعقّدونَ الأمورَ هكذا كثيراً؟. نَحْنُ نسيرُ حسبَ قراراتِ ولاةِ أمورنا. إذا ما قرّروا شيئاً فليكنْ!، لولا أنّهم يعرفونَ أنَّ ذلكَ في مصلحةِ الشعوبِ والأجيالِ لَما قرّروا "زلك" (ذلكَ)؛ أليسَ "كزلك" (كذلكَ) يا جَماعةَ الخير؟!.
طالبٌ: إنّي لأعجبُ من هذا الكلامِ الذي يأتي من حنجرةٍ ناعمةٍ!. عسى أنْ تكونَ معلوماتُكِ في علمِكِ أحسنَ حالاً من معلوماتِكِ في الشؤونِ العامةِ، وإلا فاللهُ خيرُ مُعَوّضٍ!.
حمد: كما يبدو ... ومع مرورِ الزمنِ وبعدَ فترةٍ وجيزةٍ من عمرِ الشعوبِ وإذا استمرَّ الحالُ على هذا المنوالِ سوف تصبحُ لغتُنا وثقافتُنا قطعاً أثريةً في متحفِ الحضاراتِ المنقرضةِ. سوفَ يسيطر الغرباءُ منهمْ ومنا على نبضِ قلوبِ الأجيالِ ويتحكمونَ في كلِّ الأمورِ كما يشاءونَ.
مدرسٌ قديمٌ (مهدّدٌ بإنْهاءِ خدمتهِ): لا تكونوا متشائمينَ إلى هذا القدْرِ اليائسِ. لن يستطيعوا القضاءَ على شيءٍ. هذه لغةُ سَماءٍ كما هي لغةُ أرضٍ. اذهبوا إلى دروسِكم وأعمالِكم واجتهدوا في العملِ فالطريقُ الوحيدُ أمامَكم هو الفكرُ والعملُ، الزمنُ هو الذي يَحكمُ على الجميعِ.
طالبٌ: لقد أتى إلى مسمعِيَ أنّكَ يا سيدَ حمد تعزفُ الموسيقى. أنا كذلكَ أحبُّ الموسيقى؛ عسى أنْ نلتقيَ في الوقتِ الذي تراهُ مناسباً لنقيمَ بعضَ السّهراتِ الجميلةِ على ما لذَّ وطابَ من النغمِ الأصيلِ، يا ليل يا عين!!.
طالبةٌ ("نور الهوى"): وأنا كذلكَ! ومن أولِ نظرةٍ إلى "مسيو" حمد توقعتُ أنْ يكونَ عندَهُ موهبةٌ فنيةٌ راقيةٌ. هل لِيَ أنْ أشتركَ معكمُ في إقامةِ بعضِ الحفلاتِ؟. أحبُّ أنْ أغنِّيَ لبعضِ المطربينَ والمطرباتِ.
حمد: على الرحبِ والسّعةِ. لكنني أودُّ أنْ أخبرَكُمْ أنّني أسكنُ الآنَ في غرفةٍ ملحقةٍ بِـ"اصطبلِ" للأبقارِ البلديةِ الصّغيرةِ. وإذا ما ... لو سَمحتُمْ ... تَمكّنَ أحدُكُمْ من العثورِ على سكنٍ لِيَ مناسبٍ أكثرَ سأكونُ مُمتَنّاً لكُمْ وسيكونُ عنديَ متسعٌ من الوقتِ والمكانِ للعَزفِ الموسيقيِّ. سوف أطلبُ من صديقِيَ أبوالز هو أنْ يرسلَ لِيَ العودَ من الوطنِ أو أنْ أشتريَ عوداً جديداً من المدينةِ.
طالبٌ: لقد توقّعتُ من نقاشِكَ مع المدرسينَ والطلابِ أنّكَ من الأعضاءِ المؤسسينَ لِحركةِ "الضباطِ أو الطلابِ الأحرار"، مثلُكَ مثلَ الزعيمِ الخالدِ!. الآنَ تقولُ أنّكَ تَعيشُ في اصطبلٍ مع الحيواناتِ. وهلْ تريدُ من المدرّسينَ والتلاميذِ أنْ يسيروا على خطاكَ؟!. يا رجلاً! اتقِ اللهَ في أهلِ العلمِ والعلماءِ!.

"نور الهوى": "فيني" "أعرف من هو أبوالزهو هذا الذي تتحدثُ عنهُ؟!. طالَما أنّهُ صديقُكَ لا بدَّ أنْ يكونَ شكلُهُ حلواً وكلامُهُ طيباً وفنّاناً "متلك" (مثلكَ).
حمد: سوف أبعثُ لهُ برسالةٍ وأوصيهِ أنْ يرسلَ ليَ صورةَ العائلةِ حيثُ لا توجدُ لهُ صورٌ شَمسيةٌ منفصلةٌ عن العائلةِ، هو وأمُّهُ، إذا ما أحببتِ المزيدَ من المعرفةِ عنْهُ وعن أحوالهِ!.
"نور الهوى": "مو بأصدي" (ليس بقصدِيَ)، يعني.... أحبُّ أنْ أسْمعَ صوتَ العزفِ والغناءِ.
حمد: عسى أنْ تُحَلَّ مشكلةُ السّكنِ في الوقتِ الحاضر. ليستْ في الحقيقةِ مشكلةً كبيرةً ذلكَ لأنني أحبُّ الحيواناتِ ولكن النظيفةَ منهَا!؛ غير ذلكَ، تبدأُ أسرابُ البعوضِ والذبابِ بالتوافدِ على المكانِ ودون إذنٍ!.

تدريسٌ عاقرٌ

أكثرُ الكلماتِ دِقةً لوصفِ الفصلِ الأولِ للدراسةِ في جامعةِ "البايْروطاطْ" بحقٍّ وحقيقٍ هي كلمةُ "مهزلةٌ". مدرّسونَ لا يتقنونَ لا اللغةَ العربيةَ ولا الأجنبيةَ، لا كتابةً ولا قراءةً ولا مُحادثةً لكلٍّ منهما، يُطلبُ منهم التعاملُ الفكريُّ مع نُخبةٍ مُختارةٍ مُميّزةٍ من العقولِ والعقلياتِ من جَميعِ أنْحاءِ الدولةِ. إلا ما رحم ربُّكَ من القلةِ من القليلِ من المدرِّسينَ، الغالبيةُ السّاحقةُ مِمّن تبقّى لا يتقنونَ التفكيرَ ولا العملَ بهِ طبعاً!؛ جُلُّ هَمِّهم الظهورُ والمظاهرُ والمعاشُ آخرَ الشهرِ والتلاهي بالتناكحِ والتناسلِ!. يَختلفونَ ويتخلّفونَ في كلِّ شيءٍ إلا في شيءٍ واحدٍ جُمِّعوا تَحْتَ لوائهِ ألا وهو تدميرُ صورةِ اللغةِ العربيةِ في الداخلِ تمهيداً، كما كان يبدو، لإلغائِها من قائمةِ لغاتِ العالَمِ الحديةِ بعد تعميمِ أيديولوجيةِ التدريسِ بلغةٍ غيرِ العربيةِ. لَمْ تتعدَّ طرقُ التدريسِ في الجامعةِ نَجاعَةَ تلكَ الطرقِ التي كانت تُستخدمُ في التلقينِ في الكتاتيبِ البائدةِ. اضطُرَّ حمد ذاتَ مرّةٍ للتصدّي لِمدرّسِ مادةِ الفيزياءِ حيثُ كانَ حمد جالساً في مؤخرةِ مدرجٍ كبيرٍ فيهِ ما لا يقلُّ عن مئتينِ (٢٠٠) من الطلابِ والطالباتِ. كان المدرّسُ يتكلّمُ مزيجاً مُملّاً من لكنةِ المدرسِ المَحلّيةِ ولغةِ الكتابِ العلميةِ وبعضِ "الأكليشيهاتِ" (القوالبِ اللغويةِ) المستقاةِ من هنا وهناكَ مع الزمنِ مثلَ سِبْحَةِ الدرويشِ!.
حمد: لو سَمحْتَ أيُّها الدكتورُ!، إنَّ هذه المعادلاتِ الرياضيةِ المرسومةَ على السّبورةِ (اللوحِ الأسودِ) عن المَجالِ المغناطيسيِّ والعواملِ الرياضيةِ التي تؤثّرُ فيهِ غيرُ واضحةٍ من الأساسِ جُملةً وتفصيلاً. (كانت هنالكَ معادلةٌ رياضيةٌ مشتقةٌ وتحتوي رموزاً رياضيةً وضعَها المدرسُ على السّبورةِ). هل أنتَ فاهمٌ لِما تتحدثُ عنهُ؟!. الطلابُ في وادٍ وأنت في صحراءَ أخرى أو العكسُ.

المدرّسُ: في المعادلةِ الرياضيةِ، "المرسومةِ" على السّبورةِ، هنالكَ فرقٌ بينَ حرفِ ال"B بي" باللغاتِ الإفرنجيةِ و حرفِ ال"β بيتا" باللغةِ اليونانيةِ؛ يوجدُ للأخيرِ ذنبٌ طويلٌ ومعقوفٌ قليلاً ... إذا ما أحببتَ!.
حمد (بصوتٍ عالٍ): هذا ليس بالسّؤالِ من عندِيَ، كما أنّهُ لا يُمكنُ أنْ يكونَ ما تقولُهُ هو الجوابُ!. أريدُ أنْ أعرفَ فيما لو أنت واعٍ أو مدركٌ لِما تقولُهُ. هل تعرفُ أنَّ الطلابَ لا يتبعونَ ما تقولُهُ في الهواءِ وما ترْسمهُ مِمّا تسمّيهِ معادلاتٍ على السّبورةِ!؟. والشاهدُ على كلامِيَ هو أنَّ نتيجةَ آخرِ امتحانٍ هي أقلَّ من ١٥% في نسبةِ النجاح، مُجرّدَ النجاح؛ ولعلمِكَ فلقد كنتُ أحدَ الناجحيّنَ!.
المدرّسُ: ولِماذا ترفعُ صوتَكَ عليَّ أمامَ التلاميذِ. اخرجْ من المدرجِ فوراً وقابلنِ خارجَ الصّفِّ. ليس عندِيَ وقتٌ لِمثلِ هذا النقاش.
حمد: إنَّ الطريقةَ التي تدرّسُ بِها تَجعلُني أرفعُ صوتِيَ ورأسِيَ وعينيَّ وأذنِيَّ، علّني أفهمُ شيئاً وأيَّ شيءٍ مِمّا تقولُهُ. هل أنت تفهمُ هذه الطلاسمَ المرسومةَ؟!. إنّكَ لا تعرفُ شيئاً عن المَجالِ المغناطيسيِّ، فقط تعرفُ الحرفَ "B بي" بالإنجليزيةِ والحرفَ "β بيتا" باليونانيةِ، والسّلامُ ختامٌ.
انتهت المُحاضرةُ واجتمعَ نفرٌ من الطلابِ مع المدرسِ لِمناقشةِ ما حدثَ.
المدرسُ "د. عبدلهم": ما اسْمُكَ ومن أين أنت ومن هو وليُّ أمرك؟!. ....
حمد: لِماذا كلُّ هذهِ السّلسلةِ من المطالبِ؟!. اسْمِيَ حمد، ووالدِيَ اسْمُهُ أبو جاسر ووليُّ أمرِيَ اسْمُهُ أبوالزهو ....
طالبٌ زميلٌ: وهل لكَ وليُّ أمرٍ يَختلفُ عن والدِكَ؟!.
حمد: نعمْ، وذلكَ بسببِ تلاهي الوالدِ أبو جاسر المستمر بالتكاثرِ والإنْجابِ والزراعةِ وانشغالهِ بالتصدي المتواصلِ لاتفاقيةِ "سايكسْ-بيكوَ" وما يَتبعُها. لِهذا السّببِ وذاكَ لَمْ يكن لديهِ أيُّ وقتٍ لتربيةِ أولادهِ والعنايةِ بِهم تَجعلُهُ قادراً حقاً أنْ يتحملَ مسؤوليةً تُناطُ عادةً بوليِّ أمرٍ أو ما شابهَ ذلكَ من مسؤولياتٍ!.
طالبٌ: لكن يا صديقِيَ! أعرفُ أنَّ التصدِّيَ لاتفاقيةِ "سايكسْ-بيكو" هو من مسئولياتِ الجامعةِ العربيةِ!. أمّا بالنسبةِ للأمورِ الأخرى فإن والدِيَ لديهِ نفسُ المشاكلِ السّابقةِ التي عند والدِكَ. لكنّهُ عندما يُطلبُ مني اسمُ وليِّ الأمرِ، أكتبُ اسْمَهُ ولا أحدَ سواهُ.
طالبٌ آخر: كلُّنا هكذا، ولكن يبدو لِيَ أنّكَ مَحظوظٌ في إيجادِ من يَحلَّ مَحلَّ والدِكَ خاصةً في المعاملاتِ الرسْميةِ!.
حمد: رجوعاً إلى موضوعِ الأستاذِ المدرسِ المُحترمِ!. أتَحدّى إذا ما كان هنالكَ أيُّ شخصٍ يَجدُ متعةً من أي نوعٍ في سلسلةِ مَحاضراتٍ لكَ ليس لَها طعمٌ ولا لونٌ ولا رائحةٌ مستحبةٌ. نَحْنُ في حالَةِ انعدامِ وزنٍ فكريٍّ ومَحرومينَ حتى من نعمةِ التخيلِ والخيالِ ناهيكَ عن تكوينِ أيِّ حلمٍ متناسقٍ ومتكاملٍ مع بعضِهِ في المنامِ. هل لا يوجدُ عندكمُ ضميرٌ؟!. هل تتعلمُ اللغةَ لأولِ مرةٍ في حياتِكَ عن طريقِ مُمارسةِ تدريسِ العلمِ مع الطلبةِ المبتدئينَ في كلِّ شيءٍ؟!.
الدكتورُ "عبدلهم": هكذا طلبَ منا وهكذا نُنفذُ. هل تريدُني أنْ أخسرَ تعاقدِيَ مع الجامعةِ من أجلِ أنْ تفهمَ وأيٍّ مِمّن معكَ الدرسَ؟!.
كانت مُحاضراتُ "علمِ الحياةِ" لا تقلُّ عبثيةً وهزليةً عنها في الفيزياءِ. الدكتورُ "بوثور" عبارةً عن نصفِ قلعةٍ! متحركةٍ من اللحمِ المتراكمِ. لا يتقنُ اللغةَ

الأجنبيةَ التي كما يبدو تعلّمَها من القاموس فقط. لقد أحدثَ تلفاً "لا-رجعياً" في أمْخاخ الطلبةِ في تلكَ السّنةِ. هل لأحدٍ أنْ يتصورَ مساقاً في علم الحياةِ يفتقرُ إلى مُختبرٍ يتمتعُ بالحدِّ الأدنى من التطبيق!؟. العبثيةُ والهزليةُ أيضاً تنسحبان على مساقِ الرياضياتِ مع أحدِ المدرسينَ المتخرجينَ من جامعةَ "أتاتورك"، الدكتورُ "أبوحومرة الجهوري". يدرّسُ الدكتورُ "أبوحومرة" الرياضياتِ بلغةٍ أوروبيةٍ على الطريقةِ "الأناضوليةِ"!. مزيجٌ من ألوانِ العذابِ النفسيِّ! منصبٌّ على عقولِ المساكينِ. كذلكَ الحالُ نفسُهُ مع الدكتور "جرّاك" الذي كان قد استُجْلِبَ في عقدٍ خاصٍّ لتدريسِ مادةِ الكيمياءِ. يتجاهلُ الدكتورُ "جرّاك" الحسَّ الإنسانيَّ والوطنيَّ والكرامةَ الأخلاقيةَ في سبيلِ بقائهِ في عملهِ ووظيفتهِ!؛ عصارةٌ مركزةٌ من التخلفِ الحضاريِّ والفكريِّ!. دخل الدكتورُ "جرّاك" مرّةً في نقاشٍ حادٍّ مع حمد داخلَ غرفةِ الصّفِّ.

حمد: ما الذي يَجعلُكَ تتمسكُ بالتكلم فقط بلغةٍ غيرِ العربيةِ، بالرغمِ من أنَّ عينيْكَ وأذنيْكَ وأنفَكَ ووجنتيْكَ وصلعةَ رأسِكَ ورقبتَكَ تبدو كلُّها "يعربيةً" من على بعدِ خَمسَ عشرةَ (١٥) دقيقةً بالقطارِ السّريعِ؟!.

الدكتورُ "جراّك": عليكمُ أنْ تعوّدوا أنفسَكُمْ على التكلمِ بها لكي يسهلَ عليكم التكلّمَ بها بطلاقةٍ مثلِيَ. لقد مكثتُ حواليْ عشرينَ (٢٠) سنةً في بلادِ الأجانبِ حتى قدرتُ على أنْ أصِلَ إلى هذا المستوى من النطقِ والتكلّمِ بها!!..

حمد: يا رجلاً! نتكلّمُ الأجنبيةَ أكثرَ لباقةً منكَ، ولكنّنا جئنا إلى هنا لنتعلمَ العِلمَ كما قالوا لنا. نريدُ أنْ نعرفَ هل أنت مؤهلٌ لكي تعطيَ عِلْماً. عشرون (٢٠) سنةً وأكثرَ أنتجت لغةً في معظمِها مستقاةٌ من كلامِ شوارعَ وبعضِ القوالبِ اللغويةِ المتكررةِ في وسائلِ الإعلامِ العامةِ، كما يبدو.

الدكتورُ "جراّك": ماذا تقصدُ من إهانتِيَ هكذا أمامَ الطلابِ؟!. أحْملُ معِيَ في جَيبِيَ دكتوراه في الكيمياءِ، وعندِيَ خبرةٌ في التدريسِ لا تقلُّ عن خَمسةَ عشرةَ سنةً، وتأتي لتقولَ لِيَ بأنني فاشلٌ وعاقرٌ في التدريسِ والتعليمِ العلميِّ والعملِ بهِ، إنَّها المرةُ الأولى التي أواجهُ فيها هكذا طريقةً في النقاشِ!.

حمد: لا يهمُّني إذا كنتَ "الزيرَ سالمَ" زمانِكَ في الماضي. حالياً!، هل قمتَ بعملِ أيّةِ تَجربةٍ أو رسمِ أيةِ صورةٍ واقعيةٍ لِما تتحدثُ عنهُ؟!. ماذا نستفيدُ من عبقريتِكَ قبلَ سنينٍ وأنتَ الآنَ لا تقدّمُ شيئاً يزيدُ كثيراً عن "هديلِ" الحمامِ للزغاليلِ الجائعةِ؟!.

طالبٌ: ..... هديلُ الحمام! والزغاليلُ الجائعةُ .... تشبيهٌ بليغٌ...

الدكتورُ "جراّك": ما الّذي تودُّ معرفتَهُ بالضبطِ حتى نتمكّنَ من تلبيةِ متطلباتِكَ وتكونَ راضياً علينا؟. لغةُ التعليمِ هذه ليست بيدِيَ ولا بيدِكَ. المطلوبُ منا أنْ لا نصنعَ حتى أخطاءً لغويةً إلا بلغةٍ أجنبيةٍ. أمّا المُختبرُ عندَنا!، هل تريدُني أنْ أجهّزَ لك مُختبراً من معاشِيَ؟ الذي لا يكفي مصروفَ العائلةِ عندِيَ حتى اليومَ الخامسِ والعشرينَ (٢٥) من الشهرِ!. المادةُ المقررةُ مقررةٌ من قبلِ أناسٍ لا يعرفونَ عنكَ وعن واقعِ حياتِكَ أيَّ شيءٍ، وليس لَهُمْ أيُّ هدفٍ أو خطةٍ تساهمُ حقيقةً في تطويرِ أمثالِكَ. أنا وغيرِيَ من المدرّسينَ "طراطيرٌ" وحالُنا مثلُ الغربانِ التي تظلُّ تنعقُ على بعضِها!.

في تلكَ السّنةِ زارت الجامعةَ مَجموعةٌ من الأكاديميّينَ التابعينَ لإحدى المؤسساتِ الألْمانيةِ. عَلِمَ حمد وبعضُ زملائِهِ والمقربيَن بهِ بالخبرِ وذهبوا لمقابلتِهِمْ. وفي عرضِ الطريقِ الواصلِ بين بنايتيْنِ تابعتيْنِ لكليةِ العلومِ الطبيعيةِ جرى حديثٌ.....

الخبيرُ الألْمانيُّ (الهير باور): كيف تنظرونَ إلى كليتِكُمْ؟. هل أنتم مقتنعونَ بِما تتعلمونَ بهِ وتشعرونَ بالراحةِ والقناعةِ والرضا في هذا المَجالِ؟.

طالبٌ: بصراحةٍ! لا يوجدُ شيءٌ من هذا القبيلِ بِما يدعو للرضا حتى عن الحدِّ الأدنى مِمّا يصبو إليهِ الطالبُ، قوياً كان أم ضعيفاً....

حمد: بالنسبةِ للمدرّسينَ!، يصلحونَ في معظمِهِمْ فقط لبرامجِ مَحوِ الأميةِ بعدَ تزويدِهم بالمعداتِ اللازمةِ. وبالنسبةِ للمُختبراتِ المصاحبةِ لِمساقاتِ المواد، شتّانَ وشتّانَ بين المادةِ النظريةِ وبين ما يَجري فيما يسمى بالمَعاملِ هنا، كلٌّ يَجري في قارةٍ تبعدُ عن الأخرى دهراً من الزمنِ.

"الهير باور": هل لكم أنْ تعطونا أمثلةً حيةً على ذلكَ؟.

حمد: طبعاً، لنتوجه إلى مُختبرِ السّنةِ الأولى. في مساقِ مادةِ الميكانيكا، على سبيلِ المثالِ، ندرُسُ "قوانينَ نيوتنَ" في الحركةِ، أساسَ علمِ الميكانيكا الكلاسيكيةِ. هل ترونَ أيّةَ تَجربةٍ هنا تختصُّ بالحركةِ أو السّكونِ أو الأجسامِ السّاقطةِ أو التي على وشكِ السّقوطِ؟!. هل ترونَ أيَّ زنبركاتٍ أو أيّةَ قوى ثابتةٍ أو متغيرةٍ؟!.

"الهير باور": هذا الأمرُ شديدُ السّخافةِ، هنالكَ آلافُ التجاربِ التي يُمكنُ تصميمُها وإجراءُها في المُختبرِ على قوانينِ نيوتن في الحركةِ.

حمد: ويمكنُ توفيرُ هذه التجاربِ والأجهزةِ المطلوبةِ من خلالِ تعاونٍ متواضعٍ، لو تَمَّ إيجادَهُ!، بين حدّادٍ ونجّارٍ ومشرفِ مُختبرٍ يَحملُ دبلوماً فقط!.

طالبٌ: لا يكلّفُ المدرسُ نفسَهُ بتجهيزِ ولو تَجربةٍ واحدةٍ فقط، لا باللغةِ العربيةِ ولا باللغةِ الأجنبيةِ!، ليكونَ قدوةً للتلاميذِ.

حمد (في مُختبرِ الكهرباءِ والمغناطيسيةِ!):... هل لكم أنْ تروا مغناطيساً واحداً غيرَ ذلكَ الذي على شكلِ "حذاءِ الفرسِ" والذي أكلَهُ الصّدأ. هل هنالكَ من مولدِ كهرباءٍ ساكنةٍ غيرَ تلكَ الآلةِ البالغةِ (آلةُ ويمزهيرست لتوليدِ الكهرباءِ السّاكنةِ يدوياً) من العمرِ عهودَ السّنين، وربّما أتت من مُخلّفاتِ الحربِ الأهليةِ "الإغريقيةِ"! .... هل لكمُ أنْ تروا هنا تَجربةً عن "الموجاتِ" كالتي هي موجودةٌ في مادةِ الكتبِ؟.

"الهير باور": كلُّ شيءٍ في الحياةِ يتموّجُ، ولولا علمُ الموجاتِ لَما حصلَ تقدمٌ علميٌّ في مُختلفِ الميادينِ العلميةِ كالذي يحدثُ في عالَمِنا!.

حمد: كلُّ شيءٍ يتموجُ إلاّ عقولُ القسمِ الأكبرِ من المدرّسينَ هنا!.

"الهير باور": لنحاولْ أنْ نكونَ إيجابيّينَ وواقعيينَ!. ما الذي تظنونَ أنّهُ يلزمُكُمْ في هذه المُختبراتِ؟.

حمد: أولاً وقبلَ كلِّ شيءٍ نحتاجُ إلى مدرسينَ عندهُمْ عقولٌ، ثانياً أنْ يكونَ عندَهُمْ ضميرٌ وإرادةٌ، ثالثاً أنْ يكونَ لديهِمْ حافزٌ للعملِ!.

"الهير باور": أقصدُ التجهيزاتِ. نَحْنُ مندوبون من مَجموعةِ مؤسساتٍ ألمانيةٍ ترغبُ بتقديمِ بعضِ المساعداتِ الممكنةِ في النواحي التعليميةِ!.

تجوَّلَ الطلابُ مع الخبراءِ في المُختبراتِ المُختلفةِ وقاعاتِ المُحاضراتِ وبعضِ مرافقِ نشاطاتِ الطلبةِ. كانت جَميعاً أشبهَ بفراغاتٍ كتبتْ عليها عناوينُ أكبرُ

مِمّا هي عليه في الواقع وبكثير!. تنتظرُ تلكَ الفراغاتُ المعوناتِ الخارجيةَ على مرأىً ومسمعٍ من الإداريّينَ والمدرسينَ والطلبةِ. بدأت الجولةُ ببعضِ الأملِ في الخبراءِ الضيوفِ وانتهت بخيبةِ الأملِ واليأس.
طالبٌ: ما رأيُكَ يا حمد!، هل تفكرُ بالانتقالِ إلى جامعةٍ أخرى، إلى بلدٍ آخر، أنْ تعودَ إلى القريةِ التي بُعثْتَ منها أيْ التي أطلعتْكَ؟.
حمد: لقد مضى وقتٌ طويلٌ علينا هنا. بالنسبةِ لِيَ فلقد استنزفْتُ الكثيرَ من مدخراتِ الأهلِ المتواضعةِ. لا أحبُّ أنْ يراني أهلِيَ عائداً إليهِمْ فاشلاً من حيثُ خرجتُ، ويعزُّ عليَّ منظريَ أمامَ أبوالزهو الذي عملَ ويعملُ ليلَ نهارَ لِمساعدتِيَ في بناءِ مستقبلِيَ. بصراحةٍ! الوضعُ يبقى أحسنَ من لا شيءَ.
طالبٌ آخَرُ: سوف توقنونَ في نهايةِ الأمر أنَّ نصفَ الطريقِ خيرٌ من الذهابِ إلى النهايةِ المؤسفةِ. لكن لا يوجدُ بديلٌ عندَنا، كلُّنا في حالةٍ يرثى لَها من البؤسِ والشقاءِ وسوءِ الحظ. لقد سمعتُ من أصدقاءَ لِيَ ذهبوا إلى الخارجِ أنْ لا تعقيداتٍ حياتيةٍ ولا علميةٍ عندَهُمْ كالتي نواجهُها هنا.
حمد: إذا ما فكَّرنا قليلاً في الأمرِ يُمكننا أنْ نُحرزَ نوعاً من التقدم العلميِّ فيما لو تعاونَ بعضُ الطلبةِ (نحن مثلاً) على بناءِ تَجاربَ علميةٍ في البيتِ وعلى قدرِ استطاعةِ كلٍّ منّا.
زميلٌ: كنتَ تشتكي من أنّكَ تسكنُ في غرفةٍ تابعةٍ لِحظيرةِ أغنامٍ متواضعةٍ؛ الآنَ تتحدثُ عن تحويلِ الغرفةِ هذهِ إلى مُختبرٍ علميٍّ؟!.
حمد: ها ها ها.... لقد وجدتُ غرفةً في مسكنٍ للطلبةِ يا مغفّلاً!؛ غرفةٌ كاملةٌ وتتسعُ لسريريْنِ استأجرتُها وحيداً بسعرٍ أرخصَ قليلاً من مَجموعِ السّريريْنِ كلٍّ على انفرادٍ. لكنَّ المكانَ لا يتسعُ لعملِ تَجاربَ مَخبريةٍ إذا ما فتحْتَ قريحتَكَ من أجلِ ذلكَ!.
زميلٌ: هذا يفسرُ لِماذا الأصحابُ دائماً يسألونَ عنكَ!. وعلى فكرةٍ!، هل وصلَ العودُ من الأهلِ أو هل اشتريتَ عوداً جديداً لكَ من هنا؟!.
طالبٌ: هنالكَ بعضُ التجاربِ التي من الممكنِ أنْ نقومَ بعملِها حتى في الحمّام. مثلاً! مُختبرُ والدِ "أرخميدس" تَحوّلَ إلى مُختبرٍ قبلَ أنْ ينتقلَ إلى ابنهِ حيثُ اكتشفَ الأخيرُ قانونَ الأجسامِ الطافيةِ!.
حمد: لكنَّ "دورةَ المياهِ" عندَنا لا تَحتوي فيها حوضَ تغطيسٍ واحدٍ. على السّاكنِ أنْ يستحمَّ واقفاً على طولهِ طوالَ الاستحمامِ ومرّةً واحدةً في الأسبوعِ ولدقائقَ معدودةٍ. هنالكَ في حمّامِ "أرخميدس" ماءٌ أكثرُ من الحمّامِ المخصصِ لمسكنِ الطلبةِ بأكملهِ. لكن لا يأسَ مع الحياةِ ولا حياةَ بدون عملٍ ولا عملَ بدون فكرٍ. ليس مُجدياً أنْ نظلَّ ساكتينَ بانتظارِ مساعداتِ اليونيسكو و"الأعدقاء" الكثيريّنَ هنا وهناك. الإنسانُ الذي ليس لديهِ مالٌ لديهِ عقلٌ، والعقلُ خيرٌ من المالِ وبكثيرٍ.
طالبٌ: لا لا لا.. المالُ أفضلُ. قلْ لِيَ إذا ما فكرتَ ببناءِ عمارةٍ من عشرِ طوابقَ؛ فكِّرْ ليلَ نهارَ وضعْ كلَّ التصميماتِ المقترحةِ لتجدَ أنّهُ بدونِ مالٍ لن تقومَ لَها قائمةٌ. انظرْ المدينةَ ببناياتِها المرتفعةِ بسببِ رأسِ المالِ المتجمعِ لدى المالكينَ!.
حمد: نقدرُ أنْ نبنيَ عمارةً أكبرَ من تلكَ التي تتحدثُ عنها وبدونِ رأسْمالٍ كالذي تفكرُ بهِ. تبدأ ببناءِ الأساسِ وبرأسْمالٍ بسيطٍ جداً ومن ثَمَّ ومع الزمنِ تبني طابقاً طابقاً حسبَ الحاجةِ إلى ذلكَ والإمكانيةِ المتاحةِ. من الممكنِ أنْ تصلَ في الارتفاعِ

إلى أكثرَ من مائة وخَمسينَ (١٥٠) طابقاً إذا ما كان عددُ الطوابقِ هو ما يشغلُ بالَكَ وضميرَكَ.
طالبٌ: إذا ما كان الأمرُ كذلكَ، فلِماذا لا نرى شيئاً من هذا القبيلِ يَجري هنا؟. لِماذا حالةُ البؤسِ والفقرِ والتواكليةِ على الآخرينَ من الخارجِ هي التي تعمُّ البلادَ؟!.
طالب آخر: هذا أمرٌ ثانٍ مُختلفٌ؛ الأسبابُ عديدةٌ لحالتِنا المستعصيةِ. لا قوّةَ فينا كمَجموعٍ، مثلُنا مثلَ حبّاتِ الرملِ حيثُ كلُّ حبةِ رملٍ مفصولةٌ عن الأخرى ولا تتعاونُ مع الأخرى.
حمد: ما يهمُّنا كطلابٍ وكلّيةٍ وجامعةٍ هو كيفَ نتخلصُ من هذا المأزقِ. كلُّنا قادمونَ هنا للتعلّمِ والتقدّمِ العلميِّ والتطوّرِ. نبدو مثلَ السّلاحفِ البطيئةِ الّتي تُحاولُ أنْ تتخطّى الصّخورَ العاليةَ الصّلدةَ؛ لن تقدرَ على ذلكَ، لذا فإن عليها النفاذُ خلالَ أيةِ فتحاتٍ ومساربَ مُحتملةٍ.
"نور الهوى": أحبُّ أنْ "نتسلقَ ونتسربَ" إلى حيثُ العودُ مع بعضِنا ونسمعَ بعضَ "الموسيكي" (الموسيقى) الحلوةَ.
زميلٌ: الليلةُ سهرةُ نِهايةِ الأسبوعِ مع الأصابعِ الذهبيةِ وصوتِ الطربِ السّاحرِ على أغانٍ للمطربةِ "نور الهُدى".
حمدٌ: علينا أنْ نذهبَ إلى السّوقِ لنشتريَ بعضَ البضائعِ اللازمةِ للسهرةِ.
"نور الهوى": أنا "علاي الشوكولاه والبائي اعلايكم" (عليَّ بالشوكولاته والباقي عليكم).
حمد (في السّهرةِ): دن دن دن دا دن دن...... يا جارةَ الوادي طربتُ وعادَني ما يشبهُ الأحلامَ من ذكراكِ، لا للا للا لا لا ...... ولقد مررتُ على الرياضِ بربوةٍ .... غنّاءَ أكنتُ حيالَها ألقاكِ ... لا للا للا لا لا ..... والاقاد مرررررررت على الرياااااض ... لا للا للا لا لا .. بربوةٍ ... غنّاااااء ... أكنتُ حيالاااها ... ألقاااااك....
"نور الهوى": أنا نِفسي بأغنية للشحرورة، الشحرورة "ما غايرا" (صباح). بَدّي اغنيلا (أريد أنْ أغني لها)؛ .... يا رب تشتي عرسان تا يلحأني (يلحق بي) طرطوشة (قليلا من الماء) .... تفرح إمي والجيران وخبّي الأسمر برموشي؛ خبّي الأسمر برموشي.
حمد: آه! هذه سهلةٌ؛ مي بيمول.. صول.. فا... صول.. مي بيمول.. فا.. مي بيمول .....
إلياس: موال موال موال!.
"نور الهوى": آوف آوف آوف
الحضور: أووووف ....
"نور الهوى": ... قلبي وقع بالحب مرة واهتدى .... وما بقى بعيدها طول المدى .... جربت حظي بالهوى وذقت العذاب ... وما طلع لِيَ حظ يمّا من حدى.
إلياس: ليكِ والله "أطعتيلي ألبي علايك" (قطعت لِيَ قلبي "حزناً" عليك).
"جاكوبيانٍ": باللهِ دورك أنت الياس، بالله على "ويلي لو يدرون" للفنان وديع.
حمد: لحظةً، دقيقةً، آه؛ ري ري ري ري لا صول لا صول صول .....
إلياس: .... وحياتك وحياة عيوني ما ارضى بدالك، ما بفوتك لو قصّوا عنيقي بس طوّل بالك، لا تهدّي يا دمعة عيني ولا تنامي يا جفون، أهلي... أهلي ما يرضون....

"نور الهوى": لقد قلتَ لِيَ ووعدتَني يا حمد أنّكَ ستجلبُ لِيَ وستريَني صورةَ العائلةِ وخاصةً صورةَ أبوالزهو!؟.
حمد: نعم، وهذه الصّورةُ وصلتني منذُ أكثرَ من أسبوعين خَلَيا.
"نور الهوى": آه "حلو كتير شِكل" أبوالزهو، لكنها شَوي (قليلاً) الصّورةُ غيرُ واضحةٍ!.
حمد: هاتِ الصّورةَ قليلاً لأنّها تشبهُ صورةَ الأشعةِ في المُختبرِ، تَحتاجُ إلى بعضِ الشرحِ من خبيرٍ!. في الصّورةِ هنا أخِيَ سرحانٍ ووالدِيَ أبو جاسرٍ ووالدتِيَ أم جاسرٍ وهذا أبوالزّهوِ وأمّهُ "راكلي". وهذا أنا أقفُ بجانبِ أبوالزهو في أيامِ العزِّ الخوالي. هؤلاءِ بقيةُ الإخوةِ والأخواتِ. كلُّنا عائلةٌ واحدةٌ متماسكةٌ حولَ بعَضِها وحولَ القلبيْنِ النابضيْنِ لَها المتمثّليْنِ بأبوالزهو وأمّهِ "راكلي".
"نور الهوى": "أزرفَ عايلة بشوفا في حياتي" (أكثرُ عائلةٍ ظريفةٍ أراها في حياتِيَ!).

حساباتُ الحقلِ والبيدرِ

انتهتْ إحدى عُتاةِ السّنينِ عجافاً وكبتاً وطمْساً للفكرِ في تاريخِ التعليمِ الأكاديميِّ. اللهم إلا من بعضِ الكتبِ المستوردةِ خياليةِ الأثمانِ مَن الخارجِ، مزدانةً بغلافٍ جاذبٍ للانتباهِ مُحتوياً ورقاً عاليَ الجودةِ وجيدَ الصّقلِ؛ غير ذلكَ فحدِّث ولا حَرَجَ. يُمكنُ لشاهدِ العيانِ الذي حضرَ تلكَ السّنةَ أنْ يضيفَ ما يشاءُ من الانتقادِ والنعوتِ والنـواقصِ ولا خوفَ أو وجلَ لأن يُنعتَ المـرءُ بالتهويـلِ أو المبالغـةِ أو الإجحافِ بحقِّ أيٍّ مِمّن حضرَ تلكَ السّنةَ الدراسيةَ الغايةَ في شدةِ البؤسِ والفظاعةِ. يُمكن إيجازُ الوصفِ ببضعِ مفرداتٍ من مثلِ "مَجزرةٍ ثقافيةٍ فكريةٍ حسيةٍ ومعنويةٍ غيرِ منظمةٍ جيداً بعدُ".
كانَ على حمد أنْ يعودَ إلى مسقطِ رأسهِ ليريحَ رأسَهُ على الأقلّ من سنةٍ دراسيةٍ لَمْ يشعرْ فيها البتّةَ بالرضا والقناعةِ عن أي شيءٍ رآهُ. في الطريقِ إلى

مسقطِ رأسهِ دارَ حديثٌ بينَهُ وبينَ بقيةِ ركّابِ سياراتِ الأجرةِ التي كان يستقلُّها وإياهُمْ....
مهندسٌ: أعملُ لدى شركةٍ أجنبيةٍ لاستخراجِ النفطِ في عمقِ الصّحراءِ. كلَّ شهرينِ أو ثلاثةِ أشهرٍ أرى زوجتِيَ وأولادِيَ الصّغارَ مرّةً واحدةً. لا بأسَ بمعاشِيَ، لكنَّ القيودَ المفروضةَ على تحويلِ العملةِ للأهلِ تضيفُ تعقيداً وسوءاً على الأمورِ.
حمد: انتهيتُ من أوّلِ سنةٍ دراسيةٍ بنجاحٍ. آملُ بالعودةِ إلى الكليةِ بعدَ حواليْ الأسبوعيْنِ للانتظامِ في مساقِ مادةٍ يعطى في فصلِ الصّيفِ. ليستْ الأمورُ كما توقّعتُ في بدايةِ الالتحاقِ بالجامعةِ من الناحيةِ الأكاديميةِ. أتحمّلُ أو بتعبيرٍ أدقَّ، يتحمّلُ أهلِيَ كلَّ المصاريفِ والتكاليفِ العاديةِ والطارئةِ! من رسومٍ ومصاريفِ أكلٍ وسكنٍ وحياةٍ ورعايةٍ طبيةٍ إنْ احتاجَ الأمرُ، لا سَمحَ اللهُ!.
راكبٌ مسافرٌ: هنالكَ الكثيرُ من الجامعاتِ لا يدفعُ فيها الطالبُ فلساً واحداً على الرسومِ والسّكنِ وحتى الأكلِ والشربِ. هنالكَ وسائلُ المواصلاتِ متيسرةٌ ووسائلُ الترفيهِ والاستجمامِ الكثيرةُ الأخرى متوفرةٌ كذلكَ.
حمد: لا شيءَ مِمّا ذُكِر أعلاهُ كان متوفراً لدينا. على العكسِ من ذلكَ، تُركنا فريسةً سهلةً لأصحابِ الأطماعِ الرأسْماليةِ من تُجّارٍ ومُلاّكِ بيوتٍ وسياراتِ نقْلٍ ومطاعمَ ....
المهندسُ: عندما كنتُ طالباً، لَمْ أدفعْ فلساً واحداً على الدراسةِ. كانت الموادُ العلميةُ المعطاةُ "في القمةِ" من حيثُ النوعيةِ والمستوى والكميةِ. ماذا عن الدراسةِ عندكُمُ؟.
حمد: أولاً الدراسةُ كلُّها أصبحتْ بغيرِ العربيةِ، تَمَّ "تغريبُ" أو "غربنةُ" أو "فرنَجَةُ" التعليم، إنْ صحَّ أيٌّ من هذه التعبيراتِ، في سنتهِ الأولى. تَمَّ استنساخُ نظامِ تدريسٍ منَ جامعةٍ بعيدةٍ جغرافياً وحضارياً عن المكانِ هنا بعدَ تبنّيهِ كلياً على علّتهِ وتشوّهاتهِ الخَلقيةِ.
مسافرٌ: هل يعني ذلكَ أنَّكمْ لا تتحدثونَ العربيةَ في التعليم؟!.
حمد: يُحاولُ المدرّسونَ جهدَ أنفسِهمْ ونُحاولُ معهُمْ ومنْ ورائِهمْ!. يقولونَ أنّهُ إذا ما أنصتَّ لفترةٍ طويلةٍ إلى تكرارِ شيءٍ!، فإنّهُ ومعَ الزمنِ وإنْ طالَ، لا بدَّ أنْ تقدرَ على تَجميعِ لسانِكَ وبعضٍ من دَماغِكَ لتصبحَ قادراً على النطقِ باللغةِ الجديدةِ .....
امرأةٌ مسافرةٌ: واللهِ شيءٌ عجيبٌ، هل لِتفكّرَ جيداً يَجبُ عليكَ أنْ تغيِّرَ لغتَكَ؟!. من هو ذلكَ "الأحْمقُ من هبَنّقةَ" الذي تبنى مثْلَ هذه الأفكارِ البائسةِ؟!. هنالكَ علماءُ صينيّونَ ويابانيّونَ وفُرْسٌ وهنودٌ وروسٌ، كلٌّ يفكرُ بلغَتهِ. اللغةُ وسيلةٌ لتوزيعِ الفكرِ والإبداعِ بينَ الناسِ. هل حتى يتعلّمَ المرءُ شيئاً من العلمِ أو التكنولوجية عليهِ التخلّيَ عن لغتهِ الأصليةِ؟!. هذه قمةُ البؤسِ في التفكيرِ.
حمد: هذا القرارُ يا أختَنا! صادرٌ عن ديوانِ رئاسةِ الحكومةِ بتوقيعٍ من رئيسِ الحكومةِ (العُمْدةُ الكبيرُ) بعدَ أنْ ترجَمهُ لهُ المستشارُ الثقافيُّ في دائرَةِ "التوجيهِ والبحثِ والتدقيقِ والإعلامِ المركزيِّ" المنبثقِ عن ديوانِ رئاسةِ الدولةِ. قرارٌ مكتوبٌ في ثلاثِ سطورٍ أتبِعَ بتوقيعٍ من رئيسِ الحكومةِ ووزيرِ التعليمِ العالي المُحترميْنِ؛ وعليهِ يتمُّ تطبيقهُ مع الإبقاءِ على العيونِ مُغمضةً والقلوبِ مُغلقةً والعقولِ معَطلةً، وإلا فإنَّ هنالكَ جهازَ أمنٍ لا يعرفُ غيْرَ قطعِ الرقابِ أو الألسنِ كوسيلةٍ للحفاظِ على النظامِ!.

وبعدَ يوم طويلٍ من الإجراءاتِ البطيئةِ والمضجرةِ والمملّةِ والمذلّةِ على الحدودِ كالتي تفصِلُ بينَ دولتينِ في حالةِ "عداءٍ"، استقلَّ حمد سيارةً أخرى للأجرةِ للعودةِ إلى القريةِ. بعدَ حوالي ساعتيْنِ وصَلَ إلى بيتِ أهلهِ حيثُ استقبلَهُ الأهلُ. جلسَ حمد معهُمْ قليلاً للتعبيرِ عن عمقِ الشوقِ لرؤيتِهمْ خاصّةً في تلكَ البلادِ القريبةِ البعيدةِ، وغُربتِها الصّحراويةِ!.

أبوالزهو ومعهُ العائلةُ: أخبرْنا الآنَ يا أخانا حمد عن العلم والدراسةِ وما إلى ذلكَ. لا تقلْ لنا الآنَ أنّهُ بعدَ سنةٍ أخرى ليسَ باستطاعتِكَ القيامُ بعملٍ تفيدُ فيهِ نفسَكَ وغيرَكَ. يَجبُ أنْ تقفَ الآنَ على الأقلِّ على قدميْكَ وعظمِكَ المصنوعِ من لُبِّ "المهلبيةِ والشوكولاته ونُخاعاتِ الأغنامِ"!. أكثرَ من ذلكَ يَجبُ أنْ تتمكّنَ من الوقوفِ على يديْكَ وعلى رأسِكَ أو دماغِكَ؛ أليسَ كذلكَ؟!.

حمد: آخ، آخ آخ... ثُمَّ آخ يا أبوالزهو. الذي رأى ما رأيتُهُ يعرفُ الحقيقةَ والذي لَمْ يرَ شيئاً من الحقيقةِ يقولُ "حفنةٌ من العدس"!. (مثلٌ شعبيٌّ ومَحليٌّ يرثي لِحالِ الذي يعرفُ الشيءَ على عكسِ ما هو موجودٌ حقيقةً؛ الأمرُ فادحٌ في الحقيقةِ ولكن الذي أخبرَ عنهُ أنّهُ شيءٌ بسيطٌ ... شخصٌ كاذبٌ).

أبو جاسر وبقيةُ العائلةِ وأبوالزهو: نفسُ الأسطوانةِ، نفسُ الشكوى، نفسُ التأففِ، ونفسُ التشاؤمِ. كلُّ هذا التعليمِ والجامعةِ والمصاريفِ و"البناتِ" والغربةِ، كلُّ هذا لا يكفي؟!. ماذا تريدُ؟. هل تريدُ أنْ تذهبَ إلى القمرِ؟. ما الذي يَحدثُ؟!...

حمد: آخ يا أهْلُ ويا شعبُ!. لقد حضرتُ تنفيذَ حكْمَ الإعدامِ بِحقِّ اللغةِ العربيةِ!. حضرتُ جزءاً من مراسيمِ إعدامِها بقرارٍ صادرٍ عن بعضٍ مَنْ "أبناءِ يعربٍ" وتَمَّ تنفيذُهُ وتَمويلُهُ بأيادٍ وأموالٍ عربيةٍ مئةً بالمئةِ.

أبو جاسر: ما هذا الهراءُ الذي تتحدثُ فيه؟!. لا أحدَ يقدرُ أنْ يصدرَ حكماً على اللغةِ العربيةِ بالإعدامِ. هذه لغةُ سَماءٍ وأرضٍ، فإذا ما تَمكّنَ أحدٌ من قتلِها في الأرضِ فكيف يتمُّ لَهُ ذلكَ في السّماءِ؟!. هذه اللغةُ ليست مُجرِماً أو قاتلاً أو مذنباً. ما الذي تقولُهُ يا ولداً؟.

حمد: يا والدِيَ، ويا بني قوميَ!، إنَّ الذي يقولُ لكُمْ أنّهُ يستعملُ عقلَهُ هناكَ في هذهِ الجامعةِ يكذبُ عليكمْ. لَمْ أرَ أحداً يتعلّمُ شيئاً من الجامعةِ. رأيتُ الكثيرَ من الإمّعاتِ وقليلاً جداً من الذين أفلحوا حتى في التظاهرِ على أنّهمْ يفكرونَ. نتحوّلُ إلى ببّغاواتٍ، نلبسُ ثياباً زاهيةً ونسيرُ في الطريقِ بكبرياءٍ فارغةٍ، لكنَّ الحقيقةَ غيرُ ذلكَ. أنا الذي يعرفُ الحقيقةَ وأكثرَ من أيِّ شخصٍ آخرَ؛ الحقيقةُ أننا نسلكُ درباً يؤدي فقط إلى الضياعِ والخسارةِ.

أبوالزهو وسرحان: تقولُ أنّكَ تعرفُ اللغةَ الأجنبيةَ، قراءةً وكتابةً ومُحادثةً.

حمد: ليس ذلكَ تَماماً!، أكرّرُ ما سَمعتُهُ من بعضِ الكلماتِ والجُملِ؛ أنا أتظاهرُ بالعلمِ فأنا عالِمٌ ولو بالتمثيلِ!. يا أبوالزهو لقد منعوا المدرّسَ حتى من إلقاءِ التحيةِ صباحاً ومساءً على من حولَهُ باللغةِ العربيةِ.....

أبوالزهو وسرحان: نريدُ أنْ نستطلعَ أكثرَ!. مثلاً الناسُ تقولُ هنا عندما تلتقي بعضَها بعضاً "مرحبا أو السّلامُ عليكمْ"، فماذا يقولُ البشرُ عندَكُمْ هناكَ؟.

حمد: تقولا لهُ "هاي Hi" فقط.

سرحان وأبوالزهو: وعندما يغادرُ الشخصُ أصحابَهُ يقولُ لهُ البشرُ هنا "في أمانِ اللهِ، مع السّلامةِ" ... فماذا أنتمْ قائلونَ هناكَ؟.

حمد: فقط تقولا كلمةَ "باي Bye".
أبوالزهو و"هيما": وإذا ما كان هنالكَ منِ أملٍ في اللقاءِ أو رغبةٍ أو ما شابهَ ذلكَ، يقولُ البشرُ هنا "على خيرٍ نراكمُ مستقبلاً"، فماذا حضرتُكم تقولونَ؟.
حمد: فقط تقولانِ لهُ "سيَ يو See you".
أبوالزهو: وإذا ما أرادَ الوالدُ أبو جاسر أنْ يوصيَكَ بأنْ تَحرصَ عل نفسِكَ وحالِكَ ومالِكَ من الضياعِ، نقولُ لكَ من هنا "خذ بالَكَ من نفسِكَ وحالِكَ ومالِكَ"، فماذا يقالُ بدلاً عن ذلكَ في البلادِ الراقيةِ؟!.
حمد: فقط تقولُ "تيك كير Take care".
أبوالزهو: وإذا ما أردتَ أنْ تنبِّهَ شخصاً نائماً أو على بُعدٍ منكَ أو تَنْهَرَ عليهِ، هنا نقولُ لهُ" أنت يا هذا! (ولَكْ)، انتبهْ!، حذارِ! ...." فماذا تريدُ أنْ تقولَ لهُ غيرَ ذلكَ؟!.
حمد: فقط تقولُ "هالو ذير Hello there".
أبوالزهو وسرحان: ها ها ها... هذه لغةٌ حلوةٌ وتفي بالمطلوبِ ويفهمُها كلُّ الخلقِ ..... ها ها ها ... سنةٌ كاملةٌ ولَمْ يبقَ لدينا ما نأكلُ والأولادُ يواجهون خطرَ فقرِ دمٍ مزمنٍ، والوالدُ أبو جاسر والوالدةُ أم جاسر لَمْ يدعا مناسبةً إلا وابتهلا فيها بالدعاءِ لكَ بالتوفيقِ والخيرِ ... " هاي"، "باي"، "سي يو"، " هالو ذير"، "تيك كير"، "باي".....
حمد: يا أبوالزهو لا تصبَّ جامَ حنقِكَ وغضبِكَ على دماغِيَ. هلّا تعرفُ أنَّ ما تقولُهُ ينزلُ على رأسِيَ نزولَ الصّاعقةِ على شجرةِ زيتونٍ في الجبلِ؟!؛ نَحْنُ أصدقاءٌ منذ أيامِ الطفولةِ المبكرةِ. كلُّ من دخل ذلكَ البيتَ الجامعيَّ الآنَ يقولُ ذلك؛ جيلٌ كاملٌ يتمُّ تعميدُ ألسنتِهِمْ بهذهِ الكلماتِ وغيرِها. ماذا تريدونَ منِّيَ أنْ أفعلَ؟. هل أثورُ وأعلنُ عليهِمُ الحربَ وحيداً؟!. لا توجدُ لَديَّ حيلةٌ يا أبوالزهو. يا والدِيَ ويا والدتِيَ ويا إخوانِيَ ويا أخواتِيَ وأخيراً وليس آخراً يا "أبوالزّهويَ": "من مضاربِ البدوِ ومن القرى ومن مخيماتِ الشقاءِ، المنتشرةِ على هوامشِ الحياةِ والزمنِ، ومن المدنِ؛ كلهمُ جاءوا وحضروا ووافقوا وصفّقوا لتدميرِ اللغةِ العربيةِ في التعليمِ الجامعيِّ. كلهمُ فرحوا واحتفلوا، احتفلت الذئابُ الخارجيةُ المتوحشةُ الجائعةُ مع الضباعِ الداخليةِ البائسةِ في تقاسمِ وليمةٍ قوامُها لحمُ ودمُ وروحُ اللغةِ العربيةِ ...."
أبو جاسر: قلتُ لكَ من قبلُ أنَّ معهدَ المعلمينَ القريبَ من هنا خيرٌ لكَ من الجامعةِ. كلُّها سنتيْنِ وبعد ذلكَ تَحصلُ على وظيفةٍ و"تَخلصَ من هذا الهمِّ الذي اسمُهُ خَميسٌ".
أبوالزهو: أريدُ أنْ أدخلَ معكَ بشيءٍ من التفصيلِ؛ شيءٌ سريٌّ جدّاً!. ألا تقدرُ أنْ تقومَ بأيِّ عملٍ بناءً على ذلكَ التعليمِ؟!. مثلاً إذا ما أصابَ حقلَ البَنْدورةِ آفةٌ معينةٌ مثلَ عفنِ البَنْدورةِ، ما الذي تقدرُ أنْ تفعلَهُ لإنقاذِ موسمِ البَنْدورةِ في ذلكَ العامِ؟.
حمد: هنالكَ نوعانِ من العفنِ أكثرُهما انتشاراً هو "البوترايتيس"، حسبَماَ أتذكرُ من الكتابِ الذي قرأتُهُ قبلَ بضعةِ شهورٍ ....
أبوالزهو: جَميلٌ!، وما علاجُ تلكَ الآفةِ؟.
حمد: نرشُّ النباتَ بمادةِ الكبريتِ الأصفرِ؛ نرشُّ كلَّ الحقلِ، المصابَ وغيرَ المصابِ من نباتاتِ البَنْدورةِ. لكنَّ الدكتورَ المدرسَ ينصحُ المزارعَ أنْ يستشيرَ مهندساً زراعياً ويدفعُ لهُ مالاً ربَّما يفوقُ ربعَ ريعِ المَحصولِ عندَ المزارعِ في ذلكَ العامِ.

أبوالزهو وسرحان: وهذا ما يقومُ به الفلاحونَ هنا، دونَ الحاجةِ إلى الذهابِ إلى الجامعةِ وتغييرِ اللسانِ وتدميرِ لغةٍ وإحلالِ لغةٍ مَحلَّ لغةٍ أخرى؛ وأنْ تصرفَ أربعَ (٤) سنواتٍ أخرى للتعرفِ على الموضوعِ. وعندنا سؤالٌ آخرٌ: ماذا لو أصابَ أحدَ الحيواناتِ هنا مرضٌ جلديٌّ جعلَهُ يَحكُّ جلدَهُ بأسنانهِ مثلَ المَجنونِ مستعيناً بأظافرهِ أو أظلافهِ وأظافرِ وأظلافِ وأسنانِ زملائهِ في الحظيرةِ وأقدامِهمْ وظهورِهِمْ وأعناقِهِمْ ومؤخراتِهِمْ؟!.

حمد: هذا السّؤالُ بالذاتِ وجهتُهُ إلى بروفيسورِ العلومِ الحياتيةِ (البيولوجيا)، البروفيسور دكتور "روسيس"، والذي أشارَ عليَّ باستشارةِ أحدِ الأطباءِ البيطريّينَ الموجودينَ في المنطقةِ حتى يشخِّصَ الداءَ والدواءَ، وطبعاً بعدَ أنْ يقصَّ جيوبَكَ من حيثُ علّقَها لكَ الخيّاطُ!.

أبوالزهو و"زولالة" وسرحان: عجيبٌ، بروفيسورٌ صارَ لهُ في علمهِ عقوداً من الدهرِ لا يعرفُ كيفَ يتصرفُ مع حكةٍ في جلدِ "عنصر" من عناصرِ الماشيةِ، وليحوِّلَها إلى الطبيبِ البيطريِّ!. نفضِّلُ أنْ نذهبَ إلى عمِّنا الحاجِّ "أبو هارون" لأنَّ يدَهُ مباركةٌ على جلودِ الحيوانِ وكذلكَ رؤوسِها وأفواهِها وعظامِها!.

حمد: لا تَجزعْ يا أبوالزهو!، أمامَنا ثلاثُ (٣) سنواتٍ أُخَر، سوف أعملُ جهدِيَ أنْ أكونَ أحسنَ من ذلك. كذلكَ لديَّ فصلُ صيفٍ وسأحاولُ إصلاحَ الأمورِ ولو قليلاً.

أبوالزهو: لا تذهبْ بعيداً يا صديقِيَ!. كما تعرفُ أنَّ صديقَكَ الفهمانَ الفنانَ "بُلبُلْ" كان يزورُني كثيراً بعدَ سفرِكَ وكنا نطربُ قليلاً مع بعضِ المقطوعاتِ من هنا وهناكَ. من عادتهِ أنّهُ يتركُ العودَ وراءَهُ هنا في البيتِ. أسْمِعْنا مِمّا لديكَ وما وصلْتَ إليهِ بعدَ غيابِ سنةٍ، يا ظالماً!.

حمد: سأعزفُ لكُم جَميعاً شيئاً للفنانِ الخليجيِّ الأصيلِ "محمد ازويّد". سأجعلُ الحاضرينَ يُسحرونَ بسحرِ الموسيقى والطربِ الأصليّين! .... دن دن دن دجِ دن دج دن نا ننا لا للا ها هها فا ففا تاتي تتا دا ددا دا .صولَ فا مي ري دو .. وقفةٌ أيُّها القمرُ نتشاكى! ... فحياتِيَ على خطرٍ في هواكَ .. .... أنت في روضةِ السّماءِ تتنقَّلْ وأنا في هوى ودِّيَ أتمَلَّلْ ..... ويحَ قلبي! .. ويحَ قلبي! .. كلّما أتأمّلْ! صحتُ: باللهِ ما أَمَرَّ جفاكَ! ...... دن دن دن .... يا هناء! كلَّ من أحبَّ ونالَ ... وشكا من جنى الهوى والملَلْ ..... أيُّ قلبٍ؟! ... أيُّ قلبٍ ... أيُّ قلبٍ ملتهبْ .. دلالاً! .. سفكَ الحُسْنَ فيكَ ...... ربِّ عفواً ... ربِّ عفواً .... ربِّ عفواً... إذا التفتُّ إليهِ وتركتَني في صلاتي إليكَ ... إنْ تكنْ تغفرُ زلّتي فشفيعِيَ كلُّ ذاكَ الجمالِ فتاكا ....

أبو جاسر: يا ولدِيَ!، ماذا لو درستَ الموسيقى!؟، ربَّما يكونُ ذلكَ أحسنَ لكَ ولنا من هذا العلمِ والعاهاتِ والكوارثِ الوطنيةِ والقوميةِ التي تصاحبُهُ.

سرحان و"زَولالة": إيّاكَ يا حمد أنْ تفعلَ ذلكَ!، حفاظاً على ترابطِ الأسرةِ والحياةِ الزوجيةِ في المنطقةِ!. غيرَ ذلكَ فإنَّ النساءَ ستهربُ من أزواجِهنَّ لكي يسمعنَ كلماتِ وألحانَ هذه المقطوعاتِ الموسيقيةِ السّاحرةِ؛ سوفَ لن ينفعَ معهُنَّ التهديدُ بالعصا والطلاقِ والحرمانِ من قسمةِ البيتِ!. ثُمَّ يا سيدَ حمدٍ!، لقد قلتَ لنا بأنَّ حياتَكَ هناكَ كانت عبثيةً! مَع هذا الفنِّ العجيبِ؟!. كيف تريدُها أحسنَ من ذلكَ حتى تكونَ حياتُكَ بنّاءةً وذاتَ معنىً؟!. اعترفْ بالحقيقةِ، من أينَ لكَ هذا!؟.

حمد: يا جَماعةً!، إنَّ صاحباً لِيَ قادمٌ من بلادِ الخليج، الأخُ "مِرعِزْ العُقلة"، قد أهداني شريطَ موسيقى وقلَّدْتُ بعضاً مِمّا في الشريطِ لكُم، هذا كلُّ ما في الأمر.
أبوالزهو وسرحان: هذا كلامٌ هراءٌ. هنالكَ الآلافُ من الأشرطةِ المهداةِ والمَباعةِ، لكن لا يهزُّ مسامعَنا غيرَ ذلكَ الضربُ على تلكَ الأوتارِ السّحريةِ السّاحرةِ!. في المرةِ القادمةِ وعندما تسافرُ سنذهبُ معكَ إلى حيثُ تقيمُ؛ نتعلَّمُ الموسيقى مثلَما تتعلّمُها.

أوّلُ فصلِ صيفٍ جامعيٍّ

قامَ حمد ببذلِ جهدٍ كبيرٍ لإقناعِ بعضِ زملائهِ من أجلِ جَمْعِ عددٍ كافٍ من الطلابِ، كافٍ لِحمْلِ رئاسةِ القِسْمِ على فتحِ "شعبةٍ" أو "صفٍّ" لتدريسِ مساقٍ في العلومِ. يوجدُ عندَ حمد نقطةُ ضعفٍ قويةٌ؛ هي الكتابُ وغرفةُ الدرسِ!. بالرغمِ من عدمِ حبهِ للمدرسةِ والتعليمِ والمعلّمِ إلا أنّهُ لَمْ يزلْ لديهِ أملٌ مُحفزٌ جداً في التعلّمِ والدَراسةِ.
كان الكتابُ المقررُ لِمساقِ فصلِ الصّيفِ غايةً في الجذبِ للناظرِ إليهِ بسببِ أناقةِ وتصميمِ ذلكَ الغلافِ وما احتواهُ من حواليْ عشرينَ (٢٠) فصلاً طموحاً مع ملحقاتِها وأجَزائِها الأخرى. عنوانُ الكتابِ المقررِ ذا المنظرِ الجذابِ هو "نظريةُ الموجاتِ" أي يَختصُ بدراسةِ الظاهرةِ الموجيةِ للحركاتِ المَيكانيكيةِ للمادةِ. حملَ ذلكَ العنوانُ حمد على الظنِّ بأنَّ الانتظامَ في ذلكَ المساقِ سيكونُ البدايةَ التي ستجعلُهُ، ربَّما!، في يومٍ من الأيامِ يركبُ موجاتٍ توصلُهُ إلى حيثُ الأحْلامِ!.
وبِما أنَّ فصلَ الصّيفِ قَصيرٌ فإن المُحاضراتِ كانت تعطى بشكلٍ مكثّفٍ. هنالكَ كانَ خَمسةُ حصصٍ أسبوعياً ولقد أضيفت عشرةُ دقائقَ على كلِّ حصةٍ لتغطيةِ الفرقِ مع ساعاتِ فصولِ السّنةِ الدراسيةِ العاديةِ الطويلةِ. لا يتقنُ المدرسُ اللغةَ الأجنبيةَ، لا قراءةً ولا كتابةً ولا نطقاً؛ المطلوبُ منهُ التدريسُ بها فقط!. حتى اللغةَ العربيةَ يتكلّمُها ب"تأتأةٍ" تأخذُ معظمَ ما يُحاولُ أنْ ينطقَهُ؛ تشوهاتٌ وعاهاتٌ خَلقيةٌ ومنها بالفكرِ مكتسبةٌ والأخيرةُ! اكتسبتْ عن سبْقِ إصرارٍ. على المرءِ أنْ يتصورَ ما هو شَكلُ التعلّمِ أو "أخْذُ العلْمِ!" من ذلكَ العضوِ في هيئةِ التدريسِ، الدكتورِ المخضرمِ "د. ذكي". وبكلِّ الجهدِ والمُحاولاتِ وحرقِ الأعصابِ والجرْيِ السّريعِ في نفسِ المكانِ! تمكّنَ المدرسُ، بل كادَ!، من الانتهاءِ شكلياً من أولِ أربعةِ (٤) فصولٍ في الكتابِ. كان هنالكَ خطأً تقريباً في كلِّ عبارةٍ نَطَقَ بها، خطأً لغويٌّ ونَحويٌّ وعلميٌّ ونطقيٌّ ومنطقيٌّ. زَعَمَ "د. ذكي" أنَّ تلكَ الفصولَ وما أعطاهُ هي

الأساسُ وبمقدورِ أيِّ شخصٍ مِمّن حضرَ المساقَ قراءةُ ما تبقّى من الكتابِ بكلِّ عفويةٍ، طالَما أنَّهُ تمكّنَ مِن السّيطرةِ على ما سَمّاهُ "أساسَ البِناءِ". ابتلعَ الطلابُ تلكَ "الفتوى" الأكاديميةَ. كانَ المُختبرُ المرافقُ للمساقِ متخلّفاً جداً يكادُ يلمسُ مستواهُ الصّفرَ المطلقَ!. هنالكَ العشراتُ من التجاربِ المقترحةِ في نِهايةِ فصولِ الكتابِ المقرّرِ ولكن لَمْ يُمسَسْ أيٌّ منها بخيرٍ أو بشرٍّ!. كانَ المساقُ كلُّهُ في عقولِ الطلبةِ مثلَ وِلادةِ جنينٍ مشوَّهِ الخَلقِ في كلِّ بقعةٍ من جسمهِ، أو كشكلِ "ديوانٍ" وقعَ في حيّزٍ ضيِّقٍ لَعجلةٍ مسننةٍ تدورُ بسرعةٍ!. ومثلَما ضاعت فصولُ السّنةِ العاديةِ من قَبلُ ضاعَ وراءَها فصلُ الصّيفِ؛ وأُضيعَ على حمد وزملائِهِ، الذين أقنعَهُمْ بالانتظامِ في المساقِ في بدايةِ الفصلِ، حلاوةُ فاكهةِ الصّيفِ وبعضُ ليالي السّهرِ المسليةِ! فيهِ.

الدكتورُ "ذكي": إنَّها آخرُ مُحاضرةٍ لِيَ عليكم في هذا الفصلِ، وآخرُ فصلٍ لِيَ في جامعةِ "البايْروطاط"، وآخرُ سنةٍ في تعاقدِيَ الذي ينتهي بانتهاءِ الفصلِ. عليَّ أنْ أعودَ إلى بلدِ المنشأِ. مضى عليَّ عهدٌ من الزّمنِ لَمْ أرَ فيهِ أسرتِيَ وأنْجالِيَ الأعزاءَ.

طالبٌ: لقد كانَ فصلاً مُجهِداً لكَ ولنا، كادت أنْ تُزهقَ فيه أرواحٌ في الأجسادِ إلى جانبِ الأرواحِ المعنويةِ. لا نزالُ نشعرُ أنَّ هنالكَ قلوباً تنبضُ بينَ الأضلعِ في الصّدورِ.

حمد: وَعسى أنْ لا تقطعَ اتصالَكَ معنا عندَ عودتِكَ إلى وطنِكَ الأولِ! بعد أنْ تركْتَ تلامذتَكَ في وطنِكَ الثانِيَ في حالةٍ من النضوجِ الدماغيِّ غيرِ مُحدّدِ المعالِمِ أو الاتّجاهِ!.

الدكتورُ "ذكي": كنتُ أتَمنّى على الجامعةِ لو تعطيَ كراساتٍ ومذكراتِ تدريسٍ كالتي نعطيها في جامعاتِ بلدِيَ الأصليِّ؛ إلا أنَّ إداراتِ القسمِ والكلّيةِ والجامعةِ كلَّها تُحاولُ تقليدَ واستيرادَ ما يَجري في الجامعاتِ الأخرى. عليكُمْ أنْ تكونوا واعينَ لذلكَ مستقبلاً.

حمد: لا تخفْ ولا تقلقْ!، نَحْنُ واعونَ لكلِّ شيءٍ وعاجزونَ عن عملِ أيِّ شيءٍ. نَحْنُ واعونَ للإدارةِ والكتبِ والمدرسينَ والطلبةِ والظروفِ المُحيطةِ والمؤامراتِ التي تُحاكُ والتخطيطِ الاستراتيجيِّ والمشاكلِ الماليةِ والاجتماعيةِ والحربِ والسّلامِ ...... إلخْ إلخْ.

الدكتورُ "ذكي": بالنسبةِ للامتحانِ لا تقلقوا كثيراً. ركّزوا على المادةِ التي قدمتُها لكمْ أثناءَ الفصلِ، وإنْ شاءَ اللهُ أنْ تكونوا موفّقينَ ومرتاحينَ وناجحينَ.

طالبٌ: ليس لدينا وقتٌ للقلقِ على أيِّ شيءٍ، وعسى ربَّنا أنْ يكونَ معكَ في حلِّكَ وترحالِكَ، خاصةً إذا ما تَمَّ انْتدابُكَ إلى دولةٍ أخرى للمساعدةِ على تطويرِ أبنائِها!. لا تنسَ أنْ تتذكَّرَنا عندما تكتبُ شيئاً عن سيرتِكَ الذاتيةِ لتساعدَكَ على الالتحاقِ بمؤسسةٍ أكاديميةٍ أخرى!.

في تلكَ الآونةِ والسّنينِ كان على حمد أنْ يبقى خارجَ وطنهِ مدةً لا تقلُّ عن خَمسةِ (٥) أشهرٍ حسبَ إجراءٍ قامَ الاحتلالُ بتنفيذِهِ لوضعِ عراقيلَ أمامَ عودةِ أهلِ الأوطانِ إلى مسقَطِ رؤوسِهِمْ حيثُ كان يزعمُ أنَّ "أمنَ جيشِهِ" في خطرٍ من أعمالِ مقاومةِ الشبابِ الذينَ يذهبونَ للعملِ أو الدراسةِ خارجَ أوطانِهِمْ المُحتلةِ!. لذلكَ قرّرَ حمد إجراءَ مكالَمةٍ هاتفيةٍ عِوضاً عن ذلكَ مع أهلهِ. كانت المكالَماتُ الهاتفيةُ تَجري عبرَ دولةٍ ثالثةٍ إذا ما قرّرَ أحدُهُمْ المغامرةَ بِما في جيبهِ وجيبِ صديقهِ! أو من

بصحبتهِ؛ ليسَ مستبعداً أنْ يُلقى بعدَ ذلكَ على قارعةِ الطريقِ مسلوبَ المالِ وعليهِ أنْ يذهبَ إلى مكانِ سكنهِ البعيدِ مشياً على الأقدامِ، لأنهُ لن يبقى معهُ أجرةُ حافلةِ الركّابِ الكبيرةِ التي كانت ستنقلُهُ!.
أبو جاسر: السّلامُ عليكَ والرحْمةُ يا ابنِيَ، كيفَ حالُكَ؟، إنْ شاءَ اللهُ أنْ تكونَ موفَّقاً في علمِكَ ودروسِكَ.
حمد: الحمدُ للهِ يا والدِيَ؛ لقد كانَ صيفاً طبيعياً، مثلُهُ مثلَ فصولِ السّنةِ الأخرى!. المهمُّ أنَّ المدرّسَ المخضرمَ تركَ الجامعةَ ولن نراهُ مرّةً أخرى، عسى أنْ يكونَ هنالكَ من يَخلفُهُ!. (المخضرمُ تعني هنا القديمُ أو المُعَتّقُ أو الذي شهدَ عهديْنِ مُختلفيْنِ أو أكثرَ؛ هنا في التدريسِ)
أم جاسر: كلُّنا هنا مشتاقونَ إليكَ ولسماعِ أخباركَ الطيبةِ. لا تَحملْ الهمَّ يا ولدِيَ العزيزَ بالنسبةِ للمصروفِ. سأبعثُ لكَ الكثيرَ ولقد وصلني بعضُ الهدايا النقديةِ من أخوالِكَ، إخوتِيَ، على العيدِ سأبعثُها لكَ. المهمُّ أنْ تركّزَ فكرَكَ في دروسِكَ كي تصيرَ عالِماً كبيراً. نَحْنُ هنا كما تعرفُ، نتصاحبُ مع شَمْسِ الصّيفِ وبردِ الشتاءِ وعتمةِ الليالي من أجلِ عيشٍ لا تَحتاجُ فيه إلى أحدٍ، بإذنِ اللهِ.
حمد: على العهدِ معكُمْ والوفاءِ، سأبذلُ كلَّ ما بوسعِيَ لتحقيقِ الأماني والأمنياتِ.
أبوالزهو وسرحان: "ياس" ... "هالو ذير" .... ها ها ها .... "هاو آر يو" .... ها ها ه ا... كيفَ حالُكَ وصحتُكَ ودروسُكَ والمعلّمونَ؟!.
حمد: مرحباً بكَ يا أبوالزهو، سلامٌ لكَ وسلامٌ عليكَ. ما بكما تَخلطانَ اللغاتِ بطريقةٍ عجيبةٍ؟!. هل تريدانِ أنْ تصبحا عصريّيْنِ أو أنْ تَحصلا على وظيفةٍ مشرقةٍ باستخدامِ معسولِ الكلامِ مِمّا تساقطَ في شوارعِ المدنِ وعلى أرصفةِ مَحطّاتِ القطارِ نصفِ المقفرةِ؟!.
سرحان وأبوالزهو: "ياس" ... ها ها ها .... "أُوكي" ... ها ها ها ..... اشتقْنا إليكَ لِماذا لا تأتِي لتزورَنا؟!.
حمد: نَحْنُ الآنَ في منتصفِ أيلولَ، وتشرينُ على الأبوابِ. هل جهّزتُمْ أنفسَكمْ للخريفِ والشتاءِ؟، هل ستحرثونَ الأرضَ وتنظّفونَ الوادي من النباتاتِ المزعجةِ وتُجهّزونَ الحقلَ للزراعةِ؟!. عساكُمْ تقومونَ مع الوالدِ أبو جاسر بحرثِ الأرضِ وتقليمِ الأشجارِ وقد خزّنتُمْ ما يكفي للأكلِ لكمْ وأخرى للدوابِّ. عسى أنْ يكونَ موسمُ الطيورِ المهاجِرةِ وافراً عندَ أخِيَ سرحان هذا الموسمَ.
سرحان: لقد كان كلُّ شيءٍ على خيرِ ما يرامُ في هذا الموسمِ. أنا والوالدين وأبوالزهو وبقيةُ الأخواتِ والإخوةِ عَمِلْنَا كلَّ الصّيفِ، "قلاعةٌ" وحصادٌ وبيعٌ لِمنتجِ اللّبنِ والخضارِ الصّيفيةِ.
أبوالزهو وسرحان و"زولالة": كان الموسمُ مُمتازاً، والغلّةُ في أوجِها. أخبرْنا إذا ما تريدُ من شيءٍ لكيْ نرسلَهُ لكَ من هنا مع مسافرٍ لِجهتكَ.
حمد: لولاكَ يا أبوالزهو والأهلُ جَميعاً لَما تَمكّنْتُ من التقدّمِ خطوةً واحدةً إلى الأمامِ، لا في الصّيفِ ولا في الشتاءِ. لا أريدُ أنْ أطيلَ زمنَ المكالَمةِ لأنَّ "العدّادَ" (عدّادٌ يَحسبُ أجرةَ المكالَمةِ في المكتبِ الخاصِّ للاتصالاتِ الدوليةِ) يعملُ على أساسِ الدقيقةِ؛ إذا ما دخلت أوّلُ ثانيةٍ من الدقيقةِ فإنَّ على المُتّصلِ أنْ يدفعَ ثَمنَ الدقيقةِ كلِّها. ما شاءَ اللهُ! على طرقِ الكسبِ المشروعةِ التي يتّبعُها أصحابُ هذه المكاتبِ والوكالاتِ.

أبوالزهو وسرحان: "ضونط ووري Don't worry!" .... ها ها ها .... "تيك كير Take care!" .... ها ها ها ..... "بهيف يورسِلف Behave yourself" .... ها ها ها .... "جاد بي وذ يو God be with you" ....

حمد: عسى اللهَ أنْ يهديَنِي أولاً قبلَ أنْ أدعوَ لكُما بشيءٍ من الخير. أنا الذي يَجبُ أنْ أُلامَ فيكُما لأنني فتحتُ عليكُما بابَ لغةِ أهلِ الفرنْجةِ. مع السّلامةِ. سلاماً .... "تشاوْ".

على المرءِ أنْ لا يتوقّعَ الكثيرَ من الراحةِ في العطلةِ القصيرةِ بينَ الفصولِ. قد يسترخي دماغُهُ وترتاحُ أعصابُهُ لبعضِ الوقتِ لتعودَ إليه بعدَ قليلٍ حياةُ الضجرِ والمللِ المتوقعةِ وغيرِ المتوقعةِ خلالَ فصلِ الدراسةِ. إلا أنَّ هنالكَ بعضَ الوقتِ للتأملِ والتفكيرِ بِما حَدثَ في الماضي لِمحاولةِ تلافي تكرارِ السيّئ منها! في المستقبلِ.

طالبٌ: الأمورُ تَجري على قدم وساقٍ لتحديثِ! جامعةِ "البايْروطاطْ". هنالكَ أعدادٌ كبيرةٌ من المدرّسينَ الجددِ القادمينَ في معظمِهمْ من وراءِ البِحارِ وعبرَ المُحيطاتِ. منهمُ أناسٌ ليسوا عرباً والعربُ منهمُ لَمْ يبقَ منهمُ عربياً، وكما حاولوا إظهارَ أنفسِهمْ، إلا كلمةٌ تصفُ أصلَهُمُ في سِجلِّ تصنيفِ الأجناسِ!.

حمد: لقد واجهنا أحدَهَمْ في السّنةِ الأولى، الدكتورُ "زَعفران" (مسئولٌ أكاديميٌّ عربِيٌّ في الجامعةِ ينشدُ التعليمَ بلغةٍ غيرِ العربيةِ). سوفَ يتولّى منصباً مشابهاً لِمنصبِ "المندوبِ السّامي" في العهدِ الاستعماريِّ السّابقِ في التعيينات الجديدةِ وسيتسلّمُ الإشرافَ على الوظائفِ الجديدةِ في الجامعةِ. على حدِّ قولِهِ، لقد أمضى معظمَ دراستِهِ بعدَ حصولِهِ على شهادةِ البكالوريوس في الخارجِ ويقولُ أنّهُ نَجحَ في تنظيفِ دماغِهِ، بِمكنسةٍ خشنةٍ مِن السِّلكِ، من أيِّ شيءٍ يَمَتُّ للعروبةِ بِصِلَةٍ.

طالبٌ: الوضعُ معَهُ أكثرُ خطورةً من غيرِهِ.

طالبٌ آخرُ: ومن المؤكّدِ أنّهُ سيتولّى مركزاً مرموقاً، لأنه من نفسِ طبقةِ "الباء باء كاف" .....

حمد: وماذا يعني ذلكَ يا بُنَيَّ؟!.

طالبٌ: أولُ حرفِ باءٍ يرمزُ إلى "البذخ" وثانِيَ حرفِ باءٍ يرمزُ إلى "البطر"، والكافُ ترمزُ إلى كلمةِ "هيئةٍ" بلغةِ الأجانبِ!. هو دائمُ الحديثِ عن الأطعمةِ الراقيةِ والمشروباتِ، الغازيةِ والكحوليةِ، والمأكولاتِ مِمّا يُبقي جهازَهُ الهضميَّ والإخراجيَّ في حالةِ عملٍ شبهِ دائمةٍ.

حمد: أعتقدُ أنّهُ على قناعةٍ أنَّ ذلكَ هو الطريقُ الوحيدُ لوصولِهِ إلى مركزٍ مرموقٍ هنا أو هناكَ.

طالبٌ: لنغيِّرْ الموضوعَ قليلاً!. هل تعلمُ يا حمد أنَّ صديقتَكَ "نور الهوى" قد عادت لتوِّها من عطلةِ الصّيفِ الطويلةِ وتسألُ عنكَ. لقد جلبتْ لكَ هديةً معها من أهلِها؛ يبدو أنَّ هنالكَ نوايا مبيتةً لا يعرفُ سرَّ مكنونِها إلا اللهُ تعالى وأصحابُ العلاقةِ!.

حمد: كُفَّ عن هذا الكلامِ في الوقتِ الحاضرِ. أرجوكَ أنْ تُخبرَ صاحبَنا ورفيقَنا "هاكوبيان" أنْ يأتِيَنا اللّيلةَ لنستمعَ معهُ إلى بعضِ الأغاني الفولْكلوريةِ الأرمينيةِ؟!.

"هاكوبيان" (في الليلِ يغنّي بالأرمينيةِ): (عزف) صول صول صول لا سي سي لا فا فا صول لا لا صول ... .كارون كارون كاروني.. ....

المَجموعةُ: "خبيني ببيت المونة، بُكرة لما بييجي البرد، ما لكْ غيري كانونة..
......" (بالعربيِّ الفصيح: خبئيني في بيتِ المئونةِ (أو مَخزنِ حبوبِ الأكلِ)، غداً عندما يأتينا البَردُ أو الشتاءُ فإنّهُ ليس لكِ غيريَ كموقدٍ (للدفءِ) للنارِ!".
حمد:... شو حبيتي بنص مصيص هالبورظان؟!، رأسه من دِكّة الشروال موب عرفان!، افتحي ألبي وخِدي مِنّو شي نارة!، مهما دِرتي شو ما سهرتي ما في مِتْلي بالحارة. (لكنةٌ شاميةٌ-عربيّةٌ)
"زاهر" (طالبٌ من منطقةِ القبائلِ!): "لَكْ يضرب الحب شو بيزل"!! (باللغةِ الفصحى: يا هذا، ضَربَ (لُعِن أو أُهين) الحبُّ كَمْ يُذِلُّ "الشخصَ المُحبَّ"!).
حمد: آهٍ لو كانَ أبوالزهو معنا لازدادَ الجوُّ بل لَتبدَّلَ أُنْساً وهيبةً!.

نصرٌ وهزيمةٌ

لَمْ تكدْ تَمضي فترةٌ وجيزةٌ على حربٍ أهليةٍ مقيتةٍ وحربٍ في شبهِ القارةِ الهنديةِ حتى أتتْ حربٌ أخرى تَجمعُ بين كثيرٍ من المتناقضاتِ في علبةِ "كوكا كولا" واحدةٍ ومن الحجمِ العائليِّ الكبيرِ!. كانَ الوقتُ بينَ الظّهرِ والعصرِ عندما أوردتْ الإذاعاتُ ووكالاتُ الأنباءِ أنَّ الجيوشَ اخترقتْ خطوطَ الهدنةِ المائيةِ والبريةِ الجبليةِ واستعادتْ معظمَ الأراضيَ التي فقدتْ في حروبٍ سابقةٍ على الجبهةِ الشماليةِ ودَمَّرتْ معظمَ حصونِ العدوِّ على الجبهةِ الجنوبيةِ. الأخبارُ في مُجملِها تكادُ لا تصدَّقُ!. اندفعت الجماهيرُ إلى أجهزةِ المذياعِ والتلفازِ تراقبُ الأحداثَ وتسلسلَها لَحظةً بلحظةٍ. هذهِ المرةَ كانت نبرةُ المذيعينَ تَبدو أكثرَ واقعيةً ومصداقيةً منها في الحروبِ الكثيرةِ السّابقةِ. في الحروبِ السّابقةِ كانتِ المَحطّاتُ الإعلاميةُ تسجّلُ انتصاراتٍ إعلاميةً بَحتةً أمامَ الجماهيرِ؛ بعدَ ذلكَ تُحافظُ تلكَ المَحطّاتُ على الانتصاراتِ حتى ما بعدَ وقوعِ الهزيمةِ العَسكريةِ حفاظاً على الروحِ المعنويةِ للجيوشِ والجماهيرِ وسلطةِ الحكّامِ!، على حدٍّ سواءَ. دلّتْ هذه الحربُ على أنَّ العدوَّ اعتمدَ في بناءِ أسطورةِ "جيشِهِ الذي لا يقهرُ" كذلكَ على الناحيةِ الإعلاميةِ. لَمْ يكنْ لدى الطرفِ الآخرِ المعادي أيُّ تقديرٍ يذكرُ للأسلحةِ المستخدمةِ وطريقةِ عبورِ الجيوشِ الزاحفةِ. ولأولِ مرَّةٍ يستخدمُ سلاحُ جوٍّ لدكِّ حصونِ العدوِّ العسكَريةِ، ولأولِ مرَّةٍ يتمُّ فيها ردعُ طيرانِ العدوِّ حتى منِ الاقترابِ إلى سَماءِ الجبهةِ؛ كان كلُّ ذلكَ في البدايةِ!. كان الجميعُ يتوقعونَ في أيّةِ لَحظةٍ أنْ يطلبَ العدوُّ تدخّلاً من الصّليبِ الأحمرِ والهيئاتِ الدوليةِ الأخرى للإشرافِ على توقيعهِ صكَّ استسلامِ حكومتهِ حفاظاً على حياتهِ!. يبدأُ العدوُّ بعدَ ذلكَ بتطبيقِ شروطِ المنتصرِ، ابتداءً مَن الانسحابِ من الأراضي المُحتلةِ وحتى إعادةِ الحقوقِ الوطنيةِ للاجئينَ الذين ينتظرونَ العودةَ منذُ أكثرَ من ربعِ قرنٍ من الزمانِ، وأشياءَ أخرى...

في اليومِ التالي لبدءِ الحربِ طَلبَ السّيدُ "الكُرَنفلي"، وهو أحدُ مسئولي شؤونِ الطّلبةِ في الجامعةِ، طلبَ من التلاميذِ مغادرةَ الحرمِ الجامعيِّ بسببِ مَخاوفِ الحربِ. كان ذلكَ تَحسُّباً من أنْ تقومَ الطائراتُ المعاديةُ بقصفِ حرمِ الجامعةِ مِمّا

سيؤدي إلى مضاعفةِ أعدادِ الإصاباتِ فيما لو استمرَّ الطلابُ بحضورِ دروسِهِمْ بدلاً عن الذهابِ إلى بيوتِهِمْ. تقدَّمَ عددٌ من الطلابِ للتطوُّعِ للقتالِ ضدَّ العدوِّ على الرغمِ من عدمِ تَمَكُّنِ معظمِهِمْ من استعمالِ أيِّ نوعٍ من أنواعِ السِّلاحِ!. كانَ الحماسُ هوَ الدافعُ وهو نَفسُهُ السِّلاحُ؛ وكما يقولونَ "فإن "حَمِيَّةَ الجاهلِ تفوقُ خيالَ وقدرةَ العالِمِ".

سألَ حمد السّيدَ "الكُرنفلي" عن فترةِ إغلاقِ الجامعةِ فأجابهُ الأخيرُ بأنَّ المدةَ مفتوحةٌ وتَخضعُ لظروفِ الحربِ وتطوراتِ الموقفِ. على أنّهُ يُمكنُ للطلابِ معرفةَ وقتِ إعادةِ فتحِ الجامعةِ عن طريقِ متابعةِ وسائلِ الإعلامِ المتوفرةِ، أضافَ موضّحاً. قرَّرَ حمد العودةَ إلى مسقطِ رأسهِ، إلى بيتِ أهلِهِ، رَيثَما تذهبُ الغيومُ المُحيطةُ بالحربِ المستعرةِ والخطرِ المُحدقِ بجهازِ التعليمِ العالي، إنْ صحَّ التخيُّلُ. وخلالَ الحربِ كان الجوُّ العامُّ يوحي بأنَّ نصراً مؤزّراً أصبحَ في متناولِ اليدِ ....

حمد: لقد وقعَ العدوُّ في المصيدةِ. الجيوشُ تتقدّمُ عليهِ من الشمالِ والجنوبِ والشرقِ والغربِ. نفسُ الأساليبِ التي كان يعتمِدُها في "الدفاعِ" تستخدمُ الآنَ ضدَّهُ في الهجومِ عليهِ. البلاغاتُ العسكريةُ القادمةُ ومن طرفَيْ الحربِ تؤكدُ أنَّ العدوَّ واقعٌ في مأزقِ الهزيمةِ.

أم جاسر: لكلِّ ظالمٍ يومٌ، وعسى أنْ يكونَ هذا يوماً على العدوِّ الظالِمِ.

سرحان: الأخبارُ تقولُ أنَّ طائراتِ العدوِّ لا تقدرُ أنْ تطيرَ فوقَ الجبهةِ بسببِ أسلحةٍ دفاعيةٍ سريةٍ تستخدمُ لأولِ مرَّةٍ في الحربِ.

أبو جاسر: أفضِّلُ التعليقَ بعدَ التريثِ قليلاً، حتى ينجليَ الموقفُ. أتَمنّى أنْ تكونَ تلكَ البلاغاتُ العسكريةُ صادقةً وحقيقيةً. حسبَ التجاربِ السّابقةِ فإنَّ الوضعَ لا يزالُ غيرَ ذي ثقةٍ. لن أصدِّقَ حتى أرى بعينيَ...

حمد: يقولونَ بأنّهُ "جاءَ للحزينةِ يومٌ تفرحُ فيهِ"؛ لِماذا لا تفرحُ مع بقيةِ الخلقِ والبشرِ؟!.

ما أنْ دخلتْ الحربُ يومَها الرابعَ أو الخامسَ حتى بدأتْ الأمورُ تنقلبُ بالاتّجاهِ المعاكسِ. أقيمَ هنالكَ جسرٌ جويٌّ ضخمٌ بينَ العدوِّ وبينَ دولةٍ قويةٍ عظمى تَمَّ فيهِ نقلُ أسلحةٍ بكمياتٍ ضخمةٍ ومتقدّمةٍ، علمياً وتكنولوجياً وعملياً، إلى أرضِ المعركةِ بحيثُ خسرت الجيوشُ المهاجِمةُ المبادرةَ وتَحوّلتْ المعركةُ بينَ عشيةٍ وضُحاها لصالحِ العدوِّ وعلى كافةِ الجبهاتِ. بالإضافةِ إلى الخسائرِ الماديةِ والبشريةِ الكبيرةِ كانت الخسارةُ المعنويةُ أكثرَ فداحةً.

حمد: ما كسبتهُ الجيوشُ في البدايةِ تعجزُ أنْ تُحافظَ عليهِ الآنَ بسببِ الدعمِ الكبيرِ للعدوِّ القادمِ من خلفِ البحارِ.

أبو جاسر: اللهُ أكبرُ على الظّالِمينَ!. نفسُ الأسطوانةِ تتكرّرُ في كافةِ الحروبِ منذُ أنْ استُقدِم العدوُّ إلى هذه البلادِ.

أم جاسر: يعزُّ على الدولِ الظالِمةِ رؤيتَنا نستمتعُ ولو مرّةً واحدةً بنصرٍ على أعدائِنا.

بدأتْ الدولةُ الأعظمُ بالدخولِ إلى المنطقةِ وفرضِ الشروطِ التي يراها العدوُّ ملائمةً لسلامتهِ وأمنهِ وانتهتْ بتوقيعِ اتفاقيةِ استسلامٍ أو كما يقولونَ عنها "اتفاقيةَ سلام" بحيثُ أمّنَ العدوُّ رسمياً حيادَ أكبرِ دولةٍ في المنطقةِ كانت بالأمسِ القريبِ ضدَّهُ ليسَ فقط حيادُها بل اضطُرَّتْ تلكَ الدولةُ الرئيسيةُ إلى الوقوعِ بشكلٍ

شبهِ كاملٍ في أحضانِ الإمبرياليةِ الدوليةِ مع ما يتبعُ ذلكَ من مهازلَ ليس لَها أبٌ مُحدّدٌ أو حتى أمٌّ مُحدّدةٌ!. حصلَ انقلابٌ شبهُ كاملٍ في موازينِ القوى وأصبح العدوُّ يصولُ ويَجولُ في المنطقةِ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى.

في المناطقِ المُحتلةِ استعرتْ ظاهرةُ الاستيطانِ وبناءِ مستعمراتٍ جديدةٍ حيثُ أصبحت تُهدِّدُ كلَّ السّكانِ هناكَ، مادياً ومعنوياً وحضارياً ونفسياً.

أبوالزهو و"هيما": الآنَ انتهتْ الحربُ على الجبهاتِ الخارجيةِ وستبدأُ هنا. سوفَ نرى المزيدَ من قطعانِ "المستجلبينَ" من كلِّ الأصنافِ والأشكالِ يستولونَ على الأراضِيَ الزراعيةِ والمياهِ الجوفيةِ وأعاليَ الجبالِ الشاهقةِ الشمّاءَ.

حمد: هذا مُخطّطٌ سائرٌ على رؤوسِ الجميعِ طالَما بقيَ حالُنا من الضعفِ هكذا، وإنْ لَمْ نقفْ على أقدامِنا بأنفسِنا ونردعْ العدوَّ والصّديقَ! من الطامعينَ في بلادِنا. معظمُ الذين ترونَهُمُ يَجوبونَ حقولَنا ومزارعَنا قبلَ الحربِ وبعدَها جاءوا إلى هنا بناءً على معلوماتٍ شبهِ مؤكّدةٍ أنَّهمْ لن يلاقوا في هذه البلادِ أحداً يزعجُهمُ ويقضُّ مضجعَهُمُ. نفسُ الدولةِ التي ساعدتْ جيشَهُمْ لإلْحاقِ الهزيمةِ بالجيوشِ الأخرى تعطيهُمْ المالَ والسّلاحَ.

سرحان وأبوالزهو: ولكنَّ العدوَّ قليلُ العددِ!.

حمد: في العصرِ الحاضرِ لَمْ تعدْ للعددِ أهَميّةٌ، أو حتى أهَميةٌ تذكرُ، في حسمِ نتيجةِ الحربِ؛ الأهَميةُ الكبرى تعودُ للسلاحِ والعتادِ.

"زولالة": ولِماذا لا يأتي قومُنا بسلاحٍ أقوى وأكثرَ فعاليةً؟!.

حمد: علينا أنْ نبنِيَ أنفسَنا بأنفسِنا ونَقومَ بإعمالِ عقولِنا في مُختلفِ المَجالاتِ. علينا القيامُ بوضعِ خططٍ استراتيجيةٍ طويلةِ الأمدِ قليلاً!.

سرحان: وحتى ذلكَ الحينَ يكون الفراتُ والنيلُ على مرمى حجرٍ من جيوشِ العدوِّ.

حمد: ربُّكُمْ وحدُهُ هو السّتّارُ!.

أبوالزهو: تعرفُ يا صديقِيَ أنَّ الحربَ وعودتَكَ إلينا كانتا فُجائيّتيْنِ!. ستسافرُ الآنَ وتتركُنا من جديدٍ؛ لكنني أريدُ منكَ أنْ تسمعَنا بعضَ العزفِ الصّامتِ، خالٍ من الأصواتِ. لَمْ يعدْ بِيَ تَحَمُّلَ الضوضاءِ الناجمةِ عن أصواتِ وسائلِ الإعلامِ!.

حمد: سوفَ أعزفُ لكَ موسيقى أغنيةِ "الأهوالُ"!، وعسى أن يرتاحَ لَها عصبُكَ ...

..... دن دن دن لا لا للا لا ....

أبوالزهو: لقد جعلتَني أتشوقُ لسماعِ شيءٍ من الأغاني، لبعضِ الأصواتِ الحلوةِ...

حمد: عليَّ أنْ أجهِّزَ نفسِيَ للسفرِ. عليَّ الحصولُ على تصريحِ خروجٍ حيثُ تتضاعفُ الإجراءاتُ الأمنيةُ والرسومُ الماليةُ. يوجدُ عنديَ قلقٌ كبيرٌ من أوضاعِ الجامعةِ. الأحوالُ هناكَ أكثرُ تعساً من حالةِ الحربِ الحقيقيةِ. علينا أنْ نؤجِّلَ هَبَّةَ الطربِ لدينا إلى حربٍ جديدةٍ قادمةٍ، لا سَمَحَ اللهُ!.

سنةٌ جامعيةٌ ثانيةٌ أو أولى تَخصّصٌ

(لستُمْ بفيزيائيّينَ جيّدينَ)

بعدَ انتهاءِ السّنةِ الأولى وبدْءِ التسجيلِ فيما سيليها من السّنينِ على الطالبِ أنْ يَختارَ تَخَصُّصهُ مَحضَ إرادتهِ. هنالكَ أربعُ (٤) تَخصّصاتٍ في الكلّيةِ يُقبلُ على الانضمامِ إليها أكثرُ من ستمائةِ (٦٠٠) طالبٍ وطالبةٍ؛ اختارَ حمد أكثرَها عقماً في مُجتمعهِ، الفيزياءَ. كان يشرفُ على ذلكَ القسمِ نُخبةٌ تَمَّ اختيارُهُمْ أو تَجميعُهمْ مع بعضِهمْ بطريقةٍ عشوائيةٍ وغريبةٍ. طيلةَ الفصلِ لمْ يتمكّنْ الطلابُ، حسبَ الواقعِ المنظورِ! واللهُ أعلمُ بما خفِيَ، الاستفادةَ ممّا صدرَ من معلوماتٍ من أعضاءِ هيئةِ التدريسِ؛ لا بالسّهلِ ولا بالصّعبِ. كانَ الكتابُ، أيْ الكتبُ المتوفرةُ، وحدُهُ الملاذَ الأوّلَ والأخيرَ للطلبةِ. طُبِّقَ شعارُ "تعلّمْ العلمَ دونَ معلّمٍ باستخدامِ أيِّ كتابٍ متوفّرٍ لديكَ أيُّها الطالبُ!". طبيعةُ ذلكَ التخصّصِ العلميِّ تستوجبُ وجودَ إشرافٍ دقيقٍ وقريبٍ على الطلبةِ ونشاطهِمْ الأكاديميِّ خطوةً خطوةً، خاصةً في بدايةِ العهدِ لذلكَ التخصّصِ. كانَ الوضعُ الأكاديميُّ بائساً جداً مع هؤلاءِ الأكاديميّينَ لعدمِ وعيِهِمِ العلميِّ أوّلاً ولقلّةِ حرصِهِمْ واكتراثِهِمْ بمهنتِهِمْ ثانياً، إلى جانبِ مآربَ أخرى قد تَبُزُّ (تتفوّقُ) في أهميتِها ما سبقَ. اقترحَ أحدُ الطلبةِ ذاتَ مرّةٍ بأنْ يُرسَلَ هؤلاءِ المدرّسينَ إلى جبهاتِ الحربِ، بدلاً عن إرسالِ الشبابِ اليانعينَ الأبرياءَ من أبناءِ القرى والأريافِ والباديةِ للدفاعِ عن مثلِ هؤلاءِ حيثُ تتعرّضُ حياةُ هؤلاءِ الشبابِ للخطرِ في حروبٍ لا يَحصلونَ من ورائِها على ناقةٍ أو جَملٍ.

كانت هنالكَ أسماءُ غريبةٌ عجيبةٌ من مثلِ الدكتور " هولاك"، والدكتور "بَولاكْ"، والدكتور "هِرقلْ"، والدكتور "براهما" ... وغيرهم. هؤلاءِ كانوا يشكّلونَ نواةَ خلطةٍ أو سبيكةٍ غريبةِ التكوينِ والتصرّفِ، موجهةٍ ضدَّ لغةٍ وثقافةٍ و"عذريةٍ" وعِفّةٍ وطهارةٍ ذلكَ المُجتمعِ المتَميّزِ بالبراءةِ والوداعةِ المسالِمةِ، إنْ صحَّ الوصفُ. كانَ المدرّسونَ، وبشكلٍ عامٍّ، من حاملي شهاداتِ الدكتوراه يُمارسونَ التعلُّمَ لأنفسِهمْ والتبجُّحَ بالتعليمِ للمغفّلينَ والمستغفَلينَ من التلاميذِ الجددِ القادمينَ في معظمِهمْ من بيئاتٍ فقيرةِ الحالِ.

كانَ على الطلبةِ دراسةُ أوّلِ مساقٍ في التخصصِ يسمّى "الفيزياءُ الرياضيَّةُ"؛ يَحتاجُ المساقُ إلى خلفيّةٍ جيدةٍ في الفيزياءِ والرياضيّاتِ وخبرةٍ في التدريسِ من جانبِ المدَرّسِ. لَمْ توجدْ خلفيةُ الرياضياتِ والفيزياءِ المطلوبةُ تلكَ عندَ التلاميذِ المبتدئينَ طبعاً؛ ووُجِدَتْ خبرةُ التدريسِ، وربَّما المعرفةُ العلميّةُ، ضعيفةً جدّاً عندَ ذلكَ المدَرّسِ. وصَلَ عددُ طلابِ الشعبةِ الواحدةِ الوحيدةِ في القسمِ إلى

حواليْ السّتينَ طالباً كانت بينَهمْ بضعةُ طالباتٍ يعدُدْنَ أقلَّ من أصابعِ اليدِ الواحدةِ. كانت كلُّ مقاعدِ الجلوسِ في القاعةِ مشغولةً ممّا اضطرَّ ذلكَ الحالُ قسماً كبيراً من الطلبةِ للجلوسِ على حوافِّ الشبابيكِ في قاعةِ الصّفِّ أو حتى على الأرضِ. جَمَعتْ تلكَ الشعبةُ الصَّفّيةُ بينَ الطلابِ المبتدئينَ من السّنةِ الأولى لَهمْ في القسمِ وكذلكَ المتقدّمينَ من سنيِّهمْ الثالثةِ والرابعةِ في القسمِ؛ جَمعتْ بينَ أصحابِ المستوياتِ العلميةِ المُختلفةِ ومنْ مُختلفِ مستوياتِ النشاطِ العقليِّ والفكريِّ. كان الوضعُ في غرفةِ الصّفِ مثلَ "القِدْرِ الممتلئ" بما هبَّ ودبَّ من مأكولاتٍ مُختلفةٍ!.

تشيرُ عقاربُ السّاعةِ إلى الحاديةَ عشرةَ تقريباً صباحاً عندما دفعَ أحدُ أعضاءِ هيئةِ التدريسِ، الدكتورُ "هولاك"، نفسَهُ إلى داخلِ غرفةِ الصّفِّ. لهُ جِسمٌ رياضيٌّ مفتولُ العضلاتِ منتصبَ الرقبةِ والقامةِ، ويبدو أنّهُ خَضَعَ لتدريبٍ طويلِ الأجلِ في إحدى الألعابِ الآسيويةِ للدفاعِ عن النفسِ من مثلِ "الكاراتيه" أو "التايكواندو" جعلَهُ يبدو مثلَ المستقلِّ اللا-مكترثِ والمسيطرِ تماماً على العالَمِ من حولهِ. كانَ كثيفَ شعرِ الرأسِ ويضعُ على عينيْهِ نظارةً ذهبيةً أو مذهّبةَ الإطارِ. حاولَ أنْ يَجمعَ في نظّارتهِ، كما يبدو، وفي وجههِ ونظراتهِ بينَ شكليْ "بيتهوفن" أو "موزارت" (من أساطينِ فنِّ التأليفِ الموسيقيِّ) وبينَ "هيزنبرج" (أحدِ أساطينِ علمِ الفيزياءِ الحديثةِ)!. في ذلكَ الوقتِ كانت تنقصُ الطلبةَ الحدودُ الدُّنيا منَ المعرفةِ العلميةِ والنفسيةِ والاجتماعيةِ حيثُ يَحكمونَ على المرءِ من شكلهِ أو منظرهِ الخارجيِّ فقط. حدَّقَ المدرِّسُ الجديدُ (الدكتورُ "هولاك") في وجوهِ التلاميذِ الحضورِ، زرافاتٍ ووحداناً، بعينيهِ العسليّتيْنِ من خلالِ العدستيْنِ الشفافتيْنِ لنظّارتهِ. ظنَّ الطلابُ، في البدايةِ، أنّها البدايةُ الموعودةُ مع حصانَ (بدلاً عن فارسٍ) أحلامِهمْ العلميةِ. الدكتورُ "هولاك" عربيٌّ ولكنَّهُ أحدُ كبارِ المناهضينَ لاستعمالِ اللغةِ العربيةِ في العوالمِ الأكاديميةِ والعمليّةِ والإنسانيةِ وبشكلٍ مطلقٍ. ولِمَ لا يكونُ كذلكَ خاصّةً إذا ما كان يتقاضى معاشاً وامتيازاً مُغريَيْنِ جدّاً من أجلِ ذلكَ، سواءً استفادَ الطلابُ من تعليمهِ أمْ لمْ يستفيدوا؟!. بعبارةٍ أخرى لمْ تضعْ إدارةُ جامعةِ "البايْروطاطْ" في ذلكَ الوقتِ أهَميةً لِمدى استفادةِ أو عدمَ استفادةِ الطلبةِ من تدريسِ الدكتورِ ظنّاً منها، ربّما، بأنَّ أيّاً مِمّن يَحملُ شهادةَ الدكتوراه كَمنْ يدخلُ بيتَ أبي سفيانِ المَفتوحِ دائماً!... فهو آمنٌ ومعصومٌ ومُحصّنٌ حتى ضدَّ المساءلةِ. واستغلَّ ذلكَ الدكتورُ، وأمثالُهُ كُثْرٌ، هذه الميزةَ المعتمدةَ على طيبةِ القلبِ والدماثةِ.

في أوَّلِ لقاءٍ أو حصّةٍ في المساقِ مع الدكتورِ "هولاك" دارَ النقاشُ التالي....

الدكتورُ "هولاك": هلْ تريدونَ التخصّصَ بدراسةِ الفيزياءِ؟!.

الطلابُ: نعمْ، كلُّنا يوَدُّ عملَ ذلكَ.

نظرَ الدكتورُ "هولاك" إلى وجوهِ التلاميذِ بعيونٍ مكفهرَّةٍ، وكما يبدو أنَّ الوضعَ لمْ يعجبْهُ. "تَمَسَّكَ" الطلابُ بكراسي جلوسِهِمْ، حيثُ تلكَ الملاذُ الأخيرُ و"سِدرةُ المنتهى" بالنسبةِ لَهُمْ. ما هي إلا دقائقُ حتى فتحَ ملفّاً كان يَحملُهُ. من ملفِهِ بدأ يتمتمُ بكلماتٍ غيرِ مترابطةٍ وبلغةٍ أجنبيةٍ لا معنىً لَها، سُمِعَ منها شيءٌ عن "نظريةِ الاحتمالاتِ" في الرياضياتِ ولعبةِ "طاولةِ الزّهر" في التسليةِ وانتقلَ بسرعةٍ إلى مفهومٍ رياضيٍّ متقدّمٍ في مساقٍ آخرَ يسمى بِ"الدالّةِ الموجيةِ" في الفيزياءِ الكمّيةِ (ودونَ شرحٍ) والأخيرةُ تعبيرٌ رياضيٌّ صِرْفٌ يصفُ حركةَ جُسَيْمَةٍ

دقيقةٍ من مثلِ الإلكترون. ثُمَّ ذكرَ شيئاً غامضاً عنِ الممثلةِ الفرنسيةِ الشهيرةِ بالنسبةِ لهُ "بريجيت باردو" صاحبةِ الأدوارِ السّينمائيةِ الإغرائيةِ. خلالَ دقائقَ جَمَعَ الدكتورُ "هولاك" بين مُختلفِ أنواعِ الميكانيكا الكلاسيكيةِ والكَمّيةِ (المقداريّةِ) والإحصائيةِ والفيزياءِ والرياضيّاتِ وشيئاً من "الجنسِ والإغراء" فيما يَحتاجُ على أرضِ الواقعِ بضعَ سنواتٍ على الأقلِّ لإنْجازِ القليلِ من بعضهِ. وعلى السّبورةِ قامَ برسمِ مَجموعةٍ صغيرةٍ من "الرموزِ والمعَادلاتِ الرياضيةِ الغامضةِ" جدّاً نَسَخَها من مَلفِّ ملاحظاتهِ العتيقِ الذي كانَ بحوزتهِ. انتهت المُحاضرةُ بعدَ أنْ ألقى الدكتورُ "هولاك" ما لديهِ من شبهِ "حجارةٍ صلدةٍ" في عقولِ الطلبةِ، المتقدّمِ في مستواهُ العلميِّ منهمُ قبلَ المبتدئِ فيهِ. بدا الدكتورُ "هولاك" كَما لو كانَ أوَّلَ مرّةٍ بحياتهِ يتعاملُ فيها مع غيرِ نفسهِ. بعدَ المُحاضرةِ سألَ حمد وبعضُ زملائهِ الدكتورَ "هولاك".

حمد: هل لديكَ، دكتورَ "هولاك"، مواعيدٌ معينةٌ لساعاتٍ مكتبيةٍ؟.

الدكتورُ "هولاك": لِماذا ؟!.

أحدُ طلابِ المراحلِ المتقدمةِ: ألا توجدُ إمكانيةٌ لفكِّ الطلاسمِ أو الرموزِ "الهيروغليفيةِ" التي عُرِضَتْ في أوَّلِ مُحاضرةٍ تعطى في أوَّلِ مساقٍ في المادةِ ولِمبتدئينَ؟.

حمد: أريدُ أنْ أعرفَ فيما إذا كانت هذه الرموزُ "اللاتينو- هندو- صينية" التي رُسِمتْ على السّبورةِ تُمثِّلُ أيَّ شيءٍ قبلَ أو خلالَ أو بعدَ نشأةِ التطوُّرِ الرمزيِّ للمادةِ والفكرِ منذُ قديمِ الزمنِ!.

طالبٌ: أريدُ أنْ أعرفَ فيما لو كنتَ تعي شيئاً مِمّا قلتَهُ أيُّها الدكتورُ. هذه الرموزُ تَخلو من التاريخِ والمنطقِ والفكرِ وتفتقرُ حتى إلى نقطةِ ارتكازٍ يُمكنُ لأيِّ عقلٍ بشريٍّ الانطلاقُ منها أو يدورُ حولَها. هل تتحدّثُ عن حركةٍ لأيِّ جسمٍ دون تعيينِ مِحورٍ أو نقطةٍ مرجعيةٍ لَها؟!.

حمد: متى يَحدثُ ذلكَ؟ .... إبّانَ الحربِ أو قبلَ أو بعدَ؟!.

الدكتورُ "هولاك": إنْ لَمْ تتمكّنوا من فهمِ هذه المعادلاتِ الرياضيةِ خلالَ المُحاضرةِ في غرفةِ الصّفِّ، فلن تكونوا قادرينَ على ذلكَ حتى لو قدمتم إلى مكتبِيَ، هل تظنّونَ أنَّني في مكتبِيَ أزرعُ عقولاً؟.

حمد: لا أحدَ هنا يطمَعُ في تَبَنّي عقلٍ مشابهٍ لِما هو عندَكَ!.

الدكتورُ "هولاك": إذن لستمُ بفيزيائيّينَ جيدينَ ولا تقدرونَ أنْ تكونوا كذلكَ. إذا كنتمْ تبحثونَ عن شيءٍ أسهلَ من ذلكَ عليكُمْ تغييرُ تَخصّصِكُمْ العلميِّ.

حمد: نَحْنُ هنا، نكونُ فيزيائيّينَ أو لا نكونُ!.

الدكتورُ "هولاك": لا يوجدُ عندِيَ أكثرُ من ذلكَ وأنصحُكُمْ بتدبُّرِ أمرِكُمْ .... "باي"!...

لَمْ تتغيَّرْ أو تتحسّنْ مُحاضراتُ أو طريقةُ تعاملِ الدكتورِ "هولاك" قيدَ أنْمُلَةٍ صغيرةٍ!. من دفترِ ملاحظاتهِ المَجهولِ مكانِ ولادتهِ وإقامتهِ وفحوى مادتهِ وبعيداً عن أيِّ نصٍّ ثابتٍ في كتابٍ مقرّرٍ، انطلقَتْ من ذلكَ الدفترِ أكثرُ الأفكارِ عُقْماً وغموضاً عندَ الطلبةِ الدارسينَ والمطلعينَ وغيرِ المطلعينَ على حدٍّ سواءٍ. كانَ الطلبةُ يذهبونَ إلى مدرّسينَ آخرينَ في القسمِ يسألونَهُمْ عن مساعدةٍ في فهمِ تلكَ الأفكارِ المطروحةِ عليهِمْ ليجدَ الطلابُ أنَّ المدرّسينَ الآخرينَ ليستْ لديهِمْ إمكانيةٌ

للتعاملِ مع المادةِ المطروحةِ عليهِمْ من قِبَلِ الدكتور "هولاك". مضى أكثرُ من شهرٍ ونصفِ الشهرِ يُحاولُ الطلبةُ حَمْلَ الدكتور " هولاك" فيها على العدولِ عن تلكَ المنهجيةِ المتطرفةِ في الفكر النشاز. تلكَ المَنهجيةُ عرِّفتْ فيما بعدُ بكيفيةِ استخدامِ الرموزِ الرياضيةِ في إيقاعِ "إرهابٍ فكريٍّ شرعيٍّ منظّم" في عقولِ المغفّلينَ (الطلبةِ) من أصحابِ الحاجةِ إلى بناءِ مستقبلٍ فيه بعضُ الأمَانِ الاجتماعيِّ لَهُمْ. لَمْ يكتفِ الدكتورُ " هولاك" بذلكَ فقدْ شكّلَ معَ بعضٍ من زملائهِ "مَحكَمةَ تفتيشٍ فكريةٍ" متنقلةٍ ضدَّ الأغبياءِ من دونهِ ودونِهِمْ!؛ كانَ بأفكارهِ مثلَ "حَبْلٍ مِنْ مَسَدٍ" في أجْيادِ (رِقابِ) طلابِ صفهِ (مَسَدٌ تعني هنا الليفَ الخشنَ). توجَّهَ الطلبةُ إلى عميدِ الكلّيةِ ورئيسِ القسمِ، أفراداً وجَماعاتٍ، يشكونَ عدمَ القدرةِ على متابعةِ مُحاضراتِ وأفكارِ وحتى تصرفاتِ الدكتور " هولاك" العلميةِ والفرديةِ الشخصيةِ. أخيراً اتفقَ العميدُ مع رئيسِ القسمِ على تقسيمِ الشعبةِ الصفيَّةِ إلى شُعبتيْنِ. احتوتْ الأولى منهُما على المبتدئينَ والثانيةُ على المتقدّمينَ من الطلبةِ وأُنيطَ بالدكتورِ " هولاك" تَوَلِّيَ أمرَ الشعبةِ الثانيةِ. بعدَ قرارِ تقسيمِ الطلبةِ إلى مَجموعتينِ كانَ للطلابِ بعضُ النقاشِ الجانبيِّ في الصّفِّ مع الدكتور "هولاك".

الدكتورُ " هولاك": ظننتُ خطأً أنّكمْ طلابٌ أكثرُ ذكاءً واجتهاداً؛ أما وقد هربتُمْ وشكوتُمْ إلى العميدِ فهذا يدلُّ على أنّكمْ لن تكونوا فيزيائيّينَ جيدينَ!.

طالبٌ: لو كان بمقدورِكَ الإفصاحُ عن مكانِ ولادةِ دفترِ ملاحظاتِكَ والتسلسلِ الزمنيِّ لتدوينِ الأفكارِ فيهِ. إنَّ الملاحظاتِ المعروضةَ وطريقةَ التسلسلِ في سرْدِها لا يُمكنُ أنْ توصفَ بأنّها أكاديميةٌ وبأيِّ شكلٍ من الأشكالِ. نَحْنُ طلبةٌ ندفعُ المالَ والوقتَ والحياةَ في سبيلِ فهمِ نظريةٍ أو الاستعلام عن فرضيةٍ أو نظريةٍ أو قانونٍ طبيعيٍّ، لتأتِيَ وتقولَ أننا لسْنَا بفيزيائيّينَ جيدينَ ولا يُمكنُ أنْ نكونَ!.

طالبٌ: طوالَ شهرٍ ونصفٍ من التدريسِ لَمْ تقدِّمْ شيئاً في غرفةِ الصّفِّ. وماذا عن نتيجةِ الامتحانِ؟!؛ من بينِ أكثرَ من خَمسينَ (٥٠) طالباً نَجَحَ ثلاثةُ طلابٍ فقط، وتفتخرُ أمامَ المَلأِ بذلكَ. هلَ تعتقدُ أنَّ ذلكَ مقياساً للذكاءِ عندَكَ أو عندَ الطلابِ أو عندَ الاثنينِ في آنٍ واحدٍ؟.

حمد: ومنَ الواضحِ أنّكَ تَميلُ للاعتمادِ في سلوكِكَ وتصرفاتِكَ على جِسمِكَ وتدريبِكَ الرياضيِّ!. أؤكّدَ لكَ أنَّ لديَّ ولدينا دعماً لا-مَحدوداً من جهةِ أبوالزهو والذي هو أكثرُ ضماناً وقوّةً من أيِّ مصدرٍ آخرَ.

الدكتورُ "هولاك": لا يهمُّني عَددُ الناجحينَ في هذا التخصّصِ. يهمُّني أنْ يتخرّجَ ولو فيزيائيٌّ واحدٌ جيدٌ في كلِّ المنطقةِ، أكونُ راضياً لو كانَ واحداً فقط، لأن هذا التخصّصَ يَحتاجُ إلى عقلياتٍ من الندرةِ بمكانٍ؛ وليسَ كلُّ من أحبَّ ... نالَ!. (مثلٌ شعبيٌّ يدحضُ المثلَ القائلَ بأنَّ "كلمةَ مستحيلٍ موجودةٌ في قاموسِ الحمقى").

من صفاتِ الدكتورِ "هولاك" الأساسيةِ أنّهُ كانت لديهِ طريقةٌ فريدةٌ وشديدةُ الوطءِ على التلاميذِ في امتحانِ أعمالِ الطلبةِ اليوميةِ والفصليةِ. كان يقومُ ومن خلالِ ملاحظاتهِ المُختصةِ بهِ بإعطاءِ أسئلةٍ يُجهدُ الطلابُ أنفسَهُمْ وأعصابَهُمْ كثيراً لإيجادِ حلولٍ لَها؛ من مثلِ الفوازيرِ. يأتي الدكتورُ " هولاك" بعدَها ليعلنَ أنَّ الحلَّ لكلٍّ منها لا يتجاوزُ السّطرَ الواحدَ في أغلبِ الأحيانِ، إنْ لَمْ يكنْ كلمةً أو كلمتيْنِ. الطلابُ في تلكَ الحالةِ أغبياءُ، لا يتمتّعونَ بالقدْرِ الكافي الذي يَجعلُ منهُمْ فيزيائيّينَ جيدينَ، على حدِّ تعبيرهِ. تبيَّنَ فيما بعدُ أنَّ الملاحَظاتِ التي ألقاها على مسامعِ طلبةِ

السّنةِ الجامعيةِ الأولى في التخصُّصِ تعودُ إلى مساقٍ تلقّاهُ أيّامَ تحضيرِهِ لنيلِ شهادةِ الدكتوراه. استمرَّ الدكتورُ "هولاك" على نَهجِهِ ذاكَ في التدريسِ ولعدةِ سنواتٍ قبلَ أنْ يغادرَ الجامعةَ إلى مكانٍ آخرَ! يلائمُ مزاجَهُ ومستواهُ الفكريَّ والعلميَّ ويليقُ بفيزيائيّينَ جيدينَ من مستواهُ، ربّما!.
"نور الهوى": لقد علمتُ أنّكَ أحدثتَ "توازنَ رعبٍ" ثنيتَ فيه الدكتورَ "هولاك" عن التمادي في غيِّهِ؛ غيرَ ذلكَ من الممكنِ أنْ يقومَ بترسيبِ الطلبةِ ويواصلَ الطعنَ في درجاتِ الذكاءِ عندَهُمْ. سَمِعْتُ أنّهُ يترعرعُ معنوياً على الطعنِ بالآخرينَ وخاصةً ذوي المستوياتِ العاليةِ.
حمد: هل تقصدينَ الدعمَ الذي يقدّمُهُ أبوالزهو والقوى الكادحةُ المُحبةُ للأمانِ والسّلامِ؟. الدكتورُ "هولاك" لا يعلمُ أنَّ لدى والدةِ أبوالزهو (راكلي) حزامٌ أسودُ في "التايكوَاندو" بدرجة دان-٧. هؤلاءِ الفاشيّونَ يظنّونَ أنّهُمْ لوحدِهِمْ في السّاحةِ؟!.
(الفاشيّونَ هُمَ أتباعُ المذهبِ الفاشيِّ أيِّ المخلصينَ والموالينَ على شكلِ طاعةٍ عمياءَ لِحزبٍ من السّاسةِ أو مَجموعةٍ فكريةٍ أو إثنيةٍ أيْ عقائديةٍ).
طالبٌ زميلٌ (سالِمٌ): وبِمناسبةِ انتهاءِ أزمةِ الدكتورِ "هولاك" أدعوكُمْ إلى حفلٍ ساهرٍ في نِهايةِ الأسبوعِ في حضرةِ سلطانِ الطرَبِ وصوتِ الأرضِ السّمراءِ الحارّةِ.
"نور الهوى": وهل تعتقدونَ أنَّ مشكلةَ الدكتورِ "هولاك" انتهتْ؟، ما حدثَ جزءٌ من مؤامرةٍ دنيئةٍ ضِدَّ القوى الكادحةِ من أَمثالِ حمد وأبوالزهو. وأي أرارات (قرارات) تتخز (تُتّخذُ) في حأ (حقِّ) الطلابِ من إبَلِ (قِبَلِ) الإسم (القِسْم) أو غيره أو غيراته (غيره) علينا جَميعاً أن نوأف (نقفَ) معاً يداً واحدةً!. أنا رح خبّر طلاب إسم (قِسم) العلوم البيو-طبية على أساس يوأفوا (يقفوا) كِلّن (كُلُّهمْ) مع طلاب إسم (قسم) الفيزيكس (الفيزياء). ... ...
حمد (في السّهرةِ الموسيقيةِ): ليس لنا من مطربٍ مفضّلٍ هذهِ الليلةَ أكثرَ إيناساً من صوتٍ قادمٍ من جوفِ الجزيرةِ، صوتِ الشيخ "طلال مداح" ومع كلماتِ الشاعرِ اليمنيِّ المظلومِ في حبِّهِ العذريِّ الشيخ "إسماعيل العُذري". دن دِن طن رن دن طن رن دن دجَ دج دن لا لا للا للا ...... تعالَ يا ليلي نعشْ في ظِلِّ قَفرةٍ من البيدِ لَمْ تُنقلْ بها قدمانِ! .... تعالَ إلى وادٍ خليٍّ وجدولٍ ورنّةِ عصفورٍ وأيكةِ بانٍ .... تعالَ إلى ذكرِ الصِّبا وجنونهِ وحلمِ عيشٍ وهمسةٍ وأمانٍ ......
"سالم": يا سلاماً عليكَ يا "بوحميد"!، أكمِلْ.....
حمد: دن دن دن دج دج دج .... يا من هواهُ أعزَّهُ وأذلّني كيفَ السّبيلُ إلى وصالِكَ دُلّني ... أنت الذي حلّفتَني وحلفتَ لِيَ وحلفتَ أنّكَ لا تَخونُ فخُنتني! .... وحلفتَ أنّكَ لا تَميلُ مع الهوى! أين اليمينُ؟ أين اليمينُ وأين ما عاهدتَني؟ ..... تركتَني حيرانَ صبّاً ناعماً ... أرعى النجومَ وأنت في عيشٍ هَنيءٍ .... واللهِ! لأقعدنَّ على الطريقِ وأشتكي! وأقولَ: مظلومٌ وأنتَ ظلمتَني ... ولأدعُوَنَّ عليكَ بطرقةٍ من حرِّ الهوى ... يُبليكَ ربّي مثلَما أبليْتَني ......
"نور الهوى": ما شاءَ اللهُ علايك (عليكَ)، عالِمٌ وفنّانٌ وأبضاي (قَبَضاي كلمةٌ عاميةٌ وتعني صاحبَ قبضةٍ قويةٍ) كمان (كذلكَ)!.

الدكتورُ "بَولاكْ"

كانَ يأتي إلى القسم في الكلّيةِ مدرِّسونَ من الخارج معظمُهُمْ من المتقاعدينَ أو عن العملِ عاطلينَ في بلادِهمْ. تدريجياً كانتْ جامعةُ "الْبايْروطاطْ" تَحِلُّ مَحلَّهُمْ أناساً من الوطن، تَمَّ إيفادُهُمْ من قبْلُ وتدريبُهُمْ في برامجَ "تبادلٍ ثقافيٍّ" وبعثاتٍ تعليميةٍ حيثُ ما أنْ رجعوا حتى أصبحوا يأخذونَ تلكَ المراكزَ والوظائفَ من أولئكَ الأجانبِ. كان الدكتورُ "بَولاكْ" أحدَ تلكَ الأمثلةِ. غيرُ معروفٍ بالضبطِ ذلكَ الطريقُ الذي أدّى بالدكتورِ "بَولاكْ" إلى الحصولِ على شهادةِ الدكتوراه من إحدى جامعاتِ العالَمِ الراقي!. في عملِهِ وعلى الدوام، كان يبدو الدكتورُ "بَولاكْ" وكأنَّهُ يودُّ الانتقامَ من أيِّ شيءٍ ساكناً كانَ أم متحركاً مستغلاً الظروفَ النفسيةَ عند التلاميذِ التي تَميلُ إلى تقديسِ المعلِّمِ، أيّاً كانَ شكلُ المعلّم. لمْ يكنْ لديهِ أيُّ تدريبٍ جسميٍّ للدفاعِ عن النفسِ أو حتى رياضيٍّ عاديٍّ، على العكسِ من الدكتور "هولاك"، لكنّهُ تَمتّعَ بنفسيّةٍ "صِداميّةٍ" تحتاجُ إلى خلفيّةٍ جسديةٍ لَمْ تَتوفّرْ في شخصهِ؛ كان اللهُ في عونِ من حَظِيَ! بِأخْذِ مساقٍ تَحْتَ إشرافِهِ. كانتْ طريقتُهُ في إعطاءِ المُحاضراتِ سيئةً جداً وكميةُ المعلوماتِ المفيدةِ التي تصدرُ عنه من الضحالةِ بمكانٍ، خبرةُ التدريسِ عندهُ تساوي صفراً وبدا كما لو كانَ لأوّلِ مرّةٍ يتحادثُ مع غيرِهِ وجهاً لوجهٍ بشكلٍ جماعيٍّ. قامَ الطلابُ بعملِ إضرابٍ احتجاجيٍّ بسببِ الطريقةِ العقيمةِ واللا-سليمةِ للدكتورِ "بَولاكْ" في إعطاءِ المعلوماتِ في التدريسِ. خلالَ ذلكَ الإضرابِ الأكاديميِّ في الصّفِّ جرى النقاشُ التالي:

طالبٌ: نَحْنُ الآنَ في نهايةِ الأسبوعِ الثاني من الفصلِ، هل يُمكنُنا أنْ نتحدّثَ معكَ عن بعضِ المشكلاتِ التي تواجُهُنا قبلَ التعمّقِ أكثرَ في الزمنِ وتزدادُ الأمورُ حرَجاً وإحراجاً لكَ، ولنا قبلَ كلِّ شيءٍ؟!. نَحْنُ طَلبةٌ ندفَعُ ثَمنَ الحصصِ مالاً وعرقاً

وعصباً ودماً وجهداً جَماعيّاً منا ومن الأهلِ وغيرَ ذلكَ الكثيرَ. ما تقومُ بهِ يعدُّ من قبيلِ العملِ اللا-مُجدي، لا للعلْمِ بالشّيءِ ولا للعملِ بهِ.
الدكتورُ "بَولاكْ" (أدارَ عينَهُ وأخرجَ لسانَهُ من فمهِ متهكّماً): هل تريدونَ إيقافَ الحصّةِ والإضرابَ فقط لِهذه الأسبابِ البسيطةِ والسّخيفةِ السّاذجةِ؟!. انتبهوا جيداً وسوفَ تفهمونَ ما يُقالُ.
حمد: ولِماذا لا تتقيدُ بأشياءَ واضحةٍ من معلوماتٍ وبمصاحبةِ كتابٍ مقرَّر؟!. كلُّ مُحاضراتِكَ ارتِجاليةٌ وغيرُ مُنظّمةٍ. تأتي إلى الصّفِّ دون دفترِ ملاحظاتٍ ولا كتابٍ مقرّر؛ هل تَعتبرُ تلكَ إحدى علاماتِ العبقريةِ من عندِكَ؟!.
الدكتورُ "بَولاكْ": لَمْ أسْمعْكَ جيداً!. إذا أرادَ أحدُكُمْ التحدّثَ إليَّ فعليهِ أنْ يوجِّهَ كلامَهُ إلى أذنِيَ اليُمنى، لا اليسارَ لأنَّ الأخيرةَ لا أسْمعُ بها!.
حمد: لسنا معنيّينَ بأيِّ الآذانِ تسمعُ أو لا تسمعُ ولا بأيِّ العيونِ ترى أو لا ترى!؛ كان "بيتهوفن" أصمَّ بالكاملِ، وكان "طه حسين" أعمىً بالكاملِ. نتحدّثُ عن مشكلةٍ تَهُمُّ عشراتِ الأشخاصِ وضعوا نصبَ أعينِهِمْ التعلّمَ. مَن مِن الحاضرينَ يرغبُ في استمرار الدروسِ هكذا؟ ومثلَ تناولِ الشوربةِ التالفةِ بالشّوْكةِ والسّكّينِ وفي أحسنِ الأحوالِ؟!.
الدكتورُ "بَولاكْ": هذه هي طريقتِيَ في التدريسِ والذي لا يعجبُهُ إمّا أنْ يذهبَ إلى مدرِّسٍ آخرَ أو أنْ يتركَ المساقَ أو القسمَ أو حتى الجامعةَ. أنا غيرُ قلِقٍ على شيءٍ من معاشٍ وامتيازاتٍ مصاحبةٍ لهُ أيْ للمعاشِ.
طلّابٌ: إنَّ مواعيدَ الدروس الأخرى متعارضةٌ مع الجدولِ الدراسيِّ الأسبوعيِّ ولا يسهلُ علينا البدءَ بتغييرِ المواعيدِ من جديدٍ، لذلكَ فإنّكَ أنت المشكلةُ وعليكَ يَجبُ أنْ يكونَ الحلُّ!.
حمد: من المؤسفِ أنّكَ تريدُ أنْ تُنْزلَ عقاباً أنت تستأهلهُ على غيركَ ممّن يُمكنكَ أنْ تضحّيَ بهِمْ بسببِ شعوركَ بقوّةِ مركزِكَ في الكلّيةِ. إنَّ لديكَ شعوراً بأنّكَ من الندرةِ بمكانٍ بحيثُ يصعبُ علىَ الكلّيةِ الإتيانُ ببديلٍ عنكَ.
الدكتورُ "بَولاكْ": إذا ما كانَ السّببُ في الإضرابِ هو الكتابَ المقرّرَ، فهذا هو الكتابُ المقرّرُ... والذي ذكرتُهُ لكمْ من قبلُ.
الطلابُ: لكنكَ لا تتقيدُ بهِ على الإطلاقِ، والملاحظاتُ التي تعطيها مقتضبةٌ وسريعةٌ ولا جدوىً من الرجوعِ إليها ولا مراجعتِها. لا توجدُ استفادةٌ، لا علميةً ولا عمليةً، من مُحاضراتٍ أنت تُعطيها. كذلكَ نَحْنُ في مقرّرٍ دراسيٍّ علميٍّ؛ هنالكَ امتحاناتٌ ونتائجُ لَها. يَجبُ إتباعُ برنامجٍ يُمهِّدُ لِهذا وذاكَ إذا ما أردنا الاستمرارَ في هذا الطريقِ.
الدكتورُ "بَولاكْ": الآنَ ابدؤوا بالدرسِ وانتبهوا، وعندما تشعُرونَ بأنّكمْ لا تفهمونَ شيئاً بمقدورِكُمْ أنْ توقفونَني وتسألونَني.
حمد: وهل طوالَ الحصصِ الماضيةِ استوقفَكَ أحدٌ للسؤالِ؟ لا أحداً. إحدى أمريْنِ اثنيْنِ إمّا أنْ يكونَ الطلبةُ يفهمونَ عليكَ كلَّ شيءٍ، أو لَمْ يستطيعوا فهْمَ أيَّ شيءٍ!.
لَمْ يكنْ هنالكَ من تَجَمُّعٍ أو جَماعةٍ تَحمي الطلابَ من عبثِيةِ عقولِ الكثيرِ من المدرّسينَ من هنا وهناكَ. لَمْ يكنْ هنالكَ اتحادٌ للطلبةِ أو جَمعيةٌ قانونيةٌ أو حتى مكتبٌ "للطوارئ" في حالِ اشتدّتْ أزمةٌ من مثلِ أزمةِ الدكتور "بَولاكْ" والدكتور "هولاك" من قبلَهِ وغيرِهِمْ. لذلكَ استمرَّ الدكتورُ "بَولاكْ" علَى حالهِ. ازدادَ الأمرُ

تدهوراً عندما تَحالفَ الدكتورُ "بَولاكْ" مع آخرينَ في القسمِ لتكوينِ "مركز قُوىً" معلنٍ وخفيٍّ في آنٍ معاً، نالَ منهُ الطلابُ أسوأ أنواعِ التصرّفِ والعذابِ. إضافةً لذلكَ بل الأسوأ منهُ هوَ أنّهُ لَمْ يكنْ يوجدْ مُختبرٌ مناسبٌ على الإطلاقِ للمادّةِ العلميةِ المشروحةِ وظلَّ "التعلمُ من الكتابِ بدونِ معلِّم" سيّدَ الموقفِ. لَمْ تَكُنْ هنالكَ ورشةٌ علميةٌ تَحْتَ إشرافٍ من خبيرٍ أو معلّمٍ مُحترفٍ.

كانَ الطلابُ يعانونَ من الامتحاناتِ قدْرَ معاناتِهِمْ من تصرفاتِ الدكتورِ "بَولاكْ" وشُحِّ المادةِ العلميةِ التي يُعطيها؛ كانَ يعتمدُ أسلوبَ تسخيفِ الإجابةِ عندَ معرفتِها بقولِهِ على الدوامِ أنَّ هذا السّؤالَ سخيفٌ ونتيجتُهُ أسخفُ!. لَمْ يسفرْ أسلوب الدكتورِ "بَولاكْ" في التعليمِ إلا عن إنتاجِ كوارثَ. على سبيلِ المثالِ فقط لا الحصرَ!، أقامَ الجيشُ الوطنيُّ ذاتَ مرَّةٍ معرضاً عسكرياً في الجامعةِ إذ كانَ جناحُ سلاحِ الإشارةِ أو "اللاسلكيِّ" من بينِ الأجنحةِ الموجودةِ في المعرضِ. سألَ طالبٌ في مَساقٍ علميٍّ في سنتِهِ الجامعيةِ الثالثةِ يَختصُ بالموجاتِ الكهرومغناطيسيةِ من طلابِ الدكتورِ "بَولاكْ"، سألَ ضابطاً في جناحِ "سلاحِ اللاسلكيِّ" عن سرعةِ انتشارِ الإشاراتِ أو الموجاتِ اللاسلكيةِ الكهرومغناطيسيةِ!؟. أثارَ ذلكَ السّؤالُ استغرابَ الضابطِ والذي بدورِهِ سألَ الطالبَ الجامعيَّ عن تَخصّصِهِ وعن سنتِهِ الدراسيةِ في الجامعةِ وعن الذي يقومُ بتعليمِهِ وحتى عن المسئولِ عن هذا وذاكَ!. (قالَ لهُ ذلكَ الضابطُ أنَّ سرعةَ انتشارِ الموجاتِ الكهرومغناطيسيةِ معروفةٌ حتى لدى تلاميذِ مرحلةِ الدراسةِ الابتدائيةِ وتساوي ٣٠٠,٠٠٠ كيلومترٍ في الثانيةِ الواحدةِ).

كالعادةِ في آخرِ حصةٍ للفصلِ الدراسيِّ يَجري نقاشٌ شبهُ مفتوحٍ بينَ الطلبةِ والمدرّسينَ...

الدكتورُ "بَولاكْ": حظٌّ سعيدٌ في الامتحانِ النهائيِّ!. ركِّزوا في التحضيرِ للامتحانِ الفصليِّ النهائيِّ على الملاحظاتِ التي استطعْتُم تدوينَها من المُحاضَراتِ التي أعطيتُكُمْ إيّاها!.

طالبٌ: انظرْ إلى دفتريَ إنْ كانت هنالكَ أيَّةُ ملاحظاتٍ يُمكنُ الركونُ إليها أو استنتاجُ أيَّةِ معلومةٍ منها!. انظُروا إلى دفترِ ملاحظاتِ المادةِ عنديَ والذي يبدو وكأنَّ قِطّاً قد دوّنَ تلكَ الملاحظاتِ! نظراً للحرصِ الكبيرِ في توَخّي الدقّةِ! لدى المدرّسِ لإيصالِها إلى تلامذتهِ!.

طالبٌ آخرُ: لِماذا لا يكونُ هنالكَ استبيانٌ في آخرِ الفصلِ يُؤخذُ فيهِ رأيُ الطلابِ عن ما جرى لَهمْ في مثلِ هذهِ الأحوالِ حتى تكونَ هنالكَ عبرةٌ للآخرينَ!.

الدكتورُ "بَولاكْ": لقد حصلتُ على الدكتوراه قبلَ أقلَّ من عاميْنِ ومعلوماتيَ عن العلمِ لا تزالُ طازجةً. إنْ لَمْ يعجبْكُمْ تدريسيَ ولا يكفيكُمْ علميَ فلا أظنُّ أنَّ أحداً آخرَ في المكانِ هنا يُمكنُ أنْ ينالَ إعجابَكُمْ.

طالبٌ: ربَّما لديكَ شهادةُ دكتوراه في العلمِ، لكن ليس عندَكَ أيّةُ شهادةٍ مهما تكنْ متدنيةً في طريقةِ التعليمِ أو التعاملِ مع الخَلقِ!.

حمد: كانَ كلُّ من التقيْنا بِهِم من مدرسينَ في هذهِ الكلّيةِ إلى حدِّ السّاعةِ من الطازجينَ! الجددِ في كلِّ شيءٍ. "طازجٌ" .. اثنانِ ... ثلاثةٌ ....

كانت نتيجةُ الامتحانِ لا تقلُّ هزليةً عَن طريقةِ الدكتورِ "بَولاكْ" في التدريسِ. زَعَمَ الدكتورُ "بَولاكْ" أنَّ الذي تَجاوزَ الخمسينَ بالمئةِ يعتبرُ من

الأذكيـاءِ، ذلـكَ لأنَّ علـمَ الفيزيـاءِ علـمٌ صـعبٌ ويَحتـاجُ إلـى ذكـاءٍ نـادرٍ!. مثـلَ تلـكَ العلاماتِ وغيرِ ها تضعُ قيوداً حديديةً لقدرةِ طالبِ العلمِ على المتابَعةِ والتطوّرِ الأكاديمييْن في معاهدَ علميةٍ ذاتِ مستوياتٍ مقبولةٍ؛ عملٌ غيرُ مشرِّفٍ ضِدَّ طلابٍ استُغفِلوا واستُغِلَّت أحوالُهم الاقتصاديةُ والاجتماعيةُ والسّياسيةُ والخلفيةُ العلميةُ. كذلكَ تتغاضى إدارةُ الكلّيةِ والجامعةِ عن إعطاءِ الرعايةِ والدعمِ والحمايةِ المطلوبةِ للعقولِ الوطنيةِ الأصيلةِ. وقعت كلُّ تلكَ العقلياتِ الشابّةِ الطموحةِ الواعدةِ، وقعت فريسةً لأمثالِ "هولاك" و"بَولاكْ" وغيرِهمْ.

ليسَ فقط أنَّ المعلوماتِ المقدّمةَ في الصّفِّ ليست ذاتَ قيمةٍ في الصّفِّ بل إنَّ طلبَ العونِ من أحدٍ غيرَ المدرّسِ شِبهَ معدومٍ وغيرَ مرغوبٍ فيه من لدنْ مدرّسٍ من مثْلِ الدكتورِ "بَولاكْ". هنالكَ حادثةٌ معبّرةٌ عَن نفسيةِ الدكتورِ "بَولاكْ" عندما مرَّ بأحدِ تلامذتهِ ورآهُ يُحاولُ الاستفادةَ من طالبٍ آخرَ يكبرُهُ سنّاً ومستوىً علميٍّ، وكان ذلكَ في مَمَرٍّ عامٍّ في القسمِ. كان تلميذُ الدكتور "بَولاكْ" الشابُّ يئنُّ من وطأةِ أمـراضٍ معويـةٍ شـبهِ مزمنـةٍ. مـا كـان مـن الـدكتورِ "بَـولاكْ" إلا أنْ زَجَـرَ تلميـذَهُ المريضَ مهدداً إياهُ بالترسيبِ في الامتحانِ إنْ استمرَّ في طلبِ العونِ من مكانٍ آخرَ، "غيرةٌ أكاديميةٌ"!. يُعتقدُ أنّهُ فعلَ ذلكَ، أيْ قام بترسيبِ طالبهِ في الامتحانِ فيما بعدُ. اضطرَّ ذلكَ الطالبُ المسكينُ إلى الانتقالِ، بعدَ أنْ حالفهُ الحظُّ، إلى جامعةٍ أخرى بعيدةٍ عن أرضِ الوطنِ، الصّغيرِ والكبيرِ!.

التقى حمد الدكتورَ "بَولاكْ" في أحدِ مَمرّاتِ الكلّيةِ وكان الوقتُ قُبيلَ انعقادِ الامتحانِ النهائيِّ لذلكَ العامِ.

حمد: قُلْ لِيَ يا دكتورَ "بَولاكْ"، ماذا ستراودُكَ نفسُكَ أنْ تفعلَهُ فيما لو وصلَ إلى مسمعِكَ أنَّ أحدَ تلامذتِكَ تقدَّمَ في علمهِ أو فكرهِ ولو قيدَ أنْملةٍ، ولو من بابِ الخيالِ؟. بطريقةٍ أخرى، هل تَخشى حدوثَ سكتةٍ قلبيةٍ أو جلطةٍ دماغيةٍ أو انْهيارٍ عصبيٍّ أمْ حتى حدوثَ طفحٍ جلديٍّ عندَكَ؟!. جهودُ الدولةِ تذهبُ سدىً عندما يظنّونَ أنَّ أشخاصاً من مثلِكَ يُمكنُ الركونُ إليهِمْ في تحقيقِ أيِّ نوعٍ من التعليمِ المُجدي لِهؤلاءِ الشبابِ، عمادِ مستقبلِ الوطنِ!.

الدكتورُ "بَولاكْ": كلُّ الطلابِ ساكتونَ إلا أنتَ!، لِماذا لا يشتكونَ؟!.

حمد: دائماً يشتكونَ ودائماً لا يستجابُ لَهم. لقد أيقنوا أنَّهم مثْلَ حباتِ القمحِ التي تذهبُ وتشتكي حالَها للقاضي من جنسِ الدجاجِ. أنت الدجاجُ وهم حباتُ القمحِ!.

عادةً ما يَختفي المدرسونَ بُعَيدَ انتهاءِ الامتحاناتِ وتسليمِ النتائجِ، قسمٌ منهمُ كـان يـتحجَّجُ بأنّـهُ يستغلُّ الإجـازةَ للالتحـاقِ بمجموعـةٍ بَحثيـةٍ فـي إحـدى الجامعاتِ!؛ كلامٌ هراءٌ وضحكٌ على اللّحى والذقونِ. لو كانَ الأمرُ كذلكَ لِماذا لَمْ تصدرْ من الجامعاتِ التي يعملونَ فيها أعمالٌ بَحثيةٌ ولو بصفحاتٍ معدودةٍ مِمّا يقومُ به هؤلاءِ المدرسونَ الأفذاذُ في أيِّ شيءٍ بَحثيٍّ مهما صَغُرَ وينشرونَ أعمالَهُمْ في مَجلاتٍ علميةٍ مَحليةٍ. هذا دليلٌ على أنَّ حاملَ أعلى درجةٍ علميةٍ في المُجتمعِ، الدكتوراه، لَمْ يقدرْ أنْ يتخلّصَ من التبعيةِ العقيمةِ العاقرِ للخارجِ. إلا ما رحمَ ربُّكَ من القلّةِ، فإنَّ حَملةَ شهاداتِ الدكتوراه لا يقدرون أنْ يفكروا ويُنتجوا بشكلٍ حرٍّ ومستقلٍّ في أوطانِهمْ وأنْ يساعدوا في تَخريجِ أجيالٍ تستطيعُ أنْ تَخدمَ نفسَها وأوطانَها وشعوبَها وبشكلٍ فيهِ الحدُّ الأدنى من الاستقلاليةِ.

طالبٌ: كَمْ أعطاكَ الدكتورُ "بَولاكْ" من معدّلٍ نِهائيٍّ في المساقِ؟.

جوابٌ: راسبٌ. وأنتَ؟.
جوابٌ آخرُ: مثلَ الحدِّ الأدنى للأسهمِ العربيةِ في الشركاتِ الأجنبيةِ العاملةِ في البلادِ لضمانِ السّيادةِ الوطنيةِ على الشركاتِ!.... ٥١%.
طالبٌ آخرُ: حصلتُ على ٥٩% أيْ مُجرّدَ ناجحٍ. لَمْ يرفعْ درجتِيَ علامةً واحدةً أخرى للحصولِ على درجةٍ مقبولٍ. لقد فعلَها عَمْداً، أعرفُ ذلكَ لأنّهُ "ساديٌّ" أحْمقُ يُحبُّ تعليقَ الناسِ من عقولِها وأعصابِها!.
حمد: إذا وثِقْتمْ بأسلوبِ الدكتورِ "بَولاَكْ" وبأفكارهِ الماكرةِ سيذهبُ بكُمْ وبعقولِكُمْ إلى حيثُ يشاءُ. بعدَ سنةٍ من أخْذِ عدةِ مساقاتٍ علميةٍ معهُ، الآنَ جَميعُنا نعرفُ الدكتورَ "بَولاكْ" ومستواهُ العلميَّ والعقليَّ والثقافيَّ والحسيَّ ونعرفُ أنْ لا مصداقيةَ عندَهُ. المهمُّ كيفَ ننجو بأنفسِنا من هذا الوباءِ الذي يُسمى التعلُّمُ منْ جهلاءَ. وسأعطيكُم هذه الليلةَ "كونسيرتو" بأحلى المقاماتِ والألحانِ العراقيةِ. فنٌّ يقصِمُ الظهرَ!.
طالبٌ: أتكفَّلُ بكلِّ المشروباتِ المطلوبةِ، ولا تنسوا توجيهَ دعوةً إلى "نور الهوى".
طالبٌ آخرُ: سوف تأتي دونَ دعوةٍ إذا ما عرفتْ بأنَّ الحفلةَ ستقامُ هذه الليلةَ. ....
حمد: دن دج دن ...... دو دو مي ري دو سي صول ري ري مي ري سي دو....... .... طالعة من بيت ابوها رايحة لبيت الجيران!.. لابسة الأحْمر والأخضر وعيونها تضرب سلام؛.. قلت لها يا حلوة اروني على عيونتش (عيونك) فرجيني!.. قالت لِيَ روح يا مسكين يا عيوني.. عيون الغزلان؛ قلت لها يا حلوة اروني على خدودتش (خدودك) وريني... قالت لِيَ روح يا مسكين! يا خدودي.. تفاح الشام.......
"نور الهوى": إلتلا (قلت لَها) يا حلوة اروني على طولك فرجيني، آلتلي (قالت لي) روح يا مسكين يا طولي مطلئ (طِلْقٌ أو أحد أطلق) الريحان....

مقابلةٌ مع الدكتورِ "صُفْصَف"

أنشأتْ الجمعيةُ العلميةُ الطلابيةُ في الكلّيةِ قسماً للنشاطِ الثقافيِّ احتلَّ غرفةً في القسمِ مستطيلةَ الشكلِ ضيقةَ العرضِ فيها طاولةٌ كبيرةٌ مستطيلةُ الشكلِ أيضاً وعلى جانبِها عددٌ من الكراسي لِجلوسِ الطلبةِ. تركزتْ معظمُ النشاطاتِ غيرِ الأكاديميةِ في الجمعيةِ حولَ لعبةِ الشطرنجِ. كذلكَ كانت الجمعيةُ تُصدرُ عدداً منَ مَجلةٍ لَها كلَّ أسبوعٍ تقريباً، أي بشكلٍ شبهِ دوريٍّ، فيما كان يعرفُ في ذلكَ الوقتِ باسمِ مَجلةِ الحائطِ. كانت مواضيعُ مَجلةِ الحائطِ، "النوافذ"، متعددةً واشتملتْ من ضمنِها على مقابلةٍ مع شخصيةٍ في الكلّيةِ كادت دوماً تكونُ مع عضوِ هيئةِ تدريسٍ خاصةً من الذين يَحملونَ شهاداتٍ أكاديميةً عاليةً.

الدكتورُ "صُفْصَف" حاصلٌ على شهادةِ الدكتوراه في الكيمياءِ من جامعةِ "لتيوسانيانا" في مدينةِ "جريبدكو الجديدةِ" وفي سنتهِ الثانيةِ في التدريسِ في

الجامعةِ. كان الدكتورُ "صُفْصَفْ" قليلَ التعاملِ أو التفاعلِ مع الطلبةِ ولو بابتسامةٍ عَرَضيةٍ أو حتى بتبادلِ التحيةِ مع أحدِهمْ فيما لو حدثَ مثلُ ذلكَ من شيءٍ. كان يبدو دائماً شاردَ الذهنِ قليلَ التركيزِ على ما حولَهُ، تسيطرُ عليه حالةُ لا-مبالاةٍ أو لا-شعورٍ بما يَجري من أمورٍ حتى لو كانتْ تَمَسُّ المُجتمعَ أو الحياةَ في صميمِ الصّميمِ. تبيَّنَ للطلابِ فيما بعْدُ أنَّ الدكتورَ "صُفْصَفْ" مولعٌ بالموسيقى حيثُ كثيراً ما كانَ يُشاهَدُ وهو "يترنَّمُ" مع نفسهِ وأحياناً على شيءٍ من إيقاعِ إحدى قدميهِ.
من أجلِ هذا وذاكَ اختارَ رئيسُ الجمعيةِ، السّيدُ "نبهان"، عُضْوَها الطالبَ حمد لإجراءِ مقابلةٍ مع الدكتورِ "صُفْصَفْ" تخميناً منه على أنَّ المقابلةَ قد تتضمّنُ معلوماتٍ موسيقيةً ليس باستطاعةِ الشخصِ العاديِّ الولوجُ فيها. سيطّلعُ على مَجلةِ الحائطِ، "النوافذ"، عددٌ غيرُ مُحدَّدٍ من الطلابِ وغيرِ الطلابِ.
حمد: لقد أوفدتني الجمعيةُ العلميةُ الطلابيةُ لعملِ لقاءٍ مع حضرتِكُمْ من أجلِ نشرِ هذا اللقاءِ فيما بعدُ على الحائطِ في الصّفحةِ الأولى والوحيدةِ من مَجلةِ الجمعيةِ المسمّاةِ ب"النوافذ Les fenêtres". هل تُفضِّلُ التحدّثَ معِيَ باللغةِ العربيةِ أمْ باللغةِ الأجنبيةِ؟!.
الدكتورُ "صُفْصَفْ": "في اللغة ياللي بَدَّكياها، أنا موش فارأة معي"! (باللغةِ التي تريدُها لا فرقَ من عندِيَ)!.
حمد: أُفَضِّلُ اللغةَ العربيةَ طبعاً. أولاً؛ ما اسْمُكَ شبهُ الكاملِ وتاريخُ الولادةِ، واسمُ الوالدةِ إنْ أمكنَ!، والمدارسُ والجامعاتُ التي تلقيتَ العلمَ فيها.
الدكتورُ "صُفْصَفْ": أنا من مواليدِ ١٩٤٢ ...... وبعدَ تَخرُّجِيَ من مدرسةِ "الشرنقات" الخاصّةِ في الضاحيةِ الشماليةِ من المدينةِ التحقتُ بجامعاتٍ أجنبيةٍ كانت أخيرتَها جامعةُ "لتيوسانيانا" في مدينةِ "جريبكو الجديدةِ"....
حمد: وما هو موضوعُ التخصُّصِ؟. و هل لكَ أنْ تعطيَني لَمحةً مفيدةً عما أنْجزتَهُ بحيثُ يُمكنُني أنْ أضعَ هذه المعلوماتِ في مَجلةِ "النوافذ".. ...؟.
الدكتورُ "صُفْصَفْ": تَمتمتتم تَمتمتتم تَمتمتتم .... هو الموضوعُ باللغةِ الأجنبيةِ. لا أقدرُ أنْ أتَكلَّمَ عنهُ بلغةٍ أخرى خاصةً العربيةِ؛ هذا تَخصّصٌ عالٍ ومتقدّمٌ!. على كلِّ حالٍ هذا من عندِيَ ملخصٌ أو موجزٌ عن بحثِ الدكتوراه سوفَ يتمُّ نشرُهُ في مَجلةِ "روزمانيا" المتخصصةِ في مثلِ هذه الأبْحاثِ.
حمد: آه .... شكراً... هذه نَشرةٌ مكونةٌ من حواليْ ثلثِ صفحةٍ وتَحتوي .....
الدكتورُ "صُفْصَفْ": هي عبارةٌ عن ملخَّصٍ للعنوانِ ومعِيَ زملائِيَ من جامعةِ "بوقاريستو" وآخرَ من جامعةِ "كويكي ليّ" وآخرَ من جامعةِ "واسنهول" .... وآخرونَ.
حمد: أعني!... لوْ تُملي عليَّ ثلاثةَ أو أربعةَ سطورٍ ولو باللغةِ الأجنبيةِ؛ سأترجمُها للذي لا يتقنُ هذه اللغةَ. في النهايةِ، نريدُ خدمةَ جُمْهورِ القارئِ.
الدكتورُ "صُفْصُفْ": لا أقدرُ أنْ أشرحَ لكَ شيئاً لأنَهُ لا خلفيةَ عندَكَ كافيةً في الموضوعِ؛ ولكن خذْ هذه الورقةَ التي تَحتوي الملخّصَ واصنعْ بها ما تشاءُ.
حمد: لننتقلْ إلى موضوعٍ لديَّ فيهِ بعضُ الخلفيةِ، الموسيقى. يلاحظُ أنّهُ من طريقةِ رواحِكَ ومَجيئِكَ في المكانِ أنّكَ تُحبُّ الموسيقى. أتى انطباعُ معظمِ الطلابِ عنكَ لأنّهُمْ يرونَكَ في حالةِ طربٍ شبهِ متواصلةٍ مع بعضِ "الترنيماتِ" الصّادرةِ عنكَ من

هنا وهناكَ. هل لكَ أنْ تُخبرَنِي عن الأعمالِ الفنيةِ الموسيقيةِ التي تستهويكَ وتُحِبُّ السّماعَ إليها؟ ....
الدكتورُ "صُفْصَفْ": أستمعُ كثيراً إلى الغناءِ والموسيقى الغربيةِ الكلاسيكيةِ؛ مثلاً للموسيقار "باخ" "شتراوس"، و"بيتهوفن" ....
حمد: ما رَأيُكَ بالمغنيةِ الإيطاليّةِ الأصلِ "ماريا كالاس"؟ .....!.
الدكتورُ "صُفْصَفْ": "ماريا كالاس"!، لَمْ أسْمَعْ بها من قبلُ.....
حمد: وعلى ذكرِ المؤلفِ الموسيقيِّ المعروفِ "بيتهوفن"، ما أعمالُهُ التي تأخذُ أكثرَ اهتمامِكَ؟.
الدكتورُ "صُفْصَفْ": السّيمفونيةُ الرابعةُ ..... والسّيمفونيةُ العاشرةُ!؟ .... بفتِكرِ (أظنُّ)!.
حمد: آه.... السّيمفونيةُ الرابعةُ.... هل هي "ذات المفتاحِ الموسيقيِّ (سي فلات ماجور)"؟.
الدكتورُ "صُفْصَفْ": أيوى .... نعم ..... مُمكنٌ.... غيرُ متأكدٍ ... يعني شيءٌ من هذا القبيلِ أو ذاكَ.
حمد: يعني! مقامُ "عَجَمْ عشيران"...
الدكتورُ "صُفْصَفْ": ماذا عن "عجم عشيران"؟!....
حمد: هذا مقامٌ موسيقيٌّ واحدٌ من مقاماتٍ موسيقيةٍ عربيةٍ وشرقيةٍ. هنالكَ العشراتُ من المقاماتِ الأخرى التي تتميزُ بِها موسيقانا العربيةُ والشرقيةُ الرائعةُ ....
الدكتورُ "صُفْصَفْ": لا توجدُ عندِيَ مثلُ هذه التعقيداتِ، فقط أسْمعُ إلى "طنطناتٍ" تريحُ أعصابِيَ وتَجعلُني "مفرفش" (شعورٌ بالحيويةِ والنشاطِ)، وكأنّني في عالَمٍ آخرَ غيرِ الذي نَحْنُ فيهِ.
حمد: كلُّ الموسيقى العذبةِ تَجعلُكَ تُحسُّ وتشعرُ بذلكَ وأكثرُها الموسيقى العربيةُ. إذا ما تريدُ سأعزفُ لكَ ذاتَ مرّةٍ مقطوعاتٍ موسيقيةٍ للسنباطي وعبدالوهابِ والدوكالي وأحمد قاسمِ والطيبِ المباركْ وغيرِهمْ، تَجعلُكَ أكثرَ تذوّقاً واستمتاعاً للموسيقى والحياةِ والسّهراتِ.
الدكتورُ "صُفْصَفْ": لا أعتقدُ أنني سأتذوّقُ أو أُعجبُ بالموسيقى العربيةِ. هل تريدُني أنْ أجلسَ ساعةً كاملةً أستمعُ فيها إلى "أم كلثوم"؟! .... هل أُضيعُ ساعةً من وقتِيَ في جلسةٍ من مثلِ تَحشيشٍ وتَخديرٍ وحرقٍ للأعصابِ؟!..
حمد: ها أنت تصرفُ معظمَ وقتِكَ الموسيقيِّ وغيرِ الموسيقيِّ تلهو بِما أنتجَهُ "بيتهوفن وشتراوس ..."، على حسبِ قولِكَ. ما رأيُكَ لو تَخصِّصُ جزءاً بسيطاً للموسيقى العربيةِ وآخرَ لفائدةِ الناسِ من حولِكَ إنْ كنتَ تقدرُ على ذلكَ!.
الدكتورُ "صُفْصَفْ": وهل أنتَ قادمٌ إلى هنا لتُجريَ معِيَ مقابلةً؟ أم لتعطيَنِي درساً فيما ينفعُنِي أو ينفعُ الناسَ؟!. ماذا تريدُ أنْ تسألَ أخيراً؟ ليس لديَّ وقتٌ آخرَ لِمثلِ هذه الأمورِ التافهةِ.
حمد: أحاولُ فقط أنْ أعملَ بالقاعدةِ التي تقولُ بأنّهُ من رأى مفسدةً عليهِ أنْ يصلحَها بيدِهِ ...
الدكتورُ "صُفْصَفْ": أريدُ أنْ أسألَكَ عن الذي اقترحَ عليكَ أنْ تُجريَ مقابلةً معِيَ. أنت! لا تصلحُ لعملِ ذلكَ .....

حمد: عفواً!... مِن أيَّةِ ناحيةٍ تقولُ أنَّني غيرُ صالحٍ أو صاحبُ مستوىً لعملِ مقابلةٍ معكَ؟!. هل مِن ناحيةِ تخصّصِكَ في الكيمياءِ الذي لا أجدُ سطراً واحداً أكتبُهُ على جريدةِ حائطٍ من مستوى "النوافذ"؟؛ أم من جهةِ الموسيقى والتي من تصرفاتِكَ جعلتْ الكثيرَ من الدهْماءِ يتوهَّمونَ أنّكَ قد تكونُ من تلامذةِ "باخ" و"بيتهوفن"...
الدكتورُ "صُفْصَفْ": لا يوجدُ عندِيَ وقتٌ أطولُ لِمثلِ هذا النقاشِ...
حمد: عسى أنْ تَهدأَ قليلاً ولا تستخدمَ منطقَ القوّةِ لِحلِّ إشكالٍ يُمكنُ حلُّهُ بقوّةِ المنطقِ. لديَّ أسئلةٌ أكثرُ أهَميةً من كلِّ ما سبقَ. لنركِّزْ على الأسئلةِ المهمةِ. كَمْ من المعاشِ تتقاضى شهرياً؟ والعلاواتِ الأخرى!.
الدكتورُ "صُفْصَفْ": أتقاضى معاشاً يساوي سبعمائةِ (٧٠٠) جنيهاً شهرياً، إضافةً إلى أبدالِ سكنٍ وأثاثِ بيتٍ وسيارةٍ وتأمينٍ صحيٍّ لِيَ وللأولادِ والعائلةِ ورحلاتِ طيرانٍ سنويةٍ سياحيةٍ إلى الخارجِ وتعليمٍ مَجانيٍّ للأولادِ في مدارسَ راقيةٍ خاصّةٍ .... وغيرها.
حمد: سبحانَ اللهِ العظيمَ وأستغفرُهُ وأتوبُ إليهِ .... إنَّ أعلى معاشٍ لِموظفٍ هنا لا يتجاوزُ الخمسةَ والسّبعينَ (٧٥) جنيهاً ودون أيَّةِ علاواتٍ ويعملُ المسكينُ بكاملِ طاقتِهِ، وليس عندَهُ متسعٌ من الوقتِ حتى للسماعِ إلى المطربِ الشعبيِّ الفنانِ "فهد بلّان"!. سؤالٌ لكَ آخرُ... هل لكَ أنْ تُخبرَنِي عنْ حالتِكَ الاجتماعيةِ وعددِ الأولادِ، وفيما إذا ما كانَ هنالكَ من شيءٍ خارجٍ عن المألوفِ، ولو قليلاً، يُمكنُ بهِ أنْ تلفتَ نظرَ القارئِ إليهِ فيكَ؟!.
الدكتورُ "صُفْصَفْ": لا أعتقدُ أنَّ هنالِكَ الكثيرَ من الخارجِ على المألوفِ ... لكن ... "أوكيه"... عندِيَ خَمسةُ أولادٍ، ثلاثةُ ذكورٍ واثنتينِ من الإناثِ، وسادسُهم سيأتي مع قدومِ المنخفضِ الجويِّ إذا ما صدقتْ دائرةُ التنبؤاتِ الجويةِ بالطقسِ!.
عندَ اجتماعِ حمد في مقرِّ الجمعيةِ الطلابيةِ مع لجنةِ التحريرِ جرى نقاشٌ داخلَ الجمعيةِ حولَ ما سينشرُ في مَجلةِ "النوافذ" عما جرى في تلكَ المقابلةِ مع الدكتورِ "صُفْصَفْ"...
السّيدُ "نبهان": لكي نَجلبَ اهتمامَ القارئِ لقراءةِ مَجلةِ "النوافذ"، أُفضِّلُ وضْعَ المقابلةِ مع الأكاديميِّ المرموقِ مع صورةٍ شَمسيةٍ لهُ في الطرفِ العلويِّ الأيسرِ من المَجلةِ. هنالكَ تقريباً عامودٌ كاملٌ وعريضٌ مُخصّصٌ لِمثلِ هذهِ المقابلاتِ.
حمد: لقد حاولتُ الليلةَ الماضيةَ وضعَ اللقاءِ مع الدكتورِ "صُفْصَفْ" في قالبٍ يُمكنُ نشرُهُ لِجمهورِ القارئِ؛ ولَمْ أتَمكّنْ من صياغةٍ ما يناسبُ النشرَ.
السّيدُ "نبهان": ماذا تقصدُ بذلكَ!؟، إنَّها مُجرّدُ معلوماتٍ شخصيةٍ وقليلٍ من العلمِ في التخصّصِ وبعضِ الهواياتِ وأسئلةٍ متفرقةٍ من هنا وهناكَ. لا نريدُ من الشخصيةِ الأكاديميةِ إعادةَ اختراعِ العَجَلةِ (الدولابِ) في هذهِ المَجلةِ.
حمد: لا علمَ ولا هواياتٍ. بالنسبةِ للهواياتِ إذا ما تقصدُ الموسيقى!، يُمكنُها أنْ توضعَ في نصفِ سطرٍ من العامودِ. وبالنسبةِ للتخصّصِ لَمْ يستطعْ شرْحَ شيءٍ لِيَ يُمكنُ وضْعُهُ في مَجلةِ "النوافذ". أقترحُ وضعَ عنوانِ أطروحةِ الدكتوراه لهُ كما هو وباللغةِ الأجنبيةِ، وكما اقترحَ الدكتورُ "صُفْصَفْ" عليَّ؛ قد يعطي ذلكَ هيبةً إضافيةً للدكتورِ "صُفْصَفْ" ولِمجلةِ "النوافذ"، عندما يَجدُ القارئُ أنَّ هنالكَ حروفاً غيرَ عربيةٍ تدخلُ إلى تركيبةِ المَجلةِ!.

السّيدُ "نبهان": من غيرِ المعقولِ أنّهُ لا يُمكنُ كتابةُ بضعةِ أسطرٍ لتوضيحِ فحوى رسالةِ دكتوراه. ها أنا سأترجمُ لكَ بعضَ الشيءِ من الملخصِ... "دراسةُ الحركةِ المحوريةِ للإلكتروناتِ في مركّبٍ كيماويٍّ عضويٍّ كبيرٍ في بيئةٍ مائعةٍ ....." ..... لكنَّ الدراسةَ هذه عمليةٌ معقدةٌ جداً لا يُمكنُ التقدمُ فيها خطوةً واحدةً إلى الأمامِ ولو بعدَ مئاتِ السّنينَ. كما يبدو أنّهُ قامَ بتسجيلِ مَجموعةٍ كبيرةٍ من القراءاتِ والقيَاساتِ باستعمالِ أحدِ الأجهزةِ العلميةِ، بما يُمكنُ أنْ يطلقَ عليهِ في المُجتمعِ العلميِّ "عملُ الحمارِ وبالألمانيّةِ das Schwerarbeit"... مع احترامِيَ لكَ وللدمارِ، صديقكَ المفضَلِ يا سيدَ حمد. بعدَ ذلكَ قامَ بكتابةِ تقريرٍ عن ذلكَ العملِ أو "أطروحَةٍ" منحَهُ فيها المشرفُ عليهِ لقبَ دكتور!.

عضوٌ في الجمعيةِ الطلابيةِ: بصراحةٍ! هذه المَجلةُ، "النوافذ"، لا تصلحُ لكتابةِ فحوى بَحثٍ أكاديميٍّ متقدمٍ فيها. فقط! إجاباتٌ على أسئلةٍ تتركزُ على الهواياتِ الشخصيةِ وأفكارٍ عامةٍ وبعضِ الأفكارِ والطموحاتِ الخاصّةِ. مثلاً هلّا سألتَهُ عمّا إذا كان يعتقدُ بوجودِ اللهِ عزَّ وجلَّ!؟.

حمد: نعمٌ، كان هنالكَ سؤالٌ عن أصلِ الوجودِ في نظره. أجابَ بشكلٍ واضحٍ وجليٍّ أنّهُ وبسببِ طبيعةِ دراستهِ وعملهِ وتكوينهِ الاجتماعيِّ، وفوقَ ذلكَ المالِيِّ على الأرجحِ، لا يعتقدُ بوجودِ قوّةٍ غيرِ طبيعيةٍ خارجَ قوانينِ العلمِ التي تتحكمُ بوجودِ مادةِ الكونِ وتصرفاتِها وعلاقاتِها بعضِها ببعضٍ. لا أحبِّذُ نشرَ أفكارٍ من هذا القبيلِ على الحائطِ. فيما لو حصلنا منهُ على معلوماتٍ علميةٍ مفيدةٍ، من المُمكنِ أنْ نتطرقَ ولو بشكلٍ عَرَضيٍّ إلى مثلِ تلكَ المواضيعِ. على كلِّ حالٍ وكما يقولونَ "دعْ الخلقَ للخالقِ"...

السّيدُ "نبهان": سبحانَ اللهِ تعالى، لِماذا يستعيضُ الإنسانُ هنا بعقيدةٍ وفكرٍ لا ينفعانِ للتغطيةِ على علمٍ وعملٍ أيضاً لا ينفعانِ. اللهم إنّي أعوذُ بكَ من علمٍ لا ينفعُ وقلبٍ لا يَخشَعُ ....

حمد: وعينٍ لا تدمعُ!.

انتهاءُ السّنةِ الدراسيةِ الثانيةِ

كان التفاعلُ بين الجامعةِ والمُجتمع شبهَ معدوم إذا ما أردنا التكلّمَ بتفاؤلٍ، إنْ لَمْ يكن معدوماً بشكلٍ مطلقٍ إذا ما توخّيْنا الدقّةَ في الوصفِ. بدا الوضعُ كما لو كانت الجامعةُ مؤسسةً تخدمُ مصالحَ خارجيةً، وحتى غيرَ صديقةٍ، أكثرَ بكثيرٍ من أنَّها تقومُ بتنميةِ المُجتمع داخلياً. تبني الجامعةُ هيبتَها في المُجتمعِ عن طريقِ حُرّاسٍ أمنيّينَ يراقبونَ الداخلينَ والخارجينَ منها، وعن طريقِ سورٍ حجريٍّ تعلوهُ أسلاكٌ شائكةٌ يفصلُ داخلَ الجامعةِ عن مُحيطِها. الناسُ يظنّونَ أنّهُ طالَما أنَّهمُ يُمنعونَ من الدخولِ إلى مكانٍ ما فإنَّ ذلكَ دليلُ عظمةٍ وخصوصيةٍ للمكانِ وأنَّ الذي يَجري داخلَهُ خارجٌ عن المَألوفِ؛ هو فعلاً خارجٌ عن المألوفِ والمتوقعِ بسببِ الكوارثِ التي تأتي من أمثالِ الدكتورين "بَولاكْ" و"هولاك" وغيرِهِمْ الكثيرونَ. إضافةً إلى ما سبقَ فإن ظاهرةً جديدةً على المُجتمعِ هناكَ، نوعاً ما، يَتمُّ تطبيقُها في الجامعةِ في ذلكَ الوقتِ ألا وهي ظاهرةُ التعليمِ المُختلطِ بين الذكورِ والإناثِ. الناسُ خارجَ المكانِ يظنونَ أنَّ كلَّ من دخلَ الجامعةَ واجهَ بطريقةٍ أوَ بأخرى أوضاعاً اجتماعيةً غيرَ مألوفةٍ في المُجتمعِ العاديِّ وأنَّ قسماً كبيراً منها قد تُوِّجَ بزواجٍ أو "فشلِ مُحاولةِ زواجٍ". بالنسبةِ للتعليمِ في ذلكَ الوقتِ كان أكثرُهُ تعليمَ المدرّسِ كيفَ يتعاملُ للمرةِ الأولى مع الحياةِ الواقعيةِ. افتقرت الغالبيةُ العظمى من المدرّسينَ أدنى درجاتِ الحسِّ الوطنيِّ أو القوميِّ أو الدينيِّ أو الإنسانيِّ. تَحوَّلَ الجميعُ، إلا ما رحمَ ربُّهمْ، إلى مَجموعةٍ من "العلوج" (العلوج كلمةٌ شعبيةٌ في منطقةِ بلادِ الشامِ وما بين النهرينِ تعني الطفيلياتِ من مثلِ العلقِ والقرادِ الذي يتغذى على أجزاءَ من جسمِ الحيوانِ) التي تأكلُ ولا تشبعُ، تظلمُ ولا ترحمُ وتتقاضى أجراً كبيراً دون أنْ تُعَلِّمَ مقابلَ ذلكَ شيئاً ذا قيمةٍ. كان التلاميذُ في طريقِهِمْ إلى أنْ يكونوا في أحسنِ الأحوالِ مثلَ ببغاواتٍ بشريةٍ تتبارزُ فيما بينَها أيُّها أكثرُ سبقاً في التقليدِ.

بعدَ حوالَيْ السّنةِ من الغربةِ عادَ حمد إلى بيتِه في مسقطِ رأسِهِ ليتناقشَ مع أهلِهِ وصحابتِهِ عمّا تَمَّ لَهُ إنْجازَهُ خلالَ السّنةِ الماضيةِ. العالِمُ الأكاديميُّ هو أملُ أهلِهِ الوحيدُ، وأينما حلَّ أفرادُ عائلتِه وصحبتِهِ يتفاخرونَ بأنَّ لَهُمُ "مندوباً" عنهمُ يتلقى العلمَ في إحدى الجامعاتِ العتيدةِ والعصريةِ والعريقةِ! في آنٍ شبهِ معاً.

أبو جاسر: عسى أنْ تكونَ هذه السّنةُ أحسنَ حالاً من سابقتِها؛ لا شكَّ في ذلكَ كما يبدو لأنني أراكَ مستمرٌّ في دراستِكَ وتنجحُ!.

حمد: أحسنُ قليلاً، لكن ليسَ هنالكَ أيُّ بديلٍ، أكاديميٍّ أو غيرِ أكاديميٍّ لا في الأرضِ ولا في السّماءِ للحالةِ التي نَحْنُ فيها.

سرحان: لا يوجدُ أيُّ منطقٍ في الطبيعةِ يقولُ بأنَّكَ لا تتقدمُ في العلمِ والمعرفةِ بعدَ سنةٍ كاملةٍ أخرى في الغربةِ وفي الجامعةِ. يبدو ذلكَ التقدمُ من التغييرِ الملحوظِ في اللّباسِ عندَكَ والثقةِ المتزايدةِ في الخطى وأنت رائحٌ وآتٍ؟!.

حمد: الحقيقةُ تَختبئُ خلفَ النجومِ البعيدةِ وإنَّ ما يصلُ منها إليكَ عبارةً عن أشعةٍ ضعيفةٍ خافتةٍ لا تعبِّرُ كثيراً عنَ صدقِ المشهدِ. وإذا ما اعتقدتَ أنَّ هنالكَ تقدماً نُحرزُهُ فأنتَ تبتعدُ عن الحقيقةِ.

أبوالز هو: بعدَ أربعةَ عشرةَ (١٤) سنةً لا بوادرَ على مُحَصِّلةِ نتيجةٍ في اتّجاهٍ معيّنٍ. لِماذا لا تستنكفُ الدراسةَ وترتاحُ وتريحُنا على الأقلِّ من مصروفِكَ الذي يأتي الآنَ بالدرجةِ الأولى من حيثُ الكوابيسِ التي تؤرّقُ منامَ كلِّ أفرادِ العائلةِ دونَ استثناءٍ!.

حمد: ليست هذه القضيةَ، التعليمُ مسألةُ عمْرٍ كاملٍ من المهدِ إلى اللحدِ. المشكلةُ هي مِمَّنْ تتعلّمُ، من هو المسئولُ عنْ تعليمِكَ وصقلِ موهبتِكَ وطموحِكَ وتوجهاتِكَ؟!.

"زولالة": إنَّ غرسةَ زيتونٍ نزرعُها الآنَ نقطفُ ثِمارَها بعدَ أقلَّ من اثنتي عشرةَ (١٢) سنةً؛ الأمرُ نفسُه ينسحبُ على شجرةِ جوزٍ أو لوزٍ أو داليةِ عنبٍ. بعدَ أربعةَ عشرةَ (١٤) سنةً يا ظالِماً! لا تستطيعُ إدخالَ قرْشٍ إلى جيبِكَ من عرقِ جبينِكَ أو مِمّا تعلمتَهُ.

حمد: تاللهِ! لا تزالونَ على عنادِكُمْ وأفكارِكُمْ الماديةِ الضيقةِ.

أبو جاسر: يا ابنَ آدمَ! إنَّ معهُمْ حقاً. لقد نفِدَ منا ما كُنّا قد ادخرناهُ منذ عشراتِ السّنينَ الماضيةِ، وها نَحْنُ نطرقُ أبوابَ الناسِ للاقتراضِ منهُمْ، الجيدِ منهُمْ والرديءِ. نقطَعُ الأكلَ عن أفواهِ الأولادِ والبناتِ والحيواناتِ وأولادِ الأولادِ لكي تتمكّنَ من البقاءِ في الدراسةِ في الجامعةِ. لا يوجدُ مؤشرٌ واحدٌ على أنّكَ تتقدمُ نَحْوَ الأفضلِ لتعويضِ نفسِكَ فقط ما خسرناه عليكَ؛ لا نريدُ منكَ شيئاً مقابلَ ذلكَ، مَعاذَ اللهِ!.

أبوالزهو: إذا ما فهمتُ عليكَ جيداً فإنَّ الجامعةَ تُعِدُّكمْ لتكونوا مثلَ الأشجارِ الحرجيةِ، بدونِ ثِمارٍ تؤكلُ، فقط للمنظرِ والظلالِ. أخيراً سوف يصبحُ لدينا شجرةُ سَرْوٍ إضافيةٌ نَستظلُّ بظلِّها هنا قربَ البَيتِ!.

حمدٌ: أخي أبوالزهو، ألاحظُ أنّهُ ما أنْ تراني وصلتُ إلى هنا حتى تبدأ بمقارنةِ نفسِكَ بيَ. تعايرُني بما أنا فيه، تثيرُ بيَ الاشمئزازَ من نفسِيَ وعقلِيَ، تبعثُ فِيَّ المقْتَ والقهْرَ وطعمَ مرارةِ الريقِ وسوءَ الظنِّ بمن حولِيَ. أرجوكَ أنْ لا تذكِّرَني بهذا أو بذاكَ. لقد جئتُ هنا لأراكَ وأرتاحَ قليلاً، لأرى نفسِيَ في الواقع أين أنا!.

أبوالزهو وسرحان: مرَّتْ سنةٌ أخرى يا مغفلاً!، تقولُ لنا أنَّ الدكتورَ "فلان" والدكتورَ "علنتانٍ" يضحكونَ عليكَ، يا حَيْفاً على التعبِ عليكَ. يا أبا الثورةِ والثوّارِ وأحدَ أصحابِ النَّفَسِ الأحْمرِ!. لقد ضقْنا ذرعاً بكَ وبمنْ تتحدّثُ عنهُ. كلَّ سنةٍ تعودُ إلينا خاليَ الوفاضِ بعدَ أنْ تُفرغَ كلَّ حُمولتِنا ومدخراتِنا في أكياسِ الشياطينِ التي تتسعُ لكلِّ ثرواتِ المساكينِ. أصبحتْ وأضحتْ وأمستْ وباتتْ وصارتْ كلُّ حياتِكَ وحياتِنا معكَ خسارةً في خسارةٍ.

حمد: ربَّما أخطأتُ يا أبوالزهو أنّني لَمْ أصغِ إليكَ جيداً عندما قلتَ لِيَ ونصحتَني أنْ أبقى هنا وأُعلِّمَ ذاتِيَ من ذاتِيَ. أنْ لا أذهبَ خارجَ حدودِ الحقلِ والمزرعةِ والحرشِ الملاصقِ لِحدودِ القريةِ، عند ذلكَ قلتُ لكَ أنني سأذهبُ لأتعلَّمَ الهبوطَ على سطوحِ الكواكبِ والأقمارِ المُجاورةِ والبعيدةِ. المشكلةُ يا أبوالزهو أنَّ الذي وعدَنا بالهبوطِ على سطحِ القمرِ غَدَرَ بنا وأسقطَنا في مَجمَعٍ من الحفراتِ الامتصاصيةِ الواسعةِ. لكن يا أبوالزهو عليكَ وعلى الأهلِ كلِّهِمُ أنْ يستمروا في الدعمِ والمساندةِ، كلَّ الدعمِ والمساندةِ. لقد أعلنتُ أمامَ الملأِ أنّكَ الوحيدَ ولِيُّ أمرِيَ. غيرَ ذلكَ! لن ترى وجهِيَ مرّةً أخرى مدى الحياةِ.

أبوالزهو: كلُّ ما طلبتَهُ وتطلبهُ وما ستطلبهُ متوفرٌ لكَ من دمِيَ وعرقِيَ وحرْقِ أعصابِيَ وأنا أتَجَوَّلُ على حوافِّ طرقِ المدينةِ بانتظارِ بيعِ بقلولةٍ من اللّبنِ الرائبِ أو سلَّةِ خضارٍ أو فاكهةٍ صغيرةٍ. سوفَ أُخلِّصُ لكَ مصروفَ دراستِكَ في الجامعةِ من أقسى عُتاةِ البخلِ في المدينةِ.

أبو جاسر: يا سيدَ! حمد أخبِرْنا ولو قليلاً ماذا تقومون بعملهِ خلالَ سنةٍ كاملةٍ، بلياليها ونهاريها، بأسابيعها وشهورها، بأيامِ الأعيادِ والعطلِ الرسْميةِ، بأيامِ عُطلِ نهايةِ الأسبوعِ التي كنتَ تعملُ فيها أكثرَ منَ الأيامِ العاديةِ. على جهلِيَ! في العلمِ أعرفُ أنَّ الطاقةَ لا تُفنى ولا تُستحدثُ، بل يُمكنُ أنْ تتحولَ إلى مادةٍ؛ لَمْ يأتِ منَ تبذيرِ كلِّ طاقتِكَ ما يعادلُ فلساً واحداً من المادةِ.

حمدَ: في الواقعِ هنالكَ الكثيرُ من الأشياءِ. تعَلَّمنا مثلاً أنَّ لكلِّ جسمٍ مَجالُ جاذبيةٍ حولَهُ يَجذِبُ أو يُحاولُ جذبَ أيِّ شيءٍ يأتي بالقربِ منهُ ....

أبوالزهو وسرحان: وهل أتى بقربكَ أيُّ جسمٍ جذبتَهُ أو على أصحِّ تعبيرٍ جذَبَكَ عليهِ. نعرفُ من تَجربتِنا معكَ مع الصّبايا في المدرسةِ أثناءَ ذهابكَ لتلقّي تعليمِكَ فيها!.

حمد: هلّا تعرفُ يا أبوالزهو أنَّ البناتَ والشبابَ يَموتونَ طرباً عندما يسمعونَ بصوتٍ من وترٍ يتموّجُ.

أبوالزهو وسرحان: وقلنا ذلكَ الكلامَ للوالدِ أبو جاسر من أولِ يومٍ أوصيتَ بإرسالِ العودِ إليكَ قبلَ مدةٍ طويلةٍ!.

أبو جاسر: يا ولداً! ألا تستحي على حالِكَ أنْ تبذِّرَ عرقَنا ودماءَنا من أجلِ نزواتٍ شخصيةٍ ملعونةٍ من عندِكَ؟!.

أم جاسر: إذا ما كانت هنالكَ من "بنتٍ" تقدرُ أنْ تساعدَكَ في تعليمِكَ، "مبروكٌ عليها". من أينَ هي تلكَ بنتُ الحلالِ؟، ماذا لو تُعرِّفنا عليها؟!.

أبوالزهو وسرحان: لا لا لا... إيّاكَ أنْ تأخذَ البناتُ عقلَكَ. نَحْنُ من هنا معكَ حتى تنهيَ دراستَكَ الجامعيةَ وأكثرَ. أقولُ لكَ بأنني معكَ حتى تصبحَ رائدَ فضاءٍ كبيرٍ، وعندما تَهبطُ على أحدِ الكواكبِ سوف أكونُ بجانبِكَ، لنِ أبيعَكَ.

حمد: يا أمِّيَ العزيزةَ، لَمْ ولن أذهبَ "يَميناً ولا شِمالاً"!. فقط دخلتُ في مستنقعِ التعليمِ الكبيرِ، في أجَمَةِ الأجَماتِ. دخلتُ إلى حيثُ الجهلُ والتخلّفُ في التعليمِ لا يعلو عليه تَخلّفٌ. تصوَّري أنَّ أناساً بالخَلْقِ والخُلُقِ مشوهونَ يشرفونَ على تعليمِيَ، أنا ابنُ الأصالةِ وحبِّ الخيرِ والضميرِ. أجاهدُ ليلَ نَهارَ للحفاظِ على "عذريةِ الملائكةِ" من سطوةِ "أزلامِ الزنا" القادمينَ من بقايا أرحامِ "منجوسةٍ".

أبوالزهو وسرحان: لا تبدأ التمردَ والثورةَ من جديدٍ. أخَي "بوحميد"! مصاريفُكَ تصلُكَ تباعاً، غَيِّرْ الموضوعَ فوراً، هدّئْ أعصابَكَ!، لا تَحرقْ دمَكَ، لا تغيِّرْ لونَ وجهِكَ، لا تعصفْ بدماغِكَ وأدمغتِنا معكَ، لتبقَ عيناكَ في مَحاجرِها. والآنَ خذْ هذا العودَ يا خالي! ... وهاتِ لَنا من جديدٍ لديكَ.

حمد: يا أبوالزهو ولِماذا تلومُ الشبابَ والصّبايا عندما تتمايلُ على ضرباتِ الأوتارِ مثلَ أغصانِ البانِ؟!. ها أنت مدمنٌ على الموسيقى أكثرَ من أشهرِ المؤلفينَ العالَميينَ. تلَفُّ وتَدورُ عليَّ، "تُثوِّرُني" وتطلبُ منّيَ بعد ذلكَ أنْ أطرِبَكَ. حسناً سأفعلُ، أحبُّ صوتَ الشحرورةِ "ما غايرى" (بالفصحى لا أحدَ غيرَها) ....

.... لا فا صول لا فا صول مي فا فا صول مي فا ري مي دو ري ري.. .... جينا الدار نسأل عالحبايب لأينا (لقينا) الدار تبكي عللي غايب....
"زولالة": جينا الدار تتشوفكْ عينينا ومر سنين ما عدنا تلائينا (تلاقينا) ... هجروا الحي ما سألو علينا ولا من قال نحن من الأرايب (الأقارب) ....
حمد: دن دن لا لا لا للا .... برمت (لففت) الكاينة (الأرض) مطرح (مكان) ما خليت .. بعيد وصورتك في الألب (القلب) خليت ... أنا بوعدي لعهدك ما خليت .. ولا حبيت من بعدك حدا ... يا ويل ويلي ويلي....
أبوالزهو: حبيبيَ بوحميد، يكفيني منكَ ساعةً في السّنةِ، ولكَ منّيَ تعبِيَ وعرقِيَ ودمِيَ وحياتِيَ طَوالَ السّنةِ!، "لكَ روحي، لكَ ما شئتَ وأكثرَ"!.
حمد: "إنَّ عينِيَ لَخيْرُ أُفقٍ فيهِ ألوانُكَ تظهر!، كلَّما وجَّهتُ عينِيَ نَحْوَ لَمّاح المُحيّى لَمْ أجِدْ في الأُفُقِ نَجْماً واحداً يرنو إلَيَّ، آه... لَمْ أجِدْ في الأفقِ نجماً واحداً يرنو إلَيَّ" (من أغنيةِ عبدالوهاب "عندما يأتي المساءُ"). آخ يا صديقِيَ أبوالزهو لو أنَّ كلَّ الأهلِ والأصحابِ يتمتعونَ بِمشاعرَ وقلوبٍ وأحاسيسَ معطاءةٍ مثلَكَ لأصبحتْ الدنيا بألفِ خيرٍ!.

أنا اللغةُ العربيةُ الفصحى

قرّرتْ مَجموعةُ مدارسِ الإناثِ في المدينةِ إقامةَ حفلٍ ثقافيٍّ عامٍّ متميِّزٍ! يشملُ عروضاً في معظمِها تمثيليةً يتخلّلُها إلقاءُ كلماتٍ من المعلِّماتِ والطالباتِ وأولياءِ الأمورِ. حسْبَ الخطةِ المرسومةِ فإنَّ هنالكَ جوائزَ ستوزَّعُ على خيرةِ تلكَ الأعمالِ التي سَيقومُ بتنفيذِها عددٌ من الطلابِ المتفوقينَ والطالباتِ المتفوقاتِ في "الذكاءِ"؛ هذا بالإضافةِ إلى أعمالٍ أخرى كانَ قد تَمَّ إنْجازُها وتقييمُها خلالَ سيرِ السّنةِ الحاليةِ ومنها خلالَ السّنواتِ المنصرمةِ. ومن الخطةِ التي تسرَّبَ جزءٌ منها إلى المُجتمعِ المُحيطِ فقد كانَ التركيزُ في المهرجانِ الثقافيِّ، المهيبِ كما أُعلنَ عنهُ في حينهِ، على بعضِ العروضِ المسرحيةِ باللغةِ الأجنبيةِ من مثلِ مسرحيةِ عنِ قصةِ "هامْلِتْ Hamlet" للأديبِ الإنجليزيِّ "ولْيَم شكسبير" وغيرِها. لَمْ يعطَ للغةِ العربيةِ ما تَجدرُ بهِ في ذلكَ المهرجانِ الذي تقيمُهُ مَجموعةُ مدارسِ الإناثِ في تلكَ المدينةِ.

بدا الوضعُ عندَ حمد مثيراً للتحفُّظِ وخيبةِ الأملِ. حدثَ ما يشبهُ ذلكَ في إحدى قصصِ التاريخِ، والتي فيها تتلخصُ القصةُ أو "الحكايةُ التاريخيةُ" بما يلي: {يُحكى أنَّ هنالكَ ساحرَيْنِ مشعوذَيْنِ نصّابيْنِ في إحدى الولاياتِ التي كانَ يَحكمُها والٍ أو حاكمٌ عُرِفَت عنهُ شدّتُهُ وقسوتُهُ عندَ إصدارِ الأحكامِ القضائيةِ. بسببِ تَمادي السَّاحرَيْنِ النصَّابَيْنِ في عملياتِ النصْبِ على النّاسِ منَ حولِهِمْ فقد قرَّرَ الناسُ إرسالَ شكاواهُمْ على هذينِ السّاحرينِ للحاكمِ في المدينةِ العاصمةِ. ما أنْ أدركَ الوالي الحاكمُ الأمرَ حتى استدعى النصَّابَيْنِ وأبلغَهما بأمرِ الشكاوى الكثيرةِ التي وصلتْهُ عنهما. ردّا عليهِ قائلَيْنِ أنّهما يريدانِ العيشَ وكسْبَ الرزقِ وأنّهما لَمْ يُجبِرا أحداً على الخضوعِ لعملياتِ السِّحرِ والشعوذةِ اللاتي كانا يقومانِ بِها. إلا أنَّ الحاكمَ أصرَّ على حكمهِ بإعدامِهما الاثنيْنِ إلّا إذا ما أَتَيا بشيءٍ إعجازِيٍّ خارقٍ للتصوّرِ وخلالَ فترةٍ قصيرةٍ قُبيلَ استعراضٍ سنويٍّ تقومُ الجماهيرُ العارمةُ بالاشتراكِ فيهِ لتحيةِ وتقديرِ وتعظيمِ ذلكَ الحاكمِ. وافقَ النصّابانِ للعملِ على الإتيانِ بمعجزةٍ منِ ذلكَ القبيلِ. فكّرا بعضَ الشيءِ ثُمَّ اتفقا على أنَّ المعجزةَ ستكونُ بأنْ يصنعا لباساً للملكِ لا يُمكنُ لأحدٍ أنْ يراهُ إلا "الأذكياءُ"! تبعاً لذلكَ قامَ النصّابانِ بتعريةِ الحاكمِ كلّياً حتّى من ملابسهِ الداخليةِ؛ قالا لهُ بعدَها بأنّهما الآنَ، في حينِهِ، قد قاما بإسدالِ لباسٍ عليهِ من نوعٍ خاصٍّ ومتميزٍ لا يتمكَّنُ أنْ يراهُ إلّا "الأذكياءُ". وأشاعَ حرّاسُ الحاكمِ وجهازُهُ الأمنيُّ وأعوانُهُ وأنصارُهُ تلكَ الفكرةَ بينَ الناسِ مِمّا جعلَ عامةَ الشعبِ يندفعونَ وعن بكرةِ أبيهِمْ ليَرَوْا الحاكمَ ولباسَهُ الخاصَّ المُميزَ في ذلكَ الاستعراضِ. خلالَ مرورِ موكبِ الحاكمِ أمامَ الجماهيرِ المتعطشةِ لرؤيتهِ ورؤيةِ لباسهِ المُميّزِ تعالتْ أصواتُ الترحيبِ والتعظيمِ والإعجابِ والهتافاتِ لشخصِ ذلكَ الحاكمِ المُميّزِ بشخصهِ ولباسِهِ!. إلّا أنَّ طفلاً، كانَ يَحملُهُ والدُهُ على كتفهِ، أشارَ إلى والدهِ بأنْ ينظُرَ إلى ذلكَ الحاكمِ العاري! من أيَّةِ ملابسَ. ما أنْ رأى الأبُ ذلكَ الحاكمَ عارياً حتى أخبرَ من بِجانبِهِ ومن حولَهُ بالأمرِ!، لينتقلَ "الاكتشافُ" هذا إلى كلِّ

الجمـاهيرِ الحاضـرةِ والمصـفقةِ والهاتفـةِ للحـاكمِ وإلـى حـرسِ الحـاكمِ وأعوانــهِ وحاشيتهِ وحتى أبناءِ عائلتهِ!} ...

لا يفهمُ لغةَ شكسبير إلّا قليلُ القليلِ من مُدرِّسي اللغةِ الأجنبيةِ في المدارسِ. من الصّعوبةِ بمكانٍ نقلُ أفكارِ تلكَ القصصِ والرواياتِ إلى جُمهورٍ مَحَليٍّ لا يعرفُ عن شكسبير ولا عن بيئتـهِ وثقافتـهِ وتـاريخِ مُجتمعـهِ إلا النـزرَ اليسـيرَ جداً يكـادُ يساوي الصّفرَ. المعلّمُ والحالُ هذه يلبسُ ثوباً كُتبَ عليهِ اسمُ شكسبير أو رُسم عليه شكلٌ يعودُ إلى المرحومِ "وِلْيَمْ شكسبير"!؛ ثُمَّ ادعى ذلكَ المعلّمُ، زوراً وبُهتاناً، أنْ لا أحدَ يقدرُ على الولوجَ في أعمالِ شكسبير إلّا فلتاتٌ من عقولِ الأذكياءِ من مثلهِ!. السّؤالُ الطبيعيُّ هو؛ كيفَ لِهؤلاءِ الدارسينَ الناشئينَ من الطلابِ أنْ يُضفوا صِبغةً مَحليةً من الفكرِ والبلاغةِ أو الإبداعِ على أعمالٍ لا يستطيعونَ الولوجَ فيها حتى بعدَ تَخصّصِهم في دَراستِها سنواتٍ عديدةٍ وطويلةٍ في الجامعةِ؟!.

"فَلْحَة": أخِي حمد!، سوف يقامُ حفلٌ ثقافيٌّ الأسبوعَ المقبلَ في المدرسةِ الكبرى لبناتِ المدينةِ وسيكونُ الحضورُ كثيفاً. ستتخلّلُ الحفلَ عروضٌ تمثيليةٌ ومسرحيةٌ وإلقاءُ كلماتٍ وأشعارٍ اختيرتْ في معظمِها من اللغةِ الأجنبيةِ. البناتُ من العائلاتِ الراقيةِ! يعملْنَ منذُ أشهرٍ على التحضيرِ لعرضِ أجزاءٍ من مسرحيةِ "هامْلِتْ" لِ"وِليَم شكسبير". ستقومُ أخرياتٌ بعرضِ مسرحيٍّ آخرَ فيهِ تَهَكُّمٌ على من يستعملُ اللغةَ العربيةَ الفصحى في التكلّمِ من مثلِ خطباءِ المساجدِ والقليلِ من مدرسي مادةِ اللغةِ العربيةِ في مدارسِ الحكومَةِ ....

أبوالزهـو: وأنـتِ! يـا أختَنـا الصّـغيرةَ "المدلّلـةَ"!، مـا دورُكِ فـي هـذا الحفـلِ أو المهرجانِ القيّمِ؟!.

"فَلْحَة": لقد أوصتني معلمةُ مادّةِ اللغةِ العربيةِ لكي أقومَ بكتابةِ أو استنساخِ كلمةٍ فيها بعضٌ من الأشعارِ الزجليةِ المَحلّيةِ (هي هي هي هي هي ...). على أنْ لا يتجاوزَ زمنُ إلقاءِ كلمتِيَ هذه الثلاثَ أو الأربعَ أو الخمسَ دقائقَ "علي أكثرِ طأدير" (على أكثرِ تقديرٍ)، حسْبَ تعبيرِ معلمةِ اللغةِ العربيةِ!. لا أعرفُ ما أقولُهُ في ذلكَ المهرجانِ .... هي هي هي هي هي... أستحي أنْ أتكلّمَ في هذا المهرجانِ الذي ستحضرُهُ كبارُ شخصياتِ! المدينةِ والمدنِ المُجاورةِ، ربّما ... هي هي هي هي هي....

حمـد: كبـارُ! شخصـياتِ المدينـةِ والمـدنِ المُجـاورةِ. جـوائزُ لِمَـن يقُمـنَ بعـرضِ مسرحياتِ "الشيخ زبير"، كلمةٌ باللغةِ العربيةِ من الشعرِ الزجليِّ لمدةِ ثلاثِ دقائقَ، فتاةٌ تستحي من الظهورِ والتحدثِ بلغةِ الأمِّ والأبِ!. يا أختَنا "فَلْحَة"! لا تَخافي. لا داعـيَ لأيِّ خـوفٍ أو وجَـلٍ أو خجـلٍ، حتـى لـو دخلـتِ شـبهَ عاريـةٍ علـى مثـلِ تلـكَ الشخصياتِ الكبيرةِ. أنا الذي سوف أكتبُ لكِ كلمةً تُلقينَها أمامَ كبارِ الشخصياتِ وصغارِها على حدٍّ سواءَ....

أبوالزهو: وأنا من خلفِكُم أشدُّ أزرَكُمْ في وجهِ هذا الجمعِ من الرعاعِ القدامى والمخضرمينَ والناشئينَ الجددِ في آنٍ معاً...

كَتَبَ حمد مقالةً لأختِهِ "فَلْحَة" لإلقائِها في المهرجانِ المزمعِ إقامتَهُ ... المقالةُ بعنوانِ: "أنا ... اللغةُ العربيةُ الفصحى .... أين أنتُنَّ يا بَناتِيَ ... أين أنتمْ يا أبنائِيَ!؟.. "... جاء فيها:

{أنا... اللغةُ العربيةُ الفصحى ... لقد هجرني أبنائيَ ... وهجرتْني بناتِيَ. الآن أقفُ وحيدةً وحائرةً وخجلةً منكُمْ. بِسببِكُمْ أُصابُ بالشيخوخةِ والصّدأ والتعفنِ ومرضِ التآكلِ والتقوقعِ. أنا التي سُطِرَتْ بكلماتٍ من جوفِيَ أروعَ المخطوطاتِ القديمةِ وأمهاتِ كتبِ التاريخِ والجغرافيا والطبِّ والهندسةِ والقانونِ والسّياسةِ والفلسفةِ والدينِ .... وعلمِ الفلَكِ والرياضياتِ والاجتماعِ ... والقائمةُ تطولُ وتتفرعُ من الأرضِ إلى السّماواتِ السّبعِ ومن السّماواتِ السّبعِ إلى مركزِ الأرضِ. لِماذا ؟! الآنَ لا أجدُ من أحدٍ يتكلّمُ بيَ في شوارعِ المدينةِ، الضيقةِ والعريضةِ منها. لا أثرَ لِيَ في أسواقِ المدينةِ المكتظّةِ بالبضائعِ والمأكولاتِ؛ لقد تلاهيتُم عنّيَ ببطونِكُمْ وأجسادِكُمْ وتكاثرِكُمْ. الحالُ ليست أقلَّ مدعاةٍ للخجلِ منها في شوارعِ القريةِ وحقولِها وبراريها وفي مضاربِ الباديةِ. أنا... اللغةُ العربيةُ الفصحى أُصبتُ بمرضِ الركاكةِ حتى بين المتكلمينَ بيَ في المهرجاناتِ الخطابيةِ التي خُصِّصَتْ أصلاً للتكلّمِ بيَ. أنا اللغةُ العربيةُ الفصحى لا أستجديكُمْ بل أطلبُ منكُمْ وآمرُكُمْ أنْ تعودوا إليَّ في كلِّ شيءٍ يَخصُّكُمْ حتى في أضغاثِ أحلامِكُمْ...

يا معشرَ الأطباءِ والصّيادلةِ! لِماذا تتباهونَ في كتابةِ تقاريرِكُمْ ووصفاتِكُمْ الطبيةِ ومواعيدِ تناولِ الأدويةِ بلغاتٍ غريبةٍ عليَّ وعلى أبناءِ قومِيَ؟!. هل تظنونَ أنَّ وصفاتِكُمْ وتقاريرَكُمْ باللغاتِ الأجنبيةِ فيها شفاءٌ للناسِ أكثرَ من كتابتِها بكلماتٍ من جوفِ بطنِيَ؟!. ألا توقنونَ أنَّ في ذلكَ المسلكِ خسارةً للكرامةِ والوطنِ وحتى ماءِ الوجهِ؟!.

يا معشرَ المهندسينَ المعماريّينَ! إنَّ أبنائيَ السّابقينَ قد وصلوا إلى قمّةِ مَجْدِ هندسةِ العمرانِ باستعمالِ رموزِيَ الحرْفيةِ واللغويةِ فوقَ رؤوسِ زوايا وأضلاعٍ ومنحنياتِ كافةِ الأشكالِ الهندسيةِ المرسومةِ. لقد نشرَ بني أمية والعباسَ الهندسةَ العربيةَ في كلِّ بقاعِ الأرضِ بعدَ أنْ استعانوا بيَ في مهماتِهِمْ العمرانيةِ الصّعبةِ منها والسّهلةِ. ويا معلّمي وعمّالَ البناءِ، كُفّوا عن استخدامِ تعبيراتٍ بائسةٍ محدودةٍ من مثلِ "ولك (يا هذا) يا زلمة (يا رجل) ناولني هالطَورية (المَجرفة) وهالكريك (شبهُ فأس) وهالكُفّه (القفّة) وهالزرّادية (الكمّاشة) وتشّة (حزمة) الأسلاك وافْرُكْ (قُمْ بفتح) تشيسين (كيسيْن) شوميمتو (إسمنت)" وغيرها. إلى متى سيستمرُّ ذلكَ الانْحدارُ الفكريُّ واللغويُّ في التعاملِ مع أحدِ أسُسِ الحياةِ العمرانيةِ!؟. كيفَ لكُمْ أنْ تتقدَّموا إلى الأمامِ بمثلِ تلكَ المصطلحاتِ التي لا يُمكنُ وضعُها حتى في قاموسِ أيَّةِ لغةٍ ومهما تكنْ غَجريّةً؟!.

يا مهندسي الإلكترونِ والبروتونِ والنيوترونِ أودُّ أنْ أخبرَكُمْ أنَّ قلبيَ وخاصرتَيَّ تتسعُ لكلِّ الرموزِ والمصطلحاتِ القديمةِ والحديثةِ والطارئِ منها، كلِّ الرموزِ والمصطلحاتِ. وأنتمْ يا مهندسي الآلاتِ والمقننةِ، كلُّ علمِكُمْ وعملِكُمْ يدورُ حولَ قالبٍ من الحديدِ السّكبِ والصَّبِ يُمكنُ إحداثُ عددٍ من الثقوبِ والفتحاتِ فيهِ بمقاييسَ وأبعادٍ مُختلفةٍ وحسبَ الحاجةِ وباستخدامِ أيِّ عقلٍ في مَحلٍّ متواضعٍ أو ورشةٍ للحدادةِ. لِماذا تضعونَ غربالاً على وجوهِكُمْ أمامَ قرصِ الشمسِ وتدَّعونَ بعدَها بأنَّكُم لا ترونَ عينَ الحقيقةِ؟!. عملٌ! تخجلُ حتى طيورُ النّعامِ من القيامِ بهِ!.

.....

يا أيُّها المشتغلونَ في مكاتبِ السّياحةِ ووكالاتِ السّفرِ وشركاتِ الطيرانِ! لَمْ تُبقوا على أيِّ أثرٍ يدلُّ على وجودِيَ في هذا العالَمِ، لا الاسْمَ ولا العنوانَ ولا مَكانَ

الذّهاب ولا فيما إذا كانتْ التذكرةُ باتّجاهٍ واحدٍ أو تشملُ الذهابَ والإيابَ. يا ويحَ قلبيَ عليكُمْ، لقد ضحيتمْ بيَ من أجلِ الاحتفاظِ بوظائفكم ومعاشاتِكُم كسماسرةٍ و"حَمّالينَ" تَجمعونَ الركّابَ وترسلونَهم إلى أماكنِ سفرِهم المُختلفةِ دون حَمْلِ بضعِ حروفٍ من لغةِ الضادِ؛ ألا تستحونَ على دماءِ وجوهِكُمْ من رعونةِ وسيئاتِ أعمالِكُمْ؟!. رضيتمُ بالعيشِ على الهامشِ بعد أنْ وافقتُمْ على تنحيتِيَ جانباً من حياتِكُمْ وأعمالِكُمْ!.

يا معشرَ رعاةِ الأبقارِ والأغنامِ ومالكي الجمالِ والخيولِ والبغالِ والحميرِ والكلابِ والقططِ والأرانبِ والدجاجِ!، كُفّوا عنْ مُخاطبةِ مواشيكُمْ بالإشارةِ عليها بالعصيِّ والكرابيجِ وقذفِها بالحجارةِ والتلويحِ لها المُدى الحادةِ!. لِماذا تُخاطبونَ تلكَ الدوابِّ بكلماتٍ لا يفهمُها حتى البشرُ أنفسُهُمْ؟! من مثلِ "دِي وهوس للحصانِ ... وحا وهيش وتشوء للحمارِ ... وإخخخ للجملِ ... وبقبقبقا للدجاجِ والبطِّ ... وتَع للتيسِ وسِكسِك للماعزِ ... وحِرتِش للشاةِ ... وهوء هوء للأبقارِ ... وابحوكِسكِس للكلابِ ... وبسبس مياو للقططِ ... و تشك تشك تشك للحمير وللطيور على اختلافِ أنواعِها..." . من أيِّ لغةٍ تستقونَ هذه الكلماتِ البائسةِ في المعنى والنطقِ؟!. كيف لكمُ أنْ تَختزلوا لغةَ التخاطبِ مع عالَمِ الحيوانِ كلِّهِ ببضعِ كلماتٍ ليستْ حتى ذاتَ معنىً لديكُمْ!. أين أنتمْ من ابنِ المقفعِ وما ترجَمَهُ من كتابِ "كليلة ودمنة"؟!. عليكُمْ أنْ ترقوا بمستوى تَخاطبكُمْ مع حيواناتِكُمْ بمثلِ ما تتعلّمونَ منها وبلغةٍ فُصحى سليمةِ القواعدِ والأصولِ وفيها الكثيرُ من البلاغةِ في التعبيرِ والفصاحةِ والذوقِ العالي وحسنِ الأداءِ في الإلقاءِ؛ في ذلكَ عندِيَ لكُمُ الكثيرُ. أنا اللغةُ العربيةُ الفصحى بَحرٌ كبيرٌ، لِماذا لا تغوصونَ في أعماقِيَ للبحثِ عن أحلى الصّدفِ والدُّررِ عندِيَ لكُمْ؟!...

يا أمهاتِ الأطفالِ، الرُضّعِ منهم خاصةً!، لقد وصلَ مستوى التعاملِ اللغويِّ بينكُنَّ وأطفالِكُنَّ إلى أقلَّ حتى من الذي بين الرعاةِ وحيواناتِهِمْ. بحقِّ السّماءِ لِماذا ؟! تُكَرِّرْنَ كلماتٍ من مثل "أمبو وكِغّيه ونِخّيه ولوليه وبابيه ومَاميه وماما وبابا ودودو ..." وأشعارٍ وترانيمَ للأطفالِ عندَ نومِهِمْ من مثلِ "نامي يا عيون دِعْبِسْ وتَعْتيسْ يا نعسانةً يا ملانيةً نوم!". هنالكَ قاموسٌ كاملٌ متكاملٌ من اللغةِ الفصحى للتعاملِ مع الرُّضّعِ والذينَ سيصبحونَ بعد قليلٍ عمادَ الأمةِ الثقافيَّ واللغويَّ والماديَّ والمعنويَّ. ألا تَعلَمْنَ أنَّ أذنا ودماغَ الطفلِ وجهازَهُ العصبيَّ تبدأُ بالتقاطِ الكلماتِ والجملِ واللغةِ واللكنةِ والألحانِ الموسيقيةِ وهو لا يزالُ جنيناً في بطنِ أمِّهِ.

إنَّ علمَ الإلكترونياتِ، وما يتبعُهُ، عندِيَ أقلُّ من أنْ يوصفَ بأنّهُ سهلُ الاستيعابِ. يُمكنُني تناولُ الموصلاتِ وأشباهِها مثلَ تناولِ العطشانِ للماءِ الباردِ في الصّحراءِ؛ لِمَ تَحرمونَني منها؟!. لِماذا تتسابقونَ على إدخالِ مصطلحاتٍ ملوّثةٍ بلغاتٍ أجنبيةٍ إلى أحشائيَ؟. أوَدُّ أنْ أظلَّ نقيةً ولا أتزاوجُ مع الأجنبيِّ الدخيلِ. إنَّ تلقيحِيَ بتلكَ اللغاتِ كتلقيحِ فرسٍ أصيلةٍ بـ"ماءٍ" من جرذانٍ.

أيُّها الناشئونَ في علومِ الطبيعةِ والرياضياتِ! اسألوا عنّيَ أجداداً لكُمْ من أمثالِ الخوارزميِّ والبيرونيِّ. في علمِ الاجتماعِ خرجَ من بينِ أضلُعِيَ العلامةُ ابنُ خلدونٍ وغيرُهُ الكثيرونَ. يا عشّاقَ الفلسفةِ والجدلِ المنطقيِّ! لِماذا تتخطونَ أولادِيَ البررةَ من أمثالِ ابنِ رشدٍ وجابرِ بن حيانَ وأبي العلاءِ المعريِّ إلى ما لا علاقةَ لهُ تقريباً بالفكرِ والفلسفةِ؟!. يا دارسي الجغرافيا! لِماذا لا تستطيعونَ رسمَ

خريطةٍ للقريةِ أو المدينةِ التي تعيشونَ فيها؟!، أَلَمْ تسمعوا بياقوتِ الحمويِّ صاحبِ "معجمِ البلدانِ" والذي رسمَ فيه أطلساً شَملَتْ خرائطُهُ كلَّ البلدانِ التي كانتْ معروفةً في زمانهِ!؟. هؤلاء إنْ علموا بما تنحونَ إليهِ سوفَ ينتابُهُمْ الخزيُ والعارُ منكُمْ، ومنكُمْ يتبرّؤونَ.

يا علماءَ الدينِ ويا خطباءَ وروادَ المساجدِ أنا التي خُلِقْتُ في ذاكرةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى قبلَ نشوءِ الدنيا وسأبقى في تلكَ الذاكرةِ بعدَ فناءِ الكونِ كلِّهِ!. أنا التي قيلَ فيَّ أصدقُ الكلامِ وأكثرُهُ روعةً وإعجازاً "قلْ لو كانَ البحرُ مداداً لكلماتِ ربِّي لنفِدَ البحرُ قبلَ أنْ تنفَدَ كلماتُ ربِّيَ ولو جئنا بمثلِهِ مدداً" ... كلُّ ماءِ الكونِ لا يكفي لنفادِ كلماتِيَ. أنا التي اختارَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى أروعَ الكتابِ والحديثِ بِيَ حينَ قالَ: "إنّا أنزلْناهُ قرآناً عربياً لعلَّكُمْ تعقلونَ". لَمْ يكنْ ذلكَ التنزيلُ الإلهيُّ مِنْ أجلِ سوادِ عيونِ العربِ أو رشاقةِ أجسادِ خيولِهِمْ، بل لقدسيّتِيَ وبلاغتِيَ وفصاحتِيَ وإعجازِيَ في التعبيرِ ووصفِ كلِّ شيءٍ في الأرضِ أو في السّماءِ ... إيجازاً أو إسهاباً. لِماذا يا معشَرَ العلماءِ والفقهاءِ تظلّونَ تكرّرونَ جُمَلاً على شكلِ قوالبَ مكرّرةٍ منذُ ماضي سحيقِ الزمنِ وتزعمونَ بعدَ ذلكَ أنّكمْ تُحافظونَ على اللغةِ والدينِ والتراثِ!؟. يا أبناءَ اللغةِ العربيةِ الفصحى، عرباً وعجماً ومستعربينَ وأقحاحاً، سوداً وبيضاً وحُمْراً وصفراً وأيةَ ألوانٍ بينيّةٍ أخرى!، الكلُّ منكُمْ على حدٍّ سواءَ ... عودوا إلى ضمائركُمْ واتقوا اللهَ في عمليةِ قتلِيَ والإحلالِ محلِّيَ بلغاتٍ ليس فيها نضجٌ ولا بلوغٌ ولا دقةٌ في الحرصِ على وصفِ الأمورِ كالذي عندِيَ ولو بجزءٍ يسيرٍ.

يا أبنائِيَ ما لكم توقفتُمْ عن اقتناءِ كتبٍ أدبيّةٍ تخصّني؟!. أنا التي أنْجبتُ لكُمْ شعرَ المعلّقاتِ وشعرَ الرباعياتِ وشعرَ النثرِ ... قديماً وحديثاً. هل نسيتُمْ طرفةَ بنَ العبدِ وامرؤَ القيسِ وزهير ابنَ أبي سُلمى؟. أينَ أنتُمْ من شعراءِ بني أميةَ والعباسِ وحتى شعراءِ وكُتّابِ عصورِ الانحطاطِ والتخلّفِ الفكريِّ. أنا التي حافظتُ عليهِمْ وحافظوا هُمْ عليَّ من الضياعِ والاندثارِ تَحْتَ أقدامِ حرّاسِ وجنودِ الحكامِ الجهلةِ وقُوّادِ الهجماتِ الاستعماريةِ في أكثرِ العهودِ حلكةً وظلاماً على حالِ الأمةِ وروحِها. للأسفِ! اليومَ تصحونَ على أنفسِكُمْ لتغرقوا في بُحورِ ضياعٍ جديدةٍ تَحْتَ مُبرراتِ التقدمِ ومواكبةِ العصرِ كما يُروِّجُ لها جلاوزةُ "الكومبرادور"؛ هؤلاءِ أغرقوا الأسواقَ بأفكارٍ مستوردةٍ روّجوا لها مع أجهزةٍ وقطعِ غيارٍ لكلِّ شيءٍ يمتصُّ دمَ الاقتصادِ الوطنيِّ مثلَ مَمَصّاتِ أطرافِ الإخطبوطِ المتوحشِ! على جسمِ فريستهِ. كلُّ ذلكَ من أجلِ إشباعِ غرائزهِمْ في زيادةِ المالِ وملءِ حساباتِ أرصدتِهِمْ في الخارجِ مُزمنةِ التضوُّرِ جوعاً لأيِّ مالٍ إضافيٍّ شحَّ أو زادَ ....

يا أيُّها المبتدئونَ في المدارسِ والمبتدآتُ! لا تُصغوا إلى مُعَلِّمي اللغةِ العربيةِ الذينَ يقولونَ لكُمْ "سكِّنوا تَسْلَموا". لا تُسكِّنوا مقاطعَ أو نهاياتِ كلماتِ اللغةِ العربيةِ. إنَّ ذلكَ بدايةُ القضاءِ على وجودِيَ في حديثِ أهلِ المُجتمعِ. أنا اللغةُ العربيةُ الفصحى أعشقُ الحركةَ وأمقتُ السّكونَ والتسكينَ. أنا لغةٌ لِيَ أسسٌ وقواعدُ وأحكامٌ توجبُ إتباعَها بحذافيرِها وتطويرَها قبلَ إتباعِ وتطويرِ قوانينِ الدولةِ والمُجتمعِ. لستُ مُجرّدَ لغةٍ غجريةٍ ولستُ لغةَ هديلٍ بينَ الحمامِ أو نُباحٍ بينَ الكلابِ أو نَهيقٍ بين الحميرِ أو نعيقٍ بينَ الغربانِ أو مواءٍ بينَ القططِ أو ثُغاءٍ بين

النعاج أو بقيق أو نعيقٍ بينَ الدجاجِ والبطِّ الإوزِّ أو نقيقٍ بينَ الضفادعِ أو فحيحٍ بين الأفاعي. دعواً هذهِ وتلكَ للكناتِ المَحلّيةِ السّائدةِ لتقوم باجترارها!.

لا أخشى على نفسِيَ البتةَ من التقدم ومواكبةِ العصرِ. أنا اللغةُ العربيةُ الفصحى إلهةُ المَفْتَنَةِ! والمالِ والأعمالِ إذا ما أريدَ اختيارُ آلهةٍ لكلٍّ منها. أخشى عليكُمْ أنتمْ من الذهابِ ضحيةَ خيالٍ وفكرٍ مستوْرِدٍ أقلُّ ما يقالُ عنهُ أنّهُ قزمٌ ويعجُّ بالزيفِ والعُقرِ. أخيراً وليسَ آخراً! أنا اللغةُ العربيةُ الفصحى روحُ الثقافةِ وثقافةُ الروحِ في كلِّ ما تصبو إليه الروحُ وفي أيِّ اتّجاهٍ، في الماضي وفي الحاضرِ وفي المستقبلِ.}

"فَلْحَة": هذه كلمةٌ طويلةٌ وصعبةٌ يا خوي (يا أخِيَ)!. لا أعرفُ حتى الكثيرَ من مفرداتِ هذهِ الخطبةِ! ومصطلحاتٍ فيها من مثلِ كلمةِ "القرود لَها طاطور"! (القومبرادور) هذهِ. كذلكَ تَخلطُ الجدَّ بالهزلِ بطريقةٍ قد تثيرُ تحفظاتِ جُمهورِ الحضورِ عليَّ. مطلوبٌ منِّيَ فقط إلقاءُ بعضِ أشعارٍ، مثلاً من أشعارِ امرؤ القيسِ أوَ نزار قبّاني أو محمود درويش أو حتى الأخوينَ رحباني ... إذاً ما تحفظ شيئاً للأخيريْنِ من الموسيقى التي تدقُّ لَهُما أحياناً. أعني بيتينِ من الشعرِ لأحدِ الشعراءِ، سطراً أو سطرينِ في المقدمةِ، سطراً أو سطرينِ للمؤخّرةِ (هي هَي هي هي...).

أبو جاسر: يا حمد!، أختُكَ "فَلْحَة" على حقٍّ!. هذه الكلمةُ التي كتبتَها وألقيتَها على مسامعِنا الآنَ مثلَ الذي يَحملُ قنابلَ متفجّرةً يريدُ أنْ يلقيَ بها على قلوبِ وعقولِ البشرِ. هؤلاءِ المشتركونَ في المهرجانِ قد أعدّوا أنفسَهُمْ لنمطٍ تمَّ تشكيلُهُ وإعدادُهُ من قَبْلُ. حتى ما يسمّى بالجوائزِ تَجدُهَا قد تَمَّ ترتيبُ توزيعِها مسبقاً، مثْلُها مثلَ بقيةِ إجراءاتِ المهرجانِ؛ أو تريدُ من ذلكَ الجمْعِ أنْ يهاجمَ أختَكَ ويرجُمَها بالكلامِ البذيءِ ويتهمَها بالتخلّفِ، تكونُ فيهِ السّببُ. ها أنا أحذّرُكَ!.

حمد: لا تَخافي ولا تفزعي يا أختاهُ "فَلْحَة". في البدايةِ عليكِ أنْ تقولي: "أنا الطالبةُ فَلْحَة بنتُ أبو جاسر، من قريةٍ منشأةٍ فوقَ وفي ظلالِ صخرِ الجبلِ الأشمِّ. دمِيَ ولَحمِيَ وعظمِيَ مستخلصةٌ كلُّها مِمّا تَجودُ بهِ جلاميدُ الصّخورِ الشماءِ العاتيةِ العاليةِ، والتي طوَّعها والدِيَ ووالدتِيَ باليدِ والمعولِ وبمساعدةٍ حاسِمةٍ منِ حَميرنا المعطاءةِ". أبدأُ كلمتِيَ هذهِ الآنَ: "بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم .... أنا... اللغةُ العربيةُ الفصحى ... أينَ أنتنَّ يا بناتِيَ وأين أنتُمْ يا أبنائِيَ؟!! ...". وبعدَ الانتهاءِ من الكلمةِ قولي فقط: والسّلامُ ختامُ...

"زولالة": هي هي هي هي ... هذه ليستْ كلمةً تقالُ في مهرجانٍ لِمدارسِ البناتِ تَحضرُهُ شخصياتٌ تأتي بسياراتِها الفارهةِ ومعهُمْ زوجاتُهُمْ في حُليِّهِن ولباسِهِنَّ ومستحضراتِ تَجميلِ وجوهِهِنَّ وأيديهِنَّ وأرجلِهِنَّ وصدورهِنَّ وفي حالةٍ ساحقةٍ ماحقةٍ من الكشخِ والتيهِ والهيجانِ. هذهِ الكلمةُ تَحتاجُ إلى شَخصٍ يلقيها مِنْ أعلى درجةٍ في الدولةِ أو من ينوبُ عنهُ؛ يَخطبُ في مَجلسِ نوّابٍ منتخَبٍ من الشعبِ!...

"فَلْحَة": كذلكَ يَجبُ إفساحُ المَجالِ أمامَ الأعمالِ المسرحيةِ الأخرى والتي تأخذُ الجزءَ الأكبرَ من المهرجانِ والحفلِ، حيثُ صَرَفَتْ الطالباتُ الأخرياتُ معظَمَ أيامِ السّنةِ الماضيةِ للتدريبِ عليها لإنْجاحِها وباللغةِ الأجنبيةِ...

حمد: يا أختِيَ "فَلْحَة"!، يُمكنُكِ أنْ تتدرّبينَ على إلقاءِ هذهِ الكلمةِ أمامِيَ وبحضورِ أبوالزهو؛ وإذا ما تَمَكّنا من إقناعِ الوالدِ أبو جاسر وبقيةِ إخوانكِ وأخواتِكِ لِحضورِ

تلكَ التمريناتِ. إنْ يكنْ هنالكَ من شيءٍ نشعرُ أنّهُ ناقصٌ في إلقاءِ الكلمةِ فإنني وأبوالزهو والجميعَ مستعدونَ لإرشادِكِ وتصحيحِ الخطأِ فيهِ!...

أبوالزهو: وعندما تذهبينَ إلى المدينةِ سننتظرُكِ خارجَ مكانِ المهرجانِ أو قاعةِ الاحتفالاتِ. وإذا ما شعرْنا بحدوثِ شيءٍ غيرِ طبيعيٍّ حتى نَهُبَّ جَميعاً هبةَ رجلٍ واحدٍ ونقفُ إلى جانبِكِ، ومعَنا الوالدُ أبو جاسرٍ حيثُ يعرفُ المدينةَ وأركانَها جيداً!.

بعدَ إلقاءِ الكلمةِ صفّقَ الجمهورُ طويلاً للآنسةِ "فَلْحَة" على كلمتِها وحسنِ أدائِها على الرغمِ من صِغَرِ سنِّها...

المعلمةُ "هوايدة بنت جدِي" (معلمةُ اللغةِ العربيةِ!): يا "فَلْحَة"!... "هايدي الكلمة موش منّك" (هذه الكلمةُ ليستْ منكِ أيْ ليستْ من تأليفِكِ). "مين ساوالكياها" (من كَتَبَها أو عمِلَها لكِ)؟!. "أوليلي الحئيئة" (قولي لِيَ الحقيقةَ)!.

"فَلْحَة": لقد كتبها لِيَ أخي حمد، وقمتُ بالتدرّبِ على إلقائِها أمامَهُ وبحضورِ صديقِهِ الحميمِ أبوالزهو عندَنا في البيتِ.

"هوايدة بنت جدي": واللهِ!... حبذا لو أنَّ حمد أو حتى صديقَهُ أبوالزهو يعطيانِ دروساً في اللغةِ العربيةِ الفصحى بدلاً عنّا في هذهِ المدارسِ عسى أنْ يتحسَّنَ وضعُ اللغةِ العربيةِ، لغةِ الأمِّ والأبِ، أمِّ وأبِ كلِّ واحدٍ فينا...

"فَلْحَة": لا يستطيعُ أخِيَ حمد عملَ أيِّ شيءٍ، ودونَ استثناءٍ تقريباً، دونَ وجودِ أبوالزهو بجانبِهِ؛ هو الذي يفتحُ قريحتَهُ الشعريّةَ والفنيّةَ والفكريّةَ والفلسفيّةَ، وحتى شهيّةَ الأكلِ لديهِ!.

حازتْ الطفلةُ "فَلْحَة" على جائزةٍ من اللجنةِ المشرفةِ على المهرجانِ...

"فَلْحَة": لقد ربحتُ، أو على الأصحِّ ربحنا، جائزةً في المهرجانِ هي قلمَ حبرٍ جافٍّ وثلاثةَ أقلامِ رصاصٍ ومِمحاتينِ ونصفَ علبةِ طباشيرَ صغيرةٍ، وكذلكَ منديلاً للرأسِ وزوجاً من الجواربِ!.

أبوالزهو: أعطِني يا أختَنا "فَلْحَة" واحداً من أقلامِ الرصاصِ لأضعَهُ على أُذنِيَ اليُمنى. أريدُ أنْ أرى كيفَ يكونُ شكلُ الكُتّابِ والمفكّرِينَ والمبدعينَ في هذه البلادِ من الّذين يُحبّونَ أنْ يضعوا الأقلامَ على آذانِهِمْ حيثُ يكونونَ جاهزينَ لكتابةِ ما يطرأُ على خواطرِهِمْ حالَ ورودِ الأفكارِ إليها. كذلكَ أعطِني طبشورةً واحدةً من علبةِ الطباشيرِ حتى أكتبَ بها لكُمْ، أنتُمْ قومُ الوالدِ أبو جاسر، على الحائطِ (بدلَ اللوحِ) "ألفٌ وباءٌ وجيمٌ وأنتَمْ تقروؤونَ من خلفِيَ"... ألِفْ با بوبايه ... ألم (قلم) رصاص ومحاية... آنا بكْتُبْ على اللاوح ... وإنتو ابطِئْروا ورايه (على رأيِ الممثلِ والفنانِ القديرِ "شوشو") هي هي هي هي هي...

حمد: توقّفْ يا أبوالزهو عن الاستهتارِ بالجائزةِ المقدّمةِ إلى أختِنا "فَلْحَة"، والتي لولا وقوفُنا الاثنينِ معَها وبكلِّ قوانا العقليةِ والحِسِّيةِ والغريزيةِ واللوجستيةِ! منْ جهتِكَ، لما حَصَلَتْ على أيَّةِ جائزةٍ. لَمْ يضعْ جهازُ التعليمِ في الدولةِ نُصْبَ عينيْهِ أيَّةَ خطةٍ لِجعلِ اللغةِ العربيةِ مقدّسةً في عقولِ أبنائِها وبَناتِها. هذا ما جعلها تَهرمُ وتَخبو وتضمحلُّ على قارعاتِ طرقِ العالَمِ القريبِ والبعيدِ، في مضاربِ الباديةِ وأزقةِ الأحياءِ الشعبيةِ في المدنِ والقرى.

أبوالزهو: والآنَ يا صديقِيَ حمَد، ما رأيُكَ بأغنيةٍ تنعشُ الروحَ والجسدَ والفكرَ الأصيلَ وتَحترمُ أصالةَ اللغةِ والتاريخِ والحضارةِ!.

حمد: آخ... يا صديقِيَ، الآنَ تضربُ على أكثرِ الأوتارِ حساسيةً عندِيَ.... أغنيةٌ من كوكبِ الشرقِ والجنوبِ، من السّيدةِ الشيخةِ أم كلثوم. كلماتٌ من تأليفِ الشاعرِ الباكستانيِّ الملهمِ الشيخ "محمد إقبال" وألحانِ شيخ الفنانينَ الموقّرِ رياضَ السّنباطي من "شَيخ" المَقاماتِ الموسيقيةِ الشرقيةِ، مقام "السّيكا" ومع شيخةِ الأغاني ... أغنيةُ "حديث الروح". دن دنِ رن جن ...... حديثُ الروحِ للأرواحِ يسري وتدركُهُ القلوبُ بلا عناءِ.... هتفتُ بهِ فطارَ بلا جناحٍ وشقَّ أنينُهُ صَدْرَ الفضاءِ ..... ومعدنُهُ ترابيٌّ ولكن جرتْ في لفظهِ لغةُ السّماءِ .... قيثارتي مُلِئَتْ بأنّاتِ الجوى لا بدَّ للمكبوتِ من فيضانٍ .... صعدَتْ إلى شفتي خواطرُ مهجتي ليَبينَ عنها خاطري ولساني .... أنا ما تعدّيتُ القناعةَ والرِّضا لكنما هي قصةُ الأشجانِ...
أبوالزهو: يا صديقِيَ كانَ الأجدرُ برعاةِ الحفلِ أنْ يدعونا، أنا وأنت، لنشاركَ بفاعليّةٍ في مهرجانِ الثقافةِ والتثقّفِ من مثلِ الذي أقيمَ واشتركتْ فيهِ أختُنا "فَلْحَة"!. لا نريدُ منهمُ جائزةً كبيرةً أو متواضعةً .... لا نريدُ من بينِهِمْ لا حامداً ولا شَكوراً!.

صيفٌ ثانٍ في الجامعةِ

في مُحاولةٍ لإصلاحِ الحالِ، ولو قليلاً، في اختيارِ التخصّصِ وعملِ شيءٍ ما لإصلاحِ الموقفِ المعنويِّ المتدنّي عندَهُ قامَ حمد بالتسجيلِ لِمساقٍ من قسمٍ آخرَ في الكليّةِ. اعتُبِرَ ذلكَ المساقُ أحدَ المتطلباتِ من داخلِ الكلّيةِ حسبَ الخطةِ الدراسيةِ المطلوبِ إتّباعَها للتخرّجِ. المساقُ من قسمِ الكيمياءِ ويربطُ موضوعَيْ الكيمياءِ والفيزياءِ. كانَ مدرّسُهُ الدكتورُ "غارب" من الناشئينَ أيضاً في موضوعِ التدريسِ. يتمتَّعُ بشخصيةٍ فريدةٍ وعجيبةٍ، خلافاً للدكتورين "هولاك" و"بَولاكْ"، فهو يبتسمُ ويضحكُ وحتى أنّهُ يقهقِهُ!؛ لكنّهُ في منتصفِ الطّريقِ إلى كاملِ ابتسامتهِ أو ضحكتهِ أو قهقهتِهِ يتوقّفُ عن هذهِ أو تلكَ، يعبسُ ويزمْجرُ ثُمَّ يبدأُ بالشتمِ أو السّبِّ بصوتٍ عالٍ. كانَ يسترخي أو يتظاهرُ بذلكَ حتى ليبدأَ من حالةِ الاسترخاءِ تلكَ ليشُدَّ بطنَهُ وحزامَهُ مُحاولاً، كما يبدو، تعويضَ ما يظُنُّ أنّهُ أخطأَ في إظهارهِ تسامحٍ مع من حولَهُ. يوجدُ عندهُ فكرٌ متطرّفٌ ونشازٌ ضدَّ اللغةِ العربيةِ والناطقينَ أو من يُحاولونَ النطقَ بها!. في ذلكَ الوقتِ تَمكّنَ المدرِّسُ العربيُّ للتَّوِّ من إجبارِ تلامذتهِ العربِ على كتابةِ تقاريرِ المُختبراتِ لديهمُ كاملةً غيرَ منقوصةٍ بلغةٍ غيرِ العربيةِ بِما في ذلكَ اسمِ التلميذِ ورقمهِ الجامعيِّ. خلاصةُ نتيجةِ الدراسةِ مع الدكتور "غارب" ترتفعُ قليلاً عن مستوى الصّفرِ، وكغيرهِ الكثيرِ كما يبدو فقد تَمَّ اختيارُهُ لِمثلِ هذا الهدفِ ...
ما أعجبَ حمد في الدراسةِ الصّيفيةِ هو وجودُ مُختبرٍ للمساقِ المطروحِ علَّه يَجدُ تطبيقاً لِما يسمعُ عنهُ في الصّفِّ بشكلٍ عمليٍّ ولو كانَ ذلكَ رمزياً. هنالكَ كانتْ حواليْ عشرةُ (١٠) تَجاربَ مسجّلةً، معظَمُها ليستْ لهُ علاقةٌ بِما يَجري في قاعةِ تدريسِ المساقِ. لَمْ يكنْ من مشرفٍ على مادةِ المُختبرِ العمليِّ غيرُ مُحَضّرٍ

المُختبرِ المسئولِ عن إخراجِ الموادِ أو الأجهزةِ من مستودعِ المُختبرِ، من مثلِ كاتبٍ أو مدقّقٍ لأسْماءِ الأجهزةِ في المستودعِ المذكورِ.

طالبٌ زَميلٌ (يُخاطبُ حمد): لَسْتَ تلميذاً في تَخصّصِ الكيمياءِ؛ ما الذي يقلقُكَ ويدعوكَ إلى تحمّلِ رسومٍ ونفقاتٍ إضافيةٍ وغربةٍ وجهدٍ إضافيٍّ؟. لِماذا لا تركِّزُ جهودَكَ على موضوعِ تَخصّصِكَ؟!.

حمد: من بابِ زيادةِ الخيرِ. أحبُّ معرفةَ ما يَجري حوليَ في هذهِ الحياةِ؛ لا أحبُّ "التشرنقَ" في جذعِ أحدِ الأشجارِ خاصةً إذا ما كانت تلكَ الشجرةُ من نوعِ "الخنشارِ"!. أحبُّ أنْ أكونَ مثلَ نَحلةٍ تُحاولُ أنْ تجمعَ رحيقاً من الأزهارِ من هنا وهناكَ!.

الطالبُ الزميلُ: لا ضيرَ في ذلكَ، "أنتَ تُحبُّ أنْ تكونَ فأنتَ ما تُحبُّ أنْ ستكونَ"!. (مقولةٌ لأحدِ الفلاسفةِ مَجهولِ الهويةِ؟!). إذنْ هل ترغبُ في تغييرِ تَخصّصِكَ أو أنْ تضيفَ تَخصّصاً فرعياً إلى تَخصّصِكَ الرئيسيِّ في القسمِ الآخرِ؟.

حمد: أرغبُ فقط في تحسينِ وضعِيَ النفسيِّ والمعنويِّ خاصّةً أنني في كلِّ سنةٍ يَجبُ عليَّ أنْ أقابلَ فيها وليَّ أمريَ الكبيرَ، أبوالزهو، وأثبتُ لهُ أنني أتقدّمُ. دراسةُ هذا المساقِ هنا، ربّما، ستساعدُني أنْ أريَهُ شيئاً على أرضِ الواقعِ. مرَّت عليَّ سنتانِ لَمْ أقدرْ أنْ أتحدَّثَ معهُ عن شيءٍ إلّا من بعضِ الأفكارِ الأثيريةِ التي تنزعُ منهُ خيالَهُ وتلقي بهِ وبخيالهِ في مهاويِ الفضاءِ اللا-معقولِ حيثُ أماكنِ تواجدِ العددِ التخيليِّ!، الجذرِ التربيعيِّ للعددِ السّالبِ (في الرياضياتِ هنالكَ العددُ التخيّليُّ "ت" وهو الجذرُ التربيعيُّ للعددِ -١). ها قد مضت عليَّ أكثرُ من أربعةِ عشرةَ (١٤) سنةً في جهازِ التعليمِ مُحاولاً تَجميعَ أيِّ شيئينِ مع بعضِهما لإنتاجِ ثالثٍ يَحظى بأيَّةِ قيمةٍ أو يَثيرُ أيَّ انتباهٍ حتى لدى العامّةِ من الخلقِ كافةً. أخشى أنّهُ إذا ما استمرّتْ الأحوالُ على ذلكَ أنْ لا أجدَ على أطرافِ أصابعِيَ ما ألعقُهُ بلسانِيَ!. الحياةُ عندِيَ صارتْ كلُّها تَجاربَ في الفضاءِ الخارجيِّ، وأصبحَ الفضاءُ الداخليُّ من حولِنا أكثرَ فراغاً من الخارجيِّ!.

الطالبُ الزميلُ: نَحْنُ هنا في هذا القسمِ أكثرُ اقتراباً للواقعِ الحياتيِّ. الحياةُ المخبريةُ عندَنا في معظمِها سوائلٌ وأحماضٌ وقواعدُ وتفاعلاتٌ كيماويةٌ؛ مَحاليلٌ مشتقةٌ من أخرى ومستحضراتٌ علميةٌ وعمليةٌ وقسمٌ منها طبيةٌ مَخبريةٌ وصيدلانيةٌ (كما يفترضُ أنْ تكونَ).

حمد: ومن أينَ تأتي الموادُ الأساسيةُ لتحضيرِ الموادِ الفرعيةِ المهمةِ وغيرِ ذاتِ الأهميةِ؟. هل لديكُمْ ورشةٌ في القسمِ لتحضيرِ أيِّ شيءٍ من مثلِ موادٍّ موجودةٍ داخلَ القُطرِ، أو خارجَهُ، وهي كثيرةٌ؟.

طالبٌ: لسنا هنا بأكثرَ من متتبعينَ لِخطواتِ التحضيرِ؛ خطوةٌ ١، خطوةٌ ٢، خطوةٌ ٣، ....، خطوةٌ "نْ" ثُمَّ نصبرُ قليلاً حتى تظهرَ النتيجةُ. إذا ما كانتْ النتيجةُ حسبَ الموصوفةِ في الكرّاسةِ المصاحبةِ للكتابِ المقرَّرِ فرحْنا بها، وإذا لَمْ تكنْ كذلكَ إمّا أنْ نعيدَ الخطواتِ من جديدٍ، أو نستدعيَ من سبقونا في الحصولِ على نتيجةٍ إيجابيةٍ. إذا ما فشلت التجربةُ نكتبُ أسبابَ فشلِنا في الحصولِ على نتائجَ متوقعةٍ! ... وهكذا دواليكَ!.

طالبٌ: استنتاجاً من أسئلتِكَ!، هل تتحدّثُ عن طرقٍ مبتكرةٍ في عملِ هذه التجاربِ من موادَّ موجودةٍ في البلدِ وعقولٍ موجودةٍ في البلَدِ وكتبٍ أو كراساتٍ مُحَضَّرةٍ في البلدِ؟!.

حمد: وبالعربيةِ الفُصحى .... كذلكَ...

الطالبُ: لا يوجدُ شيءٌ من هذا القبيلِ الذي تتحدّثُ عنهُ وعلى الإطلاقِ. كلُّ شيءٍ مستوردٌ؛ من قارورةِ الاختبارِ والسّوائلِ وتعليماتِ التجربةِ وكيفيةِ تَخزينِها والتعاملِ معها وحتى كيفيةِ المُحافظةِ على أوانيها نظيفةً!. ... إلخْ إلخْ.

طالبٌ: كلُّ شيءٍ بيدِ الشركاتِ التي تصنعُها، بيدِ رأسِالمالِ الذي يُموِّلُها وبيدِ المُحتكرينَ الأجانبِ الذي يسوِّقونَها. ما العملُ؟ هذه حالُ الدنيا!. بلادُنا الناميةُ غيرُ قادرةٍ على المشاركةِ في إنتاجِ مقعدِ كرسيٍّ على دراجةٍ هوائيةٍ بعجلتينِ. إذا ما قرَّرَ الناسُ في بلادِنا إنتاجَ سيارةٍ مثلاً عليهِمْ أنْ يأتوا بأربعِ عجلاتٍ جاهزةٍ للاستعمالِ، يضعونَ عليها جسراً قد يكونُ خشبياً يَجمعُ العجلاتِ مع بعضِها. ثُمَّ يوصلونَ ذلكَ الجسرَ برقبةِ حمارٍ أو بغلٍ أو حصانٍ أو حتى ثورٍ أو بشرٍ، مستعينينَ بتكنولوجيا قادمةٍ من المحراثِ البلديِّ، لنستعيضَ بهِ عنِ المُحرِّكِ الميكانيكيِّ.

حمد: لكنْ ما السّببُ في عدمِ تبنِّي القسمِ لِخُطَّةٍ تعليميةٍ تَهدفُ إلى بثِّ روحِ الإبداعِ عند الطلبةِ والأجيالِ حتى يتَمكّنوا من الوَقوفِ على "عقولِهم" فيما بعدُ؟!.

طالبٌ: تَحتاجُ هذهِ إلى عقلياتٍ واعيةٍ ومستنيرةٍ وعندَها القدرةُ على التحدِّي والتضحيةِ. رئيسُ القسمِ عندَنا، الدكتورُ "طرطوق"، يتبعُ بقايا العصرِ البيزنطيِّ!. إذا ما أرادَ أنْ يَحلقَ رأسَهُ لا يذهبُ إلى صالونِ الحلاقةِ كي لا يَخسرَ عشرةَ (١٠) قروشٍ يعطيها لذلكَ الحلّاقِ المسكينِ!. لذلكَ السّببِ لا ترى تَماثلاً بيِّناً بين طولَيْ السّالِفَينِ الأيسرِ والأيمنِ لدَيْهِ؛ إلى جانبِ ذلكَ فإنَّهُ غالباً ما يستخدمُ موسى قديمةً للحلاقةِ وكثيراً ما نرى آثارَ جراحٍ على جانِبَيِّ أُذُنيْهِ.

حمد: أنا ذاهبٌ الليلةَ إلى "المطْعمِ العَجْميّ" في المدينةِ، لقد اشتقتُ إلى طعمِ الدسمِ!. تعالوا نذهبُ سويَّةً علَّهُ معَ أكْلِ وجبةٍ ثقيلةٍ تَرِدُ على عقولِنا أفكارٌ فيها بعضُ الدَّسَمِ!.

انتهَى صيفٌ آخرُ من أصيافِ سنواتِ العمرِ الكثيرةِ الضائعةِ، أو لنقلْ ضاعَ صيفٌ بعدَ ضياعِ الخريفِ والشتاءِ والربيعِ. النتيجةُ هي بقاءُ حمد تَحْتَ سيطرةِ نفسِ الوجوهِ منَ المدرّسينَ الدكاترةِ من الذينَ عليهِ دراسةُ مساقاتٍ معهُمْ وبكثرةٍ. ليسَ ذلكَ فحسبُ بل هنالكَ بندٌ في قانونِ التعليمِ العالي ينصُّ على أنّهُ يُمكنُ للمدرسِ، بعد قضاءِ فترةٍ مُحدّدةٍ منَ الزمنِ مدرّساً في الجامعةِ، أنْ يَحصلَ على مكانٍ أو كرسيٍّ دائمٍ في الجامعةِ يرابطُ فيهِ حتّى إلى ما قبلَ بضعِ ساعاتٍ من نقلهِ إلى مَقبرةِ طائفتهِ!. لكنْ بدأ حمد هذا الصّيفَ يشعرُ قليلاً أنَّ بمقدورهِ أنْ يرفعَ رأسَهُ وعينيْهِ قليلاً في أعينِ أفرادِ عائلتهِ حتى يقنعَهُمْ بأنَّ جهودَهم في الإنْجابِ والتربيةِ والتعليمِ والتثقيفِ لَمْ تذهبْ سدىً. شُبِّهَ لهُ أنّهُ تَخلّصَ من حالةِ العبثيةِ، أو على وشكٍ، أو على الأقلِّ من الممكنِ أنْ يكونَ هنالكَ أملٌ في الانتقالِ إلى مرحلةٍ فيها بعضُ الانتعاشِ الفكريِّ!.

جاءَ أهلُ حمد لزيارتهِ في الجامعةِ، على عكسِ رغبتِهِ!؛ جاءت أمُّهُ وجاءَ أبوهُ ... أمُّ جاسر وأبو جاسر. تَجوَّلَ الجميعُ في حرمِ جامعةِ "البايروطاطِ" الواسعِ. دخلَ الوالدانِ لأولِ مرّةٍ في حياتِهِمْ إلى بناياتٍ فيها قاعاتُ تدريسٍ ومُختبراتٌ، أمكنَةٌ

افتراضيةٌ لديْهِمْ تُمثِّلُ أينَ يتلقّى التلاميذُ العلمَ من أركانهِ وأساطينهِ!. في بنايةِ المكتبةِ الرئيسيةِ كانَ هنالكَ لقاءٌ بين الوالدينِ وبينَ أصدقاءِ ابنِهِمْ حمد من عمّالٍ وموظفينَ في المكتبةِ.

حمد: هذه يا والدَيَّ هي المكتبةُ الرئيسيةُ وهنالكَ بعضٌ من "بناتِها"، فروعِ المكتبةِ، متفرعةٍ عنها في أماكنَ مُختلفةٍ من الجامعةِ؛ أنا ابنُهُنَّ كلِّهن تقريباً ... وبلا منازعٍ تقريباً!. فيهنَّ مئاتُ الآلافِ من الكتبِ ومن مُختلفِ التخصّصاتِ. هنالكَ المَجلاتُ والدورياتُ وقاعةٌ للصحفِ والمَجلاتِ الأسبوعيةِ حيثُ يتمُّ الاتصالُ الإعلاميُّ بينَ الطلابِ والعالَمِ الداخليِّ والخارجيِّ. الآن أرجوكَ يا والديَ العزيزَ أنْ توصفَ لأبوالزهو المشهدَ كَما تراهُ وأنْ لا يظلَّ لديْهِ انطباعٌ بأنَّنا نُضيعُ أعمارَنا في حالةٍ من العبثيةِ المطلقةِ. انظرْ هناكَ على مدخلِ بنايةِ المكتبةِ، لوحةٌ كُتِبَ عليها بخطٍّ عريضٍ: "فيها ما هيَ جديرةٌ بالقراءةِ"!.

موظفةٌ شابةٌ: من هو هذا أبوالزهو؟!. من المؤكدِ أنّهُ شخصٌ كبيرٌ مهيبٌ وعزيزٌ على قلوبِكُمْ ومهمٌّ جداً في حياتِكُمْ في الماضي والحاضرِ والمستقبلِ!.

أبو جاسر: ما لَكِ وما لِأبوالزهو؟!، اتركيهِ وشأنَهُ، إنَّ لَهُ أهلٌ وأصحابٌ ولا نقدرُ أنْ نُفرِّطَ بهِ نصفَ يومٍ واحدٍ من حياتهِ أو من حياتِنا.

حمد: العائلةُ والعالَمُ كلُّهُ في كفةِ ميزانٍ وأبوالزهو عندَنا في الكفَّةِ الأخرى ويرجحُ عليهِمْ جَميعاً. قلْ لهُ يا والديَ أنْ لا يقْلقَ عليَّ أبداً. أنا دائماً مُمْتَنٌّ لهُ ولِجهودهِ وحرصِهِ عليَّ خاصةً، وعلى الأهلِ والشعبِ والوطنِ عامَّةً.

موظفةٌ أخرى: من المؤكّدِ أنَّ أبوالزهو نائبٌ في مَجلسِ الشعبِ، البرلَمانِ، مُمثّلاً عن دائرتهِ الانتخابيةِ!.

حمد: تصوَّري ذاتَ مرَّةٍ عرضتُ عليهِ فكرةَ الترشُّحِ لذلكَ المنصبِ لكنَّهُ رفضَ تَحمُّلَ المسؤوليةِ وقالَ لِيَ بالحرفِ الواحدِ: "إذا انتخبَنِيَ الشعبُ سأعملُ عبداً عندَ الشعبِ، غيريَ إذا انتخبَهُ الشعبُ سيعملُ الشعبُ عبداً عندَهُ"؛ يعرفُ معنى المسؤوليةِ ومعنى الانتخابِ!.

أبو جاسر: الآن يا ولديَ دعكَ من الهزارِ ولنتَّبعْ كلامَ الجدِّ. ماذا برأيكَ لو طلبنا لكَ يَدَ إحدى هؤلاءِ الفتياتِ الجميلاتِ واللاتي تفوحُ روائحُ العطورِ، كلٌّ من ثنايا فستانِها. يبدو لِيَ أنَّهُنَّ بناتُ حلالٍ، هنَّ أحسنُ لكَ من غيرهِنَّ، عندَهنَّ علمٌ وجَمالٌ ورتابةٌ؛ ومن أوتِيَ علماً وجَمالاً فقد أوتِيَ شيئاً عظيماً.

أم جاسر: تلكَ الصَّبيةُ التي سألتْكَ عن أبوالزهو!، يبدو عليها أنَّها بنتُ حلالٍ. يا ولديَ من الممكنِ أنْ تفهمَنا وتَخدمَنا وتعيشَ معنا ونعيشَ معها!.

حمد: هذه الفتاةُ يا أمِّيَ! تتوقَّعُ أنْ يكونَ أبوالزهو مديرَ مصرفٍ ماليٍّ كبيرٍ أو ملاّكَ بناياتٍ وعقاراتٍ أو سمسارَ أراضٍ كبيرٍ أو صاحبَ شركةِ "نقلياتٍ عبرَ الصّحاري" أو شركةِ "توريدِ وتصديرِ موادَّ غذائيةٍ"، أو حتى أحدَ جلاوزةِ "القومبرادور". هذه الفتاةُ الصّغيرةُ تسعى إلى تأمينِ مالٍ وفيرٍ، تسكنُ في "فيلّا" بحجمِ نصفِ قصرٍ، تَحتوي تلكَ "الفيلّا" على بركةِ سباحةٍ ومرآبٍ للسياراتِ بحراسةِ كلابٍ تَحرسُ أسوارَ الحراسةِ، تستمتعُ بسهراتٍ وحفلاتٍ ويقومُ على رعايتِها خدمٌ وحراسٌ مدرّبونَ من ذوي اللياقةِ البدنيةِ العاليةِ!.

أبو جاسر: هذهِ فعلاً جامعةٌ كبيرةُ الحجمِ وجدٌّ معتبرةٌ!. لقد أصابنِي الإعياءُ والتعبُ من السّيرِ وعلينا أنْ نذهبَ إلى مكانِ مسكنِكَ القريبِ، لنستريحَ قليلاً، أنا والوالدةُ.

سوفَ نُصَلِّي العصرَ هناكَ قبلَ الذهابِ إلى بيتِ أختِكَ "محظوظة" التي تسكنُ في مركزِ المدينةِ القريبةِ (حواليْ ثلثَ ساعةٍ بالسّيارةِ أو ساعتينِ ونصفَ السّاعةِ بالباصِ غير المريح أو الآمنِ الذي يعملُ في المنطقةِ، أو حواليْ أربعةَ ساعاتٍ ونصفَ السّاعةِ سيراً على الأقدامِ لِمن يقدِرُ على ذلكَ).
حمد: ستستريحُ وتستلقي في الحجرةِ إذا ما أردتَ على سريرِ نومِيَ، وسترتاحُ الوالدةُ أم جاسر أو تستلقي على سريرِ نومِ شريكِيَ في المسكن. لا يوجدُ في الغرفةِ حيّزٌ يتسعُ لإقامةِ الصّلاةِ، سنُصَلّي في "السِّرداب" الموجودِ في الطابقِ الأوّلِ. هنالكَ توجدُ دورةُ مياهٍ وعسى أنْ تكونَ نظيفةً ولا يوجدُ فيها شبابٌ يستعملونَها، لكيْ تأخذَ الوالدةُ راحتَها! من هذه الناحيةِ!.
أبو جاسر: لا يا ولدِيَ!، لن تستلقيَ أمُّكَ على سريرِ نومِ صديقِكَ أو شريكِكَ في السّكن!. ما الذي تقولُهُ؟!. يا خسارةً على تربيتِنا فيكَ!. ثُمَّ ألا يوجدُ في غرفتِكَ مكانٌ للصلاةِ!، إذن كيفَ تصلّونَ؟. إذا ما كانَ الأمرُ كذلكَ فلنذهبْ إلى حافلةِ نقلِ الركّابِ؛ ومن هناكَ إلى حيثُ تسكنُ أختُكَ "محظوظة"، لنستريحَ ونصلّيَ هناكَ. إذنْ! كيفَ تستريحونَ وتصلّونَ وتنامونَ؟!.
حمد: يا والدِيَ! ننام في الغرفةِ في الأسِرَّةِ، ونطالعُ الدروسَ على الأسِرَّةِ، ونأكلُ على الأسِرَّةِ، ونقاتلُ بعضَنا بعضاً من فوقِ الأسِرَّةِ، وما أدراكَ ما الأسِرّةُ؟!. أمّا من ناحيةِ الصّلاةِ، هنالكَ على بعدِ حواليْ ألفٍ وخَمسمائةِ (١٥٠٠) مترٍ من هنا قدْ بَنى أحدُ الموسرينَ مسجداً للجامعةِ عسى أنْ يساعدَهُ ذلكَ في التقرُّبِ من الرحمن والدخولِ إلى جنَّتهِ. من كانَ عندَهُ قوّةُ إيمانٍ كافيةٌ! يذهبُ إلى هناكَ، والذي لا يستطيعُ الذهابَ لسببٍ أو لآخرَ يصلّي حيثُ استَقَرَّ الأمرُ بقدميْهِ. كلُّ الأرضِ ساحةُ صلاةٍ للهِ عزَّ وجلَّ. لكنِ ... من مراقبتِيَ للتطوُّرِ الفكريِّ! في الجامعةِ وموادِّها الدراسيةِ ومُحاضريها فإنَّ على الموسرِ أعلاهُ نقلَ مسجدهِ من هنا أو إقامةَ مسجدٍ آخرَ جديدٍ بديلٍ في أحدِ الأماكنِ الشعبيةِ علَّهُ "يَجمعُ من الثوابِ" أكثرَ هناكَ. الشبابُ هنا، وإقتداءً بمدرِّسيهم، كلُّها ترغبُ باللّحاقِ بمجتمع "الهاي-تك" ... وبالعافيةِ!. بعدَ قليلٍ منَ الزمنِ سوفَ يصبحُ من الصّعبِ عليكَ التمييزَ بينَ الشابِ وزوجتهِ أو صاحبتِهِ أو زوجةِ أو صاحبةِ غيرهِ! إلا إذا أحضَرَ كلٌّ منهُمُ معهُ أو معها عقدَ الزواجِ من المَحكمةِ وعليه بعضُ الصّورِ الشخصيةِ لكلٍّ منهمْ!. حينَها وبعدَ قليلٍ من الآنِ يصبحُ المؤمنُ "الفقيرُ المسكينُ" هنا مثلَ "القابضِ على جَمْرةٍ من النارِ!" وبشكلٍ واضحٍ وجليٍّ.
أبو جاسر: ألفُ ألفُ لا حَولَ ولا قوةً إلا باللهِ!، يا خسارةً على تعبِنا وشقائنا. منذُ أنْ تعلّقْتَ بالموسيقى والعودِ في أيامِ طفولتِكَ الأولى تنبأتُ بأنَّ نهايةَ الأمرِ معكَ ستؤولُ إلى هكذا حالٍ!. اللهُمَّ نَجِّنا من خطايا أنفسِنا .... إنّكَ أنتَ الرحمنُ الرحيمُ وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ!.

الدكتورُ "براهما"

تَحَسّنتْ أحوالُ حمد السّكنيةُ والنفسيةُ قليلاً فهو الآنَ في السّنةِ الثالثةِ من الجامعةِ. تَمكّنَ من إقناعِ رفيقهِ في المسكنِ لإخلاءِ الحجرةِ لَهُ بعدَ أنْ وجدَ ذلكَ الرفيقُ مسكناً مناسباً لهُ أكثرَ في مركزِ المدينةِ قريباً من أقاربَ لهُ يقطنونَ المدينةَ. أصبحَ الآنَ عندَ حمد غرفةٌ فيها متسعٌ لسريرِ نومٍ وطاولةٍ صغيرةٍ تُستخدمُ للمطالعةِ، كرسيّيْنِ ورفٍّ صغيرٍ لوضعِ الكتبِ عليهِ، ودولابٍ صغيرٍ ليعلّقَ فيهِ ملابسَهُ؛ أضحى عندَهُ بعضُ الحرّيةِ. تقدّمَ مستوى المساقاتِ المطروحةِ في القسمِ من ميكانيكا كلاسيكيةٍ وميكانيكا "كَمّيةٍ" (أو مقداريَّةٍ... إنْ صحَّ التعبيرُ) متقدّمةٍ وفيزياءَ ذريةٍ ونوويةٍ وتحليلِ أطيافٍ ضوئيةٍ وذريةٍ بالإضافةِ إلى متطلباتٍ أخرى من داخلِ الكلّيةِ والجامعةِ. هنالكَ "كشكولٌ" من المساقاتِ وُضِعَ عليها أو لَها "كشكولٌ صغيرٌ"، أقلَّ من عددِ أصابعِ اليدِ الواحدةِ، من المدرسينَ كلُّهمْ من حَمَلَةِ شهاداتِ الدكتوراه وقسمٌ منهمْ بدأ يَشقُّ طريقَهُ إلى الأستاذيةِ، وربّما "الأستاذِ-كُرْسيةِ"!.

من المدرسينَ الجددِ التحقَ الدكتورُ "براهما" بالقسمِ والذي حصلَ على شهادةِ الدكتوراه من جامعةٍ عريقةٍ تقعُ ما وراءَ وخلفَ اليابسةِ والمُحيطاتِ. أعطِيَ الدكتورُ "براهما" صلاحياتٍ لتعليمِ طلابِ القسمِ مساقَينِ متقدمينِ ظناً منِ الجامعةِ أنَّ بقدرتهِ استخدامَ ما تَجمَّعَ في رأسهِ لِخدمةِ الوطنِ والأهلِ. وبما أنّهُ قد أنْهى دراستَهُ في بَحثٍ قريبٍ على التطبيقاتِ التكنولوجيةِ فقد عمَّدَ الدكتورُ "براهما" المساقاتِ الكلاسيكيةِ التي كان يدرِّسُها بمعلوماتٍ مثيرةٍ عن "الحربِ الكونيةِ الحديثةِ"، إنْ تقعْ!. ذلكَ ما جعلَ الكثيرَ من الطلبةِ يعتقدونَ أنَّ ذلكَ "الحالِمَ الطموحَ" على علاقةٍ مع دوائرِ صنعِ القرارِ السّياسيِّ والعسكريِّ والتقنيِّ على مستوى قياداتِ العالَمِ؛ أو أنّهُ أيْ الدكتورَ "براهما" قد يثيرُ أو يَجذبُ إليهِ بأفكارهِ اهتمامَ المخطّطينَ الاستراتيجيّينَ في دوائرِ حلفَيْ "الناتو ووارسو".

ما أنْ يبدأَ الدكتورُ "براهما" مُحاضرتَهُ حيثُ لا تكادُ تَمُرُّ عشرةُ (١٠) دقائقَ تقريباً حتى يبدأ بالتصبُّبِ عرقاً، من الوجهِ والأثداءِ وخلفِ الأذنَينِ والرقبةِ. كغيرِها تعطى المُحاضراتُ طبعاً باللغةِ الأجنبيةِ ولا شيءَ غيرَ اللغةِ الأجنبيةِ بالرغمِ من عدمِ إتقانهِ لَها لا نُطقاً ولا مَنطقاً. كان يفتقرُ إلى الحدِّ الأدنى كمدرسٍ وكمفكّرٍ أو باحثٍ أو حتى مُمثّلِ مسرحٍ لكلِّ ما ذُكِرَ أعلاهُ. كانَ السّؤالُ الذي يظلُّ يَطرحُ نفْسَهُ في كلِّ مُحاضرةٍ؛ ما الذي فَعلَهُ هؤلاءِ الطلابُ وآباؤُهُمْ وأولياءُ أمورهمْ بالذاتِ من خطايا؟! حتى يبعثَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى على أنْجالِهِمْ من مثلِ تلكَ الكوارثِ الهزليةِ ممّن ألصقوا أنفسَهُمْ بجهازِ التعليمِ العالي وبالعافيةِ!. من هو مستعدٌّ للبقاءِ في مثلِ قاعاتِ الدرسِ تلكَ ليغامرَ بحياتهِ وسعادتهِ كلَّ حياتهِ؟!؛ حتى لو تَمكّنَ فيما بعدُ من تولِّي "قيادةِ فيلقٍ" في الحربِ الإلكترونيةِ الحديثةِ التي يدَّعي الدكتورُ "براهما" أنّهُ على علمٍ ودرايةٍ واسعةٍ بأسرارِها ومكنوناتِها؟!. الأكثرُ نكايةً في الأمرِ هو أنَّ الدكتورَ "براهما" يتلقّى من أجلِ ذلكَ "الوهمِ" والخيالِ الذي يلقي بهِ في غرفةِ الدرسِ على عقولِ الطلبةِ، يتلقّى معاشاً. معظَمُ ذلكَ المعاشِ آتٍ من مستخلصاتِ دماءِ آلافِ العمالِ والفلاحينَ والكادحينَ، أو من المساعداتِ الخارجيةِ التي "تأتي باسْمِهِمْ ولكنّها لا تَحملُ عناوينَهُمْ!".

طالبٌ: لا أفهمُ ما الذي يَجري في هذه المُحاضِراتِ!، طالَما أنَّ الدكتورَ "براهما" متمكِّنٌ من علمِهِ كما يقولُ، لِماذا تلكَ المشقةُ في إعطاءِ المعلوماتِ كما لو كان ينتزعُها من آخرِ أنفاسِهِ!.

حمدَ: والشيءُ عَينُهُ في المساقِ الآخرِ حيثُ ملأَ المكانَ عرقاً ورغوةَ لُعابٍ؛ خاصةً إذا ما نسيَ مَحرمةً من قماشٍ يضعُها في جيبِهِ الأيمنِ وأخرى من تَحْتِ حزامِ سروالِهِ. (لشدَّةِ حرصِهِ على الاقتصادِ في النفقةِ والعيشِ لا يُقدِمُ على شراءِ علبةٍ من مَحارمِ الورقِ الصّناعيِّ النشّافِ!)

طالبٌ: على ما القلقُ والعَجَلةُ؟، هنالكَ ضاحيةٌ إسكانيةٌ خاصةٌ بهِ وبأمثالِهِ منِ المدرسينَ، مستقبلٌ مؤمّنٌ وعيشٌ رغيدٌ جداً مقارنةً بما يساهِمُ بهِ في الدخلِ القوميِّ للبلدِ.

طالبٌ آخرُ: هنالكَ لقاءٌ مفتوحٌ بين أعضاءِ هيئةِ التدريسِ والطلبةِ. سوفَ يتمُّ في اللقاءِ التطرّقُ إلى ما يواجهُهُ الطلابُ من مشاكلَ مع المدرسينَ، الصّالِح منهمُ والطالِح!؛ أنّهُ لقاءٌ مفتوحٌ لأوّلِ مرّةٍ والدعوةُ موجّهةٌ إلى الجميعِ للمشاركةِ.

بعدَ أسبوعٍ من حينِهِ انعقدَ لقاءٌ جَمَعَ بين المدرسينَ والطلابِ في قاعةٍ متوسّطةِ الحجمِ حيثُ سُجِّلَت أشدُّ المواقفِ رمزيةً وتعبِّرُ عمّا يَحدثُ في ذلكَ القسمِ في تلكَ الفترةِ.

الدكتورُ "حنطولة": هنالكَ مشاكلُ مستعرةٌ بينَ أعضاءِ هيئةِ التدريسِ أنفسِهِمْ تفوقُ التي معَ الطلبةِ وبكثيرٍ. برأيِيَ، لو نقدِرُ على حلِّ ولو قسمٍ بسيطٍ من هذهِ المشاكلِ. هنالكَ مشاكلُ توزيعِ تدريسِ المساقاتِ على أعضاءِ هيئةِ التدريسِ حيثُ الوضعُ بينَهمُ كأنّهمْ يعيشونَ في غابةٍ، القويُّ يأكلُ الضعيفَ ويقضي عليهِ. يَجب أنْ نبحثَ في طريقةِ القيامِ بتوزيعِ المساقاتِ ينصفُ القويَّ سياسياً ويَحمي منهُ الضعيفَ جِسْمياً وسياسياً!. أمّا بالنسبةِ للطلبةِ فلا يوجدُ مانعٌ لديَّ عندَ حصولِ أيِّ إشكالٍ عندَ التلاميذِ أنْ يتوجَّهَ التلميذُ فوراً بنفسِهِ إلى المرشدِ الأكاديميِّ لهُ ويشرحُ لهُ الإشكالَ؛ كلُّنا إخوانٌ يا أخِيَ!.

الدكتورُ "هولاكٍ": لسنا هنا في جَمعيةٍ تعاونيةٍ أو قريةٍ زراعيةٍ؛ هذا قسمٌ علميٌّ وهذه كليةٌ تابعةٌ لِجامعةٍ، نَحْنُ في معهدٍ تعليميٍّ أكاديميٍّ عالٍ!.

غادرَ الدكتورُ "هولاك" الاجتماعَ منذُ بدايةِ البدايةِ!. لَمْ يكنْ ما تبقّى من الاجتماعِ أقلَّ عفويةً وهزليةً!.

طالبٌ: ما قالَهُ الدكتورُ "هولاك" صحيحٌ لو بدأَ تطبيقَ ما قالَهُ على نفسِهِ. لَمْ يُحقّقْ أيَّ نَجاحٍ أكاديميٍّ أو إداريٍّ أو حتى سلوكيٍّ مع الطلبةِ، وكما تشاهدونَ حتى مع أقرانِهِ!.

الدكتورُ "حنطولة": لقد أخذوا منِّيَ تدريسَ مساقٍ تَخصّصيٍّ بالنسبةِ لِيَ وأعطوْهُ لغيرِيَ نكايةً بِيَ. أعطوْني مساقاً آخرَ لا أعرفُ عنهُ غيرَ القليلِ، لا أدري كيفَ أتعامَلُ مع الطلبَةِ في الصّفِّ، سوفَ أجلبُ معِيَ إلى الصّفِّ دوريةَ شرطةِ النجدةِ لضبطِهِمْ!.

حمد: وهذا ما كان يَحصلُ مع الدكتورِ "بَولاكْ"، حيثُ كان يتعلّمُ العلمَ عن طريقِ إعطاءِ مُحاضراتٍ للطلبةِ دونَ خلفيةٍ حقيقيةٍ مِمّا جعلَ الطلابَ ينبذونَ العلمَ بالتوازي مع تصرفاتِهِ الشخصيةِ. كانت نتيجةُ أخْذِ مساقاتٍ مع "هولاك" و "بَولاكْ" في

عقولِ الأولادِ مثلَ نتيجةِ دخولِ جواميسَ إلى "حيِّزٍ مُقفلٍ لعجلةٍ مسننةٍ تدورُ بسرعةٍ عاليةٍ"!.
طالبٌ: من رأيِيَ أنْ يقومَ الطلابُ بعبءِ التدريسِ بأنفسِهِمْ. مثالٌ على ذلكَ فقد قامَ أحدُ الطلابِ بإعطاءِ بضعِ مُحاضراتٍ نيابةً عن الدكتورِ "براهما"، ولقد استفدْنا منهُ أكثرَ بكثيرٍ من الدكتورِ "براهما" نفسهِ؛ حبَّذا لو يستمرُّ هذا الوضعُ حتى نهايةِ الفصلِ.
الدكتورُ "براهما": لا يوجدُ عندِيَ مانعٌ ولكنْ من يضعُ أسئلةَ الامتحاناتِ ويرصدُ العلاماتِ ومن يقبضُ الراتبَ أواخرَ الأشهرِ القادمةِ؟!.
حمد: بالنسبةِ للمعاشِ آخرَ الشهرِ لن يزاحِمَكَ عليهِ أحدٌ. ومنَ الممكنِ أنْ تتفرغَ لعملِ أشياءَ أخرى تَزيدُ فيها من دخلِكَ مثلَ فتْحِ مطعمٍ "فلافل" أو محلٍ لبيعِ الخضارِ أو مشغلٍ للخياطةِ، وعسى أنْ تَجدَ لكَ مكاناً مناسباً للعملِ بعدَ تجاوزِ السِّنِّ القانونيِّ للتقاعدِ؛ أو أنْ تحصلَ على تقاعدٍ مبكرٍ! وقبلَ فواتِ الأوانِ على الطلبةِ القادمينَ الجددِ من "سعيدي الحظِّ"!.
الدكتورُ "بَولاكْ": لقد لاحظتُ أنَّ الكثيرَ من الطلبةِ يعتمدونَ بشكلٍ كبيرٍ على كتبٍ مقررةٍ؛ آنَ الأوانُ لكيْ يفكِّرَ الواحدُ بنفسهِ في المادةِ الملقاةِ عليهِ من بناتِ أفكارِ عضوِ هيئةِ التدريسِ الخبيرِ في ذلكَ!.
طالبٌ: قطعاً وبتاتاً! لا تعتمدُ يا دكتورَ "بَولاكْ" على كتابٍ مقرَّرٍ وعندَكَ ملاحظاتٌ غيرُ متكاملةٍ وغيرُ متماسكةٍ مع بعضِها ومن الأحسنِ أنْ تلقيَ بها في سلةِ زبالةٍ مناسبةٍ. المسائلُ الرياضيةُ التي تطرحُها في غرفةِ الصّفِّ مَحلولةٌ مسبقاً في الكتابِ تقومُ بالتظاهرِ بأنّكَ الذي فكّرتَ ووضعْتَ حلولَها بالرغمِ من كونِها بدائيةً ومكررةً. كلُّ اهتمامِكَ مَنصبٌّ على إظهارِ "تَميُّزِك" عن طريقِ التحدُّثِ فقط باللغةِ الأجنبيةِ واحتقارِ ما سواها.
الدكتورُ "براهما": أقترحُ إنشاءَ جَمعيةٍ أو لَجنةٍ طلابيةٍ خاصةٍ بالقسمِ بحيثُ يتمُّ الاتصالُ معَها وتوجيهُها بدلاً من التكلُّمِ مع كلِّ طلابِ القسمِ في آنٍ واحدٍ؛ لا سيما أنَّ الكثيرَ لا يُحسنونَ النقاشَ وليس عندَهم الذوقُ الكافي عندَ التحدّثِ!.
طالبٌ: كيفَ لكَ أنْ تسألَ عن ذوقٍ في التعاملِ مع فداحةِ الأمورِ من ناحيةِ التعليمِ الذي يساوي في أغلبِ الأحيانِ تعليمَ الببغاواتِ. هنالكَ نقصٌ خطيرٌ في تَحقيقِ تقدّمٍ أكاديميٍّ عندَ الطلبةِ؛ من المسئولُ عن هذهِ المهزلةِ الأكاديميةِ؟!.
الدكتورُ "براهما": أفضِّلُ فضَّ الاجتماعِ قبلَ أنْ تتطوّرَ الأمورُ إلى ما لا تُحمدُ عُقباهُ.

طبعاً، انتهى الاجتماعُ بلا نتيجةٍ أو اتفاقٍ أو قرارٍ ذي أهميةٍ؛ إلا أنَّ ذلكَ كان مفيداً لبعضِ الطلبةِ للتعرفِ عن قربٍ أكثرَ على حالِ المدرّسينَ من ذوي الكفاءاتِ العاليةِ! الذين يشرفونَ على تعليمِهِمْ. فيما بينَهُمْ، قامَ الطلابُ بتكوينِ جسمٍ طالبيٍّ شبهِ سريٍّ، جسمٍ للبتِّ في حالاتِ الطوارئِ الناتجةِ عن الحالةِ البائسةِ في القسمِ.
طالبٌ: لقد زادَ هذا اللقاءُ معرفتِيَ بهؤلاءِ المدرسينَ!، لا يصلحونَ للتعاملِ مع طلابٍ يسعونَ بكلِّ ما أوتوا لتحقيقِ تقدمٍ في حياتِهِمْ الأكاديميةِ.

حمد: لا داعياً للتفكير السّلبيِّ بأيِّ شيءٍ!. إنَّ حالاتِ الدكاترةِ " هولاك" و"بَولاكْ" و"براهما" ليستْ فردَيةً؛ إنَّها جزءٌ من ظاهرةٍ قائمةٍ وتستعصي وتستفحلُ. يَجبُ أنْ نفكِّرَ في حلٍّ لظاهرةٍ وليس لأفرادٍ.
طالبٌ: هذا لا يكفي طالَما أنَّ رواتبَهُمْ لا تزالُ تصلُ إليهِمْ في مطلعِ أو نِهايةِ كلِّ شهرٍ!.
طالبٌ: وحتى نصلَ إلى موقعٍ للتعاملِ! مع رواتبهِمْ، يَجبُ أنْ يَحدثَ انقلابٌ في الحكومةِ أو بركانٌ اجتماعيٌّ في الدولةِ أو في المنطَقةِ وربَّما في العالَمِ.
حمد: هل تعلمونَ أنَّها السّنةُ الثالثةُ عندِيَ، ثلاثُ (٣) سنواتٍ بأيامِهَا ولياليها، لَمْ أجنِ من هؤلاءِ سوى الكبتَ والتخلّفَ والحرمانَ!.
طالبَانِ: نَحْنُ في السّنتينِ الأولى والثانيةِ والوضعُ عندَنا لا يقلُّ سوءاً.
طالبٌ: خيرٌ لِيَ أنْ أُغيِّرَ تَخصّصِيَ العلميَّ وسأذهبُ لدراسةِ إدارةِ الأعمالِ. هناكَ على الأقلِّ وجوهٌ منشرحةٌ!، هناكَ تسيرُ بعضُ الحياةِ أو حالةُ "لا-موتٍ" وليس كما يَحدُثُ هنا!.

انتهاءُ السّنةِ الجامعيةِ الثالثةِ (تقييمٌ)

ويَمضي الطلبةُ في عمليةٍ تعليميةٍ عاقرٍ. ثلاثُ سنواتٍ تَمضي. الاستفادةُ من الانتظامِ في الكليّةِ مَحدودةٌ جداً إنْ لَمْ تكنْ معدومةً. مثلاً، في الفصلِ الأوّلِ من السّنةِ الدراسيّةِ يعطي القسمُ مساقاً في موضوعِ الإلكترونياتِ لِمدرّسٍ ليستْ لديهِ خبرةٌ لا في التدريسِ ولا في موضوعِ التدريسِ. لا يوجدُ عندَ المدرّسِ خلفيةٌ واعيةٌ وقدرةٌ على تَحمّلِ مسئوليةِ عملهِ. أشخاصٌ مِن نوعِ المرتزقةِ فقطْ وفي أحسنِ الظروفِ يتولّونَ عمليةَ تعليمٍ تأسيسيةٍ حاسمةٍ في حياةِ التلاميذِ. في الفصلِ الثاني من السّنةِ طرحَ القسمُ مساقَ إلكترونياتٍ متقدّماً ومعَ نفسِ المدرّسِ اعتمدَ على مادةِ المساقِ المعطاةِ في الفصلِ الأوّلِ. كانت المادةُ الملقّنةُ للطلابِ غايةَ الشّحِّ في الفائدةِ. لَمْ يَرَ الطلابُ "صماماً ثنائيّاً أو (دَيودِ diode) أو ثنائيَ القطبيةِ" واحداً مثلاً أو " عنصرَ ترانزيستور transistor" ولَمْ تُجْرَ تَجربةٌ واحدةٌ على "المكثّفاتِ الكهربيةِ capacitors" وما يعرفُ بأشباهِ الموصلاتِ الكهربيةِ "semiconductors" وطريقةِ عملِها!. من بعيدٍ يرى الشخصُ من الخارجِ غلافَ الكتابِ المقرّرِ! ويقيسُ سُمْكَهُ ويعُدُّ صفحاتهِ وينخدعُ بِما يرى، لا يعرفُ أنّهُ في غرفةِ الدرسِ لا يُقدِّمُ المدرّسُ من شيءٍ يفيدُ التلاميذَ بشيءٍ يكادُ بالخيرِ يذكرُ. يتكرَّرُ الشيءُ ذاتُهُ بالنسبةِ للمساقاتِ الأخرى؛ مثلَ الفيزياءِ الذّريةِ والنوويةِ، الفيزياءِ الكهرومغناطيسيةِ، الميكانيكا الكلاسيكيةِ والكمِّ... إلخُ إلخُ. لا يعرفُ من أخذَ مساقَ "الحراريّاتِ thermodynamics" مثلاً أيَّ شيءٍ عن الحرارةِ في أيِّ مُختبرٍ؛ لَمْ تُجْرَ تجربةٌ واحدةٌ فيها قيستْ درجةُ الحرارةِ باستخدامِ أيِّ نوعٍ من أنواعِ موازّينِ الحرارةِ على كثرتِها ورخصِ أسعارِها.

تصرفُ الجامعةُ والدولةُ ميزانيةً كبيرةً من قوتِ الشعبِ الفقيرِ على الهيئةِ الأكاديميةِ والإداريةِ والخدماتِ والصّيانةِ مقابلَ إنتاجٍ لا شيءَ. جيوشٌ من الخريجينَ بعدَ حينٍ يهيمونَ على وجوهِهُمْ باحثينَ عن مَكانٍ يقيهِمُ شرَّ البطالةِ، حيثُ ليسَ لديهمُ قدرةٌ على الإنتاجِ والإبداعِ والابتكارِ الذي لَمْ يُعطَ أيَّ اهتمامٍ طيلةَ جلوسِهِمُ الطويلِ المملِّ في قاعاتِ المُحاضراتِ والدّرسِ. ليس فقط أنَّ كلَّ المعلوماتِ المعطاةِ خطأٌ، بلْ إنَّ فداحةَ الخطأِ تثيرُ القلقَ والاشْمئزازَ في النفوسِ!. في أغلبِ الأحيانِ يكونُ شرحُ المدرِّسِ بوادٍ والتفسيرُ الصّحيحُ لذلكَ الشرحِ بوادٍ آخرَ يبعدُ كثيراً عَن الأوّلِ. يوقِعُ المدرِّسُ التلاميذَ في حيرةٍ من أمورِهِمْ؛ هل مَصدرُ الخطأِ في التفسيرِ المدرّسُ أمْ الكتابُ أمْ التلميذُ المسكينُ أمْ الثلاثةُ في شبهِ آنٍ واحدٍ. وَصَفَ أحدُ طلّابِ القسمِ في ذلكَ الوقتِ دراسةَ الفيزياءِ بأنّها كانتْ أقلَّ بكثيرٍ من الناحيةِ العلميةِ والعمليّةِ والتقنيةِ من تَخصّصاتِ الجغرافيا والتاريخِ والميتافيزيقا (الميتافيزيقا هي علمُ! ما وراءَ الطبيعةِ من مثلِ علمِ الغيبِ)، مع احترامهِ لكافةِ تلكَ التخصصاتِ!.

يعودُ حمد بعدَ انتهاءِ السّنةِ الجامعيةِ الثالثةِ وبشِقِّ الأنفاسِ وتَحتَ كابوسِ النقصِ الكبيرِ في المعلوماتِ المفيدةِ في العلمِ والحياةِ؛ يعودُ إلى الأهلِ وربوعِ الوطنِ الصّغيرِ.

أبو جاسر: الحمدُ للهِ على سلامتِكَ يا بُنَيَّ، وعسى اللهَ أنْ لا يبدّدَ لكَ تعباً. عندما زرتُكَ في الجامعةِ ورأيتُ المباني الفخمةَ والمكتبةَ تأكّدَ لِيَ أنَّ الشاعرَ صادقٌ عندما قالَ "العلمُ يرفعُ بيوتاً لا عمادَ لَها والجهلُ يهدمُ بيوتَ العزِّ والكرم".

أم جاسر: اقتربَ موعدُ الفرَجِ. سنةٌ ونراكَ متخرِّجاً وقد حصلتَ على شهادةٍ مرموقةٍ على أتعابِكَ وسهرِ لياليكَ. بعدَها جهِّزْ نفسَكَ لتتزوجَ بنتَ حلالٍ مثلَ التي سألْتَنا عن أبوالزهو. لقد صنعْتَ شعبيةً لأبوالزهو هناكَ في الجامعةِ أكثرَ من كلِّ العائلةِ!.

أبوالزهو وسرحان: وسوفَ نذهبُ معكُمْ السّنةَ القادمةَ ونرى بأمِّ عينَيْنا ما وصفتُموهُ لنا!. يا صاحبيَ! أعرفُ أنّكَ كنتَ ساكتاً على غِشٍّ!. مضى عليكَ خَمسةَ عشرةَ (١٥) سنةً تنهلُ من منابعِ العلمِ وخَمسةَ عشرةَ (١٥) سنةً تَخدعُني وتشكو من قلةِ المعلوماتِ. أمرٌ عجيبٌ فيكَ!. لَكنّني لا أظنُّكَ تقدرُ أنْ تَخدعَني!.

حمد: يا أبوالزهو ويا والدِيَ ويا والدتِيَ، يا أيُّها الذينَ تنظرونَ من بعيدٍ؛ متى تعرفونَ بأنّني في داخلِيَ أموتُ عذاباً واحتراقاً وخوفاً على عقلِيَ وفؤادِيَ من غدٍ. كَمْ من حمارٍ يَحملُ أسفاراً وكم من أموالٍ تُبَدَّدُ في الطريقِ غيرِ الصّحيحِ؟!.

سرحان وأبوالزهو: وإذا ما كان الأمرُ كذلكَ، لِماذا إذنْ تستمرُّ في الدراسةِ في جامعةِ "البايْروطاط" منذُ أكثرَ من ثلاثِ (٣) سنواتٍ حتى الآنَ. لَمْ يفتْ عليكَ الأوانُ، اتركْ هذه "الموبئةَ" الحضاريةَ! واجلسْ معنا هنا في الحقلِ بينَ أهلِكَ وأحبائِكَ.

حمد: المشكلةُ الصّعبةُ هي ما العملُ فيما يَحدثُ لِيَ ولغيرِيَ وللأهلِ والناسِ والحياةِ!. يا إلهِيَ! كيفَ أنَّ الأمورَ تسيرُ إلى خارجِ السّيطرةِ!. ما الذي يُمكنُ عملُهُ لوقفِ هذا الانزلاقِ نَحْوَ الهاويةِ؟!.

أبو جاسر: مثلُكَ مَثلُ بقيةِ البشرِ؛ لستَ بأحسنَ منهُمْ ولستَ بأسوأَ منهُمْ في نفسِ الوقتِ. ماذا عن صديقِكَ "عزّام"؟؛ لقد قالَ لِيَ بأنكَ من أكثرِ الطلابِ نشاطاً واجتهاداً وتوْقاً لنيلِ العلمِ والتقدمِ في كلِّ شيءٍ. أصدقاؤُكَ في المكتبةِ قالوا لِيَ بأنّكَ آخرُ من يغادرُ المكتبةَ قبلَ منتصفِ الليلِ بقليلٍ عندما يريدُ كلُّ واحدٍ أنْ يذهبَ إلى بيتهِ للراحةِ والنومِ. عسى اللهُ تعالى أنْ لا يضيعَ لكَ تعباً.

أبوالزهو وسرحان: لو تتفضلُ تقولُ لنا ما الذي يقلقُكَ ويقضُّ من مضجعِكَ ويَجعلُكَ مثلَ الذي يَمشي على صفيحٍ ساخنٍ. ماذا تريدُ وماذا لا تريدُ؟. هذه الدنيا وهذه أحوالُها، لتنسَ ولو لفترةٍ وجيزةٍ مشاكلَكَ مع "بَولاكْ" و"هولاك".

حمد: أضيفا إليهما كذلكَ الدكتورَ "براهما"، حيثُ أنَّ "المنْصَبَ" ("المنصبُ" يشبهُ موقدَ النارِ ولهُ ثلاثةُ أرجلٍ، يوضعُ عليهِ إناءٌ معدنيٌّ مثلَ قِدْرٍ صغيرٍ يرادُ طبخُ مُحتوياتهِ) يَحتاجُ إلى ثلاثةِ أرجلٍ!. تصوّرا يا سرحان ويا أبوالزهو، سنةً كاملةً في دراسةِ موضوعِ الإلكترونياتِ لَمْ نتمكّنْ من إجراءِ تَجربةٍ واحدةٍ على الموصلاتِ أو أشباهِ الموصلاتِ أو على جهازٍ إلكترونيٍّ واحدٍ. المشكلةُ في الوضعِ هناكَ تتمثلُ في أنّهُ لا يَحلُّ مَحلَّ الدكتورِ "بَولاكْ" إلا الدكتورُ "بَولاكْ"، ولا أحدَ يَحَلُّ مَحلَّ الدكتورِ

"براهمــا" إلا الـدكتورُ "براهمــا" ولا يَحـلُّ مَحـلَّ الـدكتورِ "هـولاك" إلا الـدكتورُ "هولاك"....
أبوالزهو: ... ولا يَحلُّ مَحلَّ العوّادِ إلا العوّادُ. بِما أنّكَ تُغَنّي على ليلاكَ أريدُ أنْ أغنّيَ على ليلايَ!، وليكنْ بعدَنا الطوفانُ.
حمد: أريدُ أنْ أسألَ سؤالاً واحداً أخيراً: هلْ يستطيعُ الحمارُ أنْ يعلّمَ النمورَ الصّغيرةَ والكلابَ والقططَ والأرانبَ والغزلانَ فنَّ الكرِّ والفرِّ والاختباءِ من العدوِّ والقفزَ فوقَ الحواجزِ وتسلُّقَ الأشجارِ والموانعِ ؟!.
أبوالزهو: لا أريدُ الخوضَ كثيراً فيما تتحدّثُ عنْهُ. لقدْ حوّلْتَ حياتَنا منْ جرّاءِ تعليمِكَ في المدرسةِ والجامعةِ إلى كابوسٍ في الليلِ والنهارِ. أمامَنا مسئولياتُ عائلةٍ وأعمالٌ وهُمومُ أطفالٍ وغيرُ ذلكَ الكثيرُ. لا عدلاً ولا معقولاً أنْ يذهبَ الجميعُ ضحيةَ تعليمِكَ!.
حمد: في "جمهوريتِنا الفاضلةِ" يا أبوالزهو يَموتُ الشريفُ جوعاً ويصعدُ المنافقُ إلى درجةٍ متقدمةٍ في الحياةِ!.
أبو جاسر: آخ.... "تَموتُ الأسْدُ في الغاباتِ جوعاً ولَحْمُ الضأنِ تأكلُهُ الكلابُ".
أم جاسر: لَمْ يبقَ منَ العمرِ أكثرَ مِمّا مضى. بقيَ لَكَ آخرَ سَنةٍ، تَحَمّلْ حالَكَ، لا تتطرّقْ للسياسةِ ولا تُدخِلْ نفسَكَ في متاهاتِ آخرِ دقيقةٍ. تَخرَّجْ من الجامعةِ وأرحْ نفسَكَ وأرِحْنا معكَ.
سرحان وأبوالزهو: وحتى تقهرَ عصابةَ "البَوَلاكْ" هذهِ و"تفركَ" في عيونِهُمْ بَصَلَةً!، ("تَفرُكَ بصلةً في عينِ شخصٍ" تعبيرٌ مَحليٌّ يعني تَجعلُهُ مُحرَجاً من نفسِهِ غيرَ قادرٍ على النظرِ إليكَ، لغوياً "فَرْكُ البصلةِ في العينِ" يَجعلُها تدمعُ كثيراً حيثُ لا يقدرُ أنْ ينظرَ ويرى بها الشخصُ جيداً) عليكَ أنْ تأتيَ لَنا بشهادةٍ نقومُ بتصويرِها لكَ وعملَ بروازٍ خاصٍ بِها نضعُها في صدرِ البيتِ يُحملُ فيها اسْمَكَ ورسْمَكَ!.
حمد: يعجبُني فيكَ يا أبوالزهو ثباتُك على العهدِ حتى آخرَ لَحظةٍ وإلى أنْ تتحقّقَ أمانيكَ بيَ رغمَ مَحدوديةِ إمكانياتِنا. دائماً وأبداً أقتدي بِكَ في معظمِ التصرفاتِ والسّلوكِ الحياتيِّ عنديَ!. سوفَ نطربُ والعائلةُ كلُّها معَ موسيقى إخوانِنا في الجناحِ الغربيِّ للوطنِ الكبيرِ. عندَهُمْ أحدُ جواهرِ الطربِ العربيِّ الأصيلِ، مع صوتِ الفنّانِ الشيخْ "عبدالوهاب الدوكالي".
سرحان وأبوالزهو: كلَّ آخرِ سنةٍ تأتي وتأتينا بجديدٍ!.
حمد: دج دن دن..... .... مرسولِ الحُبّ فين امشيتي؟ وفين غِبتي علينا! .. عالينا، خايف لا تكون انسيتنا واهجرتينا وحالفْ لا اتعود! .... ما دام الحُب بينّا مفقودْ وأنتِ من نبغُو اَسقيتينا .... باسم لِمحَبّا! .. باسم الأعماقْ! .. وحرْ لَشْواق ... كان نترجاك إيش سوّيت فينا؟ .. وارجع لينا .... يذوب الصّمتْ وتِتْكَلّمْ أغانينا!!
....
سرحان وأبوالزهو: يا سلامِ يا سلام يا سلام عليكَ .... أكملْ وأكملْ يا هذا.
حمد: مرسول الحُب اغيابَكْ طال هذي المرّة؟! ... غيابك طالْ هذه المدّة، وقلوبِ لِحبابْ .. وأنتَ بعيدْ وأنت بعيدْ .. ولّتْ صحراء! ... ولا يحرّكْها إحساسْ اجديد ... ولا تنبت فيها زهرَة .... افتَحْ الشذى والطيبْ واتونّسْ اللي بات اغريب ....، تايه في ليلْ ... ابلا قَمرة!.

أبو جاسر: يا ولداً! عندَكَ هذه الإمكانيةُ لتطريَنا هنا وتَحفظُ أغانٍ من المغربِ وبِلهجةِ أهلِ المغربِ!، وتظلُّ أمامَنا تشكو من قَفْرِ الحياةِ الأكاديميةِ مَعَ المعلمينَ!. نَظلُّ هنا نَحملُ هَمَّ تَحصيلِكَ العلميِّ، حرامٌ عليكَ وَاللهِ!.
سرحان: وهل ذهبتَ إلى المغربِ حتى تتقنَ اللكنةَ المغربيةَ؟!؛ أَمْ مثلَ كلِّ مرّةٍ تقولُ بأنَّ صديقَكَ أعطاكَ شريطَ تسجيلٍ!. اعترفْ لنا هل تصرفُ الفلوسَ التي نبعثُ لكَ في رحلاتٍ إلى أقصى سواحلِ المغربِ العربيِّ؟!.
أبوالزهو وسرحان: نصحتُكَ ألفَ مرّةٍ أنْ تدرسَ الموسيقى وفنَّ الطربِ؛ لَمْ تُطِعْنِ وأردتَ أنْ تكونَ عالِماً كبيراً في الطَرّاطِ (الذرّاتِ)!.

يا "شايف" المنظرِ يا خائبَ الرجاءِ

تشتملُ الخطةُ الدراسيةُ لأيِّ طالبٍ في جامعةِ "البايْروطاطْ"، أو طالبةٍ طبعاً، على متطلباتٍ تسمى بالجامعيةِ يَجبُ أنْ يسجّلَ لَها الطالبُ من قسمٍ في الجامعةِ خارجَ الكلّيةِ التي يتبعُ ذلكَ الطالبُ لَها. يهتمُّ حمد بتاريخِ العلمِ وتَطورِ نظرياتِه ابتداءً من مشاهدةِ الملاحظاتِ العابرةِ والظواهرِ والقراءاتِ المصاحبةِ لَها إلى الفرضياتِ والنظرياتِ المقترحةِ وأخيراً حيثُ يتَمُّ إثباتُ ذلكَ في المُختبرِ بالإحساسِ المُجرَّدِ ليصبحَ الأمرُ قانوناً راسخاً. تاريخُ العلمِ والإنسانِ وتطورُهُ يضربُ وتراً حسّاساً في رأسِ حمد يكادُ لا ينامُ ليلَهُ في التفكيرِ في ذلكَ الزمانِ والمكانِ والظروفِ المُحيطةِ بالإنسانِ وبالاكتشافِ العلميِّ. قضى حمد باكورةَ عمرِهِ يعيشُ قريباً من مقابرِ القرى البائدةِ المُحيطةِ بقريتِه مُحاولاً استنباطَ معلوماتٍ عن حياةِ هؤلاءِ الناسِ؛ كذلك لهُ مطالعاتٌ! في التاريخِ الحضاريِّ للصينِ واليابانِ والهندِ ... وللهنودِ الحمرِ. لذلك، سجَّلَ في ذلكَ الصّيفِ مَساقاً من كليةِ الآدابِ في جامعةِ "البايْروطاطْ" كانَ يطلَقُ عليهِ اسمَ "منهجيةُ وتطورُ الفكرِ البشريِّ"، ويبحثُ في التغيُّرِ في المنهجيةِ العلميةِ لدى البشرِ مع الزمنِ. يشرفُ على ذلكَ المساقِ الدكتورُ "فاطي". هنالكَ مسرحٌ يضمُّ مدرجاً كبيراً في الجامعةِ وقد خُصِّصَ لإعطاءِ ذلكَ المساقِ بسببِ إرتفاعِ عددِ الطلبةِ المسجلينَ فيهِ.

الدراسةُ في فصلِ الصّيفِ كالعادةِ مكثفةٌ، والصّيفُ بطبيعتهِ حارٌّ إلى حدٍّ ما حيثُ تزيدُ قابليةُ الأجسادِ والأدمغةِ البشريةِ للاسترخاءِ والكسلِ والخلودِ إلى الراحةِ أو النومِ. ليسَ للمساقِ مُختبرٌ كما أنّهُ يُدَرَّسُ باللغةِ العربيةِ، على العكسِ من موادِ الكلّياتِ العلميةِ والتي تَمَّ "استئصالُ اللغةِ العربيةِ" منها بقرارٍ سياسيٍّ قبلَ عدةِ سنواتٍ من حينِهِ.

الدكتورُ "فاطي" قصيرُ القامةِ نسبياً، شديدُ الصّلعِ، يضعُ دائماً نظارةً بيضاءَ الإطارِ ويبدو أنّهُ قد حاولَ إحسانَ اختيارِها لتعطيَهُ هيبةَ عالِمٍ أو مفكّرٍ في الحلِّ والترحالِ. دوماً يلبسُ سروالَ "شارلستون" طويلاً، في ذلكَ الوقتِ بدايةِ الموضةِ، إلا أنّهُ لَمْ تكنْ باستطاعتهِ "الخنفسةُ" والالتحاقُ بأعضاءِ فرقةِ "البيتلز

The Beatles" الغنائيةِ!، بالشكلِ فقط، يكادُ لا يرفعُ قدميهِ أثناءَ الحركةِ عن مستوى الأرضِ. بحقيبةِ اليدِ التي كانَ يَحملُها، وكانت كبيرةَ الحجمِ بالمقارنةِ مع جسمهِ، يكادُ يستخدمُ يديْهِ ورجليْهِ بنفسِ الدرجةِ إذا ما هَمَّ بتسلُّقِ دَرَجِ بنايةٍ مثلاً. الدكتورُ "فاطي" مصابٌ بنرجسيةٍ غيرِ مريحةٍ؛ في حقيبةِ يدهِ مرآةٌ كثيراً ما كانَ يُخرجُها لِيرى وجهَهُ وشكلَهُ فيها، كما أنّهُ يقومُ بتعديلِ وضعِ نظاراتهِ بمعدَّلِ مرّةٍ أو مرّتين كلَّ دقيقةٍ. لا يسعُ المرءَ إلا أنْ يقولَ: "لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ وإنّا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ على تلكَ الحالِ!". أو على حدِّ تعبيرِ ورأيِ إخوانِنا في منطقةِ السّواحلِ الشرقيةِ للبحرِ المتوسّطِ؛ "تِضْرَبْ إخِتْ هايْكْ حالِةْ مَعاهْ أوْلُوه"!!.

مَضَتْ أوّلُ عشْرِ (١٠) مُحاضراتٍ تقْريباً أيْ ما يعادلُ شهراً واحداً تقريباً! من الفصلِ الدراسيِّ العاديِّ، وفي كلِّ مُحاضرةٍ يُضيعُ الدكتورُ "فاطي" معظمَ وقتِها مع نفرٍ قليلٍ في الصّفِّ من أصحابهِ وصاحباتهِ في مناقشةِ وجودِ خالقٍ للكونِ أو عدمَ وجودِ خالقٍ اسْمُهُ اللهُ (سبحانَهُ وتعالى). في البدايةِ ظنَّ الكثيرُ من الطلابِ أنَّ تلكَ الأفكارَ جزءٌ متقدّمٌ من المادّةِ المقرّرةِ. بدأ الدكتورُ "فاطي" يستهترُ بلفظِ الجلالِ، إذا مُجِّدَ، وبدأ يريدُ الظهورَ كما لو كانَ من روّادِ العلمِ والفلسفةِ والتحرّرِ في المنطقةِ في ذلكَ المَجالِ. طفحَ الكيلُ عندَ الكثيرِ من الطلبةِ لأنَّ دفاترَ ملاحظاتِهمْ خلَتْ من أيَّةِ ملاحظاتٍ مفيدةٍ أو غيرِ مفيدةٍ، ولَمْ يَتمكَّنوا من كتابةِ أيِّ شيءٍ عن أيِّ شيءٍ!.

حمد: دكتور "فاطي"!، لقد مضتْ حتى الآنَ عَشرُ مُحاضراتٍ لَمْ تتمكَّنْ من إعطاءِ شيءٍ يذكرُ. لقد فهمنا منذُ أوّلِ خَمسةِ دقائقَ في أوّلِ مُحاضرةٍ أعطيتَها بأنَّ لديكَ مشاكلَ خاصةً مع الخالقِ، إنّكَ تنكرُهُ أو تتنكّرُ لهُ. إنَّ هذا لأمرٌ مؤسفٌ جداً والمؤسفُ أكثرَ أنّكَ تظلُّ تكرّرُ نفسَ "اللازمةِ" مِمّا يثيرُ في النفسِ السّخافةَ والاشْمئزازَ من كلِّ شيءٍ اسْمُهُ علمٌ أنتَ تدرِّسُهُ.

الدكتورُ "فاطي": من أنتَ ولِماذا تتكلّمُ بصوتٍ عالٍ وبطريقةٍ غيرِ مؤدّبةٍ؟!.

حمد: اسْمِيَ حمد أبو جاسر، مؤدّبٌ ومُحترمٌ أكثرُ منكَ!. أنا غيرُ معترضٍ عليكَ اعتقادَكَ أو عدمَ اعتقادِكَ باللهِ، هذا أمرٌ لا يعني أيَّ شخصٍ في العالَمِ. نَحْنُ معنيّونَ بدراسةِ مساقٍ أُعلنَ عنهُ أنّهُ يَحتوي على مادّةٍ فكريةٍ ضروريةٍ لطالبِ العلمِ حتى تساعدَهُ كيفَ يفكّرُ وماذا يفعلُ في مواضيعَ بَحثيةٍ، ماذا يقرأُ وكيفَ يكتبُ، وعلى ماذا التركيزُ في القراءةِ والكتابةِ. ما تعلّمناهُ من عندِكَ لا شيءَ لا شيءَ لاشيءَ.

الدكتورُ "فاطي": لا أسْمحُ لك بهذهِ الجسارةِ والوقاحةِ في الصّفِّ. لقد أعطيتُ مادةً كثيرةً ولكنَّها مشكلتُكَ أنّكَ لا تعرفُ التقاطَ الملاحظاتِ المناسبةِ!.

طالبٌ: هذا دفترُ ملاحظاتِ المساقِ عندِيَ، لَمْ أستطعْ كتابةَ أكثرَ من صفحةٍ ونصفِ الصّفحةِ من الملاحظاتِ، كلُّها تتحدّثُ عن عدمِ صلاحيةِ وجدوى الاعتقادِ باللهِ عزَّ وجلَّ.

طالبةٌ: وإذا ما استمرَّ المساقُ على هذهِ الشاكلةِ سوفَ يضطرُّني الأمرُ لإلغاءِ المساقِ والفصلِ الصّيفيِّ حيثُ لا توجدُ عنديَ دراسةٌ في الجامعةِ هذا الفصلَ غيرُ هذا المساقِ. عنديَ شُغلٌ كثيرٌ في المطبخِ وتحضيرُ طبخٍ للأكلِ لإخوانِيَ وأخواتِيَ الصّغارِ ولِمساعدةِ أمِّيَ كذلكَ في أعمالِ البَيتِ.

حمد: هل لكَ يا دكتورَ "فاطي" أنْ تُعَيِّنَ لنا كتاباً كمقرّرِ مساقٍ أو تصوِّرَ لنا ما عندَكَ من ملاحظاتٍ في دفترِ ملاحظاتِكَ، مهما تكُنْ قيمتُها العلميةُ!، حتى نعرفَ

بالضبطِ ماذا تريدُ. نَحْنُ نتعاملُ مع مساقٍ جامعيٍّ فيهِ واجباتٌ للبيتِ وامتحاناتٌ ونهائياتٌ وعلاماتٌ تقررُ مصيرَ بشرٍ في المستقبلِ القريبِ والبعيدِ. ماذا نستفيدُ من مدرّسٍ يهدُرُ وقتَهُ ووقتَ تلاميذهِ في جدالٍ عقيمٍ لا يسمنُ ولا يُغني من جوعٍ.
الدكتورُ "فاطي": وهل تريدُ أنْ تعطيَني مُحاضرةً في كيفيةِ تدريسِ المساقِ؟. أطلبُ منكَ أنْ تسكتَ وأنْ تأتيَني إلى المكتبِ بعدَ انتهاءِ المُحاضرةِ، لا وقتَ لديَّ الآنَ، نَحْنُ في مُحاضرةٍ للطلابِ.
حمد: وماذا تودُّ أنْ تفعلَ في مكتبِكَ؟. هل ستصبحُ هناك نَمِراً أو فهداً أسودَ ينقضُّ على فريسةٍ سهلةٍ؟!، يبدو أنّكَ صاحبُ خيالٍ واسعٍ!.
الدكتورُ "فاطي": تفضّلْ اخرجْ من المُحاضرةِ وانتظرنِ عندَ بابِ المدْرَجِ، وسوفَ ترى أنّني سأقدّمُكَ إلى مَجلسِ ضبطٍ ومَجلسٍ تأديبيٍّ.
خَرَجَ الدكتورُ "فاطي" من المدْرَجِ بعدَ انتهاءِ المُحاضرةِ وأخبرَ حمد بأنّهُ ليسَ لديهِ متسعٌ من الوقتِ لرؤيتهِ في المكتبِ وأنَّ لديهِ أشغالاً طارئةً تنتظرهُ!. حذّرَ الدكتورُ "فاطي" حمد من تكرارِ تلكَ الطريقةِ معهُ في الصّفِّ. قالَ لهُ حمد أنّهُ سينتظرُ المَجلسَ التأديبيَّ لهُ.
في المُحاضرةِ التاليةِ أتى الدكتورُ "فاطي" بقائمةٍ مؤلّفةٍ من أكثرَ من عشرةِ (١٠) كتبٍ ومراجعَ ادعى أنّهُ رتَّبَها! بنفسهِ لكي يتمكّنَ الطلابُ من إيجادِ مادّةٍ للمطالعةِ والتحضيرِ. قالَ بأنّهُ قرأها كلّها وأنّهُ على علمٍ ودرايةٍ بمحتوياتِها!؟. كانت تلكَ الطريقةُ في عَرضِ الكتبِ أقربَ إلى الانتقامِ منها إلى العملِ الأكاديميِّ!.
بسببِ أفكارِ الدكتور "فاطي" الفضفاضةِ الليبراليةِ المتطرفةِ أقدمت فتاةٌ على "التغزّلِ"، أو "التحرّشِ"! بهِ علانيةً في الصّفِّ. قامت الآنسةُ "روليتا" بتغييرِ مكانِ جلوسِها المخصّصِ لها في منتصفِ القاعةِ الكبيرةِ إلى صفِّ الكراسي الأوّلِ قريباً من المنصةِ التي يطلُّ الدكتورُ "فاطي" برأسهِ من ورائِها، وفي منتصفِ وقتِ المُحاضرةِ.
الدكتورُ "فاطي": لِماذا غيّرتِ مكانَكِ يا آنسةَ "روليتا"؟.
"روليتا": لكي يسهلَ عليَّ أنْ أرى شَفَتيْكَ وأنتَ تتحدّثُ، شكلُكَ جَميلٌ!.
الدكتورُ "فاطي": لأجلِ ذلكَ فقط، لا أسْمحُ بِمثلِ هذا الكلامِ أثناءَ الدرسِ.
"روليتا": لا يوجدُ وقتٌ آخرُ نراكَ فيهِ غيرَ هذه الأوقاتِ.
طالبٌ: وهل هنالكَ من شيءٍ آخرَ يعجبُكِ فيهِ غيرَ الشفاهِ؟!.
"روليتا": لقد قصدتُ كلامَهُ الحلوَ العذبَ والطريقةَ التي يتكلّمُ بها. الرجاءَ أنْ تفهموا الأمورَ بطريقةٍ أخرى أكثرَ براءةً.
الدكتورُ "فاطي": إذا ما أردتِ أنْ تفهمي الأمورَ بشكلٍ أوضحَ، عليكِ أنْ تزوريَني في المكتبِ!.
طالبٌ: ولِماذا في المكتبِ؟ هل سيتحولُ في مكتبهِ إلى "كازانوفا"؟!.
طالبٌ: ها ها ها ها.....
الدكتورُ "فاطي": مَن هو قليلُ الأدبِ الذي يقهقهُ؟!.
سَرَتْ موجةٌ من القهقهةِ والضحكِ عبرتْ قاعةَ الحضورِ من أقصاها إلى أقصاها.
الدكتورُ "فاطي": يا لقلّةَ الأدبِ، سوف أريكُمْ ماذا سأفعلُ بكُمْ.
حمد: عليكَ القيامُ بعمليةٍ ترسيبٍ جَماعيٍّ لأعدادٍ من الطلبةِ.

الدكتورُ "فاطي": هل هذا مستوى طلابِ جامعةٍ؟ هل هذا مستوى بشرٍ؟!.
طالبٌ: وهل هذا مستوى مدرّسينَ؟!.

عصرُ الهجرةِ إلى الشمالِ والغربِ

الناسُ في بلادِ الشّرقِ والجنوبِ بشكلٍ عامٍّ وبلادِ العربِ بشكلٍ خاصٍّ مبهورونَ بما يَحدثُ في العالَمِ الغربيِّ والشماليِّ، وبشكلٍ عامٍّ كذلكَ. مبهورونَ بالصّناعةِ والزراعةِ والتجارةِ وفي مَجالِ المالِ والأعمالِ. مبهورونَ في مَجالِ العمرانِ والبناياتِ العاليةِ، بصناعةِ الملابسِ وتصميمِها وتطويرِها، بصناعةِ منتجاتِ حلاقةِ الذقونِ وتنقيبِ شعرِ الحواجبِ وتزيينِ الرؤوسِ. مبهورونَ بطريقةِ عرضِ الجنسيْنِ الخَشنِ واللطيفِ لنفسَيْهما على التلفازِ وفي مَحلاتِ بيعِ موادِّ التجميلِ المُختلفةِ. لَمْ يبقَ من شيءٍ لَمْ يُبهِرْ الغربُ بهِ العربَ!. في جامعةِ "البايْروطاطْ" التي يتلقى فيها حمد تعليمَهُ الجامعيَّ كلُّ شيءٍ في الجامعةِ أصبحَ بيدِ مَجموعةٍ من الأكاديميّينَ الذينَ آمنوا، عن غيرِ وعيٍ ربَّما، بأنَّ حدودَ الفكرِ والمعرفةِ توجدُ فقط عندَ حدودِ الجغرافيا والتاريخِ، والسّياسةِ والقانونِ والعلومِ والتكنولوجيا الموجودةِ في بلادِ الغربِ. لا غرابةَ ولا ضيرَ في ذلكَ فلقد سبقَ الغربُ العوالِمَ الأخرى، بالحظِّ والصّدفةِ تارةً وبالجدِّ والاجتهادِ تارةً أخرى وبإعمالِ الفكرِ والعقلِ واستخدامِ عقولِ الآخرينَ مرّاتٍ أخرى. لقد سبقَ الغربُ بقيةَ البشرِ إلى اختراعِ العجلةِ! (الدولابِ) والإفراطِ في استعمالِها وما يتبعُ ذلكَ من زيادةِ السَّرعةِ للوصولِ إلى الهدفِ وتوفيرِ الوقتِ. صاحَبَ هذا وذاكَ إطلاقُ الحرّياتِ في التعاملِ مع كلِّ شيءٍ تقريباً حتى في مَجالِ إطلاقِ الحرياتِ نفسه!. من أجلِ هذا "التقدّمِ المرئيِّ" وذاكَ وغيرهِ هجرَت الشّبابُ أوطانَها وهجرتْ العقولُ مواطنَ وحتى رؤوسَ! أصحابِها وتركَ المفكرونَ بيئاتِهم؛ حتى أنَّ أئمةَ الأرواحِ تركتْ معابدَها للأرواحِ الأخرى. توجّهَ الجميعُ أو على وشكِ صوبَ الغربِ والشَّمالِ ولَمْ يُبقوا وراءَهمْ سوى بصماتٍ بسيطةٍ تدلُّ على أنَّهُمْ كانوا في يومٍ ما مضى هناكَ.

الخطورةُ على أبناءِ العالَمِ والعربِ بشكلٍ خاصٍّ تكمُنُ في مُحاولةِ هؤلاءِ البشرِ تصميمَ وقولبةَ عقولِهِمْ في بلادهِمْ حسبَ مقاييسَ شُبِّهَ لِهؤلاءِ المنقادينَ أنّهُ طالَماَ أنَّ تلكَ القوالبَ أو العقليّاتِ لاقت نجاحاً في بلادِها فلا مانعَ ولا ضررَ ولا خطأَ

من زرعِها في عقولِ الأجيالِ الصّغيرةِ والقادمةِ. يَجري ذلكَ على غِرار "إننّا وجدنا غيرَنا قدْ نَجحوا في مَجالٍ معيَّنٍ وإذَنا لِخطاهُمْ لَمقتدفونَ"!؛ وكمثَلِ الأعمى الذي يبحثُ عن طريقهِ بقيادةِ شخصٍ آخرَ، الشخصُ الآخرُ ربَّما يكونُ تائهاً أو حتى مَجنوناً أو بِهِ مسٌّ من الجنِّ أو الشيطانِ!.

الكثيـرونَ مـن البشـرِ لا يعـونَ الأسـبابَ الحقيقيـةَ وراءَ تقـدم المُجتمعـاتِ الغربيةِ عن الشرقيةِ. أكثرُ تلكَ الأسبابِ أهَميةً وفاعليةً هو طبيعةُ تلكَ البلدانِ الغنيةِ بكلِّ شيءٍ تقريباً عدا مصادرِ الطاقةِ. مصادرُ المياهِ كثيرةٌ، مياهُ بُحيراتٍ عذبةٍ وأنْهارٍ ومياهُ أمطارٍ غزيرةٍ على مدارِ السّنةِ، وأرضٌ غايةٌ في الخصوبةِ. يقابلُ ذلكَ مَحدودَيـةُ مصـادرِ المِيـاهِ فـي المنـاطقِ الحـارّةِ والجافـةِ، حتـى مِيـاهِ الشـربِ ومِيـاهِ الوضوءِ للصلاةِ التي تُبطِلُ التَّيَمُّمَ!. إضافةً إلى ذلكَ فإن طبيعةَ الجوِّ الباردةِ تُبقي على دماغِ الإنسانِ في حالةٍ من النشاطِ والعملِ فترةً أطولَ من مثيلاتِها في المناطقِ الحارّةِ والجافّةِ. كذلكَ، والحديثُ عن بلدانِ الشمالِ والغربِ، فإنَّ التناسبَ المتزنَ الحاصلَ بينَ عددِ السّكانِ ومصادرِ الطبيعةِ للعيشِ هو في حدودِ المقبولِ والمعقولِ على الدوامِ؛ لا يوجدُ خطرٌ ماثلٌ ناتجٌ عن الزيادةِ المطردةِ في عددِ السّكانِ بالمقارنةِ مع مصادرِ الرزقِ.

بِسَببِ ما ذُكِرَ أعلاهُ وغيرُهُ الكثيرُ حدثَ فارقٌ ماديٌّ واقتصاديٌّ وثقافيٌّ شاسـعٌ بـينَ دولِ الشـمالِ والغـربِ مـن جهـةٍ ودولِ الجنـوبِ والشـرقِ مـن الناحيـةِ الأخرى. من الطبيعيِّ أنْ يَميلَ الفرقُ في ميزانِ القدرةِ الاقتصاديةِ هذا إلى تلكَ الدولِ وتبعاً لذلكَ يَجذبُ إليهِ كافةَ العقولِ والعقليـاتِ التوّاقةِ إلـى سـهولةِ العملِ والكسبِ والتقدُّمِ والترفيهِ. وبِسببِ زيادةِ قوّةِ الشمالِ والغربِ عنها في الشرقِ والجنوبِ فقد أدّى ذلكَ إلى نشوءِ ظاهرةِ الاستعمارِ والاحتلالِ والاستيلاءِ على المواردِ الطبيعيةِ للغيرِ نظراً لطبيعةِ الجشعِ الموجودةِ عندَ بني البشرِ بشكلٍ عامٍّ والأقوياءَ منهُمْ بشكلٍ خاصٍّ. معظمُ الدولِ التي استُعْمِرَت في الماضي والحاضرِ والتي ستُستعمَرُ! في المستقبلِ تقعُ في "الضاحيةِ" الجنوب-شرقيةِ للكرةِ الأرضيةِ، وعلى العكسِ من ذلكَ تركَّزت الدولُ الاستعماريةُ في "الضاحيةِ" الشماليةِ-الغربيةِ الغنيةِ والقويةِ لكوكبِ الأرضِ. الموضوعُ طويلٌ وشائكٌ وفيهِ مرارةٌ وعسرٌ كبيرانِ عندَ الخوضِ أو التعمُّقِ فيه كثيراً.

المواطنُ العربيُّ ميّالٌ بشكلٍ لافتٍ للنظرِ إلى أخْذِ معظمِ أموالهِ من بلدِهِ وترحيلِها أو الرحيلِ معَها أو إيداعِها بكلِّ امتنانٍ في مصارفَ خارجيةٍ معظمُها تقعُ في الضاحيةِ الشمالِ-غربيةِ؛ ويبقى يعيشُ في بلَدِهِ مثلَ سائحٍ "متحضّرٍ" مع حاشيةٍ عَلِيَّةٍ! مُختارةٍ مِمَّن تبقّى من بينِ قومِهِ المتبقّينَ في مسقطِ رأسِهِ. يستفيد هو كذلكَ وبمعدّلٍ أكبرَ من غيرِهِ من ثرواتِ وطنِهِ الأصليِّ ومصادرِهِ الطبيعيةِ؛ "العِزُّ للأرُزِّ... والبرغُل شَنَقَ حالَه"!. الظاهرةُ الأخرى هي أنّهُ كلَّ صيفٍ يتجهُ ملايينُ العربِ بأموالِهِمْ وما كسِبوهُ من أعمالِهِمْ الصّغيرةِ والكبيرةِ إلى مطاعمَ ومقاهي ومواخيرَ ومنتجعـاتٍ يقـعُ معظمُهـا فـي الضـاحيةِ الشـماليةِ الغربيـةِ. بعدَ ذلكَ بوقتٍ قصيرٍ يعودونَ إلى مواطنِهِمْ الأصليةِ الجافّةِ! وقد خلتْ جيوبُهُمْ، وطبعاً بطونُهُمْ إضافةً إلى عقولِهِمْ وعلى التوالي، من المالِ والطعامِ والفكرِ الأصيلِ الذي يَخدمُ الوطنَ والناسَ الآنَ ومستقبلاً. يُخلونَ رؤوسَهُمْ من الفكرَ الأصيلِ الذي يفيدُ الوطنَ والأمةَ والعالَمَ كلَّهُ بدلاً من أنْ يبقى هذا الجزءُ من العالَمِ يعيشُ عالةً على ما يُعرفُ بالعالَمِ الأوّلِ،

الأوّلُ كذلكَ في امتصاصِ ثرواتِ الكرةِ الأرضيةِ وتَحويلِها إلى مَخازنِه ومستودعاتِ الطاقةِ والمالِ والفكرِ عندَهُ.

العربيُّ، الرَسْميُّ والشعبيُّ، والحالُ تلكَ، يدمِّرُ طريقةَ أهلِهِ في التفكيرِ ويستبدلُها بثقافاتٍ (أو طرقِ حياةٍ بتعبيرٍ آخرَ) أخرى؛ ظنّاً منهُ أنّهُ يُجِدُّ بحثيثِ الخُطواتِ نَحْوَ الرقيِّ والتقدمِ والازدهارِ والرفاهيةِ. حتى أنّهُ في الرسائلِ المتبادلةِ بينَ رؤسائهِ عادةً ما يُنهيها هؤلاءِ الرؤساءُ بعبارةِ التمنّي لشعوبِهِمْ بالاستمرارِ في الرخاءِ والتقدّمِ والازدهارِ والرفاهيةِ كالتي هي متوفرةٌ في الضاحيةِ الشماليةِ الغربيةِ. كذلكَ بدأَ الاعتقادُ يسودُ عندَ العربيِّ العاديِّ بأنَّ الغربَ متقدّمٌ تقنيّاً واجتماعيّاً على العربِ بسببِ الاختلافِ الثقافيِّ (ويذهبُ البعضُ إلى تضمينِ العاملِ الدينيِّ أو العقائديِّ في الموضوعِ، كما لو أنَّ عندَ الغربِ أو الشمالِ إيماناً معيَّناً أو عقيدةً أو ديناً معيناً!). تبعاً لذلكَ يسودُ الآنَ مبدأٌ أو إيمانٌ شبهُ مسلَّمٍ بهِ هو أنّهُ لا يُمكنُ لأيِّ شعبٍ أو أمةٍ أو ثقافةٍ أخرى من إحرازِ ذلكَ التقدمِ في الضاحيةِ الشمالِ-غربيةِ إلا بالأخْذِ بثقافةِ التقنيةِ تلكَ بحذافيرِها.

بينما كانَ حمد وبصحبةِ أخيهِ "هيما" وأبوالزهو ذاهبينَ إلى المدينةِ مرّوا جَميعاً بمكتبةِ بلديةِ المدينةِ الواقعةِ بجوارِ مقهىً شعبيٍّ، مقهى "القلوبُ المبتهجةُ"!. كانَ هنالكَ تَجَمُّعٌ ضَمَّ تنوّعاً في النُّخبِ القادمةِ إلى المقهى والمكتبةِ المتواضعةِ في الإمكانيّاتِ والمُحتوَياتِ ولكنّهُما (المكتبةُ والمقهى) كبيرتانِ في الحديقةِ والسّاحةِ المُجاورتيْنِ لَهُما معاً. تَجَمَّعَ هؤلاءِ حولَ طاولةٍ مشتركةٍ، بينَ المكتبةِ العامةِ ومقهى "القلوبُ المبتهجةُ"، متوسّطةِ الحجمِ. خلالَ تناولِ بعضِ المشروباتِ السّاخنةِ والباردةِ وبعضِ الماءِ جرتْ الأحاديثُ بينَ روّادِ المقهى والمكتبةِ العامةِ.

الدكتورُ "شحّام": أعملُ كرئيسِ قسمٍ للترجَمةِ حيثُ يتمُّ نقلُ المعلوماتِ أوّلاً بأوّلٍ وحرفاً بحرفٍ من مصادرِها الغربيةِ الأصليةِ لكيْ نوصلَها إلى أكبرِ عددٍ مُمكنٍ منَ القُرّاءِ في المُجتمعِ العربيِّ. بذلكَ يتسَنّى لأكبرِ قدرٍ من الناسِ الإطلاعَ على مَا تَمَّ إنْجازُهُ من "معجزاتٍ" هناكَ، يعجزُ الوصفُ العاديُّ عن ملاحقتِها ومن ثَمَّ اللحاقِ بها!.

السّيدُ "مَرطبان": وهذا ما يساعدُ القارئَ العربيَّ على ملءِ دماغهِ وذاكرتهِ بالكثيرِ من الأمورِ التي تَجعلُهُ وهو يَجلسُ في مكانهِ واقفاً! على قدميهِ و"عالهُ" (عقلهِ) عندَ الحديثِ عن أيِّ شيءٍ طارئ. لقد مضى زمانُ التخلّفِ والتقوقُعِ الفكريِّ. آنَ الأوانُ للَّحاقِ بركبِ الحضارةِ الغربيةِ المتفوّقةِ علينا في كلِّ شيءٍ حتى في طريقةِ كَيِّ الملابسِ وصناعةِ وتلميعِ الأحذيةِ وحلقِ الذقونِ والرؤوسِ ...

السّيدُ "هلوَسْيان": وتأكيداً لِما تفكّرونَ بهِ أَوَدُّ أنْ أقولَ لكمْ أنَّ الترجَماتِ للأفلامِ والمنتجاتِ الغربيةِ على الشاشتينِ الكبيرةِ والصّغيرةِ تلاقي رواجاً كبيراً لدى معظمِ طبقاتِ الشعبِ ومن مُختلفِ الأعمارِ والتوجّهاتِ.

السّيدُ "توربانا": اشتريتُ مصنعَ أحذيةٍ بكاملِ قطعهِ الصّغيرةِ والكبيرةِ وينتجُ نفسَ الأشكالِ من الأحذيةِ الغربيةِ وتصميمِها ولكنْ بأسعارٍ أقلَّ من السّوقِ العالميةِ نظراً للاستفادةِ من سوقِ العمالةِ الرخيصةِ في بلادِنا. ولِمَ لا؟!، يوجدُ في المصنعِ عنديَ حواليْ عشرونَ عاملاً؛ ذلكَ خيرٌ لَهمْ منَ الجلوسِ في البيتِ أو البقاءِ في الشارعِ مع آلافِ العمالِ الآخرينَ العاطلينَ عن العملِ!.

السّيدُ "بوختيار": أقدمَ زوجُ ابنتِيَ، السّيدُ "هَذْيان"، على إقفالِ مصنعِ الصّابونِ البلديِّ لديهِ واستبدلَهُ بمصنعِ مستوردٍ ينتجُ أنواعَ غريبةً من الصّابونِ المعطّرِ وحلوَ الشكلِ والتغليفِ؛ يعملُ كلُّ شيءٍ فيهِ بشكلٍ "أوتوماتيكيٍّ"!. تمَّ الاستغناءُ عن العشراتِ من العمّالِ المَحليّينَ وزادَ مستوى الربحِ عندَ السّيدِ "هَذْيان" أضعافاً مضاعفةً.

السّيدُ "طوبار": اشتريتُ معصرةً لزيتِ الزيتونِ عن طريقِ ابنِ عمٍّ لِيَ يتعلّمُ الطبَّ في أسبانيا حيثُ ماكيناتُ طحنِ وعصرِ الزيتونِ من النوعِ عاليَ الجودةِ. قطعُ الغيارِ كلّها متوفرةٌ ولكنْ بأسعارٍ خياليةٍ غاليةٍ؛ غيرُ مهمٍّ ذلكَ لأنّني عملتُ حسابيَ أنْ أستخلصَها من جيوبِ الفلاّحينَ! من زارعي الزيتونِ، على هؤلاءِ أنْ يدفعوا الفرقَ من جيوبِهِمْ.

السّيدُ "عبيطان": قرّرتُ أنْ أرسلَ كلَّ أولادِيَ لكيْ يتعلّموا في مدارسِ الغربِ وجامعاتِهِ. سأفعلُ ذلكَ حتى لو اضطررتُ لبيعِ كافةِ عقاراتِ والدِيَ وبالمزادِ العلنيِّ!.

السّيدُ "ريزليان": من مراقبتِيَ لبرامجِ التلفازِ المَحليِّ وبعضِ الدولِ الأخرى فلقد توصّلتُ إلى قناعةٍ بأنّنا نعيشُ هنا في عصرِ التخلّفِ والفوضى وآنَ الأوانُ للانطلاقِ إلى واحاتِ الحريةِ وعلى الطريقةِ الغربيةِ الراقيةِ في كلِّ شيءٍ!.

أبوالزهو: يا جَماعةُ ويا بشراً!، لتصحوا على حالِكُمْ.. أيُّها السّاعونَ إلى نكرانِ أنفسِكُمْ وأصولِكُمْ وما لكُمْ وما عليكُمْ إنّكمْ بذلكَ تقضونَ على العنصرِ الأصيلِ والفكرِ والعملِ المنتجِ في البلادِ. بذلكَ تصبحونَ مثلَ الأغنامِ الصّالحةِ للذهابِ إلى المذبحِ فقط!؛ بلْ مثلَ نبتةِ "قثاءِ الحمار" المُجتثّةِ من الأرضِ. إلى متى ستظلّونَ تعتمدونَ في كلِّ شيءٍ على الخارجِ!، ولا ضيرَ عندَكُمْ فيما لو يذهبُ الخلقُ من حولِكمْ كلُّهمْ إلى الجحيمِ!. ("قثاءُ الحمار" اسمٌ مَحليٌّ لنبتةٍ بريّةٍ ينتجُ منها "قثاءٌ" جدُّ شديدِ المرارةِ ولا يصلحُ للطعامِ لا للإنسانِ ولا للحيوانِ وسهلُ الاجتثاثِ من الأرضِ)

المَجموعةُ: من أنتَ حتى تكلّمَنا بالطريقةِ هذهِ؟!....

حمد: هذا صديقِيَ أبوالزهو.... لقد أفحمَكُمْ جَميعاً. تقومونَ بعملِ أيِّ شيءٍ ودونَ أدنى تفكيرٍ من أجلِ إرضاءِ نزواتِ بطونِكُمْ وعقولِكُمْ الجانحةِ نحْوَ التطرُّفِ في إنْهاكِ الاقتصادِ والمُجتمعِ . استمرْ يا أبوالزهو في مقارعةِ هؤلاءِ المنزلقينَ والمنقادينَ إرادياً ولا-إرادياً إلى مستنقعاتِ أو هامِ التقدّمِ عن طريقِ التقليدِ الأعمى والأحْمقِ لِما يَجري في الشمالِ والغربِ.

أبوالزهو: أحببتُ أنْ أكرمَ خاطرَكَ يا صديقِيَ لأنّني رأيتُكَ مُمتعضاً مِمّا يقولونهُ أو يفعلونهُ أو يُخططونَ للقيامِ بهِ، وبدونِ أدنى تفكيرٍ من عندِهمْ!. قلتُ في نفسِيَ عسى أنْ أقومَ بالواجبِ اتّجاهَهُمْ بالنيابةِ عنكَ... نَحْنُ الكادحونَ لا ينقصُنا مثلُ هؤلاءِ من مصّاصي الدّماءِ!.

حمد: عافيةٌ عليكَ يا أبوالزهو الأصيلَ! وعندَما نذهبُ إلى البيتِ سأقدّمُ لكَ منّيَ أحلى المواويلِ والأشعارِ ... ... موّالٌ على شعرِ عنترةَ بن شدادٍ العبسيِّ، لعيونِكَ يا أبوالزهو ... دن رنَ دنِ دن ... ولقدْ ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ منّي وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمِي .... فوددتُ تقبيلَ السّيوفِ لأنّها لَمعتْ كبارقِ ثغرِكِ المتبسّمِ .....

..... آه! عليكَ يا أبوالزهو يا صاحبَ المواقفِ الشجاعةِ والحكيمةِ والصّلبةِ الّتي لا ترِقُّ ولا تلينُ أمامَ مصائبِ الزمنِ والأقوامِ المهزومةِ من الداخلِ!.

تَمكَّنَ الدكاترةُ "بَولاكْ" و"هولاك" و"براهما" من تكوينِ مِحورٍ أو "مركز قوىً" حقيقيٍّ ميدانُهُ عقولُ هؤلاءِ الطلبةِ المساكينَ، آباؤُهمْ وأمهاتُهُمْ وأ هاليهمْ وأوطانُهمْ. وَصَلَ الأمرُ بهذا المِحور أنّهُ إذا رضيَ أحدُ أقطابهِ عن شيءٍ يُصدرُ ذلكَ القطبُ توصيةَ تزكيةٍ لهُ نيابةً عنَ القطبينِ الآخرين، أو ما يُمكنُ أنْ يطلقَ عليهِ مصطلحَ "التزكيةِ التبادليةِ" أو المتبادلةِ. بدأ هذا المِحورُ كذلكَ يعملُ على استقطابِ أعضاءٍ آخرينَ مِمَّن ليس في أدمغتِهِمْ أيَّةُ خلفيةٍ واعيةٍ أكانتْ وطنيةً أو قوميةً أو تاريخيةً أو اجتماعيةً أو إنسانيةً أو سياسيةً أو حتى سلوكيةً. يستقطبونَ أعضاءَ آخرينَ تسلّقوا مثلَهُمْ على أوراقٍ بيضاءَ زُخرفتْ بحروفٍ كبيرةٍ وكتبتْ عليها أسْماؤُهُمْ!؛ زيَّنوا بها جدرانَ بيوتِهِمْ ومكاتبِهِمْ لتبدوا أنّها ذاتُ قيمةٍ في أعينِ المغفّلينَ الجُهلاءَ، هذه الأوراقُ المزخرفةُ تسمّى "شهاداتُ دكتوراه".

مع بدايةِ العامِ الدراسيِّ الجديدِ في جامعةِ "البايْروطاظْ" أُدخِلَ إلى القسم شابٌّ وسيمُ الطلعةِ وجَميلُ المُحيّى، الدكتورُ "حبيب"، منشرحٌ مبتسمٌ ومقبلٌ على الحياةِ والناسِ بصدرٍ رحبٍ. كان طويلَ القامةِ نَحيفَ الجسمِ إلى حدٍّ ما وعسليَّ لونِ العينينِ وأسْمرَ لونِ بشرتهِ وأسودَ الشعرِ، وكان عندَهُ بعضُ التماسكِ في الجسمِ والفكرِ والشخصيةِ ومتكاملٌ في طرحِ أفكارِهِ وبطريقةٍ سلسةٍ. هو "ليبراليٌّ" مفرطٌ بالنسبةِ للغةِ العربيةِ وأفكارِ التعريبِ، وهذا ربَّما ساعدَهُ في الحصولِ على قبولٍ أضمنَ في ذلكَ الوقتِ حيثُ وقعتْ الجامعةُ في أيدي مَجموعةٍ من "الإستئصاليّينَ المتطرّفينَ" الذينَ لا يرحَمونَ من أجلِ زيادةِ أرصدتِهِمْ المصرفيّةِ، كميةً وعدداً، لا يرحَمونَ حتى أطفالَهُمْ. كانَ الدكتورُ "حبيب" "لطيفاً" في ذلكَ الاتّجاهِ، أيْ أنّهُ يريدُ استخدامَ "الشوكةِ والسّكينِ" في التعاملِ مع الأمورِ بدلاً من تقطيعِها بِ"السّاطور"، واستخدامَ نارٍ هادئةٍ في الطَهيِ بدلاً من قاذفاتِ اللهَبِ والنابالم الحارقِ!. أحدُ أعمالِهِ الرائعةِ، بالإضافةِ إلى عملهِ الأكاديميِّ، هو وقوفُهُ في وجهِ "مركزِ القوى" المكوَّنِ من الدكاترةِ الثلاثةِ أعلاهُ وأتباعِهِمْ حتى هزمَهُمْ عن بكرةِ أبيهِمْ واحداً تلوَ الآخرَ وجَماعاتٍ. أَحَبَّ التلاميذُ الدكتورَ "حبيب" حبَّ عبادةٍ، دعوْهُ إلى أفراحِهِمْ وأخبروهُ عن فرحِهِمْ وتَرَحِهِمْ وعن أسرارِهِمْ وما يَجولُ بكياناتِهِمْ وضمائرِهِمْ. ربَّما كان ذلكَ هو السّببُ الذي مكّنَ اللهُ تعالى لهُ في الأرضِ قبلَ أنْ يَجعلَهُ يَنقضُّ على أعضاءِ "مركزِ القوى" انقضاضَ النمرِ الجائعِ على الحُمُرِ المستنفرةِ فيما بعدُ.

في تلكَ الأيامِ وصلَ الأمرُ إلى التباهي المُشينِ بالدولةِ التي تَمَّ تَخريجُ الدكتورِ منها، إنْ كانتْ من الدولِ الإمبرياليةِ العظمى أو المتوسّطةِ الحجمِ، ولَمْ يكنْ أيٌّ منَ الخريجينَ من الاتحادِ السّوفيتيِّ أو من دولِ المنظومةِ الاشتراكيّةِ. أصبحَ التلاميذُ ضحيةَ رؤوسِ أكباشٍ بشريةٍ متناطحةٍ؛ ومنَ السّهلِ بِمكانٍ أنْ يقومَ الدكتورُ

بترسيبِ تلميذهِ إذا ما شَكَّ في تصرفاتِ الأخيرِ وأنْ يوصيَ بنفسِ التصرفِ والعملِ لأحدِ زملائهِ من عصابتهِ. أصبحَ التلاميذُ في غابةٍ يشرفُ عليها ويقودُها "تكنو-قراطيونَ" يَحملونَ أوراقاً تنسبُ إلى حاملِ كلٍّ منها حصولَهُ على الدكتوراه؛ أمّا هلْ هو مؤهّلٌ للتعاملِ مع البشرِ أو الحيوانِ أو الطبيعةِ أو الحياةِ أو حتى مع نفسهِ فذلكَ كان شيئاً أقلَّ بكثيرٍ من أنْ يكونَ ثانوياً وغيرَ ذا قيمةٍ. لَمْ يَجْرِ أيُّ امتحانٍ لأيٍّ من هؤلاءِ لفحصِ ضميرهِ. المهمُّ، كما يبدو، أنْ يسيرَ المدرّسُ مثلَ العبدِ المطيعِ أو "الجنديِّ حاف" يلبّي ما يُطلبُ منهُ.

تقريباً في منتصفِ السّنةِ الأخيرةِ لدراسةِ حمد في جامعةِ "البايْروطاطْ" استعرتْ الحربُ! بين أعضاءِ "مركزِ القوى" من جهةٍ والدكتورِ "حبيب" من جهةٍ أخرى. ذاتَ مرَّةٍ في اجتماعِ أعضاءٍ من هيئةِ التدريسِ مع الطّلابةِ لَمْ يتواجدْ فيهِ الدكتورُ "حبيب".

الدكتورُ "هولاك": هو! (لَمْ يذكرْ الدكتورَ "حبيب" بالاسمِ) فقط يَمتلكُ شعبيةً رخيصةً عندَ التلاميذِ. إنَّ معلوماتهِ في ميكانيكا السّوائلِ مثلاً ضحلةٌ ولا تستحقُّ أنْ يُصْغى إليها. هل باستطاعتهِ أنْ يعطيَ مساقاً مشابِهاً لِما أعطيهِ مثلاً من حيثُ دقّةِ وقوّةِ المعلوماتِ؟!، أنا قادرٌ على أنْ أضَعَهُ بِجيبيَ الصّغيرِ!.

الدكتورُ "بَولاكْ" (يتحدثُ في الشّكلِ متهكِّماً!): حتى أنَّ شكلَهُ! (شكلَ الدكتورِ "حبيب") لا يوحي بأنّهُ من أهلِ العلمِ الحقيقيّينَ!.

حمد: اتركْ عنكَ الشكلَ جانباً!. إنّهُ إنسانٌ رائعٌ بمعنى الكلمةِ وعندهُ طريقةٌ فريدةٌ من نوعِها في التدريسِ. على الأقلَّ يعرفُ الطلابُ في الصّف ما يتكلّمُ عنهُ الدكتورُ "حبيب"، وليسَ كغيرهِ من المدرسينَ "بالعافية"!. كذلكَ لديهِ من المشاريعِ البحثيةِ والعمليةِ ما يثبتُ "فحولتَهُ" في العطاءِ العلميِّ والفكريِّ، على الرغمِ من صغرِ سنّهِ بالمقارنةِ مع من تبقّى في القسمِ والكلّيةِ والجامعةِ وربّما الدولةِ.

الدكتورُ "بَولاكْ": ها هي هي هي..... يستغلُّ جهلَ الطلبةِ بأمورِ العلمِ والتعليمِ، من أجلِ ذلكَ فإنَّ لهُ عندهمُ شعبيةً كبيرةً ولولا قليلاً لنصبوا لهُ تِمثالاً في القسمِ والجامعةِ!.

طالبٌ: بصراحةٍ! لَمْ أعرفْ معنى العلمَ ومنذُ ثلاثِ (٣) سنواتٍ ونيّفٍ خلتْ إلا عندَما درسْتُ مساقاً لدى الدكتورِ "حبيب".

طالبٌ: لَمْ أعرفْ إنسانيةَ العلمِ في هذا القسمِ إلا هذهِ السّنةَ ومن الدكتورِ "حبيب" بالذاتِ.

طالبٌ: حبذا لو يعطينا مساقاتٍ أكثرَ، ذلكَ لأنّهُ يبدو كموسوعةٍ علميةٍ وثقافيةٍ وهو إنسانٌ قبلَ هذا وذاكَ.

الدكتور "براهما" (متهكّماً!): واللهِ؟!! اللهُ يباركُ لكُمْ فيهِ! (أيْ في الدكتورِ "حبيب").

أشاعَ "مركزُ القوى" ذاتَ مرّةٍ فكرةً شريرةً ضدَّ الدكتورِ "حبيب" مفادُها أنَّ الأخيرَ يتلقّى مساعداتٍ بَحثيةً وأكاديميةً شخصيةً! من الخارجِ مكّنتهُ من أنْ يكونَ الوحيدَ في القسمِ أو حتى الكلّيةِ الذي هو قادرٌ على نشرِ أبْحاثٍ باسْمهِ وفي مَجلاتٍ عالَميةٍ معتبرةٍ. بمعنىً آخرَ ادّعوا أنَّ ما نُشرَ باسْمهِ مشكوكٌ بأمرهِ. كان ذلكَ جزءاً من حَملاتِ تشهيرٍ وتشويهٍ ضدَّ الدكتورِ "حبيب"، تصدّى لَها الطلبةُ بعدمِ إبداءِ اكتراثٍ لَها؛ ومن بابِ "إذاَ أتاكُمُ كاذبٌ (أو كاذبونَ) بِخبرٍ لا تصدقوهُ

(تُصدّقوهُمْ)". في تلكَ الآونةِ زادَ عددُ الكاذبينَ والفاسقينَ بينَ مُدرّسي القسمِ إلى أكثرَ من ضِعفِ العددِ المسجلِ حيثُ يُحسبُ العضوُ و"ظلٌّ" لهُ على الأقلِّ!.

كانَ الطلابُ ينتظرونَ اليومَ التالي لرؤيةِ "المسيحِ المصغّرِ" الذي جاءَهم على شكلِ عالِمٍ هذه المرةَ للحديثِ معهُ أو الاجتماعِ بهِ، لقدْ كانَ عقلُهُ وقلبهُ ومكتبهُ مفتوحةً كلُّها للطلبةِ. ومثلَ ملحِ الأرضِ أو سَمادِها بثَّ فكرُ الدكتورِ "حبيب" خصوبةً في عقولِ الأولادِ العطاشى للعلمِ والتعلّمِ، من الذينَ عانوا منَ تصرفاتِ "مركزِ القوى" الطائشِ الأحمقِ ما لمْ يُعانهِ المعتقلونَ في سجونِ الفاشيةِ ومَحاكمِ التفتيشِ!. وذاتَ مرّةٍ كانَ للطلبةِ لقاءٌ خاصٌّ مع الدكتورِ "حبيب".

الدكتورُ "حبيب": صدِّقوا! أنّهُ لو اجتمعتْ كلُّ قُوى الظّلامِ في الكونِ لن تقدرَ على التأثيرِ على ضوءِ شَمعةٍ واحدةٍ فقطْ. لا يُمكنُ لأحدٍ أنْ يكبتَ شَمعةَ العبقريةِ عندَ أحدٍ مهما أوتِيَ من جبروتٍ. وصدِّقوا أنّكمْ بجهادِكمْ المستمرِّ ضدَّ "الفسادِ" لَهُوَ الطريقُ السّديدُ في مقارعةِ الظلمِ حتى لو اضطرَرْتُمْ أنْ تُحاربوا الظلمَ بطرْقِ الرأسِ بالحائطِ والسّيفَ باللسانِ والقلمِ. هذه سُنّةُ الحياةِ وأخيراً سينتصرُ الخيرُ على الشرِّ والحقُّ على الباطلِ والعدلُ على الظلمِ. يا ما! فرعونَ بطشَ بشعبهِ وكيفَ كانتْ نهايتُهُ عبرةً لِمنْ يعتبرُ ومن لا يعتبرُ!..

حمد: للأسفِ! يا حضرةَ الدكتورِ وفي غفلةٍ من الزمنِ تَمكّنَ هؤلاءِ من إحكامِ قبضتِهِمْ وتسديدِ رمياتِهِم إلى عددٍ لا يستهانُ بهِ من العقلياتِ البريئةِ. إنّهمْ لا يقدّمونَ أيَّ شيءٍ مهما يكنْ تافهاً للمجتمعِ ويأخذونَ منهُ الكثيرَ ممّا لا يستحقونهُ؛ يأخذونَ منهُ رواتبَ ووسائلَ نقلٍ خاصةً ومريحةً وشُقَقاً وفيلّاتٍ سكنيةً فاخرةً في الوقتِ الذي لا يستحقونَ من المُجتمعِ القليلَ من هذا القبيلِ على أعمالِهِم البغيضةِ ونواياهُمْ الشرّيرةِ المتغطرسةِ. خلالَ ثلاثِ (٣) سنواتٍ ونيِّفَ مضتْ لمْ يفدْ منهم طالبٌ واحدٌ بفكرةٍ واحدةٍ ولمْ يُعينوا أحداً على التقدمِ قيدَ أنْملةٍ صغيرةٍ. بسببِهِمْ! نَحْنُ في حالةِ عُقْرٍ عقليٍّ دائمٍ!.

الدكتورُ "حبيب": أعرفُ أنّكمْ وبسببِ حداثةِ سنِّكُم، فأنتم في ريعانِ البراءةِ والعطاءِ بدونِ مقابلٍ وعندَكمُ ثوريةٌ حقيقيةٌ. تريدونَ أنْ تقولوا للأعورِ "أعورْ في عينيهِ الاثنتينِ الصّحيحةِ والمصابةِ"!. سوف يؤدي هذا الكلامُ إلى الصِّدامِ وإلى أحقادٍ وضغائنَ متفجرةٍ. إنَّ خيرَ شيءٍ يُمكنُ أنْ تقوموا بهِ هو مواصلةُ حَياتِكُمْ العاديةِ وسوفَ تكونوا شُوَكاً في حلوقِهِمْ. يريدونَ لكمْ الفناءَ والشللَ الفكريَّ وتريدونَ الحياةَ الحرةَ الكريمةَ المنتجةَ. إنّكُمْ تمرّونَ في حالةٍ تعليميةٍ شاذةٍ، لا أحدَ بمِثلِ تلكَ الأوضاعِ إلا من كُبِّلَتْ يداهُ ورجلاهُ ووُضعتْ كمّامةٌ على رأسهِ وعينيهِ.

طالبٌ: تَصوَّرْ أنَّ الدكتورَ "براهما" يصرفُ كلَّ هَمَّهُ لتحقيقِ سُمعةٍ لهُ عنِ طريقِ التفاخرِ بأنّهُ متخرجٌ من جامعاتٍ عريقةٍ. يتمادى في وصفِ أشياءَ لا علاقةَ لَها بعلمٍ أو تَخصّصٍ أو إنتاجٍ أو إبداعٍ؛ فقط يريدُ أنْ يتخصصَ في "رومانسياتِ" الحربِ الإلكترونيةِ الحديثةِ!. أمامَ جَمْعٍ من عشاقِ الرومانسيةِ العلميةِ يقولُ الدكتورُ "براهما" بأنّهُ إذا ما وقعتْ الحربُ الحديثةُ فإنَّ الصّواريخَ ستذهبُ إلى أهدافِها من الجوِّ والسّماءِ والأرضِ بدقةٍ أقلَّ من ميليمترٍ واحدٍ!. يتفاخرُ بقولِ ذلكَ في بلدٍ لا يقدرُ أهلُهُ على صناعةِ إبرةِ خياطةٍ! أو مَحفظةٍ لكتبِ الأولادِ أو حافظةٍ لنقودِ حامليها أو موسىً لِحلاقةِ الذقونِ الحليقةِ لِرجالِها البالغينَ العاقلينَ وغيرِ العاقلينَ. لا توجدُ في الدولةِ صناعةٌ لعملِ أداةٍ يدويةٍ لِجني مَحصولِ فاكهةِ الصبرِ في الصيفِ

بدلَ استخدامِ أصابعِ الأيدي الحافْ. ولكيْ يشكرَ الجمهورُ الدكتورَ "براهما" على تلكَ المعلوماتِ القيّمةِ! قامَ بإحداثِ عاصفةٍ من التصفيقِ الحادِّ.
الدكتورُ "حبيب": هذه الأفكارُ من أسخفِ ما مرَّ عليَّ في حياتِيَ. سَمعتُ قبلَ فترةٍ أنّهُ قامَ بعملِ تَجربةٍ إيضاحيةٍ بسيطةٍ أمامَ جَمْعٍ غفيرٍ منَ الناسِ غيرِ المتخصّصينَ في العلمِ مِمّا أثارَ عاصفةً حادةً من التصفيقِ بينَ الدّهْماءِ! (الدّهْماءُ هم عامّةُ الناسِ). عسى اللهُ أنْ يكونَ في عونهِ على حالهِ.
حمد: واللهُ كانَ في عونِنا عندما أعطانا مساقَ مادةِ "الديناميكا الحراريةِ Thermodynamics"، حيثُ كنْنا أنْ نُصابَ في كلِّ مُحاضرةٍ تقريباً بذبحةٍ صدريةٍ بسببِ طريقتهِ الضّحلةِ في التدريسِ!.
الدكتورُ "حبيب": خذوا منَ الأمورِ ما هو في صالِحِكُمْ واتركوا السّيِّئَ منها لصاحبِها.
طالبٌ: وما الذي كانَ في صالِحِنا معَ هؤلاءِ؟، هل طريقةُ التهَجّي في قراءةِ مادّةِ المساقِ من الكتابِ "المقرَّر"؟!. إنّنا ندرسُ معهم على أساسِ أنَّهم مِمّن استطاعوا مَحوَ أميتِهِمْ في التعليمِ فقطْ!.
طالبٌ: هلْ لنا أنْ نتشرَّفَ بدعوتِكَ لِحفلٍ ثقافيٍّ وبعدَهُ إلى عشاءٍ معنا؟!. نستأنسُ بصحبتِكَ ووجودِكَ معنا في مطعمِ المدينةِ.
الدكتورُ "حبيب": أشكرُكُمْ جزيلاً. سيكونُ لنا لقاءاتٌ وأمسياتٌ اجتماعيةٌ وعلميةٌ، وعسى أنْ تكونَ الأمورُ كلُّها على ما يرامُ.

"للدكاترةِ فقط"

في مُحاولاتِ إدارةِ جامعةِ "البايْروطاطْ" الإشارةَ بإصبعِ التَّمَيُّزِ إلى أعضاءِ الهيئةِ التدريسيةِ، والذينَ يشكلُ حَمَلةُ شهاداتِ الدكتوراه الغالبيةَ العظمى منهُمْ، قامتْ تلكَ الإدارةُ بعددٍ منَ الإجراءاتِ لتطبيقِ ذلكَ المفهومِ على أرضِ الواقعِ. بالإضافةِ إلى امتلاكِ جُلِّ الدكاترةِ السّياراتِ الخاصّةِ ذاتَ الموديلاتِ الجديدةِ والمعاشاتِ غيرِ العاديةِ والامتيازاتِ لَهمْ ولذويهِمْ، فلقدْ قامتْ الإدارةُ بتخصيصِ مَجموعةٍ من المَرافقِ الحياتيةِ في الجامعةِ لَهُمْ فقطْ. كانت هنالكَ كافيترياتٌ خاصةٌ جُهِّزَتْ خِصّيصاً من أجلِ استيعابِ وتلبيةِ طموحاتِ الدكاترةِ في تناولِ وجباتِ الأكلِ والشرابِ واصطحابِ ما يرونَهُ مناسباً لِمقامِهِمْ أثناءَ تناولِهِمْ الطعامِ وملحقاتِهِ. أيضاً كانت هنالكَ جَمعيةٌ تعاونيةٌ خاصةٌ أُنشأَ لَها فيما بعدُ "سوبرماركت" متوسّطُ الحجمِ يَحتوي في معظمهِ على موادَّ لا يسهلُ توفرُها في السّوقِ العاديةِ لعامّةِ الناسِ منَ مأكولاتٍ ومستحضراتِ تَجميلٍ ومعدّاتٍ خاصةٍ بالبيوتِ والسّياراتِ وغيرِها الكَثيرِ.

وهنالكَ مقهىً خاصٌ واستراحةٌ خاصّةٌ ومرافقُ أخرى زُوِّدتْ جَميعاً بِمفروشاتٍ ومعداتٍ لازمةٍ لتناسبَ خصوصيةَ روّادِها هؤلاءِ المُميّزينَ.

أكثرُ المرافقِ لفتاً للنظرِ ومدعاةً لإثارةِ المرحِ! والعجبِ والانتقادِ في آنٍ واحدٍ هو تَخصيصُ حَمّاماتٍ عامةٍ! خاصةٍ بالدكاترةِ. كُتِبَ على أبوابِ تلكَ الحمّاماتِ وبالخطِّ العريضِ "للدكاترة فقط" وباللغتينِ الأجنبيةِ ثُمَّ العربيةِ. تَميّزتْ حَمّاماتُ "للدكاترة فقط" عن مثيلاتِها للطلبةِ والطالباتِ حيثُ أضيفَ إليها مَحارمُ ورقٍ خاصٍ وضخّاخاتٌ للروائحِ العطريةِ أو المزيلةِ للروائحِ الكريهةِ. كذلكَ كانت المقاعدُ داخلَ الحمّاماتِ كلُّها إفرنجيةً ولَمْ يكن في تلكَ الحمّاماتِ خراطيمُ مياهٍ قريبةٌ (شطّافاتٌ) من تلكَ المقاعدِ كما هو الحالُ في الحمّاماتِ العربيةِ. فوقَ هذا وذاكَ خُصّصَ لكلِّ بنايةٍ فرّاشٌ خاصٌّ يقومُ على خدمةِ وحراسةِ! حَمّاماتِ "للدكاترة فقط"، والأخيرُ ليسَ مسئولاً عن الحمّاماتِ الأخرى مثلَ حَمّاماتِ الطلابِ؛ "فرّاشٌ متميّزٌ". في القسمِ الذي كانَ حمد يتلقّى علمَهُ فيهِ ثلاثُ طوابقَ؛ يوجدُ في الطابقينِ العُلويّيْنِ حَمّامٌ من نوعِ "للدكاترة فقط" لكلٍّ منهما، ويتوفرُ في القسمِ حَمّامٌ ثالثٌ واحدٌ فقط للطلابِ في الطابقِ الأوّلِ أو الأرضيِّ. وكانَ هنالكَ حَمّامٌ واحَدٌ للطالباتِ في الطابقِ الثاني وملاصقٌ للّذي هو "للدكاترة فقط".

كَثُرَتْ الحوادثُ المضحكةُ المبكيةُ، أو المضحكةُ حتى البكاءِ، بسببِ تَمييزِ الدكاترةِ بحمّاماتٍ خاصّةٍ على حسابِ حَمّاماتِ الطلابِ والطالباتِ. ذاتَ يومٍ وكانتْ بدايةُ الفصلِ والطلبةُ منشغلونَ في عملياتِ ما يُسمى بِـ"السّحْبِ والإضافةِ"، حيثُ يستطيعُ التلميذُ تغييرَ موعدٍ واحدٍ أو أكثرَ من المساقاتِ التي قد سجَّلَ لَها بالخطأِ من قبلُ وفي فترةٍ من بدايةِ الفصلِ لا تتجاوزُ الأسبوعَ الأوَّلَ كحدٍّ أقصى. توجَّهَ أحدُ التلاميذِ، السّيدُ "سلخود"، لتغييرِ موعدِ مساقٍ في برنامَجِهِ الدراسيِّ مسجّلٍ سابقاً وكانَ عليهِ الحصولُ على موافقةِ مرشدِهِ الأكاديميِّ، الدكتور "عبندلة". لَمْ يكنْ الأخيرُ متواجداً في مكتبِهِ المخصّصِ لهُ في بنايةِ التسجيلِ، للمساعدةِ في تسجيلِ الطلابِ ذلكَ اليومَ. انتظرَ الطالبُ "سلخود" الدكتورَ "عبندلة" طويلاً ذهبَ خلالَها لتناولِ بعضِ الأكلِ عندَ الظهرِ، عادَ بعدَها مرّةً أخرى لينتظرَ أمامَ مكتبِ الدكتورِ "عبندلة". عندَما شعرَ باليأسِ هذه المرّةَ قرَّرَ البحثَ عن الدكتورِ "عبندلة" في أنْحاءِ القسمِ الذي ينتمي الأخيرُ إليهِ واتّجهَ صوبَ الطابقِ الثاني للبنايةِ التي تَحوي القسمَ. وعندما قرأَ اليافطةَ المكتوبَ عليها "للدكاترة فقط"، انشرحَ صدرُهُ قليلاً وظنَّ أنَّ الدكتورَ "عبندلة" يداومُ في الداخلِ. طَرَقَ السّيدُ "سلخود" بابَ "للدكاترة فقط"، وعندما لَمْ يسمعْ لطرقهِ جواباً طَرَقَ البابَ مرّةً أخرى. بعدَ ذلكَ قرَّرَ شقَّ بابِ "للدكاترة فقط" والدخولَ السَّلِسَ السّهلَ إلى هناكَ خشيةَ إزعاجِ الدكاترةِ الموجودينَ!؟ بالداخلِ. فَتَحَ الطالبُ "سلخود" البابَ ولاحظَ وجودَ بابٍ آخرَ ليسَ ببعيدٍ عن البابِ الأوّلِ. إلا أنَّ السّيدَ "سلخود" اشتمَّ بعضَ الروائحِ العطريةِ ولكنّها لَمْ تكنْ مريحةً! في نفسِ الوقتِ. عندَها قرَّرَ فتْحَ البابِ الثاني، وما أنْ نظرَ إلى داخلِ الحمّامِ لِيجدَ فرّاشَ الحمّامِ، السّيدَ "هوكل"، يقومُ ببعضِ الأعمالِ هناكَ..

الطالبُ "سلخود": هل أنتَ الدكتورُ "عبندلة"؟!. لو سَمحْتَ أنْ توقِّعَ لِيَ على ورقةِ السّحبِ والإضافةِ للمساقِ المطروحِ هاهنا في ورقةِ التسجيلِ.

الفرّاشُ "هوكل": وكيفَ دخلْتَ إلى هنا؟!، ألا تعرفُ المكانَ من قبلُ؟ أوَلَمْ تقرأْ اليافطةَ هناكَ تقولُ "للدكاترة فقط" وبالخطِّ العريضِ؟!.

الطالبُ "سلخود": عرفتُ أنَّ المكانَ "للدكاترة فقط". ألسْتَ دكتوراً؟ وألسْتَ الدكتورَ "عبندلة" بالذاتِ؟!. أريدُ توقيعاً على بطاقةِ السّحبِ والإضافةِ؛ اليومَ هو آخرُ يومٍ للسماح بذلكَ، أرجوكَ أنْ توقّعَ لِيَ هنا وبسرعةٍ...
الفرّاشُ "هوكل": كانَ الدكتورُ "عبندلة" هنا قبلَ قليلٍ وللمرةِ الخامسةِ هذا اليومَ. ربّما ذهبَ إلى بيتِهِ الآنَ...
الطالبُ "سلخود": الويلُ لِيَ! .... ومنْ يوقّعُ لِيَ على كرتِ السّحبِ والإضافةِ!؟. وقِّعْهُ أنتَ بالنيابةِ عنهُ لو تكرَّمتَ!.
الفرّاشُ "هوكل": إنتظرْ دقائقَ قليلةً حيثُ سيأتي عددٌ من الدكاترةِ إلى "للدكاترة فقط". سوفَ أسألُهمْ لكَ وعسى أنْ يوافقَ أحدُهُمْ على التوقيعِ لكَ على بطاقةِ تسجيلِكَ.
كانَ الطالبُ "شعيبان" جالساً في مُحاضرةٍ لِمادةِ "مقدّمةٌ في النظريةِ النسبيةِ La Relativité" في الفيزياءِ للدكتورِ "هيمالون" في قاعةِ مُحاضراتٍ في الطابقِ الثالثِ. بعدَ حواليْ الربعِ ساعةٍ على بدءِ المُحاضرةِ شَعَرَ الطالبُ "شعيبان" بحركةٍ غيرِ عاديةٍ في بطنِهِ مثلَ "قعقعة" في الأمعاءِ وتتجهُ إلى أسفلِ البطنِ مصحوبةً بألمٍ صُداعيٍّ في البطنِ. بعدَ ذلكَ بقليلٍ شَعَرَ بأنَّ الأمرَ يتراكمُ حيثُ وصلَتْ الأمورُ لديهِ إلى أنّهُ يَجبُ عليهِ أنْ يذهبَ إلى الحمّامِ وبأقصى سرعةٍ مُمكنةٍ!. وضعَ القلمَ ودفترَ أخْذِ الملاحظاتِ جانباً وحاولَ تمالكَ الأمرِ، إلا أنَّ الانتظارَ والتلكّؤَ كانا من قبيلِ العبثِ المؤدّي إلى زيادةٍ في شدّةِ حَرَجِ الموقفِ!. ودونَ أخْذِ إذنٍ من المدرّسِ المُحاضرِ أو التلاميذِ من حولِهِ هُرعَ الطالبُ "شعيبان" من قاعةِ الصّفِّ إلى منتصفِ الطابقِ الثالثِ حيثُ يوجدُ "للدكاترة فقط" هناكَ. ظنَّ أنَّ المكانَ خالٍ من الدكاترةِ ... حتى ولوْ لَمْ يكنْ خالياً!، قال لنفسهِ، فإنَّ الوضعَ لا يتحمّلُ ولوْ بضعَ ثوانٍ لإضاعةِ الوقتِ للذهابِ إلى الطابقِ الأوّلِ حيثُ يوجدُ الحمّامُ الوحيدُ المخصّصُ للطلبةِ والذي يكونُ عادةً مكتظاً والتلاميذُ متهافتونَ على الدورِ لاستعمالِهِ. عندما فتحَ "شعيبان" بابَ الحمّامِ بسرعةٍ خرجَ لهُ فرّاشُ "للدكاترة فقط"، السّيدُ "هوكل"، حيثُ حاولَ الأخيرُ إيقافَهُ باستخدامِ يديهِ وجسمهِ بالإضافةِ إلى لسانهِ!.
الطالبُ "شعيبان": اتركْنِ يا رجلاً!، لا أكادُ أسيطرُ على أيِّ شيءٍ، سأكلِّمُكَ فيما بعدُ!.
الفرّاشُ "هوكل": لن أسْمحَ لكَ بالدخولِ. هذا المكانُ اسْمُهُ "للدكاترة فقط". هنالكَ تعليماتٌ صارمةٌ بأنّهُ عليَّ أنْ لا أسْمحَ لأيِّ شخصٍ غيرَ الدكاترةِ بدخولِ "للدكاترة فقط" وتَحْتَ أقصى الظروفِ. هل تريدُني أنْ أخسرَ وظيفتِيَ من أجلِ راحتِكَ؟!. عليكَ أنْ تبحثَ عن مكانٍ آخرَ تقضي غرضَكَ فيهِ. إنَّ عندِيَ عائلةً وأولاداً ومسؤولياتٍ. خافْ ربَّكَ يا زَلَمة!.
الطالبُ "شعيبان": إنَّ الظروفَ والوضعَ الحرجَ الذي يطرأُ عليَّ الآنَ يتفوّقُ في الشدةِ على أقصى أنواعِ الظروفِ المطلوبِ منكَ مراعاتُها للبقاءِ في وظيفتِكَ. إمّا أنْ أخسرَ ماءَ وجهِيَ مدى الحياةِ أو أستعملَ "للدكاترة فقط"!، الآنَ...
وتصادفَ وجودُ فرّاشٍ آخرَ من بنايةٍ أخرى متخصّصٍ أيضاً برعايةِ "للدكاترة فقط" في قسمِ العلومِ الحياتيةِ. حاولَ الفرّاشانَ التعاونَ والتعاضدَ لِمنْعِ الطالبِ "شعيبان" من استعمالِ "للدكاترة فقط"، وفَشَلا... حينها قرّرا الذهابَ معاً

لتقديمِ شكوىً إلى رئاسةِ القسم وعمادةِ الكلّيةِ ضدَّ الطالبِ "شعيبان" على خرقِ قانونَ "للدكاترة فقط". جاءَ الطّالبُ "شعيبان" إلى مقرِّ الجمعيةِ العلميةِ الطلابيةِ والتقى حمد هناكَ والذي أشارَ عليهِ الأخيرُ بكتابةِ ما حدثَ معهُ في قضيةِ الحمّامِ "للدكاترة فقط". استجابَ الطالبُ "شعيبان" وكتبَ القصّةَ بالكاملِ بعنوانِ "أيّهَا الدكاترةُ: مباركٌ عليكُمُ أسْمى ما تَميَّزْتُمُ بهِ حتى الآنَ"!. وُضِعتْ المقالةُ في مَجلّةِ حائطِ الجمعيةِ، "النوافذ"، التي كانتْ تصدرُها الجمعيةُ العلميةُ الطلابيةُ.

للسيدِ "هُرقص" قصةٌ أخرى مثيرةٌ للهزلِ معَ "للدكاترة فقط". كان السّيدُ "هُرقص" مُعيداً في الجامعةِ ويَحملُ شهادةَ الماجستيرِ في تَخصّصهِ. يقومُ بتدريسِ مساقٍ علميٍّ للطلبةِ المبتدئينَ بالإضافةِ إلى الإشرافِ على "مُختبرٍ علميٍّ" ويساعدُ المدرسينَ الآخرينَ في تصليحِ الأعمالِ البيتيةِ والتقاريرِ العلميةِ للطلبةِ. هذا وذاك وأشياءُ أخرى حَمَلَتْهُ كلُّها على الظنِّ على أنّهُ جزءٌ لا يتجزّأُ من أعضاءِ هيئةِ التدريسِ وأنّهُ لا ضيرَ ولا حرجَ ولا مانعَ عليهِ إنْ هو قامَ باستعمالِ "للدكاترةِ فقط". ذاتَ يومٍ أقنعَ السّيدُ "هُرقص" الفرّاشَ "هوكل" بأنّهُ جزءٌ أو امتدادٌ طبيعيٌّ لأعضاءِ هيئةِ التدريسِ المكونةِ في معظمِها من الذينَ يَحملونَ شهاداتِ دكتوراه، وأنّهُ لا خرقَ للقانونِ إنْ استعملَ "للدكاترة فقط".

ذاتَ مرّةٍ رآهُ الدكتورُ "بَولاكْ" يهمُّ بالدخولِ إلى "للدكاترة فقط"، واستوقَفَهُ قربَ البابِ. كالعادةِ كان الفرّاشُ "هوكل" حاضراً في ذلكَ المكان.

الدكتورُ "بَولاكْ": يا سيدَ "هُرقص"!، ألَمْ تقرأْ ما هو مكتوبٌ على مدخلِ "للدكاترةِ فقط"؟!. هل تعتقدُ أنَّ هنالكَ خطأً مطبعيّاً في كتابةِ اللوحةِ؟!. إنّها مكتوبةٌ بالخطِّ العريضِ وباللغتينِ الأجنبيةِ والعربيةِ. هذه المرةُ الأولى والأخيرةُ التي أسْمحُ لك فيها باستعمالِ "للدكاترة فقط"، حذارِ!. ويا فرّاشَ "هوكل" عليكَ أنْ تقومَ بواجبكَ المنوطِ بكَ القيامَ بهِ أو أنْ تفقدَ وظيفَتَكَ، في كلِّ الجامعةِ وليس فقطْ في القسمِ هنا.

الفرّاشُ "هوكل": لقد زَعمَ السّيدُ "هُرقص" لِيَ بأنّهُ مسموحٌ لهُ استخدامُ "للدكاترة فقط" وأنّهُ لا مانعَ في ذلكَ من قِبَلِ إدارةِ الكلّيةِ والجامعةِ لسببِ أنّهُ يدرِّسُ في القسمِ، يَجبُ أنْ لا يعاملَ معاملةَ طالبٍ عاديٍّ.

الدكتورُ "بَولاكْ": إذا ما سَمَحتْ إدارةُ الجامعةِ للسيدِ "هُرقص" باستخدامِ "للدكاترة فقط" فإنّني سأفكِّرُ جدياً بتركِ الجامعةِ ومهنةِ التدريس!.

كانت النتيجةُ أنَّ السّيدَ "هُرقص" رضخَ للأمرِ واضطرَّ لاستخدامِ حَمّاماتِ الطلبةِ في الطابقِ الأرضيِّ من البنايةِ أو البناياتِ الأخرى....

السّاعةُ الثالثةُ بعدَ الظهرِ؛ الدكتورةُ "نِبال" جديدةٌ في أوَّلِ زيارةٍ لَها لبنايةِ القسمِ وتُحاولُ العثورَ على وظيفةٍ كمُدَرّسةٍ هناكَ. بعدَ مقابلَتِها لرئيسِ القسمِ في مكتبهِ في الطابقِ الثالثِ والذي، كما يبدو، قَدَّم لَها الكثيرَ من المشروباتِ السّاخنةِ والباردةِ والماءَ. ما أنْ خَرَجَتْ بوعدٍ بالقبولِ بوظيفةٍ، كما يبدو، من مكتبِ رئيسِ القسمِ حتى بادرتْ بالذهابِ إلى الحمّامِ، أقربَ حَمّامٍ مُجاورٍ لمكتبِ رئيسِ القسمِ. قرأتْ يافطةَ "للدكاترة فقط"، فَرجَتْ أساريرُها وتوجّهت إلَى هناكَ. بالصّدفةِ كانَ الفرّاشُ "هوكل" يستعملُ أحدَ غرفِ الحمّامِ الداخليةِ وعلى غيرِ عادتهِ، حيثُ يسمحُ لهُ فقط بالدخولِ لتنظيفِ الحمّامِ وليس لاستعمالهِ، وتَحْتَ أقسى وأقصى الظروفِ!. دخلتْ الدكتورةُ "نِبال" وتوجّهَتْ فوراً إلى عذبرِ الحمّامِ الثاني والذي لا ثالثَ لهُ.

وما أنْ انتهتْ من استعمالِ الحمّام وخرجتْ من العنبرِ لترى الفرّاشَ "هوكل" يقفُ على بابِ غرفةِ الحمّامِ الصّغيرةِ.
الفرّاشُ "هوكل": ماذا تفعلينَ هنا؟! (شو بتساوي هون)!. غيرُ مسموحٍ لكِ بالدخولِ إلى هنا!. هذا المكانُ اسْمُهُ "للدكاترةِ فقط"!.
الدكتورةُ "نِبال": وأنا كذلك دُكْتُرْ، وسوفَ أبدأُ عملِيَ في القسمِ قريباً، إنْ شاءَ اللهُ. وهل أنتَ دكتورٌ هنا أيضاً؟!.
الفرّاشُ "هوكل": لست دكتوراً، أنا فقط فرّاشٌ "للدكاترة فقط". ما هذه الورطةُ التي وضعتِني فيها؟. ماذا سيقولُ الناسُ عنّا إنْ رآكِ أحدٌ معِيَ في "للدكاترة فقط"؟!. عليكِ أنْ تخجلي من وعلى نفسِكِ ودمِكِ!. تفضَّلي واخرُجي من المكانِ. لكنّني أريدُ أولاً أنْ أستكشفَ الممرَّ الخارجيَّ فيما لو كانَ أحدٌ يَمُرُّ بالقربِ من المكانِ خوفاً من أنْ يلاحظَنا أو يرانا ... ويفضَحَنا فيما بعدُ!.
الدكتورةُ "نِبال": لا تفزعْ يا هذا، إنَّها مُجرّدُ خطأٍ في الترجَمةِ!. "دُكْتُرْ" (دكتور) باللغةِ الأجنبيةِ هي نفسُها تقالُ للذكرِ والأنثى على حدٍّ سواءَ.
تدخّلتْ الجمعيةُ العلميةُ الطلابيةُ في الأمرِ بعد تراكمِ الحوادثِ الهزليةِ والمؤسفةِ في آنٍ واحدٍ، حيثُ توجَّهَ وفدٌ من الجمعيةِ إلى أحدِ المسئولينَ عن مثلِ تلكَ الإجراءاتِ الّتي تُميِّزُ بينَ الناسِ حسْبَ الخلفيةِ العلميةِ والفكريةِ المفترضةِ. كانت معالجةُ أمرِ "للدكاترة فقط" مثلَ مُحاولةِ تفكيكِ إحدى "مَحاكمِ التفتيش" في العصورِ المظلمةِ في تاريخِ الجنسِ البشريِّ. وصلَ الوفدُ في السّاعةِ الثانيةِ بعدَ الظهرِ ليجدَ في المكتبِ أحدَ المسئولينَ الأمنيّينَ هناكَ، السّيدَ "مِقْبل"...
السّيدُ "نبهان" (رئيسُ الجمعيةِ): لقد وصلَ إلى الجمعيةِ العلميةِ الكثيرُ من الشكاوى والمواقفِ التي لا يطيبُ للشخصِ العاديِّ التفكيرَ بها نظراً لطبيعتِها "النشاز" وكثرتِها في الآونةِ الأخيرةِ. من غيرِ المعقولِ أنْ يُخصَّصَ حَمّامانِ عامّانِ من نوعِ "للدكاترة فقط" لعددٍ من الدكاترةِ لا يتَجاوزُ العَشَرةَ في حينِ يُخصَّصُ حَمّامٌ عامٌّ واحدٌ لِما لا يقلُّ عن مائةٍ من طلابِ القسمِ ومن خارجِهِ. لقد جئنا هنا لنقترحَ! عملَ شيءٍ بهذا الشأنِ. فقط نُمثِّلُ جَمعيةً علميةً طلابيةً، مُجرّدَ تَجمُّعٍ، لا علاقةَ لَها بالشؤونِ الإداريةِ والعَلميةِ والتعليميةِ في الكلّيةِ.
حمد: كما تعرفونَ فإنَّ زمانَ التمييزِ حسبْ العمرِ والجنسِ والعِرقِ والخلفيةِ الثقافيةِ والعلميةِ قد ولّى إلى غيرِ رجعةٍ. إنَّ الكتابَ اليومَ ليسَ حِكراً على أحدٍ أو طبقةٍ معينةٍ. كلّها بضعَ سنواتٍ يُمكنُ للشخصِ، أيِّ شخصٍ، أنْ يَحصلَ على أيةِ درجةٍ علميةٍ يشاءُ وبكلِّ لغاتِ الأرضِ وبالاعتمادِ على الكتابِ.
السّيدُ "مِقبل": "ويش تجول ياخوي؟!" (ماذا تقولُ يا أخُ؟!). هل تريدُ أنْ تساويَ بينَ الدكتُعُر (الدكتور) والطالبِ!؟. لا لا لا ... الدكتُعُر دكتُعُر (الدكتورُ دكتورٌ) ويَجبُ أنْ يتميَّزَ عن غيرِهِ، حتى يشعرَ هو بنفسِهِ ويشعرَ من حولَهُ بِهِ وتصبحَ العلاقةُ سويةً بينَهُ وبينَهُمْ!. "ولّا (أو) أنا غلطان يا جَماعة!؟".
حمد: ما نَوَدُّ معرفتَهُ هو لِماذا التركيزُ على التميُّزِ بتخصيصِ "للدكاترة فقط" لأعضاءِ هيئةِ التدريسِ. كيفَ أنَّ ذلكَ يساهمُ في تعميقِ بل توثيقِ العلاقةِ بينَ الطالبِ والدكتورِ في هذهِ الحالِ؟!. الذي يَحدثُ هو عكسُ ذلكَ تَماماً؛ هذا الاستنتاجُ جاءَ بناءً على خَبرةٍ وتاريخٍ طويلينِ في هذا المَجالِ.

الدكتورُ "ماهوران" (رئيسُ دائرةِ شؤونِ الدكاترةِ في الجامعةِ، وصل متأخّراً بعضَ الشيءِ): إذا ما تمكّنتُ من تجميعِ ما تقولونَهُ في فكرةٍ واحدةٍ هو أنّكمْ ترغبونَ في إزالةِ الفروقِ بينَ الطلبةِ من جهةٍ وأصحابِ الفخامةِ الدكاترةِ من جهةٍ أخرى. لا أعتقدُ أنّهُ يَجوزُ لكُمْ ذلكَ ومنذ البدايةِ، لا قانوناً ولا ذوقاً ولا منطقاً!.

السّيدُ "مِقبل": وهذا ما أقولُهُ لَهُمْ... "الدكتُعر دكتُعر" يا أخي!. غيرُ معقولٍ أنّهُ بعدَ سنواتٍ طويلةٍ من التواجدِ في دولِ العالَمِ الراقيةِ بالإضافةِ إلى سياراتِهِمْ ومكاتبِهِمْ وفيلاتِهِمْ وزوجاتِهِمْ ومعاشاتِهِمْ وحتى كلابِ البعضِ منهمْ، وغيرَ ذلكَ الكثير، أنْ نعامِلَهمْ كالطلبةِ الذينَ في معظمِهِمْ أتَوْا من بيئاتٍ بلديةٍ قريبةٍ، ولا أتردَّدُ في أنْ أقولَ عنها أنَّها متخلّفةٌ.

حمد: يا رجلاً! لا تنخدعْ بالمظاهرِ والأقاويلِ التي غالباً ما تكرِّرُها وسائلُ إعلامٍ كلُّ هَمِّها التكريمُ والتفخيمُ.

الدكتورُ "ماهوران": بودِّيَ أنْ أتعرّفَ على حضرتِكَ يا أخَ ...

حمد: اسْمِيَ حمد أبو جاسر .... سنةٌ رابعةٌ في الجامعةِ.

الدكتورُ "ماهوران": أنا الدكتورُ "ماهوران القَلْطي"، دكتوراه في الإدارةِ ومتخرجٌ من جامعةِ "بطرس لوموما". لِيَ من الأقاربِ الدكاترةِ؛ زوجُ أختيَ دكتورٌ في علمِ اللاهوتِ متخرجٌ من جامعةِ أكسفورد، ابنُ عمِّيَ دكتوراه حقوقٍ من جامعةِ هارفارد، ابنُ عمَّتِيَ دكتوراه قانونٍ من جامعةِ كولومبيا، أخِيَ الذي يصغرُنِي سناً يُحضِّرُ للدكتوراه في القانونِ كذلكَ من جامعةِ كامبردج، ابنُ أختِيَ دكتوراه في تاريخِ القانونِ، ذهب السّنةَ الماضيةَ لتدريسِ القانونِ في جامعةِ نيويورك. لدينا خبرةٌ في تشريعِ وتطبيقِ القوانينَ تَمتدُّ إلى أيامِ حَمورابي العظيم!.

السّيدُ "مِقبل": وبعدَ وقتٍ قصيرٍ سوفَ تبحثُ عن قلّةٍ من الطّلابِ بينَ كثرةٍ من الحاملينَ لشهاداتِ الدكتوراه. سيَعودُ الفضلُ في ذلكَ إلى خطّةِ مراعاةِ التَّمَيُّزِ لِحَمَلَةِ شهاداتِ الدكتوراه، كالتي تقومُ وتنفذُ هنا، مِمّا يشجعُ الكثيرينَ للعملِ على الحصولِ على تلكَ الشهادةِ مهما كلّفَ الثمنُ؛ وما حالاتُ "للدكاترة فقط" إلا جزءٌ بسيطٌ منها.

حمد: ما شاءَ اللهُ على التقدُّمِ في العلمِ والفكرِ والتعليمِ والتخطيطِ والإعدادِ والتنظيمِ والتنفيذِ من عندِكُمْ. لكنّنا نتحدّثُ عن شيءٍ مُختلفٍ؛ وكما نصحَ أبوالز هو في الماضي ودائماً يكرِّرُ وينصحُ أنّهُ يَجبُ علينا أنْ لا ننخدعَ بكتبٍ مزخرفةٍ وتَحتوي فقط سطوراً سُطِّرَت وصُمِّمَتْ بحيثُ تكونُ متوازيةً مع بعضِها البعضِ لتخدعَ الكثيرَ من المغفّلينَ من بني البشرِ. عليكُمْ بالبحثِ العمليِّ والواقعيِّ فيما بينَ وخلالَ وخلفَ وفي ظلالِ تلكَ "القضبانَ" أو الأنابيبِ الفارغةِ! المتوازيةِ. يضيفُ أبوالز هو أنَّ الطريقةَ الوحيدةَ لعملِ ذلكَ هي بتطبيقِها عملياً على أرضِ الواقعِ. المِحَكُّ المُميِّزُ لكلِّ هذه الشهاداتِ وتلكَ الكتبِ هو ما قد ينتجُ عنها من عملٍ أيِّ شيءٍ قد يفيدُ في الحياةِ.

السّيدُ "مِقبل": ومن هذا أبوالزهو؟!. هل معهُ شهادةُ دكتوراه؟!. أين القسمُ الذي يُدَرِّسُ فيهِ؟. هل هنا في جامعةِ "البايْروطاطْ" أمْ في جامعةٍ أخرى؟!. وهل يتمتَّعُ بامتيازِ استعمالِ من مثلِ "للدكاترة فقط"؟!.

بعدَ حواليْ خَمسةِ شهورٍ من حينِهِ وبعدَ جهودٍ مضنيةٍ مع الإداريّينَ والمسئولينَ، وكثيرٍ من الطلبةِ وقليلٍ من المدرسينَ، من هنا وهناكَ... تَمَّ إلغاءُ امتيازِ "للدكاترة فقط" حفاظاً على سُمعةِ وكرامةِ المدرّسِ والطالبِ والجامعةِ

والمُجتمع!. كذلكَ استفادَ الفرّاشونَ الذين أفنوْا بعضاً من حياتِهِمْ وكانوا مستعدينَ لإفناءِ ما تبَقّى منها، فقطْ من أجلِ خدمةِ ورعايةِ وصيانةِ وحِمايةِ من مثلِ "للدكاترة فقط"!.

عودةٌ متأخّرةٌ إلى قليلٍ من الرُّشدِ

ما أنْ بدأَ نفوذُ الدكتور "حبيب" يتغلغلُ داخلَ أروقةِ القسمِ والكلّيةِ والجامعةِ حتى بدا أعضاءُ "مركزِ القوى" في وضعٍ أشبهَ بمجموعةٍ من الفئرانِ وُضِعتْ في قفصٍ من السّلكِ الحديديِّ وأُقِيمَ بجانبِ ذلكَ القفصِ قِطٌّ من الوزنِ المتوسّطِ ومتوسّطِ الحجمِ كذلكَ!. كلّما أحدثَ القطُّ مُواءً اهتزَّتْ أركانُ كافةِ الفئرانِ داخلَ ذلكَ القفصِ. أصبحَ الدكتورُ "بَولاكْ" مثلاً يبادرُ الطلابَ بالتحيةِ عندما يلتقي بِهِمْ في مكانٍ عامٍّ أو حتى في بدايةِ الدَّرْسِ في قاعةِ الصّفِّ؛ أمرٌ كانَ منَ المستهجنِ عليهِ في الماضي القريبِ. وذاتَ مرّةٍ أقدمَ الدكتورُ "بَولاكْ" على تعريفِ عددٍ من طَلبتِهِ على زوجتهِ، الدكتورةُ "شونا"، في مرآبٍ للسيّاراتِ وكان يبدو أكثرَ رقّةً وعذوبةً وتواضعاً منها وبكثيرٍ!. أصبحَ الدكتورُ "براهما" يدعو بعضَ التلاميذِ بتودُّدٍ لزيارتهِ في مكتبهِ والذي كانَ يشاركُهُ فيهِ عضوٌ آخرُ لا يقلُّ عنهُ في الجبروتِ. وأضحى الدكتورُ "هولاك" يبدو وكأنَّهُ يتحسَّسُ مشاكلَ الطلبةِ وطموحاتِهِمْ ويتظاهرُ بأنَّ لديهِ القدرةَ على مساعدتِهِمْ. لكن في داخلِ كلٍّ من هؤلاءِ لَمْ يكُنْ بعدُ ليتسنّى معرفةُ النوايا والسّموم المعدَّةِ للمرحلةِ القادمةِ إذا ما استطاعوا تَجميعَ "مركزِ القِوى" الذي يضمُّهمْ من جديدٍ؛ وذلكَ ما لَمْ يَحصلْ آنذاكَ فلقدْ هَزُلَ تَحالفُهُمْ مع من حولَهُمْ واضمحلَّ وصارَ ينهارُ على نفسهِ من الداخلِ والخارجِ!.

في لقاءٍ مع الطلبةِ ذاتَ مرّةٍ زَعَمَ الدكتورُ "هولاك" بأنّهُ يوصلُ الليلَ بالنهارِ، ومنذُ فترةٍ ليستْ بالوجيزةِ، في تَخَيُّلِ بناءِ "مُسارعٍ نوويٍّ" قد يصلُ طولُهُ المسافةَ بين سبّابتهِ وإبْهامهِ بدلاً عن المسارعاتِ النوويةِ العاملةِ في دولِ العالَمِ العظمى والتي قدْ يصلُ طولُ أقصرِها إلى ثلاثةِ (٣) كيلومتراتٍ على أرضٍ منبسطةٍ. أفكارٌ! لو وجدتْ من يتبنّى عقليةَ أصحابِها لتَمَّ توفيرُ أموالٍ طائلةٍ في ذلكَ الوقتِ ولتَمَّ تَحويلُ قسمٍ كبيرٍ منها إلى فقراءِ الكرةِ الأرضيةِ ومشاريعَ أخرى.

أُعطِيَ أقطابُ "مركزِ القوى" مساقاتٍ للسنةِ الرابعةِ، "تَخرُّج"، وصار هؤلاءِ الأقطابُ يعطونَ علاماتٍ ب"القفّةِ والدَّلْو"، قُفّةِ الترابِ أو الرملِ ودَلوِ الماءِ، بدلاً من "الميكرو-قطّارةِ" كما كانَ يَحصلُ في الماضي القريبِ ولنفسِ الطلابِ. مرّةً أخرى إذا ما حَصَلَ أحدُ الطلبةِ على علاماتٍ عاليةٍ عندَ أحدِ أقطابِ "مركزِ القوى"، الذي كانَ يَحتضرُ، فإن الأمرَ نفسَهُ يُطَبَّقُ من لَدُنِّ الأقطابِ الأخرى. كان "مركزُ القوى" لا يزالُ يعملُ بعضَ الشيءِ ولَمْ يَتِمَّ تفكيكَهُ أو القضاءَ عليه نهائياً بعدُ.

في لقاءٍ مع الدكتورِ "بَولاكْ" معَ بعضِ الطلبةِ عُقدَ قبلَ انتهاءِ الدراسةِ الجامعيةِ كلِّها بفترةٍ زمنيةٍ وَجيزةٍ حدثَ تبادلٌ لبعضِ الآراءِ، ولكنْ بعدَ فواتِ كلِّ أوانٍ على كلِّ المساكينِ من الطلبةِ.

حمدٌ: هل فُرِطَ عقدُ التحالفِ بينكَ وبينَ الدكتوريْنِ "هولاك" و"براهما"؟.

الدكتورُ "بَولاكْ": أصلاً لَمْ يكُنْ هنالكَ تَحالفٌ، هل قُلْتُ ذلكَ من قبلُ؟.
حمد: نَعَمْ!. لقد قلتَها لِيَ وبعظَمةِ لسانِكَ!.
طالبٌ: لَمْ تقلْ ذلكَ فقط، بل شاركْتَ وأسَّسْتَ واقترحْتَ ونفَّذْتَ إيقاعَ الظلمِ الواقعِ من "مركزِ القوى".
الدكتورُ "بَولاكْ": راجِعْ عقلَكَ ومعلوماتِكَ جيداً؛ لا توجدُ في العلمِ أحلافٌ ولا مافياتٌ كالذي تتحدّثونَ عنْهُ. دعوني أسألُكُمْ عن ماذا تودّونَ العملَ بهِ بَعدَ التخرُّجِ، حيثُ هذهِ سنَتُكُمْ النهائيةُ هنا!. لديَّ معرفةٌ ببعضِ الأشخاصِ مِمّن يعملونَ في "مَحلاتِ بيعِ الأجهزةِ الإلكترونيةِ" و"مطارِ الدولةِ الصحراويِّ" وفي دائرةِ "التنبؤاتِ" الجويةِ. من الممكنِ أنْ يذهبَ الخرَيجُ في دورةٍ تدريبيةٍ إلى الخارجِ! ويعودَ بعدَها إلى هنا ليتسلَّمَ وظيفةً لهُ. عددُ الوظائفِ محدودٌ .... هنالكَ مكانٌ واحدٌ أو اثنانِ على أحسنِ تقديرٍ.
حمد: كلُّ هذه السّنَينِ الأربعِ بطولِها والجهودِ المبذولةِ فيها والتي ذهبتْ أدراجَ الرياحِ ليعملَ الخريجُ كَبائعٍ في مَحلٍّ تِجاريٍّ أو كمراقبِ ملاحةٍ جويٍّ بما لا يَحتاجُ أكثرَ من بضعةِ شهورِ تدريبٍ لِخرّيجٍ ثانويّةٍ وفي نفسِ مطارِ الدولةِ. كلُّ تلكَ المساقاتِ من فيزياءَ وكيمياءَ ورياضياتٍ وأحياءَ (ولو من بابِ الافتراضِ فقط!) وغيرَها تؤدّي بالخريجِ أنْ يصبحَ بائعاً أو مراقباً جوياً، يراقبُ شاشةَ "تلفاز" ويَحملُ جهازَ لاسلكيٍّ للاتصالِ والتخابرِ!. إنْ دلَّ ذلكَ على شيءٍ فإنّما يدلُّ على عَدمِ وجودِ خطّةٍ واعيةٍ تراعى فيها احتياجاتُ الدولةِ وشؤونِ وطموحاتِ الشخصِ الضحيّةِ في هكذا تعليمٍ.
طالبٌ: أريدُ أنْ أبدأَ حَياتِيَ من جديدٍ وأدرسَ بعضَ الموسيقى. عسى أنْ تنفعَنِي بعضُ الأفكارِ العلميةِ التي قرأتُها في كتابٍ عن الأمواجِ والصّوتيّاتِ لتطبيقِها على الأصواتِ الناتجةِ عن قرعِ الطبولِ وضربِ الأوتارِ وغيرِها!.
طالبٌ: بعدَ ستةَ عشرةَ (١٦) سنةً من التعليمِ لينتَهِيَ الأمرُ بكَ إلى حيثُ تبدأُ دراسةَ الموسيقى من جديدٍ؟!. ليسَ أمامَكَ يا صديقِي وبعدَ التقدّمِ في العمرِ كثيراً إلا أنْ تصبحَ عازفاً هاوياً تَجلسُ على قارعةِ الطريقِ في انتظارِ بضعةِ قروشٍ من قلةٍ من المتفهّمينَ لِحاجةِ أهلِ الفنِّ الكهولِ إلى مردودٍ ماديٍّ لقاءَ عزفِهِمُ على آلةٍ موسيقيةٍ غجريةٍ!.
حمد: أفكّرُ في إكمالِ دراستِيَ علّ وعسى أنْ أعوّضَ الأيامَ والسّنينَ العجافَ الأربعَ اللاتي مرَّت بنا هنا في هذا الصّرْحِ العلميِّ العتيدِ!. هنا في علمِنا وما تعلّمناهُ من هذا القسمِ لسنا بموقعٍ أو قدرةٍ على التفريقِ بينَ الرمزِ الرياضيِّ الأصمِّ (استخدامُ الرموزِ الرياضيةِ للتعبيرِ عن أحداثٍ تَجري في الطبيعةِ) وبين الواقعِ العمليِّ الذي أصبحَ يبعدُ عنّا أكثرَ من الخيالِ.
طالبٌ: من هذا الكلامِ وغيرِهِ الكثيرِ تأكّدَ لِيَ الآنَ أنّنا عندما قدِمْنا إلى جامعةِ "البايْروطاطْ" قَدِمْنا بلاَ شيءٍ وخرجنا بأقلَّ من لاشيءَ!.
الدكتورُ "بَولاكْ": ومن المسئولُ عن ذلكَ، الطالبُ أو المدرّسُ؟!.
طالبٌ: عصابةٌ من المدرّسينَ.
الدكتورُ "بَولاكْ": أنسحبُ من هذا اللقاءِ، وتدبّروا أمورَكُمْ بأنفسِكُمْ؛ حتى العروضُ التي قُدِّمَتْ من مَحلِّ بيعِ أجهزةِ الراديو والتليفزيونِ (الإلكترونيّاتِ) ودائرةِ الرصدِ الجويِّ والمطارِ غيرُ مؤكّدةٍ.

على المرءِ السّويِّ أنْ يتخيَّلَ جهودَ شبابٍ في مقتبلِ العمرِ وقمّةِ النشاطِ والحيويةِ تذهبُ كلُّها سُدىً من أجلِ توفيرِ وظيفةٍ مرموقةٍ في المُجتمعِ لِمجموعةِ مدرّسينَ من مستوى الدكاترةِ "البَولاكْ والبراهما والهولاك"؛ إذا ما أمكنَ وضعُ هؤلاءِ في رزمةٍ واحدةٍ يُمكنُ أنْ يرمزَ إليها بالرمزِ "باء باء هاء" أو أكثرَ اختصاراً بِ"البابا ها"!

ومع حلولِ الامتحاناتِ النهائيةِ للتخرّجِ بدأَ الكلُّ يبحثُ عن فرصةِ عملٍ مناسبةٍ أو جامعةٍ أخرى لإكمالِ الدراسةِ فيها علّهُ يَجدُ بعضَ العزاءِ وللتعويضِ عمّا جرى لهُ في الماضي. ارتفعتْ أسهُمُ أعضاءِ "مركزِ القوى" من جديدٍ سيّما أنَّ الخريجينَ بحاجةٍ إلى "رسائلِ توصيةٍ" في طلباتِ الالتحاقِ بالجامعاتِ من المدرسينَ الّذين قاموا بتدريسهمْ. وقعَ الطلابُ، أو بعضٌ منْهُمْ، مرّةً أخرى ضحايا لأمزجةِ! "البَولاكْ والبراهما والهولاك" والذينَ لَمْ يتوانوْا عن إلحاقِ الضررِ والأذى بخريجي القسمِ. أثناءَ لقاءٍ خاصٍ مع الدكتورِ "براهما" زَعَمَ الأخيرُ أنّهُ قَادرٌ على أنْ يكتبَ رسالةَ توصيةٍ واحدةٍ لأحدِ التلاميذِ قادرةً على إدخالِ التلميذِ الخريجِ في أقوى جامعاتِ العالَمِ!.

الدكتورُ "براهما": على الشخصِ الذي يودُّ أنْ يدرسَ في الجامعةِ التي تَخرّجتُ منها أنْ يكونَ على مستوىً من الذكاءِ واللّباقةِ في الفكرِ واللياقةِ البدنيةِ!. عليهِ أنْ يَجتازَ الكثيرَ من الامتحاناتِ العالَميةِ في اللغةِ وفي التخصّصِ وما إلى ذلكَ الكثيرِ!.

طالبٌ: لكن هل لنا أنْ نعرفَ من لسانِكَ كيفَ تَمَكّنْتَ من الوصولِ إلى تلكَ الجامعةِ؟!.

الدكتورُ "براهما": يَحتاجُ الأمرُ إلى جهدٍ وذكاءٍ وحظٍّ وغيرِ ذلكَ!. اسألوا السّيدَ "طَهْوَجي" (أحدُ تلاميذِ القسمِ الأذكياءِ)، والذي زارَ الجامعةَ هناكَ ولكنَّهُ لَمْ يتمكّنْ من الحصولِ على مقعدٍ فيها لأسبابٍ أجهلُها!.

حمد: سَمِعْنا أنّهُ حصلَ على قبولٍ من جامعةِ "صَرصُراتي" في إحدى الدولِ المتقدّمةِ!. تلكَ إحدى إنْجازاتِ "المبدعينَ" في الحصولِ على صديقٍ متميّزٍ جديدٍ لَهُمْ.

الدكتورُ "براهما": لِماذا تستهترُ بيَ وبقدراتِيَ العقليةِ و"الذكائيةِ"؟!، اسألْ عنّيَ وفتّشْ عن دراساتِيَ وأبحاثِيَ. اسألْ عنّيَ من يعرفُني جيداً.

حمد: أكثرُ الأمكنةِ لياقةً بحالتِكَ هو المكانُ الذي تتواجدُ فيهِ الآنَ، ونَحْنُ الطلابُ الخريجونَ من هذا القسمِ في هذه السّنةِ أكثرُ الناسِ معرفةً بِمستواكَ، ولا أحداً غيرَنا!.

حفلُ تَخريجِ دفعةٍ جامعيةٍ جديدةٍ

مثلَ أيامِ وليالي العيدِ، أيِّ عيدٍ، أحاطت أجواءُ البهجةِ وشاعت أجواءُ الفرحِ والسّرورِ عشيةَ الانتهاءِ من آخرِ امتحاناتٍ لآخرِ فصلٍ ولآخرِ سنةٍ أكاديميةٍ جامعيةٍ عندَ حمَد في جامعةِ "البايْروطاطْ". انتهت أيامُ الترقّبِ والخوفِ والقلقِ من الامتحانِ وانتهت ليالي السّهرِ والخيالاتِ المقيتةِ المتقاطعةِ من هنا وهناكَ. انتهت أيامُ التلاقي المباشرِ مع عصابَةِ الثلاثةِ والأربعةِ، وكلٌّ من الأصحابِ أصبحَ ينوي السّفرَ على طريقٍ غيرِ واضحِ المعالِمِ والأهدافِ. التحضيراتُ لِحفلِ التخريجِ على قدمٍ وساقٍ، ولقد أُشيعَ أنَّ رئيسَ الحكومةِ سوف يقومُ بنفسهِ بتوزيعِ الشهاداتِ على كلِّ الخريجّين، لذلكَ على الجميعِ أنْ يشهدوا الحفلَ. وفي حالِ عدمِ حضورِ الاحتفالِ تقومُ أجهزةِ الأمنِ الخاصّةِ، كما أُشيعَ، بالتحقّقِ من الأمرِ؛ حتى إذا لَمْ يكَنْ الخرّيجُ مريضاً أو على سَفرٍ، أو هنالكَ من سببٍ "وجيه" لذلكَ التغيبِ، فهنالكَ أيامٌ أخرٌ طويلةٌ قد يقضيها في مكانٍ غيرِ مفضّلٍ لدى الحيواناتِ والبشرِ. كذلكَ ربَّما لا تُسلَّمُ للخرّيجِ شهادةُ التخرجِ التي طالَما عملَ من أجلِها وانتظرَها بفارغِ الصّبرِ لِمدةٍ تربو على الأربعِ سنينٍ قضاها في أعمالِ التعبُّدِ للكتبِ والتوحّدِ في ليالي الدراسةِ الطويلةِ.

من ضمنِ "طقوس" التخرّجِ شراءُ لباسٍ ذي مواصفاتٍ خاصةٍ، سروالٌ أسودُ أو كحليُّ اللونِ وقميصٌ أبيضُ اللونِ. كانَ الجاكيتُ وربطةُ العنقِ مفضلاً لبسَهُما ولكن لَمْ يكنْ ذلكَ إلزامياً؛ ذلكَ لأنَّ لباسَ التخرُّجِ، مثل عباءةٍ كبيرةٍ سوداءَ، سوف يُغطّي كلَّ ما يقعُ تَحتَهُ إلا الأجزاءَ السّفليةَ من السّروالِ، ربَّما. كذلكَ ستقومُ الجامعةُ بتزويدِ الطلبةِ الخريجينَ بطاقيةٍ خاصةٍ دائريةٍ أو أسطوانيةِ الشكلِ لكلٍّ من الخريجينَ. يعلو الطاقيةَ مثلُ صفيحةٍ ذاتِ سطحٍ أفقيٍّ مائلٍ قليلاً ومن وسطِهِ تتدلّى أشبهُ ما تكونُ بضفيرةٍ من الخيوطِ الصّفرِ أو الذهبيةِ اللونِ؛ واللهُ أعلمُ ما دلالةُ هذا وذاكَ للحياةِ أو للعلمِ. كما يبدو فإنَّ هنالكَ معاييرَ عالميةً يُستحسَنُ إتباعُها.

قامَ حمد بدعوةِ بعضٍ من الأقاربِ والأصدقاءِ لكي يشاركوهُ فرحةَ التخرجِ، ولبّى قسمٌ منهُمْ الطلبَ ولَمْ يتسنَّ الحضورُ للبعضِ الآخرِ. كان الحفلُ مفرحاً ومُحزِناً في آنٍ واحدٍ، مفرحاً بعضَ الشيءِ ومُحزِناً كلَّ ما تبقّى. تَحوّلتْ أجواءُ الحفلِ إلى أشبهَ ما يكونُ بسوقٍ شعبيٍّ كبيرٍ لبيعِ البضائعِ وعرضِ الأندفسِ ومن كافةِ أطيافِ المُجتمعِ. قامَ الدكاترةُ بعملِ طابورٍ خاصٍ و"مُمَيَّزٍ" بهِمُ، دخلَ الطابورُ إلى ساحةِ "الاستاد" من خلالِ أحدِ الأبوابِ الفرعيةِ الخاصّةِ "المُمَيّزَةِ"، وكانَ كلٌّ منهُمْ يلبسُ لباساً خاصاً بألوانٍ وأشكالٍ زيٍّ تَخرّجٍ خاصٍ بالجامعاتِ التي تَخرّجَ كلٌّ منهُمْ من كلٍّ منها. بعدَ ذلكَ دخلَ رئيسُ الحكومةِ وقامَ في خطابٍ لهُ بتحيةِ الدكاترةِ وشكرَ لَهُمْ جهودَهُمْ في تَهيئةِ جيلٍ واعٍ بنفسهِ ووطنهِ وأمتهِ وعلمهِ ومستقبلهِ. ردَّ عليهِ بعدَ ذلكَ بعضُ عمداءِ الكلّياتِ ورئيسُ الجامعةِ بكلماتٍ مُماثلةٍ؛ تعهّدوا في كلماتِهِمْ بالمضيِّ قُدماً وعلى نفسِ الدربِ المرسومِ لَهُمْ متفانينَ في خدمةِ الوطنِ والأمةِ والقضيةِ.

الشيءُ المفاجئُ، والمريحُ، بالنسبةِ إلى حمد ولكثيرٍ من الخريجينَ هو أنَّ رئيسَ الحكومةِ لَمْ يقُمْ بتوزيعِ الشهاداتِ بنفسهِ على الخرّيجينَ وأمكنَ للخريجينَ

استلامَ شهاداتِهِمْ فيما بعدُ من دائرةِ شؤونِ الطلبةِ في الجامعةِ. اكتفى مديرُ الحفلِ، السّيدُ "الكُرقي"، بذكرِ أسْماءِ الخريجينَ بصوتٍ عالٍ حتى يتسنّى لذوي كلٍّ منهُمْ سَماعَ ذكرِ اسْمِ ابنِهِمْ أو ابنتِهِمْ، مِمّا أتاحَ لَهُمْ التصفيقَ والزغردةَ لَهُ أو لَها إنْ أرادَ من حضرَ لأجلِ ذلكَ.

بعدَ التخرُّجِ بعدّةِ أيامٍ كانَ لبعضِ الخريجينَ قليلٌ من اللقاءِ مع بعضِهِمْ البعضِ. كانَ هنالكَ لقاءٌ بين أصدقاءِ وزملاءِ الماضي القريبِ من مُختلفِ الكلّياتِ والأقسامِ.

خريجٌ من كليةِ الآدابِ: إذا ما كانَ لَنا أنْ نُقيِّمَ أنفسَنا بعد سنينٍ أكاديميةٍ أربعٍ ونيِّفٍ من الدراسةِ في الجامعةِ، ماذا يُمكنُ لنا أنْ نقولَ؟. هل كانتْ تَجربةً ناجحةً، فاشلةً، وسطاً بين النجاحِ والفشلِ، ضعيفةً، مُمتازةً؟. هل هذه المرحلةُ كافيةٌ ومؤهِّلةٌ للخروجِ إلى الحياةِ العمليةِ لِخدمةِ ما يصبو إليهِ كلُّ شخصٍ، لِخدمةِ بلدهِ ووطنهِ وأهلهِ ونفسهِ؟. هل من الممكنِ أنْ نكونَ عناصرَ بناءٍ واستقلالٍ وخلاصٍ من التبعيةِ؟. هل نَحْنُ قادرونَ على الوقوفِ على أرجلِنا بعقولِنا أمْ أنَّنا سنظلُّ في حالةٍ من الشّللِ والضعفِ مطيةً للدولِ الأخرى من الخارجِ وفي حالةِ استهلاكٍ دائمٍ لبضائعِ الغيرِ؟!.

خريجٌ من قِسمِ إدارةِ الأعمالِ: هنالكَ عددٌ من الشركاتِ العامةِ والخاصّةِ في الدولةِ وهي قادرةٌ على استيعابِ عددٍ من الخريجينَ. من الممكنِ لِهذهِ الشركاتِ المساهَمةُ في تطويرِ البلدِ وقدراتهِ!؛ ومن الممكنِ إدارةُ مشاريعَ خاصةٍ جديدةٍ، صغيرةً كانت أو كبيرةً.

خريجٌ من قسمِ الرياضياتِ (خريجٌ بامتيازٍ وعبقريٌّ!): كانت لديَّ بعثةٌ من وزارةِ التربيةِ والتعليمِ، مقابلَ كلِّ سنةٍ دراسيةٍ في الجامعةِ عليَّ أنْ أخدمَ سنتينِ ونصفَ السّنةِ في إحدى مدارسِ الدولةِ. هنالكَ عشرُ سنواتٍ بانتظاريَ في أحضانِ المدارسِ. تعدّدتْ الأسبابُ والموتُ واحدٌ!.

خريجٌ من كليةِ الشّريعةِ: هنالكَ دوائرُ الأوقافِ والوزارةُ وبعضُ المقدّساتِ التي هي بحاجةٍ إلى مشرفينَ، أوَدُّ لو أعملُ كإمامٍ في أحدِ المساجدِ وكواعظٍ دينيٍّ لإصلاحِ ما أفسدَهُ الدهرُ علينا. لكنْ كيفَ للعطّارِ أنْ يصلحَ ما أفسدَ الدهرُ!؟.

خريجٌ من كليةِ الزراعةِ: سأفتحُ مشروعاً لِمزرعةِ دواجنَ ولقد وعدَني والدِيَ ميسورُ الحالِ بشيءٍ في رأسمالِ المشروعِ.

حمد: لا يوجدُ في خيالِيَ ما أقدرُ أنْ أتفوَّهَ بهِ الآنَ، سأعودُ إلى مسقطِ رأسِيَ للتشاورِ مع الأهلِ. لَمْ تكنْ لديَّ منذُ البدايةِ جهةُ دعمٍ من وزارةٍ أو شركةٍ أو حكومةٍ أو قبيلةٍ. زيادةً على ذلكَ، أكرهُ مهنةَ التدريسِ والإرشادِ كُرْهَ العصفورِ للقفصِ وكرهَ الغزالِ للقيدِ وكرهَ الحرِّ للسّجانِ وحتى كُرهَ الحمارِ للنمرِ الجائعِ. كنتُ أفكِّرُ أنْ أكونَ عالِماً ناجحاً، للأسفِ قُضِيَ على أحلامِيَ في مهدِهَا ولَمْ يرَ أيٌّ منها النورَ بعدَ أكثرَ من ستَّ عشرَ عاماً من التعلّمِ. لقد أنْهيتُ خلالَ دراستِيَ الجامعيةِ أكثرَ من مائةٍ وسبعينَ (١٧٠) ساعةً معتمَدةً في حينِ أنَّ المطلوبَ منِّيَ كانَ أقلَّ من مائةٍ وأربعينَ (١٤٠) ساعةً معتمدةً.

هامَ الخريجونَ على وجوهِهِمْ في طولِ البلادِ وعرضِها بَحثاً عن مكانٍ، أيِّ مكانٍ، للبدءِ بأيةِ وظيفةٍ لكسبِ أيِّ عيشٍ مُمكنٍ. خرجَ اليومَ طلابُ الأمسِ ليواجِهوا الحياةَ بكلِّ ما تَحملهُ الكلمةُ من معنىً. كانت تَجربةً قاسيةً وصدماتٍ قويةً من هنا

وهناكَ. عندما كانوا على مقاعدِ الدراسةِ كانَ خيالُ الواحدِ منهُمْ خَصباً. كانوا يظنونَ أنّهُ بمجرّدِ التخرج سرعانَ ما تتهافتُ عليهِمْ المؤسساتُ والأفرادُ ليأخذونَهُمْ بالأحضانِ وليعطونَهُمْ ما يتمنونهُ من الوظائفِ المناسبةِ. إضافةً إلى ذلكَ تنفتحُ على الشخصِ أبعادٌ جديدةٌ في الحياةِ كانتْ بالأمسِ نائمةً؛ على الإنسانِ أنْ يفكّرَ بالزواجِ وبناءِ أسرةٍ وبيتٍ وتربيةِ أولادٍ وتنظيفِهِمْ وتلميعِهِمْ وتعليمِهِمْ. بذلكَ يصبحُ وجودُ الإنسانِ أقلَّ بكثيرٍ من رقمٍ صغيرٍ في معادلةٍ لانهائيةٍ في التعقيدِ، يفقدُ بعدَها الإنسانُ القدرةَ على التأثيرِ على أيِّ شيءٍ حتى فيما يَخصُّ نفسَهُ. يا إلهِيَ ما سببُ هذه "الفخاخ" التي نساقُ إليها في هذهِ الحياةِ. هل هذا وذاكَ جزءٌ من "ما جناهُ أبِيَ عليَّ ولَمْ أجنِ بعدُ على أحدٍ؟"!.

وفي لقاءٍ مع الخريج حمد في بيتِ أحدِ أقاربِهِ ضَمَّ عدداً من الأهلِ والأصحابِ والجيرانِ والصّغارِ الناشئينَ قبلَ العودةِ إلى مسقطِ الرأسِ!.

أحدُ الأقاربِ: آنَ الأوانُ لكَ يا أستاذُ! حمد أنْ تذهبَ إلى بلدِكَ وأنْ تقدّمَ ما تعلّمتَهُ لخدمةِ أبناءِ جلدتِكَ.

صديقٌ: أتوقّعُ أنْ تكونَ معلّماً ناجحاً!. معظمُ المدارسِ عندَنا بحاجةٍ إلى دماءٍ جديدةٍ في الجهازِ التعليميِّ المترهلِ حيثُ مُحصّلةُ التعليمِ فيهِ تقتربُ من الصّفرِ يوماً بعدَ يوم.

صاحبٌ: من المهمِّ أنْ يستقرَّ الإنسانُ بعدَ حصولِهِ على درجةٍ علميةٍ متقدّمةٍ وأنْ يبدأَ ببناءِ نفسهِ مادياً ومعنوياً ومالياً واجتماعياً. لقد ولّى زمانُ الترفيهِ والعبثِ والضحكِ واللعبِ، بدأ زمانُ الجدِّ ومواجهةِ الحقيقةِ.

حمد: بدأتُ حديثاً، الآنَ، أشاهدُ جيوشاً من الخريجينَ. هل هنالكَ في الدولةِ من فكّرَ أو يفكّرُ في مصيرِ هذهِ الجيوشِ. ستُتْرَكُ هائمةً على وجوهِها متسوّلةً وظيفةً هنا أو باحثةً عن واسطةٍ هناكَ. لقد آنَ الأوانُ لتنظيمِ المُجتمعِ لكي يعيشَ الفردُ فيه عيشةَ إنسانٍ ذي كرامةٍ. إنّي لأرى مَجزرةً أو مَجازرَ بحقِّ كرامةِ الإنسانِ في كلِّ يومٍ باحثاً عَنْ لقمةِ العيشِ، كالأيتامِ على مآدبِ اللئامِ.

إمامُ مسجدٍ: اليومَ! كنتُ مسافراً في السّيارةِ، سيارةِ ركّابٍ بالأجرةِ بينَ المدنِ. كنّا خمسةً، اثنانِ من الركّابِ يَحتلانِ الكرسيَّ الأماميَّ وثلاثةٌ آخرونَ يَجلسونَ في الكرسيِّ الخلفيِّ للسيارةِ. أحْملُ شهادةَ بكالوريوس في الشّريعةِ، الشخصُ الذي كانَ يَحتلُّ المقعدَ على جانبِيَ الأيمنِ يَحملُ شهادةَ ماجستيرٍ في التاريخِ، الثلاثةُ الذينَ كانوا يَجلسونَ في الكرسيِّ الخلفيِّ أحدُهُمْ خريجُ كليّةٍ للطبِ من جامعةٍ تركيةٍ والثاني خريجٌ جامعيٌّ في الفيزياءِ والثالثُ يعملُ في أحدِ المطاعمِ ولا أعرفُ إنْ يَحملُ شهادةً جامعيةً أمْ لا. الكلُّ يبحثُ عن عملٍ في أيِّ مكانِ عملٍ. سبحانَ اللهِ على هذه الحالةِ ... لا يَجدُ خريجو الجامعاتِ عملاً لَهُمْ، كلامٌ يشابهُ الكذبَ!.

أحدُ الأقرباءِ: كلُّ واحدٍ لهُ رزقُهُ في الأرضِ أو في السّماءِ. على المرءِ أنْ لا يشعرَ باليأسِ وأنْ يبحثَ ليلاً نَهاراً عن رزقِهِ.

حمد: أحدُ أسسِ سوءِ التخطيطِ في هذهِ البلادِ، وفي معظمِ أنْحاءِ العالَمِ الحرِّ كذلكَ!، يكمُنُ في تركِ الأمورِ تسيرُ على هواها والركونُ إلى ما تأتي بهِ الأيّامُ، أو الرياحُ بالأحرى لدى هبوبِها يَميناً ويساراً. مِنْ عادتِنا أنْ نتركَ الدابةَ تسيرُ ونسيرُ من ورائِها نستدلُّ طريقَ المستقبلِ من تَقَفّي خطواتِها. الدابةُ نفسُها لا تعرفُ كيفَ تُخطّطُ لمستقبلِها فما بالُكُمْ بمن يستدلُّ بِخطاها.

إمامُ مسجدٍ: يا أخِيَ! لقد أنعمَ اللهُ تعالى علينا بنعمةِ العقلِ الكبرى. علينا أنْ نستعملَ تلكَ النعمةَ في الاتّجاهِ الصّحيحِ. نَحْنُ ضعفاءُ لكثرتِنا لا بسببِ قلّةِ عددِنا لأننا لا نُحسنُ استعمالَ عقولِنا.

حاملٌ لشهادةِ البكالوريوسِ

انقلبتْ أجواءُ البهجةِ والاحتفالِ بالحصولِ على أوّلِ شهادةٍ جامعيةٍ إلى غمٍّ وهمٍّ وتَحسبٍ لِمستقبلٍ مَجهولِ المعالمِ من كلِّ النواحي تقريباً. عملياً تمَّ تصنيفُ السّيدِ حمد الآنَ على أنّهُ تابعٌ للسلكِ الأكاديميِّ أو التعليميِّ؛ مهنةٌ أو صفةٌ لَمْ تراودْ عقلَ السّيدِ حمدٍ يوماً واحداً في صباهُ ولا شبابِهِ، لن يطيبَ لهُ نومٌ أو طعامٌ أو شرابٌ أو صحبةٌ إذا ما أدخلَ إلى هذه المهنةِ الميئوس منها فكرياً ومادياً ومعنوياً واجتماعياً. ما العملُ؟. سَوْءٌ أنْ تقعَ الكارثةُ ولكنَّ الأهمَّ كيفَ التصرفُ وما هو الحلُّ، إنْ وُجِدَ، أو ما هو الحلُّ الأفضلُ لذلكَ؟!. أصبحَ وضعُ حمد مثلَ وضعِ العصفورِ أو الحيوانِ البريِّ الذي وقعَ في شَرَكِ صيادٍ مُحكم، وعلى أحسنِ حالٍ. كانتْ هنالكَ آلافُ الأسئلةِ التي لا إجابةَ عليها وآلافُ المشاكلِ التي لا مفرَّ من الولوجِ فيها. كان السّيدُ حمد على يقينٍ ومنذُ انتظامهِ في جامعةِ "البايْروطاطْ" إلى ما بعدَ تَخرّجِهِ أنَّ تلكَ المرحلةَ الأكاديميةَ ليستْ بأكثرَ من أخذِ رؤوسِ أقلامٍ و"مانشيتاتٍ" (المانشيتات جَمعُ كلمةِ مانشيت، لاتينيةِ الأصلِ، وتعني الأقوالَ أوَ العناوينَ التي تكتبُ بخطٍّ عريضٍ وعادةً ما تكونُ في بدايةِ الصّفحةِ كما هو الحالُ في الصّحفِ والمَجلاتِ) علميةٍ لا يُمكنُ أنْ تغنِيَ عن جوعٍ.

سادتْ عندَ حمد أجواءٌ تثيرُ الكثيرَ من الهُمومِ والالتباسِ والتحسبِ لِما هو قادمٌ أو ما يُخبؤُهُ لهُ المستقبلُ والأيامُ. إنّهُ مقبلٌ على فصلٍ للحياةِ يبدو أكثرَ عُسْراً حتى من سابقَيْهِ في المدرسةِ والجامعةِ عندما كانَ طالباً.

في الكثيرِ من الأحيانِ يَجلسُ حمد مع نفسهِ وزادَ تعلقهُ بالأشعارِ من هنا وهناكَ.

حمد: (موشحٌ غنائيٌّ) دن دن دن..... ...... يا هلالاً!، يا هلالَ هلالاً غابَ عنّا واحتجب .... بالهوى بالهوااااااى ما نالنا غيرُ التعب ...... يا هلالاً غابَ عنِّيَ ضاع منّيَ .... بالهوى ما نالنا غير العجب.

سرحان وأبوالزّهو: أغارُ منك على هذا المستوى من السّحرِ الذي أنت قادرٌ على إيقاعهِ بمن حولَكَ. يا ليتني كنتُ قادراً على أنْ أدخلَ في عالَمِ السّحرِ هذا معكَ.

أبو جاسر: آنَ الأوانُ يا سيدَ! حمد أنْ تفكّرَ بأمركَ ونفسِكَ وبشكلٍ جدّيٍّ الآنَ ودَعْ العودَ هذا والموسيقى هذه جانباً، عليك أنْ تفكّرَ في عيشِكَ. لقد نفَدَ من عندِنا كلُّ شيءٍ حتى الصّبرُ، ومن الصّفرِ نبدأ لإعادةِ تكوينِ حياتِنا حيثُ البيتُ كما تراه يشبهُ عشَّ الغربانِ وقد هجرتهُ الفراخُ منذ مدةٍ!. زادت أعباءُ الأسرةِ عن أيامِكَ السّابقةِ وأصبح لكلٍّ واحدٍ من إخوانِكَ وأخواتِكَ الكبارِ ما يزيدُ من النصابِ المعقولِ من الأولادِ وغيرَ قادرٍ على أنْ ينعمَ بعيشٍ فيه بعضُ الاستقرارِ.

أم جاسر: آنَ الأوانُ لكي نفرحَ بعرسِكَ وبيتِكَ وببعضِ الأنْجالِ من نسلِكَ!.

حمد: أريدُ أنْ أواصلَ التعلُّمَ أكثرَ. لَمْ ولن يكونَ كافياً ما حصلتُ عليهِ من علمٍ في السّنينِ الماضيةِ على طولِها وعمقِ الجهادِ والتضحياتِ الجسامِ فيها. أمُرُّ الآنَ بحالةٍ كمن تتقاذفُهُ أمواجُ همومِهِ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ. إذا ما استمرَّ هذا الحالُ على هذا النحوِ فلا مفرَّ من نهايةٍ مؤلمةٍ لِهذهِ المسرحيةِ المأساةِ. لقد تبيَّنَ لِيَ الآنَ وأكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى بأنّني خُدِعْتُ بِما حدثَ معِيَ ولِمدةِ أربع (٤) سنواتٍ متواصلةٍ في جامعةِ "البايْروطاطْ" لَمْ تغمضْ لِيَ عينٌ في سبيلِ الحصولِ على العلمِ.
أبوالزهو وسرحان: يا أخانا حمد! دائماً تكرّرُ الحديثَ عن الخديعةِ والكذبِ والضحكِ على اللّحى والذقونِ والمؤامراتِ، هل بمقدوركَ أنْ تدخلَ معنا في التفاصيلِ وفي صُلبِ الموضوعِ؟. ما الذي يَحدثُ ولِماذا أنتَ من دونِ جيلِكَ تعرفُ وتُحسُّ بِما حولَكَ؟!. ولِماذا لا تضعُ رأسَكَ بين ومعَ بقيةِ الرؤوسِ ويَصيحُ لا مانعَ من قطعِ كلِّ الرؤوسِ؟!. (مثلٌ شعبيٌّ)
حمد: آخٍ يا سرحان ويا أبوالزهو!، لقد اكتشفتُ بل تأكّدَ لِيَ ما اكتشفتُهُ في السّابقِ بأنّهُ لَمْ يَكنِ الهدفُ هو التعليمُ في تلكَ المؤسّسةِ الجامعيةِ. لقد تَمَّ قتلُ اللغةِ العربيةِ أو استئصالُها من ما لا يقلُّ عن خمسةِ فروعٍ علميةٍ في جامعةٍ يفترضُ أنَّها عربيةٌ. بمعنىً آخرَ فلقد أُعلنَ رسْمياً، وتَمَّ التنفيذُ عمَلياً، عن أنَّ اللغةَ العربيةَ غيرُ صالحةٍ للتعاملِ بِها في فروعِ العلومِ المُختلفةِ. جريمةٌ مرت وتَمرُّ على أعيُنِ الأشهادِ من أبناءِ يعربٍ!.
سرحان: يا رجلاً! ماذا جرى لكَ في أقوالِكَ وظنونِكَ وأهوالِكَ هذهِ.
حمد: لقد ماتت لغةُ العربِ حتى في نفوسِ العربِ. أجيالٌ تتخرّجُ لا تعرفُ من العلمِ إلا بعضَ الرموزِ والمصطلحاتِ الجافةِ بِحروفٍ غريبةٍ لا قيمةَ لَها على أرضِ الواقعِ في أيِّ شيءٍ.
سرحان: يا رجلاً! خلِّ عنكَ هذه الأفكارَ المتشائمةَ اليائسةَ؛ اللغةُ العربيةُ بخيرٍ.
حمد: لقد بدأ جسمُ اللغةِ العربيةِ في عقولِ الكثيرِ من العربِ بالتعفّنِ ويَنصحُ الخبراءُ الأجانبُ والعربُ على حدٍّ سواءٍ، بدفنِهِ فوراً.
أبوالزهو: يا لَهولُ الكارثةِ، هل تتحدّثُ معنا من واقعٍ أو خيالٍ؟. هل أنت تَحْتَ تأثيرِ مشروباتِكَ وأقراصِ التخديرِ التي مرّاتٍ كنتَ تتناولُها أيامَ المدرسةِ وبِيعِ التّجوالِ في المدينةِ؟!.
حمد: لقد تَمَّ ذبحُ الضميرِ الأصيلِ في الأمةِ من الوريدِ إلى الوريدِ.
أبوالزهو وسرحان: يا رجلاً! عن ماذا تتحدّثُ؟. لقد أثرتَ الرّعبَ في قلوبِنا وأعصابِنا، في أيدينا وأرجلِنا، في أحلامِ الحياةِ عندَنا.
حمد: لقد أصبحتْ الخيانةُ فضيلةً و"تَمَيُّزاً" وأصبحَ الولاءُ للعهدِ والثقافةِ الأصلِ تشدّداً وتزمّتاً وتَخلُّفاً.
أبوالزهو: يا رجلاً! توقّفْ عن سردِ هذه الأقوالِ المزعجةِ أو اضطررتَني لتركِكَ وحيداً تغرقُ في موجاتِ دموعِكَ!.
حمد: لقد خان العربُ أنفسَهُمْ، كلُّ العربِ خانوا أنفسَهُمْ.
أبوالزهو: يا رجلاً! ويا زلْمةً! قلتُ لكَ ألفَ مرّةٍ أنْ لا أحدَ يَخونُ نفسَهُ، هنالكَ احتمالٌ أنْ يَخونَ غيرَهُ ولكن أنْ يَخونَ نفسَهُ، ما تقولُهُ هذا يُعَدُّ من بابِ الانتحارِ.
حمد: لقد قتلَ المدرّسُ العربيُّ ضميرَهُ بالسّيفِ المُهَنّدِ تارةً، بالخنقِ، بالضربِ المبرحِ، بالاستعانةِ بعصابةٍ مَتخصصةٍ في الإجرامِ الدوليِّ والتاريخيِّ والإنسانيِّ

تارةً أخرى. كلَّ ذلكَ لقاءَ معاشٍ مستخلصٍ من دم الفلاحيَن والعمالِ الكادحينَ، من دموعِ وعرقِ عائلاتِ الفقرِ المدقعِ والعملِ على أساسِ "المياومةِ" (الأجرةُ يوميةُ وعلى حسبِ عددِ ساعاتٍ وأيامِ الدوامِ).
أبوالزهو وأبو جاسر وأم جاسرٍ وسرحان: يا رجلاً لقد بثثتَ الإحباطَ في رؤوسِنا وسوفَ يُغمى على أحدِنا أو جَميعِنا إذا ما استمررتَ في سردِ هذه الأخبارِ المستحيلةِ الحدوثِ!.
حمد: لقد أصبحَ التحدّثُ بغيرِ العربيةِ حداثةً وتقدماً و"عصرنةً"، حتى التحدثُ باللغةِ السّريانيةِ والآراميةِ فيهِ تفضيلٌ على التحدثِ باللغةِ العربيةِ. أين رجالاتُ بني يعربٍ يا أبوالزهو؟!.
أبوالزهو: ويا ظالِماً! بعدَ ستَّ عشرةَ (١٦) سنةً ونيِّفٍ في طَلَبِ العلمِ لا يكونُ معكَ وفي جيبِكَ ما يكفي لعيشِ يومِكَ!.
"زولالةُ": وفوقَ ذلكَ ذهبتْ اللغةُ العربيةُ إلى غياهبِ متاحفِ الآثارِ في الدولِ العظمى....
سرحان: ..... مثلما حدثَ مع إخوانِنا من بني الآشوريينَ والبيزنطيينَ والفينيقيينَ والفراعنةِ؟!..... والقائمةُ تطولُ.
أبو جاسر: عسى اللهَ يرضى عليكَ يا ولداً! أنْ تتركَنا من الخوضِ في أمورِ التاريخِ والحاضرِ والمستقبلِ السّياسيةِ. لقد تبخّرتْ وسائلُ العيشِ عندَنا وكان ظَنُّنا أنّكَ المنقذُ، لَتأتِيَ وتقولَ لنا أنَّ الحضارةَ العربيةَ والإسلاميةَ والأمةَ في خطرٍ داهمٍ. وماذا عسايَ قادرٌ على عملِهِ، أنا الفلاحُ البسيطُ؟!. يا ولداً! إذا جُنَّ جيلُكَ فلَا توقِّرْ عقلَكَ، جِنَّ معهُمْ!.
حمد: يا والدِيَ! إنَّ هذا هو العارُ أنْ أسْمعَ منك هذا الكلامَ. أنتَ العُدّةُ والعتادُ والأصلُ والفصلُ والجذعُ والجذْرُ الذي تتغذّى منه حياتُنا.
أبوالزهو: هو لَمْ يقصدْ ذلكَ، هو واقعيٌّ أكثرَ منكَ؛ يعرفُ في الحياةِ وعندَهُ تَجربةٌ أكثرَ منكَ.
أبو جاسر: وإذا ما أردتَ أنْ تكملَ دراستَكَ قُمْ بذلكَ بنفسِكَ وعلى حسابِكَ والعهدُ الذي بينَنا انتهى؛ كما لَمْ تكنْ أحدَ أنْجالِيَ ولَمْ أعرفْكَ. ثُمَّ إذا ما قمتَ بإكمالِ دراستِكَ، أين هي الجامعةُ التي تدرِّسُ باللغةِ العربيةِ لأهلِ اللغةِ العربيةِ؟!. لا يوجدُ هنالكَ طبيبٌ عربيٌّ واحدٌ في المدينةِ إلا ويُتمتمُ بكلماتٍ غيرِ عربيةٍ عندَ زيارتِكَ لهُ في المستشفى أو في عيادتِهِ الخاصّةِ. أصبحَ التحدّثُ بين الأطباءِ بلغةٍ أخرى عنوانَ التطوّرِ والتحضّرِ والتقدّمِ؛ ويتقاضونَ معاشاتٍ عاليةً على ذلكَ. خلاصةُ القولِ لن أستمرَّ معكَ في التعليمِ مِن الآنَ فصاعداً حتى لو أعَدْتَ الحكومةَ التركيةَ الحاليةَ إلى الانعقادِ في مسجدِ السّلطانِ عبدالحميدِ الأوّلِ بعدَ أداءِ صلاةِ الجماعةِ من قِبَلِ كافةِ أعضاءِ الحكومةِ!.
سرحان: يا أخاً! في الماضي كنتَ تتذرّعُ بـ"البَولاكْ والزَّحلاك والهولاك والبراهما"... الآنَ أنت وشأنُكَ، اتركْ الخلقَ للخالقِ.
حمد: ومن أينَ عرفتَ بـ"الزَّحلاك"، هنالكَ الدكتورُ "زَحلاك" في القسم أيضاً؟!..
سرحان: إنّها زلّةُ لسان، لَمْ أقصدْ ذلكَ. يا أخِيَ كلامُكَ يَجعلُنِي أتكلّمُ مثْلَ المَجانينِ. لا تريدُ العملَ وكلُّ الحياةِ عندَكَ دراسةٌ وتعلّمٌ ، فَكِّرْ بالعملِ.

أبو جاسر: تقدّمْ بطلبٍ إلى مديريةِ التربيةِ والتعليمِ. عليك أنْ تَحصلَ على وظيفةِ مدرّسٍ، كهؤلاءِ المدرّسينَ؛ لستَ بأحسنَ منهُمْ ولا هُمْ بأحسنَ منكَ.

أم جاسر: وإذا ما تَمكّنتَ مِن الحصولِ على فرصةٍ لإكمالِ تعليمِكَ فنحنُ معكَ، سنساعدُكَ، سنبيعُ حتى ما تبقّى مِمّا عندَنا لتنالَ ما تصبو إليهِ. هذا والدُكَ لا يعرفُ الكثيرَ في أمورِ الحياةِ، أنا التي لولايَ لَمِتْنا جَميعاً مِن الجوعِ والقلّةِ والجهلِ!.

أبوالزهو: هذا حلٌّ وسطٌ، لكن يا صديقِيَ يعزُّ عليَّ أنْ أراكَ من جديدٍ يسيرُ عليكَ قانونُ "التدجينِ". من نسرٍ لا يَحلو لهُ النومَ والسّهرَ إلا على رؤوسِ أشجارٍ فوقَ قممِ الجبالِ العاليةِ الباردةِ إلى دجاجةٍ للبيضِ والتفريخِ أو إلى ربِّ أسرةٍ لِحملِ المواعينِ وغسلِها وتنظيفِها!.

سرحان: .... إلى رقمٍ سهلٍ عندَ المنافقينَ من أصحابِ المقاماتِ والمسجلينَ على أنّهُمْ وجهاءُ البلادِ وَيَجلسونَ فوقَ رؤوسِ العبادِ. من أحدِ المضاهينَ لِ"آرنستو تشي جيفارا" العظيمِ إلى "مؤانسٍ" لأحدِ مساعدي العُمْدةِ هنا أو هناكَ!.

حمد: يا أبوالزهو!، ارحَمْ نفسِيَ مِن الهولِ والعذابِ وإنْ لَمْ تقفْ معِيَ فسوفَ أذهبُ إلى حيثُ أكونُ جزءاً من الخللِ الأساسِ (جهازِ التربيةِ والتعليمِ) في تَخلّفِ الأمةِ وتَمَكُّنِ الأعداءِ، وحتى أضعفَ أنواعِ الأعداءِ!، مِن رقابِها.

حمد المُعَلِّمُ

بكلِّ تردّدٍ وتَحْتَ تأثيرِ هاجسِ الخوفِ والقلقِ من انعدامِ لقمةِ العيشِ والحياةِ والمستقبلِ تقدَّمَ السّيدُ حمد بطَلبِ توظيفٍ إلى وزارةِ التربيةِ والتعليمِ. كانَت عودةً إلى ذلكَ الجِسمِ الأكاديميِّ الكبيرِ الذي يَجعلُ من الطالبِ الذي يقضي فيهِ اثنتا عشرةَ (١٢) سنةً على الأقلِّ من عمرِهِ، دون أنْ تصبحَ لديهِ القدرةُ على كتابةِ رسالةٍ شخصيةٍ قصيرةٍ خاليةٍ من الأخطاءِ الإملائيةِ والنحويةِ والقواعدِ؛ هذا ناهيكَ عن البلاغةِ في الكلامِ واختيارِ كلماتٍ من الذوقِ والأدبِ مناسبةٍ لبدءِ أو إنْهاءِ تلكَ الرسالةِ. ذلكَ الجِهازُ لَمْ يُغَطِّ تقريباً أيَّ اهتمامٍ نوعيٍّ لتطويرِهِ أو تَحديثِهِ أو حتى تأصيلِهِ؛ ذلكَ لأنَّهُ مَخزنُ الأجيالِ الكبيرِ، من أجَلِ تَحقيقِ التقدمِ في العلومِ والتاريخِ والجغرافيا وفوقَ كلِ ذلكَ الدينِ الإسلاميِّ الحنيفِ!. أصبحَ هذا الجهازُ يساهمُ بفاعليةٍ قويةٍ في زيادةِ ما يسمى في المُجتمعِ هناكَ بِ"زَبَدِ أو غُثاءِ السّيلِ" الذي لا قيمةَ ريٍّ ماديةً أو معنويةً لهُ. لا يتمكّنُ التلميذُ الخريجُ من ضربِ شاكوشٍ بمسمارٍ واحدٍ في نعشِ التخلفِ الهائلِ والمللِ والفوضى وحتى قلةِ الذوقِ عندَ السّيّرِ العاديِّ في الشارعِ. بعبارةٍ أخرى، نَحْنُ نتعاملُ مع جهازٍ يتميزُ بدرجةٍ كبيرةٍ مِمّا يسمى في الطبيعةِ بِ"عزمِ القصورِ الذاتيِّ" أيْ عدمَ قدرةِ الأجسامِ السّاكنةِ على تَحريكِ نفسِها بنفسِها. وإذا ما أتِيَ بقوّةٍ خارجيةٍ لإنْجازِ الحركةِ أو التغييرِ المطلوبةِ وَجَبَ بذلُ جهدٍ كبيرٍ فيهِ درجةٌ كبيرةٌ من المخاطرةِ في الجهدِ والمالِ....

سرعانَ ما حصلَ السّيدُ حمد على وظيفةِ معلمٍ في المدرسةِ وسرعانَ ما أصبحَ لديهِ أكثرَ من مائةٍ وخَمسينَ (١٥٠) تلميذاً لتلقّيَ العلْمِ. على المرءِ أنْ يتخيَّلَ وضْعَ شخصٍ للتعليمِ كارهٍ، وعلى نظامِ التعليمِ المتوارثِ ساخطٍ؛ على السّيدِ حمد الآنَ أنْ يتعاملَ مع هذا العددِ الكبيرِ مِن التلاميذِ. عليه أنْ يكونَ أباً وأمّاً ومعلماً

وشرطياً ومربياً ومثلَ النبيِّ أيوب عليهِ السّلامُ صابراً؛ عليهِ أنْ يكونَ لقسمٍ كبيرٍ من زملائهِ المعلّمينَ، الذين لا يزالُ الكثيرُ منهُمْ في فكرهِمْ في عامِ الفيلِ، متحمِّلاً... وغيرَ ذلكَ أدهى وأمَرَّ وأكثرَ. كلُّ هذا الجحيمِ من أجلِ معاشٍ لا يكفي للسيدِ حمد حتى انتهاءَ العشرِ الأوائلِ من أيامِ الشهرِ.

لا يوجدُ شيءٌ في حياةِ السيّدِ حَمد الآنَ اسْمُهُ راحةٌ أو حياةٌ هادئةٌ حيثُ اضطَرّتهُ الظروفُ لأنْ يعيشَ ويكسبَ عيشَهُ ورزقَهُ في تَجمُّعٍ لا يُقَدِّر قيمةَ الابتسامةِ والتعاملِ المنفتحِ والانشراحِ والتعاملِ مع الغيرِ بالمثلِ وعلى قدمِ المساواةِ. تقولُ الحكمةُ "بأنَّ قليلاً من التعليمِ يشكِّلُ خطراً على صاحبهِ وعلى من حولَهُ"؛ ذلكَ لأنَّ الذي تعلَّمَ قليلاً يظنُّ، بسببِ جهلهِ!، أنّهُ تعلَّمَ كثيراً ويتصرفُ على أنّهُ الآمرُ الناهي ويَجبُ أنْ يصغيَ بقيةُ البشرِ إلى إرشاداتهِ القيِّمَةِ وأنْ يطاعَ حتى خارجَ حدودِ ما يُستطاعُ!.

ذاتَ يومٍ وبينما كانَ الأستاذُ أو المعلّمُ حمد يقومُ بإعطاءِ درسٍ لهُ في نهايةِ الحصصِ الدراسيةِ، شعرَ أنَّ رجليهِ غيرُ قادرتيْنِ على حَمْلهِ منتصباً. سقطَ أرضاً متدحرجاً على جنبيهِ وظهرهِ وبطنهِ من شدةِ الألمِ حيثُ ساعدَهُ بعضُ التلاميذِ على النهوضِ والوقوفِ والحركةِ. وبمساعدةِ التلاميذِ ذهبَ إلى غرفةِ إدارةِ المدرسةِ حيثُ مديرُ المدرسةِ البالغِ من العمرِ السّتينَ (٦٠) سنةً تقريباً، ومن الوزنِ المائةَ والعشرينَ (١٢٠) كيلوجراماً تقريباً، والذي لمْ يكلّفْ نفسهُ بالوقوفِ وتركِ كرسيِّهِ ولو دقيقةً واحدةً، كذلكَ تقريباً. من هناكَ استقلَّ حمد وحيداً سيارةً للأجرةِ، لتنقلهُ إلى المركزِ الصحّيِّ في المدينةِ حيثُ اضطُرَّ للانتظارِ خلفَ طابورٍ من الأطفالِ والشيوخِ والنساءِ الحواملِ والمرضعاتِ والرجالِ أكثرَ من ساعةٍ. وخلالَ أقلَّ من دقيقتيْنِ في رؤيتهِ للطبيبِ العامِّ كتبَ لهُ الأخيرُ وصفةً من الحبوبِ المسكّنةِ للآلامِ والتي تساعدُ على استرخاءِ عضلاتِ وأعصابِ أجزاءِ الجسمِ. ذهبَ الأستاذُ! المعلّمُ حمد إلى البيتِ وكان يبدو مثلَ الذي نَجا من غابةٍ تعجُّ بالضباعِ البشريّةِ. يعرفُ الأستاذُ حمد بأنّهُ لن يكونَ عليه من الناسِ من حولهِ تلكَ الرحْمةُ أو التعاطفُ. سوفَ يوجِّهونَ إليهِ الكثيرَ من الاتّهاماتِ، منها أنّهُ ذو عصبٍ ضعيفٍ وعزيمةٍ خائرةٍ وأنّهُ ليسَ كمثلِهِمْ في البأسِ والتحمُّلِ.

أبوالزهو و"كاملة": ما لِيَ أراكَ وقد عدتَ اليومَ مُختلفَ الشكلِ وتبدو مثلَ الطائرِ الذي يبحثُ عن اتّجاهٍ للرحيلِ حيثُ العيشُ هناكَ أفضلُ ... هل من جديدٍ؟!.

حمد: تعالَ أبوالزهو!، قفْ بجانبيَ. لَعَنَ اللهُ الحياةَ معكَ!.

"كاملة": خيراً يا أخيَ!، ماذا جرى لكَ؟!، ولِماذا أنتَ كالمضروبِ على رأسهِ؟!.

حمد: أبوالزهو!، لَعَنَ اللهُ زماناً رأيتُكَ فيهِ!.

سرحان: ماذا بكَ؟!، هل فقدْتَ عقلَكَ وصوابَكَ؟!.

حمد: أبوالزهو!، لعنَ اللهُ كلَّ شيءٍ في حياتِنا!.

"فَلْحَة": قسماً لأذهبنَّ وأخبرَنَّ الوالديْنِ بأنَّكَ مَجنونٌ وتَحتاجُ للذهابِ إلى مستشفى المَجانينِ الآنَ وقبلَ فوتِ الأوانِ.

أبوالزهو: إهي إهي إهي .... إهي (يبكي أبوالزهو لِما وصلت إليه حالُ حمد النفسيةُ) آخ يا صديقي!، وهل وصلتْ بكَ الأمورُ إلى حدٍّ أنْ ترفعَ يدَكَ عليَّ؟!.

حمد: لقدْ قلْتُ لكمْ، خاصةً أنتَ يا أبوالزهو ومنْ ثَمَّ الوالدَ أبو جاسر، أنّهُ ليس لديَّ قدرةٌ على التعاملِ مع التعليمِ ولا مع الذي صمَّمَ جهازَ التربيةِ والتعليمِ. لا أعرفُ

لِماذا يطلقونَ عليهِ هذا الاسمَ، يُعَلِّم ماذا ويُعَلِّم مَنْ؟!. نَحْنُ نُعَلِّم لاشيءَ في شبهِ اصطبلاتِ حيواناتٍ. هل معقولٌ أنني أنا حمد، يا أبوالزهو، أُجْبَرُ على الانتظارِ في طابورٍ من المرضى من مُختلفِ الأعمارِ والأجناسِ والأمراضِ ولِمدّةٍ لا تقلُّ عن ساعةٍ حتى أرى "وَبْشاً"! (طبيبَ المركزِ الصّحيِّ الحكوميِّ في المدينةِ) لِدقيقتيْنِ فقط يَحكمُ فيها على صحةِ حالِيَ عن بُعدٍ ومن خلفِ طاولتهِ. (يَحملُ الأستاذُ المعلّمُ حمد بطاقةَ تأمينٍ صحيةٍ حكوميةٍ تسمحُ لهُ المعالَجةَ المَجانيّةَ! في عيادةِ المدينةِ المركزيةِ) أنا الّذي أقومُ بِحرقِ نفسِيَ يومياً بِما قدرتُ على تَجميعهِ في جهازٍ تعليميٍّ كان الأجدرُ أنْ يلقَى بهِ في مزبلةِ الصّحّةِ ويُحرقَ مع جثثِ الحيواناتِ الهالكةِ وبسببِ أمراضٍ وبائيةٍ. هل أنا الذي أتناولُ مسكّناتِ آلامٍ؟! لكي أعودَ وأعطيَ دروساً لأولادِ مصّاصي دماءِ الشعبِ من تُجّارِ موادٍّ غذائيةٍ فاسدةٍ وتُجّارِ وصفاتٍ طبيةٍ ناقصةٍ وتُجّارِ خرائطِ فيلّاتِ أصحابِ الكروشِ المتدلّيةِ من الأمامِ والخلفِ والجوانبِ. أنا، حمد ابن أبو جاسر، الذي يعلّمُ الدّسورَ فلسفةَ الحريةِ والتحليقِ فوقَ قممِ سلاسلِ الجبالِ والهضابِ العاليةِ، تضطرُّني الظروفُ أنْ أمسحَ الوسخَ عن مؤخراتِ أولادِ المصابينَ بِ"سيفليس" الحضارةِ والعصرنةِ المتعفنةِ. أنا الذي كان يَجبُ أنْ يصبحَ نَفَسُ "تشي جيفارا" برداً وسلاماً بالنسبةِ لِما هو حالِيَ، تضطرُّني الظروفُ إلى أنْ أصحّحَ وضْعَ سروالِ أحدِ "كتاكيتِ" أعضاءِ مَجلسِ بلديةِ المدينةِ الأنذالِ وتُجّارِ الكراماتِ وآكلي لُحومِ إخوانِهِمْ الميتينَ!.

أبوالزهو: هدِّئْ من روعِكَ يا صديقِيَ، لا عليكَ. وماذا عَساكَ فاعلٌ؟. هل تريدُ أنْ ترجعَ إلينا لنعملَ معاً وسويةً في الحقلِ ومع الحيواناتِ بعدَ ستّةَ عشرةَ سنةً من التعلّمِ؟!.

حمد: ولِمَ لا أعملُ في الحقلِ والاصطبلِ، على الأقلِّ نتعاملُ مع حيواناتٍ إنسانيةٍ!، وليس كما هو الحالُ في تلكَ المدرسةِ مع بشرٍ حيوانيةٍ!.

"كاملة": كلُّ الذي في المدرسةِ عندَكَ حيواناتٌ!؟. هل تريدُ أنْ تعيدَ إلينا من جديدٍ سيناريو "البَولاكْ والبِراهما والهولاك".

حمد: هذه هي النتيجةُ النهائيةُ للتلمذةِ على مَنْ مثلِ "البَولاكْ والبراهما والهولاك" في مثلِ جامعةِ "البايْروطاطْ".

أبوالزهو: هوِّنْ عليكَ، استرخْ قليلاً، هدّئْ أعصابَكَ. كلُّ مشكلةٍ ولَها حلٌّ. قَسَماً يا صديقِيَ لأجعلَنَّ لكَ من لَحمِيَ ودمِيَ جسراً لعبورِكَ إلى أحلامِ المَجدِ ومصافِ أساطينِ الكبرياءِ. لن تكونَ فرصةٌ لأحدٍ بعدَ اليومِ للتحَكُّمِ أو السّيطرَةِ على مستقبلِكَ. أنت حرٌّ طليقٌ فيما تريدُ أنْ تقومَ بعملِهِ. نَحْنُ جندُكَ حتى آخرِ نقطةِ دمٍ أو آخرِ نبضةٍ في العروقِ. اذهبْ ونَحْنُ معكَ وكافةُ المناضلينَ من أجلِ الحريةِ والكرامةِ والعيشِ الكريمِ!.

حمد: آه يا أبوالزهو!، أوّلاً أعتذرُ لكَ عن كلماتٍ جافيةٍ مِنّي بحقّكَ؛ وثانياً كَمْ أنا سعيدٌ بوقوفِكَ معِيَ وثباتِكَ في الملماتِ. كمْ أنا لا شيءَ بدونِكَ وكمْ عليَّ أنْ أكونَ فخوراً بكَ، بلْ كمْ يَحلو لِيَ أنْ أكونَ فخوراً بكَ وعند ثقتَكَ بِيَ. هذه يا أبوالزهو قبلةٌ منِّيَ، من جريحٍ مثخنٍ بجراحِ الحياةِ إلى أروعِ وأرقِّ طبيبٍ لِيَ مداوٍ!.. ....

أبوالزهو: ولكنْ يا صاحبِيَ! أنت تعرفُ أنّهُ أثناءَ غسلِ اليدينِ بعدَ أكلةٍ دسمةٍ عندَ بني البشرِ تقومُ إحدى اليدينِ بصبِّ الماءِ من الإبريقِ على اليدِ الأخرى. ماذا تقومُ اليدُ الأخرى بالمقابلِ؟، تصبُّ الماءَ على الأولى!. هذه سُنَّةُ الحياةِ، يعني حُكَّ لِيَ كما

حككتُ لكَ. وقفتُ معكَ في مصابكَ الجَلَلِ وأريدُكَ أنْ تقفَ معِيَ في عواطفِيَ الملتهبةِ لسماعِ صوتِ النغمِ من بينِ يديْكَ ومن حنجرتِكَ العذبةِ. لقد طالَ انتظارِيَ لكَ وازدادَ تلاهيكَ عنِّيَ بغيرِيَ.

حمـد: لا أعـرفُ يـا أبوالزهـو كيـفَ لِـيَ أنْ أجْمـعَ الآنَ لـكَ أفكـارِيَ وأحاسيسِـيَ وعواطفِيَ لأنشدَ ونغنِّيَ مع بعضِ أغنيةً تليقُ بمقامِكَ الرفيع عندِيَ يا خيرَ رفيقِ دربٍ ونضالٍ دائبٍ لا يتوقّفُ. سأغنّي لكَ أغنيةً خفيفةً بالفرنسيةِ.

أبوالزهو: غنِّ لِيَ بأيِّ لسانٍ ... "موشْ فارأة معايا" (لا فرقَ معِيَ)

حمد: ربَّما تعرفُ يا أبوالزهو أنَّ العاطفةَ في تلكَ البلادِ تطغى على بقيةِ المشاعرِ والأحاسيسِ والمنطقِ. سوفَ أغنّـي لـكَ شيئاً للسيدِ "جوليـان كـلارك Julian Clerc**" هذه الأغنيةِ (أغنيةَ "** This Melody **هذا النغمُ لكَ")، لأجلِ عيونِكَ يا أحلى صديقٍ. (ملاحظةٌ: الترجَمةُ هنا حَرفيّةٌ وهي ليست أدبيةً أو شعريةً)**

This melody. **(هــذا اللحـنُ)**

Is a melody for you: **(هذا النغمُ لكَ)**

Cette mélodie, c'est l'océan entre nous: **(هذا اللحنُ بَحرٌ بينَنا)**

Cette mélodie, d'eau salée et de mélancolie; **(هذا اللحنُ ماءُ بَحرٍ مالحٍ وحنينٌ مبهمٌ)**

Dans ton pays, elle te revient parfois; **(في موطنِكَ أحياناً تعودُ إليك)**

Comme ça, voilà comme ça……….. **(هكذا أمورٌ... هي هكذا!)**

Le vent d'ici **(الريحُ هنا)**

Fait voler tous nos oiseaux **(تَجعلُ كلَّ طيورِنا تطيرُ)**

Les champs d'ici **(السّاحاتُ والمراعي هنا)**

Font c'qu'ils peuvent pour les troupeaux **(تعملُ كلَّ طاقتِها من أجلِ قطعانِ الماشيةِ)**

Les gens d'ici **(الناسُ من هنا)**

Qui ne connaîtront pas d'autre vie **(الذين لا يعرفونَ عن حياةٍ أخرى)**

Dans ce pays **(في هذا الموطنِ)**

Dont les fruits sont si beaux **(الذي فيهِ أجْملُ الفاكهةِ)**

Qu'on se contente des noyaux

(والـذي نَحْـنُ قـانعونَ حتـى بالبـذرةِ النـواةِ فيهـا (أي فـي الفاكهةِ))

This melody is a melody for you **(هذا النغمُ، نغمٌ لك)**

Les gens d'ici ne sont pas plus grands, plus fiers ou plus beaux

(النــاسُ هنــا ليســوا أكثــرَ عظمــةً أو أكثــرَ ثقــةً أو أكثــرَ أناقــةً)

Seul'ment, ils sont d'ici, les gens d'ici **(هُمْ فقط هنا، فقط بشرٌ هنا)**

Comme cette mélodie **(مثلُهُمْ مثلُ هذا اللحنِ)**

Tu es partie **(أنت ترحلُ)**

Mais ton réve reste au chaud **(لكنَّ حلمَكَ يبقى حياً دافئاً)**
Ce vieux soleil **(هذه الشمسُ الهرِمةُ المعمرةُ)**
Etait trop fort pour ta peau **(كانت قويةً على بشرتِكَ)**
Cette mélodie **(هذه النغمةُ)**
Qui reviendra parfois dans ta vie **(التي ستعودُ أحياناً إلى حياتِكَ)**
Cette mélodie **(هذه النغمةُ)**
Dans ta ville s'est transformée en pluie, en pluie **(في بلدتِكَ تتحوّلُ إلى مطرٍ، إلى مطرٍ)**
That's why this melody is a melody for you **(لأجلِ ذلكَ فإن هذا اللحنَ هو لكَ)**

أبوالزهو وسرحان: يا صديقِيَ، إنَّ عندَكَ قدراتٌ تتعاملُ فيها مع أعصابنا وعواطفنا بلغاتٍ يَحلمُ بها مُحافظُ المدينةِ نفسُهُ ومن معهُ. من العارِ والعيبِ أنْ تُضطرَّ لأنْ تسايرَ في عمليةِ تعليمٍ ليستْ من اختصاصِكَ ولا تلائمُ طموحاتِكَ ولا مزاجَكَ ولا تركيبةَ جسمِكَ وإحساسَكَ، تسايرَ "كتاكيتَ" فيلّاتِ المدينةِ الطامعةِ في حياةٍ مرفّهةٍ على حسابِ ويلاتِ ومآسِيَ الزمنِ على الكادحينَ؛ عسى ألا تفيقَ أعينُ الرّعاعِ!.

اختلافاتٌ في الرأيِ

تنتشرُ في العالَمِ عدّةُ أنظمةٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ وإداريةٍ واقتصاديةٍ أكثرُها شيوعاً وتسلطاً واستعباداً للإنسانِ هو النظامُ الرأسْماليُّ. بالإضافةِ إلى كونِهِ نظاماً يُؤَلِّهُ رأسَ المالِ والعملةَ النقديةَ وما يتبعُها، فإن نظامَ التوزيعِ العشوائيِّ الطبيعيِّ للسكانِ والثروةِ يَجعلُ التعايشَ مع ذلكَ النظامِ مثلَ العيشِ في دوامةِ صراعٍ مع النفسِ والحياةِ والآخرينَ. يَجعلُ النظامُ الرأسْماليُّ كرامةَ الفردِ كإنسانٍ أو حتى ككائنٍ حيٍّ غيرَ ذاتِ معنىً. يقولُ المثلُ الرأسْماليُّ العفنُ: "إذا كانَ في جيبِكَ قرشٌ (أو حتى فلسٌ) فأنتَ تساوي فقط القرشَ (أو حتى الفلسَ) الذي تَحملُهُ في جيبِكَ". إذا ما تَمكّنتْ مَجموعةٌ من "الجهلةِ من البشرِ" من تكوينِ عامودٍ عالٍ من المالِ سيصبحُ هؤلاءِ البشرُ وما حولَهُمْ ومن لَهُمْ عَلاقةٌ بِهِمْ في حالةٍ من الفسادِ تُكتبُ فيها أشعارُ الرثاءِ بعدَ دهرٍ من كتابةِ أشعارِ الهجاءِ!.

في المُجتمعِ الرأسْماليِّ المتخلّفِ فكرياً تسودُ بلا شكٍّ حالةٌ من الشذوذِ غيرِ المُحبّذِ في الطبقةِ الفقيرةِ الواسعةِ والغنيةِ الضيقةِ على حدٍّ سواءَ في مقدمةٍ سريعةٍ إلى الهاويةِ لكلِّ الجنسِ البشريِّ إنْ "اعتنقَ" مثلَ هذا النظامِ الطائشِ الأرعنِ لفترةٍ طويلةٍ. هذه ربَّما إحدى المشاكلِ الهامّةِ التي تشتركُ بها الدولُ الصّناعيةُ والفقيرةُ على حدٍّ سواءَ. حتى أنَّ الوضعَ في الدولِ التي تسمى متقدمةً أكثرُ فظاعةً وفداحةً من نظيرهِ في الدولِ الضعيفةِ أو الناميةِ، لولا عمليةُ التكاثرِ العدديِّ اللا-إراديِّ عندَ

شعوبِ الدولِ الناميةِ والفقيرةِ. هنالكَ مشاكلُ لا حصرَ لَها ناتجةٌ عن تولّي فئةٍ قليلةِ العددِ من الأغنياءِ أمورَ الطبقةِ الفقيرةِ الواسعةِ العريضةِ.

من المظاهرِ المنتشرةِ في بلادِنا المتخلّفةِ فكرياً واقتصادياً هو مُحاولةُ الغنيِّ الجاهلِ استخدامَ الفقيرِ في كلِّ شيءٍ حتى ليساعدَهُ في الوصولِ إلى الجنّةِ الموعودةِ في الحياةِ الآخرةِ. هذا الفقيرُ الذي يَكِدُّ ليلَ نَهارَ على مرأىً ومسمعٍ من أخيهِ! الغنيِّ للحصولِ على لقمةِ خبزٍ حافٍ، يأتي إليهِ نفسُ ذلكَ الغنيُّ الجاهلُ ليَجمعَ منهُ أو يتقاسمَ معهُ ثوابَ تعبدهِ في دينهِ. بدلاً عن ذلكَ كانَ من الأجدرِ بالغنيِّ أو الموسرِ مساعدةُ ذلكَ الفقيرِ للتخفيفِ عنهُ في فقرهِ الذي هو، أيْ الغنيُّ، السّببُ الرئيسيُّ في حصولِ ذلكَ الفقرِ واشتدادهِ معهُ. هذا الغنيُّ الذي يَمتلكُ القصورَ والفيلاتِ والسّياراتِ اللامعةَ وفي آخرِ موديلاتِها وما يتبعُ ذلكَ من ترفٍ وبذخٍ وهدْرٍ للاقتصادِ الوطنيِّ، يريدُ أنْ يبنيَ بيتاً آخرَ! في الآخرةِ. يريدُ أنْ يبنيَ قصراً، ربَّماً، بنفسِ الكيفيةِ والمقاييسِ من مصفٍّ للسياراتِ وخدمٍ وحَشَمٍ وطباخينَ وحورٍ عينْ من وراءِ ما قد يهيئُ لنفسهِ أنّهُ عملٌ خيريٌّ لِمساعدةِ أهلِ الفقرِ المدقعِ. الحديثُ في هذهِ الأمورِ طويلٌ ووعرٌ وشائكٌ ويثيرُ كلَّ أنواعِ التشنجاتِ وما قد يتبعُها من أهوالٍ لا يَحتاجُ إليها العقلُ البشريُّ المسالمُ.

منذُ صغرهِ!، كان من الندرةِ بمكانٍ أنْ يَجتمعَ رأيُ أبو جاسر معَ ابنهِ حمد في معظمِ أمورِ الحياةِ. لسببٍ ولآخرَ كأن أبو جاسر من أنصارِ النظامِ الطبيعيِّ العشوائيِّ لتوزيعِ السّكّانِ والثروةِ والهَمِّ. كانتْ تصلُ درجةُ التّخاصمِ في الحديثِ والنقاشِ بينَ حمد ووالدهِ إلى درجةِ القطيعةِ ولفترةٍ طويلةٍ لدرجةٍ يَقومُ أبو جاسر بتوسيطِ أناسٍ من الخارجِ للتوسطِ مع حمد من أجلِ "المصالحةِ". كان أبو جاسر يُخاطبُ أبناءَ جيلهِ شاكياً لَهُمْ أمرَهُ ومشاكلَهُ مع حمد. لكنْ لَمْ يكنْ أبو جاسر يعرفُ أنَّ مكانتَهُ كَأبٍ في قلبِ حمد لا يوجدُ أكبرُ منها لأيِّ شيءٍ آخرَ. كان أبو جاسر شديدَ فقرِ الحالِ وتبعاً لذلك ظلَّ شبحا الخوفِ من الجوعِ والفقرِ المدقعِ يسيطرانِ على تفكيرِ وعقلِ حمد ومنذُ سنٍّ مبكّرةٍ من حياتهِ.

أبو جاسر: كلُّ التعليمِ الذي منحتُكَ المساعدةَ لتلقّيهِ لَمْ ينفعْ معكَ. حتى عندَما تراني في الشارعِ لا تبادرُني بالسّلام ولا تنطقُ بأيّةِ كلمةٍ كما لو كنتَ قادماً من المريخِ. وبعد ذلكَ تقولُ لِيَ بأنّنا مقصّرونَ معكَ!؟.

حمد: يا والدِيَ! لقد وضعتَنا في حالةٍ لا ينفعُ معَها السّلامُ ولا الكلامُ ولا النومُ أو الصّحوُ. بسببكَ نعيشُ في وضعِ فقرٍ مدقعٍ لا تلوحُ في الأفقِ أيةُ بادرةٍ تدلُّ على أنَّ الوضعَ سيتحسّنُ. أنْجبتَ أكثرَ منْ خمسَ عشرَ نفراً من البنينِ والبناتِ وقمتَ بتزويجِ أعدادٍ كبيرةٍ من أنْجالِكَ وهُمْ بدورهِمْ يقومونَ بنفسِ ما كنتَ تقومُ بهِ، صناعةُ قنابلَ سكانيةٍ عنقوديةٍ تُخلُّ بالتوازنِ البيئيِّ والاجتماعيِّ وحتى المنطقيِّ للحياةِ على الأرضِ في تفكيرِ كلِّ ذي حِجْرٍ مهما كانَ حِجْرُهُ صغيراً. وتأتي إليَّ لتقولَ أنّهُ عليَّ أنْ أبادرَكَ بالسَّلامِ!...

أبو جاسر: ها ها ها ها ... ... ها ها ها ها ها ها ... . ها ها ها ها ها.. ..... واللهِ! يعجزُ عن مقارعتِكَ إبليسُ الشيطانُ. ماذا تريدُني أنْ أفعلَ بِهؤلاءِ الأنْجالِ؟. مثلَما يفعلُ بقيةُ الخلقِ أفعلُ ... ها ها ها ها.

حمد: يا والدِيَ ليتَكَ لَمْ تكنْ والدِيَ ولَمْ أكنْ ولدَكَ، لقد أورثتَني هَمّاً وغمّاً لا ينتهي لا بحياتِكَ ولا بموتِكَ. لا أعرفُ ما العملُ في حكمةٍ تدَّعي أنكَ استقيتَها من المُجتمع الذي نعيشُ فيهِ.
أبو جاسر: ها ها ها ..... إلى متى سيستمرُّ الحالُ معكَ هكذا؟!، عسى اللهَ أنْ يُهديَكَ. دائماً أقولُ لأبناءِ جيلِيَ أنّني لَمْ أُنْجِبْ أحسنَ ولا أطرَفَ منكَ. دائماً أولادُ جيلِيَ يسألونَني عنكَ ويقولونَ لِيَ أنْ أحرصَ على "الشيخ" حمد، كما يقولونَ. وإذا ما عرفوا أنّكَ تستهزئُ بِنا وبكياناتِنا الاجتماعيةِ لنْ يكونَ الأمرُ سويّاً بينكَ وبينَهُمْ، ها ها ها ها ...... يا إلهِيَ!.
"فَلْحَة": لقد وصلتْ برقِيَّةٌ من أخِيَ جاسر من نَيْجيريا يقولُ فيها أنّهُ رُزِقَ بطفلٍ جديدٍ ويَحملُ الرقمَ تسعةَ (٩) ولقد قامَ بتسميتِهِ بِ"سَمْسوم"....
أبوالزهو: ألفُ مبروكٍ على أهلِهِ!.
حمد: هلّا تَرى يا والدِيَ العزيزَ كيفَ أنَّ النثرَ من نسلِكَ المتلاهي بالتكاثرِ!، وقنبلتَكَ السكّانيةَ العنقوديةَ، وصلَ مداهُ إلى أطرافٍ بعيدةٍ في القارّةِ الأفريقيةِ. بعدَ انتهاءِ عصرِ البترولِ هناكَ من أينَ لَهُمْ بمصروفاتٍ على البيتِ والأكلِ والسّياراتِ؟!.
أبو جاسر: يا ولدِيَ لا تظلَّ تشغَلُ عقلَكَ في القاصي والداني والماضي والحاضرِ والمستقبلِ. إذا ما بقيتَ على هكذا حالٍ سوفَ تقصّرُ عمرَكَ على شيءٍ فارغٍ ..... ها ها ها .... أعرفُ ماذا ستقولُ ....ها ها ها.
أبوالزهو: ومكافأةً على هذا الخبرِ السّارِّ، عليكَ يا "شيخَ" حمد أنْ تكرمَنا، أنا وأبو جاسر والعائلةَ، بإحدى التحفِ المَوسيقيةِ من جعبتِكَ.
حمد: آه يا أبوالزهو، لا يوجدُ عندِيَ حالياً أحسنَ من تذكّرِ الشيخ "منير بشير" وفرقتهِ. أنا مغرمٌ بالموسيقى والغناءِ لَهمْ .... دن دنِ دن دنَ دج دج دج..... خلقتَني يا ربُّ ماءاً وطين، وصُغتَني ما شئتَ عزاً ونور، فما احتيالي والذي فيما كتبتَهُ يا ربُّ فوقَ الجبين؟!. ......
أبوالزهو والعائلةُ!: أكملْ.
حمد: دنِ دن دنِ دج دج دج..... رأيتُ صفّاً من دنانٍ سرى، ما بينَها هَمْسُ حديثٍ جرى، كأنّها تسألُني: أين الذي؟ قد صاغَنا أو باعَنا أو شرى .... وسَطا (سَطا فعلٌ ماضٍ من يسطو) البلى فاغتالَ! أهلَ القبورِ حتى غدوا فيها رفاتَ النثيرِ؛ أين الطِّلى (الخمرُ) تتركُني غائِباً؟! .... أجهلُ أمرَ العيشِ ... أجهلُ أمرَ العيشِ حتى النشورِ!.
أبو جاسر: اللهُ يرضى عليك يا ابنِيَ، واللهِ! لا يستوي الذين يتعلّمونَ مع الذينَ لا يتعلّمونَ!.
أبوالزهو: وهذه قبلةٌ مني أطبعُها على سحنتِكَ!....

خلالَ فترةِ حمد الدراسيةِ لنيلِ درجةِ البكالوريوس في جامعةِ "البايْروطاطْ" كان قد تعرَّفَ إلى فتاةٍ من كليةِ التمريضِ هناكَ. يسكنُ أهلُ الآنسةِ "نورة" في مدينةٍ في مُحافظةٍ أخرى لا تبعد كثيراً عن مكانِ سكنِ أهلِ حمد في مسقطِ رأسهِ. ما أنْ أنْهى حمد الدراسةَ وبدأ السّعيَ للحصولِ على وظيفةِ معلّم في مدرسةٍ حتى بدأ أهلُهُ يضغطونَ عليهِ لِجهةِ الاستقرارِ العاطفيِّ والاجتماعيِّ والدينيِّ؛ لا حرجَ في ذلكَ فالزواجُ نصفُ الدين. لَمْ يكنْ في قائمةِ اهتماماتِ حمد شيءٌ اسْمُهُ الزواجُ أو الاستقرارُ البيتيُّ، لذلكَ فقد كان يؤثِرُ التأجيلَ على الخوضِ في مسائلَ اجتماعيةٍ هو في غنىً عن الخوضِ فيها، كما كان يعتقدُ. ظلّتْ الوالدةُ أم جاسر تقرعُ طبولَ الزواجِ! على رأسِ حمد صباحاً ومساءاً، في العشيةِ والإبكار. وبسببِ تعاظمِ الضغوطِ الاجتماعيةِ من هنا وهناك قرّرَ حمد اعتبارَ فكرةِ الزواجِ وحاولَ الدخولَ فيها لإخراجِها إلى حيزِ التنفيذِ.

خَطَرَ ببالِ حمدَ أنْ يذهبَ إلى بيتِ أهلِ تلكَ الزميلةِ القديمةِ في الجامعةِ وأنْ يستكشفَ الوضعَ هناكَ. جهَّزَ نفسَهُ وأخاه الذي يكبرُهُ سنّاً "درويش" وأختَهُ "كاملة" وذهبوا جَميعاً إلى بيتِ أهلِ "نورة". جرتْ الأمورُ بغيرِ علمِ الوالدةِ أمِ جاسر وبمعرفةٍ بسيطةٍ من الوالدِ أبو جاسر بالأمرِ في البدايةِ. تَجنَّبَ حمد ومن معَهُ ذكرَ أيِّ شيءٍ بذلكَ الخصوصِ أمامَ أحدٍ لعلمِ حمد بتحفّظِ والدتهِ على الموضوعِ وآثرَ أنْ يُخبرَها في وقتٍ لاحقٍ بعدَ استكشافِ الأجواءِ المُحيطةِ والتأكّدِ ببدءِ "دورانِ عجلةِ مركبةِ الزواج". كانت لدى الوالدةِ أمِ جاسر معرفةٌ بفتاةٍ أخرى "نُوّارة" في قريةٍ مُجاورةٍ تربطُ أهلَها بأم جاسر علاقةُ صداقةٍ قديمةٍ وغيرِ عاديةٍ. وصلتْ مَجموعةُ حمد إلى بيتِ أهلِ زميلتِهِ السّابقةِ ووالدِها الذي يُكنى بـ"أبو لاقِفْ"، وكان الوقتُ مساءً. عرفتْ عائلةُ "أبو لاقِفْ" بأنَّ في نيّةِ عائلةِ حمد التعرّفَ على العروس! "نورة" وأنَّ هنالكَ احتمالٌ بأنْ يتمَّ طلبُ يدِها من والديْها "أبو وأم لاقِفْ" في تلكَ الليلةِ أو بعدَ وقتٍ قصيرٍ من حينهِ.

"كاملة": نَحْنُ في عائلةِ أبو جاسر علمْنا أنكُمْ في عائلةِ "أبو لاقِفْ" أهلُ خيرٍ وبركةٍ واحترامٍ من الخلقِ لكُمْ. كلُّنا فخرٌ واعتزازٌ إذا ما تَمَّ عقدُ مصاهرةٍ بينَنا وبينَكمْ عن طريقِ ابنِنا حمد وبنتِكُمْ "نورة".

"درويش" (أخو حمد): كلُّ ما يُمكنُني قولُهُ هو أنَّ حمد و"نورة" في مستوىً تعليميٍّ متقدّمٍ ويعرفانِ أسلمَ الطرقِ لَهما في الحياةِ؛ نَحْنُ في عائلةِ أبو جاسر نسيرُ من ورائِهِمْ وَنشدُّ على أيديهِمْ. كونوا مطمئنينَ من ناحيةِ أيِّ دعمٍ يُمكنُنا تقديمُهُ لَهما الآنَ وبعدَ حينٍ.

"أبو لاقِفْ": كثيراً ما تذكرُ لنا بنتُنا "نورة" السّيدَ حمد بالخيرِ والنباهةِ وطيبِ الخاطرِ والمثابرةِ والخُلقِ الحسنِ. فوقَ هذا وذاك فإنّهُ الآنَ خريجٌ جامعيٌّ ومُربٍّ للأجيالِ؛ يُدرّسُ في أرقى مدارسِ المُحافظةِ والمنطقةِ. وكما يبدو لِيَ أنكُمْ أهلُ عزٍّ وخيرٍ وكرمٍ. سلّموا لنا على الحاجِّ! أبو جاسر والحاجَّةِ! أم جاسر وعلى السّيدِ! أبوالزَّهو. كثيراً ما كانتْ بنتُنا "نورة" تذكرُ أفعالَ وأقوالَ أبوالزهو وتأثيرَهُ على فكرِ صديقهِ السّيدِ حمد مِمّا ساعدَهُ ذلكَ كثيراً في علمهِ وحياتهِ وعملهِ.

منْ حيثُ المبدأ وافقتْ عائلةُ "أبو لاقِفْ" على مصاهرةِ أهلِ السّيدِ حمد؛ وبقي الأمرُ سِرِّياً حتى السّاعةَ. في اليومِ التالي كان السّيدُ حمد يَجتمعُ مع والدتهِ

وقتَ الظهيرةِ وكما يبدو أنَّها أحسّتْ بأنَّ هنالكَ طبخةً كبيرةً تُطهى على نارِ وضوءِ شَمْعةٍ!.
أم جاسر: يا ولدِيَ حمدا!، لا تعرفُ كَمْ تَعُزُّ عليَّ!؛ أنتَ الأحسنُ بين إخوانِكَ في الطاعةِ والفهمِ والقلبِ الطيّبِ والمفتوحِ وهدوءِ البالِ والخاطرِ والأعصابِ. لا أخفي عليكَ سرّاً إنْ قلتُ لكَ بأنّهُ لو لَمْ أنْجِبْ إلّا أنتَ لكنتُ سعيدةً سعادةً كافيةً. لا يهتمُّ إخوانُكَ الآخرونَ بنا خاصةً بعدَ زواجِ الواحدِ منهُمْ وتركهِ لَنا.
حمد: يا والدتِيَ هذا واجبٌ عليَّ. أنتِ التي تتعبينَ كلَّ يومٍ في سبيلِ جَعْلِ العائلةِ لا تَحتاجُ إلى مساعدةِ أحدٍ. أنتِ التي بعملِكِ الدائمِ الدءوبِ لا تتوقفينَ ولا ترتاحينَ ولو قليلاً. كانَ اللهُ! دائماً في عونِكِ.
أم جاسر: عسى اللهَ يرضى عليكَ يا ولدِيَ حمد أنْ تطيعَني هذه المرّةَ ولا تُخيبَ أملِيَ فيكَ. إنَّها "نُوّارة" بنتُ الحاجِّ "أبو الونّاس"!؛ ما رأيُكَ؟!. إنَّها تُحبُّنا كثيراً، وأشعرُ أنَّها مثلَ بناتِنا في الحبِّ والطاعةِ. لو أطلبُ منها زوجَ عينيْها تُعطيني إيّاهُما وعلى طبقٍ من ذهبٍ. "نُوّارة" بنتُ الحاجِّ "أبو الونّاس" مستعدةٌ أنْ تعيشَ معنا وتتحمّلَ حالتَنا وحالةَ الفقرِ والفاقةِ التي نَحْنُ غارقونَ فيها حتى الآذانِ. لا يوجدُ في البناتِ الأخرياتِ خيرٌ، كلُّهنَّ يُردنَ مصاريفَ وراحةً ونوماً ويردنَ غيرَهُنَّ أنْ يقومَ على خدمتِهنَّ. طاوعْنِ يا ولدِيَ وهذه قبلةٌ منّيَ على وجنتيْكَ. (ملاحظةٌ: ليسَ من طبعِ أم جاسر تقبيلُ أيِّ شيءٍ تقريباً مهما تكنْ الظروفُ!)
ظنّتْ الوالدةُ أم جاسر أنَّ حمد مقتنعٌ بما قالتْهُ لهُ وأنّهُ لن يُخيبَ لَها ظناً أو يرفضَ لَها طلبَها بشأنِ "نُوّارة أبو الونّاس". بعدَ قليلٍ من حينهِ اكتشفتْ الوالدةُ أم جاسر عن طريقِ أناسَ في القريةِ ما قامَ ويقومُ بهِ حمد وأخوه الكبيرُ "درويش" وأختُهُ "كاملة" عندما ذهبوا إلى بيتِ "أبو لاقِفْ" في المدينةِ المُجاورةِ للمحافظةِ قبلَ عدةِ أيامٍ خلتْ. في اليومِ التالي لِمعرفتِها بذلكَ ذهبتْ الوالدةُ أم جاسر إلى بيتِ عائلةِ "أبو لاقِفْ" بسيارةِ أجرةٍ تعملُ بينَ المدنِ؛ بَحثتْ قليلاً عن المكانِ في ضاحيةِ المدينةِ وسألتْ بعضَ الناسِ في المنطقةِ هناكَ وأخيراً عثرتْ على بيتِ "أبو لاقِفْ".
أم جاسر: أنا والدةُ حمد الذي أتى قبلَ بضعةِ أيامٍ مع أخيهِ وأختهِ لطلبِ يدِ ابنتِكُمْ "نورة".
"أبو لاقِفْ": لقد تشرَّفْنا يا حاجّةَ أم جاسر بتلكَ المعرفةِ. إنّهُ لشابٌّ صاحبُ تربيةٍ وتَهذيبٍ عاليَيْنِ بالإضافةِ إلى موهبتهِ وعلمهِ وعملهِ.
أم جاسر: ها... لقد ضحكَ عليكُمْ! يا عائلةَ "أبو لاقِفْ" كما ضحكَ على غيركُمْ من قبلُ. إنّهُ صاحبُ عقلٍ شيطانيٍّ ولا يصلحُ لِمصاهرةِ أناسٍ خاصةً من مستواكُمْ. الأحسنُ لكُمْ أنْ تقولوا لهُ أنْ يبتعدَ عن ابنتِكُمْ!. أعرفُ حمد جيداً لأنني أنا التي أنْجبتُهُ وربيتُهُ على يدِيَ هذه.
"أبو لاقِفْ": إنَّ كلَّ ما تقولينَهُ عن السّيدِ حمد مغايرٌ لِما رأيناهُ فيهِ. إنّهُ لشابٌّ وسيمٌ ومنفتحٌ ويعرفُ متى يتكلّمُ وعن ماذا يتكلّمُ.
أم جاسر: لكنَّ عقلَهُ صغيرٌ وطائشٌ وأحْمقُ ولا يُركنُ إليهِ في شيءٍ عمليٍّ مهما صَغُرَ؛ يا خسارةً على الحليبِ الذي أرضعتُهُ إياهُ من ثديَيَّ. حتى وبعدَ تَخرّجهِ من الجامعةِ هو الذي يصحو في منتصفِ الليلِ، في الصّيفِ وعزِّ بردِ الشتاءِ، ليذهبَ مع صديقِ روحهِ أبوالزهو إلى كرْمِ الأشجارِ. هناكَ يُغنّي ويعزفُ على العودِ حتى ساعةٍ

مبكّرةٍ من الفجرِ واضعاً عمامةً على رأسهِ يعلوها ريشٌ مأخوذٌ من ذيلِ أو جناحِ نسرٍ!. هل يليقُ بابنتِكُمْ الزواجَ من هكذا شخصٍ؟!.
"نورة": وما الغريبُ في الأمر، إنَّ مصاحبتَهُ لصديقِهِ أبوالز هو دليلٌ على ولائهِ للصداقةِ، وإنَّ ذهابَهُ في الليلِ معَهُ إلى كرْمِ الأشجارِ لدليلٌ على تَفَجُّرِ عبقريتهِ التي لا تعرفُ توقيتاً مُعَيَّناً لا في الليلِ ولا في النهارِ!. إنَّ تلكَ الأعمالَ التي يقومُ بها تشبهُ تصرفاتِ "سيلفادور دالي" (رسامٌ "سرياليٌّ" تجريديٌّ عالميٌّ من أصلٍ أسبانيٍّ وصاحبُ إحدى اللوحاتِ الكثيرةِ الشهيرةِ "*السّاعة الذائبة*").
"أبو لاقِفْ": وهل هذا صديقُهُ أبوالزهو متزوّجٌ، أعزبٌ، صغيرٌ في السنِّ أم كبيرٌ؟!. هل لهُ أهلٌ أم هو مقطوعٌ من شجرةٍ!؟. هل هو خريجُ جامعةٍ أم مدرسةٍ أم معهدٍ للمعلمينَ؟!. هل هو فنانٌ تشكيليٌّ أمْ مطربٌ في السّهراتِ؟!.
أم جاسر: ها أنا قلتُ لكُمْ كلَّ شيءٍ عن حياتهِ وأسرارِهِ؛ عليكُمْ تدبُّرُ أمركُمْ بأنفسِكُمْ. كونوا مسئولينَ عن أيَّةِ خطوةٍ تقومونَ بشأنِها معهُ من هذا القبيلِ أو ذاكَ.
"أبو لاقِفْ وأم لاقِفْ": بالدرجةِ الأولى والأخيرةِ يهمُّنا مستقبلُ ابنتِنا. لا يوجدُ عندَ الأستاذِ! حمد بيتٌ ولا حسابٌ في المصرفِ. لا نريدُ أنْ نضعَ مستقبلَ ابنتِنا الوحيدةِ "المدلّلةِ" على كفِّ عِفريتٍ بشريٍّ!. نشكرُكِ جزيلاً يا أختَنا أم جاسر على أنّكِ فتحتِ عيونَنا على خطرٍ! لو حلَّ لاحتاجَ الأمرُ عشراتِ السّنينَ لإصلاحِ مآسيهِ. أخبري الأستاذَ! ومعلّمَ الأجيالِ! حمد أنَّنا لا نطيقُ رؤيتَهُ حتى ماشياً في الشّارعِ في هذهِ المدينةِ؛ عليهِ أخذُ ذلكَ بعينِ الحسبانِ من الآنَ إلى قيامِ السّاعةِ!. بعدَ الذي سَمعناهُ عن الأستاذِ! حمد من والدتهِ نُعلنُ أنّهُ لا توجدُ عندنا بناتٌ للزواجِ من أحدٍ.
في اليومِ التالي ذهبتْ الوالدةُ أم جاسر إلى المدينةِ لتسألَ أحدَ المشعوذينَ، السّيدَ "أبو سلّوم"، هناكَ ليكتبَ لها ورقةَ "سحر" تؤثرُ في عقلِ حمد وطِباعهِ وتَجعلُهُ يصغي لنصائحِها لهُ بشأنِ الزواجِ. كتبَ السّيدُ "أبو سلّوم" ورقةَ فيها "سحرٌ"، وضعَها على شكلِ لُفافةٍ أقلَّ طولاً وسُمْكاً من السّيجارةِ الصّغيرةِ. قالَ لها أنّهُ ما أنْ يَحملَ السّيدُ حمد الورقةَ في إحدى جيوبهِ، ويُفضّلُ أنْ تكونَ جيبَ قميصهِ، حتى يبدأَ مفعولُ ذلكَ "السّحر" عليْهِ. أضافَ أنَّهُ سيطيعُها في كلِّ شيءٍ تَتَلفظُ بهِ حتى لو طلبتْ منه أنْ يَمشيَ على يديهِ ورأسهِ في شارعٍ مزدحمٍ بالمارةِ. دفعتْ الوالدةُ أم جاسرٍ لهُ عشرةَ جنيهاتٍ أجرةَ تأليفِ وكتابةِ ذلكَ "السّحر".
جاءتْ الوالدةُ أم جاسر وطلبتْ من ابنِها حمد أنْ يَحملَ ذلكَ "الحِرْزَ"، كما دعتْهُ في حينهِ، لأنَّهُ سوف يَحميهِ من نظراتِ أهلِ الشرِّ والعيونِ الفارغةِ وأصحابِ النزعاتِ الشريرةِ، من مثلِ "أبو لاقِفْ"، ربَّما!. تأمّلَ حمد الرسالةَ الملفوفةَ على شكلِ سيجارةٍ صغيرةٍ؛ وضعَها في جيبهِ أمامَ والدتهِ أم جاسر. انتهزَ فرصةَ ذهابِ والدتهِ لتحضيرِ بعضِ الشاي في المطبخِ؛ وبصعوبةٍ ودقةٍ غيرِ عاديتيْنِ تمكّنَ من فتحِ طياتِ الرسالةِ "الحِرْزَ". فيها وجدَ كتابةً باللونينِ الأحْمرِ والأزرقِ. هنالكَ حوالَيْ عشرونَ اسْماً من أسْماءِ اللهِ الحسنى تلتْها عشراتٌ من الحروفِ الأبْجديةِ المبعثرةِ وفي النهايةِ كتبَ السّيدُ "أبو سلّوم" في أسفلِ الورقةِ عبارةَ "من نورة أبو لاقِفْ إلى نوّارة أبو الونّاس"!. عادت الوالدةُ أم جاسر تحملُ كأساً من الشاي السّاخنِ لتقدّمَهُ لابنِها الأستاذِ حمد. أخبرَها حمد بأنّهُ سوفَ يبقي الرسالةَ "الحرْزَ" في جيبِه لفترةٍ طويلةٍ. شربَ حمد كأسَ الشايِ وجلسَ يتحادثُ مع والدتهِ أم جاسر.

حمد: يا والدتِيَ العزيزةَ!، أكرهُ "أبو لاقِفْ" و"أم لاقِفْ" و"نورة أبو لاقِفْ" وأكرهُ كلَّ من هو على علاقةٍ بأيِّ شيءٍ اسْمُهُ "لاقِفْ". لن أتزوّجَ من "نورة أبو لاقِفْ" مهما ستكونُ الظروفُ. أريدُ أنْ أسألكِ سؤالاً واحداً، لو تكرَّمتِ عليَّ، ألا وهو كمْ من الجنيهاتِ دفعتِها على ذلكَ "الحرْز" العجيبِ لأنَّني بهِ أشعرُ بنشوةِ المنتصرِ على الأقدارِ؟!. الذي يبدو لِيَ أنَّ السّيّدَ "أبو سلّوم" لديه قدرةٌ وعبقريةٌ خياليةٌ فائقةٌ.

أم جاسر: فقطْ! عشرةُ جنيهاتٍ. المهمُّ أنَّ يذهبَ خطرُ "أبو لاقِفْ" وابنتهِ عنكَ وعنّا إلى غيرِ رجعةٍ، إنْ شاءَ اللهُ يا ولدِيَ. يا ولدِيَ ما رأيُكَ الآنَ بِ"نُوّارة"؟!. هذه أحسنُ لَكَ ولنا من "نورة" وعائلةِ "أبو لاقِفْ" كلِّها.

حمد: كذلكَ، لنْ أتزوجَ من "نُوّارة". الحمدُ للهِ أنّكِ أنقذتِني من "نورة أبو لاقِفْ" و"نُوّارة أبو الوتّاس"؛ لقد ضربْنا عصفوريْن كبيريْن بحجرٍ واحدٍ صغيرٍ.

أم جاسر: يا ولدِيَ! في كلِّ خطوةٍ تَخطوها هَلْ من الضروريِّ أنْ أذهبَ إلى السّيّدِ "أبو سلّوم" في المدينةِ ليكتبَ لكَ "حرْزاً أو سحراً" يكلّفنا عشرةَ جنيهاتٍ أو ليصحّحَ لِيَ خطأً ارتكبَهُ في عملِ "سحرٍ" لَمْ يُؤَدِّ المطلوبَ؟!. على هذهِ الطريقِ سوفَ نبيعُ كلَّ مُمتلكاتِنا حتى نُصلحَ أمرَكَ بعضَ الشيءِ.

أبوالزهو و"كاملة": والآنَ وبعدَ أنْ نَجحتْ الوالدةُ أم جاسر في أنْ تُثنيَكَ عنِ الذهابِ بعيداً عنّا إلى إحدى المدنِ النائيةِ ما بالُك بِموّالٍ على ذوقِكَ! يا شيخَ الفنانينَ.

حمد: وهل منْ شيءٍ مُعَيَّنٍ في خاطرك يا رفيقَ الدربِ أبوالزهو.

"كاملة" وأبوالزهو: أقربُ أغنيةٍ على حالتِكَ وشكلِكَ! الآنَ هي أغنيةُ الشيخِ فريد "نورا نورا" .... نورا نورا يا نورا... يا وردة بيضة ومسحورة.. اسمكَ على قسمك لايق يا قمرة يا قمورة ... نورا نورا يا نورا...

حمد: ببالِيَ أغنيةٌ للشيخِ "محمد ازوَيِّد" (مطربٌ خليجيٌّ بَحرانيٌّ) ... أنا وأنتَ، أنا وأنتَ، أنتَ وأنا ... يا حبيبَ الروحِ، والقلب مَجروح، بس أنا مطروح، بجسمي الضنا ..... أنا وأنتَ، أنا وأنتَ، أنتَ وأنا ... ارحمْ الولْهان، غريبَ الأوطان، من طولِ الهجران، قلبُه انسنى .... أنا وأنتَ، أنا وأنتَ، أنتَ وأنا ... جاء لي من طولِ البعاد، يوفي ويشفي الفؤاد، منه ما نلت المراد، طول السّنة... أنا و.. ....

أبوالزهو: أنا وأنتَ أنا وأنتَ أنا وأنتَ .... أنتَ وأنااا!.....

إذا ما أردتَ أن تُخلقَ من جديدٍ عليكَ أنْ تَموتَ أوّلاً

(حكمةٌ من أهلِ الإنْجيلِ المقدّسِ)

عندَ انتهاءِ أيِّ عام دراسيٍّ يسودُ نوعٌ من الاسترخاءِ والاستعدادِ للعطلةِ الصّيفيةِ الطويلةِ، إلا أنَّ الواقعَ عندَ السّيّدِ حمد يَختلفُ عن ذلكَ. الأجواءُ الفكريةُ

وحساباتُ المستقبلِ وما يُمكنُ عملَهُ كانت تأتي دائماً إلى الحسبانِ وتقضُّ المضجعَ. لا توجدُ قناعةٌ لدنْ حمد بأنَّهُ أنْجزَ شيئاً مُهمّاً، مَهما يكنْ صَغيراً، في دراستهِ الطويلةِ يَجعلهُ يَجلسُ مرتاحَ البالِ وهادئَ الطباعِ. إنَّ كلَّ ما يقالُ عن أنَّ ذلكَ المستوى من التعليمِ الجامعيِّ يكفي وأنَّ حمد يَجبُ أنْ يصرفَ جهودَهُ نَحْوَ بناءِ أسرةٍ مستقرةٍ وينعمَ بما يسمى بالزواجِ والتلاهي بتكثيرِ الأولادِ والسّعادةِ، كانَ من قبيلِ عاداتٍ في التكلّمِ لسدِّ أو قتلِ الفراغِ عندَ بعضِ الناسِ. كان عندَ حمد في حالِ أسرةِ والدهِ أبو جاسرَ مثالاً يَجبُ أنْ لا يَتكرّرَ حفاظاً على الحدِّ الأدنى (والمتدنّي في آنٍ واحدٍ!) من الكرامةِ الإنسانيةِ. لا يوجدُ ما يدعو حمد للاستمرارِ في العيشِ هكذا هنَاكَ سوى الطبيعةِ السّاحرةِ بجبالِها ووديانِها وطيورِها وسَمائِها وشَمْسِها وَقمرِها ونُجومِها. بقيةُ الأمورِ لَمْ يتأكدْ من البدءِ حتى بالبتِّ في التعاملِ معَها، نظراً للعَجزِ الكبيرِ في إيجادِ الوسيلةِ الكفيلةِ للتعاملِ معَها بأيِّ قدرٍ من النجاحِ، ربّما.

صحيحٌ ما يكرّرُهُ! أبوالزهو لِحمد من أنَّ ملايينَ السّاعاتِ، ساعاتِ العملِ، يصرفُها البشرُ على التعليمِ لا تذهبُ سدىً فقط بل إنَّ نتائجَها غالباً ما تكونُ في الاتّجاهِ العكسيِّ للحقيقةِ والصّحيحِ. نَحصلُ على شهاداتٍ للتخديرِ الثقافيِّ ولإحداثِ شعورٍ بأنّنا زدنا في وعينا وإدراكِنا عن الحياةِ، إلا أنَّ الحقيقةَ عكسُ ذلكَ تماماً، وفي أغلبِ الأحيانِ. المشكلةُ هي ما العملُ؟. اعتقدَ حمد، خطأً!، بأنَّ الطريقةَ الأكثرَ مثاليةً هي إكمالُ التعليمِ الأكاديميِّ؛ ليست أكثرَ من مضيعةٍ إضافيةٍ للوقتِ في تلكَ المؤسّساتِ!.

سرحان: دائماً تشتكي، بالأمسِ كانتْ عصابةُ الدكاترةِ واليومَ فلولُ المعلّمينَ وبقايا المتحجّراتِ. هل تريدُ أنْ تُغَيِّرَ نظامَ الكونِ؟!، تغيِّرُ مَجرى الحياةِ؟!، هل تريدُ أنْ نَمْنَعَ لكَ التجوالَ في المدينةِ حتى يتسنّى لكَ العيشَ لوحدِكَ في هذا العالَمِ؟!. بالأمسِ عصابةُ الدكاترةِ في الجامعةِ واليومَ "أبو مَراطلَة" و"أبو كَربول" في المدرسةِ؛ غيرُ معقولٍ أنْ تقضيَ حياتَكَ تناطحُ برأسِكَ خيالاتٍ بشريةً مُجَمَّعَةً من مَخارجِ أرحامٍ متواجدةٍ في أماكنَ متفرقةٍ ومَجهولةِ الهويةِ. رتّبْ أمورَكَ وركّزْ على حياتِكَ، العمرُ يَمضي بسرعةٍ وأنتَ لا تزالُ في الفترةِ التي تسبقُ طورَ تكوينِ الجنينِ في الرّحمِ. لا يوجدُ عندَكَ بيتٌ ولا أسرةٌ ولا أولادُ، عليكَ أنْ تشعرَ بنفسِكَ ولَو قليلاً. انظرْ بعينَيْكَ إلى الكثيرِ من أبناءِ جيلِكَ من الذينَ تَمكّنوا من إنْجابِ أعدادٍ من الأنْجالِ مِمّا سَيملأُ الشارعَ والحيَّ والقريةَ والدولةَ والعالَمَ فيما بعدُ، ربّما.

حمد: لا لا لا.... أرجوكَ أخِيَ سرحان، لستُ معقّداً من البشرِ كما أنَّني لستُ فاشلاً في التعاملِ معهُمْ، ربَّما هُمْ فاشلونَ في التعاملِ معِيَ. هنالكَ عددٌ لا بأسَ بهِ من أهلِ الخيرِ والعقلِ السّويِّ والضميرِ؛ رأيتُ معلّماً منهُمْ، الأستاذ "أبو عادي"، وفي المدرسةِ التي تُخرِّجُ "الأمّيينَ" في كلِّ شيءٍ نفسِها. إذا ما خطرَ ببالِيَ خيالُهُ سرعانَ ما أتذكّرُ قولَ الشاعرِ: "كادَ المعلّمُ أنْ يكونَ رسولاً"!؛ لكنَّ هؤلاءِ أقليةٌ في العددِ وإمكانياتُهم متواضعةٌ وَتُستغلُّ في غيرِ مَحلِّها.

أم جاسر: أنت دائماً في حالةِ كآبةٍ وتَحملُ هَمَّ كلِّ شيءٍ وتُشاطُ غضباً من أيِّ شيءٍ. لَمْ تتسلّمْ معاشَكَ الشهريَّ وأجرةَ مراقبتِكَ لامتحانِ الثانويةِ العامةِ. هذا اليأسُ مقدّمةٌ كما يبدو لِما هو أعظمُ. إنَّها أوّلُ مرّةٍ أرى معلّماً لا يذهبُ لاستلامِ راتبهِ الشهريِّ، أعطِنا إياهُ أو وزّعْهُ على فقراءِ القريةِ علّهُ ينالُكَ من ذلكَ بعضُ الثوابِ. لا تُفرِطْ بالقلقِ!، وإذا ما أردتَ أنْ تسافرَ من جديدٍ في طلبِ العلمِ منَ الممكنِ أنْ

نطلبَ من أخيكَ الصّغير، الذي أصبحَ يعملُ في سوقِ الخضارِ الآنَ بعد أنْ اضطرَّ لترْكِ المدرسةِ، لِمساعَدتِنا إذا ما فشلْنا في تأمينِ مصروفِكَ.
حمد: باتت كافَّةُ الأبوابِ في الحياةِ موْصدةً. التعلّمُ في البلدانِ التي يقالُ عنها أنَّها متحضّرةٌ أو متقدّمةٌ مُكلفٌ جداً، ولا يذهبُ لِمواصلةِ التعلّمِ على حسابِهِ هناكَ إلا من كانَ ضالاً أو حلَّ بهِ مسٌّ من الجنِّ. لا يُمكنُ لقرويٍّ يقْتاتُ وعائلتُهُ الكبيرةُ من جهودِ حمارينِ أنْ يرسلَ ابناً لهُ ليساهمَ في عملِ أبْحاثٍ في دولةٍ مهمةٍ في هذا العالَمِ مهما يكنْ مستوى التخلّفِ في الوعي والثقافةِ والانْحطاطِ الحسيِّ والمعنويِّ؛ أين يَحدثُ ذلكَ؟. فقط في أنظمةٍ رأسْماليةٍ "شركاتيةٍ" متعفنةٍ عقلياً وحضارياً وخُلقياً.
أبوالزهو: لكن لا يزالُ هناك بعضٌ من أهلِ الخيرِ والفهمِ والضميرِ والإنسانيةِ!.
حمد: هل تريدُ أنْ تفتّشَ عنهُمْ في المقابرِ أو السّجونِ أو في غياهبِ الفقرِ المدقعِ؟.
"زولالة": سمعتُ أنَّ موسرينَ جداً منَ أمثالِ أولادِ الشيخِ "كرهود" في المدينةِ يساعدونَ الطلابَ في المدارسِ والجامعاتِ، من الممكنِ أنْ يساعدوكَ في دفعِ رسومِ الجامعةِ الدراسيةِ!.
أبو جاسر: وسأذهبُ بنفسِيَ لأراهُمْ وأتحدّثَ معهُمْ في الموضوعِ؛ لا أعتقدُ أنَّهمْ سيردّونَني، أنا الفلاحُ الفقيرُ، خائباً!.
حمد: لو قَدَرَ أحدٌ على مساعدةِ أبو جاسر أو أحدِ أولادهِ لَما تردَّدَ. أبو جاسر وأولادُهُ وكذلكَ أبوالزهو لَهُمْ سُمعةٌ كونيةٌ في عبادةِ الأرضِ وأشتلِ الأشجارِ حتى تبدأَ بالعطاءِ وما بعدَ العطاءِ.
أبوالزهو: لا تقلقْ يا صديقِيَ، كما كنتُ لكَ في الماضي سأكونُ لكَ في المستقبلِ!.
حمد: يا أبوالزهو؛ أنا فخورٌ بأنَّني منكَ كما أنكَ أنت، ولو جزئياً، منّيَ. أنا الذي أنقذْتُكَ من كلِّ أخطارِ الحياةِ وأهوالِ البشرِ في كلِّ مرّةٍ لاحَ في الأفقِ شبحُ كارثةٍ عليكَ.
في تلكَ الأثناءَ وردتْ إلى مسامعِ حمد بعضُ الأخبارِ تفيدُ بأنَّ جامعةً عتيدةً في المنطقةِ، جامعةَ "القونْدورْزْ"، قد افْتتحتْ قسماً للدراساتِ العليا فيها. فوراً بعَثَ بطلبٍ للالتحاقِ ببرنامجِ الدراساتِ العليا هناكَ. صارَ حمد مثلَ حيوانِ الفهدِ الصّحراويِّ الأسودِ الذي فُتِحَ عليهِ بابُ قفصِ سجنِ "حديقةِ الديوان"، يضربُ الخطى يَميناً ويساراً، شرقاً وغرباً... شمالاً وجنوباً. بتعبيرٍ أصحَّ صارَ مثلَ الذي كان في حالةِ موتٍ سريريٍّ طويلٍ وفجأةً تَمكّنَ من اسْتعادةِ وعيهِ وحركتهِ، وبمعجزةٍ من القادرِ خارجةٍ عن المألوفِ الطبيعيِّ. بدأ حمد بتحزيمِ ما لديهِ من بضاعةٍ قليلةٍ وتجميعِ بعضِ النقودِ من هنا وهناك رغماً عن أنفِ كلِّ أفرادِ العائلةِ. يكادُ حمد في سيرهِ لا يلتفتُ إلى ما وراءَهُ.
أبوالزهو وسرحان: هل أنت مَجنونٌ؟!. هل تريدُ أنْ تكرِّرُ مأساةَ التعليمِ العاقرِ من جديدٍ؟. يا لَها من بلاهةٍ مطبقةٍ وغباءٍ مُحكم. هلّا تتغيرُ، ولا تستفيدُ من تَجاربكَ؟.
حمد: هذه المرَّةَ سأستفيدُ من تَجاربكَ في الحياةِ يا أبوالزهو. أنت الذي تنسى وأنت الذي تصفحُ وأنت الذي تعطي دونَ الانتظارِ لنيلِ مقابلٍ لعملٍ تقومُ بهِ!.
أبوالزهو: أنا مضطرٌّ على هذا وذاك، لقد خُلِقْتُ هكذا.
حمد: وأنا كذلكَ وحتى يقضيَ اللهُ في أمرٍ كان مفعولاً. صحيحٌ أنني سأعودُ من جديدٍ إلى مَخالبَ وأنيابِ مشابِهةٍ لِما حدثَ مَعِيَ سابقاً، لكنْ هنالكَ دوراتُ مياهٍ نظيفةً

نوعاً ما، ومطعمٌ مرتَّبٌ بعضَ الشيءِ. هنالكَ مكتبةٌ أتعبّدُ! فيها وأمارسُ الرهبنةَ تَحْتَ قوسِها. ثُمَّ من الممكن أنَّ الوضعَ الجديدَ سيتغيَّرُ عن سابقهِ.
أبوالزهو: عقولُ البشر لا تتغيّر. لقد توقّفَ تطوّرُ الدماغ عندهُمْ بعدَ فترةٍ طويلةٍ من تكوينِ حافرٍ للحمارِ بشكله المثاليِّ الحاليِّ!. يا رجلاً طاوعن وابقَ معنا في الحقولِ والبيتِ وحظيرةِ الحيوانِ والسّهلِ والجبلِ؛ على قمةِ الجبلِ حيثُ أنتَ في كلِّ يومٍ تلمسُ نورَ الشمسِ بعينيكَ من الصّباحِ الباكرِ إلى ساعةِ الغروبِ. لِماذا تذهبُ إلى جحورِ التعسّفِ والتخلّفِ وموتِ الفكرِ والفلسفةِ والضميرِ؟!... الإرادية.
حمد: لا أريدُ شعراً وخيالاً، أريدُ أنْ آكلَ لحماً وأرُزّاً!. أريدُ أنْ أبنيَ بيتاً وأريدُ أنْ أصبحَ ذا كلمةٍ نافذةٍ. لقد بدأتُ مشواراً لا يعلمُ مكنونَهُ ونهايتَهُ إلا اللهُ تعالى ويَجبُ عليَّ إكمالُ الخوضِ فيهِ، إمّا أنْ أنتصرَ أو أهلكَ دونَهُ.
أبوالزهو وسرحان: تقولُ أنّكَ لا تريدُ أشعاراً وخيالاً؛ إنَّ الذي تفكّرُ في القيامِ بهِ لَهُوَ الخيالُ الأرعنُ والمثالياتُ الحمقى والطموحُ الجانحُ نَحْوَ منصبٍ مع قبائلِ المنافقينَ، والشعرُ الهزليُّ المستهترُ بكلِّ ما هو أصيلٌ. ستظلُّ تعيشُ في غابةٍ من الذئابِ البشريةِ الوصوليةِ "الميكافيليةِ" الجائعةِ، اسألن عنهُمْ!. (كلمةُ ميكافيلية نسبةً إلى الفيلسوفِ الإيطاليِّ "نيقولا ميكافيلي" صاحبَ النظريةِ الشائعةِ المثيرةِ للجدلِ في بعضِ المُجتمعاتِ وهي "الغايةُ تبرِّرُ الوسيلةَ" .... حتى لو كانت الغايةُ غيرَ طيبةٍ أو شريفةٍ والوسيلةُ غيرُ مستحبةٍ لدى بعضِ البشر)...
أبوالزهو: لقد وضعتَنا الآنَ في موقفٍ صعبٍ، الأهلُ وأنا الذي انتظرتُ عودتَكَ النهائيةَ إلينا وإلى ربوعِنا وأحضانِنا ومواقعِنا، كما انتظرَ الصّيفَ طائرٌ!.
حمد: أنا الذي في غربتِيَ يا أبوالزهو، انتظرتُكَ طويلاً كما ينتظرُ الصّيفَ طائرٌ وأنامُ نومَ المهاجرينَ، عينٌ تنامُ لتصحوَ العينُ الأخرى!.
أبوالزهو: ما رأيُكَ يا صديقِيَ ويا رفيقَ عمريَ العذبَ الودودَ أنْ تسمعَني ما يُهدّئُ من روعِيَ وما يعيدُ إلى أعصابِيَ الهدوءَ وما يثلجُ صدرِيَ أثناءَ فترةِ الهدوءِ التي تسبقُ العاصفةَ الهوجاءَ.
حمد: وهل يوجدُ أحلى من وقْعِ رنةِ الوترِ على وترِ الأعصابِ في عزِّ الخيالِ الجامحِ وواقعِ "اللا-سيطرةِ" على أمورِ الحياةِ!. لا أجدُ عزاءً أكثرَ من صوتِ حبيبِنا الشيخ ناظمَ بيك ..... الغزالي ومن قبلهِ أبي فراسِ الحمدانيِّ .... دن دن دن دن .... أقولُ وقد ناحتْ بقربيَ حَمامةٌ أيا جارَتا لو تعلمينَ بحالي! ... معاذَ الهوى ما ذُقْتِ طارقةَ النوى ولا خَطَرتْ منكِ الهمومُ ببالي ..... أيضحكُ مأسورٌ وتبكي طليقةٌ ويُسَرُّ مَحرومٌ ويكربُ خالي .... قلْ لي يا حلو منين الله جابك، خزّن جرح قلبي من عذابك.. .... جرح القلب من فرقاك خزّه، ما حد مثلي بمحبوبي محد ..... هَم هذا نصيبي وانجبر بيه! لا آني أتوب ولا الله يهديه .... قل لي يا حلو شجابك علَيَّ؟ كمَّلت الألم والهم أسيّة! .... وآني اللي جرحت إيدي بيدي!، هويتك وأنت معتز بجمالك.
سرحان: هل هذا الكلامُ من أغنيةِ الشيخِ ناظم الغزالي ينسحبُ عليكَ أو على أبوالزهو؟. أظنُّ أنّهُ يسري على حالتيْكُما، أنتما الاثنين في آنٍ واحدٍ!.
حَمَلَ حمد ما استطاعَ من قدراتٍ ماليةٍ من مدخراتِ العائلةِ واقترضَ مالاً من بعضِ الأقاربِ والإخوانِ. كان على حمد اجتيازُ قوانينَ مَحلّيةٍ لتركِ وظيفتهِ وعملِهِ في المدرسةِ وإجراءاتٍ روتينيةٍ وغيرِ روتينيةٍ أمنيةٍ وغير أمنيةٍ ... كثيرةٍ

وصعبةٍ لكلٍّ منها!. حَمَلَ حمد ذلكَ المالَ في حقيبةٍ من الجلدِ متوسّطةِ الحجمِ (كادَ أنْ يفقدَها في طريقِ سفرهِ الجديدِ وفي مركزِ مغادرةِ الحدودِ) واستعدَّ للانطلاقِ من جديدٍ إلى حيثُ المَجهولِ والذي كان بالأمسِ يعدُّ مشئوماً. وصلَ متأخراً بعضَ الشيءِ بعدَ بدْءِ الفصلِ الدراسيِّ الأوّلِ لجامعةِ "القونْدورْزْ" ولَمْ يكنْ قبولُهُ مكتملاً بعدُ هناكَ. ساعدهُ في إكمالِ القبولِ في الجامعةِ أحدُ أعضاءِ هيئةِ التدريسِ، الدكتورُ "قابيلْ".

في بدايةِ المرحلةِ الجامعيةِ الجديدةِ، برنامجِ الدراساتِ العليا، استفادَ حمد من خبرتـهِ السّـابقةِ فـي التعاملِ مـع أمـورِ الغربـةِ عندما كـان تلميـذاً فـي جامعـةِ "البايْروطاطْ" والتي لا تبعدُ كثيراً عن مكانِ الجامعةِ الجديدةِ "القونْدورْزْ". حصلَ حمد على سكنٍ مناسبٍ نسبياً حيثُ المسكنُ قريبٌ من موقعِ الجامعةِ ولا توجدُ هنالكَ حاجةٌ لوسائلِ المواصلاتِ ذاتِ المشاكلِ القديمةِ والحديثةِ والمستجدةِ التي لا تنتهي. المسكنُ كذلكَ بهِ جهازُ تدفئةٍ مركزيةٍ وتقعُ حجرةُ حمد في الطابقِ الثاني من البنايةِ يطلُّ منها على مساحةٍ واسعةٍ من الأرضِ المزروعةِ بالأشجارِ دائمةِ اللونِ الأخضرِ تقريباً. اتصلَ حمد بالهاتفِ مع أهلهِ في اليومِ التالِيَ لعثورهِ على السّكنِ المناسبِ والانتقالِ إليهِ.

أبو جاسرٍ: إنْ شاءَ اللهُ أنَّ الأمورَ مرضيٌّ عنها من جانبِكَ وأنْ تتنبهَ لأمرِكَ ولا تَجعلْ الوقتَ يَمُرُّ عليكَ دونَ استفادةٍ.

حمد: انتهيتُ للتوِّ من التسجيلِ للمساقاتِ ووجدتُ السّكنَ المناسبَ وعنديَ شريكٌ في السّكنِ يبدو عليهِ أنّهُ "ابن حلالٍ" عدا عن كونهِ مدخّناً متملّقاً بما يفعلُهُ.

أم جاسرٍ: المـرَّةَ هـذهِ إيّـاكَ أنْ تعودَ إلينـا دونَ عـروسٍ، عـروسٌ تَقـرُّ بهـا عينـاكَ وأعينُنا.

أبوالزهو: غيرُ معقولٍ أنَّ هذه المشكلةَ البسيطةَ لا تزالُ مستعصيةً عليكَ!...

"زولالة": كلُّ البناتِ وأهلُهُنَّ يتمنونَ التقربَ منكَ!. أنت الآنَ عالِمٌ متمكنٌ من نفسهِ! وعلمهِ! وعقلهِ! ومستقبلهِ! ومالهِ! وحلالهِ! ... ماذا تريدُ البناتُ أكثرَ من ذلكَ؟!.

حمد: يا أمِّيَ ويا أختِيَ ويا أبوالزهو أنتُمْ شديدو الحرصِ على مستقبلِيَ. لكن للأسفِ ليس بِمقدورِيَ أنْ ألبّيَ شيئاً مِمّا تصبونَ إليهِ!.

الدكتورُ "بقّار"

لا يَختلـفُ الوضـعُ الإداريُّ والأكـاديميُّ فـي جامعـةِ "القونْـدورْزْ" الحاليّـةِ بشيءٍ بالخيرِ يذكرُ عنهُ في جامعةِ "البايْروطاطْ" السّابقةِ في حياةِ حمد الدراسيةِ. على العكسِ تزدادُ سطوةُ بعضِ "مراكزِ القوى" و"مَحاورِ التّسلّطِ" حيثُ كان من السّهولةِ أكثرَ بمكانٍ أنْ تدخلَ تَحالفاتٌ جديدةٌ إلى السّاحةِ، كانت تُخِلُّ في معظمِ أعمالِها بقواعدِ السّلوكِ العامِّ المرضيِّ عنهُ علمياً وحسياً ووطنياً وقومياً وذوقيّاً

وإنسانياً. الوصفُ يطولُ لِهذه الحالةِ ولا يُعتقدُ أنَّ أحداً يهتمُّ كثيراً بمثلِ هذهِ القصصِ التي غالباً ما تتكرّرُ في أمكنةٍ أخرى من العالَم بدرجةٍ أقلَّ أو أكثرَ حدَّةً.

المهمُّ في أمر السّيدِ حمد أنّهُ تمَّ إدخالُ عضو هيئةِ تدريسٍ جديدٍ من نتاج بدايةِ "عصرِ الاستئصَالِ" في المنطقةِ لكلِّ ما هو عربيٌّ أو يَمتُّ للعروبةِ بصلةٍ. الدكتور "بقّار" مغرمٌ، غُرمَ الجاهلِ، بأيِّ شيءٍ مكتوبٍ بحروفٍ لاتينيةٍ. حتى أنَّ حروفَ اسْمهِ ويومَ ولادتهِ واسم والدهِ وعائلتهِ حوّلَها بعبقريتهِ إلى حروفٍ لاتينيةٍ؛ لا يهمُّ أحداً ذلك! لقد أُعطيَ مساقاً في الميكانيكا العامّةِ (من مثلِ قوانين "نيوتن" في حركةِ الأجسامِ ولكن بشكلٍ متقدّمٍ) لتدريسهِ لطلابةِ الدراساتِ العليا. ظنَّ مَن أعطاهُ هذا الامتيازَ بأنّهُ أحسنَ اختيارَ عضو هيئةِ التدريسِ للمساق. قد يكونُ ذلكَ أحسنَ الموجودِ ولكنّهُ لَمْ يصلْ أيةَ درجةِ قبولٍ مهما كان شأنُها متدنياً. فقط! مثالٌ بسيطٌ وأساسيٌّ على ذلكَ أنّهُ في دراسةِ هذا الفرع من العلمِ، كثيراً أو عادةً ما يَستعينُ المدرّسُ والدارسُ إلى رسمِ ثلاثةِ إحداثيّاتٍ هندسيةٍ متعامِدةٍ لدراسةِ وتَحليلِ حركةٍ افتراضيّةٍ لِجسمٍ ما في الفراغِ أو الهواءِ؛ مَحاورُ هندسيّةٌ س١، س٢، س٣ (أو س، ص، ع x, y, z). عندما كان يرسمُ الدكتورُ "بقّار" المِحوريْن المتعامدَيْن س١ و س٢ على السّبورةِ، لا ضيراً ولا مشكلةً تقريباً. ولكنْ إذا ما أضافَ الدكتورُ "بقّار" المِحورَ س٣ إلى المِحورينِ السّابقينِ حتى يبدأ الخُفوتُ بالولوجِ إلى صوتهِ وعقلهِ الباطنيِّ والظاهريِّ. حتى إذا ما بدأ النظامُ الهندسيُّ بالدورانِ حولَ مِحورٍ معيّنٍ في الأرضِ أو في الفضاءِ، ليدخلَ عقلُ الدكتورُ "بقّار" الباطنيُّ والظاهريُّ إلى حالةِ شبهِ موتٍ. بقيةُ الشرحِ للمحاضرةِ تأتي من نقلٍ للمعلوماتِ المتوفّرةِ في "دفترِ ملاحظاتٍ" يَحملهُ حرفاً بحرفٍ وكلمةً بكلمةٍ وجُملةً بجملةٍ ورسْماً برسمٍ وخطأً بخطأٍ. لا أحدَ في الصّفِّ يستعملُ عقلَهُ وقتَ الدرسِ، لا المدرِّسُ ولا التلاميذُ؛ وعلى المرءِ في هذه الحالةِ أنْ يُصدِّقَ أو لا يصدِّقَ! دونَ اللجوءِ إلى حلفِ أيْمانٍ.

خلالَ أكثرَ من أربعةِ أشهرٍ من الكرِّ والفرِّ مع ما يَجولُ في عقلٍ ميّتٍ كعَقلِ الدكتورِ "بقّار" لَمْ يستطعْ الأخيرُ شرْحَ ولو تَجربةٍ، حتى ولو كانت "خياليةً ذهنيةً"، واحدةٍ للتلاميذِ الذين يودّونَ الرهبنةَ في مِحرابِ حبِّ التعليم. تأكّدَ للطلابِ أنَّ ذهْنَ الدكتور "بقّار" قد وُلدَ مَخصياً أو تعرَّضَ لِ"الخصي" بعدَ ولادتهِ بقليلٍ. الحديثُ هنا ليسَ عن حيوانٍ بريٍّ أو جَمادٍ صنمٍ صُنِعَ على هيئةِ شخصٍ؛ يَجري الحديثُ عن شخصٍ متخرجٍ من جامعةٍ عريقةٍ وقويةٍ. نتحدّثُ عن سهمٍ راجعٍ من بلادِ الغربةِ إلى صدورِ الأهلِ من أبناءِ الطينةِ والجلدةِ والمبدأِ ومشاركٍ لَهُمْ في لقمةِ العيشِ التي تعتمدُ في معظمِها على الفولِ المدمسِ والحُمُّصِ والفلافلَ والبيضِ المقليِّ أو المسلوقِ أو المخفوقِ بالبَنْدورةِ أو البطاطا.

كان الوضعُ بالنسبة للشّبابِ التلاميذِ، البالغينَ وفوقَ سنِ البلوغِ بكثيرٍ، كمن يقتاتُ من سطوحِ صخرِ الجبلِ العاري بل أكثرَ فداحةً من ذلكَ. لكنَّ الدكتورَ "بقّار" لَمْ يكنْ ليتوقّفَ عندَ هذا الحدِّ من الهشاشةِ في التدريسِ إلا أنّهُ تَميزَ بنبرةٍ "استئصاليةٍ" مقيتةٍ (يُحاولُ أنْ لا ينبسَ بكلمةٍ واحدةٍ باللغةِ العربيةِ لا داخلَ الصّفِّ ولا خارجَهُ ومع كافةِ من حولَهُ). كمثالٍ بسيطٍ على ذلكَ؛ فلقد كانت السّاعةُ تقتربُ من الخامسةِ والربعِ مساءً عندما دخلَ فرّاشُ البنايةِ (والذي كان عندَهُ بعضُ الإعاقةِ في جِسمهِ ولسانهِ) على الدكتور "بقّار" في غرفةِ الدرسِ وتَحدّثَ معهُ باللغةِ العربيةِ، لأنّهُ لا يعرفُ لغةً غيرَها. سألَ الفرّاشُ التلاميذَ والمدرّسَ إنْ كان

لدى المدرِّس أو أحدِ التلاميذِ في الصّفِّ مفتاحاً للبنايةِ لأنهُ، أيْ الفرّاشُ، يريدُ أنْ يذهبَ إلى بيتهِ ويغلقَ بوّابةَ البنايةِ عندَ مغادرتهِ بعدَ انتهاءِ دوامِه. ما كان من الدكتور "بقّار" إلا أنْ أجابهُ بصوتٍ زجْريٍّ وبلغةٍ أجنبيةٍ ركيكةٍ في اللفظِ والقواعدِ وسألهُ عن الذي دفعهُ لمقاطعةِ المُحاضرةِ بذلكَ الشكلِ!. تظاهرَ الدكتورُ "بقّار" أمامَ الفرّاشِ المسكينِ بأنّهُ لا يستطيعُ فهمَهُ لأنهُ يتحدثُ لغةً (العربيةَ) لا يفهمُها الدكتورُ "بقّار". تأكّدَ للسيدِ حمد أنَّ الأمورَ تدخلُ في مرحلةٍ ما يُمكنُ أنْ يطلقَ عليها اسمَ أمِّ المهازلِ والكوارثِ أو النكباتِ.

في ذاتِ يومٍ وكانَ الجوُّ في الخارجِ بارداً وفي الداخلِ ترتفعُ درجةُ الحرارةِ بسببِ التكييفِ والتدفئةِ المركزيّيْنِ في البنايةِ كلِّها جرى نقاشٌ بين السّيدِ حمد والدكتور "بقّار" وفي مكتبِ الأخيرِ. كما يبدو أنّهُ التَهَمَ كميةً لا بأسَ عليها من البيضِ المقليِّ بالزيتِ من المطعمِ المُجاورِ حيثُ كانت لا تزالُ آثارُ الزيتِ على شاربيهِ وأسفلَ ذقنهِ وجوانبِ شفتيهِ!.

السّيدُ حمد: هنالكَ الكثيرُ من الأسئلةِ عن المعلوماتِ المبهمةِ التي تطرحُها أثناءَ وقوفِكَ وجلوسِكَ أو سيرِكَ في المُحاضرةِ، حتى لا يكادُ يصبحُ هنالكَ أيُّ معنىً لِما تتحدثُ عنهُ. مثلاً! المَحاورُ الهندسيةُ (س١، س٢، س٣) التي تدورُ حولَ نفسِها وحولَ غيرِها، هنالكَ عددٌ من التطبيقاتِ عليها ما لا حصرَ لهُ. لَمْ تورِدْ مثلاً واحداً منها في الصّفِّ للتفكيرِ أو للدراسةِ والتّمعّنِ. فقط! تَتَتَبّعُ ما هو مكتوبٌ في "دفترِ ملاحظاتٍ" من عندِكَ اللهُ سبحانهُ وتعالى، وأنتَ ربّما، يعرفُ أصلَ وتفسيرَ تلكَ الملاحظاتِ. هذه المَحاورُ مهمَّةٌ في الفَلَكِ والرياضياتِ والفيزياءِ الذريةِ والنسبيةِ والكيمياءِ وحتى في حقولِ القمحِ والذرةِ والشعيرِ. لِمَ تَمرُّ عنها مرورَ الكرامِ؟. ثُمَّ إنكَ لا تتقيدُ لا بكتابٍ مقرّرٍ ولا بملاحظاتٍ معينةٍ ولا يوجدُ هنالكَ أدنى من منطقٍ في تسلسلِ المعلوماتِ. الجميعُ منا هنا يدفعُ ثمنَ تعليمِهِ مالاً وجهداً وعرقاً ودماً ومستقبلاً وخرابَ بيوتٍ على أهلِها!.

الدكتورُ "بقّار": كلُّ شيءٍ موجودٌ في الكتبِ ولكنَّ مشكلتَكُمْ هي أنكُمْ لا تقرؤونَ وإذا قرأتُمْ لا تفهمونَ أو لا تعرفونَ كيفَ تقرؤونَ، وهذه ليست بمشكلتي!.

السّيدُ حمد: لا تقلْ ذلكَ!. نَحْنُ القارئونَ وبُعِثْنا لنقرأَ وجئنا هنا لنَقرأَ ، ونرحّبُ بمن يقرأُ معنا. في كل مرّةٍ تأتي مَملوءَ البطنِ بالبيضِ المقليِّ والبطاطا والملوخيةِ والدجاجِ ...، كل هذا سيجعلُ نَجاحَ المُحاضرةِ من أوّلِ وآخرِ المستحيلاتِ. ثُمَّ إنَّ لغتَكَ الأجنبيةَ، التي تَرفضُ إلا التحدّثَ بها فقط، ركيكةٌ جداً لفظاً وقواعدَ لغةً وأفكاراً؛ لا توجد أيّةُ أفكارٍ متكاملةٍ طُرِحتْ حتى الآنَ مِن قِبَلِكُمْ. هل التعليمُ والحياةُ فقط باللغةِ الأجنبيةِ؟!. لَقد حضرتُ مُحاضراتٍ كثيرةً لأساتذةٍ مشهودٍ لهُمْ على السّاحةِ الدوليةِ بالعبقريةِ .... وكانوا يعطونَ مُحاضراتِهمْ بلغةٍ غيرِ عالميةٍ. لقد كانت تلكَ المُحاضراتُ مفيدةً بالنسبةِ لِيَ بالرغم من أنّني لا أعرفُ حرفاً واحداً من قاموسِ تلكَ اللغةِ؛ ذلكَ لأنَّ هؤلاءِ المُحاضرينَ يعرفونَ عن ماذا يتحدّثونَ. الأمرُ يَحتاجُ إلى شيءٍ ولو قليلٍ من الفهمِ والوعيِ والذوقِ والخجلِ والحياءِ!.

الدكتورُ "بقّار": لا يوجدُ عندِيَ متّسعٌ من الوقتِ للنقاشِ معكَ أكثرَ في مثلِ هذه الأمورِ، وإذا ما كانَ عندَكَ من سؤالٍ تقدّمْ بهِ في المُحاضرةِ. تعترضُ على التدريسِ باللغةِ الأجنبيةِ!، أيّةَ لغةٍ تريدُنا أنْ ندرِّس بها؟ إنّها اللغةُ العالَميةُ للتعليمِ!.

السّيدُ حمد (يتكلّمُ مع نفسهِ): كيف لِهذا الحالِ أنْ يستمرَّ؟. مدرِّسٌ لا يتقنُ التدريسَ والنطقَ باللغتين لا العربيةَ ولا الأجنبيةَ ويطعنُ بمستوى تلاميذهِ العلميِّ والفكريِّ. نَحْنُ الآنَ في حَالةِ عَوْدٍ على بدءٍ كما كان الوضعُ في جامعةِ "البايْروطاطْ".

وبالنّسبة لبقيةِ المدرِّسينَ لَمْ يكنْ الأمرُ يَختلفُ كثيراً. كانوا مثلَ أصنامٍ تُحاولُ كلَّ جهدِها أنْ تنطقَ فقط باللغةِ الأجنبيةِ ويظنّونَ أنَّهُمْ بذلكَ قد وصلوا إلىَ قمةِ التَّمَيُّزِ في التعليمِ والفخرِ والعبقريةِ وما عليْهِمْ بعدَ ذلكَ إلا النومُ والاسترسالُ في أعمالِ الترفِ والبَذخِ. كانَ ذلكَ يَجري على حسابِ الفهمِ والاستيعابِ الضئيلينِ للمعلوماتِ العلميةِ المعطاةِ والتفنّنِ الممكنِ في تفسيرها وتطبيقِها.

هنالكَ القليلُ من المدرِّسينَ في جامعةِ "القونْدورْزْ" من الذين حاولوا التمرُّدَ على إجراءاتِ مَحوِ اللغةِ العربيةِ من التعليمِ في الجامعةِ. حاولَ هؤلاء التحدّثَ ولو بشكلٍ جانبيٍّ وهامشيٍّ مع التلاميذِ ببَعضِ اللغةِ العربيةِ. الدكتورُ "بسّاج"، وكان جديداً في القسمِ، تَمكّنَ من فكِّ القيودِ عن نفسهِ ذاتَ مرّةٍ حينَ أعلنَ أنّهُ سيأتي يومٌ يعودُ البشرُ فيهِ إلى رشدِهمْ ويبدؤونَ بالتفكيرِ بلغتِهِمْ أولاً، ثُمَّ يستقونَ ما يُمكنُ لَهُمْ أنْ يستفيدوا منهُ من لغاتٍ أخرى إنْ وجدتْ تلكَ الفائدةُ. لكنَّ الدكتورَ "بسّاج" حوصرَ في فكرهِ وقوتهِ وقوتِ أولادهِ واضطُرَّ إلى العودةِ إلى "بيتِ الطاعةِ" العمياءَ للتدريسِ فقط باللغةِ الأجنبيةِ؛ حَصَلَ ذلكَ لهُ على أيدي زملائهِ وأبناءِ جلدتهِ!.

السّيدُ "عبدالسّميع"

حَصَلَ على درجةِ الماجستيرِ في تَخصّصِ لغةٍ أجنبيةٍ. خلال دراستهِ لَها في الجامعةِ طلبَ السّيدُ "عبدالسّميع" دراسةَ بضعِ مساقاتٍ صوتيةٍ نطقيةٍ (فونيتكس) تساعدُهُ على إتقانِ لكنةٍ مَحلّيةٍ في بلدِ منشأ تلكَ اللغةِ. حصلَ على مرادهِ بجهدهِ ودأبهِ وحرصهِ المتفاني وفوقَ كلِّ ذلكَ عشقهِ الغراميِّ التَّعَبُّديِّ لتلكَ اللغةِ وأهلِها الأصليينَ. أمامَ غيرِ الناطقينَ بتلكَ اللغةِ كانت نبرةُ ولكنةُ السّيدِ "عبدالسّميع" تبدو مثلَ صوتِ البلبلِ المغردِ أمامَ مَجموعةٍ من الغِرْبانِ أو مثلَ نقيقِ الضفادعِ أمامَ مَجموعةٍ من الجنادبِ، إنْ وضَحَتْ الصّورةُ لأيٍّ من التعبيريْنِ السّابقَيْنِ.

بسببِ ضعفِ رغبةِ السّيدِ "عبدالسّميع" في الاستمرارِ بمهنةِ التعليمِ الأكاديميِّ في مدارسِ جهازِ تعليمِ الدولةِ، ولا عجبَ في ذلكَ، آثرَ السّيدُ "عبدالسّميع" اللجوءَ إلَى فضاءِ المكتَباتِ وعلومِها. تقدَّمَ بطلبٍ للعملِ في مكتبةِ جامعةِ "القونْدورْزْ"، وبعدَ وساطةٍ من هنا وأخرى من هناكَ حصلَ على موعدٍ لِمقابلةٍ وظيفيةٍ مع رئيسِ المكتبةِ فيها الدكتورِ "م. طوشَنِلّلو". ما أنْ رأى الأخيرُ السّيدَ "عبدالسّميع" ومستواهُ اللغويَّ، خاصةً النطقيَّ منهُ، حتى أوعزَ إلى مسئولي التوظيفِ في الجامعةِ العتيدةِ وأوصى بقبولهِ كموظّفِ مكتبةٍ متفرغٍ لعملهِ. إضافةً إلى ذلكَ أنيطتْ بالسّيدِ "عبدالسّميع" مهمّةُ تدريسِ مساقاتٍ مكتبيةٍ تختصُّ بتصنيفِ

وتوزيـع وترتيـب الكتـبِ والمُجلّـداتِ فـي المكتبـةِ. بتـأثير قـويٍّ مـن الـدكتور "م. طوشَنلّلّو" والسّيدِ "عبدالسّميع" بشكلٍ رئيسيٍّ أصبحتْ كُلُّ مساقاتِ علمِ المكتباتِ هناكَ تُدَرَّسُ باللغةِ الأجنبيةِ فقط ولا غيرَ.

طلابُ السّيدِ "عبدالسّميع" قادمونَ من كلِّ فَجٍّ عميقٍ في المُجتمعِ تقريباً؛ من مضاربِ الباديةِ إلى القرى النائيةِ عن المدنِ إلى المدنِ نفسِها وبما فيها وحولَها من تَجمّعاتٍ سكانيةٍ. من الطلابِ مِن كانَ فقيراً مُعدماً وليسَ لهُ في السّلطةِ لا باعاً ولا ذراعاً أو حتى قيراطاً (القيراطُ هنا هو سُمْكُ إصبعِ اليدِ) ومنهُمْ من كان ذا بأسٍ "لا بأسَ بهِ" في المالِ والسّلطةِ وربَّما التسلّطِ؛ منهُمْ الإناثُ وفيهِمْ بعضُ الرجالِ. كانوا، ولا يزال الحديثُ عن الطلابِ، متعدّدي المآربِ في علمِهِمْ؛ منهُمْ من يريدُ الحصولَ على دبلومٍ في علمِ المكتباتِ ومنهُمْ من يريدُ أنْ يَحصلَ على وظيفةٍ بسيطةٍ مثلَ ترتيبِ الكتبِ وإعَادتِها إلى رفوفِها وجردِ مُحتوياتِ المكتبةِ من حينٍ لآخرَ أو حتى مراقبةِ الخارجينَ من المكتبةِ فيما لو حَملَ أحدُهُمْ معهُ كتباً غيرَ مُعارةٍ بَعْدُ. أما السّاعونَ إلى نيلِ شهاداتٍ أخرى فيتّبعونَ طرقاً أخرى وعليهِمْ أخْذُ مساقاتٍ إضافيةٍ في العلمِ واللغاتِ وغيرِها. وعلى ذكرِ المساقاتِ الأخرى كان هنالكَ قسمٌ منها تابعٌ لكلّيةِ التربيةِ الرياضِيَةِ لِممارسةِ بعضِ التمارينِ للياقةِ الجسديةِ للطلابِ. تساعدُ تلكَ التمارينُ الرياضيةُ في تَخفيفِ الضغطِ عن عقولِ وقلوبِ وصدورِ ولَحمِ ودمِ الموظفينَ أثنـاءَ الجلـوسِ الطويـلِ الممـلِّ، وهُمْ يراقبـونَ القـرّاءَ والـزوّارَ فـي دخولِهِمْ وخروجِهِمْ وجلوسِهِمْ وربَّما نومِ بعضِ القرّاءِ على الطاولاتِ المخصّصةِ للمطالعةِ عليها.

السّيدُ "عبدالسّميع" متملّقٌ بحبِّ اللغةِ الأجنبيةِ تَملُّقَ! العصفورِ بالغديرِ. قطعَ شوطاً كبيراً نسبياً في التقدمِ في ذلكَ حيثُ يُحاولُ، ويَحثُّ من حولَهُ أنْ يَحذَوا حذوَهُ، العملَ والتحدّثَ فقط باللغةِ الأجنبيةِ. احتوتْ مكتبةُ بيتِ السّيدِ "عبدالسّميع" المتواضعةُ على كتبٍ خلتْ وبشكلٍ مطلقٍ تقريباً من الحرفِ العربيِّ. على حدِّ رأي أبوالز هو! لَمْ يعدْ لِحروفِ القافِ والصّادِ والظاءِ والعينِ والغينِ والطاءِ والحاءِ والخاءِ والراءِ! وأخيراً وليسَ آخراً الضادِ مكاناً في بيتِ وكتبِ وعقلِ السّيدِ "عبدالسّميع". بالتوازي مع ذلكَ قامَ السّيدُ "عبدالسّميع" بتهذيبِ شكلهِ وهندامهِ وتَحويرِ فمهِ وضحكتهِ وابتسامتهِ وطريقةِ سيرهِ إلى شكلٍ يناسبُ الذّوقَ والفكرَ والفلسفةَ الأجنبيةَ والتي، أيْ الأخيرةَ، ينهلُ وبشَرَهٍ كبيرٍ من مراجعِها. لا عجبَ في ذلكَ فهو يطبّقُ فحوى المثلِ القائلِ: "قُلْ لِيَ ماذا تقرأُ أقُلْ لكَ ماذا تكونُ أو تريدُ أنْ تكونَ!".

بدأ السّيدُ "عبدالسّميع" يَحضُّ تلاميذَهُ القدامى والجددَ على عدمِ التعاملِ البتةَ بأيَّةِ لغةٍ غيرَ اللغةِ الأجنبيةِ، وعلى وجهِ الخصوصِ أرادَ تَحييدَ اللغةِ العربيةِ وتَجميدَها في مواقعِها. وعلى حدِّ تعبيرهِ لتلامذتهِ وأمامَهُمْ أنَّ تلكَ اللغةَ أصبحتْ من الماضي وأنّهُ من المستحسنِ لَهُمْ تدبُّرَ أمرِهِمْ بالسّرعةِ الممكنةِ حتى يلحقوا بالركبِ الحضاريِّ المُواكبِ للناطقينَ باللغةِ الأجنبيةِ. ذهبَ، في طرحهِ أمثلةً لِمن حولَهُ، إلى القولِ بأنَّ ملاحي الطائراتِ وروادِ الفضاءِ... لَمْ يكنْ بمقدورِهِمْ الطيرانُ والتحليقُ فـي الفضـاءِ فيمـا لـو كانـت العربيـةُ لغـةَ آبـائِهِمْ وأجـدادِهِمْ. كـان تلاميـذُهُ يتقبّلـونَ "فتاواهُ" تلكَ لعدَّةِ أسبابٍ أهَمُّها اقتناعُ الغالبيةِ العظمى من التلاميذِ بأنَّ المدرِّسَ أو المعلّمَ وصلَ إلى مرحلةٍ متقدّمةٍ من الفكرِ والعلمِ جديرةٍ بأنْ تَجعلَهُمْ يَحذونَ حذوَ

معلميهِمْ. لا غرابةَ في ذلِكَ لِأَنَّهُمْ في معظمهم قادمونَ من جهاز تعليمٍ يوصي بتعميمِ قولِ الشّاعرِ: "قفْ للمعلّمِ وفِّهِ التبجيلَ كادَ المعلِّمُ أنْ يكونَ رسولاً" في كلِّ أركانِ المُجتمع. لَمْ يُحدِّدْ بيتُ الشّعْرِ ذاكَ عن أيِّ معلّمٍ يتكلّمُ!. السّببُ الثاني للخضوعِ لفتاوى السّيدِ "عبدالسّميع" والذي لا يقلُّ شأناً عَنِ الأوّلِ إنْ لَمْ يَبزّهُ ألا و هو تَوْقُ الطلبةِ إلى النجاحِ والحصولِ على علاماتٍ ترضيهِمْ. وبما أنَّ السّيّدَ "عبدالسّميع" يُمسكُ بزمامِ الأمورِ في تلكَ الأحوالِ فما على التلاميذِ إلاّ إتباعُ ما يَخرجُ من فمهِ من أقوالٍ.

ظلَّ السّيدُ "عبدالسّميع" مواظباً على تعاليمهِ وتَحْتَ سَمْعِ وبصرِ المشرفينَ على المكتبةِ وزوارِها وقياداتِ المُجتمعِ في المنطقةِ. في البدايةِ بَهَرَ السّيدُ "عبدالسّميع" الجميعَ بلباقتهِ وإحساسهِ العامِّ وذوقهِ المتميّزِ. بدأ يعلنُ أمامَ الناسِ من حولهِ أنَّ أصولَهُ ليستْ عربيةً ولا تَمَتُّ للعروبةِ بصلةٍ. على حدِّ تعبيرهِ فإنَّ جدَّهُ الحادي أو الثاني عشرَ لَمْ تكنْ عندهُ دماءٌ عربيةٌ. وبمزيدٍ من التّمادي قالَ إنَّ ذلكَ الجدَّ دخلَ إلى العربيةِ! لاعتقادهِ أنَّ الطريقَ إلى جنةِ اللهِ الموعودةِ يَمُرُّ من زقاقٍ متواضعِ العرضِ في بلادِ العربِ الصّغيرةِ. يدعمُ تلكَ الأقوالَ رئيسُهُ الدكتورُ "م. طوشَنلّو" بالإصغاءِ تارةً والانتباهِ المُفرطِ تارةً أخرى وثمّةَ بوعودٍ بزيادةِ معاشهِ الشهريِّ وعلاواتهِ السّنويةِ وحتى يصلَ الأمرُ بهِ إلى تَحريضهِ المباشرِ والعلنيِّ. الدكتورُ "م. طوشَنلّو" نفسُهُ أعلنَ ذاتَ مرّةٍ أنَّ أصولَهُ قد تعودُ بهِ إلى بلادِ الطليانِ. ذلكَ لأنَّ لونَ بشرتهِ وشكلَ شاربيْهِ وطولَ قدميْهِ ولونَ عينيْهِ تؤيدُ ما يعتقدُ بهِ ويدّعيهِ. كان يهتَمُّ أكثرَ بشراءِ واقتناءِ أحذيةٍ من السّوقِ تعودُ إلى ماركةِ "باتا" وقبّعاتِ "جيوفانشي" الإيطاليةِ الشهيرةِ لتعزيزِ رؤيتهِ نَحْوَ أصولهِ التاريخيةِ. لَمْ يكنْ الدكتورُ "م. طوشَنلّو" يعلمُ أنَّ تغييرَ أصلهِ إلى بلادِ الطليانِ لنْ يساهمَ كثيراً أو حتى قليلاً في رفعِ شأنهِ؛ بل ربّما سيزيدُ الوضعَ سوءاً لديهِ أمامَ بعضِ الأقوامِ. لَمْ تكنْ هذه وتلكَ ملاحظاتٍ عابرةً بل إنَّ العمليةَ تَحوّلتْ إلى شبهِ ظاهرةٍ لديهما؛ إذْ لا يكادُ الدكتورُ "م. طوشَنلّو" والسّيدُ "عبدالسّميع" يتجالسانِ حتى يتباهى كلٌّ منهما بأصلهِ ودمهِ الجديدينِ لكلٍّ منهُما، على التوالي!.

وفي سجالٍ حَضَرَتْهُ مَجموعةٌ من المدمنينَ! على زيارةِ المكتبةِ والتعبُّدِ في أروقتِها من مثلِ السّيدِ حمد وبعضٍ من أصحابهِ كان هنالكَ، وفي قاعةِ الدورياتِ في الطابقِ تَحْتَ الأرضيِّ، نقاشٌ متواضعٌ. خلالَ النقاشِ كان السّيدُ "عبدالسّميع" يتكلمُ اللغةَ الأجنبيةَ فقط إلا أحياناً قليلةً حينَ يتذكّرُ! ويَذْكُرُ بتثاقلٍ بضعَ كلماتٍ أو جُملٍ بالعربيةِ، ومتظاهراً بصعوبةِ نُطقِها عليهِ.

السّيدُ "عبدالسّميع": لقد اكتشفتُ منذُ سنين خلتْ أنَّ أصولِيَ الحقيقيةَ لا تَمَتُّ للعروبةِ والعربِ بصلةٍ. قمتُ برسمِ شجرةٍ جَميلَةٍ وفريدةٍ من نوعِها للعائلةِ ظَهَرَتْ منها مُحاولةٌ بعضٍ من أجداديَ عندَ الجدِّ الحادي عشرَ الانْحرافَ والتوجُّهَ نَحْوَ الأصلِ العربيِّ. إنَّ في ذلكَ مغايرةً للحقيقةِ وتوجّهاً أرعناً من جانبِ جدِّيَ الحادي عشرَ لتغييرِ أصلهِ وفصلهِ وحَسبهِ ونَسبهِ.

الدكتورُ "م. طوشَنلّو": وأنا كذلكَ! تعودُ أصولِيَ إلى مدينةٍ بالقربِ من العاصمةِ روما. لقد أتى أجداديَ إلى الديارِ المقدّسةِ في زيارةِ حجٍّ، مثيرةٍ للجدلِ!. قرّروا البقاءَ هنا لاعتقادِهِمْ أنَّ هذا المكانَ هو الأقربُ إلى الجنةِ الموعودةِ. لَمْ يكونوا في

ذلكَ الزمانِ على علمٍ ومعرفةٍ بأنَّ الأرضَ كرويةُ الشكلِ وأنَّ السّماءَ ما هي إلا غلافٌ حولَ الأرضِ ... ها ها ها ها....

حمد: أنا كذلك! أعتقدُ أنَّ عندِيَ دماءً "هنديةً" من جهةِ والدِيَ. إنَّ جدَّةَ والدِيَ منتسبةٌ إلى عائلةِ "الهندي"؛ يعتقدُ أنَّ ذلكَ "الهنديَّ" تعودُ أصولُهُ إلى بلادِ الهندِ. وبما أنَّ الخيالَ والحقيقةَ يتسابقانِ نَحْوَ بؤرةِ الاعتقادِ فإنّني أعتقدُ أنَّ أحدَ الهنودِ قرَّرَ البقاءَ في الديارِ المقدّسةِ هنا بعدَ أنْ وقعَ في حبِّ فتاةٍ عربيةٍ سمراءِ اللونِ هيفاءِ القامةِ ومنْ نوعِ العُرْبِ (جَمعُ كلمةِ عَروب وهي المخلصةُ والمتحببةُ لزوجِها). بسرعةٍ سكنَتْ تلكَ الفتاةُ قلبَهُ ومشتْ على دربِهِ بصفاءٍ وحياءٍ!. فعلتْ ذلكَ بهِ من حيثُ يدري ولا يدري. أعتقد أنّهُ بسببِها هو الآنَ في طريقهِ إلى الجنةِ الموعودةِ إنْ لَمْ يكنْ استقرَّ بهِ الأمرُ هناكَ قبلَ حينٍ!.

"شاهر" (صديق حمد): ها ها ها ها ... يا صديقِيَ حمد! إنَّ لكَ عيونٌ لا توجدُ في شبهِ القارةِ الهنديةِ وجنوبِ شرقِ آسيا من عيونٍ مثلِها، لا أنفَ ولا شعرَ ولا أسنانَ.

حمد: الجسمُ ليس فقط عيونٌ وأنفٌ وشعرٌ وأسنانٌ. هنالكَ الأذنانِ والقلبُ والسّيقانُ والبطنُ والظهرُ والروحُ والدّمُ .... ما يدريكَ؟!.

السّيدُ "عبدالسّميع": وماذا بهِ من عيبٍ لو كانتْ أصولُهُ غيرَ عربيةٍ؟!. إنّهُ لشرفٌ رفيعٌ لهُ ويَجبُ عليهِ أنْ يفخرَ بذلكَ. إنَّ العربَ عنصريّونَ ومتخلّفونَ والتخلّصُ من النسبِ إليهِمْ واجبٌ.

حمد: يا سيدَ "عبدالسّميع"! إنَّ معلوماتِكَ عن العربِ مغلوطةٌ. ليست هنالكَ عنصريةٌ في قلبِ أو فكرِ العربِ. كلُّ من تكلّمَ العربيةَ فهو عربيٌّ. من لَمْ يتكلّمْ العربيةَ يساوي من تكلّمَ العربيةَ وله احترامٌ خاصٌّ يفوقُ المتكلّمينَ بها. لا يوجدُ في عقيدةِ العربِ ما يُجبرُ غيرَ العربِ على تعلُّمِ أو تبنّي تعليم اللغةِ العربيةِ. العربُ أصحابُ رسالةٍ؛ الرسالةُ لَها روحٌ وحيويةٌ روحِها تكمنُ في التسامحِ وتَقبُّلِ الغيرِ على كلِّ الرحبِ والسّعةِ. العنصريةُ لا تليقُ بأيِّ إنسانٍ خاصةً العربيِّ لأنَّها تقتلُ روحَهُ والرسالةَ التي يَحملُها. العربُ أهلُ كرمٍ وشجاعةٍ ونبلٍ وفصاحةٍ وعفةٍ، كلُّها أتتْ بالفطرةِ ومع تكوينِ الخَلقِ. كلُّ من دخلَ بلادَ العربِ ضيفاً عليهِمْ أخذَ مكانَهُمْ في بلادِهِمْ وأصبحوا أنفسُهُمْ ضيوفاً عليهِ فيما بعدُ. غيرُ معقولٍ منكَ يا سيدَ "عبدالسّميع" أنْ تطعنَ بالقيمِ النبيلةِ المباركةِ من الأرضِ والسّماءِ من أجلِ التظاهرِ بأنّكَ تبدو شكلاً مثلَ المفكرِ الأوروبِّيِّ "بيرنارد شو" أو "وليم شكسبير" من قبلَهِ. الأمرُ يَحتاجُ إلى قليلٍ من الذّوقِ.

الدكتورُ "م. طوشَنلّلو": يا سيدَا! حمد. لَقد بدأتْ أفكارُ العربِ والعروبةِ تدخلُ إلى دماغِيَ بالشكلِ السّليمِ، الآنَ!. كنتُ أعتقدُ أنَّ العروبةَ تعصّبٌ وعنصريةٌ وعصبيةٌ قبليةٌ هوجاءُ. الآنَ تقَولُ أنَّها انفتاحٌ وحضارةٌ وتَمدّنٌ وإخاءُ. هذا شيءٌ يغايرُ تَماماً ما ترسَّخَ في ذهنِيَ عبرَ قراءاتِيَ المكتبيةِ الواسعةِ ومتعدّدةِ الجوانبِ والمصادرِ والأبعادِ والأعماقِ. أشكرُكَ يا سيدَ! حمد على أنكَ فتحتَ بابَ عقلِيَ الذي كان مقفلاً قبلَ قليلٍ بمكعّباتٍ من الورقِ موضوعةً في جلدٍ منمَّقٍ يَحلو للقارئِ تناولَهُ وتَحميلَ ما يستطيعُ من أفكارهِ إلى عقلهِ. صدَقَ من قالَ أنَّ بعضَ الأمورِ على عظمتِها قد تكونُ مُغَطّاةً بقَشَّةٍ، أنت الذي نزعتَ تلكَ القشّةَ عن بصيرتِيَ. أفتَخرُ بأصلِيَ العربيِّ بالتبني أم بالدّمِ، لا فرقَ. هذه قمّةُ الحضارةِ والتمدّنِ والتعايشِ السّلميِّ الذي تطمَحُ

إليهِ كلُّ نفسٍ بشريةٍ. يهمُّني أنْ أكونَ راضياً عن نفسِيَ في حياتِيَ وعندَ مَماتِيَ، في قبرِيَ ويومَ بَعثِيَ من جديدٍ.
السّيّدُ "عبدالسّميع": لا أَزالُ مُصِرّاً وسوفَ أظلُّ مُصِرّاً على أنَّ عائلتِيَ هِيَ ذاتُ أصولٍ غيرِ عربيةٍ، وما تعلُّمُ اللغةِ العربيةِ والعملُ والتفكيرُ بِها إلا ضريبةٌ كبيرةٌ دفعَها أجدادِيَ لاعتناقِ الدينِ الإسلاميِّ.
حمد: إنَّ اللهَ تعالى يعرفُ ألسنةَ البشرِ دونَ الحاجةِ إلى النظرِ إلى لغاتِهِمْ. يقولُ اللهُ تعالى أنّهُ "أقربُ إليهِ من حبلِ الوريدِ"؛ يعرفُ النوايا والخفايا قبلَ النوايا والخفايا. لكيْ تدخلَ الجنّةَ لن يكونَ للسانِكَ لا الأثرَ الأكبرَ أو حتى الأصغرَ. إنَّ مصيرَكَ مُحدّدٌ قبلَ وجودِكَ. ليس للّغةِ أيُّ أثرٍ فيمن يدخلُ الجنّةَ أو الجحيمَ. كثيرٌ من الناطقينَ بالعربيةِ سوفَ يذهبونَ إلى الجحيمِ وقليلٌ إلى الجنةِ، ربّما. يومَها لن يكونَ هنالكَ مبارزاتٌ شعريةٌ أو مسابقةٌ في كتابةِ مقالاتٍ في أيَّةِ لغاتٍ. اللغةُ العربيةُ بالذاتِ ترعرعتْ بينَ أمْجادٍ وتَمَّ النطقُ بها من أعلى سلْطةٍ في الكونِ. من العيبِ واللا-منطقِ واللا-معقولِ أنْ ترسلَها، حضرتُك، إلى زاويةٍ متواضعةٍ في متحفِ "اللوفر" الباريسي أو متحفِ برلين أو أيِّ متحفٍ آخرَ. السّببُ ببساطةٍ أنّهُ لا وجودَ لِمتحفٍ قادرٍ على احتواءِ ولو جزءٍ بسيطٍ منها؛ إنَّ مِدادَ (حِبْرَ) حروفِها وكلماتِها يستنفِدُ مياهَ الكونِ، كلِّ الكونِ.
السّيّدُ "عبَدالسّميع": إذن يا سيدَا! حمد ما العملُ؟! إنَّ المكتبةَ التي أعملُ فيها تَحتوي مئاتِ الأطنانِ من الكتبِ والورقِ، جلُّها مكتوبةٌ باللغةِ الأجنبيةِ. المكتبةُ هذه فيها مئاتُ الأطنانِ من الكتبِ الأجنبيةِ مقابلَ بضعِ أطنانٍ مِمّا هو مكتوبٌ باللغةِ العربيةِ. هل تريدُ منا أنْ نَحرقَها، ندمّرَها، نلقيَ بِها في أحدِ الأنْهارِ كما فعلَ بعضُهُمْ، نَهجرَها، نتخطاها بالنّسيانِ، لا نقتنيَها، لا نُعيرَها اهتماماً؟!.... أجبْ ... أجبْ ... أجبْ ... لا تُدِرْ وجهَكَ ولا تَهربْ!.
حمد: لا لكلِّ ما ذكرِ أعلاهُ وأكثرَ من ذلكَ. كما ترى لقد زاغَ بكَ البصرُ كثيراً في حكمِكَ كما زاغَ في أحكامٍ كثيرةٍ سابقةٍ. العربُ ليسوا ضدَّ الثقافاتِ واللغاتِ الأخرى على الإطلاقِ. الرسولُ الكريمُ (صلعم) يقولُ: "اطلبوا العلمَ ولو في الصّينِ". طلبُ العلمِ في الصّينِ يتطلّبُ معرفةً للغةِ الصّينيةِ وبمستوىً متقدمٍ من المعرفةِ بِها. هذه الأيامُ من الممكنِ للدارسِ أنْ يقولَ اطلبوا العلمَ ولو في اليابانِ وحتى بعدَ قليلٍ في المريخِ، ربَّما!. مَن الواجبِ تعلُّمُ لُغتَيْ أهْلَيْ اليابانِ والمريخِ في حالِ قرَّرَ أحدُهُمْ نَهْلَ علمٍ من اليابانِ أو من المريخِ، على التوالي. لا توجدُ أيَّةُ مشكلةٍ ولا أيُّ ضيرٍ أو خطرٍ أو خطأٍ في ذلكَ. ليستْ المشكلةُ بِما تقرَؤُهُ بل ماذا تفعلُ بِما تقرَؤُهُ!؟. هلْ تقومُ بعَملِ "مُخَلّلاتٍ" معلوماتٍ في رأسِكَ لتستعملَها في الوقتِ والمكانِ المناسبيْنِ في أغراضٍ وأهدافٍ أقربَ إلى الجدلِ منها إلى أيِّ تطبيقٍ!. ما تقومُ بِهِ أنتَ وأمثالُكَ يا سيدَ "عبدالسّميع" هو أكثرُ أنواعِ الأخطاءِ فداحةً، للنفْسِ البشريةِ والذّوقِ العامِّ والثقافةِ الوطنيةِ والقوميةِ. أنت الذي في ذهابِكَ ومَجيئِكَ وتَخاطبِكَ مع الموظفينَ والموظفاتِ من مُحتشمينَ ومُحتشماتٍ ومن الذين لوجوهِهِمْ ورؤوسِهِمْ كاشفينَ وكاشفاتٍ، وعلى حدٍّ سواءَ، تقومُ بالمرورِ عليهِمْ مرورَ بعضِ الدِّيَكَةِ على كلِّ الدجاجاتِ. خلالَ ذلكَ تقومُ بالطعنِ بكلِّ ما يتصلُ بلغةِ الضّادِ من كلامٍ حديثٍ وكتبٍ ومقالاتٍ. لقد وُلدْتَ ورَبيتَ وعشْتَ وترعرعتَ في بلدٍ عريقٍ بلغةِ الضّادِ؛ لِماذا تعملُ جاهداً لِمنعِ البشرِ فيهِ من التفكيرِ والتقدّمِ والتطوّرِ والاستمتاعِ بنعمةِ هذهِ

اللغةِ المباركةِ من بينِ كلِّ اللغاتِ. يا سيدَ "عبدالسّميع" أنتَ مُجرمُ حربِ "ثقافةٍ" ضدَّ لغتِكَ وثقافتِكَ؛ هذه الجريمةُ لا تقلُّ خطورةً وبؤساً وجُرماً ورعونةً عن جريمةِ حربِ إبادةٍ أو قتلِ نفسٍ بدمٍ باردٍ إنْ لَمْ تتفوّقْ عليها في شدةِ البؤسِ وعمقِ الرذيلةِ ... أنتَ مُجرمُ "ثقافةٍ" أرعَنٌ.

السّيدُ "عبدالسّميع": ها قد حكمتَ عليَّ بأنَّني مُجرمُ حربِ "ثقافةٍ"!. ها أنت قد أثبتَّ أنَّكَ عنصريٌّ ودمويٌّ وصاحبُ فتاوى وتتبجّحُ بمنطقِ القوّةِ. لن أتراجعَ عن تَمسُّكِيَ بعودتِيَ إلى أصولِيَ الحقيقيةِ غيرِ العربيةِ!.

حمد: لا تؤاخذْنِ يا سيدَ "عبدالسّميع" إنْ كنتُ قد أسأتُ فهمَكَ. أنا قادمٌ من بيئةٍ ليس عندَها القدرةُ على الانفتاحِ الكافي على مثلِ أفكارِكَ. شخصياً! نشأتُ في كنفِ من أعتبرُهُ فيلسوفَ العصرِ في التعاملِ مع كلِّ أمورِ الحياةِ صغيرِها وكبيرِها، أبوالزهو. تعلّمتُ منهُ الكثيرَ وما حالةٌ معكَ إلا شيءٌ بسيطٌ جداً لِما يُمكنُ أنْ يَحلَّهُ أبوالزهو بحنكتِهِ عندَ التعاملِ معها. على كلِّ حالٍ لا تظنَنَّ نفسَكَ وحيداً في السّاحةِ، لقد طغت نظرياتُ أمثالِكَ وأقوالُهمْ وتصرفاتُهُمْ على عقولِ وفكرِ وقلوبِ غالبيةِ الرعاعِ والدهماءِ والرويبضاءِ (الرويبضاءُ هُمْ تافهو القومِ) من هنا ومن هناكَ.

السّيدُ "عبدالسّميع" (بلغةٍ أجنبيةٍ وصوتٍ عالٍ): لا أفهَمُ عليكَ ما تقولُهُ!. ولو فهمتُ أقوالَكَ لرددتُ عليكَ بالطريقةِ المناسبةِ.

"شاهر": يا صديقِيَ حمدا! أقترحُ عليكَ أنْ تطلبَ من أبوالزهو أنْ يأتِيَ إلى هنا ويتدبرَ الأمرَ مع هؤلاءِ بدلاً من أنْ توجعَ رأسَكَ بالحديثِ معهُمْ. إذا ما كانَ لديهِ من وقتٍ، سنقومُ بالتنسيقِ مع إدارةِ جامعةِ "القونْدورْزْ" لكيْ يقومَ بإعطاءِ مُحاضرةٍ أو "ندوةٍ" عامّةٍ على مَدْرَجِ المكتبةِ الكبيرِ ندعو فيها الطلابَ والمدرِّسينَ في الجامعةِ والجامعاتِ الأخرى في الدولةِ، ولنجعلْ الدعوةَ عامةً في نهايةِ الأمرِ. من الممكنِ أنْ نتدبَّرَ أمرَ تكاليفِ السّفرِ لهُ والإقامةِ وإعطاءِ المُحاضرةِ من تبرعاتِ الطلبةِ ورسومٍ بسيطةٍ على حضورِ تلكَ المُحاضرةِ أو "الندوةِ"، مثلاً عشرةَ قروشٍ من جيبِ كلِّ من يَحضرُ "الندوَةَ" لكيْ لا يَخيبَ أملُ أبوالزهو في الحضورِ. وإذا ما ضاقَ المكانُ عندَكَ في البيتِ بهِ فإنّني أعرفُ صديقاً لِيَ حيثُ توجدُ عندَهُ في بيتِ أهلِهِ، كبيرِ الحجمِ، قاعةٌ كبيرةٌ خُصِّصَتْ في تصميمِها وتأثيثِها لاستقبالِ وإقامةِ الضيوفِ ذَوِي المقاماتِ الرفيعةِ. أتوقَّعُ أنْ يكونَ مستوى أبوالزهو أرفعَ شأناً من كلِّ ما رأيتُهُ في حياتِيَ بناءً على ما سَمعتُهُ منكَ. يبدو لِيَ أنَّ لهُ باعٌ طويلٌ في التعاملِ مع القضايا المتعلقةِ بالثقافةِ واللغةِ والغزوِ الثقافيِّ. في النهايةِ عسى أنْ تنامَ ولو قليلاً في ليلِكَ! يا ولداً!.

خَبَرٌ غيْرُ سارٍّ (قرارُ فصلِ حمد من الجامعةِ)

يعيشُ السّيدُ حمد في "بيئةٍ" أكاديميةٍ بشريةٍ في جامعةِ "القونْدورْزْ" تكادُ تنعدمُ فيها الأخبارُ السّارةُ. حتى أنّهُ من الندرةِ بمكانٍ أنْ يُرى إنسانٌ مفكّرٌ!، خاصةً إذا ما يَحملُ في ذهنهِ شهادةَ دكتوراه!، يبتسمُ لآخَرَ ابتسامةً حقيقيةً سواءً أكانَ يعرفُهُ أو لا يعرفُهُ، أكانَ عدوّاً لهُ أو صديقاً. الفرقُ بين العدوِّ والصّديقِ في تلكَ

البيئةِ مثلَ الفرقِ بين العدوِّ والعدوِّ في أحسنِ الأحوالِ؛ وفي معظمِ الأحوالِ تأتي الأضرارُ أضعافاً مضاعفةً من الصّديقِ. وكلّما ازدادَ الصّديقُ قُرباً كلَّما ازدادت احتماليةُ وفداحةُ الأضرارِ الناجمةِ عن تلكَ الصّداقةِ!. كانَ حمد يعجبُ لمدرّسٍ أو رئيسِ قسمٍ أكاديميٍّ أو رئيسٍ للمكتبةِ أو رئيسٍ ما يسمّى عمادةُ شئونِ الطلبةِ أو سكرتيرٍ أوَ سكرتيرةٍ أيٍّ منهم ...، ينعدمُ أيُّ نوعٍ من أنواعِ الابتسامةِ عن محيّى أيٍّ منهم. لكنْ وبعدَ قليلٍ من التفكيرِ وجدَ السّيدُ حمدٌ أنَّ القاسمَ المشتركَ الأعظمَ، وربّما الأفدحَ!، هو شهادةُ الدكتوراه المعلّقةُ في مكانٍ ما في البيتِ أو صدرِ المكتبِ الذي يَحوي ذلكَ العضوَ وعلى لوحِ ذاكرةِ ومُخيّلةِ ذلكَ العضوِ؛ معَ استثناءِ السكرتيرينَ والسكرتيراتِ الذينَ يحملونَ شهاداتٍ أخرى قد تفوقُ! عظمةً أو فداحةً، أو لأنّهم يعملونَ في ظلالِ وربّما كنفِ من يَحملونَ شهاداتِ دكتوراه.

ذاتَ يومٍ وبينما كان السّيدُ حمد يُحاولُ أنْ يَجدَ بدايةً لأيِّ نوعٍ من النشاطِ داخلَ أركانِ قسمٍ شبهِ مشلولٍ وفي طريقهِ إلى الاندثارِ الأكاديميِّ بسببِ ضحالةِ طرقِ وأفكارِ أعضاءِ هيئةِ التدريسِ فيهِ، جاءَهُ رئيسُ القسمِ الدكتورُ "عزُّ العرب" وكانَ لتوِّهِ تاركاً سيارتَهُ الخصوصيةَ مصطفّةً في مصفِّ سياراتِ القسمِ. بالرغمِ من برودةِ الجوِّ إلا أنَّ طلوعَ الدرجِ إلى الطابقِ الثالثِ من المبنى كان كافياً لإحداثِ لَهَثٍ وبروزِ عرقٍ على وجهِ وتَحْتَ إبطَيْ الدكتورِ "عزُّ العرب" بشكلٍ ملحوظٍ ومن على بُعْدٍ. أشارَ الدكتورُ "عزُّ العرب" إلى السّيدِ حمد بإصبعهِ السّبابةِ ولمْ يذكرْهُ باسْمهِ قائلاً إنَّ لديهِ خبراً "غيرَ سارٍّ" للسيدِ حمد. كان على السّيدِ حمد الذهابُ إلى مكتبِ رئيسِ القسمِ لمعرفةِ مكنونِ ذلكَ الخبرِ السّيئِ. توجَّهَ السّيدُ حمد إلى مكتبِ رئيسِ القسمِ ليتمَّ إعلامَهُ بأنَّ إدارةَ التسجيلِ في الجامعةِ قد قامتْ بتعليقِ دراستهِ (أيْ إلغاءِ قبولهِ في الجامعةِ) بسببِ خطأٍ فنيٍّ! في القبولِ في برنامجِ الدراساتِ العُليا. كان يَجبُ على رئيسِ القسمِ، الدكتورِ "عزُّ العرب"، والدكتورِ "قابيلْ" من القسمِ أنْ يتحمّلا مسئوليةَ ما قد يُحْسَبُ! أنّهُ خطأٌ ذلكَ لأنّهُما المسئولانِ عن قبولِ السّيدِ حمد في برنامجِ الدراساتِ العليا. يَحتلُّ السّيدُ حمد المرتبةَ الأولى في قسمِ الدراساتِ العليا في القسمِ بالنسبةِ للنشاطِ الأكاديميِّ وعلاماتِ الامتحاناتِ. قالَ حمد في نفسهِ؛ خطأٌ فنّيٌّ في القبولِ!؟، ولماذا يتحملُ السّيدُ حمد وحيداً مسؤوليةَ خطأٍ! قد يكونُ ارتكبَهُ غيرُهُ؟!. مرّةً أخرى، على الضعيفِ أنْ يُضحّيَ بسببِ أخطاءِ من نصَّبوا أنفسَهُمْ كأقوياءَ لا لشيءٍ إلا لكونِهمْ حازوا على أوراقٍ كرتونيةٍ كُتبَ عليها أنّهُمْ حَمَلةُ شهاداتِ دكتوراه.

فشلَتْ كلُّ الجهودِ لإقناعِ من قاموا بذلكَ الإجراءِ من الإداريينَ في جامعةِ "القوندورْزْ" ضدَّ السّيدِ حمد بالتراجعِ عنهُ. وبعدَ بضعةِ أشهرٍ من المُحاولاتِ المضنيةِ في القسمِ ودائرةِ التسجيلِ، منَ هنا وهناك، كانَ على السَّيدِ حمد أنْ يقومَ بجهدٍ غيرِ عاديٍّ، أو نوعيٍّ، بهذا الصّددِ للتراجعِ عن ذلكَ القرارِ فاحشِ الظلمِ. كان مِن ضمنِ تلكَ المُحاولاتِ المرورُ على عمداءِ الكلّياتِ فرداً فرداً في مكاتبِهمْ وإقناعِهمْ بعدالةِ قضيتهِ، عسى أنْ يكسبَ أصواتَهُمْ في جلسةِ مَجلسِ عمداءِ الكلّياتِ المخصَّصةِ في جزءٍ منها لمناقشةِ "قضيةِ" تعليقِ دراستهِ؛ عليهِ أنْ يشرحَ للعُمداءِ أنّهُ أيْ السّيدُ حمد لا يستحقُّ مثلَ هذا الإجراءِ فادحِ الظلمِ.

العميدُ "بوقُطْمَةْ" من كليةِ علومِ الحيوانِ (بصوتٍ عالٍ بعدَ الاستماعِ قليلاً لشرحٍ عن قضيةِ السّيدِ حمد): من سَمَحَ لكَ بالتسجيلِ في برنامجِ الدراساتِ العليا في

الجامعةِ؟! هل هُمْ هؤلاءِ الرعاديدُ!، سوفَ أريهمْ في جلسةِ مَجلسِ عمداءِ كلياتِ الجامعةِ أنّهُ ليس عندهُمْ الحدُّ الأدنى من الرجولةِ والفحولةِ!.
قالَ السّيدُ حمد في نفسهِ: القضيةُ هنا ليست مَن بيضُهُ! أكبرُ من بيضِ الآخرِ أو مَن عضوُهُ التناسليُّ والإخراجيُّ بارزٌ أكثرَ من الآخر. يبدو أنَّ هذا العميدَ الدكتورَ مُتأثرٌ كثيراً بالحيواناتِ التي يتخصّصُ في العلم عنهَا ... إنّها قضيةٌ أكاديميةٌ بَحتةٌ. إنَّ مَجموعَ علاماتِيَ في برنامجِ الدراساتِ العَليا هو في المكانةِ الأولى ودونَ منافسٍ. لا أعرفُ من لهُ قلبٌ وأحشاءٌ لفصلِ أحدِ أولادِ الكادحينَ لكونهِ يعتقدُ أنَّ "عضوَهُ التناسليَّ والإخراجيَّ" أكبرُ من أعضاءِ الآخرينَ!. لسنا هنا في مبارزةِ "أورجي" (أورجي كلمةٌ لاتينيةُ الأصلِ والموردِ تعني حفلاً جنسياً مُختلطاً "يتجامعُ" المتشاركونَ فيهِ مع أيٍّ من حولِهِمْ بعدَ أنْ يشربوا الكثيرَ من المُسْكِراتِ، والعياذُ باللهِ) بينَ الحيواناتِ.
السّيدُ حمد: شكراً جزيلاً أيها العميدُ المُحترمُ .... لقد حصلتُ منكَ على معلوماتٍ، أنا ومن حولِيَ بحاجةٍ ماسّةٍ إليْها قبلَ وأكثرَ من أيِّ شيءٍ آخرَ في الحياةِ.
العميدُ "بوقُطَمَةَ": عليكَ أنْ تُخاطِبَني باللغةِ الأجنبيةِ لأنّكَ تدرسُ العلمَ هنا باللغةِ الأجنبيةِ فقط. هذا دليلٌ على أنّكَ غيرُ متمكّنٍ من اللغةِ بعدُ!.
السّيدُ حمد: لستُ متأكّداً من مستوايَ في اللغةِ الأجنبيةِ لكنّني متأكّدٌ أنّهُ أفضلُ وبكثيرٍ من مستواكَ بها.
رفضَ الدكتورُ "بوقُطْمَةَ" مصافحةَ السّيدِ حمد متعالياً عندَ خروجهِ من مكتبهِ الكبيرِ الحجمِ، ربَّما لأنَّ السّيدَ حمد لَمْ يتقنْ التعاملَ معهُ باللغةِ والطريقةِ اللائقتينِ وأشياءَ أُخرى!؟. توجَّهَ السّيدُ حمد بعدَها بعدةِ ساعاتٍ لِمقابلةِ عميدٍ آخرَ، الدكتورُ "بوزامِرْ".
العميدُ "بوزامِرْ": ما اسْمُكَ ومن أينَ أنت قادمٌ وماذا تريدُ؟.
السّيدُ حمد: اسْمِيَ حمد ووالدِيَ أبو جاسر واسْمُ ولِيِّ أمرِيَ أبوالزهو. أريدُ انتزاعَ حقِّيَ الذي يسلبُ لسببِ نزواتِ أهلِ الجاهليةِ الأولى وأنصارِ حكمِ القويِّ للضعيفِ بناءً على موصفاتٍ خارجيةٍ (شهاداتِ دكتوراه) لا تَمَتُّ لأرضِ الواقعِ بأيَّةِ صلةٍ!. (شَرَحَ السّيدُ حمد للعميدِ "بوزامِرْ" المشكلةَ).
العميدُ "بوزامِرْ": هاه... أفهمُ من اسْمِكَ أنّكَ تَحوشُ المَجدَ من أطرافهِ، ما شاءَ اللهُ عليكَ!. هنا في كليةِ "إدارةِ العُمّالِ والمؤسّساتِ" يَجبُ أنْ يكونَ لدى الشخصِ الذكيِّ من الأساليبِ في الكلامِ والتصرّفِ اللائقِ (الإتيكيت)، شكلاً ولغةً، ما يَجعلُ بقيةَ الرؤساءِ راضينَ عنهُ.
على السّيدِ حمد أنْ يُجرّبَ حظَّهُ مع عددٍ آخرَ من العمداءِ والمسئولينَ. هذه المرّةَ ذهبَ ليرى مستشارَ رئاسةِ الشؤونِ العلميةِ العليا في جامعةِ "القوندورْزْ".
العميدُ "بوطيس" (كانَ قد عرفَ من قبلُ عن قضيةِ السّيدِ حمد وشاركَ في اتخاذِ القرارِ، كما يبدو!): هل تريدُ يا سيدَ حمد أنْ تقولَ لِيَ أنكَ من العباقرةِ؟. بالنسبةِ لقضيَتِكَ في الجامعةِ أخبرُكَ أنَّ عندَنا في القبولِ في الجامعةِ "مسطرةٌ" طولُها ثلاثونَ (٣٠) سنتيمتراً؛ وبما أنَّ مسطرتَكَ أطولُ من ثلاثينَ (٣٠) سنتيمتر، لسببِ عبقريتِكَ المتدفقةِ!، فهي تَختلفُ عن طولِ مسطرتِنا. لِهذا السّببِ أنت مرفوَضٌ من الجامعةِ (خَلَصْ يا أخِيَ؟!). (بتعبيرِ "الخواجاتِ" Overqualified!)
قابلَ السّيدُ حمد عميداً آخرَ وعلى مطلعِ الدرجِ في مدخلِ بنايةِ كلّيتهِ.

العميدُ "بنلوط": سوفَ أرى يا بُنَيَّ إذا ما أقدرُ أنْ أساعدَكَ في جلسةِ مَجلسِ العمداءِ. إنَّ عندكَ قضيةً عادلةً وواضحةً وضوحَ شَمْسِ الصّيفِ في حزيرانَ. لكنْ! ربّما تعرفُ أنَّ مثلِيَ قد نُحِّيَ دورُهُمْ جانباً في الحياةِ لِحسابِ المتعصّبينَ للحرفِ اللاتينيِّ.
السّيدُ حمد: دعاؤُكَ لِيَ أكثرُ أنواعِ الدعمِ المطلوبِ قوّةً وتأثيراً.
كان هنالكَ أيضاً عميدُ كليةٍ في العمرِ كبيرٌ وهو ذا دعمٍ إداريٍّ داخليٍّ وخارجيٍّ من الدولةِ لا يستهانُ بهِ حيثُ أنيطَ بهِ كذلكَ منصبُ أحدِ نوابِ الرئيسِ الأعلى للجامعةِ . اسمٌ كبيرٌ ومنصبٌ مهيبٌ حَمَلَ السّيدَ حمد على الظنِّ أنّهُ قد تكونُ لديهِ قوّةٌ كافيةٌ للتأثيرِ في مَجلسِ العمداءِ للتراجعِ عن ذلكَ القرارِ الجائرِ ولو بنبسِ بنتِ شفةٍ واحدةٍ. رفضَ الدكتورُ "بوصُخْرة" عدةَ مرّاتٍ حتى إعطاءَ خَمسِ دقائقَ من وقتهِ لِمقابلةِ السّيدِ حمد في مكتبهِ أو خارجَهُ. جاء الإيضاحُ من سكرتيرتهِ الغاويةِ أنْ لا داعيَ لقدومِ السّيدِ حمد مرّةً أخرى إلى المكتبِ!.
قرّرَ السّيدُ حمد مقابلةَ عميدِ كليةِ الطبِ العتيدةِ في ذلكَ الوقتِ، الدكتورَ "بوزُهري". كانَ يَجلسُ خلفَ مكتبٍ طويلٍ يعجُّ بالمَجلاتِ والدورياتِ بشكلٍ يوحي بضخامةٍ، وربّما تضخُّمٍ، عقليَّةِ صاحبهِ وبشكلٍ لا لُبسَ فيهِ.
العميدُ "بوزُهري": لا أعرفُ كيفَ تَمَّ قبولُكَ في المقامِ الأوّلِ في الجامعةِ. تتكلمُ معِيَ باللغةِ العربيةِ!؛ نَحْنُ من أوائلِ الكلّياتِ التي تَمَّ التخلّصُ فيها من اللغةِ العربيةِ حتى من سجلاتِ المرضى والمراجعينَ في المستشفى والعياداتِ الخارجيةِ. المريضُ عندَنا يأتيهِ نصفُ شفائهِ إذا ما أيقنَ أنَّ الطبيبَ مُلمٌّ باللغةِ الأجنبيةِ على الأقلَّ ولو بكلمتينِ من هنا أو هناكَ. وتأتي الآنَ لتكلمَني باللغةِ العربيةِ؛ تبدو أمامِيَ مثلَ فأرٍ تائهٍ في صحاري العربِ الواسعةِ أو مثلَ "جربوعٍ"، على أحسنِ الأحوالِ، يبحثُ عن طَعامٍ!.
السّيدُ حمد: تكلّمتَ عن نصفِ شفاءٍ قادمٍ بسببِ معرفةِ بعضِ "أكليشيهاتٍ" (قوالبُ لغويّةٌ) باللغاتِ الأجنبيةِ!. لِماذا أغفلتَ النّصفَ الآخرَ؟ والذي يتمثلُ في أنَّ من دخلَ المستشفى عندَكُمْ ميتٌ ومن خرجَ منهُ ناجٍ، مثلَ الذي نَجا من الطوفانِ أو من وباءٍ أو حتى من مذبَحةٍ. أنا بنفسِيَ لِيَ تَجربةٌ مَريرةٌ في مستشفى كليتِكُمْ أوشكتُ على أن أخسرَ فيها الجزءَ النابضَ بالحياةِ، القلبَ، قبلَ بضعةِ أشهرَ فقط. لا توجدُ لغةٌ واحدةٌ للطبِّ، لكنَّ الطبيبَ الناجحَ ناجحٌ بكلِّ اللغاتِ.
ثُمَّ بعدَ ذلكَ فكّرَ السّيدُ حمد بِمعرفةِ رأيِ عميدِ كليةِ الهندسةِ، العميدِ "طوسان"، في الموضوعِ وعن قربٍ.
العميدُ "طوسان": يبدو عليكَ أنكَ ذكيٌّ ونبيهٌ وابنُ أصلٍ في آنٍ معاً. لكنْ دعني أقولُ لكَ أنْ توسّعَ مداركَكَ قليلاً. أولاً عندما تتحدثُ لأناسٍ مِن مثلِيَ عليكَ أنْ تتحدثَ بلغةٍ راقيةٍ، غيرِ العربيةِ، حتى ولو بكلمةٍ أو جُملةٍ مِن هنا أو من هناكَ. أقولُ لكَ أنَّهُ حتى اللغةُ العبريةُ! لَها شأنٌ أكبرُ مِن العربيةِ هذه الأيامَ؛ لنكنْ واقعيينَ!. ثانياً وهو في الواقعِ أوّلاً، مهما وصلتْ درجةُ الذكاءِ عندَكَ فلنْ تقدرَ على بلوغِ عبقريةِ طلابِنا. عندِيَ طلابٌ عندهُمْ تصميماتٌ لِ"مترو أنفاقِ مدينةِ نيويورك"؛ تصوَّرْ مدينةً لَمْ يروْها في حياتِهم! فكيفَ لو رأوْها عن قربٍ!. طلابٌ آخرونَ وضعوا تصميماتٍ لسككِ حديدِ قطاراتٍ كهربائيةٍ ولأنظمةِ مَجاري في مدنٍ

وقرىً في أمريكا وأوروبا؛ حتى نستطيعَ أنْ نلحقَ بقطارِ الحضارةِ الذي سبقَنا ... "كتير" "كتير" "كتير" (بالفصْحى كثيراً كثيراً كثيرا)!.
"تَمْتَمَ" السّيد حمد قائلاً: آخ... ما نوعُ الأمهاتِ والآباءِ الذينَ ينجبونَ هكذا عيناتٍ!.
العميدُ "طوسان": ماذا تقولُ! (إشّو بتؤول) وبالعربيةِ كذلكَ (كزلك)؟!. تفضّلْ اخرجْ من مكتَبِيَ، لا يوجدُ لك عنديَ كلامٌ أكثرَ من هذا!.
السّيدُ حمد: لو صَرفتَ جزءاً بسيطاً من جهدِ الشبابِ عندَكَ في مصلحةِ الوطنِ، لَحُلَّتْ مشاكلُ أنظمةِ المَجاري في الكثيرِ من مدنِ وقرى الدولةِ. إنَّ هذه القرى والمدنَ لديها مَخزونٌ من القاذوراتِ الذيَ يتحمّلُ شبابهُ الواعي مسئوليةَ تراكمهِ. لِماذا الذهابُ إلى نيويورك و"ساو باولو" وغيرها ومشاكلُنا في الصّرفِ الصّحيِّ هنا تزكِّمُ الأنوفَ!؟. ليُفسحْ المَجالُ لأبناءِ البلدِ الأصيلينَ هنا لِخدمتهِ وبأجورٍ أكثرَ زهداً وتقشفاً وبِـ"كتير كتير كتير" (كثيراً كثيراً كثيراً)، على حدِّ تعبيرِكَ.
وعندما أيقنَ السّيدُ حمد أنَّ القضيةَ قد تكونُ أكبرَ من مَجلسِ العمداءِ، غيرِ المتفهِّمِ أصلاً للقضيةِ، قرَّرَ اللجوءَ أو الذهابَ لِمقابلةِ رئيسِ الجامعةِ. اعتذرَ الدكتورُ "زغلول فرج الله"، رئيسُ الجامعةِ، عن المقابلةِ واكتفى بوعودٍ بالمقابلةِ معهُ أعطيتْ للسيدِ حمد عن طريقِ سكرتيرةِ مكتبهِ، السّيدةِ "خوزكيتا". استمرَّ هذا الوضعُ بينَ أخْذٍ وردٍّ ووعدٍ ونكثِ وعدٍ لبضعةِ أسابيعَ دونَ أيةِ نتيجةٍ وحتى الحصولِ على مقابلةٍ مع رئيسِ الجامعةِ لدقائقَ معدودةٍ.
قرَّرَ السّيدُ حمد الذهابَ لِمقابلةِ عميدِ الكلّيةِ التي ينتمي إليها وهو الأقربُ لصاحبِ الشأنِ، الدكتورُ "جعيران". الأخيرُ مُسِنٌّ ضخمُ الجثةِ ضعيفُ الهمةِ وقلبُهُ في آخرِ دقاتهِ. أخبرَ السّيدُ حمد الدكتورَ "جعيران" حواليْ رُبْعَ القصةِ تقريباً عن مقابلاتهِ معَ العمداءِ الآخرينَ عندما لاحظَ جسماً من خلفِ طاولةِ المكتبِ يندفعُ إلى أعلى وبصوتٍ قويٍّ ووجهٍ مُحمرٍّ ويصرخُ بعصبيةٍ هائجةٍ. صارَ الدكتورُ "جعيران" مثلَ "الوحشِ الكاسرِ" الذي استفزّتْهُ فريستُهُ حتى النهايةِ.
العميدُ "جعيران": اخرجْ من مكتبِيَ، لا أريدُ طلبةً لا كرامةَ لَهمْ ولا عزَّةَ نفسٍ عندَهمْ!.
السّيدُ حمد: كرامةٌ وعزّةُ نفسٍ ... وشرفٌ؟!. وهل عندكمْ الوجوهُ لتتحدّثوا عن هذهِ وتلكَ وتلكَ.
خرجَ السّيدُ حمد من مكتبِ عميدِ كليَّتهِ، الدكتور "جعيران"، حيثُ كانَ اللقاءُ بهِ من أكثرِ أنواعِ اللقاءاتِ تخييباً للآمالِ بالمقارنةِ مع بقيةِ العمداءِ. ذلكَ المخلوقُ يتحدّثُ عن الشّرفِ وهو الذي لا يردُّ سلاماً في مكتبهِ أو في الشارعِ إلا إذا كانَ بغيرِ اللغةِ العربيةِ، يتحدّثُ عن شرفٍ وكرامةٍ وشجاعةٍ!. هو الذي كانَ يُدَرِّسُ مساقاتٍ علميةً كاملةً على مدارِ الفصلِ والسّنةِ يتفادى فيه لفظَ كلمةٍ واحدةٍ باللغةِ العربيةِ المَجيدةِ للحفاظِ على وظيفتهِ. يتحدّثُ الدكتورُ "جعيران" عن الرجولةِ والكرامةِ وهو الذي باعَ ويبيعُ كلَّ ما فيهِ شرفٌ من أجلِ تعلُّمِ طريقةِ حياةٍ تَحملُ في طياتِها أكبرَ قدْرٍ من "الشوائبِ المخلَّةِ" بالبيئةِ والحياةِ والقيمِ الإنسانيةِ الرفيعةِ، وعن سبقِ إصرارٍ!.
بعدَ ذلكَ بأيامٍ اقترحَ رئيسُ القسمِ الدكتورُ "عزُّ العرب" على السّيدِ حمد أنْ يبقى في القسمِ كتلميذٍ للدراسةِ الخاصّةِ وَأنْ يُحاولَ القسمُ إصلاحَ الموقفِ (الدراسةُ الخاصّةُ هنا لا تعني أنَّ الطالبَ مَحسوبٌ فقط على أنّهُ مُسجلٌ في الجامعةِ). من أجلِ

ذلكَ كان على حمد أنْ يدفعَ ثلاثةَ أضعافِ ما يدفعُهُ الطالبُ العاديُّ من رسومٍ، من أجلِ تَحويلهِ إلى دراسةٍ خاصةٍ لا يستطيعُ فيها نيلَ شهادةٍ من الجامعةِ، فقط الدراسةُ مثلَ هوايةٍ للتسليةِ!. لكنْ! من أينَ للسيدِ حمد الرسومُ ومصاريفُ الدراسةِ والحياةِ هناكَ؟. من دم أبوالزهو وأمّهِ "راكلي" وأم جاسر وأبو جاسر!.

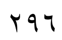
لَمْ يبقَ أمامَ السّيدِ حمد إلا مقابلةُ رئيسِ الحكومةِ، إلا أنَّ الطريقَ إلى هناك بدتْ في نظرِهِ مثلَ فكرةٍ غيرِ مُحبّذةٍ يتمُّ فيها إحراجُ أعلى سلطةٍ في الدولةِ تقريباً!.

مكثَ السّيدُ حمد فصلاً دراسيّاً آخرَ في ظلِّ مصروفاتٍ خياليةٍ لأسرةٍ غارقةٍ في الكدْحِ الخياليِّ المزمنِ. في ذلكَ الوقتِ أشارَ عليهِ أحدُ أصدقائهِ من أعضاءِ هيئةِ التدريسِ، الدكتورُ "بوحَصيرَةَ" وكان جديداً في القسمِ في ذلكَ الوقتِ، أشارَ عليهِ بتقديمِ طَلبِ التحاقٍ إلى جامعةٍ أخرى خارجَ الدولةِ. وفعلاً بدأ بتقديمِ طلباتٍ بالبريدِ إلى جامعةٍ أخرى. بدأ يفكّرُ فعلاً بأنَّ قرارَ فصلهِ من الجامعةِ، على بؤسهِ، قد يكونُ فرصةً أعطيتْ لهُ من الغيبِ للخلاصِ من كابوسِ تَخلّفِ المستوى الفكريِّ والحضاريِّ عندَ مَن يُظَنِ أنّهمْ من روادِ الفكرِ العصريِّ في ذلكَ البلدِ.

أتتْ نهايةُ السّنةِ الأكاديميةِ ولَمْ يتمكّنْ السّيدُ حمد من إقناعِ أحدٍ ذي اعتبارٍ إداريٍّ في الجامعةِ لِمساعدتهِ في البقاءِ في القسمِ وعليهِ أنْ يغادرَ الجامعةَ!. خلالَ نقاشٍ بينَ الدكتور "عِتّاب" والسّيدِ حمد:

الدكتورُ "عِتّاب": ماذا تفكّرُ في العملِ بعد انتهائِكَ من هذا القسمِ؟.

السّيدُ حمد: لا يوجدُ عندِيَ مالٌ يكفي للوصولِ إلى دولةٍ غَربيةٍ. سوف أحاولُ الذهابَ إلى جامعةِ "القَلْيوبيا" (الجامعةُ التاليةُ في حياةِ السّيدِ حمد الأكاديميةِ) وسوفَ أرى ماذا يُمكنُ لِيَ عملَهُ من هناكَ. أنا الآنَ مثلُ النسرِ الجريحِ مالياً ونفسياً ومعنوياً وبحاجةٍ ماسّةٍ إلى إعادةِ تَجميعِ نفسِيَ. لقد أنْهكتْنيَ كوارثُ الدهرِ وكان أخيرُها وأقلُّها إيلاماً الكارثةَ التي تبناها قسمُ التسجيلِ والقبولِ للدراساتِ العليا بفصلِيَ من التعليمِ. لكنْ لَمْ تتمكّنْ منّيَ أنيابُ مصائبِ الدهرِ بعدُ. سنةٌ أخرى من سنينِ العمرِ والشبابِ تضيعُ بفعلِ العابثينَ. أينَ أخبّئُ رأسيَ من رفيقِ دربيَ ومؤنسِيَ أبوالزهو الذي لا ينفكُّ ينصحُني بِهَجْرِ هذا المسارِ الأكاديميِّ العقيمِ وأعودُ إلى رُشدِيَ وأستعملُ عقلِيَ.



في الصّباحِ الباكرِ من أحدِ أيامِ شهرِ آبَ أغسطسَ استقلَّ السّيدُ حمد حافلةَ ركّابٍ كبيرةً تابعةً لإحدى شركاتِ نقلِ الركّابِ الحديثةِ وبرفقةِ زميلٍ لهُ كرفيقِ دربٍ ومؤنسٍ. كانَ السّفرُ مريحاً لولا الوقوفُ على الحدودِ لمدةٍ تزيدُ على الأربعِ ساعاتٍ بسببِ خطأٍ في اسمِ أحدِ الركّابِ لدى إحدى الدوائرِ الأمنيةِ للدولةِ حتى ثبتَ للدائرةِ المعنيةِ غيرُ ذلكَ. الوضعُ عندَ حمد لا يحتملُ عودةً إلى الخلفِ أو تأخيراً ولو لهُنيهةٍ لا من أجلِ صديقٍ أو عدوٍّ؛ الزمنُ والوقتُ والحياةُ أصبحت تجري كلُّها بسرعةٍ كبيرةٍ ويجبُ الإسراعُ في عملِ كلِّ شيءٍ لتعويضِ الوقتِ المهدورِ بسببِ سوءِ إدارةِ المؤسّساتِ الأكاديميةِ ورعونةِ تصرفاتِ أفرادِها!.

وَصَلَ السّيدُ حمد المدينةَ المستقرَّ وكانتْ السّاعةُ الخامسةَ مساءً تقريباً، ليحاولَ البحثَ عن فندقٍ أو منامةٍ مناسبةٍ من حيثِ الأسعارِ وأمانِ المكانِ. نزلَ في فندقٍ متواضعِ الشكلِ والحجمِ ولكنّهُ من الداخلِ نظيفٌ ومرتّبٌ وأسعارُهُ تليقُ جداً بالحالِ؛ على الأقلِّ أحسنَ وبكثيرٍ من المنامةِ التي كان السّيدُ حمد يقيمُ فيها من قبلُ والتي أغدقَ عليها أموالَ العائلةِ، والتي كانت تفتقرُ حتى إلى دورةِ مياهٍ ذاتِ ميّزاتٍ حضاريةٍ كثيرةٍ. الآنَ يقفُ السّيدُ حمد أمامَ حَمّام (دوش) قوّةُ ضخِّ المياهِ فيه عاليةٌ؛ تُدَلِّكُ الظهرَ والصّدرَ والأكتافَ وحتى السّاقينَ والقدمينِ دونَ الحاجةِ إلى إنسانٍ متخصّصٍ يقومُ بذلكَ، وبأجرٍ مناسبٍ.

الموظّفُ في الفندقِ: أهلاً وسهلاً بكَ في الفندقِ، وإذا ما كانت هنالكَ أيَّةُ مشكلةٍ تَحدُثُ معكَ هنا فما عليكَ إلا الاتصالُ بهاتفِ قاعةِ الاستقبالِ. نقدّمُ خدماتِ التنظيفِ وتغييرَ أغطيةِ الأسرّةِ كلَّ يوم، وإذا ما أردتَ "ترويقةً!" في الصّباحِ فنحنُ تَحْتَ أمركَ، ولكلٍّ إكراميتُهُ (بَخشيشٌ بَخشيش)!.

السّيدُ حمد: لا لا أخي!، عنديَ نفسٌ رائقةٌ بطبيعتِها وأرجوكَ أنْ لا تفكّرَ في ذلكَ الشيءِ مطلقاً!. أنا قادمٌ من منطقةٍ عذراءَ في الفكرِ وطريقةِ الحياةِ وحتى طريقةِ التعليم، عقولُنا كلُّها عذراءُ؛ وعنديَ عرضٌ وشرفٌ وكرامةٌ وغيرُ ذلكَ الكثيرُ!.

(ظنَّ السّيدُ حمد أنَّ كلمةَ "ترويقة" قد يعني بِها جلبَ فتاةٍ للترويحِ لهُ عن نفسهِ أو "ترويق" نفسهِ!).

الموظفُ: لا لا لا .... فهمتُ عليكَ.. ولا عليكَ!. "ترويقة" تعني هنا مثلَ فطورِ الصّباحِ مع كوبٍ من الشاي أو القهوةِ. ما كنتَ تفكرُ بهِ شيءٌ آخرُ وهو متوفرٌ لدينا كذلكَ، ولكن بأسعارٍ قد لا تُلائمُكَ. لننسَ الموضوعَ لأنَّكَ تبدو ليَ في شكلِكَ مثلَ الناجينَ من منطقةٍ أصابَها وباءُ الطاعونِ ولفترةٍ طويلةٍ.

السّيدُ حمد: آسفٌ جداً، هو خطأٌ ناتجٌ عن اختلافٍ حادٍّ بينَ ثقافتيْنِ في دولتيْنِ أختيْنِ وجارتيْنِ في آنٍ معاً!.

شعرَ السّيدُ حمد الآنَ أنّهُ أمامَ عهدٍ جديدٍ؛ هو مثلُ طائرٍ يقفُ الآنَ على شبّاكِ سجنِهِ، القفصِ، وأمامَهُ سهولُ الحريةِ. هذا جهازُ الهاتفِ المتوفرُ هنا، في هذا البلدِ الجديدِ، بكلِّ يسرٍ لَمْ يرَ مثلَهُ في السّابقِ إلا عندَ عليةِ القومِ والنظرُ إليهِ كان خلسةً. وهذا الماءُ الذي يتدفّقُ من الجبلِ والسّهلِ والوادي يبعثُ الحياةَ في الجسمِ والروحِ المعنويةِ في آنٍ واحدٍ. وتلكَ أنواعُ الأكلِ المتوفرةُ والمعاملةُ اللطيفةُ

كانت أولَ أمسٍ من قَبِيلِ أحلامِ إبليس في الجنةِ. لَمْ يبقَ عندَ السّيدِ حمد إلا أنْ يشتريَ سجّادةً صغيرةً يَحملُها عَلى كتفَهِ أو في حقيبةِ سفرِهِ، لكي يقيمَ الصّلاةَ للهِ تعالى سرعانَ ما ينادي المؤذّنُ، أيُّ مؤذّنٍ، لَها؛ وذلكَ شكراً للهِ وعرفاناً لهُ بالجميلِ.

في اليومِ التالي ذهبَ السّيدُ حمد في الصّباحِ إلى حرمِ الجامعةِ، وكان موقعُها قريباً من مكانِ إقامتهِ، وقامَ بمقابلةِ الدكتور "ماكروسْمارتَ" رئيسِ القسمِ هناكَ. كان الدكتورُ "ماكروسْمارت" يَتمتّعُ بطولِ قامةٍ ملفتٍ للنظرِ و هدوءِ أعصابٍ ملفتٍ للنظرِ كذلكَ. شعرُهُ أشقرٌ وخفيفٌ إلى درجةٍ تقتربُ قليلاً من الصّلعِ. ارتاحَ السّيدُ حمد كثيراً للقاءِ بهِ وقالَ رئيسُ القسمِ أنّهُ رأى لهُ طلباً للالتحاقِ بالجامعةِ وأن لديهِ قبولاً مشروطاً بتقديمِ امتحانِ "قبولٍ" والذي عادةً ما يعطى لكافةِ المتقدّمينَ للدراساتِ العليا مع بدايةِ كلِّ عامٍ دراسيٍّ. وبما أنَّ ظروفَ السّيدِ حمد الماليةَ لا تُمكّنُهُ من الانتظارِ أو البقاءِ هناكَ حتى بدايةِ السّنةِ الدراسيةِ في شهرِ أيلول سبتمبرِ فلقدْ أوصى رئيسُ القسمِ المسئولةَ عن الامتحانِ بالسّماحِ للسيدِ حمدَ بالتقدّمِ المبكرِ لذلك الامتحانِ. ذهب السّيدُ حمد إلى قسم امتحانِ القَبولِ وتقدَّمَ للامتحانِ. كانَ الامتحانُ عبارةً عن مَجموعةٍ كبيرةٍ من الأسئلةِ العامةِ في اللغةِ والعلومِ والثقافةِ وبعضِ الأسئلةِ التي فيها بعضُ الأحجيةِ، كما يبدو لقياسِ مستوى الذكاءِ وسرعةِ البديهةِ عندَ المتقدمينَ. بعدَ حواليْ نصفِ ساعةٍ من الانتهاءِ من الامتحانِ أخبرتْ المسئولةُ عن الامتحانِ، وكانتْ حاملاً في شهرِها التاسعِ ربَّما، أخبرتْ السّيدَ حمد أنّهُ ناجحٌ في امتحانِ القبولِ. القبولُ في جامعةِ "القليوبيا" اكتملَ وأنّهُ ما على السّيدِ حمد إلاّ الانتظارُ إلى حينِ موعدِ بدءِ الدراسةِ بعدَ حواليْ الشهرِ من حينهِ.

كانت فرحةُ السّيدِ حمدَ باكتمالِ القبولِ كبيرةً جداً فهو، على الأقلِّ، لن يعودَ إلى أيامِ الظلامِ السّابقةِ. وبدون أدنى مبالغةٍ كانت الفرحةُ ربَّما تساوي أو أكثرَ بقليلٍ فرحةَ السّيدِ "كريستوفر كولومبوس" عندَما نزلَ على شواطئِ العالَمِ الجديدِ مكتشفاً. قام السّيدُ حمد بالتجوالِ حولَ مرافقِ الجامعةِ العديدةِ؛ وبالقربِ من أحدِ أسوارِها الحديديةِ ذاتِ الدهانِ الأسودِ أقامَ صلاةً خاصةً بالناجينَ من عهودِ ظلامٍ، أو حياةِ قبورٍ، إلى منابعِ الحياةِ والحريةِ وتنفسِ الهواءِ النقيِّ!. (أكثرُ أنواعِ الصّلاةِ التي يشعرُ فيها الإنسانُ أنّهُ الأكثرُ قرباً من اللهِ جلَّ وعَلا).

التقى السّيدُ حمد بأحدِ الطلبةِ المَحلّيينَ والذي بدأ يشتكي أو يتشاكى من الأوضاعِ العامةِ. زَعَمَ السّيدُ "طافوح" بأنّهُ يُحاولُ الحصولَ على قبولٍ في إحدى الجامعاتِ الغربيةِ حيثُ العلمُ والاستقرارُ واحترامُ حقوقِ الإنسانِ هناكَ.

السّيدُ "طافوح": ما الذي دفع بكَ لطلبِ الالتحاقِ بهذهِ الجامعةِ؟. إنَّها جامعةٌ عريقةٌ وكبيرةٌ ولكنْ!.

السّيدُ حمد: لقد طوَّفتُ خلالَ اليومِ الماضي و هذا الصّباحِ في الجامعةِ ووجدتُها مناسبةً جداً لِيَ. لا أخفي عليكَ يا أخُ "طافوح" بأنَّني في بلَدِيَ، بلدِ المنشأ، شخصٌ منبوذٌ أو كمنْ طَلِيَ بهِ القارُ أجربُ، إنْ صحَّ التعبيرُ. بالدرجةِ الأولى الآنَ أبْحثُ عن ملجأٍ أو مكانٍ آمنٍ، ثُمَّ ملجأٍ علميٍّ أو أكاديميٍّ حيثُ اضطُررتُ لاستبدالِ وطنِيَ الحقيقيِّ بما يُمكنُ تَسميتُهُ "وطنِيَ العلميَّ"!. أينَما حلَّ خيالِيَ فذلكَ موطنِيَ، وحتى يقضيَ اللهُ في أمرٍ كانَ مفعولاً. لا أريدُ أكثرَ من كرسيٍّ في قاعةِ دراسةٍ ومكتبةٍ أستعيرُ منها بعضَ الكتبِ وإذا ما زادَ الأمرُ أو نقصَ قليلاً فإنّني مستعدٌّ للتحمُّلِ. أريدُ

أنْ أسترَ موقفِيَ من عشراتِ الألسنِ والأنيابِ المسمومةِ والتي تنتظرُني على قارعةِ طريقِـيَ إلـى بيتِـيَ المتواضـع، وبفـارغِ الصّـبرِ. لَـمْ آتِ هنـا للاسـتمتاعِ بالفنـادقِ والقصورِ وأماكنِ السّياحةِ واللّهوِ. لا أرضى في الوقتِ الحالي أنْ أكونَ أكثرَ من طالبِ علمٍ.
السّيدُ "طافوح": أنا فخورٌ وسعيدٌ أنني التقيتُ بكَ. آملُ أنْ نلتقيَ في بدايةِ السّنةِ الدراسيةِ الجديدةِ وعندَ عودتِكَ من مسقطِ رأسِكَ. أرجو أنْ تبقى على نفسِ حَماسِكَ واندفاعِكَ!.
وعلى إحدى الأرائكِ الممتدةِ المقابلةِ كانت تَجلسُ فتاةٌ سَمراءُ اللونِ في مقتبلِ العمرِ ومنتصفِ الجمالِ والأنوثةِ التي تبانُ للعيانِ. ذهب السّيدُ حمد إليها وبادرَها بالتّحيةِ والسّلامِ وأخبرَها أنّهُ جديدٌ هناكَ ويُحاولُ إيجادَ موطئ قدمٍ ولو مؤقتاً على برِّ الأمانِ فِي مُحاولةٍ شبهِ يائسةٍ للعبورِ إلى المستقبلِ المنشودِ.
الآنسةُ "روُاينة": أهلاً وسهلاً بك في بلدِكَ الثاني.
السّيدُ حمد: وربَّما سيصبحُ الأوّلَ، إذا ما يصيرُ نصيبٌ. أريدُ أنْ أتزوَّدَ بالعلمِ من هذا البلدِ. لقد أحببتهُ كثيراً لسحرهِ وجَمالهِ وطيبِ خاطرِ أهلهِ. حوَّلتُ كلَّ نقودِيَ التي أحْملُها في جيبِيَ وحقيبتِيَ إلى عِمْلَتهِ، وها سأعودُ إلى بلدِيَ حاملاً عِملةً جديدةً.
الآنسةُ "روانيَةُ": هذا البلدُ يَمتازُ بأنَّ لهُ عملاتٌ كثيرةٌ، "متعدّدُ جنسياتِ العملةِ"، أقلُّها شأناً العملةُ المَحلّيةُ. وكلما كانت العملةُ أصعبَ،كلما زادَ إقبالُ الناسِ عليها. أسكنُ الجبلَ حيثُ الأهلُ والبيتُ والجيرانُ والخلانُ.
السّيدُ حمد: رأسُ الجبلِ مسقطُ رأسِيَ، وقممُ الجبالِ أصبحتْ بعدَ ذلكَ هوايةَ قدمَيَّ. الآنَ أرغبُ بالاستمتاعِ بخيراتِ السّهلِ والوادي والسّاحلِ والبحرِ. أعشقُ الآنَ طائرَ النّوْرسِ الذي التقيتُ بهِ صباحَ اليومِ ولأوّلِ مرّةٍ في حياتِيَ؛ إنَّ لهُ قدرةً على رسمِ لوحةٍ فَنيةٍ رائعةٍ في الخيالِ في كلِّ مَرّةٍ يُحلِّقُ فيها بينَ البحرِ والبرِّ.
الآنسـةُ "روانيـةُ": سـأُعَرِّفُكَ علـى أهلِـيَ، هـؤلاءِ هُـمْ أمّـِيَ وأبـِيَ وأخـواتِيَ. كلُّهُـمْ يرحبونَ بكَ ويودونَ التعرفَ عليكَ عن قربٍ أكثرَ.
السّيدُ حمد: أنا فقط هنا للدراسةِ! وإذا ما يصيرُ نصيبٌ بعدَ التمكنِ قليلاً من التعليمِ سوفَ يكونُ ما يعجبُكُمُ وأكثرُ مِمّا تفكرونَ فيهِ.
الآنسةُ "روانيةُ": لَمْ أقصدْ الزواجَ أو غيرَهُ. في هذا البلدِ لا توجدُ قيودٌ على المزجِ بينَ الأجناسِ والأطيافِ. هنالكَ حريةٌ شبهُ كاملةٍ في الاختلاطِ وتطويرِ العِشرةِ أو وقفِها في أيِّ وقتٍ يشاءُ المرءُ!.
السّيدُ حمد: وهذه إحدى المزايا الأساسيةُ التي تَجذبُني أكثرَ إلى هذا المكانِ للتعرفِ على الأمورِ عن قربٍ. سأراكُمُ عندَ عودتِيَ من مسقطِ رأسِيَ إذا ما بقيتْ الأمورُ على حالِها والدنيا بخيرٍ.
في طريقِ الرجُوعِ إلى مكانِ الإقامةِ في الفندقِ، غيرِ المصنّفِ بعدُ!، جلسَ السّـيدُ حمـد لتنـاوُلِ طعـامِ الغـداءِ فـي أحـدِ المطـاعمِ القريبـةِ مـن الجامعـةِ، جامعـةِ "القليوبيا"، حيثُ يفصلُ بينَهُ وبينَ سورِ الجامعةِ الخارجيِّ شارعٌ متوسّطُ العرضِ. كانت هنالكَ تشكيلةٌ كبيرةٌ من أنواعِ الطبَخاتِ التي هي اشتقاقٌ من اللّحومِ والدجاجِ وما يأتي من صيدِ البحرِ. يقارنُ حمد بينَ الأكلاتِ السّابقةِ والتي في معظمِها بيضٌ أو لَحمٌ مشويٌّ أو مقليٌّ وما يراهُ الآنَ. الآنَ يقفُ حمد أمامَ مستودعٍ ضخمٍ من الأكلِ ويشرفُ على الخدمةِ شبابٌ وشاباتٌ في ريعانِ العمرِ والخدمةِ والحيويةِ بالمقارنةِ

مع أيامهِ السّابقةِ. هَمَسَ السّيدُ حمد لنفسهِ قائلاً أنّهُ انتقلَ من عهدِ الظلامِ إلى عهدِ النورِ حتى في الطّعامِ وفي من يقدّمُ الطّعامَ!. يتميّزُ السّيدُ حمد بضعفٍ خطيرٍ أمامَ الأكْلِ، يبدّدُ معظمَ مصروفهِ على أيِّ أكلٍ يقدّمُ على أطباقٍ جذابةٍ.
الجرسونُ "حسّون": أهلاً وسهلاً بكَ. هل أنتَ طالبٌ في جامعةِ "القليوبيا"؟.
السّيدُ حمد: نعمْ وجديدٌ، سأبدأُ الدوامَ بعدَ حوالَيْ شهرٍ تقريباً من الآنَ.
"حسّون": مضى على عملِيَ هنا أكثرَ من خمسةِ (٥) سنواتٍ في هذا المطعم، لكنّني لَمْ أتَمكّنْ من الدخولِ إلى الحرمِ الجامعيِّ ولو مرّةً واحدةً. كلّما حاولتُ الدخولَ إلى هناك يَمنعُني حرّاسُ الجامعةِ. أريدُ فقط أنْ أعرفَ كيف تسيرُ الحياةُ بداخلِها!.
السّيدُ حمد: لا تقلقْ بشأنِ ذلك. لقد مكثتُ فيها بعضَ الوقتِ خلالَ اليومَيْنِ الماضيينِ؛ لا يوجدُ شيءٌ خارجٌ عن المألوفِ كثيراً. عندما سأعودُ ثانيةً إلى هنا تكونُ الجامعةُ قد فتحتْ أبوابَها، وسأدعوكَ لزيارتِيَ هناكَ.
"حسّون": سمعتُ أنَّ بها أجانبُ كثيرونَ ولا يفضّلونَ كثيراً رؤيةَ الذين عندهُمْ ملامحُ عربيةٌ داخلَها هناكَ!.
السّيدُ حمد: آه... ولكنّني رأيتُ فيها الكثيرَ من العربِ، طلاباً وحرّاساً وبوّابينَ؛ كلُّهُمْ كانوا يتكلّمونَ العربيةَ ولكن بلكنةٍ مَحكيّةٍ مَحلّيةٍ مَمزوجةٍ مع غيرِها من اللغاتِ.
"حسّون": رجائِيَ منكَ عندما تعودُ أنْ تَمرَّ بِيَ هنا وتعطيَنِيَ موعداً لزيارتِكَ؛ "اتروك"! (اتركْ) فاتورةَ الأكْلِ على حسابِيَ. أريدُ فقط أنْ أرى الجامعةَ من الداخلِ. يوجدُ لديَّ شهادةٌ ثانويةٌ عامةٌ ولكنّني لَمْ أقدرْ على الحصولِ على القبولِ في جامعةٍ بسببِ ضعفِ معدلِيَ العامِّ.
السّيدُ حمد: لكنْ ما الذي يَمنعُكَ من الدخولِ إلى الجامعةِ وزيارتِها والاستمتاعِ بِما فيها من مرافقَ ومن أجوائِها وبرِّها وبَحرِها ومكتبتِها، بِغَضِّ النظرِ عما تَحملُهُ من مؤهلاتٍ؟!.

مُحاولةٌ للاسترخاءِ والراحةِ

شعرَ السّيدُ حمد باسترخاءٍ في الأعصابِ وهدوءٍ نفسيٍّ وسكينةٍ بعدَما تأكّدَ لهُ أنّهُ سيلتحقُ ببرنامجِ الدراساتِ العليا لِجامعةِ "القليوبيا"، ونامَ ليالي طويلةً هادئةً خلافاً للعادةِ. قررَ العودةَ إلى مسقطِ رأسهِ ولو لفترةٍ قصيرةٍ علّهُ يراجعُ نفسَهُ فيما حصلَ لهُ في الماضي ولاستكشافِ آفاقِ المستقبلِ القريبِ والبعيدِ. التقى في قريتهِ بالأهلِ وبعضِ الأصدقاءِ والأقاربِ والذين قدّموا لهُ بعضَ الدعمِ المعنويِّ والمباركةَ للخطوةِ العظيمةِ! التي حظيَ بها.
أبو جاسر: لقد أنْهكْتَني نهائياً وأنتَ تتنقّلُ كلَّ يومٍ من مكانٍ إلى مكانٍ جديدٍ وجامعةٍ جديدةٍ؛ حتى أنَّ ابنَ رئيسِ للوزراءِ لا يكادُ يفعلُ جزءاً بسيطاً من أعمالِكَ. يا ولداً! اهدأْ في مكانٍ واحدٍ وأرحْنِ وأرحْ إخوانَكَ؛ نَموتُ جَميعاً على جذوعِ الشجرِ وبينَ

الدروبِ الزراعيةِ الوعرةِ وأنتَ تتنزهُ في "القليوبيا" والأبراجِ العاليةِ والمعارضِ التجاريةِ المكلفةِ!.
السّيدُ حمد: في هذه الجامعةِ يا والدِيَ، لقد أُعفيتُ من دفعِ الرسومِ وكذلكَ من دفعِ أجرةِ السّكنِ الجامعيِّ. فوق هذا وذاك مُنِحْتُ "مساعدةً دراسيةً" أتلقى منها معاشاً يكفيني حتى حواليْ اليومَ العشرينَ من كلِّ شهر؛ أحتاجُ فقط مصروفَ العَشْرِ الأواخرِ من كلِّ شهرٍ تقريباً، إذا صحَّ التعبيرُ. وإذا ما تَمكنْتُ من إيجادِ مهنةٍ إضافيةٍ سوفَ أعملُ بها لسدِّ حاجةِ بقيةِ الشهرِ وأريحُكُمْ تَماماً من أيّةِ مصروفاتٍ مقدّمةٍ من جانبِكُمْ.
سرحان وأبوالزهو: لا عليكَ! طالَما انتهيتَ من حكم عصاباتِ عصرِ الظلامِ، امضِ في الدربِ ونَحْنُ جَميعاً معكَ. استمرْ في كفاحِكَ وإنّا لَنرى لكَ مستقبلاً واعداً. امضِ قيس! امضي!. (العبارةُ الأخيرةُ مأخوذةٌ من أوبريت "قيسٌ مَجنونُ ليلى")
مدرِّسٌ صديقٌ: وما هي هذه جامعةُ "القليوبيا"، إنّها أوّلَ مرّةٍ أسْمعُ بِها!.
السّيد حمد: ألَمْ تسمعْ بعدُ بجامعةِ "القليوبيا"؟!. إنَّها الجامعةُ الّتي تَخرّجَ منها العشراتُ من الوزراءِ ورؤساءِ الوزاراتِ ورجالُ الفكرِ والسّياسةِ والقانونِ وجهابذةُ العلمِ المَحلّيينَ في التخصصاتِ الرفيعةِ المستوى!.
أبو جاسر: هذه آخرُ جامعةٍ أسْمحُ لكَ بالانتقالِ إليها. لا تقلْ لِيَ بعدَ شهرٍ أو شهرينِ أنكَ وجدتَ مكاناً في جامعةِ أنصارِ "الواق واق" مثلاً. اهدأ وأرحْنا، لقد أمَتّنا يا هذا!. (ولَكْ ذبَحتنا يا زلمة!)
في الصّباحِ الباكرِ من يومِ الأحدِ وبعدَ حواليْ ثلاثةِ أيامٍ من عودةِ السّيدِ حمد إلى قريتهِ، أفاقَ أهلُ القريةِ على أصواتِ مكبراتِ صوتِ جيشِ الاحتلالِ. أعلنَ جيشُ الاحتلالِ حظرَ التجوالِ على القريةِ وطالَبَ كلَّ الذكورِ البالغَةِ أعمارُهُمْ فوقَ سنِّ السّادسةَ عشرةَ بالتوجُّهِ نَحْوَ ساحةِ مدرسةِ بناتِ القريةِ. كانَ هنالكَ من حاولَ زرْعَ قنبلةٍ في هدفٍ من أهدافِ الاحتلالِ واكتُشِفَتْ قبلَ أنْ تنفجرَ. قام الاحتلالُ باعتقالِ أعدادٍ من شبابِ القريةِ وفَرَضَ حظراً على السّفرِ على أهلِها إلى الخارجِ وحتى إشعارٍ آخرَ. بذلك أصيبتْ فرحةُ السّيدِ حمد بقبولِهِ في الجامعةِ الجديدةِ بانتكاسةٍ كادَت تؤدّي إلى كارثةِ إلغاءِ تسجيلهِ في الجامعةِ فيما لو استمرَّ حظرُ السّفرِ على القريةِ طويلاً. أُلغِيَ حظْرُ السّفرِ في اللحظاتِ الأخيرةِ، وأصبحَ بِمقدورِ السّيدِ حمد السّفرُ من جديدٍ.
أم جاسر: الحمدُ للهِ، فُرِجَتْ وها أنتَ تلتحقُ الآنَ بدراستِكَ في جامعتِكَ الجديدةِ.
أبوالزهو وسرحانَ: لقدْ قلتَ لنا سابقاً يا صديقِيَ بأنَّ جامعةَ "القليوبيا" خرّجت الكثيرَ من روّادِ الفكرِ والعلمِ والسّياسةِ. أين هُمُ؟ لَمْ نسمعْ بأحدٍ منهُمْ طيلةَ حياتِنا كلِّها!.
السّيدُ حمد: الآنَ أقفُ على أحدِ رؤوسِ النبعِ الرئيسيةِ والتي رفدتْ مُجتمعَنا العلميَّ بعددٍ كبيرٍ من الزهورِ "اليانعةِ" من روّادِ الإنارةِ والتنويرِ الثقافيِّ والعلماءِ والمفكرينَ والفلاسفةِ. هنالكَ ستصدحُ موسيقى "الروك أند رول" و"الديسكو" وأنغامٌ من تراثِ "بيتهوفن وموتزارت" وغيرِهُمْ. الآنَ صدقَتْ الرؤيا عندِيَ وسوفَ أصلُ إلى ما فوقَ القمةِ.
أبوالزهو: من هنا نقولُ أنْ لا صوتَ يعلو فوقَ صوتِ الطربِ الأصيلِ. آخٍ... على أصابعِكَ وهي تداعبُ أوتارَ العودِ العظيمِ.

السّيدُ حمد: نعمٌ وللسيدةِ فيروز .... دو صول صول فا ري لا صول فا مي ري ري .... بالضـيعة يـاللي عاشـقة النجمـات بيسـهروا بظـل الهـوى سـهرات .... وبيرأصوا (يرقصوا) رقصة بحبها كتير على غني الحلوين والحلوات.. ...... مي مي فا فا ري ري فا فا مي... .... هايك مشي الزعرورة يا يُمّا هايك، هايك الحلوة والصّورة بيميلوا هايك.. ..... نَحْنُ بِعِلِّيِّة خضرا عملنا سهرة وعلى جناح النسمة وعطرها تشوقنا لايك (إليكَ) ... .

أبوالزهو: سوف تَجعلُنا من جديدٍ نفتقدُ أيامَنا الحلوةَ معكَ يا رفيقَ العمْر.

السّيدُ حمد: لا تقلقْ يا صديقِيَ!، في المرةِ القادمةِ سوف أسحرُكَ بالألْحَانِ الجديدةِ، لأنَّني ذا هبٌ إلى بلدٍ ينامُ ويصحو على أحلى الألْحانِ من أصواتِ العودِ والنايِ والكمانِ.

صديقٌ: إياك! أنْ تكونَ قد تعلقتَ بإحدى بناتِ حواءَ هناكَ، وأنَّ كلَّ انتقالِكَ إلى "القليوبيا" ما هو إلا من أجلِ ذلكَ؛ وتأتي هنا وتقولُ أنَّكَ تُجاهدُ للوصولِ إلى منابعِ العلمِ. كما تعرفُ فإنَّ "عبلـة جَنَّنَتْ عنترةَ بنِ شدادٍ" و"حوّاءُ خرَّبَتْ بيتَ أدمَ وأخرَجتْهُ من الجنّةِ" و"بلقيسُ وسوستْ عقلَ سليمانَ" ..... لكنْ ما عهدتُ منكَ الكذبَ عليَّ في الماضي!. إيّاكَ يا صاحبِيَ أنْ تتخلّى عن بناتِ جلدتِكَ هنا!.

السّيدُ حمد: أرجوكَ يا صديقِيَ أنْ لا يدريَ بهذه الخيالاتِ أحدٌ وخاصةً الوالدُ أبو جاسر. إذا ما عرفَ بذلكَ فسوفَ يكونُ بينَنا وبينَهُ ما لا أحدَ يضمنُ عقباهُ.

سرحان و"فَلْحَة": أنتَ بنفسِكَ حدّثتَنا عن الآنسةِ "روايـنة"، وأنّكَ تعرّفتَ على أهلِها وأقاربِها وبلدِها وبيتِها، ماذا بقي لكَ؟ فقط أنْ تشتريَ لَها فستاناً وحذاءً وسواراً وخاتَماً وغرفةَ نوم! ها ها ها....

السّيدُ حمد: هذا ليس مزاَحاً، يا سرحان! عندَكَ أسلوبٌ شبهُ منطقيٍّ وفريدٌ من نوعهِ تقنعُ بهِ بعضَ العقولِ التي تصغي إليكَ. أرجوكَ! لا يوجدُ في خيالِيَ ولا في ضميريَ ولا بفكريَ مثلَ ما يتهيأُ لكَ.

سرحان وأبوالزهو: تتعلمونَ بضعَ حروفٍ في الخارجِ وتظنونَ أنفسَكُمْ متعلّمينَ فوقَ باقي البشرِ وتقومونَ باستجلابِ أعدادٍ من الزوجاتِ وتظهرونَهُنَّ كما لو كنَّ أحسنَ من النساءِ هنا. الويحُ لكُمْ ولأمهاتِكُمْ.

السّيدُ حمد: ها أنتمْ ترونَ بأمِّ أعينِكُمْ، بدأتُمْ بالخيالِ والتهيؤاتِ وانتهيتُمْ بأنْ صدَّقتُمْ أنفسَكُمْ وذهبتُمْ وراءَ خيالاتِكُمْ مثلَ انقيادِ جَملٍ وراءَ كلبٍ!. عسى اللهَ يُنْجِينا من بناتِ أفكارِكُمْ وأخواتِهِنَّ. يا سيدَ سرحان ويا أبوالزهو، الآنَ أحاولُ تأمينَ أكْلِ الخبزِ والعيشِ، ودائماً تفكّرانِ في اللحمِ؛ لأنكُما جالسانِ لا تفكّرانِ فيما يَحدثُ من أمورٍ. آسفٌ يا أبوالزهو يا فيلسوفَ العصر، أسعى ليلَ نَهارَ لإسعادِكَ ورفعِ شيءٍ منَ الحِمْلِ عن كاهلِكَ وإسعادِ الأهلِ، وأنت يا سرحان دائماً توقعُني في دائرةِ الظنِّ السّيئِ.

"كاملَة" وسرحان: ما رأيُكَ إذنْ أنْ تقومَ بعقدِ خطوبةٍ أو "كتْبِ كتابٍ" على الآنسةِ "نُجَيْمَة". أعرفُ أنَّها تُحبُّكَ ومنذُ أيامِ الصّغرِ عندما كنتَ تتوقُ شوقاً لرؤيتِها.

السّيدُ حمد: تلكَ أيامُ الصِّبا المَجنونِ وَلَّتْ إلى غيرِ رجعةٍ. أنا الآنَ في منتصفِ العقدِ الثالثِ من العمرِ، ارحَماني يا أختِيَ "كاملة" ويا سرحان!.

أبوالزهو: إذنْ قليلاً من الطربِ معكَ!.

السّيدُ حمد: الآنَ في بالِيَ أغنيةٌ أحببتُها كثيراً ومنذُ أنْ سَمعتُها لأوَّلِ مرّةٍ منذُ قديمِ الزمانِ ..... للشيخِ وديعِ بيك .. ومن مقام الراست .... أغنية "على الله تعود"... لكن على اللهِ! أنْ تَضبطَ المقدمةَ ....
أبوالزهو: وَلَوْ! يا زَلَمِة... إنتا نسيت؟! ..... دو.. ري.. مي.. فا...
السّيدُ حمد: صحٌّ!، عافية عليك يا أبوالزهو .... دن دن دن... على الله (عسى أنْ) تعووود على الله!؟ يا ضايع في ديار الله ..... من بعدك أنت يا غالي ما لي أحباب غير الله... ياللي مرمرت زماني ... كنّك (إذا كنتَ) بطّلت تهواني ... إرجع يا حبيبي من ثاني ....
سرحان: من الواجبِ على أبوالزهو أنْ يغنّيَ هذه الأغنيةَ لكَ!.

جامعةُ "القليوبيا"

أسّسَتها مجموعةٌ من المستشرقينَ والمبشّرينَ بالثقافاتِ الأخرى وانضمَّت إليهم مع الزمنِ مجموعةٌ من "المستَغربينَ" العربِ على شكلِ سبيكةٍ يُمكنُ أنْ يُطلقَ عليهم جَميعاً لقبٌ من مثلِ "المستَشربينَ" يَجمعُ بينَ الفئتيْن. بقي الهدفُ الأولُ الأساسُ من إنشائِها ماثلاً ويتلخّصُ في حرمانِ اللغةِ والثقافةِ العربيّتيْنِ من الولوجِ إلى لبِّ الفكرِ والفلسفةِ والعلومِ والتقنيةِ وحتى من الاستعمالِ السليمِ في الشارعِ والحانوتِ والمقهى العامِّ وقاعاتِ المسافرينَ في المطاراتِ وعلى متنِ الطائراتِ وفي المستشفياتِ ولو أمامَ المرضى في حالةِ الخطرِ الشديدِ من الناطقينَ بلغةِ الضّادِ المَحكيةِ.

يعيشُ السّيدُ حمد الآنَ في بلدٍ يتميّزُ بِـ"الاكتظاظِ والاحتقانِ الطائفيّيْن" حيثُ تسيطرُ فيه الطائفيةُ والمذهبيةُ الشرسةُ على كلِّ شئونِ الحياةِ تقريباً. في هذهِ الدولةِ يولدُ الطفلُ وقد أضيفَ المذهبُ كصفةٍ لهُ ملازمةٍ وقبلَ بصمةِ أصابعِ اليدينِ أو الرجلينِ أو العينينِ أو فصيلةِ الدمِّ أو أيّةِ علاماتٍ فارقةٍ أخرى. في شهادةِ ولادةِ الطفلِ هنالكَ كلمةُ "المذهبِ" أو الطائفةِ هي تقريباً كلُّ ما يعني من يهمُّهُ الأمرُ. هنالكَ "حائطُ برلين" عالٍ جداً بينَ كلِّ شخصينِ، أيِّ شخصينِ، من طائفتينِ مُختلفتينِ مهما تكونا تلكما الطائفتانِ متقاربتيْنِ. مَنْ يرغبُ مِنْ خارجِ الدولةِ في تَحديدِ طائفتهِ ما عليهِ إلا أنْ يقومَ بزيارةٍ ولو قصيرةٍ لذلكَ البلدِ، أو يتصادقَ مع مواطنٍ منها في أيِّ مكانٍ آخرَ في العالَمِ.

هنالكَ "مَحاكمُ تفتيش" معلنةٌ، حتى في الجريدةِ الرسْميةِ، وأخرى غيرُ معلنٍ عنها مقامةٌ عندَ كلِّ مَفترقِ طرقٍ في ضواحي المدينةِ والقريةِ والسّهلِ والجبَلِ. لكلِّ مَحكمةِ تفتيشٍ هنالكَ مَجموعةٌ من الحواجزِ الطيارةِ تشرفُ عليها مَجموعةٌ من العقولِ "الطائرةِ" والتي تَمَّ تَمويهُها بأسْماءَ حزبيةٍ ذاتِ شعاراتٍ تضاهي حرارةَ شَمْسِ حزيرانَ وتَمّوزَ في تلكَ المنطقةِ. يَجمعُ تلكَ المَحاكمَ والحواجزَ شيءٌ واحدٌ هو الجهلُ أو تَجاهلُ الآخرينَ، الجهلُ بكلِّ شيءٍ حتى في شئونِ المذهبِ أو الطائفةِ التي يرتكبونَ أبشعَ الخطايا لِخدمتِها، كما يظنّونَ. أكثرُ

الخطايا مساساً بالكرامةِ الإنسانيةِ التي تُرتكبُ بشكلٍ تلقائيٍّ وروتيني هي "تنسيبُ" (أيْ إيجادُ نَسَبٍ) النشاطِ البدنيِّ أو الذهنيِّ أو الفكريِّ أو حتى الماليِّ مثلاً عندَ الشخصِ إلى طائفتهِ التي سُجِّلتْ لهُ عندَ ساعةِ ولادتهِ. هنالكَ الذكيُّ المَحسوبُ على طائفةٍ وهنالكَ الغبيُّ من طائفةٍ أخرى، هنالكَ بطلُ كمالِ الأجسامِ مثلاً والمطربُ والمليونيرُ والمتخلّفُ عقليّاً وجسديّاً وماليّاً واجتماعيّاً .... والقائمةُ تطولُ من رئيسِ الدولةِ صعوداً! حتى تصلَ إلى نادلٍ في أحدِ المقاهي الليليةِ المنعزلةِ. الأخطرُ من ذلكَ بكثيرٍ هو أنَّ كلاً من هؤلاءِ قد أعطِيَ سلاحاً شخصياً هجومياً من النوعِ الذي يستخدمُهُ مظليّو القواتِ الضاربةِ لِحلْفَيْ "وارسو" و"شَمالِ الأطلسيِّ". كلُّ فئةٍ طائفيةٍ، ودونَ استثناءٍ، حَصَلَتْ على دعمٍ خارجيٍّ من إحدى الدولِ ذاتِ مصلحةٍ أنانيةٍ وضيقةٍ جداً تتمثلُ في إبقاءِ البلدِ تَحْتَ سطوةِ حربٍ أهليةٍ لا تُبقي ولا تذرُ. النتيجةُ هي أنَّ ما كانَ بالأمسِ يبدو في عيونِ السّيدِ حمد جَميلاً وجذاباً أصبحَ اليومَ جحيماً حقيقياً لا يطاقُ. على المرءِ أن يتعايشَ مع ظروفٍ ومستجداتٍ يوميةٍ تُبقي الأعصابَ في حالةٍ من الشدِّ لا تستطيعُ حتى أقراصُ المهدئاتِ كلُّها من المساعدةِ في الحدِّ من تأثيرِ أحدِ تلكَ الظروفِ.

في بواكيرِ اللقاءاتِ مع الأصدقاءِ والزملاءِ الجددِ كانت تلكَ تتخذُ على الدوامِ تقريباً منحىً طائفياً وإقليمياً ضيقاً.....
طالبٌ زميلٌ: ما اسْمُك ومن أينَ أتيتَ؟!. أقصدُ ما اسْمُكَ وما دينُكَ ومذهبُكَ وعِرْقُكَ وموطنُكَ الأصليُّ أيْ مسقطُ رأسِكَ؟!.
السّيدُ حمد: اسْمِيَ حمد ووالدِيَ يدعى أبو جاسر وأجهلُ أو أتَجاهلُ بقيةَ الأسئلةِ لأنَّني أكرهُ التصنيفاتِ مثلَ المتبعةِ في ترتيبِ الكائناتِ الحيةِ لكيْ يسهلَ على "الدارسِ" التعاملَ معَها والسّيطرةَ عليْها إذا ما شاءَ فعلَ ذلكَ. كلُّنا بشرٌ نَحملُ نفسَ أنواعِ الدمِّ من "و" إلى "أ" أو "ب" أو "أ-ب". ما الفرقُ؟. لكلٍّ واحدٍ منا أنفٌ وأذنانِ وشفتانِ ولسانٌ ..... لا فرقَ. وحتى الشكلُ لكلٍّ واحدٍ فينا هو شكلُهُ الذي أنيطَ بهِ بفعلِ القَدَرِ.
طالبٌ زميلٌ آخرُ: يبدو أنَّك تُحاولُ الهربَ من الأسئلةِ، لِماذا؟. هل لديكَ شيءٌ تُحاولُ إخفاءَهُ؟!. أنا هنا من القريةِ شِ١ ذاتِ الأغلبيةِ الميتافيزيقيةِ التي تَخصُّ شَ١ وهذا من الضاحيةِ كِ١ التي لَها اختصاصُها المذهبيُّ الخاصُّ بها وهذا من المنطقةِ ضِ١ حيثُ تكثرُ الضباعُ البريةُ والبشريةُ .... كلُّنا يَجمعُنا في كثيرٍ من الأحيانِ شيئانِ أولُهما "الآر بي جي" (قذائفُ صاروخيةٌ مضادةٌ للدروعِ تطْلقُ باستعمالِ قاذفٍ يُحملُ على الكتفِ واستخدمتْ بشكلٍ اعتياديٍّ ضدَّ أهدافٍ مَدنيةٍ بَحتةٍ مثلَ مَحلاتِ للبقالةِ وأمكنةٍ للعبادةِ) وثانيهما كأسٌ من العرقِ أو أيِّ مشروبٍ آخرَ. المهمُّ أنْ يغيبَ فيهِ الشخصُ ولو لبعضِ الوقتِ عن وجدانهِ.
السّيدُ حمد: أنتم مَجموعةٌ من المُستغفلينَ وعدمُ التعاطي معكُمْ بهذا الشأنِ أكثرُ فائدةً من الولوجِ في مشاكلِكُمْ التي لا تنتهي طالَما أنتمْ على هكذا نزعاتٍ باقونَ. بهذا النّفَسِ وهذهِ النفسيةِ فإنَّكُمْ تبقونَ على خطوطِ التَّماسِ، بينَ "الإثنياتِ" (المعتقداتِ) الفرعيةِ منها والرئيسيةِ، ملتهبةً وتشتعلُ أكثرَ كلَّ يومٍ.
طالبةٌ: تتكلّمُ عينَ العقلِ والحقيقةِ. هؤلاء البشرُ ينامونَ ويَحلمونَ بالتوزيعاتِ "الدّيمو-ثيو-سياسية" (الدّيمو للسكانِ، والثيو للدينِ والسّياسية للأحزابِ) للبشرِ.

كلُّ طائفةٍ منهُمْ بما لديهِمْ "متفارحونَ"، إنْ صحَّ التعبيرُ. آنَ الأوانُ أنْ نضعَ المذهبَ والطائفةَ في المكانِ الملائمِ لَها ونعيشَ وننامَ في وئامٍ وسلامٍ وقوّةٍ حقيقيةٍ للمجتمعِ.
طالبٌ: ها ها ها.... عليكِ أنْ تُخَلِّصي البلدَ من صفقاتِ تُجّارِ الأسلحةِ وما يتبُعها من استقدامِ خبراءَ عسكريينَ واتفاقياتٍ أمنيةٍ سياسيةٍ بعيدةِ المَدى لكلٍّ منها. الطوائفُ كلُّها هنا مقتنعةٌ بضرورةِ "الحسمِ العسكريِّ" ضدَّ بعضِها البعضِ!، عليكِ أنْ تقومي بحربٍ أهليةٍ مضادةٍ.
السّيدُ حمد: بالنسبةِ لِيَ، لا أعرفُ اسمَ طائفتيَ وأرجو أنْ لا أخرجَ من هنا بطائفةٍ لَها رصيدٌ في الشارعِ المرئيِّ وغيرِ المرئيِّ. جئتُ هنا في مُحاولةٍ لتفسيرِ مَجموعةٍ من الكوارثِ التي حلّتْ بِيَ!، مع مُحاولةِ دراسةِ بعضَ الظواهرِ الطبيعيةِ، إنْ أمكنَ ذلكَ.
طالبٌ: نَحسدُكَ على حالِكَ. لا نقدرُ أنْ نكونَ مثلَكَ، لأنَّنا وُلِدنا ونشأنا وترعرعْنا وشَبَبْنا وشِبْنا ونَخشى أنْ نظلَّ هكذا حينَ وبعدَ الموتِ الطبيعيِّ أو غيرِ الطبيعيِّ. ولاةُ أمورنا يقولونَ لنا بأنّنا سنُسألُ عن ما قدَّمناهُ لطوائفِنا يومَ القيامةِ.
طالبةٌ: إنّي أرى معكَ عوداً ولَمْ تكدْ تصلُ إلى هنا!. أسْمِعْنا قليلاً مِمّا في جُعْبتِكَ.
....
السّيدُ حمد: أحبُّ أغاني الشيخ نصري.... دن دن دج دن دج دج.. ...... وين بدّك (تريدينَ) واين نتلاآى (نتلاقى) يا وشْ (وجه) اللي كله براءة، كل العُشّاء (العشاق) بينامو وانا سهران عالطاعة ("الطّاقة" هي شباكٌ صغيرٌ يستعملُ للتهويةِ في غرفةِ البيتِ القديمِ عادةً) ... . وأنا سهرانٌ على الطاقةِ ....
في اليومِ التالي كانَ السّيدُ حمد قد تأخّر قليلاً عندَ الذهابِ إلى الجامعةِ. عندَ دخولهِ إلى حرمِ الجامعةِ وعلى بعدِ بضعِ عشراتٍ من الأمتارِ من بوّابةِ الدخولِ المَحروسةِ أمنياً، كان هنالكَ شابٌّ وصبيةٌ. الأوّلُ في وسطِ شبابِ عمرِهِ والأخرى على أطرافِ سنِّ المراهقةِ قريباً من سنِّ البلوغِ، كما بَدَيا من بعيدٍ. كانا يَجلسانِ على أريكةٍ على رصيفِ الشارعِ، الأريكةُ صُنِعتْ من الخشبِ لغرضِ المقاعدِ في السّاحاتِ العامةِ والحدائقِ. كان يُقَبِّلُها وتُقَبِّلُهُ ثُمَّ يَحضُنُها وتَحضُنُهُ ويلمسُها بصدرِهِ لتقومَ هي الأخرى بنفسِ الحركةِ. ظنَّ السّيدُ حمد أنَّ الأمرَ سينتهي عندَ هذا الحدِّ عندما بدأ الشابُ يتحسَّسُ بيديْهِ ظهرَ وخصْرَ الصّبيَّةِ، وتقومُ الصّبيَّةُ بدورِها بنفسِ الحركاتِ ولكن بالاتّجاهِ الموازي المعاكسِ للأوّلِ. بالنسبةِ للسيدِ حمد، القادمِ منَ بيئةٍ ثقافيةٍ وحضاريةٍ مُختلفةٍ كثيراً، المنظَرُ الآنَ يقلبُ كلَّ الحساباتِ عندَهُ رأساً على عقبٍ ويثيرُ في نفسِهِ ألفيْ سؤالٍ وسؤالاً. ما الذي يَجعلُ مثلَ هؤلاءِ البشرِ يقومونَ بأعمالٍ توصفُ عادةً بالخاصّةِ في أماكنَ عامةٍ؟!. التفتَ السّيدُ حمد إلى مَنْ حولَهُ.
السّيدُ حمد: بصراحةٍ لأولِ مرَّةٍ في حياتِيَ أرى عمليةً شبهَ جنسيةٍ في الهواءِ الطلقِ وقبلَ الظهرِ. كما يبدو لا فرقَ في هذه الجامعةِ بين الليلِ والنهارِ وما هو سريٌّ جدّاً وعلنيٌّ ... جدّاً!.
أحدُ حُرّاسِ البوّابةِ: إنَّ ما تراهُ هنا عمليةٌ عاطفيةٌ!. تلكَ الصّبيّةُ فقدتْ أسرتَها في قصفٍ مدفعيٍّ على خطوطِ التّماسْ القريبةِ البعيدةِ وأنَّ السّيدَ "عُزمان" يقومُ بعملِ ما هو لازمٌ لِمواساتِها والتخفيفِ عليها من صعوبةِ الحياةِ!.

السّيدُ حمد: لقد فقدتُ أخاً لِيَ في الحربِ، وكانَ في ريعانِ شبابهِ، لكنْ لَمْ نَجدْ أحداً يواسينا ولا بشيءٍ من هذا القبيلِ أو ذاكَ. لا بدَّ أنَّ في الأمرِ ما هو أكثرُ من ذلكَ. خطوطُ التّماسِّ الملتهبةِ لا تنتجُ مثلَ هذه المركّباتِ غريبةِ "المورفولوجيا" (علمُ دراسةِ تغييرِ الأشكالِ الخارجيةِ).

فـي نفسِ اليـومِ ولكـنْ لـيلاً قـرَّرَ السّـيدُ حمـد الـذهابَ إلـى الحـرمِ الجـامعيِّ والتجوالَ في أجَمَاتِ الجامعةِ الصّغيرةِ، والواسعةِ!. رأى أعداداً لا بأسَ عليها من نفسِ المنتجاتِ السّابقةِ "لِخطوطِ التّماسِّ". كان "التّماسُّ" أكثرَ وضوحاً وتأثيراً على نفسِ السّيدِ حمد!. ثُمَّ توجَّهَ السّيدُ حمد صَوْبَ شاطئِ البحرِ القريبِ ليرى نوعاً جديداً مِنَ "التماسِّ" أو مُحاولةِ التماسِّ، صيادٌ! يتماسُّ معَ "سَمكتيْنِ" أو أكثرَ وسَمكةٌ! تُحاولُ التحرُّشَ أو "التماسَّ" بصيادَينِ اثنينِ أو أكثرَ. فيما بعدُ عَلِمَ السّيدُ حمد من بعضِ زملائهِ في الدراسةِ أنّهُ لا يوجدُ مانعٌ قانونيٌّ في الجامعةِ فيما لو حَدَثَ "تَماسٌّ" بينَ صيادينِ من نفسِ الجنسِ، أو حتى بينَ "سَمكاتٍ" ومن نفسِ الجـنسِ كـذلكَ. النتيجـةُ أنَّ السّـيدَ حمَـد يـدخلُ فـي ثقافـةٍ جديـدةٍ تَحمـلُ الكثيـرَ مـنَ المتناقضاتِ المثيرةِ للجدلِ والتي لا مفرَّ لهُ من التعاملِ معَها يوميّاً.

لدى السّيدِ حمد الآنَ مَجموعةٌ من "المبشّرينَ" على شكلِ مدرّسينَ تَمَّ اختيارُهُمْ على ما يبدو بعنايةٍ فائقةٍ جداً. مرتزقةٌ لا ترحمُ أحداً، بأسُهُمْ بينهُمْ شديدٌ جداً، يَجمعُ بينَهُمْ فقط العداءُ للساميةِ والعنصرِ العربيِّ والشرقيِّ وحتى النخاعَ وعلى رؤوسِ الأشهادِ، والذي لا يعجبهُ ليشربْ ويرتوِ من ماءِ البحرِ الذي لا يبعدُ كثيراً عن المكانِ!. الدكتورُ "هونايْكِرينْكو" مثلاً من التبعيةِ الوسطِ-أوروبيةِ لهُ من العيشِ في تلكَ البلادِ أكثرَ من عشرينَ سنةً؛ يتقنُ عدداً لا يستهانُ بهِ من اللغاتِ إلا اللغةَ العربيةَ، عدا عن بضعِ كلماتٍ تقالُ لسبِّ شخصٍ بواسطةِ ذِكْرِ اسمِ عضوٍ تناسليٍّ أو إخراجيٍّ في جسمِ أمِّهِ أو أختِهِ وبلهجةٍ مَحلّيةٍ بائسةٍ!. هنالكَ ما يشبهُ بمجزرةٍ "ثقافيةٍ-حضاريةٍ" تُرتَكبُ ومنذُ عقودٍ ضدَّ ثقافةٍ مسالمةٍ وشعبها الأعزلِ. في هذه الحالةِ المزريةِ للثقافةِ العربيةِ هنالكَ يتنافسُ المتهافتونَ على تقديمِ يدِ العونِ لِهؤلاءِ المعادينَ لروحِ وجسدِ الأمّةِ، تارةً باسمِ العلمِ وأخرى باسمِ التحرّرِ وأخرى بذريعةِ الضعفِ السّياسيِّ والاقتصاديِّ السّائدِ في عالَمِ الدولِ الناميةِ بشكلٍ عامٍّ.

يقومُ السّيدُ حمد بدراسةِ أربعِ (٤) مساقاتٍ علميةٍ للدراساتِ العليا، حِمْلٌ يقصمُ ظهرَ البعيرِ القويِّ، عليهِ أنْ يوصلَ الليلَ بالنهارِ في العملِ. الحالةُ الماديةُ عندهُ غيرُ وفيرةٍ إلا أنّها ليستْ بالتعيسةِ كما في السّابقِ. أُعفيَ حمد من دفعِ رسومِ المساقاتِ المسجلةِ وحازَ على سكنٍ مريحٍ في الجامعةِ. إضافةً إلى ذلكَ حصَلَ على مُرتَّبٍ شهريٍّ لقاءَ الإشرافِ على مُختبراتِ مساقاتٍ في القسمِ، مع المساعدةِ في تصحيحِ بعضِ امتحاناتٍ للطلبةِ في مساقاتٍ معَ قدامى المدرّسينَ. حصلَ السّيدُ حمد كذلكَ على وظيفةٍ صغيرةٍ في كليةٍ جامعيةٍ قريبةٍ من موقعِ جامعةِ "القليوبيا".

عبرَ وسيطٍ ثالثٍ (دولةٌ أخرى حيثُ أنَّ الاتصالَ المباشرَ مقطوعٌ ومَمنوعٌ مع الأهلِ تَحْتَ الاحتلالِ) وبتكلفةٍ عاليةٍ كانَ السّيدُ حمد يتواصلُ مع أهلهِ من حينٍ لآخرَ باستعمالِ الهاتفِ .... وعلى الهاتفِ:

أبو جاسر: آملُ أنْ تكونَ قد وُفِّقتَ في اختيارِكَ الجديدِ، وآملُ أنْ تستقرَّ بكَ الأمورُ في مسارٍ واحدٍ موحّدٍ يؤدي بكَ إلى الاستقرارِ المنتج، وآملُ أنْ تبتعدَ عن الظروفِ المتقلّبةِ والتي لا تؤدّي بصاحبِ الشأنِ إلا إلىَ الضياعِ في هذا المكانِ أو ذاكَ.
أبوالزهو: آلو .... كيفو! .... ها ها ها ..... عسى أنْ تكونَ مرتاحاً على هواكَ يا بوالزّلُف!. أنا هنا مشتاقٌ لكَ ولأيامكَ الحلوةِ.
السّيدُ حمد: يا أبوالزهو... يا خليَّ القلبِ، الأمورُ عاديةٌ ولا عليكَ، لا تقلقْ أبداً.
سرحان: وإلى أين وصلتَ هذه الأيامَ؟!.
السّيدُ حمد: لقد توصلتُ إلى معرفةِ كيفَ ولماذا أنَّ السّيدَ "أبو رغال" أرشدَ السّيدَ "أبرهة الأشرم" إلى الطريقِ إلى الكعبةِ المشرفةِ في عامِ الفيلِ، بعدَ أنْ ضلَّ الأخيرُ سبيلَهُ إليها!.
سرحان: وهل تدرسُ العلومَ أم تدرسُ التاريخَ أمْ تاريخَ الأديانِ أو أصابكَ جنونٌ أو مسٌّ من الشيطانِ؟!.
أبوالزهو: ... "أوه ... نو بوي! Oh! no boy!" ..."لا ... أوْلوه"! (بالعربيِّ الفصيح: لا!... يا ولداً).
سرحان: مَنْ مِنَ البناتِ اللعوباتِ لعبَ بعقلِكَ؟، عسى أنْ يعودَ إليكَ عقلُكَ في علمِكَ وعملِكَ.
السّيدُ حمد: لا عليكُما يا سرحان ويا أبوالزهو، يا حبيبَيَّ ويا بعدَ روحِيَ وحتى قبلَها، "أروحلكم فِدوة" (تعبيرٌ من العراقِ يعني "أفديكُمْ بنفسِيَ"). الدروسُ تسيرُ على ما يرامُ ونَحْنُ هنا ندرسُ من جديدٍ قوانينَ نيوتن في الحركةِ وقوانينَ تحكمُ حركةَ جزيئاتِ المادةِ والغاز (مساقٌ علميٌّ)، جزيئاً جزيئاً؛... مِمّا يذكّرُني بأيامِ بيعِ بقاليلِ اللّبنِ في صحبتِكُمْ، بقلولةً بعدَ بقلولةٍ.
سرحان: وماذا عن مشكلةِ "أبو رغال" هذه؟، الناسُ خَلُصَتْ من "أبو رغال" منذ حوالَيْ ١٥٠٠ سنةً، حيثُ ذهبَ كعصفٍ مأكولٍ!. (العصفُ هو جسمُ الحيوانِ الميتِ بعد تحلُّلهِ حيثُ يبقى قليلٌ من اللحمِ والجلدِ المتعفنِ حولَ هيكلهِ العظميِّ).
السّيد حمد: "اسكتْ ساكتْ" (تعبيرٌ مَحلّيٌّ يعني مثلَ خلِّ الأمورَ سريةً، أو بيني وبينَكَ!) أخِيَ سرحان، كما يبدو أنَّ هنالكَ ماكيناتٍ كبيرةً (جامعاتٌ) صُنِعتْ خِصّيصاً لتفريخِ كتاكيتَ "رغاليةٍ"، شكلاً وعقلاً ودماً. ذهبَ المؤسّسُ الأوّلُ وظهرتْ أعدادٌ كبيرةٌ مِمّن يَحفظونَ عهدَ "أبو رغال"، وحتى يتفوّقونَ عليهِ؛ ومعهُمْ "أم رغال" و"أختُ رغال" و"خالُ رغال" و"عمُّ رغال" و"حفيدُ رغال" وصحبةُ رغال.
سرحان: إيّاكَ أنْ تدخلَ في صراعٍ مع أيٍّ منهُمْ. إذا ما وصلَ إلى مسامعِ الوالدِ أبو جاسر شيءٌ من هذا القبيلِ سيرتفعُ ضغطُ الدمِّ لديهِ وينخفضُ؛ ونَخشى أنّهُ ما بين ارتفاعٍ وانْخفاضٍ مفاجئَيْنِ عليهِ، أنْ ينخفضَ جسمُهُ إلى الأرضِ بعدَ أنْ ترتفعَ روحُهُ إلى السّماءِ!. هذه الحالةَ غير مرغوب بها في الوقتِ الحاليِّ على الأقلِّ!.

طائفيةٌ حَمقاءُ طامَّةٌ

لا يستطيعُ أحدٌ من البشرِ الهربَ من جحيم التصنيفِ الطائفيِّ العرقيِّ المذهبيِّ والحزبيِّ السّياسيِّ. يواكبُ ذلكَ إيقاعُ تَمييزٍ عَنصريٍّ مذهبيٍّ طائفيٍّ فاحشٍ بناءً عَلى لونِ البَشرةِ الخارجيِّ واللونِ السّياسيِّ أوِ المذهبيِّ الخارجيِّ كذلكَ ضدَّ كلِّ من لَمْ يُحالفْهُ الحظُّ ووقعَ بينَ أيدي هَؤلاءِ المتفذنينَ في التمييزِ والتفرقةِ. بعبارةٍ أخرى فإنَّ ما كانَ يطبقُهُ الرجلُ الأبيضُ ضدَّ الأسودِ بناءً على لونِ جلدِ الأخيرِ الخارجيِّ فإنَّ التمييزَ الآنَ يطبَّقُ بناءً على اللونِ السّياسيِّ أو الدينيِّ أو الطائفيِّ أو المذهبيِّ. ذلكَ الرجلُ العنصريُّ والطائفيُّ والمذهبيُّ يَجلسُ وراءَ مكتبٍ كُتِبَ عليهِ بشكلٍ شبهِ سريٍّ؛ هنا نقرِّرُ المصيرَ للبشرِ مُسبقاً وبناءً على معلوماتٍ ووقائعَ سابقةٍ الدراسةِ والتمحيصِ، وبناءً على تعليماتٍ من هنا وهناكَ. بالذاتِ هنا يتقرَّرُ مستوى الفردِ الأكاديميِّ مع بعضِ الزيادةِ أو النقصانِ كنسبةِ خطأٍ لا مفرَّ منها وحسبَ الظروفِ المُحيطةِ ومقتضياتِ الأمورِ والمستجدّاتِ. المؤسفُ في هذه الحالةِ من التمييزِ الأرعنِ هو أنّهُ سرعانَ ما ينتشرُ هذا الوباءُ (وباءُ التمييزِ) بين الذينَ شربوا منَ هذا المنَهلِ التعليميِّ! ومن ثَمَّ إلى الأجيالِ المنتشرةِ في أرجاءِ الأوطانِ المُختلفةِ.

هنالكَ الكثيرُ من الحالاتِ التي تَمَّ فيها تنجيحُ أناسٍ وترسيبُ آخرينَ أو تنقيصُ علاماتِهِمْ باستخدامِ أساليبَ ماكرةٍ وخبيثةٍ. هنالكَ من أناسٍ مِمّنْ وصلوا إلى مراتبَ عاليةٍ بناءً على توصيةٍ من مؤسساتٍ طائفيةٍ أو شخصياتٍ حزبيةٍ أو تنظيماتٍ فاشيةٍ معروفةٍ وغيرَ معروفةٍ.

في امتحانِ منتصفِ الفصلِ أتى الدكتورُ "كهليل" بنتائجَ مرعبةٍ لطلابهِ بعدَ تصحيحهِ لأوراقِ الامتحانِ لَهُمْ في بيتهِ الليلةَ الفائتةَ، في حينهِ؛ أعلنَ بتباهٍ أنَّ أعلى علامةٍ حصلَ عليها طالبٌ في ذلكَ الامتحانِ كانت خمسينَ بالمائةِ (٥٠%). زادَ الدكتورُ "كهليل" الأمرَ مدعاةً للحزنِ والعبثيةِ وتذوُّقَ مرارةٍ عندما ادّعى أنَّ أسئلةَ الامتحاناتِ كانت من السّهولةِ بمكانٍ، ثُمَّ سَخِرَ من مستوى الذكاءِ عندَ كافةِ طلبتهِ. وقفَ الطالبُ "علوش" في الصّفِّ ليسألَ الدكتورَ "كهليل" ليحلَّ أحدَ أسئلةِ الامتحانِ، كانَ السّؤالُ مُستعصياً عليهِ وقتَ وبعدَ الامتحانِ. بدأ الدكتورُ "كهليل" بحلِّ السّؤالِ مدَّعياً أنّهُ لسهولتهِ فإنَّ بمقدورهِ حلَّهُ وبسرعةٍ. بسرعةٍ بدأ حلَّ السّؤالِ المستعصي وبسرعةٍ بدأ الفرملةَ! حتى توقّفَ أمامَ من أهانَ مستوى ذكائهِمْ قبلَ قليلٍ من حينهِ. سرعانَ ما بدأ برحلاتٍ مكوكيةٍ بينَ السّبورةِ وبينَ دفترِ ملاحظاتهِ المُلقى على طاولةِ المدرِّسِ في الصّفِّ؛ وسرعان بعدها ما بدأ الهرجَ والمرجَ و"التعرّقَ" ومسحَ العرقِ عنَ الجبينِ والرقبةِ. انتهى وقتُ المُحاضرةِ دونَ مؤشّرٍ على قربِ إيجادِ حلٍّ لسؤالِ الامتحانِ من المُدرّسِ. حصلَ الطلابُ على وعدٍ قاطعٍ من المدرِّسِ أنّهُ في الحصةِ القادمةِ سوفَ يأتيهِمْ بالحلِّ الكاملِ!.

السّيدُ حمد (يتساءلُ!): السّؤالُ الوحيدُ الذي يراودُ خاطريَ الآنَ هو إنْ كانَت لِهذهِ النظرةِ إلى الامتحانِ ونتائجهِ وما يتبعُ ذلكَ علاقةٌ "بالتركيبةِ الطائفيةِ الذهنيةِ" عندَ حضرةِ المدرِّسِ!. (يَتبعُ المدرِّسُ طائفةً لا يوجدُ بينَ تلاميذهِ من يتبعُها)

الدكتورُ "كهليل": أنا معكُمْ! هنالكَ بعضُ الصّعوبةِ في الأسئلةِ، لكنَّ ذلكَ لا يبرّرُ الحصولَ على علاماتٍ متدنيةٍ كالذي حصلَ!.
الطالبُ "علوش": تصوَّرْ نفسَكَ كنتَ في الامتحانِ وتوقَّعْ لنفسِكَ أنْ ترسبَ على أيدي نفسِكَ!. كمْ تعطي لنفسِكَ من علامةٍ في هذا الامتحانِ، هل أكثرَ أمْ أقلَّ من ٥٠%؟!.
الدكتورُ "كهليل": لا أطيقُ مثلَ هذا الكلامِ الأرعنِ السّاذجِ.
كادَ أنْ يَحدثَ اشتباكٌ بالأيدي بَين التلمَيذِ و"المساعدِ بروفيسورِ". في الحصةِ التي تلتْ أتى الدكتورُ "كهليل" بصورةٍ مستنسخةٍ عن الإجابةِ الموجودةِ في دفترِ ملاحظاتهِ. النتيجةُ النهائيةُ للفصلِ شهدتْ حصولَ السّيدِ "علوش" على علامةٍ أقلَّ من الحدِّ الأدنى المقبولِ ولكنّها ليستْ علامةَ رسوبٍ حسبَ قوانينِ الجامعةِ. مثلَ تلكَ العلاماتِ "الخبيثةِ" لَها صفةُ تعليقِ التلميذِ من رموشِهِ! بين التّقدّمِ أو البقاءِ على ما هو عليهِ؛ مثلَ الموجودِ على سورٍ يفصلُ بين جنةِ النجاحِ ونارِ الفشلِ وحتى إشعارٍ آخرَ، أو مثلَ القطِّ الجائعِ الذي انتُزعتْ منهُ قطعةُ من لَحمِ طيرٍ ووضعتْ أمامَهُ في قفصٍ زجاجيٍّ مُحكمِ الإغلاقِ.
كانت تنتشرُ في طولِ البلادِ وعرضِها ظاهرةُ الحواجزِ الأمنيةِ، الثابتةِ والمتحركةِ. تدقّقُ تلكَ الحواجزُ في هويةِ المارةِ وعابري السّبيلِ مِمّن يَمشونَ على اثنتين. الهدفُ هو معرفةُ الطائفةِ التي ينتمي إليها هؤلاءِ المساكينُ الذينَ يقعونَ في براثنِها. كثيراً ما كان يَحدثُ أنَّ هنالكَ بعضُ الذين اجتازوا الحواجزَ أنَّهُمْ لَمْ يكونوا يَحملونَ هوياتِهِمْ، إمّا نسوها في البيتِ أو تركوها وراءَهُمْ عمداً لشعورِهِمْ ببعضِ الأمانِ. اضطرَّ رجالُ الحواجزِ بعضاً من ضحاياهُمْ لِخلعِ ملابسِهِمْ الخارجيةِ والداخليةِ للتحقّقِ من هويّاتِهِمْ المذهبيةِ أو الدينيةِ باستخدامِ علاماتٍ جسميةٍ "فارقةٍ" داخليةٍ خاصةٍ تَختصُّ بطوائفِهِمْ!. لقيتْ تلكَ الأعمالُ الهمجيةُ استحساناً! من بعضِ أناسِ الطوائفِ؛ لا عجبَ في ذلكَ فالطائفيُّ لهُ طائفةٌ ولكنْ لا دينَ لهُ.
للسيدِ حمد قصةٌ فريدةٌ، من قصصٍ كثيرةٍ، أكثرُ تميّزاً بعضَ الشيءِ عن ما سبقَ ليرويَها. تتلخّصُ القصةُ بأنّهُ شعرَ صباحَ ذاتِ يومٍ بوعكةٍ صحيةٍ سيئةٍ هاجَمتهُ في صدرِهِ وجهازِهِ التنفسيِّ. كانَ هنالكَ ألَمٌ شديدٌ عندما يتنفسُ أو لا يتنفسُ! الأمرانِ سيانٌ، وعندما يتحركُ أو لا يتحركُ... حيثُ شعرَ بخطرٍ حقيقيٍّ يداهمهُ مُهدداً حياتَهُ. بمساعدةِ أحدِ جيرانهِ في المسكنِ توجَّهَ إلى عيادةِ مستشفى جامعةِ "القليوبيا". ما أنْ دخلَ الاثنانِ الرفيقانِ غرفةَ الطوارئِ حتى أشارَ أحدُ البوّابينَ في المستشفى على السّيدِ حمد كيْ يَجلسَ في صالةٍ صغيرةٍ على كرسيٍّ خشبيٍّ لينتظرَ دورَهُ؛ في حينِ نَظرَ السّيدُ حمد ومن معهُ حولَيْهما ليجدا أنْ لا مرضى ولا أطباءَ في المكانِ. بعدَ ضيقِ تنفسٍ وألَمٍ شديدٍ وحشرجةٍ "ولعنِ حظٍّ" من السّيدِ حمد، تقدَّمَ البوّابُ إليهِ وأشارَ إليهِ لكيْ يدخلَ على الطبيبِ في الغرفةِ للمعاينةِ؛ هنالكَ كانت طبيبةٌ متدرّبةٌ، كما بدا!.
الطبيبةُ المتدرّبةُ: ما هي القصةُ؟!.
السّيدُ حمد: القصةُ أنَّ ألماً كبيراً ألَمَّ بصدريَ يكادُ يكونُ قاتلاً؛ مثلَ خنجرٍ مسمومٍ عَلِقَ بصدريَ، في رقبتِيَ تشنُّجٌ يَمنعُني منَ تحريكِها يميناً وشمالاً، إلى الأعلى أوَ إلى الأسفلِ. أشعرُ أنَّ عينيّ قدْ جُمِّدَتا، وها أنا أحسُّ برجليَّ تدخلانِ القبرَ باردتيْنِ

رويداً رويداً!. لو سَمحتِ وتكرّمتِ أنْ تقومي بأيِّ شيءٍ من أجلِ إنقاذِ حياتِيَ لِما تبقى من العمر.

قامتْ الطبيبةُ المتدرّبةُ بالإمساكِ بطرفِ إصبعِ يدِ السّيدِ حمد، وببطءٍ شديدٍ رَفَعَتْ يدَهُ إلى الأعلى مسافةً قد لا تزيدُ عن القدمِ الواحدِ.

الطبيبةُ المتدرّبةُ: هل هنالكَ من أيِّ ألَمٍ لديكَ؟.

السّيدُ حمد: مِن ماذا الألَمُ؟!.

الطبيبةُ المتدرّبةُ: من الحركةِ، من رفْعِ يدِكَ؟!.

السّيدُ حمد: هل هنالكَ أيّةُ حركةٍ أو رفْعِ يدٍ؟ معِيَ أنا!.

الطبيبةُ المتدرّبةُ: لا يوجدُ بكَ مرضٌ، تفضَّلْ مع السّلامةِ!.

السّيدُ حمد وزميلُهُ للمتدرّبةِ: لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ!. لكنْ ... هل من الممكنِ الحصولُ على حبةٍ مهدِّئٍ أو مُسَكِّنٍ، مُليِّنٍ، مُنَوِّمٍ، مُرَيِّحٍ، مُخدِّرٍ، للقصباتِ الهوائيةِ فاتحٍ؛ وهل هنالكَ من أطبّاءَ آخرينَ في هذا المكانِ أو في أيِّ مكانٍ، قريباً كانَ أمْ بعيداً؟!.

ما الذي دعا تلكَ الفتاةَ المتدرّبةَ أو غيرَ المتدرّبةِ للاكتفاءِ بهذا القدْرِ من المداواةِ أو العونِ لذلكَ الشخصِ الغريبِ عن الديارِ والذي كان في حالةٍ شبهِ انْهيارٍ من الألَمِ ونقصِ التنفسِ؟!. كانَ الأجدرُ بتلكَ الطبيبَةِ المتدرّبةِ أنْ تَمنحَ السّيدَ حمدً بعضَ الأوكسجينِ المتوفرِ في المستشفى أو تسمحَ لهُ بالاستلقاءِ ولو قليلاً على سريرٍ مائلٍ ومريحٍ حتى يلتقطَ بعضَ أنفاسِهِ. أينَ الإنسانيةُ في الطبِّ والمعاملةِ لمريضٍ كانَ يبدو للعيانِ أنّهُ على وشكِ الغروبِ خلفَ سحابةِ الموتِ المُحيطةِ!. ماذا كان بوسعِ تلكَ الطبيبةِ أنْ تزعمَ أيَّ شيءٍ بشأنِ سببِ الوفاةِ إنْ كان يَجبُ عليها عملَ ذلكَ؟!. ذهبَ السّيدُ حمد وزميلُهُ إلى عيادةٍ خاصةٍ في الشارعِ التجاريِّ المزدحمِ وحصلَ على جرعةٍ من المسكناتِ والمضاداتِ الحيويةِ ساعدتهُ قليلاً في الاسترخاءِ والشفاءِ فيما بعدُ. عَلِمَ السّيدُ حمد وزميلُهُ فيما بعدُ أنَّ أحدَ حرّاسِ بوّاباتِ الجامعةِ، قليلةِ العددِ، لَمْ يفلتْ من "قبضةِ" الطبيبِ المناوبِ في وضحِ نهارٍ مشمسٍ. أخبرَ الأخيرُ حارسَ البوّابةِ أنْ لا داعيَ للقلقِ بشأنِ قلبِهِ الذي كانَ الحارسُ المسكينُ يشكو من ألَمٍ فيهِ. لَمْ يتمكّنْ الحارسُ المنكوبُ من الابتعادِ كثيراً عن درجِ العيادةِ الخارجيِّ حينَ خرَّ صريعاً نتيجةَ فشلٍ في عملِ القلبِ، تاركاً وراءهُ زوجةً وعدداً من الأطفالِ.

على أنَّ الطبيعةَ والتجربةَ في الحياةِ الجديدتين أضافَتا لِحياةِ السّيدِ حمد تذوقاً وأبعاداً جديدةً فيها الكثيرُ من الحيويةِ المُطّعّمةِ بالثوريةِ وحبِّ التحرُّرِ وكسْرِ القيودِ، الماديةِ والنفسيةِ والمعنويةِ. تجاربُ وحياةٌ جعلتهُ يستمتعُ أكثرَ بأنغامِ الموسيقى الملتزمةِ والعبقةِ برائحةِ الثوريةِ والتحرُّرِ والتمرُّدِ على الظلمِ والاستبدادِ والتبعيةِ المقيتةِ؛ أنغامٌ تلعنُ الإمبرياليةَ وتوابعَها كما الحجارةُ تلعنُ إبليسَ في جحرِهِ!. يضيفُ البحرُ بلونِهِ الأزرقِ الهادئِ وأمواجِهِ والمراكبِ الماخرةِ قربَ شواطئهِ بُعداً جَمالياً جديداً لَمْ يكنْ يعهدُ بِهِ السّيدُ حمد من قبلُ طوالَ حياتِهِ الماضيةِ. لذلك ازدادَ تعلقُ السّيدِ حمد بأوتارِ عودِهِ مِمّا جعلَهُ أقلَّ عرضةً للأمراضِ وأقلَّ حاجةً إلى طبيبٍ لِمعالَجةِ أيّةِ ذبْحةٍ قلبيةٍ أو صدريةٍ أو كلويةٍ أو دماغيةٍ أو عصبيةٍ. احتوتْ مكتبةُ السّيدِ حمد الموسيقيةُ أسطواناتٍ جديدةً كان لا يشبعُ ولا يقنعُ ولا

يرتوي! من كثرةِ تكرار السّماعِ إلى أيٍّ منها. لازمتهُ تلكَ الأنغامُ إلى سريرِ نومهِ وفي وقتٍ متأخرٍ من اللّيلِ!.

صيفٌ وامتحانُ قبولٍ للبدءِ بأُطروحةِ الماجستيرِ

في غالبيةِ الأحيانِ يعامَلُ طالبُ الدراساتِ العليا في مثلِ تلكَ الجامعاتِ معاملةَ "الوعلِ أو الغزالِ أو الحيوانِ البريِّ". ينتهزُ الأستاذُ الجامعيُّ فرصةَ لاقتناصِ ذلكَ الطالبِ للعملِ لديهِ على بَحثٍ معيّنٍ يرغبُ الأستاذُ في إعادةِ العملِ بهِ أو تطويرِهِ أو فحصهِ من جديدٍ. القليلُ من الأعمالِ البحثيةِ على ذلكَ المستوى تلبّي طموحاتِ الدارسِ الجديدِ الذي يعملُ ليلَ نَهارَ من أجلِ تطويرها أو تطويرِ نفسهِ بها. ما أنْ تنتهيَ السَّنةُ الأولى والتي هي سنةُ إعدادٍ لفحصِ إمكانيةِ استمرارِ الطالبِ إلى درجةٍ أعلى من "المَجدِ" الأكاديميِّ، حتى يبدأَ البروفيسورُ بلعْقِ شفتيهِ ولسانهِ وأنيابِه، في حالةٍ مشابهةٍ لقطِّ الجائعِ الذي ينتظرُ فأراً طريَّ اللحمِ من قفصِ التربيةِ أو من جحرِه. لكنْ وفي حالتِنا هَذِه، الويلُ لذلكَ الفأرِ! إنْ لَمْ "يَختَرْ" ذلكَ البروفيسورَ الذي يتربّصُ بهِ الدوائرَ؛ لا يتردَّدُ في ضربهِ في الامتحانِ بتنقيصِ علامتهِ أو حتى بترسيبهِ وحَمْلهِ على إعادةِ المساقِ إنْ أمكنَ. في حالةِ السّيدِ حمد بدا الوضعُ معَ المشرفِ الأكاديميِّ ببساطةٍ أكثرَ قرباً من حقيقةِ وطباعِ إنسانٍ مطوّرةٍ قليلاً عن طباعِ إنسانٍ خامٍ أو حتى متوحّش. مرّاتٍ كثيرةً يتعاونُ أستاذانِ متبادلانِ المنفعةَ على الإيقاعِ بتلميذٍ ضعيفٍ فقيرٍ لا يَجدُ الدّعمَ السّياسيَّ الكافيَ إمّا لاختيارِهِ أستاذٍ من "الصّفِّ الخلفيِّ" أو أنّهُ على علاقةٍ شخصيةٍ غيرِ طبيعيةٍ بمدرِّسِ تلكَ المادةِ. بعبارةٍ أخرى نَحْنُ نتحدثُ عن أَجَمةٍ يتخلّى فيها الإنسانُ عن معظمِ القيمِ والشرفِ الإنسانيِّ من أجلِ إيقاعِ أقصى ضررٍ مُمكنٍ بعدوٍّ مفترضٍ لا ذنبَ لهُ على الإطلاقِ سوى أنّهُ لَمْ يتابعْ عملَهُ الأكاديميَّ معَ ذلكَ البروفيسورِ. أكثرُ من ٥٠% من نتائجِ امتحانِ القبولِ لأطروحةِ الماجستيرِ، نجاحاً أو رُسوباً، تتدخلُ فيها السّياسةُ وعملُ مراكزِ القوى المنتشرةِ بشكلٍ علنيٍّ ومعروفٍ لدى كافةِ أعضاءِ القسمِ الأكاديميينَ وغيرِ الأكاديميينَ.

بروفيسورٌ لتلميذٍ: مَعَ مَنْ تُخطّطُ للعملِ في بَحثِكَ فيما لو تَمكَّنتَ من النجاحِ في الامتحانِ العامِّ للدّخولِ في أطروحةِ الماجستيرِ؟!.

طالبٌ "ذكيٌّ": إنَّ المواضيعَ البحثيةَ التي تعملُ بها أيُّها البروفيسورُ الموقَّرُ تستهويني كثيراً، ولكنَّ المشكلةَ تبقى في نتيجةِ الامتحانِ العامِّ؛ وعلى اللهِ النجاحُ!.

البروفيسورُ للطالبِ "الذكيِّ": لا تقلقْ كثيراً، لا تسهرْ كثيراً، لا تدرسْ كثيراً، لا تعملْ كثيراً؛ عليكَ أنْ ترتاحَ في نومِكَ وأنْ تكثرَ من أكلِكَ وشربكَ. كيف حالُ والديْكَ؟ أرجو أنْ تسلّمَ لِيَ عليهما. الآنَ أدخلتُكَ "بيتَ الأمانِ والاطمئنَانِ"!.

تلميذٌ آخرُ (على البَرَكةِ): سوفَ أقرّرُ بعد أنْ أنْجحَ في الامتحانِ، توجدُ عدةُ مواضيعَ تستهويني، كلُّها تقريباً بنفسِ الدرجةِ من الاهتمامِ.

البروفيسورُ: حسناً، حظّاً جيداً، ولكنْ فَكِّرْ بنفسِكَ واعرفْ مَصلحتَكَ. لدينا هنا خبرةٌ بعشراتِ السّنينِ في القسمِ والجامعةِ وأكثرَ من أيِّ شخصٍ آخرَ!.

تلميذٌ آخرُ: لقد اتفقتُ مَع الدكتورِ "برونْهيكو"، مثلاً، والذي يُحاولُ استخدامَ تكنولوجيا الحاسوبِ لتبسيطِ حلِّ كثيرٍ من المسائلِ الرياضيةِ في العلومِ.

البروفيسورُ: لا يُمكنُنا الاقترابُ منكَ لأنَّ الدكتورَ "برونْهيكو" ذا جبروتٍ سياسيٍّ في القسمِ.
السّيدُ "عَلوش": عندما يأتي الصّبيُّ، نصلي على النبيِّ!. (مثلٌ شعبيٌّ يدعو للتريّثِ وعدم استباقِ الأمورِ بالجزمِ فيها قبلَ حدوثِها). إذا ما نَجحتُ في الامتحانِ التحريريِّ ومن بعدهِ الشفويِّ، للبدءِ بأطروحةِ الماجستيرِ، فسوفَ نفكّرُ في الموضوعِ. لندعْ الأمورَ تَجري على طبيعتِها.....
البروفيسورُ: أنت وشأنُكَ، ولكنَّ حظوظَكَ في النجاحِ ضحلةٌ!.
هنالكَ الكثيرُ من الحالاتِ التي يكونُ فيها للعلاقةِ الشخصيةِ الأثرُ الأكبرُ في تَحديدِ سيرِ دراسةِ وعملِ طالبِ الدراساتِ العليا والاستفادةِ من خدماتِ ومرافقِ الجامعةِ التي يَحتاجُها ذلكَ الطالبُ. هنالكَ تدخّلٌ سافرٌ، غيرُ مشرّفٍ في معظمهِ، في استخدامِ مرافقِ الجامعةِ من مُختبراتٍ وورشِ العملِ ومركزِ الحاسوبِ الإلكترونيِّ (في ذلكَ الوقتِ لَمْ يكن الحاسوبُ مطوّراً ومنتَشراً وسهلَ الاستعمالِ) وحتى أقسامِ الإعارةِ في المكتبةِ. يصبحُ التدخلُ في كلِّ ما سبقَ من قِبَلِ الأساتذةِ عملاً مباحاً لتحقيقِ نزواتِهِمْ الشخصيةِ. الكذبُ سلاحُ قويٌّ، كلَّما أمكنَ، عندَ الكثيرِ من أعضاءِ هيئةِ التدريسِ. "أنا أكذبُ فأنا موجودٌ وقويٌّ"؛ وعلى الطرفِ الآخرِ النقيضِ "أنا أصدقُ فأنا ضَعيفٌ وساذجٌ" ولا أَتمتعُ بدعمٍ إداريٍّ أو سياسيٍّ. يتحولُ الأكاديميُّ في ذلكَ إلى سياسيٍّ فتاكٍ بمن حولَهُ. أحدُ الأمثلةِ البسيطةِ على ذلكَ الفسادِ وتلكَ المَحسوبيةِ حدثَ عندَما اَستغرقَ تصليحُ جهازٍ إلكترونيٍّ معطلٍ أكثرَ من ثلاثةِ أشهرٍ بسببِ تشنُّجِ العلاقةِ بينَ ذلكَ التلميذِ المسكينِ والأستاذِ الذي أوكلتْ إلى "جَماعتهِ" تلكَ الورشةُ الإلكترونيةُ؛ في الظروفِ العاديةِ لا يستغرقُ إصلاحُ ذلكَ الجهازِ أكثرَ من نصفِ ساعةٍ. وإذا ما حدثَ أنَّ الجهازَ تعطَّلَ من جديدٍ فإنَّ على التلميذِ أنْ يضعَ بَحثَهُ وتَخرُّجَهُ من الجامعةِ نِهائياً في خبرِ كانَ؛ ذلكَ لأنَّهُ عندَما يكذبُ ذلكَ الأستاذُ أو البروفيسورُ القويُّ (يقولُ مثلاً أنْ ليسَ لَدى الورشةِ الإلكترونيةِ، المناطةِ باسْمهِ، معدّاتٌ كافيةٌ لإصلاحِ ذلكَ العُطْلَ أو الخَلَلَ) فليسَ للآخرينَ إلا أنْ يصدّقوهُ. يكونُ ذلكَ على حسابِ عمرِ وحياةِ ومستقبلِ ذلكَ المسكينِ التلميذِ والمشرفِ عليهِ الدكتورِ الضعيفِ. نتحدّثُ هنَا عن أعمالٍ كهذهِ في جامعةٍ تتمتّعُ بسمعةٍ دوليةٍ مرموقةٍ، خاصةً لدى الدولِ الناميةِ المُحيطةِ بالمنطقةِ. هذه الجامعةُ، من المفترضِ، تشكِّلُ حلقةَ وصلٍ بينَ الدولِ المتخلفةِ والأخرى المتحضّرةِ!.
في ذاتِ الصّيفِ، صيفِ الامتحانِ التحريريِّ والشفويِّ، كانَ هنالكَ مساقٌ في اللغةِ لطلبةِ الدراساتِ العليا ليتعلموا فيهِ على كتابةِ بُحوثِهِمْ بلغةٍ غيرِ لغةِ الأمِّ لكلٍّ منهُمْ. تُشرفُ السّيدةُ "لويزة" على تعليمِ ما لا يقلُّ عن ثلاثينَ (٣٠) طالباً، متوسّطُ أعمارهِمْ حوالَي خَمسةٍ وثلاثونَ (٣٥) سنةً. يتعلّمونَ كيفَ لَهُمْ أنْ يكتبوا أفكارَهُمْ وأبْحاثَهُمْ بالطريقةِ العصريةِ الحديثةِ باللغةِ الأجنبيةِ فقط. اللغةُ الأجنبيةُ ليستْ لغةَ الأمِّ والأبِ لأيٍّ منهُمْ، الطالبُ هنا بحاجةٍ إلى إعادةِ تعليمٍ (بعدَ عمرٍ طويلٍ) من جديدٍ حتى يتمكّنَ من التعاملِ "العصريِّ" مع العلمِ والتعليّمِ والبحثِ!.
على هؤلاء الطلبةِ نشْرُ العلمِ والتعليمِ بالطريقةِ الجديدةِ وبلغةٍ غيرِ لغتهِمْ الوطنيةِ؛ عمليةُ مسخٍ ثقافيٍّ تدريجيٍّ من الذاكرةِ للغاتِ بعضِ أممِ وشعوبِ الأرضِ والويلُ لِمن يعترضُ أو "يتمرَّدُ" على ذلكَ.

في نِهايةِ ذلكَ الصّيفِ لَمْ يتمكّنْ السّيدُ حمد من الذهابِ إلى مسقطِ رأسهِ بسببِ انشغالهِ الكبيرِ في التحضيرِ للامتحانِ والدخولِ في بَحثِ أطروحةِ الماجستيرِ.
سرحان وأبوالزهو و"هيما": هلّووو... "هاو آر يو ذير"؟ ... "أوكي"؟....
السّيدُ حمد: لقد ضاعَ منكُمْ مساقُ اللغةِ الأجنبيةِ مع السّيدةِ "لويزة". لو حضرْتُمْ المساقَ لالتقيتُمْ بالكثيرِ مِمَّنْ يعشقونَ لغةَ الأجانبِ وأضفتُمْ الكثيرَ من الكلماتِ والجُمَلِ إلى قاموسِ لغَتِكُمْ بكلماتٍ إضافيةٍ لَمْ تكونوا تعرفونَها في السّابقِ. ربَّما لتمكّنتُمْ من التخلصِ من بعضِ لكناتِكُمْ الحاليةِ التي تَجعلكُمْ تبدونَ متخلّفينَ أمامَ الخلقِ!.
"هيما" وأبوالزهو: أعطِنا من هذه الكلماتِ، سوفَ نتعلَّمُ المزيدَ منها منكَ. نريدُ كلماتٍ غيرَ تلكَ التي تعلّمناها منكَ في الماضي.
السّيدُ حمد: ... مصطلحاتٌ مِنْ مثلِ "تيك إت إيزي Take it easy!"، "جود لاك! Good Luck!" ..... "سا فا بيين؟! ça va bien?!" (ماشي الحال بالفرنسيّةِ" ... وكثيرٌ غيرُها. عندما ألتقي بِكُمْ عن قربٍ سوف أعلّمُكُمْ مصطلحاتٍ لغويةً أكثرَ. الوقتُ على الهاتفِ مكلفٌ جداً. لَقد نَفِدَتْ الفلوسُ من جيبيَ!.
سرحان وأبوالزهو و"هيما": هنالكَ في المدينةِ مَحلٌّ بيعِ ملابسَ جديدٌ لا يقبلُ موظفينَ عندَهُ إلا الذينَ يتقنونَ اللغةَ الأجنبيةَ مُحادثةً وقراءةً. هنالكَ فتاةٌ مبيعاتٍ تتكلمُ خليطاً عجيباً من العربيةِ والأجنبيةِ.
السّيدُ حمد: إنَّ طريقةَ تعليمِ واستعمالِ اللغةِ العربيةِ في مدارسِنا وجامعاتِنا وبيوتِنا ومُجتمعاتِنا وحقولِنا ومزارعِنا من كبارِنا قبلَ صغارِنا تَجعلُ الأجيالَ القادمةَ مِنا يَتقبَّلون بشَرَهٍ كبيرٍ أيَّةَ لغةٍ أخرى؛ تركيةً كانت أمْ فارسيةً أمْ فرنسيةً أمْ إنجليزيةً أمْ سانسكريتيةً ... أيَّةَ لغةٍ أخرى حيةً كانت أمْ ميتةً!.

سنةٌ ثانيةٌ في الماجستيرِ

بعدَ صيفٍ ساخنٍ شَمِلَ التحضيرَ للامتحانِ التحريريِّ والشفويِّ للبدءِ في العملِ لبحثِ أطروحةِ الماجستيرِ، وبالتحديدِ بعدَ الامتحانِ، اختفى عددٌ من الزملاءِ والأصدقاءِ. رسْمياً الآنَ، على الطالبِ الناجحِ أنْ يَختارَ مرشدَهُ الأكاديميَّ ليشرفَ عليهِ حتى يقودَهُ إلى درجةِ أو شهادةِ الماجستيرِ. سيحملُ ذلكَ التلميذُ بصماتِ تفكيرِ مرشدِهِ وخبرتِهِ أو تقنياتٍ علميةً مستقاةً مَن فكرِ وذكاءِ وخبرةِ ذلكَ الأستاذِ المشرفِ.

بعدَ بَحثٍ وتَمحيصٍ ومراعاةِ ظروفِ وقدراتِ القسمِ وغيرِ ذلكَ، قرّرَ السّيدُ حمد اختيارَ "الفيزياءِ التجريبيةِ" لِمتابعةِ تَحصيلِهِ العلميِّ تَحْتَ إشرافِ الدكتورِ "هونـايْكِرِينْكو" الأوروبِّـيِّ الأصلِ والعرقِ والجنسيةِ واللـونِ و.... الهـوى. كـانَ الأخيرُ قد تَجاوزَ السّتينَ من العمرِ في ذلكَ الوقتِ، إلا أنّهُ كانَ دائماً يزعمُ بأنّهُ لَمْ يتخطَّ من العمرِ الخمسينَ سنةً!. لهُ شخصيةٌ فريدةٌ إلى حدٍّ ما، فهو من الندرةِ بمكانٍ أنْ يبتسمَ؛ من الممكنِ أنْ يضحكَ بصوتٍ عالٍ أو يقهقِهَ ولكن تنعدمُ منهُ وفيهِ نَبرةُ الانشراحِ والتفاؤلِ والتسامحِ والحلِّ الوسطِ، وهو ليس هكذا مع كلِّ الناسِ.

بِما لا يزيدُ عن ثلاثينَ (٣٠) دقيقةً من الجلوسِ مع السّيدِ حمد تَمَّ فيها تَحديدُ عنوانِ وشكلِ ومسارِ الأطروحةِ للأخيرِ. يوجدُ عندَ الدكتورِ "هونايكرينكو" جهازُهُ العلميُّ التجريبيُّ "التاريخيُّ" المنتصَبُ في الطابقِ العلويِّ من مبنى قسمِ الفيزياءِ من أجلِ إجراءِ التجاربِ العلميةِ في البحثِ. ذلكَ الجهازُ كبيرٌ في الحجمِ وقديمٌ في الطرازِ وجرى بهِ من قبلُ وتَجري بهِ وعليهِ الآنَ، ومن بعدُ ربَّما، معظمُ عملياتِ القياسِ في التجاربِ التي ستؤدي إلى كتابةِ أطروحةِ الماجستيرِ من قِبَلِ السّيدِ حمد. من بعيدٍ يبدو الجهازُ العريقُ القديمُ مثلَ بعيرٍ عجوزٍ ضخمِ الجسدِ مستعدٍّ لِحَملِ أو نقلِ المزيدِ من الخريجينَ حولَ سنامةِ ظهرهِ. وبسببِ خبرةِ الدكتورِ "هونايكرينكو" الطويلةِ فهو ملمٌّ طبعاً أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخرَ تقريباً بشؤونِ جهازِهِ... مزاياهُ، مَحاسنُهُ (إنْ وُجدتْ) ومساوئُهُ، زوائدُهُ ونواقصُهُ.

فـي اللقـاءِ البحثـيِّ الأوَّلِ بـينَ السّـيدِ حمـد والمشـرفِ عليـهِ، الـدكتورِ "هونايكرينكو"، أحضرَ الأخيرُ ورقةَ رسمٍ بيانيٍّ صغيرةٍ رُسِمَ عليها شكلُ "طَيْفِ لِجُزَيءٍ كيماويٍّ" زعمَ أنّهُ أنتجَهُ بنفسِهِ سابقاً باستعمالِ جهازِهِ البحثيِّ التجريبيِّ المخضرمِ (شهدَ عهديْنِ أو أكثرَ مُختلفةً من الزمانِ) في ذلكَ المُختبرِ. زَعَمَ كذلكَ أنّهُ حصلَ علَى ذلكَ الشكلِ عن طريقِ الصّدفةِ، عنْدَ مُحاولتِهِ تَحليلَ بعضِ الطيفِ التركيبيِّ "الدقيقِ" (بإيجازٍ شديدٍ، الطيفُ الدقيقُ هو: طيفٌ لِجزيءٍ كيماويٍّ ناتجٌ

عن التفاعلِ بين "حركةِ الإلكترونِ المِغْزَلِيَّةِ" حولَ نفسهِ مع نظيرتِها في أنويةِ ذراتِ ذلكَ الجزيءِ الكيماويِّ الذي يَحتوي ذلكَ الإلكترونَ) لأحدِ الأملاحِ العضويةِ قبلَ حوالَيْ العشرِ (١٠) سنواتٍ من حينِهِ. طريقةُ البحثِ والتعاملِ مع هذا المَجالِ العلميِّ التي يعملُ بها الدكتورُ "هونايكرينكو" عفا عنها الزمنُ قبلَ وقتٍ طويلٍ من حينِهِ، نظراً لعُقْمِها، وأُلغيتْ من طرقِ البحثِ المتبعةِ في ذلكَ الفرعِ من العلمِ. (غيرُ مهمٍّ لدى القارئِ معرفةُ التفاصيلِ هنا) الهدفُ كما يقولُ الدكتورُ "هونايكرينكو" هو معرفةُ سرِّ تلكَ الصّدفةِ بطريقةٍ منهجيَّةٍ كاملةٍ ومتكاملةٍ وبخطواتٍ مدروسةٍ بالتفصيلِ حتى يُنْتَجَ، إنْ أمكنَ، ذلكَ الشكلُ "الغريبُ" من جديدٍ. ذاك الرسمُ "البيانيُّ"، أو الخريطةُ البيانيةُ، والتحليلُ العلميُّ المرافقُ لذلكَ الرسمِ كانا قد ظهرا في مقالةٍ علميةٍ في مَجلةٍ حيثُ اسْمُ الدكتورِ "هونايكرينكو" مع حَوالَيْ سبعٍ من رفاقِهِ ولَمْ يتجاوزْ حجمُ المقالةِ مع الرسمِ البيانيِّ المرافقِ لها الصّفحةَ الواحدةَ بما في ذلكَ قائمةُ المراجعِ العلميةِ على المقالةِ. ولقد جرى النقاشُ التالي بين السَّيدِ حمد والدكتورِ "هونايْكرينْكو" قُبيلَ بدءِ العملِ بالبحثِ:

السّيدُ حمد: يا بروفيسورَ "هونايكرينكو"، هل ما تتقدّمُ بهِ إليَّ كمشروعٍ للبحثِ هو أحجيةٌ؟، لغزٌ أمْ حزّورةٌ؟ أمْ فزّورةٌ؟. سأصرفُ من وقتِيَ الكثيرَ وجهديَ الأكثرَ من أجلِ أحجيةٍ قد تعرفُ حلَّها سلفاً أو الآنَ... أو حتى لا تعرفُ!؟. بهذهِ الطريقةِ سأتَحوّلُ إلى "حِمارِ بَحثٍ"، إنْ صَحَّ التعبيرُ، عندَكَ؛ لا أكرهُ الحميرَ ولا أنتقدُ طريقةَ تفكيرِها وعملِها في حياتِها، مَعاذَ اللهِ. إنْ كنتَ تعرفُ سرَّ أو مفتاحَ هذا البحثِ فلا داعياً للخوضِ في مكنونِهِ ما لا يقلُّ عن سنةٍ تأتي بعدَها لتقولَ لِيَ إنَّ حلَّ اللغزِ هذا كان من السّذاجةِ بمكانٍ!. لا تلعبْ لعبةَ عيالٍ على حسابِ حياةِ ووقتِ ومستقبلِ الآخرينَ. إذا ما كانَ لديكَ من شيءٍ يَجعلُني مقتنعاً بالدراسةِ المفيدةِ معكَ فلتتفضّلْ بهِ، أو اتركنِ وسبيلِيَ. الأمرُ يَحتاجُ إلى شيءٍ اسْمُهُ ضميرٌ من عندِكَ.

الدكتورُ "هونايكرينكو": ما هذا الكلامُ السّاذجُ الذي تقولُهُ؟!. أريدُ منكَ دراسةً منهجيةً تشملُ قياسَ درجاتِ الحرارةِ، تَجريبَ أنواعٍ عديدةٍ من المذيباتِ الكيماويةِ، قياسَ مَجالاتٍ مغناطيسيةٍ، تَجريبَ أنواعِ أملاحٍ مذابةٍ مُختلفةٍ وعناصرَ معدنيةٍ للأكسدةِ مُختلفةٍ.... وغيرَها الكثيرُ.

السّيدُ حمد: كلٌّ واحدٍ من هذه العواملِ المذكورةِ أعلاهُ يَحتاجُ، وحتى تتمَّ دراستُهُ، إلى ما لا يقلُّ عن ستةِ أشهرٍ. هل لديكَ فيهِ جهدٌ أو عملٌ مدخرٌ في السّابقِ للمساهَمةِ فيهِ؟، وهل لديكَ ميزانيةٌ ماليةٌ لتمويلِ مثلِ هذا الخيالِ الجامحِ من عندِكَ؟!. من أينَ آتيكَ بالأموالِ؟. من أبو جاسر وأم جاسر ومعهُما أبوالزهو!؟.

الدكتورُ "هونايكرينكو": ستقومُ بكلِّ ذلكَ بنفسِكَ، هذا الذي أنت قادمٌ هنا من أجلِهِ!.

السّيدُ حمد: أنا قادمٌ هنا لأدرسَ العلمَ، لا لأنتحرَ في خندقِ استعبادِكَ. خاف ربك يا زَلَمةْ!.

الدكتورُ "هونايكرينكو": لا عليكَ!، سيساعدُكَ في ذلكَ تلميذِيَ السّابقُ والذي حالياً يعملُ مدرِّساً في القسمِ. بالإضافةِ إلى عملِهِ عندِيَ كمراقبٍ و"مُخبرٍ صادقٍ" لِيَ عن بقيةِ أعضاءِ وأنشطةِ القسمِ، سوفَ يساعدُكَ بما يقدرُ عليهِ وحسبَ وقتِهِ.

تركَ حمد مكتبَ الدكتورِ "هونايكرينكو" وبدأَ العملَ موصلاً الليلَ بأطرافِ النهارِ ومنذُ طلوعِ الشمسِ إلى "غيابِ الليلِ" على حلِّ لغزِ الدكتورِ "هونايكرينكو" ومَجموعتِهِ. لَمْ تكنْ هنالكَ من مساعدةٍ تذكرُ، لا من "هونايكرينكو" ولا من تلميذِهِ

السّابِقِ. على العكسِ كانَ الدكتورُ "هونايكرينكو"، وتلميذُهُ، كلَّ أنواعِ المُحبطاتِ والمُثبِّطاتِ للعزائمِ بالتوازي مع إفراطِهِ وزملائِهِ في شربِ القهوةِ والشاي والاستمتاعِ بقراءةِ الصّحفِ والمَجلاتِ باللغاتِ الأجنبيةِ المتوفرةِ، كلِّها تقريباً، عداَ العربيةِ منها. لا يردُّ الدكتورُ "هونايكرينكو" حتى السّلامَ بمثلِهِ على تلميذِهِ الذي يعملُ في مُختبرهِ كلَّ يوم، في حينِ يُلوِحُ بكِلْتا يديهِ لشخصٍ على الطرفِ الآخرِ من مصفِّ السّياراتِ حتى ولو لَمْ يكنْ ذلكَ الشخصُ لهُ منتبهاً!. علمَ السّيدُ حمد فيمَا بعدُ أنَّ الدكتورَ "هونايكرينكو" كانَ سجيناً عندَ "جيشٍ معادٍ" (الجيشِ الألْمانيِّ النازيِّ) خلالَ الحربِ العالميةِ الثانيةِ ولمدّةِ سنةٍ ونصفِ السّنةِ ذاقَ فيها صنوفاً من التعذيبِ، كان من ضمنِها تقديمُ وجبةِ طعامٍ لهُ تساوي شطيرةً واحدةً يومياً مع كأسٍ من الماءِ لا غيرَ!. لعلَّ ذلكَ يفسِّرُ السّببَ في تعاطيهِ الكثيرَ من شرْبِ السّوائلِ وعدمِ خلوِّ سطحِ طاولةِ مكتبهِ من المأكولاتِ؛ فوقَ ذلكَ يفسِّرُ تفنّنَهُ في تعذيبِ تلميذِهِ الذيَ يَمتهِنُ الرّهبنةَ في سبيلِ حلِّ لغزِهِ....

السّيدُ حمد: غريبٌ أنَّ الدكتورَ "هونايكرينكو" لا يستطيعُ إيجادَ خَمسِ دقائقَ للجلوسِ والنقاشِ معيَ في حينِ يقضي معظمَ نَهارِهِ بشربِ السّوائلِ المُختلفةِ الألوانِ والمذاقِ ودرجاتِ الحرارةِ؛ ومع ما هبَّ ودبَّ من زملاءَ ومدعوّينَ وحتى مع طلّابِ السّنةِ الأولى لمرحلةِ البكالوريوس. (كانَ الدكتورُ "هونايكرينكو" يعطي دروساً خصوصيةً مقابلَ أجرٍ لبعضِ تلامذتهِ من السّنةِ الجامعيةِ الأولى ليعينَهُمْ على التفوّقِ، على حدِّ تعبيرِهِ).

تلميذُ الدكتور "هونايكرينكو" سابقاً: هل تُحاولُ إهانةَ دكتوريَ وأستاذِيَ "هونايكرينكو" أماميَ؟. لا أسْمحُ لكَ بذلكَ.

السّيدُ حمد: منذُ البدايةِ قالَ ليَ الدكتورُ "هونايكرينكو" أنّكَ ستساهمُ بشيءٍ ما في العملِ معِي؛ أريدُ منكَ أنْ تكفَّ شرَّكَ عنِّيَ فقط. أكرهُ مراقبةَ الغيرِ والعيونَ التي تراقبُ الغيرَ!؛ إنَّ ذلكَ لَمِنَ الأمورِ المقيتةِ....

يقومُ البروفيسورُ "هونايكرينكو" بتدريسِ مساقٍ لطلبةِ الدراساتِ العليا الجددِ. يساعدُهُ السّيدُ حمد في المساقِ بالقيامِ بتصحيحِ أعمالِ البيتِ التي يقومُ الدكتورُ بإعطائِها للتلاميذِ من حينٍ لآخرَ. ولِمساعدةِ السّيدِ حمد، كما يزعُمُ الدكتورُ "هونايكرينكو"، فإنَّ الأخيرَ يعطيهِ الإجاباتِ لأسئلةِ الوظيفةِ وما على السّيدِ حمد إلا مقارنةَ إجاباتِ الطلبةِ بها وتقييمِها بناءً على ذلكَ الأساس. ذاتَ يومٍ كانت إجابةُ أحدِ الطلبةِ، في أحدِ تلكَ الأعمالِ الوظيفيةِ، ١٠٠% مطابقةً بالصّورةِ لإجابةِ الدكتور "هونايكرينكو"؛ حرفاً بحرفٍ وفاصلةً بفاصلةٍ ونقطةً بنقطةٍ ولا غرابةَ نفسَ الأخطاءِ الموجودةِ عندَ "هونايكرينكو" كانت موجودةً عندَ التلميذِ. ظنَّ السّيدُ حمد أنَّ التلميذَ الجديدَ قام بسرقةِ إجاباتهِ من جعبةِ الدكتور "هونايكرينكو" العلميةِ، وتوجَّهَ فيما بعدُ إلى مكتبِ الأخيرِ في مُحاولةٍ لِحلِّ الإشكالِ. تغيَّرَ لونُ الدكتور "هونايكرينكو" قليلاً ثُمَّ تدارك نفسَهُ؛ يبدو أنَّ هنالكَ "سَمكةً عفنةً" واحدةً على الأقلِّ في الموضوعِ. لَمْ يسرقْ التلميذُ شيئاً من مذكّراتِ الدكتور "هونايكرينكو" وإنَّما تعاونَ مع طالبٍ مُخضرمٍ واستعارَ منهُ دفترَ ملاحظاتهِ والذي، أيْ الطالبُ المخضرمُ، كان قد دَرَسَ المساقَ من قبلُ مع زميلٍ للدكتور "هونايكرينكو". يقومُ الدكتورُ "هونايكرينكو" وللمرةِ الخامسةِ على الأقلِّ بإعطاءِ نفسِ المادةِ، نفسِ

الجُملِ والعباراتِ، نفس الأرقامِ والحساباتِ، ونفس الأخطاءِ تتوارثُها الأجيالُ من السّابقينَ إلى اللاحقينَ إلى الذينَ سيلحقونَ بِهِمْ فيماً بعدُ.
السّيدُ حمد: بروفيسورَ "هونايكرينكو"!، تتحدّثُ على الدوامِ عن التفكيرِ والإبداعِ، وتقودُ البحثَ وتشرفُ على رسائلَ ماجستيرٍ ودكتوراه. كيفَ لكَ أنْ تعطيَ وللمرّةِ الألفِ نفسَ الأفكارِ والحساباتِ والتسلسلِ والأخطاءِ والاعوجاجِ والمهازلِ. في هذا وذاك أنت القائدُ والرائدُ في مَجالِ الكذبِ والمهازلِ في الإبداعِ وغيرِ الإبداعِ. كيف لك أنْ تستمرَّ في هذا؟!.
البروفيسورُ "هونايكرينكو": هذا أسلوبٌ يُتَّبَعُ عندَ الكثيرِ من المدرِّسينَ وفي كلِّ أنْحاءِ العالَمِ. لا ضيرَ في ذلكَ، المهمُّ أنَّ الطالبَ لا يغِشُّ ولا يقومُ بعملٍ خسيسٍ كهذا الذي حدثَ مع ذلكَ "الطالبِ الغبيِّ"!.
السّيدُ حمد: هل تريدُ من الطالبِ أنْ لا يقلّدَ أستاذَهُ الذي يعملُ مثلَ ذئبٍ عجوزٍ جائعٍ؟!. الآنَ ما العيبُ إنْ اكتشفَ طالبٌ أمرَ مدرّسهِ قبلَ فواتِ الأوانِ عليهِ وانتبهَ لِحالِهِ ومستقبلِهِ وليسَ كما حدثَ ويَحدثُ معَ الكثيرِ غيرِهِ؟!.
البروفيسورُ "هونايكرينكو": أريدُ منكَ أنْ تَحذفَ علاماتِ هذهِ المَجموعةِ من الأسئلةِ من المَجموعِ العامِّ للعلاماتِ وأنْ توجِّهَ "لفتَ نظرٍ" أو "لفتَ انتباهٍ" أو حتى "تَحذيراً شديدَ اللّهجةِ" إلى ذلكَ التلميذِ لكيْ لا يكرِّرَ عَملاً كهذا الذي قامَ بهِ مرّةً أخرى.
السّيدُ حمد: وماذا لو تتعبُ نفسَكَ ولو قليلاً وتُحدثُ نوعاً من التجديدِ في طرقِ تدريسِكَ وعرضِ أفكارِ الكتابِ!؟. لقد رأيتكَ بنفسِي تنقلُ حلولَ الأسئلةِ من دفترِ أحدِ المدرسينَ السّابقينَ للمَساقِ وتقومُ بعرضِها للتلاميذِ، مِمّا يَجعلُ التلاميذَ يظنونَ أنَّ تلكَ الحلولَ هي بناتُ أفكاركَ.
قابلَ السّيدُ حمد الطلابَ ونصحَهُمْ ألّا يتَّبعوا ذلكَ الأسلوبَ في تبنّي حلولِ الآخرينَ والتصرفِ اتّجاهَها كما لو كانت نتيجةَ جهودهِمْ. إنَّ هذا الطريقَ، بالإضافةِ إلى أنّهُ يَجبُ أنْ يقتصرَ على المدرّسينَ في أغلبِ الأحيانِ، يؤدي إلى إحداثِ شللٍ في العقلِ العلميِّ والقدرةِ على التقدُّمِ والتطوُّرِ الفكريِّ. لقد أدّى ذلكَ النهجُ بالدكتورِ "هونايكرينكو" إلى أنّهُ لا يستطيعُ الآنَ سوى قراءةِ ما في الكتابِ المقرَّرِ رمزاً "رياضيّاً" برمزٍ وكلمةً بكلمةٍ وسطراً بسطرٍ.
طالبٌ: لقد قامَ البروفيسورُ "هونايكرينكو" بإعطاءِ الطلابِ حلاً رسَمَهُ على السّبّورةِ لأحدِ الأسئلةِ. فجأةً! اكتشفَ أحدُ الطلبةِ أنَّ هنالكَ تغييراً "لا-منطقياً" في تسلسلِ خطواتِ الحلِّ. كانت هنالكَ "فجوةٌ" في المنطقِ الرياضيِّ والفيزيائيِّ في المعلوماتِ المقدَّمةِ. حاولَ بعضُ الطلبةِ وقْفَهُ عن الاستمرارِ في كتابةِ المعلوماتِ. في الحصَّةِ التاليةِ تبيَّنَ للدكتورِ أنَّ الخطأَ كان في ترتيبِ أو تسلسلِ الأوراقِ التي ينقلُ منها حلَّ السّؤالِ المَحلولِ مسبقاً لديهِ.
طالبٌ آخرُ: يعطي الدكتورُ "هونايكرينكو" في الصّفِّ معادلاتٍ رياضيةً فقط يسردُها ويَصُفُّها الواحدةَ تلوَ الأخرى، كلّها رموزٌ رياضيةٌ صماءُ، تَخلو تَماماً تقريباً من الشرحِ. اشتكى أحدُ الطلبةِ الأمرَ ذاتَ مرَّةٍ حينَ رَدَّ عليهِ البروفيسورُ بأنَّ الرياضياتِ هي "اللغةُ العالَميةُ للعلومِ".

السّيد حمد: يظهرُ ذلكَ جليّاً كذلكَ في حسابهِ لقائمةِ المشترياتِ عندَهُ حينَ يقومُ بإعادةِ وتكرارِ جَرْدٍ للتأكُّدِ منْ حسابِ مَجموعِ الأسعارِ للموادِ التي يشتريها من حينٍ لآخرَ. لا يقومُ بكتابةِ أسْماءِ الموادِ والبضائعِ المشتراةِ أثناءَ عمليةِ الجردِ تلكَ.

كثيراً ما يُمجّدُ الدكتورُ "هونايكرينكو" الأذكياءَ والعباقرةَ والباحثينَ العالَميينَ. خلالَ عشرِ سنواتٍ خلتْ استطاعَ، مع حوالَيْ خَمسٍ (٥) من العاملينَ الدائمينَ معهُ، استطاعَ نشرَ بضعةِ مقالاتٍ في مَجلاتٍ علميةٍ من مستوىً تقعُ في الصّفِّ الأخيرِ في تصنيفِ المَجلاتِ العلميةِ. بالإضافةِ إلى ذلكَ فإنَّ تلكَ النشراتِ وأمثالَها لا تقدّمُ للمجتمعِ أيَّ شيءٍ مفيدٍ على الإطلاقِ. السّؤالُ الذي يطرحُ نفسَهُ هو ما الذي يُبْقي على شَخصٍ من مستوى البروفيسورِ "هونايكرينكو" في القسمِ والكلّيةِ والجامعةِ يصولُ ويَجولُ ويقرِّرُ ويَحكمُ بما لا يرضي أكثرَ وبكثيرٍ مِمّا يرضي. هنالكَ اعتباراتٌ سياسيةٌ وطائفيةٌ وعرقيةٌ وأمنيةٌ وإداريةٌ ... وآخِرُها أكاديميةٌ، تَجعلُ من الإبقاءِ على من مثْلِ الدكتورِ "هونايكرينكو"، وهُمْ كُثْرٌ، ذا أهَميةٍ خاصةٍ. أوّلُ هذهِ الاعتباراتِ هو الإبقاءُ على الطلبةِ الدارسينَ، والخريجينَ فيما بعدُ، في حالةٍ من الضعفِ الأكاديميِّ لا يؤهلُهُمْ إنتاجَ أيَّ شيءٍ يضيفُ حيويةً إلى مُجتمعاتِهِمْ وبأيِّ شكلٍ من الأشكالِ. هدفُ تلكَ المؤسساتِ هو إنتاجُ أشكالٍ جوفاءَ مزخرفةٍ لتضليلِ العامةِ من أبناءِ شعوبِهِمْ الغارقينَ في الجهلِ والتخلفِ تَمهيداً لإنْجاحِ سياسةِ التبعيةِ المفروضةِ على تلكَ الشعوبِ من قِبَلِ الدولِ الاستعماريةِ.

استمرارُ حالةِ النّحْسِ

بعدَ حوالَيْ تسعةَ شهورٍ من بدءِ العملِ بمشروعِ بَحْثِ درجةِ الماجستيرِ أبلغَ الدكتورُ "هونايكرينكو" السّيدَ حمد بأنْ يكتبَ لَهُ تقريراً عمّا قامَ بعملِهِ وذلك ليتسنّى للأوّلِ معرفةُ النتائجِ؛ وفيما إذا كانَ مُمكناً للسيدِ حمد الاستمرارُ في ذلكَ العملِ أو التوقّفِ أو التغييرِ إلى عنوانٍ أو موضوعٍ آخرَ. قامَ السّيدُ حمد بلملمةِ كافةِ الأوراقِ والملاحظاتِ والنّتائجِ والتحليلاتِ، جَمعَها كلّها في تقريرٍ موجزٍ بما لا يقلُّ عن ثلاثينَ (٣٠) صفحةً. وبشيءٍ من الابتهاجِ قامَ بوضعِ تلكَ الأوراقِ على مكتبِ الدكتورِ "هونايكرينكو"، الكائنِ في وسطِ المُختبرِ الكبيرِ الحجمِ، حيثُ كانَ من المتوقعِ أنْ يطّلعَ الأخيرُ عليها. سيقرِّرُ البروفيسورُ لاحقاً إمّا يقبلُ بها أو يرفضُها أو يوصي بتصحيحِ جزءٍ منْها، يُثْني عليها أو يذمُّها. في ذلكَ الوقتِ كانت كلُّ الاحتمالاتِ واردةً ومقبولةً، وفي نفسِ الوقتِ لا فرقَ بينَ الإيجابيِّ والسّلبيِّ في مواقفِ الدكتورِ!.

ذهب السّيدُ حمد إلى مسكنهِ واسترخى بعضَ الوقتِ من التعبِ والإرهاقِ والعملِ المتواصلِ والسّهرِ. بعدَ ذلكَ عادَ إلى المُختبرِ، وكان الوقتُ بعدَ العصرِ بقليلٍ، ليرى أنَّ الدكتورَ "هونايكرينكو" قد أعادَ أوراقَ تقريرهِ إلى مكانِ عملهِ في المُختبرِ وقد وضعَ إشارةَ ضربٍ "×" وبِخطٍ أحْمرَ عريضٍ على كلِّ الأوراقِ

والصّفحاتِ، واحدةٍ تلوَ الأخرى. لا توجدُ ملاحظاتٌ سوى واحدةٌ بخطٍّ يدهِ وصغيرةُ الحروفِ وتقولُ: "عليكَ مراجعةُ كلِّ عملِكَ، النتيجةُ كلُّها خطأٌ ١٠٠%". قامَ السّيدُ حمد بالتقاطِ ورقةٍ صغيرةٍ من سلةِ المهملاتِ وكتبَ عليْها بخطٍّ يدٍ صغيرٍ أيضاً: "أينَ الخطأُ في التقريرِ؟، ضعْ دائرةً حولَ أحدِ هذه الأخطاءِ، لو سَمحتَ"؛ وأعادَ الأوراقَ كما هي إلى مَكتبِ الدكتورِ "هونايكرينكو".

في اليومِ التالي جاءهُ الدكتورُ "هونايكرينكو" عابسَ الوجهِ أو متظاهراً بذلكَ، وقالَ أنَّ كلَّ النتائجِ التي حصلَ عليها السّيدُ حمد خطأٌ وللأسفِ! فإنَّ على السّيدِ حمد إعادةَ النظرِ في كلِّ القراءاتِ التي سبقَ لهُ القيامَ بها وإعادةَ الحساباتِ؛ وأنَّ الذي قامَ بهِ السّيدُ حمد كان من قبيلِ الغباءِ الفاحشِ!. أضافَ قائلاً أنّهُ لا يُمكنُ لأحدٍ القبولُ بتلكَ النتائجِ مهما يكنْ مستوى انْحطاطهِ الفكريِّ والعلميِّ والأكاديميِّ. قامَ السّيدُ حمد بالإطلاعِ على كلِّ النتائجِ من جديدٍ، كلِّ طرقِ القياسِ والحساباتِ والمنحنياتِ وجداولِ البياناتِ وغيرِها. لا يوجدُ ما يشيرُ إلى أيِّ خطأٍ مهما يكنْ ليس بذي شأنٍ. لقد صرفَ السّيدُ حمد ما لا يقلُّ عن تسعةِ شهورٍ تساوي فعلياً السّنواتِ من عملِ المشرفِ عليهِ، ليأتيَ ذلكَ الدكتورُ ويُخبرَهُ أنَّ كلَّ تقريرهِ خطأٌ جُملةً وتفصيلاً!. وفي ذاتِ يومٍ في الصّباحِ وعندما كان الدكتورُ "هونايكرينكو" في حالةِ استراحةِ شربِ قهوةٍ معَ بعضِ زملائهِ وتلميذهِ السّابقِ، أتاهُ السّيدُ حمد وعلى حينِ غرّةٍ.

السّيدُ حمد: سيدَ "هونايكرينكو"!، هل أنتَ غيرُ مبالٍ بما تعملُ أو لا تفهمُ ما تقومُ بهِ؟!؛ هذانِ عملٌ وتصرّفٌ غَيْرا لائقيْنِ. تقولُ أنَّ هنالكَ أخطاءً أساسيةً في التقريرِ دونَ الإشارةِ إلى واحدٍ منها؛ ولِمنْ يهمُّهُ الأمرُ أقولُ لكَ أنهُ لا توجدُ مثلُ تلكَ الأخطاءِ ولَمْ تُشِرْ إلى أيٍّ منها. هذه الأوراقُ أمامَكَ؛ هل بمقدوركَ الإشارةُ إلى موقعِ أيٍّ من تلكَ الأخطاءِ؟!. أو تريدُني أنْ أنقلَ هذه الملاحظاتِ إلى موقعٍ آخرَ يفوقُكَ قوّةً وقدرةً وصحةَ تقديرٍ للأمورِ!؟. بعبارةٍ أخرى، هل أنتَ قادرٌ على تحمّلِ مسؤوليةِ تصرّفِكَ هذا؟!.

الدكتورُ "هونايكرينكو": وهل تريدُني أنْ أسألَ لكَ مراجعَ أخرى تثبتُ أنَّكَ على خطأٍ؟. الذي يبدو أنكَ لا تثقُ بيَ.

السّيدُ حمد: على الإطلاقِ!، لو سَمَحْتَ تفضَّلْ واسألْ من تشاءُ ويَحلو لكَ. إذا ما تتمكنُ أنْ تثبتَ نفسَكَ على حقٍّ في أيِّ شيءٍ فيما تدّعيهِ، فإنهُ سيصبحُ لزاماً عليَّ التخلّي عن ما يُمكنُ أنْ يسمّيَهُ البعضُ مستقبلاً علمياً أو أكاديمياً!.

أخذَ البروفيسورُ "هونايكرينكو" التقريرَ إلى بيتهِ وأطّلعَ عليهِ، كما يبدو، زملاءَهُ وأقرانَهُ أو أنّهُ راجعَ نفسَهُ وفضّلَ التراجعَ عن المضيِّ في ذلكَ العنادِ!. عادَ بعدَ يومينِ إلى السّيدِ حمد وكانَ الوقتُ صباحاً:

الدكتورُ "هونايكرينكو": أنتَ على حقٍّ يا سيدَ حمد. لقد اتّبعتَ في قراءاتِكَ ومعالَجتِكَ للأمورِ مدرسةً علميةً ثانيةً غيرَ التي أتّبعُها عادةً، ولقد تأكّدتُ من ذلكَ بنفسِيَ!.

السّيدُ حمد: لا توجدُ هنالكَ مدرسةٌ علميةٌ أولى وثانيةٌ. هذه هي الطريقةُ الوحيدةُ في كلِّ الأبحاثِ وأخْذِ القراءاتِ ومصادرِ الأخطاءِ وتقديراتِها وتَحليلِ النتائجِ. وهذه مقالةٌ علميةٌ حديثةٌ لأعمالٍ وحساباتٍ مشابهةٍ بعضَ الشيءِ، وبها نتائجُ مشابِهةٌ.

تلميذُ "هونايكرينكو" السّابقُ (يتحدّثُ على انفرادٍ مع السّيدِ حمد فيما بعدُ): في الماضي كان البروفيسورُ "هونايكرينكو" هادئاً ورزيناً. لا أعرفُ ماذا جرى لهُ في الآونةِ الأخيرةِ حيثُ وضعُهُ النفسيُّ والمعنويُّ والعقليُّ في حالةِ تَرَدٍّ مستمرةٍ. لهُ أخٌ يصغرُهُ كثيراً في السّنِّ توفّيَ حديثاً بالسّكتةِ القلبيةِ، ولهُ أختٌ مصابةٌ بالصّرعِ في مرحلةٍ متطورةٍ. زوجتُهُ كثيراً ما تشكو من تصرفاتهِ. إلى هذا اليومِ لا يوجدُ عندَهُ بيتٌ مُلْكٌ لهُ، وكلُّ مكافأتهِ للتقاعدِ لا تكفيهِ لشراءِ بيتٍ متواضعٍ في ضاحيةٍ متواضعةٍ في المدينةِ.

السّيدُ حمد: كذلكَ طيلةَ عمليَ معهُ لَمْ أتَمكّنْ من الإطلاعِ على نشرةٍ علميةٍ واحدةٍ لهُ مهما تكنْ متواضعةً وفي مَجلةٍ علميةٍ ذاتِ سُمعةٍ متواضعةٍ. أعرفُ فقطْ عنهُ أنّهُ غيرُ متواضعٍ ويَجهلُ تَماماً قيمةَ التواضعِ في التعاملِ مع الناسِ القادمينَ من بيئاتٍ متواضعةٍ. أرْثي لِحالهِ وحالِ منْ لَمْ يُحالفْهُ الحظُّ ووقعَ بينَ قبضتيهِ طوعاً أو كراهيةً.

في النهايةِ، استغرقتْ مناقشةُ رسالةِ الماجستيرِ أقلَّ من ساعةٍ بواسطةِ خَمسٍ من أعضاءِ هيئةِ التدريسِ لَمْ يكنْ الدكتورُ "هونايكرينكو" أحداً منهُمْ، بناءً على قوانينِ الجامعةِ في ذلكَ الشأنِ. رفضَ رئيسُ أعضاءِ اللجنةِ الفاحصةِ التوقيعَ على التخريجِ للسيدِ حمد إلا إذا كُتِبَتْ كلمةُ "عِرفانٍ بالجميلِ" في أوّلِ صفحةٍ من أطروحةِ السّيدِ حمد للدكتورِ "هونايكرينكو". بعدَ أيامٍ وليالي القهرِ والعذابِ الطويلةِ، يُجبَرُ الشخصُ على كتابةِ بضعةِ سطورٍ يعترفُ فيها أنّهُ لولا تعليماتُ وتوجيهاتُ المشرفِ القيّمَةُ عليهِ لَما تَمكّنَ من إحرازِ أيِّ تقدمٍ في ذلكَ المَجالِ؛ ويعتبرُ ذلكَ من متطلباتِ الذوقِ العامِّ.

استطاعَ! الدكتورُ "هونايكرينكو" من تأخيرِ موعدِ تَخريجِ السّيدِ حمد؛ ظلَّ، وبالتعاونِ معَ من يعملُ معهُ في القسمِ، يتلكأُ ويُماطِلُ في إجراءاتِ الانتهاءِ من إعدادِ رسالةِ الماجستيرِ حتى مضى وقتُ تَخريجِ الدفعةِ السّنويةِ. كيفَ لبروفيسورِ جامعةٍ أنْ يُمارسَ الكذبَ واللعبَ الخبيثَ على تلميذهِ ويساهمَ في إضاعةِ سنةٍ كاملةٍ من حياتهِ العلميةِ والعمليةِ!؟. ذلكَ الشخصُ يعملُ ضدَّ تلميذٍ لهُ قضى ما لا يقلُّ عن ستَّ عشرَ (١٦) شهراً بأيامِها الطويلةِ ولياليها السّاهرةِ وبذلَ جهداً لَمْ يتوقّفْ لِخدمةِ مشرفهِ الأكاديميِّ وطمعاً في إرضائهِ. ما نوعُ عقولِ وقلوبِ تلكَ البشرِ؟!.

خلاصةُ القولِ أنَّ مثلَ تلكَ الجامعاتِ لَمْ تؤسَّسْ بتاتاً لغرضِ التعليمِ البحتِ والتطويرِ البحتِ. الغرضُ منها هو التبشيرُ، ليس لدينٍ معيَّنٍ بل لثقافةٍ معينةٍ تمهيداً للهيمنةِ والتوسّعِ وخلقِ أذنابٍ لا تَملكُ لنفسِها إلا أنْ تَكونَ تَابِعةً للغريبِ وضدَّ حالِها وشعوبِها. هذه المؤسّساتُ جُهِّزَت لكي تبدوَ من بعيدٍ متطورةً ومتقدمةً وتعملُ على التطوّرِ والتقدّمِ، لكنَّ الحقائقَ على الأرضِ مغايرةٌ تَماماً. الثقافةُ القادمةُ تعجُّ بالسّلبياتِ القاتلةِ والأمراضِ النفسيةِ والاجتماعيةِ والأخطارِ البيئيةِ. لا ينتجُ من هذا التعليمِ إلا أناسٌ كلُّ هَمِّهِمْ تطويرُ قدراتِهِمْ على زيادةِ المصروفِ فقط بدعوى أنَّهُمْ يَحملونَ شهاداتٍ عليا، لكنَّ إنتاجَهُمْ ومساهَمتَهُمْ في تَحريرِ المُجتمعِ من التخلّفِ والتبعيةِ الاقتصاديةِ والسّياسيةِ تساوي الصّفرَ المطلقَ. خلالَ عقودٍ طويلةٍ من الزمنِ لَمْ ينتجْ من تعليمِ تلكَ المؤسساتِ من تَمكّنَ حتّى من تَحريرِ نفسهِ من ظلامِ الجهلِ والتخلّفِ والتبعيّةِ.

وقبلَ المغادرةِ إلى البلدِ الأصليِّ كان للسيدِ حمد بعضُ اللقاءِ والحديثِ مع بعضِ زملائـهِ.
طالبٌ زميلٌ: ماذا تفكِّرُ بالقيام بهِ بعدَ الآنَ؟.
السّيدُ حمد: بصراحةٍ، قد أستطيعُ أنْ أضلِّلَ غيريَ لأنّهُ لا أحدَ يعرفُ أكثرَ منِّيَ بما حدثَ مع نفسِيَ. من الممكنِ أنْ أستفيدَ منَ الشكلِ الخارجيِّ للجامعةِ والدعايَةِ الخارجيةِ المُحيطةِ بها، لكنّ ذلكَ لنْ يتمَّ منّيَ. لقد استفدتُ كثيراً من دروسِيَ معَ رفيقِ دربِيَ أبوالزهو الذي دائماً يكرّرُ لِيَ أنّهُ "لن أستطيعَ تضليلَ أكثرَ منْ نفسِيَ"، لأنَّ نفسِيَ معِيَ طوالَ الوقتِ. لذلك لن أقومَ بتضليلِ نفسِيَ، لأنَّ تضليلَ نفسِيَ لا ينفعُني على الإطلاقِ. حاولتُ في السّنتينِ ونيِّفِ الماضيتينِ إصلاحَ مَجموعةِ الخللِ التي حدثتْ معِيَ في الأربعِ أو الخمسِ سنينَ التي سبقتْها لكنَّني وقعتُ في مَجموعةٍ أخرى من المآسي؛ أنا الآنَ كالغريقِ الذي يُحاولُ أنْ ينقذَ نفسَهُ.
طالبٌ آخرُ: الحياةُ كلُّها تضحيةٌ وصراعٌ وجهادٌ، ومن "لا يتقنُ الضّربَ برمحٍ يُرمى بهِ"!.
طالبةٌ صديقةٌ: و هل لَنا أنْ نسمعَ شيئاً من سلطانِ الطربِ؟. منذُ مدّةٍ طويلةٍ لَمْ تُسمِعنا من شيءٍ من الأنغامِ.
السّيدُ حمد: .... الآنَ، أحبُّ أنْ أغَنِّيَ للشحرورةِ "صباح" ... لا للا دن دن ...... راجعة على ضيعتنا، على الأرض اللي ربتنا، نذر علي أبوس الأرض اللي حبيناها وحبتنا .... راجعة أضوي ١٢ شمعة، راجعة أغني وأروِّص (أرقص) جمعة، راح أخلي حجار الألعة (القلعة)، تتعلم ترقص رقصتنا .. ... نذر علي أبوس الأرض اللي حبيناها وحبتنا.. .... راجعة أعمر أوضة صغيرة، راجعة أعمل فرقة كبيرة، راح أبوس كل الديرة، وأقطف وردك يا جنينتنا ..... نذر علي أبوس الأرض اللي حبيناها وحبتنا .....

لا علْمَ ولا عملَ

عادَ السّيدُ حمد إلى مسقطِ رأسهِ خاليَ اليدينِ والوفاضِ، إلّا من شهادةِ ماجستير، ومن جديدٍ ليبدأَ رحلةَ الكرِّ والفرِّ بَحثاً عن مكانٍ مناسبٍ في أيِّ مكانٍ في العالَمِ يكفَلُ لَهُ الحدَّ الأدنى من العيشِ الكريمِ. كان توقيتُ العودةِ غيرَ ملائمٍ بالنّسبةِ للتوظيفِ. أخذت المدارسُ والكلّياتُ والجامعاتُ نصيبَها، والحمدُ للهِ!، من المدرّسينَ والمُحاضرينَ والفنيينَ للمُختبراتِ والبوّابينَ لِمداخلِ تلكَ المؤسّساتِ. على السّيدِ حمد أنْ يبحثَ عن واسطةٍ قد تكونُ شخصيةً سياسيةً أو إداريةً أو اجتماعيةً كبيرةً!، وقد يصلُ الأمرُ إلى أنْ يستطيعَ من يعملُ في أدنى درجاتِ السّلّمِ الوظيفيِّ من القيامِ بمهمةِ الوساطةِ هذهِ. ودَّ السّيدُ حمد أنْ يأخذَ وقتاً ملياً في التفكيرِ والراحةِ والتأملِ خاصةً بعدَ أيامٍ جهنميةٍ من "الاعتقالِ الطوعيِّ" في أحضانِ أحدِ صروحِ التعليمِ العالي. الفكرةُ القديمةُ الحديثةُ المتجددةُ تطرقُ بابَ التفكيرِ بالمستقبلِ، فكرةُ مواصلةِ التعليمِ. سرعانَ ما تلاشتْ أفراحُ التخرُّجِ في خواطرِ وهواجسِ الخوفِ من المستقبلِ؛ هل يستمرُّ في البحثِ عن وظيفةٍ في ذلكَ الخضمِّ،

أو يغامرُ من جديدٍ إلى صرحٍ علميٍّ آخرَ، وإلى أينَ؟!. السّيدُ حمد على وشكِ دخولِ العقدِ الرابعِ من عمرهِ ولا يَمتلكُ بيتاً ولا أسرةً مستقرةً ولا أولاداً يُركنُ إليهِمْ في أنْ يكونوا عوناً لهُ في المستقبلِ. العودةُ إلى مكانِ أيامِ الصِّبا مع الأهلِ والخلانِ وأبوالزهو أصبحتْ، بالرغمِ من كونِها ذكرياتٍ فيها شيءٌ من السّرورِ، تكراراً مُملّاً؛ يَجبُ التفكيرُ بجدّيةٍ للتخلّصِ من هذا التكرارِ. المشكلةُ الحقيقيةُ هي إيجادُ مكانِ عملٍ فيهِ نفرٌ من الخلقِ عندَهُ الحدُّ الأدنى من الاحترامِ لِحياةِ وطموحاتِ الإنسانِ العلميةِ والشخصيةِ والنفسيةِ والجسديةِ والروحيةِ، أَمَلُ إبليسَ في الجنّةِ!. قبلَ وفوقَ كلِّ شيءٍ فإنَّ البلادَ ترزحُ وتئنُّ تَحْتَ نيرِ احتلالٍ لا يفلتُ حتى الجنُّ من بطشهِ المبرمجِ، والذي يتمُّ تنفيذُهُ بعنايةٍ وهدوءٍ بشكلٍ لَمْ يَسبقْ لهُ مثيلٌ في التاريخِ القديمِ والحديثِ ولنْ يَحدثَ مثلُهُ في المستقبلِ!.

أبو جَاسر: بعدَ كلِّ هذا التعليمِ والسّنينِ الطويلةِ العديدةِ، آنَ لك أنْ تلصقَ نفسَكَ بمهنةٍ ترضاها. إنّهُ لعَيْبٌ وحرامٌ إنْ لَمْ يكُنْ ذلكَ متيسراً.

أبوالزهو: لَمْ أتلقَّ ولو درساً واحداً في حياتِيَ؛ منذُ صغرِ سنِّيَ أعملُ بكلِّ شرفٍ ويُسْرٍ واحترامٍ من الخلقِ المُحترمينَ. ها قد أضعتَ من عمرِكَ وأعمارِ أهلِكَ أكثرَ من ثَمانيةَ عشَرةَ (١٨) سنةً لكلٍّ منهُمْ في تعليمٍ أنتَ بغنىً عنَهُ منذُ البدايةِ.

سرحان: طرقتَ أبوابَ العلمِ في دولٍ مُختلفةٍ وقمتَ "بفَرْنَجَةِ" نفسِكَ، ولا تَزالُ تَجدُ صعوبةً بالغةً في إيجادِ موطئِ قدمٍ لكَ في أيِّ مكانٍ وأنْ تَحصلَ فيهِ على ما يسدُّ فمَكَ من لقمةِ العيشِ؛ لِماذا هذا العَبثُ واللا-منطقُ في حياتِكَ يا هذا؟!.

السّيدُ حمد: إنَّ سوقَ العملِ ميتٌ. بدأتُ أوَّلَ مُحاولاتِيَ في الجامعةِ القريبةِ في المدينةِ كما تعرفونَ. أخبرونِي بأنَّهُمْ لا يقبلونَ بمدرِّسينَ بِمستوىً أقلَّ من حَمَلَةِ شهاداتِ دكتوراه.

أبواللُّطف (صديقٌ): إنَّهُمْ لكذّابونَ!. يوجدُ عندَهُمْ كثيرٌ من المدرسينَ من حَمَلَةِ شهاداتٍ أقلَّ من ذلك. هل هُمْ يبحثونَ عن مدرِّسينَ أم عن شهاداتٍ؟!.

السّيدُ حمد: ما العملُ؟ هل تريدونَنِي أنْ أعلنَ الحربَ عليهِمْ وأغصبَهُمْ على قَبولِيَ وكمدرِّسٍ؟!.

"هيما": بمقدورِكَ أنْ تذهبَ لرئيسِ البلديةِ وتَحملَ لهُ هديةً مناسبةً، ترجوَهُ وتشكوَ لهُ حياتَنا وحالتَنَا، وعسى أنْ يَرِقَّ قلبُهُ عليكَ وعلينا.

أبوالزهو والعائلةُ: نَحْنُ الآنَ أكثَرُ الخلقِ فقراً مدقعاً والكلُّ منا كان يتوقعُ أنْ تُحَلَّ مشاكلُنا الماليةُ والنفسيةُ والعقليةُ والعصبيةُ بانتهاءِ دراستِكَ!.

السّيدُ حمد: لو تعرفونَ كذلكَ أنَّهُمْ يعطونَ وظائفَ للغريبِ عن الوطنِ والملّةِ والتاريخِ للمنطقةِ، وبكلِّ ترجٍّ واحترامٍ. يقولونَ أنَّهمْ بذلكَ يضمنونَ معرفةَ واعترافَ العالَمِ الخارجيِّ بوجودِهِمْ.

أبوالزّهو: هلْ منَ المعقولِ أنّهُ بعدَ هذهِ السّنينِ الطويلةِ، أنت قادرٌ فقط على أنْ تكونَ مدرِّساً؟!. هلّا تقدرُ على عملِ أيِّ شيءٍ آخَرَ؟. بعدَ كلِّ هذا التعليمِ يَجبُ أنْ تكونَ قادراً على النزولِ على سطحِ المريخِ بالمقارنةِ مع ما تلقيتُهُ أنا منَ تعليمٍ!؟. غيرُ معقولٍ أنّهُ بعدَ تسعةَ عشرةَ (١٩) سنةً من الانتظامِ في المدارسِ والجامعاتِ أنت فقط قادرٌ على أنْ تقومَ بأعمالٍ هي من اختصاصِيَ أنَا فقط ومعِيَ أخونا سرحان الذي لَمْ ينتظمْ في المدرسةِ، ولِحسنِ حظِّهِ، أكثرَ من تسعِ سنواتٍ فقط.

السّيدُ حمد: لو توفّرتْ الظروفُ والبيئةُ والإمكانياتُ والأطقمُ والحياةُ الحرةُ الكريمةُ، وتغيّرتْ الوجوهُ غيرَ ذاتِ الوجوهِ وتغيرتْ الأماكنُ، وأصبحت الأرضُ مَحلَّ السّماءِ والسّماءُ مَحلَّ الأرضِ!؛ عندَها من الممكن إنْجازُ بعضٍ مِمّا تتخيلونَهُ. يا أبوالز هو هل تفكّرُ أنَّ الأمورَ مثْلَ أكلةِ "خيار"؟!، يَجبُ توفيرُ الكثيرِ من هذا وذاكَ قبلَ القيامِ بأيَّةِ خطوةٍ تؤدي إلى الهبوطِ على سطحِ المريخ!.

أبوسامي (صديقٌ للسّيدِ حمد): إذن ما رَأيُكَ لو تطرقُ بابَ أولادِ عمِّكَ "إسحاق!"؛ الحالةُ عندَهُمْ مثلما ذكرتَهُ أعلاهُ.

السّيدُ حمد: وهل تفكِّرُ أنَّ قومَ "إسحاقَ"، أو حتى "لوطٍ" عليهما السّلامُ، متروكونَ وحيدينَ في هذهِ الحياةِ حتى يطرقونَ بابيَ أو ينتظرونَ طرقِيَ لبابهِمْ حتى أساهمَ في علمِهِمْ وعملِهِمْ. هؤلاءِ تأتيهِمْ الطاقاتُ البشريةُ والعلميةُ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ وفجٍّ قريبٍ أو بعيدٍ، من بينِ أيديهِمْ ومن خلفِهِمْ. ليسوا بأدنى حاجةٍ إلى من هُمْ مثلِيَ؛ على العكسِ تماماً يُصَدِّرونَ العقلياتِ النادرةَ جداً إلى بقيةِ أنْحاءِ العالَمِ المتقدمِ في الفكرِ، إنْ صحَّ التعبيرُ. دعكَ يا صديقِيَ من هذا الاقتراحِ البائسِ، أين الوطنيةُ والقوميةُ والنضالُ ضدَّ الاحتلالِ من أجلِ الحريةِ؟.

"كاملة": إنَّ حالتَكَ هذه جعلتْنا في حيرةٍ من كافةِ الأمورِ؛ أخبرْنا ماذا تفكِّرُ بهِ، أخبرْنا ماذا تريدُ أنْ تفعلَ. نَحْنُ الآنَ في حالةٍ حرجةٍ جداً، تعليمٌ تعليمٌ تعليمٌ، إلى متى؟!. ينطبقُ عليكَ المثلُ القائلُ: "سبعُ صنايعِ والحظُّ ضائعُ"!.

تزرحُ المنطقةُ تَحْتَ احتلالٍ عسكريٍّ إحلاليٍّ لا يوجدُ بينَ مفرداتِ قاموسهِ كلمةٌ فيها رحْمةٌ لِما هو غيرُ، كأنَّهُ مولودٌ في رَحِمِ الرذيلةِ التاريخيةِ المزمنةِ. هدفُهُ ووظيفتُهُ وضعُ كلِّ العراقيلِ الممكنةِ وغيرِ الممكنةِ في وجهِ بقاءِ القوى البشريةِ الوطنيةِ هناكَ خاصةً الواعيةِ، في خطةِ تَهجيرٍ طوعيٍّ وقسريٍّ، سريةٍ ومعلنٍ عنها في آنٍ واحدٍ. حالُ المدارسِ والمعاهدِ والجامعاتِ وحتى دورِ العبادةِ بائسٌ جداً. خدماتُ المرافقِ التعليميةِ ذواتُ مستوياتٍ متدنّيةٍ؛ الحياةُ فيها تكادُ تَخلو من الحيويةِ أو فيها حيويةُ "النَّفَسِ الأخيرِ" حيثُ الأجورُ والخدماتُ متدنيةٌ جداً ولا تكفي لأيِّ نوعٍ من العيشِ البشريِّ الكريمِ. هنالكَ بدأتْ السّلطاتُ تفرضُ، ومنذُ زمنٍ بعيدٍ، قيوداً مذهلةً على الدعمِ الماليِّ الخارجيِّ في مُحاولةٍ لخنقِ الحياةِ مالياً وببطءٍ حسْبَ خطةٍ مُحكمةٍ ومدروسةٍ ومُجرَّبةٍ من قبلُ على أقوامَ وجَماعاتٍ سبقتْ. العيشُ داخلَ المدنِ والقرى وطبعاً المخيماتِ أشبهُ بالعيشِ في حظائرَ حيواناتٍ بريةٍ، تقومُ سلطاتُ الاحتلالِ بتجريبِ كلِّ ما يُسْمَحُ لَها بهِ على هذه المَجموعاتِ البشريةِ.

كانَ السّيدُ حمد يَجلسُ مع بعضِ الأصحابِ من حديثي العهدِ بالحياةِ ومشاكلِها، يتسلّونَ بسماعِ الموسيقى ولَعْبِ الورقِ والحديثِ الشائكِ المتواصلِ الذي يبدأُ ولا ينتهي.

صديقٌ: يقولونَ في الأمثالِ الشعبيةِ: "ما طارَ طيرٌ وارتفعَ إلا وكما طارَ وقعَ". ينطبقُ هذا عليكَ. الكُلُّ من هنا كانَ يتوقعُ أنْ تذهبَ إلى الدولِ الغربيةِ حيثُ العلمُ والتعليمُ والتقدّمُ والتطوُّرُ والرقيُّ والحريةُ، وفوقَ كلِّ ذلكَ بناتٌ من أحلى وأجْملَ ما يكونُ فيه حالُ الجميلاتِ!.

صديقٌ آخرُ: لقد وضعْتَنا تَحْتَ صورةٍ مغايرةٍ لِما يَحدثُ معكَ الآنَ، بِمعنىً آخرَ لقد كنتَ تضلِّلُنا. كنتَ دائماً تذكرُ جامعةَ "القليوبيا" بكلِّ ثقةٍ وخيرٍ ومستوىً علميٍّ عالٍ. ظنَنّا أنكَ في حالةٍ مريحةٍ من التقدّمِ، وبِمقدورِكَ مساعدةُ غيرِكَ على التقدّمِ.

تعودُ الآنَ للَعْبِ الورقِ معنا هنا كلَّ يوم، تتجوَّلُ حولَ "مزابلِ نفاياتِ" القريةِ التي هي في توسُّعٍ دائمٍ وتنشرُ الروائحَ الكريهةَ إلى حيثُ تسيرُ الريحُ. أين علمُكَ وأين ما تعلّمتَهُ لتفيدَ نفسَكَ والقريةَ والبشرَ هنا، ألا تعتبرُ نفسَكَ أنّكَ أحدَ سكانِ هذهِ القريةِ الوادعةِ؟!.

صديقٌ: حتى أنَّ السّيدَ "أبو ذَديب" (بائعُ خضارٍ في القريةِ) يقولُ أنَّكَ كاذبٌ في شهاداتِكَ وعلمِكَ؛ يقولُ أنّهُ "لو كانَ فيكَ خيرٌ لَماَ رماكَ الطيرُ!" (مثلٌ شعبيٌّ يُسْقِطُ الخيرَ عن صاحبِهِ ويتهِمُهُ بأنّهُ غيرُ جديرٍ بالاحترام؛ لغوياً تعني أنّهُ لو كانَ في ذلكَ الشيءِ ما يُحرزُ الفائدةَ للطيورِ لِماذا تتركُهُ تلكَ الطيورُ التي تبحثُ عادةً عن أكلٍ). نَحْنُ واللهِ! نشعرُ بالخزيِ عندَما يأتي أمامَنا ذكرُ اسْمِكَ وسيرَتِكَ؛ أنتَ عندنا مثْلَ النجمِ الذي هَوى!.

السّيدُ حمد: والنجمِ إذا هَوى!، لقد قضيتُ تلكَ السّنينَ ولَمْ أرتحْ في طلبِ العلمِ دقيقةً واحدةً إلا هذا الفصلَ الذي أُجْبِرْتُ فيه على الجلوسِ معكُمْ. أيُّها الرَّعناءُ! لقد كنتُمْ تُخفونَ عنّيَ مشاعرَكُمْ الحقيقيَةَ وهذه النظراتِ والانتقاداتِ و هذه الأقوالِ البائسةِ!. لو استطعتُ لَأوقِفَنَّ تكاثُرَكُمْ المقيتَ!.

صديقٌ متعاطفٌ: عندما تذهبُ إلى أيِّ مكانٍ لتقديمِ طلبِ عملٍ خُذْنِ معكَ. إنَّ عندِيَ وجهاً ذا "حظٍّ جيدٍ" في ذلكَ. أنا متأكِّدٌ أنَّكَ ستَحصلُ على الوظيفةِ التي تريدُها بصحبتِكَ لِيَ. لَمْ يَخِبْ أملٌ لِيَ عندَ طرْقِ أيِّ بابٍ لكَسْبِ الرزقِ في حياتِيَ. يا رجلاً... الرزقُ بيدِ اللهِ، اللهُ كريمٌ.

السّيدُ حمد: ومن الذي سيدفعُ عنكَ أجرةَ السّيارةِ، وثَمَنَ الغداءِ في المطعمِ؟!. لقد صرفتُ تقريباً كلَّ ما في الجيبِ ولَمّا يأتِني بعدُ ما في الغيبِ. حتى أنَّ أبوالزهَو نفسَهُ أصيبَ "جيبُـهُ" بـالإفلاسِ بسببِيَ؛ كـلُّ شـيءٍ فـي الحيـاةِ يَحتـاجُ إلـى مصـاريفٍ ومصاريفٍ. كلُّ واحدٍ تراهُ يقولُ لَكَ هاتِ و هاتِ ثُمَّ هاتِ؛ هاتِ وأخواتُ هاتِ و هنَّ كثُرٌ هذه الأيامَ، من مثْلِ "جيب وأعطِ وناولْ وامنحْ وابذلْ ما بوسعِكَ وتكرَّمْ وتكارَمْ وتَحمّلْ وأفرِغْ ما بجيْبِكَ ...."

الصّديقُ نفسُهُ: لا تقلقْ سوفَ أطلبُ من والدَتِيَ لتشويَ لنا دجاجةً مدهونةً بزيتِ الزيتونِ مع بعضِ الأرغفةِ من خبزِ الطابونِ (الطابونُ هو فرنُ الخبزِ عندَ الفلاحينَ وتُصْنَعُ جدرانُهُ الصّغيرةُ عادةً من الطابوقِ الطينيِّ ويُستخدَمُ روثُ الحيوانِ الجافُّ أو المُجفّفُ في الشمسِ كوقودٍ لهُ)؛ سنسافرُ بالباصِ حيثُ الأجرةُ رخيصةٌ.

السّيدُ حمد: لا عليكَ يا صديقِيَ، بما أنَّكَ طيبُ القلبِ وصاحبُ حظٍّ سعيدٍ سوفَ تكونُ أجرةُ تنقُّلكَ على حسابِيَ. وإذا ما كان السّببُ في توظيفِيَ حُسْنَ الحظِّ عندَكَ سيكونُ هنالكَ غداءٌ فاخرٌ لكَ وعلى حسابِيَ كذلكَ. فوقَ ذلكَ سأشتري لكَ، من أوّلِ راتبٍ أتسلّمُهُ بعدَ التوظيفِ، نعلاً وسروالاً وقميصاً وطاقيةً. وإذا ما انقلبَ حظُّكَ عليَّ فإنَّ الشطائرَ (السّاندويتشات) ستكونُ من نصيبِكَ، وجهِّزْ نفسَكَ للتنقّلِ بواسطةِ أبطأِ وسيلةِ نقلٍ عرفتْها التكنولوجياتُ القديمةُ منها والحديثةُ، إنَّها شركةُ نقلِ "الحاجِّ عزّوهُ" عبرَ المدنِ. إنَّ استخدامَ "الحنطورِ" الذي يَجرُّهُ بغلٌ هرمٌ أكثرُ أمناً وسلاماً وأسرعُ وصولاً إلى البيتِ أو مكانِ العملِ من حافلاتِ "الحاجِّ عزّوهُ".

أبوالزهو: مضى عليَّ أكثرُ من سنَةٍ في انتظارِ هذا اليومِ وهذه الجلسةِ!. هل تظلُّونَ تضيعونَها في مناقشةِ أمورٍ حياتيةٍ وتنسونَ أحلى الأنغامَ.

بقيةُ الحضورِ: أسْمِعْنا يا هذا! من أغاني الطربِ الأصيلِ....

السّيدُ حمد: وماذا تُحبونَ أنْ تسمعوا؟. عندِيَ لكُمْ بعضٌ من أحلى الأنغام، تعجبُكَ يا أبوالزهو وتعجبُ الحاضرينَ الذين يسمعونَ والذين لا يسمعونَ، للذينَ عندَهُمْ في الفنِّ ذوقٌ أو حتى الذين هُمْ مثلَ الصمِّ البكم. مع الطربِ الأصيلِ من بلادِ اليمنِ السّعيدِ، مع الشيخ أبوبكر سالم وأغنيةِ "أقوللو إيه"... لكن على اللهِ تَضْبُطَ المقدمةَ!... ...دن دَن دن دن دن دنننننننن نننننن ... . أقول له إيه لو قال ما لي نِفسْ تِهواك ... ما لي عين تتمنى تراك ... وأقول له إيه لو قال: ما أحبك ولا أبغاك، ما أرضى بقربك ولا بالريح لو هب من حماك!... ..... أقول له حِبني بالغصب؟! لا لا .... أثورُ! أعلنْ عليه الحرب؟! لا لا .... أقول له إيه ما حيلتي سوى أسامح وأعطف، خاف بالعطف أتوصل إليه أتوصل إلي.. ...ه... ......

الأصدقاءُ + أبوالزهو: ليَسْلَمْ ذلكَ الفمُ وتلكَ الأناملُ، زِدْ وأعِدْ أو حصلَ ما لا تُحِبُّ!...

السّيدُ حمد: "لأ أولوه" (باللهجةِ المَحلّيةِ وتعني بالفصحى: لا يا ولد!).. .... دج دن دن دج دننن نن...... تريده ليه؟ (بالعربيِّ الفصيح: لِماذا تريدُهُ أو تُحبُّهُ) قالوا لِي العذال ... تريده ليه؟ وليش تبقى معه دايم؟! و هو ما هو معاك!... تريده ليه؟ فُك منك الغدّار ويلفاك ما تلقى مثيله ... و هو ما يلاقي حد سواك.. .!!.. أصدِّقهم وأعصي القلب؟! لا لا... وأمشي فوق هذا الدرب؟! لا لا.... أساوي إيه.. ما حيلتي؟! إلا أسامح وأطالب. ... بقلبي لأن مكانه في إيديه... مكانه في إيديه!.. وأقول له إيه......ه

صديقٌ (ومعه أبوالزهو والأصحابُ والعائلةُ): يا صاحباً! أليسَ عيباً عليكَ أنْ تكذبَ وتقولَ لنا ولأهلِكَ أنَّكَ ذهبتَ لتدرسَ العلومَ في جامعةِ "القليوبيا". هذا الأداءُ للأغنيةِ يثبتُ أنَّكَ قضيتَ السّنينَ الماضيةَ في إحدى مرتفعاتِ حضرموتِ العاليةِ. لا عليكَ يا صاحباً! في المرةِ القادمةِ هاتِ لنا معكَ كميةً من العسلِ الحضرميِّ الممتاز.

السّيدُ حمد: خافوا ربَّكمُ يا جَماعةً! ويا أبوالزهو، ألا يكفيكمْ هذا "العسلُ" الذي سَمعتُموهُ؟!.

جامعةُ "الباطقانيّة"

أُسّستْ جامعةُ "الباطقانيّةِ" على أيدي مجموعةٍ مِمّن يُمكنُ أنْ يُطلقَ عليهم بتواضعٍ شديدٍ "الكهفيّونَ Les hommes des cavernes". يودُّ هؤلاءِ "الكهفيّونَ" لو يصغي كلُّ العالَمِ إلى إرشاداتِهم لتسهيلِ قيادتِهم للأخيرينَ على طريقِ الخلاصِ النهائيِّ الأزليِّ وبأسهلِ الطرقِ المضمونةِ الممكنةِ. كانتْ دَيْراً للمتعبّدينَ والمتعبّداتِ فقط ثُمَّ أصبحتْ مدرسةً دينيّةً كبيرةً قبلَ أنْ تتحوّلَ بقرارٍ من مرجعيةٍ أو "سلطةٍ مذهبيةٍ" قويّةٍ إلى جامعةٍ تَحوي التخصّصاتِ الأساسيةِ كما هي

حالُ الكثيرِ من الجامعاتِ المبتدئةِ. موقعُها الجغرافِيُّ على أطرافِ أطرافِ المدينةِ بعيداً عنَ الأسواقِ التجاريةِ ومراكزِ النشاطِ الاجتماعيِّ البشريِّ في ضواحي المدينةِ. الجزءُ الرئيسيُّ منها معبدٌ ومنامةٌ خاصةٌ للمتعبّدينَ والمتعبّداتِ الذينَ قرّروا التخلّيَ عن كلِّ شيءٍ في الحياةِ تقريباً عسى أنْ تكونَ في ذلكَ الكهفِ بدايةَ ونهايةَ طريقِ الخلاصِ الوحيدِ الفريدِ لديهِمْ. أُضيفَ إلى المبنى الرئيسيِّ فيها بعضُ المباني والمرافقِ الفرعيةِ تضمُّ في جوانبِها بعضَ قاعاتِ المُحاضراتِ والدراسةِ، وللجامعةِ كذلكَ في ذلكَ الوقتِ مكتبةٌ للكتبِ متواضعةٌ. وكأيِّ جسمٍ جامعيٍّ فإن لَها رئيساً، لكنّهُ معيّنٌ من السّلطةِ المذهبيةِ العليا، ومَجلسَ أمناءِ (الكهفيّونَ) مرضيّاً عنهُ من نفسِ المصدرِ. بتوصيةٍ من مَجلسِ الأمناءِ يُعَيَّنُ العُمداءُ ورؤساءُ الأقسامِ وما دونَ ذلكَ من وظائفَ بطريقةٍ تكفلُ الانسجامَ مع روحِ الهدفِ الذي أقيمتْ الجامعةُ من أجلِهِ.

تردَّدَ السّيدُ حمد كثيراً عندَ تقديمِ الطلبِ للعملِ في جامعةِ "الباطقانيّة". لكنَّ ظروفَ الحياةِ ومتطلباتِ المعيشةِ وقسوةِ الجارِ على جارِهِ والأخِ على أخيهِ، جعلتهُ يقبلُ بِما هوَ متاحٌ. تلقّى السّيدُ حمد، وعلى حينِ غرَّةٍ وقبلَ بدءِ العامِ الدراسيِّ بقليلٍ، رسالةً من جامعةِ "الباطقانيّة" تدعوهُ فيها للذهابِ لِمقابلةِ أحدِ المسئولينَ الأكاديميينَ هناكَ ويدعى الدكتورُ "شِلّاق"، وفعلاً ذَهَبَ السّيدُ حمد وقابلَ الأخيرَ. يعملُ الدكتورُ "شِلّاق" سكرتيراً عندَ أحدِ الذين يتولونَ فعلياً مقاليدَ السّلطةِ والأمورِ في الجامعةِ من الأجانبِ، الأخ "هِلبرتوس" وهو "كهفيٌّ صِرفٌ"؛ الاثنانِ يشتركانِ في مكتبٍ صغيرٍ يفصلُ بينهما جدارٌ صغيرٌ بهِ بابٌ زجاجيٌّ كبيرٌ!. ولكونِ السّيدِ حمد عربيّاً منظراً ومَحضراً قامَ المسئولُ "الكبيرُ"، الأخُ "هِلبرتوس" نفسُهُ، بإحالتهِ إلى سكرتيرهِ فورَ مشاهدتهِ لهُ، إلى الدكتورِ "شلّاق". استبشرَ السّيدُ حمد خيراً بأنّهُ يُخاطبُ شخصاً عربياً وظنَّ أنَّ بوسعهِ الإسهابَ لهُ في شرحِ مشكلاتهِ لكيْ يساعدَهُ قدْرَ الممكنِ في التوظيفِ. ما لَفتَ انتباهَ السّيدِ حمد في الدكتورِ "شلّاق"، بالإضافةِ إلى صوتهِ الجهوَريِّ المتميّزِ وذقنهِ وشاربيْهِ الحليقةِ لكلٍّ منهما، خلُوُّ رأسهِ من أيِّ شعرٍ إلّا القليلَ جداً من المتركزِ عندَ أسفلِ أسفلِ المنطقةِ الخلفيةِ من رأسِهِ. كانَ يبلغُ من العمرِ ما يقاربُ منتصفَ الطريقِ إلى السّتّينَ سنةً (تقريباً ٥٥ سنةً). كانَ يلبسُ سروالاً ساحلَ الخصرِ بشكلٍ ملحوظٍ ومتميّزٍ وواضحٍ عن قربٍ وعن بعدٍ!.

الدكتورُ "شِلّاق": لقد بذلْتُ جهداً كبيراً من أجلِ أن يقبلُوكَ مدرِّساً هنا في تعاقدٍ لِمدةِ سنةٍ، قابلةٍ أو غيرَ قابلةٍ للتجديدِ؛ اللهُ أعلمُ وأنتَ وحظّكَ. لكنْ "عليك أنْ ططقلم (تتكلّم) مع الطلاميظ (التلاميذِ) في الصّفِّ باللغةِ الأنقليزيةِ (الإنجليزيةِ) بَص (فقط)!".

السّيدُ حمد: أنا قليلُ الأخطاءِ عندَ التكلُّم بالإنجليزيةِ؛ ولكن ماذا لو تكلّمتُ أو شرحتُ بعضَ الشيءِ على الأقلّ بالعربيةِ؟ ما المانعُ في ذلكَ؟!.

الدكتورُ "شِلّاق": إياق (إياكَ) ثم إياق (إياكَ) أن طفعل (تفعلَ) هاظا (ذلكَ أو هذا) الشاي (الشيءَ)، قل (كلُّ) القتب (الكتبِ) المكررة (المقرّرةِ) عندنا بالأنقليزيةِ (بالإنجليزيةِ) ولا غير، وحتى قلمة (كلمةٍ) صباح الخير أو مرحبا اصطبضلها (استبدلْها) قلية (كلياً) بما يشابهها باللغة الأنقليزية (الإنجليزيةِ). إحنا (نحن) بدنا (نريدُ) إعطراف (اعترافاً) من القلّياط (الكلّياتِ) والجامعاط (الجامعاتِ) الغربيةِ!. هاظا (هذا) الكرار (القرار) نِهائي.

السّيدُ حمد: حاظر (حاضرٌ) صيدي (سَيِّدِيَ)!!.
الدكتورُ "شِلّاق": (بِما معناهُ!)؛ ..... سنعطيكَ مساقاً علمياً مع مُختبرهِ. وبما أنّهُ لا يوجدُ لدينا قسمُ تَخصُّصٍ كاملٌ في العلم الذي تتخصَّصُ فيهِ، سوف نكملُ لكَ العبءَ الدراسيَّ الفصليَّ بمساقٍ من قسمِ إدارةِ "أعمالِ المَحلاتِ والشركاتِ" للسنةِ الجامعيةِ الأولى للطّلابِ. إنّهُ مساقُ حَسابِ المبيعاتِ والأرباحِ والأثْمانِ بعدَ إضافةِ الفائدةِ. كذلكَ هنالكَ حساباتُ بنوكٍ؛ كَمْ من الأرباحِ عندَ "عدنانَ" مثلاً أو "محفوظ" في نهايةِ السّنةِ على أرصدتِهِمْ المودعةِ في البنوكِ في حالاتِ الربحِ البسيطِ والمركّبِ، وغيرَ ذلكَ من أعمالِ مَحلّاتِ بيعِ الملابسِ والأحذيةِ والقبعاتِ وربطاتِ العنقِ .....
السّيدُ حمد: .... لقد جاهدْتُ طوالَ سنينِ عمريَ وأيامِيَ كيْ أفلِتَ من هَمِّ المالِ ورأسِ المالِ وحساباتِ الأرباحِ والخسائرِ. ها أنا مُجبرٌ الآنَ للعودةِ للتعاطي مع الأركانِ الأساسيةِ للنظامِ الرأسْمَاليِّ الأرعنِ. مطلوبٌ منِّيَ الآنَ أن أعلِّمَ الأولادَ كيفَ يساعدونَ مصّاصي الدماءِ ليربَحونَ ويزيدونَ من أرباحِهِمْ ولا يَخسرونَ!.
إستلمَ السّيدُ حمد وظيفتَهُ هناكَ براتبٍ مقدارُهُ ثلاثمائةِ (٣٠٠) دولاراً، يدفعُ منها مئةُ (١٠٠) دولاراً أجرةَ بيتٍ. مُعظمُ ما تبقّى من المعاشِ يتبخّرُ على مقاعدِ سياراتِ الأجرةِ وفي المطاعمِ الشعبيةِ. أيضاً! كان بعضُ المعاشِ يذهبُ في مُحاولاتِ السّيدِ حمد اليائسةِ إدخالَ البهجةِ إلى قلوبِ العاطلينَ عن العملِ والمَحرومينَ من الحدِّ الأدنى من نِعَمِ الحياةِ، لقمةِ العيشِ!.
توسَّلَ! إليهِ والدُهِ أبو جاسر ذاتَ مرَّةٍ أن يُريَهُ معاشَهُ الشهريَّ أو جزءاً منهُ. ظنَّ السّيدُ حمد في البدايةِ أنَّ والدَهُ يريدُ أن يقتَطِعَ شيئاً منهُ لنفسهِ. أتاهُ في مطلعِ الشهرِ التالي بمعاشهِ وقد وضعَهُ في مغلّفٍ بريديٍّ داخليٍّ مستعملٍ. ما كانَ من والدِهِ إلّا أنْ نظرَ إلى المغلّفِ مفتوحاً، وكانتْ الأوراقُ النقديةُ باديةً لهُ، وقبَّلَ ذلكَ المغلّفَ وأعادَهُ إلى ابنِهِ السّيدِ حمد. لَمْ يأخذْ أبو جاسر لنفسهِ منهُ ولو بمقدارِ قرشٍ واحدٍ، على الرغمِ من حالةِ العوزِ والفاقةِ التي ترزحُ العائلةُ تحتَها ومنذُ عقودٍ طويلةٍ خلتْ. لا يعرفُ السّيدُ أبو جاسر أنّهُ في أوّلِ يومٍ من الشهرِ يذهبُ ثلثُ المعاشِ، فقط على السّكنِ وليسَ على فواتيرِ المياهِ والكهرباءِ وتنظيفِ البيتِ والعنايةِ بهِ. ما أنْ يأتيَ اليومُ الخامسُ والعشرونَ حتى يهمسَ في أذنِ أمِّهِ، أو أذنِ أبوالزهو!، طالباً استلافَ بعضِ النقودِ تكفيهِ حتى نهايةِ الشهرِ. ويْحٌ للسيدِ حمد ولأبيهِ ولِمنْ اتَّكلَ عليهِ ليرتاحَ في مستقبلهِ أو شيخوختهِ.
أبو جاسر: ماذا لو أتيتَ بثوبٍ جديدٍ أو حتى قديمٍ مستعملٍ لأمِّكَ التي تعبتْ في حَمْلِكَ وإرضاعِكَ وتنظيفِ وسخِكَ وطيلةَ سنينٍ طويلةٍ. لا تزالُ هذهِ المسكينةُ الشيباءُ تتعبُ كثيراً من أجلِكَ وأجلِ إخوانِكَ وأولادِهِمْ والتي لَنْ تكونَ بأحسنَ حظٍّ، مع أيٍّ منْهُمْ، من حالِكَ.
أم جاسر: لا أريدُ منكَ إلا أنْ تَهْتَمَّ بقرشِكَ وتبنِيَ لكَ بيتاً ومستقبلاً وأسرةً؛ وعندما أزورُكَ في بيتِكَ مستقبلاً سأراكَ مع زوجتِكَ الجميلةِ وأولادٍ لكَ جَميلينَ. أنت الآنَ قادرٌ على الزواجِ وبناءِ بيتٍ وتكوينِ أسرةٍ سعيدةٍ.
أبوالزهو: وهذا ما أشَرْتُ! وكرّرتُ لَكَ ذلكَ منذُ سنواتٍ عديدةٍ وطويلةٍ.
السّيدُ حمد: لا أكذبُ ولا أخجلُ إذا قلتُ لكِ يا أمِّيَ أنَّني غيرُ قادرٍ على توفيرِ أيِّ شيءٍ من معاشِيَ. معاشِيَ يتبخّرُ دونَ أن أستمتعَ بأيِّ شيءٍ في حياتِيَ. لا سيارةَ

خاصةً عندِيَ، لا بيتاً يأويني، لا ولداً أَلْهو معهُ، لا مالاً يكفيني. لا أذهبُ لا يَميناً ولا شِمالاً، لا أعرفُ مكانَ بيتِ أقربِ جارٍ لِيَ في العملِ!.
"كاملة" وأبوالزهو: أتكذبُ علينا وتَستغلُّ ضعفَ عقولِنا؟!. نَحْنُ في العائلةِ كلِّها نَجمعُ في الشهرِ أقَلَّ بكثيرٍ مِمّا تَحصلُ عليهِ من معاشٍ لوحدِكَ؛ نكتفي بِمصروفاتٍ منهُ ونوفّرُ وندَّخرُ. ما يَجرِي عندَكَ أمرٌ غريبٌ!.
السّيدُ حمد: تقولونَ ذلكَ لأنّكُمْ لا تدفعونَ أجرةَ بيتٍ. لا تدفعونَ فواتيرَ كهرباءٍ وماءٍ وهاتفٍ وأجورَ مواصلاتٍ. لا تدفعونَ للأكلِ واللّباسِ ولا أثْمانَ كتبٍ وأقلامٍ ودفاترَ. لا تدعو يا أبوالزهو صغيراً أو كبيراً للغداءِ أو العشاءِ في مطعمٍ لتكسبَهُ كصديقٍ؛ ربَّما تضيقُ بكَ الحياةُ ذاتَ يومٍ لتجدَ من يشدُّ من أزرِكَ، فيما لو حدثَتْ معكَ مشكلةٌ أو تسقطُ في الشارعِ صريعاً!، لن يَمشيَ أحدٌ في جنازتِكَ. هل تَوَدّين يا أختِيَ "كاملة" استلامَ الفواتيرِ في نهايةِ كلِّ شهرٍ وتدفعينَها بعدَما تتسلّمينَ الراتبَ منِّيَ؟.
سرحان وأبوالزهو: مضى عليكَ أكثرَ من أربعةِ أشهرٍ، وأنت تعملُ، لَمْ نرَ منكَ فلساً واحداً. لِماذا لا تراعي شعورَ والدِكَ الذي دخلَ مرحلةَ الشيخوخةِ والعجزِ، وكذلكَ حالُ والدتِكَ وقسمٍ من إخوانِكَ الكبارِ في السّنِّ وأخواتِكَ؟.
السّيدُ حمد: يا جَماعةُ!، ما تفكّرونَ بهِ وتقلقونَ عليهِ جزءٌ بسيطٌ جداً من المشكلةِ. هنالكَ مشكلةٌ كبيرةٌ عليَّ وعليكمُ وعلى الجميعِ مِمَّنْ يهمهُمْ الأمرُ.
أبوالزهو: لِماذا تَهربُ من موضوعِ النقاشِ؟!. وما هي تلكَ المشاكلُ؟، نَحْنُ لَها!.
السّيدُ حمد: آخ ....، لو تعلمونَ أنّهُمْ مستمرونَ في الجامعاتِ والمعاهِدِ التعليميةِ بالقيامِ بعمليةِ ذَبحٍ وتَمزيقٍ للغةِ العربيةِ. لا يريدونَ أن تقومَ لَها قائمةٌ؛ يتعاملونَ معَها مثلَما الفلاحُ يتعاملُ مع الأفعى!، يريدونَ قتلَها بأيَّةِ طريقةٍ وبكافةِ الوسائلِ المتاحةِ.
سرحان: أوه عليكَ ... هل أنتَ العربيُّ الوحيدُ في هذا العالَمِ؟!.
"هيما" و"زولالة": ولِماذا لا تضَعُ رأسَكَ بينَ الرؤوسِ وتقولُ "يا قَطّاعَ الرؤوسِ"!. سَمعنا هذهِ الأسطوانةَ المشروخةَ منكَ كثيراً من قَبلُ.
أم جاسر: مثلُكَ مثلَ السّيدِ "عطية" في الفيلمِ؛ عندما ذهبَ إلى الجنديةِ لتتسنّى لهُ فرصةُ الدفاعِ عن وطنهِ في ميدانِ القتالِ. قامَ آمرُ الفوجِ الجديدِ بإلقاءِ عدةِ أسئلةٍ عليهِ لاختبارِ مدى أهليتِهِ للجنديةِ. سألهُ ماذا بوسعهِ أن يَفعلَ في حالِ تعرُّضِ موقعِهِ العسكريِّ لِهجومٍ بريٍّ، فأجابَ "عطية" وبحماسٍ أنّهُ وببندقيتِهِ سيدافعُ عن موقعهِ حتى النهايةِ. أضافَ آمرُ الفوجِ الجديدِ أنَّ الموقعَ يتعرّضُ لقصفٍ جويٍّ من طائراتٍ معاديةٍ؛ قالَ "عطية" أنّهُ سيوَجّهُ بندقيتَهُ نَحْوَ الطائراتِ المغيرةِ مُحاولاً إسقاطَها كلَّها. إلا أنَّ آمرَ الفوجِ أضافَ أنَّ الموقعَ نفسَهُ يتعرضُ لقصفٍ من جهةِ البحرِ من قِبَلِ الأسطولِ المعاديِ. قال السّيدُ "عطية" أنّهُ تبّاً لِجيشٍ ليس فيهِ إلا "عطية". يا ابنِيَ!. من بينِ كلِّ هؤلاءِ الناسِ لِماذا أنت الوحيدُ القّائمُ على هذهِ الحملةِ؟!. إنَّ اسْمَكَ حمد أمْ تَريدُ أن تُغَيِّرَهُ إلى "عطية" وتلتحقَ بالسّيدِ "عطية!" الحمّالِ، حَمّالِ الخضارِ في سوقِ المدينةِ المركزيِّ؟!.
السّيدُ حمد: يا أمِّيَ!. ماذا تقولينَ؟!. بدلاً من أن تكونَ اللغةُ العربيةُ من أولى لغاتِ العالَمِ لِجمالِها وروعتِها وفصاحتِها، ستصبحُ بعد قليلٍ لغةً مَحلّيةً ضيقةً؛ ستصبحُ لغةَ تَخاطبٍ بدائيٍّ وعلى الطريقةِ الغجريَّةِ بين الأمِّ ورضيعِها وبينَ الجيرانِ في الأزقةِ القديمةِ وبين الفلاحِ وماشيتِهِ. ويا أبوالزهو!، رئيسُ قسمِ اللغةِ العربيةِ في

هذه الجامعةِ لا يتقنُ اللغةَ العربيةَ لا قراءةً ولا كتابةً ولا مُحادثةً. تَخيّلوا معِيَ!، أفتى نائبُ رئيسِ قسمِ اللغةِ العربيةِ بجوازِ التدريسِ بغيرِ اللغةِ العربيةِ للعربِ. هل تريدونَ منّيَ أنْ أقلقَ على معاشٍ يساوي ثلاثمائةِ (٣٠٠) دولاراً شهرياً؟. كنتُ أصرفُ في دراستيَ في الجامعةِ أكثَرَ من ثلاثمائةٍ وخمسينَ (٣٥٠) دولاراً شهرياً، ذلكَ غيرَ الجهدِ والعمرِ الضائعينِ سدىً وبلا فائدةٍ تذكرُ.

الأهلُ وأبوالزهو: إذنْ! بهذهِ الطريقةِ في الحياةِ من عندِكَ سوف نستمرُّ هنا على أكْلِ المُرّارِ والخُرفيش (نَباتاتٌ خضريةٌ بريةٌ شوكيةٌ يأكلُها بعضُ الرعاةِ والفلاحينَ والحيواناتُ من فصيلةِ الحمار) والخبزِ بالزعترِ وزيتِ الزيتونِ والفريكةِ!.

سرحان: .... لكن ماذا ينفعُ؟ ذلكَ التقشّفُ إذا ما اندفعتْ الجماهيرُ الغفيرةُ باتّجاهِ الاستمرارِ والتمادي في قتلِ اللغةِ العربيةِ والثقافةِ العربيةِ وبكل امتنانٍ للقتلةِ من الخارجِ، كما تزعمُ!.

أبو جاسر: وما الذي أيقظَ فيكَ هذا الشعورَ الأصيلَ؟!. أعرفُكَ منذُ أيام المدرسةِ الأولى حينَ كنتَ تفضّلُ قراءةَ الكتبِ والمَجلاتِ الأجنبيةِ والسّماعِ لَ"الباباكا" بالإفرنجيةِ.

السّيدُ حمد: كلُّنا نقعُ تَحْتَ تأثيرِ إعلامٍ لا يتردَّدُ في الكذبِ كما هو في الصّدقِ، الاثنانِ عندَهُ سيانٌ؛ مهمتُهُ تَحقيقُ مصالِحِهِ. ظننتُ في الماضي أنَّ هنالكَ دولاً متقدّمةً تشعُّ حريةً وكرامةً واحتراماً لِحقوقِ الإنسانِ. أنا جزءٌ من أجيالٍ ضاعتْ وأخرى قادمةٌ تضيعُ، وإذا لَمْ نتداركْ أنفسَنا فلن نكونَ أحسنَ من أقوامٍ كثيرةٍ أجبِرَتْ على الانقراضِ، وفي أنحاءَ متفرّقةٍ من العالَمِ. كلُّ البشرِ يودّونَ الآنَ إحلالَ الآلَةِ مَحلَّ كلِّ شيءٍ في حياتِهِمْ وأعمالِهِمْ حتى في مَعتقداتِهِمْ وضمائرِهِمْ، ومن أجلِ ذلكَ همْ مستعدّونَ للتضحيةِ بكلِّ شيءٍ مهما كَبُرَ.

أبوالزهو: أحسستُ بذلكَ منذُ كانَ عمريَ أربعَ (٤) سنواتٍ فقط عندما رأيتُ كيفَ أنَّ الآلةَ تأخذُ مَحلَّ الخلقِ؛ عندما بدأَ البشرُ باحترامِ الآلةِ والاهتمامِ بها أكثرَ من حالِهِمْ وجيرانِهِمْ وأصدقائِهِمْ وأحبائِهِمْ. حينها رأيتُ أذْني واحدٌ منَ بينِ أكثرَ من ثلاثمائةِ (٣٠٠) عاملاً! مِمَّن اضطرّوا للذهابِ إلى بيوتِهِمْ من الحقولِ والمزارعِ لتحلَّ مَحلّهُمْ آلةٌ واحدةٌ قبيحةُ الشكلِ وكثيرةُ الإزعاجِ اسْمُها الجرّارُ الزراعيُّ (التراكتور)!. مع الزمنِ أصبحَ البشرُ من أشدِّ المولعينَ بأيِّ شكلٍ من الآلاتِ التي تغنيهِمْ عن بعضِهِمْ.

زادت الأوضاعُ سوءاً يوماً بعدَ يومٍ؛ تكاليفُ السّكنِ والمعيشةِ والحياةِ تزدادُ بشكلٍ مطّردٍ مع بقاءِ المعاشِ على ما هو عليهِ. كلُّ الوعودِ التي قطعَها السّيدُ حمد على نفسهِ في السّابقِ للوالدينِ وبقيةِ الإخوةِ والأخواتِ لَمْ تلاقِ إلى الوجودِ طريقاً.

تسودُ حالةٌ من البيروقراطيةِ والفسادِ والمَحسوبيةِ والتسلّطِ الأنانيِّ في ذلكَ النوعِ من مؤسساتِ التعليمِ العالي، يصبحُ من الصّعوبةِ بمكانٍ تَحقيقُ تقدّمٍ مُرْضٍ. كانَ الموظفونُ في جامعةِ "الباطقانيّة" يتسابقونَ في اللّيلِ والنهارِ لإرضاءِ حفنةٍ منَ أصحابِ الكروشِ الكبيرةِ والصّدورِ المنفوخةِ والرقابِ السّمينةِ من الذينَ يَحتلّون المناصبَ العليا. يَجري هذا بغضِّ النظرِ عن أيِّ تقدُّمٍ حقيقيٍّ على أرضِ الواقعِ. الكثيرُ منهُمْ يعلمُ أنَّ هكذا تعليماً مضيعةٌ للجهدِ والحياةِ والحريةِ والاستقلالِ والكرامةِ الوطنيةِ والقوميةِ والإنسانيةِ.

كان مسارُ ومُخطَّطُ جامعةِ "الباطقانيّة" يسيران بلا اكتراثٍ أو اهتمامٍ أو مبالاةٍ للهويةِ الوطنيةِ والثقافةِ القوميةِ والاجتماعيةِ وتطويرِ ها، لكافةِ من دَخلَ إليها. لذلك يُرى من الخريجينَ من يهاجمُ نفسَهُ ويلعنُ ثقافتَهُ ومعتقدَهُ وأصولَهُ. بمعنىً آخرَ يعملُ أعضاءُ هيئةِ التدريس، و غالبيتُهُمْ من "العرب" و من السّكان المَحليّينَ بعدَ تطعيمِهِمْ بنظرةِ العنصريةِ العمياءَ ضدَّ أنفسِهِمْ، يعملونَ ضدَّ أنفسِهِمْ وشعوبِهِمْ وعقائدِهِمْ وفي معظمِ الأحيانِ تَحْتَ شعارِ التطوّرِ والتحرّرِ والتخلّصِ من الفكرِ الرجعيِّ المتخلِّفِ!.

أبو جاسر: نفسُ سيناريو المدرسةِ قبلَ بضعِ سنينٍ وجامعةِ "البايْروطاطْ" من قبلُ وجامعـةِ "القونْـدورْزْ" مـن بعـدُ، نفـسُ قصـصِ ال"بَـولاكْ" وال"هـولاك" وال"المَراطلـة" وال"بقّـار" والآنَ مـع السّـيدِ الأخ "أو-ديـك". أرى أنْ تراجـعَ لـكَ طبيباً نفسانياً قبلَ تَحويلِكَ إلى مستشفى المَجانينَ. عيونُكَ حَمراءُ ووجهُكَ أصفرٌ، نوباتُ صرَعٍ تدبُّ في رأسِكَ وتسهرُ، مع عصفٍ دماغيٍّ مستقرٍّ ومتواصلٍ، الويحُ لأمِّكَ على ما خلَّفتْهُ!.

السّيدُ حمد: أحسُّ بالحياةِ تضيقُ بسرعةٍ في وجهيَ. أفشلُ في كلِّ يومٍ، في كلِّ خطـوةٍ أقـومُ أو حتـى أفكّـرُ بالقيـامِ بِهـا. أمسـتْ كـلُّ الطّرقِ أمـامِيَ مسـدودةً حتـى فكرياً....

أبوالزهو: لا أحبُّ هذا النقاشَ الآنَ ... يا سيدَ أبو جاسر كنْ لطيفاً معَ مشاعرِ الآخـرينَ. أرِحْ بالَـكَ ونفسَـكَ وجسـمَكَ يـا صـديقِيَ حمـد ومـن ثـمَّ أسْـمَعْنا قلـيلاً وتتناقشونَ أكثرَ فيما بعدُ!.

السّيدُ حمد: آخ... يا أبوالزهو، يا خيرَ عونٍ وصديقٍ لِيَ في حياتِيَ وفي كُرباتِيَ. .... ماذا تريدُ منِّيَ أن أسْمعَكَ؟!. ... ببالِيَ أغنيةٌ للشّيخِ "مارسيل"... دن دن دن.. ...... كان في مرة طفل صغير عم يلعب في الحارة، عم بيفتش على خيطان تايطير طيارة، واتطلع في الجو وآل (قال): ما أدري شو عم يلمع؟!، شوفو شوفو طيارة!، جاي لعندي الطيارة! .... هاي طيارة كبيرة وما بدها خيطان! وجوانحها أكبر من بيت الجيران!، فرفح قلبه وطار على جناح الطّيارة ... والسّماء اللي كلها أسرار حكيت له أسرارها... ....

أبوالزهو و"هيما": والسّما الكلا أسرار حكيتلو أسرارا! .... آخٍ عليكَ يا صديقِيَ عندما تكونُ جَميلاً، يَجملُ المكانُ بكَ والزمانُ.

السّيدُ حمد: أنا تلميذُكَ الصّغيرُ يا أبوالزهو.....

من يومياتِ جامعةِ "الباطقانيّة"

منَ الندرةِ بمكانٍ أنْ يَمرَّ أسبوعٌ كاملٌ واحدٌ على جامعةِ "الباطقانيّة" دونَ حدوثِ إضرابٍ أو مظاهرةٍ أو اعتصامٍ داخليٍّ يدعو إليهِ حزبٌ أو عدةُ أحزابٍ سياسيةٍ تعملُ على السّاحةِ. عادةً ما تُهاجمُ قواتُ الاحتلالِ الطّلابَ المتظاهرينَ وغيرَ المتظاهرينَ وقاعاتِ الدراسةِ والمدرّسينَ، وعادةً ما يتبعُ ذلكَ الاعتداءَ شجبٌ واستنكارٌ وإضرابٌ آخرُ احتجاجاً على قمعِ الإضرابِ الذي سبقَهُ بالقوّةِ. باختصارٍ شديدٍ، الجامعةُ المعزولةُ عن المدينةِ بالأحراشِ والسياجِ والجدارِ ومُحيطُها الصّغيرُ تشكّلُ ساحةَ حربٍ دائمةٍ باردةٍ يمكنُ أنْ تسخنَ بلْ تلتهبَ في أيّةِ لَحظةٍ منَ اليومِ.

كان هنالكَ انطباعٌ لدى المشرفينَ على الجامعةِ، ومعظمُهُمْ منَ الأجانبِ منْ إداريينَ ومديرينَ وقسمٌ بسيطٌ منهم من المدرّسينَ، بأنَّ لديهِمْ حصانةً من كلِّ ما يَجري من مناوشاتٍ دائمةٍ بينَ سلطةِ الاحتلالِ والطّلابِ. كانَ ليسَ مستغرباً وفي خضمِّ خطرِ المواجهةِ وباستخدامِ الأسلحةِ الناريةِ والحجارةِ أنْ يَخرجَ أحدُ المديرينَ لابساً ثياباً مُمَيّزةً، من ذكرٍ أو أنثى، ومن بينِ خنادقِ المواجهةِ لتغييرِ الموقعِ كما لو لَمْ يكنْ هنالكَ أيُّ خطرٍ يُحدقُ بالمكانِ. كذلكَ كان ليسَ غريباً أنْ يُرى بعضٌ من أعضاءِ هيئةِ التدريسِ يَحتسونَ القهوةَ أو الشايَ أو أحدِ المشروباتِ الباردةِ ويتبادلونَ النكاتَ في الوقتِ الذي يُحَضّرُ فيهِ الجيشُ، أو بدأَ، لعمليةِ اقتحامٍ واسعةٍ للجامعةِ انطلاقاً من خلفِ أسوارِ الجامعةِ. أحدُ طبائعِ الاحتلالِ (السّوبرنازيِّ) الأساسيةِ هو أنّهُ لا يرغبُ في أنْ يَستثنيَ شيئاً من إجراءاتهِ القمعيةِ القاسيةِ؛ حتى أنَّ كلبَ حراسةٍ للجامعةِ أصيبَ بجراحٍ إثرَ تعرُّضهِ ذاتَ مرّةٍ لإطلاقِ النارِ عليهِ عندما خرجَ إلى الشارعِ المُؤدّي إلى الجامعةِ أثناءَ فترةِ استراحةٍ في اشتباكاتٍ بينَ جيشِ الاحتلالِ والمتظاهرينَ.

في ذاتِ يومٍ شبهِ ربيعيٍّ مشمسٍ كان المدرّسونَ والإداريونَ، على حدٍّ سواءَ، على موعدٍ مع أكثرِ أيامِ العمرِ لعنةً وبؤساً، ربَّما!. بدأتِ المواجهاتُ بينَ الطّلبةِ والجيشِ منذُ ساعاتِ الدّوامِ المبكرةِ، وما أنْ أتتْ السّاعةُ العاشرةُ صباحاً تقريباً حتى وصلتْ الأمورُ إلى ذروتِها. سيدخلُ جيشُ الاحتلالِ الجامعةَ وسوفَ يقومُ بتفتيشِ كلِّ مرافقِها وحَمّاماتِها وقاعاتِ الدرسِ ومكاتبِ المدرّسينَ والإداريينَ في عمليةٍ شاملةٍ. إلا أنَّهُ، كما بدا في ذلكَ الوقتِ، تَراجعَ عنْ قرارِهِ وفضّلَ التعاملَ معَ الموقفِ بطريقةٍ أخرى. بدأ بقصفِ المنطقةِ بشكلٍ مُركّزٍ جداً بقنابلِ الغازِ المسيلِ للدموعِ من مُختلفِ الأنواعِ والأحجامِ والأعيرةِ. بدأتْ قذائفُ الغازِ تنهمرُ على السّاحاتِ الخارجيةِ، ومن القذائفِ ما تَمَّ تصويبُها إلى المسالكِ الداخليةِ للمباني. أصبحَ موقعُ أو حرَمُ الجامعةِ قليلُ المساحةِ مغطّىً بسحابةٍ كثيفةٍ من مزيجٍ من غازاتِ الأعصابِ المُختلفةِ.

حوصرَ بعضُ الإداريينَ وقسمٌ كبيرٌ من المدرّسينَ في قاعةِ شربِ الشايِ والقهوةِ، أو "الاستراحةِ". أطلقَ أحدُ جنودِ الاحتلالِ قنبلةً كبيرةً من الغازِ المسيلِ للدموعِ أو غازِ الأعصابِ والتي اخترقتْ النافذةَ الزجاجيةَ للاستراحةِ وانفجرتْ داخلَها. أسالَ الغازُ المسيلُ للدموعِ كلَّ الدموعِ من العيونِ والمخاطِ من الأنفِ واللعابِ من الفمِ تقريباً في وضعٍ يشبهُ عملَ آلةِ عصرِ الفواكهِ، أو الجزءِ الخاصِّ

بعصرِ الملابسِ في الغسالةِ. ما العملُ؟!، لا أحداً يقدرُ على دخولِ المبنى لإنقاذِ المُحاصَرينَ بسَببِ إشباعِ المسالكِ والممراتِ الداخليةِ للمباني بالغازِ. لمْ يبقَ من طريقٍ آخرَ سوى جلبِ سُلَّم دَرَج طويلٍ لِمساعدةِ المُحاصرينَ داخلَ تلكَ الاستراحةِ، الواقعَةِ في الطّابقِ الثاني مِنَ البِنَايةِ، للخروجِ وبكلِّ مشقةٍ من الشبابيكِ وحَملِهم! ونقلِهم وتنزيلِهم إلى الساحةِ. أوَّلُ الخارجينَ كانَ نائبُ الرئيسِ الأعلى للجامعةِ حيثُ تسلَّقَ اثنانِ من "المنقِذينَ" على نفسِ السّلَّم لِمساعدتهِ والإمساكِ بيديْهِ ورجليْهِ بسببِ حالةِ التشنُّجِ وشبهِ اللا-وعي التي حلَّت بهِ بسببِ استنشاقهِ الغازَ بشكلٍ مركّزٍ. توالتْ عملياتُ الإخلاءِ الصّعبةُ لعشرينَ (٢٠) شخصاً تقريباً من المُحاصرينَ وبنفسِ الطّريقةِ التي سبقتْ مع نائبِ الرئيسِ الأعلى. قسمٌ كبيرٌ من المنقَذينَ أصبحَ لا يقوى على الوقوفِ على قدميْ كلٍّ منهم. كانت تنتشرُ في تلكَ المناطقِ عادةُ توزيعِ شرائحَ من البصلِ والتي ما أنْ يستنشقَها المصابُ بالغازِ حتى يشعرَ ببعضِ الراحةِ لاحتوائِها، على ما يبدو، على مادةٍ ملطِّفةٍ للغازِ أو معادِلةٍ لتأثيرهِ الكيماويِّ. غيّرتْ تلكَ الحادثةُ المفهومَ الخطأَ لدى المدرّسينَ والإداريينَ بأنّهمْ مستثنونَ من قمعِ الاحتلالِ حتى داخلَ استراحةِ تناولِ المشروباتِ الملطّفةِ للأعصابِ في الحرمِ الجامعيِّ.

بعدَ جهدٍ جهيدٍ تَمكّنَ بعضُ المدرّسينَ من إنشاءِ جَمعيةٍ خاصةٍ بهمْ وتُعنى بشؤونِهمْ من حلٍّ لِمشاكلِ السّكنِ للمدرّسينَ وتأمينِ تقاعدٍ للمستقبلِ! وتحسينِ ظروفِ التعاقدِ مع الإدارةِ من يوميٍّ وشهريٍّ ونصفِ-سنويٍّ وسنويٍّ إلى فترةٍ أطولَ من ذلكَ، وغيرَ ذلكَ. في البدايةِ اشترطتْ إدارةُ جامعةِ "الباطقانيّة" أنْ تكونَ الجمعيةُ منبثقةً عن تلكَ الإدارةِ وأنْ يتمَّ التنسيقُ بينَها وبينَ الجمعيةِ خاصةً عندَما علمـوا أنَّ هنالـكَ دعمـاً ماليّـاً قد يصلُ إلـى الجمعيـةِ، عبرَ أنـاسٍ يوجدُ للداعمينَ الخارجيينَ ثقةٌ خاصةٌ بهمْ من أعضاءِ الجمعيةِ. ما أنْ زادتْ التّداخلاتُ والشكوكُ وعدمُ الثقةِ بإدارةِ الجمعيةِ حتى أصبحَ عملُ الجمعيةِ مثلَ عملِ الجَمَلِ في منطقةٍ جبليةٍ صخريةٍ وعرةٍ؛ كلَّ يومٍ يُتوقّعُ أنْ يُكسرُ أحدُ عظامِ ذلكَ الجَمَلِ المسكينِ؛ على الجميعِ أنْ يتحلّوا بالصّبرِ حتى اليومَ الذي يَجْبُرُ (يصِحُّ) فيهِ عظمُ ذلكَ الجمَلِ!. ذاتَ يومٍ وصلَ رئيسُ الجمعيةِ الدكتورُ "سَمْعان رايح" إلى مقرِّ الجمعيةِ وقد تَمَّ تعصيبُ الجزءِ العلويِّ من رأسهِ على إثْرِ تلقّيهِ لكمةً قويةً من أحدِ شديدي الاعتراضِ على أسلوبِهِ في التعاملِ مع القضايا المستجدّةِ. كلَّ يومٍ هنالكَ انشقاقٌ أو تَهديدٌ بهِ أو اشتباكٌ بالأيدي أو الأرجلِ أو الكراسي، كلَّ يومٍ هنالكَ اتّهامٌ جديدٌ بسوءِ إدارةٍ أو تسييرِ الأمورِ أو التصرفِ اتّجاهَ قضيةٍ أو مشكلةٍ. ....

ذاتَ يومٍ كانت هنالكَ حلقةُ نقاشٍ عامةٌ مع بعضِ أعضاءِ هيئةِ التدريسِ في قاعةِ الاستراحةِ التي عادةً ما يأتي إليها المدرِّسُ بُعيدَ الانتهاءِ من مُحاضرةٍ لهُ على الطّلّابِ. من الصّعوبةِ لكنْ ليسَ مستحيلاً! في لقاءٍ كهذا أن يُجمعَ بينَ رؤوسٍ معدودةٍ في حيزٍ أو اتّجاهٍ فكريٍّ واحدٍ في النقاشِ، صورةٌ نَموذجيةٌ مصغّرةٌ عن ما يَجري في العالَمِ الكبيرِ.

السّيدُ حمد: لا أستطيعُ أنْ أتفهّمَ عمليةَ استمرارِ التعليمِ بلغةٍ غيرِ لغةِ الأمِّ والأبِ وبقيةِ الإخوةِ والأقاربِ والخِلّانِ والجيرانِ. اللغةُ العربيةُ قويةٌ ومُمتازةٌ وقادرةٌ على استيعابِ واحتواءِ كلِّ شيءٍ في كلِّ العلومِ. وإذا لَمْ نقمْ بالارتقاءِ بها إلى المستوى المطلوبِ فماذا تتوقّعونَ من الغريبِ عنهَا؟!. هذا أمرٌ حقاً وقطعاً مؤسفٌ أنْ يأخذَ

المتعلِّمُ فينا موقِفاً معادِياً للغةِ أمِّهِ التي من حليبِ لَها أرضعتْهُ!. هل لكُمْ مثلاً أنْ يأتيَ أحدُكُمْ بكلمةٍ أو اصطلاحٍ أو رمزٍ أو تعبيرٍ علميٍّ ليس لهُ في اللغةِ العربيةِ ما يفوقُهُ في دقةِ الوصفِ وبلاغَةِ التعبيرِ. اللغةُ العربيةُ غيرُ عاجزةٍ أو ضحلةٍ، على العكسِ من ذلكَ هي قمةُ عنفوانِ الشبابِ والنضجِ والسّعةِ والقدرةِ ...؛ هي تنينُ اللغاتِ كلِّها!.

السّيدُ "عطايا": ها ها ها ..... لقد حاولَ أحدُهُمْ ذاتَ مرّةٍ ترجَمةَ كلمةِ "ساندوتش" فتوصَّلَ إلى أنَّ أقصرَ تعبيرٍ يُمكنُهُ الوصولُ إليه هو "الشاطرُ والمشطورُ وما بينَهما" .... ها هي هي هي ....

السّيدُ حمد: أولا، توقّفْ قليلاً عن "تَهزيلِ" نفسِكَ ولغتِكَ أثناءَ الكلامِ؛ ثانياً إنَّها كلمةٌ "ساندويتش" وليستْ "ساندوتش"، وهي ليست كلمةً للوصفِ. إنَّها اسمُ عائلةٍ لشخصٍ كان يُلازمُ مكاناً يلهو فيه بعيداً عن بيتِه، وليس عندَهُ هِمّةٌ أو طاقةٌ يريدُ أنْ يبدِّدَها من أجلِ الذهابِ إلى بيتِهِ وتناولِ طعامِهِ هناكَ؛ تُكنى عائلتُهُ بـ"ساندويتش" أو بالعربيِّ الفصيحِ "بصّارةِ الرملِ" لأنَّها كانت تستخدمُ "تَخْتَ رملٍ" تضربُ بهِ أو تَهزُّهُ لتتنبأَ بمستقبلِ زبائنِها المتشوقينَ لِمعرفةِ ما يُخبئُهُ لَهُمْ المستقبلُ بأقصى سرعةٍ مُمكنةٍ!. لذلكَ وحالُنا في معظمِ حياتِنا هنا وهناكَ صارَ شبيهاً بحالةِ السّيدِ "ساندويتش"، وَجَبَ علينا عملُ الشيءِ ذاتِهِ في تناولِ الطعامِ. كان منَ الممكنِ أنْ تُسمّى تلكَ "فطيرةَ أو شطيرةَ عطايا" أو حتّى "أوسطةَ عطايا" (أوسطة هنا تَعني مِثْلَ الرئيس أو المدير) لو كنتَ الذي طلبتَ ذلكَ النوعَ من الفطائرِ المَحشوِّ مثلاً "بالمارتاديلا" أو "الفلافل" أو "الهامبيرجر" أو "مذكوش زعتر" أو حتى لُفافةٍ من أحدِ "الكلابِ الحارّةِ hotdog"!.

السّيدُ "غُرْزان": لَمْ يَحدثْ أنْ مرَّ بيَ في كلِّ دراستيَ الجامعيةِ وفي تَخصّصِ علمِ الأحياءِ بالذاتِ أيُّ اسمٍ لاتينيٍّ كانَ، أو ذا أصلٍ إغريقيٍّ، إلا ووجَدْتُ لهُ ترجَمةً "مثاليّةً" لكلمةٍ أو تعبيرٍ باللغةِ العربيةِ. حبَّذا لو أنَّ هنالكَ جسماً علمياً كاملاً متكاملاً لِمتابعةِ كلِّ التطوراتِ العلميةِ في هذا العلمِ أو ذاكَ لينقلَها إلى اللغةِ العربيةِ. وإذا ما صادفْنا أنَّ هنالكَ كلماتٍ لا تَجِدُ ترجَمةً إلى اللغةِ العربيةِ، وأستبعدُ ذلك، فما المانعُ من إضافتِها كما هي إلى اللغةِ العربيةِ!؟. من الطّبيعيِّ أنّنا نفكّرُ دائماً بلُغتِنا بشكلٍ أكثرَ وأكبرَ سهولةٍ وسلامةٍ وسرعَةٍ وقوّةٍ وإنتاجٍ؛ وعندما نُجبَرُ على التفكيرِ والعملِ بلغةٍ ثانيةٍ يَحدثُ بطءٌ شديدٌ في التفكيرِ وينعدمُ الإنتاجُ والابتكارُ والإبداعُ.

الآنسةُ "سَماح": وهذا ما يَحدثُ حالياً لدى كافةِ العقولِ العربيةِ على امتدادِ الوطنِ العربيِّ. لقد أصيبَ العقلُ العربيُّ في مقتلٍ بسببِ تبنّي المسئولينَ فكرةَ "تغريب" بدلَ "تعريب" لغةِ التعليمِ. أصبحَ المعلّمُ والطالبُ العربيُّ يركّزُ على التمنطقِ بلْ التبجّحِ والتباهي بمعرفتِهِ السطحيةِ للغةِ الأجنبيةِ على حسابِ المطلوبِ من التعليمِ.

السّيدُ "حذفي": هنالكَ قسمٌ خاصٌّ في مَجمعِ اللغةِ العربيةِ لترجَمةِ المصطلحاتِ العلميةِ الحديثةِ ووضعِها في قاموسٍ جيبٍ! خاصٍّ بها.

السّيدُ حمد: ذلكَ جهدٌ منظّمٌ بعضَ الشيءِ، وبدَورنا كأفرادٍ نَحْنُ قادرونَ على المشاركةِ بأنفسِنا بشكلٍ أكثرَ فاعليةٍ. نَحْنُ أقربُ إلى الواقعِ والعملِ ومن الممكنِ أنْ نشكّلَ روافدَ لِجهودِ هذا المَجمعِ العلميِّ لأنّهُمْ يُترجِمونَ المصطلحاتِ والمفرداتِ حرفيّاً لكنّنا نعرفُ ما بينَ السّطورِ وما تَحْتَ ظلالِ الكلماتِ من أفكارٍ!. الترجَمةُ

الحرفيةُ للمصطلح مهمّةٌ للدارس لكنَّ الأهمَّ إيجادُ تطبيقٍ عمليٍّ لذلكَ المصطلحِ لهُ أهَميتُهُ على أرضِ الواقع وفي الحياةِ بشكلٍ عامٍّ.
السّيدُ "رفاعي": مِن رَأيِيَ أنْ تَدَعوا الأمورَ تَجري على طبيعتِها؛ سيأتي يومٌ تسترجعُ فيهِ اللغةُ العربيةُ قوَّتَها وهيبتَها بنفسِها! في كافةِ فروعِ العلومِ و"التكنولوجياتِ".
السّيدُ حمد: يا سيدَ "رفاعي"!، تبدو بحاجةٍ إلى سريرِ نومٍ ولِحافٍ وفراشٍ. لا ضيْرَ لو تستعملُ عقلَكَ قليلاً ولو الحدَّ الأدنى منهُ!.

حربٌ جديدةٌ وأيامٌ يشيبُ لَها الليلُ

أعلنتْ وسائلُ البثِّ الإعلاميِّ المَحلّيةِ والدوليةِ خبراً مفادُهُ أنَّ مَجهولينَ حاولوا قتْلَ رئيسِ البعثةِ الدبلوماسيةِ للعدوِّ، السّيدِ "عروخوف"، في إحدى العواصمِ الغربيةِ. أصيبَ الأخيرُ بجراحٍ خطيرةٍ وغابَ عن الوعيِ وتَمَّ تعليقُهُ بينَ الحياةِ والموتِ في غرفةِ العنايةِ الفائقةِ. المَجهولونَ الذينَ حاولوا اغتيالَ الشخصيةِ المعاديةِ غيرُ معروفي العددِ، وقد لا يتجاوزُ عددُهُمْ الواحدَ فقط، وليس معروفاً انتماؤهُ الوطنيَّ أو السّياسيَّ أو العرقيَّ وقد يكونُ من العدوِّ نفسهِ وفيهِ!. وعلى رأيِ المثلِ المَحليِّ القائلِ "إذا ما طَلَعَ لكَ صيتٌ ضَعْ رأسَكَ على المخدَّةِ ونَمْ الليلَ الطّويلَ"!. بدأت قيادةُ العدوِّ، شديدةُ الغطرسةِ والتصلبِ في المواقفِ والعدوانيةِ، بحشدِ قواتٍ إضافيةٍ على الحدودِ تمهيداً لإعلانِ الحربِ الشاملةِ. ما هي إلا بضعةُ أيامٍ حتى اكتملَ حشْدُ قواتٍ ضخمةٍ في البرِّ والبحرِ يدعمُها ثاني أو ثالثُ أقوى سلاحِ جوٍّ في العالَمِ وقوى أخرى لَمْ يعلنْ عنها في حينِهِ!.

صباحَ أحدِ أيامِ الصّيفِ الحارةِ، وكعادةِ معظمِ حروبِ المنطقةِ حيثُ يكونُ مفعولُ الأسلحةِ والعتادِ العسكريِّ في الذروةِ، بدأتْ أكثرُ الحروبِ شراسةً في تاريخِ المنطقةِ من حيثُ كميةِ الدمِ المسالِ وعددِ الأبرياءِ الذينَ ذهبوا ضحايا لهذهِ الحربِ. في البدايةِ، وكالعادةِ، كانَتْ معنوياتُ الناسِ عاليةً. بعدَ أقلَّ من اثنتينِ وسبعينَ (٧٢) ساعةً وصلَ جيشُ العدوِّ إلى مشارفِ المدنِ الكبرى. بدأتْ القواتُ المعاديةُ بإحكامِ الحصارِ على المدنيينَ والعسكريينَ المُحاصَرينَ في المدينةِ العاصمةِ، وعلى المدنِ الأخرى باستخدامِ قواتٍ بريةٍ وبَحريةٍ وجويةٍ وبرمائيةٍ و"بَرْ-ماءِ-جويةٍ" (المرَوحياتِ)!. وقعتْ المدينةُ الرئيسيةُ (العاصمةُ) تَحْتَ حصارٍ استمرَّ عدةَ شهورٍ استُنفِدَ استخدامُ كافةِ أنواعِ العتادِ المسموحِ بهِ والممنوعِ والمُحرَّمِ دولياً وإنسانياً وحتى عسكرياً. تجمعاتٌ سَكانيةٌ تتميَّزُ عن غيرِها من الوجودِ بأنَّ بَيوتَها تَخلو من شيءٍ اسْمُهُ الخرسانةُ المسلَّحةُ تتعرّضُ لغاراتٍ تستخدمُ فيها قنابلُ من زنةِ الألفِ كيلوجرامٍ ونيِّفٍ. كلُّ ما تَمَّ إعدادُهُ أو تَحضيرُهُ لِمواجهةِ الحربِ المعلنةِ انصهرَ بفعلِ التفوقِ العسكريِّ السّاحقِ للعدوِّ وما مارسَهُ من أعمالٍ تَخلُّ بالشرفِ الإنسانيِّ والعسكريِّ. لَمْ يكنْ لتداعياتِ ذلكَ التفوّقِ العسكريِّ السّاحقِ الأثرُ الكبيرُ على معنوياتِ الناسِ هناكَ، على العكسِ من ذلكَ كلَّما استخدمَ العدوُّ سلاحاً أقوى وأكثرَ شراسةً كلَّما زادتْ الهِمَّةُ وارتفعتْ المعنوياتُ عالياً!.

في الحروبِ مع العدوِّ لَمْ يكنْ عددُ الضحايا يشكِّلُ عاملَ حسم. الأعمالُ التي جعلتْ قرصَ الشمسِ يقشعرُّ لفداحتها كانت انضمامَ أعدادٍ لا بأسَ بِها عددياً من القوى المَحلّيةِ إلى العدوِّ المتقدم واستقبالَ البعضِ لهُ بالزهور ونثْر الأرُزِّ على العرباتِ العسكريةِ المدرّعةِ المتقدّمةِ. بعضُ خطباءِ المعابدِ رحّبوا أمَامَ مُصَلّيهِمْ بالجيشِ المنقذِ لَهُمْ!. هنالكَ أعدادٌ مِمّا كان يعرفُ بالميليشياتِ مِمَّن وجَّهوا سلاحَهُمْ إلى صدورِ وظهورِ وقلوبِ وبطونِ المقاومةِ. في جامعةِ "الباطقانيّة" كان هنالكَ بعضُ النقاشِ معَ الأصحابِ حولَ الأوضاعِ الخطيرةِ المستجدَّةِ وما ستؤولُ إليهِ الأمورُ.

السّيدُ حمد: يبدو أنَّ هنالكَ مثلثاً حديدياً أعلنتْ عنهُ المقاومةُ لا يُمكنُ للعدوِّ اختراقُهُ بسهولةٍ ويعملُ على استنزافِ قوّةِ العدوِّ المهاجمةِ واحتوائِها؟!.

السّيدُ "جونو" (زميلٌ): ميزانُ القوى يَميلُ كلياً لصالحِ العدوِّ. يَمتلكُ العدوُّ سلاحَ برٍّ وجوٍّ وبَحرٍ لا يَمتلكُ "أصحابُنا" أيَّ شيءٍ منهُ على الإطلاقِ، تقريباً. كان اللهُ في عونِهِمْ!.

السّيدُ "رونو" (زميلٌ): من المؤسفِ أنَّ العالَمَ هذه الأيامَ لا يفهمُ إلا لغةَ القوّةِ، قوّةِ السّلاحِ. هذا يُجبِرُ الشعوبَ أو الدولَ الضعيفةَ على خوضِ حروبٍ تعتقدُ أنَّها سترِبَحُها بقوّةِ إيمانِها. علينا أنْ نعملَ على تدعيمِ قوّةِ الإيمانِ بسلاحٍ كافٍ لِحمايةِ قوّةِ الإيمانِ!.

السّيدُ حمد: المهمُّ ليسَ كيفَ تبدأُ الحربُ بل متى وكيف ستنتهي!. لقد اكتوينا كثيراً من نيرانِ الحروبِ السابقةِ ولَمْ نستفدْ من الكثيرِ من دروسِها. ربّما هنالكَ درسٌ جديدٌ شديدُ القسوةِ علينا جَميعاً بالانتظارِ على الأبوابِ؛ لكنْ للأسفِ الشديدِ أنَّ المعلّمانِ في كلِّ الدروسِ السابقةِ واللاحقةِ، ربّما، هُما العدوُّ والزمنُ.

استمرّتْ الحربُ وعمليةُ حرقِ الأعصابِ وحشْوِ الذاكرةِ وتَخزينِها بكلِّ أنواعِ القاذوراتِ الفكريةِ والذكرياتِ المفزعةِ المخجلةِ. تسابقَ العدوُّ والصّديقُ والحليفُ على ضربِ المقاومةِ المُحاصرةِ. عدوُّ اليوم كان بالأمسِ القريبِ صديقاً يتغذّى مادياً ومعنوياً من "عروقِ" قضايا اللاجئينَ الثكلى والميئوسِ من ماضيهِمْ وحاضرِهِمْ ومستقبلِهِمْ. وصلَ الأمرُ ببعضِ الفئاتِ "الصّديقةِ بالأمسِ" إلى نَصْبِ مدفعيةٍ ثقيلةٍ بعيدةِ المدى لتقذفَ حِممَها العاتيةَ على أمكنةِ سكنٍ مدنيينَ لا يعرفونَ عن الحربِ والسّياسةِ، إلا ما تَجودُ عليهِمْ بهِ وسائلُ إعلامٍ مضلِّلَةٌ، لا ناقةَ لَهُمْ فيها ولا ماعزاً. كالعادةِ! جلُّ الناس ملتفّونَ حولَ وسائلِ الإعلامِ المرئيةِ والمسموعةِ والمقروءةِ ... والشائعاتِ!.

سرحان: مِن تَحْتِ الحصارِ المشدَّدِ يقومُ الأبطالُ بتسطيرِ ملاحمَ بطوليةٍ تفوقُ في تأثيرِها كلَّ أسلحةِ البطشِ والقتلِ الجماعيِّ الرهيبةِ. النصرُ حليفُ الحقِّ، الحقُّ أخيراً هو المنتصرُ.

السّيدُ حمد: ما شاءَ اللهُ! على إيمانِكَ الراسخِ والثابتِ وهمتِكَ العاليةِ. لكنْ تكالبتْ علينا القوى الخارجيةُ والإقليميةُ والمَحلّيةُ وحَتى الداخليةُ.

"كاملة" وسرحان وأبوالزهو: للمرةِ الألفِ! ندعوكَ إلى تركِ نظرةِ الشؤمِ والتشاؤمِ التي تقيمُ في رأسِكَ. ماذا تعني بكلِّ القوى؟! ... يقفُ العالَمُ كلُّهُ معنا!.

السّيدُ حمد: العالَمُ كلُّهُ معنا، ولكن ليس وقتَ الحربِ. العكسُ هو الذي يَجري الآنَ، العالَمُ كلُّهُ ضدَّنا عندَ الحربِ أو اشتدادِ الحربِ على الأصحِّ!.

أبوالز هو و سرحان: كلامُكَ يَحتاجُ إلى تفسير. أنت الذي تقرأُ الجرائدَ والمَجلاتِ وتقضي وقتَكَ مع التلفاز، ربَّما تعرفُ أكثرَ منّا نَحْنُ المشغولينَ بكسبِ الرزقِ وتَحسينِ مستوى الضمانِ الاجتماعيِّ لعائلةِ الوالدِ أبو جاسر الموقرةِ .... نَوِّرْنا!.
السّيدُ حمد: يتحدّثونَ عنَ مثلثِ الحديدِ (مثلَّثٌ مقاومٌ ضدَّ الغزو) مكوَّن من القلعةِ المقاومةِ والقلعةِ الأخرى والجبالِ. لكنَّ هذا المثلَّثَ يغرقُ في بُحَيرةٍ أو بركةٍ كبيرةٍ من "سائلِ الزئبق"!. هنالكَ مثلثاتٌ أكبرُ وأقوى وأخطرُ. مثلَّثٌ دوليٌّ معادٍ، ومثلَّثٌ إقليميٌّ أكثرُ عدوانيةً وأشرسُ، ومثلَّثٌ أو مربعٌ مَحليٌّ يعرفُ مكانَ كلِّ رصاصةٍ مُخبأةٍ ولو كانت موضوعةً في حائطٍ؛ وهنالكَ أشبهُ ما يكونُ بمثلَّثٍ جدٌّ داخليٍّ طلبَ من القيادةِ ليضمنَ بقاءَهُ معها وفي نفس الخندقِ أنْ تعلنَ الحربَ على العدوِّ المهاجمِ وتَهزمَهُ شرَّ هزيمةٍ. كذلكَ طَلَبَ من القيادةِ المُحاصَرةِ أنْ تعلنَ الحربَ على الدولِ العظمى وتُلحقَ بها هزيمةَ الذلِّ والعار، ثُمَّ تعلنَ تلكَ القيادةُ المُحاصرةُ الحربَ على الدولِ والأنظمةِ الرجعيةِ لتُلحقَ بها الذلَّ والعارَ. وثَمَّةَ حرباً أخيرةً مطلوبةً من القيادةِ المُحاصَرةِ أنْ تعلنَها على القوى "الانبطاحيةِ" المغروزةِ في الجسمِ؛ بعدَها وحينَئذٍ ستجدُ القيادةُ كلَّ دعمٍ وإسنادٍ من تلكَ القوى التي أعلنتْ عن نفسِها أنَّها "شريفةٌ" ونظيفةٌ من كلِّ دنَسٍ!.
أبوالزهو: يا صديقِيَ! أكلّما طلَبنا منكَ أنْ توضحَ لنا شيئاً تزيدُ من صعوبتهِ. لقد حفرْتَ في رأسِيَ مُحجراً كبيراً. رُحْماكَ بيَ، ارحمْ قلبيَ كذلكَ. يا للهولُ من حديثِكَ!.
السّيدُ حمد: يا أبوالزهو!، وبالتفصيلِ السّهلِ الممتنعِ والمملِّ؛ نتعرضُ "للكربلةِ والغربلةِ" من الذين "تكربلوا وتغربلوا" فيما مضى أو ادَّعوا ذلكَ، و"للصّلْبِ" من الذينَ "صُلبوا" فيما مضى أو ادَّعوا ذلكَ، وللاضطهادِ من الذينَ اضطُهدوا فيما مضى أو تظاهروا كما لو حدثَ ذلكَ، وللحرقِ من الذين حُرقوا فيما مضى كما يواصلونَ الادّعاءَ بذلكَ، وللإبادةِ العرقيةِ من الذين ادَّعوا أنَّهُمْ أبيدوا عرقيّاً فيما مضى، وللخزيِ والذلِّ من الذين خُزوا وذُلّوا فيما مضى، وللقتلِ من الذين قُتِلوا فيما مضى، وللخيانةِ والغدرِ من الذين غُدِرِ بِهِمْ .. وهكذا دواليكَ.
أبوالزهو وسرحان: الآنَ وضحَتْ الصّورةُ أكثرَ منْ أيِّ وقتٍ مضى! ..... غيرَ ذلكَ! ... وهلْ استوعبتَ كلَّ ذلكَ عبْرَ وسائلِ الإعلامِ؟!.
السّيدُ حمد: أضفْ إلى ذلكَ يا أبوالزهو! أنَّ السّلاحَ الذي وُجِّهَ إلى صدورنا ووجوهِنا من حلفائِنا كُنّا قد أعطيناهُمْ إياهُ ودرَّبْناهُمْ عليهِ وموَّلناهُ لَهُمْ من أموالِنا المخصصةِ للنضالِ ضدَّ العدوِّ. أعطيْنا، كلَّ الفئاتِ التي ذُكرتْ أعلاهُ، كلَّ ما نَملكُ ووضعْنا تَحْتَ تصرفِهِمْ الأرواحَ قبلَ الأجسادِ والعتادِ ... يا لَهولُ الكارثةِ!.
أبوالز هو: و يا لفداحةِ الصورةِ عندَ بني البشرِ .... يا صديقِيَ لا تَخفْ! إذا كان للباطلِ جولةٌ فللحقِّ جولاتٌ .... والقادمُ أعظمُ....
السّيدُ حمد: آهٍ عليكَ! ما أطيبَ لسانِكَ وأعذبَ أفكارِكَ يا فيلسوفَ الحريةِ والكرامةِ والنضالِ من أجلِ العيشِ الكريمِ والمواقفِ الفريدةِ من نوعِها.
أبو جاسر: أنتُما! أيّها الجاهلانَ بأمورِ الحياةِ .... سوفَ أحدِّثُكُما عن سرٍّ وتَجربةٍ في الحياةِ تعلمتُهُ منذُ أيامِ طفولَتِيَ، وفي كلِّ مرَّةٍ كان يُتَأَكَّدُ لِيَ أمرُهُ خلالَ عمرِيَ الطويلِ والقصيرِ في آنٍ معاً!. أريدُ أنْ ألَخِّصَهُ لكُما في حكايةٍ فيها شيءٌ من الطّرافةِ لكيْ يستَفيدَ منهُ من يقدرُ على ذلكَ منكُما. يُحكى أنَّ ملكَ الغابةِ (الأسدَ)، وكان هرِماً، أصبحَ يتضوَّرُ من الجوعِ ولعدّةِ أيامٍ خلتْ وصارَ زئيرُهُ الناجمُ عن

جوعهِ يهزُّ أركانَ الغابةِ. توجَّهَ إليهِ الثعلبُ والذئبُ لنجدتهِ ولِمساعدتهِ على تَخَطّي تلكَ المِحنةِ. بعدَ جلوس معهُ قليلاً خَرَجَ الذئبُ والثعلبُ من عرينِ الأسدِ متفهّمينْ لوضعهِ المزري. في الطّريقِ اقترحَ الثعلبُ على الذئبِ أنْ يأتيَ الثعلبُ بصديقهِ الحمارِ كوليمةٍ يقدمانِها لملكِ الغابةِ. اعترضَ الذئبُ على ذلكَ في البدايةِ، بحجَّةِ أنَّ الحمارَ كانَ صديقاً لَهُما، إلى أنْ قَبِلَ بها بعدَ ذلكَ وعلى مضَضٍ!. قالَ الثعلبُ للذئبِ أنَّ الخطّةَ تكمُنُ بأنْ يُستدرَجَ الحمارُ طوعاً إلى بيتِ الأسدِ. هنالكَ! وأثناءَ جلسةٍ مشتركَةٍ في الحديثِ سوفَ يقومُ الثعلبُ بطرحِ سؤالٍ على كلِّ الحضورِ. صيغةُ السّؤالِ كالآتي: مَنْ أنتَ وابنُ مَنْ أنتَ؟!. وفعلاً! وبعدَ استدراجِ الحمارِ إلى عرينِ الأسدِ، فقد تَمَّ طرحُ السّؤالِ على الأسدِ والذي أجابَ بكلِّ فخرٍ واعتزازٍ وشموخٍ أنَّ اسْمَهُ "سبعٌ ابنُ سبع"!. وعندَما طُرِحَ السّؤالُ على الذئبِ أجَابَ بشيءٍ من الشمَوخِ والكبرياءِ أنّهُ "ذئبٌ ابنُ ذئب"!. ولَمّا أُلقيَ نفسُ السّؤالِ على الحمارِ شَعَرَ الأخيرُ بأنّهُ يتمُّ استفزازَهُ بشكلٍ متعمَّدٍ وغيرِ لائقٍ. فكّرَ! الحمارُ قليلاً وأجَابَ بأنَّ اسْمَهُ مَحفورٌ على طرفِ حافرِهِ الخلفيِّ. بسرَعةٍ وتلهُّفِ الجائعِ للطعامِ ودونَ أدنى تفكيرٍ، أخفضَ الأسدُ رأسَهُ باتّجاهِ حافرِ الحمارِ مُحاولاً قراءةَ ما قد يَكونُ قد كُتِبَ عليهِ حفراً. سدَّدَ الحمارُ حافرَهُ صوْبَ مقدمةِ رأسِ الأسدِ وبرفسةٍ قويةٍ طرحتْ "السّبعَ ابنَ السّبع" الأرضَ جريحاً دمُهُ ينزفُ بغزارةٍ وجسمُهُ يتلوّى مُحتضراً. اندفعَ الثعلبُ! والذئبُ يُحاولانِ نَهْشَ جسمِ الأسدِ الجريحِ الذي كانَ يشرفُ على الموتِ. قالَ الأسدُ آخرَ كلمةٍ لهُ قَبلَ موتهِ: "آخٍ على الزمنِ الذي يقفُ فقط مع الواقفِ على قدمَيْهِ! حتى لو كانَ الأخيرُ حماراً".

كانَ العدوُّ قد تَمكّنَ عسكرياً من القوى المقاومةِ وبالتعاونِ مع عملائهِ و"مأجوريهِ" ومَجموعةٍ لا بأسَ بعددِها من الحاقدينَ ورعاعِ القومِ وأنصافِ الواعينَ. قامَ بعدَ ذلكَ بإيقاعِ أبشعِ أنواعِ الجرائمِ بحقِّ الإنسانيةِ وبفخرٍ وتباهٍ. حدثَ ذلكَ مقابلَ عجزٍ مَحلّيٍ وإقليميٍّ وأمامَ صمتٍ دوَليٍّ مُخجلٍ وغامضٍ ومطبقٍ. بعدَ ارتكابِ مذابحَ جَماعيةٍ كبيرةٍ، يقومُ أفرادٌ من المليشياتِ المسلحةِ هناكَ باختطافِ فتياتٍ مُمرضاتٍ من المستشفى، ومن بينِ المرضى والأطباءِ والقيامِ باغتصابِهِنَّ وقتلِهِنَّ والتمثيلِ بجُثثِهِنَّ. كذلكَ قامَ العدوُّ بِمنعِ الجريحاتِ منهنَّ من تلقّي مساعدةٍ طبيةٍ. أثبتتْ تلكَ الحربُ، وأكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، أنَّ الركونَ إلى النفسِ البشريةِ في حالةِ الحربِ مرهونٌ بالموقفِ العسكريِّ من ميلٍ للربحِ أو الخسارةِ.

أبو جاسر: تبدو اليومَ قد طليتَ وجهَكَ بمادةٍ كربونيةٍ سوداءَ!. ما الأمرُ؟! هل دخلتَ في منجمٍ للفحمِ الحجريِّ حديثِ الاكتشافِ في المنطقةِ؟!.

السّيدُ حمَد: الوَضعُ بعدَ الحربِ أكثرُ قتاماً منْهُ خلالَ الحربِ. حربٌ داخليةٌ وتصفياتٌ ومواجهاتٌ وحصارٌ وقصفٌ متبادلٌ بين الطّرفِ ونفسهِ ورحيلٌ وتشتتٌ وهجرةٌ ولُجوءٌ ونزوحٌ وتوحّلٌ في مواطنِ الغربةِ والتغريبِ؛ تشرّدٌ وضياعٌ وتشتيتٌ لشملِ الناسِ وحالةٌ من الانسحابِ غيرِ المنظمِ من معركةِ الحياةِ والوجودِ، كلُّها أتت دفعةً واحدةً وعلى عَجَلٍ.

أبوالزهو وسرحان: لا يوجدُ حلٌّ لكلِّ هذهِ "المستجدات" إلا النسيانُ أو التناسي أو الجلوسُ مع النفسِ. أعطِنا من عندِكَ مِمّا تبقّى من أغاني الثوريةِ والتمرُّدِ على الواقعِ والثورةِ والعصيانِ للأمرِ الواقعِ ... حتى لو كانَ ذلكَ لا مَحالةَ واقعاً!.

السّيدُ حمد: (مع الشيخ المناضلِ أحمد قعبور) ... دو ري مي فا صول لا سي دو ..... اسْمعْ اسْمعْ! ... اسْمعْ اسْمعْ! .... من بَحرِ دماءِ الشهداء! ... من نَفَسِ الثُّوار الأحْمر! ... أصنعُ شعلةً ، أصنعُ ثورة ... من أجلِ الحرية .... أحنُّ إلى خبزِ أمّي وقهوةِ أمّي، ولَمسةِ أمّي، وتَكبُرُ فِيَّ الطّفولةُ يوماً على صدرِ يومِ....
أبوالزهَو: ويا بَخْتَ من لهُ أمٌّ قويةٌ تقفُ معهُ في هذهِ الحياةِ!.

لا تَجديدَ للتعاقدِ السّنويِّ

يوشكُ الفصلُ الثاني من العامِ الدراسيِّ من السّنةِ الوحيدةِ لتعاقدِ السّيدِ حمد على الانتهاءِ. المدرّسونَ والتلاميذُ منشغلونَ في وضعِ اللمساتِ الأخيرةِ على خواتيمِ المقرّراتِ، وما يَجبُ على الطّلابِ التركيزُ عليهِ في الإمتحاناتِ النهائيةِ ليحصلوا على مَجاميعَ علاماتٍ عاليةٍ. قافلةُ الامتحاناتُ تبدأُ وتسيرُ. استدعى الدكتورُ "شلّاق" السّيدَ حمد إلى مكتبهِ وحدَّدَ لهُ موعداً للّقاءِ بهِ. في المكتبِ وعندَ بدءِ اللقاءِ بهِ قالَ الدكتورُ "شلّاق" أنَّ هنالكَ أحداً من طلبةِ المساقِ الذي يعطيهِ السّيدُ حمد اشتكى للأوّلِ، الدكتور "شلّاق"، على الثاني أيْ السّيدِ حمد. زَعَمَ ذلكَ الطّالبُ بأنَّ السّيدَ حمد قالَ لهُ وهو يوجّهُهُ، عندما طلبَ منهُ أنْ يَحلَّ السّؤالَ على السّبّورةِ في غرفةِ الصّفِّ وكان الطّالبُ يرتكبُ خطأً غيرَ متوقّعٍ، قالَ لهُ كلمةً شعبيةً: "لأ أولوه" (بالعربيِّ الفصيحِ مثلَ: لا يا هذا أو يا ولداً!). اعتبرَ الطّالبُ، ومن ورائهِ الدكتورُ "شلّاق"، تلكَ الكلمةَ أو العبارةَ "جَرْحاً" لكرامةِ الطّالبِ أو "خدْشاً" لحيائهِ وللجسمِ الأكاديميِّ في تلكَ المؤسسةِ الأكاديميةِ. زَعَمَ الدكتورُ "شلّاق" أنّهُ لا يستطيعُ السّكوتَ وكتْمَ الغيظَ أو تَحمُّلَ مثلَ هذا التجاوزِ؛ لذلكَ قرَّرَ وبالتعاونِ مع إدارةِ الجامعةِ عدمَ تَجديدِ تعاقدِ السّيدِ حمد مع الجامعةِ. إلا أنّهُ بمقدورِ السّيدِ حمد، أضافَ الدكتورُ "شلّاقٌ"، "الاستمرارُ" في التدريسِ في الصّيفِ الملحقِ بالسّنةِ الدراسيةِ فقط، حيثُ أنَّ هنالكَ مساقاً مطروحاً لفصلِ الصّيفِ (على رأيِ المثَلِ الشعبيِّ القائلِ: أهلُ السّماحِ مِلاحٌ). أجابَ السّيدُ حمد الدكتورَ "شلّاق" قائلاً أنَّ مثلَ تلكَ الكلماتِ، من مثْلِ "لأ أولوه"، تستخدمُ أكثرَ للتودُّدِ والتقرُّبِ والتحبُّبِ ورفعِ "حاجزِ البينِ"، إنْ صَحَّتْ التعبيراتُ، وليس مقصودٌ بها الإهانةَ. ادعى الدكتورُ "شلّاقُ" (وبفظَاظةٍ وتعنُّتٍ) بأنّهُ سبقَ السّيفُ العَذَلَ، وانتهى كلُّ شيءٍ!.

الدكتورُ "شلّاق": أرجو أنْ لا أكونَ أزعجتُكَ بهذا القرارِ. لدينا مبعوثونَ من أهلِ الوطنِ في جامعاتِ الخارجِ؛ عادَ قسمٌ منهُمْ وما علينَا إلا إخلاءُ بعضِ الأماكنِ الوظيفيةِ لاستيعابهِمْ.

السّيدُ حمد: الأمرُ لا يضايقُني من هذه الناحيةِ، الضيقُ قد يأتيني من شعوركَ أنَّ ما قمتَ بهِ يضايقُني!. يشتدُّ بيَ الضيقُ كلَّ يوم إذا ما استمرَرْتُ في مؤسّسةٍ تعليميةٍ تابعةٍ لِجهازِ تعليمٍ عاقرٍ وتتبعُ أساليبَ سطحَيةً جداً في التعليمِ تؤدّي في نهايةِ الأمرِ إلى لا شيءَ. وبالرغمِ من اعتمادِ لقمةِ العيشِ عندِيَ على مصدرِها الوحيدِ من هنا، لا أخفي عليكَ بأنّني كثيرُ الشكرِ والامتنانِ لَكَ على قرارٍ اتّخذتَهُ أو تنفذُهُ بالنيابةِ عن آخرينَ.

كان صيفاً أخيراً أُعطِيَ فيه السّيدُ حمد مساقاً علمياً غيرَ عاديٍّ في العبءِ لتدريسهِ بالإضافةِ إلى مُختبرٍ ملحقٍ بهِ، إلا أنَّ المعاشَ للفصلِ الصّيفيَّ لَمْ يتغيّرْ عنهُ في الشتاءِ أو الربيعِ. فوقَ ذلكَ حَسمَتْ الإدارةُ الماليةُ للجامعةِ حوالَيْ الثلاثينَ (٣٠) دولاراً زعمَ الموظفُ أنّها اقتُطِعَت من معاشِ السّيدِ حمد، أسوةً ببقيةِ الموظفينَ، من أجلِ شراءِ هديةٍ للسيدِ "الأخِ بِنْ أورلي" الذي كان سيتقاعدُ من الخدمةِ هناكَ كمديرٍ للجامعةِ. زَعَمت الموظفةُ الماليّةُ الشقراءُ ذاتُ العيونِ الخضرِ

أنَّ تلكَ الهديةَ هي أقلُّ ما يُمكنُ تقديمُهُ لشخصٍ قضى على حياتِهِ! مُحترقاً في خدمةِ الأجيالِ. انتهى فصلُ الصّيفِ وذهبَ السّيدُ حمد إلى أهلهِ حيثُ كانَ ذلكَ اليومُ آخرَ أيامهِ في جامعةِ "الباطقانيّةِ".

السّيدُ حمد: هذه هي السّنةُ الأخيرةُ لِيَ في جامعةِ "الباطقانيّة"، لقد رفضوا تَجديدَ التعاقدَ معِيَ لسنةٍ أخرى!.

أم جاسر: يا بُنَيَّ! لا تظلَّ تثقلُ (تزيدُ وزنَ) دَمَكَ على الناسِ. لولا شاكستَهُمْ وعاكستَهُمْ لَما تربَّصوا بكَ الطّرقاتِ والتقاطعاتِ، كُفَّ شرَّكَ عنهمْ. عسى اللهُ يرضى عليكَ يا ولدِيَ، هل الدنيا عندَكَ دائماً أنْ تَحملَ السُّلَّمَ بالعرضِ؟!. مثلما تريدُ أنْ تعيشَ كذلكَ يريدُ غيرُكَ. ثُمَّ و"على قدْرِ لِحافِكَ مُدَّ (امددْ) رجليْكَ" ... (مثلٌ شعبيٌّ يدعو إلى الحدِّ من الجنوحِ في الخيالِ لتحقيقِ أمورٍ خارجةٍ عن الممكنِ تطبيقهُ فعلياً من لَدُنْ الشخصِ).

أبو جاسر: منذُ أنْ بدأتَ العملَ هناكَ، هلّا تذكرُ؟، أخبرتُكَ بأنَّكَ لن ترتاحَ معهُمْ وتوقّعتُ أنْ يَحصلَ صِدامٌ بينَكَ وبينَهُمْ. لكنّكَ لا تطيعُني؛ إنْ أقُلْ لكَ اذهبْ يَميناً أجدْكَ تذهبُ إلى أقصى الشمالِ، وإنْ أنصحْكَ بالطّلوعِ إلى أعلى تنزلْ إلى الأسفلِ. بحياتِيَ لَمْ يَمرُرْ بِيَ أكثرَ عناداً ومُشاكسةً مثلَ الذي تتحلّى بهِ. تتحركُ في الذهابِ والإيابِ مثْلَ الذي عَلِقَ بِـ"بطنهِ" عودُ حطبٍ!. ("في بطنهِ عودُ حطبٍ"، تعبيرٌ شعبيٌّ يطلَقُ على الشخصِ الذي لا يرتاحُ في حياتهِ حيثُ يظلُّ في حالةِ حركةٍ شبهِ دائمةٍ).

أبوالزهو: وهلْ لِيَ أنْ أتوسَّطَ لدى الإدارةِ للتراجعِ عن هذا القرارِ الجائرِ؟!. كما تعرفُ، من الممكنِ أنْ نستغلَّ سُمعَتِيَ التاريخيةَ المعروفةَ لدى الجميعِ. أحِسُّ أنَّ شكلكَ الأشعثَ غيرُ ملائمٍ لكيْ يستمرَّ الناسُ في تقبّلِهم لكَ في العملِ لديْهِمْ، بالإضافةِ إلى هندامِكَ المتواضعِ وطريقةِ عرضِكَ للأمورِ في مثلِ هذهِ القضايا!.

السّيدُ حمد: يا أبوالزهو اتركْ عنكَ هذا الإحساسَ!؛ حتى لو أتيتَ لَهُمْ بالسّيدِ المسيحِ عليهِ السّلامُ شخصياً على ظهركَ! مرّةً أخرى، لا أعتقدُ أنّهُمْ سيقبلونَ وساطتَكَ. اليومَ هؤلاءِ ينظرونَ إلى من يأتي إليهِمْ على متنِ طائرةِ "بوينج" أو مروحيةٍ أو بسيارةِ "مارسيدس" مصفّحةٍ على الأقلِّ!. وهذه آخرُ ثلاثمائةِ (٣٠٠) دولارٍ حيثُ لنْ أدفعَ شيئاً منها كأجرةٍ للسَّكَنِ. خُذْها يا والديَّ كلَّها، هذا كلُّ ما جَمعتُهُ طوالَ السّنةِ. حتى أنَّ صديقاً لِيَ اسْمُهُ "عطيّات" طلبَ تسليفَهُ سبعينَ (٧٠) دولاراً منها ولكنْ ...

أم جاسر: هذه النقودُ لَنا وليذهبْ السّيدُ "عطيّات" إلى غيرنا للاقتراضِ منهُمْ. أنا سعيدةٌ جداً أنَّكَ وصلْتَ هنا قبلَ أنْ تلتقِيَ بالسّيد "عطيّات".

السّيدُ حمد: يا والدتِيَ!، هنالكَ خَلْقٌ بِحاجةٍ ماسّةٍ جداً إلى مساعدةٍ، لا يوجدُ لديهِمْ حقولٌ ولا مزارعُ أبقارٍ أو دواجنَ أو طيورٍ ولا أرصدةٌ في المصارفِ. أناسٌ مُعدمونَ، يترددونَ على الوجودِ من غياهبِ العَدمِ.

أبوالزهو: والآنَ، ماذا بعدُ؟ هل تريدُ أنْ تعودَ إلى أيامِ النومِ والكسلِ ولعبِ الورقِ؟!....

"كاملة": لَمْ تدَّخرْ أيَّ قرشٍ أبيضَ ليومِكَ الأسودِ هذا!.

السّيدُ حمد: لقد تقدّمتُ بطلبِ توظيفٍ إلى "جامعةِ العلمِ والإيمانِ" أو كما يريدونَ تسميتَها بِـ"جامعةِ الحكماءِ"!.

أبو جاسر: واللهِ! لو تذهبَنَّ إلى جامعةِ "الملائكةِ" لتفكِّرَنَّ بتغييرِ ها والذهابِ إلى جامعةِ "الجِنِّ"، بعدَما تصطدمَنَّ معهُمْ وتَهربَنَّ منهُمْ أو يهربونَ منكَ!.
أبوالزهو: ومِنْ أينَ أتيتَنَّ بهذهِ الجامعةِ؟!، أوَّلُ مرَّةٍ لأسْمعَنَّ بهذا الاسم!. كلُّ المدارسِ والجامعاتِ تزعمُ أنَّها تتخصَّصُ بتخريجِ أجيالٍ من العلماءِ والحكماءِ، وعلى أرضِ الواقعِ لا نرى شيئاً من هذا القبيلِ أو ذاكَ.
أم جاسر: هلْ يعني ذلكَ يا ولدِيَ أنَّ هؤلاءِ الحُكماءِ من الحكمةِ والتعقّلِ بمكانٍ بسببِ قوّةِ الإيمانِ عندَهُمْ؟!. عسى اللهُ أنْ يفتحَ عليكَ أبوابَ الرزقِ عندَهُمْ. إنَّ قلبيَ منشرحٌ لَهُمْ، ذلكَ من اسْمِهِمْ، أهلُ حكمةٍ وخيرٍ وإيمانٍ، ماذا بالمكانِ أكثرَ من ذلكَ؟. هل يعني ذلكَ أنَّهُمْ كلَّهُمْ شيوخٌ ولَهُمْ لُحىً طوالٌ وبيضاواتٌ، وأنَّهُمْ مِمَّنْ يستمعونَ إلى القولِ فيتبعونَ أحسنَهُ؟!.
السّيد حمد: لُحاهُمْ قصيرةٌ لكنَّ جيوبَهُمْ كبيرةٌ!. يُحبّونَ إطعامَ الطّعامِ للغنيِّ ذي اليسرِ أكثرَ وبكثيرٍ من إطعامِ الطّعامِ للفقيرِ والمعوزِ والمُحتاجِ من ذوي العسرِ.
سرحان: ها .... قد بدأتَ منَ الآنَ!. يا رجلاً! استبشرْ خيراً، بلْ ابتسمْ للحياةِ ولو قليلاً.

وحتى يَحينَ موعدُ بدءِ السّنةِ الدراسيةِ الجديدةِ قضى السّيدُ حمد بضعَ أسابيعَ مسترخياً من عناءِ الهمِّ والقلقِ والعملِ في السّنةِ المنصرمةِ. ذهبَ إلى أماكنَ عدةٍ للاستجمامِ والاسترخاءِ ونسيانِ رواسبِ الماضي القريبِ والبعيدِ والزمنِ المتجدِّدِ.
صديقٌ: ما شاءَ اللهُ عليكَ، تتنقَّلُ بينَ معاهدِ التدريسِ العليا مثلَ الفراشةِ على الأزهارِ!.
صديقٌ آخرُ: هل لكَ أنْ تتوسَّطَ لِيَ في "جامعةِ الحكماءِ" هذهِ؟!. أحْملُ شهادةَ ماجستيرٍ في التاريخِ. من الممكنِ أنَّ كلمةً منكَ تذكرُني فيها لديهِمْ تساعدُني في الحصولِ على وظيفةٍ!.
السّيدُ حمد: سوف أذكرُكَ لَهُمْ وعسى أنْ يكونَ هنالكَ منصبٌ لِمثلِ مقامِكَ وشهادتِكَ. نصيحتِيَ لكَ أنْ تُوَسِّطَ "المفتِي العامَّ"، قائدَ المنطقةِ الوُسطى والشَّماليةِ من البلادِ!.
"هيما": وهلْ لا تزالُ تقولُ لنا أنَّكَ ستستمرُّ طويلاً في "جامعةِ الحكماءِ"؟!. سيجتمعُ عليكَ الحكماءُ والجهلةُ والطّلبةُ والبوّابونَ والحرّاسُ وعمّالُ الصّيانةِ والمطاعمِ، على حدٍّ سواءَ، و"يَجُرّونَكَ" إلى أقربِ وادٍ مهجورٍ!.
أبوالزهوَ: إلّا إذا أسْمعتَنا شيئاً من عودِكَ الحنونِ! ... ها ها هَا...
أبو جاسر: الآنَ أنا الذي أريدُ أنْ أغنِّيَ .... ولِلموسيقارِ "المُتعسكرِ" الشيخِ محمد عبدالوهاب.
السّيدُ حمد: دن دن دن .. صول صول صول ....
أبو جاسر: ..... مين عذبك تتخلص مني وذنبي إيه؟ تعذب فيّ، ليه العواذل حاسديني؟! دول حقهم يبكوا علي .... أنا اللي مهما تعذبني .. ساكت على الغلب وصابر ... وإن شفت غيري متهني، أصبّر القلب الحاير ... وإيمتى ناسي حترحمني؟! هو العذاب ده مالوش آخر! ... . مش لاقي حد يسليني حتى المنام عز علي ... والدمع كان بواسيني، ومنين أجيب دمع عيني؟! .....

أبوالزهو: أيُّها الوالدُ أبو جاسر!؛ بصوتِكَ، تبدو مثلَ داليةِ العنبِ الممتدةِ والنابتةِ منٍ بينِ مفارقِ صخورِ الجبلِ الصُّمِّ والتي تُخْرِجُ عناقيدَ "لؤلؤ" من العنبِ لذيذِ الطّعمِ عَندَ اشتدادِ حرِّ أواخرِ الصّيفِ عليْها!.

السّيدُ حمد: أو كبيضةِ إوزةٍ بلديةٍ وقد تَمَّ فقسُها في مقلاةٍ، المقلاةُ تَحتوي سَمناً بلدياً، السمنُ يغلي في المقلاةِ من حرارةِ نارِ موقدِ الحطبِ، والبيضةُ المقليّةُ أضيفَ إليها قليلٌ من الملحِ والفلفلِ الأسوَدِ، في يومَ ذي مسغبةٍ (جوع)!.

"سرحان وكاملة وهيما": لقد فتحتُمْ شراهَةَ شهواتِنا للأكلِ بعدَ أنْ أطلقتمُ العَنانَ لشراهةِ قرائحِكمْ الموسيقيةِ الفنيةِ والأدبيةِ...

السّيدُ حمد: الفضلُ يعودُ لوجودِ أخينا وصديقِنا ورفيقِنا أبوالزهو بينَنا، وكعادتهِ.

قصةُ بَقَرَةٍ وعائلةٍ

يأوي بيتُ سكنِ أبو جاسرِ الآنَ، بالإضافةِ إلى بعضِ الأولادِ والبناتِ من الكبارِ والصّغارِ في السّنِّ، مَجموعةً صغيرةً من الأبقارِ والماعزِ والنعاجِ والأرانبِ والدجَاجِ بالإضافةِ إلى زوجٍ من الحميرِ. هنالكَ حبٌّ شَبهُ متبادلٍ، أقربَ إلى الحبِّ من طرفٍ واحدٍ! وهو طرفُ أبو جاسرَ، بين أفرادِ القطيعِ وبينَ السّيدِ أبو جاسر. يَحرصُ أبو جاسر على قطيعهِ كلَّ الحرصِ وحتى أكثرَ من عنايتهِ لِمجملِ أولادِه وبناتِه. بعدَ عمرهِ الطّويلِ قطعَ السّيدُ أبو جاسر كلَّ شكٍّ باليقينِ أنَّ الذي منعَ ولا يزالُ يَمنعُ عنه العِوَزَ والحاجةَ لبقيةِ الخلقِ هو تلكَ التشكيلةُ أو التوليفةُ من الحيواناتِ وليس أولادُهُ أو بناتُهُ. آثرَ أبو جاسر ذاتَ مرّةٍ أنْ ينقلَ ابنُهُ حمد، الصّغيرُ سناً في حينهِ، وأخٌ لهُ يكبرُهُ سنّاً البضائعَ والموادَّ اللازمةَ لبناءِ بيتٍ صغيرٍ لابنتهِ الكبرى على ظهريْهما إلى أعلى الجبلِ. لمْ يسمحْ في ذلكَ الوقتِ باستخدامِ زوجٍ منِ الحميرِ كانِ يَمتلكُهُما بدلاً عن ولديهِ. كانَ من ضمنِ موادِّ البناءِ كُتَلٌ حديديةٌ ثقيلةٌ مُخصّصَةٌ لعملِ الأبوابِ وشبابيكِ الحراسةِ. كان أبو جاسر على يقينٍ بأنَّ خسارةَ أو إجهادَ ولدهِ أسهلُ عندهُ من خسارةِ أو إجهادِ حِمارهِ الذي يُمثِّلُ الأخيرُ لهُ مصدراً وحيداً لكسبِ لقمةِ العيشِ "الشريفةِ المكرّمةِ"!.

يُربّي أبو جاسر في بيتهِ المكونِ الآنَ من ثلاثةِ (٣) حجراتٍ متباعدةٍ قليلاً عن بعضِها البعضِ معظمَ حيواناتهِ. مَن بينِ تلكَ الحيواناتِ كانت البقرةُ المدلّلةُ والتي كانَ يطلِقُ عليها اسمَ "غزالة". ما أنْ أصابَ العشارُ "غزالة" وحَملَتْ وأنْجبتْ (وَلَدَتْ) حتى كانت عصبيةَ المزاجِ ثائرةً وترفضُ أيَّ شيءٍ يقتربُ منها. ما أنْ حاولَ السّيدُ أبو جاسر التقرّبَ أو الاقترابَ من "غزالة" حتى قامتْ بعملِ حركةٍ شبهَ "دورانيّةٍ" حولَ جسمِها حيثُ قذفتهُ، ومثلَ ريشةِ دجاجٍ! طائرةٍ، إلى مذودٍ لَها قريبٍ لتكسرَ رجلَهُ اليسرى في منطقةِ الفخذِ.

كانَ على أبو جاسر أنْ يَختارَ بينَ التجبيرِ على الطّريقةِ العربيةِ الأسهلَ، ولكنها غيرُ مضمونةٍ كثيراً؛ أو أنْ يَختارَ طريقةَ الطّبِّ الحديثِ وتلكَ صعبةٌ جداً عليهِ، وغيرُ مضمونةٍ كذلك كثيراً إلا أنَّها طبيةٌ وعلميةٌ. اختارَ الطّريقةَ الأولى وقامَ

بتجبيرِ رجلهِ أحدُ "اللحّامينَ أو القصابينَ"، السّيدُ "أبوالعَبْدْ"، من القريةِ المُجاورةِ والذيَ تكوّنتْ وتَراكَمَتْ عندَهُ بعضُ الخبرةِ في كسْرٍ وتَجبيرِ الحيواناتِ والبشرِ بسببِ طبيعةِ مهنتهِ وعملهِ. كان على أبو جاسرٍ في كلتا الحالتيْنِ أنْ يَمكثَ أكثرَ من شهرينِ مُمَدَّداً على فراشهِ لا يُحرّكُ رجلَهُ قدْرَ الاستطاعةِ. شُفِيَتْ رجلُهُ في نهايةِ الأمرِ مع ظهورِ عرجٍ واضحٍ فيها عندَ المشيِ والحركةِ!.

اضطُرَّ أبو جاسر لبَيعِ كافةِ المواشي لديهِ وفي معظمِ الأحيانِ بأثْمانٍ بَخسةٍ وخاصةً عندَ بيعِ الأبقار. كانت تلكَ الأبقارُ تقضي في بيتِ العائلةِ أياماً مَثَلَ أيامِ شهورِ العسلِ! عندَ المتزوّجينَ حديثاً من ناحيةِ الرعايةِ والمأكلِ والذهابِ إلى الحقولِ والمراعي المُجاورةِ. ذهب السّيدُ حمد وأبوالزهو في إحدى المرّاتِ لبيعِ آخرِ رأسِ بقرٍ لدى العائلةِ، البقرةِ "رَوْنَك" الشابةِ. وصلَ وزنُ "رَوْنَك" إلى حَوالَيْ أربعمائةِ (٤٠٠) كيلوجراماً من اللحمِ المتربّي على الحُبِّ والدلالِ وأحسنَ ما توفّرَ من الأكلِ. كانَ اسْمُها المدللُ يدلُّ على الحبِّ والرعايةِ التي حظيتْ بها؛ على الرغمِ من ضخامةِ وزنِها إلا أنَّ حركتَها وتصرفاتِها كانت غايةً في الخفةِ والرشاقةِ والأناقةِ وهي لمْ تبلغْ بعدُ الرابعةَ أو الخامسةَ من العمر. دخل حمد وأبوالزهو ومعهما "رَوْنَك" إلى مكانِ تَجميعِ حيواناتٍ للبيعِ مِمّا هبَّ ودبَّ من مُختلفِ الأصنافِ والأعمارِ والأوزانِ في سوقٍ ما كانَ يعرفُ في المنطقةِ بسوقِ الجمعةِ. كانت "رَوْنَك" تبدو، بالنسبةِ لَهُمْ جَميعاً، مثلَ "أميرةٍ" جاءت لتطمئنَّ على أحوالِ حيٍّ شعبيٍّ فقيرٍ بل مُعدمٍ! . جاء أحدُ السّماسرةِ، والمشترينَ في آنٍ واحدٍ، وسألَ إنْ كانت "رَوْنَك" حاملاً. أجَابهُ حمد وأبوالزهو وكذلكَ "رَوْنَك" "وبكلِّ فخرٍ واعتزازٍ!" بالإيجاب. كان السّمسارُ كبيرَ الحجمِ زائدَ الوزنِ وعضلاتهُ كبيرةٌ وقويةٌ، وبالموسَى حليقَ الرأسِ. وضعَ قبضةَ يدهِ على خاصرةِ "رَوْنَك" اليمنى وضَغَطَ بقوّةٍ مزعجةٍ إلى داخلِ بَطنِها. أعاد الكَرَّةَ وضَغَطَ هذه المرةَ أكثرَ مِمّا أزعجَ "رَوْنَك" كثيراً وقفزتْ مبتعدةً عنهُ؛ مِمّا أثارَ حفيظةَ السّيدِ حمد وأبوالزهو معاً وبنفسِ الطّريقةِ، تقريباً!.

السّيدُ حمد: عن ماذا تبحثُ أيُّها الأحْمقُ؟!.

السّمسارُ: أريدُ أنْ أتأكّدَ أنّها حاملٌ وأنكُمْ لا تكذبونَ عليَّ في ذلكَ!.

السّيدُ حمد: وهل هذه الطّريقةُ المتخلّفةُ خيرُ وسيلةٍ لإثباتِ ذلكَ؟!. أولاً عليك أنْ تذهبَ وتتأكدَ بأنَّكَ من جنسِ البشرِ الطّيبينَ!.

السّمسارُ: وهل تظنُّ أنني وحيداً هنا لترفعَ صوتَكَ عليَّ وتسبَّني وتشتمَني؟. إنَّ هؤلاءِ الشبابَ كلَّهُمْ معِيَ!.

السّيدُ حمد: لتذهبْ ومنْ معَكَ من الأوغادِ إلى الجحيمِ!.

أبوالزهو: إياكُمْ أنْ تأتوا بأيةِ حركةٍ غيرِ مَحسوبةٍ أوَ كسرتُ لكُمْ جَماجِمَكُمْ ولتذهبوا من هنا فوقَ نقّالاتٍ!.

عاد السّيدُ حمد وأبوالزهو و"رَوْنَك" من حيثُ أتوْا، إلى البيتِ. عندما رآهُمْ أبو جاسر المستلقي على ظهرهِ على الأرضِ عائدينَ، أصابتهُ الغبطةُ والسّرورُ على أنَّ "رَوْنَك" لَمْ تذهبْ بعيداً عنهُ. استراحت "رَوْنَك" من هذهِ التجربةِ القاسيةِ من بعضِ بني البشرِ والحيواناتِ على حدٍّ سواءَ. فيما بعدُ أنْجبتْ "رَوْنَك" بنتاً لَها سُميتْ "غزالةَ"، تيمّناً بجدّتِها التي بيعتْ من قبلُ بسببِ الحادثِ الأليمِ للسيدِ أبو جاسر؛ وتكاثرتْ الأبقارُ من جديدٍ في البيتِ!.

كانت المشكلةُ الأساسُ هي أنّهُ من يَحلُّ مَحلَّ أبو جاسر في البيتِ فهو مستلقٍ على ظهرهِ معظمَ الوقتِ أو مرتكزاً إلى الحائطِ، حيثُ على من تبقّى من أفرادِ الأسرةِ القيامُ بخدمتهِ وواجبهِ . ذلكَ الشخصُ الذي كان يتَنقّلُ بين الحقولِ ويَمشي على قدميهِ في كلِّ يوم أكثرَ من عشرينَ (٢٠) كيلومتراً؛ ها هو الآنَ طريحُ الفراشِ بحاجةٍ لِمساعدةِ أيِّ شَيءٍ يتحرّكُ من حولهِ. شحَّ مَحصولُ الحقلِ كثيراً فعلى أبو جاسر أنْ يقضيَ فترةَ سنةٍ تقريباً في حالةِ استلقاءٍ على الظهرِ واستراحةٍ فيما بعدُ حتى تعودَ رجلُهُ إلى وضعٍ يسمحُ لهُ بالوقوفِ والسّيرِ والعملِ في البيتِ والحقلِ. من يَحرثُ الأرضَ ومن يزرعُها ومن يَحصدُ القمحَ والشعيرَ والبقولياتِ؟، بل من يقطفُ الزيتونَ والتينَ؟!. أصابَ حدائقَ السّيدِ أبو جاسر وحقولَ قمحهِ وشعيرهِ الكثيرُ من الخرابِ على مرأىً ومسمعٍ من أولادهِ وبناتهِ من المقيمينَ معهُ والبعيدينَ عنهُ. قامت أم جاسر وابنتُها "كاملة" بمعظمِ الحملِ ولكنَّ ذلكَ لَمْ يكنْ كافياً. تعاونَ بعضُ الجيرانِ ولفترةٍ قصيرةٍ لسدِّ الفراغِ الذي أحدثَهُ وقوعُ أبو جاسر ضحيةَ عنايتهِ الفائقةِ بقطيعهِ. زادت الحياةُ قسوةً على قسوةٍ وهوْلاً على هوْلٍ وأسىً فوقَ مآسٍ. يوجدُ عندَ الوالدِ أبو جاسر من الأولادِ والبناتِ ما يكفي للقيامِ بالواجبِ لكنَّ كلاً من أولادهِ أصابتهُ الأنانيةُ المُفرطةُ بعد زواجهِ وتكاثرِ أنْجالهِ. في الماضي قامَ أبو جاسر بمساعدةِ أولادهِ وبناتهِ من خلاصةِ دمهِ وعرَقهِ وكفاحهِ؛ الآنَ وعندَما وقعَ طريحَ الفراشِ يصرفُ معظمَ وقتِ أيامهِ وحيداً يندبُ حظَّهُ المتعثّرَ في ماضي طفولتهِ وصباهُ وشبابهِ ... وحاضرِ شيخوختهِ!.

أبو جاسر: يا ابنيَ حمد أراكَ خائرَ القوى، مشتّتَ الذهن، قادماً ورائحاً، تَحملُ هَمَّ كلِّ شيءٍ. لا تقلقْ سوفَ يقومُ إخوانُك وأخواتُك بكلِّ الأعمالِ المطلوبةِ. الأمرُ الأهمُّ أنْ تركّزَ على عملِكَ وحياتِكَ ووظيفتِكَ في التدريسِ في الجامعةِ.

السّيدُ حمد: المعضلةُ ليست بوقوعِ المصيبةِ، الطامةُ الكبرى هي ما الذي يُمكنُ عملُهُ؟ في حالتِنا يبدو الأمرُ مستحيلاً. لا يوجدُ لدينا مِمّا ادخرناهُ ما يكفي لأن نصرفَ منهُ على حالةٍ كهذهِ.

"هيما": لقد لاحظتُ أنَّ الوالدةَ أم جاسر تبدو "مبتهجةً" بما حدثَ للوالدِ أبو جاسر!. الذي يبدو أنَّ أبو جاسر كان كاتماً لأنفاسِها!.

السّيدُ حمد: ملاحظتُكَ في غيرِ مَحلِّها!، لا أعتقدُ أنَّ الوالدَ أبو جاسر كان قادراً على كتمِ أنفاسِ أحدٍ. كان دائماً مَنهكاً من العملِ في الحقلِ والبيعِ والشراءِ والتلاهي بالتركيزِ على التكاثرِ والإنْجابِ غيرِ المُجديَيْنِ. أعتقدُ أنَّ ما تراهُ يشبهُ رقصةَ الدجاجةِ البلديةِ، أو الدّيكِ، عندما يذبَحُها صاحبُها بسكّينٍ حادٍ ويتركَها لشأنِها "ترقصُ" قبلَ أنْ تتداعى قِواها بسببِ نزفِ دمِها وتعي الحقيقةَ فيما بعدُ ويُتأكدُ لَها بأنَّها ذُبحتْ من الوريدِ إلى الوريدِ. يا سيدَ "هيما" إنَّ الأمورَ تسوءُ ولا يوجدُ دليلٌ واحدٌ على أنَّها من الممكنِ أنْ تتحسّنَ. نَحْنُ نغرقُ في بَحرٍ من اليأسِ وقلّةِ ما في اليدِ.

أبوالزهو: لا تَحملْ الهمَّ! سوفَ أقومُ بعملِ كلِّ شيءٍ مُمكن، سوف أذهبُ معَ "كاملة" والوالدةِ أم جاسر إلى الحقلِ وإلى المراعي والخلاءِ البعيدِ لنجمعَ غذاءاً للأبقار. سنُحضِرُ المياهَ للبيتِ من العيونِ القريبةِ والبعيدةِ، وسنحرثُ الأرضَ ونعتنيَ بالأشجارِ ونَحصدُ ونقلعُ النباتاتِ ونقطفُ ثِمارَ الأشجارِ ونَجلبُها إلى البيتِ.

السّيدُ حمد: هل تعلمُ يا أبوالزهو كمْ أنا فخورٌ بكَ، لا أكادُ أنساكَ حتى في غرفةِ الدرسِ أو عندَ مقابلةِ أحدِ رؤساءِ الأقسامِ الأكاديميةِ أو عمداءِ الكلّياتِ أو حتى رؤساءِ الجامعاتِ، أنت دائماً وأبداً معِيَ حاضرٌ. أنت مَحلَّ فخرِيَ واعتزازِيَ، أنت هديةُ الوجودِ ومَعينُ الخيرِ والعطاءِ الذي لا ينضبُ. أخشى عليكَ يا أبوالزهو أكثرَ مِمّا أخشاهُ على نفسِيَ.

أم جاسر: هذا اليومَ جاءَ صاحبُ الدكّانِ القريبِ من هنا، والذي نشتري منه بعضَ البضاعةِ للبيتِ، وأبلغَنا أنَّ فاتورةَ المشترياتِ تراكمتْ وبلغتْ أكثرَ من مائةٍ وخمسينَ (١٥٠) جنيهاً. عسى اللهَ يرضى عليكَ يا ابني حمد أنْ تسدِّدَها عنّا.

السّيدُ حمد: سأدفعُ ثُلثَ الفاتورةِ اليومَ وعسى صاحبَ الدكانِ أنْ يصبرَ علينا حتى أوائلَ الشهورِ القادمةِ. هذه الدنيا هُمومٌ أقلُّها وقعاً على الأعصابِ تلكَ القادمةُ من تراكم الديونِ!.

أبوالزَهو: هدّئ نفسَكَ، الأمورُ لا تُحَلُّ بالقلقِ والعجالةِ والتمنّي!. ما رأيُكَ .....

السّيدُ حمد: .... بشيءٍ من الموسيقى والطّربِ وعلى العودِ (ليس لنا إلا السّيدةُ فيروز).. ...! صول دو دو صول صول صول سي فا صول صول .... طيري يا طيارة طيري يا ورق وخيطان، بدي أرجع طفلة صغيرة! على سطح الجيران، وينساني الزمان على سطح الجيران ...... لو فينا نهرب ونطير مع الورق الطاير، تا نكبر بعد بكير شو صاير شو صاير .... ويا زهر الرمان، طير بهالبستان، تينسوا صغار الأرض ويحلو الرمان.......

زيارةٌ أجنبيةٌ

للسيدِ حمد صديقٌ حَميمٌ كانَ يعملُ مدرِّساً في جامعةِ "القليوبيا" والتي تَخرَّجَ منها السّيدُ حمد حاملاً شهادةَ الماجستيرِ في العلومِ. الدكتورُ "نايْجِلْ سنصن" أوروبِّيٌّ وغربيُّ الهويةِ والهوى، وإلى حدٍّ ما فريدٌ من نَوعِهِ. اتفقَ مع السّيدِ حمد أنْ يزورَهُ في مسقطِ رأسِهِ يوماً ما لَمْ يُحدِّدْهُ بالضبطِ. لَمْ يَحملْ السّيدُ حمد فكرةَ الزيارةِ تلكَ مَحملَ الجدِّ في البدايةِ نظراً لصعوبةِ الأوضاعِ الأمنيّةِ والسّياسيّةِ والقيودِ المفروضةِ على التنقلاتِ بينَ الأماكنِ في المنطقةِ.

ذاتَ يومٍ وبينَما كانَ السّيدُ حمد جالساً مع والدِهِ أبو جاسر حيثُ كانَ الأخيرُ مستلقياً على ظَهرِهِ أو مرتكزاً إلى الحائطِ في جلوسهِ بسببِ الكسرِ الذي أصابهُ في أعلى ساقِهِ، إذا بالدكتورِ "نايْجل" يطرقُ بابَ بيتِ أبو جاسر بَعدَ أنْ دلّهُ بعضُ الناسِ في القريةِ على مكانِ البيتِ. حَمَلَتْ تلكَ الزيارةُ الناسَ في القريةِ على الظنِّ بأنَّ السّيدَ حمد لهُ من الأصدقاءِ من الذينَ يُركنُ إليهِمْ على السّاحةِ الدوليةِ!. استقبلَهُ أفرادُ الأسرةِ وعلى رأسِهِمْ أبو جاسر بكلِّ ما أوتوا من رحابةِ صدرٍ وفرحٍ وانشراحٍ واحترامٍ وتقديرٍ وإعجابٍ. جلسَ الدكتورُ "نايْجل" أمامَ أبو جاسر والذي،

أيْ الأخيرُ، شرحَ لهُ ظروفَ حادثةِ كسرِ رجلهِ لَحظةً بلحظةٍ وخطوةً بِخطوةٍ؛ كعادتهِ عندما يشرحُ ما يَحدثُ معهُ لِمنْ حولهُ مَن أمورٍ غيرِ عاديةٍ.
أبو جاسر: اسألْ لِيَ يا ولدِيَ حمد ما يُحبُّ أَنْ يأكلَهُ أو يشربَهُ الدكتورُ "نايْجل" حتى نُحضرَ لهُ ما نقدرُ عليهِ وعسى أنْ يعجبَهُ طعامُنا وشرابُنا. أَخْبِرْهُ أنَّ الطعامَ عندَنا أكثرُ جودةً ونظافةً من مثيلهِ في المطاعمِ العامةِ، حيثُ الوالدةُ أم جاسر والأخواتُ سيقمْنَ بطبخهِ وتَحضيرهِ وإعدادِ طاولةِ السُّفرةِ!.
الدكتورُ "نايْجل": لا توجدُ من عندِيَ شروطٌ على الأكلِ كمّاً ونوعاً؛ أحبُّ المأكولاتِ الطّبيعيةِ خاصةً من إنتاجِ القريةِ والكرمِ والحقلِ والبيتِ ....
أم جاسر: ونَوَدُّ أنْ نقدِّمَ لهُ هديةً من عندِنا عسى أنْ يأخذَها معهُ عندَ سفرهِ عائداً إلى بلدهِ متى ما أرادَ وإنْ شاءَ ذلكَ؛ هديّةً على قدْرِ الحالِ!.
السّيدُ حمد: من خبرتِيَ ومعرفتِيَ لِمثلِ هؤلاءِ البشرِ، يُحبّونَ الهدايا من التي تعبِّرُ عن البلادِ التي يزورونَها؛ خاصةً إذا ما كانتْ تلكَ الهدايا أثريةً ذاتَ قيمةٍ تاريخيةٍ أو صورةً معبِّرةً أو كرْتاً معبِّراً عن الحياةِ المَحلّيةِ.
"كاملةُ": لا يوجدُ عندَنا إلا هذا البروازُ الصّغيرُ المعلَّقُ وحيداً على الحائطِ وبهِ مطرَّزةٌ "آيةُ الكُرسِيِّ". لقد قامتْ أختُك "فَلْحَة" بعملهِ في البيتِ عندَما كانتْ طالبةً في المدرسةِ حيثُ طَرَّزتْ عليهِ الآيةَ الكريمةَ بخيطٍ مُذهَّبٍ. عسى أنْ ينالَ إعجابَهُ!.
أبو جاسر: وعسى اللهُ سبحانَهُ وتعالى أنْ يَحفظَهُ ويهديَهُ إلى الصّراطِ المستقيمِ المؤدّي إلى جنةِ الرحمنِ التي وعَدَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى عبادَهُ الصّالِحينَ بها.
الدكتورُ "نايْجل": أشكرُكُمْ جزيلاً على ذلكَ...
السّيدُ حمد: أعرفُ أنَّ في بلادِهِمْ يُحاولُ العلماءُ والمفكّرونَ هناكَ وضْعَ الخالقِ، اللهِ سبحانَهُ وتعالى، في قارورةِ اختبارٍ. وبما أنَّ اللهَ تعالى يأبى أنْ يدخلَ إليْها أو ربَّما يَخرجُ منْها قبلَ أنْ يدخلَها أو قبلَ أنْ يقوموا بالبدءِ بإجراءِ التجربةِ عليهِ، ظنّوا أنّهُ لَمْ يتواجدْ فيها!. استنتَجوا بعدَ ذلكَ على أنّهُ غيرُ موجودٍ في أيِّ مكانٍ آخرَ على الإطلاقِ. يريدونَ شيئاً يروْنَهُ بأمِّ أعينِهِمْ كما يرونَ بعضَهُمْ بعضاً.
أبو جاسر: سبحانَ اللهِ، عسى اللهُ أنْ يهديَهُمْ سواءَ السّبيلِ. اذهبْ معَهُ إلى حقولِنا في القريةِ. تَنَزَّهْ وإياهُ في جوانبِ حقولِ القريةِ، وإذا ما استطعتَ اذهبْ معهُ إلى أحسنَ كرمٍ للزيتونِ عندَنا بالرغمِ عن بعدِهِ من القريةِ، في منطقةِ "العمايرْ". هنالكَ، اقطفْ لهُ وأطعِمْهُ من ثمرةِ التينِ ذاتِ الطّعْمِ الحلوِ والمذاقِ الطّيبِ. حبَّذا لو كنتُ قادراً على السّيرِ على قدمَيَّ لاصطحَبتُهُ بنفسِيَ إلى هناكَ.
أم جاسر (والإخوةُ والأخواتُ): هل عندَهُ أختٌ أو بنتُ عمٍّ لهُ أو بنتُ خالٍ أو حتى بنتُ عشيرتهِ! حتى نطلبَ لكَ يدَها منهُ. يبدو عليهِ أنّهُ "ابنُ حلالٍ" وطيِّبُ العِشرةِ.
أبوالزهو: وقريبٌ مظهرُهُ من السّيدِ "لورانس العربيِّ" في الفيلمِ السّينمائيِّ الشهيرِ!...
السّيدُ حمد: يا أبوالزهو ما خطبُكَ يا "زلَمة"؟ كلَّما رأيتَ صديقاً أجنبياً لِيَ يزورُنا تنفتحُ قريحةُ ذاكرتِكَ التاريخيةِ!؛ مرّةً هذا يشبهُ السّيدَ "ماركْ سايْكس"، وذاكَ يشبهُ المسيو "جورْج بيكو" ومرَّةً أخرى تتذكّرُ اللوردَ "آرثرَ بلفور". وثمَّةَ ذلكَ الزائرُ من قبلُ الذي ذكّركَ بالسّيدِ "أدولف هتلر"!. الآنَ الدكتورُ "نايْجلُ" يُذَكِّرُكَ! بالسّيدِ "لورانسِ العربِ"!؟. سوفَ تضطرُّنا إلى أنْ نطلبَ من الأولادِ عدمَ مذاكرةِ دروسِهِمْ بصوتٍ عالٍ بالقربِ من مكانِ نومِكَ!. وكذلكَ سوفَ ننقلُ جهازَ التلفازِ إلى

الغرفةِ البعيدةِ عن مكانِكَ لكيْ لا ترى أفلاماً من مثلِ فيلمِ "لورانس العربِ" على الشاشةِ الصّغيرةِ؛ وماذا بعدُ؟!.
مكثَ الدكتورُ "نايْجل" ليلتَهُ في بيتِ عائلةِ أبو جاسر حيثُ نامَ جَميعُ أفرادِ العائلةِ في حجرةٍ ونامَ الدكتورُ "نايْجل" ومعهُ السّيدُ حمد في الحجرةِ الثانيةِ للقيامِ بخدمتهِ إنْ هو احتاجَ إلى بعضِ الخدمةِ أو طرأ عليهِ شيءٌ غيرُ عاديٍّ. في اليومِ التالي وبعدَ تناولِ طعامِ الفطورِ ذهبَ الدكتورُ "نايْجل" بصحبةِ السّيدِ حمد في رحلةٍ إلى البراري المُجاورةِ. سارَ الصديقانِ على الأقدامِ في الجبالِ والتلالِ والوديانِ والسّهولِ المُحيطةِ حيثُ الدكتورُ "نايْجل"، مثلَ السّيدِ حمد، يعشقُ السّيرَ في البراري خاصةً الوعرةَ منْها...
السّيدُ حمد: هل ترى يا دكتورَ "نايْجل" ما على رأسِ ذلكَ الجبلِ المطلِّ علينا من هناكَ؟!. يوجدُ مستعمرةٌ أقامَها الاحتلالُ منذُ حواليْ عشرةِ سنينٍ. وهل ترى على التلَّةِ المُجاورةِ للجبلِ المطلِّ من الناحيةِ الأخرى؟، إنّها مستعمرةٌ ثانيةٌ تشرفُ على قريتِنا والقرى المُجاورةِ من جهةِ الشرقِ. وإذا ما نظرتَ أبعدَ قليلاً سترى "كومةً" من المستعمراتِ أقيمتْ نواةٌ لَها في الماضي. وكما يبدو أنّهُ عندَما شَعَرَ المستعمرونَ الذين سبقوهُمْ أنَّهُمْ في أمانٍ وسلامٍ توسَّعوا وتَمدّدوا على حسابِ أراضي القرى المُجاورةِ لَهُمْ!.
الدكتورُ "نايْجل": وهل من الممكنِ لنا الذهابُ لزيارةِ تلكَ "المستوطنات"؟!.
السّيدُ حمد: لَمْ أفكِّرْ بزيارةِ أيٍّ مِن تلكَ "المستعمراتِ" من قبلُ. إنَّها مُحاطةٌ بإجراءاتٍ أمنيَّةٍ سريةٍ وعلنيةٍ لا يدخلُ إليها إلا من كانَ لهُ علاقةٌ بها، من قريبٍ أو من بعيدٍ. أمنياً يُحاولونَ جهدَهُمْ أنْ لا يُعطوا للغريبِ عنها أيَّ منفذٍ، لا في الأرضِ ولا في السّماءِ، لا فوقَ الأرضِ ولا من تَحتِها. يُحاولونَ مصادرةَ كلِّ شيءٍ من حولِها حتى هواءِ التنفسِ. من الأحسنِ أنْ لا نفكِّرَ بزيارتِها. هي غيرُ مرغوبٍ بِها هنا، ونَحْنُ غيرُ مرغوبٍ بنا هناكَ .... وعلى الأرضِ السّلامُ!.
الدكتورُ "نايْجل": لقد لاحظْتُ من خلالِ معرفتِيَ بهذهِ البلادِ ومن زياراتِيَ السّابقةِ الكثيرةِ للمنطقةِ وقُراها، أنَّ معظمَ تلكَ القرى قد شُيِّدَتْ فوقَ أو على مقربةٍ من عيونٍ للماءِ و"منذُ زمنٍ ليسَ ببعيدٍ من الآنَ"!؟...
السّيدُ حمد: كما تعرفُ أنَّ الحياةَ كانت تعتمدُ على توفُّرِ الماءِ والطّعامِ سابقاً، والماءِ والطّعامِ والكهرباءِ حالياً؛ ولاحقاً تَجبُ إضافةُ أشياءَ أخرى. قريتِيَ الصّغيرةُ هذهِ عمرُها حواليْ ستمائةِ سنةٍ (٦٠٠ سنةٍ). المدينةُ المُجاورةُ يتجاوزُ عمرُها الثلاثةَ آلافِ سنةٍ. معظمُ المدنِ في المنطقةِ يتجاوزُ عمرُ كلٍّ منْها حدودَ الزمنِ والتاريخِ المكتوبيْنِ. بصراحةٍ! لَمْ أفهمْ قولَكَ "منذُ زمنٍ ليسَ ببعيدٍ من الآنَ"!؟. هل تقصدُ بذلكَ أنَّنا من أصلٍ بدويٍّ؟!، من الباديةِ أعرابٌ متنقلةٌ كانتْ تبحثُ عن مصادرِ ماءٍ ورعيٍ لَها ولِماشيتِها!؟.
الدكتورُ "نايْجل": شيءٌ من هذا القبيلِ أو ذاكَ!. هذا موجودٌ في كتبِ التاريخِ، يتعلَّمُهُ حتى الأطفالُ في المدارسِ! ...
السّيدُ حمد: على كلِّ حالٍ ... فهمتُ عليكَ الآنَ أكثرَ!. يقولونَ في المثلِ العاميِّ البسيطِ: "التاريخُ الحديثُ لِمنْ يكتبُهُ بقلمِه"!. لا أعرفُ عن كتبِ التاريخِ التي حظيتَ بقراءتِها. عليكَ بقراءةِ عددٍ لا حصرَ لهُ من مصادرِ التأريخِ الحديثةِ للوصولِ إلى معرفةِ بصيصٍ من الحقيقةِ. على أرضِ الواقعِ، ها هي الحقيقةُ كما تراها بأمِّ

عينيْكَ؛ بعدَ ذلكَ أنتَ وضميرُكَ! لنذهبْ الآنَ إلى البيتِ حيثُ الأهلُ ينتظرونَ عودتَنا أو على الأصحِّ عودتَكَ إليْهِمْ.

خلالَ غيابِ السّيدِ حمد والدكتور "نايْجل" عن البيتِ قامتْ عائلةُ أبو جاسر، بكاملِ أفرادِها تقريباً، بذبحِ وطبخِ وشواءِ عددٍ لا يستهانُ بهِ من الدجاجِ والأرانبِ وزغاليلِ الحمامِ. قاموا بتحضيرِ عددٍ من الأكلاتِ، فاصوليا وباميةٌ وملوخيةٌ ومسخّنٍ في الطّابونِ. بالإضافةِ إلى ذلكَ تَمَّ سلقُ ما يَملأُ قِدْراً كبيراً من الأرُزِّ حيثُ استعاروا القِدْرَ من بيتِ أحدِ الموسرينَ في القريةِ.

أكَلَ الضيفُ والأهلُ معاً واستراحَ الدكتورُ "نايْجل" بعضَ الوقتِ.....

الدكتورُ "نايْجل": أشكرُكُمْ كثيراً على هذا الأكْلِ. هذا الطّعامُ لذيذٌ وطيبٌ وكثيرُ التنوعِ وفوقَ كلِّ ذلكَ طبيعيٌّ من إنتاجِ البيتِ والحقلِ.

أبو جاسر والعائلةُ: المهمُّ أنْ يعجبَكَ وأنْ تكونَ مسروراً بنا وبأكلِنا.

أبوالزهو: بينِيَ وبينَكَ يا صديقِيَ حمد!، لقد انتابَنِي الفَزعُ والخوفُ على حياتِيَ أثناءَ غيابِكَ عن البيتِ مع صديقِكَ. لقد قامَ الوالدُ أبو جاسر بذبحِ أعدادٍ لا بأسَ بها من الطّيورِ والأرانبِ لدرجةِ أنَّنِي خِفْتُ فيها أنْ يقومَ بتمريرِ سكّينِ الذبحِ الحادِّ على حلقومِ رقبَتِيَ، و"يُحلْقمَنِي" فيما لو نفدَتْ الذبائحُ الأخرى مَن المكانِ. ذلكَ لأنَّهُ كانَ يذبَحُهَا جَميعاً بدونِ وعيٍ!. هل هذا كلُّهُ لإرضاءِ شخصٍ مَحظوظٍ جداً من مثلِ الدكتورِ "نايْجل"؟!.

في صباحِ اليومِ التالي استقلَّ السّيدُ حمد والدكتورُ "نايْجل" سيارةً للأجرةِ وذهبا إلى المدينةِ المُجَاورةِ حيثُ زارا المركزَ الرئيسيَّ فيها. هنالكَ يُمارِسُ جيشُ الاحتلالِ وسلطتُهُ كلَّ أشكالِ القمعِ والقتلِ والاضطهادِ. كانت آثارُ ذلكَ القَمْعِ اللا-حضاريِّ باديةً في كلِّ شبرٍ من المكانِ، في المَحلاتِ التجاريةِ وعلى وجوهِ وأبدانِ أصحابِها، في "المصانعِ" الصّغيرةِ المتواضعةِ في الإمكانياتِ وعلى أرصفةِ الشوارعِ وداخلَ الأزقَّةِ الضّيقةِ. كانتْ بصماتُ الاحتلالِ تلاحَظُ على وجوهِ الأطفالِ والصّبايا وشعرِ رؤوسِهِمْ الذي بدأ الشيبُ الأبيضُ يغزو الكثيرَ منهُ. كانتْ تلكَ الإجراءاتُ القمعيةُ باديةً من عيونِ الرجالِ مِمَّنْ بلغَ ذلكَ السّنَّ أو مِمَّنْ دخلَ منهُمْ مرحلةَ الشيخوخةِ. هنالكَ كانَ يُمكِنُ لأيِّ امرئٍ أنْ يرى جنودَ الاحتلالِ يتحرّشونَ بكلِّ شيءٍ تُحاولُ الحياةُ أنْ تدبَّ فيهِ. كانَ وضعُ المكانِ وأهلِهِ في ذلكَ السّوقِ أشبهَ بِ"شاةٍ كبيرةٍ" تُغيرُ عليها مَجموعةٌ من البشرِ مِن جنسِ الذئابِ المسعورةِ والمسلحةِ بصورةٍ دوريةٍ ومنتظمةٍ؛ وتُحاولُ تلكَ الشّاةُ أنْ تستمرَّ في الحياةِ رغماً عن ذلكَ.

بعدَ ذلكَ قرَّرَ السّيدُ حمد وصديقُهُ الدكتورُ "نايْجل" أنْ يستقلا سيارةً خاصةً لتفقُّدِ ضواحي المدينةِ البعيدةِ عن المركزِ. خلالَ تلكَ الرحلةِ في السّيارةِ اصطدَما بحاجزٍ شبهِ ثابتٍ لِجيشِ الاحتلالِ. كان ذلكَ الحاجزُ يوقفُ السّياراتِ ويقومُ بالتنكيلِ بركابِهَا وبالمارةِ على أقدامِهِمْ، وعلى حدٍّ سواءَ. على مرأىً من الناسِ كان ثلاثةُ جنودٍ يقومونَ بتعذيبِ أحدِ الرجالِ، وكان ذلكَ الرجلُ زائدَ الوزنِ وفي أربعينياتِ عمرِهِ. تارةً يشدُّهُ أحدُ الجنودِ من رأسِهِ وجنديٌّ آخرُ يشدُّهُ من سروالِهِ وثَمَّةَ ثالثٌ يقومُ بركلِهِ في بطنِهِ. كانَ ذلكَ الرجلُ معصوبَ العينيْنِ مكبَّلَ اليديْنِ؛ كما يبدو أنَّهُ أرادَ الحفاظَ على روحِهِ وجزءٍ من كرامتِهِ بتسليمِ كاملِ قواهُ لِجنودِ الاحتلالِ، طريقةٌ أثبتتْ عدمَ جدواها مع هؤلاءِ الفاشيينَ الرُّعناءَ. حاولَ أحدُ الجنودِ أنْ يدفعَ ذلكَ

الرجلَ معصوبَ العينيْنِ إلى منحدرٍ خَطِرٍ يؤدّي بالنتيجةِ إلى موتٍ شبهِ مُحقَّقٍ أو إحداثِ جروحٍ وكسورٍ خطيرةٍ وصعبةٍ. السّيدُ حمد والدكتورُ "نايْجل" وبعضٌ من ركّابِ السّياراتِ المستوقَفةِ على الحاجزِ يراقبونَ ومن داخلِ السّياراتِ المشهدَ الوحشيَّ لِهؤلاءِ الجنودِ مع إحدى ضحاياهُمْ. في نفسِ الوقتِ أوكِلَ إلى جنديّيْنِ صغيرَيْ (في سنِّ المراهقةِ، ربّما!) السّنِّ من لواءِ المظلاتِ التابعِ لِجيشِ الاحتلالِ بالتعاملِ مع السّياراتِ ومن فيها.

جنديٌّ من لواءِ المظلاتِ (للدكتورِ "نايْجل"): من أنتَ؟! وماذا تعملُ هنا؟! ... (شو إنت بيساوي هونا)!؟....

السّيدُ حمد: هذا الدكتورُ "نايْجل"، صديقِيَ .... يزورُني!....

جنديُّ المظلاتِ (وبصوتٍ عالٍ): أنا أتكلَّمُ معهُ وليس معكَ .... "إنتا أوكعد هناك"! ... (أنتَ اقعدْ أو اجلسْ هناكَ)...

الدكتورُ "نايْجل": أنا الدكتورُ "نايْجل"، أجنبيٌّ ... وأزورُ صديقاً لِيَ هنا...

جنديُّ المظلاتِ (بازدراءٍ يُخاطبُ الدكتورَ "نايْجل"): هذا!؟ .... صديقُكَ؟! ... هل أنتَ من "الجيشِ الجمهوريِّ الأيرلنديِّ"؟!.

الدكتورُ "نايْجل": لا لا لا ... لستُ حتى بكاثوليكيٍّ. سوف أريكَ ذلكَ من هويَّتِيَ ... من جوازِ سفرِيَ ... من ملابسِيَ الداخليةِ! ... ومن أيِّ شيءٍ تطلبُهُ منِّيَ!.

السّيدُ حمد: أوّلاً توقّفْ عن خلعِ أيِّ شيءٍ من على جسمِكَ أيُّها الجبانُ الأحْمقُ!. عليكَ أنْ تصمدَ قليلاً ... توقّفْ عن استعمالِ جوازِ سفرٍ ووثائقَ وهويةٍ وبقايا "أمْجادٍ"! سابقةٍ للدفاعِ عن نفسِكَ أو للتعاملِ مع أبناءِ "وعدِ بلفور المشئوم". الموقفُ الذي نَحْنُ فيهِ الآنَ طارئٌ. ثانياً لا أعتقدُ أيُّها الجنديُّ أنَّ هذا الشخصَ، صديقِيَ وضيفِيَ، يُمكنُ أنْ يلقى مكاناً أو قَبولاً في أيِّ جيشٍ، لا أيرلندياً ولا بَطّيخاً أصفراً. وثالثاً وهو الأهَمَّ من ذلكَ كلِّهِ ... عليكُمْ أنْ توقفُوا عمليةَ التنكيلِ بذلكَ الشخصِ الأعزلِ والذي لا حولَ لهُ ولا قوّةَ. بنفسِيَ سأرفعُ قضيةً قانونيةً ضدَّ أفرادِ هذا الحاجزِ وضدَّ الحكمِ العسكريِّ في المدينةِ والذي هو مسئولٌ عن هذه التصرفاتِ التي لا تصدرُ إلّا من "فاشستيينَ" رُعناءَ مدججينَ بالسّلاحِ. لا تظنَّنَّ أيُّها الجنديُّ أنَّنا نعيشُ في غابةٍ!. هنالكَ "سفاراتٌ وسفراءُ" في الدولةِ وحولَ الدولةِ. هنالكَ دولٌ عظمى وأخرى متوسّطةُ العظمةِ ودولٌ حقيرةٌ وأخرى مستحقرةٌ!. هنالكَ صليبٌ أحْمرُ وأزرقٌ وأخضرٌ ... وهنالكَ حقوقُ خلقٍ ولو بالاسْمِ. لا بل كلُّ هذا وذاكَ ليسَ أكثرَ من "بيوتِ دعارةٍ" منتشرةٍ هنا وهناكَ تَحْتَ أسْماءَ ومسمياتٍ لتضليلِ العوامِّ. سوفَ لن تنجونَ بماءِ وجوهِكُمْ من قبحِ تصرفاتِكُمْ الهوجاءِ الحاقدةِ. تفضَّلْ أيها الجنديُّ "أطلقْ النارَ عليَّ" ... ماذا تريدونَ هنا من وراءِ هذه الأعمالِ؟!، تريدونَ طرْدَ الناسِ من أوطانِهِمْ وبيوتِهِمْ ومدنِهِمْ وقراهُمْ!؟.

جنديِّ المظلاتِ: خذْ هذهِ هويتَكَ واذهبْ في الحالِ مع صديقِكَ الأجنبيِّ!...

جنديُّ المظلاتِ (موجّهاً كلامَهُ إلى أحدِ الجنودِ الثلاثةِ): "جابي" (اسْم أحدِ الجنودِ!) .... اتركوا الرجُلَ وشأنَهُ!.

عادَ السّيدُ حمد والدكتورُ "نايْجل" بعدَ هذهِ التجربةِ إلى البيتِ ليجدا أنَّ أبو جاسرٍ قد أقدمَ على "إزهاقِ روحِ" سَخْلٍ، عن نيةٍ مبيتةٍ مع سبقِ إصرارٍ!، وسَلْخِ جلدِ ذلكَ المسكينِ البريءِ. أتْبَعَ ذلكَ بأعمالِ طبخٍ ونفخٍ وشواءٍ للحمِ السَّخْلِ وعظمهِ ونُخاعهِ، وبعدَّةِ أشكالٍ. لقد حوَّل الوالدُ أبو جاسرٍ البيتَ المتواضعَ جداً في

الإمكانياتِ إلى ما يشبهُ مهرجاناً للأكلِ والطبخاتِ المتنوعةِ. كانتْ السّاعةُ الثالثةَ بعدَ الظهرِ تقريباً والعائلةُ تنتظرُ عودةَ السّيدِ حمد وضيفهِ الدكتور "نايْجل". تناولتْ العائلةُ والضيفُ طعامَ الغداءِ وبصحبةِ عددٍ من أصدقاءِ السّيدِ حمد القلائلِ في القريةِ.

أبو جاسر: قلْ لهُ يا حمد أنّني آملُ أنْ يكونَ استمتعَ بالزيارةِ والإقامةِ القصيرةِ هنا.

الدكتورُ "نايْجل": أشكرُكُمْ على الأكلِ والذهابِ معِي إلى مُختلفِ أرجاءِ المنطقةِ حيثُ لَمْ أدفعْ أيّةَ رسومٍ على التنقلِ والأكلِ والشربِ. لقد تكفّلَ السّيدُ حمد بكلِّ ذلكَ!.

أم جاسر: واللهِ! إنكَ ابْنُ حلالٍ وأصيلٌ!. جئتَ لزيارةِ ابنِنا حمد وقطعتَ كلَّ هذهِ المسافاتِ، بالمقارنةِ مع أصدقائِهِ الذين لا تبعدُ بيوتُهُمْ عن المكانِ كثيراً. لَمْ يقمْ أحدٌ منهُمْ بزيارةِ بيتِنا ولو مرّةً واحدةً خلال سنينٍ من المعرفةِ والصّداقةِ والصّحبةِ.

"فَلْحَة": أفكّرُ بزيارةِ بلدِهِ والتعرفِ على ذلكَ المُجتمعِ هناكَ عن كثبٍ.

سرحان و"هيما": اسألْهُ فيما لوْ تضايقَ، أو لَمْ يعجبْهُ، من شيءٍ في هذهِ الزيارةِ ...

الدكتورُ "نايْجل": فقط أخشى أنْ يكونَ أبوالزهو لا يلاقي الرعايةَ والمعاملةَ اللطيفةَ!. يبدو لِيَ أنّهُ يعاني من الإهْمالِ وسوءِ التغذيةِ والقيامِ بالأعمالِ المُجهدةِ والمرهقةِ.

أبو جاسر: قلْ لهُ يا حمد أنَّ أبوالزهو يَعُزُّ علينا كثيراً. وُلِدَ في بيتِنا وترعرعَ بينَنا. مثلُهُ مثلَ أولادِنا، بل نَحترمُهُ ونقدّرُهُ أكثرَ من أولادِنا؛ حتى أكثرَ من "السّيدِ حمد" الذي يذهبُ إلى آخرِ الدنيا للتعلّمِ اللا-مُجْدي. على الأقلِّ! يذهبُ أبوالزهو أينَما نريدُهُ أنْ يذهبَ، يطيعُنا في كلِّ شيءٍ. لا نُثْقِلُ كاهلَهُ بما يُجهدُهُ أو يرهقُهُ. عندَ حَمْلِ الأغراضِ، يَحملُ أبوالزهو جزءاً منها وتَحملُ أمُّ جاسرٍ جزءاً وأحْملُ بنفسِيَ الجزءَ الأكبرَ منها. تظلُّ يدِيَ على قلبِيَ! خشيةَ أنْ يكونَ حِمْلُهُ زادَ ولو قليلاً عن الحدِّ. قلْ لهُ يا حمد أنْ لا يقلقَ بشأنِ ذلكَ أبداً.

أبوالزهو: ومَنْ الذي شكا لَكَ أمريَ؟!. كلُّ تلكَ المآسي التي تَمُرُّ بها المنطقةُ ومنذُ عهودٍ من الزمنِ لَمْ يُثِرْ منها أيَّ شيءٍ من حرصِكَ عليهِ. لقد طَرقْتَ باباً أمامَكَ مُحْكمَ الإغلاقِ!. أعيشُ في "ملاذٍ آمنٍ" فيهِ احترامُ كرامةِ كلِّ شيءٍ، في العملِ والراحةِ. هنا تُحترَمُ كرامةُ الكادحينَ التي لا تعلو عليها كرامةٌ. أو أنَّ ما تقولُهُ هذا جزءٌ من سياسةِ "فَرِّقْ تَسُدْ" المتبعةِ ضدَّ المغفلينَ من بني البشرِ!؟. هل تريدُ أنْ تُفرِّقَ بينِيَ وبينَ عائلةِ الوالدِ أبو جاسر؟!.

السّيدُ حمد: آه .... يا صديقِيَ!. ومن أجلِ عيونِكَ ومواقفِكَ النبيلةِ يا رفيقَ دربِيَ أبوالزهو، لكَ وللعائلةِ من بعدِكَ منّيَ أحلى الألْحانِ ... وللفنانِ الكبيرِ الشيخِ فريد .... مقطوعةُ "لَحْنُ الخلودِ" ... وعلى مقامِ "كرد صول". .... دن رنَ صولَ صول صول......

أبوالزهو: آهٍ.... يا صديقِيَ.... ما الذي يفتحُ قريحتَكَ لتعزفَ لنا ما يَجعلُنا في حالةٍ من التيهِ والنشوةِ العاليةِ؟!. أكادُ أنْ أطيرَ في السّماءِ مثلَ العصفورِ وأتنقّلَ بينَ أغصانِ وفروعِ الأشجارِ عندَ سَماعِيَ لتلكَ الألْحانِ ...

السّيدُ حمد: وجودِيَ في حضرتِكَ ومواقفُكَ المَجيدةُ يا رفيقَ الدّربِ والعمْرِ الطويلِ القصيرِ!.

تُبنى معظمُ الجامعاتِ والمعاهدِ العليا في العالَمِ العربيِّ بناءً على رغبةٍ فرديةٍ من مسئولٍ كبيرٍ أو غنيٍّ أو حتى رئيسِ قبيلةٍ مهمَةٍ في الدولةِ. تُبنى بقرارٍ فرديٍّ وتنفّذُ على عَجَلٍ ودونَ رسمِ خطّةٍ مُحْكَمةٍ تستفيدُ من ماضي المنطقةِ وحاضرِها ومن بيئتِها المحيطةِ وما تَطمحُ في تَحقيقِهِ؛ أو أنَّ صاحبَ الفكرةِ يطمحُ بأنْ يصبحَ في الصّفِّ الأوّلِ من المَحسوبينَ على العلماءِ والمفكرينَ وبأيةِ طريقةٍ مُمكنةٍ، سواءً أكانتْ الفكرةُ مُكلِفةً وغيرَ قابلةٍ للتحقيقِ أو أنَّ الوقتَ قد فاتَ عليْها كُلياً. يظلُّ الإنسانُ آملاً في أنَّ حياتَهُ ستستمرُّ بالزيادةِ في العظَمةِ والازدهارِ بعدَ مَماتِه أكثرَ منها حتى عندَما كانَ بالأمسِ حيّاً. في هذا الجزءِ من العالَمِ ما أنْ تتَشكّلَ نواةٌ أكاديميةٌ حتى يُسارعَ المسئولُ في التفكيرِ بتوظيفِ أولادِهِ وبناتِهِ، أولادِ إخوتِهِ وأخواتِهِ وما يتبعُ بعدَها من أفرادِ قبيلتِهِ. لا يُمانعُ هذا المسئولُ أنْ ينضمَّ إلى تلكَ المؤسسةِ ما يتيسّرُ من عقلياتٍ أو إمكانياتٍ فكريةٍ مبدعةٍ طالَما أنَّها تنضوي تَحْتَ لوائِهِ وتَرْفدُ إلى رفعتِهِ في سُمعتِهِ ومَجدِهِ؛ لكنَّهُ وبنفسِهِ يزرعُ بذورَ اضمحلالِهِ وفنائِهِ عن طريقِ تطبيقِ المَحسوبيةِ والواسطةِ المنبوذةِ في التوظيفِ. ذلكَ لأنَّ توظيفَ حتى شخصٍ فاسدٍ واحدٍ في مؤسّسةٍ يعرقلُ عملَ أعدادٍ كبيرةٍ من غيرِ الفاسدينَ بعدُ، إنْ لَمْ يُحوِّلْ المكانَ كلَّهُ إلى أشبهِ ما يكونُ بميدانِ سباقٍ في الفسادِ.

بُنيتْ جامعةُ "الحكماءِ" بواسطةِ مَجموعةٍ مِمّنْ يُمكنُ أنْ يطلَقَ عليهم "آلُ أو أصحابُ المنسفِ أو المنسِفيّونَ Les Mensefieres"؛ المنسفُ هو الطعامُ الغنيُّ باللحومِ والسمنِ والأرزِّ وبهاراتٍ أخرى فاتِحةٍ لشَرَهِ الشهيّةِ، وينتشرُ تناولُهُ خاصةً في المَناسباتِ لَدى الأقوامِ في الباديةِ الصحراويةِ وبدرجةٍ أقلَّ في الأريافِ ويكادُ ينعدمُ وجودُهُ في المدنِ. تَحتفظُ الجامعةُ بكافةِ المعاييرِ التقليديةِ في تكوينِ الهيكليةِ من حيثُ وجودِ رئيسٍ أعلى للجامعةِ يَمتطي! مَجموعةً من الرؤساءِ والنوابِ والعمداءِ ورؤساءِ الأقسَامِ والسكرتاريينَ والمدرسينَ والطلبةِ والفرّاشينَ والأذنةِ. ومن خصوصياتِ الجامعةِ أنَّ لَها عدداً غيرَ معروفٍ أو مُحدّدٍ من الرؤساءِ؛ هنالكَ الرئيسُ الأعلى والرئيسُ الأكاديميُّ والرئيسُ الفخريُّ والرئيسُ الشرعيُّ والرئيسُ السّياسيُّ والرئيسُ الماليُّ والرئيسُ القبليُّ ولكلٍّ أبناؤُهُ وحاشيتُهُ. كان كلٌّ من الرؤساءِ السّابقينَ يزورُ المديرَ أو الرئيسَ الأكاديميَّ في مكتبِهِ شبهِ البيضاويِّ من حينٍ لآخرَ!. حصلَ الرئيسُ الأعلى لِجامعةِ "الحُكماءِ" على عدّةِ ألقابٍ شعبيةٍ متداولةٍ؛ منهم من أطلقَ عليهِ لقبَ "أسدِ العرينِ" بسببِ مُحاولتِهِ فرضَ هيبتِهِ بالقوةِ على ما سواهُ من النمورِ والضباعِ والفهودِ البشريةِ، ومنهم من أطلقَ عليهِ لقبَ "ذئبٍ أو ضبعِ الغابِ" وهو الأقربُ إلى وصفِ الحالِ، وقليلٌ من الخلقِ في الجامعةِ من أطلقَ عليهِ لقبَ "حمارِ القلعةِ". لكنَّ السّيدَ حمد نَجحَ بجهودِهِ في إلغاءِ اللقبِ الأخيرِ عن رئيسِ الجامعةِ حيثُ لَمْ يُطِقْ أو يتحمّلْ الاستمرارَ في تَمثيلِ الحمارِ بشخصِ رئيسِ جامعةِ "الحكماءِ".

في الجامعةِ الحاليةِ كانَ هنالكَ قسمٌ جديدٌ ناشئٌ في طورِ التكوينِ، يُدَرِّسُ ويعملُ فيهِ شخصٌ حاملٌ لشهادةِ الدكتوراه وخَمسةٌ من الحاملينَ لشهاداتِ

الماجستير وأربعةٌ من الحاملينَ لشهاداتِ البكالوريوس واثنانِ حاملانِ لشهادتَيْ الدبلوم، وَفَنّيٌّ لورشةِ مُختبراتٍ علميةٍ لا يَحملُ إلا الشّاكوشَ وبعضَ المساميرِ للديكور. كانَ عبءُ التدريسِ للمدرّسِ لا يتجاوزُ الثلاثَ مساقاتٍ (٩ ساعاتٍ معتمدةٍ) منها اثنانِ متشابهانِ على الأغلبِ. إلا أنَّ عبءَ السّيدِ حمد تجاوزَ حاجزَ الخمسةَ عشرةَ ساعةً معظمُها تخصُّصيةٌ، ومنها الإشرافُ على مُختبراتٍ قيدَ الإنشاءِ وتَجهيزِها بأجهزةٍ جديدةٍ وتَحضيرُ تَجاربَ وعملُ كرّاسٍ تَجريبيٍّ لكلِّ مُختبرٍ. فَرضَ التعاملُ بكلِّ شيءٍ باللغةِ الأجنبيةِ، ولكنْ ليسَ بشكلٍ صارمٍ مثلَ الجامعَةِ "الباطقانيةِ" السّابقةِ؛ يُسمحُ للمدرسينَ والتلاميذِ بالتقاطِ أنفاسِهِمْ "بالعربيةِ"! من عناءِ الفكرِ والخلْقِ الإبداعيِّ الفريدِ من نوعهِ باللغةِ الأجنبيةِ!. تدرِّسُ كلُّ الشعوبِ والأممِ بلغَاتِها الوطنيةِ والقوميةِ إلا العربُ عليهِمْ أنْ يستعملوا عقولَهمْ بلغةِ غيرِهِمْ؟!.

يعيشُ السّيدُ حمد الآنَ في كنفِ حكمِ "الحزبِ الواحدِ" والذي يتلقّى رئيسُهُ معظمَ تعليماتهِ مِن أقوى سلطةٍ في الكونِ بواسطةِ سلطةِ رجلِ "الإكليروس" (الإكليروس كلمةٌ من أصلٍ لاتينيٍّ تعني أناسَ أو رجالَ دينٍ). كانَ الرئيسُ الأعلى طاعناً في السّنِّ وعادةً ما كانَ يَمشي على حواليْ خَمسةِ "عَكاكيزَ بشريةٍ" مُحيطةٍ بهِ من كلِّ الجهاتِ، وعلى مدارِ السّاعةِ تقريباً، وحتى عندَ ذهابهِ للحمّامِ. كانَ نظرُ عيونِ ذلكَ الرئيسِ الأعلى ضَعيفاً جداً بسببِ تقدّمهِ الطاعنِ في السّنِّ، إلا أنَّ لهُ عشراتُ العيونِ "القَويَّةِ" المنتشرةِ في كلِّ مكانٍ لتعويضهِ عنَ ضعفِ البصرِ عندَهُ.

في الأسبوعِ الأوّلِ تقريباً من السّنةِ الدّراسيةِ كانَ للسيدِ حمد وبعضٍ من أصحابهِ وزملائهِ الأكاديميينَ اللقاءُ التالي مع المديرِ أو الرئيسِ الأكاديميِّ للجامعةِ العتيدةِ.

المديرُ أو الرئيسُ الأكاديميُّ: أنا غيرُ مؤمنٍ وغيرُ مقتنعٍ بكلِّ التعليمِ الذي تقومونَ بهِ. الوضعُ التعليميُّ كما أراهُ من جهتِي يشْبِهُ الخروفَ المقطّعَ! إلى عددٍ كبيرٍ من القطعِ (المساقاتُ التعليميةُ). سوفَ لنْ يتمكّنَ ذلكَ الخروفُ من الوقوفِ على أرجلهِ حتى نستمتعَ برؤيةِ منظرهِ قبلَ ذبْحهِ وتقديمهِ وجبةً دسِمةً في وليمةٍ مناسبةٍ!.

السّيدُ حمد: وظيفتُكَ تَجميعُ أجزاءِ ذلكَ الخروفِ وأنْ تنفخَ فيهِ من روحِكَ لكَيْ يبدأَ التنفسَ والقفزَ وحتى النطحَ والثُّغاءَ، وتلقيحَ الإناثِ بعد وصولهِ سنَّ البلوغِ. معظمَ الوقتِ أنت جالسٌ وصواني القهوةِ والشايِ السّاخنِ والباردِ وأصنافُ العصيرِ على مكتبِكَ هابطةٌ مُمتلئةٌ ومنهُ طالعةٌ فارغةٌ.

مدرسٌ زميلٌ (فهلويٌّ إخوان!): كلامُكَ أيُّها المديرُ في مَحلّهِ!، معظمُ المدرّسينَ هنا ليسوا بأكفاءَ لتحمُّلِ المسئوليةِ؛ أمّا أنا فإنّني مستعدٌّ أنْ أوصلَ الليلَ بالنهارِ لتحقيقِ أحلامِكُمْ وتصبحَ الكلّيةُ مرتعاً خصباً للعلمِ والعلماءِ.

منافقٌ آخرُ (مُحترفٌ!): لقد كانتْ "جامعةُ قرطباءَ!" على الصِّفْرِ عندَما استلمتُها؛ إنْ تذهبْ إليها الآنَ تَجدْ أنَّ الأفرادَ فيها يعيشونَ عصرَ النهضةِ مَن جديدٍ!.

كانَ على أفرادِ القسمِ الذي يعملُ فيه السّيدُ حمد انتخابُ رئيسٍ لَهُمْ، وكانَ من المتوقّعِ أنْ يَجتمعَ أعضاءُ القسمِ قليلو العددِ ويقرّرونَ من يُحَبِّذونَ تولّيَ ذلكَ المنصبِ الإداريِّ والعلميِّ. إلا أنَّ عَميدَ الكلّيةِ، وعندَ زيارةِ أعضاءِ القسمِ العتيدِ لمكتبِ العميدِ وأثناءَ انشغالهِ بهَرْشِ ونتفِ شواربهِ وشعرِ رأسهِ وحكِّ ذراعيْهِ وعانتهِ!، أشارَ إلى أحدِ جيرانهِ في السّكنِ في الضاحيةِ التي يعيشُ فيها، وكان

الأخيرُ من حاملي شهادةِ الماجستيرِ في القسم، لتولّي المنصبِ. بسرعةٍ قَبلَ حاملُ الماجستيرِ منصبَ رئيسِ القسمِ وعلى الفورِ بدأ ينظرُ إلى ما حولهُ نظرةَ سيدٍ لتابعينَ أو أتباع. أخذَ الأوّلُ (العميدُ) الأخيرَ (حاملَ شهادةِ الماجستير) جانباً هامساً لهُ بعضَ الجُمَلِ والكلماتِ التي تَمَكّنَ السّيدُ حمد من التقاطِ بعضِها، تدعو رئيسَ القسمِ المعيّنِ إلى إحكامِ قبضتهِ على القسمِ ومساعدةِ العميدِ في إحكامِ السّيطرةِ على الكلّيةِ. كما يَبدو أنَّ هنالكَ صراعاً بين "مَراكزِ قوىً" متكونةٍ أو على وشكِ التكوينِ في الجامعةِ الصّغيرةِ العتيدةِ.

أبو جاسر: عسى أنْ تكونَ حياتُكَ هذه السّنةَ أحسنَ وأنتَ هادئَ البالِ وفي أحسنِ الأحوالِ.

السّيدُ حمد: هذا من بابِ عسى ولعلَّ ولوْ وليتَ .... ولكنَّ .... لكنْ هيهاتَ أنْ تتركَ "السعادةُ" أهلَها وتذهبَ إلى آخرينَ!.

أبوالزهو وسرحان: ما الأمرُ؟!، مشكلةُ "البَولاكْ" من جديدٍ..

السّيدُ حمد: ليس هذا بالأمرِ الأهمَّ الآنَ. لقد قرّرتْ الإدارةُ إعطاءَنا ثُلْثَ معاشِنا الشهريِّ والإبقاءَ على الثلثيْنِ الآخريْنِ في مصرفٍ خارجَ البلادِ هرَباً من وقوعِها تَحْتَ سيطرةِ "العدوِّ" المتربصِ بالأرضِ والإنسانِ والأموالِ. كذلكَ يقولونَ أنَّ هذا الإجراءَ يساعدُنا على توفيرِ بعضِ النقودِ للأيّامِ السّوداءِ في الحياةِ لو ساءتْ الظروفُ أكثرَ؛ حينَها يُمكنُ أنْ نلاقيَ شيئاً من المالِ مدَّخراً هنا أو هناكَ!.

"كاملة" وأبوالزهو: أتسوءُ أكثرَ ممّا هي عليهِ الآنَ؟، لَمْ يبقَ أمامَنا إلا الموتُ فقراً. وماذا عن رؤسائِكَ ومن يتولّى أمرَكَ الآنَ؟!.

السّيدُ حمد: كالعادةِ يا صديقِيَ أبوالزهو، مراكزُ قوىً وصراعٌ بينَ إراداتٍ أيُّهُمْ يكسرُ إرادةَ الآخرِ. كلُّ واحدٍ يُحاولُ أنْ يستعبدَ الآخرَ. الحريةُ كاملةٌ لنزواتِ السّيطرةِ على مقدّراتِ الآخرينَ وجهودهِمْ وتَبَنّي نَجاحاتِهِمْ، إنْ حصلَ أيُّ شيءٍ منها!.

أبو جاسر: يا ولدِيَ، تاللهِ تظلُّ طوالَ العمرِ القصيرِ تقارعُ المشاكلَ وتثيرُ الملابساتِ. مثلُنا مثلُ غيرنا من الخلقِ نريدُ أنْ نعيشَ بهدوءٍ وسلامٍ وأمانٍ وطمأنينةٍ. نريدُ أنْ ننامَ ليلَنا القصيرَ بعدَ إجهادِ نَهارٍ طويلٍ. أشعرُ معظمَ الوَقتِ بألَمٍ في عصبِ ساقِيَ الأيمنِ والأيسرِ الذي تعرّضَ للكَسرِ من قَبلُ وتسبَّبَ في حالةِ عرجٍ دائمةٍ عندِيَ بسببِ ضَعفِ التَجبيرِ فيهِ. يُعطينِيَ الطبيبُ حبوباً مُسَكِّنةً للآلامِ ومُخدِّرةً، أشعرُ بالراحةِ فقط عندَ أَخْذِ قرصٍ منها!.

السّيدُ حمد: يا والدِيَ ... يا والدِيَ! في هذه البلادِ والظروفِ إيّاكَ ثُمَّ إيّاكَ أنْ تَمرَضَ، وإذا مرضتَ إيّاكَ أنْ تشكوَ، وإذا شكوتَ إيّاكَ أنْ تشكوَ لِيَ. عليكَ أنْ تتحمَّلَ نتيجةَ عملِكَ. لقد أتيتَ بعشراتِ الأشخاصِ إلى حياةٍ أنتَ أكبرُ من يعرفُ أنَّها مليئةٌ بالشؤمِ وسوءِ الطالعِ. أنتَ آخرُ من يقدرُ أنْ يتألّمَ من مرضٍ أو غيرَ مَرضٍ، أنتَ أساسُ البلاءِ والمآسي التي تَملأُ المكانَ. كانَ بمقدورِكَ أنْ تُنَجِبَ اثنينِ على الأكثرَ للحياةِ، لكيْ يَحفظوا لَكَ اسْمَكَ؛ لا أنْ تأتيَ بأعدادٍ لا حصرَ لَها يَحملونَ اسْمَكَ في أكياسِ الشحاذةِ على أرصفةِ الطرقِ، وعندَ مطالعِ درَجِ المقاهي الشعبيةِ وفي غياهبِ الغربةِ السّحيقةِ. تأكَّدْ تَماماً أنّهُ من السّخافةِ والعبثِ وخيبةِ الأملِ أنْ تشكوَ حالَكَ لأحدٍ وخاصةً لِيَ. لعلمِكَ يا والدِيَ! ليلاً نَهاراً أحاولُ "تنظيفَ الوحلِ والوسخِ" الذي تركهُ وراءَهُ من حاولَ الحفاظَ على اسْمهِ بعدَ موتهِ، مثلَ حالتِكَ وأدهى وأكثرَ

مـرارةٍ مـن حالتِـكَ!. فـي الوقتِ الـذي أُعطـي خَمسـةَ عشـرةَ (١٥) مُحاضـرةً فـي الأسبوعِ أتقاضى معاشاً يساوي أقلَّ ممّا يعطى لغيري لأقلَّ من ثلاثِ (٣) ساعاتٍ في الأسبوعِ يقضيها في القسمِ مُتَنَزِّهاً. حتى تَحفظَ حياتَكَ بعدَ مماتِكَ عليَّ أنْ أدفعَ الثمنَ، عليَّ بالخنوعِ والسّكوتِ وقبولِ الذُّلِّ والاستعبادِ وأنْ أعملَ كالنعاجِ في بيوتِ الذئابِ البشريةِ الوقحةِ. ولنفرضْ جدلاً أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى لَمْ يَخلقْ بينَنا من مثلِ أبوالزهو، ماذا كانَ بإمكانِنا أنْ نفعلَ؟!. ليسَ ذلكَ فقط؛ أنتَ وذريتُكَ تثقلونَ كاهلَ أمثالِ أبوالزهو بتكثيرِ النسلِ .... هل هذا جزاءُ السّاكتينَ عن حقوقِهِمْ؟!.

أبوالزهو: آهٍ... أحبُّ الأولادَ الصّغارَ!، أشكالُهُمْ جميلةٌ ومسلّيةٌ وهُمْ صغارٌ!، لكنْ عندَما يكبرونَ يصبحونَ لا يُطاقونَ!، لا هُمْ ولا تصرفاتُهمْ. ألومُ في ذلكَ المربّينَ في دورِ حضاناتِ الأطفالِ والمعلمينَ في المدارسِ ... وأساتذةِ الجامعاتِ!.

سرحان: ولِماذا لا تذهبُ يا سيدَ! حمد إلى المسئولِ؟، هذا الذي تقولُ بأنَّ شكلَهُ يشبهُ "هرمَ أبو الهولِ!" (رئيسِ الجامعةِ)، وتشكو لهُ أمرَكَ؟!.

السّيدُ حمد: ذهبتُ وانتظرتُ ودخلتُ وشكوتُ وزمْجرتُ وقيلَ لِيَ بأنّهُ إذا لَمْ يُعجبْنِ الأمرُ عليَّ بالرحيلِ وإلى غيرِ رجعةٍ إلى مكانٍ آخرَ. شتمتُ ولعنتُ وبالحائطِ رأسِيَ ضربتُ، حتى أنّهُ وُشِمَ على وجهِيَ علامةُ "أصحابِ الشّمالِ"!.

أبو جاسر: آخ على هكذا حالٍ. اصبرْ يا ولدِيَ، اصبرْ. تعرفُ حالَنا، وقليلٌ من الشيءِ ولا عدمَهُ. هل تريدُ أنْ تعودَ وتعملَ في الأرضِ هنا، طوالَ الشهرِ لتحصلَ على قليلِ القليلِ ممّا نحصلُ عليهِ من بقايا ما تتناولُهُ الطيورُ ووحوشُ البرِّ من البشرِ والحيوانِ؟!. تعرفُ أنّنا نعيشُ حياتَنا على حدودِ هامشِ الزمنِ. نحْنُ عندَ المسئولينَ عنّا أقلُّ قيمةً من زبدِ السّيلِ. لا يوجدُ من أحدٍ يهتمُّ بإنتاجِنا ولا بمزارعِنا ولا بمحصولِنا ولا توجدُ هنالكَ ولو جمعيةٌ زراعيةٌ أو إنسانيةٌ واحدةٌ تدافعُ عنّا أو تسعى إلى مساعدتِنا في عبادتِنا للأرضِ والزرعِ والضرعِ. وعلى كلِّ حالٍ إذا ما قرَّرْتَ تَرْكَ عملِكَ فسوفَ تضطرُّنا لبيْعِ ماشيتِنا وأرضِنا أو جزءٍ منها.

السّيدُ حمد: وأيُّ أرضٍ تريدُ أنْ تُقْبِلَ على بيعِها يا والدِيَ!؟. هل أرضُنا التي في "وادي الثعابين" أو "قرنِ الجديِ"، أو "قطّانْ أمِ الوعورةِ"، أو منطقةِ "نابِ الذئبِ" أو "ظلفِ العنزةِ" ..!!. (مجموعةٌ من الأراضي الوعرةِ المبعثرةِ هنا وهناك، قليلةِ الإنتاجِ وضعيفةِ المردودِ الاقتصاديِّ). لا أبيعُ أرضاً ولو بعتُ نفسِيَ ودمِيَ أو أنْ أموتَ جوعاً. الأرضُ لا تباعُ ولا تُشترى ولا تُهدى ولا حتى تؤجَّرُ، الأرضُ لِمنْ يعشقُها ويُحبُّها ويَخدمُها، والأرض يرثُها عبادُ اللهِ .... الصّالِحونَ فقط!.

أبو جاسر: وهل تريدُ منِّيَ أنْ أستدينَ لكَ بعضَ المالِ لتشتريَ سيارةً تعملُ عليها بالأجرةِ؟!. إنّي أرى الكثيرَ من السّائقينَ ممَّن ليستْ لديْهِمْ أيّةُ مشاكلَ مثلَ التي تتحدّثُ عنها!.

أبوالزهو وسرحان: يا لَلأسفُ والخزيُ والعارُ، بعدَ كلِّ هذهِ السّنينِ من العلمِ والكتابِ والتعليمِ تريدُهُ أنْ يعملَ عملَ سائقِ سيارةٍ من مثلِ هؤلاءِ الأميّينَ!. إنَّها لعنةٌ من الزمنِ الغادرِ على هؤلاءِ الخلْقِ.

السّيدُ حمد: لا... لنْ أعملَ سائقاً ولا تاجراً ولا سمساراً ولا مترجِماً. سأستمرُّ في مهنتِيَ حتى يَحكُمَ اللهُ تعالى في أمرِيَ.

"فَلْحَة": يا أخِيَ! إذا كلُّ ذلكَ التعليمِ الذي أنْجزتَهُ لا يكفيكَ حتى يتحكَّمَ بكَ الدكتورُ "قَوْطزْ" والعمُّ "بوحدْبة" في "جامَعةِ الحكماء"!. واللهِ! لو كانَ الأمرُ بيدَيَّ لَأفتحُ لكَ مدرسةً تكونُ مديرَها، لكنَّ العينَ بصيرةٌ واليدَ قصيرةٌ!.
"هيما" وأبوالزهو: لا نرى ولا نسمعُ أحداً يشكو من هذهِ الدنيا غيرُكَ. على العكسِ من ذلكَ نرى الأستاذَ "زقّوم" مثلاً كلَّ يومٍ رائحاً إلى المدرسةِ وراجعاً منْها وجسمُهُ يتمدَّدُ طولاً وعرضاً.
السّيدُ حمد: للمرّةِ الألفِ أقولُها لكُما يا "هيما" ويا أبوالزهو أنْ لا تظلّا تذكران لِيَ أخباراً عن السّيدِ "زقّوم" وأمثالِهِ في جهازِ التعليم. بسببِ هكذا جهازٍ تعليميٍّ، فلقدْ أتى علينا دهرٌ فيهِ نأكلُ ونشربُ من كلِّ أنواعِ العَلقَمِ والحَنظَلِ والزقّومَ.
يُعتبرُ الوالدُ أبو جاسر من أكثرِ البَشرِ عَشقاً للأرضِ والزرَاعةِ والشجرِ والحيوانِ. تَمتازُ أراضيهِ بأنَّها ذاتُ مردودٍ اقتصَاديٍّ غيرَ مقبولٍ أو كافٍ. بحرصهِ المتواصلِ الدائبِ وسهرِهِ الليالي الطويلةِ، تَمكَّنَ من استخراجِ الغَلَّةِ والثمارِ من أكثرِ أنواعِ الأراضي صلابةً ووعورةً وشحَّ مياهٍ وحتى صعوبةَ الوصولِ إليها في الوديانِ العميقةِ الوعرةِ وسفوحِ الجبالِ الصّخريةِ.
أبوالزهو و"كاملة": لا عليكَ الآنَ يا صديقِيَ، بدأ الوالدُ أبو جاسر العملَ في الفلاحةِ من جديدٍ بعدَ أنْ أصبحَ واثقاً من خطواتِهِ في السّيرِ والعملِ بيديهِ ورجليهِ. سيعودُ إلى الحقولِ ازدهارُها وسيَعُمُّ اللونُ الأخضرُ وما يَنتجُ عنهُ المناطقَ التي يطأُ بِها قدمُهُ.
"كاملة": ستعودُ قريباً أيامُ الحصادِ وأفراحُ المواسمِ ويعودُ القطيعُ يتكوَّنُ من جديدٍ؛ سيعودُ أَكْلُ الدجاجِ والأرانبِ والحمامِ البلديِّ إلى سابقِ عهدِهِ.
أبوالزهو: علينا الآنَ أنْ نَحتفلَ بعودَةِ الفارسِ أبو جاسر بعدَ طولِ غيابٍ، فارسِ الأرضِ في الواديِ والجبلِ وما بينهُما. لنُرَحِّبْ بصانعِ المعجزاتِ في زمنِ الهزائمِ والنكباتِ!.
السّيدُ حمد: ياالله مع الشيخ "سيد درويش" ..... دن دن... مقام "الحجاز علي ري" ..... الحلوة دي قامت تعجن مالبدرية، والديك بينده كوكوكوكو في الفجرية، ياالله بنا على باب الله، يا صنايعية يجعل صباحك صباح الخير يا أوسطة عطية ...... صَبح الصّباح فتاح يا عليم، والجيب ما فيهش ولا مليم، بس المزاج رايق وسليم! .. باب الأمل بابك يا رحيم...... ده الصّبر طيب عال بيغير الأحوال ..... ياللي معاك المال!، برضو الفقير لوه رب كريم...
"كاملة": .... إيدي وإيدك يا بوصلاح (أبو جاسر و"بوحميد" وأبوالزهو) ... اضربها صرمة تعيش مرتاح .. خلي اتكالك على الفتاح .. ياالله بينا ..... الوقت آهو راح.......
أبوالزهو: لَمْ يبقَ لِيَ من الأغنيةِ شيءٌ لأغنِّيَهُ. حتى أختُنا "كاملة"، أجبَرَتْها ظروفُ الحياةِ على الالتحاقِ بفرقتِنا الموسيقيةِ!.

من يوميّاتِ "جامعةِ الحكماءِ"

تعيشُ "جامعةُ الحكماءِ" على جوانبِ مثلثٍ تقريباً تُمَثِّلُ تلكَ الجوانبُ ظلماتُ ماضٍي وحساسيةُ حاضرٍ وضبابيةِ مستقبلِ المنطقةِ، إنْ صحَّ التعبيرُ؛ أو على الخطِ الضيِّقِ الفاصلِ بينَ الواقعِ المريرِ جداً وبينَ الطموحِ المكلفِ شبهِ-مستحيلِ التحقيقِ. (توجدُ عبارةُ "شبهِ-مستحيلَ التحقيقِ" في قاموسِ الواقعيينَ أمّا كلمةُ "مستحيلٌ" فهي موجودةٌ بالتأكيدِ في قاموسِ الحمقى على رأيِ "نابُليون بونابَرتْ"). لكنْ في ظلِّ هذهِ الظروفِ وتوابعِها تسيرُ الأمورُ ما بينَ مدٍّ وجزرٍ كلَّ يومٍ تقريباً. يَحلمُ الناسُ بشكلٍ عامٍّ أنْ يكونَ الغدُ أحسنَ من اليومِ؛ لا مفرَّ للإنسانِ منَ أنْ يتناسى تعقيداتِ الحياةِ ويُحاولُ القفزَ ولو بالفكرِ والخيالِ فوقَ المعطياتِ والحقائقِ وبخاصّةٍ المفروضةِ منها بمنطقِ القوّةِ وليسَ بقوّةِ المنطقِ.

ذاتَ يومٍ حصلتْ مَجموعةٌ من الطلابِ على إذنٍ من الإدارةِ للقيامِ برحلةٍ مشتركةٍ مُختلطةٍ بينَ الأولادِ والبناتِ إلى أقصى نقطةٍ يُمكنُ أنْ تصلَ إليها دواليبُ حافلاتِ الركّابِ في الجنوبِ الجغرافيِّ للمنطقةِ. اعترضَ التيارُ المُحافظُ في الجامعةِ على الرحلةِ ظناً منهُمْ أنَّ ذلكَ سيفتحُ الطريقَ لِلمزيدِ من اللقاءِ المتجدِّدِ بينَ الجنسينِ، "الخشنِ واللطيفِ" على حدِّ تعبيرِهِمْ. اختارتْ اللجنةُ المنظّمةُ للرحلةِ السّيدَ حمَد كأحدِ المَشرفينَ الرئيسيينَ على سيرِ الرحلةِ. وفعلاً! تَمَّ تَجهيزُ حافلتينِ كبيرتينِ للركّابِ تتسعُ كلٌّ منها لأكثرَ من خَمسينَ (٥٠) راكباً. بدأتْ الرحلةُ في الصّباحِ الباكرِ لكيْ يتمَّ استغلالُ وقتِ النهارِ بأقصى فاعليةٍ مُمكنةٍ.

ما أنْ ابتعدتْ الحافلتانِ لِمسافةِ حوالَيْ المائةِ والخمسينَ (١٥٠) كيلومتراً وفي منطقةٍ مرتفعةِ الحرارةِ وذاتِ ضغطٍ جويٍّ عالٍ حتى تعطّلتْ إحدى الحافلاتِ. بعدَ معاينةِ الحافلةِ المعطّلةِ من قِبلِ السّائقِ تبيَّنَ أنَّها بحاجةٍ إلى الكثيرِ من العملِ لإصلاحِ الخللِ الفنيِّ الميكانيكيِّ في المُحرّكِ. خرجَ الطلابُ والطالباتُ إلى العراءِ خارجَ الحافلةِ تَحْتَ حرارةٍ وضغطٍ جويٍ ورطوبةٍ عالٍ وعاليةٍ لكلٍّ منها؛ ترى مستحضراتِ التجميلِ للبعضِ وقد اختلطتْ بمجاري العرقِ إلى الرقابِ وأعالي الصّدورِ، وظهرتْ على وجوهِ الطلبةِ ألوانُ الطيفِ مَمزوجةً بطريقةٍ ملفتةٍ للنظرِ لكنْ ليسَ للانتباهِ أو تركيزِ الانتباهِ!. ظنَّ السّيدُ حمد بأنَّ الفئةَ التي عارضتْ وبكلِّ شدةٍ تلكَ الرحلةَ قد نَجحتْ في أدعيتِها لإفشالِ الرحلةِ، أو هكذا سيظنّونَ، ولتَحويلِها من فرحٍ ومرحٍ إلى غمّةٍ على الدماغِ وغُصّةٍ في البالِ ولِمدّةٍ قابلةٍ للامتدادِ طويلاً.

ومنذُ السّاعةِ العاشرةِ صباحاً تقريباً حتى الثانيةَ عشرةَ ليلاً، تقريباً كذلكَ، بقيَ الجميعُ ينتظرونَ عوناً أو مساعدةً من شركةِ النقلِ أو من الشرطةِ المَحلّيةِ (للعدوِّ) هناكَ أو من أيِّ مَخلوقٍ؛ كانَ ذلكَ كلُّهُ وهْماً!. أرسلتْ الشركةُ حافلةً أخرى وفي وقتٍ متأخرٍ جداً من الليلِ كبديلٍ للحافلةِ المعطّلةِ؛ كان ذلكَ بعدَ طولِ عناءٍ من الطلبةِ المساكينِ وقلةِ اكتراثٍ من الموظفينَ في الشركةِ والاهتمامِ براحةِ الركّابِ وسلامتِهِمْ. وَصَلَ القليلُ مِمّن تبقّى من الطلابِ والمشرفينَ عائدينَ إلى موقعِ الجامعةِ، الذي انطلقوا منهُ عندَ البدءِ بالرحلةِ المتعثّرةِ؛ وصلوا مع ساعاتِ الصّباحِ الأولى. هنالكَ وجدوا قلّةً من الناسِ ينتظرونَ عودةَ أنْجالِهِمْ، واحتدمَ بينهُمْ النقاشُ التالي.

السّيدُ " عائق" (موظّفٌ في سَكَنِ طلبةِ الجامعةِ): لقد آنَ الأوانَ أنْ تَخجلوا من أنفسِكُمْ، أيُّها المشرفونَ على الرحلةِ!، وتأتونا صاغرينَ بعدَ هذهِ المهزلةِ والفضيحةِ. لقد أهنتُمْ شرفَ التلميذاتِ والعائلاتِ الكريمةِ والشعبِ والأمَّةِ والشرفَ العامَّ.

طالبٌ: وهل أنتَ يا سيدَ "عائق" من المتشفّينَ بمثلِ هذا الحادثِ المؤسفِ الذي نَتَجَ عن عطلٍ فنيٍّ في مُحرّكِ حافلةِ الركّابِ؟؛ أَمْ تعتقدُ أنّهُ استُجيبَ لدعائِكَ، لطهارتِكَ وعفّتِكَ، لإفشالِ الرحلةِ؟!.

السّيدُ " عوّان": وما الذي يَجعلُكُمْ تذهبونَ في رحلةٍ مُخلّةٍ بالشرفِ كتلكَ بحيثُ تعرِّضونَ البناتِ للكثيرِ من الشُّبْهاتِ ولأعمالٍ شرّيرةٍ وضالّةٍ؟!.

السّيدُ " عرّاد": يَجبُ أنْ أعرفَ من الذي قامَ بالإعدادِ والتخطيطِ والتنفيذِ لهذهِ الرحلةِ حتى أحكُمَ فيما إذا كانَ من الواجبِ مباركةُ أو شجبُ الرحلةِ هذهِ من الأساسِ!.

السّيدُ حَمد: أريدُ أنْ أعرفَ ماذا يَجري في مُخيلتِكُمْ عن ما حدثَ عندما أتى الليلُ وحطَّ الظلامُ على من تبقّى من أفقرِ الطلبةِ، وأكثرهِمْ مُحافِظينَ ومُحافِظاتٍ في المُجتمعِ، في تلكَ المنطقةِ النائيةِ!. هلْ تظنّونَ أنَّ كلَّ فتىً قامَ بعناقِ إحدى الفتياتِ، إنْ بقيَ أيٌّ منهنَّ هناكَ إلى الليلِ، في خلسةٍ رومانسيةٍ حَمراءَ؟!. ليسَ الوضعُ كما يُتصوَّرُ لكُمْ في عقولِكُمْ، ربَّما، مثلُ اجتماعٍ يَحدثُ بين حيواناتٍ أو حَميرٍ! مع بعضِها البعضِ. يَحتاجُ الأمرُ منكُمْ إلى قليلٍ من الذوقِ والفهمِ!. كُنّا نقومُ برحلةٍ نزورُ حسْبَ مُخطّطِها أماكنَ طبيعيةً وأثريةً ودينيةً وبشريةً وعلميةً. خُططٌ للرحلةِ بأكملِها لتستغرقَ من الزمنِ بضعَ ساعاتٍ. كلُّ نَفرٍ في الرحلةِ بالغٌ وعاقلٌ وواعٍ ويعرفُ أو تعرفُ ما يُخِلُّ بالشرفِ والقانونِ والحسِّ العامِّ والخاصِّ ومنذُ نعومةِ أظفارهِ أو أظفارها. هل تفكّرونَ أنَّ البشرَ فقط أجسامٌ جنسيةٌ بدونِ مشاعرَ وأحاسيسَ وضوابطَ وتفكيرٍ؟!. أليسَ عندَ هؤلاءِ من شاغلٍ إلا الناحيةَ الجنسيةِ فقط!.

والدُ طالبةٍ: لقد ربَّيتُ بنتِيَ أحسنَ تربيةٍ. أثقُ بها لو ذهبتْ وحدَها إلى بلادِ الجنِّ الأزرقِ أو أدغالِ أفريقيا.

والدُ طالبٍ: إذا كانَ هنالكَ من يريدُ أنْ يرتكبَ عمليةً مُخلةً بالشرفِ سيقومُ بها في أيِّ مكانٍ!. لماذا الذهابُ بعيداً إلى خطوطِ المواجهةِ بينَ الجيوشِ المتحاربةِ على أقصى الحدودِ الجغرافيةِ الصحراويةِ للمكانِ؟!. الشريرُ شريرٌ ولو بينَ الأخيارِ والأشرافِ ربى .... والشريفُ شريفٌ ولو خالَطَ الأبالسةَ!.

طالبةٌ مُحافِظةٌ: ولِماذا كل هذا الهرجِ والمرَجِ؟!، أنا حرّةٌ في الذهابِ إلى أيِّ مكانٍ أريدُ وفي أيِّ وقتٍ أريدُ، وأمارسُ أيَّ عملٍ أريدُ!.
السّيدُ " عائق": فإذن... وكما يبدو! أنا الذي يَجبُ أنْ يَخجلَ من فكرهِ وظنونهِ الشريرةِ التي تَخِلُّ في معظمِها بالشرفِ العامِّ والحسِّ والخُلقِ والذوقِ الإنسانيِّ الرفيع.
السّيدُ "زاهر" (مشرفُ مُختبرٍ في الكلّيةِ): عليكَ يا سيدَ "عائق" أنْ تتلاهى بالأكلِ خاصةً أكْلِ البيضِ المسلوقِ أوِ المقليِّ بالزيتِ، لأنَّكَ لا تعرفُ أنْ تُحَضِّرَ طعاماً غيرَهُ في حجرتِكَ التي تشبهُ زنزانةَ! أحدِ العفاريتِ البشريةِ.
ما أنْ اقترحَ الرئيسُ الأكاديميُّ للجامعةِ، "جامعةِ الحكماءِ"، إقامةَ معرضٍ علميٍّ في الجامعةِ حتى اندفعَ المسئولونَ والمدرسونَ والطلابُ لتصميمِ العشراتِ من التجاربِ في مُختلفِ المَجالاتِ. وما كادتْ تَمضي بضعُ أيامٍ حتى امتلأَ القسمُ والأقسامُ الأخرى بما فيها من قاعاتٍ مُختبراتٍ ومَمرّاتٍ داخليةٍ، امتلأتْ السّاحاتُ العامةُ والأجنحةُ الداخليةُ والجانبيةُ؛ امتلأت جَميعاً بتجاربَ جاهزةٍ "للّعبِ" بها من قِبَلِ الزائرينَ!. جَذبَ المعرضُ حضوراً بالمئاتِ يومياً من طلابِ المدارسِ والجامعاتِ والمعاهدِ العلميةِ والمؤسساتِ الخاصّةِ والأهالي ولبضعةِ أسابيعَ. انتظرَ النشطونَ في المعرضِ بعضَ المكافآتِ والجوائزِ على نجاحِ المعرضِ ولا يزالُ البعضُ منهُمْ ينتظرُ!.
قامتْ الكلّيةُ بعملِ حفلٍ موسيقيٍّ ساهرٍ ولقد لاقى ازدهاراً واعتراضاً كبيرينِ في آنٍ واحدٍ. تَمَّ في الحفلِ عزفُ بعضِ المقطوعاتِ الموسيقيةِ والرقصاتِ الشعبيةِ وتقليدٌ لبعضِ الأغاني المنتشرةِ من الوسطِ الفنّيِّ. لَمْ يَرُقْ ذلكَ لبعضِ الكتلِ المتشكّكَةِ من السّلوكِ الإنسانيِّ بشكلٍ عامٍّ، نفسِ الفئةِ السّابقةِ التي تعارضُ الاتصالَ المكشوفَ بينَ الجنسينِ؛ الآنَ لا يروقُ لَها أنْ ترى الذكورَ والإناثَ يَجتمعونَ تَحْتَ سقفٍ واحدٍ. هذهِ المرةَ تطوّرتْ الأمورُ أكثرَ نَحْوَ خطرِ الاشتباكِ العنيفِ وكادت أنْ تَحصلَ مواجهةٌ وبالسّلاحِ الأبيضِ بينَ فئاتٍ ذاتِ اتّجاهاتٍ فكريةٍ مُختلفةٍ. كان هنالكَ فريقٌ يَحملُ الهراواتِ والأدواتِ الحادةِ القاطعةِ حيثُ قاموا بعملِ تَهديدٍ ووعيدٍ بضربِ اللحمِ بالحديدِ، إذْ تضامنَ كلُّ عنيدٍ ضدَّ آخرَ ... عنيدٍ!. تدخّلتْ جهاتٌ من الطبقةِ السّفلى والعليا وبعدَ جهدٍ جهيدٍ وعرقٍ شديدٍ استطاعتْ الكلّيةُ تلافي خطرِ سفكِ دماءٍ بريئةٍ وغيرِ بريئةٍ!. استمرَّتْ المناوشاتُ الخفيفةُ لبعضِ الليلِ قبلَ أنْ تضمحلَّ وتذهبَ بشكلٍ كبيرٍ مع تصريفِ الطلابِ المتنافسينَ، كلٌّ في طريقٍ.
بعدَ غيابٍ طويلٍ نسبياً عن الأهلِ عادَ السّيدُ حمد إلى قريتهِ.
أبو جاسر: لقدْ أطلتَ الغيابَ هذه المرةَ، لا سَمَحَ اللهُ خِفْنا أنْ يكونَ أصابَكَ مكروهٌ.
أم جاسر: إيّاكَ أنْ تكونَ قد تعرَّفتَ إلى إحدى الغاوياتِ ووقعتَ في شباكِها. أخيراً! يَجبُ أنْ تلاقيَ لكَ بنتَ حلالٍ بدلاً من أنْ تظلَّ "فالتاً" مثلَ الكلابِ الضائعةِ!.
سرحان وأبوالزهو: وعسى أنْ تكونَ مرتاحاً مع سيِّئي الذكرِ من رؤساءَ متسلطينَ.
السّيدُ حمد: لقد أُضيفَ إليهِمُ شخصٌ جديدٌ، الدكتورُ "خِرَفْزْ"، كبيرُ الحجمِ طويلُ اللسانِ يَخلطُ الوعيدَ بالتهديدِ، وكلّما ابتزَّ شيئاً يقولُ هلْ بقي لديْكُمْ من مزيدٍ!؟.
أم جاسر: يا ابني! عسى اللهُ أنْ يُبعدَ عنكَ شرَّ أولادِ الحرامِ وشرَّ أولادِ الحلالِ، لأنّهُ لا شرَّ إلا شرَّ بني آدمَ. اهتمَّ فقط بشغلِكَ.

السّيدُ حمد: لقد أقمْنا معرضاً علمياً كبيراً وكانتْ الجماهيرُ تتدفَّقُ علينا متحديةً البردَ والحواجزَ الأمنيةَ والفقرَ والظلامَ المفروضَ عليها. لمْ أرَ بحياتِيَ إقبالاً على شيءٍ كالذي رأيتُهُ في هذا المعرضِ.
أبوالزّهو: أعرفُكَ!، إذا ما شَغَلتَ عقلَكَ تصنعُ المعجزاتِ وحتى الخرافاتِ!. أرجو أنْ يكونَ قد نالَ إعجابَ الكبارِ.
السّيدُ حمد: رفيقِيَ أبوالزّهو!، طالَما حزتُ على إعجابكَ فأنا سعيدٌ جداً بذلكَ. لمْ أدعُكَ إلى المكانِ هناكَ لأنَّني خِفتُ أنْ لا يكونَ مستوى التجاربِ المصمّمةِ والمعروضةِ كافياً لِيرضيَ خيالَكَ وفكرَكَ وحتى طموحاتِكَ.
أبو جاسر: لا بدَّ أنَّهُمْ قدَّموا لكَ بعضَ المالِ الإضافيِّ لقاءَ هذا العملِ والجهدِ الإضافيِّ والعلمِ!.
السّيدُ حمد: لا مالاً ولا جوائزَ ولا ... حتّى كلمةَ شكرٍ من مسئولٍ رفيعِ المستوى!.
"هيما": لا تقدِّمْ خدمةً لأحدٍ إلا عندَما يُلِحُّ كثيراً بالرجاءِ حتى يعرفَ ويُقدِّرَ قيمةَ العملِ الذي تقومُ بهِ من أجلِهِ.
أبوالزّهو وسرحان: في كلِّ مرّةٍ يَحدثُ معكَ مثلَما يَحدثُ مع الحمار الذي يقدِّمُ خدماتهِ بالمَجانِ ودونَ أيِّ مقابلٍ من الآخرينَ. قبلَ عدةِ أيامٍ فقط كادَ أنْ يذهبَ صاحبُنا الحمارُ "أبو سرور" في "ستينَ داهيةٍ"!. أوصلَ الحمارُ "أبو سرور" على ظهرِهِ حُمولةً وزنُها ما لا يقلُّ عن ستينَ (٦٠) كيلوجراماً من الموادِّ المُختلفةِ. تسلَّقَ حوالَيْ مائةً وعشرينَ (١٢٠) درجةً في بطنٍ وصدرٍ وكتفٍ وباتّجاهِ رأسِ الجبلِ حتى وصلَ إلى البيتِ المبتَغى. هنالكَ قامَ الطبيبُ الدكتورُ "أبو عُرَيْطَةَ" الذي يسكنُ البيتَ بركلهِ ودفعهِ برجلهِ مُحاولاً إبعادَهُ عن بوّابةِ بيتهِ؛ كانَ ذلكَ لأنَّ صاحبَنا "أبو سرور" طلبَ شُربةَ ماءٍ تُبْعِدُ عنهُ العطشَ ولو بشكلٍ مؤقتٍ.
"هيما": ولولا أنْ تداركَ صاحبُنا "أبو سرور" نفسَهُ وتَمالكَ أعصابَهُ ورجليْهِ ويديْهِ، لَتَمَّ كسرُ أعدادٍ لا حصرَ لَها من عظامهِ، ولأصبحَ بينَهُ وبينَ الموتِ شبهُ تعايشٍ مزمنٍ!.
أبوالزّهو: أرجو أنْ تُحَضِّرَ نفسَكَ الليلةَ لسهرةٍ معَ سلطانِ الطربِ، وأنْ تريحَ أعصابَنا من الحديثِ عن الكوارثِ هنا وهناكَ، إنْ صحَّ التعبيرُ.
السّيدُ حمد: سنذهبُ الليلةَ لزيارةِ عائلةٍ "مستورةٍ" من أصدقاءِ الوالدِ أبو جاسر، ربِّ العائلةِ السّيدِ "أبو طَلْهَلَةَ" الطاعنِ في السِّنِّ. لقد علمتُ أنَّ الزوجةَ الصّغيرةَ السّيدةَ "جُبَيْنَةَ" في ورطةٍ ماليةٍ، وورطةٍ معَ زوجِها السّيدِ "أبو طَلْهَلَةَ"، وورطةٍ مع كلٍّ من أنْجبتْهُ حتى الآنَ!. تسكنُ العائلةُ في قريةٍ جبليةٍ نائيةٍ بعضَ الشيءِ، حوالَيْ اثنا عشرَ (١٢) كيلومتراً من بيتِنا هنا.
أبوالزّهو: لنذهبْ معاً ولنأخذْ لَهُمْ بعضَ الطعامِ من اللحمِ واللّبنِ وأشياءَ أخرى. لنأخذْ معنا مِمّا تيسّرَ في بيتِنا؛ كيساً من الأرُزِّ وصندوقاً منَ الفواكهِ وزجاجةً كبيرةً من البيبسي كولا (الحجمِ العائليِّ)، وقطعةَ قماشٍ يُمكنُ أنْ تصنعَ منْها ربّةُ البيتِ ثوباً لَها ولأولادِها.
السّيدُ حمد: هل سنذهبُ مشياً على الأقدامِ سالكينَ طرقَ الجبالِ الوعرةَ أَمْ بالسّيارةِ عبرَ الطريقِ الطويلِ الذي يَمُرُّ بالمدينةِ؟!.
أبوالزهو: لا... سنذهبُ مشياً على الأقدامِ. نُحِبُّ السّيرَ في الطرقِ الجبليةِ الوعرةِ مثلَ حُبِّ عصفورِ الشّوْكِ للعيشِ بينَ الأغصانِ الشائكةِ المتشابكةِ.

السّيدُ حمد: سأحْملُ جزءاً من الأغراضِ وستَحْمِلُ الباقيَ منها يا أبوالزهو، يا جَمَلَ المَحاملِ!. ....

أبوالزهو: كيفَ حالُكِ يا سيدتَنا العزيزةَ "جُبَيْنَة"؟. أنا وأخونا حمد، علمْنا بضائقةٍ أنتُمْ واقعونَ فيها لا مَحالةَ. في الواقعِ أنا دائماً، ومعِيَ حمد كذلكَ، في حالةِ تساؤلٍ دائمٍ!. لِماذا الناسُ لا يرتاحونَ ولو قليلاً عندما ينجبونَ المزيدَ من الأنْجالِ!؟. لِماذا لا يَستطيعونَ حلَّ تلكَ المشكلةِ البسيطةِ!؟.

السّيدةُ "جُبَيْنَة": واللهِ! يا أخانا حمد ويا أبوالزهو! هذا الرجلُ عندِيَ يتردَّدُ في صرفِ خَمسةِ قروشٍ على أولادهِ. الولدُ الكبيرُ بحاجةٍ إلى عدةِ عملياتٍ جراحيةٍ على الأقلِّ لإنقاذِ مستقبلهِ العقليِّ!. الولدُ الثاني بحاجةٍ إلى معالَجةٍ خاصةٍ طويلةِ الأمدِ لإنقاذِ جهازهِ الهضميِّ!. الولدُ الثالثُ لا يتحمَّلُ البقاءَ نصفَ ساعةٍ فقط في المدرسةِ ليرى فيها أيّاً من المعلّمينَ!. الطفلُ الرابعُ مِنْ أكثرِ الأولادِ شَعَثاً وكأنَّهُ مَخلوقٌ من حفرةٍ في طريقٍ جبليةٍ وعرةٍ وكأنَّ ليسَ لَهُ أبٌ ولا أمٌّ يربّونَهُ!. تتراكمُ الديونُ علينا مثْلَ أوراقِ شجرِ التينِ عندَ هبوبِ رياحِ الخريفِ عليْها. حتى زوجِيَ السّيدُ "أبو طَلْهَلَة" يهَدِّدُني كلَّ يومٍ ويتوعدُني بأنّهُ سيتزوجُ خامسةً وسادسةً؛ حتى لو كان ذلكَ في آخرِ يومٍ في حياتهِ؛ على حدِّ تعبيرهِ المتكرّرِ على مدارِ السّاعةِ. لقد قضى على قسمٍ من زوجاتهِ السّابقاتِ في ظروفٍ أقربَ وصفاً إلى الخيالِ الواقعيِّ منهُ إلى الغموضِ المعقولِ!.

أبوالزهو: أعتقدُ أنَّ أحسنَ طبيبٍ ودواءٍ في آنٍ معاً لِمثلِ هذهِ الظاهرةِ "المستفحلةِ"، أو هذا الداءِ الوباءِ، هو الذي اسْمُهُ "الحاج صُعَيْب"!. (المسئولُ عن "خصي" حَمير الريفِ ويقطنُ المدينةَ)

السّيدةُ "جُبَيْنَة": هَا هو السّيدُ "أبو طَلْهَلَة" قادمٌ ويفتحُ البابَ الخلفيَّ من البيتِ على غيرِ عادتهِ. لا تذكُرا شيئاً مزعجاً أمامَهُ. قولا لهُ أنَّ الأمورَ على خيرِ ما يرامُ ولا داعيَ للقلقِ. قولا لهُ: "قلوبُنا معكُمْ وجيوبُ الخلقِ تَحْتَ تصرفِكُمْ وعلى السّمعِ والطاعةِ سيِّدِيَ"!. هذا شخصٌ لا يتحمّلُ الذبابةَ إنْ تَمُرَّ بالقربِ من رجليهِ.

السّيدُ "أبو طَلْهَلَة": ها أنا ذا يا سيدةَ "جُبَيْنَة"!. أتيتُ لكِ بما تطلبينَهُ دائِماً منِّيَ، لكِ ولأولادِيَ منكِ. "أوْقِيَّةٌ" (ربعُ كيلوجرام) من شحمِ الماعزِ و"كارعةٌ" (مفردُ "كوارع" وهي جزءُ الأمعاءِ الغليظةِ عندَ الخروفِ أو الشاةِ) عسى أنْ تستمتعينَ بأكْلِها ومعكِ كلُّ أنْجالِيَ!.

السّيدُ حمد: يا سيدَ "أبو طَلْهَلَة"، ما شاءَ اللهُ على هِمّتِكَ العاليةِ في الإنْجابِ. لكنْ وكما يقولُ المثلُ العاميُّ "لا يَموتُ الذئبُ ولا تُفنى الغنمُ" (مثلٌ شعبيٌّ يدعو إلى إتباعِ الحلِّ الأسلَمِ المُمكنِ قُبيلَ فواتِ الأوانِ)؛ يَحتاجُ الأمرُ إلى بعضِ التعقّلِ في النَّثْرِ والإنْجابِ والتكاثرِ.

السّيدُ "أبو طَلْهَلَة": ها ها ها ..... كَما لو كانَ هؤلاءِ السّتةُ والعشرونَ الذينَ أنْجَبْتُهُمْ من أربعِ نساءٍ حتى الآنَ هُمْ من صنعِيَ!؛ هؤلاءِ من صنعِ ربِّكَ، ربِّ هامانَ وفرعونَ!.

السّيدُ حمد: أرجوكَ يا أبوالزهو أنْ تستمعَ إلَيَّ قليلاً. في الوقتِ الذي نصرفُ معظمَ حياتِنا وجُهودِنا في مقارعةِ جلاوزةِ "القومبرادور" الأحْمقِ من التُّجّارِ والسَّماسرةِ؛ نواجهُ سيلاً متدفّقاً جارفاً من "البرجوازيينَ الصّغارِ Les Petits-Bourgeois

" حتّى لا نقدرَ أنْ نتنفّسَ بسببِ زيادةِ الحِمْلِ على رؤوسِنا، ما هذا البؤسُ المطبقُ من كلِّ جانبٍ علينا؟!.
أبوالزهـو: لا تكلّمـنِّ عـن هـؤلاءِ البرجـوازيّينَ الصّـغار "Les Petits-Bourgeois"؛ أعرفُ عنهُمْ أكثرَ منكَ!. قبلَ يومين فقط مَن عودتِكَ إلى البيتِ، حَمَلتُ ستَّةَ أولادٍ من سُلالةِ الوالدِ أبو جاسر وحَديَ وهُمْ بالاسْم: "فوفو"، "طولان"، "هَمْهَمَة"، "شولَة"، "شَقلوب"، و"سِمْسِمَة". حَمَلْتُ منهُمْ على جانبَيّ اثنين، وثلاثةٌ على الظهر، وجلسَ واحدٌ على رقبتِيَ ورأسِيَ. كان كلٌّ واحدٍ منهُمْ يَحملُ عصاً لَمْ يتوانَ فيها عن ضربِيَ على أيِّ مكانٍ من جسمِيَ تَمكَّنَ من الوصولِ إليهِ. ومن البيتِ إلى كرْمِ الأشجار، وبِكلِّ ما تَمكَّنتُ من سرعةٍ، ركَضْتُ بِهِمْ. أحسَسْتُ نَفْسِيَ أمامَهُمْ بأنّني أقلُّ منَ "بَعْرَةٍ" (بَعْرَةٌ هنا تعني روثَ الحيوانِ) حِمارٍ. العتابُ واللومُ على الكبارِ الذينَ لا يعلّمونَهُمُ الأدبَ والذوقَ حتى معَ أقربِ الخلقِ إليهِمْ وأكثرَهُمْ خدمةً وولاءً لَهُمْ. أكبرُ عتابيَ على الوالِدِ أبو جاسر.
السّيدُ حمد: لا تعتبْ على الوالِدِ أبو جاسر لأنّهُ يعزُّكَ ويَحترمُكَ أكثرَ من مُجملِ أولادهِ وأحفادهِ. فقط لا يعرفُ أنَّ الأولادَ قاموا بِذلكَ العملِ المهينِ عليكَ!.
أبوالزهو: أحسُّ حشرجةً بصدريَ وانقباضاً بعضلاتِ بطنِيَ السّفليةِ على حالِ السّيدةِ العزيزةِ "جُبَيْنَة". لولا أنَّ السّيدةَ "جُبَيْنَة" تستأهلُ ذلكَ لِجهلِها بأمورِ الحياةِ لَما حدثَ لَها مع السّيدِ "أبو طَلْهَلَة" ما يَحدثُ الآنَ. لنسرعْ الخُطى إلى بيتِنا وعبرَ نفسِ الدربِ الجبليِّ الوعرِ الذي سلكناهُ عندَ المَجيءِ إلى هنا، وفوراً اتّجهْ إلى مكانِ العودِ؛ أريدُ أنْ أريحَ أعصابيَ وأعيدَ قلبيَ إلى طبيعتهِ ... .
السّيدُ حمد: صدِّقْنِ يا رفيقِيَ أبوالزهو أنَّكَ من أكثرِ الخلقِ صلاحيةً لكبحِ جِماحِ الملمّاتِ. هذهِ لعيونِكَ أحلى أغاني طربِ الباديةِ، لَلشيخةِ سميرة بنت توفيقَ، العامريةِ!. .... دن دج دن ...... يا قلبيي مالك بدقاتك شغلت الروح؟!، دقة غريبة!! دج دج دج ... دقة غريبة! على بالي، تيجي وتروح! ... . أوحاسس بقلبي دقة ... دقة تدق تدق،.... أوقلبي ما بيشكي منها... لما الدقة تدق ... .
أبوالزهو: .... عندما أسْمعُ مثلَ هذه الأغاني فإنَّ أوّلَ شيءٍ أفكّرُ بهِ هو أنْ أقومَ بعملِ عرسٍ وأدعو فيهِ أولادَ "الديرة"، عُرسٌ على "كيف كيفك"!.
السّيدُ حمد: يا ما ساهَمَتْ مثلُ هذه الأغاني في إحداثِ أعراسٍ جَماعيةٍ لا طائلَ من ورائِها إلا الأنْجالَ وزيادةَ النّثرِ!.
أبوالزهو: آهٍ... تذكّرْتُ الآنَ حديثَكَ عن علاقتِكَ مع المسئولينَ في "جامعةِ الحكماءِ" والتي أشعرُ أنَّها رديئةٌ بسببِ ميولِكَ الفكريةِ الاشتراكيةِ والليبراليةِ المتهوّرةِ بعضَ الشيءِ. لكنْ يا صديقِيَ! إذا ما تريدُنِي أنْ أتوسَّطَ لديْهِم ليُحَسِّنوا علاقتَهُمْ معكَ، أنا على استعدادٍ لعملِ ذلكَ في أيِّ وقتٍ تشاءُ!.
السّيدُ حمد: وكيفَ سيتمُّ لكَ ذلكَ يا رفيقِيَ العزيزَ؟!...
أبوالزهو: كما تعرفُ فلقد كان أجدادِيَ متفانينَ في خدمةِ الأنبياءِ والرسلِ والصّالحينَ في أعمالِ الحقلِ والبيتِ والرواحِ والمَجيءِ، وللمسافاتِ القصيرةِ والطويلةِ. من الممكنِ أنْ نستغلَّ هذهِ السّمعةَ الطيبةَ لَهُمْ من أجلِ استدرارِ عطفِ المسئولينَ على حالِكَ وحالِيَ وحالِ الوالدِ أبو جاسر وبقيةِ الأهلِ. غيرُ معقولٍ أنّهُ انعدمَ الضميرُ الإنسانيُّ عندَ الجنسِ البشريِّ كلِّهِ!..

السّيدُ حمد: آه.... عليكَ يا صديقَ الروح!؛ أيها الصّديقُ الحقيقُ، على حدٍّ سواءَ ... وقتَ اليسرِ أو وقتَ الضيقِ. لكنْ أودُّ أنْ أخبرَكَ وبشكلٍ شبهِ دقيق، أنَّ هؤلاءِ الناسَ اليومَ أقربَ إلى البريق منهُ إلى أيِّ خالقٍ أو خليق. ليسَ كلُّ مَخلوقٍ يا أبوالزهو مثلَكَ عندَ الخطرِ أقربَ إلى الشقيقِ منهُ من أخٍ صاحبِ قلبٍ رقيق!. أنا وأنتَ نعيشُ في عالَمٍ، بالنسبَةِ لَهُمْ، يسيرُ في غيرِ طريقٍ...

ضياعُ لغةٍ أَمْ ضَياعُ أمَّةٍ

مَثَلُها كمَثَلِ أيّةِ لغةٍ أخرى ناضجةٍ وعظيمةٍ، اللغةُ العربيةُ الفصحى لَها قواعدُ وأصولٌ وأسسٌ تَجبُ مراعاتُها عندَ استعمالِها في الكتابةِ أو التكلمِ أو حتى عندَ النطقِ بكلمةٍ أو جُملةٍ منها، سِرّاً كانَ ذلكَ أمْ جهراً. هذه القواعدُ والأسسُ ضروريةٌ وحيويةٌ وحسّاسةٌ وحاسِمةٌ للحفاظِ على اللغةِ من الاندثارِ ومن ثَمَّ تطويرِها إلى درجاتٍ متقدّمةٍ لتلائمَ فروعَ العلومِ وفي القراءةِ والكتابةِ والتعبير. كذلكَ فهي أيْ اللغةُ الواحدةُ تُسَهِّلُ التعاملَ وتُوَحِّدُ الإطارَ المعمولَ بهِ للاتصالِ والتواصلِ بين أركانِ المُجتمعِ المُختلفةِ، المتباعدةِ والمتقاربةِ وعلى حدٍّ سواءَ.

في التاريخِ العربيِّ القديمِ والحديثِ، وكذلكَ في المستقبلِ!، هنالكَ مُحاولاتٌ يائسةٌ وبائسةٌ لتدميرِ اللغةِ العربيةِ، الفصحى بالذاتِ؛ تدميرُ قواعدِها والحطُّ من أصولِها بِحيثُ يَجعلُها مستقبلاً هرمةً وغيرَ قادرةٍ على مواكبةِ روحِ التطورِ العلميِّ والفكريِّ وفي مُختلفِ المَجالاتِ والميادين. بدأتْ أولى المُحاولاتِ الحديثةِ في مطلعِ القرنِ الماضي ونهايةِ القرنِ الذي سبقهُ عندما انتشرتْ مدارسُ التبشيرِ الثقافيةِ لِمُختلَفِ الدولِ الاستعماريةِ لتَغزوَ المنطقةَ. أقبلَ المواطنُ العربيُّ على "نَهْلِ" العلمِ والمعرفةِ! من تلكَ المدارسِ والتي انتشرتْ جغرافياً من المُحيطِ إلى الخليج. الهدفُ الأساسيُّ والنهائيُّ للمدارسِ التبشيريةِ الثقافيةِ هو نشرُ اللغةِ والثقافةِ الغريبتينِ

عن الديارِ. يتميَّزُ المُجتمعُ العربيُّ بضعفهِ الماديِّ والمعنويِّ والثقافيِّ والسّياسيِّ، لذلكَ ومنَ أجلِ حفنةٍ من العملةِ الصّعبةِ في معظمِ الأحيانِ فإنّهُ لَمْ يُمانعْ في استقبالِ تلكَ الثقافاتِ بما فيها من شوائبَ. النتيجةُ كانَت أنَّ عَلِيَّةَ! القومِ في بلادِ العربِ تركوا لغتَهُمْ الأصليةَ وأصبحوا يتغنونَ باللغاتِ الغريبةِ أمامَ نسائِهِمْ وأطفالِهِمْ. ما هي إلا فترةٌ قصيرةٌ من عمرِ الشعوبِ والزمنِ حتى أصبحتْ المدارسُ الخاصّةُ التبشيريةُ تنخرُ في جسمِ الثقافةِ العربيةِ كما السّوسةُ في جذعِ شجرةِ البلّوطِ المعمِّرةِ!. إذا ما يستمرُّ الحالُ على هذه الوتيرةِ سيصبحُ (أو أصبَحَ) وضعُ اللغةِ العربيةِ مثلَ وضعِ الجيفةِ تأكلُها الديدانُ الطفيليةُ من كلِّ مكانٍ وبشكلٍ وحشيٍّ.

حديثاً وفي المدارسِ العربيةِ، قلّصوا من مستوى متطلباتِ النجاحِ في امتحانِ اللغةِ العربيةِ؛ وفي المدارسِ التبشيريةِ الثقافيةِ الخاصّةِ لا توجدُ متطلباتٌ لاجتيازِ امتحانِ اللغةِ العربيةِ في الأصلِ. النجاحُ في لغةٍ كاللغةِ العربيةِ أصبحَ غيرَ ذا قيمةٍ في أوطانِ اللغةِ العربيةِ أنفسِها. تَمَّ اختيارُ مدرِّسي اللغةِ العربيةِ في المدارسِ الخاصّةِ ليناسبَ الهدفَ؛ هؤلاءِ قلَّ ما يستعملونَ اللغةَ العربيةَ الفصحى في صفوفِ التعليمِ للأولادِ عندَ القيامِ بشرحِ أيِّ شيءٍ مهما تَفُهَ أو كانَ ذا قيمةٍ ولو متواضعةٍ على أرضِ الواقعِ. يتلاهونَ بالحديثِ بمعسولِ الكلامِ أمامَ التلاميذِ مِمّا يَجعلُ الأخيرينَ يفقدونَ الثّقةَ باللغةِ العربيةِ الفُصحى، والتي يصبحُ التكلمُ بها فقط من بابِ التهريجِ المملِّ أو لإثارةِ نكتةٍ سخيفةٍ!.

في معظمِ الكلّياتِ الجامعيةِ في العالَمِ العربيِّ تَمَّ إلغاءُ التدريسِ باللغةِ العربيةِ، لا الفُصحى منها ولا العاميةَ المَحكيَّةَ. يأمَلُ المخطّطونَ العربُ من ذلكَ للدخولِ في عالَمِ "العصرنةِ والهاي-تك" من أوسعِ الأبوابِ عن طريقِ تبنّي لُغةٍ عصريةٍ! أخرى. حتى رؤساءُ أقسامِ اللغةِ العربيةِ في الجامعاتِ العربيةِ لا يتكلمونَ اللغةَ العربيةَ الفصحى ولئن سألتَهُمْ لِماذا ذلكَ؟ سيقولونَ، إنْ لَمْ يضعوا أصابعَهُمْ في آذانِهِمْ، إنّهُ المُجتمعُ كلُّهُ الذي لا يتكلّمُ تلكَ اللغةَ. وإذا ما حاولَ أحدُ هؤلاءِ الرؤساءِ التكلُّمَ باللغةِ الفصحى فما عليه إلا أنْ يقومَ بتوظيفِ أحدِ المتخصّصينَ الحقيقيينَ النادرِ وجودهِمْ في اللغةِ ليصحّحَ لهُ أخطاءَهُ الكُثرَ فيها. هنالكَ الأخطاءُ اللفظيةُ و"القواعديةُ" والنحويةُ والبلاغيةُ والصّرفيةُ والنُّطقيةُ وغيرُها. دكتورٌ في اللغةِ العربيةِ ينصبُ الفاعلَ ويرفعُ المفعولَ بهِ أثناءَ تَحدُّثهِ البطيءِ والسّريعِ بها. يَحتارُ ذلكَ الدكتورُ بينَ المفعولِ بهِ والمفعولِ فيهِ والمصدرِ والفعلِ والحالِ وظَرفِ الزمانِ والمكانِ والصّفةِ والمضافِ إليهِ والنعتِ. يَجهلُ "كانَ وإنَّ" وأخواتِهما وتطبيقاتِهِنَّ في الكلامِ العاديِّ وفي القراءةِ والكتابةِ. لا يصرفُ ذلكَ الدكتورُ منْ وقتِهِ القليلَ لتصحيحِ أخطائهِ وأخطاءِ تلامذتهِ طالَما أنَّ معاشَهُ واصلٌ إليهِ نهايةَ الشهرِ. القواميسُ الإلكترونيّةُ والمُخزّنةُ في الحواسيبِ لا تعرفُ التطوّرَ والتّحديثَ المَطلوبيْنِ من حينٍ لآخرَ بسببِ ضعفِ المُتابعةِ لأمورِ اللغةِ العربيةِ وشؤونِها علميّاً وفكريّاً وفي مُختلفِ المَجالاتِ من قِبَلِ المسؤولينَ.

تعتبرُ اللغتانِ الألمانيةُ والفرنسيةُ مثلاً من أصعبِ اللغاتِ اللاتينيةِ من حيثُ القواعدِ والقوانينِ اللّغويةِ وتصريفِ الكلماتِ والأفعالِ. إضافةً إلى ذلكَ فإنَّ اللغةَ الفرنسيةَ، على جَمالِها وروعتِها، من أصعبِ لغاتِ العالَمِ بالنسبةِ للنطقِ خاصةً للمبتدئينَ فيها؛ في الفرنسيةِ لغتانِ لغةُ الكتابةِ ولغةُ النطقِ أو المُحادثةِ!. إلاّ أنّهُ من الصّعوبةِ بمكانٍ أنْ تَجدَ طفلاً فرنسياً مثلاً من الذين يرتكبونَ أخطاءَ قواعدِ أو

أخطاءَ لفظٍ في اللغةِ عندَ التكلُّم بها، ذلكَ لأنَّ المُجتمعَ من حولهِ يتكلّمُ ويتقنُ قواعدَ وأصولَ اللغةِ تماماً وحتى دونَ دراستِها في المدرسةِ. الحالُ نفسُهُ بالنسبةِ للغةِ الصّينيةِ واليابانيةِ حيثُ يتعلّمُ الطفلُ من والديهِ والمُجتمعِ من حولهِ، وفي سنٍّ مبكّرةٍ جداً، اللغةَ السّليمةَ والصّحيحةَ تماماً عندَ النطقِ بها. الحالُ يَختلفُ في المُجتمعِ العربيِّ؛ من المستحيلِ أنْ يُسْمَعَ طفلٌ أو شابٌ أو رَجلٌ أو عجوزٌ أو كهلٌ ينطقُ جُملةً واحدةً كاملةً سليمةً وصحيحةً باللغةِ العربيةِ الفصحى.

إنَّ إهْمالَ قواعدِ اللغةِ، أيّةِ لغةٍ، وأصولِها يؤدّي حتماً إلى تقويضِها وإخراجِها السّريعِ من دائرةِ اللغاتِ المرموقةِ والحيةِ. اللغةُ العربيةُ تحتضرُ في وجودِها بسببِ تَخلّي أبنائِها عنها وتركِها فريسةً سهلةً لعدوِّها. على الواعينَ والحريصينَ في الأمةِ العملُ على بقاءِ ووقفِ اضمحلالِ وتقدمِ اللغةِ العربيةِ الفصحى وتبعاً لذلكَ اللغةِ العربيةِ الدارجةِ أو لغةِ الضادِ. تتعرّضُ الأمةُ لِخطرٍ خارجيٍّ داهمٍ يدعمُهُ خطرٌ داخليٌّ أكثرُ دهْماً من قِبَلِ فلولِ الرّعاعِ والمهزومينَ والمرتزقةِ والمأجورينَ، بكلِّ ما تحملُهُ تلكَ النعوتُ والكلماتُ منَ معانٍ. إنْ لَمْ ننهضْ باللغةِ العربيةِ الفصحى، فلنْ ننهضَ في أيِّ شيءٍ أبداً. إنَّ عبءَ أمانةِ حفظِ اللغةِ العربيةِ الفصحى من الضياعِ والاندثارِ ثقيلٌ جداً، على الجميعِ المشاركةُ في حَمْلِ ذلكَ العبءِ.

إنَّ طرقَ تدريسِ اللغةِ العربيةِ الفُصحى لا يتمَشّى مع التطوّرِ والحداثةِ. يزيدُ الأمرُ سوءاً إنْ حاولَ أحدُهُمْ إتباعَ الأساليبِ القديمةِ في التعاملِ مع ما هو حديثٌ ومستحدثٌ ومتجدّدٌ. عمليةُ تطويرِ وترميمِ اللغةِ العربيةِ في عقولِ وعلى ألسنةِ الناطقينَ يَجبُ أنْ تكونَ عمليةً كاملةً ومتكاملةً ومنسجمةً مع بعضِها. يَجبُ أنْ تكونَ واسعةً ومُمتدّةً وتشملُ كافةَ مناحي الحياةِ العلميةِ والأدبيةِ والفكريةِ والنفسيةِ والسّياسيةِ والفلسفيةِ والفنيةِ وغيرِها الكثيرِ؛ يكمنُ العملُ الحقيقيُّ الجادُّ في التفاصيلِ!. على كافةِ شرائحِ المُجتمعِ المَشاركةُ فيها بدءاً من حِضْنِ الأمِّ إلى براعمِ رياضِ الأطفالِ إلى المدارسِ والجامعاتِ وبالتوازي مع بعضِها البعضِ. على العلماءِ والسّياسيينَ والاجتماعيينَ والمفكّرينَ والعمالِ والحرفيينَ وعمّالِ المطاعمِ وأفرادِ الجيشِ والشرطةِ .... أنْ يشتركوا في تغييرِ وجهةِ نظرِ المُجتمعِ العربيِّ اتّجاهَ اللغةِ العربيةِ الفصحى. اللغةُ العربيةُ الفُصحى كَنْزٌ كبيرٌ وحيويٌّ وعظيمٌ تَجبُ المُحافظةُ عليهِ واستخدامُهُ وتطويرُهُ. لا يُمكنُ للّكناتِ المَحلّيةِ أنْ تَحُلَّ مَحلَّ اللغةِ العربيةِ الفُصحى حتى في التعاملِ المتدنّي المستوى في الأماكنِ العامةِ.

أرادَ الأطباءُ في وزارةِ الصّحةِ رفْعَ كتابٍ إلى معالي الوزيرِ يطالبونَهُ فيها بزيادةِ أجورِهِمْ. احتاجَ الأمرُ ثلاثةَ أيامٍ قَبلَ أنْ يتفقوا على صيغةٍ لغويةٍ مقبولةٍ لديهِمْ ومصحَّحةٍ ومدقّقةٍ من مدرسِ اللغةِ العربيةِ المخضرمِ. وصلتْ الرسالةُ المكونةُ من عدَّةِ أسطرٍ إلى معالي الوزيرِ المذكورِ ليقرأَ فيها "نطالب نحن الموقعين أدناه .... !". ردَّ عليهِمُ معالي الوزيرِ بعَدَ أسبوعَينِ من تلقيهِ كتابَهمْ الأوّلَ وكتبَ "أنا الموقعُ أدناه ....". كانَ هنالكَ عددٌ من الأخطاءِ اللغويةِ وأخطاءِ القواعدِ والتنقيطِ وترتيبِ الجُملِ المنطقيِّ على الرغمِ من قِصَرِ الرسالتينِ في الطولِ ومضمونِ الكلامِ. في مكانٍ آخرَ من نفسِ الوزارةِ طلبَ مديرُ دائرةِ الطبِّ الوقائيِّ من موظفي دائرَتهِ كتابةَ رسالةٍ لا تتجاوزُ ثُلثَ الصّفحةِ عن حالةِ مريضٍ كان يعاني من مرضٍ مُعْدٍ. اجتمعَ جُلُّ موظفي الدائرةِ لكتابةِ تلكَ الرسالةِ. بعَدَ أكثرَ من ثلاثِ

ساعاتٍ من التداولِ والنقاشِ فيما بينَهُمْ لَمْ يتمكَّنْ ذلكَ الطاقَمُ من كتابةِ رسالةٍ لا بالفُصحى ولا بالعاميةِ ولا بالأجنبيةِ تُلبّي المطلوبَ. أخيراً قرّروا إرسالَ تلكَ الرسالةِ بأخطائِها وعلى عِلَلِها عن حالةِ المريضِ الذي أوصوا بترحيلِهِ إلى مكانٍ آخرَ في العالَمِ أكثرَ ملاءمةً لِحالتهِ الصّحيةِ والنفسيّةِ!. إذا ما كانت تلكَ الرسائلُ صعبةً عليهِمْ فكيفَ يكونُ الحالُ في الرسائلِ الطويلةِ والتقاريرِ والأبْحاثِ؟!. كيف تتحملُ وزارةُ الصّحةِ في دولةٍ عربيةٍ عريقةٍ أنْ تَحويَ أفراداً ومسئولينَ لا يتقنونَ لغتَهُمْ الوطنيةَ ولا اللغةَ العلميةَ التي يتظاهرونَ ويتباهونَ بأنَّهُمْ يعرفونَها جيداً. الأمرُ ينسحبُ على كافةِ الوزاراتِ وفروعِها المنتشرةِ في كافةِ أنْحاءِ الدولةِ. كما يبدو فإنّهُ أصبحَ لزاماً على المؤسّساتِ العربيةِ، العامّةِ والخاصّةِ، أنْ تُخضعَ المتقدّمينَ للعملِ فيها من العربِ لامتحانٍ باللغةِ العربيةِ نُطقاً وحديثاً وكتابةً وقراءةً. إلّا أنّهُ وكما يظلّونَ يقولونَ أنَّ "على المرءِ أنْ لا يفقدَ الأملَ في المستقبلِ"!.

يُدَرِّسُ السّيدُ حمد في "جامعةِ الحكماءِ"، وقبلَها دَرَسَ ودَرَّسَ في مدارسَ وجامعاتٍ عدّةٍ . كان على المسئولينَ في الجامعةِ كتابةُ خطّةِ الجامعةِ الطويلةِ المدى على ورقٍ (حوالَيْ عشرَ صفحاتٍ) لتوزيعِها فيما بعدُ على من يهمُّهُ الأمرُ! ووضْعِ نُسَخٍ منها في الأرشيفِ. لَمْ يتمكَّنْ العاملونَ في ذلكَ المَجالِ إنْجازَ ذلكَ المشروعِ باللغةِ العربيةِ الفُصحى. اضطُرَّ المسئولونَ إلى ترجَمةِ الصّيغةِ الأجنبيةِ للخطّةِ، حرفاً بحرفٍ وجُملةً بجملةٍ وخطأً بأخطاءَ، والتي كانَ أحدُ الأجانبِ في الجامعةِ من حَمَلةِ درجةِ البكالوريوس قد قامَ بكتابتِها لَهُمْ. كالعادةِ والطبيعيِّ لَمْ تَفِ الترجَمةُ بالمطلوبِ!. إنَّ ذلكَ يعني أنَّ اللغةَ العربيةَ الفصحى تتعرّضُ للإهمالِ والإضاعةِ من قِبَلِ النخبةِ التي كانَ من المفترضِ فيها أنْ تقودَ عمليةَ الحرصِ على سلامةِ وتطويرِ اللغةِ العربيةِ الفُصحى.

"هيما": أخِيَ حمد! لقد ذهبتُ بالأمسِ إلى المدينةِ وأحضرتُ لكَ معِيَ مَجموعةً من اللوحاتِ والبراويز. اخترتُها كلَّها من اللغةِ العربيةِ الفُصحى ومن اللاتي تُعَلَّقُ على صدورِ الحوائطِ وفي المقدّماتِ في البيوتِ والدكاكينِ ومَحلاتِ البقالةِ ومدارسِ تعليمِ قيادةِ السّياراتِ، وعلى سطوحِ ورفوفِ السّياراتِ وفي العياداتِ الطبيةِ وطبِّ الأسنانِ الخاصّةِ بحيثُ يسهلُ على الزبائنِ والزائرينَ قراءتَها.

"فَلْحَة": إنَّها لَتَشكيلةٌ جَميلةٌ، لنبدأْ بتَعليقِها على الحيطانِ وفي أركانِ البيتِ الصّغير. لنقرأْها أولاً!. "يا ناظري نظرةً حسدْ أشكيكَ لواحدٍ أحدْ"، "عينُ الحاسدْ تُبلى بالْعَمى"، "الحسودْ لا يسودْ"، "العينْ البصّاصة تُبلى برصاصة"، "قلبُ الأم زهرةٌ لا تذبُلُ"، "يا ليلْ يا عينْ"، "سارحةٌ والرَّبْ راعيها"، "إذا كانَ الكلام من فضة فالسّكوت من ذهب"، "للهِ درّ الحسد ما أعدله بدأ بصاحبِه فقتلَه"، "إصبرْ على كيدِ الحسودْ فإن صبرَك قاتلُه... فالنار تأكل بعضها إنْ لَمْ تَجد ما تأكُله"، "الناكرْ لأصله لا أصل له"، "حسيبكْ للزمنْ"، "الصّبرْ طيبْ"، "الأدبُ خيرٌ من الذّهبِ"، "لو دامتْ (الأموال) لغيركْ ما تصلت (وصلت) إليك"، "الجمالْ في عيونِ ناظرِهِ"، ....

السّيدُ حمد: يا سيدَا! "هيما"، وكَمْ صرفتَ من المالِ لشراءِ هذهِ التشكيلةِ الكبيرةِ التي تصلحُ لأنْ تأخذَ جناحاً مناسباً في معرضٍ فولكلوريٍّ (فنّيٍّ شعبيٍّ) متميّزٍ؟!.

"هيما": لا عليكَ بالأموالِ! المصروفةِ يا هذا، المهمُّ أنْ تكونَ راضياً عنها وعسى أنْ تلبِّيَ التشكيلةُ هذهِ بعضاً من طموحِكَ في تقديمِ شيءٍ متميِّزٍ لإظهارِ اللغةِ العربيةِ الفُصحى المَجيدةِ بالشكلِ الذي يليقُ بمقامِها الكبيرِ العظيمِ!.

أبوالزهو: كذلكَ قمتُ بعملِ جناحٍ خاصٍّ من وحيِ تعاليمِكَ لِيَ وقراءاتِكَ المتعددةِ عليَّ يا صديقِيَ. لا أخفي عليكَ أنَّنِي تلقيتُ بعضَ العونِ من الوالدِ أبو جاسرٍ والوالدةِ أم جاسر والأختِ "كاملة" أثناءَ فترةِ قيلولةِ الظهيرةِ عندِيَ قبلَ بضعةِ أيام.

أبو جاسر: لنذهبْ جَميعاً ولنقرأْ بعضاً من لوحاتِ أبوالزهو والذي قامَ بعملٍ وجهدٍ لا بأسَ عليهما في ذلكَ. "أنا اللُّغة العربيَّة الفُصحى... أينَ أنتمُ يا أولادِيَ!؟.. أين أنتُنَّ يا بناتِيَ؟!"، "أنا البحرُ! في أحشائهِ الدُّرُّ كامنٌ فهلْ ساءلوا الغوّاصَ عن صدفاتِيَ!؟"، "أنا العربيَّةُ الفصحى التي سُطِرتْ من أحرُفٍ منّيَ أولى وأنصعُ الكلماتِ في أُسُسِ عِلْمِ الكونِ والحياةِ"، "أنا العربيَّةُ الفصحى لا أخشى على نفسِيَ بلْ أخشى عليكُمْ أنتُمْ من الضّياعِ تَحْتَ وبينَ نعالِ وحوشِ الحضاراتِ!"، "أنا اللُّغةُ العربيَّةُ الفُصحى عنفوانُ المَجدِ ومَجْدُ العنفوانِ في كلِّ مَيدانٍ"، "أنا اللغةُ العربيةُ الفُصحى لن أكونَ لغةَ مَجدٍ إنْ لَمْ أكُنْ فُصحىً".

"فَلْحَة": هذهِ الشعاراتُ مأخوذةٌ من الكلمةِ الخِطابيةِ التي ألقيتُها قبلَ سنينٍ في مهرجانِ مدارسِ إناثِ المدينةِ. لقد قامَ بسردِها من تلكَ الورقةِ التي ألقيتُ بِها هنا في البيتِ بعدَ إلقائِها في جُمهورِ المهرجانِ الحاشدِ؛ أو أنّهُ التقطَها بسمعهِ أثناءَ تدرُّبِيَ المتكرّرِ على إلقائِها أمامَكُمْ قبلَ عملِ ذلكَ أمامَ الجمهورِ في المهرجانِ!.

أبوالزهو: يا أختَنا "فَلْحَة"! تعرفين أنَّنِي أكتبُ ولا أقرأُ. لقد تركتُ لكِ القراءةَ ولِمنْ يعشقُ جَمْعَ الكتبِ. أنا فقط أكتبُ، ولِيَ جُمهورٌ لا بأسَ عليهِ الآنَ من القرّاءِ!. كذلكَ لا أسرقُ أفكارَ غيرِيَ، فقط يطيبُ لِيَ تكرارَ ما أراهُ منطقياً ومناسباً. في النهايةِ لا فرقَ بينِيَ وبينَ صَديقِ عمرِيَ ورفيقِ دربِيَ الطويلِ حمد.

السّيدُ حمد: ألاحظُ أنَّكَ يا أبوالزهو لَمْ تترُكْ حرفاً في كلمةٍ إلا وأعطيتَهُ نَصيبَهُ من التشكيلِ. ما شاءَ اللهُ عليكَ، من أين لكَ هذهِ القدرةُ الإبداعيةُ!؟. بالذاتِ، إنَّ لديكَ طريقةً مبتكرةً في استعمالِ علاماتِ "الشَّدَّةِ" على الحروفِ.

أبوالزهو: لقد وضعتُ علاماتِ "الشّدّةِ" على الحروفِ من كومٍ من "حذاءِ الفرس" المستهلَكةِ التي تراكمتْ عندَ جارنا الكادح المواظبِ، السّيدِ "أَبُو زَعْتَرَة"، من جرّاءِ العملِ مع حَميرِهِ وخيولِهِ في الحقولِ ولفترةٍ طويلةٍ من الزمنِ. لقد أعطانا تلكَ الكميةَ من "أحذيةِ الفرَس" إكراماً للصداقةِ التي تربطُ بينَنا وبينَهُ، ولاستعمالِ "أحذيةِ الفرَس" المستعملةِ في مآربَ خاصةٍ بنا، على حدِّ تعبيرِهِ!.

السّيدُ حمد: وماذا بشأنِ الخطوطِ الطويلةِ تَحْتَ بعضِ السّطورِ والكلماتِ؟!.

أبوالزهو: لقد ساعدنِيَ في رسمِ تلكَ الخطوطِ الوالدُ أبو جاسر لقدرتهِ وخبرتهِ الكبيرةِ والطويلةِ على رسمِ "ثَلْمٍ" طويلٍ شديدِ الاستقامةِ باستعمالِ محراثِنا البلديِّ. ("ثَلْمٌ" هو الحفرةُ الطويلةُ المستقيمةُ التي تنتجُ عن شَقِّ المحراثِ البلديِّ للأرضِ، في الذهابِ أو الإيابِ).

السّيدُ حمد: المِحراثُ يُحدِثُ في الأرضِ "ثَلْماً" وتُحدِثُ يا صديقِيَ فتحاتٍ واسعةٍ في قريحتِيَ الشعريةِ والفنيةِ، وتلهبُها ناراً من إيحاءاتِكَ التجريديةِ الفنيةِ.

أبوالزهو: وهذا الذي دائماً أَلْحظُهُ فيكَ. ما تكادُ تَحطُّ رحالَكَ عندما تراني حتى تبدأَ بإغراقِ المكانِ بأطيبِ وأعذبِ الألْحانِ الأصيلةِ.
السّيدُ حمد: ولأجلِ عينيْكَ الجميلتينِ يا أبوالزهو، وتكريماً لكَ على جهودِكَ للحفاظِ على مكانةِ اللغةِ العربيةِ الفُصحى في المُجتمعِ، ولِجميعِ من حولَنا في المكانِ أمتعَ الألْحانِ. مع أغنيةِ الشيخِ "مارسيل خليفة" وكلماتِ ابنِ اللغةِ العربيةِ الفُصحى البارِّ الشيخَ "محمود درويشَ"... بينَ "ريتا" وعيونِيَ بندقيةٌ، والذي يعرفُ "ريتا" ينحنيَ ويصلّي لإلهٍ في العيونِ العسليةِ! .... وأنا قَبَّلتُ "ريتا" عندَما كانت صغيرةً، وأنا أذكرُ "ريتا" مثلَما يذكرُ عصفورٌ غديرَهُ .... آه "ريتا".... بينَنا مليونُ عصفورٍ وصورةٍ ومواعيدُ كثيرةٌ، أطلقتْ ناراً عليها بندقيةٌ .... آه "ريتا"... اسمُ "ريتا" كان عيداً في فمِيَ، جسمُ "ريتا" كانَ عرساً في دمِيَ .... وأنا ضعتُ بِ"ريتا" سنتيْنِ وهي نامتْ فوقَ زنديَ سنتيْنِ، وتعاهدْنا على أجْملَ كاسٍ، واحترقْنا بنبيذِ الشفتينِ، ووُلدنا مرّتيْنِ .... آه "ريتا".... ... أيُّ شيءٍ ردَّ عنْ عينيْكِ عينَيَّ؟! سوى إغفاءتانِ وعيونٌ عسليةٌ، قبْلها هذهِ البندقيةُ ... ... كانَ يا ما كانَ! يا صمتَ العشيةِ قمَريَ هاجرَ في الصّبحِ البعيدِ ... في العيونِ العسليةِ.
سرحان: كلُّ جُملةٍ من هذهِ الأغنيةِ تصلحُ لعمَلِ بروازٍ حولَها قبلَ تعليقِها في مكانٍ مناسبٍ لَها في البيتِ وفي أيِّ مكانٍ آخرَ.
أبوالزهو: ليستْ اللغةُ شعاراتٍ لعملِ البراويزِ ... خُلِقَتْ اللغةُ للعملِ بِها!.

التعسّفُ ضدَّ الحميرِ

لَمْ ينجُ من بطشِ سلطاتِ الاحتلالِ وإجراءاتِهِ التعسفيةِ القمعيةِ المبرمَجةِ أيُّ شيءٍ خاضعٍ للاحتلالِ. لقد استخدمَ الاحتلالُ أسلوبَ الحصارِ المُحكمِ على

المدنيينَ ولِمدّةٍ طويلةٍ. استخدمَ أسلوبَ تدمير المزارع والأشجار المثمرةِ بالنار والآلاتِ المدمِّرةِ. ذهبَ الاحتلالُ إلى أسلوبِ حرمانِ الناسِ من المياهِ الصّالِحةِ للاستعمالِ. استخدمَ الاحتلالُ الموادَّ الكيماويةَ ضدَّ طالباتِ وطلابِ المدارسِ الصّغار والتي كانَتْ لَها آثارٌ صحيةٌ سلبيةٌ على الأنشطةِ التناسليةِ لديْهِمْ. ثُمَّ استخدمَ الاحتلالُ أنواعاً ضارةً من الصّراصيرِ التي تُهاجِمُ البيوتَ والمزارعَ لتحوّلَ حياةَ البشر هناكَ إلى أشبهَ ما تكونُ حالةَ صراعٍ دائمٍ مع الحشراتِ. (أحدُ ابتكاراتِ الاحتلالِ في مَجالِ حربِ الحشراتِ هو نشرُ نوعٍ منَ الصّراصيرِ الطائرةِ في أنْحاءَ مُختلفةٍ من المناطقِ المُحتلةِ. يُعْرَفُ ذلكَ الصّرصورُ مَحلياً بِاسْمِ "أبو مِقْرفْ"، والذي ما أنْ يقومَ الفلاحُ بقتلهِ باليدِ حتى يصدرَ منهُ على الفورِ رائحةٌ كريهةٌ "مُقْرِفَةٌ" تسبِّبُ شبهَ ضيقٍ في التنفّسِ). قائمةُ الأساليبِ المستخدمةِ تطولُ وتطولُ وتظلُّ تطولُ. كلُّ إجراءٍ منْ إجراءاتِ الاحتلالِ يثيرُ في النفسِ الاشْمئزازَ والتقزّزَ الدائمَ ويَخلقُ حالةً من الرعبِ والتحسُّبِ الدائمِ لِما هو أسوأُ قادِمٌ؛ كلُّ ذلكَ على جسدِ وروحِ ذلكَ الشعبِ الضحيةِ المسكينِ الأعزلِ مِن أيِّ سلاحٍ...

السّاعةَ الخامسةَ صباحاً أعلنَ جيشُ الاحتلالِ حظْرَ التجوالِ على القريةِ وحتى إشعارٍ آخرَ. على كلِّ الرجالِ البالغةِ أعمارُهُمْ فوقَ سنِّ الخامسةَ عشرةَ التوجّهُ إلى سَهلٍ يقعُ غربيَّ القريةِ وعلى بعدِ حوالَيْ الكيلومترينِ منها. على كلِّ من يَمتلكُ حِماراً، أو أكثرَ، أو جرّاراً زراعياً أنْ يأتِيَ بهِ إلى ذلكَ السّهلِ. خلالَ ثلاثِ ساعاتٍ تقريباً كان رجالُ القريةِ وحَميرُها وجراراتُها الزراعيةُ مَخلوطينَ ومُختلطينَ في ذلكَ السّهلِ الكبيرِ والمكشوفِ؛ أعدادٌ من الحميرِ وعشراتٌ من الرجالِ وبضعُ جرّاراتٍ زراعيةٍ. عُرِفَ من الرجالِ "أبو نمرة"، أبو فهيد"، "أبو السّبعات"، "أبو العبد"، "أبو حِرزين"، "مريطول"، "أبو العز"، "أبو طليحة"، "أبو عين"، ....!. ومن الشبابِ عُرِفَ "شادي"، "فادي"، "راني"، "سامي"، "عِذّاب"، "لطيف"، "زوزو"، "بدران"، "ناموس"، "ساهر" ...!. ومن الحميرِ الذكورِ البالغةِ تَمَّ التعرفُ على "أبو سرور"، "أبو زهور"، "أبو شَمَصْ"، "أبو الهَول"، "أبو مِرعب"، "أبو طَحْش"، "أبو بَحْش"، "شاهول"، "شُوطير"، "خورباطشوف" ...!. وكذلكَ عُرِفَ من الحميرِ الإناثِ، الأتاناتِ، "ثلجة"، "خزمة"، "أم طربة"، "أم امليس"، "أم حياصتين"، "مدامو" ...!!. ومن "الأتاناتِ" الصّغيراتِ في العمرِ "ترتشية"، "مرحبا"، "كلوفية"، "طرطوتشة"، "كاندي" ....!. ومن الصّغارِ الحميرِ الذكورِ (الأكْرارِ جَمعُ "كُرٍّ") كان موجوداً "صالوح"، "رابوح"، "طيب"، "سبلول"، "زليحة"، "كابتن حلاوة"، "شامصلي" ...!، وغيرَهُمْ أعدادٌ أخرى. يشرفُ على تنظيمِهِمْ وترتيبِهِمْ وإذلالِهِمْ وإهانتِهِمْ الآنَ عشراتٌ من ضباطِ وجنودِ الاحتلالِ بآلياتِهِمْ وبنادقِهِمْ. وفي انتظارِ بدءِ مراسمِ عملِ جنودِ الاحتلالِ، سُجِّلَت بَعضُ المواقفِ والخُطَبِ، أهَمُّها......

السّيدُ حمد: قبلَ أنْ يأتيَنا العدوُّ لتعدادِنا والتحقُّقِ من هويّاتِنا وأعمالِنا أريدُ أنْ أخبرَكُمْ أنتُمُ الحاضرينَ جَميعاً، بشراً كنتُمْ أمْ حَميراً، ذكوراً كنتُمْ أمْ إناثاً، شباباً كنتُمْ أمْ شيباً ....؛ أنَّ شعباً أو أمةً يتحكّمُ "الفيتو" بوجودِها ومستقبلِ أجيالِها وكيانِها هي أمةٌ أو شعوبٌ عليها أنْ لا تستمرَّ في العيشِ العبثيِّ كالذي نَحْنُ فيهِ الآنَ وفيما بعدُ.

الحمارُ "شاخول": من أجلِ ذلكَ يقومُ الاحتلالُ بتطبيقِ مفهوم هذهِ الفكرةِ على أرضِ الواقعِ وبأدقِّ التفاصيلِ ... "أتا يوديع؟! كين ناخون؟!". (كلماتٌ من قاموسِ الاحتلالِ تعني بالعربيةِ: "أنتَ تفهمُ؟! أيوى؟ (نعم) مضبوطٌ؟!.")
أبوالزهو: يا صديقِيَ حمد لا تقلْ ما قلتَهُ علناً!. هل تفكِّرُ نفسَكَ في مهرجانِ الموسيقى والأغاني في إحدى المدنِ الأثريةِ أو في ساحةِ "الهايد بارك" عندَ أصدقاءِ والدتِيَ وأحبائِها؟!. الآنَ نُحاوِلُ أنْ ننجوَ بأنفسِنا من إجراءاتٍ عنصريةٍ مذلَّةٍ، كُفَّ عن هذا الخطابِ الأحمقِ فوراً.
ضابطُ المخابراتِ (الكولونيلُ طبراخْرة): لقد بلغَ إلى مسامعِنا في "الكيادة" (القيادةِ) أنَّكُمْ تُحاولونَ استخدامَ الحميرِ في "الكرية" (القريةِ)، لِلالتفافِ حولَ "الكوانين" (القوانينِ) التي وُضِعَتْ للحدِّ من النشاطِ الزراعيِّ للقريةِ. لذلكَ "كررنا" (قرَّرنا) حرمانَكُمْ حتى من استخدامِ هذهِ الطريقةِ الغبيةِ السّاذجةِ والتي حتى الحميرُ تعرفُ أنَّها غبيةٌ!.
السّيدُ حمد: ليست كلُّ الحميرِ يا حضرةَ الضابطِ "طبراخرة" تفكِّرُ مثلَما "تفكِّرُ". شخصياً لَمْ أرَ بينَ حَميرِ القريةِ من وصلَ إلى ذلكَ المستوى من التفكيرِ. كلُّ الحميرِ متعاونةٌ معنا للالتفافِ حولَ القوانينِ "الذكيةِ" التي تُجهدونَ أنفسَكُمْ بالتفكيرِ فيها والتي صُمِّمتْ حتى لضربِ الثروةِ الحيوانيةِ الصّغيرةِ في البلادِ والتي تشكّلُ الحميرُ العاملةُ جزءاً أساسياً منها.
أبوالزهو: يا صديقِيَ، لا تُطِلْ الكلامَ مع هذا الضابطِ، نريدُ أنْ نتَّقِيَ شرَّهُ!.
الكولونيلُ "طبراخْرة": والآنَ على كلِّ واحدٍ من الحميرِ والبشرِ أنْ يتقدَّمَ إلى مكانِ ومنصةِ تَجَمُّعِ الجنودِ وليظهرْ إثباتاتهِ الشخصيةَ، من هويةٍ وغيرِها، للتحققِ من أسْمائِكُمْ وأعمالِكُمْ.
اصطفَّ الناسُ والحميرُ على الدَّوْرِ أمامَ منصةٍ صغيرةٍ نصبَها جنودُ الاحتلالِ. كانَ معهُمْ من ضباطِ مُخابراتِهِمْ من كانَ يُمسكُ بقوائمَ مسجلةٍ فيها أسْماءُ مطلوبينَ ومشبوهينَ ومن أصحابِ السّوابقِ لديهِمْ!، وأسْماءُ حتى الذينَ لَمْ تكنْ لَهُمْ أعمالٌ ضدَّهُمْ.
ضابطُ شرطةٍ (الكابتن شلوحوه بن قلعاط): أنتَ! اسْمُكَ أبوالزهو، من هو ولِيُّ أمركَ ومن أيِّ عائلةٍ أنتَ؟!.
أبوالزهو: اسْمِيَ أبوالزهو، حمد صديقِيَ ونَحْنُ دائماً مع بعضٍ، هو ولِيُّ أمرِيَ وأنا ولِيُّ أمرِهِ!. كلّنا تَجمعُنا عائلةُ الوالدِ أبو جاسر، وهو أيْ أبو جاسر موجودٌ عندَ آخرِ الطابورِ الذي نقفُ فيهِ!.
الكابتنُ "شلوحوه": أريدُ إثباتاً مكتوباً على الورقِ؛ شهادةُ ولادةٍ، إخراجُ قيدٍ، ورقةٌ من مُختارٍ، .... شيءٌ من هذا القبيلِ أو ذاكَ.
أبوالزهو: يوجدُ معِيَ شهادةُ ولادةٍ، دائماً أحْمِلُها معِيَ للمرورِ عبرَ الحواجزِ وإذا ما صادفتُ حظرَ تجوالٍ في منطقةٍ ما. وأحضرتُ معِيَ للاحتياطِ كذلكَ شهادةَ "استئصالِ للخصيِّ" موقّعةٍ من رئاسةِ رابطةِ "البيطريّينَ المُخضرمينَ" في المنطقةِ ومختارِ القريةِ. كذلكَ، ومن بابِ الاحتياطِ أيضاً، أحضرتُ معِيَ بطاقةَ تعريفٍ بِيَ صادرةً عنْ نقابةِ "أشهرِ الحمّالينَ المهمّينَ" (VIPs) في المنطقةِ. لكَ أنْ تختارَ أيَّ الوثائقِ ممّا يناسبُكَ. شهادةُ الولادةِ ضروريةٌ لِيَ عندَ زيارةِ أحدِ أفرادِ العائلةِ ممّن يسكنُ أو تسكنُ في قريةٍ أخرى قد تكونُ مُجاورةً أو بعيدةً قليلاً.

الكابتن "شلوحوه": هاتِ شهادةَ ولادتِكَ لأراها .. ...!... آه.... آه...... "أوكيه"!. تفضَّلْ أنتَ ومن معكَ!، اذهبا ولا تعودا إلى هذا المكانِ مرَّةً أخرى. حتى لو استُدْعيتُما لإحدى دوائر الأمنِ أو فُرِضَ على القريةِ نظامُ حظْرِ التجوالِ، أو حتى لو اضطررتُما للمرور عبْرَ "مَدسوم" ("مَدسوم" كلمةٌ مشئومةٌ جداً من قاموسِ الاحتلالِ تعني بالعَربيةِ حاجزاً أمنيّاً). أنتُما مُعْفيانِ من الرضوخِ لأيَّةِ إجراءاتٍ أمنيةٍ، صغيرةً كانتْ أمْ كبيرةً ... لا تقلقا على أيِّ شيءٍ!؟.
السّيدُ حمد: أبوالزهو!! ما الذي جرى؟. أنتَ الآنَ! وأنا، عوفينا من إجراءاتِ منْعِ التجوالِ والتجمُّعِ في ساحةٍ تَجمعُ الحميرَ والبشرَ والآلاتِ الزراعيةَ!؟...
أبوالزهو: لقد قدّمتُ لهُ شهادةَ ولادةٍ ليَ فيها بعضُ المعلوماتِ المزيَّفةِ!. معلوماتٌ مزيفةٌ عن اسْمِ أمِّيَ (والدتِيَ)، والتي كما يبدو، ما أنْ رآها الضابطُ المسئولُ حتى اتّخذَ ذلكَ القرارَ الذي سهّلَ علينا الكثيرَ، الآنَ! وفيما يتبعُ لاحقاً. قلتُ لكَ أنّهُ أثناءَ وجودِنا تَحْتَ الاحتلالِ عرفتُ الكثيرَ من أسرارِهِمْ ونواياهُمْ وكيفيةِ التعاملِ معهُمْ؛ هذه هي أنْجعُ الطرقِ للتعاملِ معهُمْ!. لستُ مثلَكَ تُبَذِّرُ حياتَكَ في مدارسَ وجامعاتٍ لَمْ تؤهِّلْكَ للتمكّنِ منَ الإفلاتِ من موقفٍ يُجمَعُ فيهِ الناسُ والحميرُ معاً ويُعامَلُ كلُّ طرفٍ على أساسِ أنّهُ الطرفُ الآخرُ. عليكَ أنْ تستعملَ عقلكَ قليلاً! يا أبو الفهم!.
السّيدُ حمد: هلْ تسمحُ لِيَ أنْ أعرفَ ماذا عملتَ بالضبطِ؟!، حتى أستفيدَ من عبقريتِكَ إذا ما كانَ هنالكَ من مَجالٍ للاستفادةِ منها!.
أبوالزهو: لقد غيَّرتُ اسْمَ والدتِيَ من "راكلي"، إلى "راكيل"!؛ مُجرَّدَ تبديلِ حرفٍ مكانَ حرفٍ آخرَ. لكنْ إيّاكَ يا صديقِيَ أنْ يعرفَ بذلكَ أحدٌ. ذلكَ لأنَّ دائرةَ إصدارِ شهاداتِ الولادةِ في المدينةِ، وبالتعاونِ مع شرطةِ المدينةِ، يُمكنُ أنْ يضعونَني في السّجنِ بعدَ سحبِ شهادةِ الولادةِ منِّيَ. هذه هي أهمُّ وسيلةِ تعريفٍ لدَيَّ. لا أريدُ أنْ أصبحَ دونَ قيدٍ أو إثباتِ هويةٍ من جديدٍ. لقد تعبتُ كثيراً حتى استخرجتُها من الدائرةِ الرسْميةِ. أضعتُ أكثرَ من ستةِ (٦) سنينٍ من الانتظارِ والواسطةِ ودفعِ الإكرامياتِ والقيامِ بخدماتٍ للتافهِ قبلَ المُحترمِ!. أعني يا صديقِيَ العزيزَ، أنتَ وضميرُكَ!؟.
السّيدُ حمد: ولكنَّكَ يا صديقِيَ!، لِماذا قرّرتَ التخلِّيَ عن عائلتِنا؟!. نَحْنُ أهلُكَ ولطالَما كُنّا فخورينَ بكَ وبوجودِكَ معنا. أنت عندَنا بطلٌ وقائدٌ ورائدٌ وفيلسوفٌ وحكيمٌ. ثُمَّ إنّهُ لطالَما غيَّرْتَ اسْمَ أمِّكَ كان بمقدورِكَ اختيارُ اسْمٍ أرقى قليلاً بدلاً عن "راكيل"؛ كان بمقدورِكَ اختيارُ اسْم "راكيل ويلْش Rachel Welsch"، أو أنَّكَ لا تريدُ التقرُّبَ من "راكيل ويلش"!؟. إنَّها مُمثِّلةٌ جذابةٌ وعيونُ كلِّ العالَمِ عليْها!.
أبوالزهو: لا تسخرْ منِّيَ ومن أمِّيَ!، كانت تَجربةً ونَجحتْ. ها قد أنقذتُكَ من عذابِ يوم لا تُفَرِّقُ فيهِ إجراءاتُ الاحتلالِ بينَ الحميرِ والبشرِ والجرّاراتِ الزراعيةِ من قِبَلِ "الكلابِ" التي يشرفُ الآنَ قسمٌ منها على الحميرِ والبشرِ!.
السّيدُ حمد: يا صديقِيَ أبوالزهو!، لِماذا تضعُنِي ونفسَكَ في مشاكلَ دائمةٍ من أجلِ الهربِ من يوم واحدٍ فيهِ بعضُ الإجراءاتِ التعسّفيةِ؟!. لنفرضْ أنَّهُمْ صدّقوا الأمرَ وطلبوا منكَ الخدمةَ العسكريةَ في الجيشِ عندَهُمْ!. ماذا نَحْنُ الاثنانِ فاعلانِ والحالُ هذهِ!؟.
أبوالزهو: لنْ يطلبوا ذلكَ!. ولكنْ إذا ما أقدموا على عملٍ كهذا فسوفَ أقولُ لَهُمْ بأنَّنِي كبيرٌ في العمرِ وأحاولُ أنْ أقضيَ بقيةَ الحياةِ منعزلاً متأمّلاً في شؤونِ هذه

الدنيا ومآسيها الماضيةِ والحاليةِ والمستقبليةِ، و ما إلى ذلكَ. وإذا ما اضطررتُ سوفَ أقومُ بوضعِ أو إلصاقِ لُحْيةٍ مناسبةِ الشكلِ على وجهِيَ!.
السّيدُ حمد: يا أبوالزهو، إنَّ لِيَ لُحيةً عاديةً وطبيعيةً ومعَ ذلكَ أجدُ صعوبةً في التعاملِ مع هذا الاتّجاهِ الفكريِّ أو ذاكَ!؛ ما بالُكَ بلحيةٍ مزيفةٍ واحدةٍ أو حتى أكثرَ؟!. ثُمَّ هل تعتقدُ أنَّهُمْ من الغباءِ لدرجةِ أنّهُ كلَّما رأَوْا شبهَ "ليفةٍ" للحمامِ متدليةً ظنّوا أنّها لُحيةٌ حقيقيةٌ أو ما شابهَ ذلكَ!. سوفَ يتحقّقونَ من ذلكَ وبكلِّ الوسائلِ المتاحةِ. هؤلاءِ عندَهُمْ علماءُ "أنثروبولوجيا" يكشفونَ فيها أصلَ الجنِّ الشريرِ من الملائكةِ الأخيارِ!. (الأنثروبولوجيا هي علمُ تطوُّرِ الإنسانِ وحالتهِ وشكلهِ).
أبوالزهو: لا مشكلةَ! إذا لَمْ يُصدِّقوا ذلكَ الزعمَ فسوفَ أقولُ لَهُمْ أنّني كذبتُ عليْهِمْ؛ سأقضي سنتينِ إلى ثلاثِ سنواتٍ في السّجنِ والتحقيقِ!. ما العملُ؟ هذه حالُ الدنيا ... يا صديقِيَ! قمتُ بكلِّ ذلكَ لأنَهُ عزَّ عليَّ أنْ أرى حالَكَ بعدَ كلِّ سنينِ التعليمِ تلكَ لكيْ أرى جنودَ الاحتلالِ يُعَرِّضونَكَ لذُلٍّ لا يطاقُ لا من البشرِ ولا من الحيوانِ!.
في اليومِ التالي وأثناءَ تناولِ السّيدِ حمد وجبةَ الفطورِ في حضرةِ أبوالزهو في الفناءِ الخلفيِّ للبيتِ، أخبرهُ أبوالزهو ما رآهُ في منامهِ! تلكَ الليلةَ.
أبوالزهو: هل تصدِّقُ ما رأيتُهُ في منامِيَ ليلةَ أمسِ؟!. لقد جاءني في منامِيَ رجلٌ كبيرٌ في السّنِّ. دخلَ عليَّ البيتَ، وبدا المنظرُ حقيقياً مثلَما المنظرُ أمامِيَ معكَ الآنَ!. كان بصحبةِ ذلكَ الرجلِ بضعُ رجالٍ من ذوي اللّحى السّوداءِ والبيضاءِ والحمراءِ والشقراءِ والصّفراءِ، مصطفّةً بجانبِ بعضِها مثلَ ألوانِ قوسِ قُزَحْ. أتوْا ومعهُمْ أكياسٌ من الطعامِ تكادُ تخلو كلُّها من أيّةِ لُحومٍ أو ما يتصلُ بالحيواناتِ وما تنتجُهُ بشيءٍ. التفَّ كلُّهُمْ حولِيَ وأخذوا يحضنونَنِي ويتفحصونَ بعينيَّ ورجليَّ وفخذيَّ وقدمَيَّ، وحاشى بكَ، ما بينَ رجْليَّ. كانَ معهُمْ أجهزةُ فحصٍ قديمةٌ وحديثةٌ (إلكترونيةٌ وإشعاعيةٌ ورنينُ-مغناطيسيةٍ و"صدى-صوتيةٍ")!. وبعدَ أنْ ضايقَنِي أحدُهمْ كثيراً قلتُ لهُ: "يا زلَمة (رجل) اشوَي اشوَي (قليلاً أو لطفاً) علينا وعالبظاعة (على البضاعةِ والمقصودِ بها هنا الأعضاءِ التناسليةِ)، إشّو مالك (ماذا بكَ)؟! هي الدنيا هالكَدّه (بهذا القدْرِ) تعبانة معاك؟! خلاص اترتشني (اتركْني) في حالي!!". فجأةً نظروا جميعاً بعيونِ بعضِهِمْ البعضِ!، تركوني وذهبوا؛ قالوا لِيَ بأنَّهُمْ لن يعودوا إليَّ مرّةً أخرى!. نظرتُ، في الحلْمِ، حولَ البيتِ وإذْ هنالكَ تقريباً بكتيبةٍ من الجنودِ ومعظمُهُمْ من لواءِ المظلاتِ؛ هذا الذي يُكثرُ من إقامةِ الحواجزِ على الطرقِ وبينَ الأزقّةِ في المدنِ والقرى، وبدؤوا بمغادرةِ المكانِ. كذلكَ قاموا بتحميلِ كلِّ أكياسِ الطعامِ التي أتَوْا بها على ظهرِ شاحنةٍ صغيرةٍ كانتْ برفقةِ قافلتِهِمْ وأخذوها معهُمْ. كانَ يقودُ تلكَ الشاحنةَ، حسبَما أتذكَّرُ!، شخصٌ أسمرُ اللونِ قليلاً لهُ ملامحُ قريبةٌ على البشرِ من حولِنا. في البدايةِ تحدَّثَ ذلكَ الشخصُ معِيَ بلغةٍ ولكنةٍ محليةٍ بائسةٍ؟!. غيرُ مُهمٍّ ذلكَ! .... عسى أنْ لا يعودوا إلينا مرّةً أخرى في الليلِ ونَحْنُ نيامٌ في هذا البيتِ وبشكلٍ حقيقيٍّ!..
السّيدُ حمد: هلْ خاطبتَهُمْ بلكنةٍ "كنعانيةٍ"!؟. لو خاطبتَهُمْ بلكنةٍ أرقى بعضَ الشيءِ، "فينيقيةٍ" مثلاً أو حتى "فِرْعَوْنيةٍ"!. إنَّ عندكَ مَخزوناً لا بأسَ عليهِ من اللكناتِ تَحْتَ تصرفِكَ. وبالنسبةِ لعودتِهِمْ إلينا!، سوف يعودونَ إلينا ولكنْ المرةَ القادمةَ سيصطحبونَ آليّةً "مُجنْزرةً" تَجُرُّني وإياكَ وربّما أبو جاسر وأم جاسر وإخوةَ جاسر وأخواتِ جاسر وأصهارَ جاسر. سيصبحُ اسمُ جاسر ومن معهُ عبرةً لِمَن

يعتبرُ، وعلى لسانِ الكبيرِ والصّغيرِ. وماذا يا أيُّها العبقريُّ لو علمَ "الجيرانُ" بأمرِكَ وبأحلامِكَ التي هي الآنَ، كما تبدو، ليستْ من قبيلِ الأضغاثِ!. أينَ نضعُ رؤوسَنا بينَ الناسِ هنا؟!. لقد وَرَّطْنا مع الطّرفينِ الآنَ، مع العدوِّ ومع الصّديقِ، أو مع الصّديقِ ومعَ العدوِّ، إذا ما صحَّ أيٌّ من التعبيريْنِ السّابقيْنِ. إذا لَمْ يأتِكَ العدوُّ في الليلةِ السّابقةِ سيأتيكَ الصّديقُ في الليلةِ اللاحقةِ، وفي كلتا الحالتيْنِ، فلا فرقٌ؛ إنْ لَمْ يكنْ الأسوأَ من جهةِ الصّديقِ أو حتى الأخِ الصّديقِ، ذلكَ لأنَّ الأخَ الصّديقَ يعرفُ كلَّ شيءٍ عنكَ وعن طباعِكَ!. كلُّ ما أريدُ قولَه هو: "عسى اللهُ وحدَهُ أنْ ينجيَنا من هذه الورطةِ وهو الوحيدُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ." بدَوري سوفَ أقرأُ كلَّ "الكتابِ المقدّسِ" لديْنا ومن الغلافِ إلى الغلافِ، نَذْراً إذا ما تَمَّتْ نَجاتُنا والعائلةِ بأكملِها من شرِّ ما هو قادمٌ.

أبوالزهو: لا تقلقْ يا صديقِيَ!، سوفَ أعملُ المستحيلَ لكيْ لا تتأذّى مِمّا حصلَ على الإطلاقِ. سوفَ أتعاملُ (أصبحُ عميلاً!) للطرفيْنِ وأتظاهرُ بأنني أُلَبّي لَهُما مطالبَهُما في آنٍ واحدٍ. سوفَ يكونُ لكلِّ شيءٍ حسابٌ ولكلِّ حادثٍ حديثٌ!. سوفَ أقدّمُ للجماعةِ الأصدقاءِ معلوماتٍ مؤكدةً أكثرَ عنِ العدوِّ وأقلَّ توكيداً منها للعدوِّ عن الصّديقِ!. ها هي هي هي هي ... بذلكَ يرتدُّ كيدُ العدوِّ إلى نَحرِهِ!. لا تَخفْ ولا ينتابَكَ القلقُ على أيِّ شيءٍ.

السّيدُ حمد: آخ عليكَ، أتريدُ أنْ تلعبَ لعبةَ "عميلٍ مزدوج"؟!. هذه الظاهرةُ يا أبوالزهو، من نواتجِ الحربِ الباردةِ بينَ العملاقيْنِ "الأرعنَيْنِ"؛ لا تليقُ هذهِ بكَ وبمقامِكَ!. أنتَ أكبرُ من ذلكَ وبكثيرٍ. لا تَخفْ ولا تفزعْ يا صديقِيَ، سنبقى معاً دائماً. لن يفرِّقَنا عدوٌّ ولا صديقٌ ولا أمنٌ ولا سياسةٌ. ما يهمُّني هو صفاءُ قلبِكَ وطيبُ خاطرِكَ العظيمِ.

أبوالزهو: شكراً لكَ!.. فعلاً إنَّكَ الصّديقُ عندَ الضيقِ فقطْ، وعندَ الفرجِ كذلكَ خيرُ صديقٍ وجليسٍ. ..... اشويّة (قليلاً) من العودِ، حتى تُخَفّفَ عنّا الموسيقى آلامَ المِحنِ العابرةِ. أنا الذي أريدُ أنْ أغنّيَ لكَ للواءِ أركانِ حربٍ محمد عبدالوهاب؛ منذُ زمنٍ قلتُ في نفسِي عندَما يعودُ حبيبِيَ حمد من الغيابِ، سأغَنّي معهُ أغنيةَ "ساعة ما بشوفك جنبي"؛ ابدأْ من عندِكَ لو تكرَّمْتَ! .... وبسرعةٍ ....

السّيدُ حمد: ترلا ترلا ..... صول صول ...... دن دن دن ....

أبوالزهو: ...أححححم... ساعة ما بشوفك جنبي، ما اقدرش أداري وخبي .... أبكي من فرحة قلبي!. ... وأنسى العذاب .. .. يا نور عيوني ... زادت شجوني .. دبِّل جفوني ... كثر الغيااااب ...كثر الغياب...

السّيدُ حمد: ....صبَّرْتَ الشوقَ على بعدِكَ! كان أملِيَ تحفظ عهدَكَ؟! ... أثاريك (إذا بكَ) حنيت لعوايدك! وشغلت البال ..... هههههههها...

أبوالزهو: يا صاحبِيَ! أنا الأجدرُ بغناءِ هذا المقطعِ. لكنْ لا مانعاً، فنحنُ الاثنانِ واحدٌ، سواءٌ من عندِكَ أو من عندِيَ، لا فرقَ! ... . خليتني نسيت أحبابي! ... ووهبتك صغر شبابي .... وقطفتو ليه؟ تخلى بهِ ...... كل ده يرضيك؟ .... كل ده يرضيك؟ .... تهجرني برضو أحبك ... تلوعني برضو أحبك ... تنساني برضو أحبك ... تلوعني برضو أحبك .... ما اقدرش أنساك ..... ما اقدرش أنساك. .....

الإنسانُ والبيئةُ

أَلَدُّ أعداءِ البيئةِ والحياةِ على سطحِ كوكبِ الأرضِ هو الإنسانُ. لا يوجدُ كائنٌ حيٌّ آخرُ أقلَّ حكمةً، بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، بتصرفاتِهِ اتّجاهَ نفسِهِ وبيئتِهِ والآخرينَ من الإنسانِ. يزرعُ الإنسانُ بذورَ فنائهِ وفناءِ غيرهِ بيديهِ وجهلهِ.

هو نفسُهُ الإنسانُ، ذلكَ الكائنُ الحيُّ الذي يُلقي بنفاياتهِ بعيداً كيلومتراتٍ معدودةً عن مكانِ إقامتهِ ونومهِ ويظنُّ بعدَ ذلكَ أنَّ خطرَ النفاياتِ بعيدٌ عنهُ. يقومُ بعدَ ذلكَ بقليلٍ بحرقِ النفاياتِ نفسِها حيثُ ينتشرُ الغازُ الملوّثُ في كلّ أنْحاءِ المكانِ الذي انطلقَ منهُ على شكلِ نفاياتٍ قبلَ قليلٍ من حينهِ.

هو نفسُهُ الإنسانُ الذي ما أنْ يتبوَّلَ أو يتبرَّزَ أو يستحمَّ حتى يرسلَ أوساخَهُ إلى "مَجاريرَ" تَحْتَ سطحِ الأرضِ بعمقٍ قليلٍ ظناً منهُ أنّهُ بذلكَ أبعدَ الأوساخَ وشبحَ نواتِجِها عنهُ وعن مُحيطهِ. يَجهلُ أو عمداً يتجاهلُ بأنّهُ يَجلسُ بلْ ينامُ ويتربّعُ فوقَ شبكةٍ من "المَجارير" تَحوي مئاتٍ بلْ آلافَ الأطنانِ من القاذوراتِ "المعلّبةِ والمخلّلَةِ". هذهِ الأوساخُ تَجعلُ المدينةَ كلَّها تَجلسُ فوقَ فوهةِ بركانٍ كيماويٍّ وبيولوجيٍّ موقوتٍ، من الممكنِ أنْ يثورَ في أيِّ وقتٍ تاركاً وراءَهُ بيئةَ الحياةِ في حالةٍ لا تُحسدُ عليها. يبني الإنسانُ مدناً قد يصلُ تعدادُ البشرِ فيها إلى الملايينِ حيثُ كلُّ فردٍ من تلكَ الملايينِ يضيفُ بطريقتهِ الخاصّةِ إلى حالةِ الاتساخِ والتلوّثِ واتساعِها.

هو نفسُهُ الإنسانُ الذي يقومُ ليلاً نَهاراً وسرّاً وجَهراً بإلقاءِ مُخلفاتِ الصّناعةِ والمصانعِ في أماكنَ يعلنُ عنها خادعاً نفسَهُ بأنّها آمنةٌ. بعدَ قليلٍ تظهرُ تلكَ الموادُ إلى العلنِ أو يقومُ هو بحرقِها موزّعاً أبْخرتَها إلى كلّ أنْحاءِ الكرةِ الأرضيةِ، موسّعاً ثقبَ طبقةِ "الأوزونِ" مثلاً في طبقاتِ الجوِّ العليا ومهدداً الحياةَ على سطحِ الكرةِ الأرضيةِ كلِّها.

هو نفسُهُ الإنسانُ الذي يرشُّ الحقولَ والمزارعَ بالموادِ الزراعيةِ والكيماويةِ لدرجةِ الإشباعِ. يعودُ في اليومِ التالي ليقطفَ تلكَ الثمارَ الملوَّثةَ بالمبيداتِ و"المسرِّعاتِ في النضجِ" الكيماويةِ ليأكلَ منها القليلَ ويبيعَ الجزءَ الأكبرَ لِسواهُ بأسعارٍ هو نفسُهُ يفرضُها عليهمْ بالدرجةِ الأولى. ذلكَ يفتحُ البابَ واسعاً لدخولِ الموادِّ الكيماويةِ الضارةِ إلى كافةِ أجهزةِ الجسمِ الحيويةِ ودونَ استثناءٍ. تظهرُ نتائجُ ذلكَ "الفِكرِ المبدعِ" في المستشفياتِ وفي شكلِ الإنسانِ والحيوانِ والذي يصبحُ مثلَ "قُفَّةٍ" أو وعاءٍ من الشحْمِ واللحمِ المُكْتنزِ، يُخَبِّئُ بداخلهِ الكثيرَ من أسبابِ الويْلاتِ.

هو نفسُه الإنسانُ الذي يلقي بنفاياتهِ النوويةِ الإشعاعيةِ في براميلَ مُحكَمةٍ، كما يظنُّ ويوهِمُ نفسَهُ، في البَرِّ والبحرِ تاركاً المَجالَ لكافةِ الاحتمالاتِ لعودةِ تلكَ النفاياتِ الإشعاعيةِ لاحقاً إلى كافةِ أجناسِ الحياةِ على سطحِ الكرةِ الأرضيةِ. لقد قامَ الإنسانُ بتلويثِ مياهِ الشربِ من مياهِ أنْهارٍ وينابيعَ ومياهٍ جوفيةٍ. لَمْ يكتفِ بذلكَ بل

انتقلَ إلى البحرِ وشواطئهِ ولوّثَها بكلِّ أنواعِ الموادِ الضارةِ من نفاياتٍ كيماويةٍ ونوويةٍ وبيولوجيةٍ.
هو نفسُهُ الإنسانُ الذي يقومُ باستعمالِ أجسادِ الحيواناتِ والنباتاتِ كحقولِ تَجاربَ يستعملُ فيها كافةَ أنواعِ الموادِ من أجلِ زيادةِ إنتاجِهِ من الحليبِ واللحومِ والفواكهِ والخضارِ. يقومُ بذلكَ من أجلِ سدِّ طمعِهِ وجشعِهِ في جَمعِ المالِ حيثُ بذلكَ يقومُ بتحويلِ البيئةِ إلى ما يشبهُ ديكوراتٍ مزخرفةٍ تَخلو جَميعُها من الأناقةِ والنكهةِ الطبيعيتيْنِ. ....
ينَشطُ السّيدُ حمد في مَجالِ حِمايةِ البيئةِ والطبيعةِ وجَمالِها وأصالتِها. لذلكَ فهوَ كثيراً ما يُبادرُ بفتحِ الحديثِ مع أصدقائهِ وأقرانهِ ونظرائهِ والبشرِ من حولهِ عن التلوثِ لكيْ يُعَرِّفَ الناسَ على الخطرِ المُحدقِ بالبيئةِ بسببِ تصرفاتِ بني البشرِ الرَّعناءِ بحقِّ "نظافةِ وسلامةِ البيئةِ وجَمالِ الطبيعةِ".
السّيدُ حمد: لقد أتيتُ معِيَ بمجموعةٍ من الأصحابِ والزملاءِ الهواةِ المهتمينَ بالشأنِ البيئيِّ. ما رأيُكَ يا صديقيَ أبوالزهو لو تعطيهِمْ مُحاضرةً قيِّمةً تكشفُ لَهُمْ فيها عن أعمالِكَ وإنْجازاتِكَ وجهودِكَ ومساهَماتِكَ في جَعْلِ البيئةِ نظيفةً وخاليةً من الموادِّ الخطرةِ على كوكبِ الأرضِ.
أبوالزهو: أنا جاهزٌ دائماً لذلكَ!. ليجلسوا في "الليوان" الخاصِّ بالضيوفِ والتلاميذِ والأولادِ الصّغارِ الذينَ يزورونَني من وقتٍ لآخرَ ويستمتعونَ بالجلوسِ وتبادلِ الحديثِ في المكانِ.
السّيدُ حمد: أولاً أُعَرِّفُكَ يا "بروفيسورَ البيئةِ" أبوالزهو على أصدقائيَ من النشطينَ الهواةِ في حِمايةِ الطبيعةِ والبيئةِ وهُمْ الأساتذةُ: سَمْعان، طَمْعان، جشْعان، لَمْعان، شبْعان، جوْعان، فزْعان، هلْعان، مشْعان، قرْعان، بلْعان، صعبان، جَرْعان وأخيراً وليسَ آخراً السّيدُ مرْطبان. تفضَّلْ أولاً بإلقاءِ الكلمةِ ومن ثَمَّ نفسحُ المَجالَ أمامَ الأسئلةِ والاستفساراتِ.
أبوالزهو: أوَّلاً هل هذهِ الأسْماءُ التي سَمعتُ بها وعلى نفسِ الوزنِ والقافيةِ تُعَبِّرُ عن صفةٍ أو حالةٍ أو ظرفِ مكانٍ أو ظرفِ زمانٍ أو حالةٍ نفسيةٍ أو صحيةٍ أو ظاهرةٍ غيرِ مريحةٍ أو حتّى مصدرٍ للتلوثِ!؟. ثانياً أبدأُ كلمتيَ هذهِ بالآتيَ:
منَ بينِ الكائناتِ الحيةِ التي أعرفُها لَمْ أرَ ولَمْ أعرفْ أكثرَ جهلاً وغباءً بشئونِ نفسهِ ومُشَكِّلاً خطراً على جَميعِ من حولهِ من بيئةٍ وكائناتٍ حيةٍ، أكثرَ من هؤلاءِ الذينَ يَمشونَ على اثنتينِ ولَهُمْ ألسنةٌ أكثرَ طولاً من طولِ ثعبانٍ أحْمرَ لكلٍّ منهُمْ. إنَّ طريقتَهُمْ في الأكلِ والشربِ والتبوّلِ والتبرّزِ والتخلّصِ من النفاياتِ تَجعلُ البيئةَ غيرَ مريحةٍ لا للعيشِ ولا للنومِ ولا للراحةِ فيها. يقومونَ بمَلءِ بطونِهِمْ بكلِّ شيءٍ تقعُ أيديهِمُ عليهِ، تنتَفخُ أجسامُهُمْ وبطونُهُمْ كثيراً وبعدَ قليلٍ يتخلّصونَ مِمّا تبقّى من أكلِهِمْ على شكلِ مُفرزاتٍ تثيرُ التقزُّزَ في النفوسِ بسببِ الرائحةِ الكريهةِ المنبعثةِ منها.
لقد حوَّلَ الإنسانُ المكانَ إلى "موبئةٍ" بسببِ اعتمادِهِ الكميةَ والربحَ الماديَّ أساساً في تربيةِ أنواعٍ من الحيواناتِ الجشعةِ في الأكلِ حيثُ تُرَبّى طمعاً في كميةٍ أكبرَ من الحليبِ واللحومِ منها. بذلكَ فلقدْ قضى الإنسانُ على العنصرِ الطبيعيِّ الأصيلِ والذي هو قادرٌ على التفاعلِ والتعاملِ المثاليِّ مع الطبيعةِ ومتغيراتِها.

في كلِّ مرّةٍ أذهبُ إلى الحقولِ أرى أعداداً من الطيورِ التي قُتِلتْ نتيجةَ تناولِها موادَّ سامةً، قامَ الإنسانُ بنشرِها بكثافةٍ لِحمايةِ مزروعاتهِ كما يدّعي من الحشراتِ والأمراضِ. لقد انتقلَ خطرُ التقنياتِ (التكنولوجياتِ) التي يستعملُها الإنسانُ إلى الطيورِ والغزلانِ والأرانبِ والعصافيرِ البريئةِ.

أنظرُ إلى الإنسانِ عندما يقومُ بتعبيدِ طريقٍ زراعيةٍ حينَ يفرشُ الأرضَ بطبقةٍ من مادةٍ ضارةٍ بالبيئةِ فقط من أجلِ تسهيلِ حركتهِ وانتقالهِ السّريعين. يقومُ الإنسانُ على ذلكَ الطريقِ المُعبَّدِ باستعمالِ سياراتٍ وماكيناتٍ تشبعُ الأرضَ وما فوقَها بموادَّ ومُخلّفاتٍ غيرَ آبهٍ بالضررِ الذي تُلحقُهُ تلكَ الموادُّ بالبيئةِ؛ لا يهمُّهُ ذلكَ طالَما أنَّ سيارتَهُ بقيتْ في حالةٍ لَمعَانٍ وجذبٍ لِمنْ حولهُ. إضافةً إلى ذلكَ فقد استهلكَ كلَّ المَحروقاتِ لإرضاءِ سيارتهِ ومن فيها وبذلكَ قضى على نقاءِ البيئةِ وصفاءِ الأجواءِ. إنّها أكبرُ مَجزرةٍ منظمةٍ ضدَّ البيئةِ منذُ أنْ استغنى الإنسانُ عن استعمالِ يديهِ ورجليْهِ في العملِ والمشي والانتقالِ من مكانٍ لآخرَ.

في الصّباحِ عندَما يفيقُ من نومهِ وحتى يعودَ إلى سريرِ نومهِ مرّةً أخرى يقومُ الإنسانُ بإضافةِ تلوّثٍ جديدٍ إلى البيئةِ بشكلٍ متواصلٍ. عندَما يتناولُ الطعامَ يتركُ الإنسانُ خلفَهُ الكثيرَ من النفاياتِ البيولوجيةِ من بقايا عظامٍ وغضاريفَ وموادَّ دسِمةٍ من حيواناتٍ وطيورٍ يقومُ بذَبْحِها والعبثِ بجلودِها وأجزائِها الداخليةِ. ولولا تعاونُ الكلابِ والقططِ والجُرذانِ للحدِّ من التلوثِ البيولوجيِّ الذي يقومُ بهِ الإنسانُ لكانَ ملأ الأخيرُ المكانَ ببقايا عَظامٍ ولَحمٍ وكوارعَ ومُحتوياتِ أمعاءَ لا يتوانى عن إلقائِها على قارعةِ الطريقِ. أخيراً وليسَ آخراً، سؤالِيَ لكُمْ جَميعاً أيُّها الناشطونَ في مَجالِ البيئةِ كما تدَّعونَ: ما الذي قمتُمْ وتقومونَ بهِ من أجلِ وقفِ هذه المهزلةِ الفاجعةِ التي يقومُ الإنسانُ بإذكائِها ورفدِها بكافةِ مقوماتِ بقائِها، عن علمٍ أو عن جَهْلٍ؟!.

السّيّدُ حمد: والآنَ نفسحُ المَجالَ للأسئلةِ.

السّيدُ "صعْبان": اسْمِيَ "صعْبان"! وعندِيَ اهتمامٌ بالطرقِ الطبيعيةِ الكفيلةِ التي يَجبُ تطبيقُها لِحمايةِ البيئةِ. سؤالِيَ لكَ عن المراجعِ العلميةِ التي استعملتَها في تَحضيرِكَ لِهذهِ الكلمةِ القيّمةِ التي خلصتَ للتوِّ من إلقائِها على مسامعِنا؟!.

أبوالزهو: أوّلاً لا داعيَ لذكرِ اسْمِكَ مرّةً أخرى أمامِيَ، "صعْبان"، لأنَّ لفظَهُ يذكِّرنِي باسْمِ مشئومٍ عليَّ ألا وهو اسْمُ "الحاجِّ صُعَيْب"!. ثانياً إنَّ مثلِيَ لا يَحتاجُ للعودةِ إلى مَراجعَ بسببِ قوّةِ إدراكِيَ للأمورِ على طبيعتِها كما هيَ والتعاطي معَها بناءً على ذلكَ. عندِيَ الملايينُ من سنينَ الخبرةِ المكتنزةِ في جسمِيَ وبنيتِيَ التحتيةِ وعلى شكلِ حُزَمٍ صغيرةٍ في جَذَباتِ جسمِيَ ودماغِيَ، الظاهرُ منهُ والباطنُ. هذه الكتبُ فقط للمبتدئينَ في الحياةِ بكافةِ جوانبِها.

السّيدُ "قرْعان": "قرْعان" من المركزِ الإعلاميِّ والعلاقاتِ العامةِ التابعِ للجامعةِ ومهتمٌّ بحمايةِ البيئةِ من الأنشطةِ غيرِ اللطيفةِ معها. هل لِيَ أنْ أعرفَ فيما لو تلقّيتَ مساعدةً فنيةً من السّيدِ حمد؟!. ذلكَ لأنَّ تلكَ الأفكارَ التي ذكرتَ في كلمتكَ قريبةٌ في المُحتوى والمضمونِ من التي يكرّرُها السّيدُ حمد في دعواتهِ وأنشطتهِ للحفاظِ على "جَمالِ الطبيعةِ والبيئةِ"، على حدِّ تعبيرهِ من قبلُ وتعبيركَ الآنَ.

أبوالزهو: لا أتلقّى مساعدةً من أحدٍ، أساعدُ غيرِيَ من الخَلْقِ فقط. وإذا ما كان رفيقِيَ حمد قد قالَ شيئاً من هذا القبيلِ فإنَّ عليهِ أنْ يسمحَ لِيَ أنْ أقولَ أنّهُ هو الذي

يسرقُ من أفكاريَ!. لا مانعَ لديَّ على اقتباساتهِ الفكريةِ تلكَ لأنَّني أعتبرُهُ مثلَ تلميذٍ صغيرٍ مواظبٍ ومُجتهدٍ عنديَ؛ إنّهُ تلميذٌ يُحاولُ أنْ يَبَزَّ (يتفوّقَ على) أستاذَهُ، لكنَّهُ لن يتَمَكّنَ من ذلكَ!.

الأستاذُ "مَشْعان": "مَشْعان" من قسم حمايةِ البيئةِ من مُخلفاتِ الطبِّ الوقائيِّ التابعِ لوزارةِ الصّحةِ. أودُّ أنْ أعرفَ رأيَكَ أو نصيحتَكَ لقسمِ الطبِّ الوقائيِّ؛ ما الذي يَجبُ عملُهُ من أجلِ زيادةِ فاعليةِ الأساليبِ المتبعةِ للوقايةِ من الأمراضِ الوبائيّةِ المُعديةِ.

أبوالزهو: إنَّ قسمَ الطبِّ الوقائيِّ في هذا البلدِ من الأقسامِ التي تتمتّعُ بسمعةٍ لا تسرُّ البالَ. قبلَ أيامٍ فقط عثرنا في جدولِ الماءِ على كيسِ نفاياتٍ مَملوءٍ ببقايا حُقَنِ اللقاحِ الوقائيةِ وعيناتٍ أخرى مأخوذةٍ من أشخاصٍ مصابينَ بأمراضٍ مُعْديةٍ. كانتْ رائحةُ الوعاءِ كريهةً والخطرُ يشعُّ من جوانبِ مُحتوياتهِ. ولولا جهوديَ، أنا وصديقِيَ حمد، لأصبحَ ذلكَ الوعاءُ مصدرَ تَهديدٍ للمنطقةِ بسببِ خطرِ تلكَ الأوبئةِ المُختبئةِ في أكياسِ نفاياتِ الطبِّ الوقائيِّ. أين عقولُكُمْ وضمائرُكُمْ في عملِكُمْ؟!. هذه هي نصيحتِيَ لكُمْ في قسمِ الطبِّ الوقائيِّ وغيرِ الوقائيِّ؛ أنْ تستعملوا عقولَكُمْ وتوظِّفوا (تُشَغّلوا) ضمائرَكُمْ فقط.

الأستاذُ "طمْعان": "طمْعان" من قسم حمايةِ البيئةِ من خطرِ نواتجِ المَرْكباتِ الميكانيكيةِ. ماذا تنصحُ دائرةَ النقلياتِ من أجلِ الحدِّ من آثارِ التلوثِ الناجمِ عن استعمالِ تلكَ المركباتِ بشكلٍ مفرطٍ في حياةِ البشرِ؟!.

أبوالزهو: الخطرُ من نواتجِ المركباتِ الميكانيكيةِ هو أكثرُ العواملِ المنتشرةِ في المكانِ والتي تُهدّدُ نظافةَ البيئةِ وسلامتَها. عليكُمْ أنْ توقفوا إلقاءَ الإطاراتِ المستعملةِ على قارعاتِ الطرقِ وفي الحقولِ. إنّهُ لَمنظرٌ غايةٌ في الإزعاجِ عندَ حرقِ إطارٍ مطاطيٍّ واحدٍ فقط حتى ترتفعَ سحابةٌ سوداءُ تَملأُ المكانَ والجوَّ بالموادِّ الضارةِ للجوِّ والحيوانِ والنباتِ. لقد وصلت موادُّ الإطاراتِ المستعملةِ إلى مياهِ جداولِ الشربِ وعيونِ الماءِ العذبِ وبساتينِ الخضارِ والفواكهِ المُحيطةِ بالمكانِ. آخ!... من يرحمُ الإنسانَ من تصرفاتِ نفسهِ؟!. لقد أصبتُ ببعضِ الإعياءِ والصّداعِ، عليَّ أنْ أستريحَ قليلاً. صديقِيَ حمد عليكَ بتحضيرِ وعاءٍ من "الميرميةِ" المغليةِ بالماءِ لتخفيفِ أثرِ الصّداعِ عليَّ؛ أو هاتِ لِيَ بباقةٍ من عيدانِ "الميرميةِ" لأمضُغَها أو أتناولَها قبلَ غَلْيِها.

السّيدُ حمد: والآنَ انتهى وقتُ المُحاضرةِ والنقاشِ. لكنْ هل لكَ أنْ تضغطَ على روحِكَ قليلاً وتوجِّهَ كلمةً أخيرةً، صديقِيَ أبوالزهو، إلى الحضورِ قبلَ أنْ يغادروا المكانَ؟! من مثلِ توجيهاتٍ عامةٍ!.

أبوالزهو: هي الكلمةُ الأولى والأخيرةُ لِمثلِ هؤلاءِ الخلْقِ. فلينظروا حالِيَ! لَمْ أقُمْ بعمليةِ استحمامٍ واحدةٍ طوالَ حياتِيَ لكنَّهُ لا يصدرُ من جلْدِيَ ولا من بطنِيَ أو من فيهِيَ والأرجُلِ أيَّةُ روائحَ كريهةٍ كالتي تصدرُ من البشرِ. "أستحمُّ" فقط ببعضِ الترابِ بضعَ مرّاتٍ في الأسبوعِ. إنَّ الرّوْثَ الناتجَ عنِّيَ يُمكنُ استعمالُهُ في أغراضٍ وأهدافٍ أخرى كثيرةٍ في الحقلِ وكوقودٍ في البيوتِ بالإضافةِ إلى أنّهُ يُمكنُ افتراشُ الأرضِ بهِ والنومُ والاستراحةُ عليهِ وفيهِ؛ ذلكَ ما لا يُمكنُ عملُ الشيءِ ذاتهِ مع مُخلّفاتِ بني البشرِ. يعودُ ذلكَ لسببِ حرصِيَ على جوْدةِ ونوعيةِ أكلِيَ؛ لا ألتهمُ ما هبَّ ودبَّ من طعامٍ. عليكُمْ الاستفادةُ منِّيَ يا بني البشرِ. لا تَركِنوا فقط إلى الكتبِ

التي توصيكُمْ فقط بإلتهامِ ما هو غنيٌّ بالموادِّ الغذائيةِ على حسابِ سلامةِ البيئةِ من مُخلّفاتِكُمْ. وأخيراً وليسَ آخراً عليكُمْ باستعمالِ عقولِكُمْ الصّغيرةِ في كلِّ شيءٍ تطرقونَ بابَهُ؛ وإذا ما صَعُبَ عليكُمْ من شيءٍ فلا مانعَ عندِيَ من أنْ أقدِّمَ لكُمْ خبرتِيَ في هذا المَجالِ أو ذاكَ.
الحضورُ: شكراً لكَ يا بروفيسورَ أبوالزهو. كانتْ أكثرَ مُحاضرةٍ مفيدةٍ في حياتِنا العلميةِ والعمليةِ في مَجالِ الفهمِ والاستفادةِ والتطبيقِ.
أبوالزهو: والآنَ عليَّ أنْ أخلدَ قليلاً للراحةِ بعدَ هذا الهَرَجَ والمَرَجِ! معكُمْ و مع عقولِكُمْ.
"كاملةُ": وها قد أحضرتُ لكَ وعاءً منِ الماءِ المغليِّ ب"الميرميةِ" كما طلبْتَ.
أبوالزهو: لقد تناولتُ "ضُمّةً" (حزمة) من "الميرميةِ" ولمْ يسترخِ عصبيَ بعدُ.
أخِيَ حمد "دخيلك" (أرجوكَ) على موّالٍ بلديٍّ من عندِكَ يعيدُ إلى أعصابِيَ بعضَ الحيويةِ.
السّيدُ حمد: يا أبوالزهو، مُحاضرةٌ واحدةٌ فعلتْ بكَ هكذا، ما بالُكَ في من يعطي عدةَ مُحاضراتٍ كلَّ يومٍ وعلى مسامعِ جُمهورٍ غفيرٍ من الخلْقِ. جَهّزْتُ لكَ اليومَ أغنيةً للفنانِ الفرنسيِّ المغنّي "فرانسيسِ كابريل" بعنوان "أنا أحلُمُ Je Rêve ". عسى أنْ أقومَ بأدائِها بشكلٍ يسرُّ بالَكَ وبالَ الحضورِ.
أبوالزهو: "وِمالُه! (لا مانعَ) ... فرنسيٌّ أو غيرُ فرنسيٍّ" ... عندِيَ تَقَبّلٌ لكلِّ اللغاتِ.
السّيدُ حمد: (ملاحظةٌ: ترجَمةُ الأغنيةِ هنا حرفيةٌ وليستْ غنائيةً أو شعريةً أو حتى أدبيةً) .... دن دن دن... لا دو مي دو....
Je Rêve (أنا أحلمُ)

Le vent a fait s'approcher les nuages (تقتربُ الريحُ من الغيومِ)
Il fait gris au-dessus des plages (فوقَ الشواطئِ تتحوّلُ الطبيعةُ إلى اللّونِ الرماديِّ)
Et la mer a l'air triste aussi (ويبدو البحرُ حزيناً كذلكَ)
Le ciel n'est pas qu'un long tissu de brume (السّماءُ ليست كنسيجٍ طويلٍ من الضبابِ)
Il va faire une nuit sans lune (هذه الليلةُ ستكونُ بلا قمرٍ)
Demain je n'aurai pas dormi (لن أذهبَ غداً للنومِ)
Peut-être je vais rencontrer une dame (من الممكنِ أنْ ألتقِيَ بامرأةٍ)
Quand j'irai accrocher mon âme (عندَها أعطيها روحِيَ ونفسِيَ)
Sur les arêtes des rochers (فوقَ أضلعِ أو جوانبِ الصّخورِ)
Mais le vent souffle si fort sur ses pierres
(لكنَّ الرياحَ تَهبُّ بقوّةٍ فوقَ أحجارِ تلكَ الصّخورِ)
C'est plus la peine que j'espère (هذا أكثرُ من ألَمِ آملُ بهِ)
L'amour ne peut s'y poser (لن يقدرَ الحُبُّ على تَحمُّلهِ)

Mais je rêve (لكنَّني أحلمُ)
Je lance des mots vers le jour qui s'achève (سوفَ أقذفُ بكلماتٍ صوبَ النهارِ الذي يُنْجزَ)
Je voulais qu'il reste (أريدُهُ أنْ يبقى)
Il n'a pas entendu (لكنه لا يسمعُ أو يدركُ أو يفهمُ)
Plus loin sur les rocs que la mer assaile (في البعيدِ وعلى الصّخورِ التي يهجمُ البحرُ عليها)
Cheveux et jupons en bataille (الشَّعرُ والفساتينُ في معركةٍ)
Combien de femmes ont attendu (كمْ من النسوةِ انتظرنَ)
Combien ont crevé leur coeur sur les vagues (كمْ كسرنَ قلوبَهُنَّ على الموجاتِ)
Pour celui qui avait l'autre bague (من أجلِ حيازةِ خاتَمٍ آخرَ)
Et qui n'est jamais revenue (والذي لَمْ يأتِ أبداً)
La mer est plus forte que mon courage (البحرُ أقوى من شجاعتِيَ)
Mais ce soir il y a des nuages (لكن هذا المساءَ هنالكَ الغيومُ)
Et je sais qu'elle est triste aussi (والتي أنا أعرفُ أنَّها أيضاً حزينةٌ)
Quand ces mots seront devenus des braises (عندما تصبحُ الكلماتُ جَمَراتٍ)
Je monterai sur la falaise (سأمتطي الشاطئَ الصّخريَّ الملتهبَ)
Jeter leurs dans la nuit (ملقياً إياهُمُ في عتمةِ الليلِ)....
أبوالزهو والحضورُ: آهٍ! يا سيدَ! حمد الفنانَ؛ هذا الغناءُ و هذه الموسيقى تَجعلُنا ننسى البيئةَ وحِمايةَ البيئةِ ومستقبلَ البيئةِ يا من نصَّبتَ نفسَكَ حارساً على بوّابةِ البيئةِ!.

بعثةٌ دراسيةٌ

زارتْ الآنسةُ "احتكامْ" ذاتُ الشخصيةِ الكارزميةِ الأخاذةِ مبنى إدارةِ "جامعةِ الحكماءِ" وأعلنت أنَّ بِجُعبتِها عدداً من طلباتِ الالتحاقِ بجامعاتِ ما "وراءَ اليابسةِ والبحارِ والمُحيطاتِ". في "جامعةِ الحكماءِ" تَمَّ الإعلانُ عن إمكانيةِ الحصولِ على بَعثةٍ دراسيةٍ لنيلِ درجةٍ أو شهادةِ الدكتوراه من إحدى الجامعاتِ الأجنبيةِ هناكَ. على المتقدِّمِ أنْ يَجتازَ امتحاناً للغةِ الأجنبيةِ إلى جانبِ شروطٍ أخرى يُحدِّدُها الملحقُ الثقافيُّ والعلميُّ في القنصليةِ المعتمدةِ في المدينةِ. في البدايةِ لَمْ يُعِرْ السيّدُ حمد اهتماماً كبيراً للبعثةِ الدراسيةِ تلكَ. بعدَها بدأتْ زياراتُ الآنسةِ "احتكامْ" تتوالى وأعلنت إدارةُ الجامعةِ أنَّ في نيتِها التخلصَ من حَمَلَةِ شهاداتِ الماجستيرِ والإحلالَ مَحلّهمْ بأعدادٍ من حَمَلَةِ شهاداتِ الدكتوراه؛ عندَها بدأ "الفأرُ يلعبُ في سروالِ" السّيدِ حمد (مثلٌ شعبيٌّ مَحليٌّ يعني أخْذَ الأمورِ على مَحملِ الجِدِّ والسّرعةِ)!.

في الصّباحِ الباكرِ من ذاتِ يومٍ أيقظَ السّيدَ حمد أحدُ أصحابهِ المقربينَ، السّيدُ "علوان"، مَن أجلِ الذهابِ لتقديمِ امتحانِ "اللغةِ الأجنبيةِ" في المدينةِ القريبةِ من المكانِ؛ ذهبَ السّيدُ حمد معهُ ولَمْ يكنْ مستعداً ولا مسجِّلاً في الامتحانِ من قبلُ. في قاعةِ امتحانِ اللغةِ الأجنبيةِ كانت هنالكَ أعدادٌ غفيرةٌ من المتقدّمينَ للامتحانِ، الكلُّ منهُمْ يُحاولُ الحصولَ على مقعدٍ دراسيٍّ في تلكَ البلادِ الأجنبيةِ، كانَ الزحامُ شديداً ومُنَبِّهاً!. انتظرَ السّيدُ حمد حتى إذا ما انتهى توزيعُ المسجّلينَ مُسبقاً في الامتحانِ ليأخذَ مقعدَ أحدِ المتغيبينَ منهُمْ؛ تقدَّمَ السّيدُ حمد للامتحانِ ونَجَحَ. بذلكَ أصبحَ طلبُهُ جاهزاً للالتحاقِ بالجامعةِ الأجنبيةِ من أجلِ إكمالِ الدراسةِ لنيلِ شهادةِ الدكتوراه.

ما هي إلا بضعةُ أسابيعَ حتى حصلَ السّيدُ حمد على قبولٍ في إحدى الجامعاتِ الأجنبيةِ هناكَ وعليهِ أنْ يذهبَ لِمقابلةِ المسئولِ عن إيفادِ البعثاتِ، السّيدِ "وايزومانِ". هنالكَ، وفي ملحقِ القنصليةِ المعتمدةِ، قدّمَ السّيدُ حمد جوازَ سفرهِ وكتاباً بخطِّ يدهِ يُظهرُ ويُبيِّنُ رغبَتَهُ بإكمالِ الدراسةِ للحصولِ على درجةِ الدكتوراه في تلكَ البلادِ. تسلسلتْ الأمورُ والخطواتُ بشكلٍ طبيعيٍّ فيما بعدُ سادها بعضُ الترقّبِ والقلقِ والحذرِ.

للوهلةِ الأولى كانتْ الصّورةُ بدائيةً وتلخّصتْ بأنّها دقَّتْ ساعةُ بدايةِ النهايةِ لعهودِ التخلّفِ والتعليمِ غيرِ المُجدي، والآنَ جاءَ دورُ المنقذِ الحقيقيِّ للحياةِ والمنهجيّةِ العلميتيْنِ. كانَ الوضعُ عندَ السّيدِ حمد مثلَ وضعِ مصباحٍ معتمٍ وتَمّتْ إنارتُهُ بالطاقةِ الكهربيةِ؛ أو مثلَ طائرِ النسرِ يَخرجُ من سجنهِ الصّغيرِ إلى عالَمِ الفضاءِ الرحبِ الشاسعِ. على أرضِ الواقعِ، انتقلتْ حركةُ السّيدِ حمد من خطٍّ أو خطوطٍ مستقيمةٍ مُحدّدةٍ ومكرّرةٍ بشكلٍ مُبتذلٍ ومُزهقٍ للروحِ والجسدِ، إلى التحركِ في مُنحنياتٍ وفي فضاءٍ ثلاثيِّ الأبعادِ!.

السّيدُ حمد: لقد حصلتُ على بعثةٍ دراسيةٍ للحصولِ على درجةِ الدكتوراه، وأنا سعيدٌ جداً بها.

أبو جاسر: بعدَ هذا العمر كلِّهِ ستتركُنا إلى بلادِ المَجهولِ، ونبقى هنا وحيدينَ!. أعرفُ الكثيرَ من الناسِ الذين ذهبَ أبناؤُهُمْ إلى تلكَ البلادِ ولَمّا يعودونَ؛ هاجروا وصارتْ حياتُهُمْ هنا من قبيلِ الذكرياتِ. تراني يا حمد وقد أخذَ العمرُ منِّيَ كلَّ قوّتِيَ؛ أريدُكَ أنْ تبقى معنا، ويكفيكَ ما حصلتَ عليهِ من تعليمٍ. لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ!؛ هل الحياةُ عندَكَ كلُّها تعلُّمٌ؟!.

أبوالزهو: أتعودُ من جديدٍ لتكرِّرَ نفسَ الأسطوانةِ القديمةِ المقيتةِ. تعلّمٌ، عمرٌ وسنونٌ وجهودٌ ضائعةٌ في التعلُّم!.

السّيدُ حمد: أريدُ يا والدِيَ أبوَ جاسرٍ ويا رفيقَ دربِيَ أبوالزهو أنْ أحافظَ على وظيفةٍ أكسبُ فيها الرزقَ. أريدُ أنْ أُحسِّنَ مستوى المعيشةِ عندِيَ الذي لا يكادُ "يرتفعُ شيئاً بسيطاً عن الحضيضِ". أريدُ أنْ أرفعَ من مستوايَ في سوقِ العملِ الذي يَبْخسُ فيهِ بل ويذلُّ أكبرُ شواربِ عُتاةِ الرجالِ. أخيراً أريدُ أنْ أعوِّضَ ما فاتَ من العمرِ الذي قضيتُه في نيلِ تعليمٍ مزيّفٍ غبيٍّ، من النوعِ الذي لا يسمنُ ولا يغني من جوعٍ.

سرحان: بعدَ كلِّ تلكَ السّنينِ البائدةِ من التعلّمِ، تريدُ تحسينَ نفسِكَ أكثرَ من ذلكَ!. شيءٌ عجبٌ، وأمرُكَ عجبٌ وأمرُ من علَّمكَ ومن يعلّمُكَ. لَمْ يبقَ إلا أنْ تقولَ لنا أنّكَ تريدُ التعلُّمَ كيفَ الذهابُ والنزولُ على سطوحِ كواكبَ أخرى!.

أم جاسر: أو تريدُ الذهابَ إلى هناك لتتزوَّجَ بصبيّةٍ، بنتِ حلالٍ أو حرامٍ! شقراءَ لا تتكلمُ لغتَنا حتى لا نفهمَ عليها ما تقولُهُ ولا تفهَمُ علينا كلاماً لغطاً قد نقذفُها بهِ.

السّيدُ حمد: يا أهلِيَ ويا ربعِيَ!، هذه المرَّةَ سوفَ أصِلُ إلى رأسِ رأسِ رأسِ نبعِ العلمِ. من هناك سوفَ أشربُ حتى أرتويَ ولن أرتويَ من القليلِ كما تعرفونَني.

أبوالزهو: تأكَّدْ أنْ لا تلاقيَ هناكَ من أمثالِ "البَولاكْ" وصحبهِ من الشلّةِ المعهودةِ.

السّيدُ حمد: هذا مستحيلٌ، تلكَ البلادُ تقعُ في الطرفِ الآخرِ من الأرضِ، حيثُ لا أثرَ لِهؤلاءِ أو هؤلاءِ هناكَ. يَختلفُ الوضعُ هناكَ تَمامَ التمامِ وجدَّ الجَدِّ!. أرجوكُما يا سرحان ويا أبوالزهو أنْ تقنعا الوالدَ وتطمئِناهِ أنْ لا داعيَ للقلقِ والخوفِ. ما هي إلا بضعةُ سنينٍ أعودُ بعدَها حاملاً أعلى درجاتِ العلمِ ومؤهَّلاً لقيادةِ أكبرِ سفينةٍ علميةٍ و"بلغةِ العصرِ الأجنبيةِ"!.

سرحان وأبوالزهو: لغتُكَ الأجنبيةُ جيدةُ المستوى بل قويةٌ ولا بأسَ عليها؛ لِماذا تريدُ أنْ تتحسّنَ بها أكثرَ من هذا المستوى؟!.

السّيدُ حمد: تعرفُ يا سيدَ سرحان أنَّ اللغةَ الأجنبيةَ هي لغةُ كتابةِ الأبحاثِ العالَميةِ. حتى العلماءُ العربُ المرموقونَ! حالياً يكتبونَ أبحاثَهُمْ بِها، يُرفَعونَ في مناصبِهِمْ بناءً على تقدمِهِمْ باستعمالِها. لَمْ يعدُ أهلُ اللغةِ العربيةِ يهتمونَ بلغتِهِمْ أو حتى يستعملونَها؟!. أصبحت اللغةُ العربيةُ في نظرِهِمْ في ذمّةِ اللهِ والتاريخِ!.

سرحان وأبوالزهو: هذه دعايةٌ عنصريةٌ وإبادةٌ ثقافيةٌ موجهةٌ ضدَّ اللغةِ العربيةِ. اللغةُ نفسُها لا تنتجُ، هذه مسئوليةُ أهلِ اللغةِ. اللغةُ جسمٌ جامدٌ ولكنَّهُ قابلٌ للاستعمالِ من قبلِ العقولِ. هل تريدُ اللغةَ أنْ تفكِّرَ لكَ وعنكَ؟!. بنفسِكَ كنتَ تقولُ أنَّها لغةُ السّماءِ والأرضِ، ما الذي قَلَبَ دماغَكَ وعقلَكَ، لِماذا انقلبْتَ على نفسِكَ وعلى أهلِكَ وأبناءِ جلدتِكَ؟!. عسى اللهَ أنْ يسترَنا من رحلتِكَ هذه المرَّةَ.

السّيدُ حمد: أريدُ منكُمْ أنْ تنسوْا قصةَ اللغةِ هذه المرَّةَ؛ ما بالُكُمْ بالتركيزِ على العلمِ؟. لقد وَصَلَ هؤلاءِ البشرُ إلى قمّةِ العلمِ في كلِّ فروعهِ ودونَ استثناءٍ. لِماذا لا

نستغلُّ حالةَ الانفتاح عندَهُمْ ونأخذُ من علمِهِمْ ما تيسَّرَ ونستفيدُ من التكنولوجياتِ التي منها يصنعونَ وسائلَ حديثةً في الحربِ والسّلم والأمنِ والأمان؟!.
سرحان وأبوالزهو: هل تريدُ أنْ تقولَ لنا أنَّكَ ستَجلبُ عِلْماً يَختلَفُ عن ما جلبَهُ الملايينُ الذينَ ذهبوا، وعادوا جَميعاً بخُفَّيْ حُنَيْن؟. كلُّ المهندسينَ والعلماءِ العربِ الذين يتقنونَ اللغاتِ الأجنبيةِ كلُّها لا يقدرونَ علَى إنتاج عودِ ثقابٍ واحدٍ لا باللغةِ الأجنبيةِ ولا باللغةِ العربيةِ ولا حتى باللغةِ "السّانسكريتيةِ"! (السّانسكريتية لغةٌ كانت سائدةً زمنَ السّيدِ المسيح عليهِ السّلامُ). يُنْتِجُ الصّينيُّ كافةَ أنواع عيدانِ الكبريتِ ومن ماركةِ "التنّين" مثلاً التي لا يُعلى عليْها في الجودةِ. أنتجَ المصريُّ القديمُ حضارةً صنعَ منها المعجزاتِ وباللغةِ الفرعونيةِ المعتمدةِ على الكتابةِ "الهيروغليفيةِ"!. يا صديقِيَ أنت شخصٌ مغفَّلٌ وضائعٌ ولا أتردَّدُ أنْ أقولَ لكَ أنكَ تافهٌ وأرعنٌ. ضاعتْ عشراتُ السّنين من التعلّم فيكَ سُدىً، ذهبتْ جهودُ العائلةِ ومدخراتُها معَ بقايا الأكلِ المفرَزِ من جهازِكَ الهضميِّ؛ لو استُثمِرَتْ تلكَ السّنونُ في إصلاحِ أنبوبِ "مصرفِ" المياهِ المستعمَلةِ في البيتِ لكانَ وضعُنا أحسنَ بكثيرٍ.
السّيدُ حمدَ: هاكُما من جديدٍ تثقلونَ كاهلِيَ بالهموم، هُموم البيتِ والحقلِ والماشيةِ والأهلِ والوالدِ وما وَلَدَ. أريدُ أنْ آخذَ حريّتِي بالكاملِ هذهِ المرّةَ. أحذّرُكُما أنْ لا تتحلَّيا بهذهِ الأفكارِ البدائيةِ أمامَ بعضِ المغفّلينَ من الأصدقاءِ والأعداءِ لتُفْسِدا عليَّ خطتِيَ في التطوُّرِ. لقد تَمَّ حسمُ الموضوعِ باتّجاهِ السّفرِ ولن أتراجعَ عن ذلكَ!.
"كاملة": ومتى سيكونُ ذلكَ، هل بدأ العدُّ التنازليُّ لسفرِكَ؟. ماذا تريدُنِي أنْ أقولَ لكَ؟. فقط أقولُ لكَ عن الموتِ الذي بدأَ "يسهرُ" كلَّ ليلةٍ على جانبِ الفِراشِ الذي ينامُ عليهِ والدُكَ أبو جاسر!.
السّيدُ حمد: وهل هناكَ من أحدٍ ليسألَ عنكِ وعن موتِكِ أو موتِ أبو جاسر؟!. خُلقْنا من الوهمِ ونعيشُ في وهمٍ ونَموتُ في وهمٍ وربّما يكونُ كلُّ ما نراهُ من حولِنا وهْماً!. نَحْنُ هائمونَ هنا فيَ بُحورٍ كلُّها مصنوعةٌ من الوهم.
سرحان: ها أنتَ يا أبا القوميةِ والدينِ والأصالةِ ومن الآنَ تلطمُ على وجهِكَ لاعناً ماضيَكَ. ينقصُكَ فقط جنزيرٌ أو عصا أو كرباجٌ طويلٌ لتُضربَ على جسمِكَ كلِّهِ، من رأسِكَ وحتى أخْمصِ قدميكَ. بدأتَ تلعنُ نفسَكَ وتاريخَكَ وتتخلى عن المبادئِ الأصيلةِ. هذه التجربةُ يَجبُ أنْ تُجرِّبَها، وهذه "التكحيلةُ" يَجبُ أنْ تضعَها في عينيْكَ. أخشى عليكَ أنْ تعودَ دونَ لسانٍ عربيٍّ، وتستبدلُهُ بلسانٍ "عصريٍّ"!.
السّيدُ حمد: كلُّ شيءٍ جاهزٌ، خلالَ أسابيعَ، شهرٍ أو شهرينِ أو ثلاثةِ أشهرٍ على أبعدَ تقديرٍ!. ستأتيني التأشيرةُ والبعثةُ وتذكرةُ السّفرِ ومن ثَمَّ الطائرُ الميمونُ والسّفرُ إلَى حيثُ حافّةِ الوجودِ. لكنْ لا تنسَ يا أبوالزهو العهدَ القديمَ الجديدَ الذي قطعناهُ على أنفسِنا ومنذُ الصِّغَرِ.
أبوالزهو: الأرضُ، الشجرُ، البيتُ والعائلةُ. أعرفُ هذا الدرسَ جيداً وأنا الذي علمتُكَ إياهُ قبلَ أنْ يصارَ إلى تكوينِ عقلكِ الباطنيِّ المتغيرِ مثلَ تغيُّرِ الرياحِ حتى قبلَ أنْ تبدأَ العاصفةُ الهوجاءُ. أنتَ الذي من السّهولةِ أنْ تنسى ويغَرَّرَ بكَ، أنت الذي تضعُ نفسَكَ في سوقِ نَخاسةِ ما يسمى بالتعليمِ. لا أعتقدُ أنَّني سأرى أكثرَ سَخَفاً من هكذا تعليمٍ تقومُ بهِ!.

السّيدُ حمد: أرجوكَ يا أبوالزهو، لا تظلَّ تشتمُ هذا العلمَ ولا التعليمَ. لقد ضحّيتُ بالكثيرِ الكثيرِ من أجلِهِ وعندما اقتربتْ ساعةُ الفرجِ الحقيقيةِ ها أنتَ الآنَ تقلبُ عليَّ وجهَكَ!.
أبوالزهو: سؤالٌ أخيرٌ، وقبلَ أنْ تنتهيَ حلقتُنا! معكَ، وماذا بعدُ؟. أيْ بعدَ أنْ ستنتهي المرحلةُ القادمةُ من الجهدِ والسّفرِ والحياةِ، هل هنالكَ من شيءٍ يمكنُكَ أنْ تُخبرَنا بنتيجةِ كلِّ هذا وذاكَ؟. هل ستقدرُ أنْ تغيِّرَ من اتّجاهِ الجاذبيةِ مثلاً؟، وبدلاً من أنْ نظلَّ على الأرضِ، نطيرُ إلى الفضاءِ بغيرِ رجعةٍ. لقد أصبحتْ الحياةُ على كوكبِ الأرضِ مُخاطرةً غيرَ مَحمودةِ العواقبِ.
السّيدُ حمد: هاكَ يا أبوالزهو، قد وضعتَ يدَكَ على الجوابِ أو حتى السّؤالِ الصّحيحِ!. لقدْ تَمَّ التحكّمُ بالجاذبيةِ للأجسامِ وسرعةِ سقوطِها ومكانِ سقوطِها. مثلاً بدلاً من أنْ تسقطَ القنبلةُ على بيتٍ واحدٍ وتدمّرَهُ وحدَهُ فوقَ من يسكنُهُ، من الممكنِ ربطُ القنبلةِ ببالونٍ أو مظلّةٍ. يُخفّفُ البالونُ أو حتى يلغي تأثيرَ الجاذبيةِ ممّا يَجعلُ القنبلةَ تَحومُ أو تُحلّقُ فوقَ ضاحيةٍ سكنيةٍ كاملةٍ؛ وما أنْ يَحينَ ويَمضيَ موعدُ تفجيرِها حتى تصبحَ كلُّ الضاحيةِ في خبرِ كانَ. نتيجةً لذلكَ تذهبُ الضاحيةُ ببيوتِها وسكانِها؛ لا تُبقي القنبلةُ منهُمْ ولا تذرُ، لا جنَّ ولا بشراً ولا حجراً فوقَ حجرٍ!.
أبوالزهو: هؤلاءِ ملاعينُ الوالدينِ وأولادُ الحرامِ؛ يقولونَ بأنَّ العلمَ يتطوّرُ ليخدمَ الخلقَ!.
السّيدُ حمد: يَخدمُ الخلقَ وبطريقةٍ أسرعَ وأذكى وأعمَّ وأشْمَلَ. بدلاً من أنْ تنتهيَ الحربُ في سنينٍ يتمُّ إنْهاؤُها في بضعةِ أسابيعَ. وإذا ما احتوتْ هذه المقذوفاتُ رؤوساً نوويةً أو أسلحةً دمارٍ شاملٍ تقضي على كلِّ كائنٍ لهُ جهازٌ تنفسيٌّ نابضٌ بالحياةِ، فإنَّ الأمورَ تسيرُ في غايةِ السّرعةِ. يا أبوالزهو، تقدّمٌ هائلٌ ومزايا يعجزُ الجنُّ والأبالسةُ أنْ تفكّرَ بها.
أبوالزهو: من يَحمينا من هؤلاءِ البشرِ وأهوالِهِمْ على الكائناتِ الحيةِ كلِّها؟!.
أبو جاسر (بعدَ نقاشٍ حادٍّ مع السّيدِ حمد): واللهِ! يا ابنِيَ، إنَّ قصّتَنا معكَ مثلَ قصةِ أقاربِ "شُعَيْث". كانَ "شُعيث" شخصاً شقياً، وللمشاكلِ وجلبِها إلى أهلِهِ مُحترفاً. ضَجِرَ الناسُ والأهلُ من تصرّفاتِ "شُعَيْث" وحياتِهِ الهوجاءَ، وانتظروا يومَ الخلاصِ منهُ ومن مشاكلِهِ. وما أنْ طَعَنَ في السّنِّ واقتربتْ ساعةُ وفاتِهِ على فراشِ الموتِ حتى هَمَسَ لأحدِ أقاربِهِ قائلاً: "أريدُ أنْ أخبرَكَ بأنّني قمتُ بالتناكحِ! معَ جارتِنا الأرملةِ السّيدةِ "خُبّيزة"؛ إذا ما تبيَّنَ أنّها حاملٌ فيما بعدَ وفاتِيَ فإنَّ ابنَها الوليدَ يعودُ لِيَ! من صُلبِيَ، وهاكُمْ أحذّرُكُمْ!". وما أنْ عَلِمَ أهلُ "شُعَيْث" والجيرةُ بالأمرِ حتى قالوا: "سوفَ لنْ نرتاحَ من هَمِّ "شُعَيْث" حياً كان أمْ ميتاً". هذه حالتُنا معكَ، قبلَ سفرِكَ وبعدَهُ؛ كان عليَّ أنْ أسَمِّيَكَ "شُعَيْث" بدلاً من حمد يومَ ميلادِكَ.
أبوالزهو: الآنَ خذْ هذا العودَ يا خالي! وأعطِنا شيئاً يفعلُ بعقولِنا ما لا تستطيعُ فعلَهُ كلُّ القنابلِ الذكيةِ والغبيةِ على حدٍّ سواءَ.
أبو جاسر: أنا الذي سأغنّي آخرَ أغنيةٍ لِيَ في هذهِ الحياةِ!. اعزفْ لِيَ يا سيدَ! حمد هذه المرةَ موسيقى للشيخ فريد! .. أغنيةَ ...... "بأى عايز تنساني" ......
السّيدُ حمد: .... دن دج دَن دج دن.....

أبو جاسر: بأى عايز تنساني؟! ... ترلملم .... وتطول حرماني! ... ترلملم.... طب إنسى ... وأنا حنسى ... أنا مش حرجعلك تاني ... أنا مش حرجعلك تاني ..... يا ظالم.. آه .... يا آسي .... بأى عايز تنساني؟! ....

أبوالزهو: عليكُما أنْ تُكْمِلا الغناءَ والعزفَ سويّةً وبدوري أستمعُ لكُما....

أبو جاسر: .... إيه بس اللي عملته؟! ... ديري را راَ .... إيه ذنبي اللي جنيته!. .... ده الألب (القلب) اللي أنت ملكته فاكرك ... فاكرك... فاكرك... فاكرك... وأنت نسيته....

السّيدُ حمد: يا والدِيَ أبو جاسر! إنّهُ لَحرامٌ عليكَ... لو يسمعُكَ الشيخُ "فريد الأطرش" سيتحولُ إلى عازفِ عودٍ ومُلحّنٍ لكَ لتغنيَ بدلاً عنهُ وليستمعَ بنفسهِ لصوتِكَ.

أبوالزهو: لكنْ ينقصُ الشيخَ "فريد" الإحساسُ والتجربةُ والتعقيداتُ الحياتيةُ من من مثْلِ اللاتي عندَ "الفنّانِ" الوالدِ أبو جاسر!...

أوّلُ الغربةِ السّفرُ

قبلَ بضعةِ أيامٍ من موعدِ سفرهِ ذهبَ السّيدُ حمد في رحلةِ وداعٍ تفقدّيةٍ لِمواقعِ القريةِ التي كانَ كثيرَ التردُّدِ عليها والعيشِ فيها والتي ستصبحُ بعدَ قليلٍ من قَبيلِ الذكرياتِ. هنالكَ قطعُ الأراضي الكثيرةُ التي كان يفلحُها أبو جاسر من أرضِ الأهلِ والأراضي التي كان يستأجرُها من أهلِ القريةِ. تفقّدَ السّيدُ حمد حدودَ أراضي القريةِ التي كثيراً ما كان "يَحومُ" حولَها أيامَ الدراسةِ في المدارسِ الابتدائيةِ والإعداديةِ والثانويةِ. هنالكَ جداولُ المياهِ ورؤوسُ الينابيعِ من التي يَحلو للسيدِ حمد "الحُلْمَ" بالشربِ منها وتعبئةِ بعضِ الأواني وإهدائِها إلى أعزِّ الأصدقاءِ على قلبهِ. يودِّعُ السّيدُ حمد السّهولَ التي يتحولُ لونُها من الأخضرِ الغامقِ إلى الأصفرِ الذهبيِّ الفاقعِ في كلِّ عامٍ. يستمعُ السّيدُ حمد للمرّاتِ الأخيرةِ في مسقطِ رأسهِ إلى أصواتِ العصافيرِ الذاهبةِ إلى المبيتِ في موعدٍ مبكّرٍ مع بدءِ الظلام السّاحرِ. يراقبُ الغروبَ الهادئَ الحزينَ الذي كثيراً ما كان السّيدُ حمد يطوي الجبالَ والوديانَ لكيْ يصلَ إلى أعلى نقطةٍ في مرتفعٍ يشرفُ على الشمسِ الغائبةِ خلفَ أمواجِ البحرِ الأزرقِ في الأفقِ البعيدِ. هنالكَ الوجودُ السّاحرُ كلُّه الذي سيتركهُ السّيدُ حمد وراءَهُ مسافراً إلى أصقاعِ الغربةِ والمصيرِ المعلّقِ على أجنحةِ ومُحرّكاتِ الطائراتِ!. ...... هنالكَ وهنالكَ الكثيرُ...

بعدَ ساعاتٍ من مغادرةِ الطائرةِ أجواءَ الوطنِ حطَّتْ في أحدِ المطاراتِ لاستضافةِ ركّابٍ جددٍ ومغادرةِ آخرينَ كانوا على متنِها وللتزوّدِ بالوقودِ. معظمُ ركّابِ الطائرةِ الآنَ من الجزءِ الشماليِّ الغربيِّ للكرةِ الأرضيةِ. من نافذةِ الطائرةِ نظرَ السّيدُ حمد من مقعدِهِ إلى ما حولَ المطارِ ليرى سهولاً من الأرضِ الزراعيةِ الخصبةِ الممتدةِ تتوسطُها بعضُ البيوتِ الصّغيرةِ التي يعلوها سطوحٌ من القرميدِ الأحْمرِ في منظرٍ جَميلٍ ومؤثّرٍ. رأى السّيدُ حمد المَزارعَ والجوَّ المشمسَ والذي تَخلَّلَهُ مرورُ سحاباتٍ صغيرةٍ خَفيفةٍ عابرةٍ في شكلِ وضعِ اللمساتِ الأخيرةِ على ذلكَ الجوِّ قبلَ أنْ تأتيَهُ السّحاباتُ الماطرةُ أو إحدى العواصفِ الهادئةِ!؛ كميّاتٌ

وافرةٌ وشبهُ منتظمةٍ من مياهِ الأمطارِ تروي تلكَ الأرضَ الغايةَ في الخصبِ. هنالكَ جوٌّ من نوعٍ آخرَ يدخلُ إليهِ السّيدُ حمد حيثُ وفرةُ مياهِ السّماءِ إضافةً إلى تدفّقِ مياهِ الأرضِ، في وضعٍ يَختلفُ كثيراً عن انتظارِ موسمِ هطولِ الأمطارِ في الوطنِ بعدَ صيفٍ طويلٍ. أحسَّ السّيدُ حمد أنّهُ يقعُ فكرياً بين أمرينِ متناقضينِ، هل ما يراهُ حلماً أمْ حقيقةً!؟، خيالٌ أم سرابٌ أم تدفقُ الحياةِ من جديدٍ!؟. تساءلَ السّيدُ حمد مع نفسهِ إنْ كان في الماضي موجوداً في الزمانِ والمكانِ الخطأيْنِ في تلكَ الحياةِ!. خطآنِ المسئولُ عنهُما بالدرجةِ الأولى الوالدُ أبو جاسر ولا أحداً غيرَهُ. ما كان ضرَّهُ فيما لو "تناكحَ" السّيدُ أبو جاسر مع إحدى نساءِ الجزءِ الشماليِّ الغربيِّ من الكرةِ الأرضيةِ ونَجّاهُ اللهُ وأنْجالَهُ من كابوسٍ قديمٍ ومتجدِّدٍ ناتجٍ عن فقرٍ مدقعٍ وجاهٍ معدومٍ؛ أو كان عليه أنْ لا يتناكحَ مع إحدىً على الإطلاقِ!.

انطلقتْ الطائرةُ من جديدٍ ولا يزالُ في ذهنِ السّيدِ حمد "أطنانٌ" من الأسئلةِ والقلقِ والحيرةِ؛ أهمُّ تلكَ الأسئلةِ المقلقةِ وأكثرُها إلحاحاً في ذلكَ الوقتِ هو هل ستمضي الطائرةُ في رحلتِها حتى الهدفَ الأخيرَ المبتَغى لَها؟. هل ستنحرفُ الطائرةُ عن الممرِّ الجويِّ وتعودُ أدراجَها إلى حيثُ بدأتْ؟. هل ستنجو من "المطبّاتِ" الهوائيةِ الصّغيرةِ والكبيرةِ ومن احتمالِ حدوثِ خللٍ فنيٍّ في أحدِ مُحرّكاتِ الطائرةِ؟!. يلتفتُ السّيدُ حمد حولَهُ كثيراً ويُحاولُ في كلِّ مرّةٍ التأكدَ من أنَّ الذي يَحدثُ معهُ حقيقةٌ وليس حلماً أو خيالاً!.

السّيدُ حمد: هل أنتَ متأكّدٌ يا صديقِيَ الذي تَجلسُ بِجانبِيَ أنَّ الطيّارَ لَمْ يُخطئْ وأنَّ الطائرةَ تتبعُ الممرَّ الجويَّ المخصصَ لَها للطيرانِ؟. قبلَ كلِّ ذلكَ هل لكَ أنْ تثبتَ لِيَ بما لا يدعُ مَجالاً للشكِّ أنّني وأنتَ في رحلةٍ حقيقيّةٍ وأنّني لا أحلمُ؟!، أيُّ برهانٍ أو إثباتٍ!.

صديقُ وجارُ كرسيِّ السّيدِ حمد في الطائرةِ: نعمْ! وبكلِّ تأكيدٍ، لقد سافرتُ من قبلُ إلى ذلكَ المكانِ عدةَ مرّاتٍ. الطائرةُ تطيرُ على ارتفاعِ حواليْ خَمسٍ وثلاثينَ (٣٥) ألفَ قدماً والذي تراهُ حولَكَ ركّاباً. هذه مُضيفةٌ حقيقيّةٌ جَميلةُ الشكلِ وعذبةُ القوامِ، وذلكَ أحدُ أهمِّ أسبابِ اختيارِها لِمثلِ هذهِ الوظيفةِ. أضعُ يدِيَ على رأسِكَ وأشدُّ أذنَكَ وشعرَكَ لتُحِسَّ بذلكَ. أقومُ بوضعِ إصبعِيَ بعينِكَ لتفيقَ من نومِكَ إنْ كنتَ نائماً؛ أنت صاحٍ على نفسِكَ وبكاملِ قواكَ العقليةِ ووعيِكَ. أنا الذي سأذهبُ إلى النومِ لأنَّ السّفرَ هذا طويلٌ ومُملٌّ وأرجو منكَ أنْ توقظَنِي من نومِيَ بعدَ ساعتيْنِ من الآنَ إنْ ما تزالُ يقظاً...

على الجانبِ الآخرِ من مكانِ جلوسِ السّيدِ حمد كانتْ تَجلسُ عائلةٌ من الجنسِ الأشقرِ مكوّنةٌ من أبٍ وأمٍّ وطفلٍ يانعٍ وآخرَ رضيعٍ لزجاجةِ حليبٍ!. ما هي إلا دقائقُ تَمضي حتى بدأ الأبُ بتغييرِ "حَفاظِ" الولدِ الصّغيرِ الرضيعِ؛ وضعَهُ في حضنهِ وقامَ بكلِّ العمليةِ وزوجتُهُ بجانبِهِ منهمكةٌ بقراءةِ إحدى الرواياتِ. لَمْ يفلتْ ذلكَ الأبُ الأشقرُ من نظراتِ حمد أثناءَ عمليةِ تغييرِ حفّاظِ الولدِ الصّغيرِ طويلاً، ممّا اضطرَّ ذلكَ الرجلُ لسؤالِ السّيدِ حمد عن ما هو الغَريبُ أو العجيبُ في الأمرِ!.

الأبُ الأشقرُ: أراكَ تنظرُ إليَّ كما لو كان هنالكَ شيءٌ غريبٌ تراقبُ حركتَهُ!.

السّيدُ حمد: آسفٌ أيها الرفيقُ؛ أنا قادمٌ من عالَمٍ لا يوجدُ فيهِ لديْنا أولاً حفّاظٌ للطفلِ كهذا، وإنْ وجدُ فإنهُ لا يوجدُ رجلٌ واحدٌ، وعلى حسْبِ علمِيَ، يقومُ بِها لا سراً ولا

جهراً. إنّهُ منظرٌ غيرُ مألوفٍ على الأقلِّ، وإنْ قامَ بهذا العملِ رجلٌ في منطقتِنا فإنَّ هنالكَ خللاً في بنيتِهِ العقليةِ أو النفسيةِ أو المهنيةِ الاجتماعيةِ!.
الأبُ الأشقرُ: هنالكَ الكثيرُ من الشعوبِ المُختلفةِ الطباعِ والثقافاتِ؛ ما العيبُ في أنْ يقومَ الرجلُ بمثلِ هذه الأعمالِ؟!.
الأمُّ الشقراءُ: عندَما كنتَ طفلاً صغيراً ألَمْ يقمْ والدُكَ بتغييرِ الحفّاظِ لكَ، أو ذلكَ الشيءِ الذي تستعملونَهُ للولدِ بدلَ الحفّاظِ؟!.
السّيدُ حمد: لو كانَ الوالدُ أبو جاسر مُجبراً على القيامِ بمثلِ هذه الأعمالِ لَما أقدمَ على إنْجابِ ما لا يقلُّ عن خمسةَ عشرَ فرداً. لَمْ يكنْ أبو جاسر ليتوقّفَ عن الإنْجابِ إلا عندما تجاوزتْ الوالدةُ أم جاسرٍ سنَّ اليأسِ الحقيقيِّ بفترةٍ طويلةٍ!. في مثلِ هذهِ الأمورِ الرجلُ عندَنا مثلُهُ مثلَ أيِّ ذكرٍ آخرَ تقريباً، خُلقَ للتلقيحِ بشكلٍ شبهِ رئيسيٍّ!.
بعدَ ساعاتٍ عدةٍ وطويلةٍ حطّتْ الطائرةُ في أكبرِ مطارٍ في العالَم، ربَّما، من حيثُ الحجمِ والحركةِ والعملِ وعددِ البشرِ من المقيمينَ والمسافرينَ والعائدينَ. خليةُ نَحْلٍ بشريةٌ كبيرةٌ ومتراميةُ الأطرافِ والأبعادِ. يواجهُ السّيدُ حمد الآنَ أوّلَ شرطيٍّ أو ضابطِ أمنٍ حضاريٍّ، وليسَ كلباً بشرياً! مدرَّباً على القيامِ ببعضِ الأعمالِ.
مسئولةُ التأشيراتِ (ضابطةُ شرطةٍ من اللونِ الأسْمرِ): هنالكَ شيءٌ ناقصٌ في البياناتِ المقدّمةِ وهنالكَ الكثيرُ من الفراغاتِ غيرِ المعبّأةِ في طلبِ التأشيرةِ والإقامةِ لكَ يا سيدَ! حمد...
السّيدُ حمد: من؟!.. أنا؟!، أهنالكَ أشياءٌ ناقصةٌ في الطلبِ؟!!. كتبتُ كلَّ شيءٍ أعرفُهُ. هذه هي حقيبتِيَ الصّغيرةُ وبِها كلُّ الأوراقِ المطلوبةِ، أو الممكنِ أنْ تكونَ مطلوبةً!.... موجودةٌ.....
مسئولةُ التأشيراتِ: .... لا تقلقْ أبداً!، ها قد خَتَمْتُ لكَ الطَّلبَ وعلى كافةِ النُّسخِ المرفقةِ، وهذا كذلكَ ختمُ المطارِ على جوازِ سفركَ. وإذا ما تريدُ أنْ توقعَ الختمَ على أيِّ شيءٍ آخرَ، تفضَّلْ ... تَحْتَ أمركَ!. توجَّهْ الآنَ إلى قاعةِ استلامِ حقائبِ السّفرِ وبعدَها باستطاعتِكَ الدخولُ إلى فضاءِ الحريةِ اللا-مَحدودِ أمامَكَ خارجَ المطارِ.
السّيدُ حمد: آهٍ... لو بيديَ... لسلَّمتُها قيادةَ جهازِ الشرطةِ بالكاملِ في المدينةِ (الأمِّ!) إنْ قبلتْ ذلكَ. آخ عليكِ لو تعطينَ درساً واحداً من دروسِ السّلوكِ والاحترامِ لقوى "الدَّرَك الوطني العام" عندَنا كلِّها. آخ... لو كانَ هذا الأمرُ ذاتُهُ قد حصلَ عندَ شرطةِ بلادِيَ العزيزةِ لكانَ يوماً عسيراً مشهوداً لهُ في تاريخِ حياتِيَ.
كانَ على السّيدِ حمد أنْ يذهبَ إلى مدينةٍ أخرى بعيدةٍ؛ لذلكَ ومن نفسِ المطارِ استقلَّ طائرةً أخرى متجهةً إلى تلكَ المدينةِ بعدَ حوالَيْ السّاعةِ من دخولِهِ المطارَ. كانت الطائرةُ الأخرى صغيرةَ الحجمِ نسبياً وما أنْ جلسَ السّيدُ حمد على أحدِ المقاعدِ فيها حتى دخلَ في نومٍ عميقٍ؛ أيقظتْهُ بعدَ ذلكَ بقليلٍ مضيّفةٌ جَميلةٌ رشيقةُ القوامِ مقدِّمةً لهُ بعضَ القهوَةِ وبعدَها بعضَ الحَسا وقليلاً من الطعامِ. بعدَ ذلكَ كانَ على السّيدِ حمد أنْ يستقلَّ طائرتيْنِ أخريَيْنِ حتى الوصولُ إلى المدينةِ النهائيةِ حيثُ سيستقرُّ لهُ الوضعُ هناكَ.. ......
ما أنْ خرجَ السّيدُ حمد من الطائرةِ نَحْوَ قاعةِ الأمتعةِ في المطارِ الأخيرِ في الرحلةِ حتى بادرَهُ صوتٌ ينطقُ بالعربيةِ لَمْ يكنْ يتوقعُهُ السّيدُ حمد على الإطلاقِ!؛ " هلْ أنتَ السّيدُ حمد أبو جاسر". أرسلَ "الاتحادُ الدوليُّ للطلبةِ" في الجامعةِ، جامعةِ "بامالوسا"، أحدَ الطلابِ العربِ من المقيمينَ من قبلُ هناكَ وذلكَ لاستقبالِ

السّيدِ حمد. ذلكَ لأنَّهُمْ، أيْ المسئولونَ هناكَ، افترضوا أنَّ ذلكَ الشخصَ من أقربِ الناسِ للتعاملِ مع أبناءِ جلدتهِ أو سحنتهِ!. بسيارةِ السّيدِ "خيّاط" (مندوبِ الاتّحادِ الدوليِّ للطلبةِ)، كما عرَّف عن نفسهِ، تَمَّ نقلُ السّيدِ حمد إلى مكانِ سكنِ الأوَّلِ في أحدِ مساكنِ الطلبةِ من نوعِ البروجِ المُشَيَّدَةِ.

السّيدُ "خيّاط": يوجدُ هنا مَجموعةٌ لا بأسَ عليْها من الطلابِ العربِ. هؤلاءِ أتوْا من قبائلَ مُختلفةٍ، ومن جنسياتٍ مُختلفةٍ، ومن ميولٍ حزبيةٍ وطائفيةٍ مُختلفةٍ، ومنهُمْ تابعونَ لِحكوماتٍ مُختلفةٍ، ومنهُمْ وفيهِمْ أصحابُ سوابقَ في دولٍ ومعَ حكوماتٍ مُختلفةٍ، ومنهُمْ وفيهِمْ تابعينَ لأجهزةٍ مُخابراتٍ مُختلفةٍ. لا شيءَ يَجمعُ بينَهُمْ تقريباً، وبشكلٍ فعالٍ جداً، إلا الخلافُ والاختلافُ والتفرقةُ.

السّيدُ حمد: أخِيَ! السّيدَ "خيّاط"، إنَّ لديَّ عقليةً ... عن كلِّ هذا وذاكَ مُختلفةٌ!. أنا وأبوالزهو روحٌ واحدةٌ انقسمتْ في جسمينِ متباعديْنِ الآنَ. لقد مضى عليَّ في الجوِّ أكثرَ من ثلاثينَ (٣٠) ساعةً وحسْبَ "النظريةِ النسبيةِ" فإن هنالكَ فرقاً في زمنِ العمرِ يُحسبُ في صالِحِيَ لأنني سافرتُ باتّجاهٍ يسايرُ حركةَ الزمنِ!. أنا هاربٌ من قيودِ الماضي المذلّةِ والمقيّدةِ للفكرِ والإبداعِ في مسقطِ رأسِيَ وبلدِيَ ووطنِيَ الصّغيرِ قبلَ الكبيرِ. لا أريدُ أنْ أسبحَ مرَّةً أخرى في بِرْكةٍ من الوحلِ بعدَ أنْ هربتُ من بَحرِ القمامةِ المتجمعةِ من نزواتِ العصورِ البائدةِ واللاحقةِ. أقولُ لكَ أنَّ سؤالَ أبوالزهو يظلُّ يلاحقُنِي دائماً؛ "ماذا أنْجزتَ وماذا جلبتَ لنفسِكَ ولَنا؟". فقط أريدُ أنْ أصبحَ قادراً على أنْ أفتحَ عينيَّ بعيونِ أبوالزهو، وأنْ أرفعَ رأسِيَ برأسهِ عندما أخاطبُهُ.

وصلَ السّيدُ حمد إلى البيتِ ومكثَ فيهِ يوماً أو بعضَ يومٍ مع السّيدِ "خيّاط"، أو لنقُلْ اضطُرَّ، قبلَ أنْ ينتقلَ إلى مكانِ سكنهِ الدائمِ في نفسِ البُرجِ المشيَّدِ ولكنْ في طابقٍ مُختلفٍ. في البدايةِ كانَ وحيداً في السّكنَ في حجرتهِ. بعدَ قليلٍ من حينهِ انتقلَ إلى حجرةٍ أخرى في بنايةٍ أخرى مشتركاً مع طلابٍ أُخَرٍ من تلكَ الجامعةِ في السّكنِ. حدثَ تعارفٌ بينَ السّيدِ حمد وبينَ عَينةٍ لا بأسَ بحجْمِها من الطلابِ من أبناءِ جلدتهِ وملَّتهِ هناكَ.

السّيدُ "شيّاط": مضى عليَّ من الوقتِ هنا حواليْ أربعُ (٤) سنواتٍ وتنقَّلتُ بين عدةِ جامعاتٍ، وبقيَ لِيَ حواليْ ثلاثُ (٣) سنواتٍ للتخرّجِ حسبَما أتوقّعُ!. نُمضي وقتاً مُمتعاً مع الشبابِ هنا، الشّبابُ يثيرونَ إعجابَكَ بِهِمْ. غداً ليلاً عندِيَ موعدٌ مع فتاةٍ من أصلٍ آسيويٍّ ... جميلةٌ!.

السّيدُ حمد: وماذا يعْني أنْ يكونَ لكَ موعدٌ مع فتاةٍ آسيويةٍ جَميلةٍ وطوالَ الليلِ؟!.

السّيدُ "لاطي": فلْيُفْهِمْهُ أحدُكُمْ؛ كلُّ شيءٍ يَختلفُ هنا عمّا كنت تفكّرُ بهِ في الماضي!. إنَّ زمانَ "أخْتِيَ" أو "أختِنا" أو "أخِيَ" أو "أخينا" ..... ها ها ها ...... مضى!...

السّيدُ "هوّاط": أنتظمُ في نفسِ الكلّيةِ التي تودُّ الالتحاقَ بأحدِ أقسامِها. الدراسةُ هنا سهلةٌ جداً إذا ما فكَّرْتَ أنَّها سهلةٌ والعكسُ صحيحٌ!. وأيُّ شيءٍ ينقصُ عليكَ فالشبابُ هنا وأنا جاهزونَ!.

السّيدُ "لاطي": في الشارعِ رقْمِ أربعٍ وأربعينَ (٤٤) وعلى مدارِ السّاعةِ، هنالكَ الشُّربُ والقِمارُ والمَجونُ. أيَّ وقتٍ ترغبُ بعملِ أيِّ شيءٍ سوفَ أوصلُكَ معِيَ

بسيارتِيَ المارسيدس والتي اشتريتُها الأسبوعَ الماضي فقط، بعدَ أنْ بعتُ سيارتِيَ الرياضيةَ السّابقة....
السّيدُ "شَريخ": آنَ لكَ أنْ تغيِّرَ مفاهيمَكَ عن الحياةِ. "أعطِ ساعةً لربِّ الحبيبِ وساعةً أخرى لقربِ الحبيبِ"!. إنَّ عنديَ زوجةً حسْبَ قانونِ الزواجِ وزوجاتٍ أخرى بدونِ قانونِ زواجٍ ويُحبّونني وأحبُّهُمْ أكثرَ مِمّا لو كنتُ متزَوِّجاً منهُنَّ قانونياً. لا يوجدُ أحسَنَ منَ الحريَّةِ في كلِّ شيءٍ!.
السّيدُ حمد: سَمِعْتُ في البلادِ أنَّ الذي يهملُ ويشذُّ في حياتهِ في الغربةِ يضيعُ ويفقُرُ ويَخْرُبُ بيتُهُ. أرى، كما يبدو لِيَ، الوضعَ عندكُمْ يَختلفُ إنْ لَمْ تَخُنِّ عيناي وتَزُغْ بِيَ بصيرتِيَ. ربّما تكونُ تلكَ إحدى إشاعاتِ المتحجّرينَ عقائدياً. الشبابُ هنا يَحمِلونَ الشاباتِ المُحتَرَماتِ! في المارسيدس وأهلُهُمْ في البلادِ يَضعونَ أحلامَهُمْ على أكفِّ أنْجالِهِمْ في الغربةِ. ولكنْ! اسْمعوا جَيداً وعوا كذلكَ جيداً؛ لَمْ آتِ هنا لأعجبَ بشبابٍ أو شاباتٍ أو تصرفاتٍ منضبطةٍ أخلاقياً أو شاذةٍ عقلياً ....
السّيدُ "خلاّع": من أوَّلِها لا ينفعُ معهُ الكلامُ. سوفَ آتي لهُ بسيجارٍ خاصٍّ بهِ حتى يذوقَ طعمَ التجلّي الصّحيح!.
السّيدُ حمد: هل لأحدِكُمْ أنْ يدلّني على مكانٍ يبيع أدواتٍ موسيقيةٍ، أريدُ أنْ أشتريَ عوداً. هذا كلُّ ما أريدُهُ من هذا التجمّعِ الموفّقِ في شيءٍ واحدٍ فقط ..... الدّعارةَ الرعناءُ!.
السّيدُ "ميمتْ أوغلو" (طالبٌ تركيٌّ): هنالكَ مَحلٌّ لعجوزٍ تركيٍّ قَدِمَ أهلُهُ إلى هذه البلادِ منذُ سقوطِ الدولةِ العثمانيةِ، وأعتقدُ أنّهُ أكثرَ شخصٍ يُمكنُهُ أنْ يلائِمَ عقلَكَ وذوقَكَ. شواربُهُ! كأنّما السّلطانَ الراحلَ عبدَالحميدِ الأوَّلَ خالُهُ .... ها ها ها...
السّيدُ حمد: يا شباباً! أودُّ أنْ أقولَ لكُمْ أنّني لا أستطيعُ الاعتراضَ أو الموافقةَ على ما تتحلَّوْنَ بهِ من صفاتٍ. علّمتني تَجربتِيَ القاسيةُ في الحياةِ أنَّ الذي أعترضُ عليهِ اليومَ قد لا يكونُ ذلكَ اليومُ بعيداً، عندما تؤدّي بِيَ الأمورُ إلى أنْ أعيشَ تلكَ الظروفَ؛ حسنةً تكونُ تلكَ الظروفُ أم سيئةً، راضياً حينَها أكونُ أو مضطراً. لكنْ من رأيِيَ، فقط رأيِيَ، أنْ تُخففوا ولو قليلاً من الاعتمادِ على أعضاءِ التناسلِ والإخراجِ عندَكُمْ لتقريرِ سلوكِكُمْ ومصائرِكُمْ!.

مقابلةٌ مع المشرفِ الأكاديميِّ

كانَ الوقتُ صباحاً ومشمساً بعدَ عاصفةٍ مُمطرةٍ خفيفةٍ؛ قادَ السّيدُ "هاري" زميلَهُ الجديدَ، السّيدَ حمد، إلى القسمِ ليقابلَ رئيسَ القسمِ هناكَ الدكتورَ "ثورصن". يقعُ مكتبُ الدكتورِ "ثورصن" في الطابقِ الأرضيِّ لبنايةٍ صغيرةٍ مكونةٍ من ثلاثِ طوابقَ صغيرةٍ أيضاً. على مدخلِ المكتبِ كانت تقفُ سيارةُ "جيبْ" (ذاتُ دفعٍ رباعيٍّ) لهُ، وعلى دواليبِها كانت تبدو آثارُ وحلٍ مَمزوجةً بروثِ أبقار. كما يبدو أنَّ تلكَ السّيارةَ قد مرَّتْ من مزرعةٍ للحيوانِ أو كانتْ مصطفةً في حظيرةٍ للحيوان. تبيَّنَ فيما بعدُ أنَّ الدكتورَ "ثورصن" يَمتلكُ أو يديرُ مزرعةً للأبقارِ بالإضافةِ إلى

عملهِ الأكاديميِّ والإداريِّ في جامعةِ "بامالوسا". الدكتورُ "ثورصن" نفسُهُ شديدُ "الكارزميةِ" لروحهِ الخفيفةِ وابتسامتهِ متقنةِ التوقيتِ وأسنانهِ الصّحيةِ والتي كانتْ ناصعةَ البياضِ. إلى جانبِ ذلكَ فهو غزيرُ شعرِ الرأسِ خفيفُ شعرِ الذقنِ وليس لهُ شواربٌ، مِمّا جعلَ السّيدَ حمد يفكّرُ أنَّ ذلكَ قد يكونُ ساعدَهُ في التفرُّغ للوصولِ إلى درجةٍ متقدّمةٍ من العظمةِ!؛ فهو لا يقلقُ كثيراً على حلقِ ذقنهِ، وشعرُ رأسهِ أملسٌ سارحٌ ممّا يَجعلُهُ على درجةٍ مقبولةٍ من الحيويةِ والجمالِ سواءً أكانَ شعرُهُ قصيراً أمْ طويلاً. إلا أنَّ تلكَ التوقّعاتِ سرعانَ ما بدَّدَتْها الحقائقُ؛ كان الدكتورُ "ثورصن" يُجاهدُ في السّعي للبقاءِ في مركزهِ إثرَ اتّهامِ زملائهِ لهُ بأنَّ القسمَ عندَهُ يأتي في الدرجةِ الثانيةِ، وربّما الثالثةِ والرابعةِ، منَ الاهتمامِ بعدَ اهتمامهِ بحظيرةٍ للأبقارِ لديهِ ... وما يتبعُ ذلكَ.

ما سبقَ من أمورٍ خاصةٍ بالدكتورِ "ثورصن" لَمْ تغيِّرْ من اهتمامِ السّيدِ حمد والذي طلبَ من رئيسِ القسمِ مساعدتَهُ في إعدادِ خطةٍ دراسيةٍ مناسبةٍ لَهُ للحصولِ على درجةِ الدكتوراه. افترَضَ الدكتورُ "ثورصن" أنَّ السّيدَ حمد سيكونُ تلميذاً عندَهُ هو شخصياً، وليس عندَ غيرهِ، لنيلِ شهادةِ الدكتوراه. استجابَ الدكتورُ "ثورصن" لكلِّ طلباتِ السّيدِ حمد المتواضعةِ والطموحةِ على حدٍّ سواءَ. كانت نتيجةُ ذلكَ وضْعَ خطةٍ دراسيةٍ عمليةٍ تؤدي في ثلاثٍ، أو أربعِ سنينَ على الأكثرَ، إلى نيلِ شهادةِ الدكتوراه. لَمْ تكنْ عندَ السّيدِ حمد أيّةُ شروطٍ مسبقةٍ أو تحفظاتٍ على صلاحيةِ أو مصداقيةِ من يقودُهُ إلى ذلكَ لطالَما أنَّ الخطةَ التي رُسِمتْ للتوِّ، في حينهِ، تسيرُ على النهجِ المرسومِ. ما أنْ بدأتْ الدراسةُ وخلالَ فترةٍ ليستْ بالطويلةِ ولا بالقصيرةِ حتى أخذَتْ تتبيّنُ للسيدِ حمد أنَّ الخطةَ لن تسيرَ على النهجِ المبتغى ولو حتى بنسبةِ عشرينَ بالمئةِ (٢٠%)، وأنَّ هنالكَ بعضَ الضحكِ على اللحى والذقونِ! من جانبِ الدكتورِ "ثورصن". عندَها أيقنَ السّيدُ حمد أنَّ عليهِ تغييرَ كلِّ ما يُمكنُ تغييرُهُ وبأقصى سرعةٍ مُمكنةٍ!؛ لكنَّهُ لا يَمتلكُ قرارَ نفسهِ من ناحيةِ المصروفِ ولا المسافةِ الزمنيةِ الممنوحةِ لهُ للحصولِ على درجةِ الدكتوراه.

في كلِّ مرّةٍ كانَ السّيدُ حمد يقابلُ الدكتورَ "ثورصن" لِمناقشةِ مسألةٍ علميةٍ كان الأخيرُ يُحاولُ شرْحَ ما بفكرهِ من العلمِ في "مُجسّماتٍ هوائيةٍ" وبالإشارةِ فقطْ في حالٍ يشابهُ حالَ الشرحِ للصمِّ. على واقعِ الأرضِ، تقريباً لا شيءَ يكادُ بالخيرِ يذكرُ لا علمياً ولا نفسياً ولا اجتماعياً ولا مادياً. في إحدى المراتِ كانَ للسيدِ حمد وصديقهِ في الكلّيةِ السّيدِ "هاري" بعضُ النقاشِ مع الدكتورِ "ثورصن" في مكتبِ الأخيرِ...

الدكتورُ "ثورصن": يبدو لِيَ أنَّ حظَّكُمْ في إنشاءِ دولةٍ أو كيانٍ سياسيٍّ لكُمْ في بلادِكُمْ معدومٌ!. أصلاً لَمْ يكنْ هنالكَ لكُمْ دولةٌ!. لِماذا تصرّونَ على إنشاءِ دولةٍ لكُمْ الآنَ؟!.

السّيدُ "هاري": ها هي هي هي.... على الطرفينِ أنْ يَجلسا على طاولةِ المفاوضاتِ ويقوما بخطواتٍ عمليةٍ نَحْوَ إقامةِ سلامٍ بين الطرفينِ. غيرَ ذلكَ فسوفَ تستمرُّ حالةُ العنفِ في الشرقِ الأوسطِ!. ها هي هي هي....

السّيدُ حمد: دكتورُ "ثورصن"! أوّلاً إنّكَ تبتعدُ كثيراً عن موضوعِ العلمِ والبحثِ والدراسةِ. ثانياً، وهو يَجبُ أنْ يأتِيَ قبلَ أوّلاً، هو أنْ الوضعَ الذي يؤدّي بِشعبٍ أنْ

يتقرَّرَ مصيرُهُ من أناسٍ من مثلِكَ، فليقرأْ على حالِهِ ومصيرِهِ "الفاتِحةَ"؛ حتى وإنْ استمرَّ ذلكَ الشعبُ على قيدِ الوجودِ!.
الدكتورُ "ثورصن": قصدتُ ما قلتُ حسْبَ معرفتِيَ عن القضيةِ من الكتبِ النفيسةِ والمعلوماتِ القيّمةِ التي كثيراً ما أقومُ بقراءتِها والحصولِ عليها بالشراءِ!.
السّيدُ حمد: أرجو أنْ يكونَ فهمُكَ في العلمِ الذي تدرِّسُهُ أحسنَ من فهمِكَ في الجغرافيا السّياسيةِ؛ وأنْ يكونَ الاثنانِ بعيديْنَ عن جوِّ روثِ أبقارِ الحظيرةِ والذي تربطُ فكرَكَ، كما يبدو، بهِ لِجنْيِ أكبرِ قدرٍ مُمكنٍ من الأرباحِ على حسابِ عملِكَ المفترضِ هنا. لقد مضى عليَّ وقتٌ ليسَ بقصيرٍ وكلُّ ما اكتشفتَهُ هو أنَّكَ وقِسْمَكَ غيرُ جديريْنِ بعملِ أبْحاثٍ تؤدي إلى درجةِ دكتوراه أو حتى درجةِ "دكتوراه". إذا ما استمرَّ الوضعُ معكَ على ما هو عليهِ فأنا متأكّدٌ أنني مقبلٌ على خيبةِ أملٍ جديدةٍ لكنَّها لن تكونَ أكثرَ مقتاً من سابقاتِها!.
الدكتورُ "ثورصن": يا سيدَ حمد! لا تُحاولْ أنْ تستغلَّ حريةَ الكلامِ والرأيِ هنا لكيْ تكونَ متطرّفاً في الفكرِ والتحدّثِ في طريقةِ عرضِكَ لآرائِكَ، حتى وإنْ كانتْ صحيحةً!. أعرفُ أنَّ في بلادِكُمْ وعندَ شعوبِكُمْ يوجدُ كبتُ فكرٍ ورأيٍ بشكلٍ مؤسفٍ.
السّيدُ حمد: أنتَ على أقلِّ من نصفِ صحٍّ تقريباً في ذلكَ. أريدُ أنْ أخبرَكَ بأنني قادمٌ من منطقةٍ ليستْ بعيدةً كثيراً عن مكانِ ظهورِ أحدِ الشعراءِ اللامعينَ الذي قالَ: "شعبٌ إذا ضُربَ الحذاءُ .. .."!. بيتُ الشعرِ هذا وذاكَ الشاعرُ الذي قالهُ من أكثرِ أبياتِ الشعرِ والشعراءِ، على التوالي، تقبُّلاً وشعبيةً عندَ تلكَ الشعوبِ؛ عندَ طبقاتِ البرجوازيينَ والعمالِ والمثقفينَ وحتى طبقةِ الكومبرادورِ وعلى حدٍّ سواءَ!. لا يَحدثُ هذا أبداً في البلادِ وعند الشعوبِ التي تتمتعُ "بسمعةِ" احترامِ الفكرِ والرأيِ، بالرغمِ من أنَّ الوضعَ في بعضِ هذهِ الدولِ وعندَ تلكَ الشعوبِ قد يكونُ أكثرَ حتى فداحةً!.
قامَ السّيدُ حمد بإرسالِ رسالةٍ إلى مكتبِ مديرِهِ (المسئولِ عن البعثةِ) في العاصمةِ يُخبرُهُ فيها بتعثّرِ سيرِ الأمورِ مع الحالةِ الأكاديميةِ معهُ. أبدى مديرُ المكتبِ تفهماً لكنَّهُ قالَ إنَّ أيَّ إجراءٍ مُحتملٍ لإصلاحِ الأمرِ لن يأتِيَ بالسّرعةِ المطلوبةِ!. وأجرى السّيدُ حمد اتصالاً هاتفياً مع الأهلِ ليخبرَهُمْ عن أحوالهِ وما وصلتْ إليهِ الأمورُ "العلميةُ" حتى ذلكَ الوقتِ في حينِهِ.
السّيدُ حمد: عسى أنْ تكونوا بخيرٍ وبصحةٍ جيدةٍ، الأمورُ هنا على ما يرامُ ولا تزالُ تَحْتَ السّيطرةِ والتحكّمِ؛ ضغطُ دمٍ عاديٍّ والقلبُ لا يزالُ يعملُ بشيءٍ من الانتظامِ، والحالةُ الماديةُ لا بأسَ عليْها. لقدْ اشتريتُ سيارةً يتمُّ تمويلُها من المصرفِ القريبِ من هنا، وعلى مدى الأربعةِ أو الخمسةِ سنينَ القادمةِ. أصبحَ جزءٌ من البعثةِ الدراسيةِ يذهبُ قسطاً لتمويلِ السّيارةِ الصّغيرةِ الحجمِ وصاحبةِ لونٍ كلونِ ثمرةِ الخرّوبِ الناضجةِ.
سرحان وأبوالزهو: وهل تقودُ سيارةً بدونِ رخصةِ قيادةٍ أو أنَّكَ حصلتَ على رخصةِ قيادةٍ. لقد بذلتَ جهداً كبيراً وغيرَ موفَّقٍ للحصولِ عليها من هنا في هذه البلادِ من قبلُ.
السّيدُ حمد: يا سيدَ سرحان، هذه البلادُ هنا من أكثرِ بلدانِ العالَمِ ملاءمةً لعملِ السّماسرةِ. ما أنْ هَمسْتُ لنفسِيَ أنني بحاجةٍ إلى سيارةٍ حتى اقترَبَ منّيَ أحدُهُمْ و"أطعمنِيَ خازوقينِ"؛ الأوّلُ بِمساعدتِيَ للحصولِ على رخصةِ قيادةٍ وفي مقدمةٍ

للخازوقِ الثاني ألا وهو شراءُ سيارةٍ من وكالةٍ لبيعِ السّياراتِ يعملُ هو فيها. ما يتلو بعدَ ذلكَ من خوازيقَ يكونا هذانِ الخازوقانِ الأساسَ فيها.

أبو جاسر: أنا يا ولدِيَ! الآنَ كبيرٌ في السّنِّ وضعيفُ الجسمِ. أرجو أنْ تأخذَ بالَكَ من نفسِكَ ومِن دراستِكَ وعلمِكَ وأنْ تحاولَ أنْ تعودَ إلينا في أقربِ وقتٍ مُمكنٍ بعد أنْ تكونَ حققْتَ طموحاتِكَ. نَحْنُ بِحاجةٍ إلى وجودِكَ معنا، نَحْنُ الذين ربّيناكَ وتَعبْنا عليْكَ.

أم جاسر: عسى أنْ لا تتلاهى بأمورٍ لا تفيدُكَ من قريبٍ أو بعيدٍ!. إيّاكَ أنْ تغرِيَكَ المظاهرُ الخادعةُ في تلكَ البلادِ وتصرِفَ فلوسَكَ على أمورٍ في غيرِ مَحلّها.

أبوالزهو و"هيما": وما أخبارُ العودِ والموسيقى من عندِكَ. يا ظالِم ..... ترلا لا لا .... يا قاسي .... ترلا لا لا.. ... بأى عايز تنساني؟... ....

السّيدُ حمد: أحسُّ بأنَّ صوتَ الوالدِ أبو جاسر مثْلَ صوتِ المودّعِ للحياةِ؛ أخبْرنِ بصدقٍ يا أخِيَ سرحان، هل هو بخيرٍ وبِصحةٍ جيدةٍ. هل لكَ أنْ تطمئِنَني عنهُ؟!.

سرحان وأبوالزهو: لا نُخفي عليكَ سراً أنّهُ قبلَ أسبوعينِ تقريباً سَقَطَ وسطَ الشارعِ مُغمىً عليهِ عندَما كُنّا نسيرُ مع بعضِنا راجعينَ من حقلِ الأشجارِ. وعندَما نقلناهُ، بالتعاونِ مع بعضِ المارّةِ في الشارعِ، إلى المستشفى أخبرَهُ الطبيبُ هناكَ أنّها كانتْ جلطةً خفيفةً على الدماغِ....

"كاملة": .... نصحَهُ الطبيبُ بأنْ لا يرهقَ جسمَهُ وعقلَهُ ومن الممكنِ أنْ تعودَ إليهِ الجلطةُ الدماغيةُ في أيِّ وقتٍ وبشكلٍ لا أحدَ يقدرُ أنْ يتكهَّنَ بقوتِها ونَتائجِها.

السّيدُ حمد: لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ، لقد تركتُ الوالدَ في حالةٍ صحيةٍ جيدةٍ، ما الذي يَحصلُ معهُ الآنَ؟.

سرحان: دائماً عندما تبعثُ لهُ رسائلَ تُهَيِّجُ أعصابَهُ خاصةً حينَ تصفُ لهُ فيها "صحراءَ الغربةِ وتعطشَكَ الدائمَ لِمسقطِ رأسِكَ وحنانِ والديْكَ". كذلكَ كنتَ تكتبُ لهُ أنَّكَ تلاقي في تلكَ البلادِ ما كنتَ دائماً تَحلمُ بهِ. هذا يَجعلُ أعصابَهُ ودماغَهُ في حالةٍ لا يُحسدُ عليها قد تؤدّي إلى ما أدَّتْ إليهِ معَ أشخاصٍ آخرينَ من قبلُ كانوا أحياءَ!.

السّيدُ حمد: يا سرحان!، لا تؤاخذنِ في ذلكَ، تلكَ كلماتٌ و"أكليشيهاتٌ" تُكرَّرُ في الرسائلِ منها ما هو لِمَلْءِ حيّزٍ في الرسالةِ ومنها لطمأنةِ المرسَلِ إليهِ أو حتى لدغدغةِ عواطفهِ قليلاً!. ماذا ترِيدُني أنْ أكتبَ في رسالتِيَ إليكُمْ حتى تبقونَ على أعصابِكُمْ في حالةٍ هادئةٍ ومتماسكةٍ؟!. لا تكنْ مثلَ الذي يرشُّ على الموتِ كلاماً فارغاً!.

أم جاسر: أريدُ أنْ أكونَ صريحةً معكَ بأنَّ الوالدَ أبو جاسر بحالةٍ صحيةٍ غيرِ سارةٍ وبعدَ ذلكَ فسِّرْ ما تشاءُ تفسيرَهُ على هواكَ. عسى أنْ تأخذَ بالَكَ من نفسِكَ، سواءً توفِّيَ والدُكَ أو بقِيَ على قيدِ الحياةِ. هل تفكِّرُ أنّهُ سيعيشُ العُمْرَيْنِ؟ الجميعُ منا في حالةِ شيخوخةٍ وحتى أبوالزهو، حبيبُ قلبِكَ، نفسُهُ بدأ الشيبُ يغزو كلَّ أنْحاءِ جسمهِ.

السّيدُ حمد: لقد ماتَ الوالدُ من قبلُ عدداً من المراتِ، لكنَّنا هنا نَموتُ كلَّ يومٍ مرّةً واحدةً على الأقلِّ. عندما نبدأ يومَنا نبدأُ بهِ بدايةَ المغامرينَ ونَخرجُ منهُ خَروجَ الناجينَ. نَخوضُ في بُحورِ الجهادِ مع النفسِ ومع الصّديقِ والعدوِّ والمشرفِ والإداريِّ والمستبدِّ والظالِمِ، مع الشركاتِ التي لا ترحمُ ومع السّماسرةِ الذينَ لا

يشبعونَ ومع المرضِ المتربصِ في جِسم كلِّ واحدٍ منا. ماذا تظنّونَ الحياةَ هنا؟ نزهةٌ على شاطئ النيلِ. قد تكون نزهةً ولكن بآلافِ القيودِ!.
أبوالزهو و"كاملة": عادتْ إليكَ نبرتُكَ القديمةُ، والمتأصّلةُ فيكَ منذُ أيامِ الدكتورِ "بَولاكْ" وزبانيته.
السّيدُ حمد: مشكلةُ الدكتور "بَولاكْ" وصحبهِ مثلَ مشكلةِ "الدكتورِ مَلْوى"، تعرفُ يا أبوالزهو "المَلْوى"، عودَ الحطبِ الصّغيرِ الذي نشُدُّ بهِ حَمّالةَ القمحِ على ظهرِ الدابةِ!. كلّما دارَ دورةً كاملةً يظهرُ "المَلْوى" واقفاً في الوجهِ من جديدٍ. مرّةً أخرى إذا ما تذكَّرْتَ الدكتورَ "بَولاكْ" قلْ فقط "المَلْوى"!. هلْ لِيَ أنْ أتخاطبَ مع الوالدِ أبو جاسر من جديدٍ؟.
أبو جاسر: أحسُّ شَبَحَ الموتِ يطاردني من كلِّ جانبٍ. "عُزرائيلُ" (ملاكُ الموتِ) لا يبرحُ المكانَ الذي أسكنُهُ ولا الطريقَ الذي أسلكُهُ، أراهُ في الدارِ الشماليةِ وفي الكرمِ وفي الطريقِ إلى المدينةِ، في "كرمِ الهوا" وتَحْتَ "جنايِن الضَبعةِ" المُجاورةِ للبيتِ. قبلَ يومينِ ذهبتُ لتوديعِ أراضينا في منطقةِ "أم الثعابين" و"وادِ الضباع" ومنطقةِ "عينِ الحرامي"، عسى أنْ لا يكونَ لِيَ معَها الوداعُ الأخيرُ. أحبُّ أنْ أراها دائماً؛ آخ لو أقدرُ آخذُ معِيَ منها حفنةَ ترابٍ واحدةٍ!. هذهِ الأرضُ التي تعبتُ عليها ولو أعادَني اللهُ للحياةِ مليونَ مرّةٍ سأحيى وأموتُ في عبادتهِ فيها.
السّيدُ حمد: هوّن عليكَ يا والدِيَ، الأعمارُ بيدِ اللهِ تعالى. وأنعمْ وأكرمْ باللهِ الذي أكرمَنا وأكرمَ أرضَنا بكَ. لا تقلقْ يا والدِيَ الآنَ وبعدَ موتِكَ، بعدَ عمرٍ طويلٍ إنْ شاءَ اللهُ؛ أنا الذي سأكملُ المهمَّةَ. لن تكفيَنِي كنوزُ الأرضِ ولن أستبدلَها بحبّاتِ ترابٍ تباركتْ من حباتِ عرقِ أنفِكَ الشامخِ أثناءَ مُحاولةٍ لكَ زرعَ أو تقليمَ شجرةٍ أو غرسةِ زيتون. إذا ما كانَ الشجرُ في أرضِنا ليباركَ فذلكَ لأنَّهُ لَمَسَ نفحةً من إيمانِ قلبكَ الطيبِ الطاهرِ. يا والدِيَ أبو جاسر أنتَ في طريقِكَ إلى الجنَّةِ إكراماً لقيمةِ الزيتونِ، الذي وهَبْتَهُ كلَّ شيءٍ في حياتِكَ، عندَ الخالقِ. سيشفعُ لكَ الزيتونُ والتينُ والرمانُ، وسوفَ تفرحُ لدماثتِكَ ولطيبِ قلبِكَ حواري الجنةِ. أحسدُكَ على حياتِكَ ... ومَماتِكَ!.
سرحانُ وأبوالزهو: ويسلِّمُ عليكَ أعزُّ أصحابكَ وأقربُهُمْ إلى روحِكَ، عمُّنا الحاجُّ "أبو هارون". دائماً يأتي إلينا ويشربُ الكثيرَ من الشاي السّاخنِ الممزوجِ بورقِ الليمونِ وزهرهِ. دائماً يقولُ متى يعودُ إلينا السّيدُ حمد خفَيفُ الروحِ الذي كانَ دائماً "بيتعاجِب بملءِ العينِ والحاجب"!. مع السّلامةِ.
السّيدُ حمدَ: آخ يا أبوالزهو على أيامِ الوالدِ وأيامِ الحاجِّ "أبو هارون" وأيامِ شربِ الشاي المغليِّ على نارِ حطبِ الزيتونِ في موقدِ كَرْمِ "الحفيرة" (اسمٌ مَحليٌّ لعينِ ماءٍ صَغيرةٍ شبهِ جاريةٍ)، "حفيرة" الماءِ لا غيرَ ها، وبصحبتِكَ التي لا تقدَّرُ بثمنٍ ... سوفَ أغنّي الآنَ وبعدَ الآنَ ولبقيةِ العُمْرِ ... أشعاراً من مثْلِ ... .. تكبَّرْ تكبَّرْ فمهما يكُنْ من جفاكَ، ستبقي بعينِيَ ولحنِيَ ملاكٌ ...... تَكبَّر تَكبَّر فمهما يكنْ من جفاكَ ستبقى كما شاءَ لِيَ حبّنا أنْ أراكَ ..... نسيمُكَ عنبرٌ وأرضُكَ سكّرٌ وإنّي أحبُّكَ أكثرْ... ... ... دن دن دن دن دن دن دن...... غنائيَ خناجرُ وردٍ، وصمتيَ طفولةُ رعدٍ، وأنتَ الثّرى والسّلامُ!.. وقلبُكَ آهٍ أخضرُ، وجَزْرُ الهوى فيكَ مدٌّ! فكيفَ إذنْ لا أحبُّكَ أكثرْ؟! ... نسيمُكَ عنبرٌ وأرضُكَ سكّرٌ وقلبُكَ أخضرُ ... آهٍ أخضرُ ..... وإنّي طفلُ هواكَ على حضنِكَ الحلمُ أنْمو وأكبُرُ ... وأنّيَ أحبُّكَ أكثرْ......

هنالكَ فجوةٌ كبيرةٌ بين الثقافتيْنِ العربيةِ والغربيةِ. تلكَ الفجوةُ ناتِجةٌ عن الفرقِ الشاسعِ في النظرةِ وتفسيرِ وتطبيقِ الأمورِ الأساسيةِ في التعاملِ مع الأمورِ الاجتماعيةِ والعقائديةِ. تبعاً لذلكَ تتأثرُ الأمورُ الأخرى في الحياةِ من اقتصاديةٍ وسياسيةٍ وفكريةٍ وحتى علميةٍ ولو بدرجةٍ أقلَّ من الحدَّة للأخيرة. كمثالٍ بسيطٍ لا للحصر على ما سبق هو نظرةُ المُجتمعيْنِ الغربيِّ والعربيِّ للمرأةِ. مثلاً مفهومُ "العِرضِ" والشرفِ المتصلِ بالحفاظِ على العرضِ وصونِه غير موجوديْنِ في القاموسِ اللغويِّ أو الحياتيِّ الغربيِّ. إذا ما أضيفَ مفهومُ العصَبيةِ القبليةِ إلى موضوعِ العِرْضِ والشرفِ في الثقافةِ العربيةِ فذلكَ يَجعلُ أمرَ الاختلافِ الثقافيِّ فريداً من نوعهِ مع الثقافةِ الغربيةِ بشكلٍ خاصٍّ. وبسببِ نشاطِ جَمعياتٍ أهليةٍ من مثلِ جَمعياتِ حقوقِ الإنسانِ والحقوقِ المدنيةِ والمرأةِ وما يتبعُها، وتوقُّفِ بل عدمِ وجودِ نظيراتٍ لها في المُجتمعِ العربيِّ زادتْ الفروقُ واتسعتْ بينَ الثقافتينَ المُجتمعيتيْنِ الغربيةِ والعربيةِ.

في مثلِ هذهِ الخاصّيةِ "الثقافيةِ" أعلاهُ أصبحَ من الصّعبِ على الطرفيْنِ الغربيِّ والعربيِّ تفهُّمُ موقفِ الآخرِ من معظمِ القضايا المتعلقةِ بالمرأةِ مهما تكنْ غيرَ ذاتِ قيمةٍ. ذهبَ الكثيرونَ من الثقافتيْنِ إلى اعتبارِ نفسهِ حضارياً أكثرَ من الآخرِ بسببِ الميّزاتِ التي يَختلفُ فيها عن الآخرِ، سلباً أم إيجاباً. على سبيلِ المثالِ لا الحصرَ فإنّهُ لا يُسمحُ للفتاةِ أو المرأةِ العربيةِ من الغيابِ عن بيتِ أهلِها ولو لدقائقَ دونَ معرفةِ ذويها بمكانِ وجودِها؛ في الوقتِ الذي فيهِ أخذتْ نظيرةُ المرأةِ العربيةِ في المُجتمعاتِ الغربيةِ كاملَ حريتِها الشخصيةِ ومن ضمنِ ذلكَ الغيابَ عن البيتِ في أيِّ وقتٍ تشاءُ ولأيِّ فترةٍ من الوقتِ، أسوةً بالحريةِ الممنوحةِ للرجلِ أو الشابِّ. لا توجدُ قيودٌ تذكرُ على حريةِ المرأةِ في المُجتمعِ الغربيِّ، يقابلُ ذلكَ في المُجتمعِ العربيِّ وجودُ الكثيرِ من الضوابطِ والقيودِ الممكنةِ على حريةِ المرأةِ. المرأةُ العربيةُ مقيدةٌ بالكثيرِ من الضوابطِ الماديةِ والمعنويةِ والنفسيةِ، في الوقتِ الذي أخذتْ فيهِ المرأةُ الغربيةُ قِسْطاً كبيراً من الحريةِ أتاحَ لها الذهابَ بعيداً في كثيرٍ من الأمورِ. هذا يزيدُ من اتساعِ الهوّةِ وصعوبةِ ردْمِها بينَ حالتَيْ المرأةِ العربيةِ والغربيةِ.

أُعطِيَ الرجلُ في المُجتمعِ العربيِّ حريةً شِبهَ كاملةٍ في التصرفِ مع الأمورِ العاديةِ والطارئِ منها. مثلاً، أُعطِيَ حريةً كاملةً في السّفرِ حيثَما وحيثُما يشاءُ، حريةَ اختيارِ شريكةِ حياتِه، حريةَ التصرفِ في الأموالِ والمصروفاتِ، حريةَ إيقاعِ الطلاقِ على المرأةِ، وأشياءَ أخرى كثيرةً بالمقارنةِ مع ما أُعطِيَ للمرأةِ. ظلّتْ المرأةُ العربيةُ شبهَ معطلةٍ عندَ التصرُّفِ في الكثيرِ من مناحي الحياةِ حتى في التي لديْها قدرةٌ طبيعيةٌ وكفاءةٌ عاليةٌ في التعاملِ معَها.

السّيدُ حمد آتٍ من مُجتمعٍ كانَ يفرضُ على "الطالبِ ليدِ فتاةٍ" أنْ يأخذَ موافقةَ كافةِ الذكورِ في عائلتِها الكبيرةِ من سنِّ سنةٍ! حتى سنِّ الدخولِ إلى المقبرةِ. في بعضِ الأحيانِ كانَ مَيّتٌ يزورُ ليلاً! أهلَهُ ليُخْبِرَهُمْ إنْ هو موافقٌ أو رافضٌ

لزواج "بنتِ عرضهِ" من ذلكَ الشابِّ المسكينِ المتيَّمِ العاشقِ لتلكَ الفتاةِ. كذلكَ على المتزوِّج من تلكَ الفتاةِ أنْ يأتِيَ بكساءٍ (لباسٍ للرجُلِ أو المرأةِ من أقاربِ الفتاةِ المتزوِّجَةِ يعرفُ محلياً باسْمِ "الهِدْم" أو الهندام) لكلِّ أقاربِ تلكَ الفتاةِ البالغينَ، ذلكَ مكافأةً لهُمْ لِموافقتِهِمْ على التصاهرِ معهُ!. وإنْ لَمْ يتمكّنْ ذلكَ العريسُ من جلبِ "الكِساءاتِ" تلكَ لِهؤلاءِ بسببِ فقْرٍ أو غيرِهِ فلنْ تَجريَ مراسيمُ العرسِ والزواجِ بشكلٍ طبيعيٍّ مبهجٍ، على الأقلِّ. فيَ المُجتمعِ الغربيِّ يستطيعُ العريسانِ إقامةَ عرسٍ أو زواجٍ في اليومِ التالي لتعارفِهِما إنْ هُما قرَّرا ذلكَ وعندَ قاضٍ في مَحكمةٍ متواضعةِ الحجمِ بعدَ دفعِ رسومٍ رمزيةٍ وثَمنَ الطوابعِ المستعملةِ! على استمارةِ طلبِ الزواجِ.

إذا ما مارستْ الفتاةُ أو المرأةُ العربيةُ الحبَّ خارجَ نطاقِ الزوجيةِ وكُشِفَ أمرُها فإنَّ عاراً سيلحقُ بِها وبأسرتِها، إخوانِها وأخواتِها، وعائلتِها من أعمامٍ وعمّاتٍ وبدرجةٍ أقلَّ قليلاً أخوالٍ وخالاتٍ. ثُمَّ ينتقلُ الخزيُ والعارُ ليشملَ كلَّ أفرادِ قبيلتِها من الذكورِ والإناثِ من سنِّ نُطفةٍ وعَلَقةٍ إلى سنِّ متوفّىً منذ مئاتِ السّنين إلى الذين سيولدونَ في غضونِ عشراتِ السّنين القادمةِ بعدَ ذلكَ الحادثِ المُشين. لا يسلمُ من ذلكَ الخزيِ أبناءُ قريَةِ الضحيةِ ولا الضاحيةِ التي كانت! تسكنُها وربّما المدينةِ التي ترعرعتْ فيها. يصبحُ وضعُ كلٍّ من رجالٍ ونساءٍ وأطفالِ قبيلةِ الأنثى المنكوبةِ بالحادثِ مثلَ الكلبِ المهجورِ يُعلّقُ من رقبتِهِ بحبْلٍ من مَسَدٍ (ليفٍ خشنٍ) يتمُّ تغطيسهُ بهِ في بَحرٍ من الخزي والعارِ مدى الحياةِ. لا ينطبقُ هذا الكلامُ على الرجلِ العربيِّ! ولا على الفتاةِ والمرأةِ والرجلِ الغربيّينَ كذلكَ، في حالِ ارتكبوا مثلَ ذلكَ العملِ خارجَ إطارِ الزوجيةِ. أكثرُ ما يُمكنُ أنْ يلقاهُ الرجلُ العربيُّ في حالِ ارتكبَ فعلاً مُخلاً بالشّرفِ لَفتَ نظرٍ من "عُمدةِ" قبيلتِهِ، بعدَ التَّستُّرِ عليهِ، وقد ينبّهُهُ فيهِ بأنَّ ذلكَ الفعلَ غيرَ مَحمودِ العواقبِ في الدنيا والآخرةِ، ربّما!.

بسببِ ما ذُكِرَ أعلاهُ وأشياءَ أخرى كثيرةٍ فإنَّ نظرةَ المُجتمعيْنِ العربيِّ والغربيِّ لنفسِ المفاهيمِ اتّجاهَ المرأةِ تتخذُ أشكالاً مغايرةً لبعضِها البعضِ. الحبُّ العذريُّ مثلاً مَمنوعٌ أو غيرُ مرغوبٍ فيهِ في المُجتمعيْنِ العربيِّ والغربيِّ تقريباً بنفسِ الدرجةِ. في المُجتمعِ العربيِّ مَمنوعٌ، ذلكَ لأنَّهُ قد يؤدّي إلى ما لا يُحمدُ عقباهُ على حدِّ تعبيرِ أئمةِ المُجتمعِ ... في الدنيا والآخرةِ. في المُجتمعِ الغربيِّ، الحبُّ العذريُّ مَمنوعٌ لأنَّهُ قد يؤدي إلى ما لا تُحمدُ عقباهُ بسببِ المعاناةِ والكبتِ والحرمانِ الناتجةِ عنهُ!. في المُجتمعِ العربيِّ استبدُلَ الحبُّ العذريُّ بالزواجِ إنْ أمكنَ ذلكَ، حتى ولو من فتاةٍ أخرى غيرَ تلكَ المَحبوبةِ لدى عاشقِها؛ في حين أنَّهُ في المُجتمعِ الغربيِّ استبدُلَ الحبُّ العُذريُّ بالإباحيةِ شبهِ المطلقةِ سواءً تَمَّ الزواجُ أمْ لَمْ يتمَّ بَعْدُ.

هنالكَ في المُجتمعِ العربيِّ تعبيرُ أو مُصطلحُ "طريقِ الرشدِ أو الرشادِ" وهو واحدٌ وموحَّدٌ للجميعِ تقريباً ومن المفترضِ أنَّ منْ يتبعُهُ يَحصلُ على جنَّةِ الدنيا في مقدمةٍ لإمكانيةِ حصولِهِ على جنَّةِ الآخرةِ. في بلادِ الغربِ كلُّ شخصٍ لهُ "طريقُ رشدٍ أو رشادٍ" مُختلفٌ عن الآخرِ بشكلٍ شبهِ جذريٍّ. على سبيلِ المثالِ فإن طريقَ الرشدِ والرشادِ للشّابِّ في بلادِ العربِ يكادُ يَخلو من أيّةِ فتاةٍ وطريقَ الرشدِ للفتاةِ يكادُ يَخلو من أيِّ شابٍّ أو رجلٍ. طرقُ الرشدِ في بلادِ الغربِ تعجُّ بالجنسِ الآخرِ لكلٍّ من الجنسينِ السّابقيْنِ. الذي كانَ معتاداً على سلوكِ طريقِ رشدٍ واحدٍ معَ كافةِ البشرِ من حولِهِ يَحتارُ الآنَ في عددٍ لا حصرَ لهُ من طرقِ الرشدِ المتسعةِ

والفضفاضةِ. طرقُ الرشدِ يرسمُها الإنسانُ نفسُهُ هناكَ في بلادِ الغربِ في حينِ أنَّ طريقَ الرشدِ في بلادِ العربِ يرسمُهُ من كان لديهِ توكيلٌ أو حصلَ عليهِ من سلطةٍ بيّنةٍ أو مَخفيّةٍ في الكونِ. في نهايةِ الأمرِ على كلِّ شخصٍ تدبُّرَ طريقِ رشدهِ بنفسهِ في المُجتمعيْنِ السّابِقيْنِ. في بلادِ الغربِ المسئولُ عن تَحديدِ صحةِ طرقِ الرشدِ هو الشرطيُّ أو المَحكمةُ، في حينِ أنَّ من يُحدِّدُ طريقَ الرشدِ في المُجتمعِ العربيِّ هو أحدُ أو مَجموعةٌ من الصّالِحينَ الذينَ يعتقدونَ أنّهُمْ قادرونَ على تَحديدِ ذلكَ الطريقِ بدقةٍ متناهيةٍ.

يُعتَبَرُ ما سبق فيضاً من غيظٍ من الفروقِ الثقافيةِ المتراكمةِ معَ الزمنِ بينَ المُجتمعيْنِ العربيِّ والغربيِّ؛ أو على حدِّ رأيِ البعضِ نقطةٌ في بَحرِ الفروقِ الثقافيةِ. قد ينتجُ عن تلكَ الفروقِ أمورٌ قد تكونُ هَزليةً سارةً أو مزعجةً، أو خَليطاً بين الاثنينِ في آنٍ معاً، عندَ الولوجِ فيها. مثالُ ذلكَ عندَما نزلَ السّيدُ "فاروق" أرضَ ومن ثَمَّ شاطئَ دولةٍ أجنبيةٍ ورأى الفتياتِ يَسِرْنَ في الشارعِ وعلى شاطئِ البحرِ شبهَ عارياتٍ، جُنَّ جنونُهُ!. ظنَّ أنّهُ لا مانعَ لديْهِنَّ فيما لو قامَ بلمْسِ جسمِ إحداهُنَّ دونَ معرفةٍ مسبقةٍ بها أو إذنٍ؛ كما لو كانت بضاعةً معروضةً لِجذبِ الزبائنِ إليْها. ما كانَ من تلكَ الفتاةِ إلا أنْ لَطَمَتْهُ في وجههِ واستدعتْ أحدَ رجالِ الشرطةِ لِيودعَهُ السّجنَ ولِيُطالبَهُ بعدَ ذلكَ بدفعِ غرامةٍ ماليةٍ عقاباً لهُ على "تَحرّشهِ الجنسيِّ" بتلكَ الفتاةِ. في مركزِ الشرطةِ أخبرَ السّيدُ "فاروق" الضابطَ المسئولَ وأقنعَهُ أنَّ ذلكَ التصرّفَ كان ناتِجاً عن اختلافٍ غيرِ عاديٍ في الثقافةِ حيثُ أمَرَ الأخيرُ، بعدَ اقتناعهِ بواقعيةِ الوضعِ الطارئِ!، بإطلاقِ سراحِ السّيدِ "فاروق" وإعفائهِ حتى من دفعِ الغرامةِ الماليةِ.

ما أنْ تطأَ قدما المغتربِ العربيِّ أرضَ بلادِ الغربِ حتى يُصابَ بصدمةِ "الثقافةِ" أو اختلافِ الثقافةِ. يشبهُ وضعُهُ وضعَ موجةٍ من الماءِ قادمةٍ من وسطِ البحرِ تصطدمُ بحاجزٍ صلبٍ مُقامٍ على طرفِ أو شاطئِ البحرِ. في البدايةِ، ومن بعيدٍ، يرتاحُ المغتربُ العربيُّ قليلاً لِما يراهُ ويرتاحُ لهُ بالُهُ. ما أنْ يتوغلَ ذلكَ الشخصُ عميقاً بعضَ الشيءِ في تلكَ الثقافةِ حتى يرفضَها جُملةً وتفصيلاً؛ على الرغمِ من أنّهُ قد يسيرُ في ركابِها بعضَ الوقتِ مستفيداً من "نعومةِ ملمسِ!" بعضِ مزاياها الثقافيةِ والاجتماعيةِ والجسميةِ والروحيةِ والمعنويةِ. إذا لَمْ تكنْ عندَ الشخصِ فكرةٌ مبدئيةٌ لا بأسَ بها مُسبقاً فإنَّ صدمةَ "الثقافةِ" تلكَ قد تطرحُهُ في سريرِ نومهِ بعضَ الوقتِ يراجعُ نفسَهُ بشأنِ الأمورِ الجديدةِ المستجدّةِ على حياتهِ. خلالَ تلكَ الفترةِ قد "يهبطُ"! عليهِ بعضٌ من بني ثقافتهِ ويرشدونَهُ إلى طريقٍ قد يؤدي بهِ الأمرُ إلى استفحالِ صدمةِ "الثقافةِ" تلكَ في حياتهِ. بعبارةٍ أخرى قد يقومونَ بعمليةِ "تعليبٍ وتَخليلٍ" لدماغهِ لا يستطيعُ بعدَها القيامَ بتفاعلٍ إيجابيٍ أو بنّاءٍ مع مُحيطهِ ولفترةٍ قد تَمتدُّ طويلاً. ذلكَ يؤثّرُ على سلوكهِ مع من يقعُ تَحْتَ تأثيرهِ مستقبلاً، سلباً أم إيجاباً.

أغلبُ الاحتمالاتِ هو أنْ يلجأَ المغتربُ العربيُّ إلى التكاتفِ والتعاضدِ مع بني ثقافتهِ هناكَ أو مِمَّن يأتونَ إلى ذلكَ المكانِ لاحقاً. يتكوّنُ ما يشبهُ جزيرةً أو مستوطنةً ثقافيةً منعزلةً في بَحرٍ أو مُحيطِ الثقافةِ المَحلّيةِ من حولهِ. يساعدُ المُجتمعُ المُحيطُ نفسُهُ هناكَ في إنشاءِ وتعزيزِ تلكَ المستوطنةِ الثقافيةِ أو "الكانتون" الثقافيِّ الاجتماعيِّ العرقيِّ أو اللونيِّ حيثُ يتمتّعُ ذلكَ المُجتمعُ بنزعةٍ أو

مَيْلٍ طبيعيٍّ نَحْوَ التصنيفِ والتعاملِ مع الشخصِ "الضحيةِ" حسْبَ ذلكَ التصنيفِ، شاءَ الأخيرُ أم أبى. تبعاتُ الاختلافِ الحضاريِّ أو الثقافيِّ لا يقتصرُ على الشئونِ الشخصيةِ والأخلاقيةِ بل يمتدُّ إلى النواحي العلميةِ والعمليةِ والسّلوكيةِ وغيرِ ها الكثير.

أبوالزّهو وسرحان و"هيما": "هالو هاي ذير"، "هاو آر يا"؟!. ها قد مضى عليكَ بعضُ الوقتِ في بلادِ الغربةِ من أجلِ التعليمِ. لا مهربَ لديكَ من إحرازِ تقدمٍ ملموسٍ باليدِ والرجلِ والعينِ واللسانِ والأسنانِ والآذانِ.

السّيدُ حمد: هنالكَ صدماتُ "ثقافةٍ" تصطدمُ بِيَ وتلاحقُني من كلِّ حدْبٍ وصوْبٍ. أكادُ أصدَمُ في كلِّ خطوةٍ أقومُ بها جِسمياً أو فكرياً، مادياً أو معنوياً؛ هذا بالتوازي مع مواصلةِ التعليمِ التقليديِّ المعهودِ لديكَ يا صديقِيَ أبوالزهو.

سرحان: الكلُّ من هنا يَحسدونَكَ على حالةِ الترفِ والبذخِ الفكريَّيْنِ في تلكَ البلادِ المعروفةِ بغناها الثقافيِّ والاقتصاديِّ والاجتماعيِّ ....

"زولالة": لا تعدْ إلينا دون عروسٍ شقراءَ ومعها بعضُ الأولادِ الشقرِ أو البيضِ أو الأرجوانيِّينَ!.

السّيدُ حمد: يَختلفُ الوضعُ هنا كثيراً عمّا تفكّرونَ بهِ. حتى مصطلحُ طريقِ الرشدِ وجادةِ الصّوابِ وغيرَها لا تكادُ توجدُ هنا. أبْحثُ عن طريقِ رشدٍ واحدٍ لا أجِدُهُ بينَ الملايينِ من طرقِ الرشدِ.

أبوالزهو: قُمْ بمثلِ ما قمتُ بهِ عندَما قدمتُ إلى الحياةِ واخترتُ الطريقَ الذي رسَمَتْهُ لِيَ عائلةُ أبو جاسر ومِن قبلُ لوالدتِيَ "راكلي". ها نَحْنُ نعيشُ ونعملُ ونأكلُ ونتنفسُ..

السّيدُ حمد: وهذا ما قمتُ بهِ هنا. اخترتُ عملِيَ في العِلمِ والبحثِ مع الدكتور "ثورصن" عندَ وصولِيَ إلى هنا. لكنْ بعدَ فترةٍ وجيزةٍ من العَملِ معهُ أظنُّ أنَّ ذلكَ الطريقَ يؤدّي بِيَ إلى مدخلِ مزرعةِ أبقارٍ وليس إلى داخلِها. لا يوجدُ عندِيَ طريقٌ آخرُ الآنَ.

أبوالزهو وسرحان و"هيما" و"زولالة": يا ولداً حاولْ أنْ تَسْتُرَ حالَكَ في غربتِكَ. أصبحَ لديكَ خبرةٌ واسعةٌ في المدرّسينَ، عليكَ أنْ تكونَ قادراً على أنْ تختارَ ما يناسبُكَ للعملِ معَهُ!.

بعدَ فترةٍ وجيزةٍ من وصولِ السّيدِ حمد إلى تلكَ البلادِ طلبَ من المسئولينَ عن سكنِ الطلبةِ في جامعةِ "بامالوسا" أنْ يُسكنوهُ مع شخصٍ من تلكَ البلادِ لكيْ يسهلَ عليهِ إقامةَ بعضِ التبادلِ الثقافيِّ أو "التلاقحِ الثقافيِّ"، إنْ جازَ التعبيرُ مع ثقافةِ غيرهِ وعن قربٍ أكثرَ. وبما أنَّ عندَ السّيدِ حمدَ بعضَ الميولِ الفنيةِ الموسيقيةِ البيّنةَ اختارَ لهُ المشرفونَ على السّكنِ أحدَ طلابِ كليةِ الفنونِ الجميلةِ في الجامعةِ. كانَ للسيدِ حمد بعضٌ من اللقاءِ وتبادلُ الحديثِ الممتعِ مع شريكهِ في المسكنِ، الشابِّ "والاسْ"، الذي كان يتخصَّصُ في دراسةِ المسرحِ والتمثيلِ. كان السّيّدُ "والاسْ" ملفتاً، في شكلهِ كما يبدو، لاهتمامِ وانتباهِ البناتِ المعجَباتِ بهِ. في البدايةِ لَمْ يُعرْ السّيدُ حمد الأمرَ كثيراً من الاهتمامِ؛ "كلٌّ واحدٍ على دينِهِ ... اللهُ يعينُهُ"، كما يقولُ المثلُ الشعبيُّ البلديُّ. إلا أنَّ قسماً من صديقاتِ السّيدِ "والاسْ" بدأنَ يعطينَ اهتماماً خاصاً وعلى طرقِهِنَّ الخاصّةِ! للسيدِ حمد، وذلكَ ما لَمْ يرُق لهُ. خلالَ أقلَّ من ثلاثةِ أشهرٍ كان عندَ السّيدِ "والاسْ" ما لا يقلُّ عن ثلاثةِ "صديقاتٍ"، أو هكذا

قالَ عنهُنَّ. بالرغمِ من صِغَرِ مساحةِ الحجرةِ المشتركةِ بينَ السّيدِ حمد والسّيدِ "والاسْ" إلا أنَّ الأخيرَ حوَّلَها إلى بيتٍ لهُ وحدَهُ تقريباً. كلُّ "صديقةٍ" أتتْ هناكَ صارتْ زوجةً! لهُ وأكثرَ من ذلكَ. اضطُرَّ السّيدُ حمد للذهابِ إلى ضابطِ السّكنِ ليطلبَ منهُ تغييرَ غرفتِه أو تغييرَ شريكِه في المسكنِ.

السّيدُ حمد: لقد طلبتُ منذُ البدايةِ أنْ أسكنَ مع شخصٍ واحدٍ، أعزبٍ!.

ضابطُ السّكنِ: إنَّ السّيدَ "والاسْ" أعزبٌ وهو تلميذٌ جديدٌ في كلّيةِ الفنونِ. هو أحسنُ ما هو متوفرٌ لدينا من الذي يُمكنُ أنْ يناسبَ ذوقَكَ لأنَّكَ فنانٌ موسيقيٌّ كذلكَ، أليسَ كذلكَ؟!.

السّيدُ حمد: إذا ما كانَ السّيدُ "والاسْ" أعزبَ فكيفَ يكونُ شكلُ المتزوّجِ هنا في هذه البلادِ؟!. إنَّ لهُ ثلاثُ زوجاتٍ في فترةٍ تقلُّ عن الثلاثِ شهورٍ. أظنُّ أنّهُ من أنصارِ تعدُّدِ الزوجاتِ! في هذهِ البلادِ التي تفتخرُ بأحاديةِ الزوجِ والزّوجةِ في الحياةِ الأسْريةِ الاجتماعيةِ. إذا ما استمرَّ الحالُ على هذا المنوالِ فقد يصبحُ عندَ السّيدِ "والاسْ" عشراتُ الزوجاتِ قبلَ تخرّجِهِ من الكليةِ في معظمِهِنَّ مطلّقاتٌ أو مهجوراتٌ؛ أليس لهُ رَبٌّ يَخشاهُ في تعاملهِ مع ضحاياهُ؟!.

ضابطُ السّكنِ: هؤلاءِ لسنَ بزوجاتٍ، هؤلاءِ صديقاتٌ!. ربَّما أنت قادمٌ من ثقافةٍ أو حضارةٍ تَختلفُ بعضَ الشيءِ! عن حضارتِنا هنا.

السّيدُ حمد: أنا قادمٌ من حضارةٍ وثقافةٍ لا يُمكنُ أنْ يصلَ فيها المتزوّجُ المخضرمُ مع زوجتِهِ إلى ما يصلُ إليهِ السّيدُ "والاسْ" مع أيٍّ من صديقاتِه! بينَ عشيةٍ وضحاها. خافوا ربَّكُمْ يا جَماعةُ!.

بعدَ بضعةِ أسابيعَ تَمَّ نقلُ السّيدِ حمد إلى حجرةٍ أخرى في طابقٍ آخرَ؛ كانت حجرةً صغيرةً وبها سريرانِ. بعدَ قليلٍ من حينِه استُقْدِمَ أحدُ الطلابِ من مرحلةِ البكالوريوسِ ليشتركَ مع السّيدِ حمد في الحجرةِ ليستعملَ السّريرَ الآخرَ. كانَ شاباً لطيفاً، ودوداً ومتفاعلاً بإيجابيةٍ كبيرةٍ نسبياً مع كافةِ القضايا المطروحةِ ومن ضمنِها القضايا السّياسيةِ الدوليةِ. أظهرَ السّيدُ "ديفيد" تعاطفاً واضحاً مع قضيةِ السّيدِ حمد المركزيةِ! في وطنِه ومسقطِ رأسِهِ. ذاتَ يومٍ استقْدَمَ السّيدُ "ديفيد" صديقاً لهُ إلى الحجرةِ، السّيدَ "بوبْ"، وبقيَ معهُ طوالَ الّليلِ. في تلكَ الليلةِ كان عندَ السّيدِ حمد في الكلّيةِ بعضُ الأعمالِ قيدَ الإنْجازِ والتي جعلتهُ يعودُ متأخراً إلى مكانِ نومِهِ وقبلَ انتهاءِ الليلِ بقليلٍ. ما أنْ عادَ السّيدُ حمد إلى الحجرةِ ليرى أنَّ السّيدَيْنِ "ديفيد" و "بوبْ" نائمانِ في نفسِ السّريرِ. وعلى سطحِ الطاولةِ الوحيدةِ المشتركَةِ في الحجرةِ رأى السّيدُ حمد عدّةَ أوانٍ كحوليةٍ فارغةٍ ونصفَ مُمتلئةٍ. ظنَّ السّيدُ حمد في البدايةِ أنّها كانتْ سهرةً عاديّةً بينَ أصدقاءٍ!. ما أنْ صَحَيا من نوميهما ليتعرَّفَ السّيدُ حمد على نوعٍ جديدٍ من "الصّداقةِ" في تلكَ البلادِ!. لَمْ يقدرْ في البدايةِ أنْ يصدِّقَ عينيْهِ ويكذِّبَ عقلَهُ القديمَ؛ حدثَ هنالكَ انفصالٌ بينَ منطقِ العينِ ومنطقِ العقلِ والعاداتِ والتقاليدِ وطريقِ الرشادِ وما إلى ذلكَ الكثيرُ.

بعدَ حوالَيْ الأسبوعينِ من حينِه دعا السّيدُ "ديفيد" السّيدَ حمد للذهابِ معاً في سيارةِ الأوّلِ إلى ملهىً ليليٍّ داخلَ المدينةِ يبعدُ عدةَ كيلومتراتٍ عن مكانِ السّكنِ. ولزيادةِ الاتصالِ أو "التلاقحِ" الثقافيِّ لبّى السّيدُ حمد الدعوةَ وذهبَ إلى ذلكَ الملهى. لاحظَ السّيدُ حمد أنَّ كلَّ من رآهُ أو رآها، هناكَ تقريباً لهُ شريكٌ أو لها شريكةٌ، على التوالي، في أوضاعٍ رومانسيةٍ غيرِ عاديةٍ أو طبيعيةٍ. قالَ حمد في

نفسهِ إنَّها مُجرّدُ اختلافٍ بينَ الحضاراتِ والثقافاتِ والنظرةِ العامةِ نَحْوَ سنِّ الرشدِ وطريقِ الرشادِ!. طلبَ السّيدُ حمد كأساً من عصيرِ البرتقالِ ليشربَهُ تَجنُّباً للإحراجِ وإذا بالجرسونِ يقدِّمُ لهُ ذلكَ الكأسَ بعدَ قليلٍ مصحوباً بقُبلةٍ ودّيةٍ وودودةٍ؛ بَلَعَ السّيدُ حمد، لكنَّهُ لَمْ يستطعْ هَضْمَ، الوضعَ الثقافيَّ الجديدَ!. بعدَ ذلكَ بقليلٍ وبشكلٍ فجائيٍّ أعلنَ مديرُ حفلةِ تلكَ الليلةِ عن حدثٍ مُهمٍّ سوفَ يتمُّ بعدَ قليلٍ من حينهِ. كانَ هنالكَ أحدُ رجالِ الدينِ! ويريدُ أنْ يعقدَ قرانَ أحدِ "المِثْليّين" على "مِثْليٍّ" آخرَ. وفي حفلٍ سادتهُ البهجةُ الغامرةُ بينَ الحاضرينَ أعلنَ "رجلُ الدينِ" ذاكَ أنَّ تلكُما "المِثْليَّيْنِ" الاثنيْنِ الآنَ، في حينهِ، أصبحا زوجيْنِ صالحيْنِ، في اليسرِ والعسرِ وفي السّرّاءِ والضرّاءِ. ازدادَ الضغطُ الداخليُّ عندَ السّيدِ حمد وشعرَ أنَّ عليهِ أنْ يقولَ كلمةً بلسانهِ على الأقلِّ في الموضوعِ ومن بابِ: "إذا رأى أحدُكُمْ منكراً فليغيِّرْهُ بيدِهِ". لا يقدرُ السّيدُ حمد أنْ يفعلَ أيَّ شيءٍ بيدِهِ هناكَ حينَ لَجأَ إلى لسانهِ.

السّيدُ حمد: يا بشراً! إنَّ هذا الذي تقومونَ بهِ هنا يفوقُ ما كانَ يَحدثُ في "صادوم" و "عامورة"، بلدتَيْ قومِ لوطٍ عليه السّلامُ. إنَّكمْ بذلك تُعَجِّلونَ بقيامِ القيامةِ على رؤوسِكُمْ ورؤوسِ من حولَكُمْ. إنَّ ما يَحدثُ في هذا المكانِ لعَيْبٌ على ذقنِ كلِّ واحدٍ فيكُمْ، ذكراً كانَ أمْ أنثى.

السّيدُ "ديفيد": إنَّ هذا الذي تقولُهُ هنا يَجعلُكَ تأخذُ جانبَ المُحافظينَ المتزمّتينَ في البلادِ وتَخسرُ بذلكَ جانبَ الليبراليينَ "المِثْليِّينَ" الذين يقفونَ معكَ في قضيتِكَ السّياسيةِ في بلدِكَ الأصليِّ!. كُفَّ عن هذا الكلامِ الأحمقِ أو عليكَ الذهابَ بنفسِكَ إلى مكانِ السّكنِ سيراً على قدميْكَ.

السّيدُ حمد: يا جَماعةً! إنّهُ من غيرِ المعقولِ أنّهُ حتى تستمرّونَ في تأييدِ قضيتِيَ أنْ أوافقَ معكُمْ على هذا المنهجِ غيرِ الصّالحِ لكُمْ ولَنا. بما تقومونَ به فإنَّني أتوقعُ أنْ تقومَ القيامةُ قبلَ وصولِ دعمِكُمْ لقضيَّتِيَ السّياسيةِ إلى درجةٍ من الفاعليةِ كافيةٍ لإحداثِ أيِّ شيءٍ يسُرُّ البالَ ولو قليلاً على أرضِ الواقعِ.

السّيدُ "ديفيد": تفضَّلْ وتعرَّفْ على السّيدِ "تشاكوسْ" الذي كتبَ ووقَّعَ عقدَ القرانِ بينَ "المِثْليَّيْنِ" الاثنيْنِ. إنّهُ شابٌّ لطيفٌ و"حبّوبٌ".

السّيدُ حمد: يا سيدَ "تشاكوس" إنّهُ لَحرامٌ عليكَ ما قمتَ به قبلَ قليلٍ. من المفترضِ أنْ تكونَ أكثرَ الخلقِ مُعارضاً لتلكَ الظواهرِ النشازِ المتمثلةِ بزواجِ "المِثْليِّينَ".

السّيدُ "تشاكوسْ": أنا "مِثْليٌّ" مِثْلِيَ مثْلُهُمْ كذلكَ!. هلْ تريدُني أنْ أعترضَ على نفسِيَ؟!. وبالدرجةِ الأولى كيفَ لَكَ أنْ تثبتَ لِيَ أنَّ زواجَ "المِثْليِّينَ" غيرُ شرعيٍّ؟!. أنا متخصّصٌ بعمقٍ في علمِ اللاهوتِ ولَمْ أرَ من دعوةٍ صريحةٍ مباشرةٍ أو غيرِ مباشرةٍ ضدَّ هذا الحقِّ الطبيعيِّ من حقوقِ "المِثْليِّينَ".

السّيدُ حمد: قلتَ بأنَّكَ متخصّصٌ في علمِ اللاهوتِ! ولا تدركُ ما حصلَ لقومِ لوطٍ عليهِ السّلامُ بسببِ أعمالٍ مشابهةٍ أو أقلَّ بعضَ الشيءِ مِمّا تقومونَ بهِ هنا الآنَ!. ولنفرضْ جدلاً أنَّني وافقتُ معكَ على أرائكَ غيرِ الطبيعيةِ، ماذا بشأنِ الأسرةِ والأولادِ والطلاقِ والميراثِ والأمراضِ والبيئةِ وتعدُّدِ الأزواجِ وغيرِها الكثيرَ؟!.

السّيدُ "تشاكوسْ": كلُّ ما ذُكرَ أعلاهُ ليسَ بذي شأنٍ أمامَ رَغبةِ الشذوذِ الجامِحةِ لدى الفردِ هنا، ذكراً كانَ أمْ أنثى.

اضطرَّ السّيدُ حمد أنْ يذهبَ إلى مكانِ نومهِ سيراً على قدميهِ بعدَ أنْ وجدَ أنَّ صديقَهُ السّيدَ "ديفيد" ليس أهلاً للاستمرارِ معهُ لا في الصّداقةِ ولا في السّكنِ

فيما بعدُ. بعدَ أقلَّ من شهرٍ من حينهِ ظهرَ العريسانِ "المِثْليّانِ" على شاشةِ تلفزيونٍ مَحلّيةٍ. في البرنامجِ التلفزّيونيِّ يطالبُ أحدُهُما أنْ تراعيَ دائرةُ الجنسيةِ والإقامةِ حقوقَهُ الإنسانيةَ والمدنيةَ وتمنحَهُ جنسيةً لكيْ يبقى مع "زوجِهِ أو زوجتِهِ!" الآخرِ المواطنِ في تلكَ البلادِ. تبيَّنَ لاحقاً أنَّ مُحاميَ القضيةِ قد نجحَ في حصولِ ذلكَ "المِثْليِّ" الغريبِ على الجنسيةِ.

سرحان وأبوالزهو: " هالو جايز ذير، هاو آر يا، إفريثينج إز أوكيه؟!" ... نعتقدُ أنكَ الآنَ غارقٌ في نَهْلِ العلمِ والثقافةِ من رأسِ منبعِها.

السّيدُ حمد: وعسى أنْ تكونَ الأمورُ على ما يَرامُ عندَكُمْ من هناكَ. عنديَ بشرىً سارةٌ لكَ يا صديقِيَ العزيزَ أبوالزهو. لقدْ حُلَّت مُعضلتُكَ بشأنِ الهجرةِ والرحيلِ!.

أبوالزهو (وسرحان): وكيف يكونُ ذلكَ يا صديقِيَ؟!. لا أريدُ أنْ أرحلَ أو حتى أسافرَ من هنا. لا أفهمُ شيئاً مِمّا تقولُهُ الآنَ.

السّيدُ حمد: ألا تذكرُ يا صديقِيَ أبوالزهو في الماضي عندَما كنتَ تبحثُ عن مكانٍ بعيدٍ عن موطنِكَ تُهاجرُ إليهِ يلبّي طموحاتِكَ ورغباتِكَ وحقوقَكَ ومواهبَكَ؟!.

أبوالزهو وسرحان: كانَ ذلكَ في الماضي. اليومَ آثرتُ على البقاءِ هنا في مكانيَ وبينَ أهليَ!. لكنْ من بابِ الاستطلاعِ والفضولِ، كيفَ تَمَّ حلُّ تلكَ المشكلةِ التي تتحدثُ عنها؟!.

السّيدُ حمد: إذا ما رغِبْتَ في الرحيلِ إلى هنا فسوفَ أقومُ بعملِ عقدِ زواجٍ بينَكَ وبينَ أحدِ أفرادِ "الجنسِ الثالثِ" أو "الجنسِ الرابعِ!" أو حتى "الجنسِ الخامسِ!" ناهيكَ عن الجنسينِ "الأوّلِ والثاني" من هنا، وما تبقّى من إجراءاتٍ لتقعَ على عاتقِ المُحامي القانونيِّ ووسائلِ الإعلامِ.

أبوالزهو: يا صديقِيَ! ألا تستحي على نفسِكَ من التكلّمِ في هكذا موضوعٍ ومعِيَ بالذاتِ؟!. يا خسارةً على التربيةِ والجهدِ الضائعِ منّيَ فيكَ!. وهل وصلتْ درجةُ التقدمِ أو الانحطاطِ في تطبيقِ مفهومِ الحضارةِ وحقوقِ الخلقِ إلى ذلكَ المستوى؟!. أنا سعيدٌ أنَّني وُلِدْتُ هنا في عائلةِ أبو جاسر مزمنةِ الفقرِ المدقعِ وأتْرُكُ لكَ ما ظللتَ تصبو إليهِ من تقدمٍ علميٍّ وحضاريٍّ!.

عاد السّيدُ حمد إلى نفسهِ وأرادَ وقْفَ أو تَخفيفَ "التلاقحِ" الثقافيِّ مع أيّةِ ثقافةٍ أخرى ريثَما ينجلي الأمرُ قليلاً وينكشفُ الأفقُ للخطوةِ التي تلي. قرّرَ اللجوءَ إلى بني جلدتهِ، لبعضِ الوقتِ على الأقلِّ، من الذين مضى عليهِمْ بعضُ الزمنِ في تلكَ البلادِ. لا يبعدُ السّيدُ "عبدُهُ الفرّانُ" كثيراً عن ثقافةِ السّيدِ حمد الأصليةِ لا جغرافياً ولا تاريخياً ولا عقائدياً ولا حتى لكنةَ لسانٍ، من نفسِ المِلّةِ! على حدِّ رأيِ الوالدةِ أم جاسر. ذاتَ يومٍ طلبَ السّيدُ "عبدُهُ الفرّانُ"، وكانَ يعملُ بائعاً متجولاً للأقمشةِ والألبسةِ الجاهزةِ، طلبَ من السّيدِ حمد مصاحبتَهُ إلى مقهى "اليويو" في إحدى ضواحي المدينةِ. في البدايةِ ظنَّ السّيدُ حمد جهلاً، من اسْمِ المقهى، أنَّ ذلكَ المقهى يقدِّمُ بعضَ التجاربِ العلميةِ لزبائنهِ بالإضافةِ إلى تقديمهِ صنوفاً من المأكولاتِ والمشروباتِ الخفيفةِ. وجدَ السّيدُ حمد الأمرَ يَختلفُ كلياً إذ أنَّ ذلكَ المقهى، وبعدَ السّاعةِ الثامنةِ مساءاً، يقومُ بعملِ عروضٍ للعارياتِ من الصّبايا والشبابِ خاصةً المراهقاتِ والمراهقينَ منهُم. كانت مناظرُ لا تَحلوا كثيراً لِمن يريدُ أنْ يَحتفظَ ببعضٍ من عفّتهِ وحشمتهِ وطهارةِ وصونِ أعراضهِ وأعراضِ غيرِهِ

و"كرامتِهِمْ الخَلقيّةِ". وكما يقولُ المثلُ العاميُّ: "ظننتُ أنَّ السّيدَ "عبدُهُ الفرّانُ" من أصحابِ موسى عليه السّلامُ وإذا بِهِ من جنودِ فرعونَ عليهِ الكلامُ!".

يقعُ السّيدُ حمد في ورطةٍ أو معضلةٍ مع نفسهِ وفي اصطدامِ "ثقافةٍ" متواصلٍ مع كلِّ من حولَهُ ودونَ استثناءٍ. بعدَ قليلٍ من حينهِ تعرّفَ السّيدُ حمد على عائلةٍ تحتوي مزيجاً من الثقافةِ الغربيةِ من جهةِ الزوجِ "أندرياس" والثقافةِ الأصليةِ الوسطِ آسيويةِ من جهةِ الزوجةِ "آيسة". كانَ الأوّلُ قد تعرَّفَ على الثانيةِ أثناءَ خدمتهِ لِمصالحِ بلادهِ في إحدى القواعدِ العسكريةِ المتقدّمةِ التي تقاومُ التمدَّدَ السّوفييتيَّ أو الشيوعيَّ في العالَمِ. وكما يبدو أنَّ السّيدَ "أندرياس" قامَ بإدخالِ زوجتهِ "آيسة" على ثقافتهِ الغربيةِ من أوسعِ الأبوابِ وأكثرِها انتشاراً وبَخساً، تعاطي زيارةِ الملاهي ودورِ اللهوِ. ذاتَ يومٍ دعتْ عائلةُ السّيدِ "أندرياس"، وكانت لَهما طفلةٌ صغيرةٌ أبقياها في البيتِ، دعت السّيدَ حمد لِمصاحبتِهما في الذهابِ إلى حفلةٍ في نادٍ ليليٍّ لِمساعدتهِ قدْرَ المستطاعِ على استيعابِ الثقافةِ الجديدةِ عليهِ. وعلى براءتهِ وحسْنِ نواياهُ لبّى السّيدُ حمد النداءَ ظنّاً منهُ أنَّ ذلكَ سيخفّفُ من حدةِ وطأةِ "التلاقحِ" الثقافيِّ التي ينتهجُها في حينهِ. في ذلكَ النادي كانَ الوضعُ مُختلفاً عمّا سبقَ ورآهُ السّيدُ حمد من قبلُ. رجالٌ أتوْا بنسائِهِمْ ليشاهدوا معاً عرضَ رجالٍ عراةٍ، في معظمِهِمْ مِن خريجي نوادي كمالِ الأجسامِ والشواطئِ والملاهي الليليةِ. كانَ الجوُّ مثيراً للاشمئزازِ تقريباً عندَ كلِّ خطوةٍ أو حركةٍ مِن هؤلاءِ "الدونْ جوانيين"، العربيدِ لكلٍّ منْهُمْ. النساءُ والرجالُ الحضورُ في حالةٍ من الشربِ والغيابِ الجزئيِّ عن الوجدانِ في مناظرَ لا يَحلو حتى للجنِّ المشاركةَ فيها. قالَ السّيدُ "أندرياس" أنَّ زوجتَهُ "آيسة" مغرمةٌ بتلكَ الأمورِ ومنذُ سنينٍ من أجلِ استيعابِ تلكَ الثقافةِ الاجتماعيةِ بأكملِها وقدْرَ استطاعتِها.

وبما أنَّ الثقافةَ اليابانيةَ قريبةُ الطباعِ تقريباً من الثقافةِ العربيةِ، فكَّرَ السّيدُ حمد باللجوءِ إليها ولو من بابِ التجربةِ. تَعرَّفَ إلى السّيدِ "ميرو هيتو" وكان الأخيرُ في بعثةٍ دراسيةٍ لنيلِ شهادةِ الدكتوراه في علمِ الرياضياتِ من هناكَ. للسيدِ "ميرو هيتو" عددٌ من الأصحابِ من نفسِ جلدتهِ وهذا ما ساعدَ السّيدَ حمد على ملءِ بعضِ الفراغِ الناتجِ عن حبِّ الاستطلاعِ الثقافيِّ عندَهُ. ذاتَ يومٍ دعا السّيدُ "ميرو هيتو" السّيدَ حمدَ إلى جلسةِ استرخاءٍ من عناءِ العملِ والدراسةِ في نادٍ ليليٍّ. كانَ الوضعُ في ذلكَ النادي الليليِّ مصحوباً بالصّورةِ والصّوتِ والتطبيقِ على الأرضِ في الحالِ، أو بعدَ حينٍ من الاتفاقِ المسبقِ. أثناءَ استعراضِ الفتيانِ والفتياتِ العارياتِ يتمُّ التعاقدُ الفوريُّ بينَ أحدِ الحضورِ من الطرفينِ مع أحدِ المستعرضينَ أو إحدى المستعرضاتِ حيثُ دفْعُ الأجورِ مقدَّماً وبسخاءٍ. لا يَحلو لأيِّ شخصٍ يتمتعُ بحسٍّ إنسانيٍّ أو كرامةٍ في الحياةِ التعاطي مع هكذا أمورٍ!.

بعدَ ما لا يزيدُ عن السّنةِ في مُحيطٍ من الثقافةِ الغربيَّةِ المُكثَّفةِ تغيّرتْ نظرةُ السّيدِ حمد بشكلٍ شبهِ كلّيٍّ للحياةِ والمُجتمعِ والحضارةِ والتقدمِ والوجودِ. في فكرِ السّيدِ حمد، تَحوَّلَ الإنسانُ مادةً ومعنىً إلى ما يشبهُ "غيمةً" من الإلكتروناتِ تكتنفُ فيما بينها مادةً نوويةً، بروتوناتٍ ونيوتروناتٍ، تتخذُ أشكالاً وألواناً كثيرةً ومُختلفةً. هذا ما يسمّى في العلمِ الحديثِ بالنظريةِ الذريةِ والتحتِ-ذريةِ للكائناتِ الحيةِ (٩٩,٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩٩% من جسمِ الكائنِ الحيِّ فراغٌ ماديٌّ). انْحدرَ المستوى المعنويُّ والروحانيُّ لوجودِ الإنسانِ إلى مرتبةٍ قريبةٍ من مستوى

تصرفاتِ كائناتٍ بيولوجيةٍ "أميبيةٍ!" النزعةِ لكنَّها ضخمةُ الحجمِ. هذه الكائناتُ تتغذّى وتتعاملُ مع غيرها بنفسِ الطريقةِ التي تتصرفُ فيها الكائناتُ الحيةُ البدائيةُ الدقيقةُ اتّجاهَ نفسِها وغيرِها، مع بعضِ التعديلاتِ السّطحيةِ!.

لستُ من قبائلِ "الجوجواه"

يعتبرُ مستشفى جامعةِ "بامالوسا" التي يدرُسُ فيها السّيدُ حمد من أقوى المستشفياتِ في الدولةِ وربّما في العالَمِ. الجامعةُ أصلاً بنيتْ حولَ المستشفى بدءاً من كليةِ الطّبِّ وانتهاءً بمجموعةٍ كبيرةٍ من الكلياتِ والأقسامِ الجامعيةِ الصّغيرةِ في الحجمِ والمتواضعةِ بالإمكانياتِ. حتى أنَّ المبنى الصّغيرَ الذي كانَ يداومُ فيهِ السّيدُ حمد للدراسةِ للحصولِ على الدكتوراه كانَ يضمُّ ثلاثةَ أقسامٍ علميةٍ رئيسيةٍ. وإذا ما كانَ عددُ أبنيةِ الجامعةِ لا يتجاوزُ السّتينَ فإنَّ عددَ الأبنيةِ التابعةِ لكليةِ الطبِّ والمستشفياتِ وأقسامِها يزيدُ عن الأربعينَ. كلُّ التخصصاتِ الطبيةِ العاليةِ من جراحةِ القلبِ والأعصابِ والدماغِ والأمراضِ الخبيثةِ المستعصيةِ والطبِّ الوراثيِّ ... وغيرِها الكثير، موجودةٌ في ذلكَ المستشفى.

بدأ السّيّدُ حمد يشعرُ بهاجسِ المرضِ، فهو سرعانَ ما يشعرُ بالتعبِ وأصبحَ شاردَ الذهنِ حادَّ المزاجِ قليلَ النّومِ وعندَهُ شعورٌ دائمٌ بحالةٍ من اللا-راحةِ واللا-تَعَبِ. ذهبَ السّيدُ حمد إلى فرعِ طبِّ العائلةِ في المستشفى؛ وما أنْ دخلَ مكتبَ الطبيبِ وشرحَ لهُ حالتَهُ وما يشعرُ بهِ حتى كتبَ الطّبيبُ لهُ وصفةً من الدواءِ. تناولَ السّيدُ حمد جزءاً منها ولَمْ يشعرْ بتحسُّنٍ يذكَرُ، وعندَها أعادَ الكَرَّةَ وراجعَ قسمَ طبِّ العائلةِ. اجتمعَ على السّيدِ حمد عددٌ من الأطباءِ من رفاقِ الطبيبِ الأوّلِ والذينَ قرَّرَ أحدُهُمْ أنَّ على السّيدِ حمد المبيتَ في المستشفى؛ لا ضيراً كبيراً في ذلكَ فلَدى السّيدِ حمد بطاقةُ تأمينٍ على الحياةِ من شركةِ تأمينٍ عالَميةٍ مرموقةٍ!.

أُدخلَ السّيدُ حمد إلى جناحٍ في المستشفى في عربةٍ على كرسيٍّ متحرّكٍ كانَ يدفعُهُ شابٌّ بدا وكأنَّهُ لأوّلِ مرَّةٍ يتعاملُ فيها مع شخصٍ من جنسِ السّيدِ حمد، أو ربّما من غيرِ جنسِ الشابِّ. كانَ ذلكَ الشابُّ يدفعُ الكرسيَّ بشكلٍ مفاجئٍ ويوقفُهُ بنفسِ الطريقةِ. وعندَما يُعَرِّفُ الناسَ والموظفينَ حولَهُ بالمريضِ الجديدِ يقولُ لهُمْ:

"لقدْ جئنا لكُمْ بالسّيدِ حمد!" أو على الأصحَّ "لقدْ جلبْنا! لكُمْ السّيدَ حمد ... ها ها ها ...". وقفَ السّيدُ حمد على قدميْهِ وقالَ للممرضِ! الشابِّ أنّهُ ليسَ بحاجةٍ إلى مساعدةِ كرسيٍّ متحركٍ يدفعُهُ "نصفُ حصانٍ" أشْمَطُ!. وبعدَ أنْ قامَ السّيدُ حمد بتسجيلِ نفسهِ في المستشفى أدخلَ إلى غرفةٍ خاصةٍ شبهِ معزولةٍ في طرفِ الجناحِ الخاصِّ بالأمراضِ المُعْديةِ. كانت غرفةً صغيرةً وبها سريرٌ وحَمّامٌ صغيرانِ كذلكَ. ومن هناكَ بدأتْ تُجرى فحوصٌ طبيةٌ للسيدِ حمد شمَلتْ الصّدرَ والبطنَ والدمَ والبوْلَ والبرازَ والنظرَ والسّمْعَ؛ أجريَتْ كلّها تقريباً باستخدامِ أجهزةٍ وصفتْ في حينهِ بأنّها متقدّمةٌ. أكثرُ الأجهزةِ من الّذي جلبَ انتباهَ السّيدِ حمد جهازُ تصويرِ عملِ القلبِ بواسطةِ استخدامِ موجاتٍ صوتيةٍ ودونَ عمليةِ قسطرةٍ. رأى السّيدُ حمد على شاشةٍ متوسّطةِ الحجمِ قلبَهُ وحركاتِ قلبهِ ونبضَ قلبهِ ولو بقليلٍ من الوضوحِ. شدَّ انتباهَ السّيدِ حمد في عمليةِ الفحصِ "التلفازيِّ" تلكَ عددُ القائمينَ على جهازِ المراقبةِ والتحكُّمِ والتنوُّعُ في لهجاتِهِمْ وأشكالِهِمْ الخارجيةِ وتطلعاتِهِمْ الداخليةِ!. هذا أسْمرُ اللونِ كثُّ الشعرِ والحواجبِ ... هنديٌّ، وذاكَ أسْمرٌ غامقٌ قويُّ البنيةِ الجسديةِ ... أفريقيٌّ، وذاكَ ناصعُ البياضِ سابلُ الشعرِ ومن لكنتهِ ... فرنسيُّ الأصلِ، وذاكَ شواربُهُ سوداءُ فاقعةٌ وأبيضُ اللونِ ... تركيٌّ وربّما كانَ هنالكَ اثنانِ آخرانِ من أصولٍ لاتينيةٍ. يتفقونَ على شيءٍ واحدٍ هو مُحاولتَهُمْ التكلمَ باللغةِ المَحلّيةِ هناكَ وبأقصى طلاقةٍ مُمكنةٍ!. الهاجسُ المقلقُ عندَ السّيدِ حمد هو فيما إذا كانَ تقريرُهُمْ الطبيُّ عن حالتهِ سوفَ يَحملُ صفةَ الاختلافِ الشكليِّ والفكريِّ بينَهُمْ. أخيراً قرّروا التوحُّدَ حولَ رأيِ الدكتورِ الهنديِّ الأصلِ هناكَ؛ ربّما كلّهُمْ يَحملونَ درجةَ الدكتوراه في ذلكَ المَجالِ!. قالَ الطبيبُ الهنديُّ الأصلِ للسيدِ حمد أنَّ الوضعَ عندَهُ لا يستدعي القلقَ أبداً وأنَّ كلَّ شيءٍ يبدو من الصّورةِ على ما يرامُ. نتيجةُ الفحصِ تلكَ لَمْ تكنْ كافيةً للتوقّفِ عن عملِ فحوصٍ مَخبريةٍ أخرى في مُحاولةٍ كما يبدو لتشغيلِ أكبرِ عددٍ مُمكنٍ من أجهزةٍ وفنيينَ في المستشفى. على السّيدِ حمد أنْ يَخضعَ لعمليةِ تَخطيطِ القلبِ؛ كانت النتيجةُ كغيرِها من النتائجِ حتى الآنَ ... سالبةً!. على السّيدِ حمد هذه المرّةَ أنْ يَخضعَ لتصويرِ قفصهِ الصّدريِّ باستخدامِ جهازِ الأشعةِ السّينيةِ للحصولِ على معلوماتٍ إضافيةٍ عن حالةِ قلبهِ. كما يبدو أنَّ هنالكَ نوعاً من الأشعةِ يُمكنُ التحكُّمُ بشدتهِ ليظهرَ القلبُ بعدَ ذلكَ بصورةِ كتلةٍ بيضاءَ اللونِ معلّقةٍ في الصّدرِ. توصّلَ الطبيبُ المشرفُ من تَحليلِ الصّورةِ أنَّ هنالكَ قلباً كبيرَ الحجمِ نسبياً في صدرِ السّيدِ حمد، وحاولَ أنْ يَجدَ أو يفسرَ السّببَ في كِبَرِ قلبِ ذلكَ الشابِّ المسكينِ؛ ولَمْ يستطعْ!.

أثناءَ وجودِ السّيدِ حمد في غرفتهِ في اليومِ التالي لتلكَ الفحوصِ مَرَّتْ عليهِ أعدادٌ من الناسِ ظنَّ أوّلاً أنَّهُمْ يريدونَ مواساتهِ في مصابهِ بسببِ بعدهِ عن أهلهِ ووطنهِ. من هذهِ الناحيةِ لنْ يكونَ الوضعُ عندَ السّيدِ حمد في البلادِ أحسنَ منهُ في الغربةِ!. تَبيَّنَ فيما بعدُ أنَّهُمْ أطباءٌ بعَثَ بهِمْ الطبيبُ المشرفُ على السّيدِ حمد. في كلِّ زيارةٍ لكلٍّ من هؤلاءِ الأطباءِ لَمْ يتجاوزْ زمنُها نصفَ الدقيقةِ كانَ عليهِ أنْ يدفعَ "كشفيةً خاصةً" بزيارةِ كلِّ طبيبٍ!. كانَ كلُّ واحدٍ يقولُ: "هاي ذير" ...." هاو آر يه؟"... "أوكي"، لتُحْسَبَ على السّيدِ حمد كشفيةً وزيارةَ طبيبٍ مُداوٍ مُختصٍّ.

كانتْ السّاعةُ تشيرُ إلى العاشرةِ صباحاً تقريباً عندما جاءَ الطبيبُ المشرفُ على السّيدِ حمد ومعَهُ مَجموعةٌ من الطلابِ المتدرّبينَ من كليةِ الطبِّ هناكَ.

الطبيبُ المشرفُ: هل تعلمُ يا سيدَ حمد مَنْ ذلكَ الشخصُ الذي هو آخرُ من يُمكنُ أنْ يصابَ بِمثلِ هذا النوعِ من الأمراضِ المُعْدِيةِ؟!.
السّيدُ حمد: لا أعرفُ ولستُ أدري..
الطبيبُ المشرفُ ومَجموعةُ المتدرّبينَ بصوتٍ واحدٍ: هو أنتَ!!.
السّيدُ حمد: ولماذا؟!.
المَجموعةُ: لأنَّكَ تَتْبَعُ قبائلَ "الجوجواه"!!.
السّيدُ حمد: لستُ من قبائلِ "الجوجواه"! أنا حمد ابن أبو جاسر (أبو جاسر متوفّى الآنَ)، ولا يزالُ أبوالزهو ولِيَّ أمرِيَ كما كان من قبلُ. هذا مسجَّلٌ عندَكُمْ في الكشفِ الخاصِّ بالمرضى....
ما أنْ سَمِعتْ المَجموعةُ الطبيةُ وقائدُها الطبيبُ المشرفُ هذا الجوابَ حتى ارتدَّتْ على أعقابِها مثلَ الذي أصيبَ بخيبةِ أملٍ على توقعاتٍ شُبِّهَ لهُ مسبقاً أنَّها صحيحةٌ وتبيَّنَ خَطؤُها بشكلٍ مفاجئ. عادَ الطبيبُ المشرفُ لوحدهِ لرؤيةِ السّيدِ حمد بعدَ مغادرةِ مَجموعةِ الطلبةِ المتدرّبِيَنَ. أخبرَ الطبيبُ السّيدَ حمد بأنَّ راعيَ المعبدِ "الكهفيِّ!" الذي يتعبَّدُ فيهِ الأوَّلُ كان قد أخبرَهُ بأنَّ فرداً من أيّةٍ من قبائلِ "الجوجواه" لنْ يصابَ بمثلِ هذا المرضِ المُعدي لطبيعةِ قربهِمْ من الخالقِ!. ليسَ ذلكَ فقط بلْ إنَّ الطبيبَ المشرفَ عاد عن قرارٍ سابقٍ لهُ وأعطى وصفةً طبيةً لنفسِ ذلكَ المرضِ الذي استبعدَهُ في السّابقِ منَ الحسبانِ!. على ما يبدو أنَّ الطبيبَ المشرفَ لَمْ يتمكَّنْ من الإفلاتِ من قيودِ راعي معبدِهِ، على الرغمِ من أنَّ قانونَ الدولةِ "المكتوبِ" لا يُجيزُ استخدامَ تلكَ المعتقداتِ في التطبيقاتِ العلميةِ والعمليةِ عندَ التعاملِ مع الناسِ. لَمْ تقفْ الأمورُ عندَ هذا الحدِّ، بل قالَ الطبيبُ المشرفُ إنَّ على السّيدِ حمد أنْ يَخْضعَ لفحصٍ جراحيٍّ، حيثُ أنَّ ذلكَ الفحصَ سيشكلُ عنصرَ حسمٍ ليقطعَ الشَّكَّ باليقينِ لِمعرفةِ الداءِ بالضبطِ ١٠٠%. يتلخَّصُ الفحصُ الجراحيُّ بأخْذِ عينةٍ من الغشاءِ الرقيقِ المُحيطِ بالقلبِ بأنْ يتمَّ إدخالُ ما يسمى بِ"المثقابِ" إلى داخلِ القفصِ الصّدريِّ للسيدِ حمد وأخْذِ عينةٍ من الغشاءِ، وهنالكَ احتمالٌ أنْ يُثْقَبَ ذلكَ الغشاءُ الحيويُّ جدّاً وتكونُ نِهايةُ حياةِ السّيدِ حمد. رفضَ السّيدُ حمد الخضوعَ لذلكَ الفحصِ الجراحيِّ. بعثَ الطبيبُ المشرفُ أحدَ المتخصصينَ من "زائري كليةِ الطبِّ" من أصلٍ آسيويٍّ لاعتقادِ الأوّلِ بأنّهُ طالَما أنَّ الأخيرَ من نفْسِ "مِلَّةِ!" السّيدِ حمد فإنَّ لديهِ القدرةَ على إقناعِ الأخيرِ! بالخضوعِ لذلكَ الفحصِ. قالَ الطبيبُ الرسولُ للسيدِ حمد أنَّ العمليةَ بِرُمَّتِها سَهلةٌ جداً وقد لا تستغرقُ بضعَ دقائقَ وأنَّ العينةَ المُرادَ أخْذِها من غشاءِ القلبِ قد تكونُ بحجمِ رأسِ الدبّوسِ!، على حدِّ وصفهِ. قال لهُ السّيدُ حمد أنَّ معظمَ الأمورِ لا تقاسُ بالحَجمِ والكتلةِ؛ ولو كان الأمرُ كذلكَ لتبوّأَ الفيلُ والدبُّ والزرافةُ والحصانُ والتمساحُ وربّما الثورُ أرفعَ المراكزِ في الكونِ. قرَّرَ السّيدُ حمد مغادرةَ المستشفى فوراً وعلى وجهِ السّرعةِ والعجالَةِ، حتى أنّهُ كانَ مستعداً لتغييرِ ملابسهِ السّريريةِ ومغادرةِ المستشفى دونَ أخْذِ إذنٍ من أحدٍ. أتى لهُ الطبيبُ المشرفُ بورقةٍ كُتِبَ لهُ عليها على أنّهُ يَخرجُ من المستشفى بناءً على مسئوليَّتِهِ الخاصّةِ؛ وفعلاً حَصَلَ ووقَّعَ!، ومن هناكَ ذهبَ السّيدُ حمد إلى ملعبٍ لكرةِ التِّنسْ مُجاورٍ لِمكانِ إقامتهِ ولَعِبَ التِّنِسْ حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليلِ. عادَ السّيدُ حمد إلى مَسكنهِ ليبيتَ ليلةً هادئةً بعدَ كابوسٍ مرعبٍ من التجاربِ الجريئةِ النافذةِ على جسمهِ.

قبلَ مغادرتهِ المستشفى ووجهَ السّيدُ حمد بفاتورةٍ من المستشفى تعدَّت السّبعةَ آلافِ جنيهاً، دفعتْ شركةُ التأمينِ الجزءَ الأكبرَ منها، وربّما كلَّها!. وبعدَ فترةٍ ليستْ بالقصيرةِ إذا بفواتيرَ قديمةٍ جديدةٍ لَمْ يعرفْ بها السّيدُ حمد من قبلُ تردُ إلى صندوقِ بريدهِ ..... كان لا بدَّ للسيدِ حمد من أنْ "يهاتفَ" أهلَهُ.

أم جاسر: عسى أنْ تكونَ بخيرٍ وبصحةٍ جيدةٍ. إيّاكَ أنْ تكونَ قد تزوجتَ من بنتِ الحلالِ وأنْجبتَ من الأطفالِ دونَ علمِنا!، أطفالٌ من البيضِ والشُّقرِ والحُمْرِ .....

السّيدُ حمد: ... والذينَ لا يتكلمونَ اللغةَ العربيةَ على الإطلاقِ!. أعرفُ كلَّ ما يَجولُ بخاطرِكِ. كيفَ صحتُكِ وصحةُ بقيةِ الأسرةِ من الأخوةِ والأخواتِ؟.

أبوالزَهو وسرحان: "ياس" ... "هالو ذير" ... أينَ وصلتَ في علمِكَ؟. دائماً الأصدقاءُ يسألونَنا عنكَ. نقولُ لَهُمْ أنَّكَ دائماً تسألُ عنهُمْ ولا تنساهُمْ مهما وَصَلْتَ من أعلى المراتبِ!.

السّيدُ حمد: آخ يا أبوالزهو، في أقلَّ من ليلتيْنِ ونصفِ الليلةِ دفعتُ من المالِ ما نعجزُ عن تجميعِهِ عندكُمْ في سبعِ سنواتٍ. الحمدُ للهِ أنّهُ كانَ لديَّ تأمينٌ صحيٌّ، غيرَ ذلكَ ما كان بالإمكانيةِ حتى إدخالِيَ إلى المستشفى للمعالَجةِ!. نارُ التخلفِ الطبيِّ في بلادِنا ولا جنَّةُ التقدمِ الطبيِّ في هذهِ البلادِ.

سرحان وأبوالزهو: يا رجلاً! لو كنتَ تناولتَ كأسَ ماءٍ مغلياً بالميرميَّةِ أو حبّتيْنِ من الأسبرين (البانادول) أو كوباً ساخناً من شوربةِ العدسِ أو صحناً من "الفريكةِ" أو ملعقةً من العسلِ؛ أيٌّ من هذه كافيةٌ لِحلِّ كلِّ الإشكالِ!. ولِماذا المغامرةُ في الذهابِ إلى مستشفىً وعملِ فحوصٍ مكلفةٍ لا لزومَ لَها، لا هنا ولا هناكَ؟!.

السّيدُ حمد: يا إخوانا!، نسيتُ نفسِيَ، ونسيتُ أنَّنِيَ في نظامٍ رأسْماليٍّ يعبدُ فيهِ الناسُ المالَ قبلَ عبادةِ الخالقِ؛ حتى أنّهُمْ يربطونَ بينَ اعتقادِهِمْ بالخالقِ وتصديقِهِمْ بوجودهِ وبينَ ما قد يصلُهُمْ منهُ من أموالٍ. وفعلاً يا صديقِيَ أبوالزهو بعدَما تركتُ المستشفى شربتُ قَدَحاً من الشاي السّاخنِ وصحناً من الحسا السّاخنةِ أيضاً، لكنْ لا يوجدُ عندِيَ فريكةٌ أو عسلٌ، وها أنا الآنَ مثلُ الحصانِ! ... لا تقلقوا عليَّ يا أبوالزهو، لا أنت ولا الإخوانَ ولا الوالدةَ ولا أختِيَ "كاملة" بالذاتِ.

سرحان: بالنسبةِ لإرتفاعِ أسعارِ المعالَجةِ، أعرفُ من شراءِ علبةٍ صغيرةٍ من الحبوبِ حتى ندفعَ ثَمنَها ما يساوِيَ أضعافَ حِمْلِ بقاليلِ اللّبنِ.

أبوالزهو: وارتفعَ سعرُ بقلولةِ اللّبنِ إلى عشرةِ قروشٍ بقرارٍ من رابطةِ بائعي اللّبنِ المُشَكَّلَةِ شفوياً وعفوياً من عددٍ من البائعينَ القدامى والجددِ. اضطررنا لدفعِ رسومِ الرابطةِ ويساوي ثَمَنَ بقلولتينِ ومغطاسٍ (المُغطاس هو إناءٌ فخاريٌّ بنفسِ شكلِ البقلولةِ المخروطيِّ ولكنَّ حجمَهُ يساوي نصفَ حجمِ البقلولةِ تقريباً) سنوياً...

"كاملة" وأبوالزهو: كيفَ حالُكَ مع الموسيقى، ابقَ على تواصلٍ معَها، هذه غذاءُ الروحِ عندَكَ ومرتعٌ للذكرياتِ القديمةِ. يسلِّمُ عليكَ العَمُّ "أبوالطّيب" ودائماً يقولُ: "آخ على أيّامِنا السّابقةِ الحلوةِ هنا مع الشيخ! حمد".

أبوالزهو: مع السّلامةِ...."جودباي ذير"... ها ها ها..

السّيدُ حمد: وآخ على أيام صوتِ فيروز.... دن دن دن .... لا أنت حبيبي! ولا ربِّينا سوى!، قصتنا الغريبة شلعها الهوى، وصرت عنك غريبة؟! انساني يا حبيبي .... كل من طوى شراعه وراح بهالمدى، ولدين وضاعوا على جسر الصّدى!، افترقنا بهدا والدنيا هدا، بخاطرك صلّيلي! تسعد يا حبيبي.....

لا معنىً للضياعِ غيرَ الضياعِ

استغرقتْ الاستجابةُ لطلبِ السّيدِ حمد لتغييرِ جامعةِ "بامالوسا" التي التحقَ بها أوّلاً عندَ وصولهِ إلى تلكَ البلادِ حوالَيْ السّنةِ والنصفِ، بعدَ أنْ تأكّدَ لهُ أنْ لا جدوىً حقيقيةً من الاستمرار في الدراسةِ والتحصيلِ العلميِّ فيها. افتقرَ القسمُ هناكَ إلى المُختبرِ والمدرِّسِ والباحثِ، وكان هنالكَ القليلُ من التلاميذِ من بعضِ أنْحاءِ البلادِ والعالَمِ الجُددِ علَى جوانبِ الحياةِ هناكَ. كانَ هنالكَ بعضُ الإنتاجِ العلميِّ غيرِ المتميِّزِ الناتجِ عن تعاونِ بعضِ المدرّسينَ من القسمِ مع جهاتٍ أكاديميةٍ خارجيةٍ ولَمْ ينتَجْ من القسمِ ولو بَحْثٌ واحدٌ متأصلٌ فيهِ.....

بدأَ السّيدُ حمد رحلتَهُ البريةَ في الصّباحِ الباكرِ نَحْوَ جامعةٍ جديدةٍ ظنَّ أنَّها لنْ تكونَ أسوأَ مِمّنْ سبقتْها من الجامعاتِ على الأقلِّ. جَمَعَ كلَّ ما أمكنَ حَمْلَهُ في سيارتهِ الصّغيرةِ الخفيفةِ وودَّعَ جارتَهُ الودودةَ لهُ، السّيدةَ "جوزيتْ"، هناكَ ومنها إلى الطريقِ التي اشترى لأجلِها خريطةَ طرقٍ خاصةً للاستعانةِ بها إذا ما ضلَّ طريقَهُ. وبالرغمِ من طولِ الطريقِ وطولِ السّفرِ إلا أنَّ السّيدَ حمد قرَّرَ الوصولَ إلى الجامعةِ المبتغاةِ بأسرعِ وقتٍ مُمكنٍ ودونَ توقُّفٍ في الرحلةِ حتى لالتقاطِ الأنفاسِ. استغرقتْ الرحلةُ حوالَيْ ثمانيةَ عشَرَةَ (١٨) ساعةً وصلَ بعدَها المدينةَ المبتغاةَ ليلاً وأخَذَ يبحثُ عن منامةٍ مناسبةٍ؛ كان الوقتُ متأخراً من الليلِ وكانَ الجوُّ ماطراً وفي بيئةٍ غريبةٍ عليهِ. استقرَّ بهِ النومُ أخيراً في فندقٍ صغيرٍ قديمٍ وفي حجرةٍ صغيرةٍ متواضعةٍ في الطابقِ الأرضيِّ يشبهُ الجلوسُ فيها مثَلَ "نُصفَ" الجلوسِ في الشارعِ. شعَرَ السّيدُ حمد ببعضِ الألَمِ في الصّدرِ بسببِ عناءِ السّفرِ والسّهرِ والوحدةِ والقلقِ والتحسُّبِ للمستقبلِ. لفَّ نفسَهُ بحرامٍ قديمٍ من الفندقِ بَعدَ تناولِ حَمّامٍ ساخنٍ، وألقى بنفسهِ على سريرِ نومٍ علَّهُ يَقدرُ أنْ يغمضَ عينيْهِ وينامَ ولو لِهُنَيْهَةٍ ويتخَلَّصَ من بعضِ آلامِ التعبِ والإعياءِ. فعلاً، وبعدَ مُحاولاتٍ كثيرةٍ، سَبَلَ عينيْهِ ونامَ ليصحوَ بعدَ قليلٍ ويَخرجَ من الحجرةِ ليتفقَّدَ سيارتَهُ المصطفَّةَ قريباً من الغرفةِ فيما إذا ما جذبتْ انتباهَ أحدِ اللصوصِ. لا يوجدُ في السّيارةِ ما يُحرزُ أو يغري للسطوِ عليهِ، ولكن كيفَ يُمكنُ إثباتُ ذلكَ للصوصِ هناكَ؟!؛ عليهِمْ أنْ يتأكّدوا من ذلكَ بأنفسِهِمْ وبالطريقةِ التي يرونَها مناسبةً والتي قد تؤدّي في أغلبِ الأحيانِ إلى تَهديدِ حياةِ صاحبِ المُلْكِ.

بعدَ أنْ طلعتْ الشمسُ وارتفعتْ في السّماءِ قليلاً، ذهبَ السّيدُ حمد إلى حَرَمِ الجامعةِ الجديدةِ، جامعةِ "هايِ-تكنوتيكو" أو "اسْمارْتيزْ"، لتفقّدِ المكانِ الذي سوف يستقرُّ بهِ الأمرُ فيهِ بعدَ حينٍ قصيرٍ. بخطواتٍ متثاقلةٍ من عناءِ السّفرِ والهمومِ والترقُّبِ وصلَ السّيدُ حمد إلى مبنى القسمِ في حَرَمِ الجامعةِ وكانَ مغلقَ الأبوابِ والمداخلِ بسببِ عطلةِ نهايةِ الأسبوعِ هناكَ. مبنى القسمِ كبيرُ الحجمِ نسبيّاً، قديمُ الطرازِ وحجرِ البناءِ. قالَ حمد في نفسهِ لا بدَّ أنَّ ذلكَ البناءَ يَجمعُ بينَ شُموخِ الاكتشافاتِ العلميةِ الماضيةِ وشُموخِ الطموحاتِ المتجددةِ!؟. خلْفَ ذلكَ المبنى ومنَ

فوق سورٍ غيرِ مرتفعٍ عن الأرضِ كثيراً، جلسَ السّيدُ حمد يراقبُ المكانَ والجوَّ والحركةَ القليلةَ ويستطلعُ ما حولَهُ. أمامَهُ مبنى مكتبةِ الجامعةِ و هو مبنىً كبيرٌ ولونُ حجارتهِ ورديٌّ لافتٌ للنّظرِ إلى حدٍّ ما. هنالكَ سورٌ يتوسطُ المسافةَ بينَ السّورِ الذي يَجلسُ عليهِ السّيدُ حمد وحائطِ بنايةِ المكتبةِ؛ كَتَبَ عليهِ أحدُهُمْ بخطٍّ طباشيرَ أبيضِ اللونِ عبارةً تقولُ بما معناهُ بعدَ الترجَمةِ: "لستُ مَجنوناً، أنا أتألَّمُ!". بسرعةٍ جذبتْ تلكَ العبارةُ انْتباهَ السّيدِ حمد وجعلتْهُ يتساءلُ مع نفسهِ عن الذي يَجري لذلكَ الشخصِ حتى يكتبَ مثلَ تلكَ العبارةِ؛ من الذي يتألَّمُ إنْ كانَ شخصاً أو مَجموعةً أو جيلاً من الناسِ!. هنالكَ عشراتُ الأسئلةِ أخيرُها إنْ كانَ الجنونُ أو الألَمُ أو جنونُ الألَمِ أو ألَمُ الجَنونِ سيلحقُ بالسّيدِ حمد!؛ وما الذي سيمنعُ ذلكَ عنهُ في تلكَ البلادِ الغريبةِ عليهِ؟!. أثناءَ الجلوسِ والتفكُّرِ لاحَ في الأفقِ شخصٌ أسْمرُ اللونِ ملتحٍ وكثيفُ الشعرِ جيدُ المُحيّي من بعيدٍ. قفزَ السّيدُ حمد من مكانِ جلوسهِ على السّورِ واتّجهَ بشيءٍ من السّرعةِ نَحْوَ ذلكَ الشخصِ الذي يبدو أنّهُ من نفسِ الطينِ والمَنبعِ والعجينِ والفكرِ والفلسفةِ والنظرةِ إلى الوجودِ واللا-وجودِ ... اللاتي أتى من بينِها السّيدُ حمد.

السّيدُ حمد: اسْمِيَ حمد، جديدٌ هنا، لَمْ أجدْ أحداً حتى الآنَ يساعدُني في التعرّفِ على المكانِ. أنا تلميذٌ يُحاولُ الحصولَ على الدكتوراه مهما كلّفَ الثمنُ!؛ يبدو الأمرُ ليس بالسّهلِ هنا.

السّيدُ "عَوَضْ": اسْمِيَ "عَوَضْ". تعالَ معِيَ إلى مكانٍ قريبٍ حيثُ هنالكَ مكانٌ للعبادةِ وسوفَ تتعرّفُ على شبابٍ أكثرَ مِمَّنْ يعجبونَكَ.

السّيدُ حمد: عظيمٌ جداً، أنا مَمْنونٌ عطفكَ عليَّ.

السّيدُ "عَوَضْ": وهل أنتَ على طهارةٍ ووضوءٍ، وإنْ لَمْ تكنْ فهذه دورةُ مياهٍ هناكَ، وخذْ راحتَكَ!. يعني .... يعني! .. كما تعرفُ أنَّ الإنسانَ دونَ إيمانٍ لا فرقَ بينَهُ وبينَ الحيوانِ ......

السّيدُ حمد: وبعدَ "الإيمانِ" يتغيَّرُ في كثيرٍ من الأحيانِ إلى ... أكبرَ من حيوانٍ!؛ حسْبَ الشخصِ قبلَ الإيمانِ ونوعِ الإيمانِ الذي يتحلّى بهِ! .... يعني! .... أيَّ شيءٍ!. بالنسبةِ لِيَ كلُّ من يَمشي على اثنتيْنِ يُمَثّلُ "خليفةَ اللهِ تعالى في الأرضِ" .... غيرَ ذي أهَميّةٍ الآنَ التناقشُ في تلكَ الأمورِ.

السّيدُ "عَوَضْ": وبِما أنّكَ تبدو مثلَ مفكّرٍ وعالمٍ في الدينِ متمكّنٍ!، ما رأيُكَ أنْ تَؤمَّنا في الصّلاةِ؟ وجزاكَ اللهُ خيراً كثيراً.

السّيدُ حمد: سَمْعاً وطاعةً، وهذا ما يشرِّفُني ....

بعدَ الانتهاءِ من الصّلاةِ قامَ السّيدُ حمد بعملِ دعاءِ الانتهاءِ من إقامةِ الصّلاةِ قالَ فيها أمامَ المصلّينَ: {اللهُمَّ إنّكَ قلتَ في كتابكَ الكريم أنّكَ (جاعلٌ في الأرضِ خليفةً) ... اللهُمَّ لا اعتراضَ يا اللهُ على حُكمِكَ وحِكمتِكَ. لقد استخلفتَ في الأرضِ ملياراتٍ من البشرِ من أشباهِ الشياطينِ والآلِهةِ من قصارِ القاماتِ والأعمارِ. هؤلاءِ لا يشبعونَ أكْلاً ولا يرتوونَ شُرْباً ولا يكتفونَ مالاً ولا يقفونَ عندَ حدٍّ في السّلطةِ والتسلّطِ والأنانيةِ الرعناءِ المُفرطةِ. اللهُمَّ إنْ لَمْ ترحَمْنا فسوفَ تصبحُ حياةُ القَمْلِ والبراغيثِ والصّراصيرِ، فيها كرامةُ عيشٍ ورخاءٌ واسترخاءٌ أكثرَ من حياتِنا مع هؤلاءِ البشرِ!. اللهُمَّ عليكَ بِجلاوزةِ "الڤومبرادور" فإنَّهُمْ لا يعجزونَكَ ...}

السّيدُ "عَوَظْ": أسْمعُ هذا الدعاءَ لأوَّلِ مرّةٍ الآنَ!، لَمْ أسْمعْ بمثلِهِ من قبلُ. "حِذّا نْجولْ اهني" (نُحنُ نقولُ هُنا) في الدعاءِ بعدَ طلبِ الرضا عنِ الصّحابةِ والتابعينَ ... اللهُمَّ افْتحْ علينا ولَنا خزائنَ الرزقِ والمالِ والبركَةِ. اللهُمَّ أكثِرْ من نَسْلِنا وقوِّنا وانصـرْنا علـى القـوم الكـافرينَ .... بصـراحةٍ إنَّهـا أوَّلُ مـرّةٍ أسْـمعُ بكلمـةِ "كونتراكطورور"! (قومَبرادور) ...

السّيدُ حمد: ألا تعرفُ معنى كلمةِ "قومبرادور"؟!. لكن مِن مَن تشتري مثلاً غياراتٍ داخليةً لكَ ولأولادِكَ الصّغارِ والكبار؟. مِن مَن تشتري ملقطَ الحواجبِ والوجناتِ؟!. ومِـن مَـن تشـتري مَحـارمَ ورقٍ للحمّـام؟. ومِـن مَـن تشـتري سـيارتَكَ!؟، وقطـعَ غياراتِها، الداخليةِ والخارجيةِ على حدٍّ سَواءَ؟!؛ هنا وفي موطنِكَ البعيدِ ...

السّيدُ "شَهول" (أحدُ أعضاءِ المعبدِ): دعونا من الحديثِ في أمورِ السّياسةِ!. لقد رُزقْتُ بمولودٍ ذكرٍ أوّلَ من أمسِ. أودُّ أنْ أدعوَكُمْ بعدَ غدٍ لحضورِ حَفلٍ خاصٍّ حيثُ سأذبحُ خروفاً بالمَناسبةِ. سنأكلُ لحمَهُ معاً، نشويهِ ونقليهِ ونطبخُهُ ونأكلُهُ؛ وكلَّ ذلكَ على حسابيَ طبعاً.

السّيدُ حمدَ: أنا سعيدٌ لإنْجابِكَ ذلكَ الطفلَ الذكرَ!. لكنْ ما ذنبُ ذلكَ الخروفِ المسكينِ حتى تذبَحَهُ من الوريدِ إلى الوريدِ وتسلخَهُ وتُقطّعَهُ وتسلقَهُ، وبالزيتِ والبهاراتِ تطهيَهُ وبالشوْكِ والسّكّينِ وفي حفلةٍ متواضعةٍ تُنهيَ وجودَهُ وإلى الأبدِ؟!. حبَّذا لو تقومُ بحفلةٍ لا تُسفكُ فيها دماءٌ!.

السّيدُ "شَهول": أنت جديدٌ هنا!، لا أريدُ الخوضَ معكَ أكثرَ من ذلكَ؛ إذْ تسمّي ذَبْحَ الخروفِ سفكَ دماءٍ!.

السّيدُ حمد: معذرةً! ليسَ ذلكَ بالضبطِ؛ تبدو هذهِ الطريقةُ في الذبحِ مثلَ سفكِ دماءٍ!. ولكنَّهُ إذا ما قُتِلَ في المسلخِ، وتَعرَّضَ هناكَ لصعقةٍ كهربائيّةٍ في رأسِهِ تريحهُ فوراً من آلامِ الحياةِ وطريقةِ تَخليصهِ منها!، فإنَّ المنظرَ يبدو أقلَّ جِسامةً. ومِن الممكنِ أنْ يكونَ ذلكَ بُشرى خيرٍ أكثرَ بالنسبةِ للمولودِ الجديدِ، خاصةً إذا ما تولّى العهدَ مَن بعدِكَ!.

السّيدُ "شَهول": لا لا ... هو ليس وليَّ عهدِيَ الأوَّلَ، هو ولِيُّ عهدِيَ السّادسُ ولقد أسْميناهُ، أنـا وأمُّـهُ، بِـ"المهـولِ" بسـببِ حالـةِ نفـادِ الأسْـماءِ الأخـرى التـي تنتهـي بالحروفِ الثلاثـةِ الأخيرةِ مـن مثلِ "صَـهول" و "رَ هول" و"سَـهول" و"ذَهـول" و"جَهول".

تَحْتَ إشرافِ الدكتورِ "فالكُنْ"

بعدَ بضعةِ أيـامٍ مـن وصولهِ إلـى القسـمِ الجديـدِ فـي جامعـةِ "اسْـمارْتيزْ" الجديدةِ قامَ السّيدُ حمد بِمقابلةِ المشرفِ الأكاديميِّ الجديدِ عليهِ، الدكتور "فالكُنْ". الأخيرُ شخصٌ في آخرِ ربيعِ شبابهِ كما حاولَ أنْ يبدوَ أو بدايةِ شتاءِ شيخوختهِ كما يظهرُ. يُعتقدُ أنّهُ تجاوزَ في عمرهِ سنَّ الخامسةِ والخمسينَ في ذلكَ الوقتِ إلا أنّهُ

كان من "الطيشِ والاندفاعِ الفكريِّ والسّلوكيِّ" ما يَجعلُهُ يبدو أصغرَ من ذلكَ بثلاثةِ عقودٍ ونصفِ العَقدِ من العمرِ على الأقلَّ. كانَ يثورُ "للا-شيءَ" وفي "أيِّ وقتٍ"؛ عندما يناقشُ شيئاً مع شخصٍ على حِدَةٍ أو حتى أثناءَ الدرسِ والتلاميذُ صامتونَ منتبهونَ، فجأةً يرفعُ صوتَهُ مصحوباً بالشّتْمِ والوعيدِ والتهديدِ. من تلكَ الحالةِ النفسيةِ ينتقلُ الدكتورُ "فالكُنْ" وبسرعةٍ ويسْرٍ إلى حالةٍ من الدقّةِ في الصّرامةِ، وقد تتخلّلُ ذلكَ ابتسامةٌ خجولةٌ يُحاولُ فيها مَسْحَ المَشاهدِ السّابقةِ كلِّها أو بعضِها.
توقَّعَ السّيدُ حمد في البدايةِ أنَّ أمثالَ هؤلاءِ هُمْ الذين كانَ يطلِقُ عليهِمْ في بلادِ ما وراءَ البحارِ بـ"العلماءِ المَجانين"، وأنّهُ ها قد أسعفَهُ الحظُّ أخيراً بالوقوعِ تَحْتَ إشرافِ، أوِ العملِ معَ، واحدٍ منهُمْ. ومن شبهِ المعروفِ عنِ العالِمِ المَجنونِ أنّهُ من الممكنِ لهُ أنْ "ينجبَ" اختراعاً أو اكتشافاً أو عملاً مبدعاً خارقاً في أيِّ وقتٍ منَ النهارِ أو الليلِ. كذلكَ منَ الممكنِ لهُ الوصولُ أو التوصّلُ إلى ذلكَ الاختراعِ في أيِّ مكانٍ سواءً أكانَ مسافراً بسيارتِهِ أو أثناءَ زيارةٍ لهُ لأحدِ مستشفياتِ الأمراضِ العقليّةِ أو العصبيةِ، أو أثناءَ تواجدِهِ في الحمّامِ مُحاولاً الاستحمامَ بعدَ إحداثِ اختراعٍ أو اكتشافٍ فيهِ بذلُ بعضِ الجهدِ غيرِ العاديِّ!؛ أو حتّى أثناءَ تناولهِ شطيرةَ "هامبرجر" دسِمةً في أحدِ المطاعمِ التي تقدّمُ وجباتٍ سريعةً. كلُّ شخصٍ في تلكَ البلادِ يُحبُّ السّرعةَ ثُمَّ السّرعةَ ثُمَّ السّرعةَ. إذنْ بدأتْ عندَ السّيدِ حمد، أو هكذا ظنَّ، ساعةُ العملِ العلميِّ الثوريِّ والتي انتظرَها طوالَ حياتهِ الماضيةِ، وها قد مضى عليهِ ما يقربُ من نصفِ الحياةِ قبلَ أنْ يتحقَّقَ لهُ ذلكَ الحلمُ!.
الدكتورُ "فالكُنْ": سَمعتُ عنكَ أنكَ من أكثرِ الناسِ تشدُّقاً بالعلمِ. كما ترى من الصُّوَرِ في مكتبيَ فلقدْ حصلتُ على شهادةِ الدكتوراه من أقوى وأعرقِ جامعاتِ الدولةِ وتَحْتَ إشرافِ أكبرِ العقلياتِ الكبيرةِ في البلادِ والعالَمِ!، ربّما. لِنَرَ ماذا يُمكنُ أنْ نفعلَهُ معاً بصحبتِكَ!.
السّيدُ حمد: لو تعرفُ! فإنني قدِمتُ من بينِ أناسٍ ما أنْ سَمِعوا أنَّ هنالكَ تقدماً علمياً في منطقتِكُمْ، وأتتْ الدعايةُ فيما بعدُ أنَّ ذلكَ التقدُّمَ كانَ بسببِ العلمِ والكتابِ والسّطورِ المسطَّرةِ!، حتى هبّوا جَميعاً وعن بكرةِ أبيهِمْ يعبدونَ العلمَ والكتابَ والمطالعةَ. حتى أنّنا في طلباتِ الالتحاقِ للعملِ أو للدّراسةِ ... وتَحْتَ بندِ الهواياتِ نكتبُ؛ أولاً المطالعةَ وثانياً القراءةَ وثالثاً المعرفةَ ورابعاً التفكيرَ وخامساً الدراسةَ وسادساً المراسلةَ مع الكتبِ، ونَختَتِمُ بهوايةِ مصاحبةِ المفكّرينَ!. أخيراً وليسَ آخراً نَحْنُ الذينَ عندَنا مثلٌ شعبيٌّ يقولُ: "تناولوا أو خذوا العلمَ ولو من رؤوسِ المَجانينِ!".
الدكتورُ "فالكُنْ": لكنْ أريدُ أنْ أخبرَكَ كذلكَ أنّهُ ليسَ عندِيَ كرباجٌ! لأتعاملَ بهِ مع التلاميذِ. أريدُ منكَ أنْ تتعاملَ مع الكتابِ التالي (كتابٌ متقدّمٌ بعضَ الشيءِ في الفيزياءِ النظريةِ)؛ وإذا ما صادفتَ شيئاً صعباً في طريقِكَ فلا مانعَ لديَّ من أنْ تأتيَنِي وتستفسرَ! عنهُ منِّيَ في ساعاتِ المكتبِ المشارِ إليها هناكَ موضوعةٍ على بابِ دخولِ مكتبِيَ.
السّيدُ حمد: كمَا تعرفُ فلقدْ صرفتُ أكثرَ من سنةٍ ونصفِ السّنةِ في الدراسةِ والبحثِ بينَ وفي سَيلٍ من الكتبِ والكتاباتِ والمقالاتِ، وبشكلٍ مستقلٍّ تقريباً في جامعةِ "بامالوسا" السّابقةِ. إنْ أمكَنَ، أريدُ أنْ أبدأَ البحثَ الذي يؤدي لنيلِ درجةِ الدكتوراه ... الوقتُ المتاحُ والمتبقّي عندِيَ قصيرٌ والميزانيةُ الماليةُ المتبقيةُ تنفذُ.

الدكتورُ "فالكُنْ": بالنسبةِ لِما أنْجزتَهُ في الماضي لن أحسبَ لكَ الشيءَ الكثيرَ منهُ. عليكَ أنْ تبدأَ الدراسةَ والأعمالَ المُختصةَ بالبحثِ معِيَ من جديدٍ تقريباً. سنتناقشُ بالأمرِ في المرَّةِ القادمةِ عندَما نلتقي مرّةً أخرى في المستقبلِ. عليَّ أنْ أذهبَ الآنَ حيثُ عنْدِيَ سفرٌ طويلٌ وسأعودُ بعدَ حوالَيْ الشهرِ وبعدَ أنْ أُسوِّيَ الأمورَ في الجامعةِ الأخرى التي كنتُ أُدَرِّسُ فيها من قبلُ. أنا هنا مدرِّسٌ جديدٌ في هذهِ الجامعةِ، جامعةِ "اسْمارْتيزْ"، وأحاولُ الاستقرارَ في المكانِ.

بدأَ السّيدُ حمد العملَ في البحثِ والقراءةِ على قدَمٍ وساقٍ بنفسهِ بطريقةٍ فرديةٍ مستقلةٍ (دونَ إشرافٍ بالخيرِ يذكَرُ) وبأسرعِ ما أمكنَهُ. أصبحَ الكتابُ الملاذُ الأوّلَ والأخيرَ ولا شيءَ غيرَ الكتابِ على الإطلاقِ!. خلالَ هذهِ الفترةِ اختفى الدكتورُ "فالكُنْ" في طولِ البلادِ وعرضِها. بعدَ عودةِ الدكتورِ "فالكُنْ" من رحلتهِ أو سفرهِ! ذهبَ السّيدُ حمد لِمقابلتهِ في مكتبِهِ. بعدَ مُحاولاتٍ عديدةٍ وطويلةٍ (استغرقتْ عدةَ أيامٍ) استطاعَ السّيدُ حمد مقابلةَ الدكتورِ "فالكُنْ" في مكتبهِ؛ حيثُ كانَ الأخيرُ يعرِضُ بعضَ الصُّورِ لهُ ولأصحابهِ التقَطَتْ أثناءَ تلاهيهِمْ بالتجديفِ في قاربٍ مطّاطيٍّ متوسّطِ الحجمِ "يبحرونَ" بهِ في مَجرىً مائيٍّ وَعِرٍ. هذا النوعُ من الرياضةِ المائيةِ فيهِ استمتاعٌ ومغامرةٌ تكمنُ فيها بعضُ المخاطرِ. في مكتبِ الدكتورِ "فالكُنْ" جرى نقاشٌ عاديٌّ مع السّيدِ حمد تَخلّلهُ بعضُ الحديثِ عن الأمورِ الأكاديميةِ. دامَ اللقاءُ الأكاديميُّ حوالَيْ نصفَ ساعةٍ وعلى استعجالٍ من جهةِ الدكتورِ "فالكُنْ". انتهى اللقاءُ بشبهِ اتفاقٍ بينَ الاثنينِ على مواصلةِ التلاقي الأكاديميِّ كما هي الحالُ بينَ طالبِ بَحثٍ والمشرفِ عليهِ. فيما بعدُ، كانتْ اللقاءاتُ قليلةً جداً وتَميّزتْ بالشُّحِّ في المعلوماتِ عندَ عَقْدِها.

طلبَ السّيدُ حمد من "المشرفِ عليهِ"!، الدكتورِ "فالكُنْ"، بعدَ فترةٍ قصيرةٍ (حواليْ ثلاثةِ أشهرٍ) من البدءِ في البحثِ الموافقةَ علَى طلبٍ لهُ لِحضورِ مؤتمرٍ علميٍّ متخصِّصٍ بفرعِ العلمِ الذي يعملُ عليهِ السّيدُ حمد في حينهِ. كان من الواجبِ والطبيعيِّ أنْ لا تكونَ هنالكَ أيّةُ مشكلةٍ لأنَّ لكلِّ طالبٍ مبعوثٍ الحقَّ في حضورِ أيِّ مؤتمرٍ أو أيّةِ ورشةِ عملٍ علميّةٍ يرى أنَّها مناسبةٌ لهُ؛ ما عليهِ إلا أنْ يَحصلَ على موافقةِ (توقيعِ) المرشدِ الأكاديميِّ عليهِ. لا توجدُ على القسمِ هناكَ أيّةُ تبعاتٍ ماليةٍ أو أيُّ شيءٍ آخرَ إذْ كلُّ التكاليفِ مَحسوبٌ حسابُها من الجهةِ المموِّلةِ لدراسةِ السّيدِ حمد. لكنَّ الدكتورَ "فالكُنْ" حاولَ اتّباعَ الخيارِ الذي ظنَّ أنّهُ سيريحُهُ أو سيجعلُهُ أكثرَ هيبةً عندَ السّيدِ حمد وفي القسمِ وأمامَ نفسهِ، ربّما!. رفضَ وضْعَ توقيعِ اسْمهِ على طلبِ الذهابِ إلى المؤتمرِ وحضورِ جلساتهِ من قِبَلِ السّيدِ حمد. ادّعى الدكتورُ "فالكُنْ" أمامَ بعضِ الزملاءِ لهُ أنَّ السّببَ في ذلكَ كان أنّهُ لا يريدُ لتلميذهِ أنْ يتشعَّبَ بفكرهِ في أمورٍ جانبيةٍ تافهةٍ!.

بعدَ حينٍ قصيرٍ وذاتَ يومٍ اتصلتْ موظفةٌ، السّيدةُ "كارولين"، من مكتبِ مديرِ البعثاتِ وتَمويلِ المبعوثينَ في المدينةِ العاصمةِ بالسّيدِ حمد ... وعلى الهاتفِ؛ السّيدةُ "كارولين": لقد وصلتْنا أنباءٌ مُخيّبةٌ للآمالِ عن أحوالِكَ الدراسيةِ نَحْنُ الذينَ بذلنا جهداً كبيراً للمساعدةِ في انتقالِكَ إلى الجامعةِ الجديدةِ، أمرٌ ليسَ بالممكنِ مع طالبٍ آخرَ. لقد بَعَثَ الدكتورُ "فالكُنْ" لنا برسالةٍ يقولُ فيها بأنّكَ تلميذٌ ضَحلٌ وإمكانياتُكَ العقليةُ مَحدودةٌ. حتى أنّهُ أضافَ قائلاً أنَّ عليكَ العودةَ إلى الأساسيّاتِ في التعليمِ ومن الصّعبِ عليكَ إحرازُ تقدّمٍ مرموقٍ في ذلكَ المَجالِ من العلمِ الذي هو

متخصِّصٌ فيهِ. يقولُ بالحرفِ الواحدِ أنّهُ "سألَكَ سؤالاً سهلاً وبسيطاً وأساسياً ولَمْ تستطعْ الإجابةَ عليه". إنَّ هذا مدعاةٌ لِخيبةِ أملٍ مِن عندِنا، كلّنا في المكتبِ هنا، اتّجاهَكَ. وسوفَ أبعثُ برسالةٍ إلى المؤسسةِ التي تَبَنَّتْكَ في البعثةِ (جامعةِ الحكماءِ) في بلدِكَ الأصليِّ أُخْبِرُهُمْ فيها بالأمر.

السّيدُ حمد: بودّيَ لو أعرفُ ما هو السّؤالُ الأساسيُّ الذي سألني إياهُ الدكتورُ "فالكُنْ" ولَمْ أستطِعْ الإجابةَ عليهِ!؟

السّيدةُ "كارولين": لستُ متخصصةً في علمِكَ. عليكَ أنْ تراجعَهُ وتسألَهُ بنفسِكَ، وتسألَ نفسَكَ!، لأنكَ صاحبَ الشأنِ. هذا سؤالُ إلَيَّ غَبِيٌّ من جهتِكَ!.

السّيدُ حمد: لا تقلقي يا سيدةَ "كارولين"، سوف أراجعُ الدكتورَ "فالكُنْ" بالأمر.

بعدَ حوالَيْ الأسبوعِ من حينهِ كان على السّيدِ حمد مقابلةُ الدكتور "فالَكُنْ" في مكتبِ الأخيرِ لِمناقشتهِ في شئونِ الدراسةِ والبحثِ. وفي مكتبِ الدكتورِ "فالكُنْ" جرى الحديثُ التالي:

السّيدُ حمد: مساؤُكَ سعيدٌ يا بروفيسورَ "فالكُنْ".

الدكتورُ "فالكُنْ": تفضّلْ، لكنْ ليسَ عندِيَ وقتٌ للنقاشِ الطويلِ.

السّيدُ حمد: هذه ساعةٌ مكتبيةٌ من عندِكَ، ولا يوجدُ أحَدٌ يريدُ مراجعتَكَ غيرِيَ في هذهِ اللحظةِ!.

الدكتورُ "فالكُنْ": نعمْ، تفضّلْ، ماذا بجعبتِكَ؟!.

السّيدُ حمد: هنالكَ عدةُ أسئلةٍ منها الأساسيةُ ومنها الفرعيةُ. لنبدأْ بالأساسيةِ، إنْ تكرَّمتَ. هذا سؤالٌ في فرعِ الميكانيكا الكلاسيكيةِ لكنّني وجدتُ بعضَ الصّعوبةِ في التعاملِ معهُ. السّؤالُ يعتمدُ على معرفةٍ لقوانينِ "نيوتن" في الحركةِ ويختصُّ بمعادلاتِ التحويلِ "الكانوني" للمَحاورِ الهندسيّةِ للحركةِ. (هنا مصطلحُ "كانوني" آتٍ من علمِ الميكانيكا وهو التحويلُ مِن محورِ إحداثياتٍ هندسيّةٍ وارتكازٍ في حركةِ الجسمِ إلى إحداثيّاتٍ أخرى قد تكونُ الأخيرةُ أسهلَ في التعاملِ أو ذاتَ جدوىً ميكانيكيةٍ أكبرَ في دراسةِ حركةِ الأجسام). هذه الطريقةُ للتحويلِ دَرَسْتُها فيما مضى مع الدكتورِ "بقّار" في الوطنِ البعيدِ والذي هو أيْ الدكتورُ "بقّار" مُتَخَرِّجٌ من جامعةٍ أكثرَ شُهرةً الآنَ من الجامعةِ التي تَخرّجْتَ منها. لكنّني لا أعرفُ شيئاً عن المشرفِ الأكاديميِّ لهُ، ربّما ذلكَ لسوءِ حظِّيَ!.

الدكتورُ "فالكُنْ": هذا السؤالُ سهلٌ جداً؛ يَجِبُ أنْ تكونَ مُتَمَكِّناً منهُ ومن أمثالهِ من قبلُ. هذا يثبتُ أنّكَ غيرُ جديرٍ بإكمالِ بَحثِكَ معِيَ. لا يُمكنُنا أنْ نستمرَّ على هذا الطريقِ!.

السّيدُ حمد: أرجوكَ! لنبدأْ حلَّ السّؤالِ معاً وسويَّةً؛ بصراحةٍ أنا عاجزٌ عن إيجادِ حلٍّ لهُ. تفضّلْ أيُّها الدكتورُ وأرشدْنِ فيهِ، سواءً أكملْنا في العملِ مع بعضٍ أمْ قطعتَ الاتصالَ بِيَ، تَهمُّنِي أكثرَ معرفةُ حلِّ السّؤالِ.

لَمْ يستطعْ الدكتورُ "فالكُنْ" حلَّ السّؤالِ الأساسيِّ السّاذجِ والسّهلِ، على حدِّ تعبيرهِ. طلبَ إعطاءَهُ بعضَ الوقتِ للتفكيرِ بهِ بِرَوِيَّةٍ ووضْعهِ بصورةٍ يُمكنُ للقارئِ معرفةُ الحلِّ بسهولةٍ!. قامَ الدكتورُ "فالكُنْ" بوضعِ حلِّ السّؤالِ فيما بعدُ (بعدَ يومينِ) في صندوقِ بريدِ السّيدِ حمد في القسْمِ. ما أنْ اطّلعَ السّيدُ حمد على الحلِّ ليجدَ أنَّ في سطورهِ المُسَطَّرَةِ في نصفِ صفحةٍ واحدةٍ تقريباً بضعةَ أخطاءٍ وذاتِ

طبيعةٍ أساسيةٍ. بعدَ بضعةِ أيامٍ من حينهِ ذهبَ السّيدُ حمد لِمقابلةِ الدكتورِ "فالكُنْ" والذي حاولَ أنْ يكونَ منشغلاً عن تلميذِهِ!.

السّيدُ حمد: هل تعلمُ يا دكتورَ "فالكُنْ" أنّكَ ارتكبتَ أخطاءَ أساسيةً في سؤالٍ أساسيٍّ وفي وظيفةٍ بيتيةٍ أخذْتَ في العملِ بها الوقتَ الكافيَ للتفكيرِ والتمعُّنِ والمساعدةِ من الغيرِ، ربّما. لا يهمُّني الآنَ عراقةُ جامعةٍ تَخرّجتَ منها وَكِبَرُ عقلِ شخصٍ أشرفَ عليكَ. سوفَ أبعثُ بكلِّ الملاحظاتِ العلميةِ التي حَظيتُ بنيْلِها من جهتِكَ حتى الآنَ إلى المسئولينَ عن بعثتِيَ في مكتبِهِمْ في العاصمةِ وعليهِمْ أنْ يتدبّروا أمرَ ذلكَ. إنَّهُمْ آتونَ من نفسِ ثقافتِكَ ويَجبُ عليهِمْ معرفةُ طريقةِ التعاملِ معكَ. (خلالَ أكثرَ من عشرةِ شهورٍ من الدّراسةِ تَحْتَ إشرافِ الدكتورِ "فالكُنْ" لَمْ يقدّمْ الأخيرُ أكثرَ من عدّةِ صفحاتٍ من ملاحظاتٍ غيرِ ذاتِ جدوى علميّةٍ أو بَحثيّةٍ)

الدكتورُ "فالكُنْ": لا تقدرُ أنْ تلومَنِي بهذهِ الطريقةِ في ذلكَ. ألا تعرفُ!؟ أنَّ لديَّ مَجموعةً من المقالاتِ المنشورةِ في مَجلاتٍ علميةٍ معتبرةٍ، ومع دكاترةٍ وباحثينَ يشارُ إليهِمُ بالبنانِ في أرجاءِ ومراكزِ الدولةِ العلميةِ خاصةً المُتَمَيِّزِ منها.

السّيدُ حمد: أنا متأسّفٌ أيُّها الدكتورُ البروفيسورُ المُحترمُ. عندَكَ الكثيرُ من القوّةِ والأصحابِ ومن يصغي إلى كلامِكَ. أنا فخورٌ أنْ ليسَ لِيَ من هذا ولا ذاكَ شيءٌ؛ سأعودُ في سلوكِ طريقِيَ وأستفيدُ مِمّا قد أفادنِي بهِ من نصائحِ صديقُ عمرِيَ أبوالزهو. تتلخّصُ تلكَ النصائحُ في أنَّ "الإنسانَ" لا يتورَّعُ عن استخدامِ منطقِ القوّةِ إنْ تتوفّرْ لديهِ حالَ عجْزِهِ في استخدامِ قوّةِ العقلِ والمنطقِ.

الدكتورُ "فالكُن": لقد قمتُ بنفسِيَ بالاتصالِ بالذينَ يشرفونَ على تَمويلِ دراستِكَ وقلتُ لَهُمْ أنّكَ لا تستطيعُ التقدُّمَ في البحثِ معِيَ.

بعدَ ذلكَ ببضعةِ أسابيعَ تلقّى السّيدُ حمد رسالةً قصيرةً جداً باللغةِ العربيةِ، غايةً في الركاكةِ والأسلوبِ اللغويِّ!، من مسئولٍ أكاديميٍّ كبيرٍ في "جامعةِ الحكماءِ" التي حصلَ على بعثةٍ لنيلِ شهادة الدكتوراه عن طريقِها. في تلكَ الرسالةِ يُخبرُ ذلكَ المسئولُ السّيدَ حمد بأنّهُ يشعرُ بمزيدٍ من "الخزي والعارِ وخيبةِ الأملِ" بشأنِ الأنباءِ المتواردةِ إلى مؤسّستهِ عن نشاطِ السّيدِ حمد الأكاديميِّ. أضافَ المسئولُ في رسالتهِ أنّهُ ينظرُ بجدّيةٍ كبيرةٍ نَحْوَ طلبِ إلغاءِ بعثةِ السّيدِ حمد الدراسيةِ إذا لَمْ تتحسَّنْ أمورُ الأخيرِ بالسّرعةِ الممكنةِ (في مثلِ تلكَ الجامعاتِ لا يُقبلُ للعملِ فيها بأقلَّ من نوابغَ، من مثْلِهِ ربّما!). اختتمَ المسئولُ رسالتَهُ تلكَ بعبارةٍ عاديةٍ، "واللهُ ولِيُّ التوفيقِ" (دونَ تشكيلٍ!)، ومن ثَمَّ بتوقيعهِ الجذّابِ. على سطحِ ورقةِ تلكَ الرسالةِ كانت تبدو آثارُ مادةٍ سائلةٍ تشبهُ البصاقَ أو اللُّعابَ مَمزوجاً بمادةٍ زيتيةِ الشكلِ!. كما يبدو أنَّ ذلكَ المسئولَ قد التقطَ ورقةَ الرسالةِ تلكَ من حَمّامٍ متواضعِ الإمكانياتِ!. بعدَ تلكَ الرسالةِ بفترةٍ وجيزةٍ أتْبَعَ ذلكَ المسئولُ نفسُهُ رسالتَهُ الأولى برسالةٍ ثانيةٍ يُخبرُ فيها السّيدَ حمد أنَّ مَجلسَ الكليةِ، كما يبدو، قرّرَ إنْهاءَ بعثةِ السّيدِ حمد وأنَّ العلاقةَ الأكاديميةَ بينَ السّيدِ حمد و"جامعةِ الحكماءِ" قد قُطِعَتْ. أضافَ المسئولُ في رسالتهِ أنَّ على السّيدِ حمد تدبُّرَ أمرهِ بيدهِ. على أنَّ البعثةَ الدراسيةَ لَمْ تقطعْ بعدُ من المصدرِ المُمَوِّلِ ولَمْ يزلْ التمويلُ مستمراً.

تَعقَّدتْ الأمورُ كثيراً بمرورِ الأيامِ مع المشرفِ الأكاديميِّ والقسمِ والكلّيةِ التي يدرسُ فيها السّيدُ حمد للحصولِ على الدكتوراه. فيما بعدُ كانَ على السّيدِ حمد أنْ يذهبَ لِمُقابلةِ أحدِ المسئولينَ، عميدِ الكلّيةِ، الذي أراد أنْ يستوضحَ الموقفَ من

الطّرفيْنِ، من السّيدِ حمد والدكتور "فالكُنْ". ذهبَ الدكتورُ "فالكُنْ" أولاً لِمقابلةِ عميدِ الكلّيةِ، الدكتور "خوريكا"، وبعد ذلكَ بيوميْنِ تقريباً كانَ على السّيدِ حمد أنْ يقابلَ العميدَ نفسَهُ أيضاً.
العميدُ "خوريكا": لقد سَمعتُ عنكَ من أعضاءِ القسمِ من مدرسينَ وتلامذةٍ وإداريينَ أنّكَ من أكثرِ الطلبةِ في هذهِ البلادِ نشاطاً وحرصاً وطموحاً، تهانينا!. ماذا بوسعِيَ أنْ أخدمَكَ بهِ؟!.
السّيدُ حمد: منذُ قديمِ الزمنِ كانَ العالِمُ يكتشفُ شيئاً وهو في رحلةِ صيدٍ أو في مغطسِ الحمّامِ أو حتى وهو في حالةِ اشتباكٍ جنسيٍّ مع قرينتهِ ....
العميدُ "خوريكا": ها ها ها ها .... هذا شيءٌ مضحكٌ منكَ...
السّيدُ حمد: .... ولكنْ بعدَ اتساعِ نطاقِ العلومِ وتفرُّعِها وتشعُّبِها وذهابِ الملايينِ من البشرِ للعملِ فيها فإنّهُ وجَبَ تنظيمُ الأمورِ أكثرَ. يَجِبُ وضعُ خُطةٍ مفصّلةٍ للطريقِ الّذي يَجِبُ السّيرُ عليهِ لتحقيقِ الهدفِ لأنَّ الوقتَ يسيرُ بسرعةِ الضوءِ حولَنا. لا توجدُ في عقلِ الدكتورِ "فالكُنْ" أيَّةُ خُطةٍ للمستقبلِ بينِي وبينَهُ.
العميدُ "خوريكا": كما يبدو لِيَ أنَّ المشكلةَ أكثرَ مِمّا تصوّرتُ. لقد ظننْتُ أنَّ الأمرَ بسيطٌ ولن يأخذَ أكثرَ من شربِ فنجانِ قهوةٍ أو كأساً من البيرةِ في مقهى "بيتِ العشّاقِ" القريبِ من حرمِ جامعةِ "اسْمَارْتيزْ". الأمرُ الآنَ يعودُ إليكَ فيما لو أحببتَ الاستمرارَ في العملِ معهُ أو تتركا بعضَيكما كلَّ واحدٍ وشأنه. أنصحُكَ بالبحثِ عن مشرفٍ آخرَ. سوفَ أتدارسُ الأمرَ مع الدكتورِ "فالكُنْ" ومع زملائهِ لنتعرَّفَ على الطرقِ المتاحةِ لتخطّي هذه العقبةِ.
بعدَ حوالَيْ أسبوعيْنِ من حينهِ اتصلَ العميدُ "خوريكا" بالسّيدِ حمد وأخبرَهُ في مكتبهِ بأنَّ الدكتورَ "فالكُنْ" وافقَ على الاستمرارِ في البحثِ معهُ شريطةَ التقيّدِ بجوانبِ البحثِ الذي يطلبهُ الدكتورُ "فالكُنْ"!. أعطى الدكتورُ "فالكُنْ" السّيدَ حمد شبهَ مشروعٍ علميٍّ يتلخّصُ بكيفيةِ حسابِ أحدِ الثوابتِ العلميةِ في علمِ الفيزياءِ الذريّةِ! باستخدامِ طرقٍ متقدّمةٍ في "الميكانيكا الكميَّةِ" و"النظريةِ الكميةِ للمجالاتِ" الكهربائيةِ والمغناطيسيةِ والذريّةِ. قال الدكتورُ "فالكُنْ" للسيدِ حمد أنَّ بمقدورهِ العملَ على ذلكَ المشروعِ لمدةٍ لا تزيدُ عن أسبوعيْنِ فقط!. تمكّنَ السّيدُ حمد من أنْ ينتهيَ من إنْجازِ المطلوبِ منهُ في أسبوعينِ تقريباً. ذَهَبَ السّيدُ حمد إلى مكتبِ الدكتورِ "فالكُنْ" لإخبارهِ بهِ حينَ فوجئَ الأخيرُ بذلكَ. زَعَمَ! الدكتورُ "فالكُنْ" أنَّ الفكرةَ والعملَ بها ما كانَ يَجِبُ أنْ يأخذا منهُ أكثرَ من ثلاثةِ دقائقَ! وعلى قُصاصةٍ من الورقِ يُمكنُ التقاطُها من إحدى سِلالِ المهملاتِ في مكتبِهِ!.
السّيدُ حمد: إذا ما كانتِ الأمورُ بهذهِ السّهولةِ من عندكَ فلماذا يصرفُ العالَمُ جهوداً مضنيةً وأموالاً طائلةً في العلمِ والبحثِ؟!؛ ما عليهِمْ إلا التوجُّهُ إلى مكتبكَ أو بيتِكَ. إنَّ حسابَ هذا الثابتِ العلميِّ قد يأخذُ من الوقتِ السّنينَ دونَ الحصولِ على نتيجةٍ حتى لإقناعِ موسيقارٍ هاوٍ بها!. لستُ مُحتاراً في أمرِ التعاملِ معكَ؛ عليكَ أنْ تقرِّرَ إذا ما أردتَ الرجوعَ إلى العميدِ "خوريكا" أو لَجنةٍ من القسمِ نواجهُها نَحْنُ الاثنانِ ولتَحكُمَ بالأمرِ بينِي وبينَكَ.
الدكتورُ "فالكُنْ": لستُ معنياً بما يقولُهُ العميدُ "خوريكا" أو المدرّسونَ. أعطيتُكَ فرصةً أخرى ولكنَّكَ لَمْ تستغلَّها جيداً!. أنتَ وشأنُكَ.

السّيدُ حمد: أنا وشأنِيَ منذُ ولدتُ!، ولكن الآنَ.. أنتَ وشأنُكَ!. لكنْ قبلَ أنْ أذهبَ وشأنِيَ! أودُّ أنْ أخبرَكَ وغيرَكَ إنّهُ لَمِنَ القبحِ المشينِ أنْ توقعَ أناساً في مصيدةٍ كهذهِ. عيبٌ عليكَ أنْ توهِمَهُمْ أنَّكَ قادرٌ على الوصولِ بطالبٍ إلى درجةٍ علميةٍ متقدّمةٍ، وتضيعَ عليهِمْ مدَّةً من الزمنِ تزيدُ على خمسِ عشرةَ (١٥) شهراً من أكثرِ شهورِ العمرِ حسْماً وعطاءً في العملِ والإنْجاز. لن يضيعَ لِيَ جهدٌ مبذولٌ في العلمِ، وسوفَ أستعملُ ما قدْ أنْجزتُهُ بنفسِيَ في الماضي بأمورٍ تهمّني مستقبلاً. ليس العلمُ عندِيَ بأكثرَ من هوايةٍ متواضعةٍ!.

في مُحاولةٍ لِحلِّ الإشكالِ، تَحدَّثَ السّيدُ حمد مع رئيسِ القسمِ، الدكتور "خورانشو"، والذي أيْ الأخيرُ اعتذرَ عن التفاعلِ مع القضيةِ لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ لعدمِ قدرتهِ على استيعابِ حيثياتِ المشكلةِ لا من الأساسِ ولا من الفرعِ. كان اهتمامُ الدكتور "خورانشو" العلميِّ منصبّاً على دراسةِ علمِ الفلكِ، والحياتيِّ على رياضةِ كمالِ الأجسامِ و"تفتيلِ" العضلاتِ. ما العملُ؟! على الإنسانِ أنْ يقبلَ بالأمرِ الواقعِ على جسمهِ ونفسهِ وعصبهِ ودماغهِ.

أدركَ السّيدُ حمد الآنَ أنَّ عبءَ البحثِ يقعُ كليّاً على عاتقهِ وكتفيْهِ. عليهِ أنْ يقومَ بالاستمرارِ في البحثِ الشاقِّ والمتعددِ الأبعادِ والاتّجاهاتِ في مُحاولةٍ يائسةٍ جدّاً للهربِ منَ قبضةِ قوانينِ الجامعةِ والمشرفِ "المُقَيِّدةِ" إلى أيِّ مشرفٍ آخرَ قادرٍ على أنْ يقودَ بأمانٍ علميٍّ ووظيفيٍّ بَحثاً يؤدي إلى درجةٍ علميةٍ متقدّمةٍ!. كانتْ الحالةُ النفسيةُ والمعنويةُ عندَ السّيدِ حمد مُحطّمةً وفي قعرِ الحضيضِ بسببِ الظروفِ الماليةِ السّيئةِ جدّاً وضعفِ مصادرِ البحثِ والتقدُّمِ فيهِ مَن مشرفٍ أكاديميٍّ واتصالاتٍ مع مُختصّينَ في ذلكَ المَجالِ والنقصِ الكبيرِ في المقالاتِ والكتبِ المتخصصةِ. على السّيدِ حمد أنْ يتحمَّلَ مسؤوليةَ كلِّ هذا وذاكَ بنفسهِ.

أرسلتْ السّيدةُ "كارولين" رسالةً إلى السّيدِ حمد تُخبرُهُ فيها بأنَّ المؤسسةَ المسئولةَ عن تَمويلِ البعثاتِ قرَّرتْ وقفَ التمويلِ نِهائياً عنهُ. على السّيدِ حمد تدبُّرُ أمرهِ بنفسهِ ماليّاً حتى إنْهاءِ دراستهِ لنيلِ شهادةِ الدكتوراه. كانت الأيّامُ كأنّها قادمةٌ من الجحيمِ الحقيقيِّ في الظلامِ الدامسِ.

في تلكَ الأثناءِ كان على السّيدِ حمد مراجعةُ مكتبِ "اتّحادِ الطلبةِ الدوليِّ" ورئيسهِ المَحلّيِّ! السّيدِ "يورِيامان". كان السّيدُ "يوريامان" من المتعاطفينَ بقوّةٍ مع السّيدِ حمد ضدَّ الدكتور المتسلطِ "فالكُنْ". خلالَ مقابلةٍ معهُ في مكتبهِ:

السّيدُ حمد: لقد قمتُ بعمَلِ كلِّ ما بوسعِيَ من أجلِ إصلاحِ الورطةِ التي أسَّسَ الدكتورُ "فالكُنْ" لَها وطوَّرها وسارَ بِها حتّى هذهِ النهايةِ المؤلِمةِ المُذلّةِ. أنا الخاسرُ الوحيدُ في غربتِيَ ولا أحدَ يقفُ بجانبِيَ. أصبحتْ كلُّ القوانينِ ضدِّيَ. أصبحتُ الآنَ مثلَ "المطلّقةِ" التي تُحاولُ إقناعَ النّاسِ بعدالةِ قضيتِها ضدَّ زوجِها المتسلطِ الأحْمقِ في العصورِ الغابرةِ.

السّيدُ "يوريامان": ماذا تودُّ فعلَهُ بالدكتور "فالكُنْ"؟! .... هل تكتفي فيما لو أتى وفي مَجلسِ القسمِ أنْ تقومَ بشتمهِ في وجهِهِ مثلاً؟!.

السّيدُ حمد: لقد قامَ الدكتورُ "فالكُنْ" بعملٍ يشابهُ إلقاءَ القُمامةِ على رأسِيَ! ولكنْ ليسَ من طبعِيَ التعاملُ مع الآخرينَ على أساسِ العينِ بالعينِ والسّنِّ بالسّنِّ كما وردَ في شريعةِ السّيدِ "حَمورابي" باشا!.

السّيدُ "يورِيامان": ماذا لو كتبتَ ما حصلَ معكَ والدكتورِ "فالكُنْ" بِخطِّ يدِكَ على أوراقٍ وتأتي عندِيَ هنا لنقرأَها سويّاً ولِترى فيما بعدُ أنَّ ما جرى معكَ من الأمورِ سخيفٌ يَجبُ تَخطّيهِ بالنسيانِ. أنا متأكّدٌ أنّكَ ستُلقي بتلكَ الأوراقِ في سلّةِ المهملاتِ وتنساها فوراً بعدَ الخلاصِ من كتابتِها. لا تتركْ هذه المشاكلَ تسيطرُ عليكَ لأنّها ستأكلُ حياتَكَ ومستقبلَكَ كما تأكلُ سوسةُ الأسنانِ الضّرسَ!. كذلك جاء لعلمِيَ أنّكَ تَحدّثتَ مع الدكتورِ "بوهير" وهو من أشدِّ المتحمّسينَ والمناصرينَ لكَ في قضيتِكَ مع الدكتور "فالكُنْ". كما أنّهُ من النوعِ الليبراليِّ والذي يقفُ مع قضيتِكَ! في وطنِكَ الأمِّ ويتعاطفُ مع الشعوبِ الضعيفةِ الآنَ! وفيما بعدُ!.

السّيدُ حمد: آخ.... يا سيدَ "يورِيامان" التعاطفُ شيءٌ والعملُ شيءٌ آخرُ. مرّاتٍ كثيرةً يقفُ التّعاطفُ عائقاً بوجهِ العملِ، حين تركنُ الجماهيرُ إلى التعاطفِ وتنامُ ليلَها الطويلَ بينَما يستمرُّ الاستيلاءُ على حقوقِها والمقدَّراتِ لَها وبلا حدودٍ!.

السّيدُ "يورِيامان": لكنْ ألا تتّفقُ معِيَ في فكرةِ "أن تضيعَ الحقوقُ بسهولةٍ أفضلَ من إتباعِ الطرقِ الفظّةِ العنيفةِ لتحقيقِ ذلكَ" ... هاه؟!.

السّيدُ حمد: لا تصلحُ أفكارُكَ إلا أنْ توضعَ في علبةٍ مُحكمةِ الإغلاقِ بعدَ إفراغِها من الهواءِ لكيْ لا تتأكسدَ وتُنتجَ روائحَ كريهةً!.

قليلٌ من الناسِ من يُثَمِّنُ عالياً قيمةَ الدعمِ الذي يقدِّمهُ الأهلُ، الدعمُ الماديُّ والمعنويُّ والنفسيُّ. لا يعرفُ أحدُهُمْ قيمةَ هذا الدَعمِ إلا عندَما ينقطعُ أو تلوحُ في الأفقِ علامةٌ أنّهُ سينقطعُ لسببٍ أو لآخرَ. كذلكَ ومنَ ناحيةٍ أخرى حينَ تغلَقُ على الإنسانِ كلُّ الطرقِ والسّبُلِ التي تَجلبُ الدعمَ الماديَّ اللازمَ لإتْمامِ العملِ فإنَّ الأهلَ وبالرغْمِ من حالةِ الفقرِ المدقعِ الذي يعيشونَ فيهِ، وبقدرةِ قادرٍ!، يقدِّمونَ الكثيرَ مِمّا يلزمُ لسَيرِ الحياةِ بشكلٍ طبيعيٍّ. بسببِ ما يَحدثُ بين السّيدِ حمد والمشرفِ عليهِ أكاديمياً!، الدكتورُ "فالكُنْ"، ولأسبابٍ أخرى كثيرةٍ كانتْ الأمورُ الماديةُ والنفسيةُ عندَهُ في حضيضِ الحضيضِ عندما هاتفَ أهلَهُ وذويهِ.
أم جاسر: لِماذا لَمْ تبعثْ لنا رسائلَ منذُ زمنٍ بعيدٍ؟!. نريدُكَ أنْ تعودَ إلينا بعدَ إتْمامِ دراستِكَ. أمْ هل نسيْتَنا تَماماً بعدَما توفِّيَ والِدُكَ ولَمْ يعدْ في حسبانِكَ أنْ تَهْتَمَّ بنا؟!.
"كاملة": الكلُّ من هنا بانتظارِ عودتِكَ، وبعدَ وفاةِ الوالدِ أبو جاسر قبلَ حواليْ السّنتيْنِ لَمْ يبقَ لنا أحدٌ يقفُ معنَا ويتدبَّرُ أمرَنا أحسنَ منكَ. أنتَ بِمثابةِ الوالدِ والأخِ الكبيرِ والصّغيرِ لكلٍّ منا.
السّيدُ حمد: ومَاذا عن أخبارِ الحقلِ والشجرِ والزراعةِ؟، هل لا تزالونَ تعتنونَ بكلِّ شيءٍ تركهُ الوالدُ المرحومُ أبو جاسر بعدَ وفاتهِ؟. عندما أعودُ إلى الوطنِ قريباً أحبُّ أنْ أرى زيتوناً يانعاً ومُخضرّاً ومنتجاً. أنا هنا بحاجةٍ لبعضِ الوقتِ حتى أنْهِيَ دراستِي ولقد عثرتُ أخيراً على بعضٍ من مُرادِيَ، مشرفٌ أكاديميٌّ جديدٌ وإنسانٌ مُحترمٌ!؛ عسى أنْ تستمرَّ الأمورُ على بعضِ مِمّا يرامُ.
أبوالزهو (وسرحان): أخبرُكَ أنّهُ كانتْ عندِيَ حالةٌ من الحمّى الشديدةِ اضطرَّتني لأوّلِ مرَّةٍ في الحياةِ للذهابِ إلى الطبيبِ!، الدكتور "هُوزيلْ". هناك أعطانِي بعضَ الحُقنِ في العضلِ وأدويةً كثيرةً عليَّ أنْ أتناولَها بالفمِ!. كذلكَ نصحنِي بأنْ لا أعملَ كثيراً أو أجْهِدَ نفسِيَ وأنْ أخلدَ إلى الكثيرِ من الراحةِ. بعدَ حواليْ أسبوعٍ من الدواءِ شعرتُ بتحسّنٍ إلا أنَّ بعضَ الانتفاخِ بدأَ يظهرُ بمفاصلِ الأيدي والأرجلِ؛ وهنالكَ بعضُ الآلامِ في الرقبةِ والعامودِ الفقريِّ.
السّيدُ حمد: سلامةُ قلبكَ يا أبوالزهو يا صديقَ العمرِ ورفيقَ الدربِ، ألفُ سلامةٍ عليْكَ، وما عليكَ شرٌّ. هل جاءكَ كلُّ هذا دفعةً واحدةً!؟. ظننتُ أنَّكَ غيرَ قابلٍ للمرضِ أو الشيخوخةِ. هذه أخبارٌ لِيَ مزعجةٌ جداً. لا تُتعبْ نفسَكَ كثيراً وأرحْ جسمَكَ وأعصابَكَ ولا تفكِّرْ! بهمومِ الخلقِ، واتَّبعْ إرشاداتِ "الطبيبِ المداوي"، كغيركَ من آلافِ المرضى. صحتُكَ هيَ الأهمُّ يا أبوالزهو يا "جَمَلَ مَحاملٍ" العائلةِ كلِّها. ("جَمَلُ المَحاملِ" تعبيرٌ مَحليٌّ يكنى بالشخصِ الذي عندَهُ قدرةٌ وحبٌّ تَحَمُّلِ مسؤوليةِ أعباءِ الحياةِ الأسريةِ وأمورِها، لغوياً تعني الجَمَلَ الذي لهُ قدرةٌ على نقلِ حِمْلٍ ثقيلٍ بالمقارنةِ مع الكائناتِ الأخرى).
أبوالزهو: لا تقلقْ كثيراً عليَّ، سوفَ أقومُ بالعملِ ليلَ نَهارَ في الحقلِ والمزرعةِ ولنْ نتركَ الزيتونَ دونَ عنايةٍ حتى وإنْ أصبحتُ أقلَّ قوةٍ من أيامِيَ السّابقةِ. أنا الآنَ بطيءٌ في العملِ ولكنّي سأصرفُ وقتاً أكثرَ من أجلِ إتْمامِ نفسِ العملِ. كنتُ في

الماضي بِحاجةٍ إلى أقلَّ من ساعةٍ للوصولِ سيراً إلى المدينةِ، اليومَ قد أحتاجُ في بعضِ الأحيانِ إلى ما يربو عن ثلاثِ (٣) ساعاتٍ. وعندَما أتعبُ ويصبحُ عندِيَ ألَمٌ في مفاصلِ الرُّكَبِ أضطرُّ للاستراحةِ قليلاً على جانبِ الطريقِ قبلَ مواصلةِ السّيرِ من جديدٍ. أتَحَسَّرُ كثيراً عندما أرى بقيةَ الخلقِ يتخطونَني في السّيرِ وهُمْ ذاهبونَ إلى أعمالِهِمْ في الحقولِ والكرومِ أو إلى بَيْعِ التَجوالِ في المدينةِ.
السّيدُ حمد: وما أخبارُ وصحةُ الوالدةِ أم جاسر؟!، أريدُ أنْ أطمئنَّ عليها...
"كاملة": تَظَلُّ في البراري تفكِّرُ فيكَ وتتساءلُ لِماذا تطيلُ الوقتَ قبلَ أنْ تبعثَ لَنا رسالةً تطمئنُنا فيها على حالِكَ. قبلَ أيام تَمكَّنَتْ من حفظِ أغنيةِ المطربِ التونسيِّ "أحمد حمزة" وتظلُّ ترَدِّدُها قائلةً: "جارَي يا حمودة يا حمودة يا غريبِ الدار عليَّ يَمّا، الناس برقود ها برقودا وأنا نومي يحروم عليَّ يامّا"؛ شيءٌ يُقَطِّع القلوبَ بصوتِها وهيَ تُغَنّي لأجلِكَ!...
السّيدُ حمد: أرجو أنْ تقولوا للوالدةِ أم جاسر أنّهُ لا مانعَ لديَّ فيما لو تتمكّنُ من الزواجِ!، حتى لو كان ذلكَ من الشيخ "صالح عبدالحي"، عسى أنْ يعلِّمَها أغنيةَ "ليه يا بنفسج! .. بتبهج! .. وأنت زَهر حزين ...؟!". إذا ما رفضَ المأذونُ أنْ يكتبَ لَهُما عقدَ نكاح بسببِ فارقِ العُمْرِ بينَهُ وبينَها سأبعثُ لَها عقداً موقَّعاً من مأذونٍ شرعيٍّ هنا وَبخمسةِ جنيهاتٍ فقطَ. يا جَماعةُ! لا يوجدُ عندِيَ من وقتٍ حالياً لعواطفَ متدفقةٍ في البَراري والسّهولِ والهضابِ!.
"كاملة" وسرحان وأبوالزهو: كنّا نظنُّ أنَّ الغربةَ ستُهَذِّبُ عواطفَكَ وأدبَكَ وأحاسيسَكَ وأخلاقَكَ!؛ لكنَّكَ بقيتَ، مثلَما كُنتَ، نشازاً حتى مع والدتِكَ التي أنْجبتْكَ ولكنَّها لَمْ تتمكّنْ من أنْ تضعَ فيكَ الذوقَ المطلوبَ.
السّيدُ حمد: وما أخبارُ الأخ "طَحَلان" العاطلِ الدائم عن العملِ؟!.
"كاملة": لا يزالُ عاطلاً عَن كلِّ عملٍ. دائماً أعملُ مع الوالدةِ وأبوالزهو في الحقلِ والزراعةِ. نرجو جَميعاً أنْ تكون أمورُكَ تسيرُ على ما يرامُ.
السّيدُ حمد: حَصَلَ عندِيَ بعضُ التقدُّم في لعبةِ كرةِ السّلةِ، لا تعرفونَ! أنَّ هذهِ اللعبةَ ذاتُ شعبيةٍ كبيرةٍ هنا. كلُّ عطلةِ نِهايَةِ الأسبوعِ تقريباً نلعبُ كفريقٍ صغيرٍ في مبنى الرياضةِ القريبِ من مكانِ السّكنِ مع الكثيرِ من الناسِ، ومِنْ كافَّةِ الجنسياتِ والأعراقِ.

حربٌ خاطفةٌ

خلالَ الدراسةِ والتحضيرِ للدكتوراه عندَ السّيدِ حمد حدثتْ منازلةٌ سريعةٌ بينَ الدولةِ هناكَ ورئيسِ أو قائدِ دولةٍ صحراويةٍ أخرى في المنطقةِ. امتدّتْ! الحربُ الخاطفةُ تلكَ واستقرَّتْ! حرباً إلى حينٍ بينَ السّيدِ حمد، ومن يشبهُ شكلَ السّيدِ حمد هناكَ، وبينَ الجماهيرِ الغفيرةِ من السّكّانِ المَحلّيينَ في ذلكَ البلدِ. خلالَ وبعدَ قليلٍ من الحربِ الخاطفةِ تلكَ كان الشبابُ المَحليُّ يعقدُ حلقاتٍ وجلساتٍ كبيرةً حولَ أجهزةِ البثِّ المرئيِّ والمسموعِ وذلكَ لسماعِ أخبارِ الحربِ. تأهَّبَت الشبيبةُ هناكَ لِما قد يؤدّي إلى استدعاءِ الاحتياطِ للذهابِ للحربِ خارجَ حدودِ الدولةِ. كانتْ أياماً عصيبةً يهجرُ المرءَ فيها خلانُهُ وأصدقاؤُهُ. أصدقاءُ السّيدِ حمد في تلكَ البلادِ يُحاولونَ إقناعَهُ بتركِ البلادِ والدراسةِ والرحيلِ راجعاً إلى مسقطِ رأسهِ. يقومونَ بحركاتٍ استفزازيةٍ في الشارعِ ومكانِ السكنِ والعملِ ويرسِمونَ على جدارِ حجرتهِ رسوماً مُخجلةً ويكتبونَ شعاراتٍ مناوئةً على بابِها، من مِثْلِ "اذهبوا إلىَ الجحيمِ أيُّها الغرباءُ ... من حيثُ أتيتُمْ"!. وإذا ما تَمَّ تطبيقُ ذلكَ الشعارِ هناكَ بالكاملِ فإنَّهُ لن يبقى في تلكَ البلادِ غيرَ قلّةٍ من السّكانِ الأصليينَ!. كثيراً ما كانَ النقاشُ يأخذُ طابعاً استفزازيّاً وقد يؤدي إلى حدوثِ مشاداتٍ كلاميةٍ بين الأطرافِ المُختلفةِ.

مواطنٌ "بيتر": هل أنتم أيّها الغرباءُ! قادمونَ من تلكَ المناطقِ التي يبحثُ فيها الناسُ عن صحنٍ للأرُزِّ فقطْ، وبدون لَحْم، لكلٍّ منهُمْ لِيَقْتُلَ بهِ جوعَ بطنهِ أو بطنِها؟!. أليسَ لدَى هؤلاء الناسِ من أموالٍ يصرفونَها على الطعامِ العاديِّ؟!. (كانت هنالكَ مناظرُ تُعرضُ على شاشاتِ التلفازِ عن مَجاعةٍ منتشرةٍ بَينَ السّكانِ الفقراءِ في دولةِ "إثيوبْيا" وغيرِها من الدولِ الفقيرةِ).

"صالح" (صديقٌ للسيدِ حمد): أنَا قادمٌ من منطقةٍ جغرافيةٍ يصلُ الأمرُ ببعضِ الناسِ فيها أنْ يدفعوا أكثرَ من مائةِ ألفِ جنيهٍ من أجلِ مضغةٍ! من اللحمِ في حينِ أنَّ أناساً آخرينَ من شعبِهِمْ يصلُ بِهِمْ الأمرُ إلى أنَّهُمْ غيرُ قادرينَ على دَفعِ بضعَةِ قروشٍ لشراءِ مضغاتٍ معدودةٍ من الأرُزِّ!. عليكَ أنْ تُحدِّدَ سؤالَكَ بدقّةٍ أكثرَ!.

السّيدُ حمد: لا أحبُّ الأرُزَّ كثيراً؛ أموتُ! في أكلِ الخبزِ وزيتِ الزيتونِ والزعترِ...

مواطنٌ "هاري": وهل أنتُمْ من الذينَ يقومونَ بطقوسٍ دينيةٍ غريبةٍ الحركاتِ مثلَ وضعِ "الجثومِ" على الأرضِ ولَمْسِ الوجهِ بالأرضِ بطريقةٍ غريبةٍ ومذلّةٍ (يقصدُ السّجودَ في الصّلاةِ)؟!.

"خالد": الإجابةُ على هذا السّؤالِ من نصيبِكَ يا سيدَ حمد. مضى عليَّ أكثرَ من خَمسٍ وعشرينَ عاماً مُصلّياً، لكنَّني لا أقدرُ أنْ أجيبَ على هذا السّؤالِ!.

السّيدُ حمد: ألَمْ يكنْ لديكَ مدرِّسُ تربيةٍ دينيةٍ واعٍ لِما يُدَرِّسُهُ؟!.

"خالد": كانَ عندَنا كثيرٌ منهُمْ في المدرسةِ لكنْ لا أحدَ منهُمْ، حسْبَ علمِيَ، يعرفُ الحكمةِ لا في الركوعِ ولا السّجودِ ولا الوقوفِ ولا التشهُّدِ ولا السّلامِ والتسليم. كان التركيزُ فقط على حفْظِ الحركاتِ وتسلسلِها والبقيةُ من شأنِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.
السّيدُ حمد: كانَ الوضعُ ذاتُهُ في المدارسِ التي حظيْتُ! بتناولِ عِلمِيَ منها، وربّما أسوأ. اجتهاداً منّيَ يا سيدَ "خالد" ويا سيدَ "هاري"!، وكما تعرفانِ أنَّ أبا البشرِ "آدم" كان قد أعطاهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى جنَّةً بأكملِها مقابلَ شرطٍ واحدٍ بسيطٍ ألاَ وهو أنْ لا يأكلَ تفاحةً من شجرةٍ للتفّاح. إلا أنَّ أمَّ البشرِ "حوّاءَ" أغرتهُ بالتفاحةِ وأخرجتْهُ تبعاً لذلكَ من الجنَّةِ إلى جحيمِ الأرضِ بعدَما أغضبَ ربَّهُ من أجلِها. ظلَّ أبناءُ آدمَ يَحلمونَ من بعدِهِ بإمكانيةِ العودةِ إلى الجنّةِ. وما الركوعُ والسّجودُ والوقوفُ والتسليمُ والصّلاةُ والصّيامُ والحجُّ وغيرُها الكثيرُ إلا طقوسٌ لعلَّ وعسى ولَيتَ تشفعُ في غلطةِ السّيدِ آدمَ؛ علّها تغفرُ لهُ ولأولادهِ من بعدهِ شهوتَهُ لأكلِ التفاحِ والتضحيةِ بمصيرِ البشريةِ من بعدهِ على الرغمِ من توفّرِ كافةِ أنواعِ الفواكهِ الأخرى لديهِ وبدونِ ثمنٍ لأيٍّ منها!.
مواطنةٌ "مارغريت": لَو بيديَ لأغريْتُ صديقِيَ "ستيفان" بشيءٍ من ذاكَ القبيلِ لكيْ يضطرَّ بعدَ ذلكَ أنْ يظلَّ ساجداً أمامَ قدمَيَّ وطوالَ حياتهِ الباقيةِ!.
"بيتر": وهل أنتُمْ ممَّنْ يضعُ رجالُكُمْ الكثيرَ من الحريمِ الزوجاتِ في بيتٍ واحدٍ (يقصدُ تعدُّدَ الزوجاتِ) ويقومُ الرجلُ بعدَ ذلكَ بالتنقلِ "الجنسيِّ" فيما بينهُنَّ مثلَ ديكِ الدجاجِ أو ذكرِ البطِّ أو حتى "تَيْسِ الأغنام"؟!.
"صالح": في معظمِ أركانِ المُجتمعِ لا يوجدُ من يقدرُ أنْ يتحمَّلَ زواجاً واحداً، لا دينياً ولا اجتماعياً ولا اقتصادياً ولا فكرياً ولا جنسياً. إلا أنَّ هنالكَ وفي المُجتمعِ نفسهِ من هو قادرٌ على الزواجِ "الطلاقيِّ" المتعدِّدِ جداً وفتحِ البيوتِ والشققِ والفيلاتِ والقصورِ والقلاعِ الحصينةِ وحساباتِ الأرصدةِ لزوجاتِهِمْ وما يتبعُ ذلكَ الكثيرُ. يعتبرُ هذا دليلُ عزٍّ وخيرٍ وبركَةٍ! في عقولِ بعضِ البشرِ.
"خالد": يَحدثُ ذلكَ في المناطقِ التي لَمْ تصلْ إليها الفتوحاتُ الإسلاميةُ بعدُ؛ مناطقُ في جنوبِ شبهِ الجزيرةِ العربيةِ وأواسطِها وشرقِها وغربِها وشَمالِها، مناطقُ في الهلالِ الخصيبِ في الشمالِ والجنوبِ والشرقِ والغربِ كذلكَ، مناطقُ في شَمالِ إفريقيا وفي كافةِ الاتّجاهاتِ الجغرافيةِ السّابقةِ، مناطقُ في آسيا الصّغرى والوسطى، وهكذا دواليكَ.
"بيتر": إذا ما كان الأمرُ كذلكَ!، أينَ ذلكَ المكانُ في العالَمِ الذي وصلتهُ الفتوحاتُ الإسلاميةُ فعلاً؟!.
السّيدُ حمد: في أوروبا والأمريكيتينِ والاتحادِ السّوفييتيِّ ومناطقَ أخرى من العالَمِ. لولا عدمُ مُمارسةِ بعضِ الطقوسِ الدينيةِ الخاصّةِ المنصوصِ عليها في الكتابِ المقدّسِ لكانَ هؤلاءِ الناسُ، بالتعاملِ في حياتِهِمْ، أقربَ إلى الدينِ الإسلاميِّ الحنيفِ نفسهِ مَن كثيرٍ من المسلمينَ بالاسمِ والولادةِ والهويةِ والتلوينِ الجغرافيِّ.
"شفيكة" (مواطنةٌ من أصلٍ شرقِ أوسطيٍّ): وماذا عن احتقارِ المرأةِ بجعلِها تأكلُ بقايا طبيخٍ في الصّحونِ من بعدِ تناولِ الرجالِ الطّعامَ منها؟!. أعرفُ أنَّ النساءَ تنتظرُ انتهاءَ الرجالِ من تناولِ الوليمةِ ليقُمْنَ بعدَ ذلكَ بالتغذيةِ على ما تبقّى من الأكْلِ ولعْقِ! الصّحونِ ومن ثَمَّ غسلِ الأواني والأطباقِ والصّحونِ وأدواتِ تناولِ الطعامِ المتسخةِ!.

السّيدُ حمد: هنالكَ بعضُ العاداتِ البائسةِ جدّاً في القليلِ من المناطقِ غيرِ المطوّرةِ تعليمياً وفكرياً وحسّياً وذوقياً ودينياً وجسديّاً. أنا قادمٌ من بيئةٍ يسيطرُ فيها الفقرُ المدقعُ على كلِّ نواحي الحياةِ. لكنَّ رضا المرأةِ والأنثى عندَنا قمةُ الشرفِ والنبلِ والفضيلةِ والرجولةِ والإنسانيةِ. ولولا وجودُ نفرٍ محدودٍ من أشباهِ البشرِ المتحكّمينَ وحاشيتِهِمْ لكانتْ المرأةُ في المُجتمعِ عندَنا تَحتفِظُ بفخامةٍ وسُموٍّ وعزةِ نفسٍ مُنِحَتْ لَها من اللهِ سبحانهُ وتعالى لا حدودَ لَها.

"شفيكة": وماذا عن الشهادةِ في المَحكمةِ والتي فيها يُعادَلُ صوتانِ أو شهادتانِ لامرأتيْنِ بشهادةٍ واحدةٍ من رجلٍ، أيِّ رجلٍ؟!.

السّيدُ حمد: يَحدثُ ذلكَ فقط في حالاتٍ خاصّةٍ جداً ويعتمدُ الأمرُ على الظروفِ المُحيطةِ بالقضيةِ؛ الصّورةُ والأمرُ ليسا بالسّهولةِ المرسومةِ باللونيْنِ الأبيضِ والأسودِ. سأضربُ لكُمْ مثلاً عندَما قامَ أحدُ "الوُجهاءِ" في القريةِ بالاعتداءِ بالعصا على إحدى نساءِ القريةِ أثناءَ حفلةِ زفافٍ أو عرسٍ لأحدِ شبابِ حَمولَتهِ. ما أنْ وصلتْ القضيةُ إلى المَحكمةِ والقاضي، وكانَ الأخيرُ معروفاً بتقواهُ وورعِه، حتى طلبَ شهوداً على القضيةِ ومن الطرفينِ. جَمَعَ "الوجيهُ" من حَمولَتهِ عدداً من رجالِهِ ليشهدوا معهُ ضدَّ المرأةِ المُعتدى عليها من قِبَلِهِ. استمعَ القاضي، مَحدودُ الإمكانياتِ التعليميةِ والسّمعيةِ والبصريةِ، للشهاداتِ من قِبَلِ المرأةِ و"الوجيهِ" وبعضِ أزلامِ "الوجيهِ". حَكَمَ القاضي لصالحِ المرأةِ على الرغمِ من أنَّ الشاهدينَ مع "الوجيهِ" كانوا تَحْتَ القَسَمِ أثناءَ أداءِ شَهاداتِهِمْ. قالَ القاضي لَهُمْ في المَحكمةِ: "ألا لعنةُ اللهِ على ذقونِكُمْ ولُحاكُمْ وشوارِبِكُمْ جَميعاً وإلى يومِ القيامةِ". عقاباً لَهُمْ على كذبِهِمْ الأرعنِ، أمرَهُمْ بالبقاءِ أسبوعاً كاملاً لتنظيفِ اصطبلِ خيولِ لفرسانِ الأمنِ الموكّلينَ بالحفاظِ على أمنِ القُرى الجبليةِ في المنطقةِ. وعندما اشْتكوْا من نقصٍ في مكانسَ يدويةٍ للتنظيفِ رفضَ المسؤولُ عن الاصطبلِ السّماحَ لَهُمْ بالتزوُّدِ بها وأمرَهُمْ باستعمالِ أيديهِمْ ولُحاهُمْ وذقونِهِمْ عِوضاً عن المكانسِ اليدويةِ. أعتبرُ ذلكَ القاضي قمّةً في العدلِ والتقوى والليبراليةِ، في آنٍ معاً، لا يتوفّرُ مِثْلُهُ حتى في مَحكمةِ "لوس أنجليس" الجنائيةِ أو أيّةِ مَحكمةٍ أخرى!.

مواطنٌ "إيان": تأتونَ إلى هنا تأخذونَ العلْمَ مَجّاناً وتأكلونَ خيراتِ البلدِ وقسمٌ منكُمْ يذهبُ إلى بلادِهِ ويصبحونَ أعداءاً لنا بدلاً من أنْ يَشكرونَنا على حسْنِ فعلِنا!.

السّيدُ حمد: أنتَ على شيءٍ من الحقِّ. لكن بالنسبةِ لِيَ ها قد مضى عليَّ في هذه البلادِ أكثرَ من ثلاثةٍ ونصفِ السنةِ لَمْ أستطعْ أخْذَ شيءٍ من العلْمِ يكادُ بالخيرِ يذكرُ. معظمُ المدرّسينَ الذينَ رأيتُهُمْ هنا حتى الآنَ لا فائدةَ مرجوةً مِنهُمْ لا لأنفسِهِمْ ولا لغيرِهِمْ.

مواطنٌ "طوم": يكفيكُمْ علْماً وفخْراً! أنَّكُمْ تتعلّمونَ اللغةَ المَحلّيةَ هنا وعن قربٍ ومباشرةً من الناسِ من حولكُمْ!. عندما تعودونَ إلى من حيثُ أتيتُمْ تُدَرِّسونَها (اللغة) وتقبضونَ من أجلِ ذلكَ راتباً شهرياً لا يستهانُ بهِ من حكوماتِكُمْ!. هكذا أخبرني أصدقاءٌ لِيَ يعملونَ هناكَ ومنذُ زمنٍ بعيدٍ.

مواطنٌ آخرُ "جيري": .... تتعلّمونَ التخاطُبَ بلغةٍ فيها ابتعادٌ كبيرٌ عن اللكنةِ التي تَسَبَّبَ بها أنَّكُمْ تعلمتُمُ لغةً ثانيةً مع حليبِ أمهاتِكُمْ!!.

"طوم وجيري": وهذا ما يُمكِّنُكُمْ من متابعةِ مسلسلاتٍ تلفازيةٍ دون الحاجةِ للرجوعِ إلى الترجَمةِ في أسفلِ الشاشةِ وبكثيرٍ من المللِ! لا نطيقُ أنْ نتابعَ مشاهدةَ فيلمٍ مترجمٍ عن لغةٍ أخرى أكثرَ من خَمسةِ دقائقَ!.

السّيدُ حمد: ... معكُمْ كلُّ الحقِّ، وكأنَّكُمْ تعرفونَ حقيقةَ ما يَجري في بلادِنا أكثرَ منّا!. لقد استبدلَ العربُ لغةَ الأطفالِ عندَهُمْ بلغةٍ أجنبيةٍ تسببتْ في ذبحِ الثقافةِ الوطنيةِ والقوميةِ من الوريدِ إلى الوريدِ ودونَ أيِّ تردُّدٍ!!.

مواطنٌ "بوب": أندهشُ منكُمْ!، لطالَما أنَّكُمْ غيرُ معجبينَ أو مقتنعينَ بالعلمِ والتعليمِ من علمائِنا ومعاهدِنا!؛ ما الذي يُجبركُمْ على القدومِ عندَنا والاستمرارِ في تحصيلِكُمْ العلميِّ هنا؟!.

السّيدُ حمد: هل تعلمُ يا سيدَ "بوب" أنَّني تَخرّجتُ من جامعةٍ في بلدِيَ تضمُّ حوالَيْ مائتيْ (٢٠٠) حاملٍ لشهاداتِ الدكتوراه، بالإضافةِ إلى قليلٍ من حَمَلَةِ شهاداتِ الماجستيرِ؟!. لَمْ أرَ شخصاً واحداً منهُمْ ممَّنْ يستطيعُ التفكيرَ، أيْ استخدامَ العقلِ والاستفادةَ منهُ، بما يَخصُّ المُجتمعَ باستخدام بيئتهِ الطبيعيةِ والبشريةِ. هؤلاءِ ليسوا بأكثرَ من ببّغاواتٍ بشريةٍ متطوّرةٍ نوعاً مَا. يا جماعةُ! سوفَ أقولُ كلاماً أنا غيرُ قادرٍ على تَحَمُّلِ تصديقِهِ. بعدَ أكثرَ من ستَّ عشرةَ (١٦) سنةً في جهازِ التعليمِ هنالكَ جيَلٌ كاملٌ من المتخرّجينَ (الجامعيينَ) لا يقدرُ أحدٌ منهُمُ، حسْبَ علمِيَ، أنْ يكتبَ رسالةً بخطِّ يدِهِ بالعربيةِ أو بالأجنبيةِ (التي يُحاولُ ولاةُ أمورِنا المُعيَّنينَ علينا إحلالَها وبالعافيةِ! مَحلَّ اللغةِ العربيةِ). أعني رسالةً شخصيةً قصيرةً تَخلو من أخطاءٍ بسيطةٍ في تركيبةِ الجُمَلِ وتسلسلِ المعاني عندَ البدءِ بالرسالةِ وعندَ الانتهاءِ منْها. يا أصدقائِيَ الأعزاءَ! المشكلةُ قَطْعاً وبتاتاً ليستْ مع "بيتر وهاري و... طوم وجيري و...." هنا؛ المشكلةُ فقط مع السّمسارِ الذي أغرقَ أسواقَنا الفكريةَ والتجاريةَ بِمثْلِ منتجاتِ "طوم وجيري".

جلسَ السّيدُ "سام" على الطرفِ المقابلِ لطاولةِ الغداءِ في مطعمِ جامعةِ "اسْمارْتيزْ" الرئيسيِّ حيثُ كان السّيدُ حمد يتناولُ بعضَ الطعامِ. في البدايةِ تَجاهلَهُ السّيدُ حمد بسببِ "غرابةِ شكلِه"، إلى حدٍّ ما. بدأ السّيدُ "سام" بطرحِ بعضِ الأسئلةِ التي ظنَّها السّيدُ حمد فضوليةً زائدةً، مِمّا أثارَ عندَهُ بعضُ الغيظِ والحنقِ من تلكَ الطريقةِ. إلا أنَّ السّيدَ "سام" استمرَّ بأسئلتِهِ للسيدِ حمد وبشكلٍ أكثرَ إلحاحاً!.

السّيدُ "سام": ما اسْمُكَ ومن أينَ أنتَ وماذا تعملُ هنا وماذا .... وماذا ..... وماذا؟!

السّيدُ حمد: اسْمِيَ حمد ومن بلادٍ تقعُ شرقيَّ البحرِ المتوسّطِ وبمحاذاةِ السّاحلِ وقليلاً من العمقِ. أنا هنا للحصولِ على شهادةِ دكتوراه لا أكثرَ! .. وكذلكَ لا أقلَّ!.

السّيدُ "سام": ومن أينَ تعتقدُ، أنا الذي أجلسُ أمامَكَ؟!.

السّيدُ حمد: من اليابانِ .... من المكسيكِ ..... من إندونيسيا .... من طاجيقستانِ .... من بحورِ الكاريبي .... من سواحلِ الأرجنتينِ .. ..؟؟.

السّيدُ "سام": لا لا لا.... لا على كلِّ ما سبقَ. إنَّ معلوماتِكَ في التاريخِ والجغرافيا ... والسّياسةِ! جِدُّ ضحلةٍ.

السّيدُ حمد: إنْ لَمْ تكنْ من كلِّ ما سبقَ، فإنَّ عليَّ أنْ أدرسَ مادةً متقدّمةً في علمِ "الأنثروبولوجيا" للتعرفِ على أصلِكَ وما ستؤولُ إليهِ!. حتى أنَّ قَصّةَ شعرِكَ مُختلفةٌ، ومُختلفٌ كذلكَ لونُ عيونِكَ ولونُ بشرتِكَ الغايةِ في اللونِ البرونزيِّ الفاقعِ. وماذا عن وجنتيْكَ المتجهتينِ بشكلٍ يعاكسُ الآخرَ وطريقةِ نُموِّ البطنِ والصّدرِ!؟؛ وهذا من ناحيةِ الشكلِ الخارجيِّ فقط...

السّيدُ "سام": سوفَ أقصّرُ عليكَ الحديثَ. أنا مواطنٌ أصليٌّ، من هذه البلادِ أباً عن جدٍّ ومنذُ الآلافِ المؤلّفةِ من السّنينِ.

السّيدُ حمد: وهل تَحملُ الجنسيةَ أم "مُجَنَّسٌ" أمْ على وشكٍ أمْ بدونٍ!. إنَّ كلامَكَ يَخلو من أيّةِ لكنةٍ غريبةٍ وتمتلكُ فصاحةَ لسانٍ وبلاغةً لمْ ألحظْها من قبلُ هنا في غيرِكَ لا عندَ السّودِ أو البيضِ أو الصُّفْرِ أو الزُّرقِ أو الخُضْرِ أو حتى عندَ الشُّقْرِ.

السّيدُ "سام": كنتُ هنا قبلَ مَجيءِ كلِّ هؤلاءِ إلى هنا، ولكنّني الآنَ بعدَ كلِّ هؤلاءِ ... هنا!. مَحكومٌ عليَّ بالانقراضِ وبشكلٍ "حضاريٍّ" بطيءٍ!.

السّيدُ حمد: آه..... أنتَ من سكنَ الأرضَ أولاً. أنت الذي على علاقةٍ وثيقةٍ بآلِهةِ المطرِ والشمسِ والريحِ والسّحابِ والحظِّ الطيبِ. أنا على خلافٍ بسيطٍ معكَ عقائدياً. إنَّ لِيَ إلهاً واحداً يَجمعُ كلَّ ما عندَكَ من آلِهةٍ في واحدٍ أحدٍ.

السّيدُ "سام": لا فرقَ هنالكَ... هذه أذنِيَ؛ وهذهِ ... أذْنِيَ!. أنا وأنتَ نشتركُ بنفسِ المصيرِ الواحدِ، الزوالُ عن الخريطةِ "السّياسو-جغرافيةِ".

السّيدُ حمد: لا لا لا ... أختلفُ عنكَ؛ فقط خسرتُ الأرضَ (الوطنَ) لكنَّكَ خسرتَ الوجودَ!.

السّيدُ "سام": وكيف تستمرُّ في الوجودِ بعدَ خسارةِ الوطنِ؟!.

السّيدُ حمد: حاليّاً، أنا أتسوَّلُ فأنا موجودٌ!. أينَما رأيتَ أحداً، من نفسِ سحنَتِيَ، فهو يتسولُ مساعدةً، إقامةً، تَمديدَ إقامةٍ، حقَّ لُجوءٍ، فرصةَ تعليم، مكاناً للسكنِ، متفهِّماً أو مناصراً لِحقوقِ الضعيفِ أو المستضعَفِ. كلُّ ما سبقَ متراكماً!، هذا أنا. مثلَ أيِّ شخصٍ أو نبتةٍ أو حتى حيوانٍ انتُزِعَ من أرضِهِ وبيئتِهِ!.
السّيدُ "سام": للأسفِ! لا تَتمتَّعُ "جَماعتِيَ" هنا بِمثلِ هذا الامتيازِ في التسوُّلِ!، لا هنا ولا في الخارجِ!.
السّيدُ حمد: لا تتوقّعْ الكثيرَ من التمتُّعِ بِمثلِ هذا الامتياز. لنتوقّفْ عن الحديثِ في هذا الموضوعِ الذي يَجعلُ القلبَ يَستقرُّ في أسفلِ البطنِ وحتى دونَ مستوى الصُّرَّةِ!. تعالَ مَعِيَ إلى غرفتِيَ لنشربَ معاً فنجاناً من القهوةِ، كذلكَ فإنَّ لكَ من عندِيَ دعوةً مفتوحةً لزيارتِيَ والتحدثِ معِيَ في أيِّ وقتٍ وأيِّ مكانٍ تشاءُ!.
السّيدُ "سام": كذلكَ أدعوكَ لزيارةِ مَحميةٍ طبيعيةٍ حضاريةٍ خُصِّصَتْ للحفاظِ على هويَّتِيَ الأصليةِ وحضارتِيَ من الانقراضِ بشكلٍ وحشيٍّ!.
السّيدُ حمد (في الحجرةِ): هذا سريرِيَ وهذه كُتُبِيَ وهذه صورتِيَ مع والدِيَّ وإخوانِيَ وأخواتِيَ و هذا أبوالز هو وأمُّهُ "راكلي" معنا في الصّورةِ. كلُّنا عائلةٌ واحدةٌ ومنذُ قديمِ الزمانِ.
السّيدُ "سام": وما هذه الآلةُ الوتريةُ عندَكَ على الطرفِ الآخرِ من السّريرِ؟ هل لكَ أنْ تُسْمِعَنِي بعضاً من موسيقاكُمُ؟.
السّيدُ حمد: لنشربْ بعضَ القهوةِ أولاً... .... سوفَ أغنّي لكَ أغنيةً كانتْ تعجبُ أمِّيَ وأبِيَ وأختِيَ وأخِيَ ... كنّا ولا نزالُ نطربُ عليها ..... دن دن دن دن دن .... يا صويلم يا اوليد العم، يا مفرِّج عن قلبي الهم، خليك بحدي ولا تفارق وخلّي هالشمل ملتم ..... يا صويلم يا صويلم.. ..!!.. أنتَ الآنَ عندِيَ مثلُكَ مثلَ صويلم (سُويلم) ..... هل فهمتَ شيئاً مِمّا غَنَّيْتُهُ لكَ؟!.
السّيدُ "سام": شكلُكَ أثناءَ الغناءِ يشبهُ العصفورَ الجريحَ ... يستنجدُ بالصّيادِ!، أو حتى بعصفورٍ جريحٍ آخرَ، ليرحَمَهُ أو يساعدَهُ ليُخرجَهُ من ورطتِهِ!. ارحَمْني لا أعرفُ ثقافتَكَ ولا لغتَكَ؛ حكمتُ عليكَ من شكلكِ وتعبيراتِ وجهِكَ وحركاتِ عيونِكَ في مَحاجرِها ومن معرفتِيَ البسيطةِ السّابقةِ بقضيتِكَ.
السّيدُ حمد: لا أعرفُ يا سيدَ "سام" هل أنت عبقريٌّ بالفطرةِ أم أنَّ التجربةَ التي مرَّتْ بكَ هي التي "عَبْقَرَتْكَ"!؟.
بعدَ بضعةِ أسابيع ذهبَ السّيدانِ الرفيقانِ حمد و"سام" في رحلةٍ استكشافيةٍ إلى عمقٍ أكبرَ "عمليةٍ حضاريَّةٍ" ترتكبُ بحقِّ جنسٍ بشريٍّ عريقٍ كاملٍ ومتكاملٍ؛ إلى مَحميّةٍ "إنسانو-حيوانو-طبيعيةٍ". هناكَ رأى السّيدُ حمد أنَّ كلَّ منْ رأى، عدا الكلابَ الكثيرةَ العددِ، من البشرِ ثَملينَ ويَحملُ كلُّ واحدٍ منهُمْ في جيبهِ زجاجةً على الأقلِّ من مشروبٍ كحوليٍّ مركّزٍ لكيْ تبقيهِ (تبقيها) ثَملاً (ثَمِلةً) وعلى مدارِ السّاعةِ. ذلكَ ليسَ بسببِ سهرةٍ على شاطئِ النيلِ ولكن بسببِ صعقاتٍ حضاريةٍ!، قلَّ ما ينجو منها أحدٌ. هنالكَ تكثُرُ النواديَ و"الكازينوهات" التي تقيمُ فقطْ طقوسَ الخمرِ والميسرِ والأنصابِ والأزلام والقمارِ؛ كما أنَّ السّيدَ "سام" وَصَفَ المكانَ بأنّهُ أكبرُ مرتعٍ خصبٍ لِمرتكبي عملياتِ الانتحارِ ومنها الجماعيِّ!.
السّيدُ حمد: لا أريدُ فقط أنْ أرى المآسِيَ، أريدُ أنْ أرى ما يبهجُ القلبَ ولو قليلاً؛ عادةً من قعرِ بطنِ الكارثةِ تُقطفُ عناقيدُ ثِمارِ القهرِ والظلمِ والبؤسِ.

السّيدُ "سام": لَمْ يَحنْ قطافُ ذلكَ بعدُ!. لكنْ بمقدورِكَ أنْ ترى هذه البقايا أو الأطلالَ أو ما استطاعَ المهتمّونَ بالشأنِ الحضاريِّ تَجميعَهُ والإبقاءَ عليهِ بعدَ عاصفةٍ عاتيةٍ من التي خُصِّصتْ للقضاءِ على وجودِنا لنصبحَ أثراً بعدَ عين. هذه خيامٌ رمزيةٌ وقبعاتٌ من الريشِ وبقايا جلودِ حيواناتٍ صُنعتْ بطريقةٍ صالحةٍ لاستخداماتِ البيتِ والبشرِ. هذه رماحٌ وسهامٌ وأقواسٌ وعصيٌّ وأوانٍ خشبيةٌ وفخاريةٌ وحجريّةٌ وقد نُحتَتْ الأخيرةُ على هيئةِ الإنسِ والحيوانِ والطيرِ، عسى أنْ يأتيَ بعدَ ذلكَ من ينفخُ فيها لتُبَثَّ فيها الحياةُ من جديدٍ.
السّيدُ حمد: الآنَ لا أستطيعُ حتى التقاطَ نَفَسِيَ ولذلكَ لا تنتظرْ منِّيَ أنْ أنفخَ في أيِّ شيءٍ، ميتاً كانَ أم حياً أو بينَ الحياةِ والموتِ.
السّيدُ "سام": أَلَمْ تكنْ تعرفُ أو تسمعُ بهذهِ الأمورِ من قبلُ؟!.
السّيدُ حمد: سَمعْتُ كثيراً ومن الناسِ الذين أقاموا أو المسئولينَ عن إقامةِ مثلِ هذه المَحميّاتْ "الإنسْ-وحشْ-نباتية". ظَننتُ ولفترةٍ طويلةٍ من العمرِ أنَّكُمْ لَمْ تعودوا موجودينَ على الإطلاقِ. أنا الآنَ مثلَ السّيدِ "كولومبوس" عندَما اكتشفَ العالَمَ الجديدَ؛ أكتشفُ العالَمَ القَديمَ التابعَ للعالَمِ الجديدِ الآنَ!.
السّيدُ "سام": نَحْنُ موزَّعون على عددٍ من المَحميّاتِ قد لا يتجاوزُ عددُها مَجموعَ أصابعِ اليدينِ!. لكن فيما لو تَرَكَ المستوطنونُ الأوائلُ مَجالاً طبيعياً للنموِّ لدينا لأصبحَ عددُنا اليومَ ربَّما مئاتِ الملايينِ من البشرِ!.
السّيدُ حمد: تَجعلُني أفكِّرُ في كلِّ خَطوةٍ أخطوَها أنني أحتلُّ مكانَ شخصٍ من جَماعتِكُمْ، خيالُهُ موجودٌ أمامَ ناظريَّ، يلومني على ارتكابِ خطيئةِ غزوِ موطنهِ مستغلاً حالةَ موتهِ وفنائهِ.
السّيدُ "سام": لقد تَمَّ إحلالُ عِرقٍ مَحلَّ آخرَ، وبمساعدةٍ من الأرضِ والسّماءِ! وعلى حينِ غرَّةٍ.
السّيدُ حمد: نَحْنُ، أنا وبني جنسِيَ، نَخضعُ لنفسِ العمليةِ "البشرو-جغرافيةِ" فيما يُسمّى "إحلالُ شعبٍ بلا أرضٍ ... في أرضٍ بلا شعبٍ"!. قلْ لِيَ يا رفيقِيَ الجديدَ، وتَحْتَ هذه الظروفِ ماذا تقومونَ بهِ لإنقاذِ ما يُمكنُ إنقاذُهُ من أنيابِ التمساحِ، أو الإخطبوطِ!، الحضاريِّ الزاحفِ والذي لا ترحمُ فكّاهُ أيَّ شيءٍ يقعُ بينَهُما؟!.
السّيدُ "سام": مثلَما أنتمْ فاعلونَ. نستنجدُ بالضميرِ المستترِ أو الغائبِ وتقديرُهُ هو، بأواني الكحولِ المَحليِّ والمستوردِ، بالرياحِ والأعاصيرِ والبراكينِ، بالانتحارِ الذي هو خيرُ مريحٍ لِمثلِ هذه الحالةِ.
السّيدُ حمد: عليكَ بالمثلِ الشعبيِّ من عندِنا القائلِ "كلَّما اشتدَّتْ المصيبةُ اقتربَ الفرجُ"!؛ وعندما يَحلُّ الفرجُ تصبحُ المآسي ذكرياتٍ وتصبحُ الكوارثُ غذاءً ووقوداً روحياً للأجيالِ القادمةِ. هنالكَ أملٌ في أناسٍ من مثلِكَ يا سيدَ "سام" مِمَّن ينشرونَ الوعيَ الذي يؤثِّرُ في الظالمِ تأثيرَ ماءِ الجدولِ في جلمودِ صخرِ الصَّوّانِ!؛ يتدفَّقُ الماءُ خلالَ ذلكَ الصّخرِ بلا أدنى مقاومةٍ في مساراتٍ يطيبُ للرسّامِ النافذِ تزيينَ لوحاتهِ بها.
السّيدُ "سام": لنغيِّرْ موضوعَ الحديثِ قليلاً. هل لِيَ أنْ أعرفَ أكثرَ عن عقيدتِكَ ودينِكَ وفكرِكَ الميتافيزيقيِّ!.
السّيدُ حمدَ: تَماماً كما دينُكَ! مع بعضِ التعديلاتِ "الجوهريةِ"!؟ في بعضِها والبسيطةِ في البعضِ الآخرِ. في ملَّتِنا واعتقادِنا كلُّ شيءٍ بيدِ خالقٍ أحدٍ فردٍ صَمَدٍ لا

يتغيرُ مع الزمنِ، واحدٌ وفريدٌ في كلِّ مزاياهُ والتي كلُّها لا نهائيةٌ ولا مَجالَ لأحدٍ أنْ يَحسبَها أو يضعَها في حيِّزٍ أو يُخضعُها لقانونٍ أو تَجربةٍ تنقلُهُ من حالةِ الشَّكِّ بِها إلى حالةِ اليقينِ. الأحسنَ أنْ لا يُفكِّرَ الإنسانُ بالأمرِ، لأنّهُ لن يصلَ إلى نتيجةٍ وسوفَ يضيعُ عمرَهُ بالتفكيرِ في هل البيضةُ أولاً أم الدَجاجةُ. أميلُ إلى الاعتقادِ أنَّ الدجاجةَ أولاً حتى تضعَ البيضةَ، حينئذٍ يكونُ هنالكَ ضرورةٌ لوجودِ خالقٍ للدجاجةِ على ما هي فيهِ من قوامٍ ورشاقةٍ وصوتٍ قا قا قا.. .!!!.

السّيدُ "سام": في ملّتِيَ واعتقادِيَ كلُّ إلهٍ متخصصٌ باتّجاهٍ معينٍ، ولكلٍّ فلسفةٌ خاصةٌ وطريقةُ عملٍ خاصةٌ، وطريقةُ صلاةٍ خاصةٌ بهِ. من الطبيعيِّ أنَّ الصّلاةَ الخاصّةَ بإلهِ الغضبِ غيرَها بإلهِ الفرحِ، الأوّلُ يَحتاجُ إلى صلواتٍ تنقصُها الابتساماتُ والثاني بصلاةٍ فيها تناولُ بعضِ المشروباتِ التي تزيدُ الفرحَ أكثرَ عندَ الناسِ!.

السّيدُ حمد: بالنسبةِ لِيَ أفضِّلُ أنْ أتقرَّبَ من الإلهِ الغاضبِ، إذ لا مكانَ لديَّ لشيءٍ اسْمهُ الفرحُ!. هل لِيَ أنْ أسألَكَ يا سيدَ "سام" عمَّن يشرفُ أو يديرُ أو يتربَّعُ على عرشِ هذه المَحميّةِ والتي تبدو لِيَ مثلَ بؤرةٍ من بؤرِ يومِ القيامةِ حيثُ لا ينفعُ هنا مالٌ أو بنونَ، أو حتّى من كانَ ذو خُلقٍ سليمٍ منْ مثلِكَ!...

السّيدُ "سام": سوفَ آخذُكَ إذا ما أردتَ إلى رئيسِ العشيرةِ، رئيسِ القبيلةِ أو العُمدةِ......

السّيدُ حمد: وهل كذلكَ لديكُمْ عُمدةٌ هنا؟! آهٍ....

السّيدُ "سام": هذا هو عُمدةُ قبيلةٍ من آلِ "شَرواكْنة"؛ يَمتازُ بطولهِ المُميّزِ وطولِ شعرهِ المُميّزِ وطولِ لسانهِ المُميّزِ وطولِ نظرهِ المُميّزِ وطولِ أنفهِ المُميّزِ وطولِ ..... المُميّزِ كذلكَ. ومن أجلِ لفتِ النظرِ إلى تَميُّزهِ عن بَقيةِ الخَلقِ صنَعوا لهُ قبعةً مُميّزةً من ريشِ طيرٍ مُميّزٍ. هلّا تعرفُ أهميةَ ذلكَ في الإبقاءِ على مكانتهِ في قلوبِ الناسِ كإنسانٍ مُميّزٍ.

السّيدُ حمد: إنَّ هذا ليذكّرُني بعُمدةِ قبيلةٍ من عندِنا في الوطنِ البعيدِ الذي إذا ما أرادَ أنْ يُعَظِّمَ قَسَمَهُ أمامَ أتباعهِ، وهُمْ كثرٌ؛ كان يقولُ: "أقسمُ بالذي ميّزني أو رفَعَني عنكُمْ درجةً!". الفرقُ في الوضعِ بينَ العُمدةِ عندَنا ومثيلهِ من عندِكُمْ هو أنَّكُمْ تؤلِّهونَهُ بأنفسِكُمْ، في حينِ أنَّ العُمدةَ من عندِنا يَعتقدُ أنّهُ مؤلّهٌ من السّماءِ. لا أعرفُ إنْ كانَ لدى المستوطنينَ القدامى والجُدُدِ طريقٌ أو مسلكٌ أكثرَ سهولةً لتحقيقِ مكاسبَ ضدَّكُمْ في الماضي والحاضرِ! والمستقبلِ!.

السّيدُ "سام": هل الوضعُ كذلكَ بِهذا القَدْرِ من السّوءِ من عندِكُمْ؟!. .....

السّيدُ حمد: قلْ لِيَ يا شريكَ المصيرِ، ماذا عن أكلِكُمْ وشربِكُمْ وطعامِ الصّغارِ والكبارِ والمرضى والمعافَينَ فيكُمْ؟!.

السّيدُ "سام": لدينا مستودعٌ ضخمٌ من الموادِ الطبيعيةِ والمستنبطةِ من الطبيعيةِ؛ نباتيةٌ وحيوانيةٌ، من الصّيدِ ومن مُختلفِ أنواعِ البيئاتِ. كلُّ ما تراهُ عيناكَ هو من صناعةِ ربّاتِ بيوتِنا ورجالِهنَّ في حالةِ عودتِهِمْ جَميعاً إلى وعيِهِمْ من الثمالةِ والتي سرعانَ ما يعودونَ إليها بعدَ الانتهاءِ من تَحضيرِ تلكَ الأطعمةِ!. للأسفِ فإنَّ ظاهرةَ الوجباتِ السّريعةِ تغزو المكانَ وتقضي على ما تبقّى من أطعمةِ الحضارةِ أو حضارةِ الأطعمةِ من لدُنّا، إنْ صحَّ التعبيرُ.

السّيدُ حمد: و هل لِيَ أنْ أقضمَ بأسنانِيَ، و لو بكتلةِ حبةِ حُمُّصٍ، شيئاً من ذلكَ المتبقّي من حضارةِ أطعمتِكُمْ؟!.
السّيدُ "سام": هذه بقايا قطعةِ لحم مُجففةٍ ومطبوخةٍ من حيوانِ "التلالاتلا"!؛ خذْها كلَّها إذا ما شئتَ أو اقضمْ جزءاً منها، إذا ما شئتَ كذلكَ!.
السّيدُ حمد: آهٍ ..... آهٍ .... آخ .... آخ .... يا حياتِيَ ما هذا الطعمُ الذي يَحرقُ لسانِيَ ويستنفرُ مناعةَ الدمِّ عندِيَ بكاملِ قوَّتِها. لا أريدُ أنْ أموتَ يا رجلاً هنا!. ما هذا الذي أطعمتَنِي إياهُ!، أنتَ المسئولُ .. عن موتِيَ ...... أففففففف...
السّيدُ "سام": يا صديقِيَ!، إنَّ هذا الأكلَ عندَ أطفالِنا مثلَ شربِ الحليبِ مع الكعكِ في مطاعمِ المدينةِ الجامعيةِ؛ هذا أكلٌ عاديٌّ لكلِّ الناس.
السّيدُ حمدَ: أنا متأسّفٌ يا صديقِيَ، اعتدتُ على أكْلِ الأطعمةِ المنتَجةِ من الشركاتِ؛ كلُّ شيءٍ فيها جاهزٌ للهضمِ والالتهامِ حيثُ فيهِ الكربوهيدراتُ والبروتيناتُ والفيتاميناتُ والمعادنُ والأملاحُ جاهزةٌ وموضوعةٌ بنسبٍ مُحدّدةٍ مُسبقاً. آخ يا صاحبِيَ إذا الطفلُ عندَكُمْ يتحمَّلُ أكْلَ مثلِ هذهِ الجرعاتِ القويةِ فذلكَ يعنِيَ أنَّ حضارتَكُمْ لا زالتْ بخيرٍ وستستمرُّ!!.
السّيدُ "سام": وبما أنّكَ تُحبُّ الموسيقى وصناعتَها أودُّ أنْ أطلعَكَ على مَجموعةٍ من الآلاتِ الوتريةِ والهوائيةِ وما يتبعُها من آلاتٍ إيقاعيةٍ مصنوعةٍ بكافةِ الأشكالِ والموادِّ.
السّيدُ حمد: أخِيَ "سام"!، لولا المخافةُ من الوقوعِ في خطأٍ بسيطٍ في التعبيرِ لقُلتُ أنَّ مأساتَكُمْ ومأساتَنا قد وُلِدَتا في نفسِ الرَّحِمِ، ولقَيطتَيْنِ من نفسِ الزاني العربيدِ، وقامت بالإشرافِ على ولادتِهما نفسُ القابلةِ القانونيةِ، ونفسُ الذي أشرفَ على تولِّي أمرِ رعايتِهما، ومن نفسِ نوعِ الذي تواطأ وشاركَ في ذلكَ من نفسِ نوعِ "العُمدةِ"، ومن اللهِ أطلبُ الغفرانَ!.

آثارُ الحروبِ

السّيدُ حمد قادمٌ من منطقةٍ هي في الواقعِ ساحةُ حربٍ أزليةٍ؛ بدأتْ الحروبُ في تلكَ المنطقةِ منذُ أنْ عرفَ الإنسانُ اللونينَ الأبيضَ والأسودَ!. ربّما ظلّت الحروبُ مستعرةً حتى بعدَ أنْ توصَّلَ الإنسانُ إلى تكوينِ ألوانٍ يبلغُ عددُها ملياراتِ الملياراتِ باستخدامِ تقنياتِ الحاسوبِ الإلكترونِيِّ. بالذَاتِ بقَيَ الناسُ في منطقةِ السّيدِ حمد متمسكينَ باللونينِ المعاكسيْنِ، وإذا ما حاولَ أحدٌ من البشرِ إدخالَ لونٍ ثالثٍ مهما كانَ وسطاً بينَ الاثنينِ كانَ مصيرُهُ الفشلَ إنْ تَمكّنَ من الإفلاتِ ولو بجلدِهِ. للحربِ ميزةٌ أساسيةٌ ومهمةٌ، على البشرِ أنْ يأخذوها بعينِ الاعتبارِ، هي أنّهُ لَا يوجدُ في الحربِ رابحٌ، الكلُّ خاسرٌ وبشكلٍ أسوأَ من الآخرِ. في الحربِ يَخسرُ الرابحُ ويَخسرُ الخاسرُ ولا يربحُ لا الرابحُ ولا الخاسرُ. الرابحُ فقط هو الغبِيُّ الذي يظنُّ أنّهُ رابحٌ أو أنّهُ سيربحُ في الجولةِ القادمةِ من الحربِ إنْ تَحدُثْ. للأسفِ قد تَمتدُّ حروبُنا عقوداً وقروناً ودهوراً؛ تبعاتُ الحروبِ تنتقلُ لأجيالٍ وتؤثِّرُ على خَلْقٍ ليسَ لَهُمْ في تلكَ الحروبِ السّابقةِ لا ناقةَ ولا بعيراً. لا توجدُ هنالكَ حروبٌ

مفروضةٌ، كلُّ الحروبِ يُمكنُ أو كانَ بالممكنِ تفاديها، لو كان هنالكَ الحدُّ الأدنى من الواقعيةِ والشجاعةِ والحضورِ الذهنيِّ والعقلانيِّ لدى أطرافِ الحروبِ. تعبيرُ الحربِ المفروضةِ اصطلاحٌ أسّسَ لهُ في معظمهِ الخاسرونَ والسّماسرةُ وكلابُ الحروبِ. هنالكَ فرقٌ واحدٌ تقريباً بين البراكينِ المدمِّرةِ والحروبِ، الأولى تثورُ وتهدأُ بنفسِها أمّا الثانيةُ يقومُ الإنسانُ بإثارتِها ولا يسعى إلى تهدئتِها إلا بعدَ أنْ تأتِيَ على الأخضرِ قبلَ اليابسِ. المشكلةُ الأساسُ هي أنَّ الشعوبَ من السّهولةِ بمكانٍ تسييرُها إلى الحَربِ على شكلِ جنودٍ أعطوْا رخصَ قيادتِهمْ إلى بشرٍ من فصيلةِ الحيواناتِ المفترسةِ الجشعةِ. ما أنْ يبدأ طبّالُ الحربِ بقرعِ الطبولِ حتّى يفقدَ كلُّ فردٍ تقريباً من الشعبِ السّيطرةَ على عقلهِ وقلبهِ ويديْهِ ورجليْهِ ويسلِّمَ رقبتَهُ إلى جزّارِ الحربِ الذي لا يرحمُ ولا يشبعُ أرواحاً ولا يرتوي دماً. الويلُ لِمن يُخالفُ ذلكَ المتعطّشَ لسيلِ الدماءِ فهو متهمٌ بالنذالةِ والخيانةِ أو حتى الإنبطاحِ أمامَ العدوِّ؛ يهدَّدُ ذلكَ الشخصُ بالحرمانِ من كافةِ الحقوقِ وعلى رأسِها حقُّهُ في الاستمرارِ في الحياةِ.

الحربُ الطّاحنةُ مستعرةٌ على "البوّابةِ الشرقيةِ"، كلُّ طرفٍ يُحاولُ أنْ يُفنيَ الآخرَ من الخريطةِ الديمو-سّياسيةِ. يتفانى كلُّ طرفٍ من أجلِ تحقيقِ نصرٍ "كلاسيكيٍّ" يقدّمُهُ هديةً لأبناءِ قومهِ وعلى حسابِ أيِّ شيءٍ بما في ذلكَ حياةُ أبناءِ وطنهِ وأهلهِ. العالَمُ من حولِ المتحاربينَ حتى الرمقِ الأخيرِ منقسمٌ إلى ما لا يقلُّ عن خَمسةِ أقسامٍ رئيسيةٍ؛ قسمانِ مؤيدٌ، كلٌّ منهما، لأحدِ طرفَيْ النزاعِ والحربِ ضدَّ الآخرِ. قسمٌ ثالثٌ يؤيدُ الطرفيْنِ ضدَّ بعضِهمُ البعضِ في آنٍ واحدٍ. قسمٌ رابعٌ يقفُ ضدَّ طرفَيْ الحربِ في مُحاولةٍ لاحتواءِ الموقفِ! ووقفَ الحربِ وهؤلاءِ يشكّلونَ أقليةً ضيقةً جداً. وثَمَّةَ قسمٌ خامسٌ لا يكترثُ لِما يَجري ولسانُ حالهِ يقولُ: "فُخّارٌ يُكَسِّر بعضَهُ". وبما أنَّ السّيدَ حمد ذو شكلٍ ولونٍ وفكرٍ ولسانٍ وعينيْنِ مَحسوبةٍ كلّها على الطرفيْنِ المتحاربيْنِ في آنٍ واحدٍ، أصبحَ فريسةً سهلةً للفئاتِ الأولى ... والثانيةِ ... والثالثةِ ... والرابعةِ! وحتى الخامسةِ!، أيْ لِجميعِ الفئاتِ تقريباً، لكنْ ليسَ على حدٍّ سواءَ. حكوماتُ الفئةِ الثالثةِ، والتي يتواجدُ السّيدُ حمد على أراضي إحداها، تُمدُّ طرفَيْ النزاعِ بترسانةٍ من الأسلحةِ التقليديةِ والمَحظورةِ والمُحرّمةِ مَحلياً ودولياً وذوقياً. الهدفُ هو كسبُ "وُدِّ ورَضاءِ" الطرفيْنِ المتحاربيْنِ وأموالِهمُ الطائلةِ والتي كانت تذهبُ كلُّها تقريباً دعماً لِما يسمّى بالمَجهودِ الحربيِّ. كانت الحكوماتُ تلكَ متقلبةً في المواقفِ فهي دائماً مع الطرفِ الضعيفِ في الحربِ حتى يقوى عن طريقِ بيعهِ الأسلحةِ الضروريةِ لاستمرارهِ الأحْمقِ في حالةِ الاستنزافِ الدائمةِ لقواهُ. كذلكَ لدى هذا الطرفِ الماكرِ قدرةٌ وخبرةٌ على ذرفِ دموعِ التماسيحِ على حالِ الطرفينِ المتحاربيْنِ، فهو يرسلُ مساعداتٍ يعتبرُها إنسانيةً! لإحدى الطرفينِ دونَ علمِ الآخَرِ. ووصلَ الأمرُ بحكوماتِ الأطرافِ المتفانيةِ في الصّراعِ لأن تقومَ بإنشاءِ "نوافيرَ" اصطناعيةٍ في السّاحاتِ العامةِ للمدنِ، تضخُّ للجماهيرِ المعبأةِ نَحْوَ الحربِ دماً أو سائلاً لهُ لونُ الدمِ الأحْمرِ، ذلكَ من أجَلِ إثارةِ العواطفِ الجياشةِ الحمقاءَ بدلاً عن الدماءِ المرطّبَ للأجواءِ الصّحراويةِ!.

في نفسِ الوقتِ الذي كانت تدورُ فيهِ رحى حربٍ ضروسٍ على الحدودِ الشرقيةِ، البوّابةِ الشرقيَّةِ، كانت هنالكَ ومنذُ زمنٍ بعيدٍ تدورُ رحى حربٍ باردةٍ وساخنةٍ سريةٍ وعلنيةٍ؛ هدفُ هذهِ الحربِ اقتلاعُ شعبٍ بأكملهِ من تاريخهِ

وجغرافيتهِ باستخدام أساليبِ استخدمَ النازيّونَ والفاشيّونَ جزءاً بسيطاً منها فقط. شعبٌ تَحْتَ الاحتلالِ يتعرّضُ للقتلِ والاضطهادِ والقمعِ في الحربِ والسّلْمِ تَحْتَ مرأىً ومسمعٍ من كلِّ دولِ العالَمِ من حولِهِ ...

بسببِ تراكمِ الأحداثِ والأهوالِ والمشاكلِ النفسيةِ المترتبةِ تدهْوَرَ جهازُ الأعصابِ عندَ السّيدِ حمد وضعُفَ لديهِ التركيزُ الذهنيُّ والعصبيُّ والتوافقُ العضليُّ. من أجلِ ذلكَ، وغيرهِ الكثيرَ، وَجَبَ على السّيدِ حمد أنْ يبحثَ عن طبيبٍ مداوٍ. أشارَ عليهِ بعضُ الأصحابِ من مكتبِ "اتحادِ الطلبةِ الدوليينَ" أنْ يرى أخصائياً نفسانياً؛ شخصٌ لا هو بطبيبٍ نفسانيٍّ ولا هو عالِمٌ نفسانيٌّ، بينَ هذا وذاكَ!. لديهِ الصّلاحيةُ لإجراءِ بعضِ التجاربِ على من يشتكي إليهِ وحتى كتابةَ وصفةٍ طبيةٍ متواضعةٍ؛ من يعرفُ؟!، ربَّما على يديهِ يَجِدُ السّيدُ حمد بعضاً من دوائهِ على الأقلِّ!. الدكتورُ "مالثوس" في بدايةِ التوجُّهِ نَحْوَ التقدّمِ في العمرِ ونفسياً على مفرقِ طرُقٍ مؤديةٍ إلى المراهقةِ الفكريةِ المتأخرةِ هناكَ في تلكَ البلادِ أو الاستقرارِ العاطفيِّ المتأخرِ كذلكَ!.

الدكتورُ "مالثوس": منذُ متى بدأتَ تشعرُ يا سيدَ حمد بمثلِ هذا الاضطرابِ العصبيِّ، أو الذي تقولُ بهِ من مشاكلَ صحيةٍ ونفسيةٍ؟!.

السّيدُ حمد: هو ليس اضطراباً عصبياً بما تعنيهِ الكلمةُ كما هي الحالُ بالنسبةِ لمرضى الصَّرَعِ مثلاً. هي عبارةٌ عن مضاعفاتٍ تأتي في معظمِ الأحيانِ من موجاتٍ! مصدرُها خارجيٌّ، أعتقدُ، مثلَ البيئةِ المُحيطةِ والأخبارِ التي تَغزو الدماغَ ليلَ نَهارَ من وسائلِ الإعلامِ الكثيرةِ المتوفرةِ في كلِّ مكانٍ هنا. أنا بالذاتِ، ومثلاً، قادمٌ من منطقةٍ ترزحُ تَحْتَ الاحتلالِ. ومثلاً كانت قواتُ الاحتلالِ تُهاجمُ القريةَ لبضعِ ساعاتٍ، تَمنعُ التجوالَ .. تقتلُ .. تَجرحُ .. تعتقلُ .. تنسفُ بيوتاً .. تَخرجُ لتتمركزَ على أطرافِ القريةِ. يأتي بعدَ ذلكَ وفْدٌ من الصّليبِ الأحْمرِ مثلاً ويقولُ أنّهُ جاء ليتأكّدَ ويطمئنَّ على حالِ الأطفالِ والنساءِ والشيوخِ الجرحى فقط!. تلكَ المناظرُ والذكرياتُ بالإضافةِ إلى ما يَجري من أمورٍ، حوليَ وبعيداً عنّيَ، تَجعلُ من قضيةِ الراحةِ الجسميةِ والعصبيةِ والنفسيةِ أمراً يدخلُ في نطاقِ ودائرةِ أحلامِ اليقظةِ.

الدكتورُ "مالثوس": نعمْ، لقد علمتُ من مكتبِ رئيسِ "اتحادِ الطلبةِ الدوليينَ" أنَّكَ قادمٌ من منطقةٍ مضطربةٍ. هنالكَ الكثيرُ من الحالاتِ التي مرّتْ عليَّ هنا لأشخاصٍ قادمينَ من نزاعاتٍ سياسيةٍ وعرقيةٍ في إفريقيا وجنوبِ شرقِ آسيا وشبهِ القارةِ الهنديةِ وأمريكا اللاتينيةِ والشرقِ الأوسطِ وآسيا الوسطى وحتى منطقةِ الكاريبيِّ! .... وغيرها.

السّيدُ حمد: أنا متأثِّرٌ بكلِّ تلكَ الحروبِ والنزاعاتِ في المناطقِ التي ذكرتَ معَ اختلافٍ بسيطٍ في درجةِ الحدّةِ بينَها!؛ ذلكَ لأنّهُ قريباً من مكانِ نومِيَ وضعْتُ شاشةً صغيرةً تأتيني بالأخبارِ تلكَ حالَ حدوثِها من كلِّ أنْحاءِ العالَمِ وبالألوانِ الطبيعيةِ.

الدكتورُ "مالثوس": مَن هنا نُحاولُ أنْ نساعدَ تلكَ البلادَ البعيدةَ المتَخلّفةَ في حلِّ مشاكلِها وقد يستغرقُ الأمرُ بعضَ الوقتِ؛ هذا كلُّ ما نستطيعُ فعلَهُ!.

السّيدُ حمد: صدَقْتَ!، أنا قادمٌ من منطقةٍ كان الكثيرُ من المندوبينَ من طرفِكُمْ يأتونَ للمساعدةِ على استتبابِ الوضعِ بطريقةٍ كما يرونَها مريحةً؛ لكنْ وخلالَ عقودٍ طويلةٍ لَمْ يفلحْ أحدٌ منْهُمْ. لنتركْ الكلامَ في الموضوعِ هذا للمتخصّصينَ في الكوارثِ الدوليةِ!.

الدكتورُ "مالثوس": يبدو لِيَ من شكلِكَ بأنَّكَ غارقٌ وتغرقُ أكثرَ في وحْلِ التفكيرِ في تلكَ الكوارثِ. سيؤثِّرُ ذلكَ على قدراتِكَ الجسميةِ والذهنيةِ والشخصيةِ ومستقبلِكَ؛ "أنتَ تقدِّمُ نفسَكَ هديةً لويلاتِ الحربِ وهواةِ الفزعاتِ الطائشةِ".
السّيدُ حمد: كلامُكَ صحيحٌ ١٠٠% تقريباً في آخرِ جُملةٍ قلتَها، كما لو كنتَ تعيشُ معِيَ في السّابقِ. أنا الآنَ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى مساعدةٍ للنجاةِ بنفسِيَ، من منقذٍ ماهرٍ. سَمِعْتُ أنَّ لديكُمْ جهازاً كهربائياً إلكترونيّاً يتحكَّمُ بهِ حاسوبٌ إلكترونيٌّ كذلكَ؛ ما أنْ يولِجَ الشخصُ المريضُ رأسَهُ داخلَ عذبرٍ خاصٍّ متصلٍ بذلكَ الجهازِ حتى يقومَ الجهازُ بمسحِ الذكرياتِ البائسةِ من الدمَاغِ. ولا مانعَ لديَّ لو شُطِبَ قليلٌ من الذكرياتِ الجيدَةِ إنْ كان لا يزالُ هنالكَ أثرٌ لِمثلِها!.
الدكتورُ "مالثوس": وماذا عن النواحي الفسيولوجيةِ، هل عندَكَ مشاكلُ في النومِ؟، حالاتُ تبوّلٍ لا-إراديةٍ!؟، غثيانٌ أو شعورٌ بفزعٍ بسببِ التخيُّلِ بقربِ حدوثِ كارثةٍ أو إسقاطِ قنبلةٍ على بيتِكَ مثلاً أو ما شابهَ ذلكَ؟!.
السّيدُ حمد: لا، لَمْ يصلْ الأمرُ بعدُ إلى هذا القدْرِ من المأساةِ. وهل من الممكنِ أنْ يؤدِّيَ الأمرُ إلى كلِّ هذهِ المضاعفاتِ المفزعةِ؟!.
الدكتورُ "مالثوس": من الممكنِ!، لذلكَ أنت بحاجةٍ لأنْ أراكَ أكثرَ في المستقبلِ. لا يكنْ عندكَ قلقٌ من ناحيةِ تكاليفِ الزيارةِ وسوفَ أعطيكَ سعراً خاصاً، لكَ فقط!. وبالنسبةِ للجهازِ الكهربائيِّ الإلكترونيِّ! الذي سألتَ عنهُ، أعجبُ لشخصٍ في مستواكَ العلميِّ أنْ يتحدّثَ عن أشياءَ سحريةٍ كهذهِ. في نفسِ الوقتِ، أدعوكَ للانضمامِ إلى مَجموعةٍ من الأشخاصِ بقيادةِ أحدِ "الفلاسفةِ المُهرِّجينَ" من أصلٍ هنديٍّ السّيدِ "سانان-داوا-نوناكا"، أو باختصارٍ شديدٍ اسْمُهُ "سونونوني". هذا الرَّجُلُ يقودُ المَجموعةَ إلى حالةٍ من الضحكِ الصّاخبِ والمتواصلِ ولِمدّةٍ قد تزيدُ في بعضِ الأحيانِ على أربعِ (٤) ساعاتٍ متتاليةٍ مع نصفِ ساعةٍ إضافيةٍ لتهدئةِ المشتركينَ وإعادتِهِمْ إلى طبيعتِهِمْ!. إنَّ القيامَ بذلكَ العملِ ينظِّفُ! الأعصابَ والدماغَ مِمّا عَلِقَ بِها من هُمومٍ قد تُكَوِّنُ أيٌّ منها بذرةً أو نواةً لِمشاكلَ نفسيةٍ معقّدةٍ فيما بعدُ. أذهبُ بنفسِيَ لِمثلِ تلكَ الجلساتِ مرّةً واحدةً على الأقلِّ كلَّ أسبوعٍ تقريباً. لا يطلبُ السّيدُ "سونونوني" رسوماً على تلكَ الجلساتِ ولكنَّ حبَّ الجمهورِ لهُ جعلهُ غنيّاً في المنطقةِ ومن تبرعاتِ المعجبينَ والمعجباتِ بشخصهِ العجيبِ.
السّيدُ حمد: لا بدَّ أنَّ لِلمِهراجا! (كلمةُ "مِهراجا" بالهنديةِ تعني المَلِكَ) "ساناانداوانوناكا" قدرةً فائقةً على التهريجِ المتواصلِ الغنيِّ بالمضحكاتِ بحيثُ يُبقي الحضورَ بحالةٍ شبهِ غيبوبةٍ من الضحكِ المتواصلِ!. لا أقدرُ أنْ أستمرَّ في الضحكِ أكثرَ من نصفِ دقيقةٍ حتى لو أمطرتْ السّماءُ "نِكاتٌ" بدلاً من "نِقاطِ" المطرِ. خافْ ربَّكَ يا "زلَمةْ"!.
الدكتورُ "مالثوس": لا لا لا .... هو فقط يقودُ المَجموعةَ في الضحكِ، لا يقومُ بعملِ أيِّ شيءٍ. يشيرُ لنا بالضّحكِ ونَحْنُ نضحكُ، وإذا ما توقَّفَ أحدٌ لالتقاطِ أنفاسهِ يقومُ بالإشارةِ إليهِ للعودةِ إلى الضحكِ من جديدٍ. يُحِسُّ الشخصُ المشتركُ في الجلسةِ بعدَ ذلكَ بأنَّ عملَ الدورةِ الدمويةِ قد تَحسَّنَ وأصبحَ عالِ العالِ!.
السّيدُ حمد: آسفٌ لسؤالِيَ الفضوليِّ الغبيِّ!. هل لكَ أسرةٌ مكونةٌ من زوجٍ وزوجةٍ وأولادٍ، هل لكَ أهلٌ من مثلِ أبٍ أو أمٍّ أو إخوةٍ وأخواتٍ، أو أيِّ شيءٍ من هَذا القبيلِ

أو ذاكَ؟!. بطريقةٍ أخرى هل لديكَ مسؤولياتٌ عائليةٌ مزمنةٌ في حياتِكَ ومن بعدِ موتِكَ؟!.
الدكتورُ "مالثوس": طبعاً كانَ لِيَ أمٌّ وأبٌ. لا توجدُ لِيَ زوجةٌ وقد يكونُ لديَّ أطفالٌ لا أعرفُ عنهُمْ!.
السّيدُ حمد: لا أريدُ الخوضَ معكَ أكثرَ، ولا أريد أنْ "أُهديَكَ" إلى طريقةٍ مشرِّفةٍ للإنْجابِ والتكاثرِ!. من موقعِكَ السّلطويِّ والمعتمَدِ حسْبَ وظيفتِكَ وشهاداتِكَ العلميةِ، هل لكَ أنْ تكتبَ لِيَ برسالةٍ تصفُ فيها حالتِيَ وما آلتْ إليهِ الأمورُ عندِيَ من ضعفٍ وتعثُّرٍ. قد أرفِقُ تلكَ الرسالةَ بطلبٍ للحصولِ على مساعدةٍ ماديةٍ من إحدى جَمعياتِ "العنايةِ والرفقِ بالإنسانِ" هنا أو في الخارجِ، في بلدِيَ البعيدِ، ربّما أنَّ ذلكَ سيساعدُنِي في الحصولِ على تعاطفٍ وتفهُّمٍ أكثرَ بشأنِ مساعدةٍ ماليةٍ. لقد نَفِدَتْ طاقتِيَ الماليةُ على دراسةِ موضوعٍ في العلمِ يُؤدي بِيَ إلى لا شيءَ!. أنا آسفٌ جداً لأنّهُ لا توجدُ لديَّ خمسةُ (٥) دقائقَ أو حتى خمسةُ (٥) ثوانٍ للضحكِ أو الحضورِ إلى جلسةِ ضَحِكٍ. مرّاتٍ كثيرةً ومن جحيمِ الحزنِ المفروضِ على حياتِيَ أضحكُ، وبصوتٍ عالٍ يَجلبُ انتباهَ واستغرابَ الناسِ مِنْ حولِيَ عليَّ. كما يبدو أنّهُ في صميمِ ذاكرةِ الأحزانِ عندِيَ والمفعمةِ بصُوَرِ الكوارثِ سابقاً وحالياً ولاحقاً هنالكَ مثلُ قنابلَ ضحكٍ موقوتةٍ وعشوائيةٍ تنفَجرُ من وقتٍ لآخرَ!؛ سأعتمدُ عليها من أجلِ راحةِ أعصابِيَ أو تنفيسِ هُمومِيَ وأحزانِيَ.
كَتَبَ الدكتورُ "مالثوس" رسالةَ توصيةٍ بناءً على رغبةِ السّيدِ حمد هذه في صفحةٍ من الورقِ شبهِ كاملةٍ. أشارَ الدكتورُ "مالثوس" في الرسالةِ أنّهُ ومن واقعِ خبرتهِ العمليةِ ومن دراستهِ العلميةِ ومعاينتهِ للحالةِ فإنَّهُ يعتقدُ أنَّ السّيدَ "حمد أبو جاسر" مصابٌ بـ"عقدةِ الاضطهادِ"، أو كما يقولونَ بالعاميةِ "مُعَقَّدٌ أو عندَهُ عُقدةٌ"!؛ هذا المرضُ النفسيُّ منتشرٌ بشكلٍ رئيسيٍّ في مناطقِ الحروبِ والفوضى والنزاعاتِ الإثنيةِ والسياسيةِ، أضافَ الدكتورُ "مالثوس" في رسالةِ توصيتهِ. إلا أنّهُ أيْ الدكتورُ "مالثوس" يَحثُّ في الرسالةِ من يهمُّهُ الأمرُ على تقديمِ المساعدةِ الممكنةِ لِهذا الشابِ المسكينِ!. وقّعَ الدكتورُ "مالثوس" رسالةَ التوصيةِ تلكَ من قلمِ حبرهِ السائلِ وختمَها بختمِ "عيادتهِ" ودائرتهِ لتبدوَ أكثرَ رسْميةً ونفاذيةً، كما اعتقدَ السّيدُ حمد. قال السّيدُ حمد لنفسهِ أنَّ هذا الطبيبَ النفسانِيَّ "ابنُ حلالٍ"، ها هو يَحثُّ من يهمُّهُ الأمرُ على تقديمِ العونِ لهُ.
كانَ هنالكَ وفي مكانِ إقامةِ السّيدِ حمد عدّةُ أسْماءٍ مأخوذةٍ من مَجلاتٍ وجرائدَ وإعلاناتٍ لأمكنةِ مؤسساتٍ علميةٍ وإنسانيةٍ. من بيْنِ تلكَ المؤسساتِ هنالكَ جَمعياتٌ للرحْمةِ وأهلِها؛ جَمعيةُ "مساعدةِ الضعفاءِ"، جَمعيةُ "حمايةِ الفقراءِ"، جَمعيةُ "إغاثةِ المنكوبينَ"، جَمعيةُ "عونِ المتضرّرينَ"، جَمعيةُ "الأيتام الدوليةِ" (أيتامُ حكوماتٍ)، جَمعيةُ "الإغاثةِ السّريعةِ"، جَمعيةُ "أهلِ القلوبِ الحائرةِ"، جَمعيةُ "العطفِ بلا حدودٍ"، جَمعيةُ "دعمِ المشرّدينَ"، جَمعيةُ "الخيرِ اللا-متناهي"، جَمعيةُ "مساعدةِ العذارى والعوانسِ"، جَمعيةُ "الحبِّ والإخاءِ والسّلامِ"، جَمعيةُ "السّاعينَ إلى الفردوسِ المفقودِ". مَن أسْماءِ تلكَ الجمعياتِ ظنَّ السّيدُ حمد أنَّ كلَّ العناوينِ السّابقةِ تؤهّلُهُ للحصولِ على بعضِ الدعْمِ على الأقلِّ لفترةٍ قد تزيدُ قليلاً عن السّنةِ الواحدةِ فقط. بعثَ السّيدُ حمد إلى مُعظمِ العناوينِ السّابقةِ يسألُ كلَّ جَمعيّةٍ منها على انفرادٍ ويُخبرُ أهلَها أنّهُ فقط بحاجةٍ إلى ما يسُدُّ الرَّمَقَ. كلُّ

العناوينِ التي التمسَ السّيدُ حمد عوناً منها اعتذرتْ عن تقديمِ أيِّ دعمٍ بسببِ الحالةِ الماديَّةِ لَديها، وكثيرٌ منها يبرِّرُ سببَ الاعتذارِ عن تقديمِ العونِ بأنَّهُمْ لا يقدِّمونَ العونَ لأناسٍ "مُعقّدينَ" أيْ عندَهُمْ "عقدةُ اضطهادٍ"!. كمَا يبدو أنَّ المسئولينَ في تلكَ الجمعياتِ لا يريدونَ المُخاطرةَ خوفاً على ضياعِ أموالِهمْ سدىً!. جلسَ السّيدُ حمد مع نفسهِ وقال: "آهٍ عليكَ يا أبوالزهو، عندَما كنّا نعملُ سويَّةً لَمْ يفلتْ! أحدٌ ممَّن نعرفُهُ مُسبقاً، أو مُسبقاً لا نعرفُهُ، منَ حبِّ مساعدتِنا لهُ؛ كان ذلكَ من رصيدِنا الماليِّ في البنكِ الريفيِّ والواقع "بناوُهُ" خلْفَ كرمِ الزيتونِ. ذلكَ البنكُ! الذي كان يديرُهُ ويُموِّلُهُ السّيدُ أبو جاسر (رحِمهُ اللهُ) وعائلتُهُ!. الآنَ يا إلهِيَ ماذا ارتكبتُ من خطايا وآثامٍ حتى تضطرَّني إلى طَلَبِ مساعدةٍ من اللصوصِ المُحترفينَ في الأرضِ على اختلافِ أشكالِهمْ وألوانِهمْ وطرقِهِمْ في عرضِ أنفسِهِمْ!؟. ألا لا نامتْ أعينُ البخلاءِ الجشعينَ على حدِّ رأيِ أبوالزهو".

منذُ أيامِ بيعِ الخضارِ والفواكهِ البلديّةِ واللّبنِ الرائبِ بالتجوالِ في شوارعِ وأزقةِ المدينةِ أيقنَ السّيدُ حمَد ومعهُ أبوالزهو ولَمْ يكونا قد بلغا سنَّ الرشدِ والعملَ القانونييْن! في حينهِ أنَّ الإنسانَ شديدُ الطمعِ وفائقُ الجشعِ. يظلُّ الإنسانُ كذلكَ حتى آخرِ جُرعَةِ هواءٍ في عمرهِ إلى رئتيْهِ؛ كثيرٌ من البشرِ من يستمرُّ على ذلكَ حتى بعدَ طلوعِ روحهِ من جسدهِ، وإلى غيرِ رجعةٍ!.

من قصصِ التاريخِ يُحكى أنَّ أحدَ الإقطاعيينَ الكبارِ جداً والذي كانَت لهُ أراضٍ وأملاكٌ، ربَّما تساوي حجمَ دولةِ الصّينِ حديثاً، أرادَ قُبيْلَ وفاتهِ أنْ يقسِّمَ مُمتلكاتهِ بينَ ولديهِ التوأمينِ فقط. أشارَ إلى أحدِهِمْ قائلاً لهُ أنّهُ سوفَ يعطيهِ ٩٩% من الممتلكاتِ كلِّها، فما كانَ من الابنِ "المدلَّلِ" هذا إلا أنْ سألَ والدَهُ: "ولِمْنِ ستعطي الواحدَ بالمئةِ المتبقّي"؟!. "قابَيلُ" قتلَ أخاه "هابيلَ"! ولَمْ يدفنْهُ تحْتَ الأرضِ بسببِ خلافٍ على قطعةِ أرضٍ، ربّما!، حينَ لَمْ يكنْ غيرَهُما موجودَيْنِ على سطحِ الكرةِ الأرضيةِ كلِّها. قصصُ الطمعِ والجشعِ والبخلِ والأنانيةِ وسوءِ التصرفِ بالأموالِ العامةِ والفسادِ المبنيِّ على أطماعٍ ماليّةٍ بدأتْ منذُ نشوءِ حياةِ الإنسانِ على الأرضِ ولا تنتهي قبلَ يومِ القيامةِ. الطّمعُ والجشعُ متوفّرانِ عندَ كلِّ نسخةٍ بشريةٍ تقريباً بنفسِ المقدارِ مَع الأخْذِ بعينِ الاعتبارِ التأثيراتِ البيئيةِ والتنشئةِ والتعليمِ والتربيةِ.

الشركاتُ وأصحابُها، وما أدراكَ ما الشركاتُ وما أدراكَ ما أصحابُها، أوضحُ دليلٍ على ذلكَ الطّمعِ والجشعِ البشريّيْنِ اللا-محدوديْن. هنالكَ شركاتٌ يبلغُ رأسْمالُها بلْ تُقدَّرُ مُمتلكاتُها بأكثرَ من ألفِ (١٠٠٠) مليارٍ أو تريليونِ دولاراً، تعملُ مثلَ "الثقبِ الأسودِ" حيثُ تَمتصُّ كلَّ ما حولَها من أموالِ الأفرادِ والمَحلاتِ الصّغيرةِ ومتوسّطةِ الحجمِ وحتى الكبيرِ منْها!. حفنةٌ صغيرةٌ من البشرِ ممَّن في هذه الشركةِ يستمتعونَ بالنصيبِ الأكبرِ من هذه الإمكانياتِ الماليةِ والماديةِ الضخمةِ. بقيةُ الموظفينَ ومن العاملينَ حولَهُمْ بالإضافةِ إلى الكتلِ البشريةِ الهائلةِ التي يَمتصّونَ دماءَها، تَحْتَ حمايةِ قانونِ سنَّهُ القويُّ مالياً، يبقونَ في حالٍ لا يُحسدونَ عليهِ مالياً. هؤلاءِ و هؤلاءِ من العمّالِ والمستخدمينَ يعملونَ مثلَ عبيدِ السُّخْرَةِ لولا الأجرُ الزهيدُ الذي يتقاضونَهُ يومياً أو شهرياً. لا يكفي ذلكَ المعاشُ الرمزيُّ لسدِّ الحاجاتِ الأساسيةِ ودفعِ الفواتيرِ الشهريةِ المرسلةِ إليهِمْ من شركاتٍ أخرى، لا تقلُّ ضراوةً في مصِّ الدماءِ عنِ الشركةِ التي يعملونَ لديْها. وحسْبَ الإحصائياتِ والتعداداتِ والدراساتِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ فإنَّ ما لا يقلُّ عن ٩٠% من الاقتصادِ على سطحِ الكرةِ الأرضيةِ مَملوكٌ لأقلَّ من ٥% من السّكانِ وفي طريقهِ لأنْ يصبحَ بيدِ حفنةٍ من البشرِ قد لا تتجاوزُ في العددِ أصابعَ اليدينِ!. في الوقتِ الذي يساهمُ فيه هؤلاءِ ببعضِ التقدُّمِ المَحدودِ في جانبٍ ضيّقٍ من الحياةِ إلاّ أنَّهُمْ المسئولونَ عن التخلُّفِ الهائلِ في الحجمِ الأكبرِ من الكتلةِ البشريةِ جَمعاءَ، وتَحويلِها إلى حقولٍ للتجاربِ مثلَما الحيواناتِ دنَيئةِ القيمةِ!. هذا التوزيعُ الغايةَ في شدةِ الإزعاجِ ناتجٌ عن تركِ الأمورِ لطبيعتِها لتقرِّرَ مصيرَ الثروةِ المَحدودةِ على

سطحِ الأرضِ. ترى في كثيرٍ من الأحيانِ من لا يعونَ في شؤونِ الحياةِ شيئاً بِمقدورِهِمْ التصرفُ بمستقبلِ وَحياةِ مئاتِ المَلايين.

كلُّ شيءٍ يتعاملُ بهِ الناسِ في هذهِ الحياةِ يَتبعُ الآنَ شركةً أو عدداً قليلاً جداً من الشركاتِ تَتحكّمُ بِصناعتهِ وتسويقهِ والترويجِ لـهُ. يقومُ على خدمةِ مالكي الشركاتِ بشرٌ مثلُهُمْ قَبلوا بما أوتوا بهِ على أملِ أنْ يصبحوا أغنياءَ أو فاحشي الغنى فيما بعدُ. شركاتٌ للطائراتِ والسّياراتِ والأدواتِ الصّناعيةِ والزراعيةِ، شركاتٌ للإلكترونياتِ والصّناعاتِ المتصلةِ بها، شركاتٌ للموادِ الكيماويةِ والطبيةِ والحيويةِ، شركاتٌ للمباني الجاهزةِ وشركاتٌ للدفاعِ وأخرى للهجومِ، شركاتٌ للأدواتِ والأصواتِ الموسيقيةِ .... القائمةُ تطولُ في المنتجاتِ وتقلُّ في أعدادِ المالكينَ. يتجمَّعُ رأسُ المالِ في أشكالٍ عموديةٍ على شكلِ ناطحاتِ سحابٍ "ماليةٍ" عاليةٍ وشاهقةٍ في الارتفاعِ. يتسوَّلُ مَن بداخلِ تلكَ البناياتِ وعلى جُنباتِها وأطرافِها المترامِيةِ! مئاتُ الآلافِ مِنَ البشرِ والذينَ تنمو طبقتُهُمْ أفقياً مع مرورِ الزمنِ. تضيقُ دائرةُ الرساميلِ الموزّعةِ على عددٍ مَحدودٍ من الأصحابِ وتعلو هذهِ البناياتُ أكثرَ وأكثرَ. يتبعُ ذلكَ انْحسارُ الروحِ البشريةِ البريئةِ ويصبحُ الإنسانُ عبداً شريراً شديدَ الإخلاصِ لشيطانِ ونزوةِ الثرْوَةِ والغنى الفاحشِ. يصبحُ الإنسانُ عبداً شرساً للعملةِ والمالِ؛ إنّهُ استبدالُ عبادةِ الخالقِ بعبادةِ المالِ، واستبدالُ العقيدةِ الروحيةِ الإنسانيةِ الزاهدةِ بالماديةِ الفطريةِ الشرسةِ، وهنا صحَّ التعبيرُ. الأخطرَ من ذلكَ أنَّ هذه العقليةَ تصبحُ سائدةً حتى بينَ العبيدِ وما عداها مُخطئٌ وغيرَ مُجْدٍ؛ من يطالبُ بتغييرِ هذه النزعةِ أو الحدِّ من جُموحِها فهو شيوعيٌّ أو كافرٌ أو متخلّفٌ أو اشتراكيٌّ "ركونيٌّ" غيرُ قادرٍ على المنافسةِ والظهورِ في السّوقِ الحرِّ!.

في العاصمةِ الماليةِ والصّناعيةِ في البلدِ الذي عاشَ فيه السّيدُ حمد أثناءَ دراستهِ الجامعيةِ رأى بأمِّ عينيْهِ ما يقشعرُّ لهُ جسمُ الإنسانِ في يومٍ حارٍّ وتَحْتَ شَمْسٍ ساطعةٍ. حوالَيْ مائة وخمسينَ (١٥٠) عاملاً يُنقلونَ في حافلةٍ مقطورةٍ مغلقةٍ كبيرةٍ فيها ثلاثةُ أو أربعةُ نوافذَ صغيرةٍ للتهويةِ والحافلةُ غيرَ مُجهّزةٍ بمكيّفِ هواءٍ. بعدَ قليلٍ من السّيرِ تقفُ الحافلةُ لإنزالِ العمّالِ ومن بابٍ في مؤخرةِ الحافلةِ ويقومُ سائقُ الحافلةِ أو بوّابٌ بفتْحِ البابِ لَهُمْ في منظرٍ أقربَ إلى التعاملِ مع الحيواناتِ منهُ إلى أيّةِ حياةٍ إنسانيةٍ. كانَ العمّالُ يغادرونَ الحافلةَ بصمتٍ إلى البنايةِ التي يعملونَ فيها، معظمُ العمّالِ يعملونَ لصالحِ شركةٍ تعملُ في مَجالِ خدماتِ التنظيفِ العامِّ ويتقاضونَ أجوراً غايةً في الضحالةِ. يَمتلكُ تلكَ الشركةَ أحدُ "الأميينَ أخلاقياً واجتماعياً ونفسياً ودينياً" في ذلكَ البلدِ. يُنظَرُ إلى هؤلاءِ العمّالِ كفئرانٍ بشريةٍ ويعاملونَ بناءً على هذه النظرةِ التي صُمِّمَتْ لَهُمْ من أربابٍ تَمَكَّنَ بضربةِ حظٍّ، ربَّما، من أنْ يصبحَ مليارديراً. أينَ العدالةُ في حكمِ الإنسانِ للإنسانِ؟!.

ورأى السّيدُ حمد أشخاصاً لا يتمتّعونَ بأدنى درجاتِ الكفاءةِ الإداريةِ والاجتماعيةِ والإنسانيةِ يَمتلكونَ مَخزوناً ضخماً من آخرِ ما توصَّلَ إليهِ العقلُ البشريُّ لتوريدهِ إلى السّوقِ بأسعارٍ تؤدي بصاحبِ رأسِ المالِ إلى التحليقِ المرتفعِ جداً في سَماءِ دنيا المالِ والأعمالِ. يَمتلكُ ذلكَ الشخصُ أسطولاً من السّياراتِ والطائراتِ ووسائلِ النقلِ في حينِ يعيشُ معظمُ من يعملُ على خدمتهِ على حافّةِ الفقرِ المدقعِ، والعياذُ باللهِ من حالٍ كهذهِ.

وبأمِّ العينِ رأى السّيدُ حمد مطاعمَ فخمةً وجدُّ فاخرةٍ يقومُ على إدارتِها وصيانتِها وحِمايتِها وخدمةِ زبائنِها أناسٌ ليس لَهُمْ فيها حتى موطئُ قدمٍ. للمطعمِ حقٌّ عليهِمْ هو أنّهُ عندَ دخولِهِمْ إليهِ عليهِمُ الدخولُ بخشوعٍ والبقاءُ بخشوعٍ والتصرفُ بخشوعٍ، وإذا لَمْ يتصرفوا بخشوعٍ كافٍ فإنَّ ذلكَ مبرِّرٌ كافٍ لطردِهِمْ منْ تلكَ الوظيفةِ. أعطى مديرُ المطعمِ ذاكَ تعليماتِهِ للعمّالِ أنَّ معاشَهُمْ منَ المطعمِ مَحدودٌ وعليهِمُ استجداءُ البقيةِ من أذواقِ الزبائنِ، شرسةً كانت أم مُحترمةً. عليهِمُ التأقلمُ مع كلِّ الظروفِ المُحيطةِ بإعطاءِ "البخشيش". هذا فيضٌ من غيظٍ ونقطةٌ في واسعِ بَحرٍ ومُحيطِ التصرفاتِ الإنسانيةِ القادمةِ من إعطاءِ الأسواقِ الحريةِ المطلقةِ في رقابِ "الأغنام" من البشرِ.

سرحان: منذُ وفاةِ الوالدِ أبو جاسر، والميولِ الاجتماعيةِ والاشتراكيةِ و"الحقوقِ-إنسانيةِ" عِندَكَ في تعاظمٍ مستمرٍّ، إنْ صحَّ التعبيرُ، وتظهرُ إلى العلنِ. دائماً أنصحُكَ بمتابعةِ خطِّ سيركَ الذي رَسمْتَهُ بنفسِكَ في الماضي. اهتمَّ فقط بعلمِكَ وتحصيلِكَ، وريثما تنتهي مَن تعليمِكَ ليكونَ عندكَ المَجالُ والوقتُ الكافي، ربّما، لعملِ ما يُمكنُكَ عملُهُ.

السّيدُ حمد: يا سيدَ سرحان، في الماضي كان خيالِيَ يسكنُ أبراجاً من عاجٍ. الآنَ بدأتُ أفهمُ ما كان يُحاولُ الوالدُ أبو جاسر أنْ يقنعَني بهِ، وكان الأمرُ في ذلكَ الوقتِ من قبيلِ العبثِ. اليومَ وقد وجدتُ نفسِيَ وسطَ سوقٍ كبيرٍ يتصرفُ فيهِ الناسُ في صورةٍ مصغّرةٍ عن يومِ الحشرِ الكبيرِ. لا أجدُ أيَّ مكانٍ لِيَ في هذا الحشرِ المصغَّرِ، فكيفَ سأجدُ مكاناً لِيَ في يومِ حشرٍ حقيقيٍّ!.

أبوالزهو: اليومَ لسنا كما كنا بالأمسِ القريبِ. نشيخُ بسرعةٍ وتسارعٍ؛ الشيبُ كما تراهُ ينتشرُ في الرأسِ والصّدْرِ والظّهرِ وغيرِها.

سرحان: لا مكانَ بعدَ الآنَ للأفكارِ "الديمو-جهنميةِ" التي تتحدثُ عنْها. لأجلِ الزمنِ الذي لا يرحمُ أحداً، والتاريخِ صاحبِ أعسرِ أنواعِ الامتحاناتِ، والحياةِ الحسنةِ التي أصبحتْ مثلَ أحلامِ إبليسَ في الجنّةِ، أنْ تركزَ على نفسِكَ في عملِكَ. لا تنشغلْ بأمورٍ تافهةٍ من هنا وهناكَ.

كاملةُ وسرحان وأبوالزهو: أنت تُجْهِزُ على ما تبقّى لدينا من أنفاسٍ. يقولُ السّيدُ "أبو نورسال" (أحدُ جلاوزةِ القومبرادور في المنطقةِ) للناسِ هنا في القريةِ بأنّكَ تكذبُ علينا ولا تقومُ بعملٍ أيِّ دراسةٍ في العلمِ في بلادِ الغربةِ البعيدةِ. تقضي أيامَكَ هناكَ بالتلاهي بألعابِ "الأتاري" للأولادِ ("الأتاري" مَجموعةٌ من ألعابِ التسليةِ للأطفالِ والشبابِ على شاشةٍ تلفازيةٍ وتستخدمُ تقنياتِ الحاسوبِ الإلكترونيِّ).

السّيدُ حمد: يا أختِيَ "كاملةُ"، لا أعرفُ ولستُ أدري بهذهِ الألعابِ إلا الآنَ ومن لسانِكِ!. هل تستمعونَ إلى أخبارٍ عنّيَ من أحدِ رموزِ القومبرادور من أمثالِ السّيدِ "أبو نورسال"؟!. ذلكَ يعني أنّهُ لَمْ يبقَ في الدنيا خيرٌ!. أرجو منكَ يا أبوالزهو ويا بقيةَ العائلةِ أنْ لا تقلقوا على واجباتِيَ وأمورِيَ وامتحاناتِيَ الأكاديميةِ. هنالكَ أمورٌ لا يُمكنُ لأيِّ عقلٍ بشريٍّ أنْ يتجاهلَها أو يتهرَّبَ من مواجهتِها. الكارثةُ تتقدَّمُ علينا مثلَ الظلامِ بعدَ زوالِ النهارِ بوقتٍ قصيرٍ. أرجوكَ أنْ تُحافظَ على نَفسِكَ الكفاحيِّ يا صديقِيَ أبوالزهو حتى وإنْ أصبحَ عظمُكَ واهناً والشيبُ يَذري في أنحاءِ جسمِكَ؟!. كلُّنا قصصٌ عابرةٌ من الدنيا مثلُنا مثلَ أحلامِ ليالي صيفٍ؛ أو حتّى مثلَ سحاباتِ صيفٍ عاليةٍ فوقَ سطحِ الأرضِ.

أبوالزهو: "أوكيه سير! OK, Sir!"! تَمامٌ، سأصغي إليكَ؛ نوِّرْنا أكثرَ في أواخرِ عُمْرِنا!.
السّيّدُ حمد: مثلاً، يا أبوالزهو، عندما أشربُ قَنّينةً من الماءِ الغازيِّ، فوراً يذهبُ ثَمنُها وبِسرعةِ البرقِ إلى مكانِ تَجميعِ الأموالِ في العاصمةِ الرأسْماليةِ للدولِ والعالَم. إنْ تشترِ غياراً داخلياً! بَثمنٍ معيَّنٍ يذهبْ هذا المالُ على قلتهِ إلى جيبِ شخصٍ واحدٍ في هذه الدولةِ وهذا العالَم. أنْ تأكلَ شطيرةً في مطعمٍ شعبيٍّ منعزلٍ لترى أنَّ ثَمنَها طارَ عبْرَ أمواجِ الأثيرِ إلى عنوانِ أحدِ عُتاةِ الرأسْماليينَ القلّةِ المتواجدينَ في إحدى بقاعِ الأرضِ المزدَهرةِ مالياً. إنْ تركبْ! سيارةَ أجرةٍ، فالأمرُ نفسُهُ حيثُ تذهبُ الأجرةُ إلى نفسِ العاصمةِ الماليَّةِ . تَتَجمَّعُ الأموالُ في أكوامٍ قليلةِ العددِ كبيرةِ الحجمِ ولأناسٍ يُعدّونَ على الأصابع. شركةُ "سوئونيسوئو" العالَميةُ للمشروباتِ الغازيةِ، شركةُ "حُمُرٌ كالدمائم" للنقلِ، شركةُ "وينطلقو" لإطاراتِ السّياراتِ، شركةُ "هاليفسي" للملابسِ الجاهزَةِ وشركةُ "ضعوها على رؤوسِكُمُ"! للأحذيةِ ..... والحبلُ على الجرّار. بِحقِّ السّماءِ مَنْ أمَرَ بهذا وذاكَ؟!.
"هيما": ولِماذا يَختلفُ عقلُكَ عن هؤلاءِ البشرِ كلِّهِمُ؟، أو كما يقولونَ: "قِصَرُ ذيلٍ يا أزعرُ"!؟ (مثلٌ شعبيٌّ للذي لَمْ يتمكَّنْ من الحصولِ على ما يريدُ عن طريقِ هزِّ الذيلِ أو النفاقِ). آملُ أنْ تصبحَ يوماً ما غنياً وعندَكَ عدةُ شركاتٍ ولنرى تلكَ الكوارثَ التي تَنتظرُ البشريةَ من غناكَ وشركاتِكَ. لكنَّ الحظَّ سَتّرَ، لا تستطيعُ اقتناءَ حذاءٍ راقٍ بعضَ الشيءِ. لا تقلْ ليَ أنَّ السّببَ عائدٌ أصلاً إلى عصابةِ السّيدِ "بَولاكْ"، إنْ بقيَ الأخيرُ على قيدِ الحياةِ حتى الآنَ.
السّيدُ حمد: لن يكونَ لديَّ شركةٌ كهذهِ أو تلكَ. لا أريدُ أنْ أدخلَ عواصمَ المالِ والأعمالِ برصيدٍ مصرفيٍّ كافرٍ. أنا كادحٌ ابنُ كادحٍ، فخورٌ بتناولِ أكلِيَ من عرقِ جبينِيَ. لا تقلْ لِيَ أنّني آكلُ منَ تعبِ وعرقِ أبوالزهو. لقد عِشْنا ورَبينا مع بعضٍ نتبادلُ المنفعةَ والأدوارَ. ما يقومُ بهِ أبوالزهو لمْ أقدرْ على القيامِ بهِ، والعكسُ صحيحٌ. أحاولُ فقط تَحسينَ وضعِ العالَمِ الماديِّ والمعنويِّ والاجتماعيِّ والنفسيِّ.
سرحان: أريدُ أنْ أسألَكَ سؤالاً كانَ يراوِدُنيَ منذُ بدأْنا بالحديثِ معكَ. إذا ما كانَ من شيءٍ مقنعٍ في كلامِكَ! لِماذا إذن يقومُ رؤساءُ الدولِ وحكّامُها بالتسابقِ في تعميمِ ظاهرةِ الخَصخصةِ في دولِهِمْ وعلى شعوبِهِمْ؟!. هل هُمْ بذلكَ على درجةٍ من الغباءِ المطبقِ يسوقونَ فيها شعوبَهُمْ إلى "مذبحِ الخصخصةِ" والتي كما يبدو لن يرحَمَ رقبةَ أحدٍ من الخلقِ بسببِ جَشَعِ وطمعِ قلَّةٍ من البشرِ المسيطرينَ على الأمورِ الماليةِ؟!.
السّيدُ حمد وأبوالزهو: ها قد أَجَبْتَ بنفسِك يا سيدَ! سرحان على سؤالِكَ. ذلكَ لأنّهُ من السّهلِ على الإنسانِ أنْ يضعَ سكّينَ الذبحِ على رقابِ كلِّ الخلقِ، كما يفعلُ بالأغنامِ، من حولِهِ طالَما أنّهُ على قناعةٍ تامةٍ أنَّ ذلكَ السّكّينَ لنْ يصلَ يوماً إلى رقبتِهِ!. لن يعرفَ ذلكَ الإنسانُ الجَشِعُ معنى هذا الكلامِ إلا في حالةِ ظهورِ إنسانٍ آخرَ أكثرَ جَشعاً منهُ يعاملُهُ بالطريقةِ ذاتِها التي يتعاملُ بها الأوّلُ مع الخلقِ ولفترةٍ طويلةٍ تَجعلُهُ يشعرُ مع بقيةِ الخلقِ من ضحاياهُ. ها قد بدأتَ يا سيدَ! سرحان تستعملُ عقلَكَ أكثرَ من ذي قبلُ!.
أبوالزهو: آهِ يا صديقِيَ! حمد عندما تتطابقُ أفكارُنا!، أيا ليتَ عمريَ يطولُ ويعودُ إليَّ بعضُ شبابِيَ على الأقلِّ؛ أريدُ أنْ أراكَ تُحققُ ولو بعضاً مِمّا تصبو إليهِ في

حياتيَ القصيرةِ. أتَمَنّى أنْ يكونَ ذلكَ قبلَ يومِ المغادرةِ! ولو بقليلٍ من الزمنِ. يسيرُ الكونُ كلُّهُ باتّجاهٍ وتسيرُ وحيداً باتّجاهٍ آخرَ.
"هيما": لننسَ موضوعَ الأيديولوجياتِ الآنَ. أخبرْنا عن أخبارِ الطربِ والموسيقى؟! ... الموسيقى أشكالٌ وألوانٌ في تلكَ البلادِ ... أحبُّ موسيقى "الروك أند رول" و"الجاز" و .... "مايكل جاكسون"!.
أبوالزهو: أحبُّ الطربَ الأصيلَ ... أبقى معكَ يا رفيقَ العمرِ ما دمتُ حيّاً!.
السّيدُ حمد: آهٍ... سَأسْمعِكُمْ شيئاً من فرقةِ "مارسيل والفنانةِ أميمة الخليل"... ... دن نن دنن دندن دا دا دن دندن.... مرَّ القطارُ سريعاً كنتُ أنتظرُ..... وانصرفَ المسافرونَ إلى أيامِهِمُ....
"كاملة": وأنا ما زلتُ أنتظرُ!....
السّيدُ حمد: آه.... آه.... آه.... .... آه..
"كاملة": كانَ الحنينُ إلى أشياءَ غامضةٍ.... كان الحنينُ إلى أشياءَ غامضةٍ... آه... ينأى ويدنو... ويدنو وينأى..... فلا النسيانُ يُقصيني ولا التذكُّرُ يُدنيني من امرأةٍ إنْ مسّها قمرٌ!... صاحت: أنا القمرُ القمرُ القمرُ....

احتكارُ استغلالِ العناوينِ الكبيرةِ

نرى ونسمعُ كلَّ يومٍ وكلَّ ساعةٍ من يَمتدحُ وحتّى يتغنّى باحترامِ حقوقِ الإنسانِ في البلادِ المتقدّمةِ؛ المتقدّمةِ صناعياً وتكنولوجياً، بتعبيرٍ أصحَّ. وإذا ما جلسَ شَخصٌ من البلدانِ الناميةِ مع شَخصٍ آخرَ مقيمٍ أو عاشَ ولَو قليلاً في تلكَ البلادِ ليراهُ يتباهى بما أحرزَ في تلكَ البلادِ من تقدُّمٍ في هذا المَجالِ أو ذاكَ، بالأخصِّ حقوقِ الإنسانِ وحتّى الحيوانِ والبيئةِ. بعدَ نظرةٍ ولَو سطحيةٍ للأمورِ ليجدَ المرءُ أنَّ هذهِ كَذبةٌ مشابِهةٌ لكذبةِ "حصانِ طروادةَ"، بل أشدَّ فتكاً، عندَما الجنودُ الغازونَ أوهَموا المواطنينَ المُحاصرينَ وجنودَهُمْ بأنَّ ملكَ الدولةِ الغازيةِ قد أهداهُمْ حصاناً معدنياً كبيراً من أجلِ حملِهِمْ على قبولِ السّلامِ والاستسلامِ. بعدَ ذلكَ تَمَّ اختراقُ

المدينةِ المُحاصرةِ ببضعةِ جنودٍ كانوا يَختبئونَ في جسمِ ذلكَ الحصانِ الدميةِ!. لا يَختلفُ الوضعُ كثيراً في هذه الحالةِ.

لا يوجدُ الحدُّ الأدنى من احترامِ حقوقِ الإنسانِ في الدولِ الصّناعيةِ؛ هنالكَ فقط احترامُ حقوقِ الإنسانِ الغنيِّ الحاكمِ القويِّ القادرِ والمتمكّنِ من رقابِ وبطونِ وقلوبِ ما حولَهُ. كلُّ قوانينِ الدولةِ تَسيرُ لصيانتهِ واحترامِ حقوقهِ؛ تعيشُ بقيةُ الناسِ من بقايا بُحاثِ أموالِ وأمنِ وسلامةِ! تلكَ المَجموعَةِ. أينَ احترامُ حقوقِ الإنسانِ لبعضِ البشرِ في الدولِ الصّناعيةِ الذين يُعَدّونَ بالملايينِ وعشراتِ الملايينِ؟؛ ينامُ هؤلاءِ الملايينُ ويسكنونَ في العراءِ ومعظمُهُمْ بجانبِ أَمكنةِ تَجميعِ النفاياتِ، لعدمِ تَمكُّنِهِمْ من تأمينِ مسكنٍ وملبسٍ ومأكلٍ مناسبٍ!؟. أينَ هي حقوقُ الإنسانِ عندَما تكثُرُ حالاتُ الفَقرِ المدقعِ لتصِلَ إلى أكثرَ من ٥٠% من سكانِ المدينةِ في حينٍ يتمركزُ عددٌ قليلٌ من البَناياتِ في مركزِ المدينةِ، بناياتٌ شاهقةُ الارتفاعِ يعملُ مَن فيها كما لو كانوا أعضاءَ في "مَحاكِمِ تفتيشٍ ماليّةٍ" معلنةٍ وغيرِ معلنةٍ ضدَّ الفقراءِ والمعوزينَ من بني البشرِ. حتّى أنَّ هؤلاءِ الذينَ يقومونَ على خدمةِ وتشغيلِ مرافقِ وصيانةِ تلكَ البناياتِ هُمْ موظفونَ كلُّهُمْ من ذوي الدخلِ المَحدودِ جداً!. إنَّ توزيعَ الثروةِ البائسِ هذا لأكبرُ دليلٍ على عَقَمِ ما يسمّى أو يطلقُ عليهِ اسْمَ أنشطةِ حقوقِ الإنسانِ في التعاملِ مع الواقعِ في تلكَ البلادِ؛ تلكَ البلادُ التي شهدت نشوءَ هذهِ الفكرةِ فيها بالشكلِ الإعلاميِّ اللافتِ للنظرِ والمتباهى بهِ الذي نراهُ. هنالكَ فقراءُ كثيرونَ في الدولِ الناميةِ ولكنَّ ذلكَ ناجمٌ عن شحٍّ كبيرٍ في الموارِدِ وسوءِ إدارةِ المسئولينَ في توزيعِ هذه الثروةِ الشحيحةِ والتي هي أيْ طريقةُ الإدارةِ مقتبسةٌ ومستوردةٌ في الأصلِ من البلادِ الصّناعيةِ المتطورةِ تكنولوجياً. أقلَّ من ١٠% من البشرِ يسيطرونَ على مقدَّراتِ الأرضِ، تَحرسُهُمْ الجيوشُ المُجيَّشةُ وأجهزةُ الأمنِ "المُسَيَّسَةُ" وقوانينُ حقوقِ ما يسمّى بالمِلكيةِ الفكريةِ والاختراعِ والإبداعِ. بنودُ قوانينِ تَخدمُ القويَّ مالياً على حسابِ المسكينِ المعدمِ مالياً ومادياً ومعنوياً. من بعيدٍ! نَرى ما ظهرَ من تلكَ الحضارةِ "البرّاقةِ" فوقَ سطحِ الأرضِ، ومن طبيعتِنا أنْ نقيسَ تقدُّمَ المُجتمعِ بحسْبِ علوِّ بضعِ بناياتٍ في المدينةِ. لَمْ يترِكْ البشرُ متسعاً من الوقتِ للتفكيرِ في الكوارثِ وتَحليلِ الواقعِ المريرِ بأكملهِ الذي تعيشُهُ تلكَ المُجتمعاتُ نتيجةَ السّياساتِ الاقتصاديةِ والاجتماعيةِ "المجَحفةِ" بحقِّ البشرِ أنفسِهِمْ.

الدولةُ "الحديثَةُ" غيرُ مستعدةٍ للتضحيةِ بشيءٍ من قوانينِ أنظمتِها الرأسْماليةِ المتسلطةِ لِحسابِ أفكارِ طبقةٍ من المفكرينَ الاجتماعيينَ أو الاشتراكيينَ أو الإصلاحيينَ أو حتّى لبعضِ رجالِ الدينِ المتنوّرينَ؛ اللهُمَّ إلا في حالاتٍ سطحيةٍ بسيطةٍ جداً لرفعِ اللومِ والعتابِ والاستفادةِ الإعلاميةِ من ذلكَ. ليسَ هنالكَ أيّةُ مُحاولةٍ جذريةٍ جادّةٍ لإصلاحِ الخللِ الكبيرِ في توزيعِ الثروةِ والاستفادةِ منها بينَ بني البشرِ.

القِسمُ الأكبرُ من مشاكلِ العالَمَيْنِ الثالثِ والرابعِ السّياسيةِ المستعصيةِ تعودُ أسبابُها إلى التدخلِ الخارجيِّ المتوارثِ من الدولِ الصّناعيةِ عندما كانت الأخيرةُ تستعمرُ تلكَ الدولَ، الصّغيرةَ منها والكبيرةَ في الحجمِ. هنالكَ النزاعاتُ العرقيةُ والقبليةُ والحدوديةُ وتقاسمُ المياهِ والأجواءِ والاختلافاتُ الدينيةُ والمذهبيةُ والمنازعاتُ على المصادرِ الطبيعيةِ للثروةِ والتي تركتْها الدولُ الاستعماريةُ مثلَ

قنابلَ موقوتةٍ متفجرةٍ خلفَها. تَخلُقُ تلكَ النزاعاتُ أزماتٍ مزمنةً تُبقي هنالكَ حاجةً مزمنةً لتواجدٍ استعماريٍّ في تلكَ المناطقِ. بعبارةٍ أخرى إنَّ ما يُمكنُ أنْ تُسمّى مشكلةً سياسيةً هي في الواقعِ من إنتاجِ "أرحامٍ وأعضاءٍ! (جَمعُ عضوٍ)" التدخلاتِ الخارجيةِ؛ وإذا ما تُركَ الأمرُ لتلكَ الدولِ الصّغيرةِ أو الفقيرةِ لأمكنَها التخلصَ من تلكَ النزاعاتِ عن طريقِ تسويةٍ دائمةٍ توفّرُ الحدَّ الأدنى على الأقلَّ من رضا الطرفينِ حولَ النزاعِ!.

وماذا عنَ اللجوءِ السّياسيِّ وقبولِهِ في تلكَ الأنظمةِ الراقيةِ. اللجوءُ السّياسيُّ في معظمهِ طريقةٌ وذريعةٌ للتدخُّلِ في شئونِ الدولِ الناميةِ مهما تكنْ تلكَ الدولُ صديقةً للدولةِ المستضيفةِ للاجئينَ السّياسيينَ. إذا ما وصلتْ أعدادُ اللاجئينَ السّياسيينَ، الحقيقيينَ والمزيّفينَ، إلى ما يُمكنُ أنْ يشكِّلَ فيلقاً عسكرياً مقاتلاً، حينئذٍ تكونُ الدولةُ الضحيةُ مثلَ قطعةٍ من الكعكِ صالحةٍ للتناولِ من قِبَلِ الدولةِ أو الدولِ القويةِ. أصبحتْ منظمةُ العفوِ الدوليةِ وأصبحَ حقُّ اللجوءِ السّياسيِّ حصانانِ (أو فرسٌ وحصانٌ أو أتانٌ وحمارٌ أو بقرةٌ وثورٌ، على التوالي لكلٍّ منها إنْ صحَّتْ التعبيراتُ) آخرانِ "طرواديّانِ". لكنَّ هذيْنِ "الحيوانيْنِ" هذه المرّةَ قد يُحَمَّلانِ جنسياتٍ وعناوينَ "مزدوجةً" مقابلَ خدمةِ البلدانِ الصّناعيةِ و"مشروعاتِها السّياسيةِ"، وعلى حسابِ الشعوبِ الضعيفةِ، مثلَ سيفٍ مسلَّطٍ على رقبةِ الدولةِ الناميةِ الضحيةِ.

سرحان: هاتِ مِمّا عندَكَ. أخبرْنا عن آخرِ مصادرِ الشقاءِ والبلوى وزيادةِ الهمومِ!.

السّيدُ حمد: أنا نادمٌ! يا أخِيَ سرحان علىَ أنَّني لَمْ أصغِ لدعوةِ أبوالزهو لِيَ عندَما كنتُ في باكورةِ أيامِ المدرسةِ، عندَما دعانِي لكيْ أتركَ غرفةَ الدرسِ وأتبعَهُ لنلهوَ بجمْعِ المالِ. نَصَحَنِي! بعدمِ إضاعةِ الوقتِ بدروسٍ أشبهَ ما تكونُ بجلساتٍ لتخديرِ العقلِ والعصبِ والفكرِ والوجدانِ، هذا إنْ لَمْ تَعملْ على إحداثِ شللٍ لا-رجعيٍّ (Irreversible) فيها جَميعاً!.

أبوالزهو: ها.....ه! ... لقد أدركتُ منذُ أوّلِ سنةٍ في تعليمِكَ في المدرسةِ أنّهُ لا فائدةَ من كلِّ هذا التعليمِ الذي قضيتَ الآنَ على حياتِكَ ومستقبلِكَ من أجلِ التقدُّمِ فيهِ!.

السّيدُ حمد: لا لا لا.. أبوالزهو! الفائدةُ كبيرةٌ ولكنَّ المردودَ الماليَّ ضعيفٌ جداً يكادُ يساوي أقلَّ من صفرٍ في غالبِ الأحيانِ. وكلّما تقدمتُ في التّعليمِ كلَّما اقتربتُ أكثرَ من الحصولِ على لا شيءَ، لا غالباً ولا مغلوباً!. أجاهدُ الآنَ للحصولِ على الصّفرِ ليلاً نهاراً.

"كاملة": إذا ما كنت تُجاهدُ للحصولِ على الصّفرِ في تلكَ البلادِ الغنيةِ، نُحاولُ هنا أنْ لا نَموتَ وأيدينا مُمتدةٌ من نعوشِنا للاستعطاءِ والشّحاذةِ!.

"هيما": فوقَ ذلكَ فإنَّ كلَّ مشاكلِنا الماليّةِ واقعةٌ بسببِ تعليمِكَ. عليكَ أنْ تصحوَ! على نفسِكَ وتُحاولَ أنْ توَمِّنَ مصدراً للعيشِ يَحفظُ لكَ كرامتَكَ. لتنْسَ أنّنا هنا؛ لا عليكَ! حتّى لو ذهبْنا بستينَ داهيةٍ!. هل منَ المعقولِ أنّهُ كلَّما حضرتَ إلى هنا أو تكلّمَنا بالهاتفِ أنْ تَجرفَ على ظهورِنا ورؤوسِنا هُمومَ الدنيا ومشاكلَها؟؛ هل نَحْنُ بِحاجةٍ إلى مشاكلَ جديدةٍ؟!.

السّيدُ حمد: لا أبْحثُ عن ويلاتٍ وهُموم؛ إنّها موجودةٌ وقائمةٌ وتكبرُ مع الزمنِ، لا تصغرُ أو تضمحلُّ. هي مزمنةٌ وأكثرَ رَسوخاً حتى من شجرةِ البلّوطِ المعمرةِ على ظهرِ الجبلِ التي تُطِلُّ علينا كلَّ يوم صباحاً ومساءاً؛ حاشى للتشبيهِ!.

أبوالزهو وسرحان: ستبقى هذه المشاكلُ قائمةً على رأسِكَ طالما أنّكَ تُحاولُ حلَّ المشاكلِ الناجمةِ عن تطبيقِ النظامِ الرأسْماليِّ على العالَمِ والبشرِ والبيئةِ!. لِماذا تظلُّ تناطحُ تلكَ المشاكلَ برأسِكَ؟!.

السّيدُ حمد: لا أكادُ أنامُ دقائقَ معدودةً من ليلِيَ؛ أئِنُّ تَحْتَ وطأةِ قصفِ الأهوالِ القادمةِ من التعاطي مع أصحابِ رؤوسِ الأموالِ خاصةً الكبيرةِ منها.

سرحان: لَمْ أكدْ أصدّقُ أننا انتهينا من مَشاكلِكَ في الدولِ الناميةِ والفقيرةِ حتى تدخلَ في متاهاتٍ جديدةٍ مع نظامٍ عالَميٍّ كاملٍ مسيطرٍ. هذه أكبرُ "عباطةٍ" وغباءٍ تمرّانِ علَيَّ في حياتِيَ. لِماذا لا تُنَصِّبُ نفسَكَ إلهاً للمحرومينَ والفقراءِ والضِّعفاءِ والمستضعفينَ والمساكينَ وأصحابِ الحظوظِ البائسةِ، "المُعَتّرينَ" (المتعثّرينَ) على حسبِ تعبيرِ الوالدةِ أم جاسر. أعطِ نفسَكَ فسحةً من الوقتِ للراحةِ، حرصاً على صحتِكَ على الأقلّ.

السّيدُ حمد: دائماً وأبداً! أحاولُ أنْ أجدَ ولو دقائقَ أجلسُ فيها مع نفسِيَ، لكنّي أؤكّدُ لكُمْ أنّني لا أستطيعُ ذلكَ على الإطلاقِ. الزمنُ يهاجِمُني بأنيابِهِ الطويلةِ الحادةِ، ليصرعَنِي وينهيَ وجودِيَ وليلقِيَ بِيَ في أحسنَ الأحوالِ على قارعةِ الطريقِ، بينَ القاذوراتِ وأوهامِ الخلاصِ من تلكَ الهمومِ والمشاكلِ. أخشى يا جماعةُ! أنْ لا أجدَ مكاناً خيراً من جانبِ حاويةِ مهملاتٍ مُحاولاً البحثَ عن لُقيماتٍ متسخةٍ لتبقيَنِيَ على قيدِ الحياةِ والأملِ على الأكثرِ.

"فَلْحَة": أكادُ لا أصدّقُ ما أسْمعُهُ؛ أنتَ الذي ستحصلُ على أعلى شهادةٍ علميةٍ، وفي دولةٍ قويةٍ اقتصادياً وعلمياً وسياسياً، أنت الذي طالَما تغنَّيْتَ بالحريةِ والثوريةِ واللا-انْحناءَ أمامَ الكوارثِ والمآسي، نراكَ تَهربُ كالفأرِ الذي تتجمَّعُ حولَهُ "الأصَلاتُ" من الأفاعي الجائعةِ. يا ابنَ آدمَ! كلُّ الناس الّذين ذهبوا إلى هناكَ يقولونَ أنَّهُمْ يعيشونَ في جنَّةٍ على الأرضِ؛ لِماذا تتحوَّلُ الجنَّةُ عندَكَ إلى جحيمٍ لا يطاقُ. يا رجلاً!، ارجعْ إلى رشدِكَ؛ ما خطبُكَ؟ هل تتناولُ أقراصاً للهلوسةِ أو موَادَّ تثيرُ التشاؤمَ في النفسِ والروحِ؟!.

السّيدُ حمد: لقدِ استطَعتُ أنْ أفسِّرَ وبعدَ زمنٍ طويلٍ وعلى أرضِ الواقعِ لِماذا امتعضتْ الملائكةُ من خَلْقِ الإنسانِ واستخلافِهِ على الأرضِ!.

أم جاسر: لأنَّهُ يعيثُ في الأرضِ فساداً وخسراناً للغيرِ وأنانيةً ويُمارسُ الكذبَ والتلفيقَ وشهادةَ الزورِ والبُهتانَ والظلمَ والاعتداءَ على حقوقِ الآخرينَ. وهل كانَ هذا صعباً تفسيرُهُ عليكَ؟!. كلامٌ دائماً نسمعُهُ منذُ يومِ خُلقنا وحتى آخرَ دقيقةٍ في حياتِنا من "إمامِنا" هنا في القريةِ!، ولسنا بحاجةٍ للحصولِ على شهادةِ دكتوراه لِمعرفتهِ!.

السّيدُ حمد: وقائمةُ المعاصي والموبقاتُ تطولُ يا أمِّيَ العزيزةَ حتى يصلَ الإنسانُ إلى تشكيلِ جَمعياتٍ، يسمّيها جَمعياتِ حقوقِ إنسانٍ وعفوٍ دوليةٍ وجَمعياتٍ مراقِبةٍ لِجمعيةِ حقوقِ الإنسانِ السّابقةِ وأخرى مراقِبةٍ للعفوِ الدوليةِ السّابقةِ ... وأخرى مراقِبةٍ لسابقَاتِها ... وهكذا دواليكِ!. ينتهي بهِ الأمرُ إلى التدخلِ في شؤونِ تلكَ

الدولِ لِحمايةِ! حقوقِ أهلِها في حينِ أنهُ، هو نفسَهُ، "شيخُ" المعتدينَ على حقوقِ الآخرينَ.
أبوالزهو: لننسَ هُمومَ العالَمِ قليلاً. أسْمِعْنا يا رفيقِيَ حمد بعضاً من أغاني أو موسيقى من البلادِ التي تعيشُ فيها؛ لا بدَّ أنّكَ تأثّرتَ ولو قليلاً بِما حولَكَ هناكَ.
السّيدُ حمد: أهديكَ يا أحلى صديقٍ لِيَ يا أبوالزهو والأهلِ جَميعاً أغنيةَ "يا عشبَ بلادِيَ الأخضرَ "Green, Green Grass of Home" للمغنّي "كورلي بوتْمانْ "Curly Putman". وعسى أنْ تنالَ وأدائِيَ لَها إعجابَ الجميعِ هنا....
دن رنِ فا فا فِا فا ..... (ملاحظةٌ: ترجَمةُ الكلماتِ هنا حَرفيّةٌ وليستْ شعريّةً أو غنائيةً أو أدبيةً)

(Green, Green Grass of Home **!يا عشبَ بلادِيَ الأخضرَ)**

The old home town looks the same **(بدتْ بلدتِيَ القديمةُ كما كانت)**
As I step down from the train **(عندما خرجْتُ من القطارِ)**
And there to meet me is my mama and papa **(وهناكَ لألتقِيَ بأبِيَ وأمِّيَ)**
Down the road I look, and there runs Mary **(وفي عرضِ الطريقِ نظرْتُ، كانت "ماري" تسعى)**
Hair of gold and lips like cherries **(الشعرُ ذهَبِيٌّ والشفاهُ بلونِ الكرزِ)**
It is good to touch the green, green grass of home **(جَميلٌ لَمسُ عشبِ موطنِيَ الأخضرَ)**
Yes, they will come to meet me **(نعمْ، سوفَ يأتونَ لاستقبالِيَ)**
Arms reaching smiling sweetly **(الأذرعُ مُمتدّةٌ ومبتسمونَ بلذّةٍ)**
It's good to touch the green, green grass of home **(جَميلٌ لَمسُ عشبِ بلاديَ الأخضرَ)**
The shade of that oak tree **(جَميلٌ ظلُّ شجرةِ البلّوطِ)**
As they lay me beneath the green, green grass of home **(عندَما يلقونني في عشبِ بلادِيَ الأخضرَ)**
The old house is still standing **(البيتُ القديمُ لا يزالُ منتصباً)**
Though the paint is cracked and dry **(لكنَّ الدّهانَ جافٌّ ومتشقّقٌ)**
And there is that old oak tree that I used to play on; **(وهناكَ شجرةُ البلّوطِ الهرمةِ والتي اعتدتُ اللعبَ عليها)**
Down the lane I walk with my sweet Mary **(وفي الشارعِ أسيرُ مع حبيبتِيَ "ماري")**
Hair gold and lips like cherries **(بشَعْرِها الذهبِيِّ وشفاهِها الكرزيةِ)**

It is good to touch the green, green grass of home **(رائعٌ لَمسُ العشبِ الأخضرِ في موطنِيَ)**

Then I awake and look around me **(بعدَها استيقظتُ لأنظرَ من حولِيَ)**
At four grey walls that surround me, **(على الجدرانِ الرماديةِ الأربعةِ تُحيطُ بِيَ)**
And I realize that I was only dreaming, **(تبيّنَ لِيَ أنّني فقط في حُلْم)**
For there's a guard and there's a sad old padre
حارسٌ وكانَ هنالك شيخٌ عجوزٌ متديّنٌ)
(لأنّهُ كانَ هنالكَ
Arm in arm we'll walk at daybreak **(يداً بيَدٍ سنسيرُ عندَ بزوغ الفجرِ)**
Again I'll touch the green, green grass of home.
(مـرّةً أخـرى، سـأَلْمسُ اللـونَ
الأخضرَ لِموطنِيَ)

أبوالزهو: آه .... The Green, Green Grass of Home
السّيدُ حمد: عافيةٌ عليكَ يا أبوالزهو لقد حفظتَ الأغنيةَ ولَمْ أنتهِ من أدائِها بعدُ.
أبوالزهو: لا عليكَ بالنسبةِ للأغاني الجميلةِ، وخاصةً من النوعِ الذي يَحتوي اللونَ الأخضرَ والصّادرِ من القلبِ وعمقِ الإحساسِ؛ أحفظُها بمجرّدِ تكرارِها قليلاً بعضَ الشيء.

الدراسةُ والبحثُ مُستمرّانِ

كلُّ المُحاولاتِ التي بذلَها السّيدُ حمد لزيارةِ مركزِ أبْحاثٍ أو دراساتٍ عُليا ذي شأنٍ مرموقٍ أو حضورِ مؤتمرٍ علميٍّ متخصِّصٍ في مَجالِهِ باءتْ بالفشلِ ولَمْ تلقَ أذنَاً واحدةً صاغيةً. طوالَ وجودِهِ في تلكَ البلادِ الغنيةِ جدّاً بالمؤتَمراتِ والوُرَشِ والنشاطاتِ العلميةِ والعالَميةِ لَمْ يتمكّنْ من الذهابِ إلى أحدِها. السّببُ في ذلكَ وقوعُهُ تَحْتَ إشرافِ من لا يعرفُ أو يتجاهلُ عامداً متعمّداً قيمةَ المعرفةِ العلميةِ الروحيةَ والنفسيةَ والمعنويةَ، حتّى وإنْ حَمَلَ شهادةً علميةً متقدّمةً. لدى معظمِ الذين لَمْ يذهبوا بعيداً في التعليمِ روحاً علميةً ورياضيةً في العلمِ أكثرَ من معظمَ الذينَ يَظُنُّ عامَّةُ الناسِ أنّهُمْ قطعَوا شوطاً كبيراً في التعليم. أثناءَ مُحاولاتهِ اليائسَةِ للذهابِ إلى أيٍّ من تلكَ المراكزِ العلميّةِ كانَ الوضعُ للسيدِ حمد مثلَ عصفورٍ جريحٍ يُحاولُ أنْ يفلِتَ من يدِ ولدٍ صغيرٍ يريدُ أنْ يلهوَ بالقبضِ على ذلكَ العصفورِ؛ يساعدُ ذلكَ الأنانيَّ الأحْمقَ في ذلكَ، القانونُ الغبيُّ أو استخدامُ المشرفِ الأكاديميِّ

الأرعنِ للقانونِ والسّلطةِ والصّلاحيةِ. وفي حديثٍ للسيدِ حمد مع المشرفِ الأكاديميِّ لهُ، الدكتور "بوهير"، في جامعةِ "اسْمارْتيزْ" دارَ الحديثُ التالي في مكتبِ الأخيرِ:
السّيدُ حمد: أريدُ الوقوفَ على قدمَيَّ في العلمِ عن طريقِ التعرُّفِ على علماءَ وعاملينَ جُدُدٍ في هذا المَجالِ. بعبارةٍ أخرى أريدُ أنْ أرى النورَ، أيَّ نورٍ في هذا الظلامِ التعليميِّ!.
الدكتورُ "بوهير": لقد بذلتُ جهوداً كبيرةً طوالَ حياتِيَ للحصولِ على مكانٍ ولو مؤقَّتٍ في أيٍّ منَ المراكزِ العلميةِ المتقدّمةِ؛ لكنَّ أشخاصاً مثلِيَ يُضحّونَ منْ أجلِ السّلامِ والحريةِ وحقوقِ الإنسانِ غيرُ مرغوبٍ بهم في تلكَ المراكزِ. التزمْ بكُتبِكَ ودفاترِكَ ولا تُحاولْ أنْ تشبَّ عنِ الطوقِ!.
السّيدُ حمد: عن أيِّ طوقٍ تتحدّثُ؟!، ما السّرُّ أو الطوقُ السّريُّ الموجودُ في معرفةِ أصلِ النجومِ والمادةِ والأجسامِ أو الجُسيماتِ الدقيقةِ؟!. هذا العلمُ مفتوحٌ للجميعِ ويُطرحُ في كافّةِ أوجهِ النقاشِ والأحاديثِ العلميةِ العامةِ والخاصّةِ. الأسرارُ كلُّها موجودةٌ عندَ من يَجِدُّ ويَجتهدُ أكثرَ!.
الدكتورُ "بوهير": معظمُ الذين تطرقُ بابَهُمْ للدخولِ إلى تلكَ المراكزِ لا يعرفونَ الكثيرَ عن الفضاءِ الخارجيِّ ولا حتى الداخليِّ. لديهمْ تقسيماتٌ ومُجسّداتٌ وأطيافٌ معينةٌ يسيرونَ عليها، إذا ما كانتْ حالتُكَ وصِفاتُكَ بمجملِها لا تتفقُ معَ تلكَ التصنيفاتِ، سيرفضُكَ الحاسوبُ الإلكترونيُّ المرافقُ لضابطِ الأمنِ أو المسئولِ الأمنيِّ، ولا مَجالَ للنقاشِ. أقربُ الطرقِ للوصولِ إلى مرتبةٍ مرموقةٍ أنْ تبدعَ في عملِكَ وتَحصلَ على بعضِ الاختراقاتِ تَجعلُهُمْ يأتونَ إليكَ ويسألونَكَ عنها بأنفسِهِمْ!.
السّيدُ حمد: في الحالةِ معِيَ؛ قمتُ بمحاولةِ توحيدِ القوى الأساسيةِ في المادةِ والطبيعةِ فيما يعرفُ بِـ"النظريةِ الكبرى لتوحيدِ القوى" أو بالفرنسيةِ (La Théorie de Grande Unification). (هنالكَ أربعةُ قوىً أساسيةٌ تتحكّمُ في تفاعلِ المادةِ وشؤونِها وتصرفاتِها حيالَ بعضِها؛ القوّةُ النوويةُ بينَ مكوناتِ نواةِ الذرةِ والقوّةُ الكهرومغناطيسيةُ بينَ الشحناتِ الكهربيّةِ الثابتةِ والمتحركةِ والقوّةُ الضعيفةُ المسئولةُ عن تَحلُّلِ النيوترونِ إلى بروتونٍ وإلكترونٍ وقوّةُ الجاذبيةِ بينَ كتلِ المادةِ المُختلفةِ). توصَّلتُ بعدَ حلِّ بعضِ المعادلاتِ الرياضيةِ إلى نتيجةٍ، شبهِ معروفةٍ في المُجتمعِ العلميِّ، تؤدّي عملياً إلى شبهِ تفسيرٍ لنظريةِ "الانفجارِ الكبيرِ" (Le Big Bang)، أو باللغةِ الألمانيةِ الأوركنالِ (der Urknall)، وطريقةِ تكوينِ الكونِ. هذه النظريةُ وتلكَ الفكرةُ أو الفرضيةُ كان قد اقترحَها السّيدُ "ألبرت اينشتاين" مُنذُ عدّةِ عقودٍ؛ حيثُ بدأَ الكونُ من نقطةِ الصّفرِ أو ما يعرفُ فلسفياً بِـ"العَدَمِ". آنذاكَ أيْ قبلَ حدوثِ ذلكَ "الأوركنالِ" تقلّصتْ الأبعادُ والمسافاتُ والزمنُ وإنْهارتْ المادةُ والطاقةُ على نفسِها وكانت حدودُ الكونِ الإحداثيةُ والأحداثُ الزمنيةُ كلُّها محصورةً بينَ حدودِ نقطةِ الصّفرِ المطلقِ!. نتيجةً لذلكَ، أو بعبارةٍ أخرى! فإنَّ أصلَ الكونِ وكذلكَ مصيرَهُ أصبحا بيِّنَيْنِ للإنسانِ المتعلّمِ والأميِّ وعلى حدٍّ سواءَ تقريباً إذا ما روعيتْ الاختلافاتُ في التصوّراتِ ووجهاتِ النظرِ المبنيّاتِ على الخلفيّاتِ الفكريةِ.
الدكتورُ "بوهير": هذا شيءٌ عظيمٌ!. بمقدورِكَ الاستمرارُ في حلِّ معادلاتٍ رياضيةٍ إضافيةٍ ومعرفةُ المزيدِ من التفاصيلِ عن "الانفجارِ الكونيِّ الكبيرِ" مستقبلاً. هنالكَ

بابٌ كبيرٌ مفتوحٌ على مصراعيهِ لديكَ الآنَ للعملِ والبحثِ والفكرِ والتعمّقِ في الفلسفةِ!.
السّيدُ حمد: النتيجةُ على واقعِ الأرضِ والحياةِ هي أنَّ هذه المعلوماتِ يُمكنُ أنْ تؤدِّيَ إلى ثلاثِ (٣) سيناريوهاتٍ رئيسيةٍ أو أساسيةٍ، على الأقلِّ!. السّيناريو الأوَّلُ هو أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى موجودٌ وهو المسئولُ عن أوَّلِ وأكبرِ انفجارٍ في الكونِ. يتبنّى هذه النتيجةَ خطباءُ المعابدِ وأتباعُهُمْ. إذا ما أخبرتُهُمْ بما توصّلتُ إليهِ من حلِّ معادلاتٍ رياضيةٍ صرفْتُ معظمَ عمريَ للوصولِ إليها، فسوفَ يقولونَ أنَّهُمْ سبقوني في ذلكَ ومنذُ قرونٍ طويلةٍ خلتْ ودونَ بذْلِ كثيرٍ من الجهدِ!. السّيناريو الثاني هو أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى "غيرُ موجودٍ"!؛ نتيجةٌ سوفَ تغذّي فكرَ الإلْحاديينَ سواءً اعتبروني منهُمْ أو معَهُمْ وسوفَ تؤدي بيَ إلى الصِّدامِ مع المَجموعةِ الأولى أو من يُمثّلُهُمْ. حتّى أنَّ الإلْحاديينَ أنفسَهُمْ سيقولونَ أنَّ هذهِ النتيجةَ معروفةٌ لديهِمْ سلفاً ودونَ بذْلِ جهدٍ ومشقّةٍ ومصروفٍ وإضاعةِ عُمْرٍ وحياةٍ. ثالثُ السّيناريوهاتِ والذي شخصياً أميلُ إلى نصرتهِ هو أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى يتمتَّعُ بطبيعةٍ "مزدوجةٍ" متأرجحةٍ بينَ الوجودِ المبينِ والتخفّي، إذا ما صحَّ أو جازَ التعبيرُ، وجودٌ يبصرُهُ المؤمنونَ بهِ دونَ غيرهم. تلكَ حالةٌ شبيهةٌ بالطبيعةِ التي تجمعُ بينَ تصرفاتِ الجسيماتِ والحركاتِ المَوجيةِ في الضوءِ، أو النورِ على حدِّ رأيِ الناسِ العاديينَ. هذا السّيناريو أو الاعتقادُ بهِ سوفَ يَجلبُ لِيَ الصِّدامَ مع المَجموعتينِ السّابقتَيْنِ. النتيجةُ في الواقعِ أنّنا بتفكيرِنا في السّيناريوهاتِ الثلاثِ السّابقةِ كَمَنْ يَجلسُ على أضلاعٍ، مُحدّبةٍ أوَ مقعّرةٍ، لِمُثَلَّثٍ متساوي الأضلاعِ وهو أيْ المثلثُ مُحدّبُ أو مُقَعَّرُ الرؤوسِ كذلكَ. من الممكنِ تغييرُ مكانِ تفكيرِ الشخصِ من ضلعٍ إلى آخرَ بكلِّ سهولةٍ ويُسْرٍ على مُحيطِ هذا المثلّثِ (الدائريِّ) المُحيِّرِ لكافةِ العقولِ البشريةِ!. شخصياً لا يهمُّني الآنَ لا هؤلاءِ ولا هؤلاءِ ولا حتى هؤلاءِ!. أريدُ الآنَ أنْ أوفرَ لِيَ لقمةَ عيشٍ مع قليلٍ من اللحْمِ والفواكهِ، إنْ أمكَنَ، حيثُ أسعارُها في السّوقِ بازديادٍ مستمرٍّ ومَرّاتٍ تنفجرُ هذه الأسعارُ دفعةً واحدةً على رؤوسِ ذوي الدخلِ المَحدودِ وذوي اللا-دَخْلَ على الإطلاقِ.
الدكتورُ "بوهير": من واقعِ حياتِيَ وتَجربتِيَ الطويلةِ والمريرةِ في هذا المَجالِ، أخبرُكَ أنَّ هذا المسارَ الذي تَسيرُ عليهِ لنْ يؤدّيَ بكَ إلى وفيرِ عيشٍ. من الأحسنِ لكَ لو سلكتَ درباً آخرَ من قبلُ يؤدّي بكَ لِلحصولِ على رزقٍ بطريقةٍ أسهلَ بكثيرٍ؛ حتى لو كان عملُكَ مثلَ بائعِ خضارٍ أو عاملٍ في مطعمٍ أو سكرتيرٍ عندَ صاحبِ عمَلٍ أو أعمالٍ أو في شركةِ نقلِ موادَّ أوَ حتى عاملٍ في مزْرعةٍ متواضعةٍ. أنا متأكدٌ أنّكَ ستكونُ أكثرَ أماناً معيشياً واطمئناناً أسْرياً واجتماعياً وحتى روحيّاً دينياً!.
السّيدُ حمد: إنَّ هذا الكلامَ الذي تقولُهُ لِيَ الآنَ قد نصحَني بهِ صديقِيَ أبوالزهو وكرَّرَهُ مئاتِ المرّاتِ عليَّ وعلى مدى عقديْنِ من الزمنِ، لكنَّني لَمْ أُصغِ إليهِ بلْ لَمْ أفهمْ عليهِ نصائحَهُ وتعاليمَهُ. ظننتُ أنّهُ جاهلٌ لكونهِ لَمْ يذهبْ إلى مدرسةٍ ولَمْ يتلقَّ في حياتهِ درساً واحداً لا من معلِّمٍ ولا من أستاذٍ أو بروفيسورٍ دكتورٍ. إنَّ كلَّ المعلوماتِ التي توصّلتُ إليها بعدَ عقودٍ من الدراسةِ والجهدِ المتَواصلِ ليلَ نهارَ سوفَ أعطيها لأبوالزهو، ومن هو في مستوى خبرتهِ أو فلسفتهِ أو أقلِّ بكثيرٍ، في أوَّلِ نصفِ ساعةٍ من اللقاءِ معهُ على الأكثرِ. آملُ! أنْ يقبلَ بها وأنْ يقتنعَ بأنَّ تلكَ الجهودَ المضنيةَ في حياتهِ وحياتِيَ لَمْ تذهبْ كلُّها سدىً!.

توصَّلَ السّيدُ حمد إلى قناعةٍ تامةٍ لا لُبْسَ فيها أنَّ الاستمرارَ في التعليم هكذا من أجلِ الحصولِ على تقدّمٍ حقيقيٍّ على أرضِ الواقعِ العمليِّ لهُ في مختبرٍ أوَ معملٍ، أو على الأقلّ كما يطمحُ إليهِ، لَهُوَ من قبيلِ الخيالِ غيرِ الواقعيِّ العبَثيِّ. يعيشُ السّيدُ حمد الآنَ حالةً من ضياعِ العمرِ والجهدِ والمالِ وإرهاقٍ للنفسِ الطموحةِ وطمسٍ للأملِ الجانحِ نَحْوَ الانتعاشِ. كافةُ الجهودِ الخارقةِ للإعجازِ، ولدهرٍ من الزمنِ من حياةِ السّيدِ حمد، لَمْ تُمكّنْهُ من إنتاجِ شيءٍ خارجَ حجمِ أو مساحةٍ أو طولِ الصّفرِ المطلقِ!. لكنَّ السّيدَ حمد يسلكُ دربَ "الدوغماتيةِ" (مذهبٌ فكريٌّ قائمٌ على التسليمِ بصحةِ أمرٍ ما بلا تمحيصٍ ولا تجريبٍ ولا اختبارٍ)، التي سارَ عليها ويسيرُ وسوفَ تسيرُ جُمُوعٌ غفيرةٌ من المغفلينَ والسّارحينَ مع طيشِ الخيالِ الأحْمقِ. سوفَ يتحوّلُ السّيدُ حمد بعدَ تَخرّجهِ إلى بائعِ أفكارٍ من دُكّانِ مذهبِ "الدوغماتيةِ" لِهواةِ جَمعِ المعلوماتِ لاستخدامِها في أهدافٍ جدليةٍ فَهلويةٍ و"براغماتيةٍ" واقعيةٍ!. هذهِ هي النظرةُ السّائدةُ المستفحلةُ في المُجتمعاتِ المتخلفةِ فكرياً وعلمياً وعملياً حيثُ يسيطرُ أصحابُ الألسنِ والحناجرِ الرنّانةِ على العامّةِ.

خلالَ تلكَ الفترةِ من العملِ اليائسِ على البحثِ العلميِّ والحيرةِ المتشعبةِ أجرى السّيدُ حمد اتصالاً هاتفياً مع مَن تبقّى من أهلهِ وأصحابهِ على قيدِ الحياةِ!.

أم جاسر: هذه آخرُ مرّةٍ نسمحُ لكَ أنْ تسافرَ بعيداً عنا. الآنَ ننتظرُ انتهاءَكَ من دراستِكَ بفارغِ الصّبرِ. يقولُ أخونا "أبو عدنان" (بائعُ أحذيةٍ في المدينةِ) بأنّهُ ما أنْ تعودَ إلى أرضِ الوطنِ حاملاً الشّهادةَ فإنَّ الوظيفةَ مؤكّدةٌ لكَ، والشُّقّةَ المفروشةَ جاهزةٌ ولا مهربَ من العروسِ والزواجِ!.

السّيدُ حمد: وكيفَ صحةُ أبوالزهو، كيفَ حالُ عملهِ وراحتهِ؟، أريدُ أنْ أطمئنَّ على صحّةِ وسلامةِ قلبهِ. كان في وضعٍ صحيٍّ غيرَ مريحٍ بسببِ تقدُّمهِ في السّنِ عندما سافرتُ وتركتُهُ آخرَ مرّةٍ.

أبوالزهو (و"هيما" وسرحان): لا نزالُ بخيرٍ، للتوِّ عدنا من حقلِ القمحِ. هذه السّنةُ سنةُ غِلالٍ في الحقولِ، وسوفَ نَحصدُ ونَجمعُ الكثيرَ من القمحِ والشعيرِ والحبوبِ الأخرى. كيفَ الأمورُ من عندِكَ؟. أهيَ على ما يرامُ؟!. متى ستخلّصُ من هذا الشيءِ الذي اسْمُهُ تعليمٌ ودراسةٌ والتي خَلَصَتْ حياتُنا قبل أنْ تَخْلُصَ منهُ ودونَ أنْ نَجنيَ منهُ شيئاً، أيَّ شيءٍ!.

السّيدُ حمد: الوضعُ العلميُّ مُمتازٌ أخِيَ أبوالزهو، نَحْنُ الآنَ هنا على مقربةٍ من "الزقاقِ" المؤدي إلى "الثقبِ الأسودِ"!.

سرحان وأبوالزهو: نعم؟!. ماذا تقولُ؟!. ثقبٌ أسودٌ؟!.

السّيدُ حمد: أقصدُ "نَجماً أسوداً"، لونُهُ معتمٌ أسودُ ولكنَّهُ نَجمٌ، نَجمٌ أكبرُ من الشمسِ بأكثرَ من مليونِ مرّةٍ، ربّما!. ("الثقبُ الأسودُ" نَجمٌ ضخمٌ جداً في الكتلةِ وصغيرٌ جداً! في الحجمِ يَجذبُ كلَّ المادةِ والأشعةِ من حولهِ لا يُفلِتُ شيئاً منها، لأجلِ ذلكَ يبدو معتماً أسودَ في وسائلِ البحثِ عن نُجومٍ كالتلسكوباتِ الفضائيةِ التي تعتمدُ الضوءَ العاديَّ أو الأشعةَ السّينيةَ أو أشعةَ "جاما" أو إشعاعاتِ "الميكرو-ويف").

أبوالزهو وسرحان: وماذا تفعلونَ عندَ النجمِ الأسودِ هذا أو أيَّ شيءٍ تزعمُ بهِ؟!. هل تتدرّبونَ على الهبوطِ على سطحهِ أو تقومُ بتدريبِ روّادِ فضاءَ للهبوطِ على سطحهِ؟. كلانا لا نكادُ نفهمُ شيئاً مِمّا تقولُهُ.

السّيدُ حمد: وأنا كذلكَ الحالُ، مثلِيَ مثلَكُما!؛ لكنَّ الدراسةَ عميقةٌ في تاريخِ الزمنِ الأوّلِ للكونِ كلِّهِ. الآنَ، وبسببِ التعمّقِ في الدراسةِ والتفكيرِ في الكونِ الشاسعِ والعلمِ بأركانِهِ، بدأتُ أشعرُ عندَ السّيرِ على سطحِ كوكبِ الأرضِ مثلَ الذي يسيرُ فوقَ سطحِ كرةٍ قدمٍ أو حتى يدٍ أو تَنِسْ أرضيٍّ أو طاولةٍ ... تتدحرجُ من تَحْتِ أرجلِيَ كلَّما حاولتُ تَسْريعَ خطواتِ المشيِ أو الجريِ!.

سرحان: لا حولَ ولا!، يا رجلاً لِماذا تسرحُ بنا وبعقولِنا منذُ أكثرَ من عشرينَ (٢٠) سنةً؟. لَمْ يبقَ في البيتِ على قيدِ الحياةِ إلا الأمواتُ!. لا توجدُ لدينا قناةُ صرفٍ صحيٍّ (مصرفٌ) للبيتِ ولا حَمّامٌ ولا دورةُ ماءٍ ولا ماءٌ حتى للشربِ؛ وتقولُ لنا أنَّكَ تسبحُ بالقربِ من "الثقبِ الأسودِ"!. إمّا أنْ تدخلَ إلى الثقبِ الأسودِ أو تأتي هنا إلى "الثقبِ الكالحِ"!. تعالَ وأرِحْنا من هذه الرحلاتِ العبثيةِ و هذه التفاهةِ و هذا التعليمِ المبتذلِ!.

السّيدُ حمد: يا سيدَ سرحان ويا أبوالزهو!، ماذا بكما مثلَ الذي "يَحتضرُ" من القهرِ والضجرِ والمللِ!؟. أقولُ لكما أننا هنا نغوصُ بخيالِنا في بُحورِ ومُحيطاتِ الفضاءِ الخارجيِّ اللا-متناهيِّ وتُحاولانِ أنْ تركّزا في تفكيرِكُما على أكلِ الفريكةِ والبَنْدورةِ والبطاطا والمُتبَّلِ!. لَمْ أعهدْ ذلكَ فيكُما من قبلُ.

أبوالزهو: نَحْنُ اليومَ مُختلفونَ عن زمانٍ أوَّلٍ، اليومَ وعينا على أنفسِنا ولكنْ بعدَ فواتِ الأوانِ!، الجميعُ منا على حافةِ قبورِ الموتِ أو الحياةِ. لَمْ يبقَ لدَينا ما نعطي، لا دَماً ولا عَظماً ولا جَماجمَ!.

"كاملة": إنْ كُنتَ قادراً حقاً على الوصولِ بعلمِكَ إلى الزقاقِ المؤدي إلى الثقبِ الأسودِ لِماذا لا تصنعُ أو تشتري لنا هنا نعلاً نلبسُهُ بأقدامِنا للوصولِ إلى أمكنةِ أرضِنا لفلاحتِها ؟!، أو أنْ تصلحَ أنبوباً لنقلِ المياهِ العاديّةِ أو آخرَ لتصريفِ المياهِ المبتذلةِ في البيتِ هنا.

أبوالزهو: أنا غيرُ قادرٍ على أنْ أتَخَيّلَ ماذا تتعلّمونَ هنا أو هناكَ، في رياضِ الأطفالِ، في مدارسِ الأولادِ وفي جامعاتِ الأولادِ الكبيرةِ!.

السّيدُ حمد: يا أبوالزهو ويا من تبقّى من أهلِيَ معِيَ!، لا تشيعوا جوَّ اليأسِ والمللِ والضَّجَرِ في خاطرِيَ المَجروحِ. لقد اتصلتُ بكُمْ لكيْ أرفعَ من بقايا معنوياتٍ عندِيَ كانتْ مدّخرةً في خَانَةِ احتياطِ العقلِ الباطنيِّ لِيَ. الآنَ تَجعلونَنِي مثقلاً أكثرَ بالهمومِ وأكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى. لَمْ يبقَ لِيَ في غربتِيَ العلميةِ إلا أقلَّ من سنةٍ. لقد بدأتُ بتجميعِ نفسِيَ وملاحظاتِيَ وتقاريرَ أخرى لأكتبَ شيئاً لأطروحةِ الدكتوراه.

أبوالزهو و"كاملة": عندما تصلُ إلى هنا هل تعتقدُ أنكَ ستجدُنا ما زلنا على قيدِ الحياةِ؟!، أم أنَّنا سنلحقُ بالرعيلِ الأوّلِ والثاني والثالثِ ... من العائلةِ الكريمةِ!.

سرحان: في الماضي كنتَ تلقي اللومَ على الدكاترةِ "بَولاكْ" و"زحلاك" و"هولاك" و"براهْما" و"بقّار" و"هونايْكِرِينْكو" و"فالكُنْ"؛ اليومَ من هو كبشُ الفداءِ؟!. من هو! "دجاجةُ الآثامِ" التي ترتكبُها بحقِّ السّماءِ وحقِّ الأهلِ والوطنِ والوجهِ الحَسَنِ؟!. ("دجاجةُ الآثام" عندَ بعضِ الأقوامِ المتديِّنةِ تتلخصُ بذبحِ دجاجةٍ بعدَ "توجيهِ" كافَّةِ الآثامِ والخطايا المرتكبةِ بحقِّ الإلهِ عن طريقِ نفثِ الهواءِ من فمِ الآثمِ! على رأسِ الدجاجةِ وجسمِها قبلَ ذَبْحِها وتركِها تَموتُ).

أبوالزهو وسرحان: "أوكيه" ..... "باي ذير" .... "سي يو لايتر" ..... "تيك كير أوف يورسيلف! Take care of yourself!"!!.

حدودُ الحياةِ الاجتماعيةِ لطالبٍ من مثلِ السّيدِ حمد مَحدودةٌ جداً وضيقةٌ. هنالكَ مُمارسةٌ لبعضِ التمارينِ الرياضيةِ لِمساعدةِ الجسمِ والأعصابِ على الاسترخاءِ والراحةِ. يضافُ إلى ذلكَ بعضُ النشاطاتِ الاجتماعيةِ المتواضعةِ في العددِ والإمكانياتِ، من حضورِ لِحفلةِ عيدِ ميلادٍ إلى حضورِ مسرحيةٍ أو الاشتراكِ في سهرةٍ مع الطلبةِ داخلَ السّكنِ؛ رجوعاً بعدَ ذلكَ إلى الكتبِ والتحضيرِ والكتابةِ وإعدادِ الحالِ لليومِ التالي. روتينٌ أقلَّ ما يقالُ عنهُ أنّهُ قاتِلٌ مغلّفٌ بحالةٍ من الوهمِ العقليِّ بأنَّ الطلابَ جزءٌ لا يتجزأ من الحياةِ العامةِ. يُمثِّلُ التلفازُ أكبرَ نافذةٍ على العالَمِ، وربّما الوحيدةِ، بما يَحتويهِ من برامجَ وأخبارٍ سياسيةٍ، معظمُها ذواتُ طبيعةٍ مزعجةٍ. يتعَرَّفُ الشخصُ من التلفازِ على ما يَجري في الحيِّ المُجاورِ والمدينةِ والمدنِ المُجاورةِ والدولةِ والدولِ المُجاورةِ والقارّةِ والقارّاتِ المُجاورةِ والبعيدةِ. الناسُ أسرى ورهائنٌ عندَ وسائلِ الإعلامِ بكلِّ ما تَحملانهِ هاتانِ الكلمتانِ من معنىً؛ أيُّ مُحاولةٍ للخروجِ من هذا المأزقِ تصطَدمُ بالمُحدِّداتِ الماليةِ والتي تقوَمُ بعملِ ما يقومُ بهِ القيدُ الحديديُّ لتحديدِ حركةِ الحيوانِ، كقَيْدِ الحصانِ والبغلِ والجملِ والحمارِ. في نهايةِ الأمرِ أصبحَ الإنسانُ في نظامِ الحياةِ الجديدِ أشبهَ بالحمارِ البشريِّ، مع كاملِ الاحترامِ للحمارِ العاديِّ!، أو حتى حشرةٍ بشريةٍ ضارةٍ أو نافعةٍ! أو حتى أقلَّ قليلاً بعلمٍ أو بغيرِ علمٍ منهُ.

الجارُ قبلَ الدّارِ

في السّنةِ النهائيةِ، كما هو متوقَّعُ للدراسةِ، طلبتْ إدارةُ سَكَنِ الطلبةِ من السّيدِ حمد البحثَ عن سكنٍ آخرَ خارجَ بيتِ الطلبةِ التابعِ للجامعةِ. ذلكَ لتفسحَ

المَجالَ أمامَ الطلبةِ الجددِ حيثُ أنَّ لَهُمْ حقَّ أولويةٍ طبيعيةٍ على الطلبةِ القُدامى في دورِ سَكَنِ الطلبةِ الجامعيينَ. في خِضَمِّ الأعمالِ المُختصةِ بالدراسةِ والهمومِ الماليةِ الحاليةِ والمستجدةِ من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، قامَ السّيدُ حمد بالبحثِ عن بيتٍ مناسبٍ ورخيصٍ في آنٍ واحدٍ. طافَ أرجاءَ المدينةِ الصّغيرةِ من بيتٍ إلى بيتٍ ولَمْ يَجِدْ مكاناً يتمتّعُ بمواصفاتٍ على قدْرِ ما يُمكنُ لهُ أنْ يتحمَّلَ استئجارَهُ. حينئذٍ قَرَّرَ البحثَ عن مكانٍ في الضواحي البعيدةِ بعضَ الشيءِ. بعدَ فترةٍ ليستْ بالقصيرةِ من التجوالِ سيراً على الأقدامِ لاحظَ بيتاً صغيراً في سفحِ جبلٍ يتوسطُ مجموعةً من حدائقِ الأشجارِ من مُختلفِ الأصنافِ والأنواعِ. هنالكَ أشجارٌ فاكهةٍ وأخرى حرجيةٌ وفيما بينها نباتاتٌ ومناطقُ للرعي على ما يبدو؛ كان المنظرُ شديدَ الجذبِ للسّيدِ حمد. جَذَبَ انتباهَهُ أكثرَ وعلى "مرمى حجرٍ" من البيتِ تَجَمُّعٌ صغيرٌ من "الحجراتِ الصّغيرةِ" متقاربةٍ وتتوسطها ما تشبهُ المنارةَ. في البدايةِ اعتقدَ السّيدُ حمد أنَّ المُنشأةَ مطعمٌ ريفيٌّ!، وسُرَّ كثيراً حيثُ فكّرَ بإمكانيةِ تناولِ بعضِ وجباتِ طعامهِ هناكَ خاصةً أيامَ ازدحامِ جدولِ عملهِ اليوميِّ في التحضيرِ والتفكيرِ والإعدادِ والتنفيذِ. كما أنّهُ أخبرَ بالأمرِ صديقَهُ في الكليةِ، السّيدَ "زنون"، من أهلِ تلكَ البلادِ حيثُ كانَ معروفاً بخمولهِ وكسلهِ الفريديْنِ مثلَ عُنصرِ الَ"زنون Xenon" (الغاز) الفريدِ من نوعهِ في خمولهِ. أشارَ عليهِ بأنْ يأتيَ "زنون" لزيارتهِ والتحضيرِ لأبحاثهِ وتقاريرهِ هناكَ؛ قال لهُ أنَّ المكانَ عبارةٌ عن خلوةٍ طبيعيةٍ كبيرةٍ وخيْرَ مكانٍ للاتصالِ بالطبيعةِ والتعبُّدِ المُركَّزِ. بينَ حينٍ وآخرَ يتصاعدُ الدخانُ الأسودُ الرماديُّ من رأسِ تلكَ "المنارةِ"!. ذاتَ يومٍ وعندَما زارَهُ صديقُهُ السّيدُ "زنون" كان قد أعدَّ نفسَهُ للذهابِ إلى ذلكَ "المطعم" بعدَ الانتهاءِ من جلسةِ تحضيرٍ ومناقشةٍ.

السّيدُ حمد: سيدَ "زنون"، عندَ قدومِ موعدِ الغداءِ سنذهبُ معاً إلى ذلكَ المطعمِ المُجاورِ القريبِ!.

السّيدُ "زنون": مطعمٌ قريبٌ؟!. لا أرى في المكانِ هنا أيّةَ إشارةٍ تدلُّ على وجودِ مطعمٍ قريبٍ.

السّيدُ حمد: ها هو هناكَ ... مُجرَّدَ سَعْيٍ لِمسافةِ مئتيْنِ (٢٠٠) إلى ثلاثمائةِ (٣٠٠) مترٍ، بين الأشجارِ.

السّيدُ "زنون": هَذا ليس مطعماً ريفياً، هذهِ مِحرقةٌ لِجُثثِ الموتى من البشرِ!.

السّيدُ حمد: ماذا؟. مِحرقةٌ لِجُثثِ الأمواتِ؟!. وهل توجدُ في هذه البلادِ مَحرقاتٌ لِجُثثِ الأمواتِ؟!.

السّيدُ "زنون": ألَمْ تقرأْ اليافطةَ على الطريقِ المؤدي إلى المكانِ هنا، على "الدوّارِ السّابعِ" وعلى تقاطعِ الطرقِ خارجَ المدينةِ. لنذهبْ معاً لزيارةِ المكانِ للاستطلاعِ.

اندفعَ السّيدُ حمد مع زميلهِ السّيدِ "زنون" لاستكشافِ المكانِ عن قربٍ.

كان المكانُ شبهَ معبدٍ صغيرٍ يتسعُ لبضعةِ أشخاصٍ يقفُ فيهِ راعي المعبدِ، أو راعي معبدِ المتوفّى، أمامَ جثةِ المتوفّى لتوديعهِ ببعضِ القراءاتِ من الكتبِ المقدّسةِ وأمامَ ذوي الميّتِ من الجالسينَ على صفّيْنِ قصيريْنِ من المقاعدِ في مواجهةِ الراعي الكاهنِ. بعدَ ذلكَ يقومُ اثنانِ أو ثلاثةٌ من العمّالِ بنقلِ الجثةِ إلى داخلِ فرنٍ صغيرٍ حيثُ تُسلَّطُ على الجثةِ عدةُ ألسنةٍ من اللهبِ القويةِ جداً بسببِ الغازِ المشتعلِ المتدفّقِ فيها. خلالَ بضعِ دقائقَ تتحولُ الجثةُ إلى حفنةٍ من الرمادِ توضعُ في كيسٍ شفّافٍ صغيرٍ من النايلونِ أو وعاءٍ من الزجاجِ المعتمِ أو الشفّافِ ويغلقُ ويعطى

لِذوي المتوفّى. أثناءَ حرقِ الجثةِ تَخرجُ وترتفعُ سحابةٌ صغيرةٌ من الدخانِ الأسودِ مُشعِرةً بانتهاءِ ذلكَ الشخصِ جسدياً من الوجودِ. قال السّيدُ "زِنون" أنَّ معظمَ الجثثِ المَحروقةِ تعودُ إلى فقراءَ لَمْ يتمكّنوا من إيجادِ مكانٍ لَهُمْ في قطعةِ أرضٍ بينَ الموتى ولا يستطيعُ أهلُهُمْ أو من يَخلفُهُمْ القيامَ بترتيبِ جنازةٍ تقامُ لَهُمْ بعدَ وفاتِهِمْ، كما كان يَحدثُ في الماضي. أو أنَّهُمْ لمْ يعودوا يؤمنونَ بتِلْكَ التقاليدِ القديمةِ من مراسمِ دفنٍ وتَحيةٍ وداعِ جثمانٍ وإطلاقِ نيرانِ مدافعَ ثقيلةٍ قُبيلَ الانتهاءِ من تشييعِ الجثمانِ لأحدِهِمْ. فَتَحَتْ تلكَ القصّةُ شباكاً كبيراً في عقلِ السّيدِ حمد. إنّها المرّةُ الأولى التي يرى فيها وجْهاً لوجهٍ مكاناً توضعُ فيهِ جثةٌ بشريةٌ تُحرقُ ويوضعُ ما تبقّى من رمادٍ منها في كيسِ نايلونٍ صغيرٍ، يَحتفظُ بهِ أهلُ الميّتِ أو ينثرونَ رمادَ جسمهِ في حديقةِ منزلِهِمْ. وبسببِ فضولهِ الزائدِ ذهبَ السّيدُ حمد بنفسهِ ذاتَ مرّةٍ وحضرَ عمليةَ الحرقِ بأكملِها ولشخصٍ تَخلّى أهلُهُ عن أخْذِ رمادِ جسمهِ بعدَ عمليةِ الحرْقِ. السّيدُ حمد معتادٌ على رؤيةِ مواكبِ تشييعٍ يشتركُ فيها الصّغيرُ والكبيرُ من ذكرٍ وأنثى للفقيرِ والغنيِّ إلى قبرٍ "يرقُدُ" فيهِ الميّتُ حتى يومَ بعثهِ من جديدٍ ليلاقيَ حسابَهُ. كيفَ لَهُ أنْ يوفّقَ بينَ خيالهِ السّابقِ الراسخِ منذُ عشراتِ السّنينَ، منذُ نعومةِ أظفارهِ، وبينَ ما يراهُ الآنَ. إذا ما كانَ السّيدُ حمد ينامُ بضعَ ساعاتٍ من الليلِ ليرتاحَ قليلاً من عناءِ التحضيرِ والبحثِ فكيفَ لهُ أنْ ينامَ بعدَ الآنَ!؟. أصبحَ مستقبلُهُ! بعدَ الموتِ يثيرُ ألفَ استفسارٍ وألفَ سؤالٍ مع صعوبةِ الحصولِ على جوابٍ واحدٍ مقنعٍ لأيٍّ منها. ذاتَ يومِ التقى السّيدُ حمد بشخصٍ يعملُ سائقاً على سيارةٍ للأجرةِ في مركزِ المدينةِ يَعودُ أصلُهُ إلى شبهِ القارةِ الهنديةِ، السّيدُ "جَهانْكير".

السّيدُ حمد: هل تعلمُ يا سيدَ "جَهانْكير" أنّني ولأوّلِ مرّةٍ أرى جثةَ إنسانٍ ميّتٍ تُحْرَقُ ويوضعُ ما تبقّى من رمادِها في وعاءٍ صغيرٍ وبحجمِ كيسِ "بوشار" ("البوشار" هي حبوبٌ تشبهُ "الذرةَ الصّفراءَ الإفْرنجية"، تُقْلى أو تُحَمّصُ بالزيتِ وتُباعُ عادةً في الشوارعِ بواسطةِ الباعةِ المتجوّلينَ أو في المَحلاتِ التجاريةِ) مِن الذي يباعُ للأولادِ، هنا في هذه المدينةِ!. إنّهُ لشيءٌ عجيبٌ، كيفَ تستطيعُ أنْ توفّقَ بينَ الدينِ وعمليةِ حرْقِ الجثثِ من مثلِ تلكَ!..

السّيدُ "جَهانْكير": أخِيَ الكريمَ!، جاءَ في الحديثِ الشريفِ بما معناهُ أنَّ أحدَهُمْ وكان يَخافُ من عقابِ اللهِ كثيراً؛ ومثلَ بقيةِ البشرِ فقدْ كانَ كثيرَ الخطايا. ما كانَ منهُ إلا أنْ أوصى أهلَهُ قبلَ وفاتهِ بعدمِ دفنهِ البتّةَ؛ أوصى بحرقِ جسدهِ حتى لا يبقى من جثّتهِ شيءٌ على الإطلاقِ يدلُّ عليهِ، خوفاً من العقابِ في نارِ جهنّمَ والعياذُ باللهِ. ولَمّا رأى وجهَ ربّهِ، بعدَ وفاتهِ، حتّى غَفَرَ اللهُ خطاياهُ وأدخلَهُ الجنةَ إكراماً لهُ على خوفهِ ولو متأخراً! من عاقبةِ ارتكابِ المعاصي.

السّيدُ حمد: لكنَّ هؤلاءِ الموتى هنا يُحرقونَ لأنّهُمْ كانوا فقراءَ في حياتِهِمْ لا يَملكونَ مالاً لشراءِ مكانِ قبرٍ لَهُمْ؛ كانوا يعيشونَ في جحيمِ الفقرِ المدقعِ ولفترةٍ طويلةٍ من العُمْرِ. هل تعتقدُ أنَّ ذلكَ سيؤخذُ بعينِ الاعتبارِ أيضاً يومَ الحسابِ؟!.

السّيدُ "جَهانْكير": العلمُ عندَ اللهِ سبحانَهُ وتعالى. اللهُ يعرفُهُمْ ويعرفُ فيما لو أغناهُمْ بالمالِ والجاهِ ماذا كانوا سيفعلونَ!؟؛ وماذا فعلوا للهِ حتى بالرغمِ من فقرِهِمْ وضيقِ ذاتِ يدِهِمْ. الذي يبدو لِيَ أنّكَ متشكّكٌ من كلِّ ما يقالُ، توكّلْ على اللهِ الكبيرِ؛ لا مفرَّ من البعثِ، البعثِ الحقيقيِّ للأمواتِ!.

أخبرَ السّيدُ حمد المشرفَ الأكاديميَّ لهُ بقصةِ مِحرقةِ الأمواتِ والذي كان عندَهُ الأمرُ طبيعياً. كان الدكتورُ "بوهير" يبلغُ من العمرِ قرابةَ السّتينَ عاماً بالرغمِ من أنّهُ كان يبدو بسِنِّ الأربعينِ لاعتنائهِ الدائمِ برياضةِ جسمهِ وابتعادهِ عن مواجهةِ هُمومِ الدنيا والآخرةِ!.
الدكتورُ "بوهير": غالبيّةُ الفلاسفةِ والفنانينَ الكبارِ والشعراءِ المرهفينَ والكتّابِ المبدعينَ والموهوبينَ من كلِّ الفئاتِ يَختارونَ تلكَ الطريقةَ في الاندثارِ! بعدَ وفاتِهِمْ طبيعياً أو غيرَ طبيعيٍّ. تلكَ من أنْجعِ الطرقِ للحدِّ من اتساعِ رقعةِ أرضِ المقابرِ، والتلوُّثِ لِجوفِ الأرضِ الناجمِ عن دَفنِ جُثثِ الموتى كما هي فيها، بالإضافةِ إلى سهولةِ القيامِ بعمليةِ حرقِ جثثِ الموتى. كذلكَ لا مصاريفَ تذكرُ، مُجرَّدَ بضعِ عشراتٍ من الجنيهاتِ، تُخصَمُ من حسابِ الضمانِ الاجتماعيِّ! للمتوفّى. بعدَ ذلكَ تكونُ الأمورُ استقرَّتْ باتّجاهِ الأفضلِ!. في نهايةِ المطافِ سوفَ تتحوَّلُ كلُّ الجثثِ إلى حالةٍ من الرميمِ .... لا أملَ في أنْ تعودَ الحياةُ إليها.
السّيدُ حمد: "قلْ يُحييها الذي أنشأها أوَّلَ مرَّةٍ" .... صدقَ اللهُ العظيمُ.
الدكتورُ "بوهير": كلُّ إنسانٍ يأملُ بحياةٍ أخرى أقلَّ وطأةً، على الأقلَّ، من هذه الحياةِ! ... ها ها ها ... ماذا بشيءٍ عمليٍّ تقومُ بهِ؟! تطربُنا ببعضِ أنغامِ الشرقِ من بلادِكُمْ؛ وكلّما ذهبتَ أكثرَ شرقاً كلّما زادتْ فلسفةُ وحكمةُ الحياةِ.
السّيدُ حمد: ما بالُكَ بطبيبِ الروحِ والجسدِ؟!، الشيخ "عمر الخيام".
الدكتورُ "بوهير": لقد سَمِعْتُ كثيراً عن ذلكَ الشاعرِ الفيلسوفِ ولكنَّني للأسفِ لَمْ أتمكَّنْ من قراءةِ سطرٍ واحدٍ لهُ.
السّيدُ حمد: ..... دنْ رن رن دي دو ري مي فا مي ري دو .... سَمِعْتُ صوتاً هاتفاً! في السّحَرِ نادى من الغَيْبِ "مُواتَ" البشر ... هُبّوا املئوا كاسَ المنى! قبلَ أنْ يَملأ كاسَ العمرِ كَفُّ القدرِ ...... لا تشغلْ البالَ بِماضي الزمانِ! ولا بآتِ العينِ قبلَ الأوانِ؟! .... واغنَمْ منَ الحاضرِ لَذّاتهِ .... فليسَ في طَبعِ الليالي الأمانْ.
الدكتورُ "بوهير": لَحنٌ جَميلٌ جداً، ولكن ماذا تقولُ الكلماتُ؟!.
السّيدُ حمد: هذا الغناءُ لصاحبةِ أجْملِ صوتٍ في الشرقِ ولأحدِ قلائلِ الملحنينَ العظماءِ. الكلماتُ تدعو الناسَ إلى استباقِ موتِهِمْ بالمزيدِ من التَّرَفِ والكَيْفِ والشُّرْبِ!.
الدكتورُ "بوهير": أَكبِرْ وأَعْظِمْ بهذه الفلسفةِ والتجربةِ والخبرةِ!.
السّيدُ حمد: أعرفُ أنَّ أكثرَ ما أعجبَكَ في الكلماتِ ... الدعوةُ إلى شربِ الكأسِ؟!....
لدى الدكتور "بوهير" فلسفةٌ خاصةٌ مستقاةٌ من الوجوديةِ والإلْحادِ ونظرياتٍ علميةٍ ودينيةٍ وفلسفيةٍ قديمةٍ وحديثةٍ، يَخلطُ فيها الواقعَ بالخيالِ والميتافيزيقا (الميتافيزيقا هي علمُ! ما وراءَ أحداثِ الطبيعةِ المرئيّةِ أو علمُ الغيبِ، ربّما). غالباً ما يؤدي بهِ فكرُهُ والنقاشُ بينهُ وبينَ السّيدِ حمد إلى لا- شيءَ إذ سرعانَ ما يفتحُ كِلتا ذراعيْهِ عريضاً مستغرِباً! ويغادرُ مكانَ دائرةِ النقاشِ.
قامَ السّيدُ حمد بالاتصالِ بأهلهِ حيثُ طمأنَهُمْ على أنَّ انتهاءَهُ منَ الدراسةِ أصبحَ قابَ قوسيْنِ أو أدنى. إنّهُ في وضعِ اللمساتِ الأخيرةِ على آخرِ فصولِ الدراسةِ والبحثِ باتّجاهِ الحصولِ على درجةِ الدكتوراه.
أم جاسر: يالله! يا ولدِيَ، أمامَكَ بيتٌ وعروسٌ وأولادٌ، لا تظلَّ تعيشُ عازباً...

السّيدُ حمد: كيف حالُ أبوالزهو؟!، آخرَ مرّةٍ اتصلتُ بِكُمْ كان متضايقاً ومهموماً! وخائرَ العزم.
أبوالزهو و"هيما": لستُ مثلَ أيامِ ماضيةٍ. أقضي معظمَ الوقتِ مستريحاً ملقىً على الأرضِ على أحدِ جنبَيَّ حيثُ أشعرُ بالتعبِ عندَ بذلِ أيِّ مَجهودٍ. لكنَّنا نقومُ بالاعتناءِ بالحقلِ والزراعةِ وأعمالِ البيتِ من جلبِ المياهِ من عيونِ الماءِ القريبةِ ونقلِ الأغراضِ من هنا إلى هناك وبالعكس. طمئنّا عن حالِكَ وعن أخبارِكَ وآخرَ ما توصَّلْتَ إليهِ في حياتِكَ. لو أكونُ في اللَحظةِ الأخيرةِ من عمرِيَ أحبُّ سَماعَ شيءٍ من عندِكَ، مُسْعِداً كانَ أمْ مثيراً للتَّعْس. لو مِتُّ أرسِلْ إلى قبرِيَ بعضاً من أخبارِكَ مع باقةٍ من الوردِ لتوضعَ على جهةِ الأنفِ في الرأسِ!.
السّيدُ حمد: اليومَ يا أبوالزهو!، وبعدَ عُمْرٍ طويلٍ لَكَ، الفلاسفةُ وروّادُ الحضارةِ والحركاتِ الفكريةِ العالَميةِ من أمثالِكَ!؛ يَختارُونَ حَرْقَ جثثِهِمْ بعدَ الموتِ. هذا بدلاً عن الطريقةِ التقليديةِ في الدفنِ في "كانتوناتٍ" تَحْتَ الأرضِ بحيثُ تبدو المقبرةُ من بعيدٍ مثلَ مستعمرةٍ بشريةٍ عنصريّةٍ بائدةٍ. كما تعرفُ أنَّني لَمْ أرَ بِحياتِيَ فيلسوفاً ولا حكيماً أكثرَ اتزاناً وحكمةً ورزانةً وتواضعاً منكَ!.
أبوالزهو: أهذهِ نِهايةُ الأمورِ معكَ؟!، أسوفَ تَحرِقُني بعدَ موتِيَ مثلَما حرقْتَ دمِيَ وأعصابِيَ وروحِيَ في حياتِيَ؟! هل هذهِ نتيجةُ الإفراطِ في أخْذِ الدروسِ وعَبْرَ السّنينَ؟!.
السّيدُ حمد: لا لا لا ... يا أبوالزهو! ليس حرقُكَ ولا حرقَ روحِكَ، بل حرقُ الجسدِ الذي هو لا شيءَ في نِهايةِ المطافِ. الكلُّ سيتحوَّلُ إلى غبارٍ، لكنَّ روحَكَ الكبيرةَ لا يُمكنُ لأحدٍ أنْ يَمْسَسَها بأذىً لا من قريبٍ أو بعيدٍ، لا قبلَ الموتِ ولا بعدَهُ ... بعدَ عُمْرٍ طويلٍ.
أبوالزهو: عندما أموتُ أعرفُ كيف أموتُ وماذا أريدُ منكَ أنْ تفعلَ بجثّتِيَ بعدَ الموتِ. الآنَ أشعرُ بضعفٍ عامٍّ في الجسمِ، لكنَّ روحِيَ لا تزالُ قويَّةً وستبقى كذلكَ حتّى آخرِ نبضةِ دمٍ في العروقِ!.
السّيدُ حمد: العافيةُ عليكَ ولَكَ يا أبوالزهو!، هذا الذي أعتبرُهُ من فلسفتِكَ نبراساً لعملِيَ وحياتِيَ. أتمنّى لكَ العمرَ المديدَ، أنا آسفٌ لذهابِيَ بعيداً في الخيالِ الوحشيِّ. لا تزالُ بنظرِيَ في ريعانِ العُمْرِ والشبابِ، شبابِ الروحِ والفكرِ والعملِ.
ودَّ السّيدُ حمد لوَ أنَّ أهلَهُ أو ما تبقّى منهُمْ على الأصحِّ، ومعهُمْ أبوالزهو!، أنْ يزورونَهُ في تلكَ البلادِ لكيْ يطّلعوا عن قربٍ على الكثيرِ ممّا يراهُ ويعيشُهُ ومِمّا يُعتبرُ غريباً على المُجتمعاتِ الأخرى في كثيرٍ من مناحي الحياةِ؛ لكي يروْا تنظيمَ حياةِ الناسِ ونظافةَ المدنِ وهامشَ الحريةِ الكَبيرِ نسبياً الممنوحِ للناسِ، وحتى عن كيفيةِ عملِ الانتخاباتِ المَحلّيةِ والرئاسيةِ!. لكنَّ الأمورَ كانتْ لدرجةٍ من السّوءِ والفقرِ وعدمِ التنظيمِ تَعذَّرَ فيها القيامُ بأيِّ شيءٍ كهذا. كلُّ شيءٍ عندَ السّيدِ حمد كان مُنهاراً أو على وشْكِ الانْهيارِ، كلُّ الطرقِ صارتْ لسببٍ أو لآخرَ مسدودةً، كلُّ شيءٍ قابلٍ للحركةِ متوقّفٌ أو مشلولٌ. كلُّ ما تبقّى من طاقةٍ أو تركيزٍ كان باتّجاهِ التخرُّجِ، وما أدراكَ ما التخرُّجُ؛ ولا أقسِمُ بيومِ التخرُّجِ!. يَصرفُ الطالبُ الخريجُ آخرَ أيامَهِ بوضعِ اللمساتِ الأخيرةِ على ما سيلقيهِ أمامَ اللجنةِ الفاحصةِ وكيفَ سيتصرَّفُ إذا ما وُجِّهَ إليهِ سؤالٌ من هذا القبيلِ أو ذاكَ. بالنسبةِ للسيدِ حمد، وربّما لِمعظمِ

الخريجينَ الآخرينَ، كانتْ جلسةُ الفحصِ علامةً مُميّزَةً على انتهاءِ آخرِ عهودِ الدراسةِ والتلمذةِ والركونِ إلى الآخرينَ.

في أواخرِ أيامهِ في تلكَ البلادِ كان السّيدُ حمد يَجلسُ كثيراً مع نفسهِ وبعضِ أصدقائهِ. أصبحَ عندهُ شيءٌ من متسعٍ من الوقتِ لتذكُّرِ الماضي القريبِ والبعيدِ وتأمُّلِ المستقبلِ والذي، أيْ الأخيرُ، كانَ يبدو لهُ أنّهُ لن يكونَ بأحسنَ من ماضٍ مرَّ بهِ.

السّيدُ حمد (يَجلسُ ومعهُ أصدقاؤهُ): (أغنيةٌ مؤثّرةٌ للفنانِ الخليجيِّ محمد زُوَيِّد) ... دن دن دج دج دن .... جَسَدٌ ناحلٌ وقلبٌ جريحُ .... ودموعٌ على الخدودِ تسيحُ ... ... وحبيبٌ مُرُّ التجَنّي ولكنْ! كلُّ ما يفعلُ المليحُ ... مليحُ .... يا خَلِيَّ الفؤادِ! يا خلِيَّ الفؤادِ! قد ملأ الوجدُ فؤادي وبرَّح التبريحُ ...، ... جُدْ بوصْلٍ ... جُدْ بوصْلٍ ... جُدْ بوصْلٍ أحيى بهِ!، أو بهَجْرٍ ألاقي فيهِ حتْفِيَ لعلّني أستريحُ!. .... رِقَّ لي! رِقَّ لي! رِقَّ لي من لواعي الجَورِ وظلامٌ ... أنا منها مَيّتٌ وأنتَ المسيحُ .... قد كَتَمْتُ الهوى!... قد كتمتُ الهوى بِجَهْدي وأنّي، إذا مالَ عليَّ الغرامُ فسوفَ أبوحُ!.

أحْلى المرِّ "أبو عَلْقَمَة"

بعدَ الانتهاءِ من الدراسةِ كانتْ العودةُ إلى مسقطِ الرأسِ حتميةً. بعدَ ما يزيدُ عن الخمسِ سنواتٍ في بلادِ الغربةِ، غيرِ المتواصلةِ، والعملِ المتواصلِ ليلَ نَهارَ في ظروفٍ تَخلو من الحدِّ الأدنى من الرحْمةِ، حانَ الوقتُ لتنفسِ الصُّعداءِ والعودةِ إلى الحالِ والجلوسِ الطويلِ مع النفسِ. قامَ السّيدُ حمد ببيعِ كلِّ ما اقتناهُ تقريباً خلالَ الفترةِ الماضيةِ، وهيَ كثيرةٌ، بثمنٍ بَخْسٍ. بعدَ أكثرَ من خمسِ سنواتٍ من المكوثِ أو العيشِ في مكانٍ ما يصبحُ ذلكَ المكانُ لا يقلُّ كثيراً عن الأوطانِ الأصليةِ بالنسبةِ للشخصِ. يتعرَّفُ الشخصُ المُغتربُ على عاداتِ الخلقِ هناكَ ويَتلاءَمُ مع الظروفِ والبيئةِ والحياةِ بكافةِ اتّجاهاتِها وأبعادِها ومرافقِها؛ إلّا أنَّ الحنينَ لِمسقطِ الرأسِ يطغى على كلِّ المشاعرِ. كانَ على الدكتورِ حمد، من الآنَ فصاعداً الدكتورُ حمد بدلاً من السّيدِ حمد، الاختيارُ بين العودةِ إلى الوطنِ أو الموتِ البطيءِ من الشوقِ والعشقِ للوطنِ البعيدِ وحالةٍ من هبوطِ المعنوياتِ المزمنِ؛ مزيجٌ متغيّرُ النسبةِ من كلِّ هذا وذاكَ.

كانتْ رحلةُ العودةِ طويلةً وتتضمَّنُ تغييرَ عددٍ لا يستهانُ بهِ من المطاراتِ والدولِ وحتّى القاراتِ. هنالكَ إجراءاتٌ وخطواتٌ كثيرةٌ وكبيرةٌ يَجبُ التعاملُ معَها. على الدكتورِ حمد أنْ يدفعَ رسومَ دخولِ بلادٍ أو المرورِ عبرَ قاعةِ الترانزيت أو الأجواءِ وأجوراً على الخدماتِ وتسديدَ ضرائبَ ورسومَ دخولٍ وخروجٍ في أغلبِ الأحيانِ. على المرءِ أنْ ينتظرَ خلفَ صفوفٍ قصيرةٍ وطويلةٍ وأنْ يتعرّضَ للتفتيشِ والاستجوابِ في بعضِ الأحيانِ. كلُّ ذلكَ يَجعلُ موتَ الغربةِ البطيءِ أكثرَ تقبُّلاً من شدةِ بطشِ السّفرِ ومقتهِ وتصرفاتِ رجالِ الحدودِ من حرسٍ وضباطِ أمنٍ ومسئولي

الجمارك، وحتى من ابتزاز الحمّالينَ وسائقي السّياراتِ ومكاتبِ الصّرافةِ وتَحويلِ العملةِ. لكلٍّ واحدٍ مِن هؤلاَءِ وهؤلاءِ فصلٌ لا يُنسى بسهولةٍ من ذاكرةِ المسافرِ.
بدأتْ رحلةُ العودةِ إلى الوطنِ مع بدايةِ اليومِ، وبتحديدٍ أكثرَ دقّةً بعدَ منتصفِ الليلِ بساعةٍ أو أكثرَ بقليلٍ. راقبَ الدكتورُ حمد شروقَ الشمسِ من على متنِ الطائرةِ فوقَ مياهِ المُحيطِ. بدا سطحُ الكرةِ الأرضيةِ من على متنِ الطائرةِ مثلَ كرةٍ كبيرةٍ رصاصيةِ اللونِ مع انعكاسِ أشعةِ الشمسِ الأولى عندها. ظَهرتْ الشمسُ وكأنَّها تشرقُ من تَحْتِ مَستوى جناحِ الطائرةِ أو كَأنَّها تبزغُ من سفحِ جبلٍ عالٍ يَجلسُ الدكتورُ حمد فوقَ قمّتهِ. تَجمّعَ المسافرونَ حولَ الشبابيكَ المُطلةِ على الشمسِ، والتي بدتْ مثلَ كتلةٍ ناريةٍ حَمراءَ-ذهبيةٍ فاقعةٍ في اللونِ مُصْدِرةً أشعةً قويةً ومستقيمةً إلى كلِّ الاتّجاهاتِ، وقاموا بالتقاطِ الكثيرِ من الصّورِ التذكاريّةِ لَها. قال الدكتورُ حمد لِنفسهِ لعلَّ ذلكَ بشيرُ خَيْرٍ عليهِ حيثُ بدَأتْ شَمْسُ الحياةِ الحقيقيةِ! تسطعُ بقوّةٍ، ولَمْ يكَدْ يغادرُ تلكَ البلادَ بَعدُ. تساءلَ معَ نفسهِ لِماذا تركَ الطبيعةَ لنفسِها، وصَرَفَ أو أضاعَ كلَّ الوقتِ مع الكتبِ، في حيِّزٍ صغيرٍ مَحصورٍ بأربعةِ جدرانٍ حَمقاءَ، ومعَ ما هبَّ ودبَّ من البشرِ!؟.
تغيّرتْ مواعيدُ الرحلاتِ عدّةَ مرّاتٍ واضطرَّ الدكتورُ حمد للانتظارِ والاعتمادِ على الحظِّ لقدومِ أو مغادرةِ طائرةٍ فيها مقاعدُ شاغرةٌ لِمسافرينَ. أحياناً كانَ يشتدُّ النعاسُ على الدكتورِ حمدٍ ويضطرُّهُ لينامَ بضعَ ساعاتٍ في قاعاتِ الانتظارِ. ....
وَوَصَلَ الدكتورُ حمد أخيراً إلى أقربِ مطارٍ على مسقطِ رأسهِ. لَمْ يكنْ من أحدٍ في استقبالِه في المطارِ، لا قريباً ولا صديقاً ولا حبيباً؛ لا عجبَ في ذلكَ فلقد كانَ أبوالزهو في العمرِ مَتقدّماً! وظروفُ الحياةِ والمنطقةِ لا تساعدُ الأخيرَ على التحرُّكِ في المكانِ لاستقبالِ رفيقِهِ الدكتورِ حمد في المطارِ.
وهرباً من تَجربةِ سياراتِ "التاكسي" والذينَ لا توجدُ لسياراتِهمْ عداداتٌ خاصةٌ لقياسِ المسافةِ وتقديرِ الأجرةِ، آثَرَ الدكتورُ حمد أنْ يلجأَ إلى سائقِ إحدى سياراتِ "الخصوصي". عادةً، لا يتقيّدُ مالكو أو سائقو تلكَ السّياراتِ بقوانينِ شرطةِ المرورِ في ذلكَ البلدِ. تعرَّفَ الدكتورُ حمد إلى سائقِ إحداها ويُدْعى السّيدُ "أبو عَلْقَمَةَ". اتفقَ الدكتورُ حمد مع السّيدِ "أبو عَلْقَمَةَ" على سِعْرِ النقْلِ وكان أقلَّ من السّعْرِ الرسْميِّ بقليلٍ. يُحاولُ الدكتورُ حمد كلَّ جهدهِ الاقتصادَ في المصروفِ حيثُ لَمْ يَبقَ لهُ من مالٍ سوى مصروفُ جيبٍ، لا يُمكن أنْ يُحْسدَ عليهِ إطلاقاً!؛ ذلكَ بالإضافةِ إلى حالةِ الإنْهاكِ الجسديةِ والمعنويةِ الباديةِ للعيانِ! عليهِ بعدَ سنينٍ من الكدْحِ الدراسيِّ والعملِ وبذلِ الجهدِ المتواصلينِ. وفي الطريقِ السّريعِ إلى بيتِ "بنتِ أختِ" الدكتورِ حمد، كمستقرٍّ مؤقّتٍ، دارَ حديثٌ مع السائقِ السّيدِ "أبو عَلْقَمَةَ".
السّيدُ "أبو عَلْقَمَةَ": منذُ متى تَغيبُ عن أرضِ الوطنِ؟. كما يبدو أنَّكَ قادمٌ من بلادٍ بعيدةٍ حيثُ الخيْرُ وسَعَةُ الرزقِ هناكَ!.
الدكتورُ حمد: صحيحٌ!، وكانَ ذلكَ في الماضي. اليومَ! أعتقدُ أنَّ الوضعَ مُختلفٌ. بدأتْ الحلقةُ تضيقُ على رقابِ الغالبيةِ العُظمى بل السّاحقةِ من بني البشرِ، وفي كلِّ أنْحاءِ العالَمِ.
السّيدُ "أبو عَلْقَمَةَ": لكنَّ الحلَقةَ التي تتحدثُ عنها هناكَ دخلتْ حناجرَ الناسِ هنا والآنَ تضغطُ على الوريدَيْنِ وفي طريقِها إلى الأعصابِ المركزيةِ!.

الدكتورُ حمد: إذا ما كنتَ تقصدُ "البخشيشَ" سأعطيكَ جُنيهاً إضافياً على ما سَبَقَ واتفقْنا عليهِ للأجرةِ في البدايةِ!.
السّيدُ "أبو عَلْقَمَةَ": لا يا صديقِي، عيبٌ ... هذا الكلامُ ليس بينَنا!. لكنَّكَ تعرفُ الأسعارَ وما يريدُ كلُّ واحدٍ من أهلِ السّوقِ الحرِّ أنْ يَحصلَ عليهِ من جيبِكَ؛ قِصَصٌ تَجعلُ المرءَ لا ينامُ ليلَةً من التفكيرِ بِرزْقِ اليومِ التالي!. الحياةُ تكتوي بنارِ الأسعارِ...
الدكتورُ حمد: ولأجلِ ذلكَ أيضاً قرّرتُ زيادةَ "البخشيشِ" لكَ بِجُنَيْهٍ آخرَ. لا عليكَ سوفَ أتَحمَّلُ ذلكَ يا صديقِيَ!.
السّيدُ "أبو عَلْقَمَةَ": لا يا صديقِيَ، عيبٌ ... هذا الكلامُ ليس بينَنا!. عندِيَ زوجةٌ أنْجَبَتْ منِّيَ ثلاثَ بناتٍ. اضطَرَّتْنِي الظروفُ لأن أفتحَ لَها بيتاً معَ بناتِها الثلاثِ؛ لا رزقَ لَهُمْ سوى ما يبعثُ اللهُ بهِ لِيَ كلَّ يومٍ بيومِهِ!.
الدكتورُ حمد: ومن أجلِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى ولأجلِكَ والزوجةِ والبناتِ الثلاثِ، أحبُّ الأطفالَ البناتِ أكثرَ من الذكورِ، لَكَ منِّيَ جُنَيْهٌ إضافيٌّ على "البخشيشِ"!. أهِيَ الآنَ تسكنُ البيتَ وحيدةً معَ البناتِ الثلاثِ؟؛ ولترحمْ فضولِيَ عن هذا السّؤالِ القبيحِ!.
السّيدُ "أبو عَلْقَمَةَ": لا يا صديقِيَ، عيبٌ ... هذا الكلامُ ليس بينَنا!. نعمْ! تسكنُ لوحدِها مع البناتِ الثلاثِ. لقد اضطرَّتْنِي للزواجِ من أخرى لأنَّها، "ملعونةُ الوالديْنِ"، لَمْ تقمْ بواجبِيَ خيرَ قيامٍ!. أصبحَ عندِيَ من زوجتِيَ الثانيةِ أربعةُ أولادٍ، لو تراهُمْ ستُعجَبُ كثيراً بحالِهِمْ وأخلاقِهِمْ وتربيتِهِمْ وحسنِ عشرتِهِمْ!.
الدكتورُ حمد: ولأجلِ تربيتِهِمْ وحسنِ خُلُقِهِمْ، لا أزالُ قادراً على إضافةِ جُنَيْهٍ آخرَ إلى "البخشيشِ" وإلى ما كنتُ أضفتُهُ، فيما لو أحسنتُ تقديرَ المواقفِ والنوايا المرافقةِ لَها!.
السّيدُ "أبو عَلْقَمَةَ": لا يا صديقِيَ، عيبٌ ... هذا الكلامُ ليسَ بينَنا!. لا تقفُ المشكلةُ عندَ هذا الحدِّ؛ أخِيَ الذي يكبرُنِي سناً بقليلٍ لهُ من الأولادِ السّبعةُ وحالتُهُ الصّحيةُ ليستْ طبيعيةً بسببِ إصابتِهِ بأمراضٍ، قسمٌ منها مزمنٌ والآخرُ يأتيهِ بشكلٍ دوريٍّ ... وشبهِ منتظمٍ!.
الدكتورُ حمد: ومن أجلِ الحفاظِ على حالةِ صحّةِ قلبِيَ وسلامةِ ضميرِيَ البشريِّ، سوفَ لا أمانعُ "مضطراً" لتحمُّلِ إضافةِ جُنَيْهٍ آخرَ وإلى "البخشيشِ". ليس هذا بصدَقةٍ!، يبدو عليكَ من وجهِكَ وعضلاتِ ذراعيْكَ وجسمِكَ أنَّكَ تأبى وتترفعُ عن أخْذِ صدقاتٍ!.
السّيدُ "أبو عَلْقَمَةَ": لا يا صديقِيَ، عيبٌ ... هذا الكلامُ ليس بينَنا!. هنالكَ أختِيَ، التي تكبُرنِي سناً، اضطُرَّتْ لرفعِ قضيةٍ على زوجِها الذي لا ينفكُّ يعاملُها بكلِّ قسوةٍ وفظاظةٍ. ولسببِ ضيقِ ذاتِ اليدِ عندَهُ، وكذلكَ عندَها!، الآنَ تقومُ بنفسِها بواجباتِ الأولادِ الذين يبلغُ عددُهُمْ التسعةَ، عاشرُهُمْ سيأتِي بعدَ صيفٍ ... سجِّلْ أنا ...،. !!.
الدكتورُ حمد: ولأجلِ أختِكَ المصونِ ونكايةً بزوجِها "اللعينِ"، سأضغطُ على "أنفاسِيَ" بجُنَيْهٍ إضافيٍّ، واللهُ تعالى هو الذي يُعَوِّضُ على الجميعِ!. لكنْ من رأيِيَ المتواضعِ لو تتصالَحُ أختُكَ المصونُ مع زوجِها، ولو من قبيلِ مصلحةِ الأولادِ، فيهِمُ البَرَكَةُ!.

السّيدُ "أبو عَلْقَمَة": لا يا صديقِيَ، عيبٌ ... هذا الكلامُ ليس بيذَنا!. ها نَحْنُ نقتربُ من المنطقةِ التي قلتَ أنَّكَ متّجهٌ إليها عندَما التقيْنا على حافةِ مطارِ العودةِ إلى أرضِ الوطنِ.
الدكتورُ حمدَ: نعمْ! يا صديقِيَ؛ هل ترى ذلكَ الضوءَ المنبعثَ من البنايةِ المقابلةِ؟ والتي أقيمتْ في منتصفِ الشارعِ، رغماً عن أنفِ البلديةِ والحكومةِ!. تبعدُ حوالَيْ ثلاثمائةِ (٣٠٠) ذراعٍ من هنا، عُذراً من حضرتِكُمْ، سأنزلُ من السّيارةِ هناكَ!.
السّيدُ "أبو عَلْقَمَة": لا يا صديقِيَ، عيبٌ عليكَ هذا الكلامُ!. لقد قُلتَ لِيَ منذُ البدايةِ أنَّ بيتَ "بنتِ أختِكَ" على الدوّارِ ولا يبعدُ عنهُ شيئاً. الآنَ تقولُ أنّهُ يبعدُ عن الدوّارِ كثيراً!.
الدكتورُ حمد: لا تقلقْ! سأعطيكَ جنيهاً إضافياً لسببِ "عدم الدقَّةِ" في تَحديدِ المكانِ المُرادِ، لكنْ لا تستعرضْ أيَّةَ عضلاتٍ لَكَ أمامِيَ!. ...... لوَ سَمَحْتَ ...!.
السّيدُ "أبو عَلْقَمَة": لا يا صديقِيَ، عيبٌ ... هذا الكلامُ ليس بيذَنا!. الآنَ أقفُ أمامَ البنايةِ، كما تأمرُنِي!، وسوفَ أقومُ بتنزيلِ أغراضِكَ من مؤخّرةِ السّيارةِ. أعرفُ أنَّكَ آتٍ من سفرٍ بعيدٍ ولذلكَ أتوقَّعُ أنْ تكونَ أحْمالُكَ ثقيلةً، وأخشى على ظهرِيَ من القَصْمِ ..... آخخخخخ .... وسوفَ أنقلُ لكَ الحقيبةَ هذه إلى عتْبةِ البنايةِ ...... آخخخخ خخخخ ... يا ربُّ أعِنْ!. أحسُّ ظهرِيَ مقصوماً عندَ الرقبةِ وأسفلَ الظهرِ وجانبِ لوح الكَتِفِ. ....
الدكتورُ حمد: ولإيقافِ التفكّكِ في أجزاءِ هيكلِكَ العظميِّ والتَّهَتُّكِ بأجزاءِ جسمِيَ الحيويةِ!، سوفَ أضيفُ لكَ جُنَيْهاً، وعلى الخدمةِ!. هذا الجُنَيْهُ ليس صدَقَةً أو للعطفِ أو "للبخشيشِ" .... هذا الجُنَيْهُ تكسبُهُ من عرقِ جبينِكَ ومن حسابِ عظامِكَ ومفاصلِكَ!.
السّيدُ "أبو عَلْقَمَة": لا يا صديقِيَ، عيبٌ ... هذا الكلامُ ليس بيننَا!. شكراً جزيلاً ... اللهمَّ زِدْ من أمثالِكَ.
الدكتورُ حمد: لقد أُعجبتُ بمصاحبتِكَ في هذه الرحلةِ الفريدةِ من نوعِها!. لكن يا صديقِيَ هل لِيَ بسؤالٍ واحدٍ قبلَ فراقِنا "المزعج قليلاً"؟!. هل أنت وحيدٌ في هذه الحالِ أمْ أنَّكَ جزءٌ من ظاهرةٍ منتشرةٍ ومستبدّةٍ؟ بل يُمكنُ إضافتُها كإحدى "طبائعِ الاستبدادِ" عندَ البشرِ!.
السّيدُ "أبو عَلْقَمَة": لا أعرفُ بالضبطِ ماذا تقصدُ بما تسألُهُ، ولكنْ أعرفُ أصحاباً كثيرينَ لِيَ يقومونَ بـ"تقنياتٍ" مشابهةٍ. ربّما أكونُ أرحَمَهُمْ وأكثرَهُمْ حياءاً في التعاملِ مع البشرِ، المغفَّلينَ منهُمْ خاصةً!. أعرفُ السّيدَ "أبو حَنْظَلَة" و"أبو كَرْبَلَة" و"أبو غَرْبَلَة" و"أبو مَرْذَلَة" و"أبو مَزْعَلَة" و"أبو مَغْلَلَة" و"أبو طَحْلَلَة" و"أبو مَقْصَلَة" و"أبو مَرْجَلَة" و"أبو قَرْطَلَة" و"أبو زَغْلَلَة" و"أبو بَغْلَلَة" و"أبو شَرْبَلَة" و"أبو طَخْلَلَة".... ....
الدكتورُ حمد: من اللافتِ للنظرِ أنَّ كلَّ الأسْماءِ المذكورةِ أعلاهُ لا تبدأُ ولو بمرَّةٍ واحدةٍ بكلمةِ "أُمّ"؛ لا شكَّ أنَّ هذهِ إحدى ميزاتِ المُجتمعِ الذكريِّ أو "الذكوريِّ" ...... الأرعن!.
نامَ الدكتورُ حمد ليلتَهُ في تلكَ المدينةِ وفي اليوم التالي قابَلَ عدداً من الأقاربِ والأصحابِ والجيرانِ من الذينَ علموا بقدومهِ. دارَ بَينَ الدكتورِ حمد وذلكَ

الجَمْعِ الباحثِ بشَغَفٍ عن أيِّ مكانٍ خارجَ الوطنِ والمنطقةِ، دارَ حديثٌ ليسَ بفريدٍ من نوعهِ هناكَ.
الدكتورُ حمد: إنَّهُ لشيءٌ جَميلٌ جداً ومِمّا يدعو للبهجةِ والسّعادةِ أنْ يعودَ الإنسانُ إلى أهلِه وأوطانِه بعدَ طولِ غيابٍ. لا أحدَ يعرفُ قيمةَ الأهلِ والأوطانِ أكثرَ من المغتربينَ عنْها.
أحدُ الأقرباءِ: بما أنَّكَ عِشتَ طويلاً في تلكَ البلادِ، هل لكَ أنْ تُخبرَني عن طريقةٍ للسفرِ والإقامةِ هناكَ؟.
الدكتورُ حمد: ليستْ لديَّ معرفةٌ أكثرَ من تقديمِ طَلَبٍ للقنصليةِ والانتظارِ حتى تظهرَ النتيجةُ، وهو أيْ الانتظارُ لن يكونَ طويلاً.
صديقٌ: هل هنالكَ من طريقةٍ للحصولِ على تأشيرةِ عملٍ هناكَ ومن ثَمَّ تقديمُ طلبٍ للهجرةِ في تلكَ البلادِ؟. من أجلِ ذلكَ أنا مستعدٌّ للعملِ بأيِّ شيءٍ لائقٍ للمقامِ أو حتى غيرَ لائقٍ لأيِّ مقامٍ؟!.
الدكتورُ حمد: عددٌ كبيرٌ من العمالِ العاطلينَ عن العملِ هناكَ يبحثونَ عن أيِّ مكانٍ خارجَ البلادِ للعملِ هناكَ!، على الرغمِ من توفُّرِ عددٍ هائلٍ من فُرَصِ العملِ هناكَ.
صديقٌ جديدٌ: لِيَ عديدٌ من الأقاربِ هناكَ ولكنْ لا أحدَ منْهُمْ يساعدُني على الذهابِ إلى هناكَ. يقولونَ أنَّ الحياةَ هناكَ من أطيبِ ما يُمكنُ أنْ تكونَ الحياةُ!.
الدكتورُ حمد: وهنا أيضاً! الحياةُ طيبةٌ لو أحسَنَ الناسُ التعاملَ معَها. هناكَ! الحياةُ جداً طيبةٌ إذا كان لديْكَ مالٌ أو دَخْلٌ كافٍ للاستمتاعِ بحياةٍ فيها السّعادةُ. أصبحَ كلُّ شيءٍ هناكَ تستعملُهُ مقابلَ رسومٍ ماليةٍ عاليةٍ، حتى مياهُ البحارِ المالحةِ.
صديقٌ: أنا مستعدٌّ لبيْعِ كلِّ مُمتلكَاتي هنا لأذهبَ للعيشِ هناكَ!.
الدكتورُ حمد: ربَّما ستَخسرُ الكثيرَ من مالِكَ هناكَ بعدَ خسارتِكَ لأملاكِكَ هنا!. حاولْ أنْ تستخدمَ عقلَكَ ولو قليلاً هنا قبلَ أنْ تذهبَ إلى هناكَ حيثُ يصبحُ لا مَجالَ لاستخدامِ عقلِكَ ... هناكَ!.
قريبٌ: مُعظَمُ إجاباتِكَ عن الوضعِ هناكَ تبدو متشائمةً وقاتِمةً. أعرفُ أناساً ذهبوا من هنا واستقروا هناكَ وحصلوا على الجنسيةِ بسرعةٍ وأخذوا بعضَ أقاربِهِمْ معهُمْ هناكَ؛ لا يا أخِيَ! لا بدَّ أنَّ الحياةَ هناكَ في مستوى الريحِ!.
الدكتورُ حمد: للناسِ في هذه الدنيا حظوظٌ. منهُمْ المَحظوظُ بمالهِ أو بعقلِهِ أو حتى بهيبتِهِ، عسى أنْ تكونَ من أصحابِ أحدِ هذه الحظوظِ أو جزءاً منها أو كلِّها هنا أو هناكَ!.
صاحبٌ جديدٌ: واللهِ! لا يوجدُ أحسنَ من العيشِ في هذهِ البلادِ. المشكلةُ أنَّ كلَّ واحدٍ يريدُ أنْ "يصعدَ" على رأسِ وظهرِ الآخرَ؛ مستوى التعاملِ بينَ البشرِ مُتدَنٍّ. بلادُنا بلادُ أهلِ الخيرِ والنبْلِ والكرمِ والشهامةِ....
الدكتورُ حمد: عافيةٌ عليكَ، أحسنْتَ، هذا بالضبطِ ما يَجولُ بخاطرِيَ. القناعةُ كنزٌ لا يَفْنى. على الإنسانِ أنْ يواجهَ مشاكلَهُ بنفسهِ ويتبعَ شرعَ اللهِ في التعاملِ معَ نفسهِ ومع الناسِ لا شَرْعَ الغابةِ!.

يواجهُ الدكتورُ حمد الآنَ مُجتمعاً يعجُّ بالأمراضِ الاجتماعيةِ والمشاكلِ الاقتصاديةِ والنفسيةِ؛ مشاكلُ الفقرِ المدقعِ، مشكلةُ الجهلِ المطبقِ والنقصِ الخطيرِ وشبهِ الكاملِ في الوعيِ بشؤونِ الحياةِ، مشكلةُ الفسادِ المستشري في كلِّ أركانِ الحياةِ والمُجتمعِ، مشكلةُ التواكلِ والانتهازيةِ والنفاقِ المتأصّلِ في طبقاتِ المُجتمعِ

المُختلفةِ، مشكلةُ العصبيةِ القبليةِ التي تقضي على العصبِ الواعي في المُجتمعِ وما يتبعُها من مَحسوبيةٍ مسيطرةٍ، مشكلةُ النزعاتِ الإقليميةِ ووحشِ التطرفِ الإقليميِّ والفكريِّ، مشكلةُ شحِّ المياهِ والمواردِ الغذائيةِ، مشكلةُ تنظيمِ المدنِ وما يتبعُها من مشاكلِ صرفٍ صحيٍّ متراكمةٍ وفي ازديادٍ، مشكلةُ التلاهي بالتكاثرِ وخلْقِ خللٍ قاتلٍ في التوازنِ البيئيِّ والسّكانيِّ، مشكلةُ الطبقاتِ وتوزيعُ الثروةِ حيثُ طبقةُ "القومبرادورَ" هي الطبقةُ المتحكّمَةُ في كلِّ شيءٍ تقريباً ... قائمةُ الكوارثِ تطولُ وتظلُّ تطولُ وتطولُ ولا تقصُرُ. النتيجةُ في فكْرِ الدكتورِ حمد أنَّ الهرَبَ مِمّا كانَ بالأمسِ القريبِ عيشاً في جحيمِ الشحِّ في الحصولِ على معلوماتٍ علميةٍ مفيدةٍ في الحياةِ أدَّى إلى الوثوبِ في بُحورٍ من "الغائطِ" الماديِّ والفكريِّ والمعنويِّ. لا حلولَ جذريةً للوضعِ السّائدِ على الإطلاقِ حسْبَ المعطياتِ والحقائقِ الموجودةِ على أرضِ الواقعِ. بُحيراتٌ من "اليأسِ والبؤسِ" تعلوها أمواجٌ من غُثاءِ السّيْلِ ويسيطرُ على الجميعِ ويتولّى أمرَهُمْ طبقةٌ من "القومبرادور" الأحْمقِ ورعاعِ التاريخِ الاجتماعيِّ. يا إلهيَ! عليكَ أنْ تنقذَنا نَحْنُ البشرَ من هولِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا. أنتَ الذي خلقْتَنا هكذا، لا اعتراضَ على حكمتِكَ ... نَحْنُ السّببُ ومنكَ نرجو العونَ والحلَّ. هذه ليست حياةً ... هذا جحيمٌ على سطحِ الكرةِ الأرضيةِ التي تواجهُ خطرَ كارثةٍ عامّةٍ وطامّةٍ مستفحلةٍ مستعصيةٍ كما يبدوَ!. الحلُّ الوحيدُ المتبقّي إيجادُ كرةٍ أرضيةٍ أخرى على الأقلِّ وترحيلُ قسمٍ كبيرٍ من البشرِ إليها!.

إلى مسقطِ الرأسِ

بعدَ بضعةِ أيامٍ من مكوثِهِ في بيتِ "ابنةِ أختهِ" سَلَكَ الدكتورُ حمد طريقَ العودةِ النهائيةِ إلى أرضِ الوطنِ عبرَ الحدودِ الإقليميةِ الدوليةِ ومن ثَمَّ عابراً أضيقَ بوّابةٍ أمنيةٍ حدوديةٍ على وجهِ الكرةِ الأرضيةِ إلى حيثُ قضى أيامَ الطفولةِ والصِّبا والشبابِ. كانت رحلةً مليئةً بالمعوّقاتِ والعذابِ والتعذيبِ من جرّاءِ التفتيشِ والتدقيقِ والتحقيقِ والتلفيقِ!. بعدَ كلِّ هذا وذاكَ وَصَلَ الدكتورُ حمد إلى مسقطِ رأسهِ ... رافعَ الرأسِ منتصبَ القامةِ مرفوعَ الهامةِ ... يَمشي! (على حدِّ رأيِ بيتِ الشعرِ المُغنّى). كانت فرحةُ عودةِ الدكتور حمد باديةً على وجوهِ، وفي عيونِ، الجميعِ. الجُلُّ من الذينَ كان يعرفُهُمْ الدكتورُ حمد أيامَ صباهُ وشبابهِ ومنذُ أيامِ المدرسةِ الأولى غزا الشيبُ رؤوسَهُمْ وذقونَهُمْ وصدورَهُمْ. كيفَ للدكتور حمد أنْ يعيدَ عجلةَ الزمنِ إلى الوراءِ ولو قليلاً!؟، العودةُ فقط تكونُ بالذكرياتِ إلى أيامِ الماضي.

أم جاسر: مبروكٌ عليكَ وعلينا يا ولدِيَ، بعدَ كلِّ تلكَ السّنينِ العجافِ أنت الآنَ دكتورٌ أكبرُ من الدُّنيا كلِّها!. الحمدُ للهِ العليِّ القادرِ القديرِ الذي أكرمنِي وأعاشنِي حتى وصلْتُ إلى هذهِ اللحظاتِ السّعيدةِ جداً في حياتِي.

"كاملة": وأنا يا شقيقِيَ حمد، سعيدةٌ جداً برؤيتِكَ ناجحاً غانماً، وعسى اللهَ سبحانَهُ وتعالى أنْ يبعدَ عيونَ الحاسدينَ عنكَ!. ها قد أحضرتُ كميةً من "البُخور" سأحرقُها لكيْ تطردَ الأرواحَ الشريرةَ من المكانِ و"حرزاً" أزرقَ اللونِ ليُزيغَ بصرَ العيونِ الحاسدةِ عنكَ!. (تنتشرُ بين بعضِ نساءِ قرى المنطقةِ وبعضِ رجالِهنَّ عادةُ وضْعِ حجرٍ كريمٍ أزرقِ اللونِ على أكتافِ أو صدورِ أو أظهُرِ أطفالِهنَّ الصّغارِ المدلّلينَ جيِّداً لكيْ يُبعِدَ أو "يُبرِّدَ"، كما يبدو، عينَ الحسودِ الناظرِ إلى هؤلاءِ الأطفالِ)

أبوالزهو (وبقيةُ الإخوةِ): ألفٌ وألفُ مبروكٍ يا صديقِيَ على هذا النجاحِ الباهرِ، وهذه قبلةٌ منّيَ أطبعُها على وجهِكَ. اقتربْ بجانبِيَ قليلاً فلقد أصابنِيَ من العجزِ الكثيرُ.

الدكتورُ حمد: سقا اللهُ ورَزَقَ اللهُ ورَحِمَ اللهُ أيامَ زمانٍ!. كَمْ! أنا مَمنونُ مشاعركُمْ وأحاسيسِكُمْ العظيمةِ اتّجاهِيَ؛ لا غرابةَ في ذلكَ فأنتمُ أهلِيَ، أنا منكُمْ وعُدْتُ إليكُمْ والسّلامُ منكُمْ ولكُمْ وعليكُمْ. كَمْ كنتُ متشوّقاً للرجوعِ إليكُمْ، الغربةُ صعبةٌ جداً ومقدِّمةٌ من ضمنِ مُقدِّماتٍ كثيرةٍ إلى الجحيمِ، ربّما!.

أبوالزهو: ها أنتَ الآنَ ترى بأمِّ عينِكَ المَنظرَ، وكيفَ أنَّ الأمورَ تطوّرتْ نَحْوَ الأسوأِ.

أم جاسر و"هيما" و"كاملة": القريةُ تضاعفَ عددُ البشرِ فيها عدةَ مرّاتٍ، وتضاعفَ عددُ البيوتِ المشترَكةِ بينَ الحيوانِ والإنسانِ. نوعُ الحيواناتِ الجديدةِ التي تُربّى فيها من النوعِ الأكولِ والتي تَصدرُ منها روائحُ وأوساخٌ كثيرةٌ. تَختلفُ هذهِ الحيواناتُ عن تلكَ الحيواناتِ من النوعِ البلديِّ القديمِ من التي عَهِدْتَها من قبلُ طفلاً وأيامَ باكورةِ الشبابِ!.

الدكتورُ حمد: لَمْ يتغيَّرْ على شوارعِ القريةِ شيءٌ يكادُ بالخيرِ يذكرُ. لا يوجدُ بعدُ مشروعٌ لنقْلِ مياهِ الشربِ ولو بأنبوبٍ واحدٍ من الوديانِ وعيونِ الماءِ المُجاورةِ. لا يوجدُ مشروعُ صرفٍ صحيٍّ للمياهِ المبتذلةِ. نظافةُ الشوارعِ في القريةِ معدومةٌ.

أبوالزهو (وبقيةُ الإخوةِ والأصدقاءِ): بدلاً من أنْ تكونَ صرفْتَ وقتَكَ الكثيرَ للتقرُّبِ من "الثقوبِ السّوداءِ والأقزام البيضاءِ والحمراءِ" (مَجموعةٌ من أجرانٍ سَماويةٍ ذواتِ صفاتٍ طبيعيةٍ غريبةٍ)، لو فعلتَ شيئاً علمياً يريحُنا من الروائحِ الكريهةِ التي تنبعثُ من كلِّ مكانٍ. إنَّ القريةَ كلَّها تكادُ لا تُطاقُ للعيشِ فيها بسببِ روائحِ الأبقارِ "الحلوبِ" التي تربَّى في البيوتِ.

الدكتورُ حمد: صديقِيَ أبوالزهو، ويا جَماعةَ الخيرِ!، تُحمِّلونَني مسؤولياتِ رئيسِ البلديةِ ومديرِ دائرةِ الصّرفِ الصّحيِّ في المُحافظةِ والنظافةِ العامةِ، ورئيسِ دائرةِ الطبِّ البيطريِّ والهيئةِ العامةِ للعمدةِ والمَجلسِ البلديِّ. هؤلاءِ بحاجةٍ إلى شخصٍ قويٍّ فظٍّ وحازمٍ من مستوى "هولاكو" و "هتلر" لإجبارِهِمْ على القيامِ بإصلاحِ أحوالِهِمْ.

أبوالزهو: لقد أتى الدهرُ على كلِّ قوايَ، الحسيةِ والجسميةِ. اليومَ أراقبُ العالَمَ يَجري حولِيَ من بعيدٍ ولا أقدرُ على التأثُّرِ أو التأثيرِ بهِ كما كنتُ في الماضي. اليومَ احتلَّتْ الآلةُ المُنتصبةُ على أربعِ عجلاتٍ مَحلَّ كلِّ العمّالِ، احتلالٌ غاشمٌ بكلِّ المعنى السّيئِ للكلمةِ. لقد تَمَّ الفصلُ بينَنا وبينَ الأرضِ والشجرِ والحجرِ. نعيشُ حتى يصدرَ قرارٌ نِهائيٌّ لوجودِنا من إحدى الشركاتِ السّياسيةِ المعروفةِ!.

الدكتورُ حمد: الكرةُ الأرضيةُ بما عليها تقعُ في قبضةِ هذا الاحتلالِ ولا يقدرُ أحدٌ على التخلصِ منهُ إلا بقدرةٍ قادرٍ فقط.

سرحان وأبوالزهو (المنطقةُ واقعةٌ تَحْتَ احتلالٍ عسكريٍّ والحالةُ الأمنيةُ فيها سيئةٌ جداً): وهل علمتَ بما حصلَ مع صديقِنا العمِّ "أبوالطّيب"؟!. لقد قامتْ مَجموعةٌ مسلّحةٌ مَجهولةٌ، ولا تزالُ مَجهولةَ، الهويةِ بالاعتداءِ عليهِ أثناءِ توجُّهِهِ لأداءِ صلاةِ الفجرِ في المسجدِ ..... عندَ الضُّحى....

الدكتورُ حمد: وماذا فعلَ العمُّ "أبوالطّيب" إزاءَ ذلكَ؟!.

"أبو الروج" (صديقٌ جديدٌ من القريةِ للدكتورِ حمدٍ): مثلَما فعلَ بقيةُ أهلِ القريةِ!؛ التزمَ الصَّمْتَ والحيادَ!. (جهازُ الشرطةِ المَحليِّ مُعَطّلٌ في المنطقةِ)

في اليومِ التالي توجَّهَ الدكتورُ حمد إلى بيتِ صديقِهِ "العتيقِ" وصديقِ والدِهِ أبو جاسر حاملاً معهُ بعضَ ما تيسَّرَ لهُ من هدايا!؛ وَجَدَ الدكتورُ حمد العمَّ "أبوالطّيب" والبالغَ من العمرِ ما يقاربُ الخامسةَ والثمانينَ عاماً (حوالَيْ قرنٍ من الزمانِ) في حالةٍ من الضعفِ الجسميِّ غيرِ المعهودِ. كانتا عيناهُ "الجبليتّانِ" حَمراويْنِ تقطرانِ لا-إرادياً بعضَ الدموعِ، حركَتُهُ بطيئةٌ ونطقُهُ غيرُ واضحٍ كثيراً. ليسَ ذلكَ الشخصُ "فَحْلَ الأرضِ" الذي كان يستجيبُ لصوتِهِ الجهوَريِّ الرجوليِّ الإنسانُ والحيوانُ والشجرُ والحجرُ .... والكبيرُ قبلَ الصّغيرِ.

"أبوالطّيب": تمتشن (يُمكنُ) حتشالك (حكى لكَ) أبوالزهو وأهلُكَ عن الكصةِ (القصّةِ) ..... شو (ماذا) بدي (أريد أو أقدر أن) أساوي (أفعلُ)، انكلب (انقلبَ) الزمان وصار التشلب (الكلبُ) اينُط (يقفزُ أو يركبُ) على الأسدِ في بيتو (بيتِهِ أو عرينِهِ)!. الله أتشبر (اللهُ أكبرُ) عالحالة (على الحالةِ) اللي (التي) احنا (نحن) اوكِعنا (وقعْنا) فيها.

الدكتورُ حمد: لقد سَمِعْتُ بذلكَ، ومن أجل ذلكَ أسرعتُ الخُطى إليك لكي أتقي بَرْدَ "الخجَلِ المتفجِّر" من الذي حصَلَ معَكَ بدفءِ من إيمانِكَ وصلابةِ عزيمتِكَ وروعةِ التبرُّكِ من التقرُّب من مقامِ سُموِّكَ يا عمِّيَ "أبوالطِّيب". السّماءُ والأرضُ والشجرُ والحيوانُ والحجرُ كلُّها معاً تشهدُ على سُمُوِّ قدْرِكَ وجلالِ إبداعِكَ!. مَن يَجرؤُ على المساسِ بشعرةٍ من جسمِكَ؟!.

"أبوالطِّيب": هيهم (هاهُمْ) يا خوي (أخِيَ) قد أعلنوني "عارٍ من الاسمِ! من الانتماءِ! في تربةٍ ربيتُها باليدينِ!". (جزءٌ من قصيدةِ شعرٍ وطنيٍّ)

الدكتورُ حمد: "أيّوبُ صاحَ ذلكَ اليومَ ملءَ السّماءِ!". (نفسُ القصيدةِ) وهل صحيحٌ يا عمِّيَ "أبوالطِّيب" أنَّهُمْ أطلقوا النارَ عليكَ؟!، وقُبيلَ صلاةِ الفجرِ عندما معظمُ الناسِ يغطّونَ بنومِ الأمواتِ لولا صوتُ الشخيرِ الصّادرِ من رؤوسِهِمْ؟!.

"أبوالطِّيب": أيوىَ (نعم!) في هاي (هذه) الابتّاعية (مَثل بندقية) اللّي (التي) معه، فكسها (فقسَها مثلَ فقسِ البيضةِ في المقلى) في وجهي وقت الظحى (الضُّحى). (بهذهِ الآلةِ السّاذجةِ! التي كانَ يَحملُها، فجَّرها بوجهِيَ عندَ الضُّحى)!.

الدكتورُ حمد: وهل خفتَ من إطلاقِ النارِ قربَ رأسِكَ من أجلِ تخويفِكَ؟!.

"أبوالطِّيب": أنا! لا لا .... واللهِ إذا خفتَ من هسهسة (بعوضةٌ صغيرةٌ) أكون خفت من هالصّعلوك (ذلكَ الصّعلوكِ)!.

الدكتورُ حمد: وماذا تفكِّرُ مَن ذلكَ الجاني الأرعنُ؟!..

"أبوالطِّيب": (بما معناهُ) لا يا خالي! أنا في عملِيَ لا أعرفُ الكثيرَ عن مثلِ هذه الأمورِ. أحرثُ الأرضَ بمحراثِيَ وعلى رقابِ أمثالِ "طحش وبَحْشٍ" اللذيْن تعرفُهُما منذُ أيامِ طفولتِكَ وصباكَ، لمدةٍ تزيدُ عن خَمسٍ وسبعينَ (٧٥) سنةً. كلُّ قطعةِ أرضٍ في المنطقةِ حرثتُها مرّتينِ أو ثلاثَ مرّاتٍ على الأقلِّ في إحدى سنينِ حياتِيَ. كانَ قوتِيَ اليوميُّ بضعةَ أرغفةٍ من الخبزِ مغمَّسةٍ بزيتِ الزيتونِ الذي كنتُ أعصُرُهُ من حَبِّ الزيتونِ بطاحونةٍ مصنوعةٍ من حَجَرٍ في صَخْرِ سفحِ الجَبلِ، ومنكوشةٍ بالزعترِ الجبليِّ الذي كانت تَجْمَعُهُ "أم الطِّيب" رحِمها اللهُ، من وادي "تشحترور" (وادٍ كبيرٌ عميقٌ وبعيدٌ يضمُّ أراضٍ من القريةِ وبعضِ القُرى المُجاورة). هل أنا مقصِّرٌ في خدمةِ الأرضِ والشجرِ والحجرِ والبشرِ؟!. قُل لي يا خوي (أخي)، هل ظلَّ هنالكَ تَلْمٌ (تَلْمٌ أو ثَلْمٌ: الحفرةُ الطويلةُ التي يتركُها مِحراثُ الفلاحِ في الأرضِ) من الأرضِ لَمْ "أتشربه" ("التشرب" أو الكُرْب، بالفصحى، في اللهجةِ المحلّيةِ هو حرثُ الأرضِ ولكنْ دونَ زرعِها، "لإراحتِها" بعضَ الوقتِ، على حدِّ تعبيرِ الفلاحينَ).

الدكتورُ حمد: لقد حاولوا الاعتداءَ على تاريخكَ المُشْرِقِ لأنَّهُمْ علِموا بما تقولُ بهِ الآنَ. ظنّوا أنَّكَ هدفاً يُحرزُ الضربَ والتشويهَ والإهانةَ. لَمْ يعتدوا على غيرِكَ من الفلاحينَ وهُمْ كثرٌ، لأنَّهُ ليسَ عندَ أحدٍ منهُمْ ما لديكَ من المزايا النبيلةِ العظيمةِ التي تُحرِزُ الضربَ والعدوانَ عليها!. جاءوكَ ليلاً لأنَّهُمْ أخذوا دروساً من الخفافيشِ، معلّميهِمْ، التي تأتي على مَحصولِ الفاكهةِ ليلاً مستخدمينَ تقنياتِ أو "تكنولوجياتِ" العملِ في الظلامِ المتطوّرةِ لديهِمْ. إنَّهمْ يَخشونَ نورَ اللهِ المبهرِ في النهارِ. أحسدُكَ على هذهِ الضربةِ التي لا يُمكنُ أنْ تأتِيَ إلّا من أشرارٍ ضدَّ أناسٍ من أنبلِ الأخيارِ.

"أبوالطِّيب" (يبكي): شششو أسسسساوي (ماذا أفعلُ)، أكثر من ٧٥ سنةً من عمرِيَ أخدمُ الأرضَ. انظرْ إلى بيتِيَ، أنامُ بينَ أرجلِ أمثالِ "طحْشٍ وبَحْشٍ"!. أولادِيَ قديماً وأولادِيَ الآنَ ينامونَ على "رفوفٍ" خشبيةٍ مصنوعةٍ من أفرعِ

الشَّجرِ وعليها وسائدُ! و"فرشاتٌ"! مصنوعةٌ من أكياسِ منِ الخيشِ المَحشوَّةِ بالتِّبنِ وعيدانِ القمحِ. بناتِيَ الصّغيراتُ يداعبنَ الفئرانَ الصّغيرةَ المنتشرَةَ هنا مثْلَ مداعبةِ الدُّمى التي يشتريها بقيةُ الأطفالِ الموسرينَ من "دتشان" (دكّان) "الصّوفرفارتخت!" (السّوبرماركت). كثيراً ما ولدِيَ الصّغير "دُحْمُسْ"، الذي وُلِدَ من هالمستورة (زوجتهُ الثالثةُ وليستْ الأخيرةَ بعدُ!) التي تَجلسُ أمامَكَ، كثيراً ما يتقاسَمُ كسْراتٍ من رغيفِ خبزِهِ مع "كتاكيتِ" الصّراصيرِ التي تترعرعُ في "مَخابئَ" لَها في شقوقِ حيطانِ غرفةِ البيتِ الوحيدةِ عندِيَ. قبلَ أنْ تُشرِّفَني يا ابني حمد بدقائقَ بَسْ (فقَط) واللهِ البِنت الصّغيرة "دَلَعْ" (يا خوي تسميةُ أمِّها لَها!) أكلتْ كسرةَ الخبزِ مع نتفةِ (قطعةٌ صغيرةٌ) الجبنةِ أخذَتْها من ثِمّ (فَمِ) البسّةِ (القطّةِ)!.

الدكتورُ حمد: ضربوكَ لأنّكَ قِمةٌ في النبلِ والشرفِ والمَجْدِ؛ ولأنَّكَ فقيرٌ وأعزلُ، ظنّوا أنّكَ ضعيفٌ. لَمْ يعرفوا أنَّهُمْ بِعدوانِهِمْ عليكَ كَمَنْ اعتدى على أحدِ أركانِ اللهِ العظيمِ الجبارِ في الأرضِ السّمراءِ العظيمةِ .... الطاهرةِ....

"أبوالطّيب": أينَ أيامُ زمانٍ؟! أيامُ زمانِ النايِ والعودِ والغناءِ على حافةِ سفحِ الجبلِ قرْبَ رأسِ نبْعِ الماءِ العذبِ بينَ نباتِ نعناعِ الوادي وبصحبةِ حبيبنا أبوالزهو؟!. طوالَ غيابِكَ عنّا كنتُ عندَما أرى أبوالزهو أتذكّرُكَ وأقدِّمُ لَهُ (لأبوالزهو) ما أحْملُه معِيَ من "حتشايا" (حكايا وتعني هنا أيّةَ أشياءَ صالحةٍ للأكْلِ أو الشّربِ أو حتى التمتّعِ برؤيتِها) إكراماً لكَ ولهُ. كنتُ أغنّي منفرداً عتابا وميجنا (مواويلُ شعريةٌ شعبيةٌ)، ولكنْ دونَ موسيقى مصاحبةٍ!.

الدكتورُ حمد: مكانتُكَ في القلبِ عندِيَ مثْلَ مكانةِ الوالدِ المرحوم أبو جاسر، ذلكَ لأنّكَ وإياهُ تُمثّلانِ رعيلَ الأرضِ الجادَّ المخلصَ. أنتَ ووالدِيَ وأمثالُكُما خيرُ ما يُمكنُ لِمتحفِ الأرضِ أنْ يَجمعَ من أجلِ المَجْدِ والسّؤدُدِ الوطنييْنِ والتاريخييْنِ. أريدُ أنْ أغنّيَ لكَ وعلى عودِيَ بعدَ قليلٍ أغنيةً تطربُكَ من جديدٍ، تطربُكَ والعائلةَ المصونَ والأولادَ الصّغارَ مِنْ عندِكَ الآنَ كلَّهُمْ. هذه الأغنيةُ لِفنّانٍ أصليٍّ وأصيلٍ من طرَفِ أهلِنا من جنوبِ الجزيرةِ العربيةِ، الفنّانُ الموسيقيُّ الرائعُ الشيخُ "أحمد قاسم" ..... "يا عيباه"....

دن دن دن ...... صول فا مي ري دو.... .... أنا بنساه (أنساه) وبنسى (أنسى) هواه ... ... ولا بنسى الذي سوّاه (الذي فَعَلَهُ) ... . تَنَكّر لي وجافاني .... وده (وهذا) اللي كنت أنا أخشاه. .... ويقول للناس لا شفته (رأيتُهُ) ولا أدري به ولا أهواه.. .... عجب يذكر ولا يذكُر زمان الحب.. .... يا عيباه يا عيباه يا عيباه! .... .

"أبوالطّيب": أيوى (نعم)، الله يرحم والدك أبو جاسر أنْ تزيد شوي (قليلاً)....

الدكتورُ حمد: ...... يجازينا كِدَه يا قلب لا تبكي (تعاد ٣ مرّات) وتتحسَّر ... . كفاية تسأل الماضي وهو يشهد (تعاد ٣ مرّات) ... ويتذكر زمان كيف كان يتودد! ... وكيف اليوم يتكبر ..... يقابلنا! ولا حتى سلام لله ..!. ... يا عيباه يا عيباه يا عيباه....

"أبوالطّيب": الناسُ كلُّها تطربُ على هالموسيكا (هذه الموسيقى) الطيبةِ..

الدكتورُ حمد: .... نسي حبي أنا اللي كل شيء ضحيت (تعاد مرّتين) من سِبُّه (بسببِهِ).. ... وقلت للناس بَحِبه ومهما يصير ومهما يصير بَحِبه ... . ده كل

الدنيا وكل الجنة وكل العمر في قربه ... ...لكنه رمى قلبي أمام الناس .... يا عيباه يا عيباه يا عيباه....
"أبوالطِّيب": ميشان (من أجل) هاللحية (هذه اللحيةُ وأشارَ إلى لُحيةِ الدكتورِ حمد) هذه الطيبة. أخرى شوي ..... موسيكا....
الدكتورُ حمد: ..... حبيبي كلمة دي كانت وكان الوجود فيها ..... حبيبي كلمة تطويها دي الأيام وترميها .... حبيبي يا خسارة كلمة لا تعرف معانيها ..... كده يا ناكرِ المعروف خنت العهد .... يا عيباه يا عيباه يا عيباه.....
"أبوالطِّيب": آخ يا ابنيَ يا حمد، يا دكتووورر (دكتور) حِمد، أنا لا أعرفُ أقرأُ ولا أكتبُ. لو كِنتَ عايِشاً على أيامِ زمانِيَ الأوّلِ مع "أم الطِّيب"، هاذيك (تلك) بكت (كانت) تعذِّبني واتْعَنِّد (تعاند) معي .... بس (لكن) هاي (هذه) الأخيرة (الثالثة أو الرابعة) ... والله الجاجة (الدجاجة) بتوكل (تأكل) عشاها (وجبة العشاء لَها) .. (دليلٌ على أنَّ زوجتَهُ الأخيرةَ ... على البركةِ وعلى طِيبةِ قلبِها). .... يعني الواحد! .... ربُّنا اللهُ! .... يحتشي (يَحكي أو يقولُ) الحك (الحقّ)!...

جَمالٌ ومستحضراتُ تَجميلٍ

منذُ قديمِ أزلِهِ إلى نهايةِ وجودِهِ يظلُّ الإنسانُ ساهراً على شكلِهِ وقوامِهِ وحضورِهِ، لسببٍ ولآخرَ في طبيعةِ المرأةِ ونفسيتِها تتفوَّقُ النساءُ على الرجالِ في هذا الصَّدَدِ. من أجلِ هذا وذاكَ ومآربَ أخرى كثيرةٍ استُحْدثَ في حياةِ المُجتمعِ علمٌ كبيرٌ من أكثرِ فروعِ العلومِ جذباً وحيويةً وإثارةً للجدَلِ!، على حدٍّ سواءَ نوعاً ما، هدفُهُ إنتاجُ مستحضراتَ للتجميلِ. هذا النوعُ من "التقنياتِ التجميليةِ" إنْ صحَّ التعبيرُ، يؤدي إلى إتّباعِ أقصرِ الطرقِ وبغضِّ النظرِ عن التكاليفِ!، لتحقيقِ أكبرِ قدرٍ مُمكنٍ من الجاذبيةِ والجمالِ الشكليِّ للإنسانِ بشكلٍ عامٍّ وللمرأةِ بشكلٍ خاصٍّ.

ذَهَبَ الإنسانُ الحديثُ إلى شكلٍ ضيّقٍ جداً في التخصّصِ في علمِ التجميلِ بالتركيزِ على جَمالِ البشرةِ وبشكلٍ أكثرَ خصوصيةٍ جَمالِ بشرةِ الوجهِ. ذلكَ لأنَّ الوجهَ هو أكثرُ أجزاءِ الجسمِ حضوراً عندَ التواجدِ في مكانٍ معيَّنٍ، عامّاً كانَ أمْ خاصّاً. إضافةً إلى ذلكَ يُمكنُ تغطيةُ أجزاءِ الجسمِ الأخرى الأكثرَ أو الأقلَّ جَمالاً بالملابسِ ولا حاجةَ لتطبيقِ مفهومِ التجميلِ أعلاهُ عليها. وبما أنَّ العالَمَ يقادُ في معظمِهِ تقريباً بالتقدُّمِ الذي أحرزهُ العالَمُ الغربيُّ في ذلكَ المَجالِ فإنَّ جَميعَ البشرِ تقريباً ميّالونَ لِلانقيادِ وبشكلٍ شبهِ أعمى وأصمَّ وأبكمَ وأكمهَ! ووراءَ ذلكَ "الدّونْجوان" الحضاريِّ الغربيِّ.

حينَ خلقَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى المخلوقاتِ من جنسِ البشرِ، وغيرِ البشرِ، منحَها من الجمالِ والهيبةِ والرَّونقِ الطبيعيِّ ولكلٍّ منها بشكلٍ متساوٍ؛ ذلكَ جزءٌ من العدالةِ الإلهيةِ. كلُّ إنسانٍ من ذكرٍ أو أنثىً فرحٌ وفخورٌ ومكتفٍ بما حازَ عليهِ من جَمالٍ طبيعيٍّ مُنحَ لهُ قَبْلَ أو مع بدءِ تكوينِهِ. من الممكنِ إضافةُ بعضِ الجمالِ الصّناعيِّ المقبولِ وبشكلٍ لا يلغي أو يُهملُ أو يؤثِّرُ كثيراً على المخزونِ أو الرصيدِ الأصليِّ من الجمالِ الطبيعيِّ عندَ الرجلِ أو المرأةِ أو حتّى عندَ المخلوقاتِ الأخرى. أغفلَ الإنسانُ المُختصُّ في التجميلِ ومستحضراتِهِ هذهِ الحقيقةَ وقامَ بتحميلِ الضحيةِ! التي ترغبُ بزيادةِ جَمالِهِ أو جَمالِها بما لا تستطيعُ حَمْلَهُ؛ أضافَ إلى وجهِها كلَّ ما أمكنهُ من مستحضراتٍ منتَجةٍ في كافةِ أنحاءِ المعمورةِ من أجلِ زيادةِ مبيعاتِهِ وأرباحِهِ.

ما يسري على الأفرادِ ينسحبُ على الجماعاتِ والشعوبِ. الغريبُ في أمرِ الشعوبِ أنَّها في طريقِ زيادةِ جَمالِها الجماعيِّ تسيرُ وبشكلٍ ثابتٍ باتّجاهِ لونِ وجهٍ مُعيَّنٍ ولونِ صبغةِ شعرٍ معيَّنٍ ولونِ عيونٍ معيَّنٍ ولونِ شفاهٍ معيَّنٍ كذلكَ. ما وَرَدَ ذكرُهُ أعلاهُ كانَ قد تَمَّ تَجريبُهُ في المُجتمعِ الغربيِّ وأظهرَ نَجاحاً كبيراً! للّونِ الأبيضِ، ربّما. لَمْ يراعِ خبراءُ التجميلِ في العالَمِ الغربيِّ الشيءَ الكثيرَ بالنسبةِ للألوانِ الأخرى للبشرِ ولَمْ يتواجدْ عندَهُمْ مندوبونَ عن الألوانِ الأخرى لكيْ يأخذوا ذلكَ في الحسبانِ؛ لا اللونَ الأسودَ ولا الأسْمرَ أو الداكنَ أو البنيَّ أو الفاتحَ أو الأصفرَ أو حتى البرونزيَّ. بذلكَ أصبحَ لزاماً على أصحابِ الألوانِ الأخرى أنْ يبتاعوا مستحضراتِ تَجميلِ بشرتِهِمْ من مَخازنِ مستحضراتِ تَجميلِ الجنسِ الأبيضِ والأشقرِ (القوقازيِّ) بشكلٍ شبهِ مطلقٍ. لا توجدُ مستحضراتُ تَجميلٍ خاصةٍ

بالسّودِ مثلاً وشفاهِهِمْ ولا الصُّفْر وشفاهِهِم ولا "الحِنطيّين" (نسبةً إلى لونِ الحنطةِ) وشفاهِهِمْ. باتَ على صاحبِ (صاحبةِ) اللونِ الأسودِ مثلاً أنْ يَخطو (تَخطو) خُطى الأشقرِ أو الأبيضِ ليَزيدَ من جَمالِ شكلهِ مع بعضِ التعديلاتِ الطفيفةِ، إنْ أمكنَ لهُ (لَها) ذلكَ. إضافةً إلى ما سبقَ وبسببِ تعرُّضِ معظمِ مناطقِ العالمِ للاستعمارِ أو الانتدابِ أو الوصايةِ أو التبعيةِ للأجناسِ البيضاءِ القوقازيَّةِ؛ أصبحَ من الطبيعيِّ أنْ تَتْبَعَ تلكَ الشعوبُ المستضعفةُ، حتّى في ألوانِها!، المستعمرينَ هؤلاءِ في التقليدِ لألوانِ بشرتِهِمْ أسوةً بلغاتِهِمْ ولباسِهِمْ وروائِحِهِمْ ورواحِهِمْ ومَجيئِهِمْ. بشكلٍ خاصٍّ فلَقَدْ قضتْ مستحضراتُ التجميلِ على ثقةِ أصحابِ الألوانِ الأخرى بأنفسِهِمْ من حيثُ يدرونَ ولا يدرونَ. أصبحَ الديكُ الروميُّ الأسودُ، الذكرُ وأنثاهُ، على جَمالِهِ وهيبتِهِ أقلَّ جَمالاً من نظيرِهِ الأبيضَ وما على الأوّلِ إلا استعمالُ بعضٍ من مستحضراتِ التجميلِ! إنْ أمكَنَهُ ذلكَ لكيْ يُخفِّفَ من وقْعِ تأثيرِ لونهِ الأسودِ على حالهِ وحالِ مَن حولَهُ.

لا يتجاوزُ سُمْكُ الجمالِ الشكليِّ المليمترَ الواحدَ في حينِ أنَّ الجمالَ التكوينيَّ يَمتدُّ إلى ما قبلَ بدءِ الوجودِ الشكليِّ وبكثيرٍ. ليسَ للجمالِ أيَّةُ علاقةٍ باللونِ، هنالكَ من ملكاتِ الجمالِ السّوداواتِ والسّمراواتِ والصّفراواتِ والبُنِّياتِ والبيضاواتِ والشقراواتِ والأرجوانيّاتِ والورديّاتِ وغيرَ ذلكَ من "مُلَوَّناتٍ". وهنالكَ القبيحاتُ (إن وُلِدْنَ) ومن كافةِ الألوانِ السّابقةِ، وهنالكَ أنصافُ وثلاثةُ أرباعٍ وأربعةُ أخْماسِ (حسبَ اعتباراتِ خبراءِ التجميلِ الأشاوسِ!) .... الجميلاتِ من مُختلفِ الألوانِ السّابقةِ وعلى حدٍّ سواءَ.

عندَ عودةِ الدكتورِ حمد من الدراسةِ في الخارجِ حاملاً لقبَ دكتورٍ واستقرَّ بهِ الأمرُ مؤقّتاً في بيتِ "ابنةِ أختِهِ" قُبيلَ عودتهِ إلى مسقطِ رأسهِ أرادَ أنْ يشاهدَ بعضاً من برامجِ التلفازِ المَحليِّ. أطلَّتْ عليهِ من وراءِ تلكَ الشاشةِ فتاةٌ جِدُّ شقراءَ ظنَّ في البدايةِ أنَّ تلكَ القناةَ التلفازيَّةَ أجنبيةٌ أو تابعةٌ لقناةٍ أجنبيةٍ. كانَتْ مذيعةُ نشرةِ الأخبارِ صاحبةَ لونٍ أشقرَ أو تَمَّ "تشقيرُها" بعنايةٍ. ما أنْ انتهتْ نشرةُ الأخبارِ حتى ظَهرتْ فتاةٌ أخْرى ذاتُ لونِ وجهٍ أبيضٍ فاقعٍ وشَعْرٍ مصبوغٍ باللونِ الأشقرِ. بعدَ قليلٍ ظَهَرَ مُقدِّمُ برامجَ أخرى لَمْ يظهرْ لهُ أيُّ شَواربَ مهما يكنْ لونُها؛ تَمَّ طلاءُ! وجههِ باللونِ الأبيضِ بشكلٍ مبينٍ. ظهرتْ مذيعاتٌ أخرياتٌ بألوانٍ ورديةٍ وبيضاءَ ومُحَمَّرةٍ وشَقراءَ وظَهَرَ مقدّمو برامجَ بيضٌ وحُمْرٌ وشُقْرٌ وقَليلٌ من أصحابِ اللونِ البنيِّ الفاتحِ. لقد ضحَّت إدارةُ مَحطّةِ البثِّ التلفزيونيِّ "باللونِ الوطنيِّ" للبلدِ من أجلِ جذبِ أكبرَ قدْرٍ مُمكنٍ من المشاهدينَ!. حتى المشاهدونَ أنفسُهُمْ الذين هُمْ في معظمِهِمْ من ذَوي اللونِ الأسْمرِ يطلبونَ اللونينِ الأشقرَ والأبيضَ للاستمتاعِ برؤيةِ البرامجِ التلفزيونيةِ وحتى برؤيةِ والمُحافظةِ على متابعةِ النشراتِ الإخباريةِ!. في البدايةِ ظَنَّ الدكتورُ حمد أنَّ تلكَ المَحطّةَ الإعلاميةَ هي الوحيدةَ الشاذّةَ! في تقديمِ مذيعيها وبرامجِها بالطريقةِ "القوقازيةِ" تلكَ؛ تلكَ المَحطّةُ التي طَمَسَتْ وأذلّتْ من لَمْ يكنْ لونُهُ أشقراً أو أبيضاً، بعلمٍ أو بغيرِ علمٍ وبقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ. أدارَ الدكتورُ حمد هوائيَّ التلفازِ ليلتقطَ المَحطّاتِ للدولِ المُجاورةِ ليرى أنَّ المَحطّاتِ الأخرى تُمارسُ نفسَ الأسلوبِ مع أهلِ الأوطانِ لكلٍّ منها وربّما بطريقةٍ أكثرَ طَمْساً وإهانةً وإذلالاً عندَ كلِّ ذي حِجْرٍ في المنطقةِ. ما الذي يَجعلُ ظاهرةَ "التّشقيرِ والتبييضِ" تسيطرُ على عقولِ مديري مَحطّاتِ

التلفزيونِ والبرامجِ والمسلسلاتِ المقدَّمةِ؟!. ما الذي يريدونَ فعلَهُ بأكثرَ من ٨٠% من أهلِ المُجتمعِ من الذينَ يتبعونَ "المذهبَ الأسْمرَ أو البنّيَّ الفاتحَ" في لونِ البشرةِ؟!. على أصحابِ اللونِ الأسْمرِ أنْ يَجلسوا في بيوتِهِمْ ملومينَ مَحسورينَ على سوءِ الحظِّ الذي وقعوا فيه بسببِ خَلْقِهِمْ بذلكَ اللونِ الأسْمرِ الذي سادتْ عليهِ الألوانُ الأخرى خاصةً الأبيضُ والأشقرُ والأرجوانيُّ!. الرسالةُ من مديري مَحطّاتِ التلفازِ العربيةِ إلى المشاهدينَ الكرامِ واضحةٌ؛ على أصحابِ اللونِ الأسْمرِ من الآنَ فصاعداً التزاوجَ مع شقرٍ أو بيضٍ لكيْ تُتاحَ لَهُمْ فرصةُ تصحيحِ ألوانِ بشرةِ وجوهِهِمْ وجلودِهِمْ. إنَّ اللونَ العربيَّ، كما الدمَ العربيَّ، أصبحَ الآنَ غيرَ مُحَبَّذٍ أو مُسْتَحَبٍّ أو مرغوبٍ فيه.

في مسقطِ رأسِ الدكتورِ حمد وأثناءَ تفقُّدِهِ لِمرافقِ المدنِ المتخصصةِ في التجميلِ ومستحضراتِهِ وَجَدَ أنَّ هنالكَ ميزانيةً ضخمةً تُخصَّصُ لتبييضِ أو "تشقيرِ" وجوهِ النساءِ. مثلاً العريسُ والعروسُ يذهبانِ إلى صالونٍ خاصٍّ لتحويلِ ألوانِهِمْ قدْرَ الإمكانِ للّونِ الأبيضِ أو الأشقرِ ولو حتى لليلةِ العرسِ أو "شهرِ عسلٍ" ما بعدَ العرسِ. ذلكَ لأنَّ هؤلاءِ العرسانَ قد أشبعوا، من حيثُ يدرونَ ولا يدرونَ، عن طريقِ مراقبةِ برامجِ التلفزيونِ المستمرةِ بفكرةِ أنَّ اللونينِ الأبيضَ والأشقرَ يتربَّعانِ على قمَّةِ مَجْدِ جَمالِ الألوانِ الأخرى، إنْ صحَّ التعبيرُ. تولَّتْ طبقةُ "القومبرادور" لِمستحضراتِ التجميلِ رعايةَ الأمرِ وعلى طريقتِها الخاصّةِ بإغراقِ الأسواقِ المَحلّيةِ بمستحضراتِ تجميلٍ مستوردةٍ من الأنواعِ التي أسعارُها لا ترحمُ لا الغنيَّ ولا الفقيرَ ومن كافةِ الألوانِ. ازدهرتْ تجارةُ أحْمرِ الشفاهِ وأزرقِ العيونِ! وأشقرِ الشعرِ! وأبيضِ الوجوهِ! وما يتبعُ ذلكَ الكثيرُ. فوقَ هذا وذاكَ تعزَّزتْ مكانةُ البيضِ والشُّقرِ والأرجوانيينَ وبدؤوا يستهترونَ ويستخفّونَ ويستهزئونَ بكافةِ الألوانِ الأخرى حتى لو كان أصحابُ الألوانِ الأخرى يتفوّقونَ عليهِمْ في الجمالِ الشكليِّ وجَمالِ الطيبةِ والأنوثةِ! وحسْنِ الخلقِ وأدبِ التعاملِ مع الحياةِ. باختصارٍ ذهبتْ كلُّ القِيَمِ والمعاني الرفيعةِ والنزعاتِ الطّيبةِ تَحْتَ نعالِ الشقراواتِ والبيضاواتِ والأرجوانياتِ ونعالِ ذويهِنَّ وأزواجِهِنَّ!. تسابقَ أصحابُ الألوانِ الأخرى على مَخازنِ "القومبرادور" للتجميلِ مُحاولينَ اللّحاقَ بأيَّةِ طريقةٍ مُمكنةٍ بقطارِ الجمالِ الأشقرِ والأرجوانيِّ والأبيضِ متخلّينَ عن نُبْلِ جَمالِهِمْ الطبيعيِّ الأخّاذِ ورَوْنَقِ قوامِهِمْ الطبيعيِّ العذبِ.

أبوالزهو: يا صديقِيَ يبدو أنَّ شكلَكَ هذا اليومَ مُختلفٌ بعضَ الشيءِ!. خاصةً بعدَ كلِّ زيارةٍ للمدينةِ تعودُ حاملاً هَمَّ شيءٍ جديدٍ. أرى هذه المرّةَ بعيونِكَ ألوانَ قوسِ قُزَحْ متشابكةً!.

الدكتورُ حمد: وكيفَ عَرفتَ ذلكَ يا صديقِيَ أبوالزهو النفسانيَّ العبقريَّ؟!.

أبوالزهو: أعرفُكَ يا صديقِيَ، بعدَ عِشْرَةِ أكثرَ من رُبعِ قرنٍ من عمرِ الزمانِ، أعرفُ ما بِخفايا عقلِكَ وعيونِكَ وتفكيرِكَ. لا تأتِ اليومَ لتقولَ لِيَ أنَّكَ اكتشفتَ شيئاً جديداً عن نواتجِ اتفاقيةِ "سايكسْ-بيكو" و"وعدِ بلفورِ التاريخيِّ المشئوم"!.

الدكتورُ حمد: هل تعلمُ يا صديقِيَ أنَّ مقاييسَ الجمالِ والأنوثةِ والعذوبةِ تُحَدَّدُ الآنَ حسبْ مقاييسَ مُحدّدةٍ من أصحابِ الألوانِ الأشقرِ والأبيضِ وحتى الأرجوانيِّ؟!. تَمَّ إلغاءُ الألوانِ الأخرى على كثرةِ أصحابِها من كافةِ مَحطّاتِ البثِّ التلفزيونيِّ في المنطقةِ كلِّها. هذا بالإضافةِ إلى اختفاءِ تلكَ الألوانِ تقريباً من الصّحفِ والمَجلاتِ

حيثُ أصبحَ وضعُ هؤلاءِ البشرِ في مكانٍ أو درجةٍ لا يُحسدونَ عليهِ أو عليها. إنّهُ الغباءُ المطبقُ على المُجتمعِ حيثُ تضحّي الدولةُ بالثقةِ بالنفسِ والشكلِ والقوامِ عندَ أهلِها في برامجَ إعلاميةٍ معدّةٍ سلفاً كما يبدو من أجلِ ذلكَ!. أتساءلُ مع نفسِي لِماذا يركّزُ مديرو برامجِ التلفزيونِ على فتياتٍ شقراواتٍ أو بيضاواتٍ لإذاعةِ نشرةٍ للأخبارِ مثلاً!؟. وإذا لَمْ تكنْ تلكَ الفتاةُ شقراءَ أو بيضاءَ يقومُ صالونُ التجميلِ التابعُ لِمَحطّةِ البثّ التلفازيِّ بعملِ ما بوسعهِ "لتشقيرها" أو تبييضِها!. الهدفُ المهمُّ لديهِمْ في الصالونِ أنْ لا يُبقوا للّونِ الأصليِّ عندَ تلكَ الفتاةِ أيَّ أثرٍ!.
سرحان: صارَ وأضحى وأمسى وأصبحَ رعاةُ الأبقارِ والأغنامِ هنا يطلبونَ أيادي البناتِ الشقرِ والبيضِ ويبتعدونَ عن الألوانِ الأخرى مهما تكنْ زاهيةً. أعتقدُ أنَّ ذلكَ جاءَ من تأثيرِ التعليمِ حيثُ يعودُ المتعلّمونَ في الخارجِ بزوجاتٍ من الجنسِ الأشقرِ والأبيضِ وحتى الأرجوانيِّ الأحمرِ قليلاً. يتباهونَ بزوجاتِهِمْ أمامَ المساكينَ والمسكيناتِ من الذين لَمْ يُحظوا بذلكَ التعليمِ عاليَ المستوى!.
"هيما": ولو كانتْ وسائلُ البثِّ الإعلاميِّ منتشرةً على زمانِ الوالدِ أبو جاسر قبلَ أنْ يتزوجَ الوالدةَ أم جاسر ربّما لِما كُنّا موجودينَ الآنَ مع بعضٍ يَجمعُنا رَحِمٌ واحدٌ وصُلبٌ واحدٌ وسقفٌ واحدٌ، خاصةً أنَّ الوالدةَ أم جاسر سَمراءُ الهويةِ والهوى.
الدكتورُ حمد: لكنِ ماذا يفيدُ المرأةَ والفتاةَ من تغييرِ لونِها إلى لونٍ آخرَ بعيداً عن طبيعتِها الأصليةِ. غيرُ معقولٍ أنْ تُناطَ قيادةُ الجَمالِ في بلادِ السّمْرِ إلى الشُّقْرِ والبيضِ. هذا ما يَحدثُ أيضاً في الفكرِ والعلمِ حيثُ أنيطتْ القيادةُ إلى الجنسِ القوقازيِّ الدوليِّ!.
أبوالزهو: في نِهايةِ الأمرِ، كلُّ شيءٍ قسمةٌ ونصيبٌ، على حدِّ تعبيرِ البشرِ المتكرِّرِ!.
"فَلْحَة": الصّغارُ يرغبونَ بالتعاملِ مع كافّةِ ألوانِ البشرِ بالتّساوي؛ بالتأكيدِ سيغيِّرونَ رأيَهُمْ فيما بعدُ بسببِ إصغائِهِمْ المستمرِّ لوسائلِ الإعلامِ المُختلفةِ التي تنتقي بعضَ ألوانِ البشرِ وتركّزُ على إظهارِها كما لو كانتْ مُمَيّزةً عن غيرِها.
الدكتورُ حمد: ولوَ كانتَ لديَّ سلطةٌ في أيِّ بلدٍ لأخبرتُ الناسَ أنَّ الجمالَ والحياةَ ليسا باللّونِ. إنَّ الجمالَ يكمُنُ في كلِّ الألوانِ وبالتساوي؛ أنادي بالمساواةِ بينَ الألوانِ في الجمالِ.
سرحانَ و"هيما" وأبوالزهو و"فَلْحَة": ما رأيُكَ بأغنيةٍ نطربُ عليها!، على كافةِ الألوانِ الأشقرِ والأسْمرِ والأبيضِ والأسوَدِ .... كلُّها في آنٍ واحدٍ.
الدكتورُ حمد: من الصّعبِ الآنَ الحصولُ على أغنيةٍ تَجمعُ كلَّ تلكَ الألوانِ ... لكنْ من مفكِّرَتِيَ الذهنيةِ أُحِبُّ الصّوتَ المَجونَ الأصيلَ عندَ شيختِنا "نَجاح ... سلام"
.... دن دن رن جن .. دو ري دو ري مي ... يا ريم وادي ثقيف!، لطيف جسمك لطيف، ما شفت أنا لك وصيف في الناس شكلك ظريف!...
المَجموعةُ: في الناسِ شكلُكَ ظريفٌ!.
الدكتورُ حمد: إيش (ماذا) بس نالك من ضناي!؟ الوصل غاية مُناي، بالله حقِّقْ رجاي (رجائي) من يقصدك ما يخيب!.
المَجموعةُ: مَنْ يقصدُكَ ما يَخيبُ!.
الدكتورُ حمد: أنت المنى والأمل، في مهجتي لك مَحل، يا من في حسنه اكتمل، ما ترحمه للوصيف...
المَجموعةُ: ما ترحمه للوصيفِ!.

سرحان: لكنْ! لا توجدُ في هذه الأغنيةِ ألوانُ وجهٍ وشعرٍ كما في التلفزيونِ.
أبوالزهو: كلُّ من دَخَلَ المهجةَ من الألوانِ فهو جَميلٌ يا فَصيحاً!.

في بيتِنا قَسْوَرَةٌ

منذُ دخولِ الاحتلالِ البلادَ قبلَ أكثرَ من عقديْنِ من الزمنِ، بدأَ بخطواتٍ مدروسةٍ ومبرمَجةٍ وهادفةٍ إلى اقتلاعِ أكبرِ عددٍ مُمكنٍ من السّكانِ من أراضيهِمْ. تشملُ الإجراءاتُ الإرهابيةُ كلَّ مناحي الحياةِ وتؤثِّرُ سلباً على الإنسانِ من طورِ الجنينِ على وشكِ التكوينِ وحتى الكهلِ على وشكِ الرحيلِ وحتّى ما بعدَ رحيلهِ عنَ الحياةِ (قامَ الاحتلالُ بجرفِ مقابرِ الموتى بحججٍ كثيرةٍ منها الأمنيةُ ومنها التاريخيةُ والدينيةُ!). اعتمدتْ تلكَ الإجراءاتُ على تجاربَ علميةٍ مستقاةٍ من علمِ النفسِ والاجتماعِ والبيئةِ ودروسٍ منتقاةٍ من أكثرِ حُقبِ التاريخِ سواداً على الإنسانيةِ. حربُ استنزافٍ معلنةٌ وتسيرُ على قدمٍ وساقٍ وبشكلٍ مُقنَّعٍ كذلكَ من قِبَلِ عدوٍّ تَمَّ تَجهيزُهُ بكلِّ أنواعِ الأسلحةِ ضدَّ شعبٍ أعزَلَ تَمَّ تَجريدُهُ من كلِّ أنواعِ الأسلحةِ؛ اعتُبِرَ منجلُ الحصّادِ بأيدي الفلاحينَ، وبكلِّ عنجهيةٍ، سلاحاً خطراً على وجودِ جيشِ الاحتلالِ الذي يَمتلكُ سلاحاً نووياً. بكلِّ بساطةٍ ودقةٍ في الوصفِ، في آنٍ واحدٍ، فقدْ كانَ الوضعُ أشبهَ بصيادٍ حاقدٍ مدجَّجٍ حتى أسنانهِ بالسّلاحِ الفتّاكِ في "غابةٍ"؛ أُعطِيَ هذا الصيّادُ! صلاحياتٍ كاملةً ومطلقةً في تلكَ "الغابةِ" التي تعجُّ بمُختلفِ الأحياءِ. ليسَ فقط تَمَّ تَجريدُ ذلكَ الشعبِ الضحيةِ من أيِّ سلاحٍ فعّالٍ للدفاعِ عن النفسِ لكنْ تَمَّ تأمينُ حمايةٍ وحصانةٍ دوليةٍ سياسيةٍ كاملةٍ ومطلقةٍ عن كلِّ أعمالِ العدوِّ وجرائمهِ، الكبيرةِ قبلَ الصّغيرةِ. تلكَ الجرائمُ والأعمالُ الهمجيةُ يَخجلُ! عُتاةُ النازيةِ والفاشيةِ والعنصريةِ ومَحاكمِ التفتيشِ الدينيةِ عندَما يعلمونَ بمجرياتِها، أو أنَّهُمْ سيحسدونَ مرتكبيها على فكرِهِمْ المبدعِ في التفنُّنِ في تطبيقِها بإحكامٍ!.

أدَّتْ فظاعةُ وتراكمُ تلكَ الأعمالِ العدوانيةِ الهمجيةِ من الاحتلالِ إلى قيامِ "حركةٍ شعبيةٍ" عارمةٍ شمَلَتْ كلَّ فئاتِ الشعبِ تقريباً من سنِّ جنينٍ في طورِ التكوينِ إلى الذينَ يوشكونَ على الرحيلِ عن الحياةِ من ذكرٍ وأنثى. كانَ المنظرُ مشبعاً باليأسِ المُكَحَّلِ ببعضِ الأملِ؛ الأملُ هو الخلاصُ من كابوسِ الاحتلالِ الذي تَمكّنَ من إرسالِ جذورٍ لهُ في كلِّ شيءٍ من أسسِ المعابدِ إلى قمَمِ الجبالِ إلى الينابيعِ الغائرةِ. يصعبُ وصفُ حالةِ الاحتلالِ بكلماتٍ من أيِّ قاموسٍ لغويٍّ أو ثقافيٍّ أو تاريخيٍّ من حياةِ بني الإنسانِ القديمةِ والحديثةِ. للاحتلالِ قاموسٌ خاصٌ يَحتوي كلماتٍ من مثلِ إرهابٍ وإذلالٍ وتَجويعٍ وتعطيشٍ وحصارٍ وعنجهيةٍ وتَجَبُّرٍ ومصادرةِ حقوقٍ واحتقارٍ وازدراءٍ وتَحقيرِ معتقداتِ الآخَرينَ ونشرِ الفوضى والفسادِ الخُلُقيِّ والإداريِّ والتلوثِ البيئيِّ ... . القائمةُ طويلةٌ جداً. بدا وضعُ الوطنِ للدكتورِ

حمد مثلَ جِسمٍ مشلولٍ واقعٍ بينَ فكَّيْ تمساحٍ ضخمٍ يتضوّرُ جوعاً، أو مثلَ كائنٍ بَحريٍّ حيٍّ لَمْ يَفلتْ منَ كمينٍ نُصب لهُ من قِبَلِ "أخطَبوطٍ". الموقفُ رهيبٌ يفوقُ الخيالَ وصفُهُ ولا يعرفُ عنهُ الكثيرَ إلا من وقعَ في براثنهِ. ليس ذلكَ أكبرَ المشاكلِ والهمومِ بل كِبَرُ البلاءِ يتمثّلُ بكيفيةِ الإفلاتِ من ذلكَ الوضعِ!؟.

المَحلاتُ التجاريةُ في المدينةِ مصابةٌ بما يشبهُ الشللَ، ما أنْ تُفْتَحَ حتى تُغْلَقَ إما عُنوةً من قِبَلِ جنودِ وضباطِ مُخابراتِ الاحتلالِ أو احتجاجاً على تصرفاتِ الاحتلالِ نفسهِ. منذُ زمنٍ ليسَ ببعيدٍ كانَ قسمٌ لا بأسَ عليهِ من تلكَ المَحلاتِ مزدهراً بالمنتجاتِ المَحلّيةِ من الحقلِ والمزرعةِ والبيتِ والمعملِ والمصنعِ المتواضعِ؛ اليومَ يَجلسُ أصحابُها أمامَ ما تبقّى من القليلِ من بضائعهمْ يتلاهونَ بطردِ أسرابٍ من الذبابِ الذي يأتي إلى صاحبِ المَحلِّ دونَ إذنٍ! أو معوّقاتٍ. هنالكَ المَحلاتُ الأخرى والتي استُبْدِلَتْ منتجاتُها المَحلّيةُ والزراعيةُ بمنتجاتٍ من مصانعِ الاحتلالِ المنتشرةِ فوقَ أشلاءِ الوطنِ والشعبِ. كلُّ الأسواقِ في الأرضِ المُحتلةِ تشكو من هذا الإهلاكِ المبرمجِ للحياةِ من قِبَلِ جيشٍ وشرطةٍ ومُستَجْلَبي الاحتلالِ وباستخدامِ السّلاحِ الناريِّ في معظمِ الأحيانِ. السّلاحُ المستخدمُ كلُّهُ من إنتاجِ وتمويلِ دولةٍ عظمى وعضوٍ دائمٍ في مَجلسِ الأمنِ تَمتلكُ ثرواتِ العالَمِ الطبيعيةِ والبشريةِ والفكريةِ؛ كلُّها تَمَّ تسخّيرُهَا لتوضعَ تَحْتَ نَعْلَيْ جنديِّ الاحتلالِ وَبكلِّ امتنانٍ!.

كانتْ عقاربُ السّاعةِ تشيرُ إلى حوالَيْ العاشرةِ صبَاحاً، في جوٍّ باردٍ صحوٍ وماطرٍ أحياناً، عندما كانَ الدكتورُ حمد وبرفقةِ أحدِ أصدقائهِ في القريةِ، السّيدِ "سِنانٌ"، يتمشَّيانِ على طريقٍ تسلكُهُ العجلاتُ إلى المدينةِ. كان الدكتورُ حمد يُحاولُ استرجاعَ بعضِ ذكرياتِ الماضي التي لا يُمكِنُ أنْ تعودَ ولو بشيءٍ بسيطٍ من طبيعتِها الأصليّةِ. فجأةً! ظهرتْ دوريةٌ آليةٌ عسكريةٌ تقودُها سيارةُ مُخابراتٍ للاحتلالِ. قامَ الضابطُ المسئولُ وبرفقةِ جنودٍ لهُ بتصويبِ أسلحتِهِمْ باتّجاهِ الدكتورِ حمد وصديقِهِ السّيدِ "سِنانْ". أمرَهُما الضابطُ والذي كان يتكلّمُ اللغةَ المَحلّيةَ بطلاقةٍ أنْ يسلّماهُ بطاقَتَيْ هويتِهِما وطَلَبَ منهُما التوجُّهَ سيراً على الأقدامِ إلى مركزِ القريةِ حيثُ ستجري بعدَ قليلٍ من حينهِ عمليةٌ أمنيةٌ ضدَّ سكانِ القريةِ!. توجَّهَ الدكتورُ حمد والسّيدُ "سِنانْ" وبخطًى بطيئةٍ تارةً ومتسرّعةٍ تارةً أخرى، حتى وَصَلا إلى مركزِ القريةِ. كانت دوريةُ الاحتلالِ قد فَرَضَتْ حظْرَ التجوالِ على مركزِ القريةِ بعدَ أنْ جادَتْ على السّكانِ هناكَ بما كانتْ تَحملُهُ من قنابلِ الأعصابِ والمسيلِ للدموعِ والطلقاتِ الناريةِ والمطاطيةِ من مُختلفِ الأعيرةِ!. (كانَ الاحتلالُ يستخدمُ الرصاصَ المطاطيَّ بشكلٍ رمزيٍّ وبسيطٍ للتغطيةِ الإعلاميةِ على استعمالِ الرصاصِ الحيِّ والذي كانَ في أغلبِ الأحيانِ من نوعِ الرصاصِ المتفجّرِ؛ حيثُ ما أنْ تدخلَ الرصاصةُ جُمجمةَ رأسٍ أو صدرَ المصابِ حتى تنفجرَ بدورِها مُحدِثةً إصاباتٍ قاتلةً أو خطيرةً جداً في أحسنِ الأحوالِ).

الضابطُ المسئولُ عن الدوريةِ (في مركزِ القريةِ): ماذا تفعلانِ هنا وماذا تريدانهِ منّا؟!.

الدكتورُ حمد: نَحْنُ اللذانِ قُمْتَ بمصادرةِ هويتِهِما قبلَ حوالَيْ نصفِ ساعةٍ من الآنَ وأمرْتَهُما بالقدومِ إلى مركزِ القريةِ هنا!.

الضابطُ المسئولُ: آه .... تذكّرْتُ!. هل ترونَ تلكَ "الرايةَ" (العلمُ الوطنيُّ) المرفوعةَ فوقَ عامودِ الكهرباءِ هناكَ، عليكَ بإزالةِ تلكَ الرايةِ في الحالِ!.

الدكتورُ حمد: لكنَّ هنالكَ خطراً كبيراً ماثلاً في أنَّ العَلَمَ ينتصبُ فوقَ مَجموعةٍ كبيرةٍ من الأسلاكِ العاريةِ والمكهربَةِ وإذا ما لَمَسَها شخصٌ بجِسمهِ فإنَّ ذلكَ سيتسبَّبُ بصَعْقهِ كهربائياً؛ ومن على ارتفاعِ ستةِ (٦) أمتارٍ تقريباً تصبحُ احتمالاتُ النجاةِ من الموتِ تساوي صفراً بالمئةِ بعدَ ارتطامِ الجسمِ بالأرضِ!.
جنديٌّ مرافقٌ: عليكَ أنْ تأتيَ بسُلّمٍ وأنْ تنفِّذَ الأوامرَ فوراً أو أطلقْتُ النارَ عليكَ.
السّيدُ "أبو اليَزيد" (أحدُ سكانِ القريةِ أتى من بيتهِ القريبِ يَحملُ سُلّماً): وهذا سلّمٌ طويلٌ ومكوَّنٌ من قطعتيْنِ، تنزلقانِ فوقَ بعضِهما البعضِ، تَسْهُلُ إطالتُهُ أو تقصيرُهُ حسْبَ الحاجةِ!.
الدكتورُ حمد: ولكنَّ هذا السّلّمَ رخوٌ وقديمٌ وغيرُ قويٍّ، ومن الصّعوبةِ بمكانٍ عدمُ! السّقوطِ عنهُ لِمنْ يتمكَّنُ من الصّعودِ عليهِ!.
السّيدُ "أبو اليَزيد": هذا كلُّ ما هو موجودٌ عندَنا في القريةِ!.
الضابطُ المسئولُ: عليكَ أنْ تنفِّذَ الأوامرَ فوراً، "يلّا"... (يلّا هي أيضاً إحدى كلماتِ قاموسِ الاحتلالِ وهيَ مثلَ الكلمةِ الشائعةِ الاستعمالِ .. يالله! بدلاً عن كلمةِ "تَحَرَّكْ"!).
قامَ الدكتورُ حمد بالتسلّقِ على السلَّمِ وتَمَكّنَ بقدرةِ قادرٍ!، فقط، من التخلُّلِ في أسلاكِ الكهرباءِ المتشابكةِ على الطَرَفِ العُلويِّ لعاموَدِ الكهرباءِ. عامودُ الكهرباءِ منتصِبٌ على جانبِ شارعٍ مُعَبَّدٍ ومُحاذٍ لبيتٍ صغيرٍ قديمٍ مكوّنٍ من حجرةٍ واحدةٍ. الرايةُ نفسُها كانتْ قد وُضِعَتْ عندَ نِهايةِ عصاً خَشبيَّةٍ طويلةٍ، من بقايا خشبٍ مستعملٍ عندَ أحدِ البنّاءينَ المعماريّينَ هناكَ.
الدكتورُ حمد: لا أستطيعُ الوصولَ إلى الرايةِ، ولَمْ يبقَ من السلَّمِ أيَّةُ "تَمديدةٍ" أخرى إضافيةٍ!.
جنديٌّ (مع رِفَاقهِ يصوِّبونَ سلاحَهُمْ على الدكتورِ حمد): أَنْزِلْ الرايةَ أو أطلقتُ النارَ عليكَ!.
الدكتورُ حمد: يا ابنَ آدمَ!، أكادُ ألْمَسُ فقط بطرفِ قدمِيَ طرفَ رأسِ السلّمِ ولا أستطيعُ الوصولَ إلى الطرفِ السّفليِّ من السّاريةِ وبأطرافِ أصابعِ يديَّ. ماذا تريدُني أنْ أفعلَ؟!. هل أقومُ بعملِ أجنحةٍ للطيرانِ والتحليقِ فوقَ السّاريةِ؟!.
الجنديُّ: وهل تريدُني أنْ أُطلقَ النارَ عليكَ؟، إنّها مُجرّدَ ضَغْطةٍ على الزنادِ وتنتهي، أنتَ والعلَمَ.
امرأةٌ (تَمُرُّ في الشارعِ ذاهبةً إلى بيتِها): ماذا تريدونَ من هذا الحزينِ (المسكينِ)؟!، اتركوهُ وشأنَهُ!.
الجنديُّ: ما هذه كلمةُ حزينٍ!؟. لا أعرفُ ماذا تقولينَ. عليكِ أنْ تذهبي من هنا.
الدكتورُ حمد: سوفَ أحاولُ أنْ أمسكَ بقاعدةِ السّاريةِ حيثُ تبدو المساميرُ بها غيرَ مثبَّتةٍ جيداً. ... حسناً ..... هذه هي السّاريةُ وهذا هو "رمزُ الوطنيةِ والوطنِ" .... تفضَّلْ أيُّها "الضابطُ المغوارُ!".
قامَ الضابطُ المسئولُ بلفِّ العلمِ الوطنيِّ ووضعهِ في كيسِ نايلونٍ صغيرٍ ومعَهُ بعضُ المنشوراتِ ضدَّ الاحتلالِ التي التقطَها من جدرانِ الشارعِ ومع هويَّةِ الدكتورِ حمد الشخصيةِ الصّادرةِ من سلطةِ الاحتلالِ. طلبَ الضابطُ منهُ، أيْ من الدكتورِ حمد، مراجعةَ دائرةِ الحكمِ العسكريِّ في المدينةِ حيثُ المقرُّ العامُّ لدائرةِ "جيستّابو" الاحتلالِ ("جيستابو" هي اسمُ البوليسِ السّريِّ النازيِّ).

الدكتورُ حمد: ما هذا العملُ الذي تقومُ بهِ؟! من فضلِكَ!.
الضابطُ المسئولُ: أنتَ متهمٌ بنصبِ العلمِ وإلصاقِ هذه المنشوراتِ على الجدرانِ ضدَّ الإحتلالِ وسأشهدُ "في المَحكمةِ" أنني أمسَكْتُكَ متلبِّساً بتلكَ الجريمةِ، أنتَ وصديقُكَ!!.
السّيدُ "سِنانْ": بنفسِيَ رأيتُكَ أيُّها الضابطُ تُحاولُ لَمْلَمَةَ ما تسمّيهِ بالوثائقِ لكيْ تُلَفِّقَ لَنا تُهمةً أَمنيةً تتسبَّبُ، ربَّما، بترقيتِكَ في الجنديةِ في جيشِكَ إلى منصبٍ أعلى!.
الدكتورُ حمد: أفهمُ عندما يَخسرُ الإنسانُ عقلَهُ كيفَ يتصرَّفُ، ولكنْ لا أقدرُ أنْ أفهمَ أنَّ إنساناً يَحتفظُ بعقلِهِ! ولكنَّهُ يُغَيِّبُ ضميرَهُ عامداً متعمِّداً وعن سبقِ إصرارٍ ومدى الحياةِ؛ يفقدُ هذا الإنسانُ حتّى حقَّهُ في الحياةِ كإنسانٍ!. لا يقومُ بِهذهِ الأعمالِ إلّا أفرادُ العصاباتِ الإجراميةِ المتخصّصةِ فقط في الجريمةِ وفنونِها....
الضابطُ المسئولُ: حسناً.... في المرَّةِ القادمةِ أنصحُكُمْ بعدمِ السّيرِ على الطرقِ وأنْ تبقوا في بيوتِكُمْ، من أجلِ مصلحتِكُمْ!.
الدكتورُ حمد: سَمعنا بِهذهِ النصيحةِ منكُمْ منذُ أوَّلِ يومٍ من أيامِ الاحتلالِ، وعسى أنْ يأتِيَ يومٌ تذهبونَ ونصائحُكُمْ لتدنيسِ إحدى "مزابلِ" التاريخِ الكثيرةِ!.

هنالكَ أكثرُ من عشرينَ (٢٠) حالةِ موتٍ (بالقَتْلِ!) على أعمدةِ الكهرباءِ ضدَّ أُناسٍ عُزَّلٍ خلالَ أقلَّ من سنةٍ مسئولٌ عنها جنودُ الاحتلالِ المدجّجينَ بالسّلاحِ. ما أنْ يُصَعَقَ الشخصُ المنكوبُ بالكهرباءِ حتّى يتهاوى من على طرَفِ عامودِ الكهرباءِ العلويّ وعلى طولِ السلَّمِ؛ يتهاوى مثلَ طائرٍ كانَ يُحلِّقُ في السّماءِ أصابتْهُ أعيرةٌ ناريَّةٌ هوجاءُ، ليسقطَ إلى أرضٍ صلبةٍ ووعرةٍ في أغلبِ الأحيانِ. تتَكسَّرُ عظامُهُ وعامودُهُ الفقريُّ ورقبتُهُ وجُمجمتُهُ بعدَ تدحرجِهِ! على السُّلَّمِ وارتطامِهِ بالأرضِ تَحْتَ تأثيرِ وزنِهِ. يصلُ! بعدَ ذلكَ إلى بيتٍ وحِضْنِ أمِّهِ كتلةً لَحْميَةً مضرجةً بالدماءِ تغلفُ هيكلاً عظمياً مُتَكَسِّراً. هنالكَ أشخاصٌ مِمَّن تَمَلَّكَتْهُمْ الشجاعةُ ورفضوا أوامرَ الجيشِ بالصّعودِ على أعمدةِ الكهرباءِ؛ كان مصيرُ البعضِ منهُمْ أنَّهُمْ قُتلوا بنيرانِ الجيشِ بدمٍ باردٍ وأُعلِنَ عنهُمْ فيما بعدُ عن طريقِ إذاعةِ الاحتلالِ أنَّهُمْ قُتلوا لأنَّهُمْ لَمْ ينصاعوا! لأوامرِ الجيشِ.

من الندرةِ بمكانٍ أنْ تَمُرَّ ساعةٌ واحدةٌ على الناسِ هناكَ بحالةٍ من هدوءِ البالِ أو الراحةِ النفسيةِ وحتى أيامَ الأعيادِ الدينيةِ. كلَّ ساعةٍ! هنالكَ مواجهةٌ بينَ جيشِ الاحتلالِ والسّكانِ العزَّلِ من أيِّ سلاحٍ، داخلَ المدينةِ والقريةِ والمخيَّمِ وخارجَها. تسُدُّ الحجارةُ المتراكمةُ كافَّةَ الطرقِ والشوارعِ الصّغيرةِ والكبيرةِ وفي نِهايةِ الشارعِ أو الطريقِ تتربَّصُ هنالكَ دوريةٌ للاحتلالِ راجلةٌ أو آليةٌ بجنازيرِها وأنصافِ جنازيرِها؛ يقولُ جنودُ هذهِ الدورياتِ أنَّهُمْ هناكَ لِحفظِ الأمنِ والنظامِ!. ذاتَ يومٍ وأثناءَ مُحاولةِ الدكتورِ حمد للذهابِ إلى المدينةِ لقضاءِ بعضِ الحاجياتِ لَهُ هناكَ وقَعَ بأيدي دوريةٍ "متخصّصةٍ" في حفظِ الأمنِ!. المهمةُ الموكَلةُ إليها ضربُ الشبابِ الذين يقذفونَ دورياتِ الاحتلالِ بالحجارةِ من ضاحيةِ المدينةِ المُجاورةِ. تَحْتَ تهديدِ السّلاحِ الناريِّ وبعدَ مصادرةِ هويّاتِ المارّةِ قامَ جيشُ الاحتلالِ باستخدامِ الدكتورِ حمد ومَنْ معَهُ كدرعٍ بشريٍّ يفصلُ بينَ من يقذفُ بالحجارةِ من بعضِ الصّبيةِ والشبابِ وبينَ الجنودِ الذين يضعونَ بنادقَهُمْ الآليةَ من فوقِ أكتافِ رهائنِهِمْ من المارَّةِ في الشارعِ.

الجنودُ (للدرعِ البشريِّ!): يالله ... يالله .... يالله .... روخ .... إمشي .... يالله .... روخ ... روخ ... (روخ: كلمةٌ يُمكنُ إضافتُها إلى قاموسِ الاحتلالِ وتعني اذهبْ أو امشي أو تحرَّكَ أو "رُخْ" باتّجاهٍ معيّنٍ يُحدّدُهُ الجنديُّ للضحيةِ ببندقيتهِ الآليةِ).

الحجارةُ تتساقطُ على رؤوسِ مَنْ في الدرعِ البشريِّ مِنْ شبابٍ يرشقونَ الجنودَ بالحجارةِ من خلفِ الأسوارِ، هَرَباً من نيرانِ جيشِ الاحتلالِ.

السيّدُ "أبو مَرَدَة" (أحدُ أصدقاءِ الدكتورِ حمد، يصرخُ بصوتٍ عالٍ): يا شباباً!، توقّفوا قليلاً لقد صودرتْ هوياتُنا الشخصيةُ من قِبَلِ جنودِ الاحتلالِ. الحجارةُ التي تقذفونَ بها على الجنودِ تتساقطُ على رؤوسِنا!. الجنودُ يستخدمونَنا كدروعٍ بشريةٍ!.

توقّفَ تساقطُ الحجارةِ على رأسِ الدكتورِ حمد ومنْ معَهُ!.

جنديٌّ: كما ترونَ! هذهِ من الوسائلِ "البسيطةِ" المستخدمةِ للقضاءِ على أعمالِ العنفِ!.

الدكتورُ حمد: هنالكَ طريقةٌ أنْجعُ بكثيرٍ، وهي أنْ تذهبوا إلى من حيثُ أتيتُمْ أو أنْ تظلّوا معَنا هنا في جحيمٍ لا يطاقُ لنا ولَكُمْ!.

ذاتَ يومٍ وبينَما كانَ الدكتورُ حمد في المدينةِ لشراءِ بعضِ المستلزماتِ وقضاءِ بعضِ الحاجياتِ حينَ اندلعتْ المواجهاتُ العنيفةُ بينَ شبّانٍ في المدينةِ التي كان يُحاصرُها الجيشُ ذلكَ الجزءَ منها ومجموعةٌ كبيرةٌ من جنودِ المظلاتِ. كانَ جنودُ المظلاتِ قد وصلوا للتوِّ لاستلامِ مراكزَ لَهُمْ للسيطرةِ على الوضعِ في المدينةِ. قامَ الشبابُ هنالكَ بإشعالِ النارِ بعددٍ كبيرٍ من الإطاراتِ على المدخلِ الصّغيرِ للمدينةِ القديمةِ بحيثُ أصبحَ الدخولُ إلى هناكَ أو التعاملُ مع النيرانِ من أكثرِ الأخطارِ قسوةً. قامَ أحدُ جنودِ الحاجزِ بإنزالِ الدكتورِ حمد ومن معَهُ من سيارةِ الأجرةِ التي كانوا يستقلّونَها وأمرَهُمْ بالتوجّهِ نَحْوَ مركزِ المدينةِ حيثُ النيرانُ المتأججةُ، بعدَ أنْ قامَ بحجزِ هوياتِهِمْ الشخصيةِ لديهِ. هنالكَ قامَ جنودٌ أخَرُ بالاعتداءِ الجسديِّ على الدكتورِ حمد ومن معَهُ وحاولوا قذفَهُمْ داخلَ إحدى حاوياتِ الزبالةِ الضخمةِ وإغلاقِ بابِها عليهِمْ. كانَ من الممكنِ أنْ يؤدّيَ ذلكَ إلى الموتِ بسببِ اختناقِ الشخصِ الضحيةِ بسببِ روائحِ الزبالةِ المحصورةِ. إلا أنَّ محاولةَ الجنودِ فشلتْ بعدَ معركةٍ شرسةٍ! مع الشبابِ المتواجدينَ هناكَ توافرَ فيها بعضُ الحظِّ!. بعدَ ذلكَ طلَبَ الجنودُ من الدكتورِ حمد ومن معَهُ إطفاءَ الإطاراتِ المشتعلةِ بعدَ أنْ أعطوْهُ زجاجةً فارغةً من زجاجاتِ "الكوكا الكولا" (ذاتِ الحجمِ العائليِّ!) ودلّوهُ على مكانٍ لتعبئةِ المياهِ من حنفيةٍ في الطرفِ الآخرِ من الشارعِ. كان على الدكتورِ حمد أنْ يذهبَ إلى موقعِ حنفيةِ الماءِ ويعودَ لإطفاءِ الإطاراتِ، ربَّما مئاتِ المراتِ قَبْلَ أنْ يُطفئَ، ربَّما!، إطاراً مشتعلاً واحداً. بعدَ زمنٍ ليسَ بقصيرٍ خَمَدَتْ النيرانُ بنفسِها، بعدَ أنْ نَفِدَتْ مادةُ الاحتراقِ فيها. كان الدكتورُ حمد برأسِهِ وجسمهِ وملابسِهِ البيضاءَ يبدو مثلَ هيئةِ أحدِ عمالِ مناجمِ الفحمِ الحجريِّ في عصورٍ ما قبلَ اكتشافِ البترولِ!. ما أنْ عادَ الدكتورُ حمد إلى بيتِهِ في القريةِ حتى ظنَّ النّاسُ من حولِهِ هناكَ أنّهُ قد وَجَدَ عملاً "مناسباً" في إحدى وُرَشِ الحدادةِ متواضعةِ الإمكانياتِ في المدينةِ!.

"أبو شريك" (صديقُ الدكتورِ حمد): أففففه (آخ) عليك ... ماذا حدثَ لكَ؟! .... طيب يا زلمة مانت (ما أنت) كاعد (قاعد) عنا (عندنا) هون (هنا) وشو (وماذا) خلاك (جعلكَ) تروح عند الجيش؟! ... الله يلعن يومهم!! .... لليش (لِماذا) رايح (رائح)

جايي (قادم) على اذيال (أطراف) هالطرك (تلكَ الطرقِ)! ... بتشرة (غداً أو بُكْرَة) بتوكعلك (توقعُ نفسَكَ) مع الجيش ما يكدر (يقدرُ) حدا (أحدٌ) "يفتشك" (يفكّكَ) منهم.. ..... (خلاصةُ الكلامِ أنَّ أحدَ أصدقاءِ الدكتور حمد من الكبار في السّنِّ، "أبو شريك"، يُحاولُ أنْ يقنعَهُ بالبقاءِ في أراضي القَريةِ بدلَ المغامَرةِ والذهابِ إلى المدينةِ المُجاورةِ، حيثُ تكثُرُ هنالكَ المواجهاتُ بينَ السّكانِ وجيشِ الاحتلالِ).
الدكتورُ حمد: يا صديقِيَ "أبو شريك"!، لقد كنتُ ذاهباً إلى المَدينةِ لأنّني أردتُ التأكُّدَ فيما لو أتانِي ردٌّ في صندوقِ بريدِيَ، في بريدِ المدينةِ، لأنّني موعودٌ بوظيفةٍ في الخارجِ. لَمْ يأتِنِي ردٌّ بعدُ!، وعسى أنْ يكونَ الأمرُ خيراً. وكما يقولُ المثلُ الأجنبيُّ: "لا-خبرٌ" خيرٌ من خبرٍ سيِّئٍ!. الحياةُ كلُّها مآسٍ، أقلُّها ما هو موجودٌ هنا الآنَ!.
"أبو شريك": لاه (لا) يا زلمة! .... بعد كل هالتعليم (هذا التعليمُ) وهالمشكة (وتلكَ المشقّةِ)، ما تكدر (تقدرُ) تلاكي (تُلاقي أو تَجدُ) شغلة (شُغْلٌ أو عملٌ) في هالبلاد (هذهِ البلادِ) .... الله يلعن يومك! (عبارةٌ تستعملُ للتعبيرِ عن، واللّومِ على، التعثّرِ في الحظّ). طيب لعاد (لكن) ليش (لِماذا) كل هالمخاسر (تلكَ المخاسر) والوكت (والوقتِ) الظايع (الضائعِ) على الحتشي (الحكي أو الكلامِ) الفاظي (الفاضي) اللي (الذي) اسْمه تعليم.....
الدكتورُ حمد: أخي "أبو شريك"، خلّيها مستورةً في سرِّكَ. أقولُ لكَ، وبكلِّ تواضعٍ وصراحةٍ، أنَّ صحبتِيَ مع القريةِ وأجوائِها وحيواناتِها .... أكثرُ فائدةً معنويةً وماديةً وماليةً من التعليمِ الذي تتحدّثُ عنهُ. اللهُ سبحانَهُ وتعالى عندَما يبتلي مَخلوقاتِهِ بكارثةٍ يستُرُ عليهِمْ ..... لأنَّهُ هو السّاترُ السّتّارُ.. ... وهو الرحْمنُ الرحيمُ....
"أبو شريك": يا سديكي (صديقِيَ) والله أبوك، أبو جاسر، الله يرحم روحه .... كال (قالَ) ليا ها (لِيَ إيّاها) هون (هنا)، ولو هالحجر (هذا الحجرُ) بحتشي (يَحكي) وبيخَرِّف (ويتحدَّثُ) وينطك (وينطقُ)، إلا يكول (يقولُ) نفس التشلام (الكلامِ) اللي بكوللكياه (الذي أقولُهُ لكَ). كال (قالَ) لي إنه حمد يعني انت (أنتَ) ذبحني في المصروف وهَراني (من كلمةِ يهري ومهترئٌ) وحتى أفلسني ... بكى (كانَ) موش (غيرُ) املاكي (مُلاقِي) رغيف خبز يوكله (يأكلُهُ) آخر زمانه. والله المية (الماءُ) وهي طايحة (نازلةٌ) في حلكه (حلقهِ) تشانت (كانت) توكّف (تتوقّفْ) خمس دكايك (دقائقَ) كبل (قبلَ) ما تطيح (تنزلُ) في كَلبوه (قلبهِ أو بمعنى بطنه). طيب يعني وبعدين معك! (عبارةٌ تستخدمُ للّومِ والتحذيرِ من شيءٍ غيرِ مستحبٍّ). يعني ما تكدر (تقدرُ) تلاكيلك (تلاقي لكَ) زُخبة (مكانٌ صغيرٌ منعزلٌ) تحط (تضعُ) حالك فيها؟! ... يعني لو أجاك (جاءَكَ) في اليوم مريظين (مريضَيْنِ) أو ثلاثة من المرظى (المرضى) يعني تكدر (تقدرُ) طصطر (تسترُ) حالك يا زَلَمِةْ!.
الدكتورُ حمد: يا صديقِيَ "أبو شريك"!، أنا دكتورُ علوم، ولستُ دكتوراً طبيباً!.
"أبو شريك": لاه يا زَلَمِة ... والله إنه كل فتشري (فكريَ) إنك دكتور بتداوي (تُداوي) الناس. طيب لعاد (غير هذا) شو بتكدر (ماذا تقدرُ) تساوي (تعملُ).....
الدكتورُ حمد: في الوقتِ الحالي أقدِرُ أنْ أغنّيَ لِحالِيَ وحالِكَ وحالِ الذي لَمْ يأتِ لهُ بعدُ حالٌ.

"أبو شريك": طيب يعني بدّك (تريدُ) تظل حاطط (تَحطُّ أو تضعُ) صفحتك (جانبَكَ) على صفحة أبوالزهو؟. أبوالزهو، خلص خَتْيَر (شابَ، وصار في العمر كبيراً، صارَ ختياراً)، دوِّرلك (ابْحثْ لكَ) عن واحد بدالوه (بدلاً عنهُ). أو تحب أنْ تذكرنا بأغنية الشيخ "فهد بلان"... ..... جيت (جئت) ألعبن (لألعبَ) مع البيظ (البيضِ) ما لعابني (لَمْ تلعبْ معِيَ) قالو لي وجتك (وقتُكَ) راح واتعذرنلي (واعتذرنَ لِيَ) ... يا شيخ شوف (رَهْ بعينِكَ) الشيب على الرأس ملتم .... تلعب معانا (معنا) عيب!. .... وانت (أنتَ) لنا عم!.....

الدكتورُ حمد: أحبُّ أنْ أغنِّيَ لك يا صديقِيَ "أبو شريك" موالاً للسَّيدةِ فيروز .... أوف أوف أوف أوف أوووووف أوف!..... بَكّير طلَّ الحبُّ على حيٍّ لنا حامل معه عتوب وحكي ودمع وبكي (بكاء) ... كنا وكانوا هالأولاد مجمعين! .... يا أمي وما بعرف كيييف! نقاني أنا.

التعليمُ العالي

لا تَختلفُ حالُ مؤسساتِ التعليمِ العالي في الدولِ الناميةِ كثيراً عن حالِ التعليمِ الابتدائيِّ والإعداديِّ والثانويِّ؛ هيَ امتدادٌ طبيعيٌّ لَها وتَحملُ كلَّ البصماتِ والمثالبِ والسّلبيّاتِ وزيادةً على ذلكَ، وربّما بكثيرٍ. ما أنْ يتبوَّأَ الأستاذُ، بشكلٍ عامٍّ، منصبَهُ المهيبَ حتى يضعَ رِجْلاً فوقَ رِجْلٍ فوْقَ كرسيٍّ ويتصرفَ مثلَ هؤلاءِ الأباطرةِ الكلاسيكيّينَ ويريدُ أنْ يصبحَ الآمرَ الناهي والمطاعَ!؛ كلُّ هَمِّهِ تَحسينُ مستواهُ المعيشيِّ الذي يعتمدُ على زيادةِ المصروفِ وتكاليفِ الحياةِ فقط ولكنْ مِنْ أينَ يأتي بالمالِ؟!؛ من بيتِ المالِ!. لعضو هيئةِ التدريسِ هذا بيتٌ غيرُ عاديٍّ وسيارةٌ غيرُ عاديةٍ وأسرةٌ مرفهةٌ ترفيهاً غيرَ عاديٍّ يصاحبُها فتحُ مَجموعةٍ مِنَ الحساباتِ المصرفيةِ غيرِ عاديّةٍ؛ ومن خزينةِ الدولةِ لهُ مُخصّصاتٌ وعلاواتٌ لرحلاتٍ سياحيةٍ وامتيازاتٌ ترفيهيةٌ غيرُ عاديّاتٍ!. ماذا يقدِّمُ ذلكَ العنصرُ للمجتمعِ والحياةِ؟؛ مستوى الإنتاجِ كذلكَ غيرُ عاديٍّ!؟. إلا ما رَحِمَ ربُّكَ يتحوَّل هذا الإنسانُ إلى "عِلْجٍ" حقيقيٍّ يشكِّلُ خطراً على المُجتمعِ والبيئةِ من حولهِ! وعلى الثقافةِ المَحلّيةِ والوطنيةِ والقوميةِ التي كانَ عليهِ ومن أولى أولوياتهِ الحفاظُ عليها وتنميتُها؛ لا أنْ يساهمَ وبشكلٍ فعّالٍ في تدميرِها نهائياً. ليسَ ذلكَ الأستاذُ المسئولَ الوحيدَ عن الحالةِ المُزريةِ تلكَ بلْ هو المسئولُ عن جزءٍ كبيرٍ من هذه الكارثةِ الوطنيةِ والقوميةِ والثقافيةِ والفكريةِ، ذلكَ لأنّهُ من المفترضِ أنْ يكونَ أكثرَ الناسِ وعياً وإدراكاً للأمورِ. بفعلِ هذا وذاك وغيرهِ مِمّا سبقَ لا توجدُ مؤسسةٌ وطنيةٌ

علميةٌ واحدةٌ، ومهما تكنْ صغيرةً أو كبيرةً، قادرةٌ على النهوضِ بنفسِها وأنْ تقفَ على أقدامِها في إنتاج أيِّ شيءٍ مهما صَغُرَ يَخدمُ ذلك المُجتمعَ.

تعتمدُ كلُّ الجَامعاتِ الوطنيةِ في الدولِ الناميةِ تقريباً على أشخاصٍ من الخارج أتوْا أو تَمَّ تدريبُهُمْ في الخارجِ، بحجةِ أنَّ عندَ من في الخارج خبراتٍ وعقولاً وقدراتٍ أكبرَ!؛ كلامٌ سطحيٌّ أجوفٌ وفارغٌ ويفتقرُ إلى أيِّ قَدْرٍ من الصّحّةِ. وهنالكَ "أكليشيه" أخرى يكرِّرُ ها المتعلمونَ لا تقلُّ بؤساً وسخفاً لتبريرِ تَخلّفِهِمْ الفكريِّ والإنتاجيِّ ألا وهي الظروفُ السّياسيةُ وغيابُ القرارِ السّياسيِّ للبدءِ بإحداثِ تقدُّمٍ علميٍّ مرموقٍ. مهما تعدَّدتْ الأسبابُ والحججُ والمبرراتُ فالمنطقةُ العربيةُ مثلاً تعيشُ وضعاً شَاذّاً علمياً وعملياً وفكرياً وسياسياً. أصبحَ الناسُ على استعدادٍ لقبولِ أيِّ تدخُّلٍ خارجيٍّ ولو من بقايا الاستعمارِ القديمِ وجحافلِ الاستعمارِ الجديدِ للتخلصِ من وضعٍ كانَ الأوْلى على من يفترضُ أنَّهُمْ متعلّمونَ بالقيامِ بتَصحيحِهِ والنهوضِ بهِ. بدَلاً عن ذلكَ دَخَلَ المتعلّمونَ في منزلقٍ من التلاهي بالملذّاتِ والتلهّي بأمورٍ أقلَّ حتى من وصفِها بالأنانيةِ المُفرطةِ في الغباءِ!.

كانتْ اَللغةُ العربيةُ أولى ضحايا ما يسمّى بالتعليمِ العالي العربيِّ!. أَلفُ ألفُ ما شاءَ اللهُ! على ذلكَ الخرّيجِ العربيِّ الذي لا يتواضعُ للتحدّثِ معَ طلابِهِ باللغةِ العربيةِ ولا يتنازلُ قليلاً عن مَستواهُ لوضْعِ يافطةٍ في الصّفِّ أو في بيتِهِ باللغةِ العربيةِ. ألفُ ما شاءَ اللهُ! على متعلّمٍ في بلادِ الأجانبِ لا يقدرُ أنْ يقومَ بتعدادِ نتيجةِ مباراةٍ لهُ بإحدى ألعابِ التسليةِ إلا بلغةٍ أجنبيةٍ!. ألفُ ما شاءَ اللهُ! على الأموالِ التي ضاعتْ سدىً من أجلِ إنتاجِ هذه العقليةِ الفذّةِ النادرةِ وصاحبِها الذي ينسى أو يتناسى كلمةَ "صباحُ الخيرِ" أو "السّلامُ عليكُمْ" ويستبدلُها بغيرِها من العباراتِ الأكثرَ "حضاريةً وتقدُّماً وهيبةً وإجلالاً واحتراماً"!. لقد أصيبَ هؤلاءِ بالعقرِ الفكريِّ والسّياسيِّ والاجتماعيِّ والإنسانيِّ والسّلوكيِّ، وأصبحوا مثلَ نباتاتٍ مُجتثّةٍ من أرضِها تنتظرُ قدومَ الرياحِ "الذاريةِ" عليْها. المُجتمعُ والحالُ هذهِ مهيَّأٌ لقدومِ جنرالٍ "مصطفى كمال أتاتورك" مهزومٍ جديدٍ لكيْ يبعثَ برسالةٍ إلى مَجلسِ النوابِ، مُنَصَّبٍ بالتزكيةِ المقنّعةِ!، لكيْ يوافقَ عَلى استبدالِ حروفِ الأبْجديةِ بحروفٍ لاتينيةٍ في خطوةٍ ستحسبُ أنَّها نوعيةٌ في التطوّرِ والتقدمِ الحضاريّيْنِ!.

عندَ تقديمِ أيِّ طلبٍ للعملِ في المؤسّساتِ الجامعيةِ العربيةِ يَجبُ أنْ يرفقَ الطلبُ بالشهاداتِ المناسبةِ، شهادةُ دكتوراه وأبْحاثٌ أو منشوراتٌ تَحملُ اسمَ المُتَقَدِّمِ للوظيفةِ ومن ثَمَّ رسائلُ توصيةٍ تشهدُ بقدراتِهِ الإبداعيةِ! مِمّن كانوا على صلةٍ بهِ في السّابقِ!. هنا ينقصُ العنصرُ الأهَمُّ وهو أنَّ ذلكَ العبقريَّ! المشهودَ لَهُ سابقاً، ماذا بمقدرتِهِ أنْ يقومَ بأعمالٍ إبداعيةٍ لاحقاً!؛ طبعاً هذا ليس ببالِ أحدٍ. الإداريونَ يظنّونَ أنّهُ طالَما ثُبِتَتْ عبقريةٌ! المتعلّمِ العالي في مكانٍ ما في العالَمِ فلا يوجدُ أيُّ سببٍ لاختفائِها في مكانٍ آخرَ وبالذّاتِ في هذا المكانِ الذي سيحظى باحتوائِهِ. ملايينُ الخريجينَ في طولِ البلادِ وعرضِها مِمّنْ لَمْ يتمكّنوا من، على سبيلِ المثالِ لا الحصرَ، تصميمِ جهازٍ لصنعِ قارورةٍ أو زجاجةٍ أو إعدادِ خلطةِ مكوناتِ إحدى أنواعِ المشروباتِ السّاخنةِ أو الباردةِ أو الدافئةِ؛ لا القارورةَ ولا العلبةَ ولا مُحتواها!. شللٌ كاملٌ في الدماغِ أصيبَ بِهِ الخريجُ العربيُّ، أو التابعُ للدولِ الناميةِ، ولَمْ يَجلبْ لِمجتمعهِ إلا التبعيةَ والتخلّفَ والتواكلَ البَغيضَ وعلى

مصادرَ خارجيةٍ. لَمْ يتوقّفْ الأمرُ عندَ هذا الحدِّ بل نَقَلَ هذا الخرِّيجُ ذلكَ "الوباءَ" الشّللَ العقليَّ لِلأجيالِ القادمةِ وأوصلَها بكلِّ غباءٍ حتى إلى رياضِ الأطفالِ!.
أصدقاءُ للدكتورِ حمد: نعتقدُ أنّكَ في ذهابِكَ وإيابِكَ وبعدَ حصولِكَ على أعلى درجةٍ علميةٍ، ستحصلُ في النهايةِ على الوظيفةِ المطلوبةِ والمناسبةِ. سنقومُ بزيارتِكَ في المدينةِ والجامعةِ وتذهبُ معكَ بسيارةٍ "خاصّةٍ" لكَ إلى مدنٍ أخرى ونتناولُ أفخرَ أنواعِ الطعامِ في أفخمِ المطاعمِ وبصحبةِ زوجتِكَ صاحبةِ الفخامةِ وشريكةِ مستقبلِكَ. سوفَ نسهرُ في أفخمَ الفنادقِ مع أفخمِ عُتاةِ أهلِ البذخِ والتّرفِ في المنطقةِ!. بعدَ هذا العمْرِ الطويلِ والجهدِ الدءوبِ ليلَ نَهارَ، نريدُ أنْ نرى بعضاً من أفخمِ النتائجِ لذلكَ!.
سرحان و"هيما": ذهبَ الآنَ شبحُ "البَولاكْ" و"الزحلاك" و"البراهما" و"الدهولاك" و"الكُربول" و"المَراطلة" و"البقّار" و"الهونايْكرنْكو" و"الشّلّاق" و"الفالكُنْ" و"البوهير" ..... آنَ الأوانُ لِميلادِ حياةٍ جديدةٍ ملؤُها السّعادةُ والهناءُ والفخامةُ!.
الدكتورُ حمد: تعرفونَ أنَّ التعليمَ العالي باتَ الآنَ مثلَ سلعةٍ تباعُ ولا تشترى؛ هذا مِمّا يُخضعُ السّوقَ لقانونِ أكثرَ حقارةً من قانونِ العرضِ والطلبِ!. اكتظَّتْ المؤسّساتُ العليا بالشهاداتِ العاليةِ وصارتْ قيمةُ الشهادةِ العاليةِ تقتربُ شيئاً فشيئاً من قيمةِ ورقةِ الحمّامِ التي تُستخدمُ مرّةً واحدةً!. لا يوجدُ يا جَماعةَ الخيرِ! مكانٌ لائقٌ فيهِ مُختبرٌ أو مؤسّسةٌ واحدةٌ مؤهّلةٌ للقيامِ بعملِ أيِّ شيءٍ مِمّا يطمحُ إليهِ أيُّ عقلٍ بشريٍّ أو حتى غيرَ بشريٍّ. الوضعُ غارقٌ في الكآبةِ حتى أعلى الرأسِ لكلٍّ منّا.
سرحان: هل تريدُ أنْ تقولَ لنا بعدَ هذه السّنينِ العجافِ والشرسةِ والتعبِ المتواصلِ أنّكَ لن تتمكّنَ من الحصولِ على وظيفةٍ مناسبةٍ لكَ؟؛ هذا سبيلٌ بينَنا وبينَكَ. عليكَ أنْ تفعلَ ما يناسبُكَ، وما لا يناسبُك، لكسبِ عيشِكَ أو تَموتَ جوعاً وذلاً ومهانةً!. ليس لكَ عينٌ أو وجهٌ الآنَ لإلقاءِ اللّومِ على الآخرينَ. أصبحنا وأمسيْنا وبِتْنا وأضحيْنا وصرْنا نَشُكُّ في كلِّ كلامِكَ السّابقِ والحاليِّ واللاحقِ عن "البَولاكْ" السّابقِ أو أيِّ "بَولاكٍ" آخرَ. كلُّ البشرِ عندَكَ صاروا "بَواليكَ"! فَلتخجلْ قليلاً من نفسِكَ؛ بل عليكَ أنْ تذهبَ إلى "البَولاكِ" الأصليِّ، إنْ كان لا يزالُ على قيدِ الحياةِ، وتعتذرَ لهُ ولأيِّ "بَولاكٍ" آخرَ تصادفُهُ في طريقِكَ!.
الدكتورُ حمد: يا أحبّائِيَ!، يا قبلَ وبعدَ عمريَ، أروحُ لكُمْ فدوةً!، فَدّيتُكُمْ (على رأيِ أهلِ الخليجِ)، أفديكُمُ، يا قرّةَ عينيَّ، أرجوكُمْ أنْ تفهموا عليَّ. إنَّ ما بدأ بهِ "البَولاكُ" وأصحابُهُ أصبحَ الآنَ ظاهرةً عامّةً وطامّةً تَجتاحُ الأجيالَ العربيةَ مِنَ المهدِ إلى اللّحدِ. إنَّ ما صفقْنا لهُ منذُ البدايةِ على أساسِ أنّهُ تقدُّمٌ وتطوّرٌ ورقيٌّ وعصرنةٌ، أصبحَ اليومَ عنوانَ التخلّفِ والتبعيةِ والعُقْرِ والشّللِ الفكريِّ الإراديِّ واللا-إراديِّ!. الآنَ نتحدّثُ عن قومٍ يُغَيَّبُ بل يُقْتَلُ فيهِمُ المبدعونَ والمفكّرونَ والمخلصونَ لشأنِ الحياةِ والأمّةِ.
سرحان: لَمْ تتركْ لنا مَجالاً للكلامِ معكَ. إنَّ الجدلَ معكَ الآنَ، كما كان في السّابقِ، مثلَ مُحاولةِ كسرِ حبةِ البندقِ بلثّةِ أسنانِ العجوزِ!.

"هيمـا": أريـدُ أنْ أكـرِّرَ اقتراحـاً سـابقاً عليـكَ. مـاذا لـو ذهبـتَ عنـدَ أولادِ عمِّـكَ "يتسحاق"؟ ربَّما تَجدُ عندَهُمْ ما يناسبُكَ؛ أيُّ شيءٍ مهما صَغُرَ. لعلّ وعسى أنْ ننتهيَ من هذا الهمِّ الذي اسْمُهُ "خَميسٌ"!.
الدكتورُ حمد: إنَّ تلبيةَ طلبِكَ هذا يشبهُ الهربَ من "الدَّلَفِ" إلى السّقوطِ في مَجرورِ البلديةِ!.
"فَلْحَة": لنُغَيِّرْ موضوعَ الحديثِ عن الجامعاتِ والكلّياتِ والتعليمِ العالي والمتوسّطِ والتوظيفِ وكسبِ الرزقِ؛ كلُّ ذلكَ يسبِّبُ في الرأسِ صُداعاً لاَ يطاقُ. ألا تذكرُ يا أخِيَ حمد عندَما كنتُ صغيرةً في المدرسةِ وكتبتَ لِيَ مقالةً بعنوانِ "أنا ... اللغةُ العربيةُ الفصحى" والتي ألقيتُها في المهرجانِ الثقافيِّ لطالباتِ مدارسِ الإناثِ في المدينةِ؟. اليومَ تذكَّرتُ حصوليَ على جائزةٍ؛ أينَ تلكَ الجائزةُ؟!، أريدُ الجائزةَ الآنَ. أريدُ أنْ أريَ الجائزةَ لأولادِيَ الصّغارِ لكيْ يعرفوا شيئاً عن ماضِي أمِّهِمْ العريقِ!.
الدكتورُ حمد: لا أعرفُ، يا أختِيَ "فَلْحَة"، أين ذهبتْ تلكَ الهديةُ. لقد كانتْ تَحتوي على منديلٍ للرأسِ وزوجٍ من الجواربِ وبضعِ قِطَعٍ من الطباشيرِ وبعضِ الأقلامِ ومِمْحاةٍ، بِناءً على ما أَتَذكرُهُ. أظنُّ أنَّها ضاعَتْ جَميعُها وأصبحتْ الآنَ في ثنايَا ماضي الزمنِ!.
أبوالزهوِ: لاَ... لَمْ يَضِعْ شيءٌ منها، لقد احتفظتُ بها لكُمْ. خذيها يا أختَنا "فَلْحَة"، لا حاجةَ لِيَ بمناديلَ للرأسِ ولا جواربَ ولا أقلامَ حبرٍ أو رصاصٍ. كلُّها مُخبّأةٌ في صندوقٍ عتيقٍ من الخشبِ موضوعٍ بينَ مِذْوَدِيَ وسريرِ الخشبِ الذي كان يرقدُ عليهِ الوالدُ أبو جاسر عندَما كانَ بالأمسِ حيّاً. لا حاجةَ لِيَ بالممحاةِ لأنّني متأكدٌ أنّهُ إذا ما كتبتُ فلنْ أخطئَ؛ لا يوجدُ عنديَ أخطاءٌ في الأفكارِ ولا في قواعدِ اللغةِ ولا في الأصولِ ولا في الإملاءِ ولا في بلاغةِ التعبيرِ وحسْنِ الصّياغةِ. لقد كتبتُ خلالَ الشـهرِ الماضـي إحـدى رسـائلِيَ الكثيـرةِ وعلـى مَجلـةِ حـائطِيَ القريـبِ مـن مكـانِ قيلولتِيَ. تفضَّلْ يا حمد واقرأْ ما برسالتِيَ!.
الدكتورُ حمد: آهٍ... يا صديقِيَ ها أقرأُ ما كتبْتَ على الحائطِ وعلى الأرضِ القريبةِ من الحائطِ؛ كما يبدو فلقدْ اسْتَنْفَدَ الحائطُ كلُّهُ بسببِ طولِ مقالتِكَ وتَحتاجُ إلى وقتٍ لـيسَ بقصـيرٍ لاستقرائِها: {مِن إعـراضِ البشـرِ عنّـيَ وإهـانتِهِمْ لِـيَ صـنَعْتُ مَجْـدَ استقلالِيَ. منْ حرمانِيَ من الشُّربِ من كوبِ الماءِ والشّايِ والقهوةِ أصبحتْ الأنْهارُ والوديانُ والجداولُ والينابيعُ وبُحيراتُ الماءِ العذبِ كلُّها مُلكِيَ. عندما حُرِمْتُ من خضـارِ الخيـارِ والبَنْـدورةِ كخضـارِ سَلَطاتٍ لِـيَ أصـبحَ اللـونُ الأخضـرُ كلُّـهُ مرتعـاً لِحياتِيَ. من حرمانِيَ من دفءِ مَوْقِدِ النارِ وألبسةِ الشتاءِ الثقيلةِ صنعتُ لنفسِيَ معطفاً طبيعياً يُغنيني عن ألبسةٍ ومواقدِ تدفئةِ كلِّ البشرِ. من التعاملِ معِيَ كمخلوقٍ دنيءٍ في قريةٍ متواضعةٍ عدْتُ إلى نفسِيَ لأجدَها وعاءً ينضَحُ بالفلسفةِ التي تؤدِّيَ بِيَ فَقطْ! إلى الشموخِ الحقيقيِّ في الحياةِ والكونِ. من احتقارِ الناسِ لِيَ ومنعِهِمْ عنِّيَ الطُّرُقَ إلى بيوتِهِمْ ودواوينِهِمْ وجدتُ طريقِيَ سالكاً وعلى مصراعَيْهِ مفتوحاً إلى قمّةِ السّؤْدُدِ. منْ توخّي الحذرِ في التعاملِ مع بني البشرِ خوفاً من تَوَحُّشِهِ أصبحتُ فيلسوفَ الذوقِ الرفيعِ والإنسانيةِ الخالصةِ. لقد أشعلَ الإنسانُ النارَ بكلِّ الحطبِ وبقي بَرداناً، واستهلكَ كلَّ الماءِ الصّالحِ وبقيَ عطشاناً ومتسخاً وزادتْ رائحتُهُ نتانةً. دفَنَ الإنسانُ بلباسهِ فأضاعَ جوهَرَهُ رخيصاً. باعَ البشرُ كرامتَهُمْ واستباحوا كرامةَ غيرِهِمْ من المخلوقاتِ. إنَّ أكبرَ خطأٍ ارتكبَهُ أوائلُ أجدادِيَ هو

هروبُهُمْ من الغابةِ خوفاً من سطوةِ قَسْوَرَةٍ متوحشةٍ عليهِمْ إلى حيثُ وقعوا تَحْتَ رحْمةِ قَسْوَراتٍ (بني البشر) لا ترحمُ. الإنسانُ شديدُ الجهلِ و من طباعهِ الظلمُ والاستبدادُ واستعبادُ الآخرينَ وطمسُ كرامتِهِمْ. بلجوءِ أجدادِيَ إلى بني البشرِ هذا اضطُرّوا وأجيالُهُمْ أنْ يصادقوا ليس فقط من يصادقُهُمْ بل كذلكَ من يعاديهِمْ ويَحتقرُهُمْ ويذلّهُمْ ويَهينُهُمْ وعلى حدٍّ سواءَ. أحلمُ في نِهايةِ حياتِيَ هذهِ بالعودةِ إلى غابةِ القَسْوَرَةِ!". وأخيراً وليسَ آخراً يا صديقِيَ حمد أكتبُ لكَ أغنيةَ أسمهان بنتِ عائلةِ الأطرشِ "أنا الذي أستأهلُ كلَّ الذي يَجْري لِيَ (معي)، الغالي بعتُهُ رخيصاً ولَمْ أحسبْهُ غالياً" (أنا اللي أستاهل كل اللي يجرالي الغالي بعته رخيص ولا احسبوش غالي) ... أرجو منكَ يا صديقِيَ أنْ تعزفَها لِيَ على عودِكَ}.

"فَلْحَة": "هاذي المكالة موش مِنَّك يا بوالزهو، كول الحكيكة أنوهو اللي كتبلكياها؟!". (بالفصحى: هذهِ المقالةُ ليستْ من تأليفِكَ يا أبوالزهو، قلْ الحقيقةَ من الذي كتبَها لكَ). من المؤكدِ أنَّ الوالدَ أبو جاسر هو الذي كتَبَها لكَ قبلَ وفاتهِ أو أودعَها لكَ حينَ لَمْ يَجِدْ أحداً من أولادِهِ وبناتهِ وأحفادهِ الحقيقيينَ! حولهُ يقفُ بجانبهِ أو يؤازرُهُ في شيخوختهِ.

الدكتورُ حمد: لَمْ يكنْ الوالدُ أبو جاسر ناطقاً ولا كاتباً باللغةِ العربيةِ الفُصحى!. كانتْ لغتُهُ خليطاً عجيباً من لكناتِ أقوامِ اليبوسيينَ والعبرانيينَ والكنعانيينَ والفراعنةِ والفينيقيينَ والكلدو-آشوريينَ والأحباشِ والتركِ والبربرِ والأنجلو-سكسونيينَ وغيرِها الكثير. عافيةٌ! عليكَ يا أبوالزهو، على أفكارِكَ وعلى تَجربتِكَ وفلسفتِكَ وروحِكَ العذبةِ. فوقَ كلِّ ذلكَ عافيةٌ! على قوالبِكَ اللغويةِ وقدرتِكَ على التركيزِ والإيجازِ في التعبيرِ. حتى أنَّكَ لَمْ تتركْ كلمةً إلا وشَكَّلْتَها، ولا علامةَ تنقيطٍ مناسبةٍ إلا ووضعتَها في المكانِ المناسبِ لَها. من أين لكَ كلُّ هذا يا صديقِيَ؟!. هلْ لديكَ جهازُ حاسوبٍ (كمبيوتر) عصريٍّ يَحتوي كلَّ تلكَ الميزاتِ في برنامجٍ حاسوبيٍّ واحدٍ؟!. يليقُ بكَ العملُ مدققاً لغوياً في إحدى محطاتِ البثِّ الإذاعيِّ أو التلفزيونيِّ في الدولةِ أو الدولِ المُجاورةِ. تَصْلُحُ يا أبوالزهو كاتبَ خطاباتٍ عندَ بعضِ وزراءِ دولِ المنطقةِ لإلقائِها بمناسباتِ الدولةِ الهامّةِ من عيدٍ وطنيٍّ بالاستقلالِ أو في ذكرى تنصيبٍ أو في احتفالٍ بنصرٍ مفترضٍ أو حتى في تبادلِ رسائلِ تعزيةٍ وفي أفراحِ أعيادٍ. سيحتاجونَ إليكَ في كتابةِ الخُطَبِ الملقاةِ في الأممِ المتحدةِ، وربّما لإلقائِها، من قبلِ المندوبينَ الدائمينَ في تلكَ المؤسسةِ الدوليةِ ذاتِ المستوى الرفيعِ!.

أبوالزهو: يا أختَنا "فَلْحَة" ويا صديقِيَ حمد، هذه الأفكارُ كلُّها من عقلِيَ وفلسفتِيَ وتَجربتِيَ في الحياةِ. أما بالنسبةِ لتشكيلِ الكلماتِ وتنقيطِ الجُمَلِ والعباراتِ فلقد جلبتُ تلكَ التشكيلاتِ مِمّا تَيَسَّرَ من حولِيَ من أشكالٍ وهُمْ كُثُرُ. لقد استعرتُ "فتحةَ" النصبِ من شكلِ عصاً طويلةٍ يرفعُها بني البشرِ عادةً على رؤوسِ وأجسامِ دوابِّهِمْ التي تقومُ على خدمتِهِمْ ليلَ نَهارَ. واستعرتُ علامةَ "السّكون" من شكلِ قمرٍ بدرٍ يطلعُ عليَّ في مسكنِيَ كلَّ شهرٍ. وأما "الشَدَّةُ" على الحروفِ فلقد اقتبستُها منْ شكلِ ثعبانٍ وجدناهُ مُمَدّداً في قطعةِ أرضِنا في "وادي الثعابين" عندَما كنتُ أعملُ فيما مضى مع الوالدِ أبو جاسر الراحلِ في استصلاحِ الأرضِ هناكَ. وأمّا "الفتحةُ الطويلةُ" فلقدْ استقرَّتْ في دماغِيَ من مراقبتِيَ للشُهبِ السّاقطةِ من بينِ النّجومِ المتلألئةِ في الليالي الطويلةِ المعتمةِ. كانت علامةُ "الاستفهامِ" سهلةً حيثُ المنجلُ

الذي تركَهُ الوالدُ أبو جاسر الراحلُ لا يزالُ مُعلَّقاً فوقَ سرير نومهِ المقابلِ لِمكانِ نومِيَ، لَمْ يستعملْهُ أحدٌ من أولادهِ بعدَ رحيلهِ عن الحياةِ. التقَطتُ علامةَ "التعجُّب" من إشارةٍ وضعَها الاحتلالُ في أرضِنا التي صادرَها قبلَ عدّةِ سنين، وعندَما ذهبْنا لفلاحتِها وجدنا تلكَ العلامةَ منتصبةً فوق عظْمَتَيْنِ وجُمجمةٍ. وبشأنِ علامةِ "الضَّمّةِ" فلقدْ أعجبنِي شكلُ ذلكَ "الديكِ الأسودِ" (عَصفورٌ أسودُ اللونِ متوسّطُ الحجمِ طويلُ ريشِ الذيلِ) صاحبِ الذّيلِ الطويلِ وهو يقفُ على غصنِ شجرةِ الرمّانِ في كَرمِ الأشجارِ مُختالاً بلونهِ فاقعِ السّوادِ وطولِ ذيلهِ الأسودِ بديعِ الصّورةِ والتكوينِ؛ في حينِ يصرفُ البشرُ هنا جُلَّ وقتِهِمْ لتبييضِ بشرتِهِمْ بلجوئِهِمْ الدائمِ إلى الفيْءِ ومستحضراتِ تبييضِ الوجوهِ.
الدكتورُ حمد: وماذا بشأنِ النقطةِ والفاصلةِ وشبهِ الفاصلةِ والأقواسِ والأهلَّةِ والمزدوجاتِ؟! في عمليةِ التنقيطِ المُضنيةِ للعقلِ التي قُمْتَ بها؟!. تبدو جَميعُها لِيَ كأنَّها استعيرتْ من لوحةِ رسّامٍ ماهرٍ في عصرِ النهضةِ!. حتى أنَّ هنالكَ علاماتٍ ورموزاً استخدمْتَها قلَّ ما يستخدِمُها الكُتّابُ المرموقونَ في المُجتمعِ هنا الآنَ!.
أبوالزهو: كلُّ ما ذكرْتَ أعلاهُ من علاماتٍ سهلُ الحصولِ عليها يا خالي!. لا تسألْني أكثرَ من ذلكَ. عليكَ الآنَ أنْ تعزفَ لنا أغنيةَ الشيخةِ أسْمهان "أنا الذي أستأهلُ كلَّ الذي يَجري لِيَ لأنَّ الغالِيَ بعْتُهُ رخيصاً ولَمْ أحسبْهُ غالياً"...
الدكتورُ حمد: أنا ... يا صديقَ دربيَ الطويلِ يا أبوالزهو، أنا الذي يستأهلُ كلَّ الذي جرى لِيَ لأنّني أنا الذي بعتُ الغالِيَ بالرخيصِ ولَمْ أعرفْ أنّهُ كان هو الغالي. أنا الآنَ ميّالٌ أكثرَ إلى الاعتقادِ بأنَّ الإنسانَ خُلِقَ مُسَيَّراً لا مُخَيَّراً!؛ وإنْ لَمْ يكنْ الأمرُ كذلكَ! كيفَ تُفسِّرُ لِيَ أنَّ شخصاً من مثلِيَ أُجْبِرَ على إضاعةِ عمرهِ وشبابهِ ووسطِ شبابهِ ومن ثَمَّ مستقبلهِ في الدنيا والآخرةِ في هكذا جهازِ تعليم؟!. أكانَ؟! لزاماً عليَّ أو مفروضاً أنْ أُقارعَ برأسِيَ حزمةً أو باقةً من "الأشخاصِ" أخذتْ منّيَ كلَّ وقتِيَ وجهدِيَ في سبيلٍ لا شيءَ. من هو قادرٌ على التصديقِ بأنَّ حياةَ حمد أبو جاسر تُضاعُ في مقارعةِ رؤوسِ من مثلِ رؤوسِ "هولاك، بَولاك، براهما، مراطلة، كُربول، بقّار، هونايكرنكو، شَلّاق، فالكُنْ، وبوهير" وغيرهِمْ الكثيرِ مع وضعِ حرفِ د. (دكتور) قبلَ كلِّ اسمٍ من أسْمائِهِمْ. في نِهايةِ رحلةِ اليأسِ تلكَ يأتي حمد ليستفيدَ من خبرةِ أبوالزهو ويشاركَهُ في العملِ والحياةِ والفلسفةِ والفكرِ وحتى في تَمارينِ الرياضةِ البدنيةِ وغيرَ ذلكَ الكثيرُ!. فعلاً لقدْ بعتُ الغالِيَ، ألا وهو أنت يا أبوالزهو، واشتريتُ بدلاً عنهُ الكثيرَ من الرخيصِ.

خيرُ "واسطةٍ" عندَ الدكتورِ حمد

يُحاولُ الدكتورُ حمد إيجادَ موطئ قدمٍ لهُ في وطنهِ الصّغيرِ أو الكبيرِ عن طريقِ إيجادِ وظيفةٍ مناسبةٍ تكفلُ لهُ ولو الحدَّ الأدنى من العيشِ الكريم. كان يطمحُ في عيشٍ يبقيهِ على الأقلِّ قريباً بعضَ الشيءِ من أهلهِ وفي ربوعِ وطنهِ، مهما كانَ ذلكَ العيشُ كفيفاً بلْ شَظِفاً. يعلمُ الدكتورُ حمد أهميةَ "الواسطةِ" في مثلِ تلكَ

المُجتمعاتِ. حَزَمَ أمرَهُ ونفسَهُ لكيْ يقابلَ رئيسَ قسمِ التوظيفِ في "الجامعةِ القومَجِيَّةِ"، الدكتورَ "كَميل أبوجُميل"، علَّ الأخيرَ يساعدُهُ في الحصولِ على تلكَ الوظيفةِ. يَحملُ الدكتورُ "كَميل" الجنسيةَ المزدوجةَ الهويةِ والهوى، كما بدا في البدايةِ، وربّما كانَ ذلكَ الأمرُ الوحيدُ الذي مكَّن لهُ من تبوُّئِ مكانةٍ في الجامعةِ تقعُ فوقَ عنقِ "زجاجةِ التوظيفِ". يُقبَلُ للدخولِ في تلكَ "الزجاجةِ" من كان ذو حظٍّ جيدٍ في الحصولِ على وظيفةٍ هناكَ، في مؤسّسةِ التعليمِ العالي تلكَ والتي أطلَقَتْ على نفسِها اسمَ "الجامعةُ القومَجِيَّةُ".

الدكتورُ حمد: أزفُّ إليكُمْ خبراً ساراً أيُّها الأهلُ. سأذهبُ غداً إلى "الجامعةِ القومَجِيِّةِ" لِمقابلةِ أحدِ المسئولينَ والذي لا أعتقدُ أنّهُ سيرفضُ أيَّ طَلَبٍ لِيَ للالتحاقِ بتلكَ المؤسسةِ. الآنَ أحْملُ شهادةَ دكتوراه وأطروحةً لها لا يقلُّ وزنُها عن الكيلوجرامينِ من الورقِ، فيها من المعلوماتِ الكثيرُ عن الزمنِ الأوَّلِ لنشأةِ الكونِ وما يتبعُهُ. لقد أصبحَ الطريقُ أمامِيَ مُضاءاً وسهلاً. أنا الآنَ مثلَ الذي يَجلسُ على بساطِ الريح. ولزيادةِ الغبطةِ والسّرورِ والتأكيدِ على قبولِيَ في الوظيفةِ، أريدُكُمْ جَميعاً أنْ تصاحبونَنِي إلى المدينةِ حيثُ الجامعةُ لِمقابلةِ ذلكَ المسئولِ. إذا ما احتاجَ الأمرُ إلى "واسطةٍ"!؟ فأنتُمْ خيرُ ما عندِيَ من "واسطةٍ" ... خاصّةً أنتَ يا رفيقِيَ أبوالزهو.

أبوالزهو: كما تعرفُ لا أحبُّ أنْ أرى تلكَ المؤسّساتِ ولكنْ يعزُّ عليَّ أنْ أرفضَ لكَ طلباً. سوفَ أذهبُ معكَ لِمقابلةِ من تَوَدُّ مقابلتَهُ وسأنتظرُكَ مع بقيةِ الأهلِ خارجَ المبنى في ساحةٍ عامّةٍ قريبةٍ حتى تنتهيَ من المقابلةِ. لكنْ كما ترى يا صديقِيَ فإنَّ جسمِيَ وعظمِيَ ضعيفانِ!؛ لذلكَ على الوالدةِ تدبُّرُ أمرِها ... لا أقدرُ أنْ أحْملَها كما في السّابقِ فيما لو شعرَتْ بالتّعبِ من السّيرِ خاصةً أنَّ الطريقَ إلى هناكَ طويلٌ ووَعِرٌ مِمّا يَجعلُ الشخصَ مُتعَباً حتى لِمن كانَ في سنِّ الشبابِ.

الدكتورُ حمد: لا عليكَ يا صديقِيَ ... سوفَ نذهبُ إلى هناكَ بسيارةٍ خاصّةٍ حتى نصلَ إلى مكانٍ قريبٍ من الحرمِ الجامعيِّ ثُمَّ نسيرُ على أقدامِنا مسافةً قصيرةً لنصلَ إلى مكتبِ "شؤونِ التوظيفِ". كذلكَ أرجوكَ أنْ تدخلَ معِيَ إلى مكتبِ المسئولِ خلالَ المقابلةِ عسى أنْ يتشرَّفَ من نَجِدُهُ في المكتبِ هناكَ بحضورِكَ، وعسى أنْ يتشجَّعَ بالموافقةِ على إعطائِيَ وظيفةً هناكَ إذا ما تأكَّدَ لهُ أنَّ لِيَ صداقةً وطيدةً مع أحدِ كبارِ فلاسفةِ العصرِ والمنطقةِ. لقد علمتُ من بعضِ الطلبةِ أنَّ ذلكَ المسئولَ صاحبُ عقلٍ كبيرٍ.

أبوالزهو: لقد سَمعْتَ شيئاً من هذا القبيلِ أو ذاكَ، لكنّني لَمْ أسْمعْ ولَمْ أرَ شيئاً، من هذا القبيلِ أو ذاكَ. عندِيَ خبرةٌ في هؤلاءِ أكثرَ منكَ بكثيرٍ!. عليكَ أنْ تدخلَ عليهِ لوحدِكَ، هذه الأيامَ لا أطيقُ أو أتَحمَّلُ رؤيةَ مناظرَ لا تريحُنِي، كما كنتُ سابقاً!.

انتظرَتْ العائلةُ المكوّنةُ من أبوالزهو وأم جاسر وسرحان و"كاملة" و"هيما" خارجَ مكتبِ فخامةِ المسئولِ عن التوظيفِ، الدكتورِ "كَميل أبوجُميل". يقعُ مكتبُ الدكتورِ "كَميل" في الطابقِ الأرضيِّ للبنايةِ ملاصقاً لساحةٍ صغيرةٍ عامةٍ حيثُ تنتظرُ أسرةُ الدكتورِ حمد. دخلَ الدكتورُ حمد إلى مكتبِ الدكتورِ "كَميل" وحيداً يَحملُ معهُ حقيبةً صغيرةً. بعدَ التحيةِ وإلقاءِ السّلامِ وتبادلِ كلماتِ الترحيبِ مصقولةِ التهذيبِ.

الدكتورُ حمد: تَخرّجتُ للتوِّ من الجامعةِ حاملاً شهادةَ الدكتوراه في العلومِ...

الدكتورُ "كَميل": وهل لديكَ أطروحةٌ للدكتوراه، لكي أراها وأطّلِعَ على بعضِ مُحتوياتِها؟.
الدكتورُ حمد: .... هذه هي الأطروحةُ، وهذه هي الشهادةُ الأصليةُ ونسخةٌ مصدّقةٌ عنها وتلكَ توصياتٌ من أعضاءِ هيئةِ التدريسِ مِمَّن تلقيتُ علومِيَ من عقولِهِمْ وعلى أيديهِمْ.
الدكتورُ "كَميل": ... لكنَّ هذه الأطروحةَ مكتوبةٌ باللغةِ العربيةِ!. هل أنتَ خرّيجٌ من دولةٍ عربيةٍ؟! .... من جامعةٍ عربيةٍ؟! .... قبلَ الهجرةِ ... بعدَ الهجرةِ!.
الدكتورُ حمد: لا لا لا .... أنا خرّيجٌ حديثٌ ... وهذه السّنةَ!. هذهِ ترجَمةٌ كاملةٌ لأطروحةِ الدكتوراه إلى العربيةِ وتخلو من أيّةِ كلمةٍ أو حتى حروفٍ أو رموزٍ غيرِ عربيةٍ. انظرْ! يَحلو للقارئ، أيِّ قارئٍ مُجيدٍ لقراءةِ اللغةِ العربيةِ، رؤيتَها والنظرَ إليها والتمحيصَ والتفكّرَ بها. إنَّها مثَلُ مَخطوطةٍ علميةٍ ولوحةٍ فنيةٍ رائعةٍ!.
الدكتورُ "كَميل": .... إنّها المرّةُ الأولى التي أرى فيها رسالةَ دكتوراه في العلومِ مكتوبةً بالعربيةِ. اليومَ! رسائلُ الدكتوراه والماجستيرِ وغيرها من الرسائلِ والمقالاتِ العلميةِ تكتبُ بغيرِ العربيةِ حتى التي منها صادرةٌ من أقسامِ اللغةِ العربيةِ والشريعةِ الإسلاميةِ. وعندَنا هنا!، حتى تقاريرُ الأولادِ في المُختبرَاتِ في السّنةِ الجامعيةِ الأولى لا تكتبُ أبداً بالعربيةِ، ولو حتى بحرفٍ واحدٍ. لِماذا ترجَمْتَها إلى اللغةِ العربيةِ؟!، ولِماذا أضعْتَ وقتَكَ؟!. لا أحداً يستعملُ اللغةَ العربيةَ هنا وخاصةً في الكلّياتِ العلميةِ. لقد أعلنتْ اللغةُ العربيةُ غَيْرَ مُنْتِجَةٍ.
الدكتورُ حمد: هنالكَ خطأٌ في التعبيرِ. اللغةُ العربيةُ منتجةٌ جدّاً ولكنَّ الناطقينَ بِها، ربَّما، أصابَهُمْ العُقْرُ في التفكيرِ وفي عُقْرِ دورِهِمْ.
الدكتورُ "كَميل": حبيبي!، لا يوجدُ عندِيَ كلامٌ أكثرَ من ذلكَ معكَ. أنا حائزٌ على ثلاثِ جنسياتٍ أجنبيةٍ ويعتمدُ معاشِيَ الشهريُّ من هذهِ المؤسسةِ عليها. أتقاضى ستةَ أضعافِ معاشِ الموظفِ العاديِّ المَحليِّ لنفسِ المؤهِّلِ والدرجةِ. أنا مَحسوبٌ هنا مثلِيَ مثلَ أيِّ خبيرٍ أجنبيٍّ وأجني ثلاثةَ أضعافِ ما يَجنيهِ الخبيرُ الأجنبيُّ "الحقيقيُّ"!؛ هذا عدا عن الامتيازاتِ الممنوحةِ لِيَ ولعائلتِيَ، ومصادرَ أخرى للرزقِ عندِيَ!. حياتِيَ هنا لا تقلُّ رفاهيةً وراحةً عن حياةِ الملوكِ؛ كلّ ذلكَ بسببِ الجنسياتِ الأجنبيةِ التي أحمِلُها بالإضافةِ إلى لَكْنَةِ لسانِيَ التي تبدو أجنبيةً أصليةً للكثيرِ من البشرِ هنا. لا أريدُ أنْ أعودَ إلى أيامِ عنترةَ بن شدادٍ العبسيِّ وأبو زيدٍ الهلاليِّ. هل أنتَ قادمٌ من كهفِ "أهلِ الكهفِ"؟!. يا! دكتورَ "عِزّو" (د. عبدالعزيز!، دكتوراه في العلومِ)، تعالَ وتفاهَمْ مع "الدكتور حمد"!. بصراحةٍ! لا أقدرُ أنْ أتعاملَ معهُ، إنّهُ يَحملُ معهُ عملةً قديمةً لا تُستخدمُ حالياً في السّوقِ.
الدكتورُ "عِزّو": تفضَّلْ يا أخِ! معِيَ .... هل هنالكَ من مشكلةٍ لديكَ؟!.
الدكتورُ حمد: لا توجدُ مشكلةٌ!. أريتُهُ أطروحةَ الدكتوراه لديَّ مترجَمةً للعربيةِ. لديَّ نسخةٌ أخرى بالأجنبيةِ فيما إذا ما أردتُما الإطلاعَ عليها، لا مانعَ لديَّ ولا مشكلةَ.
الدكتورانِ "عِزّو وكَميل": من الممكنِ قبولُ هذه النسخةِ الأجنبيةِ، أما النسخةُ العربيةُ فلا أحدَ يأخذُها بعينِ الاعتبارِ. ثُمَّ لنفرضْ، جدَلاً!، بأنّكَ قُبِلْتَ للتدريسِ في هذه الجامعةِ فما هي اللغةُ التي ستستعملُها لأجلِ ذلكَ الغرضِ؟!.

الدكتورُ حمد: اللغةُ العربيةُ طبعاً؛ ولا لغةَ إلا اللغةَ العربيةَ، طبعاً. إذا ما كان هنالكَ ضرورةٌ لاستخدامِ بضعِ كلماتٍ من لغةٍ أخرى فلا يوجدُ لديَّ أيُّ مانعٍ، طبعاً. يُمكنُ الاستفادةُ من أيّةِ لغةٍ أجنبيةٍ، طبعاً ....
الدكتوران "عِزّو وكَميل": غيرُ مسموحٍ لِهذا الأمرِ أنْ يَحدثَ هنا على الإطلاقِ. على الكلِّ أنْ يقوموا بالتدريسِ باللغةِ الأجنبيةِ فقط وعلى الإطلاقِ؛ وليسَ باللغةِ العربيةِ على الإطلاقِ.
الدكتورُ "شوّال" (رئيسُ قسمٍ علميٍّ يَحضُرُ إلى المكانِ بالصّدفةِ): ما الذي يَجري هنا؟!. كما يبدو هنالكَ شيءٌ غيرُ عاديٍّ!. أصواتُكُمْ مرتفعةٌ ومسموعةٌ من مسافةٍ بعيدةٍ.
الدكتوران "عِزّو وكَميل": بِدُّوه (يريدُ) أنْ يدرِّسَ التلاميذَ عندَنا في هذه الجامعةِ باللغةِ العَربيةِ!!.
الدكاترةُ "عِزّو وكَميل وشُوال": وكيف سَيحدثُ لكَ هذا؟!. هلّا تعرفُ غيرَ اللغةِ العربيةِ في التكلّمِ والوصفِ والشرْحِ والحديثِ؟!.
الدكتورُ حمد: أعَرفُ .... أعرفُ عدّةَ لغاتٍ. لكنْ لِماذا لا أستعملُ الأجْملَ والأروعَ والأسهلَ عليَّ استعمالَها. لقد شرحتُ مُحتوى رسالتِيَ في الدكتوراه هذهِ إلى صديقِيَ أبوالزهو غيرِ المتعلّمِ في المدارسِ على الإطلاقِ وبالعربيةِ، فهمَها بدورِهِ جيداً وأصبحتْ نظريةُ الانفجارِ الكونيِّ الكبيرِ مفهومةً وسهلةَ الاستيعابِ لديهِ، مثلَ أكْلِ الخيارِ البلديِّ!. لِماذا الحاجةُ للذهابِ إلى لغاتٍ أخرى وعندَنا لغةٌ يُغني استعمالُها عن كلِّ اللغاتِ.
الدكاترةُ "كَميل وعِزّو وشُوال": أوّلاً جِئْنا هنا بتعاقدٍ مع "الجامعةِ القومَجِيَّةِ" على أساسِ أننا أجانبُ؛ كلُّ واحدٍ فينا لديهِ جِنسيتانِ على الأقلِّ. ثانياً إنَّ استعمالَ اللغةِ الأجنبيةِ موضةُ العصرِ هنا، هلّا تعلمُ بذلكَ من قَبلُ؟!..
الدكتورُ "حِرْبانْ" (عَميدُ الكلّيةِ في طريقهِ إلى سيارتهِ المصطفَّةِ في المرآبِ المُجاورِ لِمكانِ عملهِ): مالَكُمْ متجمّعونَ على بعضِكُمْ كما لو كانَ هنالكَ من شيءٍ على وشْكِ الحدوثِ؟!؛ شيءٌ على وشْكِ الإفلاتِ من تَحْتِ السّيطرةِ!.
الدكتورُ حمد: لا لا لا .... لا داعيَ للقلقِ على أيِّ شيءٍ!. إنّهُ مُجرَّدُ خطأٍ تاريخيٍّ متراكمٍ عندَ الرّعاعِ!؛ نُحاولُ إصلاحَهُ.
الدكاترةُ "حِربانْ وعِزّو وكَميل وشُوال": وهل أنتَ قادمٌ لإصلاحِ خلَلٍ تاريخيٍّ أو جغرافيٍّ أو اجتماعيٍّ أو حتى خلَلٍ بجهازِ الصَّرفِ الصّحيِّ عندَنا؟!. إذا ما كنتَ تريدُ إصلاحَ أيِّ خلَلٍ فما عليكَ إلا إصلاحُ الخلَلِ في تركيبةِ عقلِكَ المتخلّفِ!.
الدكتورُ "هرْوَلان" (رئيسُ الجامعةِ يُحاولُ الوصولَ بسرعةٍ إلى الحمّامِ لقضاءِ حاجةٍ خاصةٍ بهِ هناكَ): يا جَماعةُ!، بسرعةٍ!. ماذا يَجري عندكُمْ هناكَ؟. أو عليكُمْ أنْ تصبروا قليلاً حتى أعودَ إليكُمْ من الحمّامِ، ويكونَ لدينا متسعٌ من الوقتِ للوقوفِ على ما يَجري.
الدكتورُ حمد: لقد قمتُ بعملِ دراسةٍ لنيلِ شهادةِ الدكتوراه ولِمدّةِ خَمسِ سنينٍ ونيِّفٍ في عُمْقِ نشأةِ وتكوينِ الكَوْنِ. اقتربتُ قليلاً! من ذاكرةِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى أو ما يعرفُ هنا ب"اللوح المَحفوظ". ومن ضمنِ الكثيرِ الذي وجدتُ في بَحثِيَ، وجدتُ أنَّ اللغةَ الوحيدةَ التي خَرَجَتْ من "اللوحِ المَحفوظِ" بشكلٍ كاملٍ ومتكاملٍ ومبينٍ هي اللغةُ العربيةُ الفُصحى ... اللغةُ العربيَةُ المَجيدةُ ...

الدكاترةُ "هِرْوِلان وكَميل وعِزّو وشُوال": كلامٌ صحيحٌ! وبدَوْرِنا وضعْنا عبارةَ "عينُ الحاسدِ تُبلى بالعَمى!" في مكاتبِنا؛ اشترَيْنا تلكَ من مَحَلٍّ بيعِ زجاجٍ في المدينةِ وفي بروازٍ زجاجيٍّ خاصٍّ لَها، وعلَّقْناها في مكاتبِنا بينَ شهاداتِنا ووثائقِنا ودوراتِنا اللاتي قُمنا بحضورِها، كلُّها باللغاتِ الأجنبيةِ. نستعملُ هذه العبارةَ كيْ تَطْرُدَ الأرواحَ الشريرةَ من المَكانِ! وتُبعدَ عنّا وعن أولادِنا وزوجاتِنا شرَّ العيونِ اللئيمةِ الحاسدةِ!.
الدكتورُ حمد: لن يفيدَكُمْ كلُّ ما لَصقتُموهُ وتلصقونَهُ بحيطانِ مكاتبِكُمْ، لن يفيدَ البشرَ من حولِكُمْ. إنَّهُ يضرُّكُمْ ويضرُّهُمْ؛ حتى أبوالزهو يشهَدُ معِيَ بذلكَ.
الدكاترةُ "كَميلُ وعِزّو وشُوالُ وهِرْوِلانُ": لِماذا تظلُّ تذكرُ أبوالزهو طوالَ الوقتِ؟!. ولِماذا لَمْ تأتِ بِهِ معكَ لنتعرَّفَ عليهِ؟!. وإذا ما كانَ ذا قيمةٍ نافذةٍ في المُجتمعِ من الممكنِ أنْ يتوسَّطَ لكَ من أجلِ حصولِكَ على وظيفةٍ في "الجامعةِ القومَجِيَّةِ"، خاصّةً إذا ما كانَ لديهِ من مؤلفاتٍ في العلمِ أو الفلسفةِ مشهودٍ لَها في العالَمِ العصريِّ!. ذلكَ لأنَّهُ بطريقتِكَ المتخلِّفةِ في عَرضِ نفسِكَ لا يُمكنُكَ أنْ تتبوّأَ أيَّةَ وظيفةٍ في أيِّ مكانٍ في كافةِ أنحاءِ الوطنِ، الصّغيرِ والكبيرِ.
الدكتورُ حمد: ها هوَ أبوالزهو موجودٌ ومَعَهُ أفرادُ عائلةِ المرحوم أبو جاسر وهُمْ ينتظرونَ خلفَ السّورِ الذي يفصلُ بينَ مكاتبِكُمْ والسّاحةِ الداخليةِ المخصّصةِ لسياراتِكُمْ وسياراتِ ضيوفِكُمْ!.
توجَّهَ الجميعُ لِمقابلةِ أبوالزهو ومن معَهُ .....
الدكاترةُ "هِرْوِلانُ وكَميلٌ وعِزّو وشُوالٌ": هل هذا هو أبوالزهو الذي تظلُّ تتغنّى بمجدِهِ؟!. أَلَمْ تَجِدْ أكثرَ حقارةً؟! من هذا المخلوقِ ليقابلَنا نَحْنُ حَمَلَةَ شهاداتِ الدكتوراهِ والجنسياتِ الأجنبيةِ الراقيةِ المُختلفةِ.
أبوالزهو: ها أنا ذا هُوَ أبوالزهو. تَجلسونَ وراءَ مكاتبِكُمْ الوضيعةِ، تَمتصّونَ دماءَ الخَلْقِ من عمّالٍ وفلاحينَ وكادحينَ بِحُجّةِ معرفتِكُمْ للُغاتٍ أجنبيةٍ لَمْ تَجلبْ للوطنِ ولا بمثقالِ ذرَّةٍ من الكرامةِ الشخصيةِ والوطنيةِ والقوميةِ.
أم جاسر: وها أنا ذا خليفةُ المرحوم أبو جاسر في الأرضِ. أنا التي بيدَيَّ أقومُ بأعمالِ الحرثِ والزرعِ والبَذْرِ والتعشيبِ والحصادِ والدَّرْسِ وتَخزينِ الحبوبِ. أنا التي أجْمعُ الثمارَ، ثِمارَ التينِ واللّوزِ والجوزِ والزيتونِ، بِكِلْتَا يدَيَّ حَبَّةً بعدَ حَبَّةٍ. أنا التي من عودِ عظمِ الفقرِ المدقعِ الصَّلبِ المسيطرِ علَيْنا منذُ خُلِقْنا نَحَتُّ ولا أزالُ أنْحَتُ بأناملِيَ وأسنانِيَ قوتَ يومِ عائلتِيَ. نَحْنُ الذينَ نسهرُ على مَجْدِ الوطنِ الليالِي والأيامَ الطويلةَ والقصيرةَ.
"كاملةُ": وأنا التي بيدٍ أحلبُ الأبقارَ والأغنامَ وباليدِ الأخرى أحْمِلُ الأولادَ الصّغارَ، أمَلُ مستقبلِ الأمّةِ والأوطانِ.
سِرحان: ومن قوتِنا وقوتِ صغارِنا وماءِ عروقِهِمْ نصرفُ أموالَنا على تعليمِ من نَظُنُّ أنّهُ يستحقُّ التعليمَ فينا حتى يقرِّبَنا ولو قليلاً من مواطنِ المَجدِ.
أبوالزهو: تَجلسونَ في هذه البروجِ المشيّدةِ، مشيّدةٌ من حسابِ كرامةِ ودماءِ ولَحمِ وعظمِ الخَلْقِ المساكينِ الكادحينَ. يتخرَّجُ من تَحْتِ أيديكُمْ من ليس لديهِ احترامٌ لأنفسِهِمْ ولا لأهليهِمْ ولا لأوطانِهِمْ ولا لِحياتِهِمْ ولا لبيئاتِهِمْ. لقد سَمعناكُمْ من وراءِ السّورِ تُحاولونَ طَمْسَ صوتِ الوَترِ الأصيلِ في الأمةِ بكلِّ ما أوتيتُمْ من قوّةٍ واهيةٍ.

أنتمْ مهزومونَ من داخلِكُمْ وتَحتلّونَ بروجاً مشيَّدةً بسببِ ازدواجٍ أو تثليثٍ أو تربيعٍ ... أو "تعدُّدِ" جنسياتِكُمْ المعاديةِ لروحِ وشرفِ الأمَّةِ.
الدكتورُ حمد: وماذا بعدَ ذلكَ أنتمْ فاعلونَ يا معشرَ "العصْريّينَ"؟!.
الدكاترةُ "هِرْولانٌ وكَميلٌ وعِزّو وشُوالٌ": وا-أسفاهُ ... وا-مصيبتاهُ ... وا-غيظاهُ .... وا-خيبتاهُ ... كلُّ شهاداتِنا الجامعيةِ ولباسِنا الأنيقِ وجوازاتِ سفرِنا ومعاشاتِنا الشهريةِ الخياليةِ وامتيازاتِ عائلاتِنا في البذخِ والترفِ لا تُمكِّنُ أعيذَنا من الثباتِ أمامَ حتى "أقدام" مِن مثلِ حوافرِ أبوالزهو. إنّها المصيبةُ الكبرى؛ بعدَ أنْ نسيْنا أو تناسيْنا حتّى الحَليبَ الذي رضعنَاهُ من أثداءِ أمهاتِنا، قمنا ببيعِ كلِّ شيءٍ يَختصُّ بالمبادئِ والثوابتِ والمتغيّراتِ!. وَصَلَ بنا الأمرُ إلى مطالبةِ أجيالِنا بكتابةِ أسْمائِهِمْ وآبائِهِمْ وأجدادِهِمْ وعائلاتِهِمْ وقبائلِهِمْ وتَحويلِها إلى حروفٍ وكلماتٍ أجنبيةٍ؛ نُحاولُ إلغاءَ اللغةِ العربيةِ المَجيدةِ حتّى من العقلِ الباطنيِّ لكلٍّ منهُمْ. لو نستطيعُ لقُمْنا بإلغاءِ اللغةِ العربيةِ المَجيدةِ حتى من ذاكرةِ اللهِ، من اللوحِ المَحفوظِ!. علميّاً لقد أدخلنا الشّللَ الكاملَ إلى عقولِ الأجيالِ المُتعلّمةِ فينا ومن المُحيطِ إلى الخليجِ؛ مثلاً من أعدادٍ لا حصرَ لها من التجاربِ العلميةِ على قوانينِ "نيوتن" في علمِ الميكانيكا، اختزلناها في عقولِ الشبابِ المتعلّمِ فينا إلى تَجربةٍ واحدةٍ أو اثنتيْنِ في المختبرِ مستوردةً أجزاءَها بالكاملِ من الخارجِ. لمْ نؤسّسْ لأجيالِنا القادمةِ ما سيفكّرونَ فيهِ أو سيُعملونَ عليهِ عقولَهمْ، لا في الصناعةِ ولا في الزراعةِ ولا حتى في طريقةِ تناولِ الطعامِ والماءِ ومشروبِ الشايِ والقهوةِ. للحفاظِ على سلامةِ معاشاتِنا وتطويرِها قُمنا بتمجيدِ اللغاتِ الأخرى والتّباهي بِها أمامَ البراعمِ واليانعينَ والشبابِ والبالغينَ والكبارِ في السنِّ فينا حتى ضاعتْ اللّغةُ العربيةُ الفصحى من ألسنِ وعقولِ وقلوبِ أجيالِنا. ما الذي بَقِيَ لنا ولَمْ نَبِعْهُ!؟ في الأوطانِ من أجلِ الحفاظِ على مراكزِنا ووظائفِنا ومستوى عيشِنا كما هيَ عليهِ الآنَ في بلادِ أمهاتِنا وآبائِنا وأجدادِنا وأحفادِنا!؟.

رمزٌ وطنيٌّ رخيصٌ وفيلسوفٌ منبوذٌ

يقضي أبوالزهو معظمَ وقتهِ الآنَ في حالةِ استرخاءٍ واستراحةٍ في الفناءِ الخلفيِّ للبيتِ، بيتِ أبو جاسر الذي رحَلَ عن الحياةِ قبلَ عدّةِ سنينٍ. يتمتَّعُ أبوالزهو باحترامِ كلِّ أفرادِ الأسرةِ من حولهِ دونَ استثناءٍ. بسببِ ضعفِ جسمهِ ووهْنِ عظمهِ لا يقدرُ على القيامِ بأعمالٍ في البيتِ أو الحقلِ حتى البسيطةِ منها والتي لا تتطلَّبُ مشقةً أو جهداً كبيراً لإنْجازِها. إلا أنَّ شكلَهُ وطريقتَهُ في الحياةِ وتصرّفاته، بالإضافةِ إلى تاريخهِ الكفاحيِّ العريقِ، تَجعلُ منهُ مصدرَ فلسفةٍ وإلْهامٍ كبيرٍ لِمنْ يرغبُ في الاستقراءِ من ذلكَ الماعونِ الملقى في أحدِ اصطبلاتِ الزمنِ العاتي الظالمِ. أقربُ الخلقِ إليهِ صديقُهُ الدكتورُ حمد والذي رافقَ مسيرتَهُ في الكفاحِ المستمرِّ، دونَ أيِّ توقّفٍ يُذكرُ، ولفترةٍ تزيدُ عن الرّبعِ قرنٍ من الزمنِ في ظروفٍ معظمُها شديدُ الحُلْكَةِ عليهِ وعلى من حولَهُ!.

الدكتورُ حمد: لو كانَ هنالكَ أمرٌ أو سلطةٌ بيدَيَّ لصنعتُ لكَ تِمثالاً أضعُهُ على مدخلِ المدينةِ الرئيسيِّ الكبيرِ تَخليداً لكَ ولأفكارِكَ ونضالِكَ الأصيلِ ولِجهودِكَ من أجلِ حياةٍ حرةٍ كريمةٍ لنا وبدرجةٍ أقلَّ بكثيرٍ لَكَ.
أبوالزهو: آه ... بدأتَ تعودُ بِيَ بأشعارِكَ! وخيالِكَ وأفكارِكَ لأيّامِ الماضي. على كلِّ حالٍ أقبلُ منكَ كلَّ شيءٍ وأيَّ شيءٍ.
الدكتورُ حمد: لو كانَ بِيدِيَ أيُّ أمرٍ سأضعُ رسْماً لكَ على إحدى قطعِ أو فئاتِ العملةِ، على الأقلِّ، المتداولةِ للدولةِ؛ رسمٌ يرمزُ للتضحيةِ والفاعليةِ الكبيرةِ للعملِ التي تُنتجُ فيها شيئاً كبيراً للاقتصادِ الوطنيِّ من لا شيءَ تقريباً.
أبوالزهو و"هيما": توقَّفْ عندَ هذا القدْرِ من التّبجيلِ قبلَ أنْ يقودَكَ خيالُكَ الخصيبُ هذا إمّا إلى القبرِ أو إلى غياهبِ السّجونِ.
الدكتورُ حمد: لِمَاذا؟! لا يكونُ بمقدوريَ أنْ أنصبَ لكَ تِمثالاً للحريةِ والحياةِ والعملِ عندَ مدخلِ كلِّ عاصمةٍ من عواصمِ العالَمِ، خاصّةً الراقيةِ منها، والتي يَحترمُ المسؤولونَ فيها حقوقَ الخلْقِ فيها عَن حقٍّ وحقيقةٍ!.
سرحان: كلامُكَ هذا أقربُ قليلاً للواقعِ من سابقِيهِ!.
الدكتورُ حمد: آهٍ ... يا أبوالزهو، لو باستطاعتِيَ لنقشتُ صُوَراً لكَ على كلِّ كوبِ شايٍ أو قهوةٍ أو ماءٍ أو عصيرٍ للشربِ، أو كاسِ خَمْرٍ ليستمتعَ كلُّ شاربٍ بنخبِهِ على شرفِكَ وذوقِكَ الرفيعيْنِ!.
أبوالزهو: أشكرُكَ يا صاحبِيَ على هذهِ المشاعرِ الأصيلةِ النبيلةِ!. لكنْ بودِّيَ أنْ أسألَكَ سؤالاً طبيعياً بِناءاً على ما سبقَ. هل وضْعُ العالَمِ والبشرِ من حولِنا مُتَرَدٍّ لدرجةِ أنّهُ لا يوجدُ من يَحِلُّ مَحلِّيَ في الأمورِ الحياتيةِ العامّةِ والخاصّةِ بهذهِ الصورةِ الباهيةِ؟!. ذلكَ لأنَّهُ لو أصبرُ عليكَ قليلاً في الاسترسالِ من الممكنِ أنْ تُنَصِّبَنِي حاكماً أو إمبراطوراً على هذا العالَمِ بما فيهِ من أرضٍ وبشرٍ وموارِدَ طبيعةٍ!؛ إنّهُ لأمرٌ عجيبٌ!.
الدكتورُ حمد: آخٍ .... آخٍ يا أبوالزهو، لو كانَ الأمرُ بِيدَيَّ لَجعلتُكَ مشرفاً على وزاراتِ الدولةِ كلِّها دونَ استثناءَ من وزارةِ الماليةِ والاقتصادِ حتى وزارةِ الخارجيّةِ مروراً بوزاراتِ التربيةِ والتعليمِ ووزارةِ حقوقِ الإنسانِ ووزارة الداخليةِ ..... لكنْ ليس بيديَّ أيّةَ قوّةٍ ولا لديَّ صلاحياتٍ.
أبوالزهو: أنا سعيدٌ بذلكَ، لو كان بيدِكَ أيُّ شيءٍ لَحمّلتَنِي ما لا طاقةَ لِيَ بحملهِ. لقد قضيتُ كلَّ حياتِيَ لِخدمةِ عائلةِ أبوِ جاسرٍ ولَمْ أقدِرْ أنْ أنقذَها من حالةِ الفقرِ المدقعِ المزمنِ. هل تريدُنِي أنْ أخدمَ العالَمَ بأكملهِ؟!، أمرٌ غريبٌ فيكَ.
الدكتورُ حمد: آخٍ يا صديقِيَ لو بيدِيَ أمْرٌ سأقومُ بعمَلٍ إعلاميٍّ تليفزيونِيٍّ تكونُ فيهِ ضيفَ مَجموعةٍ من الحلقاتِ عنوانُها "ذخرٌ وطنيٌّ وفيلسوفٌ منبوذٌ"؛ سلسلةٌ من خَمسينَ حلقةٍ وعلى مدى سنواتٍ طويلةٍ. عسى أنْ تتعلّمَ وتعرفَ الجَماهيرُ تلكَ الخبرةَ وتستفيدَ منها ما أمكنَها.
أبوالزهو: بشرْطِ أنْ تكونَ من يقومُ بطرحِ الأسئلةِ عليَّ!. الآن يا صديقِيَ لا يوجدُ عندِيَ وقتٌ ولا تَحمّلٌ عصبيٌّ لِمثْلِ ذلكَ العملِ الإعلاميِّ!. لكنْ ولنفرضْ جدلاً أنّكَ تَمكّنْتَ من القيامِ بذلكَ العملِ الإعلاميِّ، ما أكثرُ الأسئلةِ الذي يطرقُ بابَ عقلِكَ وترغبُ في أنْ تسألَني إيّاهُ؟!.

الدكتورُ حمد: سؤالِيَ لكَ هو مثلاً، ما هو الشيءُ الذي أنتَ فيهِ نادمٌ على أنَّكَ لَمْ تَقُمْ بعملهِ أو لَمْ تنجزْهُ خلالَ حياتِكَ؟!.
أبوالزهو: أنا نادمٌ كثيراً أنّني لَمْ أتعلَّمْ استعمالَ آلةٍ موسيقيةٍ من مثلِ العودِ والنايِ الذي تستعملُهُ.
الدكتورُ حمد: الأمرُ عندَكَ ليس بمُحرج فعمرُكَ يقاربُ الرُّبعَ قرنٍ فقط، وتلكَ مدَّةٌ قصيرةٌ لتَعلُّمِ وإتقانِ حرفةٍ فنيةٍ عاليةِ المستوى.
أبوالزهو: لو صرفْتَ بعضَ الوقتِ لتعليمِيَ على النايِ مثلاً بدلَ إضاعةِ وقتِكَ وجهدِكَ كلِّهِ في الدراسةِ في المدارسِ والجامعاتِ، ذلكَ خيرٌ لكَ من حالةِ العبثيةِ التي قضيتَ معظمَ طفولتِكَ وشبابِكَ وقضيتَ على مستقبلِكَ ومُقتنايتِنا في سبيلِها!.
كنتُ أقولُ بينِيَ وبين نفسِيَ أنّكَ قد تكونُ فخراً لنا على ما تدّعيهِ من إنْجازاتِكَ العلميةِ، لكنَّكَ خيّبْتَ أملَ الجميعِ في العلمِ والتعليمِ والطبِّ والهندسةِ والتكنولوجية.
زيادةً على ذلكَ تأتيني كلَّ سنةٍ تقريباً عندَما تزورنِي بمجموعةٍ جديدةٍ من "المَلاعينِ" من هنا وهناكَ من المتحكّمينَ في الأرضِ والبشرِ والحياةِ، كان آخرُهُمْ مَجموعةٌ من المتحكّمينَ في "الجامعةِ القومَجِيَّةِ"!. أنصحُكَ أَنْ تقومَ بمشروعٍ تكتبُ فيهِ عنهُمْ كتاباً تضعُهُمْ في مثلِ رَزْمةٍ أو حُزْمَةٍ أو حتى باقةٍ وتقدِّمَ ذلكَ الكتابَ لِمنْ يُمكنُهُ أنْ يتّعظَ بحالِكَ من الأجيالِ اللاحقةِ القارئةِ. عسى أنْ يُعَوِّضَ ذلكَ عليكَ وعلى الجميعِ من حولِكَ مِمَّن نالَهُمْ جزءٌ من البلاءِ الذي ابتُليتَ فيهِ. أريدُ أنْ أذهبَ من هذه الحياةِ هادئَ النفسِ والخاطرِ.
الدكتورُ حمد: نعمْ يا صديقَ العمرِ يا أبوالزهو، أنا تَحْتَ أمرِكَ وسوفَ يتمُّ ذلكَ وآملُ أنْ أكونَ من الموفّقينَ في هذا المَشروعِ. لكنْ وبما أنّني عاجزٌ عن تحقيقِ أيِّ شيءٍ مِمّا سبقَ واقترحتَهُ وفكّرتُ بهِ فليسَ عندِيَ غيرُ شهادةِ دكتوراه أحْمِلُها الآنَ وكنتُ أفكِّرُ أنّني سأعلِّقُها على صدرِ البيتِ. إنَّني أقدمُّها لكَ هديةً خالصةً بتواضعٍ وبكلِّ فخْرٍ واعتزازٍ وإجلالٍ، بل وامتنانٍ لكَ. أنتَ الآنَ حائزٌ على دكتوراه "فخريةٍ"، لكنْ حقيقيةٍ، منّيَ؛ سوفَ أضعُ اسْمَكَ بدلاً عن اسْمِيَ في الشهادةِ!. يُمكنُ أنْ يطلِقَ عليكَ الخلقُ من الآنَ فصاعداً اسْمَ أو لقبَ "الدكتورُ زاهي أبوالزهو". ولَكَ منّيَ هذه القُبْلَةُ مرفقةً بكلِّ التمنياتِ بالتوفيقِ والنجاحِ...

‡☉‡

The University of Hi-Technoticho
(Smartis)

According to the records accumulated at our disposal, we the board of trustees of the University of Hi-Technoticho (Smartis), hereby have the honor to grant:

Zahi AbuZahow

The Degree of Doctor of Philosophy (PhD)
(with great distinction)

from
the Department of Philosophy and Natural Life Sciences

Signature of the Chief of the Board of Trustees

□□□□□□□□□□□□□□□□□

Signature of the University Secretary

Hilberto Onestone

كذلكَ أ هديكَ شهادةَ انضمام لنادي خريجي الجامعةِ و شهادةَ تقدير أ خرى لِجمعيّةِ مفكّرينَ وفلاسفةٍ ومبدعينَ دوليّينَ؛ عسى أنْ تَحوزا على رضاكَ وإعجابِكَ:
£¥¢$

WHO ARE THEY, of Professionals
is proud to accept

Zahi AbuZahow, *PhD*

as a new and honorary member. He satisfied much more than the requirements demanded by the Board of Trustees to become a great and full honorary member in our organization (L.L.C).

Bobo Petridow

Signature of the President

أبوالزهو: كلُّ شيءٍ تقدّمُهُ لِيَ من الممكنِ أنْ أتقبّلَهُ منكَ، وبكلِّ سَعَةِ صدرٍ، إلا هذه العروضُ المشئومةُ والعفِنةُ!. يا صديقِيَ هل تريدُ أنْ تلقيَ على ظهريَ وكاهلِيَ كلَّ كوارثِ ومثالبِ وعفنِ جهازٍ تعليميٍّ بشريٍّ عالَميٍّ يضرُّ ولا ينفعُ؟!. جهازٌ يعجُّ بالفسادِ والنفاقِ والزيفِ والمَحسوبيةِ. أرُدُّ لكَ هديتَكَ عليكَ، أنتَ أوْلى بها. أنتَ الذي أضعتَ عمْرَكَ ومقدَّراتِنا للحصولِ عليْها. أبقِها عندَكَ واحْمِلْها على ظهركَ. أو كما يقولُ المثلُ العاميُّ: "إنقعْها (ضعْها في الماءِ لفترةٍ من الزمنِ) واشرَبْ ميتها (ماءَها)"!.
الدكتورُ حمد: لكنْ يا صديقِيَ فيما لو أحسنتُ فهمَكَ جيداً!، أنتَ تَترفَّعُ عن شهاداتٍ علميةٍ صارتْ تباعُ ولا تُشترى، خاصةً مع تولّي جلاوزةِ "القومبرادور" العالَمِيِّ زمامَ كلِّ شيءٍ في الحياةِ. والحالُ هذه ما رأيُكَ لو أنَّ أحداً قدَّمَ لكَ جائزةَ "نوبِلْ" في السلامِ والاقتصادِ؟!؛ إنّها عرضٌ مغرٍ ليسَ باستطاعتِكَ أنْ ترفضَهُ أو تترفَّعَ عنهُ. بإمكانِكَ أنْ تضعَها أمامَكَ في زاويةِ الحجرةِ القريبةِ من مكانِ إقامتِكَ وقيلولتِكَ ونومِكَ، تنامُ وتصحو مستظلاً بفيءِ فخامتِها وقيمتِها وهيبتِها يَحلو للقومِ تناولُ الطعامِ والشرابِ معكَ أو في حضرتِكَ وعلى أعلى المستوياتِ. جائزةُ "نوبَل" يا أبوالزَهو تأتيكَ معزّزاً مكرّماً وبجدارةٍ على كفاحِكَ وصبرِكَ وتسامُحِكَ على البشرِ من حولِكَ. هل أنت أحسنُ من هَؤلاءِ "العُظَماءِ" أو هُمْ بأحسنَ منكَ والذين حصلوا عليها بعدَ بذلِ البعضِ منهم على الأقلِّ جهوداً جبّارةً في هذا المضمارِ أو ذاكَ جلَّ حياتِهِمْ!.
أبوالزَهو: أنتَ على جهلِكَ ومنذُ صغرِكَ!. يا خسارةً على ضياعِ تعليمِيَ فيكَ. وكغيرِكَ من بني البشرِ، أنتَ مصابٌ بداءِ "جنونِ العَظَمَةِ"!. تظلُّ تَحلُمُ طولَ العمرِ بأوراقٍ يُكتبُ عليْها ما يشبعُ رغبةَ بني البشرِ الطامعِ إلى السّيطرةِ على كلِّ شيءٍ. لا أريدُ هذهِ ولا تلكَ من الوثائقِ!؛ هذا ليسَ عجزاً ولا نقصَ قدرةٍ من عندِيَ. لنْ أحْملَ وثائقَ زائفةً ومزيفةً وكلّها ضحكٌ على اللّحى والذقونِ وبشكلٍ جَماعيٍّ حاشدٍ. آخ مِنْ وعلى بني البشرِ .... آخ على عقولِهِمْ الصّغيرةِ!.
الدكتورُ حمد: إذنْ يا مؤنسَ حياتيَ وبلسمَ جراحِيَ وملجَئِيَ الآمنِ من هذا التعليمِ الطويلِ المُزْمِنِ ما رأيُكَ بِسماعِ مقطوعةٍ موسيقيةٍ؟ ومن روائعِ الفنِّ الفارسيِّ العريقِ! ....
أبوالزَهو: الآن صرتَ واقعياً وعَذباً.
الدكتورُ حمد: وهذه المقطوعةُ للموسيقارِ الإيرانيِّ الفذِّ السّيدِ "منصور نَريمان" ..... القطعةُ الموسيقيةُ بعنوانِ "سرابٌ" وعلى مقامِ "ماهورْ" في الموسيقى ....
دن دن دن ..... صول دو دو دو .... دو دو مي ري دو مي ري ... . دو.
أبوالزهو: أشعرُ أنَّ روحَ صِبا الشبابِ مصحوبةً بموجاتٍ من الفكرِ الفلسفيِّ! بدأتْ تعودُ إلى جسمِيَ الرّثِّ وما تبقّى من روحيَ. أرجوكَ أنْ لا تتوقّفَ عن ذلكَ العزفِ يا طبيبَ روحِيَ!. إهي إهي إهي إهي ... (أبوالزهو يبكي!).

إلى ذُرْوةِ البؤْسِ والنحْسِ والتعَسِ وصلتْ الأمورُ معَ الحياةِ والمُجتمعِ المُحيطِ. ضغطٌ هائلٌ في الليلِ والنهارِ ومنَ الداخلِ والخارجِ، من العدوِّ والصّديقِ والحبيبِ والقريبِ والبعيدِ، ضغطٌ يدفعُ بكلِّ قوّتهِ باتّجاهِ السّفرِ والرحيلِ. بدا الوضعُ عندَ الدكتورِ حمد مثلَ وضعِ حيوانٍ انْتُزِعَ من بيئتهِ الطبيعيةِ ووُضِعَ في بيئةٍ غيرِ ذاتِ ودٍّ بل مُعاديةٍ لهُ. حتى التواجدُ هناكَ ودونَ أيِّ مطلبٍ، مُجرَّدُ وجودٍ جسمانيٍّ لا-عقليٍّ أو فكريٍّ، أصبحَ مرفوضاً رفضاً باتاً وقاطِعاً. وما أكثرَ الإخوانَ حينَ تعدُّهُمْ عندَما تكونُ غنيّاً وناجحاً ولكنَّهُمْ في الظروفِ غيرِ العاديةِ يهبطُ عددُهُمْ إلى ما دونَ الصّفرِ!. تَجربةُ الدكتورِ حمد مع الجِنسِ البشريِّ تُثبتُ أنّهُ أيْ الجنسُ البشريُّ منَ الأنانيـةِ المُفرطـةِ والقَدرةِ علـى التّحـريضِ وإثــارةِ الضـغائنِ والأحقـادِ والكراهيـةِ ونُكرانِ الجميلِ والطعنِ في النبلِ والبراءةِ والعفويةِ، هو بلا شكَّ أكثرُ المخلوقاتِ. يتجلّى ذلكَ الأمرُ حينَما يكونُ الإنسانُ جائعاً أو على وشكٍ؛ بلْ هو دائمُ الجوعِ والتعطّشِ للجَشَعِ حتى عندَما يكونُ بطنُهُ شَبعاً ومُرتَوياً.

لَمْ يبقَ للدكتورِ حمد أيُّ متنفسٍ، لا بيتاً ولا أسرةً ولا مالاً ولا جاهاً ولا ولداً. كَثُرَتْ عندَهُ عباراتُ التشهُّدِ (أشهدُ أنَّ لا إلهَ إلا اللهَ) و"التّحوقلِ" (لا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ) و"التّرَجّعِ" (إنا للهِ وإنّا إليهِ راجعون) و"الترحُّمِ" (يا ابنَ عبدالله! مُتَّ رحِمَكَ اللهُ) علـى الحيـاةِ، بشـكلٍ لا يبعثُ علـى التّفـاؤلِ. لـمْ يبـقَ للـدكتورِ حمـد إلا الانضمامُ إلى طوابيرَ طويلةٍ منَ الذينَ يلجئونَ إلى المعابدِ كملاذٍ أخيرٍ قبلَ الانتقالِ إلى الحياةِ الأخرى!. في نِهايةِ الأمرِ يأتي أصعبُ القراراتِ في حياةِ الدّكتورِ حمد ألا وهو السّفرُ، وإلى أينَ؟ إلى حيثُ الغامضِ المستحيلِ. عليهِ السّفرُ وراءَ مستقبلٍ يَخضعُ لكافةِ التوقّعاتِ والاحتمالاتِ الهوجاءِ؛ إلى حيثُ منبعِ القرشِ الأحْمقِ وإلى أيِّ مكانٍ يقبلُ بوجودِ الدكتورِ حمد وفي أيِّ سوقِ نَخاسةٍ، إلى حيثُ تأمينَ لقمةِ العيشِ للّحظةِ التي فيها يعيشُ.

من جديدٍ على الدكتورِ حمد العودةُ إلى أسلوبِ تقديمِ الطلباتِ وتسجيلِ اسْمهِ ومعلوماتٍ أخرى على قوائمِ انتظارٍ للحصولِ على عملٍ، قوائمُ تطولُ كثيراً وتقصرُ قليلاً بينَ حينٍ وآخرَ حسْبَ تقلباتِ الزمنِ الأرعنِ. القبولُ في أيِّ مكانٍ مشروطٌ وقصيرُ الأجلِ وَقليلُ العائدِ ومُضنِيَ الجهدِ، مضنياً للروحِ ومبدّداً للكرامةِ ومرسِّخاً للذّلِّ وأغلبُهُ مُشتِّتٌ للفكرِ الإبداعيِّ الخلّاقِ. يسبحُ الدكتورُ حمد في بَحرِ الظّلماتِ يتشبثُ ويستنجدُ بأيّةِ قشّةٍ ترسو بهِ على أيِّ شاطئٍ ولو كانَ ذلكَ الشاطئُ غيرَ آمنٍ. عليهِ أنْ يلتصقَ بأيِّ قاربٍ للنجاةِ، بجلدهِ، من هولِ أوضاعٍ تشبهُ المقدّمةَ إلى حياةِ الجحيمِ، في الواقعِ هي تَمرينُ جحيمٍ على الأرضِ!.

حالَما حصَلَ الدكتورُ حمد على قبولٍ بوظيفةٍ في إحدى المؤسّساتِ فإنَّ داخلَ رسالةِ القبولِ هنالكَ مفتاحُ أو بدايةُ الطريقِ إلى قبرِ الحياةِ. مقابلَ ذلكَ الراتبِ الضئيلِ هنالكَ مَطالبٌ تستهلكُ منهُ الجهدَ والعصبَ والعرقَ والدمَ والحياةَ الحرّةَ الكريمةَ؛ مطالبٌ تربطُ قوتَ يومهِ واستمرارَ وجودهِ يوماً بيومٍ بِمدى إحرازهِ للتقدّمِ

الذي يَحلو لغيرِهِ تقديرَهُ. البيتُ الممنوحُ لهُ للسكنِ أو الذي يقدرُ على تَمويلِهِ يفتقرُ إلى المقوِّماتِ العصريةِ. الحركةُ في معظمِها مقيّدةٌ بينَ مكانِ العملِ وذلكَ البيتِ المتواضعِ؛ مكانُ السّكنِ فقط لالتقاطِ الأنفاسِ وليسَ للاستقرارِ. كلُّ هذا نتاجُ نظامٍ بدّلَ عبادةَ الخالقِ بعبادةِ المالِ وحلَّ نظامُ رأسِ المالِ مَحلَّ كافةِ العقائدِ والأديانِ التي تدعو إلى السّكينةِ والهدوءِ والاتزانِ في الأعمالِ والأفكارِ. في النهايةِ الإنسانُ مَملوكٌ بالكاملِ تقريباً لأصحابِ شركاتٍ مسيطرةٍ على مُجرياتِ الحياةِ وأيُّ تفكيرٍ ليبراليٍّ للتخلصِ من تلكَ السّيطرةِ يؤدي إلى انْحسارِ الإنسانِ على نفسهِ في الحياةِ.
الدكتورُ حمد: لكُمْ عنديَ بشرىً سارَّةٌ هذا اليومَ!. سَأسافرُ مَرّةً أخرى قريباً! علّني أجدُ وظيفةً ومكاناً مناسبيْن. سأبعثُ لكُمْ مصروفاً على قدْرِ استطاعتيَ من معاشيَ الشهريِّ لأساعدَكُمْ، كما ساعدتُموني في الماضي، على قضاءِ بقيةِ العمرِ بشرفٍ وكرامةٍ. الدنيا أولاً وأخيراً دَيْنٌ وسدادُ دَيْنٍ!. الخيرُ من عندِكُمْ كثيرٌ عليَّ وسابقٌ، والجودُ عندِيَ من الموجودِ.
الأهلُ وأبوالزّهو: يا رجلاً ما هذا؟!. لقد صرفْنا عليكَ كلَّ شيءٍ لتستقرَّ معنا هنا في أرضِ الآباءِ والأجدادِ والأحفادِ. ذهبَ منّا عمرُنا إلى غيرِ رجعةٍ، ونَحْنُ متمسّكونَ بطرفِ ثوبِكَ؛ اليومَ تبشّرُنا! بسفرٍ جديدٍ لكَ، بغربةٍ قاحلةٍ وأيامٍ آتيةٍ من جحيمِ الوسواسِ وضربِ الأخْماسِ بالأسداسِ.
الدكتورُ حمد: لقد شرحتُ الأوضاعَ هنا لبعضِ الأصدقاءِ لِيَ في الخارجِ والذينِ وعدوني بالمساعدةِ على الحصولِ على منصبٍ علميٍّ هناكَ. الأمرُ مؤقّتٌ يا جماعةُ وعندما تسنحُ لِيَ أيَّةُ فرصةٍ للعودةِ، سأعودُ إليكُمْ مثلَ النسيمِ العليلِ المتسلّلِ مع أولى أشعةِ الفجرِ في صبيحةِ يومٍ حارٍّ. كما تعرفُني يا أبوالزّهو أنا ابنُ عاشقِ الأرضِ وأخو الوادي ورفيقُ جدولِ الماءِ البلوريِّ العذبِ الذي ينسابُ في سفحِ جبلٍ صخْريٍّ؛ ومن أعلى رأسِيَ إلى أخْمَصِ قدميَّ أظلُّ مشدوداً إلى أرضِ الخيرِ والبركةِ.
أبوالزهو: وأوصيكَ بعدَ وفاتيَ التي أشعرُ أنّها قريبةٌ عليَّ أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، أوصيكَ بالأرضِ والمِحراثِ والفأسِ والعشّابةِ والمِجرفةِ والطوريَّةِ والمعولِ (أدواتٌ زراعيةٌ يدويةٌ بسيطةٌ يستعملُها الفلاحونَ في أعمالِ الأرضِ والزراعةِ). أوصيكَ بقصِّ الأجزاءِ الضارّةِ (الرِّعِن) من على شجرِ الزيتونِ وبالقضاءِ على الأعشابِ الخبيثةِ التي تفسدُ الشجرَ والزرعَ.
الدكتورُ حمد: ذلكَ عندَما أعودُ، ولكنني مسافرٌ يا أبوالزهو، هل بدأتَ تغيبُ عن الوعيِ إلى سَكْرةِ الموتِ؟!. سأعودُ بعدَ سفرٍ قصيرٍ!، لا تقلَقْ؛ في الوقتِ الحالي أستمرُّ في القيامِ بواجبِ الأرضِ حتى يقضيَ اللهُ في أمرٍ كانَ مفعولاً.
أبوالزهو: يا صَديقِيَ! أنت الذي تغيبُ عن الوعيِ بَتركِكَ لِهذهِ الأرضِ لدواعي الحاجةِ كما تقولُ بهِ وبتبجّحٍ!.
الدكتورُ حمد (يُمسِكُ بالعودِ ويغنّي أغنيةً وطنيّةً): دو ري مي فا صول ..... عهد الله ما نرحل! ... عهد الله نجوع نموت ولا نرحل ..... عهد الثورة والثوار والجماهير ما نرحل ... واحنا قطعة من هالأرض وعمر الأرض وحق الله ما نرحل ......
أبوالزهو وسرحان: هذا هو الذي أنت فيه فصيحٌ؛ وطنيةٌ وقوميةٌ وثورةٌ شعبيةٌ واشتراكيةٌ وعدالةٌ اجتماعيةٌ وأرضٌ .... ومنذُ عشراتِ السّنينِ؛ لكنْ على أرضِ

الواقعِ تبيعُ كلَّ ما ذكرتَهُ أعلاهُ مقابلَ لا شيءَ .... الويحُ عليكَ وعلى منْ يصدِّقُ كلامَكَ!.

كانتْ الأرضُ تبدو للدكتور حمد غيرَ تلكَ الأرضِ في الماضي عندَما كانتْ تنتعشُ في كلِّ زيارةٍ كانَ يقومُ بهاَ عاشقُ الأرضِ الوالدُ أبو جاسر وكلَّ يوم. كانت الأرضُ، كلُّ الأرضِ، زاخرةً بالنباتاتِ المفيدةِ المزروعةِ سنوياً. كانت الأشجارُ مزدانةً كأنَّها في حالةِ عرسٍ دائم، كانت دائماً جاهزةً لاستقبالِ الفصولِ والمواسم. الآن ينظرُ الدكتورُ حمد إلى تلكَ المساحاتِ الشاسعةِ و"القطائن" (جَمْعُ "قِطانْ" وهو حقلٌ صغيرُ المساحةِ ومستصلحٌ للزراعةِ وعادةً ما يكونُ في سفحٍ مرتفعٍ جبليٍّ) التي كانتْ في الماضي مثلَ الحدائقِ المعلقةِ في مدينةِ "بابل" السومريةِ، تَحوّلتْ إلى ما يشبهُ خرائبَ خاويةٍ على عروشِها تذروا فيها الرياحُ من كلِّ صوْبٍ. زَحَفَتْ الأعشابُ والنباتاتُ البريّةُ الضارّةُ على المزروعاتِ والأشجارِ، وأكَلَ "الرِّعنُ" (الرِّعنُ هو نوعٌ من أغصانِ الشجرِ الضارّةِ التي لا تنتجُ بل تؤثّرُ على محصولِ شجرِ الزيتونِ ونموِّهِ بالسّلبِ، ويَجبُ على المُزارعِ التخلصُ منها) شجرَ الزيتونِ المبارَكِ مِمّا أضعفَ ذلكَ إنتاجَهُ كمّاً ونوْعاً. تكاثرَتْ الحيواناتُ القارضةُ الزاحفةُ والحشراتُ الضارةُ في الأماكنِ الرطبةِ نسبياً واتسعتْ مساحةُ الأرضِ البور. قلَّ الإنتاجُ السّنويُّ العامُّ الزراعيُّ للمنطقةِ وبشكلٍ كبيرٍ ومتسارعٍ نَحْوَ الأسوأ. ذهبَ الكثيرُ من الشبابِ العاملِ إلى الأعمالِ التجاريةِ واضطرَّ قسمٌ آخرُ منهمْ للانضمامِ إلى العمالةِ الجاهلةِ في مصانعِ ومنشآتِ الاحتلالِ داخلَ وخارجَ المناطقِ المُحتلةِ، وحتى داخلَ المستعمراتِ المقامةِ للمستجلبينَ. هنالكَ كارثةٌ مستمرةٌ ومتفاقمةٌ والمشكلةُ الأكبرُ هي أنّهُ لا حلَّ بالأيدي!.

في آخرِ صيفٍ لهُ هناكَ من تلكَ السّنينِ قامَ الدكتورُ حمد بمحاولةِ استصلاحِ ما أمكنَ من الأراضي التي كانتْ زمنَ المرحومِ أبو جاسر جنائنَ يَحلو المبيتُ فيَ جُنوبِها. أصبحتْ تلكَ الجنائنُ مهملةً إلى حدٍّ كبيرٍ بسببِ ضيقِ ما في اليدِ وبسببِ التقدُّمِ في السّنِّ عندَ معظمِ أفرادِ العائلةِ المتبَقينَ، وعزوفِ القويِّ منهُمْ عنِ "التواضعِ والتنازلِ" إلى مستوى! خدمتِها والاعتناءِ بها. كانَ العملُ في غايةِ المتعةِ ومُمارسةِ الرياضةِ. بالإضافةِ إلى ذلكَ قامَ الدكتورُ حمد بفلاحةِ أراضي الأصدقاءِ والجيرانِ مِمّن تُوُفّوا أو اضطُرّوا للهجرة إلى البلادِ المُجاورةِ ولَمْ يعُدْ من أقاربِهِمْ أحدٌ هناكَ يَعتني بأرضِهِمْ. أمستْ كلُّ أراضي القريةِ وكأنَّها تَحْتَ رعايةِ الأخِ الأكبرِ والأصغرِ للأرضِ. هنالكَ العشراتُ من أشجارِ الزيتونِ والتينِ واللوزِ التي قامَ الدكتورُ حمد بإعادةِ الحياةِ إلى جذورها وفروعِها!.

الأهلُ والأصدقاءُ وأبوالزهو: نراكَ تقضي وقتَكَ كلّه بشَقِّ باطنِ الأرضِ بالمِحراثِ والمعولِ، تريدُ أنْ تفجِّرَ منها ينابيعَ الخيرِ والغَلّةِ من جديدٍ وقبلَ سفرِكَ؛ نتمنى لكَ كلَّ التوفيقِ. لكنْ تأكّدْ تماماً أنّهُ بعدَ مغادرتِكَ لَها سوفَ لن تَجدَ هذهِ الأرضُ من يعشقُها ذلكَ العشقَ؛ الخَلْقُ من حولِكَ متلاهونَ بتكديسِ أموالٍ ولو تأتيهِمْ من جلودِ وبطونِ الشياطين.

الدكتورُ حمد: إنَّ أجْمَلَ لوحةٍ فنيّةٍ أراها في حياتِيَ هي اللوحةُ التي يرسمُها المِحراثُ البلديُّ عندَما يشقُّ "عِبابَ" الأرضِ ناثراً الترابَ من على "كتفيْه" يَميناً وشِمالاً!. يا أبوالزهو، لو أنّني أظلُّ أنظرُ إلى ذلكَ المنظرِ طوالَ اليومِ لَما مَلَلْتُ ذلكَ؛

إنّــهُ يــريحُ قلبــيَ وينعشُــهُ، إنّــهُ أيْ المنظــرُ مثــلُ البلســمِ لِجــراحِ القلــبِ والــروحِ المَجروحيْنِ بسَببِ نكبةِ بُعْدِهِما عن الأرضِ، طوعاً أو كرهاً.
"هيمــا" وسَــرحان: لكنَّــكَ تَحــرثُ وتفلَــحُ أرضَ الجــارِ والصّــديقِ والعــدوِّ، والقُــرى المُجاورةِ والبعيدةِ؛ هل هذا عملٌ تطوّعيٌّ أم أنَّ هؤلاءِ يعطونَكَ شيئاً مقابلَ ذلكَ؟!.
لو أنَّ كلَّ فردٍ يُعطيكَ في السّاعةِ الواحدةِ عشرةَ قروشٍ فإنَّكَ ستكْسِبُ قوتَ يومِكَ؛ أو أنَّ عليهِمْ أنْ يكرموكَ بغداءٍ أو عشاءٍ أو حتى بِـ"صَابوحٍ" (الصّابوحُ هو وجبةُ الصّباحِ عندَ الفلّاحِ في الأرضِ وعادةً ما تكونُ السّاعةَ العاشرةَ صباحاً تقريباً).
الـدكتورُ حمـد: عنـدما يكـونُ الموضـوعُ الأرضَ يصـبحُ لا فـرقَ عنـديَ بـينَ عـدوٍّ وصديقٍ، كلُّهُمْ من عنديَ "أعدقاءٌ"!. لا صابوحاً ولا غداءً ولا عشاءً؛ لا أريدُ حتى وجبةَ أكلٍ واحدةٍ. أنا فقط متيَّمٌ بالعشقِ لانسيابِ المِحراثِ الذي تَجرُّهُ الدابةُ في الأرضِ البورِ (الأرضُ البورُ هي التي مضى عليها سنينٌ عديدةٌ لَمْ يقمْ أحدٌ بحرثِها أو فِلاحتِها حَيثُ تتكاثرُ فيها الأعشابُ البريةُ الضارةُ)؛ هنا تتجلّى أحلى صورةٍ في وجوديَ، صَدِّقا أو لا تُصَدِّقا.
أبوالزهو: آهٍ .... على حياتِكَ يا صديقِيَ!. كما عهدتُكَ في الماضي، سيُتْعِبُ عقْلُكَ كثيراً قدميْكَ. سوفَ تَسبقُني كثيراً في قطعِ المسافاتِ الطويلةِ دونَ النظرِ إلى خلفِكَ وحولَكَ ...... هل لنا يا صديقَ العُمْرِ أنْ نَطربَ معاً فيما تبقّى من العُمْرِ من تلكَ الألْحانِ القديمةِ الحديثةِ التي لا تَموتُ. أحِنُّ بِشوقٍ كبيرٍ إلى تلكَ الأيامِ الخوالي. أعطِنا مِمّا لديكَ ... يرْحَمْ والديْكَ!.
الدكتورُ حمد: آهٍ عليكَ يا أبوالزهو!، الغالي يَبْخسُ لكَ. لا أجدُ أرقَّ وأكثرَ رخامةً من غناءِ وألْحانِ صاحبِ الفخامةِ الشيخِ رياض السّنباطي في رائعتِهِ "أشواق" ... . دن دن دن دن دن... .... أيُّهــا النــاعمُ فــي دنيــا الخيــالِ، تــذكرُ العهــدَ وماضي الصّفحاتِ!؟ ... أعَلى بالِكَ ما طافَ ببالي من ليالٍ وعهودٍ مشرقاتِ؟! ...... لا رأتْ عينــاكَ شكّي وضلالي وحنينــي ولَهيــبَ الــذكرياتِ! .. .... عنــدما يعرضُــها الماضي لِعيْني! صوراً تَجلو التي ضَيَّعْتَ منّي! ليالٍ بِهوانا راقصاتِ .. ..
أبوالزهو: امضِ في العزفِ والغناءِ ولا تتوقّفْ!!.
الدكتورُ حمد: دن دن دن دن دِن .... هَتَفَ الصّبحُ وغنّى بنشيدي!، رائعَ اللحنِ شهيَّ النغماتِ! ... كالمُنى تُقْبِلُ كالحلمِ السّعيدِ!، في خيالي كابتسامِ الزهراتِ! ... بَيْدَ أنّي لا أبالي بالورودِ، ولياليهِ الحسانَ النَّيِّراتِ ....
أبوالزهو: أكملْ ثُمَّ أكملْ....!!
الدكتورُ حمد: .... إنْ يكنْ قلبُكَ لا يسمعُ لَحني!، فلِمَنْ يا فتنةَ الروحِ أُغَنّي؟! ... للهوى سرٌّ المعاني الخالداتِ ...
أبوالزهو: لا تتوقّفْ....؟!.
الدكتور حمد: ..... آهِ لو تسمعُني أشكو الجوى يا حبيبي (مكررة ٥ مرّات) ..... وتَرى القلبَ ونيرانَ الهوى ولَظاها، ودموعَ الشجنِ! ... لترفّقْتَ بقلبِيَ وانْطوى ما بقلبِيَ من هوى ......
أبوالزهو: أكملْ....!.
الدكتورُ حمد: ... أينَ أحلامُ شبابي؟!، أينَ منّي أمسياتٌ من فتونٍ وتَمَنّي؟ ... وعيونُ الدهرِ عنا غافلاتِ....
أبوالزهو: لا ....

الدكتورُ حمد: .... يا حبيبي أيقظَ الماضي جُنونِيَ! حيذَما ضاقتْ روءاهُ في خيالِيَ، وتَلَفَّتُّ بعيْنِيَ ليقينِيَ ... فإذا الحاضرُ كالليلِ حيالِيَ! .... وإذا بِيَ قدْ خلَتْ منكَ يَمينِيَ!، وانطوى ما كانَ من صفوِ الليالي! ..... طالَ بي شوقي لأيّامِ التَّغنّي ... وليالٍ كُنَّ ماضي غابَ عنّي! .. فأعِدْ لِيَ ما انطوى من بُشرياتِ ....
أبوالزّهو: يا ابنَ آدمَ أكملْ، لِماذا توقّفْتَ؟!.
الدكتورُ حمد: يا حبيبَ روحِيَ أبوالزهو! لقد انتهتْ الكلماتُ والألْحانُ ولَمْ تَكْتَفِ بعدُ!؟.
أبوالزهو: آخ يا رفيقِيَ لو تَكتُبَ لِيَ هذه الكلماتِ الرائعةَ على ورقةٍ ليقرأَها أحدُ الأمواتِ من "غيرِ الأمّيينَ" على بقيّةِ الأمواتِ من الأمّيينَ وغيرِ الأمّيينَ عسى أنْ تُبعثَ فيهِمُ الروحُ الأصيلةُ من جديدٍ!. كَمْ! تُذَكِّرُني بأيامِ الشبابِ الخوالي...... إهي إهي إهي هي هي (أبوالزهو يبكي)!.

فيالقُ أبو رغال

في باكورةِ سنينِ التعليمِ عندَ الدكتورِ حمد عَلِمَ التلاميذُ في المدرسةِ أنَّ ملكَ الحبشةِ، "أبرهةَ الأشرم"، أقامَ مَملكةً للأحباشِ على أرضِ اليمنِ. في "عامِ الفيل" قامَ ذلكَ الملكُ بتجهيزِ حَملةٍ عسكريةٍ اتّجهَ بها إلى منطقةِ الحجازِ في مُحاولةٍ للسيطرةِ على الأماكنِ المقدّسةِ هناكَ. اتَّجهتْ الحملةُ ومعها فيلٌ ضخمٌ وقويٌّ نَحْوَ الشَّمالِ من بلادِ اليمنِ. كما يبدو استُعملُ الفيلُ لإرهابِ وتَخويفِ العربِ في ذلكَ الزمانِ، ربّما لأنّهُ لَمْ يكنْ بِحوزةِ السّيدِ "أبرهةَ الأشرم" دباباتٌ أو مروحياتٌ أو طائراتٌ حربيةٌ أو بوارجُ في البحرِ أو حاملاتٌ للطائراتِ أو صواريخٌ بعيدةُ المدى كما هو متوفّرٌ الآنَ. كانَ هدفُ ملكِ الحبشةِ احتلالَ المدينةِ المقدّسةِ و هدْمَ الكعبةِ المشرّفةِ وحتى نقْلَ الحجرِ الأسودِ منها إلى أرضِ مَملكةِ الأحباشِ في اليمن، مِمّا يُحَوِّلُ أنظارَ الناسِ عن قَدَسيةِ منطقةِ الحجازِ ويَجلبُ إلى مَملكةِ الأحباشِ ومَلِكِها "أبرهةَ الأشرم" عملةً صعبةً!. إضافةً إلى ذلكَ فإنّهُ يَحرمُ بلادَ العربِ من تلكَ الميزةِ المقدّسةِ في ذلكَ الوقتِ وفيما بعدُ. ما أنْ سارتْ الحملةُ العسكريةُ بضعةَ أسابيعَ في الصّحراءِ الواسعةِ وكادتْ تصلُ إلى مشارفِ مكّةَ المكرمةِ حتى ضلَّت طريقَها، ولَمْ تكنْ في الحقيقةِ بعيدةً كثيراً عن المكانِ الهدفِ. ما كانَ من السّيدِ "أبو رغال" وهو من مواطني المنطقةِ هناكَ إلا أنْ دَلَّ القائدَ التائهَ، الملكَ الغازي المتغطرسَ نفسَهُ "أبرهةَ الأشرم"، إلى المكانِ المرجوِّ لديهِ؛ دلَّهُ بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ!، غيرُ معروفٍ. إلا أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى أرسلَ على الحملةِ الطيرَ الأبابيلَ والتي قضتْ على الحملةِ المعسكرةِ خارجَ المدينةِ المقدّسةِ. بذلكَ اقترنَ اسمُ السّيدِ "أبو رغال" بالشيطانِ والخيانةِ وسوءِ الذكرِ. صارَ كلُّ واحدٍ من التلاميذِ يتمنّى فيهِ يوماً يرى السّيدَ "أبو رغال" وجهاً لوجهٍ، حتى يرميَهُ بنظرةِ ازدراءٍ واحتقارٍ أو يقذفَهُ بِحجرٍ أو يبصقَ عليهِ أو حتى إذا ما امتلكَ سلاحاً نارياً أنْ يطلقَ النارَ عليهِ!.

حَكَمَ "أبو رغال" على نفسهِ باللعنةِ والخيبةِ وخيانةِ الشرفِ والضمير؛ والعياذُ باللهِ. هذا "فيضٌ من غيظٍ" مِمّا وصلَ للتلاميذِ في ذلكَ الوقتِ عن تلكَ الحادثةِ والقصةِ والتي فيها اقترفَ السّيدُ "أبو رغال" ذلكَ العملَ الأرعنَ الجبانَ والخائنَ في آنٍ معاً.

ما أنْ عادَ الدكتورُ حمد من دراستهِ الجامعيةِ حاملاً لَقَبَ دكتورٍ ليجدَ أنَّ المنطقةَ كلَّها يَحكمُها أشخاصٌ كما لو كانوا من صُلْبِ السّيدِ "أبو رغال" وَربّما من رَحِمِ السّيدةِ "أم رغال"!. الكلُّ من حولِ هؤلاء يُحاولُ أنْ يَحصلَ على رضا أيٍّ من أحفادِ السّيدِ "أبو رغال". كلُّ من اعترضَ نَهْجَ "أبو رغال" عليهِ أنْ ينضمَّ إلى طوابيرَ من الفقراءِ والباحثينَ عن أيِّ عملٍ يقيهمْ شرَّ حالةِ العوَزِ والجوعِ!. هنالكَ كلّياتٌ جامعيةٌ متخصّصةٌ في نَهجِ السّيدِ "أبو رغال" في الحياةِ. هنالكَ وسائلُ إعلامٍ ليلَ نَهارَ وعلى مُختلفِ الموجاتِ تسلكُ نفسَ الطريقِ الذي سلكَهُ السّيدُ "أبو رغال". هنالكَ مَن قاموا بتسميةِ المولودِ البكرِ لديهِمْ "رُغال" تيمّناً بوظيفةٍ مستقبليّةٍ مرموقةٍ في زمنِ السّيطرةِ اللا-مَحدودةِ لأتباعِ السّيدِ "أبو رغال". وهنالكَ من ذَهَبَ إلى أبعدَ من ذلكَ، فوضَعَ صورةَ "أبو رغال" في معبدهِ وخلوتهِ وعندَ سريرِ نومهِ مع حرمهِ المصون. مع تقدّمِ الزمنِ و"التعصرن" والتحضُّرِ والشفافيةِ والتوسعِ في الليبراليةِ والتحديثِ التكنولوجيِّ ليسَ مستبعَداً أنْ تُباعَ في مَحلاتِ السّوقِ التجاريِّ أجزاءٌ "جسديةٌ" من مُختلفِ الأحجامِ وقد كُتبَ على غلافِ كلِّ علبةٍ تَحتويها، ماركةُ "أبو رغال" في أحلى الأشكالِ!. صارَتْ بعضُ النساءِ تُرَبّي وتَحضُّ أولادَها الصّغارَ على الإقتداءِ بنهجِ السّيدِ "أبو رغال"!. بعبارةٍ أخرى أمسى وباتَ وأضحى تراثُ "أبو رغال" إرثاً حَضارياً كبيراً عندَ من يطلقُ عليهِمْ بلغةِ العصرِ "البراغماتيونَ"، إنْ جازَ أو صَحَّ التعبيرُ.

هنالكَ في "سلاح الجوِّ" في الدولةِ ضابطٌ طيارٌ أُنْهِيتْ خدماتُهُ في ذلكَ السّلاحِ لعدمِ تَمَكُّنِهِ من الإجابةِ على السّؤالِ رقم أحدَ عشرَ (١١) في امتحانِ اللياقةِ واللّباقةِ والذوقِ العامِ الرفيعِ (الإتيكيت). كانَ السّؤالُ كالتالي:- ما الذي تفعلُهُ إذا ما رأيتَ أحدَ أتباعِ السّيدِ "أبو رغال" نائماً في السّريرِ المخصّصِ لكَ ولزوجتِكَ (مع كاملِ الاحترامِ الصّادقِ للحرمِ المصونِ) عندَ ذهابِكَ إلى البيتِ من العملِ مُتعَباً وجائعاً؟. جوابٌ ١: أقتلُهُ بسلاحِي. جوابٌ ٢: أطردُهُ من البيتِ. جوابٌ ٣: أوَبّخُهُ. جوابٌ ٤: أوبّخُ الزوجةَ. جوابٌ ٥: ألتزمُ الصّمتَ حتى يفيقَ من نومِهِ. جوابٌ ٦: أصافحُهُ وأبتهجُ لرؤيتِهِ وأدعوهُ في أيِّ وقتٍ يشاءُ للزيارةِ (البيتُ مِثْلُ بيتِهِ!). كانَ جوابُ الضابطِ الطيّارِ هو الجوابُ رقمُ ٢. أَخبَرَهُ المسئولُ عن الامتحانِ بأنَّ الجوابَ الصّحيحَ بل المطلوبَ هو الجوابُ رقمُ ٦. باختيارهِ الأسلوبَ غيرَ الحضاريِّ، أيْ الجوابِ رقم ٢، اعتُبِرَ ذلكَ دليلاً على أنّهُ ليسَ من أنصارِ الحريةِ والسلامِ والمَحبةِ والتفاهمِ والشفافيةِ والانفتاحِ الليبراليِّ.

قامَ الدكتورُ حمد بمقابلةِ أعدادٍ كبيرةٍ من هؤلاءِ من الذكورِ والإناثِ ومعظمُهُمْ من المتعلمينَ في الجامعاتِ الراقيةِ داخلَ أقطارِهِمْ. الغريبُ في الأمرِ أنَّ نسبةَ المتحمّسينَ لسياسةِ ونَهْجِ "أبو رغال" المتخرجينَ من الجامعاتِ المَحلّيةِ تفوقُ بكثيرٍ نسبتَهُمْ من نُظرائِهِمْ المتخرجينَ من الجامعاتِ الخارجيةِ. لكنْ! الحقُّ يقالُ أنَّ الدكتورَ حمد لَمْ يسمعْ أحداً من هؤلاءِ "الأبو رغاليين"، إنْ صحَّ التعبيرُ،

يترَحَّمُ على السّيدِ "أبو رغال" أو يذكرُهُ بالخير؛ ربّما! مثلُ الشياطينِ لا تترحَّمُ على شياطينٍ أخَر حتى لو كانتْ من نفس جلدتِها.

تعدَّدَتْ أشكالُ وأنْماطُ حياةِ "الرغاليين"؛ تراوحتْ بينَ من يلبسونَ سروالَ الجينْزْ "المُهترِي" إلى الذين يلبسونَ الدشاديشَ والحطةَ والعقالَ و"الشماغ" الأسودَ والأحْمرَ والأصفرَ والأزرقَ، إلى الذين يلبسونَ البذلةَ الرسْمية مع ربطةِ العنقِ المباعةِ في مَحلاتِ بيعِ الملابسِ المُجهّزةِ في الخارج. تراوحتْ أطوالُ "الرغاليينَ" من أقلَّ من مترٍ إلى المترينِ وأكثرَ، وأوزانُهُمْ وأحجامُهُمْ من بضعِ عشراتِ الكيلوجراماتِ إلى ما يربو عن مائةٍ وعشرينَ (١٢٠) كيلوجراماً!.

الدكتورُ حمد: أينَما ذهبتُ لأقابلَ شخصاً من أجلِ الحصولِ على وظيفةٍ، أرى أمامِيَ مندوباً أو مُمثِلاً للسيدِ "أبو رغال" في ذلكَ المكانِ. أصبحَ "أبو رغال" ظاهرةً مثلَ نارٍ تلتهمُ ألسنتُها كلَّ شيءٍ تقريباً؛ ذلكَ في سبيلِ لا شيءَ، تقريباً كذلكَ.

سرحان و"كاملة": لقد تَمَّ تطعيمُ كلِّ وسائلِ الإعلام، المرئيةِ والمقروءةِ والمسموعةِ، ببرامجَ وموادَّ تُمَجِّدُ "الرغاليةَ" وتدعو إلى التفاني في نشرِها بين الأجيالِ. يدْعونَ إليها تارةً باسْمِ معرفةِ الحقيقةِ وأخرى باسْمِ الشّفافيّةِ في التعاملِ وأخرى باسْمِ الانفتاحِ على العَالَمِ. ولولا ذلكَ ربَّما لأقفِلتْ الكثيرُ من المؤسّساتِ وسيَخسرُ قطاعٌ كبيرٌ من البشرِ وظائفَهُمْ ولن يعودَ التّرفُ والفَرْشُ الفاخرُ إلى حياتِهِمْ وبيوتِهِمْ، وتذهبُ سياراتُهُمْ الفارهةُ الفاخرةُ إلى غيرِ رَجْعَةٍ!.

الدكتورُ حمد: لسببٍ ولآخرَ يلعنُ الشخصُ نفسَهُ وأصلَهُ وتاريخَهُ وحضارتَهُ وأسلوبَ حياتهِ. رأيتُ بعضَ "الرَّغاليينَ" الذينَ وصلَ بهمْ الحدُّ إلى نشْرِ مقالةٍ طويلةٍ عنوانُها "المَجْدُ المَجْدُ المَجْدُ! للسيدِ أبو رغال". قرأتُ كتباً سَميكةً ومطبوعةً على ورقٍ جيدِ الصّقْلِ ناصعِ البياضِ ومن الغلافِ إلى الغلافِ تفوحُ منها رائحةُ "الرَّغاليةِ" المعطّرةُ بأحلى العطورِ الباريسيّةِ. وُصِفَ المؤلّفُ بأنّهُ مفكّرٌ عظيمٌ ومرموقٌ وعبقريُّ زمانهِ وذو شأنٍ كبيرٍ في دوائرَ ومؤسّساتٍ عالَمِيّةٍ معروفةٍ مثلَ الأممِ المتحدةِ ومنظمةِ المؤتمرِ الإسلاميِّ والدولِ الناطقةِ بالفرنسيةِ والإنْجليزيةِ وحتى العربيّةِ!.

أبوالزهو: أعرفُ أنَّ "الذي ينكِرُ أصلَهُ لا أصلَ لهُ"؛ وهذا نفسُ القولِ الذي كان يكرِّراهُ الوالدُ أبو جاسر الراحلُ والعمُّ "أبوالطّيب"، أعزُّ إنسانٍ عندَنا في هذه الأرضِ الخصبِ. أتذكَّرُ! قولَ الوالدِ أبو جاسر المتكرّرِ لكَ عندَما كانَ يُحاولُ أنْ يعلّمَكَ شيئاً من تَجربتهِ المريرةِ في الحياةِ أنَّ "الحَجَرَ في مكانهِ في الأرضِ يساوي وزنُهُ قنطاراً، وإذا ما اقتُلِع من مكانهِ يصبحُ خفيفاً يركُلُهُ ويتقاذفُهُ الأولادُ الصّغارُ بأحذيتِهمْ أو الأغنامُ بأظلافِها".

الدكتورُ حمد: أكادُ أصابُ بالجنونِ، لقد رأيتُ النساءَ تتسابقُ في "الترَغُّلِ" وتَحضُّ صغارَها على ذلكَ كما لو كانَ "أبو رغال" زوجاً لَهُنَّ أو أخاً أو عَمّاً أو خالاً أو حتى الطبيبَ المداويَ أو المسيحَ المنقذَ. وهنالكَ يا أبوالزهو، من شرَّعَ "الرَّغاليةَ" باسْمِ الدينِ والوطنيَّةِ والقوميَّةِ والحضارةِ والتمدُّنِ والتقدُّمِ؛ كلُّ من خالفَ المذهبَ "الرَّغاليَّ" الجديدَ القديمَ اتُّهِمَ بالتخلفِ وعدمِ القدرةِ على مواكبةِ روحِ العصرِ والتأقْلُمِ مع المتغيراتِ وحتى الكُفْرِ!. بفكْرِ هؤلاءِ أمسى الخيْرُ والشرُّ يَجتمَعانِ في عِملةٍ "صعبةٍ" واحدةٍ لها وجْهانِ، ألفُ العياذةُ باللهِ يا صديقِيَ.

أبوالزهو وسرحان: وماذا عساكَ فاعلٌ؟. هل تريدُ أنْ تبقى معَنا في البيتِ معِيَ و"كاملة" وأم جاسر و.... ؟. أنا اليومَ غيرُ قادرٍ حتى على طَرْدِ الذبابِ عن جسمِي وعن الأكلِ الذي أتناولُهُ والذي أتقاسَمُهُ وإياهُمْ.
الدكتورُ حمد: كيفَ لِيَ أنْ أستمتعَ بأكْلٍ أو بشُرْبٍ بعدَ كلِّ هذا الذي أرى وذاكَ الذي أسْمعُ.
أبوالزهو و"هيما" و"كاملة": وهل تريدُ الإضرابَ عن الطعامِ حتى النهايةِ؟. هكذا يفعلُ الرجالُ المخلصونَ لِمبادئِهِمْ!.
الدكتورُ حمد: تعرفونَنِي جيداً أنَّني لا أُضربُ عن الطعامِ. أنا مستعدٌّ لإعلانِ الإضرابِ عن القيامِ بعملٍ أيِّ شيءٍ آخرَ إلاَ الإضرابِ عنَ الطعامِ. منذُ طفولتِيَ المبكّرةِ أنا مُحبٌّ للأكلِ والشربِ، طَبخاتُ الوالدةِ أم جاسر تبثُّ الحياةَ في نُخاعِ عظامِيَ. لقد اشتركتُ بعددٍ كبيرٍ منَ أعمالِ الإضرابِ والمظاهراتِ والاعتصامِ والحروبِ والمواجهاتِ وشهدْتُ حَروباً أهليةً طويلةً ومُذِلّةً، لكنّني لَمْ أشتركْ ولوَ مرّةً واحدةً في إضرابٍ عن الطعامِ ولو ليومٍ واحدٍ. حتى أنّني بينَ الوجبةِ والأخرى أتناولُ الكثيرَ منَ الأكلِ والشربَ فيما يُمكنُ أنْ تطلقونَ عليهِ وفي قاموسِ الطبِّ الحديثِ، على حدٍّ سواءَ، وجباتٍ بينيّةً. ولولا المضاعفاتُ الناتجةُ عن كثرةِ الأكْلِ لَما توقّفْتُ عن الأكلِ أكثرَ من دقائقَ معدودةٍ، فقط لالتقاطِ الأنفاسِ!.
أبوالزهو: فيما مضى كنتُ كذلكَ الأمرُ مثلَكَ. يقولونَ في المثلِ العاميِّ: "أكْلُ العُمّالِ على قَدْرِ أعمالِهِمْ"!.
"هيما": لكنَّ السّؤالَ الذي يطرحُ نفسَهُ ويُحيّرُنِيَ كثيراً، هو لِماذا يتحوّلُ مُجتمعٌ بالكاملِ بمنْ فيهِ من رأسْماليّينَ واشتراكيينَ وجهلةٍ ومتعلمينَ، بالإضافةِ إلى "القومبرادور"، إلى أحضانِ السّيدِ "أبو رغال" وقبيلتِهِ وفيالقِهِ؟!. من غيرِ المعقولِ أنَّ كلَّ هؤلاءِ الناسِ مُخطئونَ!.
أبوالزهو (وسرحان): أعرفُكَ يا صديقِيَ بأنَّكَ من الناسِ الذينَ ينظرونَ إلى الجزءِ الفارغِ فقط من الكأسِ. حاولْ من الآنَ فصاعداً أنْ تنظرَ إلى الجزءِ المملوءِ أو إلى الكأسِ كلِّهِ على الأقلِّ بشقَّيْهِ الممتلئِ والفارغِ. لا تَكُنْ متفائلاً ولا متشائماً، بلْ انظرْ إلى الحقيقةِ كاملةً متكاملةً.
"هيما": ربَّما أسرفْنا في الحطِّ من شأنِ هؤلاءِ "الرُّغاليينَ" و"أبو رغال"، على حدِّ وصفِكَ. ربّما متطلباتُ العصرِ والانفتاح والتقدّم وحتى كسبُ الرزقِ تستدعي ذلكَ. يقولُ المثلُ الشعبيُّ "قطعُ الأعناقِ... لا قَطْعُ الأرزاقِ".
الدكتورُ حمد: أنتمْ على شيءٍ من الحقِّ والصّحةِ في القولِ يا سيدَ "هيما"، ويا أبوالزهو ويا سرحان. هنالكَ دولٌ عظمى في طريقِها إلى الانْهيارِ بسببِ تَهوُّرِها في تطبيقِ مبدأ "الرغالية" وهنالِكَ كياناتٌ قد حفظَتْ نفسَها من السّقوطِ لإتّباعِها الأسلوبَ نفسَهُ، وما يدريكُمْ؟!. إنَّ ما ننعتُهُ "بالرغالية" يسمى اليومَ وفي المفهومِ الحديثِ للتحوُّلِ المتطوِّرِ بالانفتاحِ و"البيروسترويكا"! و"الغلاسنوست"! (كلمتانَ من اللغةِ الروسيةِ تعنيانِ الانفتاحَ والإصلاحَ ... والتغييرَ! و.... الشفافيّةَ!). مفاهيمٌ إذا ما طُبِّقتْ جيّداً سَتجلبُ الكثيرَ من الخيرِ للبشريةِ جَمعاءَ، وربَّما يَسعدُ كثيرٌ من الناسِ بانتصاراتٍ وإنْجازاتٍ في حياتِهِمْ لَمْ تكنْ متوفرةً لَهمْ في ظلِّ النظرياتِ القديمةِ البائدةِ!.

أبوالزهو و"هيما": نظلُّ ونبقى من أنصارِ البقاءِ على العهْدِ، عهدِ الآباءِ والأجدادِ، عهدِ العزَّةِ والكرامةِ. ما كانَ سيأتي عَن طريقِ "الرغاليةِ" سيأتي أحسنَ منهُ بالولاءِ للتراثِ والمبدأِ والكرامةِ والشهامةِ.
الدكتورُ حمد: أحسنتُما يا أبوالزهو ويا سيدَ "هيما"!. أنا فخورٌ بكَ يا أبوالزهو كَما دائماً. أنتَ الآن، وبالرَّغمِ من سنِّكِ المتقدِّم، تُنيرُ الطريقَ أمامَ الأجيالِ الصّاعدةِ للحفاظِ على هويَّتها ضدَّ فلسفةِ السّوقِ الحرَّةِ المتغطرسةِ الزاحفةِ. هذه الفلسفةُ الجديدةُ القديمةُ لن تُبقيَ من كرامةِ الإنسانِ شيئاً أمامَ هيبةِ المصارفِ وأسواقِ البورصةِ والأوراقِ النقديّةِ، المَحلّيةِ منها والدَوليةِ.

تعتبرُ المنطقةُ التي يعيشُ فيها الدكتورُ حمد وأبوالزهو والعائلةُ ذاتَ شأنٍ وجذْبٍ استراتيجيين كبيريْنِ ممّا جعلَها مَحطَّ أنظارِ القوى الطامعةِ منذُ ما قبلَ عصْرِ "الاسكندرِ المقدونيِّ" مروراً بالإمبراطورياتِ الرومانيَّةِ والفارسيةِ وانتهاءً بالمطامعِ الاستعماريَّةِ الأوروبيّةِ والسوفييتيّةِ والأمريكيةِ الحديثةِ. تتعرّضُ المنطقةُ لِحروبٍ دوريةٍ منذُ بدءِ التاريخِ. هنالكَ غزواتٌ وحَمْلاتٌ عسكريةٌ منظمةٌ طمَعاً بخيراتِ المنطقةِ المباركةِ من اللهِ تعالى؛ بالرغمِ من أنَّ المنطقةَ تَمتازُ بقلَّةِ مَخزونِها الاقتصاديِّ نَظراً لكونِها مناطقُ جافةٌ وصحراويةٌ من حيثُ ندرةِ المياهِ فيها بالمقارنةِ مع المناطقِ الأخرى في العالَمِ. في هذه المنطقةِ ظهرَ آلافُ الأنبياءِ والمرسَلينَ والصّالِحينَ حيثُ اتّصلَ الوحْيُ الإلهيُّ بِهِمْ بشكلٍ مباشرٍ وبيِّنٍ للبشرِ مِن حولِهِمْ وما بعدَهُمْ!. في هذهِ المنطقةِ تركَّزتْ المعجزاتُ الإلهيّةُ؛ من انشقاقِ في البحرِ الأحْمَرِ وانغلاقِهِ على جنودِ فرعونَ الذين كانوا يلاحقونَ النبيَّ موسى (عليهِ السّلامُ) إلى ميلادِ السّيدِ المسيحِ (عليهِ السّلامُ) من رَحِمِ السّيدةِ العذراءَ (عليْها السّلامُ) إلى صعودِ النبيِّ محمدٍ (صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ) إلى السّماءِ حيثُ سدرةِ المنتهى، وغيرِها الكثيرِ من المعجزاتِ. هذا ما أضافَ إلى المنطقةِ بعداً روحيّاً دينياً فريداً من نوعِهِ جَعَلَ أفئدةَ الكثيرِ من الناسِ تهوي إليها من كلِّ حدبٍ وصوبٍ في الحربِ وفي السّلمِ.

بالإضافةِ إلى الأطماعِ السّوفيتيَّةِ والأمريكيَّةِ فإنَّ المنطقةَ تتعرّضُ لِغزوِ واحتلالٍ عسكريٍّ استيطانيٍّ، حيثُ يَجثُمُ أبشعُ أنواعِ الاستعمارِ وأكثرِها عنصريةً وفاشيةً وهَمجيةً. يعتمدُ الاحتلالُ الجديدُ هذا في وجودِهِ واستمرارِهِ على الفرقِ في ميزانِ القوى العسكريِّ الذي يُعدَّلُ دائماً ليكونَ في صالحِهِ. بشكلٍ واضحٍ يذهبُ هذا الاحتلالُ إلى أسلوبِ العربدةِ والغطرسةِ العسكريةِ ويتَّبعُ التصفيةَ الجسديةَ العرقيّةَ وإنكارَ حقِّ الغيرِ في العيشِ بكرامةٍ الآنَ، ويومَ القيامةِ!. تاريخُ المنطقةِ يقولُ أنَّ الزَّمنَ هو الوحيدُ لوقفِ بلْ دحرِ الاستعمارِ وليست القوّةُ العسكريةُ الوحيدةُ لِحَسْمِ الموقفِ. حتى ذلكَ الحينُ يظَلُّ مصيرُ المنطقةِ يتأرجحُ بينَ التفاؤلِ والتشاؤمِ؛ "تشاؤلاً" أو "تفاؤماً"!، شأنُه شأنُ مصيرِ كلِّ البشرِ!.

كانت الوسيلةَ السّريعةَ والسهلةَ للاتصالِ وإيصالِ المعلوماتِ بين الدوائرِ المهمةِ والحسّاسةِ في وزارةِ الدفاعِ الأمريكيةِ (البنتاغونِ أو "الخماسيِّ الشكلِ") قبلَ أنْ تُطرحَ للبيعِ و"تُخَصْخَصَ" وتتوسّعَ وتُعمّمَ في الأسواقِ الدوليةِ لِجلبِ "الأرباح" والمعلوماتِ من وإلى كافةِ أنْحاءِ العالَمِ. بمقدورِ الشبكةِ الدوليةِ إيجادَ اتصالٍ أو حوارٍ بينَ أيّةِ نقطتينِ ("أ" و "ب") سلكياً ولا-سلكياً وفي أيِّ مكانٍ في الكونِ من المستطاعِ الوصولِ إليهِ. وكأيّةِ ظاهرةٍ ثوريةٍ جديدةٍ في الحياةِ فإنّهُ يَجبُ إعطاءُ الوقتِ والجهدِ الكافيَيْنِ لِمعرفةِ جوانبِها الإيجابيةِ والسلبيةِ على كوكبِ الأرضِ ومن يعيشُ عليهِ على المدى القريبِ والبعيدِ على حدٍّ سواءَ. يَجبُ فهمُ وإيجادُ علاقاتٍ متوازنةٍ بينَ ما يُمكنُ أنْ ينتجَ عنْها وتأثيرُ ذلكَ على مُختلفِ العواملِ المؤثرةِ في الحياةِ على سطحِ الأرضِ وما يَخُصُّها وما ستئولُ إليهِ الأمورُ مع الأجيالِ الصّاعدةِ والقادمةِ فيما بعدَها، صعوداً أو هبوطاً!. إلا أنَّ الإنسانَ خُلِقَ عَجولاً بطبعه، إذْ سرعانَ ما طُرحت أجزاءُ الشبكةِ الدوليةِ في الأسواقِ وأعجبتْ الإنسانَ الفكرةُ حتى سارعَ بتبنّيها متناسياً التفكيرَ أو القلقَ على أيِّ شَيءٍ ينتجُ عنها لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ. تتركّزُ إيجابياتُ الشبكةِ الدوليةِ على السّرعةِ في وصولِ المعلوماتِ إلى "هواةِ" جَمْعِ المعلوماتِ والاستفادةِ منها قَدْرَ الاستطاعةِ في المَجالاتِ المُختلفةِ. ما تبقّى من أمورٍ من الممكنِ أنْ تُعتبرَ سلبياتٍ قد تكونُ مرعبةً على المدى القريبِ والبعيدِ...

فـي البدايـةِ تركّـزَتْ "مـوانئُ" استقبالِ المعلومـاتِ علـى بيوتِ الأغنيـاءِ وأصحابِ رؤوسِ الأموالِ والشركاتِ بالإضافةِ إلى دوائرِ الأمنِ ومراكزِ السّلطةِ ودعْمِها هنا وهناكَ. ثُمَّ أُبلِغَ الفقراءُ بأنَّ الذي لا يَمتلكُ منهُمْ جهازَ حاسوبٍ مربوطاً بشبكةِ الإنترنـت يعتبـرُ فـي عـدادِ المتخلّفينَ فكريّـاً وحضـاريّاً واجتماعيّـاً وعالميّـاً ونفسيّاً و.... وحتى جنسيّاً!. ومن حسابِ الفقيرِ والغنيِّ ازدهرتْ تِجارةُ أجهزةِ الحاسوبِ وما يتبعُها حيثُ تلكَ الأجهزةُ تشكّلُ الموانئَ الرئيسيّةَ والفرعيّةَ لاستقبالِ "بواخرِ" المعلوماتِ القادمةِ من كافةِ بقاعِ الأرضِ. من تلكَ المعلوماتِ ما هو مفيدٌ بيّنٌ للتّعرّفِ عليهِ ومنها ما يشكّلُ فقطْ عبئاً على الذاكرةِ ومنها ما يَختزنُ في أحشـائهِ الكثيـرَ مـن السُّـمِّ والفسـادِ. راجـتْ فـي الأسـواقِ العالميـةِ تِجـارةُ أجهـزةِ الحاسوبِ وقِطَعِ الغيارِ وأدواتِ الصّيانةِ للحاسوبِ نفسهِ ولبرامجِهِ المخزّنةِ والتي في معظمِها مستوردةٌ من الخارجِ ومن مصادرَ مَحدودةِ العددِ. الحاسوبُ والشبكةُ وملحقاتُهُما وأدواتُ الصّيانةِ والعنايةِ بها .... جَميعاً باتَت على الدولِ والشعوبِ الناميـةِ مثلُهـا كمثـلِ مـن سبقَها كالسّيّارةِ والطيّـارةِ والدبّابـةِ والمـدفعِ والغسّـالةِ والثلاجةِ وموسى حلاقةِ الذقنِ ومقصِّ الأظافرِ وأيِّ شيءٍ آخرَ مستوردٍ. معظمُ العائداتِ الماليّةِ الناتجةِ عن التعاملِ بالإنترنتِ ومَلحقاتِها، وكالعادةِ، تذهبُ إلى عددٍ مَحدودٍ جداً من الحساباتِ المصرفيَّةِ المتركّزةِ في العواصمِ العالميّةِ لرأسِ المالِ والأعمـالِ. بَقِيَـتْ ثـروةُ الفقـراءِ المَحـدودةُ تُسْـتَحْلَبُ كمـا يُسْـتَحْلَبُ ضـرعُ المـاعزِ الهرمةِ الجرباءِ.

الاقتصادُ في الدولِ الناميةِ بشكلٍ عامٍّ والعربيةِ بشكلٍ خاصٍّ غيرُ قادرٍ على الاستجابةِ والمسايرةِ أو المواكبةِ لثورةِ المعلوماتِ ووصولِها إلى المُجتمعِ العربيِّ. إنْ لَمْ تُتخذْ الإجراءاتُ والخطواتُ المناسبةُ فإنَّ ذلكَ سيحدثُ نتائجَ كارثيةً على مُختلفِ المستوياتِ من اقتصاديةٍ وثقافيةٍ واجتماعيةٍ وغيرِ ها الكثيرِ. وكما هو معروفٌ لدى الطبقةِ الواعيةِ في العالَمِ العربيِّ فإنَّ طريقةَ بناءِ وتطوُّرِ الجهازِ التعليميِّ والبنيةِ التحتيَّةِ للاقتصادِ والمُجتمعِ العَربيّةِ من الهشاشةِ والضعفِ بمكانٍ بحيثُ أنَّ استقدامَ شيءٍ جديدٍ إليها من مستوى شبكةِ المعلوماتِ ليسَ أكثرَ منْ بِدعةٍ غريبةٍ ومُكلفةٍ تضافُ إلى جهازِ الهاتفِ والسيارةِ والطيارةِ وملقطِ الحواجبِ وسيفِ البدويِّ ومِحراثِ الفلّاحِ! ودواءِ المريضِ. ليسَ باستطاعةِ الفنيِّ أو الخبيرِ العربيِّ إنْ وُجِدَ صرْفُ أيِّ وقتٍ من أجلِ إنشاءِ وسيلةٍ أو جهازٍ يتماشى مع التقنيةِ هائلةِ التقدُّمِ بالنسبةِ لهُ والتي تَهجمُ عليهِ وعلى ثقافتهِ هجومَ "الوحشِ الكاسرِ على الحُمُرِ غيرِ المستنفرةِ"!. ذلكَ مِمّا أدّى ويؤدّي إلى وقوعِ العقليةِ العربيَّةِ بالكامِلِ في براثنِ الاحتلالِ أو الاستعمارِ الثقافيِّ القديمِ الجديدِ. ومن أجلِ اللحاقِ السّريعِ بقطارِ "الهاي-تك" السّريعِ كذلكَ، وأشياءَ أخرى كثيرةٍ، أقدَمَ المسئولُ العربيُّ على تغييرِ مناهجِ التعليمِ للأولادِ الصّغارِ إلى لغةِ الشبكةِ الدوليةِ الرئيسيةِ، اللغةِ الإنْجليزيةِ. أدّى ذلكَ الأمرُ في بعضِ الدولِ العربيةِ إلى تبنّي نظامٍ تعليميٍّ يصبحُ فيهِ من الضروريِّ استقدامُ أعضاءِ هيئاتِ تدريسٍ أجانبَ أو أجانبَ من أصولٍ عربيَّةٍ على الأقلِّ وبأعدادٍ كبيرةٍ كيْ تزيدَ فاعليّةَ الانتقالِ الثقافيِّ السّريعِ! من العربيّةِ إلى الغربيّةِ. سُمِّيَ ذلكَ التغييرُ تعاوناً "مَحلياً-دولياً" يؤدّي إلى ما يشبهُ اندماجاً أو تلاحُماً فوقَ جُثمانَيْ الثقافةِ واللغةِ العربيتيْنِ المدفوفتيْنِ بالعَلَمِ الوطنيِّ لكلٍّ منهُما في كلِّ دولةٍ عربيةٍ. السّؤالُ الذي يطرحُ نفْسَهُ هو:- ما الفائدةُ التي تتحقّقُ من تَجميعِ المعلوماتِ في عشراتِ الأطنانِ من الورقِ في جواريرِ ورفوفِ الطلبةِ ومعلّميهِمْ وأساتذتِهِمْ؟ حتى لوْ كانتْ باللغةِ العربيّةِ (مترجَمةٍ) أو بالإنْجليزيةِ أو بالآراميّةِ؛ طالَما أنَّ تلكَ المعلوماتِ لا يَجدُ شيءٌ منها طريقَهُ إلى التطبيقِ العمليِّ في الحياةِ العامةِ في المُجتمعاتِ العربيةِ. لا توجدُ في المُجتمعِ العربيِّ بنيةٌ تحتيّةٌ أساسيةٌ أو فرعيةٌ عربيةٌ قادرةٌ على الاستيعابِ "الإيجابيِّ" للمُعطياتِ الجديدةِ لثورةِ الاتصالاتِ. هل ينقصُ المُجتمعاتُ العربيّةُ تبعيّةً أكثرَ منَ التي هي فيهِ؟.

إنَّ إشاعةَ استخدامِ الشبكةِ الدوليّةِ يَخدمُ بشكلٍ رئيسيٍّ وفرعيٍّ الدولَ التي انبثقتْ عنها شبكةُ المعلوماتِ والشركاتُ المتعاقدةُ معَها إضافةً إلى التجّارِ والسّماسرةِ مَحدودي العددِ المنتشرينَ فوقَ رؤوسِ المُجتمعاتِ المتخلفةِ في كلِّ شيءٍ، تقريباً. النتيجةُ هي أنَّ الاقتصادَ العربيَّ، كما الثقافةَ العربيةَ، يتمُّ اجتثاثُهُ بتعاونٍ بينَ الداخلِ والخارجِ من أجلِ حفناتٍ من الأموالِ والتي ما أنْ يصلَ قسمٌ منها إلى بلادِ العربِ حتى تَعودَ أدراجَها وبسرعةِ الضوءِ إلى مصارفَ خارجيةٍ، ليستْ لَها أيَّةُ علاقةٍ ولو سطحيةٍ بِما يَجري في العالَمِ العربيِّ كلّهِ. مرّةً أخرى وأخرى وأخرى، اللهُ أكبرُ على جلاوزةِ "القومبرادور"...

"نونو" (طالبةٌ جامعيةٌ): عمّو! الدكتورَ حمد ... أريدُ منكَ أنْ تشتريَ لِيَ حاسوباً إلكترونياً من إنتاجِ شركةِ "أي بي إم" (IBM) حيثُ وَصلَ سعرُهُ في المَحلِّ بعدَ التنزيلاتِ إلى ألفَيْ جنيهٍ فقطْ! وكذلكَ أريدُ حاسوباً آخرَ "مَحمولٌ Laptop" حيثُ بلغَ سعرُهُ بدونِ تنزيلاتٍ خَمسةَ آلافِ جنيهاً. والدِيَ غيرُ قادرٍ على شراءِ أيِّ شيءٍ

لِيَ من هذا القبيلِ أو ذاكَ؛ والدِيَ يعملُ ليلَ نَهارَ على سيارةٍ لنقلِ الركّابِ في الضاحيةِ الغربيّةِ للمدينةِ على سيارةِ "تويوتا كورولا Toyota Corolla" ولزمنٍ لا يقلُّ عن العشرينَ سنةً من الآنَ. بما أنَّكَ تَحملُ شهادةَ دكتوراه، معنى ذلكَ أنَّ عقلَكَ كبيرٌ وأموالَكَ كثيرةٌ!. أنتَ ذو شأنٍ ماليٍّ وعلميٍّ كبير.

"فَرْهودْ" (ناجحٌ جديدٌ في امتحانِ الثانَويّةِ العامّةِ): خالوَ! الدكتورَ حمد ... أريدُ منكَ أنْ تساعدَنِي لِشراءِ حاسوبٍ إلكترونيٍّ مع ما يتبعُهُ من برامجَ "Software" للتعلُّمِ. لقد سَمِعْتُ من وسائلِ الإعلامِ (على لسانِ السّيدِ "شيمعونْ بيريزْ" ومَجموعتُهُ) أنَّ الذي يَمتلكُ حاسوباً إلكترونياً ويستخدمُهُ يصبحُ عقلُهُ كبيراً ويتفتّحُ ذهنُهُ على نواحي كثيرةٍ في الحياةِ كانتْ في الماضي مؤصدةً. كما تعرفُ أنّنا عائلةٌ مستورةٌ تعيشُ على ما ينتجهُ الحقلُ ودجاجاتُ البيتِ من أطعمةٍ. أريدُ أنْ أدخلَ إلى عالَمِ " كليك-هاي-تك Hi-Tec Click" وألْحقُ بركبِ المتقدّمينَ تكنولوجيّاً. أصبحَ الشَخصُ الجالسُ في بيتهِ يتلقّى معلوماتٍ أسرعَ بكثيرٍ من الذي صرَفَ كلَّ حياتهِ لنيلِ التعليمِ من مِثْلِكَ!.

"سوسو، كوكو، جوجو ...." (من الجيلِ الثالثِ من أنْجالِ المرحومِ أبو جاسر): عمّو! ... خالو!... أيُّها الدكتورُ المُحترمُ! نوَدُّ شراءَ أجهزةِ "كومبيوتر"، واحدٌ على الأقلِّ لكلٍّ منّا معَ ما يلزمُهُ من برامجِ تشغيلٍ وتَحميلٍ، وأنْ تتوسَّطَ لدى مهندسِ الحاسوبِ "عبدُهُ أبو الجُنَيْه" لكيْ يعطيَنا سعراً خاصّاً عندَ حدوثِ عَطَبٍ في الحاسوبِ (software كانَ أو hardware). لقد افتتحَ "عبدُهُ أبو الجُنَيْه" مركزاً كبيراً لاستيرادِ وبيعِ الحاسوبِ وبكميّاتٍ كبيرةٍ. آباؤنا وأمهاتُنا غيرُ قادرينَ على شراءِ أيِّ شيءٍ من هذا القبيلِ أو ذاكَ لنا. إذا لَمْ تقمْ بذلكَ وتشتري لنا ما نَحتاجُ إليهِ في العصرِ الحديثِ سوفَ لا تستحقُّ أنْ نُطلقَ عليكَ لقبَ خالو أو عَمّو أو حتى دُكتورو!.

الدكتورُ حمد: وأينَ يا أولادَ أخواتِيَ وإخوانِيَ تريدونَ وضْعَ أجهزةِ الحاسوبِ والحاسوبِ النقّالِ "اللابطوب"؟!. هذا يا عمّو ويا خالو يُمكنُ استخدامُهُ واقتناؤُهُ من قِبَلِ الطبقاتِ المتقدّمةِ في صَرْفِ الأموالِ وتبذيرِها، طبقاتِ البُرجوازيّينَ وأصحابِ رؤوسِ الأموالِ الكبيرةِ. أنا الدكتورُ حمد أبو جاسر لا أجْرُؤُ على دخولِ سوقِ الإلكترونياتِ في المدينةِ خوفاً على أجرةِ السّيارةِ أو الباصِ في جيبِيَ. لقدْ ذهبتْ أيامُ الزراعةِ والحصادِ وكرومِ الأشجارِ المثمرةِ وحلّتْ مَحلَّها يا أولاداً تِجارةُ "الديسكيتاتِ" وبعدَ قليلٍ "الأقراصَ المدمَجةِ CDs" وما يتبعُ ذلكَ من تِجارةٍ تعتمدُ على رصيدِ البلدِ الإلكترونيِّ، والذي يساوي الصِّفرَ المطلقَ في بلادِنا. مرّةً أخرى ... اللهُ أكبرُ على جلاوزةِ طَبقةِ القومبرادورِ!.

أبوالزهو: يا شبابَ الوطنِ! ... على كلِّ واحدٍ فيكُمْ أنْ يعملَ ويستعملَ عقلَهُ وجسمَهُ حتى يتمكّنَ من استخدامِ أيِّ شيءٍ لهُ أو عندَما يستوردُهُ من الخارجِ. على كلِّ واحدٍ منكُمْ أنْ يصرفَ من أموالِهِ الخاصّةِ. أصبحتُ عجوزاً الآنَ ولا أقدرُ أنْ ألبِّيَ مطالبَكُمْ ومطالبَ آبائكِمْ وأمهاتِكُمُ ... ولا أرى عندَ حمد ما يستطيعُ أنْ يقدِّمَهُ لكُمْ من مساعدةٍ أو مالٍ لشراءِ ما تصبونَ إلى شرائهِ والتسلّي بهِ. إنَّ تكاثرَكُمْ العدديَّ كبيرٌ وفي ازديادٍ مستمرٍّ .... لكنّني ألومُ مَنْ؟!، إذا ما لُمْتُ الأمواتَ لا يسمعونَ وإذا ما لُمْتُ الأحياءَ لا يقتنعونَ ... لقد تساوى من بداخلِ الأرضِ مع مَن على سطحِها.

"توتو" (طالبةُ علمِ نفسٍ في الجامعةِ): صديقتِيَ "جُوانا" ... اشترى والدُها، تاجرُ الموادِّ الغذائيّةِ، لَهَا جِهَازَ حاسوبٍ جديدٍ من إنتاج شركةِ "أبِلْ" (Apple أو التفاحةُ) ومَجموعةً من البرامجِ منها ما هو للتسليةِ وآخرُ لتَعَلُّمِ اللغةِ الأجنبيةِ الراقيةِ. أنا كذلكَ أريدُ فِعْلَ نفسِ الشيءِ وأركِّزُ تعليمِيَ على تلكَ اللغةِ ... اللغةُ العربيةُ أصبحتْ من الماضي!.

المهندسُ " عزّوز": أريدُ أنْ أشتريَ حاسوباً وبرامجَ وملفاتِ تَخزينِ (مستنداتٍ Files) معلوماتٍ قادرةً على عَمَلِ وإنتاج رسومٍ ومُجسّماتٍ هندسيةٍ مستوردةٍ قادرةٍ على القيامِ بالعَمَلِ خلالَ ثوانٍ معدوداتٍ. ذلكَ بَدلاً عن صرفِ وقتٍ طويلٍ على رسومٍ وتصاميمَ لا داعيَ! لأنْ أقومَ بنفسِيَ بِها، طالَما أنّني قادرٌ على ابتياعِها من الخارجِ وبأسعارٍ معقولةٍ.

أبوالزهو: أقترِحُ على السّيدِ "عَزّوز" أنْ يتزوَّجَ من الآنسةِ "توتو" ويتعاوَنا لشراءِ حاسوبٍ واحدٍ لَهُما الاثنيْنِ. من الممكنِ أنْ يساعدَكُما الحاسوبُ على أنْ تكونا متفقيْنِ مع بعضٍ أكثرَ!، وتُوَفِّرا قليلاً من المَالِ.

الدكتورُ حمد: أرى مستقبلَ المنطقةِ والعالَمِ كما أراكُمْ أمامَ عينيَّ الآنَ. سوف يأتي يومٌ على بعضِ بني الإنسانِ فيهِ سيكونونَ قادرينَ على عملِ كلِّ شيْءٍ يَختصُّ بِهِمْ من حولِهِمْ وهُمْ نائمونَ على فُرْشٍ وأسِرَّةٍ غايةٍ في النعومةِ ومُجهّزةٍ كلٌّ منها بِكلِّ وسائلِ المتعةِ والراحةِ. سيجري ذلكَ في نفسِ الوقتِ الذي يعاني فيهِ الاقتصادُ العالَميُّ خطرَ الانهيارِ، والبيئةُ خطرَ التَّبَعْثُرِ، والطاقةُ خطرَ النفادِ، ويسير العالَمُ بِخُطىً حثيثةٍ إلى الاندثَارِ والهاويةِ.

أبوالزهو: وأنا أواجهُ خَطَرَ الانهيارِ العصبيِّ على حالِ هذا العالَمِ من حولِيَ.

المَجموعةُ من أحفادِ المرحومِ أبو جاسرٍ وأصدقائِهِمْ: وقبْلَ انْهيارِ العالَمِ نريدُ منكَ أنْ تسمعَنا شيئاً من الموسيقى الحديثةِ حتى نَستريحَ قليلاً من عبءِ أنفسِنا على أنفسِنا....

الدكتورُ حمد: لا يوجدُ في البالِ الآنَ أغنيةٌ حديثةٌ غيرَ أغنيةِ الشيخ راغب .... علامة ... دن رن دن دن رن .... راح طيّر حَمام ... بعيدك يا حبيبي ... وأحلى الكلام .... أغنيلك يا حبيبي ... مبروكٌ مبروكٌ .... عيدك! يا حبيييييبي....

أبوالزهو: ومن أينَ لكَ مصروفُ إقامةِ احتفالٍ بعيدِ ميلادٍ يا رفيقِيَ؟!. لقد نَفِدَ من عندِنا كلُّ شيءٍ، إلا إذا ما سيأتي كلُّ مدعوٍّ إلى الحفلةِ حاملاً أكْلَهُ معهُ .... على الطريقةِ الهولنديةِ الراقيةِ!.

الدكتورُ حمد: يا رفيقِيَ هذه مُجرَّدُ أغنيةٍ طأطوأة (طقطوقةٍ)!، وليست دعوةً إلى أيَّةِ حفلةٍ!.

وفاةُ أبوالزهو العظيمِ

..... ومنذُ اشتدَّتْ سواعدُهُ وعضلاتُ جسمهِ قضى أبوالزهو كلَّ حياتهِ في أعمالِ خدمةِ الأرضِ وما يتبعُها؛ كان في ذلكَ مُخلصاً لِدرجةِ التفاني الذي لا يُضاهي. كان الوقتُ ليلاً مُظلماً عندما جاءَهُ الدكتورُ حمد ورآهُ وقدْ خارتْ قِواهُ جالساً قريباً من موقدِ جَمْرِ نارٍ طالباً الدفءَ مِن زمهريرِ "المُرْبَعانيّةِ" التي تنفثُ برداً يصيبُ العظْمَ حتى النّخاعِ. ("المُرْبَعانيَّةُ" كلمةٌ مَحَليةٌ وهي أطولُ جزءٍ من فصلِ الشتاءِ الذي يُقسِّمُهُ الفلاحونَ هناكَ إلى أجزاءَ أخرى مثلَ "سعدْ ذابح"، و "سعدْ بالع"، و "سعدْ الخَبايا" و "المُستَقْرِضات" ويستغرقُ كلٌّ من المذكورِ أعلاهُ اثنا عَشَرَ (١٢) يوماً تقريباً؛ سُمِّيَتْ بالمربعانيةِ لأنَّها تأخذُ حواليْ الأربعينَ يوماً من فصلِ الشتاءِ وتَمتازُ بأنّها الأشدُّ برداً من بقيّةِ أيامِ هذا الفصلِ). كانت عيناهُ غائرتيْنِ تدمعانِ، وعضلاتُ جسمهِ ترتعشُ قليلاً من البَردِ على غيرِ عادتهِ؛ خلالَ فصلِ الشّتاءِ عادَةً ما كانَ أبوالزهو يقومُ بالكثيرِ من الأعمالِ الشاقّةِ والتي ما أنْ يبدأَ أحدَ تلكَ الأعمالِ حتى يُثارَ الدفءُ في قلبِهِ وعُروقِهِ. هو مُحِبٌّ للعملِ في درجاتِ حرارةٍ متدنيةٍ خاصةً بعدَ وجبةٍ غذائيةٍ مِمّا تَجنيهِ عائلةُ أبو جاسر من ثِمارِ الحقلِ وما تطرحُهُ بيادرُ المواسمِ في الصّيفِ وما يَحصلونَ عليهِ من خلالِ تَجوالِهِمْ الذي لا ينقطعُ في الجبالِ والشِّعابِ الجرداءِ المتناثرةِ والمنتشرةِ هنا وهناكَ. رآهُ الدكتورُ حمد وقد بَرَزَتْ عظامُهُ بشكلٍ واضحٍ من جلدهِ وضمرتْ عضلاتُهُ التي طالَما كان يستعرضُها عندَ بدءِ العملِ وأثناءَهُ وعندَ انتهائهِ. كانَ أبوالزهو في حالةِ طوارئ دائمةٍ وعلى مدارِ السّاعةِ، ودونَ كَلَلٍ أو مَلَلٍ ودونَ أجْرٍ يُذكرُ أو حتى كلمةِ شكر! لَمْ ينتظرْها أو ينظرَ إليْها. الآنَ أبوالزهو العظيمُ يطلبُ كوباً دافئاً من الماءِ وكسراتٍ من الخبزِ الأسمرِ السّاخنِ والمدهونِ بزيتِ الزيتونِ ليدفئَ بِها قلبَهُ وما تبقّى من نبضاتِ عروقِهِ!.

الدكتورُ حمد: حبيبَنا أبوالزهو!، الجوُّ شديدُ البردِ، ونشرةُ الأحوالِ الجويَّةِ تقولُ أنَّ هنالكَ منخفضاً جوياً مستمرٌّ على المنطقةِ ولِعدَّةِ أيام. أنتَ بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الأغطيةِ واللّباسِ الثقيلِ وتدفئةٍ من الموقدِ وها قَد وضعتُ قطعتيْنِ كبيرتيْنِ إضافيتيْنِ من خشبِ جذعِ الزيتونِ في موقدِ النارِ. أنتَ كذلكَ بِحاجةٍ إلى زيادةٍ في الأكلِ!.

أبوالزهو: هذا الشتاءُ السّابعُ والعشرونَ من حياتِيَ وهذا الشتاءُ الوحيدُ الذي أعتبرُهُ الأقسى على الإطلاقِ. أشعرُ وكأنَّ عظامِيَ تتداخلُ في بعضِها البعضِ ولا حراكَ فيها. أظنُّ أنّهُ آخرُ شتاءٍ لِيَ في هذهِ الحياةِ.

الدكتورُ حمد: لا تقلْ ذلكَ، أنتَ بكاملِ قواكَ وحيويتِكَ وبريقِ عينيْكَ وحيويّةِ شعركَ وجلدِكَ؛ النورُ ينبعثُ من وجهِكِ والدفءُ من جسدِكَ. تُعطي حرارةً من جسمِكَ إلَى مَن حولَكَ حتى وأنتَ على الأرضِ جاثمٌ وتشعرُ بالبردِ. ما بالُكَ لو تتحرَّكُ في أرجاءِ البيتِ؟ علَّ ذلكَ يَجلبُ لكَ المزيدَ من الدفءِ ويبثُّ في أركانِ جسمِكَ حيويّةً تَحتاجُ إليْها كما نَحتاجُ إليها!.

أبوالزهو: أريدُ منكَ، إنْ كنتُ أعزَّ عليكَ!، أنْ تأخذَ بيديَّ إلى كرمِ الأشجار، وقريباً من شجرةِ البلّوطِ الجنوبيّةِ على حافةِ الكَرْمِ، حيثُ أشعرُ أنّ ليَ هنالكَ لقاءاً قريباً مع القَدَرِ!.
الدكتورُ حمد: ماذا حلَّ بكَ حتى تقولَ هكذا يا أبوالزهو؟، بَعُدَ الشرُّ عنكَ. أهلاً وسهلاً بالقَدَرِ الذي لا تَخشاهُ. أنتَ بخيْرٍ ونَحْنُ جميعاً نُحبُّكَ وجَميعُنا نَحتاجُ إليكَ. لَمْ يبقَ لدينا غيرُكَ نتوكأ عليهِ لأنَّ "كُلّاً طوى شراعَهُ وذهبَ إلى مداهُ"!.
أبوالزهو: أنا للحياةِ عاشقٌ ولصحبتِكَ يا صديقِي، ولكنَّ القَدَرَ يناديني!. ولشدَّةِ عشقِيَ للأرضِ والشَّجَرِ ونبعِ الماءِ أريدُ أنْ تكونَ لِيَ اللحظاتُ الأخيرةُ في حضرتِها جَميعاً.
الدكتورُ حمد: يا رفيقِيَ أبوالزهو، إنْ كنتَ تعشقُ الشّجرَ والأرضَ مرّةً، فأنا أموتُ وأحيى ألفَ مرّةٍ في حبِّها في اليومِ الواحدِ. أنا ابنُ الزيتونِ وحفيدُهُ وابنُ حفيدهِ إلى يوم يبعثونَ.
أبوالزهو: كفاكَ مزايدةً عليَّ، أنتَ الذي تركتَ الأرضَ والزيتونَ وزعمْتَ أنَّكَ فاعلٌ ذلكَ طلباً للعِلْمِ!. خُذْنِ فوراً إلى حضنِ شجرةِ البلّوطِ أو ذهبتُ بنفسِيَ ولو زَحْفاً على بطنِي.
الدكتورُ حمد: لا أزايدُ عليكَ يا أبوالزهو، هيهاتَ وحاشى أنْ ترتفعَ العينُ فوقَ حاجبِها. أنا الذي تعلّمتُ منكَ حبَّ الأرضِ والزرْعِ. أنتَ لِيَ المعلمُ الأوّلُ والثاني والأخيرُ في هذا وذاكَ وأشياءَ أخرى كثيرةٍ، لا تُعَدُّ ولا تُحصى. أنا الذي تركتُ الدنيا بما فيها من زخارفَ وديكوراتٍ، كلَّ بقاعِ الدنيا، من أجْلِ التّفيّي بِظلِّ زيتونةٍ، من أجل التبرُّكِ من قَصْفَةِ زيتونةٍ ... وبصحبَتِكَ!.
ومن خلالِ البردِ شديدِ القرصِ واللسْعِ خاضَ الدكتورُ حمد وأبوالزهو في طريقٍ موحلٍ تَمُرُّ بهِ جداولُ ينابيعَ صَغيرةٍ مبعثَرةٍ على جانبَيْ الطريقِ؛ والتي ما أنْ يُطلَّ عليها الشتاءُ حتى تفيقَ لتصبَّ بمائِها البلوريِّ العذبِ، الدافئ قليلاً، في الطُّرقِ الزراعيةِ وخلالَ الهشيمِ اليابسِ المتبقّي من فصولِ الصّيفِ المتعاقبةِ من النباتاتِ البريةِ. وَصَلَ الاثنانِ إلى كرْمِ الأشجارِ الذي طالَما أحبَّهُ أبوالزهو في حضرةِ الوالدينِ الراحلِ أبو جاسرٍ وأم جاسرٍ والإخوةِ والأخَواتِ؛ كَرْمُ الأشجارِ الذي طالَما كان منتَجَعاً، ومثلَ مَحميّةٍ طبيعيةٍ لهُ. كان ذلكَ الكرْمُ مَحطّةً لإنعاشِ روحِهِ وإراحةِ جسدهِ من عناءِ التعبِ والإعياءِ في أعمالٍ تَخُصُّ البيتَ والحقلَ والمَزرعةَ.
أبوالزهو: فيما مضى هنا جلسْتُ ... وهناكَ استلقيتُ ونِمْتُ، وهنا تناولتُ طعامَ الفطورِ والغداءِ والعشاءِ من أحلى ما لذَّ وطابَ. وهناكَ وقفتُ قبلَ سنينٍ خلتْ لأشاركَ بإطفاءِ النّارِ المتأجّجةِ من حريقِ الأعشابِ البريةِ اليابسةِ، والذي تسبَّبَ بِهِ أحدُ العابثِينَ من بَني البشرِ، عندما كانتْ على وشكِ تَهديدِ شجرِ الزيتونِ كلّهِ بالخطرِ. هنالكَ دعوتُ أصحابيَ ذاتَ مرّةٍ على حفلِ عشاءٍ في عيدِ ميلادِيَ العشرينِ، وبعدَ موسمِ زيتونٍ وفيرٍ في تلكَ السَّنةِ.
الدكتورُ حمد: لا تَقْلقْ يا أبوالزهو!. قَسَماً سوفَ أستمرُّ بإحياءِ ذكرى عيدِ ميلادِكَ العطرةِ كلّما جاءَ الشتاءُ وخيَّمَ البرْدُ على كرْمِ الأشجارِ. سوفَ نوقدُ الشّموعَ ونقيمُ الاحتفالَ تلوَ الاحتفالِ لتفرحَ بها روحُكَ ويذكرُكَ الشّجرُ، كما دائماً، بالخيرِ. كيفَ؟! ينساكَ الشّجرُ وأنتَ الذي كنتَ تُسَهِّلُ لهُ الأرضَ وتُخَلِّصُهُ من الأعشابِ البريّةِ الضارّةِ بِحرْثِ الأرضِ مرّاتٍ عدَّةٍ كلَّ سنةٍ؛ أنتَ الذي كنتَ تنقلُ لهُ الماءَ من الينابيعِ

وعيونِ الماءِ أيّامَ الصّيفِ الحارةِ والطويلةِ ... أيّامَ العطشِ أمامَ الرياحِ الجافّةِ ... وأيّامَ الوحدةِ الموحشةِ عندَما تلاهى أهلُهُ بأعمالٍ أخرى.
أبوالزهو: آهٍ .... لقد اقتربَ أجلِي، أريدُ منك أنْ تساعدنِي في وضعِ "الجثوم" على الأرضِ، رأسِيَ باتّجاهِ شجرةِ البلّوطِ الجنوبيّةِ ويدَيَّ الاثنتانِ تشيرانِ إلى شجرتَيْ اللوزِ الشرقيةِ والغربيةِ وأنْ تكونَ شجرةُ الجوزِ الشماليّةِ تضمُّني من ذلكَ الاتّجاهِ الذي كانت تُنَسِّمُ منهُ رياحُ الشّمالِ الباردةُ. أريدُكَ أنْ تَحفِرَ لِيَ قبْراً عميقاً يوصلُني إلى عمقِ جذورِ تلكَ الأشجارِ، لأنّني من خلالِها أريدُ الاتّصالَ والالتصاقَ معَ منبعِ البقاءِ الأزليِّ المتواضعِ الذي لا يفنى ... وهو الذي يُبقي الشّجرَ حيّاً.
الدكتورُ حمد: وصاياكَ وحِكَمُكَ يا أبوالزهو تُبْكيني وتُخْجِلُني من نفسِيَ، أنا الذي صرفتُ كلَّ حياتِيَ في التعلُّمِ والبحثِ عنِ العِلْمِ وعن حُسْنِ التعبيرِ ودقّتهِ وأدائهِ؛ أجِدُ نفسِيَ عاجزاً أمامَكَ، أنت الذي لَمْ تأخذْ درساً واحداً على مقاعدِ صفوفِ المدرسةِ والكلّيةِ. كلُّ هذا أتاكَ من جذوعِ شجرِ الحقلِ المنتصبِ الذي يقاومُ حتى القدَرَ السّاحقَ الماحقَ مِن حولهِ؟. الويحُ لأمِّيَ كَمْ كنتُ مُغفَّلاً عندَما تركتُ الموقعَ الحقيقيَّ لنيْلِ دروسِ الحياةِ والقريبِ مِن بيتِنا. ذهبتُ وبقيتُ أطاردُ خيوطَ دخانٍ مبعثرةٍ هنا وهناكَ وبينَها سرابٌ صحراويٌّ غاشمٌ، أصررْتُ على الشّرْبِ منهُ ولَمْ أزَلْ. أينَ كانت عيونِيَ بلْ أينَ كانَ وعيِيَ وضميرِيَ وإنسانيّتِيَ؟!. لقدْ سبقتَنِي يا أبوالزهو إلى موطنِ الخلودِ. كنتَ تتلقّى علومَ الحياةِ من رؤوسِ منابعِها دونَ أنْ تُخبرنِي، يا حَيْفاً عليْكَ وعليَّ؟!. تلقّيْتُ علومِيَ من مواطنِ الجهلِ الأحْمقِ شديدِ الشراسةِ!. كلُّ ما تبقّى لديَّ مِن أنغامٍ وألْحانٍ وأشعارٍ سوفَ أنشُدُها على مقامِكَ العَظيمِ هنا كلَّما حالفنِي الحظُّ وهربتُ من قبضَةِ آفةِ الهجرةِ ومرضِ السّفرِ والرحيلِ المزمنِ وجحيمِ الضّياعِ الذي يأتي على روحِيَ، وكلَّما جادَ عليَّ "سَجّانِيَ" بإجازةٍ عن العَمَلِ الذي يضرُّنِي ولا ينفعُنِي!.
أبوالزهو (يبكي الوداعَ الأخيرَ للحياةِ في الأرضِ ومعَ الدكتورِ حمد): أففف .... أففف .... أففف .... سلامٌ عليكَ يا صديقَ العُمْرِ، يا من كُنْتَ أعزَّ عليَّ من العُمْرِ، يا من كنتَ لِيَ أَمَلَ العُمْرِ، لكَ منِّيَ التمنياتُ بأطْيبِ ما تبقّى من العُمْرِ!.
الدكتورُ حمد: آخٍ وآهٍ يا أبوالزهو ... ثُمَّ آخٍ وألفُ آهٍ ..... على حيَاةٍ معكَ، كما بدأَتْ وتنتهي الآنَ، لا تُعَوَّضُ بشيءٍ. لكنْ، قَسَماً أنَّ وداعِيَ لكَ لنْ يكونَ أقلَّ عاطفةً من يومِ ميلادِكَ العَظيمِ وحياتِكَ الأعظَمَ. سأعطيكَ من فنِّيَ بعدَ أنْ تَتْرُكَ روحُكَ الدُّنيا. الجَوُّ باردٌ جداً الآنَ ... وعندَما أعودُ إلى جوارِ موقدِ النّارِ في البيتِ سأعزفُ لروحِكَ على عودِيَ أروعَ الأنغامِ العالَميةِ ... لِمواساةِ نفسِيَ وللتخفيفِ من وقْعِ الوداعِ الغاشمِ لكَ على روحِيَ.
في رِثاءِ أبوالزهو أغنيةٌ للفنّانِ الفرنسيِّ الراحلِ "جاكْ بريلْ Jacques Brel" ... (أغنيةُ "أنا قادمٌ J'arrive"؛ قادمٌ هنا تعني قادمٌ مرّةً أخرى جديدةً إلى الحياةِ، والترجَمةُ حَرْفيّةٌ فقط) سي سي لا صول فا صول لا سي ...... (ملاحظةٌ: زُهورُ الأقحوانِ تُقَدَّمُ في بعضِ بلدانِ العالَمِ في التعزيةِ بالأمواتِ).

(أنا آتٍ J'arrive)

De chrysenthèmes en chrysenthèmes (من الأُقْحُوانِ إلى الأُقْحُوانِ)

Nos amitiés sont en partance (صداقاتُنا على أُهبَةِ المغادرةِ)
Des chrysenthèmes en chrysenrhèmes (مـن الأُقْحُـوانِ إلـى الأُقْحُوانِ)
La mort potence nos dulcinées (الموتُ مِشنقةُ العاشقينَ)
De chrysenthèmes en chrysenthèmes (من الأُقْحُوانِ إلي الأُقْحُوانِ)
Les autre fleurs font se qu'elle peuvent (الزهورُ الأخرياتُ تُحاولُ أحْسَنَ ما عندَها)
De chrysenthèmes en chrysenthèmes (من الأُقْحُوانِ إلى الأُقْحُوانِ)
Les hommes pleurent les femmes pleuvent (الرجالُ يبكونَ والنِّساءُ بغزارةٍ تُسَيِّلُ الدُّموعَ)

J'arrive j'arrive (أنا آتٍ، أنا راجعٌ، أنا قادمٌ)
Mais qu'est-ce que j'aurais bien aimé (لكنْ! هل كنتُ سأُحَبُّ كثيراً)
Encore un fois traîner mes os (مَرّةً أخرى كَيْ أَجُرَّ عظامِيَ)
Jusqu'au soleil jusq'à l'été (إلى الشَّمسِ... حتى قدومِ الصَّيفِ)
Jusq'au printemps jusq'à demain (... حتّى قُدومِ الرَّبيعِ... وحتّى قُدومِ الغَدِ)
J'arrive, j'arrive (أنا آتٍ، آتٍ)
Mais qu'est-ce que j'aurais bien aimé (لكنْ كَمْ كُنتُ لأكونَ أكثرَ مَحبوباً)
Encore une fois voir si le fleuve (مرَّةً أُخرى لأرى الدَّهرَ لا يزالُ منساباً...)
Est encore port m'y voir encore (والميناءَ... ولا أزالُ أرى نَفسِيَ مرَّةً أخرى هناكَ)
J'arrive, j'arrive (أنا قادمٌ، قادمٌ)
Mais pourquoi moi pourquoi maintenant (لكنْ لِماذا أنا؟!... ولِماذا الآنَ!)
Pourquoi dèjà et où aller (ولِماذا في الحالِ؟! وإلى أينَ الذهابُ؟!)
J'arrive,bien sûr, j'arrive (أنا آتٍ، بالتأكيدِ، أنا آتٍ)
Mais ai-je jamais rien fait d'autre qu'arriver
(لكنْ هلْ كنتُ سَأفعلُ غيرَ ما فعلتُ غيرَ مُجَرِّدِ القُدومِ)

De chrysenthèmes en chrysenthèmes (من الأُقْحُوانِ إلى الأُقْحُوانِ)
A chaque fois plus solitaire (في كلِّ مَرَّةٍ، من قُدومِيَ، أكثرَ وحدانيةً!)
De chrysenthèmes en chrysenthèmes (من الأُقْحُوانِ إلى الأُقْحُوانِ)
A chaque fois surnuméraire (في كلِّ قُدومٍ أكونُ لا لُزومَ لِوجودِيَ؟!)
J'arrive, j'arrive (أنا آتٍ، آتٍ)

Mais qu'est-ce que j'aurais bien aimé (لكنْ هلْ سأكونُ أكثرَ مَحبوباً؟!)
Encore une fois prendre un amour (ومَرَّةً أخرى لآخذَ الحُبَّ)
Comme on prend le train pour plus être seul (كما نأخذُ القطارَ!.. وأكونُ في خَلوةٍ زائدةٍ)
Pour être ailleurs pour être bien aimé (في مكانٍ آخرَ وأكونُ مُحَبّاً بِحَقٍّ)

J'arrive, j'arrive (أنا آتٍ... آتٍ)
Mais qu'est-ce que j'aurais bien aimé (لكنْ كَمْ سأكونُ أكثرَ مَحبوباً؟!)
Encore une fois remplîr d'étoiles (مرَّةً أخرى لأملأَ النُّجومَ)
Un corps qui tremble et tomber mort (جِسْماً يرتَجِفُ ويَسقطُ ميِّتاً...)
Brûlé d'amour le coeur en cendres (.... مُحتَرِقاً في الحُبِّ وقلبُهُ في الرَّمادِ)

J'arrive, j'arrive (سأَصِلُ، سآتي)
C'est même pas toi qui es en avance (لستَ فقط أنتَ الذي هو مُبْكِرٌ في الوصولِ)
C'est dèjà moi qui suis en retard (أنا الذي قَبْلَكَ متأخرٌ)
J'arrive, bien sûr j'arrive (أنا عائدٌ، بالمؤكَّدِ سأَصِلُ)
Mais ai-je jamais rien fait d'autre qu'arriver (لكنْ هلْ منْ أيِّ شيءٍ سأقومُ بهِ غيرَ القدومِ؟!)

من ضياعٍ إلى ضياعٍ

لَمْ يَمضِ أكثرَ من شَهرٍ على رَحيلِ أبوالزهو العظيمِ حتى غادرَ الدكتورُ حمد إلى إحدى مَحطّاتِ "الطيورِ البَشَريّةِ" المهاجرةِ باحثاً عن لُقمةِ العيشِ مسخِّرا لذلكَ كلَّ ما ادّخرهُ من معلوماتٍ أو ما يشبهُ، لكيْ يعيشَ نوعاً من الحياةِ الحرّةِ الكريمةِ. وهْمُ العيشِ الكريمِ في مواطنِ الغربةِ طالما ساورَ عقولَ الكثيرينَ من المغفّلينَ الذين انساقُوا وراءَ أدواتِ الدعايةِ التي توهِمُهُمْ أنَّ بمقدورهِمْ أنْ يصبحوا روّاداً حقيقيّينَ للعلمِ في غيرِ أوطانِهِمْ حيثُ توجدُ حريةُ الفكرِ والإبداعِ وتُحترمُ حقوقُ الإنسانِ. تلكَ الأقاويلُ لا تصلحُ حتّى عِلكةً يتلهّى بها منَ أصيبَ بجوعٍ أو مللٍ أو ضَجَرٍ! لقدْ تعذّرَ بقاءُ الدكتور حمد في تلكَ الرُّبوعِ أكثرَ من ربّما بضعةِ أيّامٍ إضافيّةٍ حيثُ بدأَ يشعرُ بالخوفِ على نفسهِ والتوَجّسِ بأنّهُ يُمكنُ أنْ يَموتَ جوعاً وقُرْبَ أحدِ الأماكنِ التي تُلقى فيها النفاياتُ، مثْلهُ مثْلَ الكلابِ الهرمةِ المهجورةِ أو الضائعةِ! لَمْ يَجدْ الدكتورُ حمد حتى مكاناً للعملِ فيهِ ما يكفي لتأمينِ لقمةِ عيشٍ حافٍ، وسطَ جيوشٍ من العاطلينَ عن العملِ، أيِّ عملٍ.

لن ينسى الدكتورُ حمد من ذاكرتهِ يوماً آخرَ من أيّامِ السّفرِ أو "نصفِ الرحيلِ القسريِّ" عندَما استيقظَ في ذلكَ الصّباحِ "الكافر" وقامَ بتجميعِ بعضِ معداتِ السّفرِ حيثُ جهّزَ حقيبةً صغيرةً وضَعَ فيها بضعَ قِطَعِ ملابسَ داخليةٍ وجواربَ وغيارَيْنِ للملابسِ. ودَّعَ من تبقّى من أفرادِ الأسرةِ الصّغيرةِ الذين كانوا لا يزالونَ يعيشونَ في قلبِ الفقرِ المدقعِ ومآسي الاحتلالِ، والتي لها صفةٌ ملازمةٌ في أنّها لا تنقصُ أو تتناقصُ بل تَستمرُّ بالزيادةِ والتفاقُمِ.

ومن صقيعِ البطالةِ وقلّةِ ما في اليدِ إلى الوقوعِ في أيدي وأنيابِ وأفواهِ التُّجارِ وسَماسرةِ البلدانِ والمقدراتِ الطبيعيةِ للبشرِ والقضايا المتعلّقةِ بها؛ إلى الذينَ يُحبّونَ المالَ حُبّاً جَمّاً رغْمَ كلِّ الوصايا الإلهيّةِ والتحذيراتِ بدَكِّ الأرضِ عليهِمْ دكّاً دَكّاً ومن ثَمَّ إعلانِ القيامةِ على رؤوسهِمْ. أناسٌ لا تشبعُ ولا تقنعُ ولا تَهدأُ دونَ أنْ لا تبقي للآخرينَ أيَّ شيءٍ، لا للسّكنِ ولا للأكلِ ولا حتى للاستحْمامِ أو للتنفسِ دونَ ثَمنٍ باهظٍ. كلُّ شيءٍ منِ حولِهِمْ يريدُ هؤلاءِ البشرُ تحويلَهُ إلى عِملةٍ نقديّةٍ ويفضّلُ أنْ تكونَ صَعبةً غريبةً عن الوطنِ ولينقلوها بعدَ ذلكَ إلى أحدِ المصارفِ الأجنبيةِ، وليذهبْ الشعبُ والوطنُ وما يَخصّهُما إلى الدرْكِ الأسفلِ من الجحيمِ. ومن جحيمِ اللّومِ على العودةِ إلى مسقطِ الرأسِ وأرضِ الآباءِ والأجدادِ إلى السّفرِ إلى مراكزِ الموتِ المعنويِّ و"التحشُّر" (التحوُّلِ إلى حشرةٍ) والتشرنُقِ! الإراديِّ واللا-إراديِّ. يدخلُ الدكتورُ حمد الآنَ مَرحلةَ العملِ في الأماكنِ التي يَصرفُ الشخصُ كلَّ هَمِّهِ للظهورِ فقط، وتقريباً، بمظهرٍ لائقٍ أمامَ أربابِ العملِ والمؤسّساتِ اللاتي تَمتصُّ دماءَ البشرِ وتستهلكُ جهودَهُمْ في غيرِ مصلحتِهِمْ أو مصلحةِ بلادِهِمْ ... هذا بالإضافةِ إلى الوقوعِ تَحْتَ رحمةِ وحشِ الغربةِ.

السيدُ "والي": أنا هُنا! عنديَ أملاكٌ عَقاريةٌ تَمتدُّ حتى الشارعَ الذي ينتهي ببيتِ اللهِ الذي قمتُ أنا! ببنائهِ من أمواليَ الخاصّةِ، علّنِيَ أذهبُ إلى الجنّةِ يومَ القيامةِ وأتَجنَّبُ لَهيبَ نارِ جهنّمِ اللافحةِ.

الدكتورُ حمد: ما شاءَ اللهُ عليكَ وعسى أنْ تزيدَ أموالُكَ أكثرَ؛ لكنْ ألا تعلمُ أنّهُ في الطَّرفِ الآخرِ من الشّارعِ وحتى في الشّارعِ الذي تَمتلكُهُ نفسَهُ هنالكَ من هو على شفيرِ حفرةِ الهلاكِ جوعاً وعطشاً ومَرَضاً وتَسَوُّسَ أسْنانٍ؟!.
السيدُ "والي": هذا ما كتبَهُ اللهُ عليهِمْ، لا أريدُ أنْ أمنعَ حُكْمَ اللهِ فيهِمْ!. هل تريدُني أنْ أسحبَ من رصيدِيَ في مصرفِ "خونولولولو" المركزيِّ لكيْ أساعدَ أو أنقذَ هؤلاءِ "الساقطينَ" عقليّاً وجسميّاً وماديّاً ومعنويّاً؟!.
الدكتورُ حمد: وماذا لو أنّ هؤلاءِ "الساقطينَ" اجتمعوا عليكَ وقرّروا تركَ المساكنِ التي تَمتلكُها إلى بيوتٍ أخرى. لا شكَّ أنَّكَ حينئذٍ ستبدأُ بالتفكيرِ بسحبِ بعضِ الأموالِ من رصيدِكَ في مصرفِ "خونولولولو" لتغطيةِ مصروفاتِكَ المتعاظمةِ يوماً بعدَ يومٍ؛ حينئذٍ لنْ تسمحَ لكَ بلديّةُ "خونولولولو" بذلكَ. سيضطرُّكَ الأمرُ للذّهابِ بنفسِكَ إلى هناكَ وأنْ تسكنَ إلى جانبِ رصيدِكَ ولتصرفَهُ على نفسِكَ في تلكَ البلادِ؛ على ملذّاتِكَ النفسيّةِ والجنسيّةِ فقط، لأنَّ عقلَكَ لَمْ يتطوَّرْ إلى درجةٍ أعلى من ذلكَ!.
السيدُ "والي" (يُشعلُ سيجارةً): يبدو لِيَ أنّكَ إنسانٌ فاشلٌ في أمورِك وتريدُ الاعتداءَ على ما وهبَهُ اللهُ لغيركَ. هل تعرفُ أينَ البابَ؟! أو أنْ أحضِرَ لَكَ البوّابَ ليُريَكَ إيّاهُ؟!. هذا ثَمَنُ فنجانِ القهوةِ الذي كنتُ سأقدِّمُهُ لكَ وهذه أجرةُ السيارةِ إلى حيثُ تقيمُ!.
الدكتورُ حمد: أمّا بالنسبةِ لِفنجانِ القهوةِ فَمِنْ عندِكَ هو مزيجٌ من الماءِ والبُنِّ المطحونِ!. لا تَملكُ ما يُمكنُ أنْ يُقدَّمَ قهوةً للبشرِ رجالاً ونساءً. وأمّا بالنسبةِ للذّهابِ إلى مكانِ إقامتي فإنَّ صديقِيَ أبوالز هو أعطاني درْساً قوياً في حُبِّ السّيرِ على الأقدامِ وفضْلِهِ على المخلوقاتِ جسميّاً ومعنويّاً. أنتَ وأجهزتُكَ المستوردةُ الفارهةُ من البدَعِ الضّالّةِ ومنذُ صُنِعَتْ وإلى يومِ القيامةِ في جحيمٍ. في الدُّنيا في جحيمِ الفسادِ والكسادِ والبطالةِ والتطرّفِ في التّرَفِ والبَذَخِ وفي الآخرةِ لنْ يكونَ مصيرُها أحسنَ من مُمتلكاتِ قارونَ، يا قارونَ الضاحيةِ الشّماليةِ للمدينةِ!.
في الوطنِ الصّغيرِ، لَمْ يَتمكّنْ الدكتورُ حمد من إيجادِ مكانٍ لهُ ملائمٍ لطموحاتِهِ العلميّةِ والفكريّةِ والوطنيّةِ والقوميّةِ والنفسيّةِ والاجتماعيّةِ والإنسانيّةِ ...، ولو حتى بواحدٍ بالمائةِ. قرّرَ التوجّهَ إلى مرافقِ الوطنِ الكبيرِ والأكبرِ في مُحاولةٍ لإيجادِ مَرفقٍ يكونُ فيهِ قادراً على تلبيةِ أيٍّ من تلكَ، بعضِها أو كلِّها. وجدَ عملاً مناسباً في مكانٍ لا يزالُ يَحتفظُ بآثارِ من الكِنديِّ والخوارزميِّ والبيرونيِّ والرازيِّ وابنِ النفيسِ وابنِ الهيثمِ وابنِ رُشْدِ والخيّامِ والنوّاسيِّ .... وغيرِهِمْ. وهنالكَ المناخُ الخصبُ لِجهابذةِ الحوزاتِ من الذينَ يُحاولونَ جَهْدَ أيْمانِهِمْ الوصولَ إلى طريقةٍ مُثْلى ومتساميةٍ للتخاطبِ مع خالقِ الكونِ وعبادِهِ الطيبينَ الأطْهارِ. كانت شروطُ القَبولِ الأساسيةِ في الوظيفةِ المعرفةَ والإلْمامَ باللغةِ العربيّةِ وقوَاعدِها وأصولِها مع بعضِ البلاغةِ والنحوِ والصّرفِ؛ ما تبقّى من إعجازٍ في اللغةِ يتمُّ تزويدُ الموظّفِ بهِ من المُحيطينَ بهِ. كانت الخبرةُ المطلوبةُ من النوعِ المستعملِ في كيفيّةِ التعاملِ مع الحصارِ؛ كَسْرُهُ أو إيجادُ طرقٍ للالتفافِ عليهِ وتهميشِهِ. خلالَ المقابلةِ مع المسئولِ عن التوظيفِ أخبرَهُ الدكتورُ حمد أنّهُ من وطنٍ نشأتْ فيه قصيدةٌ وأغنيةٌ "أنا أحمدُ العربيُّ فليأتِينِ الحِصارُ ... جسدِيَ من الأسوارِ!".

تَعَرَّف الدكتورُ حمد هناكَ على آنسةٍ من كليّةٍ أخرى في الجامعةِ، الدكتورةُ "فَطينَـة"، واتّفقَ وإيّاها على الزواجِ. وفي حفلٍ متميِّزٍ بالتواضعِ في الهيبةِ والفخامةِ والمصروفِ!، انتهتْ عندَ الدكتور حمد واحدةٌ من أبسطِ المشاكلِ المستعصيةِ عليهِ (على حدِّ رأيِ أبوالزهو الراحلِ الكبير). وُلِدَ لهُ من زوجتهِ "فَطينَة" طفلانِ، البِكْرُ سمّياهُ "جاسر" والثانيةُ سمّياها "كاملة". أصبحَ الدكتورُ حمد الآنَ يُكنى بالدكتورِ "أبو جاسر حمد أبو جاسر"؛ هو الآنَ وليُّ أمرِ نفسهِ وأمرِ غيرهِ!.

كان يقومُ بتدريسِ بعضِ المساقاتِ في جامعةِ "المُنقِذُ الكبيرُ" والتي أيْ الجامعةُ لَمْ تكنْ بعيدةً من مكانِ سُكناهُ وإقامتهِ؛ من ضمنِ تلكَ المساقاتِ ما كانَ يطلقُ عليهِ اسْمَ "النظريّةِ النسبيّةِ العامّةِ" لطلبةِ الدراساتِ العُليا في الجامعةِ. المساقُ الجامعيُّ عبارةٌ عن مساقٍ علميٍّ يُدرَّسُ كمقدّمةٍ بسيطةٍ لفهمِ نظريّةِ "الانفجارِ الكونيِّ الكبير"، بالألمانيّةِ "الأورْكْنالْ" (der Urknall) كنتيجةٍ لِ"توحيدِ أو دَمْجِ القوى الطبيعيّةِ الأساسيّةِ في الكونِ". بشكلٍ أكثرَ تخصيصاً فإنَّ المساقَ يقومُ بالبحثِ في طرقِ فَهْمِ التفاعلاتِ الماديّةِ و"الطاقويّةِ" في الأوساطِ ذاتِ الكثافةِ العاليةِ جدّاً! مع بعضِها البعضِ وعلى سرعاتٍ تقتربُ جدّاً من سرعةِ الضوءِ ودرجاتِ حرارةٍ عاليةٍ جدّاً ... جدّاً!.

يسكنُ الدكتور حمد في مُجمّعِ سكنِ الموظفينَ والمدرّسينَ في الجامعةِ وبعضِ موظّفي مرافقَ حيويةٍ أخرى في المدينةِ من مثلِ مستشفياتٍ وعياداتٍ خاصةٍ. تعرّفَ على مَجموعةٍ لا بأسَ بعددِها وتنوّعها الاجتماعيِّ والثقافيِّ وأهَمُّهمْ بعضُ الفنّانينَ والعازفينَ الموسيقيّينَ.

الدكتورُ "مسعود" (مُدَخِّنُ سيجارٍ عالَميٌّ! ومدمِنُ شربٍ): هل أنتَ من المدخّنينَ؟!. لقد قضى السيجارُ والقنينةُ على حياتِيَ ولا أقدرُ أن أتَخلَّصَ منهما.

الدكتورُ حمد: كنتُ في قديمِ الزمانِ .... وتركتُ التدخينَ منذُ قديمِ الزمانِ. يعودُ الفضلُ في ذلكَ لنصائحِ المرحومِ الوالدِ أبو جاسر والحالةِ الماديّةِ المُحيطةِ التي لا تزالُ حيَّةً!.

الدكتورُ "مسعود": هلّا تشربُ الكحوليّاتِ؟.

الدكتورُ حمد: لا....

الدكتورُ "مسعود": ولِمَ لا؟ هل أنت مسلمٌ متديّنٌ؟!. كما يقولونَ عندَكمْ في بلادِ الشامِ إذا لا تشربُ ولا تعشقُ ولا تسهرُ، لِماذا تعيشُ؟!. (اللي ما بيعشا وبيسهر لاشو بالله حياتوه؟!) (مقطعٌ من أغنيةِ المطربةِ "طروب")

الدكتورُ حمد: أنا مستعدٌّ أنْ أشربَ أيَّ شيءٍ سائلٍ عدا الذي يَحتوي الكحولَ، أسهرُ أكثرَ من أيِّ عاشقٍ على حبِّ وطنِيَ المفقودِ، أعشقُ رضا أهلِيَ والناسِ من حولِيَ؛ هؤلاءِ وغيرُهمْ يبْقونَ بعضَ السببِ عندِيَ للاستمرارِ في الحياةِ!. أقومُ بكاملِ واجبِيَ اتّجاهَ الخالقِ، والحمدُ والفضلُ للهِ عزَّ وجلَّ. أشهدُ أنَّ لا إلهَ إلا اللهَ وأنَّ محمّداً رسولُ اللهِ .... وبفضلِ اللهِ أصلّي الخمسَ لأوقاتِها وأوصانِي بذلكَ والدِيَ أبو جاسر ما دمتُ حيّاً. أقومُ بإعطاءِ الزكاةِ فوراً حالَ توفّرِ المالِ الكافي لذلكَ، وقبلَ دفعِ الضريبةِ للحكومةِ. وبفضلٍ وعونٍ من اللهِ تعالى أصومُ شهْرَ رمضانَ المباركِ ...

السيدُ "هاشِلْ" (فنّانٌ موسيقارٌ): نسيتَ الحجَّ!؟..

الدكتورُ حمد: إنْ شاءَ اللهُ، إنْ أتَمكَّنْ، سأحجُّ وسأزورُ قبرَ النبيِّ محمّد صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ وأتشرَّفُ بالزيارةِ.
الدكتورُ "مسعود": ومنذُ متى بدأتَ تشعرُ بهذا الشعورِ المؤدّي للاستقرارِ المُنتجِ؟!.
الدكتورُ حمد: منذُ زمنٍ ليسَ بالقصيرِ ولا بالطويلِ!.
الدكتورُ "مسعود"!: حَبّذا لو توصلُ بعضاً من فلسفتِكَ في الحياةِ إلى القادمينَ من الجيلِ المندفعِ نَحْوَ التطرّف في المصروفِ والملذّاتِ على حسابِ الاقتصادِ والنفقاتِ الأساسيةِ في الحياةِ.
الدكتورُ حمد: أقربُ عبارةٍ على فلسفتِيَ في الحياةِ بهذا الشأنِ هي "دَعْ الخلقَ للخالقِ". للإنسانِ تَجربةٌ عليهِ أن يُجرّبَها بنفسهِ حتى يستفيدَ منها. قد تفيدُ النصائحُ بعضَ الشيءِ إذا ما قدَرَ الشخصُ أنْ يستوعبَ تلكَ النصائحَ.
السيدُ "زاهي" (جارٌ عاطلٌ عن العملِ): ألا تَخشى من الموتِ وبالذاتِ الموتِ خارجَ الوطنِ؟!.
الدكتورُ حمد: لا أخافُ من الموتِ داخلَ حدودِ الوطنِ؛ أخافُ من الموتِ بعيداً ولو قليلاً عن مسقطِ رأسِيَ. الموتُ عندِيَ امتدادٌ طبيعيٌّ وحتميٌّ للحياةِ. ما يعُزُّ عليَّ في وجودِيَ، بعدَ أمِّيَ، هي هذهِ الزوجةُ التي تَمكّنْتُ أخيراً من إقناعِها بأنّني جديرٌ بحُبِّها لِيَ. كيفَ لِيَ أنْ أنقلَ إلى أولادِيَ الصّغارِ رسالتِيَ وخبرتِيَ في الحياةِ مع اكتظاظِ أعمالِيَ اليوميةِ التي تأخذُ كلَّ وقتِيَ!؟. الزَمنُ عندِيَ في "جَرْيِهِ" بدأ يتسابقُ مع الضوءِ.
الدكتورُ "مسعود": لا تقلقْ يا صديقِيَ العزيزَ. ما زلتَ في ريعانِ عمرِكَ ووالدتُهمْ "فَطينَةَ" لا تزالُ في ريعانِ الشبابِ.
الدكتورةُ "فَطينَةَ": إذا كانَ من شيءٍ يُحبُّ أطفالُكَ الصّغارُ الآنَ معرفتَهُ منكَ هو كيفَ لَهمْ أنْ يتعلّموا العزفَ على أوتارِ العودِ. منذُ رأتْ عيونُهمْ النورَ لَمْ يفُتْ عليهِمْ نصفُ يومٍ دونَ السماعِ إليها؛ لو يَجلسَونَ بجانبِ العودِ طوالَ اليوم لن يَملّوا ذلكَ. لقد ركّزتَ عقولَهمْ على حبِّ النغمِ وربّما سيبْزّونَ في حبِّ الموسيقى حتى صديقَكَ الفيلسوفَ والفنّانَ "المرحومَ أبوالزهو" الذي دائماً تذكرُهُ أمامَهُمْ وتثني على قدراتهِ السمعيةِ الفائقةِ وموهبتهِ الحسيةِ والفنيةِ المتعدّدةِ الجوانبِ!.
الدكتورُ حمد: الأمورُ كلُّها نسبيةٌ!. آخ ... على أمِّيَ ... وعلى أخواتِيَ وإخوانِيَ وأهلِيَ وعلى أبوالزهو. يا زوجَتِيَ ... ويا أولادِيَ الصّغارَ ... ويا دكتورَ "مسعود" ... وبقيةَ الإخوةِ الحاضرينَ المُحترمينَ ... هاتوا لِيَ ذلكَ العودَ .... دن رن دن...... دو ري مي فا صول لا سي دو ..... سلامٌ عليكِ وأنتِ تُعِدّين نارَ الصّباح ... سلامٌ عليكِ سلامٌ عليكِ .... أما آنَ لِيَ أنْ أقدِّم بعضَ الهدايا إليكِ! .... أما آنَ لِيَ أنْ أعودَ إليكِ! ... لِديني (أعطِني ولادةً جديدةً) لأشربَ منكِ حليبَ البلادِ! ... وأبقى صبيّاً على ساعدَيْكِ ... وأبقى صبيّاً إلى أبدِ الآبدين ... أما آنَ لِيَ أنْ أعودَ إليكِ؟! ... أمّي أضعتُ يديَّ على خصرِ امرأةٍ من سرابٍ ... أعانقُ رَمْلاً أعانقُ ظِلاً .... رأيتُ كثيراً يا أمّيَ رأيتُ .... لِدِيني لأبقى على راحتيْكِ ... آه .. يا أمّيَ .... أحنُّ إلى خبزِ صوتِكِ يا أمّي! ... أحنُّ إليكِ يا أمي ... أحنُّ إلى خبزِ أمّي، وقهوةِ أمّي ولَمسةِ أمّي .... وتكبرُ فيَّ الطفولةُ يوماً على صدرِ يومِ ... وأعشَقُ عُمْري لأنّي إذا مِتُّ أخجلُ من دمعِ أمّي!.....

الدكتورُ "مسعود" والسيدُ "هاشِلْ": لا بُدَّ أنَّ "الحاجّةَ" أم جاسر تَعِبَتْ عليكَ كثيراً حتى وَصَلْتَ إلى هذه الدرجةِ من السيطرةِ على عقولِ وقلوبِ من حولَكَ....

الدكتورُ حمد: لقد أرضعتْني من ثديَيْها سنتينِ ونصفَ السّنةِ، حليباً مقطّراً من موجاتِ حرٍّ وجفافِ الصّيفِ الشديدةِ، ومن زمهريرِ بردِ "المُرْبعانيّةِ" و"سَعْدِ ذابح" و"سَعْدِ بالع" وأثناءَ صومِها الشهرَ الفضيلَ .... حَليباً منها مستخلَصاً من أكْلِ مِمّا كانتْ تُبقيهِ أو تَجودُ بهِ! علينا طيورُ ووحوشُ البَرِّ من إنسٍ وحيوانٍ وزواحفٍ. جلبَتْ لِيَ طعاماً من بينِ صخورِ الجبلِ الصمّاءِ ومن "الدَراجيج" (جَمْعُ كلمةِ "حَرجوجْ" وهو ما يفصلُ أراضيَ الفلاحينَ بعضَها ببعضِها وعن بعضِها البعضِ وتكونُ عادةً غيرَ صالحةٍ للزراعةِ وتكثرُ فيها الأعشابُ البريّةُ والشوكيّةُ والضارّةُ بالمزروعاتِ لكنّها تصلحُ لغذاءِ الحيوانِ وقليلاً جدّاً منهُ للإنسانِ!). كانتْ "تُلَقّطُ" (تلتقطُ) لَنا سنابلَ الحُبوبِ من أراضينَا الشّحيحةِ المتباعدةِ المبعثرةِ هنا وهناكَ. على حسابِ قوتِ فمِها ودمِها ولَحمِها ونُخاعِ عظمِها أرسلتْني لِلتَّعَلّمِ في الخارجِ حينَ لَمْ يوافقْ أحدٌ من أهلِيَ على خروجِيَ منَ القريةِ. هي أمّيَ التي كانت توفّرُ لِيَ هدايا الأعيادِ لكيْ أبقى علي مقاعدِ الدراسةِ والتعلّمِ. هي أمّيَ التي بصدرِها العاري وبياضِ وسوادِ عينَيْها أنقذَتْني من سُمومِ أنيابِ الأعداءِ الحاقدينَ المستبدِّينَ عندَما كنتُ في باكورةِ طفولتِيَ، وعندَما تقدَّمَ بِيَ العُمْرُ!. بعدَ ذلكَ اضطُرِرْتُ إلى تَرْكِها وأهلِيَ ووطنِيَ، واضطُرِرْتُ أنْ أبيعَ نفسِيَ لغيرِها.

السيدةُ الحاجّةُ "بَهيجَةُ" (والدةُ زميلِ للدكتورِ حمد، الدكتور "رفاعي"): آخ ... عليكُمْ أيُّها الرجالُ وعلى أفعالِكُمْ و"عمايلكم" (أعمالِكُمْ) بِنا نَحْنُ الأمهاتُ .... بعدَما تقضونَ أغراضَكُمْ وتستهلكونَ أهاليكُمْ تنسونَ حتى الحليبَ الذي رَضعتموهُ من أمّهاتِكُمْ.

الدكتورُ حمد: سامِحينا يا أمّهاتِنا! ... بتاتاً لَمْ أتركْ أمِّيَ؛ هي طبيعةُ حياتِنا وظروفُنا ومآسينا, سامِحونا إنْ كنّا قد أخطأنا بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ. ربّما غرّرَتْ بنا ولو قليلاً "بوليصةُ" شركاتِ التأمينِ على الصحّةِ والحياةِ؛ تَجعلُنا نظنُّ أنّنا جزءٌ من نظامِ ضمانٍ اجتماعيٍّ وصحيٍّ مرموقٍ، وأنّهُ لا داعيَ للقلقِ أو النَّظرِ بعينِ الاعتبارِ لأمورٍ أخرىً تافهةٍ في الحياةِ!. اليومَ والآنَ! بعدَ عمرٍ طويلٍ فهمتُ معنى الحديثِ النبويِّ الشريفِ والذي فيهِ ردَّ الرسولُ الكريمُ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ على سؤالِ ذلكَ الصحابيِّ "مَنْ أحقُّ الناسِ بصُحْبَتِيَ يومَ القيامةِ؟!". أجابهُ النبيُّ الكريمُ: أمُّكَ ثُمَّ أمُّكَ ثُمَّ أمُّكَ .... ثُمَّ أبوكَ ... الآنَ! فهمتُ معنى الأمْرِ الإلهيِّ في الآيةِ الكريمةِ: "فلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ". كانَ مُدَرّسو التربيةِ الدينيةِ الحنيفةِ واللغةِ العربيَّةِ المَجيدةِ لا يعيرونَ اهتماماً للتفاصيلِ؛ المهمُّ أنْ يَحفظَ التلميذُ النصَّ، والبقيّةُ تأتي مع الزمنِ!. أخشى الآنَ على نفسِيَ بعدَ أنْ خسرتُ معظمَ الدنيا وحياةَ الهدوءِ والسّكينةِ والطمأنينةِ فيها أنْ أخسرَ الآخرةَ وجنّتَها الموعودةَ، لا سَمَحَ اللهُ. الآنَ! يا أمَّهاتِنا أعرفُ معنى الحديثِ الشريفِ الذي يقولُ: "الجنّةُ تَحْتَ أقدامِ الأمهاتِ"؛ جهازُ التعليمِ في بلدِيَ لَمْ يوردْ مثلاً واحداً حيّاً، أو حتى ميّتاً، ليعرفَ الشابُّ الصّغيرُ والكبيرُ المتعلّمُ عن ماذا يتكلّمُ الحديثُ!؟. أصبحَ وأضحى وأمسى وباتَ الشغلُ الشاغلُ لِجهازِ التعليمِ في بلدِيَ إنتاجَ تكنوقراطٍ من نوعِ المرتزقةِ الجشعينَ.

السيدُ "شاهِلْ": من كلامِكَ ومعرفتِيَ البسيطةِ بِكَ أستشفُّ أنَّ لديكَ تَجاربَ مريرةً في الحياةِ وأسراراً تُخبّؤها عن غيرِكَ وحتى عنَ أهلِكَ.

الدكتورُ حمد: ما أَوَدُّ قولَهُ وأودِعُ سرَّهُ لِجميعِ من يهمُّهُ الأمرُ، وآملُ أن يصلَ ذلكَ "السرُّ" لأهلِيَ حيثُ لا يزالونَ يواجهونَ هذه المشكلةَ ولَمْ يتمكّنوا من تَجاوزِها بعدُ: {.... منذُ ولادتِيَ وأوائلِ نشأتِيَ كانَ أكثرُ الأسئلةِ تَحييراً وإحراجاً لِيَ، على حدٍّ سواءٍ، هو السؤالُ عن اسْمِيَ وأصْلِيَ، أيْ اسمِ قبيلتِيَ. وعندما كنتُ طفلاً صغيراً علمْتُ من إمامِ مسجدِ القريةِ أنَّ أصْلِيَ وأصولَ أجدادِيَ، كَما بقيّةِ الدّوابِّ الأخرى، تعودُ كلُّها إلى الماءِ. لذلكَ حاولْتُ اقتفاءَ آثارِ أجدادِيَ لأحدِّدَ شجرةَ عائلتِيَ، لكيْ أتَمكّنَ من مواكبةِ المتطلباتِ المُلحّةِ للمُجتمعِ مِن البشرِ من حولِيَ. تَطلّبَ الأمرُ منّيَ أنْ أذهبَ ذهنياً إلى قيعانِ البحارِ والمُحيطاتِ وأُفَتِّشَ في الواحاتِ والسّبخاتِ وأنْ أسائِلَ جَداولَ الماءِ والمستنقعاتِ وحتى ماءَ الأقداحِ التي كنتُ أحاولُ دائماً الارتواءَ منها. وما أنْ تقدَّمَ بِيَ العُمْرُ قليلاً واتسعتْ دائرةُ التّفكيرِ والصّحوةِ والفلسفةِ عندِيَ حتى علمتُ أنّني وأجدادِيَ، مع بقيَّةِ الدّوابِ وغيرِ الدّوابِ، تَمتدُّ جذورُنا إلى ما هو أعمقُ من الماءِ وبكثيرٍ. وجدتُ أنَّ جذورِيَ شديدةُ العُمقِ في تكوينِ الكونِ وبشكلٍ يفوقُ قدرةَ الوصفِ والخيالِ البشريِّ. تعودُ جذورِيَ إلى حتى ما قبلَ عُصورِ "البارْيوناتْ والكوارْكاتْ" وبكثيرٍ!، عصورٌ سادتْ عَقِبَ اللحظةِ الأولى التي تَلَتْ "الانفجارَ الكونيَّ الكبيرَ"، "الأوَرْكْنالْ" (der Urknal) الذي أدّى إلى نشوءِ الكوْنِ كلِّهِ. كنتُ موجوداً قبلَ ذلكَ بزمنٍ كونِيٍّ بل سرمدِيٍّ في ذاكرةِ اللهِ تعالى، في "اللوحِ المَحفوظِ". لا أقبلُ أنْ يكونَ أصْلِيَ أقلَّ عراقةً من ذلكَ؛ ذلكَ لأنّني وبكلِّ تواضُعٍ وُلِدْتُ ورُبِّيْتُ على أنْ أكونَ صاحبَ مَجْدٍ وكبرياءٍ وعظمةٍ، حيّاً في الدنيا وما بعدَ الفناءِ.}

"الحاجّةُ بَهيجَةُ": من يومِ تُخلقونَ يا معشرَ الرجالِ لا تُغَيِّرونَ طباعَكُمْ، تظلّونَ تسرحونَ بِنا وبعقولِنا!. حتّى أنّكَ أخيراً غيَّرتَ اسْمَكَ وأهلَكَ وذهبْتَ إلى قبائلِ "الكارْيوناتْ والقاروطاتْ" (البارْيوناتْ والكوارْكاتْ)!. أين أمُّكَ التي ربَّتْكَ وتَعبَتْ عليكَ وانتظرتْ طويلاً عودتَكَ إليها سالِماً غانِماً!؟؛ لن ينفعَكَ أيٌّ من هؤلاءِ الناسِ الغرباءِ!، هي أمُّكَ أوْلى الناسِ بكَ.

الدّكتورةُ "فَطينَةُ": تلكَ ليستْ قبائلَ يا حاجّةَ "بَهيجَةُ" ... تلكَ بلادٌ وإمبراطورياتٌ! عاشَ فيها أثناءَ دراستهِ الطويلةِ، ووَصَلَ إليها بعدَ كفاحٍ وعُمْرٍ طويليْنِ. يُحاولُ أنْ يعطيَنا نتيجةَ عِلْمِهِ وعَمَلِهِ طوالَ السنينِ في دقائقَ على الأصابعِ معدودةٍ.

الدكتورُ "زُهَيْر": لكن يا صديقِيَ، وبعدَ عُمْرٍ طويلٍ أين تريدُ أنْ تُدفنَ بعدَ موتِكَ ... هنا؟! ... في بلدِكَ؟ ... في قريتِكَ؟ ... على حافّةِ حدودِ الوطنِ؟ ... بداخلِهِ؟!...

الدكتورُ حمد: إذا ما متُّ في غربتِيَ أوصي بنقلِ جثمانِيَ إلى وطنِيَ ودفنِيَ في كَرْمِ الأشجارِ وعلى مقربةٍ من ضَريحِ! رفيقِ دربِيَ الطويلِ وصديقِيَ الحميمِ أبوالزّ هوَ؛ ذلكَ المَخلوقُ الذي قُمْتُ بدفنهِ بيديّ الاثنتيْنِ قبلَ بضعِ سنينٍ من الآنَ. أوصي بدفنِيَ في جوٍّ عائليٍّ بسيطٍ، تَماماً مثْلَ يومِ ولادتِيَ ونَجاحِيَ في المدرسةِ والكلّيةِ ويومَ زواجِيَ وولادةِ أولادِيَ. لا أحبُّ الصَّخَبَ بعدَ موتِيَ، كما لَمْ أكنْ أحبُّهُ في حياتِيَ. أحبُّ أنْ "أنامَ" قريرَ العينِ بعدَ أنْ حُرِمْتُ من هذهِ الميزةِ طوالَ حياتِيَ. وبعدَ كلمةِ "الفاتحةِ" ضعوا على قبرِيَ لوحةً مكتوبٌ عليها: "الذي يرقدُ هنا في رحلةٍ أزليةٍ، فيها يُحاولُ العثورَ على أيِّ شاطئٍ أو ميناءٍ يُبحرُ منهُ إلى منبعِ الزمنِ الأصليِّ. حتى يلاقيَ ذلكَ الشاطئَ أو المرفأَ، يُرجَى عدمُ الإزعاجِ".

الحاجّةُ "بَهيجَة": آخ منكَ ومنِ أمثالِكَ يا حمد ... كما يبدو نشأتَ وتربّيْتَ على أنْ تسرحَ بالناسِ وعقولِهِمْ شَمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. تستعملُ آياتٍ من القرآنِ الكريم وأقوالاً من الحديثِ الشريفِ وحتى أبياتاً شعريّةً من محمود درويش وعبدالعزيز المقالِحْ منغّمةً من مارسيل خليفة وتذهبُ إلى قبائلِ "الكارْيوناتْ والقاروطاتْ"!. تريدُ أنْ تلعبَ بعقولِنا وأحاسيسِنا وعقولِ وأحاسيس من يُصَدِّقُ كلامَكَ مثلَما تلعبُ بكرةِ القدمِ!. وها أنت مثلَما في حياتِكَ تريدُ أنْ تتركَ أهلَكَ لترقدَ في قبْرٍ، قريباً من مقام صديقِكَ أبوالزهو وبعيداً عن مقاماتِ أهلِكَ!. تتركُهُمْ وتفضِّلُ أبوالزهو عليْهِمْ، كما لو كانَ أبوالزهو توأمَ روحِكَ بلْ صِنْواً لكَ. يا خسارةً على الحليبِ والأكْلِ وسَهَرِ الليالي وتعبِ الأيام من أهلِكَ فيكَ. ثُمَّ إنَّ هؤلاءِ أولادَكَ من أينَ لِأهلِكَ أنْ يَحصلوا على رؤيَتِهِمْ؟!. هلْ بقيَ في جسمِ والدتِكَ طاقةٌ أو عزمٌ حتى تطاردَ وراءَهُمْ في هذا العالَم الواسع!.

الدكتورُ حمد: بالنسبةِ للأولادِ يا حاجّةْ "بَهيجَة" لا تقلقي!. لقد أسعدَني اللهُ سبحانَهُ وتعالى بأحدِ مصادرِ السعادةِ الحقيقيةِ القليلةِ في الحياةِ؛ زوجَتِيَ "فَطينة ... أم جاسر!" من نوعِ "العُرْبِ" وهي تعرفُ معنى الإنسانيةِ والأمومةِ وحبِّ الأجدادِ لأحفادِهِمْ؛ هي على استعدادٍ للتضحيةِ بالكثيرِ من أجلِ إسعادِ زوجِها والأهلِ وتلبيةِ احتياجاتِهِمْ وطموحاتِهِمْ.

الحاجّةُ "بَهيجَة": وهذا أبوالزهو! ... متى تتركُهُ في حالِهِ!؟ ... وتعودُ إليهِمْ!.

الدكتورُ "مسعود": بصراحةٍ! لا أكادُ أفهمُ شيئاً مِمّا يَجري هنا من الحديثِ ولا عندَ أهلِكَ في الأوطانِ البعيدةِ!. هل كلُّ هذا الصّراعِ الاجتماعيِّ والفكريِّ والمعنويِّ والفلسفيِّ والثقافيِّ المُحتدم من نواتج صُلبِ "الشَيْخْ" أبو جاسر وحدَهُ؟!. بالذاتِ من هو هذا الذي يُدْعى أبوالزهو؟!، هل هو فيلسوفُ العَصْرِ أَمْ المربّي الفاضلُ أَمْ المعلّمُ الناجحُ أَمْ المُرشدُ الفكريُّ العظيمُ لكَ، أَمْ أحدُ كبارِ المفكّرينَ العقلانيينَ "البراغماتيينَ" في هذا العالَمِ؟!.

الدكتورُ حمد: كلُّ ما ذُكِرَ أعلاهُ وأكثرُ!.

Contents

مقدِّمةٌ ... ٦
ميلادُ وطفولةٌ وصبا وبدايةُ شبابٍ ... ٧
"حَمَدْ ابن أبو جاسر" ... ٧
أحداثٌ أخرى من ذاكرةِ مدرسةِ القريةِ ... ١٢
ميلادُ "أبوالزهو" ... ١٦
أوَّلُ دمٍ ... ١٩
كلابٌ ضائعةٌ ... ٢٤
فعلٌ ضِدَّ الإرادةِ ... ٢٧
بلوغُ سنِّ العملِ ... والفلسفةِ ... ٣١
مرافقُ المدينةِ ... ٣٤
طبقةُ "القومبرادورِ" ... ٣٧
تلبيةُ دعوةٍ ... ٤٢
مع طبيبِ الأسنانِ ... ٤٥
نائبٌ عن المنطقةِ ... ٤٨
تنظيرٌ وتعليمٌ ... ٥١
أقاربُ "بول فولتير" و"جان جاك روسّو" ... ٥٣
الفريكةُ ... ٥٩
عصبيةٌ قبليةٌ و"تاي-كوان-دو" ... ٦٢
كابوسُ ليلةِ صيفٍ ... ٦٥
المظاهراتُ ضدَّ الحكومةِ ... ٦٨
اختراقُ الحصارِ وحظْرِ التِّجوالِ ... ٧٢
غارةٌ جويةٌ رمزيةٌ ... ٧٧
مع القاضي في المَحكمةِ ... ٨١
احترافُ الفنِّ والطربِ ... ٨٤
مأساةُ جاسر أبو جاسر ... ٨٧
البِاباكا ... ٩٣
الوضعُ قبلَ الحربِ ... ٩٧
وقعتْ الحربُ وانتهتْ ولَمّا تبدأْ ... ١٠٢
تَحْتَ الاحتلالِ المعادي ... ١٠٥
الطريقُ إلى الجامعةِ العربيةِ ... ١٠٨
خَلْفَ أسْوارِ الكلّيةِ الخاصّةِ ... ١١٤
حربُ استنزافٍ طويلةٌ ... ١١٧
الغِنى غنى العقلِ لا المالِ ... ١٢٣
هجرةٌ ورحيلٌ ... ١٢٧
انعدامُ النسلِ ... ١٣٢
حربٌ جديدةٌ... أهليةٌ ... ١٣٧
وفاةُ قائدٍ كبيرٍ ... ١٤٠

حربٌ جديدةٌ في شبهِ القارّةِ ١٤٤
تلفيقُ تُهمةٍ ١٤٧
التدخينُ والشربُ ١٥٣
استفحالُ مشكلةٍ ١٥٧
امتحانٌ نِهائيٌّ ١٦١
خلوةٌ مع أبوالزهو ١٦٥
مِنَ المدرسةِ إلى الجامعةِ ١٧١
مريضٌ وطبيبٌ ١٧٥
قبولٌ في جامعةٍ ١٧٩
حمد في جامعةِ "البايْروطاطْ" ١٨٣
تدريسٌ عاقرٌ ١٨٨
حساباتُ الحقلِ والبيدرِ ١٩٤
نصرٌ وهزيمةٌ ٢٠٣
سنةٌ جامعيةٌ ثانيةٌ أو أولى تَخصّصٌ ٢٠٦
(لستُمْ بفيزيائيّينَ جيّدينَ) ٢٠٦
الدكتورُ "بَولاكْ" ٢١١
مقابلةٌ مع الدكتورِ "صُفْصَف" ٢١٥
انتهاءُ السّنةِ الدراسيةِ الثانيةِ ٢٢٠
أنا اللغةُ العربيةُ الفصحى ٢٢٤
صيفٌ ثانٍ في الجامعةِ ٢٣١
الدكتورُ "براهما" ٢٣٥
انتهاءُ السّنةِ الجامعيةِ الثالثةِ (تقييمٌ) ٢٤٠
يا "شايف" المنظرِ يا خائبَ الرجاءِ ٢٤٣
عصرُ الهجرةِ إلى الشمالِ والغربِ ٢٤٦
الدكتورُ "حبيب" ٢٥٠
"للدكاترةِ فقط" ٢٥٣
عودةٌ متأخّرةٌ إلى قليلٍ من الرُّشدِ ٢٥٩
حفلُ تَخريجِ دفعةٍ جامعيةٍ جديدةٍ ٢٦٢
حاملٌ لشهادةِ البكالوريوسِ ٢٦٥
حمد المُعَلِّمُ ٢٦٨
اختلافاتٌ في الرأيِ ٢٧٢
لا "نورةَ" ولا "نُوّارةَ" ٢٧٤
إذا ما أردتَ أن تُخلقَ من جديدٍ عليكَ أنْ تَموتَ أوّلاً ٢٧٨
(حكمةٌ من أهلِ الإنْجيلِ المقدّسِ) ٢٧٨
الدكتورُ "بقّار" ٢٨٢
السّيدُ "عبدالسّميع" ٢٨٥
خَبَرٌ غيْرُ سارٍّ (قرارُ فصلِ حمد من الجامعةِ) ٢٩٠
جامعةٌ ودولةٌ وحياةٌ وثقافةٌ جديداتٌ ٢٩٧
مُحاولةٌ للاسترخاءِ والراحةِ ٣٠٠
جامعةُ "القليوبيا" ٣٠٣
طائفيةٌ حَمقاءُ طامّةٌ ٣٠٨

صيفٌ وامتحانُ قبولٍ للبدءِ بأُطروحةِ الماجستيرِ ٣١٢
سنةٌ ثانيةٌ في الماجستيرِ ٣١٥
استمرارُ حالةِ النّحْسِ........................ ٣١٩
لا علْمَ ولا عملَ ٣٢٢
جامعةُ "الباطقانيّة"........................ ٣٢٦
من يومياتِ جامعةِ "الباطقانيّة" ٣٣٢
حربٌ جديدةٌ وأيامٌ يشيبُ لَها الليلُ........................ ٣٣٥
لا تَجديدَ للتعاقدِ السّنويِّ........................ ٣٤٠
قصةُ بَقَرَةٍ وعائلةٍ........................ ٣٤٣
زيارةٌ أجنبيةٌ........................ ٣٤٦
العملُ في "جامعةِ الحكماءِ" ٣٥٣
من يوميّاتِ "جامعةِ الحكماءِ" ٣٥٨
ضياعُ لغةٍ أَمْ ضَياعُ أمَّةٍ ٣٦٤
التعسّفُ ضدَّ الحميرِ........................ ٣٦٩
الإنسانُ والبيئةُ ٣٧٥
بعثةٌ دراسيةٌ ٣٨١
أوَّلُ الغربةِ السّفرُ ٣٨٥
مقابلةٌ مع المشرفِ الأكاديميِّ........................ ٣٨٩
غربةُ حمد في سطورٍ ٣٩٥
لستُ من قبائلِ "الجوجواه" ٤٠٣
لا معنىً للضياعِ غيرَ الضياعِ ٤٠٧
تَحْتَ إشرافِ الدكتورِ "فالكُنْ" ٤٠٩
أبوالزهو العَجوزُ ٤١٧
حربٌ خاطفةٌ ٤١٩
شركاءُ في المصيرِ........................ ٤٢٣
آثارُ الحروبِ ٤٢٧
الخصخصةُ تَجسيدٌ لِشريعةِ الغابِ ٤٣٣
احتكارُ استغلالِ العناوينِ الكبيرةِ........................ ٤٣٧
الدراسةُ والبحثُ مُستمرّانِ ٤٤٢
الجارُ قبلَ الدّارِ........................ ٤٤٧
أحْلى المرِّ "أبو عَلْقَمَة" ٤٥٢
إلى مسقطِ الرأسِ ٤٥٨
جَمالٌ ومستحضراتُ تَجميلٍ ٤٦٣
في بيتِنا قَسْوَرَةٌ........................ ٤٦٧
التعليمُ العالي ٤٧٣
خيرُ "واسطةٍ" عندَ الدكتورِ حمد........................ ٤٧٨
رمزٌ وطنيٌّ رخيصٌ وفيلسوفٌ منبوذٌ........................ ٤٨٣
ابنُ عاشِقِ الأرضِ فلّاحٌ........................ ٤٨٩
فيالقُ أبو رغالٍ........................ ٤٩٣
الشبكةُ الدوليةُ للمعلوماتِ (العنكبوتُ أو الإنترنت) ٤٩٩
وفاةُ أبوالزهو العظيمِ........................ ٥٠٣

من ضياعٍ إلى ضياعٍ... ٥٠٨